موسوعة المملكة العربية السعودية
Encyclopedia of Saudi Arabia

المجلّد الرّابع

منطقة المدينة المنورة

(١)

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

ⓒ مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٤٢٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مجموعة مؤلفين
موسوعة المملكة العربية السعودية ./منطقة المدينة المنورة: الجزء الأول/
مجموعة مؤلفين .- الرياض ، ١٤٢٨هـ .
٢٠ مج .
ردمك : ٨ - ٦٣ - ٧٠٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨ (مجموعة)
٦ - ٦٧ - ٧٠٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨ (ج ٤)

١- السعودية - موسوعات
ديوي ٩٥٣,١٠٠٣

أ . العنوان
١٤٢٨/٧٩٩٩

رقم الإيداع : ١٤٢٨/٧٩٩٩
ردمك : ٨ - ٦٣ - ٧٠٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨ (مجموعة)
٦ - ٦٧ - ٧٠٨ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨ (ج ٤)

حقوق النشر والتوزيع محفوظة لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض
المملكة العربية السعودية
ص ب ٨٦٤٨٦ الرياض ١١٦٢٢
هاتف: ٩٦٦١٤٩١٩٢٦٥ + فاكس: ٩٦٦١٤٩١٩٣٣٧ +
الموقع الإلكتروني: www.kapl.org.sa

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز إعادة نشر أي جزء من هذا المجلد، أو تخزينه أو تضمينه في جهاز للاسترجاع، أو نقله بأي صورة أو وسيلة، دون موافقة مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض.


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير..

تتقدم مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض، ومنسوبوها كافة، بخالص الشكر والتقدير لصاحب السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن ماجد بن عبدالعزيز آل سعود، أمير منطقة المدينة المنورة على دعمه وتشجيعه لإنجاز «موسوعة المملكة العربية السعودية»، وعلى توجيهاته الكريمة للمحافظات والمراكز والمؤسسات الحكومية والأهلية بالمنطقة؛ مما كان له أثر واضح في تسهيل مهمة فرق العمل من باحثين وجامعي معلومات ومصورين وغيرهم؛ لإخراج مجلدي «منطقة المدينة المنورة» بالصورة اللائقة.

والشكر كذلك موصول لأهالي منطقة المدينة المنورة ومثقفيها، وللمؤسسات الحكومية والأهلية كافة، على تقديم العون والمساعدة لمنسوبي الموسوعة.

تنويه..

إنّ ما يرد في مجلدات «موسوعة المملكة العربية السعودية»، من آراء وتعليقات خاصة، وما تتضمنه من جوانب الاقتباس والتوثيق، تبقى مسؤولية المستكتبين أنفسهم، ولا تتحمل مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض أي تبعات لذلك.

وتلفت المكتبة انتباه الإخوة الباحثين والمهتمين والمتخصصين وأصحاب الرأي والفكر إلى أنَّ ما يرد في مجلدات الموسوعة من معلومات وبيانات وخرائط ورسوم وإحصاءات وصور وغير ذلك يمثل الطبعة الأولى، وتأمل المكتبة من الجميع تزويدها بالمقترحات والملحوظات والتصويبات، إن وجدت، لاستكمال النقص، وتدارك الخطأ في الطبعات القادمة بإذن الله تعالى.

الإشراف العام

الأستاذ فيصل بن عبدالرحمن بن معمّر

المشرف العام على المكتبة

المشرف العام على الموسوعة

الدكتور عبدالكريم بن عبدالرحمن الزيد

نائب المشرف العام على المكتبة

الدكتور فهد بن سلطان السلطان

المدير التنفيذي

رئيس لجنة الإشراف

لجنة الإشراف

د. ناصر بن محمد المهيزع

د. جبريل بن حسن العريشي

د. سلطان بن أحمد الثقفي

د. عبدالرحمن بن عبدالله الأحمري

د . محمد بن عائل الذيبي

أ. محمد بن يحيى الفيفي

أعضاء الهيئة الاستشارية*

أ.د. أسعد بن سليمان عبده
عضو مجلس الشورى سابقاً

أ.د. خالد بن عبدالرحمن الحمودي
مدير جامعة القصيم

أ.د. سعد بن عبدالعزيز الراشد
مستشار الأمين العام للآثار والمتاحف بالهيئة العامة للسياحة والآثار

أ.د. سعد بن عبدالله البرّاك
وكيل جامعة الملك فيصل للدراسات العليا والبحث العلمي سابقاً

أ.د. سعيد بن محمد المليص
عضو مجلس الشورى

د. عبدالرحمن بن صالح الشبيلي
عضو مجلس الشورى سابقًا

أ.د. عبدالرحمن الطيب الأنصاري
عضو مجلس الشورى سابقًا

أ.د. عبدالعزيز بن محمد السبيّل
وكيل وزارة الثقافة والإعلام للشؤون الثقافية

أ.د. عبدالله بن صالح العبيد
وزير التربية والتعليم سابقاً

د. عطية بن عطية الله المزيني
عميد شؤون المكتبات بالجامعة الإسلامية سابقاً

أ.د. علي بن إبراهيم الغبّان
نائب الأمين العام للآثار والمتاحف بالهيئة العامة للسياحة والآثار

أ.د. فهد بن عبدالله السماري
أمين عام دارة الملك عبدالعزيز

د. فهد بن عبدالله المبارك
عضو مجلس الشورى سابقًا

د. محمد بن عبدالرحمن الربيّع
وكيل جامعةالإمام محمد بن سعود الإسلامية للدراسات العليا والبحث العلمي سابقاً

أ.د. محمد بن علي آل هيازع
مدير جامعة جازان

أ.د. محمد بن عمر بدير
مدير جامعة الجوف

أ.د. مصطفى بن محمد الحسن الإدريسي
وكيل جامعة الملك عبدالعزيز للدراسات العليا والبحث العلمي سابقاً

أ.د. ناصر بن عبدالله الصالح
مدير جامعة أم القرى سابقًا

* رتبت الأسماء ألفبائيًا

الجهاز الإداري والمالي والفني

أ. فهد بن عبدالكريم العبدالكريم
المستشار الإداري

عبدالله بن سليمان العيد
متابعة التحكيم العلمي والشؤون المالية

حسين بن فايز الشهراني
مسؤول الشؤون الإدارية

سالم بن عبدالرزاق الثويني

عبدالعزيز بن ناصر الشويعر
السكرتارية

عيد بن صالح الحربي
الاتصالات الإدارية

الخرائط

- خرائط الأساس (هيئة المساحة الجيولوجية)
- اعتماد الخرائط ومراجعتها (الإدارة العامة للمساحة العسكرية)

متابعة أعمال الخرائط التوضيحية ومراجعتها

مفرّح بن ضايم القرادي

متابعة أعمال التصوير الفوتوغرافي ومكتبة الموسوعة

خالد بن عبدالله العمرو
رئيس الفريق

عبدالله بن سعد الخنين

تركي بن قاسم القاسم

التصوير الفوتوغرافي

أ. حمد بن محمد العبدلي

مرشدو فرق التصوير

المهندس خليل بن عبدالعزيز الحجيلي

د. خالد بن محمد أسكوبي

أ. عبدالرحمن بن محمد الخربوش

أ. مطلق بن سليمان المطلق

أ. حسين بن علي القناوي

فريق التحرير والتدقيق اللغوي والنسخ

حسين بن محمد الحسن
رئيس الفريق

وحدة التحرير والتدقيق اللغوي

رائد عبدالكريم بني إسماعيل
حمادة عبيد أحمد إبراهيم
أحمد محمد فرغلي نظير
حسان طارق الحسن
أسامة علي أحمد
حميد محمد الأحمد
محمد رجب رضوان
أحمد إسماعيل عزو
محمد عوض عبدالرحمن
حيدر حاج نور محمد
محمد خالد النقشبندي
أسامة عبدالمنعم الزيني
ذياب طالب الإبراهيم
الناجي عبدالله الشيخ
غازي توفيق حافظ
عمار أحمد الأحمد
عبد الوهاب طه محمد
عمر سالم زائري
خالد عبدالعال عبدالعال
محمد محمود علي

وحدة النسخ

محمود محمد محمد ناجي «رحمه الله»
النذير أحمد عبدالله
محمد أحمد عبدالحفيظ
جمال أحمد محمد أبو دسوقي
طه محمد علي
الصادق جلال الدين
محمد محمود السيد جروين
عبد المجيد عمر محمد
عوض محمد الحسن
عبدالله بن عيسى الحربي
حسين محمد خير

رؤساء اللجان العلمية والمستكتبون ومحكمو المواد العلمية

الباب الأول

الخصائص الجغرافية

رئيس اللجنة العلمية

أ.د. رشود بن محمد الخرّيف
أستاذ جغرافيا السكان بجامعة الملك سعود

المستكتبون

د. عبدالله بن سالم الزهراني
أستاذ الجغرافيا الاقتصادية المساعد بجامعة الملك سعود

د. معراج بن نواب مرزا
أستاذ الجغرافيا الطبيعية المشارك بجامعة أم القرى

د. فايدة بنت كامل بوقري
أستاذ الجغرافيا المناخية المساعد بجامعة الملك عبدالعزيز

أ.د. عبدالله بن أحمد الطاهر
أستاذ الجغرافيا الحيوية والتربة بجامعة الملك سعود

أ.د. محمد بن عبدالله الصالح
أستاذ جغرافيا المياه بجامعة الملك سعود

أ.د. محمد شوقي بن إبراهيم مكي
أستاذ جغرافيا العمران بجامعة الملك سعود

التحكيم العلمي

د. فوزان بن عبدالرحمن الفوزان
أستاذ الموارد المائية والتنمية الزراعيّة المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الباب الثاني

التطور التاريخي

رئيس اللجنة العلمية

أ.د. محمد بن سليمان الخضيري
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المستكتبون

أ.د. سعيد بن فايز السعيد
أستاذ اللغات والحضارات القديمة بجامعة الملك سعود

د. محمد بن علي عسيري
أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

د. عويضة بن متيريك الجهني
أستاذ التاريخ المشارك بجامعة الملك سعود

التحكيم العلمي

أ.د. عمر بن صالح العُمري
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

أ.د. إبراهيم بن محمد المزيني
أستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

د. حميد بن إبراهيم المزروع
أستاذ علم الآثار القديمة المشارك بجامعة الملك سعود

الباب الثالث

الآثار والمواقع التاريخية

رئيس اللجنة العلمية

أ. د. عبدالعزيز بن سعود الغزّي
أستاذ علم الآثار القديمة بجامعة الملك سعود

المستكتبون

د. مشلح بن كميخ المريخي
أستاذ علم الآثار الإسلامية المشارك بجامعة الملك سعود

أ.د. سعيد بن فايز السعيد
أستاذ اللغات والحضارات القديمة بجامعة الملك سعود

التحكيم العلمي

أ.د. عادل بن محمد نور غباشي
أستاذ علم الآثار والحضارة الإسلامية بجامعة أم القرى

د. سامر بن أحمد سحله
أستاذ آثار الشرق الأدنى المساعد بجامعة الملك سعود

الباب الرابع

الأنماط الاجتماعية والعادات والتقاليد

رئيس اللجنة العلمية

أ.د. عبدالله بن عبدالعزيز اليوسف

أستاذ علم الاجتماع بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المستكتب

د. عبدالعزيز بن حمود الشثري

أستاذ علم الاجتماع المشارك بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

التحكيم العلمي

أ.د. أبو بكر بن أحمد باقادر

أستاذ علم الاجتماع، وكيل وزارة الثقافة والإعلام للعلاقات الثقافية الدولية

أ.د. إبراهيم بن مبارك الجوير

أستاذ علم الاجتماع بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

فهرس

الباب الأول
الخصائص الجغرافية ١ - ١٦٠

الفصل الأول
الموقع والمساحة ونطاق الإشراف الإداري ٣ - ١٥

أولاً الموقع والمساحة ٥
ثانياً الإشراف الإداري ٥
ثالثاً مجلس المنطقة ٦
رابعاً محافظات المنطقة ومراكزها الإدارية ٧

الفصل الثاني
الجيولوجيا ١٧ - ٢٦

أولاً الصخور المتطبقة ١٢
ثانياً الصخور الاندفاعية الباطنية ١٢
ثالثاً أحزمة صخور تكوين الأفيوليت ١٢
رابعاً مجموعات الصخور الرسوبية ٢٢
خامساً الصخور البركانية الثلاثية والحديثة ٢٢
سادساً التراكيب الصدعية ٢٥

الفصل الثالث
التضاريس ٢٧ - ٥٠

أولاً المرتفعات ٩٢
ثانياً تضاريس الحرات ٢٣
ثالثاً الأودية (شبكات التصريف المائي) ٦٣
رابعاً السهول ١٤
خامساً الأشكال الرملية ٤٨

الفصل الرابع
المُناخ ٥١ - ٦٨

أولاً العوامل المؤثرة في المناخ ٥٣
ثانياً عناصر المناخ ٥٥

الفصل الخامس

التربة ٦٩ - ٩٣

أولاً عوامل تكوين التربة وعملياته ٧٢
ثانياً تصنيف الترب ٧٨
ثالثاً خصائص ترب الأراضي الزراعية ٨٩
رابعاً مشكلات ترب الأراضي الزراعية ٩٠

الفصل السادس

موارد المياه ٩٥ - ١١٨

أولاً مياه السيول ٩٧
ثانياً المياه الجوفية قليلة العمق (الضحلة) ١٠٠
ثالثاً المياه الجوفية العميقة ١٠٦
رابعاً العيون الطبيعية ١٠٧
خامساً العيون غير الطبيعية (الصناعية) ١٠٩
سادساً تغذية المياه الجوفية ١١٣
سابعاً تحلية المياه المالحة ١١٧
ثامناً إعادة استخدام المياه ١١٨

الفصل السابع

السكان ١١٩ - ١٤٧

أولاً نمو السكان ١٢١
ثانياً عناصر النمو السكاني ١٢٤
ثالثاً التوزيع الجغرافي ١٣٠
رابعاً التركيب السكاني ١٣٣

الفصل الثامن

العمران ١٤٩ - ١٦٠

أولاً مراكز العمران الريفية ١٥١
ثانياً التوزيع الحجمي للمراكز العمرانية الريفية ١٥٣
ثالثاً مراكز العمران الحضرية والتركيب الحجمي لها ١٥٣

الباب الثاني

التطور التاريخي ١٦١ - ٣٢٦

الفصل الأول

عصور ما قبل الإسلام ١٦٥ - ١٩٧

أولاً بدايات الاستيطان ١٦٧

ثانياً مملكة دادان (العلا) ١٧٠

ثالثاً التوسع البابلي ١٧٤

رابعاً مملكة لحيان ١٧٦

خامساً الوجود المعيني في دادان (العلا) ١٨٤

سادساً مملكة الأنباط ١٨٦

سابعاً يثرب (المدينة المنورة) ١٩١

الفصل الثاني

العصر الإسلامي ١٩٩ - ٢٥٢

أولاً العهد النبوي ١ - ١١هـ/٦٢٢ - ٦٣٢م ٢٠١

ثانياً العهد الراشدي ١١ - ٤١هـ/٦٣٢ - ٦٦١م ٢١٤

ثالثاً العهد الأموي ٤١ - ١٣٢هـ/٦٦١ - ٧٥٠م ٢٢٠

رابعاً العهد العباسي ١٣٢ - ٦٥٦هـ/٧٥٠ - ١٢٥٨م ٢٣٢

خامساً العهد المملوكي ٦٥٦ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٨ - ١٥١٧م ٢٤٥

الفصل الثالث

العصر الحديث ٢٥٣ - ٣٢٦

أولاً العهد العثماني الأول ٩٢٣ - ١٢٢٠هـ /١٥١٧ - ١٨٠٥م ٢٥٥

ثانياً عهد الدولة السعودية الأولى ١٢٢٠ - ١٢٢٧هـ /١٨٠٥ - ١٨١٢م ٢٨٥

ثالثاً حكم محمد علي١٢٢٧ - ١٢٥٦هـ /١٨١٢ - ١٨٤٠م ٢٩٢

رابعاً العهد العثماني الثاني ١٢٥٦ - ١٣٣٤هـ /١٨٤٠ - ١٩١٦م ٣٠٣

خامساً حكم الشريف حسين بن علي ١٣٣٧ - ١٣٤٤هـ /١٩١٩ - ١٩٢٥م ٣١١

سادساً المملكة العربية السعودية ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥م ٣١٣

الباب الثالث

الآثار والمواقع التاريخية ٣٢٧ - ٤٢٠

الفصل الأول

آثار العصور الحجرية وآثار ما قبل الإسلام ٣٣١ - ٣٤٦

أولاً آثار العصر الحجري القديم ٣٣٣
ثانياً آثار العصر الحجري الوسيط ٣٣٣
ثالثاً آثار العصر الحجري الحديث ٣٣٣
رابعاً الرسوم الصخرية للعصور الحجرية ٣٣٣
خامساً آثار واحة العلا ٣٣٤
سادساً الرسوم الصخرية لآثار ما قبل الإسلام ٣٤٢
سابعاً النقوش ٣٤٤

الفصل الثاني

آثار العصور الإسلامية ٣٤٧ - ٤١١

أولاً الآثار الثابتة ٣٥٠
ثانياً الآثار المنقولة ٣٧٣
ثالثاً المواقع الأثرية ٣٧٦

الفصل الثالث

المتاحف ٤١٣ - ٤١٩

أولاً المتاحف الحكومية ٤١٥
ثانياً المتاحف الأهلية ٤١٧

الباب الرابع

الأنماط الاجتماعية والعادات والتقاليد ٤٢١ - ٦١٤

الفصل الأول

المساكن ومواد البناء ٤٢٥ - ٤٤٧

أولاً مساكن المدن ٤٢٧
ثانياً بناء المساكن والمواد المستخدمة ٤٣٠
ثالثاً الوصف الداخلي للمسكن ٤٣٣
رابعاً الأثاث والفرش ٤٣٦
خامساً مساكن القرى ٤٤١
سادساً مساكن البادية ٤٤٣
سابعاً مظاهر الثبات والتغير ٤٤٥

الفصل الثاني

الملابس وأدوات الزينة ٤٤٩ - ٤٧٥

أولاً ملابس الرجال والصبيان ٤٥١
ثانياً ملابس النساء والفتيات ٤٥٧
ثالثاً أدوات الزينة للذكور ٤٦٤
رابعاً الحلي وأدوات الزينة للنساء ٤٦٦
خامساً مظاهر الثبات والتغير ٤٧٤

الفصل الثالث

المهن والحرف ٤٧٧ - ٥٠٨

أولاً المهن والحِرف في الحاضرة ٤٨٠
ثانياً المهن والحرف في القرى والبادية ٥٠٢
ثالثاً مظاهر الثبات والتغير ٥٠٧

الفصل الرابع

المأكولات الشعبية ٥٠٩ - ٥٢٩

أولاً المأكولات والمشروبات الشعبية ٥١١
ثانياً طعام المناسبات ٥٢٢
ثالثاً عادات تقديم الطعام والضيافة ٥٢٥
رابعاً مظاهر الثبات والتغير ٥٢٨

الفصل الخامس
العلاج الشعبي ٥٣١ - ٥٤٢
أولاً بعض أنماط العلاج الشعبي ٥٣٣
ثانياً المعتقدات الشعبية في العين والسحر والجن والتداوي بالقرآن الكريم ٥٣٩
ثالثاً مظاهر الثبات والتغير ٥٤٢
الفصل السادس
الأمثال الشعبية ٥٤٣ - ٥٥٥
أولاً بعض الأمثال الشعبية ٥٤٥
ثانياً مظاهر الثبات والتغير ٥٥٥
الفصل السابع
الرقصات والأهازيج الشعبية ٥٥٧ - ٥٦٨
أولاً بعض الرقصات والأهازيج الشعبية ٥٥٩
ثانياً مظاهر الثبات والتغير ٥٦٨
الفصل الثامن
الألعاب الشعبية ٥٦٩ - ٥٨٢
أولاً الألعاب البدنية ٥٧١
ثانياً الألعاب الذهنية ٥٧٩
ثالثاً ألعاب الفتيات ٥٨١
رابعاً مظاهر الثبات والتغير ٥٨٢
الفصل التاسع
الاحتفال بالمناسبات الاجتماعية ٥٨٣ - ٦٠١
أولاً الزواج ٥٨٥
ثانياً الاحتفال بالمولود ٥٩٣
ثالثاً الختان ٥٩٥
رابعاً العزاء ٥٩٦
خامساً الاحتفاء بالمناسبات الدينية ٥٩٧
سادساً مظاهر الثبات والتغير ٦٠١

الفصل العاشر

أساليب التعليم التقليدية ٦٠٣ - ٦١٣

أولاً نمط التعليم السائد ٦٠٥

ثانياً الأدوات المستخدمة في التعليم ٦١٠

ثالثاً المعلمون والمشايخ ٦١١

رابعاً العادات المرتبطة بختم القرآن الكريم أو جزء منه ٦١٢

خامساً مظاهر الثبات التغير ٦١٣

المصادر والمراجع ٦١٥ - ٦٣٦

الباب الأول

الخصائص الجغرافية ٦١٧ - ٦٢٠

أولاً الكتب ٦١٧
ثانياً الرسائل العلمية ٦١٩
ثالثاً الدوريات والصحف والتقارير ٦١٩
رابعاً المواقع الإلكترونية ٦١٩
خامساً المراجع الأجنبية ٦١٩

الباب الثاني

التطور التاريخي ٦٢١ - ٦٢٩

أولاً الكتب ٦٢١
ثانياً الرسائل العلمية ٦٢٧
ثالثاً الدوريات والصحف والتقارير ٦٢٧
رابعاً المراجع الأجنبية ٦٢٨

الباب الثالث

الآثار والمواقع التاريخية ٦٣٠ - ٦٣٥

أولاً الكتب ٦٣٠
ثانياً الرسائل العلمية ٦٣٣
ثالثاً الدوريات والصحف والتقارير ٦٣٣
رابعاً المراجع الأجنبية ٦٣٤

الباب الرابع

العادات والتقاليد الاجتماعية ٦٣٦

أولاً الكتب ٦٣٦

الباب الأول

الخصائص الجغرافية

الفصل الأول

الموقع والمساحة ونطاق الإشراف الإداري

أولاً الموقع والمساحة

ثانياً الإشراف الإداري

ثالثاً مجلس المنطقة

رابعاً محافظات المنطقة ومراكزها الإدارية

إعداد

الدكتور عبدالله بن سالم الزهراني

أستاذ الجغرافيا الاقتصادية المساعد

أولاً ـ الموقع والمساحة:

تقع منطقة المدينة المنورة في الجزء الغربي من المملكة العربية السعودية. وتمتد بين دائرتي عرض ٣٠ َ ٢٢ ْ و٣٠ َ ٢٧ ْ شمالاً تقريباً، وبين خطي طول ٠٠ َ ٣٧ ْ و٠٠ َ ٤٢ ْ شرقاً تقريباً. وتطل منطقة المدينة المنورة على البحر الأحمر من خلال محافظتي بدر وينبع. ويصل أقصى امتداد لها باتجاه شمالي ـ جنوبي نحو ٥٠٠ كم، في حين يصل أقصى امتداد لها شرقاً ـ غرباً قرابة ٣٠٠ كم، (خريطة ١). وهي بهذا الامتداد الكبير تغطي مساحة تصل إلى حوالي ١٤٦٦٦٩ كم٢ تقريباً(*). وبناء عليه تأتي في المرتبة الثالثة بين مناطق المملكة من حيث المساحة.

ثانياً ـ الإشراف الإداري:

يغطي الإشراف الإداري لمنطقة المدينة المنورة مساحةً كبيرةً، ويتضح ذلك من خلال امتداد حدودها الإدارية ومساحتها؛ إذ تحد المدينة المنورة من الجانب الشرقي محافظة تيماء التابعة إدارياً لمنطقة تبوك، ومحافظة الغزالة التابعة إدارياً لمنطقة حائل، بالإضافة إلى جزء من النطاق الإداري التابع إدارياً لمدينة حائل مقر إمارة منطقة حائل. كما تحدها أيضاً من الشرق محافظة الرس التابعة إدارياً لمنطقة القصيم، وكذلك جزء من النطاق الإداري التابع لمدينة بريدة، مقر إمارة منطقة القصيم، ومحافظة عفيف التابعة إدارياً لمنطقة الرياض. ويحدها من الغرب البحر الأحمر ومحافظات أملج والوجه وضبا، وتتبع جميعها إدارياً منطقة تبوك وجزءاً من النطاق الإداري التابع لمدينة تبوك (مقر إمارة منطقة تبوك).



خريطة ١: موقع منطقة المدينة المنورة ضمن مناطق المملكة العربية السعودية الإدارية



إمارة منطقة المدينة المنورة

وتحدها من الشمال محافظة تيماء التابعة إدارياً لمنطقة تبوك.

(*) تمت مراجعتها واعتمادها من قبل الإدارة العامة للمساحة العسكرية.

أما من الجنوب فتحدها كل من محافظات: الطائف وخليص والكامل ورابغ التابعة إدارياً لمنطقة مكة المكرمة، (خريطة ١). إذاً تلتقي منطقة المدينة المنورة من خلال هذه الحدود مع خمس مناطق إدارية من مناطق المملكة هي: الرياض، والقصيم، وحائل، وتبوك، ومكة المكرمة.

إن البيئة الجغرافية لمنطقة المدينة المنورة متنوعة بحكم امتدادها من ساحل البحر الأحمر غرباً، حتى الجزء الغربي من هضبة نجد شرقاً، وهذا يعني وجود سهل ساحلي رملي ضيق جاف يمتد محاذياً لساحل البحر الأحمر، يخترقه عدد من الأودية. إن وجود هذا الساحل أسهم في قيام عدد من المراكز العمرانية، بعضها مطل على البحر الأحمر، وأصبحت له مكانة اقتصادية كما هو الحال بالنسبة إلى مدينة ينبع الصناعية التي تشكل مركزاً صناعياً ومنفذاً بحرياً للصادرات السعودية البترولية والصناعية لعدد من دول العالم. يلي هذا السهل الساحلي منطقة تلالية ضمن نطاق تهامة بها بعض الجبال العالية المنعزلة مثل جبل رضوى. وإلى الشرق عند جبال الحجاز التي يمتد إلى الشرق منها عدد من الحرات، وهي طفوح بركانية أخذت الشكل الهضبي مثل حرة العويرض وحرة خيبر وحرة رهاط وغيرها من الحرات. وتكاد تكون المدينة المنورة في وسط المنطقة وإن كانت تميل إلى الجنوب قليلاً.

إن مدينة المدينة المنورة التي تشكل المقر الإداري للمنطقة تمثل الثقلين السكاني والحضري لها، كما أنها تشكل أهميةً بالغةً لمكانتها الدينية لدى المسلمين جميعاً؛ إذ يزورها ملايين المسلمين سنوياً؛ ما مكنها من أن تكون مركزاً تجارياً مهماً، وقد ساعدها على أداء ذلك الدور الاهتمام الكبير الذي أولته الجهات المسؤولة بالدولة والتوسعة الكبيرة التي شهدها المسجد النبوي. وهذا ما قاد إلى مشروعات استثمارية كبيرة، وخصوصاً في المجال العمراني. كما أن امتداد الإشراف الإداري لمنطقة المدينة المنورة إلى البحر الأحمر زاد من أهمية موقعها، وزاد من إمكانية تواصلها مع العالم الخارجي ضمن إطار المملكة العربية السعودية. وقد أمكن لها ذلك التواصل بشكل أكبر من خلال ميناء ينبع التجاري، كما أن مدينة ينبع الصناعية جعلتها من المناطق ذات الأهمية الاقتصادية من خلال المنشآت الصناعية الكبيرة التي أقيمت فيها(*)، بالإضافة إلى كون ينبع ميناء لتصدير البترول الذي يصل إليها عبر الأنابيب من المنطقة الشرقية.

ثالثاً ـ مجلس المنطقة:

إن استحداث مجلس المنطقة من أهم الجوانب التنظيمية في نظام المناطق الذي صدر بالأمر الملكي رقم أ/٩٢ وتاريخ ٢٧ / ٨ / ١٤١٢ هـ الموافق ١٩٩٢ م، وقد أجريت عليه بعض التعديلات بناء على الأمر الملكي رقم أ/٢١ وتاريخ ٣٠ / ٣ / ١٤١٤ هـ الموافق ١٩٩٣ م. ويمكن القول إن مجالس المناطق ليست جديدة في فكرتها لكن الجديد هو أهدافها وتنظيمها. لقد صدر في عام ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م نظام الأمراء والمجالس الإدارية، كما صدر نظام المقاطعات عام ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م، ولكن هذه المجالس لم يتم تشكيلها وهيكلتها في مناطق المملكة كلها، وبالتالي ربما لم تحقق الأهداف الإدارية

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب السادس، (الخدمات والمرافق التنموية)؛ الفصل الرابع.

والتنموية التي من أجلها تم إقرارها[١]. ومن اختصاصات مجلس المنطقة تطوير المنطقة من النواحي التنموية والإدارية، ودراسة الجوانب التي يمكن من خلالها رفع مستوى الخدمات وكفاءتها في المنطقة.

وقد تم افتتاح مجلس منطقة المدينة المنورة في ٢٦ / ٧ / ١٤١٤ هـ الموافق ١٩٩٤ م، وهو يتكون من أربعة وثلاثين عضواً، يشكل الموظفون الحكوميون أربعة عشر عضواً، أما العشرون عضواً الآخرون فهم من الأهالي. ولقد شكل مجلس منطقة المدينة المنورة عشر لجان هي: اللجنة العامة، ولجنة التخطيط والمرافق، ولجنة التعليم والتدريب والثقافة، ولجنة الشؤون الصحية والاجتماعية، ولجنة المتابعة والتنسيق الشمالية، ولجنة التنسيق والمتابعة الشرقية، ولجنة التنسيق والمتابعة الغربية، ولجنة التنسيق والمتابعة الجنوبية، ولجنة الشؤون الإسلامية، ولجنة النفع العام والاستثمار[٢].

رابعاً ـ محافظات المنطقة ومراكزها الإدارية:

تتبع منطقة المدينة المنورة ست محافظات، بالإضافة إلى المدينة المنورة (مقر الإمارة) والمراكز التابعة لها، (خريطة ٢). ويتبع محافظات منطقة المدينة ٩٢ مركزاً، منها ٣٩ مركزاً من فئة (أ) و ٥٣ مركزاً من فئة (ب)، (جدول ١). وتأتي في المرتبة السادسة من حيث عدد المراكز التابعة بالنسبة إلى مناطق المملكة، كما تأتي منطقة المدينة المنورة في المرتبة السادسة من حيث عدد المحافظات بالنسبة إلى مناطق المملكة، وهي متماثلة في ذلك مع منطقة

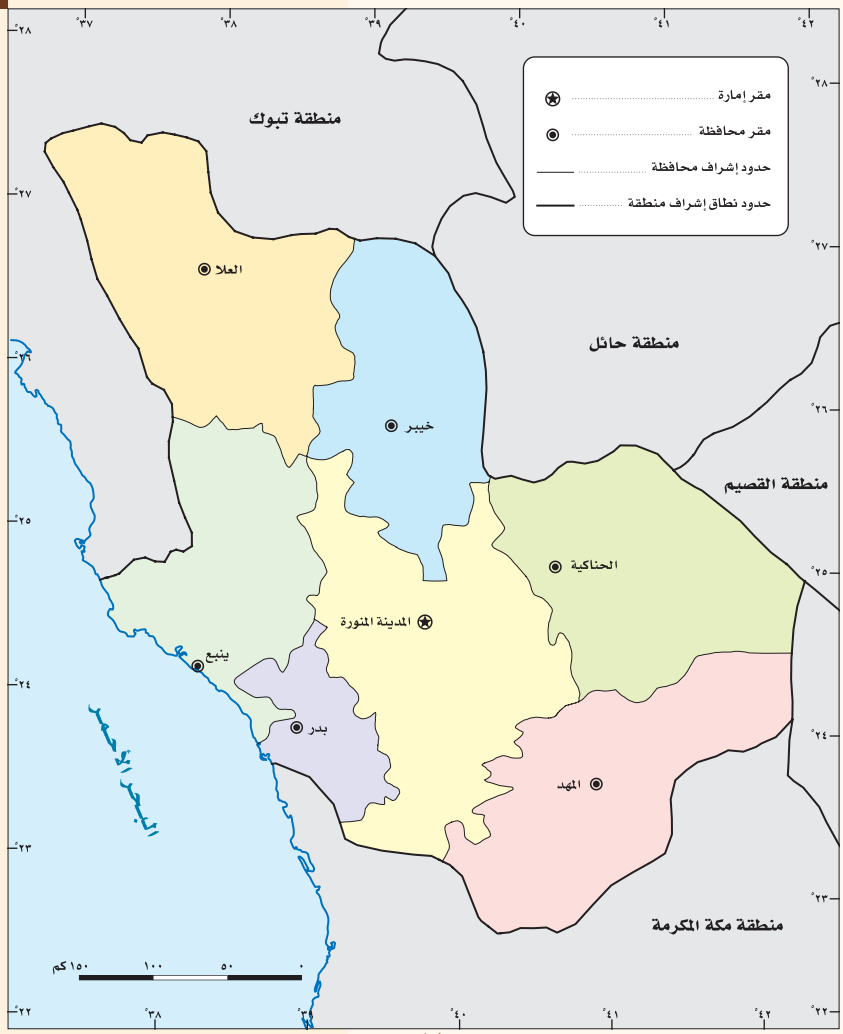

خريطة ٢: محافظات منطقة المدينة المنورة(*)

نجران (أي ست محافظات لكل منهما). وفيما يأتي استعراض للمحافظات والمراكز التابعة لها تباعاً، مع نبذة مختصرة عن كل محافظة، تشمل السكان والمساحة والحدود.

أ ـ مدينة المدينة المنورة:

تقع المدينة المنورة (المدينة) في منطقة أقرب إلى الوسط بالنسبة إلى منطقة المدينة المنورة، وهي تمثل مقر إمارة المنطقة.

(١) ساعد العرابي الحارثي، *تطور نظام المناطق في المملكة العربية السعودية: الكتاب التوثيقي لندوة تطور الحكم والإدارة خلال عشرين عاماً من تولي خادم الحرمين الشريفين مقاليد الحكم*، (الرياض: معهد الإدارة العامة، ٢٠٠١ م)، ١١٨.

(٢) المرجع السابق، ١٢٠.

(*) تمت مراجعتها واعتمادها من قبل الإدارة العامة للمساحة العسكرية.

جدول ١

محافظات منطقة المدينة المنورة وفئاتها وسكانها وعدد المراكز التابعة لها موزعة حسب فئاتها(*)

مقر الإمارة والمحافظات	الفئة	عدد السكان(**)	المراكز وفئاتها		
			الفئة (أ)	الفئة (ب)	المجموع
مدينة المدينة المنورة	مقر إمارة المنطقة	٩٩٤١٧٥	١٠	٤	١٤
ينبع	أ	٢٥٠٢٤٤	٦	٨	١٤
العلا	أ	٥٧٥٠٦	٥	١٢	١٧
بدر	ب	٥٨٣٥٢	٤	٤	٨
المهد	ب	٥٣٧٣٤	٧	٩	١٦
خيبر	ب	٤٥٥٤١	٢	٧	٩
الحناكية	ب	٥٢٥٢٤	٥	٠	١٤
المجموع		١٥١٢٠٧٦	٣٩	٥٣	٩٢



الطرق الدائرية في مدينة المدينة المنورة

وتحدها من الشرق محافظة الحناكية، ومن الغرب محافظتا بدر وينبع، ومن الشمال محافظتا خيبر والعلا، ومن الجنوب محافظة المهد ومحافظة رابغ التابعة إدارياً لمنطقة مكة المكرمة. وتبلغ مساحة المدينة المنورة والمراكز التابعة لها نحو **٢٣٩٩٢** كم٢[١]، وهي بهذه المساحة تحتل المرتبة الرابعة بالنسبة إلى محافظات ومدن منطقة المدينة المنورة.

بلغ عدد سكان المدينة المنورة (المدينة) حسب تعداد عام **١٤٢٥** هـ/**٢٠٠٤** م **٩١٩٨٣٨** نسمة، يسكنون في **١٦٣١١٦** مسكناً، في حين بلغ عدد سكان المدينة المنورة والمراكز التابعة لها **٩٩٤١٧٥** نسمة[٢]. وتأتي المدينة والمراكز التابعة لها في المرتبة الأولى من حيث عدد السكان بالنسبة إلى محافظات منطقة المدينة المنورة، وهذا أمر طبيعي لوجود (مدينة) المدينة المنورة ذات العدد السكاني الأكبر في المنطقة؛ كونها تضم المسجد النبوي الشريف (مسجد رسول الله ﷺ)، بالإضافة إلى قربها من مواقع معارك بدر وأحد وخيبر التي كان لها أثر كبير في التاريخ الإسلامي، ووجود آثار إسلامية أخرى، وتحظى المدينة المنورة باهتمام المسلمين؛ لذلك يقوم بزيارتها أعداد كبيرة من داخل المملكة وخارجها، وخصوصاً لزيارة المسجد النبوي الشريف.

(١) اعتمدت معلومات مساحات المحافظات على بيانات غير منشورة من الإدارة العامة للمساحة العسكرية بوزارة الدفاع المعتمدة على بيانات غير منشورة من هيئة المساحة الجيولوجية بوزارة البترول.

(٢) وزارة الاقتصاد والتخطيط، مصلحة الإحصاءات العامة، *النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤ م*، ٧١.

(*) المصدر: المركز الوطني للوثائق والمحفوظات، «دليل الترميز الموحد للمناطق والمحافظات والمراكز الإدارية»، بيانات غير منشورة.

(**) بيانات تعداد السكان والمساكن لعام ١٤٢٥هـ.

وتأتي المدينة المنورة (المدينة) في المرتبة الخامسة من حيث عدد المراكز التابعة لها بالنسبة إلى محافظات المنطقة، (جدول ١). ويتبع المدينة ١٤ مركزاً، منها عشرة مراكز من فئة (أ)، وأربعة مراكز من فئة (ب)، (جدول ٢).

جدول ٢
المراكز الإدارية وفئاتها التابعة للمدينة المنورة (مقر إمارة المنطقة)(*)

اسم المركز	الفئة	اسم المركز	الفئة
وادي الفرع	أ	شجوى	أ
اليتمة	أ	الفريش	أ
الأكحل	أ	أبيار الماشي	أ
أبوضباع	أ	الفقرة	ب
أم المليليج	أ	الهندية	ب
المندسة	أ	الراغية	ب
الصويدرة	أ	العونية بالصويدرة	ب

ب - ينبع:

تقع محافظة ينبع في الجزء الغربي من منطقة المدينة المنورة على ساحل البحر الأحمر، يحدها من الشرق جزء من النطاق الإداري للمدينة المنورة، وتحدها من الغرب محافظة أملج التابعة إدارياً لمنطقة تبوك، والبحر الأحمر، في حين تحدها محافظة العلا من الشمال، ومحافظة بدر من الجنوب. وتبلغ مساحة ينبع والمراكز الإدارية التابعة لها ١٩٥٠٠ كم^2. وهي بذلك تأتي في المرتبة الخامسة بالنسبة إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري. وتبعد مدينة ينبع (مقر المحافظة) عن المدينة المنورة (مقر إمارة المنطقة) قرابة ٢١٥ كم، ويربطهما طريق أسفلتي. كما تأتي مدينة ينبع في المرتبة الثالثة من حيث القرب من مقر إمارة المنطقة بالنسبة إلى مقار محافظات المنطقة.

وبلغ عدد سكان مدينة ينبع ١٩٨٠٦١ نسمة حسب تعداد عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م، في حين بلغ عدد سكان محافظة ينبع والمراكز التابعة لها ٢٥٠٢٤٤ نسمة[١]. وهي بذلك تحتل المرتبة الثانية بالنسبة إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري. كما أنها تأتي في المرتبة الرابعة من حيث عدد المراكز الإدارية التابعة لها بالنسبة إلى



مدينة ينبع

بقية محافظات المنطقة ومقرها الإداري، (جدول ١). ويبلغ عدد المراكز الإدارية التابعة لمحافظة ينبع ١٤ مركزاً، منها ستة مراكز من فئة (أ) وثمانية مراكز من فئة (ب)، (جدول ٣).

(١) وزارة الاقتصاد والتخطيط، مصلحة الإحصاءات العامة، *النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤ م*، مرجع السابق، ٧١.

(*) المصدر: المركز الوطني للوثائق والمحفوظات، «دليل الترميز الموحد للمناطق والمحافظات والمراكز الإدارية»، بيانات غير منشورة.

جدول ٣

المراكز الإدارية وفئاتها التابعة لمحافظة ينبع(*)

اسم المركز	الفئة	اسم المركز	الفئة
العيص	أ	رخو	ب
ينبع النخل	أ	جراجر	ب
سليلة جهينة	أ	أميرة	ب
الجابرية	أ	نبط	ب
المربع	أ	خمال	ب
المرامية	أ	السليم	ب
تلعة نزه	ب	الفقعلي	ب



مدينة العلا

ج ـ العلا:

تقع محافظة العلا في الجزء الشمالي الغربي من منطقة المدينة المنورة. ويحدها من الشرق كل من محافظة تيماء التابعة إدارياً لمنطقة تبوك ومحافظة خيبر. ويحدها من الغرب ثلاث محافظات، هي: الوجه، وأملج، وضباء، وكل هذه المحافظات تتبع إدارياً لمنطقة تبوك. ومن الشمال تحدها محافظة تيماء التابعة إدارياً لمنطقة تبوك، وكذلك جزء من النطاق الإداري لمدينة تبوك؛ مقر إمارة منطقة تبوك. أما من الجهة الجنوبية، فيحدها جزء من النطاق الإداري للمدينة المنورة، وكذلك محافظة ينبع. تبلغ مساحة محافظة العلا نحو ٢٨١٣٢ كم٢، وهي بذلك تأتي في المرتبة الأولى بالنسبة إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري.

تقع مدينة العلا في وادٍ تاريخي مشهور اسمه وادي القرى الوفير المياه الذي كان معبراً للقوافل(**)، ما جعل لمدينة العلا التي تتوسطه شهرة تاريخية بحكم أنها تبوأت مكاناً سياسياً مشهوراً في الجزيرة العربية في الماضي القديم(١).

وتبعد مدينة العلا (مقر المحافظة) عن المدينة المنورة (مقر إمارة المنطقة) مسافة ٣٨٠ كم تقريباً باتجاه الشمال حيث يربطهما طريق أسفلتي، وتعد في المرتبة السادسة (الأخيرة) من حيث القرب من مقر إمارة المنطقة، إذ إنها أبعد مقر محافظة بالنسبة إلى مقار محافظات منطقة المدينة المنورة.

بلغ عدد سكان مدينة العلا ٢٩٣٠٢ نسمة حسب تعداد عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م، في حين بلغ عدد سكان محافظة العلا والمراكز التابعة لها ٥٧٥٠٦ نسمات(٢). وتأتي محافظة العلا في المرتبة الرابعة بالنسبة إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري من حيث عدد السكان، وتأتي في المرتبة الأولى من حيث عدد المراكز التابعة لها، (جدول ١). ويبلغ عدد المراكز التابعة لمحافظة العلا ١٧ مركزاً، منها ٦ مراكز من فئة (أ)، و ١٢ مركزاً من فئة (ب)، (جدول ٤).

(١) عبدالله بن آدم صالح نصيف، العلا: *دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي*؛ *سلسلة هذه بلادنا*، الرئاسة العامة لرعاية الشباب، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١٦ هـ)، ١.

(٢) وزارة الاقتصاد والتخطيط، مصلحة الإحصاءات العامة. النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤ م، مرجع سابق، ٧٢.

(*) المصدر: المركز الوطني للوثائق والمحفوظات، «دليل الترميز الموحد للمناطق والمحافظات والمراكز الإدارية»، بيانات غير منشورة.

(**) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثاني: (التطور التاريخي)؛ الفصل الأول.



مدينة بدر

د - بدر:

تقع محافظة بدر في الجزء الجنوبي الغربي من منطقة المدينة المنورة، حيث تطل بجبهة بحرية صغيرة على البحر الأحمر، ويحدها من الشرق جزء من النطاق الإداري للمدينة المنورة؛ (مقر إمارة المنطقة)، في حين تحدها من الغرب محافظة ينبع بالإضافة إلى جزء من البحر الأحمر. ويحدها من الشمال جزء من النطاق الإداري للمدينة المنورة (مقر إمارة المنطقة) وكذلك محافظة ينبع، ومن الجنوب يحدها أيضاً جزء من النطاق الإداري للمدينة المنورة، كما تحدها من الجنوب أيضاً محافظة رابغ التابعة إدارياً لمنطقة مكة المكرمة. وتبلغ مساحة محافظة بدر ٧٧٥٢ كم^{٢}، وتأتي في المرتبة الأخيرة بالنسبة إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري من حيث المساحة.

تبعد مدينة بدر (مقر المحافظة) عن المدينة المنورة (مقر إمارة المنطقة) مسافة ١٥٠ كم باتجاه الجنوب الغربي، ويربط بينهما طريق أسفلتي، وتعد في المرتبة الثانية من حيث القرب من مقر المنطقة بالنسبة إلى مقار محافظات المنطقة.

بلغ عدد سكان مدينة بدر ٣٣٧٦٠ نسمة حسب تعداد عام ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م، وبلغ عدد سكان محافظة بدر والمراكز التابعة لها ٥٨٣٥٢ نسمة[١]. وتأتي محافظة بدر في

جدول ٤
المراكز الإدارية وفئاتها التابعة لمحافظة العلا(*)

اسم المركز	الفئة	اسم المركز	الفئة
الهجر الثلاث	أ	البريكة	ب
مغيراء	أ	النشيفة	ب
الحجر	أ	الفارعة	ب
أبو راكة	أ	النجيل	ب
الأبرق	أ	الورد	ب
السليلة	أ	العين الجديدة	ب
فضلا	ب	الجديدة	ب
العذيب	ب	بئر الأراك	ب
شلال	ب		

(١) وزارة الاقتصاد والتخطيط، مصلحة الإحصاءات العامة. النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤ م، مرجع سابق، ٧٤.

(*) المصدر: المركز الوطني للوثائق والمحفوظات، «دليل الترميز الموحد للمناطق والمحافظات والمراكز الإدارية»، بيانات غير منشورة.

جدول ٥

المراكز الإدارية وفئاتها التابعة لمحافظة بدر(*)

اسم المركز	الفئة	اسم المركز	الفئة
المسيجيد	أ	الرايس	أ
الواسطة	أ	السديرة	ب
القاحة	أ	الشفية	ب
طاشا	ب	أم البرك	ب

المرتبة الثالثة من حيث عدد السكان بالنسبة إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري، كما تأتي في المرتبة السابعة بالنسبة إلى محافظات المنطقة من حيث عدد المراكز الإدارية، كما يوضح (جدول ١). ويبلغ عدد المراكز التابعة لمحافظة بدر ثمانية مراكز إدارية؛ أربعة منها من فئة (أ)، وأربعة من فئة (ب)، (جدول ٥).

هـ - المهد:

تقع محافظة المهد في الجزء الجنوبي الشرقي من منطقة المدينة المنورة، وتحدها من الشرق محافظة عفيف التابعة إدارياً لمنطقة الرياض، ومن الغرب محافظات: رابغ، وخليص، والكامل، التابعة إدارياً لمنطقة مكة المكرمة. ومن الشمال، تحدها محافظة الحناكية، ومن الجنوب تحدها محافظة الطائف التابعة إدارياً لمنطقة مكة المكرمة. وتبلغ مساحة محافظة المهد ٢٤٨٣٨ كم^{٢}، وهي بذلك تأتي في المرتبة الثالثة من حيث المساحة بالنسبة إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري.

وتبعد مدينة المهد (مقر المحافظة) عن المدينة المنورة (مقر إمارة المنطقة) مسافة تصل إلى ٢٧٥ كم تقريباً باتجاه الجنوب الشرقي، حيث يربطهما طريق أسفلتي. وتأتي في المرتبة الخامسة من حيث القرب من مقر المنطقة بالنسبة إلى مقار محافظات المنطقة.

تتميز هذه المحافظة بوجود أحد مناجم الذهب القديمة الذي استغل منذ وقت مبكر وتعرف تاريخياً بمهد الذهب. وقد تم تحديث معدات هذا المنجم وصيانته، إذ افتتحه



مدينة المهد

(*) المصدر: المركز الوطني للوثائق والمحفوظات، «دليل الترميز الموحد للمناطق والمحافظات والمراكز الإدارية»، بيانات غير منشورة.

الملك فهد - طيب الله ثراه - يوم السبت ١٤٠٣/٨/١٧ هـ الموافق ١٩٨٣ م[١].

بلغ عدد سكان مدينة المهد ١٩٦٧٨ نسمة حسب تعداد عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م، في حين بلغ عدد سكان محافظة المهد والمراكز التابعة لها ٥٣٧٣٤ نسمة[٢]؛ وهي على هذا الأساس تحتل المرتبة الخامسة بالنسبة إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري. وتأتي في المرتبة الثانية من حيث المراكز التابعة لها بالنسبة أيضاً إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري، متساوية في ذلك مع محافظة الحناكية، (جدول ١). ويبلغ عدد المراكز التابعة لمحافظة المهد ١٦ مركزاً، منها سبعة مراكز من فئة (أ) وتسعة من فئة (ب)، (جدول ٦).

جدول ٦
المراكز الإدارية وفئاتها التابعة لمحافظة المهد(*)

اسم المركز	الفئة	اسم المركز	الفئة
السويرقية	أ	الأصيحر	ب
أرن	أ	المويهية	ب
الحمنة	أ	الصعبية	ب
صفينة	أ	السريحية	ب
ثرب	أ	هبا	ب
العمق	أ	القويعية	ب
حاذة	أ	الهرارة	ب
الحرة	ب	الرويضة	ب

و - خيبر:

تقع محافظة خيبر في الركن الشمالي الشرقي من منطقة المدينة المنورة، وتحدها من الشرق محافظة الغزالة التابعة إدارياً لمنطقة حائل، وكذلك جزء من النطاق الإداري لمدينة حائل. وتحدها من الغرب محافظة العلا، ومن الشمال محافظة تيماء التابعة إدارياً لمنطقة تبوك، ويحدها من الجنوب جزء من النطاق الإداري للمدينة المنورة؛ (مقر إمارة المنطقة). وتبلغ مساحة المحافظة ١٨٩٤٥ كم٢ تقريباً؛ وبذلك تأتي في المرتبة السادسة بالنسبة إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري.

تبعد مدينة خيبر (مقر المحافظة) عن المدينة المنورة (مقر إمارة المنطقة) مسافة ١٧٠ كم تقريباً باتجاه الشمال، ويربط بينهما طريق أسفلتي، وتأتي في المرتبة الثالثة من



مدينة خيبر

حيث القرب من مقر المنطقة مقارنة ببقية مقار محافظات المنطقة.

بلغ عدد سكان مدينة خيبر ١٩٧٧٣ نسمة حسب تعداد عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م، وبلغ عدد سكان محافظة خيبر والمراكز التابعة لها ٤٥٥٤١ نسمة[٣]. وهي بذلك تأتي في المرتبة السادسة على مستوى محافظات

(١) خالد المطيري، وفتحي شبلي، *عبير الحقب من مهد الذهب*، (مكة: مطابع البركاتي، ١٤١٩ هـ)، ٦.

(٢) وزارة الاقتصاد والتخطيط، مصلحة الإحصاءات العامة. النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤ م، مرجع سابق، ٧٣.

(٣) المرجع السابق، ٧٥.

(*) المصدر: المركز الوطني للوثائق والمحفوظات، «دليل الترميز الموحد للمناطق والمحافظات والمراكز الإدارية»، بيانات غير منشورة.

جدول ٧

المراكز الإدارية وفئاتها التابعة لمحافظة خيبر (*)

اسم المركز	الفئة	اسم المركز	الفئة
العشاش	أ	الحفيرة	ب
الصلصلة	أ	الثمد	ب
العيينة	ب	جدعا	ب
العشيرة	ب	اللحن	ب
العرايد	ب	-	-

المنطقة ومقرها الإداري، وتأتي في المرتبة الخامسة من حيث عدد المراكز التابعة لها بالنسبة أيضاً إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري. ويبلغ عدد المراكز التابعة لمحافظة خيبر تسعة مراكز، منها مركزان من فئة (أ)، وسبعة مراكز من فئة (ب)، (جدول ٧).

ز ـ الحناكية:

تقع محافظة الحناكية في الجزء الجنوبي الشرقي من منطقة المدينة المنورة. وتحدها من الشرق محافظتا الرس والنبهانية، التابعتان إدارياً لمنطقة القصيم، جزء من نطاق الإشراف الإداري لمدينة بريدة ـ مقر إمارة منطقة القصيم ـ بالإضافة إلى محافظة عفيف التابعة إدارياً لمنطقة الرياض. تحدها من الغرب محافظة خيبر وجزء من النطاق الإداري للمدينة المنورة؛ مقر المنطقة. وتحدها من الشمال محافظة الغزالة التابعة إدارياً لمنطقة حائل، في حين تحدها من الجنوب محافظة المهد. وتبلغ مساحة المحافظة **٢٥٤٤٩** كم^{٢}، وهي بذلك تأتي في المرتبة الثانية على مستوى محافظات المنطقة ومقرها الإداري.

تبعد مدينة الحناكية (مقر المحافظة) عن المدينة المنورة (مقر إمارة المنطقة) مسافة **١٠٥** كم تقريباً باتجاه الشرق، ويربط بينهما طريق أسفلتي، وتأتي في المرتبة الأولى من حيث القرب من مقر إمارة المنطقة بالنسبة إلى مقار محافظات المنطقة.

بلغ عدد سكان مدينة الحناكية **٢٢٤٤٣** نسمة حسب تعداد عام **١٤٢٥** هـ/**٢٠٠٤** م، وعدد سكان محافظة الحناكية والمراكز التابعة



مدينة الحناكية

(*) المصدر: المركز الوطني للوثائق والمحفوظات، «دليل الترميز الموحد للمناطق والمحافظات والمراكز الإدارية»، بيانات غير منشورة.

جدول ٨
المراكز الإدارية وفئاتها التابعة لمحافظة الحناكية(*)

اسم المركز	الفئة	اسم المركز	الفئة
الحسو	أ	بلغة	ب
النخيل	أ	حزرة	ب
الضميرية	أ	ضعة	ب
عرجاء	أ	الشقران	ب
الهميج	أ	العوينة	ب
طلال	ب	غراب	ب
هدبان	ب	يطحى	ب
صخيبرة	ب	-	-

لها ٥٢٥٢٤ نسمة[١]. وعلى هذا الأساس، فإن محافظة الحناكية تأتي في المرتبة السابعة والأخيرة بالنسبة إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري، وتأتي في المرتبة الثانية من حيث عدد المراكز التابعة لها بالنسبة أيضاً إلى محافظات المنطقة ومقرها الإداري، متساوية في ذلك مع محافظة المهد، (جدول ١). ويبلغ عدد المراكز التابعة لمحافظة الحناكية ١٤ مركزاً، منها خمسة مراكز من فئة (أ)، وتسعة من فئة (ب)، (جدول ٨).

(١) وزارة الاقتصاد والتخطيط، مصلحة الإحصاءات العامة. النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤ م، مرجع سابق، ٧٥.

(*) المصدر: المركز الوطني للوثائق والمحفوظات، «دليل الترميز الموحد للمناطق والمحافظات والمراكز الإدارية»، بيانات غير منشورة.

الفصل الثاني

الجيولوجيا

أولاً الصخور المتطبقة

ثانياً الصخور الاندفاعية الباطنية

ثالثاً أحزمة صخور تكوين الأفيوليت

رابعاً مجموعات الصخور الرسوبية

خامساً الصخور البركانية الثلاثية والحديثة

سادساً التراكيب الصدعية

إعداد

الدكتور معراج بن نواب مرزا

أستاذ الجغرافيا الطبيعية المشارك



أحد المظاهر الجيولوجية في المنطقة

انفصلت شبه الجزيرة العربية عن إفريقية (كما هو معلوم)، ما نجم عنه نشأة كل من البحر الأحمر وخليج عدن، ولعل أبسط الأدلة على ذلك تطابق ساحلي هذا البحر، إضافة إلى استمرارية عدد من التراكيب الصخرية والبنيات التي يمكن تتبعها على الجانبين، فالدرع العربي هو استمرار للدرع النوبي الإفريقي، وكلاهما مكون من صخور نارية بلورية تعود إلى ما قبل الكامبري، ويشكل الأول ما يسمى بالصفيحة القارية العربية التي تغطس بشدة نحو الشرق والشمال الشرقي لتعلوها آلاف الأمتار من الصخور الرسوبية وتعرف بالرف العربي، في حين يشكل الدرع العربي القسم الغربي من هذه الصفيحة.

وقد نشأ الدرع العربي على شكل أقواس جزر بركانية داخل محيط الطرف الشمالي الشرقي للراسخ الإفريقي، وقد تعرض لعدد من عمليات التحول والتشوه والاقتحام من قبل صخور نارية اندفاعية شكلت جميعها خصائص هذا الدرع منذ نحو ٥٥٠ ـ ٨٧٠ مليون سنة.

ويتكون الدرع العربي الذي يحده إقليم الرف العربي الرسوبي من الشرق، وأخدود البحر الأحمر من الغرب من صخور رسوبية وبركانية تعرضت للتحول والطي عندما كانت في الأعماق نتيجة تعرضها لدرجات حرارة وضغط عاليين، وتتمثل هذه الصخور بمجموعات متحولة ومطوية بشدة، كما في كل من مجموعات بيش والباحة وجدة، تلتها مجموعات صخرية تشكلت في مراحل لاحقة، وهي أقل تحولاً وطياً مثل مجموعات عبلة وحلبان والمردمة وشمر. وقد تداخلت ضمن الدرع العربي محقونات من الصخور النارية الباطنية كالجرانيت والديوريت والجرانوديوريت وغيرها.

وتشير الدراسات إلى وجود أكثر من نموذج لتطور الدرع العربي؛ يعتمد النموذج الأول منها على نظرية الصفائح التكتونية (Plate Tectonics)، ويتلخص في وجود أربع مراحل لتطوره تبدأ قبل ٩٠٠ مليون سنة وتنتهي قبل ٦٢٠ مليون سنة. وقد تكونت أقواس جزر من قشرة محيطية تلاها تطور للدرع العربي إلى



أحد نماذج الصخور في المنطقة

قشرة متوسطة التركيب، ومن ثم ازدياد سمك قشرة الدرع العربي حتى التحمت مع القشرة القارية الإفريقية. وتخلل جميع هذه المراحل ترسب المجموعات الصخرية التي أشير إليها أعلاه[١].

أما النموذج الثاني لتطور الدرع العربي، فيفترض انشطاراً للصفيحة الإفريقية قبل ٩٥٠ مليون سنة نجم عنه نشأة لوحات قارية مثل لوحة إقليم عفيف والدوادمي وغيرها، تلاه تطور للدرع العربي ـ النوبي حسب النموذج الأول، بين اللوحات العربية القارية المذكورة والصفيحة الإفريقية قبل أن تعود للالتحام مع هذه الأخيرة مرة أخرى. ومن ثم نشأ نظام صدوع نجد، وحدثت تسوية عامة للسطح نجم عنها أخاديد بركانية رسوبية فيما بين ٦٤٠ و٥٥٠ مليون سنة تقريباً.

وحدث هبوط قاري عام منذ نحو ٥٥٠ مليون سنة أدى إلى ترسيب الصخور الرسوبية الباليوزوية فوق الدرع العربي[٢]، وقد عاد الأخير للانفصال عن نظيره النوبي قبل ٣٠ ـ ٢٥ مليون سنة عندما بدأ البحر الأحمر في التشكل.

وفي ضوء ما سبق فإن منطقة المدينة المنورة تقع في الجزء الغربي الأوسط والشمالي للدرع العربي، وتشغل تكتونياً مساحات من ثلاثة أقاليم تكتونية، ويشغل إقليم جدة التكتوني الأجزاء الجنوبية الشرقية لمنطقة المدينة المنورة. وإقليم الحجاز التكتوني يكاد ينحصر كله داخل المنطقة باستثناء جزء صغير يشغل محافظة رابغ في منطقة مكة المكرمة، ويمكن القول إن المساحات الشاسعة التي يشغلها إقليم الحجاز التكتوني في المنطقة تجعله إقليماً مختصاً بها. أما الإقليم الثالث وهو إقليم مدين التكتوني، فيشغل الهوامش الشمالية الغربية لمنطقة المدينة المنورة.

وتتكون صخور الأقاليم التكتونية في منطقة المدينة المنورة من مجموعات صخرية متطبقة، وأخرى جوفية انبثقت مخترقة الصخور المتطبقة جميعها، كما أنها قد تخترق الصخور الجوفية الأقدم منها عمراً.

وتنقسم صخور الدرع ـ ومنها منطقة المدينة المنورة ـ إلى ثلاث وحدات رئيسة متطبقة ومتتالية زمنياً تفصل بينها فترات نشاط جوفي واسع النطاق، يتم خلال كل فترة منها حقن الصخور المتطبقة بأنواع الاندفاعات الجوفية. وقد حدث ذلك خلال حقب البروتيروزوي الأعلى.

(١) أحمد محمود الشنطي، *جيولوجية الدرع العربي*، (جدة: جامعة الملك عبدالعزيز، ١٩٩٣ م)، ٩.

(٢) المرجع السابق، ١٤٩.

وفيما يأتي عرض موجز لأهم الخصائص الجيولوجية لمنطقة المدينة المنورة، تشمل وحدات الصخور المتطبقة، والصخور الاندفاعية الباطنية، إضافة إلى الصخور الرسوبية بأشكالها كافة، سواء تلك التي تشكل الغطاء الرسوبي للدرع العربي، أو تلك التي ترسبت في الخوانق والأخاديد التكتونية، أو على السهل الساحلي. كما يتم التعرض لتدفقات البازلت، والبنيات التكتونية المختلفة في المنطقة، على النحو الآتي:

أولاً ـ الصخور المتطبقة:

تشتمل الصخور المتطبقة في منطقة المدينة المنورة على المجموعات الصخرية المتطبقة الثلاث التي تشغل مناطق الدرع العربي، إلا أن سعة انتشار هذه المجموعات تتباين بين موقع وآخر داخل منطقة المدينة المنورة. ولعل أكثرها انتشاراً مجموعة الصخور المتطبقة الوسطى، تليها مجموعة الصخور المتطبقة العليا، في حين لا تشغل مجموعة الصخور المتطبقة السفلى سوى مساحات ضئيلة موزعة في أنحاء المنطقة.

ثانياً ـ الصخور الاندفاعية الباطنية:

قسمت الصخور الاندفاعية الباطنية في الدرع العربي إلى ثلاث مجموعات زمنية متتالية استناداً إلى حالات اختراقها لمجموعات الصخور المتطبقة، فهناك اندفاعات باطنية سفلى قديمة حدثت قبل حركة بناء الجبال، وأخرى باطنية وسطى تزامنت مع الحركة، واندفاعات باطنية عليا حدثت بعد حركة بناء الجبال. وقد حددت أعمار هذه الصخور الاندفاعية في بداية الأمر بناء على مستوى اختراقها للصخور المتطبقة، إذ صنفت الاندفاعات القديمة على أساس أنها تخترق مجموعات الصخور المتطبقة السفلى دون أن تصل إلى الوسطى، ومن ثم فهي أحدث من الصخور المتطبقة السفلى، إلا أنها أقدم من الصخور المتطبقة الوسطى، وهكذا في بقية الصخور الاندفاعية، وقد أيد هذه العلاقة الزمنية الحقلية ما جاءت به الطرق الإشعاعية الحديثة لتقدير أعمار الصخور الاندفاعية التي أشارت إلى أن عمر الصخور الاندفاعية القديمة يزيد على ٧٠٠ مليون سنة، في حين يراوح عمر الصخور الاندفاعية الوسطى بين ٧٠٠ و٦٢٠ مليون سنة، أما عمر الصخور الاندفاعية الحديثة فيراوح بين ٦٢٠ و٥٥٠ مليون سنة[١].

ثالثاً ـ أحزمة صخور تكوين الأفيوليت:

تتوزع هذه الأحزمة في ثلاثة مواقع داخل منطقة المدينة المنورة، وهي: حزام جبل الوسق ـ جبل أس، وحزام جبل ذروة ـ بئر عمق، وبئر عرجا الذي يعد جزءاً من حزام حمضة ـ طلوحة. وعلى الرغم من إطلاق تسمية حزام عليها، إلا أنها نادراً ما تستمر من دون انقطاع ولا سيما أنها تمتد موازية لامتداد المجموعات الصخرية المتطبقة ومحاور الطي والصدوع الرئيسة. كما تختلف أبعاد هذه الأحزمة ومساحاتها بين موقع وآخر، وتعرضت للتشوه عدة مرات، وتحولت إلى سحنات الأمفيبوليت أو الشيست الأخضر. وللعلاقة التكتونية التي تربط بين هذه الأحزمة ومجموعات الصخور المجاورة لها، فقد كثرت عمليات تحول السربنتينيت إلى كربونات تشبه الكربونات الرسوبية، كما تأثرت هذه الصخور

(١) المرجع السابق، ١٢٧.



مجموعات الصخور الرسوبية في المنطقة

جميعها بنظام صدوع نجد الذي قطع وأزاح عدداً منها إزاحات جانبية.

رابعاً ـ مجموعات الصخور الرسوبية:

تغطي مجموعات الصخور الرسوبية عدداً من مواقع منطقة المدينة المنورة، وتتنوع هذه المجموعات الصخرية بين صخور رسوبية تنتمي إلى الزمن الجيولوجي الأول، وأخرى إلى الزمنين الثالث والرابع، ومن أهم هذه المجموعات الصخرية انتشاراً تلك العائدة للزمن الأول والمتمثلة في صخور الحجر الرملي لتكوين ساق، وصخور الحجر الرملي المشابهة له مثل تكوين القويرة ورم وأم سهم. أما المجموعات الصخرية الثلاثية والرباعية، فيمثلها تكوين الرغامة وبعض الدلتاوات المروحية الحصوية، إضافة إلى صخور الشعاب المرجانية والكثبان الرملية ورواسب الأودية، ويمكن تحديد مجموعات الصخور الرسوبية حسب العصور على النحو الآتي:

أ ـ الصخور الرسوبية للزمن الجيولوجي الأول:

تتألف هذه الصخور من ثلاثة تكوينات، وهي من الأقدم إلى الأحدث: تكوين ساق ووحدات القويرة ورم وأم سهم. استمد التكوين الأول اسمه من جبل ساق بمنطقة القصيم[١]. وحسب الدراسات التي تمت على هذه الصخور، فقد وصل سمك قطاعها مجتمعة ٨٥٠ م[٢]، إلا أن بنية القاعدة التي ترتكز عليها هذه الصخور، وهي صخور الدرع العربي المختلفة الميل قد أدت إلى اختلافات كبيرة في سمك قطاعها الجيولوجي، ويشاهد أعظم سمك لهذه التكوينات في شمال غرب منطقة المدينة المنورة ومنطقة تبوك المجاورة لها.

ب ـ الصخور الرسوبية للزمنين الجيولوجيين الثالث والرابع:

تغطي الصخور الرسوبية العائدة للزمنين الثالث والرابع مساحات شاسعة، وبخاصة الأمكنة الساحلية التي تمتد شمال مدينة ينبع البحر وجنوبها.

خامساً ـ الصخور البركانية الثلاثية والحديثة:

تغطي منطقة المدينة المنورة غطاءات من الصخور البازلتية التي تكونت خلال الفترة الزمنية الممتدة من الزمن الثالث الجيولوجي حتى العصور التاريخية، وتشمل معظم الأقسام الوسطى والشمالية لحرة رهاط وحرة

(١) عبدالله ناصر الوليعي، *جيولوجية وجيومورفولوجية المملكة العربية السعودية*. ط١، (الرياض: ١٩٩٦ م)، ٥١ ـ ٨٩.

(٢) Powers, R. W. Ramirez, L. F., Redmond, C. D. and Elberg, E. L. Jr. Geology of the Arabian peninsula – Sedimentary geology of Saudi Arabia, USGS professional paper 560- D, 20 – 22. 1966.

خيبر، واثنين، والكراء، وكرماء، إضافة إلى حرة إشارة، ويمكن الإشارة إلى أبرز الصخور البركانية الثلاثية الحديثة في منطقة المدينة المنورة على النحو الآتي:

أ ـ صخور بازلت حرة رهاط:

تضم منطقة المدينة المنورة الأجزاء الوسطى والشمالية لحرة رهاط، ويتكون البازلت في المنطقة من ثلاث مجموعات، وهي من الأقدم إلى الأحدث: بازلت شواحط، وبازلت حمة، وبازلت المدينة. وقد انبثقت المجموعات البازلتية لحرة رهاط عن النطاق البركاني: مكة ـ المدينة ـ النفود الذي يصل طوله إلى ٦٠٠ كم، ويرتبط بتشققات أرضية نجم عنها سلسلة صهيرية من البازلت الأوليفيني الانتقالي والبازلت الأوليفيني القلوي وهاوييت.

أما بازلت حمة فيغطي أجزاءً من بازلت شواحط بشكل غير متوافق، ويتألف من بازلت أوليفيني قلوي وهاوييت، وتشغل معظم الأجزاء المركزية من الحرة ولا ينكشف بازلت حمة شمال دائرة عرض ٢٤° ٠٥' إلا في بقع صغيرة مرتفعة شكلتها براكين درعية، وهو ما يشير إلى امتداد بازلت حمة شمالاً تحت بازلت المدينة الأحدث.

ويعلو بازلت المدينة بشكل غير متوافق بازلت حمة ويشغل الأمكنة المركزية للحرة، كما تزداد المساحات التي يغطيها في اتجاه المدينة المنورة، فيتألف من سبع وحدات تدفقت منذ بداية البلايستوسين، وتتألف من بازلت أوليفيني قلوي مع هاوييت أو بازلت أوليفيني انتقالي مع هاوييت، وقد تدفقت الوحدات جميعها تقريباً من مركز



إحدى الحرات في المنطقة



صخور حرة خيبر

الحرة في اتجاه الأطراف، وتزداد حداثة هذه التدفقات مع النهاية الشمالية للحرة إلى الشرق والجنوب الشرقي للمدينة المنورة، إذ تدفقت آخر الثورات البركانية خلال فترتين تاريخيتين؛ الأولى عام ٢٠ هـ/٦٤١ م والثانية عام ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م. وتتباين درجات النحت والتعرية التي تعرضت لها وحدات البازلت بحسب قدمها، إلا أن التدفقات الأربع الأخيرة



صخور حرة لنير

لم تتعرض لتعرية تذكر، ويصل السمك الإجمالي لبازلت حرة رهاط ٣٠٠ م[١].

ب ـ صخور بازلت حرتي خيبر والكرى:

تعد حرة خيبر الواقعة شمال المدينة المنورة امتداداً للنطاق البركاني: مكة ـ المدينة ـ النفود، وتتشابه مكوناته من البازلت بدرجة كبيرة، على العكس من بازلت حرة الكرى الذي يشبه بازلت حرة كشب أيضاً والواقعة إلى الشرق من الخط المذكور، ويتكونان من سلسلة صهيرية غير مشبعة تتمايز إلى الفونولايت.

ج ـ صخور بازلت حرتي إشارة وكرماء:

تقع حرة إشارة شمال غرب المدينة المنورة على الجانب الأيسر لوادي الحمض، وقد قطعت بشدة بروافد الوادي المذكور، وتتكون من تدفقات لابية ومخاريط خبثية وقواطع من بازلت أوليفيني انتقالي وقلوي، إضافة إلى هاوييت.

أما حرة كرماء فتقع بين حرتي خيبر في الشمال وحرة رهاط في الجنوب، إلى الشرق والشمال من المدينة المنورة، وتتكون من بقايا مقطعة بكل من مجاري الأودية كوادي الشعبة والصدوع، ويقترب آخر تدفق لبازلت المدينة منها بشكل كبير جداً شرق مطار المدينة المنورة، ما أدى إلى حجز وتكوين سد الحبس. وتشير تقديرات الأعمار إلى أن بازلت حرة إشارة من أقدم صخور الحرات، ويصل بعضها إلى أكثر من ٢٨ مليون سنة، وربما من عصر الأوليجوسين[٢]. في حين لا تزيد أعمار بازلت حرة كرماء على ١١ مليون سنة كما هو الحال في جبل عير.

د ـ صخور بازلت حرة لُنَير:

تقع حرة لنير إلى الشمال من مدينة ينبع البحر، إلى الشرق مباشرة من مدينة أملج، على ارتفاع يصل ١٠٠٠ م فوق مستوى سطح البحر، إلا أن تدفق البازلت قد وصل إلى البحر الأحمر شمال مدينة أملج، من جبل النبعة، إذ

(١) Camp, V. E. and M. J. Roobol, Geologic Map of the Cenozoic Lava Field, of Harrat Rahat, Kingdom Of Saudi Arabia, , Jeddah, 7. Ministry of Petroleum and Mineral Resources, 1991.

(٢) Roobol, M. J. and V. E. Camp, Geologic Map of the Cenozoic lava Fields of Harrates Khaybar, Ithnayn, and Kura, Kingdom of Saudi Arabia, Jeddah, 20 – 21., Ministry of petroleum and Mineral Resources 1991.

غطت في السهل الساحلي شمال ينبع مدرجات بحرية بليوسينية وبلايستوسينية، وقد قدر عمر البازلت بنحو ١,٤ ± ٠,٦ مليون سنة[١].

هـ ـ صخور بازلت حرة كشب:

يقع القسم الشمالي الغربي لحرة كشب ضمن منطقة المدينة المنورة، ويضم مساحة من بعض المجموعات الصخرية البازلتية في الحرة، وهي من الأقدم إلى الأحدث: بازلت ديكة، وبازلت حيل الأسفل وحيل الأعلى، ولا تظهر إطلاقاً مجموعة صخور نفرات التي تتوزع في جنوب حرة كشب وشرقها، وقد تدفقت المجموعات الصخرية للحرة من فوهات مركزية تقع وسط الحرة في منطقة مكة المكرمة، باستثناء مخروط جبل عسلج الذي يكاد يكون المخروط الوحيد داخل منطقة المدينة المنورة الذي ينتمي إلى بازلت حيل[٢].



صخور بازلت حرة كشب

سادساً ـ التراكيب الصدعية:

يظهر من الخريطة الجيومورفولوجية لمنطقة المدينة المنورة أن هناك صدوعاً رئيسة، وأخرى ثانوية، إضافة إلى وجود نطاقات صدعية. ومن خلال النظر إليها يمكن تحديدها باتجاهين رئيسين وهما اتجاه الشمال الغربي واتجاه الشمال الشرقي، إضافة إلى وجود اتجاهات أخرى ثانوية. ويمكن تصنيفها بشكل عام إلى صدوع موازية للبحر الأحمر وأخرى متعامدة عليه، على النحو الآتي:

أ ـ الصدوع الموازية لساحل البحر الأحمر:

توافقت هذه الصدوع في عدد من الفترات الزمنية غالباً مع أحداث جيولوجية، ولعل أهمها حركة الصفيحة العربية ومراحل تطور البحر الأحمر. وقد أمكن تقسيمها إلى صدوع تعود إلى عصر ما قبل الكامبري وصدوع حديثة ترجع للزمنين الجيولوجيين الثالث والرابع.

ب ـ الصدوع المتعامدة على ساحل البحر الأحمر:

تعد النطاقات الصدعية والصدوع الواقعة إلى شمال الشمال الشرقي من مدينة ينبع البحر من أبرز الصدوع المتعامدة على ساحل البحر الأحمر في منطقة المدينة المنورة. وأهم هذه النطاقات الصدعية نطاق وادي الفرعة الذي أدى إلى طي تكوينات الفرعة من مجموعة هدية على شكل مقعرات متتابعة في الاتجاه نفسه. أما أهم الصدوع فهي صدع وادي الطلحة وصدع وادي شمر وامتداداتهما شمالاً إلى جبل مرطبة شمال مدينة ينبع البحر، وقد حدثت في الصخور نفسها مجموعة هدية التي تنتمي إلى عصر ما قبل الكامبري. كما

(١) Hotazl, H. et al., "Quaternary from Umm Lajj to Yanbo al Bahr", in Jado, A. R. Zotl J. G. (ed), Quaternary period in Saudi Arabia, Vol. 2. New York: Springer Verlag. 1984.

(٢) Op. Cit., Roobol, M. J. and V. E. Camp, "Geologic Map".

يعد صدع الريان المجاور للطرف الغربي لحرة رهاط، والممتد لأكثر من ٤٠ كم أحد الصدوع المتعامدة على البحر الأحمر على الرغم من انحرافه القليل نحو شمال الشمال الشرقي، إلا أنه بالتأكيد لا يرتبط بالصدوع التي أصابت الحرة المذكورة.

الفصل الثالث

التضاريس

أولاً المرتفعات

ثانياً تضاريس الحرات

ثالثاً الأودية (شبكات التصريف المائي)

رابعاً السهول

خامساً الأشكال الرملية

إعداد

الدكتور معراج بن نواب مرزا

أستـــاذ الجغرافيا الطبيعية المشارك

تتعدد مظاهر السطح في منطقة المدينة المنورة بين تضاريس جبلية شاهقة وأخرى منخفضة، وتكثر التضاريس البركانية لانتشار الحرات على نطاق واسع في المنطقة. كما نشأت شبكة معقدة من الأودية، نجمت عن التطورات التي مرت بها المنطقة، ومن ثم تعددت أشكال الأرض الناجمة عن ذلك، كالسهول الرسوبية الداخلية، والسهول الرسوبية الساحلية التي غالباً ما تأثرت بتغيرات مستوى سطح البحر. وقد أدت هذه التغيرات دوراً بارزاً في نشأة كل من الجزر والشروم والشعاب المرجانية والسباخ الساحلية، كما احتلت الكثبان الرملية مكاناً لها بين مظاهر السطح في منطقة المدينة المنورة.

أولاً ـ المرتفعات:

تختلف مرتفعات منطقة المدينة المنورة تماماً عن مرتفعات منطقة مكة المكرمة المجاورة لها؛ إذ لا تشكل قمم جبال الحجاز والسراة التي تمتد من جنوب جبال صبح ـ ٣٠ كم جنوب شرق مدينة بدر ـ مروراً بجبال رضوى وحرة لنير وجبال رال خط تقسيم مياه بين أودية تنحدر نحو السهل الساحلي، وأخرى في اتجاه الشرق نحو الداخل، وإنما تصرّف هذه الجبال مياهها نحو ساحل البحر الأحمر، سواء بشكل مباشر من السفوح الغربية لهذه الجبال، أو بشكل غير مباشر عن طريق السفوح الشرقية التي تتجمع لينتهي معظمها في وادي الحمض الذي يخترق هذه السلسلة، ويصب إلى الجنوب من مدينة الوجه في منطقة تبوك المجاورة.

ولعل الاتجاه العام للانحدار في منطقة المدينة المنورة باستثناء جبال الحجاز والسراة يتجه نحو الشمال والشمال الغربي ابتداءً من حدودها مع منطقة مكة المكرمة مروراً بحرة رهاط، والأجزاء الغربية لحرة خيبر حتى موقع أم زرب على مجرى وادي الحمض، تعود بعدها للارتفاع في اتجاه حرة عويرض، ويعني ذلك أن القسم الأعظم من منطقة المدينة المنورة هو حوض كبير تحيط به المرتفعات الجبلية، وتتجمع فيه شبكات تصريف الأودية لتشكل المجاري العليا والوسطى لوادي الحمض، ولا تشكل أحواض الأودية الأخرى إلا مساحات صغيرة كتلك التي تنحدر مباشرة إلى البحر الأحمر مثل أودية القاحة والصفراء والفرعة، أو تلك الأودية المتجهة شرقاً إلى حوض وادي الرمة كوادي ساحوق، أو التي تتجه شمالاً إلى تيماء والنفود كوادي قو، وإنه باستثناء الأودية المذكورة، تكاد تحيط المرتفعات الجبلية بمنطقة المدينة المنورة الإدارية من معظم جهاتها وكأنها حوض كبير لوادي الحمض، ويمكن تقسيم هذه المرتفعات حسب منسوبها وموقعها إلى ما يأتي:

أ ـ مرتفعات جبال الحجاز:

تشكل مرتفعات حرة رهاط أعلى المواقع ارتفاعاً في الحدود الفاصلة بين منطقة مكة



مرتفعات جبال الحجاز



جبل رضوى

المكرمة، ومنطقة المدينة المنورة، إلا أنها تنخفض تدريجياً لتشمل السفوح الشرقية لجبال الحجاز في منطقة المدينة المنورة، وتعلو إلى الغرب منها مرتفعات جبال الحجاز التي تزداد ارتفاعاً في كل من جبل عوف ١٨١٦ م فوق مستوى سطح البحر، وجبال صبح وجبال رضوى وجبل رال.

وتتكون جبال صبح من مجموعة من القمم الجبلية، وأهمها جبل البلاصة ١٨٤٦ م فوق مستوى سطح البحر، وجبل ورقان ٢٢٦٢ م، وتتقطع هذه الجبال بروافد وادي القاحة الذي يصب في البحر الأحمر، أما جبال رضوى التي تقع إلى الشمال من مدينة ينبع النخل، فتتكون هي الأخرى من مجموعة من الجبال يصل امتدادها إلى أكثر من ٨٠ كم من الشمال إلى الجنوب، وتنحدر من الجنوب إلى الشمال بين ٢١٧١ م في جبل رضوى جنوباً و ١١١٩ م في جبل العرقوب شمالاً، وهي تتكون من صخور اندفاعية باطنية من الجرانيت الأحمر[١]، وتنحدر منها مجموعة من الأودية في اتجاه البحر الأحمر، أهمها وادي الفرعة الذي يصب إلى الجنوب الشرقي من مدينة ينبع البحر، أما جبل رال فيشكل خط الحدود بين منطقة تبوك إلى الجنوب الشرقي من مدينة الوجه ومنطقة المدينة المنورة، إضافة إلى مجموعة أخرى من الجبال، ويتكون من صخور جرانيتية مجواة بعملية التجوية النخروبية[٢]، وتنحدر منه مجموعة من الروافد التي تصب في المجرى الأوسط لوادي الجزل الرافد الرئيس لوادي الحمض من الشمال.

ب ـ مرتفعات حرّتي العويرض وخيبر:

تتمثل هذه المرتفعات بعدد من القمم الجبلية قد يكون أبرزها أكثر البراكين ارتفاعاً شمال حرة العويرض ١٤٢١ م، تليها بعض القمم الواقعة إلى الشرق من الحرة ١١٠٣ م، ثم في الجنوب الشرقي بعض المرتفعات المكونة من الحجر الرملي البالبوزوي، وأخيراً

(١) الوليعي، عبدالله بن ناصر. جيولوجية وجيومورفولوجية المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ٢٥٣.

(٢) المرجع السابق، ٢٣٧.



مرتفعات حرتي العويرض وخيبر

مرتفعات حرة خيبر، كما هو الحال في جبل أبيض الواقع في وسط الحرة، وجبل أم سلمة ١٤٠٨ م إلى الجنوب الشرقي منه.



جبل أحد

ج ـ مرتفعات منخفض المدينة المنورة:

تحيط هذه المرتفعات بمنخفض المدينة المنورة من الاتجاهات جميعها، عدا الاتجاه الشمالي الغربي، حيث مجرى وادي الحمض، ويراوح منسوب منخفض المدينة المنورة بين ٥٥٠ و٧٠٠ م فوق مستوى سطح البحر، وترتفع مجموعة من الكتل الجبلية والتلال المتباينة الارتفاع والمبعثرة من دون انتظام، حيث تفصل بين مجرى وادي بطحان ومجرى وادي العقيق شمال المدينة المنورة مجموعة من التلال؛ أهمها جبل سلع ٦٨١ م، وجبل عينين أو جبل الرماة، كما يوجد إلى الغرب من مجرى وادي العقيق جبل الجرف ٦٥١ م، والجماوات الثلاث وهن: جماء تضاريع ٩١٤ م، وجماء أم خالد ٩٦٥ م، وجماء عاقل ٩٤٤ م[١]، كما يوجد إلى الجنوب من المدينة



جبل عير

(١) عبدالرحمن صادق الشريف، «الجيمورفولوجيا في منطقة المدينة المنورة»، في كتاب: *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: محمد أحمد الرويثي، ومصطفى محمد خوجلي. ط١، (المدينة المنورة: نادي المدينة الأدبي، ١٩٩٨ م)، ٣٤.

المنورة على بعد يراوح بين ٨ و ١٨ كم، كل من جبل عير ١٠٢٤ م، وجبل الأسمر ١٠٧٨ م، على جانبي وادي العقيق الأيمن والأيسر على التوالي، أما في شمال المدينة المنورة فلعل جبل أحد ١٠٧٢ م الذي ينتصب على الجانب الأيمن لوادي العاقول (وادي قناة)، ويليه في اتجاه الشمال الشرقي جبال الوعيرة ١١١٥ م، وجبل ثور وبعض التلال الأخرى، (خريطة ٣).

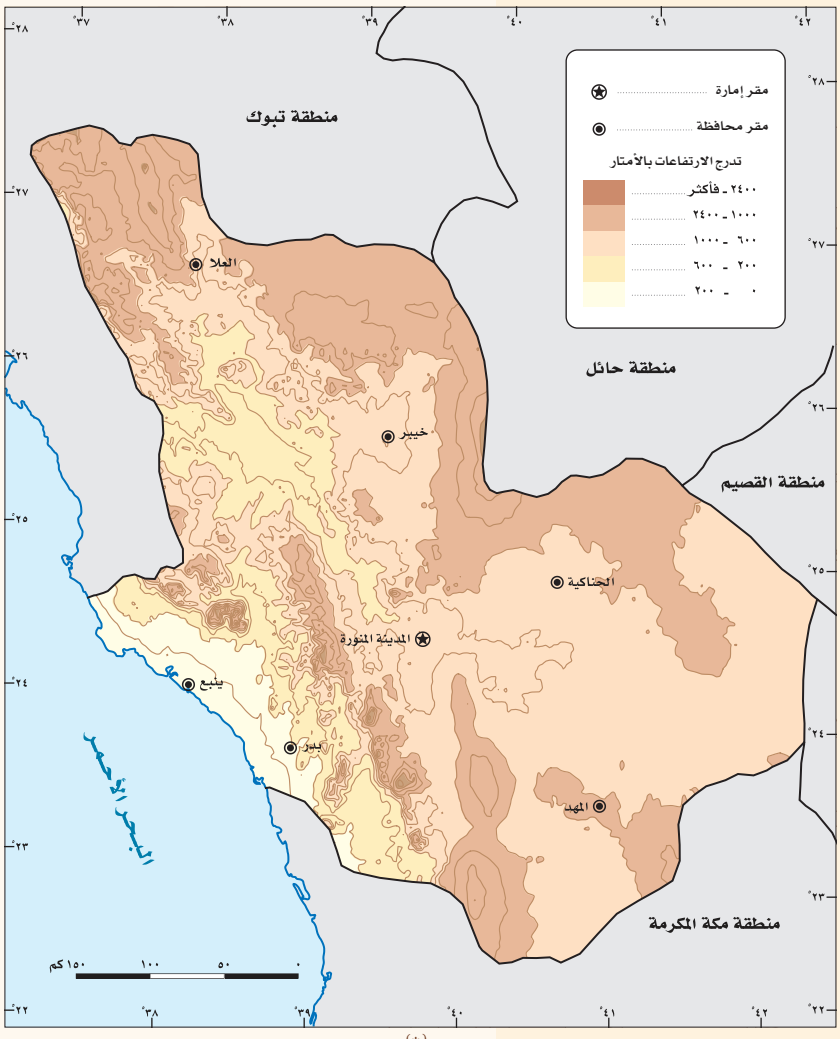

خريطة ٣: طبوغرافية منطقة المدينة المنورة(*)

ثانياً ـ تضاريس الحرات:

قد تكون الحرات البازلتية هي أكثر ما يرتبط بأذهان كثيرين عن تضاريس السطح في منطقة المدينة المنورة لأن المدينة تقع بين لابتيها، وتتوزع الحرات في منطقة المدينة المنورة في الجنوب والشمال والشمال الغربي والغرب والشرق، ففي الجنوب تضم منطقة المدينة المنورة ثلثي حرة رهاط من الشمال، كما تضم المنطقة ثلثي حرة خيبر من الجنوب، وفي الجنوب الشرقي توجد امتدادات لحرة كشب، وفي الشرق حرة واقم، أما في الشمال الغربي فتضم المنطقة حرة عويرض. كما تضم في الغرب حرة لنير. وتراوح أعمار البازلت في هذه الحرات بين الزمنين الجيولوجيين الثالث والرابع، إضافة إلى أن بعضها قد تدفق خلال العصور التاريخية.

وتتكون هذه الحرات من البازلت الأوليفيني القلوي والانتقالي والهاويت والباسانيت متمثلاً بشتى أنواع المقذوفات البركانية التي شكلت جميعها مجموعة متنوعة من المخاريط البركانية وحقول من الرماد البركاني التي أضفت لوناً داكناً على تضاريس هذه الحرات، وأبرزها ما يأتي:

أ ـ حرة رهاط:

ينحدر سطح حرة رهاط من ارتفاعات تزيد على ١٣٠٠ م فوق مستوى سطح البحر؛ تزيد أحياناً على أكثر من ١٧٠٠ م في الجنوب لتصل إلى ما يعلو قليلاً فوق مستوى سطح المدينة المنورة في الشمال ٦٥٠ م. وتشكل حرة رهاط خط تقسيم المياه بين الأودية المنحدرة في اتجاه سهل ركبة، وفي اتجاه وادي الرمة من جانب، والأودية المتجهة غرباً

(*) تمت مراجعتها واعتمادها من قبل الإدارة العامة للمساحة العسكرية.



تضاريس الحرات في منطقة المدينة المنورة

نحو السهول الساحلية على البحر الأحمر من جانب آخر. حيث يمتد على الطرف الغربي للحرة الجرف الرئيس المشرف على تهامة من ارتفاع ١٠٠٠ م، في حين لا يزيد ارتفاع الحرة فوق الأمكنة الشرقية على ٢٠٠ م[١].

وتشير الأدلة التي ذكرت في جيولوجية الحرات إلى أن بازلت حرة رهاط قد تدفق من شقوق تمتد شمالاً وتشكل جزءاً من نطاق مكة ـ المدينة ـ النفود البركاني. فقد تشكلت براكين الأمكنة المركزية على طول هذا الخط، ولا تزال تشكل هذه المخاريط المعالم الرئيسة على سطح الحرة، إلا أن هناك بعض البراكين التي انحرفت عن المحور الرئيس نحو شمال الشمال الغربي.

وتتعدد نماذج البراكين على سطح حرة رهاط ضمن منطقة المدينة المنورة؛ فالبراكين الدرعية تتوزع من أقصى جنوب الحرة عند جبل مغشية إلى أقصى شمالها الغربي جنوب شرق جبل عير، ويصل عددها إلى ٢٢ بركاناً متفاوتة الأحجام



حرة رهاط

والأبعاد. كما يوجد عدد من مخاريط الخبث البركاني. وباستثناء بركان جبل مغشية الدرعي في أقصى الجنوب الذي نشأ في بازلت شواحط، فإن ١٥ بركاناً قد أنشأها تدفق بازلت حمة وبقية البراكين

(١) معراج نواب مرزا، «السمات البنيوية والمورفولوجية للحرات في غرب المملكة العربية السعودية»، بحث غير منشور، ٩.



حرة خيبر

الخمسة الأخرى شكلها تدفق بازلت المدينة. ومعظم البراكين الدرعية الواقعة إلى جنوب دائرة عرض ٢٠َ ٢٣ْ شمالاً قد فقدت فوهاتها نتيجة للتعرية التي تعرضت لها، وهو ما ينطبق بطبيعة الحال على براكين الخبث البركاني الأقل مقاومة، كما أن هناك علاقة بين شدة التعرية في المناطق البركانية وبين عمرها الزمني؛ لأن صخور بازلت شواحط وبازلت حمة من أقدم صخور بازلت حرة رهاط، فقد تعرضت منذ تدفقها - حتى الآن - لفترة طويلة من التعرية التي أعطتها أيضاً ألواناً أفتح من التدفقات الحديثة. وعلى العكس من ذلك، بازلت المدينة الذي ينتشر في شمال الحرة يبدو بألوان شديدة السواد، وكأنها قد خمدت بالأمس. وكان آخر تدفق لبازلت المدينة المنورة قد حدث عام ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م، ونجم عنه تشكيل سد الحبس الذي قطع الجريان في هذه الأمكنة الواقعة جنوب شرق مطار المدينة المنورة.

ب - حرتا خيبر والكرى:

تضم منطقة المدينة المنورة الإدارية معظم حرة خيبر باستثناء الزاوية الشمالية الشرقية منها والمتصلة بحرة اثنين، كما تضم الحرة امتداداً جنوبياً لها معروفاً باسم حرة الكرى. ويصعد سطح الحرة من الجنوب إلى الوسط حيث أكثر الأجزاء ارتفاعاً في جبل أبيض ٢٠٠٠ م قرب الحدود بين منطقة المدينة المنورة ومنطقة تبوك، إلا أن سطح الحرة يستمر في الأجزاء الشمالية الغربية في الانخفاض مرة أخرى في الاتجاه نفسه. وتعد حرة خيبر امتداداً للنطاق البركاني مكة - المدينة - النفود، حيث تدفق البازلت من براكين مركزية تمتد من الجنوب إلى الشمال وتتوافق مع صدوع متجهة نحو الشمال[١].

وتتعدد نماذج الأشكال البركانية على سطح الحرة، وتعد مخاريط الخبث البركاني الأكثر انتشاراً، ويقدر عددها في منطقة المدينة المنورة بنحو ٢٥٠ مخروطاً، يليها نحو ٣٦ بركاناً درعياً و ٣٩ تدفقاً بازلتياً من نوع

(١) M. J. Roobol, and V. E. Camp, 3.op cit, 1991.

ظهر الحوت، ونحو ٢٠ قبة بازلتية و ٥ براكين رماد وبركان طباقي واحد. ومن الملاحظ أنه باستثناء تدفقات ظهر الحوت البازلتية وبعض البراكين الدرعية ومخاريط الخبث، فإن معظم الأشكال المشار إليها تتجمع في المنطقة المركزية للحرة.

وما تجدر الإشارة إليه أن معظم البراكين الدرعية الواقعة في غرب حرة خيبر المسمى بحرة الكرى، قد تعرضت لنحت شديد، والسبب في ذلك أنها من أقدم التدفقات البازلتية في الحرة، إذ تنتمي إلى عصر المايوسين. أما أكثر الأشكال البركانية اللافتة للنظر، فهي الأشكال التي كونتها التدفقات الحديثة الناجمة عن بازلت أبيض. وتتمتع حرة خيبر بأجمل ثلاثة براكين وأحدثها، وهذه البراكين هي مخروط الرماد البركاني لجبل أبيض الذي تمتد فوهته بقطر ١,٥ كم، وقد نشأت بداخلها فوهتان أحدث عمراً. يليه المخروط البركاني الطباقي لجبل قدر الواقع إلى الشمال منه، وقبة جبل أبيض المكونة من الأبسيدون الرمادي مع بلورات بيضاء من الكومنديت (Comendite). وتنتمي مقذوفات جبل قدر وبازلت أبيض وتدفقاتهما إلى العصور التاريخية.

ج - حرة العويرض:

تعد حرة العويرض امتداداً جنوبياً شرقياً لحرة الرحا، وتقع هذه الحرة في أقصى شمال غرب منطقة المدينة المنورة. وكما هو الحال في الحرات الأخرى، يرتفع مركز المدينة في هذه الحرة عن الأطراف، إلا أن الارتفاع العام للسطح ينحدر من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي بارتفاع يقرب من ١٨٠٠ م



مرتفعات حرة العويرض

إلى ٧٠٠ م قرب مدينة العلا، ومن الظاهرات اللافتة للنظر في هذه الحرة وجود منخفض على الطرف الغربي الأوسط لها، والمسمى بحلة البدر بجوار جبل تذرع في موقع الجو. ولأن هذا المنخفض قد تشكل ضمن صخور الحجر الرملي لتكوين رام وأم سهم، فمن المرجح ألا يكون هذا المنخفض قد تغطى بتدفقات البازلت لكونه مرتفعاً عند التدفق، إلا أن عمليات التعرية الكثيفة التي تظهر آثارها بوضوح على أطراف الحرة جميعها، قد نحتت هذا المرتفع الأقل مقاومة من البازلت المحيط به وحولته إلى منخفض بالشكل الحالي.

وتنحدر مجموعة أودية من مركز المدينة لحرة العويرض نحو الأطراف الشرقية والغربية لها، حيث تصب الأودية الشرقية



حرة لنير

في واديين رئيسين هما وادي مصول المتجه نحو شمال الشمال الغربي ووادي الحمضة المتجه جنوباً إلى مدينة العلا، أما الأودية الغربية فهي جميعها روافد لوادي الجزل الرافد الرئيس لوادي الحمض.

وتنتمي تدفقات البازلت في حرة العويرض إلى ثلاث فترات زمنية؛ أقدمها عمراً تنتمي إلى عصر المايوسين الثلاثي، حيث تغطي صخور الحجر الرملي لتكوين رام وأم سهم (أوائل الزمن الجيولوجي الأول). أما التدفق الأوسط فيرجع إلى الزمن الجيولوجي الرابع، والتدفق الثالث حدث في العصور التاريخية، إذ تفجر بركان تذرع وقضى على كثير من الرعاة في المنطقة[١].

د ـ حرة لُنَير

تقع حرة لنير إلى شمال الشمال الغربي لمدينة ينبع البحر، على قمم جبال الحجاز الفاصلة بين حوض وادي الحمض والسهل الساحلي. وتشير ألسنة البازلت التي تدفقت في الاتجاهين الداخلي إلى مجرى وادي الحمض والساحلي إلى موقعين؛ أولهما في الجنوب إلى شرم الخور، وثانيهما نحو الغرب إلى حرة قليب شمال مدينة أملج. وقد وصلت التدفقات في كلا الموقعين إلى خط الساحل من ارتفاع يزيد على ١٠٠٠ م فوق مستوى سطح البحر.

وتشير مورفولوجية هذه الحرات وعلاقاتها الجيومورفولوجية بالمدرجات البحرية عند خط الساحل إلى أنها تنتمي إلى فترات زمنية وصلت حتى البلايستوسين الأعلى[٢]، وربما حتى الهولوسين والعصور التاريخية[٣]. وتشير المخاريط المركزية في حرة لنير إلى أنها تتوافق مع صدوع ذات اتجاه شمالي جنوبي، حيث تتابع هذه المخاريط في الاتجاه نفسه.

ثالثاً ـ الأودية (شبكات التصريف المائي):

إن أودية المدينة المنورة جميعها تصرف مياهها إلى البحر الأحمر باستثناء أحواض صغيرة في منطقة المدينة المنورة كحوض وادي ساحوق شرق حرة خيبر الذي يتجه شرقاً إلى وادي الرمة، وحوض وادي قو شمال الحرة والمتجه إلى تيماء سواء بصورة مباشرة كالأودية الساحلية أو باعتبارها أحواض روافد تنتهي إلى حوض وادي الحمض ليقطع بها جبال الحجاز متجهاً نحو البحر الأحمر، ويصب إلى الجنوب من مدينة الوجه بنحو ٥٥ كم، مشكلاً دلتا واسعة في السهل الساحلي، فهي أودية قصيرة نسبياً، وأهمها من

(١) الوليعي، عبدالله بن ناصر. جيولوجية وجيومورفولوجية المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ١٥٥.

(٢) محمد سعيد البارودي، «تغيرات مستوى سطح البحر خلال البلايستوسين وآثارها الجيمورفولوجية على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر»، *الجمعية الجغرافية الكويتية*، ع٣٣، (الكويت: ٢٠٠٠ م)، ٨٦، ٨٧.

(٣) الوليعي، عبدالله بن ناصر. جيولوجية وجيومورفولوجية المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ١٥٧.

الجنوب إلى الشمال: المجرى الأعلى لوادي رابغ ووادي الفرع ووادي الصفراء ووادي الفرعة.

أما الأودية التي تصرف مياهها بشكل غير مباشر إلى البحر الأحمر وترفد وادي الحمض، فهي أودية منخفض المدينة المنورة: (العقيق، قناة، العاقول، النقمي)، ووادي ملل ووادي فرشة ووادي الجزل ووادي خيبر، وفيما يأتي نبذة من هذين النموذجين من الأودية.

أ ـ أودية النموذج الأول:

وتشمل أودية هذا النموذج: وادي الفرع ـ القاحة ـ الأبواء، ووادي الصفراء، ووادي ينبع النخل ـ الفرعة، ويمكن تناولها على النحو الآتي:

١ ـ أودية الفرع والقاحة والأبواء:

يبدأ وادي الفرع من أطراف حرة رهاط مجاوراً لمنابع وادي العقيق، ويستمر غرباً حيث يخترق جبال قدس، وامتدادها الجنوبي جبال آره في مضيق الفرع، ويستمر بعد ذلك ليلتقي بوادي القاحة غرب رابغ، أما وادي القاحة فيستمد مياهه من السفوح الغربية لجبال عوف ليتجه جنوباً وغرباً قبل أن يلتقي بوادي الفرع المذكور، ويشكلان معاً وادي الأبواء الذي يصب في خور الخرار بطول كلي يبلغ ٦٥ كم[١].

٢ ـ وادي الصفراء:

يبدأ وادي الصفراء من سفوح جبال ورقان والفِقرَة ليتجه نحو الجنوب الغربي ويلتقي بوادي طاشا القادم من الشمال



وادي ينبع النخل ـ الفرعة

الذي يصرف مياه سفوح مجموعة من الجبال تكسب وادي الصفراء غزارة نسبية في الجريان الذي يتلوى بين جبال الحجاز، ويخرج عند بدر إلى السهل الساحلي ليصب في البحر الأحمر قرب الرايس، وغالباً ما يسبب مشكلات مرورية عند فيضانه على طريق المدينة المنورة ـ جدة.

٣ ـ وادي ينبع النخل (الفرعة):

يبدأ وادي ينبع النخل أو الفرعة من وادي بواط غرب المدينة المنورة، ويجري بعدها بين جبلي الأشعر جنوباً والأجرد شمالاً، ويتلقى منهما أهم روافده، وهما وادي بواط ووادي رخو، ويلتقي بوادي نجيل عند السهل الساحلي الذي يقطعه ويصب في البحر الأحمر جنوب مدينة ينبع.

ب ـ أودية النموذج الثاني:

أما النموذج الثاني من الأودية التي تصب في البحر الأحمر بشكل غير مباشر، فهي

(١) عائشة أحمد الحاج، «السمات العامة لمراكز الاستيطان الريفي في إمارة منطقة المدينة المنورة»، رسالة دكتوراه غير منشورة، (جدة: كلية التربية للبنات، ١٩٩٣ م)، ١٧٢.



وادي العاقول

أودية كل من منخفض المدينة المنورة وأودية حوض وادي الحمض، ويمكن الإشارة إليها على النحو الآتي:

١ ـ أودية منخفض المدينة المنورة:

تتكون أودية منخفض المدينة المنورة من أودية: العقيق، وقناة ـ العاقول، والنقمي، وفيما يأتي نبذة من كل منها:

أ) وادي العقيق:

تشكل الروافد المنحدرة من جبال عوف في الجنوب الغربي من منخفض المدينة المنورة وأهمها وادي اليتيمة، إضافة إلى وادي اليتامى القادم من أقصى جنوب المجاري العليا لوادي العقيق، في قاع الحماط المجاور للحدود الغربية لحرة رهاط الذي تصل مساحته إلى ٢٠٠٠ كم^{٢}، ويرتفع سطحه ٨٥٠ م فوق مستوى سطح البحر[١]، وغالباً ما يفيض قاع الحماط ليخرج منه وادي النقيع الذي يتجه شمالاً إلى قاع العضيرسة، ومن ثم إلى وادي العقيق الذي يمر بمنطقة أبيار علي، ثم إلى غرب المدينة المنورة وشمالها ليلتقي بمجموعة من الروافد الرئيسة عند منسوب ٦٠٠ م فوق مستوى سطح البحر بعد أن يكون قد تلقى رافده الأيمن وادي بطحان الذي يخترق المدينة المنورة، وأهم هذه الروافد الرئيسة واديا قناة ـ العاقول والنقمي.

ب) واديا قناة والعاقول:

ينشأ وادي قناة من تصريف السفوح الجنوبية الغربية لجبل أم سلمة ١٤٠٨ م عن طريق مجموعة من الروافد التي تنتهي في قاع العاقول، إضافة إلى عدد من الروافد التي تصرف الأطراف الشمالية والشمالية الشرقية لحرة رهاط، حيث تنتهي جميعاً في قاع العاقول الذي يفيض بعد امتلائه بالماء في وادي العاقول، وهو امتداد لوادي قناة بعد القاع الذي نشأ أصلاً بسبب تدفق بازلتي سد مجرى الوادي في العصور التاريخية، ثم ينحرف وادي العاقول نحو الشمال ليلتقي بوادي العقيق شمال المدينة المنورة بنحو ثمانية كيلومترات.

ج) وادي النقمي:

يصرف وادي النقمي الأطراف الجنوبية لحرة خيبر، وبعض المرتفعات الجبلية المكونة من صخور الدرع العربي الواقعة إلى الشمال من المدينة المنورة، ويتكون من مجموعة من الروافد لعل أهمها شعيب

(١) الشريف، عبدالرحمن صادق، «الجيمورفولوجيا في منطقة المدينة»، المدينة المنورة: البيئة والإنسان، مرجع سابق، ٤٠.



وادي العقيق

الصهاوة ووادي مهلهل، ومن ثم يتجه وادي النقمي نحو الجنوب الغربي ليلتقي مع وادي العقيق قرب العيون ويشكلان معاً ما يسمى في هذه النقطة بوادي الحمض.

٢ ـ أودية حوض وادي الحمض:

يبدأ وادي الحمض مجراه بعد التقاء وادي العقيق والنقمي متجهاً نحو الشمال الغربي مستغلاً عدداً من الصدوع التي جعلته كثير التعاريج، وذا مجرى واسع سمح بمد سكة حديد الحجاز إضافة إلى طريق المدينة المنورة ـ خيبر، وترفد الوادي مجموعة من الروافد لعل أهمها من الطرف الأيمن وادي ملل، ومن الطرف الأيسر وادي الفرشة (ألتمة) إلى الشرق من قرية المليليح، حيث يدخل بعدها الوادي إلى منطقة سهلية سبخية بطول يصل إلى نحو ٧٠ كم، وأهم سباخها سبخة أم زرب وسبخة مجهرة، ويلتقي الوادي فيها عدداً من الروافد الرئيسة الأخرى كأودية خيبر من الجانب الأيمن ووادي الجزل من الشمال الغربي، وتتكون شبكة تصريف حوض وادي الحمض ـ بالإضافة إلى أودية منخفض المدينة المنورة التي سبق الحديث عنها ـ من وادي الجزل ووادي ملل ووادي الفرشة (ألتمة) ووادي العيص وأودية خيبر، وفيما يأتي نبذة من كل منها:

أ) وادي ملل:

يقع حوض وادي ملل إلى الغرب مباشرة من حوض وادي العقيق، ويصرف الوادي سفوح المرتفعات الواقعة في الواجهة الغربية لحوض المدينة المنورة كجبال ضبع وجبل السنام الواقعة على يسار طريق المدينة المنورة ـ مكة، وجبال النمر والحميا وطور الفليق في الغرب، ويشق مجراه شمالاً قبل أن ينحرف نحو الشمال الشرقي ليصب في وادي الحمض قبل قرية بواطة على بعد نحو ٤٠ كم شمال غرب المدينة، يليه مصب وادي بواط عند بواطة.



وادي العيص

ب) وادي الفرشة:

تنشأ شبكة روافد وادي فرشة (ألتمة) من الأطراف الجنوبية الغربية لحرة خيبر من مجموعة جبال نارية ومتحولة، وتتجه نحو المجرى الرئيس للوادي الذي يلتقي بوادي الحمض عند قلعة الجيا الأثرية عند منسوب ٥٠٠ م فوق مستوى سطح البحر، كما تلتقي أودية حرة خيبر بوادي الحمض في هذه المنطقة أيضاً.

ج) وادي العيص:

يستمد مياهه من السفوح الشمالية الشرقية لحرة لنير، وبعض الجبال الأخرى كجبل سربال ١٠٢٢ م، وجبل الحمرا ٨٨٠ م ويتجه بعد ذلك شمالاً ليصب على الجانب الأيسر لوادي الحمض على شكل عدد من الأفرع تتغير حسب قوة الجريان في الوادي.

د) وادي الجزل:

تنشأ المجاري العليا لوادي الجزل من السفوح الغربية لحرة الرحا، إضافة إلى سفوح عدد من الجبال كجبل وتد ٢٠٢٣ م، وينشأ من التقاء واديين هما وادي النقيب ووادي الفرعة شمال غرب مدينة أبوراكة، إذ ينحدر وادي الجزل بعدها متعمقاً ضمن خطوط صدعية حيث يستقبل مجموعة من روافد حرة العويرض، كما يستقبل بعض الروافد القادمة من المرتفعات الغربية قبالة مدينة العلا التي يلتقي إلى الجنوب منها بوادي مغيراء ووادي مُطران قبل أن يلتقي بوادي الحمض في الأمكنة السهلية عند بئر فقير بطول إجمالي قدره ٣٤٥ كم[١]، أما وادي الحمض فيتجه نحو الشمال الغربي قاطعاً مجموعة من المرتفعات على شكل مجرى متعمق ليلتقي به وادي القدير الذي ينحدر من جبل الورد ٢٠٩٦ م، كما يلتقي مجموعة من روافد جبل رال الشمالي ٨٨١ م، وجبل رال الجنوبي ٩٤٥ م ويتجه بعدها نحو السهل الساحلي مشكلاً دلتا نموذجية عند خط الساحل، حيث يصب جنوب مدينة الوجه بنحو ٥٥ كم في منطقة تبوك، (خريطة ٤).

والخلاصة أن تغيرات الأودية في منطقة المدينة المنورة تشير إلى أنها تأثرت بمجموعة من العوامل التي طرأت على المنطقة ما أعطاها الشكل الحالي، وأهم هذه العوامل:

- أدت الحركات التكتونية إلى حدوث عمليات أسر نهري على نطاق واسع، فقد تسببت عمليات الرفع التي تعرضت لها جبال الحجاز إلى تغيرات في اتجاه تصريف أودية كل من وادي الحمض ووادي الفرعة ووادي الصفراء[٢].

(١) الوليعي، عبدالله بن ناصر. جيولوجية وجيومورفولوجية المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ٢٤٣.

(٢) المرجع السابق، ٢٣٩.

- أدت التدفقات البازلتية إلى سد الطريق أمام عدد من الأودية شرق حرة رهاط، ما نتج منه نشأة عدد من القيعان والسباخ أهمها قاع حضوضاء وقاع الحرجة، كما سد آخر تدفق بازلتي مجرى وادي قناة ـ العاقول خلال العصور التاريخية.
- أدت الاختلافات الليثولوجية (علم الصخور؛ طبيعة تكون الصخور) بين صخور البازلت من جانب، والصخور الاندفاعية الباطنية والمتحولة من جانب آخر دوراً مهماً في تغير أنماط التصريف لشبكات الأودية في المنطقة.

رابعاً ـ السهول:

تبدو السهول أكثر انتشاراً في الأجزاء الساحلية لمنطقة المدينة المنورة منها في المناطق الداخلية، فالسهول الساحلية تمتد كنطاق واسع نسبياً محاذٍ لخط ساحل البحر الأحمر وهو ما يعرف بتهامة، في حين نجد أن سهول المنطقة الداخلية تتوزع في أمكنة متفرقة حول مجاري الأنهار أو مخارجها من المنطقة الجبلية، وفيما يأتي عرض موجز لهذين النوعين من السهول:

أ ـ السهول الساحلية (تهامة):

تمتد السهول الساحلية بموازاة خط ساحل البحر الأحمر الذي يشكل حدودها الغربية تقريباً، على حين نجد أن الحدود الشرقية لهذه السهول مثار جدل بين الدارسين لاختلاف المنسوب الذي عُدَّ حداً لها في الشرق، وقد يكون من المفيد عرض أهم الآراء حول تحديد تهامة عند المتقدمين أو المحدثين، فقد أطلق اسم تهامة عليها لشدة حرها وركود ريحها، وجبال السراة والحجاز هي الحد الفاصل بين تهامة ونجد، إلا أن هذا التحديد يبقى فضفاضاً، ومن ثم فقد رأى بعضهم أن هناك عدداً من النقاط تمثل هذا الحد، ومنها ذات عرق والعرج والطائف، وبناء على ذلك يمكن تحديد ملامح تهامة في النقاط الآتية:

- تشغل تهامة السهول والمنخفضات الساحلية المطلة على البحر الأحمر، وتمتد بمحاذاة جبال السراة والحجاز،

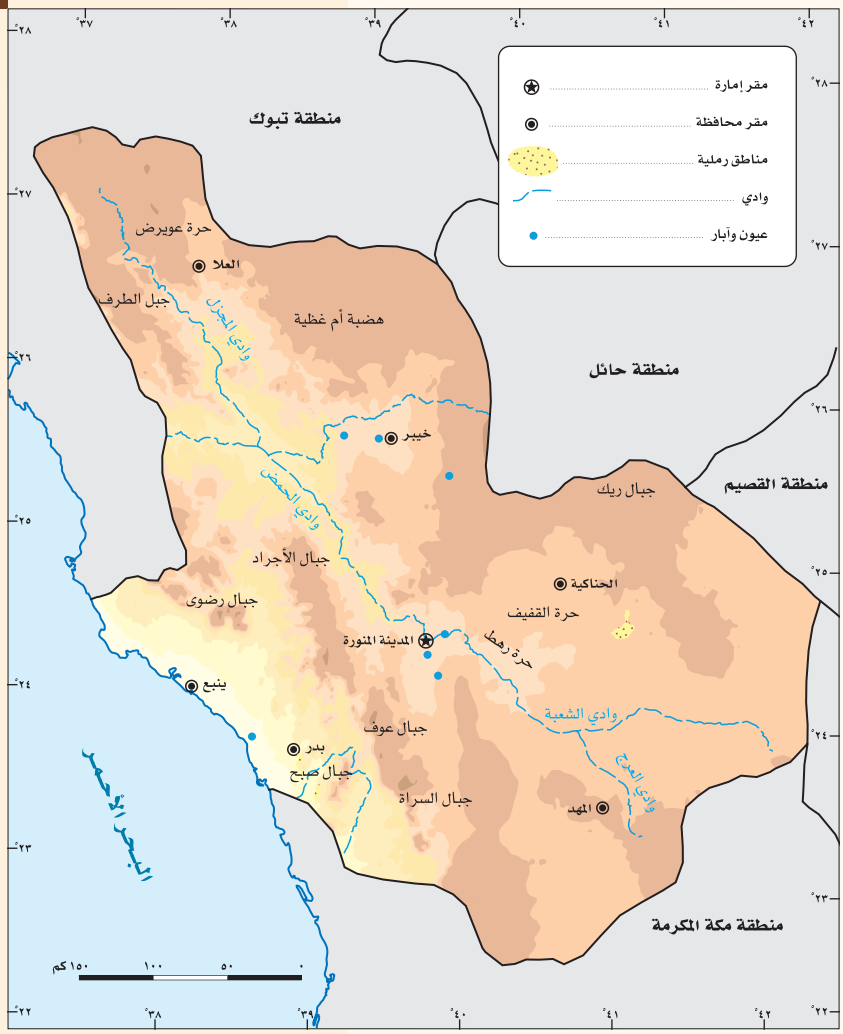

خريطة ٤: أهم المظاهر الجغرافية بمنطقة المدينة المنورة(*)

(*) تمت مراجعتها واعتمادها من قبل الإدارة العامة للمساحة العسكرية.



المدرجات البحرية

بحيث يحدها الحاجز الجبلي شرقاً وساحل البحر الأحمر غرباً.

- تتعدى حدود تهامة السهل الساحلي إلى حضيض الجبال شرقاً.
- يتضح وجود حد مناخي متميز بين جبال السراة والحجاز من جانب وسهول تهامة من جانب آخر، إذ يعتدل المناخ في الأول ويزداد حرارة في الثاني.
- تختلف الحياة النباتية بين جبال الحجاز وسهل تهامة، فبعد سيادة غابات العرعر وأشجار الطلح على المرتفعات الجبلية تتحول الأشجار تدريجياً إلى أنواع السلم والسدر والسمر والقتاد المميزة لتهامة.

ويمكن أن نخلص إلى أن الأكثر تحديداً لتسمية تهامة حالياً هو أنها تمثل السهول الساحلية المنخفضة الممتدة موازية لخط الساحل، وتتكون من رواسب مفككة تغطيها رواسب المجاري الدنيا للأودية الممتدة من الجبال المجاورة، إضافة إلى بعض الرواسب الساحلية النشأة كالسباخ الساحلية، أو نطاقات الشواطئ الرملية، ويمكن تناول خصائص السهل الساحلي في منطقة المدينة المنورة على النحو الآتي:

١ ـ المراوح الغرينية:

إن أهم ما يميز السهل الساحلي لمنطقة المدينة المنورة جنوب مدينة ينبع وساحل جنوب مستورة وجود المراوح الغرينية، حيث تتلاقى عند خط الساحل بمسطحات مدية أو سباخ، وتنتهي عند السفوح الجبلية بتراكمات من الرمال المذراة والمنساقة من بطون الأودية نحو شرق السهل الساحلي. وتنتمي المراوح الغرينية إلى فترات متعددة من الزمن الرابع، حتى العصر الحالي، وتظهر غطاءات الحصى إلى الجنوب من مدينة ينبع البحر، وحول مصب وادي الصفراء، أو تتكون من الحصى والغرين والرمل والطين، وتشير مواقع هذه المراوح إلى ارتباطها بمصبات الأودية الخارجة من المنطقة الجبلية إلى السهل الساحلي كوادي الفرعة ووادي الصفراء.

٢ ـ المدرجات البحرية:

المدرجات البحرية توجد في ساحل مدينة ينبع، وهي الأكثر تنوعاً سواء بمناسيبها فوق مستوى سطح البحر أو بتنوع مكوناتها، وتوجد مجموعة من مدرجات الحصى ومدرجات الشعاب المرجانية على مناسيب مختلفة فوق مستوى سطح البحر، وتتكون مدرجات الحصى من فرشاة حصوية رقيقة وسطح منبسط وانحدار واضح في اتجاه البحر، وتقع هذه المدرجات عند مستويين، يتكون المستوى الأعلى منهما من أسطح منحدرة نحو البحر، ومغطاة بحصى

وجلاميد، وتأخذ أشكالاً متطاولة بين الأودية المنحدرة إلى خط الساحل، وتتوزع حالياً في مواقع إلى الشمال الغربي من مدينة ينبع البحر، ويصل منسوبها إلى ٦٠ م، وتنتمي إلى هذا المدرج نفسه المدرجات التي تبرز وسط مروحة وادي الصفراء إلى الغرب من مدينة بدر، وتتكون من ربوتين ترتفعان وسط المروحة، وتتكونان من حصى بركاني وحصى متأثر بورنيش الصحراء يميل إلى السواد. أما المستوى المنخفض للمدرج البحري فيقع أسفل المدرجات العليا، ويتكون من سطوح حصوية مغطاة بحصى مستدير ومفكك عليه بقع سوداء، ويعد هذا المدرج أكثر حفظاً من المدرج الأعلى، وتتوزع بقاياه حول شرم ينبع وعند المجرى الأدنى لوادي كمال، ويصل أقصى ارتفاع له إلى ١٢ م فوق مستوى سطح البحر[١]، وقد نسب عمر المدرج الأعلى إلى البلايستوسين الأدنى، في حين نسب المدرج الأسفل إلى البلايستوسين الأعلى[٢].

ويعكس وجود المدرجات البحرية حركات كل من مستوى سطح البحر، إضافة إلى حركات الرفع القاري، إذ تسببت هذه الحركات في تقطيع المراوح الغرينية والسهول الساحلية وتحديدها، وتعمق بعضها إلى ما دون مستوى سطح البحر خلال الفترة الجليدية الأخيرة، ما أدى إلى طغيان مياه البحر في فترة ما بعد الجليد، حيث ملأت هذه الأودية وأنشأت شروم المنطقة، كما أدت تغيرات مستوى سطح البحر إلى نشأة معظم أشكال السطح في هذه السهول الساحلية التي من أهمها الشروم والشعاب المرجانية والسباخ، ويمكن تناولها كما يلي:

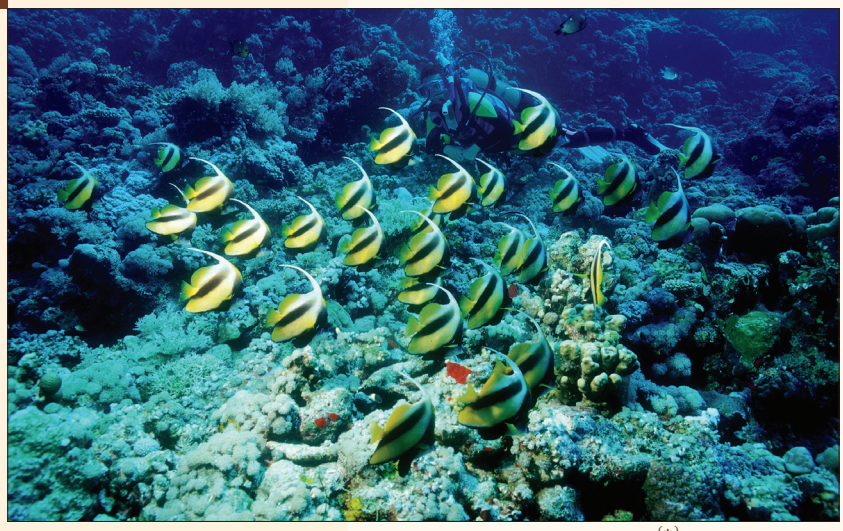

الشعاب المرجانية(*)

أ) الشعاب المرجانية:

تنتشر الشعاب المرجانية أمام ساحل منطقة المدينة المنورة الذي يمتد من شمال مدينة رابغ حتى رأس بريدي إلى الشمال الغربي من مدينة ينبع البحر، وعلى الرغم من امتداد الشعاب المرجانية على طول الساحل إلا أنها تزداد اتساعاً في الساحل الممتد بين مدينة ينبع البحر ورأس بريدي، كما تزداد في الساحل الممتد شمال مدينة مستورة.

وتأخذ الشعاب المرجانية أشكالاً متعددة سواء في الأمكنة الساحلية أو بعيداً عنها، وربما تكون الشعاب الأطرية الساحلية (Fringing Reefs) أكثرها انتشاراً، تليها الشعاب المرجانية للساحل الخارجي (Off Shore Reefs) تضم الشعاب الخارجية مجموعة من الأنواع، وأكثرها انتشاراً في ساحل منطقة المدينة المنورة الشعاب الحاجزية (Barrier Reefs)، والشعاب المرجانية العائمة، ويعد هذا القسم من ساحل البحر الأحمر الأكثر فقراً في أشكال الشعاب المرجانية الأخرى،

(١) البارودي، محمد سعيد. «تغيرات مستوى سطح البحر خلال البلايستوسين وآثارها الجيمورفولوجية على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر»، الجمعية الجغرافية الكويتية، مرجع سابق، ع٣٣، ٨٦.

(٢) Op. Cit., Hotzl, H. et al.,1984, 94.

(*) المصدر: الهيئة العليا للسياحة.

كأنواع الشعاب الحلقية والشعاب المحيطية، إلا أن هذه الشعاب تعود للازدهار مرة أخرى إلى الشمال حول مدينة أملج.

ويتأثر نمو المرجان بعدد من العوامل البيئية المتوافرة بشكل نموذجي في البحر الأحمر، ما أدى إلى تنوع كبير في نماذج بنيات هذه الشعاب منذ أواسط الزمن الثالث، وخلال الزمن الرابع حتى الوقت الحاضر، إلا أنها تعرضت لبعض التغيرات البيئية التي حدثت خلال العصر الجليدي، ويعد الضوء والحرارة والملوحة من أهم العوامل المؤثرة في نمو الشعاب المرجانية والطحالب المصاحبة لها وتطورها، كما تؤدي حركة المياه المتمثلة في الأمواج والتيارات البحرية دوراً مهماً في ازدهار حياة المرجان وانتشاره[1]، وبناء على هذه العوامل، فإن صفاء مياه البحر ضروري لتغلغل الضوء إلى الأعماق، وحيثما يقل صفاء الماء يزيد التعتيم ويقل الضوء، ومن ثم فإن معظم المرجان لا يعيش أمام مصبات الأنهار والأودية أو في أعماق تزيد على ٥٠ م، كما تعد البحار التي لا تهبط فيها درجة الحرارة عن ١٨ م الأفضل لنمو المرجان، أما درجة الملوحة الملائمة لحياته فتراوح بين ٢٧ و٣٨ بالألف، حيث يختفي في المياه العذبة وعالية الملوحة، ويمكن تناول مختلف الشعاب في منطقة المدينة المنورة على النحو الآتي:

١) الشعاب الأطرية الساحلية:

تتوزع الشعاب الأطرية الساحلية على طول ساحل منطقة المدينة المنورة، على شكل نطاق يراوح اتساعه بين عشرات الأمتار وعدة كيلومترات، ويتأثر امتداد هذه الشعاب بتضاريس الأمكنة الساحلية وطبوغرافية قاعها، بالإضافة إلى ظروف البيئة الطبيعية الملائمة لنمو المرجان، وتظهر الشعاب الأطرية الساحلية للعيان عند انخفاض مستوى سطح البحر في حالة الجزر، حيث تتلاطم عليها الأمواج، وتتألف عناصر شكلها من مسطح شعابي تغطيه بحيرة ساحلية ضحلة، يرتفع قاعها تدريجياً في اتجاه البحر، وتبرز في حالة الجزر على شكل قمة تحدها من الجهة البحرية حافة شديدة الانحدار ينمو على واجهتها البحرية عدد من المستعمرات المرجانية.

وتزدهر هذه الشعاب في ساحل منطقة المدينة المنورة في الساحل الممتد بين شمال مدينة مستورة ومصب وادي المعارج، إلا أنها تتوزع في بقية الأمكنة الساحلية لدرجة أنها تنمو داخل الشروم، كشرم ينبع وشرم الخور وخلف الرأس الأبيض أمام مصبات الأودية أو أنها تبتعد عنها في اتجاه البحر.

٢) الشعاب الأطرية المرجانية للساحل الخارجي:

تكثر الأشكال البنيوية المرجانية التي تشملها الأطر المرجانية للساحل الخارجي، وأهمها في ساحل منطقة المدينة المنورة الشعاب الحاجزية، (Barrier Reefs) وتتكون هذه الشعاب في نطاق موازٍ لخط الساحل، وتنفصل عنه بحيرات ساحلية طويلة وضيقة، وتشبه الشعاب الحاجزية الشعاب الأطرية الساحلية لكونها شعاباً أطرية قبل ارتفاع مستوى سطح البحر، كما تشبه الشعاب الأطرية الساحلية في أنها تنحدر في الاتجاه البحري بدرجة تراوح بين ٤٠ و٥٠ درجة، في حين يقل انحدارها في اتجاه اليابس، وتتميز الشعاب الحاجزية النموذجية بوجود

(١) محمد سعيد البارودي، «مورفولوجية الشعاب المرجانية البلايستوسينية والحديثة على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر»، *الجمعية الجغرافية الكويتية*، ع٢٠٢، (الكويت: ١٩٩٧ م)، ٧.

إطار خارجي تتكسر عليه الأمواج، وخندق مائي ضحل وقمة طحلبية، كما تتميز بوجود تشرشرات على حافتها الخارجية[١].

وتتوزع الشعاب الحاجزية في ساحل منطقة المدينة المنورة في موقع واحد يمتد بين شمال مدينة مستورة ومصب وادي المعارج، وهو الموقع نفسه الذي تزدهر فيه الشعاب الأطرية الساحلية، إذ تمتد ثلاث سلاسل متوازية ومتعاقبة بعضها خلف بعض باتساع كلي يزيد على خمسة كيلو مترات، وتفصل بينها بحيرات ساحلية ضيقة، وتشبه هذه السلاسل من الشعاب الحاجزية تلك الشعاب الموجودة إلى الشمال من محافظة جدة في منطقة مكة المكرمة[٢].

٣) الشعاب المرجانية العائمة:

تنتشر الشعاب المرجانية العائمة في معظم سواحل منطقة المدينة المنورة، وخصوصاً في الأمكنة الواقعة إلى الشمال من مدينة ينبع البحر وشرم ينبع، وبين رأس بريدي ورأس اللاك، وتتمثل الشعاب المرجانية المرفوعة في الموقع الأول بعتبة عريضة ـ تستمر من رأس بريدي حتى ساحل مدينة مستورة ـ تشكل مدرجاً بحرياً يرتفع ستة أمتار فوق مستوى سطح البحر، يمتد من مدينة ينبع البحر حتى مصب وادي كمال، ويصل اتساع هذا المدرج إلى سبعة كيلومترات، يزداد أحياناً حول شرم ينبع ليصل إلى أقصى امتداد له ١٥ كم، وهو مقطع بالأودية المنحدرة من المناطق المجاورة، ويشير القطع الذي أحدثه شرم ينبع في هذا المدرج الشعابي إلى مدى الانخفاض البحري خلال الفترة الجليدية الأخيرة، ولا يقل اتساع الرصيف المرجاني العائم في شمال مدينة ينبع بين رأس بريدي ورأس اللاك، عن ذلك المد جنوب المدينة، إلا أنه يضيق إلى الشمال من الرأس الأخير إلى أقل من ثلاثة كيلومترات.

ففي الموقع الأول بين رأس بريدي ورأس اللاك يصل اتساع الرصيف المرجاني إلى أكثر من خمسة كيلومترات، وقد تقطعت الواجهة البحرية بعدد من المدرجات البحرية التي تعكس تغيرات مستوى سطح البحر، أما الموقع الثاني للشعاب المرجانية العائمة والواقع إلى الشمال، فقد تشكل عدد من المدرجات البحرية عند مستويات ٦ ـ ٨ و١٠ ـ ١٢ م فوق مستوى سطح البحر.

ب) الشروم:

تتوزع على طول ساحل البحر الأحمر في منطقة المدينة المنورة مجموعة من الفتحات الساحلية مختلفة الأبعاد والأشكال والأسماء، فمنها ما يسمى الشروم أو الخيران أو المراسي. وتتمثل أهم هذه الفتحات من الشمال إلى الجنوب بشرم مهار وشرم حاسي ومرسى مقبرة وشرم الخور وشرم ينبع، وخور مصب وادي الصفراء. وتختلف الأسماء السابقة نتيجة لاختلاف أشكالها وربما مواقعها. فالشروم خلجان ضيقة تشبه فتحات الريا الساحلية (الأودية الغارقة)، إلا أنها أقل اتساعاً وأضيق منها، ويطلق اسم الخور على مصب الماء في البحر، أو على وادٍ تغمره مياه البحر عند المصب. أما اسم المرسى فهو فتحة ساحلية تؤدي وظيفة ميناء للسفن أو الزوارق.

وتأخذ الشروم أشكالاً متعددة؛ فمنها ما هو على شكل قناة ضيقة، ومنها ما يتفرع في الداخل إلى فرعين أو أكثر حسب عدد الأودية التي تلتقي مع الشرم. أما أبعاد هذه الشروم

(١) Bird, E. C. Coasts, 195., MIT, U. S. A. 1970.

(٢) البارودي، محمد سعيد، «مورفولوجية الشعاب المرجانية»، الجمعية الجغرافية الكويتية، مرجع سابق، ع٢٠٢، ٣٢، ٣٣.



شرم ينبع

فتراوح بين مئات من الأمتار وبضعة كيلو مترات. أما أعماقها فتراوح بين ١٥ و٤٠ م على الساحل، وقد تتعمق إلى أكثر من ذلك كلما تعمقنا داخل البحر بعيداً عن خط الساحل. وفيما يعد شرم ينبع نموذجاً للشروم القديمة والمركبة، فإن بقية الشروم في ساحل منطقة المدينة المنورة من النوع البسيط باستثناء شرم مهار الواقع في أقصى الشمال، ويمكن تناول خصائص هذين الشرمين على النحو الآتي:

١) شرم ينبع:

يقع شرم ينبع إلى الشمال مباشرة من مدينة ينبع البحر، ويعد من أكبر الشروم في ساحل منطقة المدينة المنورة وأكثرها اتساعاً، ويتفرع الشرم إلى فرعين مباشرة بعد فتحته الرئيسة على البحر الأحمر، ويتخذ الفرعان شكل الثنيات النهرية للأودية التي أسهمت في نشأة الشرم، ومن أهمها وادي وزرة الذي يصب في الفرع الشرقي، ووادي الكبت الذي يصب في الفرع الشمالي. وقد شق الشرم مجراه الرئيس ومعظم أطوال الفرعين الرئيسين على عتبة مرفوعة من صخور الحجر الجيري المرجاني ترتفع ستة أمتار فوق مستوى سطح البحر. وتحيط الجروف حالياً بسواحل فرعي الشرم، كما تحيط السباخ بالأطراف الشمالية لفرعي الشرم. أما الأعماق التي وصل إليها الشرم فهي لا تزيد على ٢٠ م إلا في مدخل الشرم الرئيس.

٢) شرم مهار:

يقع شرم مهار في نهاية الساحل الشمالي لمنطقة المدينة المنورة في وسط جبل جره المشرف على ساحل البحر الأحمر. وقد استغل وادي راكة الصدع العرضي الذي يقطع الجبل إلى نصفين في تعميق مجراه عند خط الصدع خلال الانخفاض الأخير لمستوى سطح البحر المرافق للجليدية الأخيرة. وقد قام وادي راكة بردم معظم الشرم ولم يتبق منه سوى مئات الأمتار عند خط الساحل، والقطع الرأسي العميق للجبل لا يزال مثيراً للانتباه.

ج) السباخ:

تنقسم السباخ[١] في منطقة المدينة المنورة إلى نوعين رئيسين، وهما: سباخ ساحلية وأخرى داخلية تختلفان في طريقة نشأتهما وأنماطهما ومواقعهما أيضاً، ويمكن الإشارة إلى ذلك على النحو الآتي:

١) السباخ الساحلية:

تتوزع السباخ الساحلية في منطقة المدينة المنورة وتنشأ مجاورة لخط الساحل في ساحلي مدينة ينبع البحر وساحل الحمراء، وتعود نشأتها إلى الدور الرئيس للمياه البحرية. ففي الموقع الأول توجد أربع سباخ بمساحة إجمالية تبلغ نحو ٥,٥ كم٢،

(١) السباخ أراض مالحة أو يعلوها الملح، وغالباً ما يكون سطحها منخفضاً ومستوياً، ويتوقف سمك الملح فوقها على موقع السبخة ومعدل التبخر، ويستخرج ملح الطعام من بعض سباخ المملكة التي تسمى محلياً بالممالح، ومفردها مملحة.



السباخ الساحلية

وبمتوسط يبلغ ١,٤ كم٢ للسبخة الواحدة. في حين يصل عدد السباخ في ساحل الحمراء إلى ١٥ سبخة بمساحة كلية تبلغ ٩٨ كم٢ ومتوسط ٦,٥ كم٢ للسبخة الواحدة. وهو ما يشير إلى زيادة متوسط مساحة السباخ مع الانتقال جنوباً في سواحل البحر الأحمر عموماً. ويمكن مقارنة مساحات السباخ في ساحل منطقة المدينة المنورة بالسواحل الشمالية والسواحل الوسطى والجنوبية للبحر الأحمر. تصل نسبة السباخ التي تقل مساحاتها عن كيلو متر مربع واحد نحو ٣٥٪ من سباخ الساحل الشمالي للبحر الأحمر الممتد من خليج العقبة حتى مدينة ينبع البحر، في حين يراوح متوسط مساحة السبخة لمنطقة مكة المكرمة بين ٦,٣ و٩١,٣ كم٢، ومن أهم السباخ في ساحل منطقة المدينة المنورة من الشمال إلى الجنوب تلك المحيطة بشرم ينبع والسباخ الواقعة إلى الجنوب من مصبي وادي الفرعة، وإلى الجنوب من مصب وادي الفقير إلى الشمال من رأس الأبيض. وفيما تشكلت السباخ حول شرم ينبع في الموقع الأول تشكلت أطر مرجانية في الموقع الثاني، ونشأت في الموقع الأخير دلتا مروحية ومحجوزة عن البحر بأطر مرجانية ورمال ريحية.

وتحتوي السباخ في معظم المواقع السابقة على آفاق من الرمال والطين الملحي بسماكات مختلفة. وتشكل كربونات الكالسيوم والملح أهم المواد اللاحمة التي تجعل سطح هذه السباخ صلباً في حالة جفافه، أو ليناً إلى حد كبير في حالة تبلله عند تعرضه لمياه الأودية القادمة من اليابس أو من مياه البحر بعدة طرق؛ أهمها الغمر بالمد العادي أو المد العالي أو التسرب. وتوضح شدة استواء أسطح السباخ أن معدل انحدارها نحو خط الساحل لا يزيد على ٠,٤ م/كم[١].

وتشير الدراسات التي أجريت على هذه السباخ في مواقع مختلفة على طول سواحل البحر الأحمر إلى تعدد العوامل المؤثرة في نشأة هذه السباخ وتعدد الأنماط الجيومورفولوجية لها[٢].

(١) الوليعي، عبدالله بن ناصر. جيولوجية وجيومورفولوجية المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ١٢٧.

(٢) محمد سعيد البارودي، «الأنماط الجيمورفولوجية للسباخ الساحلية»، *الجمعية الجغرافية الكويتية*، ع٢٨١، (الكويت: ٢٠٠٣ م)، ٢٤.



أحد الأشكال الرملية في منطقة المدينة المنورة

٢) السباخ الداخلية:

تنشأ بعيداً عن خط الساحل، أو أنها تلك السباخ التي لا علاقة لمياه البحر بنشأتها حتى إن جاورت المواقع الساحلية، وينسب للمياه القارية الدور الرئيس في نشأتها.

ب ـ السهول الداخلية:

تنقسم السهول الداخلية في منطقة المدينة المنورة إلى نوعين من السهول؛ يتمثل الأول منهما في سهول فيضية على جانبي بعض الأودية الرئيسة في المنطقة كأودية العقيق وملل والحمض، أما ثانيهما فما شكلته بعض الأودية الخارجة من المواقع الجبلية أو الحرات كأودية الحناكية وفرشة، وفي كلا النوعين تتألف هذه الأودية من رواسب غرينية يختلف سمكها بين موقع وآخر، إلا أنها في معظم الحالات تغطي مساحات مستوية من صخور الدرع العربي.

خامساً ـ الأشكال الرملية:

توجد الأشكال الرملية وإرساباتها في الصحراء أو الأمكنة الجافة، وإن الصحارى الرملية لا تشكل سوى ما نسبته ٢٠٪ من مساحات هذه الأمكنة على مستوى العالم[١]. وينطبق ذلك على منطقة المدينة المنورة بشكل كبير لا تماثله منطقة من مناطق المملكة باستثناء تلك الواقعة على جبال السروات كالباحة مثلاً. وتأخذ الأشكال الرملية عدداً من الأسماء حسب ظروف السطح والمناخ وموارد الرمال. وقد أصبحت دراسة أشكال الرواسب الرملية في الآونة الأخيرة ذات أهمية خصوصاً لإسهامها في زيادة رقعة التصحر وزحفها على الأمكنة الزراعية، وإعاقتها لطرق المواصلات، ويمكن تناول مواقع وأشكال وحركة التجمعات الرملية على النحو الآتي:

أ ـ مواقع تجمع الرواسب الرملية:

تتوزع الرواسب الرملية في منطقة المدينة المنورة في كل من السهل الساحلي

(١) كنيث والطون، *الأراضي الجافة*، ترجمة: علي عبدالوهاب شاهين، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٨ م)، ٩١.

والأمكنة الداخلية للمنطقة. وتتباين أشكالها ومصادرها إلى حد كبير بين كلا الموقعين. ففي السهل الساحلي تتوزع الرواسب الرملية في أربعة مواقع مختلفة. وابتداء من خط الساحل يمتد شريط عريض من الرمال البلاجية بطول خط الساحل من جنوب مدينة ينبع البحر حتى شمال مدينة مستورة. وتسود معظم هذه الرمال الكربونات وبقايا كسرات المحار والشعاب المرجانية وحطامها، وتذرو الرياح بعضاً من هذه الرمال على شكل كثبان ساحلية غالباً ما تكون مفردة وصغيرة الحجم، وتغطي بعض الغطاءات الرملية الأمكنة الواقعة إلى الشمال والشمال الغربي من مدينة ينبع البحر، وعند حدود السهل الساحلي شرقاً تغطي الرمال الريحية شريطاً منقطعاً من سفوح أقدام الجبال، حيث ترتفع إلى مناسيب عالية نسبياً في المواقع الخلفية الممتدة بين مدينة ينبع البحر ومدينة مستورة، وإلى الشرق من المدينة الأخيرة تتحرك مجموعة من الكثبان الهلالية. وفي الداخل تترسب رواسب رملية ضخمة إلى الغرب من جبال صبح، أو على الطرف الشرقي لوادي المعارج. وتتكون من رمال دكاكة وكثبان طويلة موازية لاتجاه الرياح السائدة غالباً وهي مستقرة، وتعد هذه المساحة الرملية من أكبرها في السهل الساحلي للمدينة المنورة.

أما الأمكنة الداخلية للمدينة المنورة فلا يوجد سوى موقع واحد لتجمع الرواسب الرملية، في الأجزاء الشرقية لحوض وادي الحناكية، حيث تتشكل مجموعة ضخمة من الكثبان الرملية؛ منها الجبال الرملية التي تراوح قممها بين ٥٠ و٣٠٠ م، وكثبان هلالية ضخمة تمتد أذرعها عدداً من الكيلو مترات، إضافة



التجمعات الرملية شرق الحناكية

إلى أشكال هرمية، وعلى الرغم من أن هذه الأمكنة تعد الوحيدة تقريباً في المواقع الداخلية لمنطقة المدينة المنورة، إلا أن أبعادها لا تزيد على ٢٠ كم بمتوسط اتساع ١٥ كم.

وتختلف مصادر الرمال في كل من الأمكنة الساحلية والأمكنة الداخلية لمنطقة المدينة المنورة، فالرمال في تهامة بحرية الأصل تزداد اختلاطاً برمال من رواسب الأودية المذراة مع الاتجاه شرقاً، أما مصادر الرمال في الأمكنة الداخلية فتنشأ من المواد الطمية التي ترسبها المجاري الدنيا للأودية. وتختلف الرمال الساحلية عن الداخلية سواء في تركيبها أو في ألوانها، فتسود الرمال الكربونية مع الاقتراب من خط الساحل، وتصبح أكثر بياضاً وتتحول في الأمكنة الداخلية إلى رمال كوارتزية غالباً مع ألوان أكثر اصفراراً.

ب ـ أشكال التجمعات الرملية:

توجد مجموعة من الأشكال الرملية في منطقة المدينة المنورة، ولعل أهمها الجبال

الرملية والكثبان الهلالية والكثبان الطولية، إضافة إلى عدد آخر من الأشكال الأقل أهمية.

فالجبال الرملية في شرق الحناكية تشكلت من تراكب كثبان هلالية عملاقة بعضها فوق بعض، وهو ما أدى إلى ارتفاعها الكبير، وتأخذ هذه الجبال أشكالاً متعددة؛ فمنها البيضاوي ومنها الهرمي وغيرهما.

وبالنسبة إلى الكثبان الهلالية في المنطقة، فتقع الكبيرة منها في الجبال الرملية نفسها في شرق الحناكية، أما الصغيرة منها فتنتشر شرق مدينة مستورة شمال حرة الوسمة، وتعد الكثبان الهلالية من نوع الكثبان العرضية، إذ يتكون الكثيب من سفحين ينحدران في اتجاهين مختلفين؛ الأول منهما مواجه للرياح ويسمى الكاسح (لكسح الرمال منه) وهو الأقل انحداراً، والثاني ويسمى الصباب (لانصباب الرمال عليه من الكاسح) وهو أشد انحداراً من الكاسح. ويمتاز الكثيب الهلالي بقرنين منخفضين يمتدان مع اتجاه الرياح السائدة، ويراوح ارتفاع الكثبان الهلالية في المنطقة بين بضعة أمتار شرق مدينة مستورة، وأكثر من ٥٠ م شرق الحناكية.

أما الكثبان الطولية التي تمتد إلى الشرق من وادي المعارج، فهي تمتد طولياً مع اتجاه الرياح السائدة على العكس من الكثبان الهلالية والكثبان العرضية، وتمتد هذه الكثبان إلى مئات الأمتار، أما عرضها فيراوح بين عشرات ومئات الأمتار، أما ارتفاعها في المنطقة فلا يزيد على عشرات الأمتار. وتنشأ هذه الكثبان من هبوب رياح ثابتة من اتجاه معين تجعل محاور الكثبان موازية لها، إضافة إلى وجود مصادر دائمة وغزيرة للرمال[١].

ج ـ حركة الرمال:

تتحرك الرمال بعدة طرق قد يكون أبسطها الانسياقات الرملية التي تغير اتجاهاتها مع تغير اتجاه هبوب الرياح، وتُلحظ هذه الحركة في الرمال الريحية التي تعبر الطريق بين مدينتي ينبع البحر وأملج. وعلى الرغم من أن المحصلة النهائية للحركة في هذه المنطقة وخصوصاً في ساحل مدينة مستورة تكون في اتجاه الشرق والجنوب الشرقي، إلا أن تغير اتجاه الانسياق الرملي يتغير فور تغير اتجاه الرياح. وتتحرك الكثبان الرملية محافظة على شكلها العام، إلا أن بعضها قد يتميز كما في بعض الكثبان الهلالية الصغيرة التي تتحول إلى كثبان طويلة.

وتتأثر حركة الكثبان الرملية بمجموعة من العوامل أهمها: حجم الكثبان وظروف الرياح السائدة والرطوبة، والتضاريس التي تتحرك فوقها الكثبان[٢]. إلا أن معظم الدراسات قد أشارت إلى أن معدل حركة الكثبان الرملية يراوح بين ٣ و٤ م، وقد تزيد فوق ذلك في حالة الكثبان الرملية الصغيرة[٣].

وباستثناء عمليات الانسياق الرملي التي تلاحظ على طريق ينبع البحر وأملج، فإن حركة الكثبان في منطقة المدينة المنورة لا تشكل خطراً على الأراضي الزراعية أو طرق المواصلات لندرة المساحات الرملية فيها مقارنة بمناطق أخرى من المملكة.

(١) نبيل سيد إمبابي، ومحمود محمد عاشور، *الكثبان الرملية في شبه جزيرة قطر*، (الدوحة: جامعة قطر، ١٩٨٣ م)، ٨٨ ـ ٩٠.

(٢) معراج نواب مرزا، «مورفولوجية الرمال في غرب المملكة العربية السعودية»، بحث غير منشور، ١٥ ـ ٢٦.

(٣) الوليعي، عبدالله بن ناصر. جيولوجية وجيومورفولوجية المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ١٤٣.

الفصل الرابع

المُناخ

أولاً العوامل المؤثرة في المناخ

ثانياً عناصر المناخ

إعداد

الدكتورة فايدة بنت كامل بوقري

أستاذ الجغرافيا المناخية المساعد

يعد المناخ من أهم الظروف التي تؤدي دوراً واضحاً في ممارسة الإنسان لأنشطته البشرية المختلفة. وفهم المناخ في أي منطقة والاهتمام بدراسة عناصره المختلفة عند ممارسة المناشط الزراعية والرعوية والصناعية والتجارية والسياحية ونحوها، وله آثار إيجابية واضحة عليها، ويؤدي إلى نجاح تلك الأنشطة. وتهتم الدول المتقدمة بدراسة المناخ وحالات الطقس لمساعدتها في نجاح الأنشطة المختلفة، وبخاصة الزراعية منها، فقامت بإنشاء مراكز للبحوث الزراعية تركز على دراسات المناخ والطقس وأثرها في الإنتاج الزراعي والرعوي. ويوجد في منطقة المدينة المنورة نشاط زراعي مهم مرهون بعوامل كثيرة أهمها: الظروف المناخية وحالات الطقس. وتعتمد الزراعة في المدينة المنورة على الأمطار والسيول والعيون والآبار، إلا أن الري بمياه الأمطار والسيول أصبح محدوداً في الوقت الحاضر لقلة كميتها، الأمر الذي أدى إلى الاعتماد على مياه العيون والآبار، وعلى الرغم من ذلك فإن مياه الأمطار تعد مصدراً مهماً يستفيد منه المزارعون في ري مزروعاتهم عندما تهطل في فصلي الشتاء والربيع، ثم يعودون إلى الاعتماد على المصادر الأخرى في فصل الصيف أو وقت الجفاف.

وتحظى مدينة النبي ﷺ (المدينة المنورة) بأهمية دينية، فإنه يقصدها سنوياً مئات الآلاف من زوار المسجد النبوي الشريف للصلاة فيه. وتصاحب هذه الأهمية الدينية أهمية سياحية وتجارية؛ ما يؤدي إلى انتعاش الناحية الاقتصادية للمدينة المنورة وسكانها.

أولاً ـ العوامل المؤثرة في المناخ:

يتأثر مناخ منطقة المدينة المنورة بمجموعة من العوامل، وهي على النحو الآتي:

أ ـ الموقع الفلكي:

تقع منطقة المدينة المنورة في الجزء الغربي من المملكة العربية السعودية، ضمن الإقليم المداري الذي تزيد فيه كمية الإشعاع الشمسي وطول النهار صيفاً ما يؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة خلاله ارتفاعاً كبيراً. وهذا يعني أن المنطقة تقع ضمن العروض المدارية الحارة، وبالتحديد في الطرف الشمالي للمنطقة المدارية؛ أي ضمن النطاق الصحراوي المداري الجاف (BWH) وله أثر واضح في ارتفاع درجة الحرارة وخصوصاً في فصل الصيف.

ب ـ الموقع الجغرافي:

تقع منطقة المدينة المنورة في الجزء الغربي من المملكة التي تقع جنوب غرب قارة آسيا، ويفصلها البحر الأحمر عن قارة إفريقية. ولقد أثر هذا الموقع تأثيراً واضحاً في مناخ منطقة المدينة المنورة، إذ أصبح مناخها قارياً ولا سيما من حيث ارتفاع درجة الحرارة صيفاً، ودفئها وانخفاضها شتاءً، كما أثر هذا الموقع في الرطوبة النسبية التي تنخفض في المحطات الداخلية (المدينة المنورة) انخفاضاً واضحاً في فصل الصيف، في حين ترتفع في المحطات الساحلية (ينبع).

ج ـ القرب والبعد عن المسطحات المائية:

يقع معظم منطقة المدينة المنورة بعيداً عن ساحل البحر الأحمر باستثناء محافظتي ينبع وبدر اللتين تقعان مباشرة عليه. ولقد أثر هذا الموقع على مناخ منطقة المدينة المنورة، فأدى إلى انخفاض معدلات الرطوبة النسبية في الأمكنة البعيدة عن الساحل، وبخاصة في فصل الصيف الذي ترتفع فيه درجات الحرارة ارتفاعاً كبيراً، وتزيد فيه كمية التبخر، وتصل درجات الرطوبة إلى مستويات متدنية جداً ٣٢٪، ما يؤدي إلى ارتفاع درجات الجفاف، وفي الوقت نفسه ترتفع معدلات الرطوبة النسبية في المحطات الواقعة بالقرب من الساحل. ويعد البعد عن ساحل البحر الأحمر سبباً رئيساً في جفاف هواء منطقة المدينة المنورة الذي قد يكون مصدر إزعاج لسكانها ولاسيما في فصل الصيف.

د ـ مراكز الضغوط الجوية المنخفضة:

يتأثر مناخ منطقة المدينة المنورة في فصل الشتاء بالضغوط الجوية الآتية:

- نطاق الضغط الجوي المرتفع شبه المداري الآزوري الذي يتكون على الصحراء الإفريقية وشبه الجزيرة العربية، نتيجة لاختلاف في درجات الحرارة بين اليابسة والماء، وهبوط الهواء من طبقات الجو العالية، لذلك تمتاز معظم أنحاء المملكة بهدوء حركة الرياح ما عدا شريط ضيق على طول امتداد البحر الأحمر يجلب الرياح لتكون نطاق ضغط فيه بسبب اختلاف درجة الحرارة بين اليابسة والماء.
- نطاق الضغط المنخفض على البحر المتوسط التي تصبح محصورة في فصل الشتاء بين منطقة الضغط المرتفع الأوراسي، ومنطقة الضغط المرتفع الآزوري على الصحراء الإفريقية والصحراء العربية.
- نطاق الضغط المرتفع الآسيوي الذي يمتد فوق وسط آسيا والأراضي السيبيرية نتيجة لانخفاض درجة حرارة اليابسة مقارنة بالمسطحات المائية المجاورة، وبسبب هذا الضغط تهب على وسط المملكة ـ ومنها منطقة المدينة المنورة ـ رياح شمالية وشمالية شرقية وشرقية باردة.
- خلايا منخفضات جوية صغيرة تتكون فوق البحر المتوسط، وتتحرك نحو الشرق وتصل أحياناً جبهاتها الباردة إلى منطقة المدينة المنورة مسببة رياحاً غربية وشمالية غربية متغيرة تبعاً لموقع المكان، وقد ينتج منها بعض الأمطار أحياناً.

إذاً تتأثر منطقة المدينة المنورة في فصل الشتاء بالضغوط الجوية المرتفعة التي تتكون على وسط آسيا وشرق أوروبا والكتل الهوائية الباردة القادمة منها. وتعد هذه الرياح السبب في انخفاض درجات الحرارة انخفاضاً كبيراً في المحطات الداخلية. كما أن الرياح والكتل الهوائية التي تصل إلى منطقة المدينة المنورة تكون جافة في فصل الشتاء ما جعل كمية الأمطار الساقطة عليها كميات محدودة وقليلة، ولا تسقط الأمطار في الشتاء إلا بسبب توغل الأعاصير والمنخفضات الجوية التي تعبر البحر المتوسط، وتنحرف جنوباً، وتصل إلى منطقة المدينة المنورة فتسقط الأمطار.

ويتأثر مناخ منطقة المدينة المنورة في فصل الصيف بالضغوط الجوية الآتية:

- نطاق الضغط الجوي المنخفض الإفريقي (الســـــوداني) الـذي يمتد على طول الصحراء الكبرى من خليج غانا في الغرب حتى إثيوبيا في الشرق، وقد يمتد إلى جنوب شبه الجزيرة العربية.
- نطاق الضغط المرتفع الآزوري على البحر المتوسط.
- الضغط الجوي المنخفض الآسيوي الموسمي الذي يتركز على شمال غرب شبه القارة الهندية، وجنوب غرب إيران وخليج عمان.

كما تتأثر منطقة المدينة المنورة بالضغوط الجوية التي تتكون على المناطق المجاورة المحيطة بها، وبالضغوط الجوية المحلية والمنخفضات الجوية التي تتكون على قارة إفريقية، وتؤدي إلى إثارة الغبار والأتربة ووصول الهواء الجاف ما يؤدي إلى جفافها وعدم سقوط الأمطار. وفي فصل الصيف، تتأثر بالضغط المنخفض السائد على قارة إفريقية صيفاً وهبوب الرياح الحارة، الأمر الذي يؤدي إلى ارتفاع درجة الحرارة وبخاصة في فصل الصيف، إذ ترتفع درجة الحرارة إلى أكثر من ٤٠° م، وقد سجلت في محطة المدينة المنورة درجة الحرارة ٤٨° م في شهر يوليو في عام ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١ م[١].

هـ ـ الارتفاع عن مستوى سطح البحر:

تقع مدينة المدينة المنورة على ارتفاع ٦٣٥ م عن سطح البحر، إلا أن هذا الارتفاع ليس له تأثير كبير على مناخ المنطقة، والعامل الذي يؤدي دوراً رئيساً وواضحاً في مناخ منطقة المدينة المنورة هو وقوعها في مساحة رسوبية تحيط بها الحرات. ويوجد في أطراف المدينة بعض الجبال التي تراوح ارتفاعاتها بين ٩٠٠ و١٠٠٠ م، إلا أن هذه التضاريس ـ كما سبق أن أشرنا ـ ليس لها أي تأثير في مناخ المنطقة وعلى درجات الحرارة، ولكن تأثيرها ينحصر في حماية المدينة المنورة من العواصف الرملية والترابية، أما العامل الذي يؤدي دوراً رئيساً في التأثير في درجات الحرارة ولاسيما في محطة المدينة المنورة فهو الصخور البركانية السوداء التي تتكون منها جيولوجية وجيومورفولوجية المنطقة، إذ تؤدي إلى امتصاص قدر كبير من الحرارة أثناء ساعات النهار، وإعادتها مرة أخرى إلى الجو ليلاً عن طريق الإشعاع الأرضي. ولذلك يظل الجو حاراً حتى الساعات الأولى من الصباح في المدينة المنورة[٢].

إذاً فموقع الأجزاء الداخلية من منطقة المدينة المنورة في المنطقة المدارية بعيداً عن المسطحات المائية كان له أكبر الأثر في ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف في المحطات الداخلية (المدينة المنورة) وانخفاضها في فصل الشتاء انخفاضاً واضحاً ٣° م، كما أن لهذا الموقع أثره في جفاف الهواء وانخفاض الرطوبة النسبية، الأمر الذي يساعد على ارتفاع نسبة التبخر ما يؤثر سلباً في الزراعة بالمنطقة.

ثانياً ـ عناصر المناخ:

أ ـ الضغط الجوي:

يتضح من (جدول ٩) و(جدول ١٠) أن الضغط الجوي يصل أقصاه في أشهر

(١) الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة، *بيانات مناخية للفترة من ١٩٨٥ ـ ٢٠٠٢ م*.

(٢) مصطفى محمد خوجلي، ومرعي البيشي، «المناخ» في: *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: محمد أحمد الرويثي، ومصطفى خوجلي، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٨ هـ)، ٤٩.

جدول ٩

معدلات الضغط الشهرية في منطقة المدينة المنورة خلال الفترة من ١٤١٣ - ١٤٢٣ هـ/١٩٩٣ - ٢٠٠٢ م(*)

الشهر	المدينة المنورة	ينبع
يناير	٩٤٣	١٠١٣,٣
فبراير	٩٤٢	١٠١٢,٦
مارس	٩٣٩,٣	١٠٠٩,٩
إبريل	٩٣٨,٠	١٠٠٧,٧
مايو	٩٣٦,٨	١٠٠٥,٧
يونيو	٩٣٣,٩	١٠٠٢,٧
يوليو	٩٣٢,٩	١٠٠١,٧
أغسطس	٩٣٣,٢	١٠٠١,٨
سبتمبر	٩٣٦,١	١٠٠٤,٣
أكتوبر	٩٣٩,٩	١٠٠٨,٤
نوفمبر	٩٤٢,٠	١٠١١,٠
ديسمبر	٩٤٣,٥	١٠١٣,٣

جدول ١٠

معدلات الضغط الفصلية في منطقة المدينة المنورة خلال الفترة من ١٤١٣ - ١٤٢٣ هـ/١٩٩٣ - ٢٠٠٢ م(**)

المحطة	الشتاء	الربيع	الصيف	الخريف
المدينة المنورة	٩٤٢,٨	٩٣٨,٠	٩٣٣,٣	٩٣٩,٣
ينبع	١٠١٣,١	١٠٠٧,٧	١٠٠٢,١	١٠٠٧,٩

الشتاء، إذ يبلغ معدل الضغط الجوي فيه نحو **٩٤٢,٨** ملليبار في المدينة المنورة و **١٠١٣,١** ملليبار في ينبع، ويتدرج في الانخفاض في أشهر الربيع، ويبدأ في الارتفاع التدريجي في أشهر الخريف **٩٣٩,٣** و **١٠٠٧,٩** ملليبار في المدينة المنورة وينبع على التوالي، ويرتفع فجأة في الشتاء. ويرجع السبب في ارتفاع معدلات الضغط الجوي في فصل الشتاء إلى تزحزح موقع الضغط الجوي المنخفض الإفريقي في فصل الشتاء باتجاه الجنوب بسبب حركة الشمس الظاهرية، وانخفاض درجة الحرارة بسبب شدة البرودة الواقعة على اليابسة، وهبوط الهواء من طبقات الجو العليا، (شكل ١).

بتتبع معدلات الضغط الجوي الشهرية والفصلية في منطقة المدينة المنورة يتضح أن الضغط الجوي يقل في أشهر الصيف (جدول ٩)، (شكل ١)، وبخاصة في شهر يوليو الذي تنخفض فيه معدلات الضغط الجوي في المدينة المنورة إلى نحو **٩٣٢,٩** و**١٠٠١,٧** ملليبار في ينبع، ويرجع السبب في ذلك إلى ارتفاع درجات الحرارة في أشهر الصيف، بالإضافة إلى حركة الشمس الظاهرية وتعامد الشمس على مدار السرطان.

يبدأ الانخفاض التدريجي في الضغط في أشهر الربيع، وينخفض انخفاضاً كبيراً خلال أشهر الصيف (جدول ١٠)، (شكل ٢)، إذ تكون منطقة المدينة المنورة خاضعة لتأثير الكتلة الهوائية المدارية القارية المتمركزة على شمال إفريقية التي تؤدي إلى هبوب الرياح الجافة التي لا تسقط أمطاراً على منطقة المدينة المنورة وذلك لضيق البحر الأحمر، وهذا هو السبب الرئيس لسقوط أمطار قليلة جداً على منطقة المدينة المنورة في فصل الصيف.

ب - الرياح:

تتأثر الرياح الهابة على منطقة المدينة المنورة تأثراً كبيراً ومباشراً بتوزيع مناطق الضغط الجوي المحيطة بها. ويتضح من (جدول ١١) و(شكل ٣) و(شكل ٤) خلال فصل

(*) المصدر: الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة، بيانات مناخية.

(**) المصدر: الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة، بيانات مناخية، الجدول وحساب النسب من عمل الباحثة.

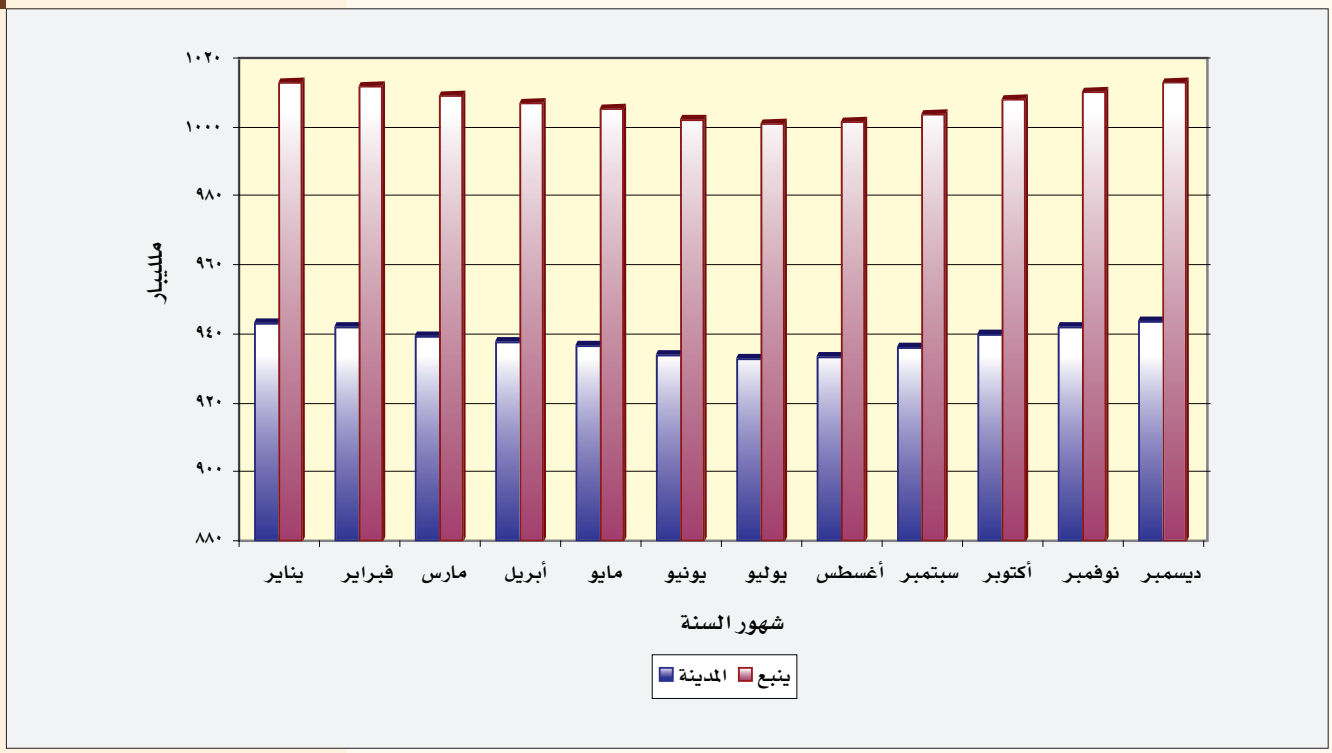

شكل ١: معدلات الضغط الجوي بمنطقة المدينة المنورة حسب شهور السنة خلال الفترة من ١٤١٣ ـ ١٤٢٣ هـ /١٩٩٣ ـ ٢٠٠٢ م

الشتاء في محطة المدينة المنورة، سيادة الرياح الشرقية بنسبة ٢٧٪، تليها الرياح الغربية بنسبة ١٨٪، ثم الرياح الغربية والجنوبية الغربية بنسبة ١٥٪. وخلال فصل الربيع تسود فيها الرياح الغربية والجنوبية الغربية بنسبة ٢٢٪، ثم الرياح الغربية بنسبة ٢٠٪. وخلال فصل الصيف تزداد الرياح الغربية فيها بشكل ملحوظ، فتصل نسبتها إلى نحو ٥٧٪، تليها الرياح الغربية والجنوبية الغربية بنسبة ٢١٪، والرياح الغربية والشمالية الغربية بنسبة ١٤٪. وتعود الرياح الشرقية لتسود خلال فصل الخريف بنسبة ٢٣٪، تتبعها الرياح الغربية بنسبة ٢٠٪، والرياح الغربية والجنوبية الغربية بنسبة ١٨٪.

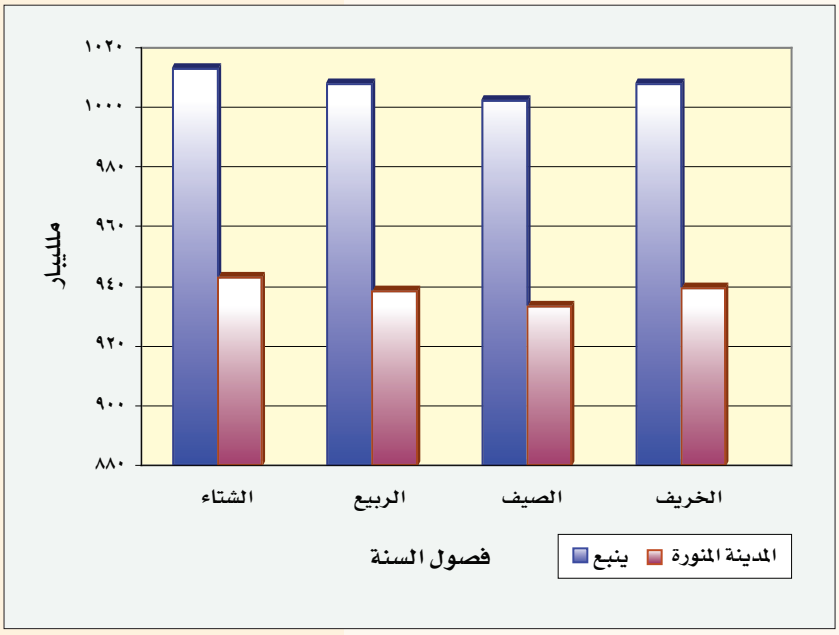

شكل ٢: معدلات الضغط الجوي بمنطقة المدينة المنورة حسب فصول السنة خلال الفترة من ١٤١٣ ـ ١٤٢٣ هـ /١٩٩٣ ـ ٢٠٠٢ م

جدول ١١

تكرار اتجاهات الرياح (يوم) في المدينة المنورة خلال الفترة من ١٤٠٥ - ١٤٢٥ هـ/١٩٨٥ - ٢٠٠٤ م (حسب شهور السنة)

الشهر	غربية		شرقية		غربية جنوبية غربية		شرقية شمالية شرقية		شمالية		شمالية غربية		جنوبية غربية		شمال شمال غرب	
	المدينة	ينبع	المدينة	ينبع	المدينة	ينبع	المدينة	ينبع	المدينة	ينبع	المدينة	ينبع	المدينة	ينبع	المدينة	ينبع
يناير	٢	١٥	٨	-	٣	-	١	٥	-	١	-	١	-	-	-	٤
فبراير	٥	٢٠	٦	-	٣	-	١	٢	-	-	-	١	-	-	-	٢
مارس	٧	٢١	٤	-	٣	١	١	١	-	-	-	-	-	-	-	٢
إبريل	٣	٢٣	٣	١	٩	١	١	-	-	-	-	١	-	-	-	-
مايو	١١	٢٣	١	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
يونيو	١٤	٢٣	-	-	-	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-
يوليو	١٣	٢٢	-	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
أغسطس	١٥	٢٥	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
سبتمبر	١٢	٢٤	٣	-	-	-	-	٢	-	-	-	-	-	-	-	-
أكتوبر	٥	٢٤	١٠	-	-	-	-	١	-	-	-	-	-	-	-	-
نوفمبر	٥	٢١	١٠	١	-	-	-	٣	-	-	-	-	-	-	-	-
ديسمبر	-	١٨	١٢	-	-	-	١	٤	٢	-	١	-	-	١	-	-
المجموع	٩٢	٢٥٩	٥٧	٢	١٩	٤	٥	٢٠	٢	١	-	٣	-	١	-	٨

وتعد الرياح الشرقية سبب انخفاض درجة الحرارة إلى درجات متدنية في أشهر الشتاء في الأجزاء الداخلية من نطاق المدينة المنورة، إذ تهب الرياح الشمالية الشرقية الباردة من أواسط آسيا، من منطقة الضغط المرتفع الأوراسي، على المناطق الشمالية والشرقية من المملكة العربية السعودية، ويصل تأثيرها إلى منطقة المدينة المنورة، في حين تبقى محطة ينبع بعيدة عن تأثير هذه الرياح، وهذا هو السبب في عدم انخفاض درجة حرارتها في أشهر الشتاء إلى درجات متدنية، بل تكون درجات الحرارة في أشهر الشتاء دافئة لوقوعها على ساحل البحر الأحمر، ولهبوب الرياح الغربية القادمة من البحر الأحمر ما يؤدي إلى ارتفاع الرطوبة النسبية في فصل الشتاء واعتدال درجة الحرارة.

أما بالنسبة إلى محطة ينبع الساحلية، فيلاحظ فيها سيادة الرياح الغربية خلال فصول السنة كلها؛ ففي فصل الشتاء تبلغ نسبتها نحو ٤٥٪، ومن ثم الرياح الغربية والشمالية الغربية بنسبة ٢٠٪، وتقل

نسبة باقي الرياح التي تهب عليها من كل الاتجاهات عن ٦٪ لكل منها. وتزداد نسبة هبوب الرياح الغربية إلى نحو ٥٤٪ في فصل الربيع، وتأتي بعدها الرياح الغربية والجنوبية الغربية بنسبة ١٤٪، والرياح الجنوبية بنسبة ٨٪. وفي فصل الصيف تقفز نسبة الرياح الغربية إلى نحو ٦٠٪، ونسبة الرياح الغربية والجنوبية الغربية إلى ٢٦٪، وتقل نسبة باقي الرياح من الجهات الأخرى عن ٤٪. وتحافظ الرياح الغربية على سيادتها خلال فصل الخريف بنسبة ٥٨٪، وتقل نسبة الرياح الغربية والجنوبية الغربية إلى نحو ١٥٪، تتبعها الرياح الغربية والشمالية الغربية بنسبة ٧٪.

وأما عن سرعة الرياح فيتضح من (جدول ١٢) أن سرعة الرياح تزداد في أشهر الصيف، وتصل إلى أقصاها في شهري أغسطس ويوليو بسبب ارتفاع درجة الحرارة وانخفاض الضغط الجوي. ويلاحظ قلة سرعة الرياح في أشهر الخريف والشتاء، ويرجع السبب في ذلك إلى انخفاض درجة الحرارة، وارتفاع الضغط الجوي، ما يساعد على حدوث نوع من الاستقرار بعكس الحال في الربيع الذي تزداد فيه السرعة بسبب التحول من برودة الشتاء إلى حرارة الصيف، ما يساعد على الاضطراب وتحرك الرياح إلى المنخفضات الجوية وما يرتبط بها من تقلبات مناخية.

ويلاحظ من (جدول ١٢) أن سرعة الرياح تختلف باختلاف أشهر وفصول السنة، وتمتد الفترة التي تزيد فيها سرعة الرياح على المتوسط السنوي من إبريل إلى أغسطس، وترتبط السرعات العالية للرياح

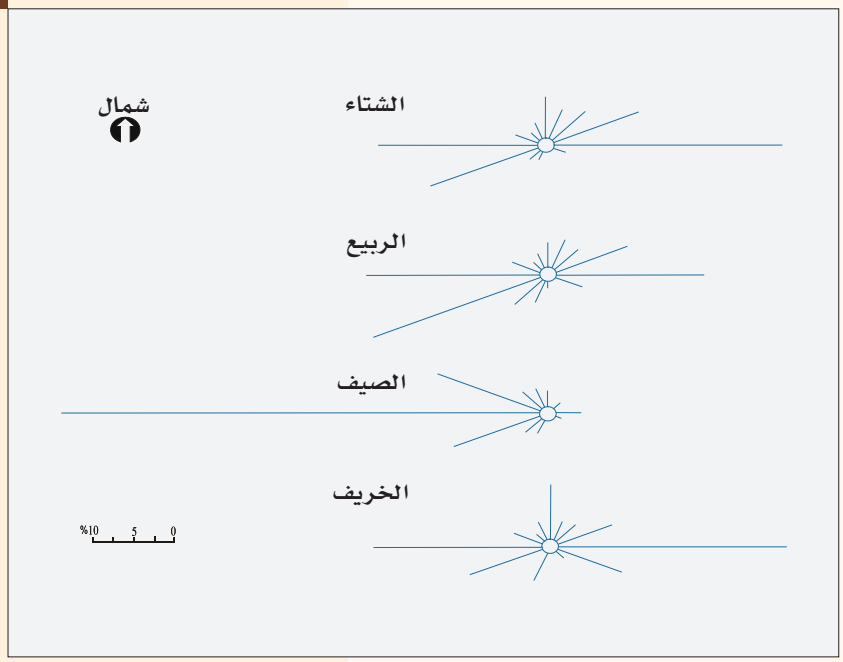

شكل ٣: اتجاهات الرياح في محطة المدينة المنورة في فصول السنة

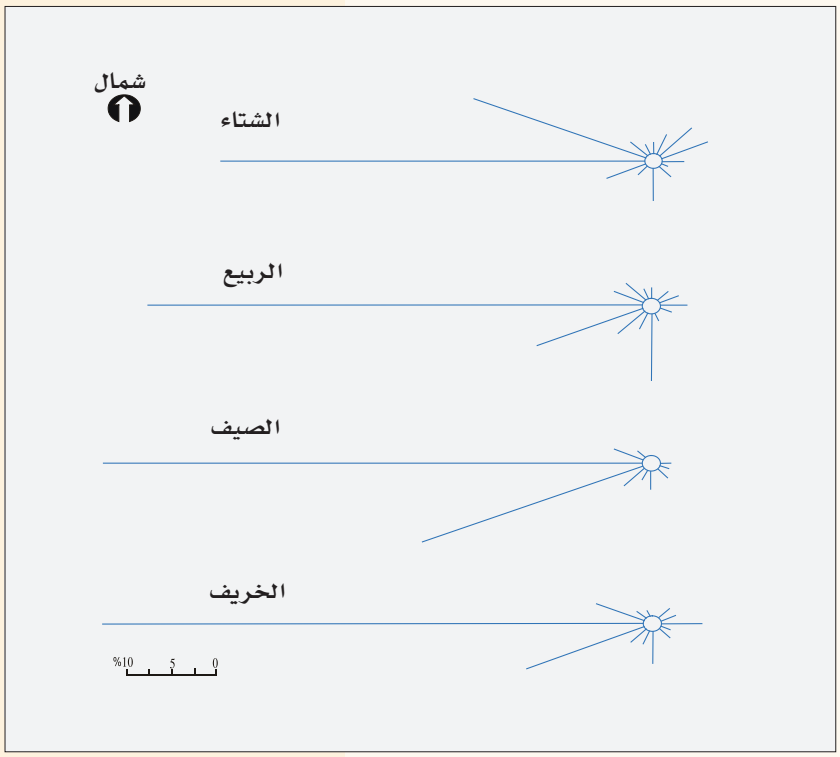

شكل ٤: اتجاهات الرياح في محطة ينبع في فصول السنة

جدول ١٢

متوسط سرعة الرياح في منطقة المدينة المنورة مع بيان أقصى سرعة للرياح خلال الفترة من ١٤٠٥ - ١٤٢٣ هـ/١٩٨٥ - ٢٠٠٢ م (حسب الاتجاه وشهور السنة)(*)

الشهر	متوسط سرعة الرياح		أقصى سرعة في السنة					
			المدينة المنورة			ينبع		
	المدينة	ينبع	السرعة	الاتجاه	السنة	السرعة	الاتجاه	السنة
يناير	٦	٦	٤٠	شرقية	١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م	٤٦	غربية	١٤١٢ هـ/١٩٩٢ م
فبراير	٦	٧	٣٥	شرقية	١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م	٣٠	غربية	١٤٢١ هـ /٢٠٠٠ م
مارس	٧	٨	٣٩	غربية	١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م	٣٥	غربية	١٤٠٧ هـ /١٩٨٧ م
إبريل	٦	٨	٤٨	شرقية	١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م	٣٨	غربية	١٤٠٨ هـ /١٩٨٨ م
مايو	٦	٨	٤٠	غربية	١٤١٤ هـ/١٩٩٤ م - ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م	٣٥	غربية	١٤٢٠ هـ /١٩٩٩ م
يونيو	٦	٩	٣٠	غربية	١٤٢١ هـ /٢٠٠٠ م	٣٥	غربية	١٤١ هـ /١٩٩٠ م
يوليو	٧	٩	٤٣	غربية	١٤١٧ هـ/١٩٩٦ م	٥٥	غربية	١٤٢١ هـ /٢٠٠٠ م
أغسطس	٧	٩	٦٠	غربية	١٤١٦ هـ/١٩٩٥ م	٣٩	غربية	١٤١٣ هـ /١٩٩٣ م
سبتمبر	٦	٨	٤٥	غربية	١٤١٤ هـ/١٩٩٤ م	٣٠	غربية	١٤٢١ هـ /٢٠٠٠ م
أكتوبر	٥	٧	٥٣	شرقية	١٤١٤ هـ/١٩٩٤ م	٤٥	غربية	١٤١٤ هـ /١٩٩٤ م
نوفمبر	٦	٦	٤٥	غربية شمالية غربية	١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م	٤٣	غربية	١٤١٣ هـ /١٩٩٣ م
ديسمبر	٥	٦	٣٢	غربية	١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م	٣٦	غربية شمالية غربية	١٤١٨ هـ /١٩٨٨ م

بهبوب الرياح الغربية. وقد سجلت أعلى سرعة للرياح خلال الفترة من ١٤٠٥ - ١٤٢٣ هـ/١٩٨٥ - ٢٠٠٢ م ٦٠ عقدة في محطة المدينة المنورة في شهر ربيع أول عام ١٤١٦ هـ/أغسطس ١٩٩٥ م، و ٥٥ عقدة في محطة ينبع في شهر ربيع أول ١٤٢١ هـ/يوليو ٢٠٠٠ م.

وتهب العواصف الترابية على منطقة المدينة المنورة، إلا أن نسبة هبوبها تعد قليلة مقارنة بالمحطات الداخلية في المملكة (مثل الرياض). فمثلاً يصل عدد أيام العواصف الترابية في محطة ينبع إلى ٤ أيام مقابل ١٢ يوماً في محطة الرياض. ويرجع السبب في قلة عدد العواصف الترابية في منطقة المدينة المنورة إلى عامل البعد عن المسطحات الترابية وإحاطة المرتفعات بها وطبيعة التكوين الجيولوجي، إذ تغطي الجبال والحرات مساحة واسعة من المنطقة، الأمر الذي أدى إلى عدم وجود تربة مفككة، ولذلك فإن المصدر الأساس للغبار الذي تحمله الرياح يكون خارج منطقة المدينة المنورة.

(*) المصدر: الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة، بيانات مناخية. الجدول من عمل الباحثة.

جدول ١٣

معدلات درجات الحرارة العظمى والصغرى والمعدل العام والمدى الحراري الشهري في منطقة المدينة المنورة خلال الفترة من ١٤١٣ - ١٤٢٣ هـ/١٩٩٣ - ٢٠٠٢ م

الشهر	المدينة المنورة				ينبع			
	العظمى	الصغرى	المدى الحراري	المعدل	العظمى	الصغرى	المدى الحراري	المعدل
يناير	٢٤,٥	١٢,١	١٢,٤	١٨,٢	٢٧,٩	١٤,٤	١٣,٥	٢٠,٨
فبراير	٢٦,٦	١٣,٦	١٣,٠	٢٠,١	٢٨,٧	١٤,٦	١٤,١	٢١,٣
مارس	٣٠,١	١٦,٤	١٣,٧	٢٣,٤	٣٠,٨	١٦,٦	١٤,٢	٢٣,٦
إبريل	٣٥,٧	٢١,٤	١٤,٣	٢٨,٧	٣٥,٠	٢٠,١	١٤,٩	٢٧,٣
مايو	٣٩,٥	٢٥,٣	١٤,٢	٣٢,٨	٣٨,٣	٢٣,٨	١٤,٥	٣٠,٨
يونيو	٤٣,١	٢٨,٣	١٤,٨	٣٦,٥	٤٠,٢	٢٤,٦	١٥,٦	٣٢,١
يوليو	٤٢,٩	١٩,٠	١٣,٩	٣٦,٥	٤٠,٥	٢٦,٥	١٤,٠	٣٣,٢
أغسطس	٤٤,٢	٣٠,٢	١٤,٠	٣٧,٢	٤٠,٨	٢٧,٣	١٣,٥	٣٤
سبتمبر	٤٢,٤	٢٨,٢	١٤,٢	٣٥,٧	٤٠,١	٢٦,٣	١٣,٨	٣٢,٦
أكتوبر	٣٧,٣	٢٣,١	١٤,٢	٣٠,٤	٣٧,٣	٢٣,٥	١٣,٨	٢٩,٩
نوفمبر	٣٠,٤	١٧,٧	١٢,٧	٢٤,١	٣٣,١	١٩,٤	١٣,٧	٢٥,٩
ديسمبر	٢٦,٥	١٤,٤	١٢,١	٢٠,٣	٢٩,٩	١٦,٢	١٣,٥	٢٢,٧

ج - الحرارة:

تنخفض درجات الحرارة بصفة عامة في منطقة المدينة المنورة خلال فصل الشتاء لقلة كمية الإشعاع الشمسي وقلة عدد ساعات سطوع الشمس التي تصل إلى عشر ساعات/اليوم وارتفاع نسبة تغطية السماء بالغيوم. وتسجل في فصل الشتاء أدنى كمية للإشعاع الشمسي في شهر ديسمبر، وتراوح كمية الإشعاع الشمسي في منطقة المدينة المنورة بين ٢٢٥,٣ و٢٤٠,٦ وات م^{٢}/اليوم[١].

وقد بلغت أقل درجة حرارة مطلقة في محطة المدينة المنورة ٣° م في شهر شعبان ١٤١٣ هـ/فبراير ١٩٩٣ م[٢]. ويرجع السبب في انخفاض درجات الحرارة إلى درجات متدنية في فصل الشتاء إلى وصول الرياح الشمالية الشرقية الباردة القادمة من منطقة الضغط الجوي المرتفع الآسيوي إليها.

وبتتبع درجات الحرارة العظمى والصغرى ومعدل درجة الحرارة الشهري في منطقة المدينة المنورة في أشهر الشتاء (ديسمبر، يناير، فبراير) (جدول ١٣)، يتضح لنا أن أقل شهور السنة حرارة هو شهر يناير، ويبلغ متوسط الحرارة فيه في محطة المدينة المنورة نحو ١٨,٢° م، وفي محطة ينبع ٢٠,٨° م. في حين يصل متوسط درجة الحرارة الصغرى فيه نحو ١٢,١° و١٤,٤° م على التوالي. ويرجع السبب في ذلك إلى مجموعة من العوامل أهمها

(١) *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: مصطفى خوجلي، ومحمد أحمد الرويثي. ط١. (المدينة المنورة: النادي الأدبي الثقافي، ١٤١٨/ ١٤١٩ هـ)؛ محمد عبدالله الجراش، «الأشعة الشمسية القصيرة على سطح الأرض في المملكة العربية السعودية»، *مجلة الجمعية الجغرافية السعودية*، ع٢٣، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٩٩٥ م)، ٨٨ - ٩٤.

(٢) الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة. بيانات مناخية للفترة من ١٩٨٥ - ٢٠٠٢ م، مرجع سابق.

جدول ١٤

معدلات درجات الحرارة العظمى والصغرى والمعدل العام حسب فصول السنة في منطقة المدينة المنورة خلال الفترة من ١٤١٣ - ١٤٢٣ هـ/١٩٩٣ - ٢٠٠٢ م(*)

المحطة	الشتاء			الربيع			الصيف			الخريف		
	العظمى	الصغرى	المعدل	العظمى	الصغرى	المعدل	العظمى	الصغرى	المعدل	العظمى	الصغرى	المعدل
المدينة	٢٥,٩	١٣,٤	١٩,٥	٣٥,١	٢١,٠	٢٨,٣	٤٣,٤	٢٩,٢	٣٦,٨	٣٦,٧	٢٣	٣٠
ينبع	٨,٨٢	١,٥١	٦,١٢	٣,٨٣	٨,٣٢	٨,٠٣	٥,٠٤	١,٦٢	٠,٣٣	٨,٦٣	١,٣٢	٥,٩٢

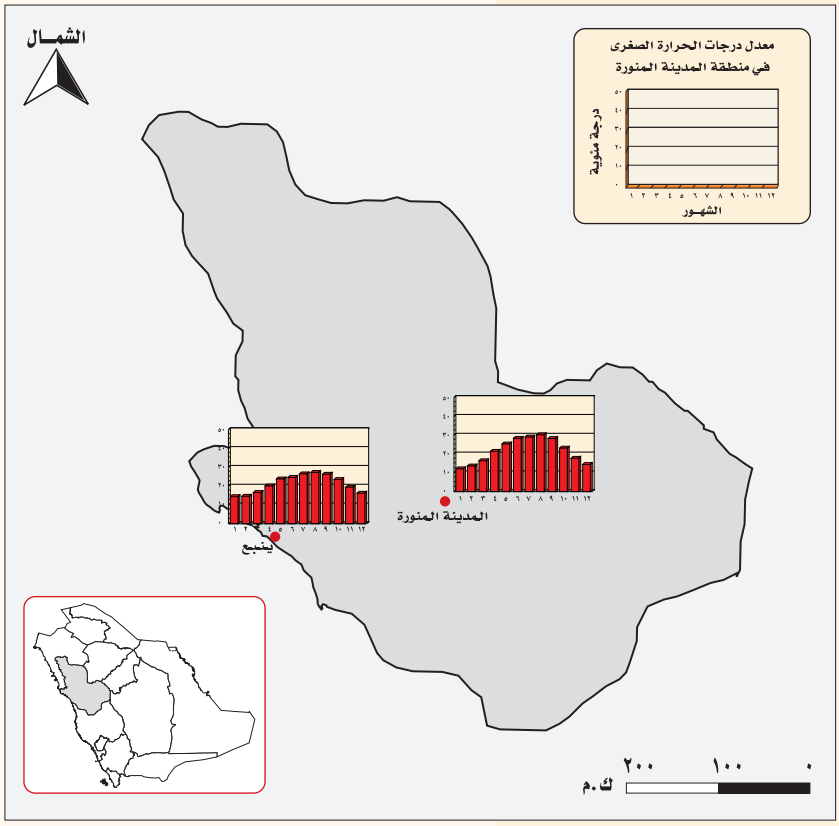

خريطة ٥: معدلات درجات الحرارة الصغرى بمنطقة المدينة المنورة حسب شهور السنة خلال الفترة من ١٤١٣ ـ ١٤٢٣ هـ /١٩٩٣ ـ ٢٠٠٢ م(**)

ترتفع درجات الحرارة في فصل الصيف بصفة عامة في منطقة المدينة المنورة، وبتتبع معدلات درجات الحرارة العظمى والصغرى والمعدل العام الشهري في (جدول ١٣) و(جدول ١٤) و(خريطة ٥) و(خريطة ٦) في منطقة المدينة المنورة، يتضح لنا أن أشد شهور السنة حرارة هي أشهر الصيف (يونيو، يوليو، أغسطس) ويراوح متوسط الحرارة العظمى فيها بين ٤٢,٢° و٤٣,١° م، في حين يراوح متوسط الحرارة الدنيا فيها بين ٢٨,٣° و٣٠° م، خلال الفترة ما بين ١٤١٣ و١٤٢٣ هـ/١٩٩٣ و٢٠٠٢ م. ويرجع الارتفاع في درجات الحرارة في منطقة المدينة المنورة خلال أشهر الصيف لوقوعها في المنطقة المدارية الحارة، إذ تكون أشعة الشمس عمودية تقريباً عليها، كما أن عدد ساعات سطوع الشمس تصل إلى أكثر من ١٣ ساعة/اليوم[١]، بالإضافة إلى صفاء السماء وقلة السحب التي تؤدي إلى ارتفاع كمية الإشعاع الشمسي. فمثلاً تراوح كمية الإشعاع الشمسي في المنطقة في شهر يونيو بين ٤٢١,٤ و٤٢٦,٩ وات م٢/اليوم[٢].

انخفاض كمية الإشعاع الشمسي وميل الأشعة ووصول الرياح الباردة الشمالية الشرقية إلى المنطقة.

(١) الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة. بيانات مناخية للفترة من ١٩٨٥ - ٢٠٠٢ م، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق.

(*) المصدر: الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة. الجدول وحساب النسب من عمل الباحثة.

(**) من إعداد الموسوعة اعتماداً على بيانات الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة.

وتمتد بشكل عام الفترة الحارة في منطقة المدينة المنورة في الفترة من مايو إلى سبتمبر، ويعد شهر أغسطس أشد شهور السنة حرارة، (جدول ١٣)، إذ يبلغ متوسط درجة الحرارة فيه نحو ٣٧,٢° و٣٤° م في محطة المدينة المنورة ومحطة ينبع على التوالي، وترتفع درجات الحرارة كثيراً أثناء النهار، ويبلغ متوسط درجة الحرارة العظمى في أغسطس ٤٤,٢° م في المدينة المنورة و ٤٠,٨° م في ينبع. أما أعلى درجة حرارة عظمى في المدينة المنورة فتبلغ ٤٨,٦° م في شهري يوليو وأغسطس لعام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م. وتكون الفروق الحرارية الشهرية والسنوية مرتفعة ولاسيما في المحطات الداخلية (محطة المدينة المنورة).

وفي فصلي الربيع والخريف الانتقاليين تمتاز درجة الحرارة بالدفء ٢٨,٣° و٣٠° م على التوالي في محطة المدينة و ٣٠,٨° و٢٩,٥° م على التوالي في ينبع.

تتميز النطاقات المدارية وبخاصة الداخلية منها بارتفاع المدى الحراري اليومي والشهري والسنوي. وينطبق هذا الوضع على مناخ محطة المدينة المنورة، إذ يصل المدى الحراري السنوي فيها نحو ١٩° م، أما المدى الحراري السنوي المطلق فإنه يزيد على هذه المعدلات بشكل كبير ٤٧,٥° م. ويراوح المدى الحراري الشهري فيها بين ١٢,٤° م في يناير و ١٤,٨° م في يونيو. أما المدى الحراري اليومي فيعد غير مرتفع على الرغم من وجود فوارق حرارية بين درجات الحرارة في الليل والنهار لطبيعة التكوين الصخري التي تؤدي دوراً واضحاً في عدم ارتفاع المدى

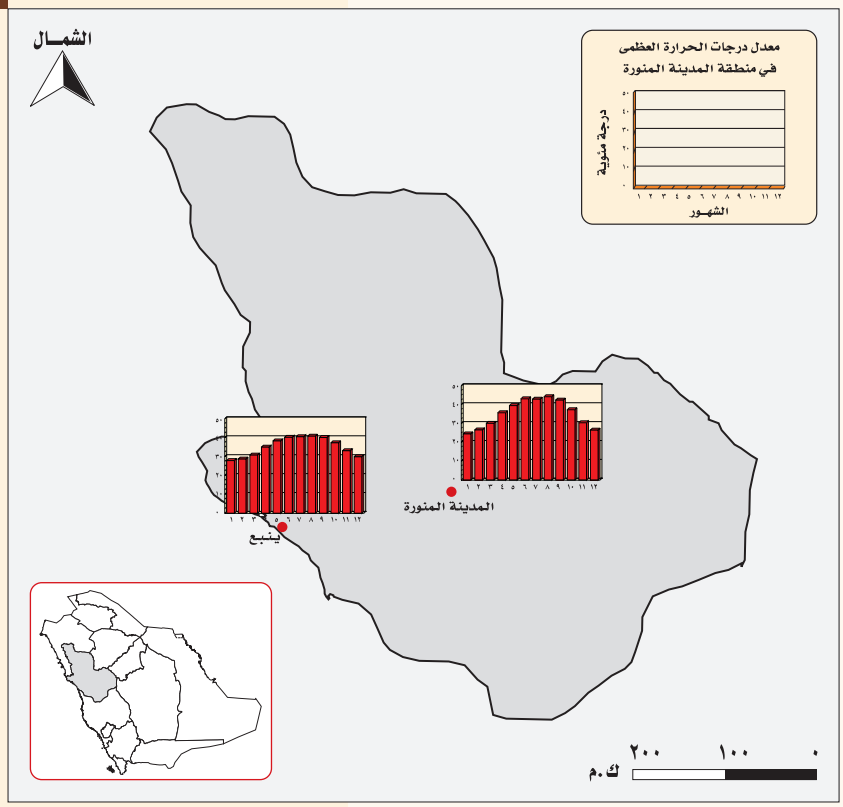

خريطة ٦: معدلات درجات الحرارة العظمى بمنطقة المدينة المنورة حسب شهور السنة خلال الفترة من ١٤١٣ ـ ١٤٢٣ هـ /١٩٩٣ ـ ٢٠٠٢ م(*)

الحراري اليومي ارتفاعاً كبيراً في منطقة المدينة المنورة. أما بالنسبة إلى محطة ينبع الساحلية، فيقل فيها المدى الحراري السنوي إلى نحو ١٣,٢° م، ويعود ذلك إلى تأثير البحر الأحمر. ومع ذلك يظل المدى الحراري الشهري فيها مرتفعاً إلى حد ما، إذ يراوح بين ١٣,٥° م في شهر يناير إلى ١٥,٦° م في شهر يونيو.

د ـ الرطوبة النسبية:

تعد الرطوبة النسبية في منطقة المدينة المنورة منخفضة في أجزائها الداخلية في شهور السنة جميعها، (جدول ١٥)

(*) من إعداد الموسوعة اعتماداً على بيانات الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة.

جدول ١٥
معدلات الرطوبة الشهرية العظمى والصغرى ومتوسطاتها في منطقة المدينة المنورة خلال الفترة من ١٤١٣ - ١٤٢٣ هـ /١٩٩٣ - ٢٠٠٢ م(*)

الشهر	المدينة المنورة			ينبع		
	العظمى	الصغرى	المعدل	العظمى	الصغرى	المعدل
يناير	٩٥	٧	٣٩	١٠٠	٦	٥٥
فبراير	١٠٠	٥	٣١	١٠٠	٧	٥٣
مارس	٩٨	٣	٢٧	١٠٠	٧	٥٠
إبريل	٩٢	١	٢٢	١٠٠	٧	٥٠
مايو	٩١	٢	١٨	١٠٠	٤	٤٨
يونيو	٤٣	٢	١١	١٠٠	٧	٥٣
يوليو	٥٠	٢	١٤	١٠٠	٦	٥٤
أغسطس	٧٧	٣	١٦	١٠٠	٧	٥٥
سبتمبر	٧٠	٣	١٥	١٠٠	٨	٥٧
أكتوبر	٩٦	٥	٢٠	١٠٠	٤	٥٨
نوفمبر	١٠٠	٧	٣٤	١٠٠	٧	٥٧
ديسمبر	١٠٠	٧	٤١	١٠٠	٧	٥٧

جدول ١٦
معدلات الرطوبة الفصلية في منطقة المدينة المنورة خلال الفترة من ١٤١٣ - ١٤٢٣ هـ /١٩٩٣ - ٢٠٠٢ م(**)

المحطة	فصول السنة			
	الشتاء (٪)	الربيع (٪)	الصيف (٪)	الخريف (٪)
المدينة المنورة	٣٧	٢٢,٣	١٣,٦	٢٣
ينبع	٥٥	٤٩,٣	٥٤,٠	٥٧,٣

و(خريطة ٧)، بسبب البعد عن البحر الأحمر. وتأخذ الرطوبة النسبية في محطة المدينة المنورة مستواها الأعلى في الفترة الشتوية، ويمثلها متوسط ٤١٪ في ديسمبر، بسبب انخفاض درجة الحرارة، وتساقط الأمطار في الفترة الباردة الرطبة نسبياً. ويتقلص متوسط الرطوبة النسبية فيها إلى ١٤٪ في يونيو ويوليو. إذ يقترن ارتفاع درجة الحرارة بانخفاض الرطوبة النسبية ما يؤدي إلى زيادة الإرهاق الحراري الذي يؤدي إلى شعور السكان بالانزعاج الحراري.

وفي الوقت الذي تنخفض فيه الرطوبة النسبية بصفة عامة في أشهر السنة كلها في محطة المدينة المنورة، ترتفع هذه الرطوبة في شهور السنة كلها في محطة ينبع، (جدول ١٥) و(جدول ١٦). ويرجع السبب في ذلك إلى وقوع محطة ينبع على ساحل البحر الأحمر.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك علاقة واضحة بين درجات الحرارة والرطوبة النسبية، إذ إنه كلما انخفضت درجة الحرارة ارتفعت الرطوبة النسبية، ولهذا ترتفع الرطوبة النسبية في أشهر الشتاء وتنخفض في أشهر الصيف (خريطة ٨).

هـ - الأمطار:

يخضع نظام المطر في منطقة المدينة المنورة لذبذبات عالية جداً، كما أن الأمطار تختلف من فصل إلى آخر، إذ تهطل في أواخر الخريف والشتاء. وقد يهطل المطر على شكل زخات عنيفة تستمر لبضع ساعات أو دقائق. وتقل الأمطار كثيراً في فصل الصيف، ويتزامن ذلك مع الارتفاع في درجة الحرارة ارتفاعاً شديداً في معظم أيام السنة ما يؤدي إلى ارتفاع معدل التبخر، وعدم الاستفادة من مياه الأمطار.

ويلاحظ عدم الانتظام في كميات الأمطار الهاطلة على منطقة المدينة وتذبذبها، فقد هطل على محطة المدينة المنورة عام ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م ١٦,٤ مم،

(*) المصدر: الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة، بيانات مناخية.

(**) المصدر: الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة، بيانات مناخية وحساب النسب من عمل الباحثة.

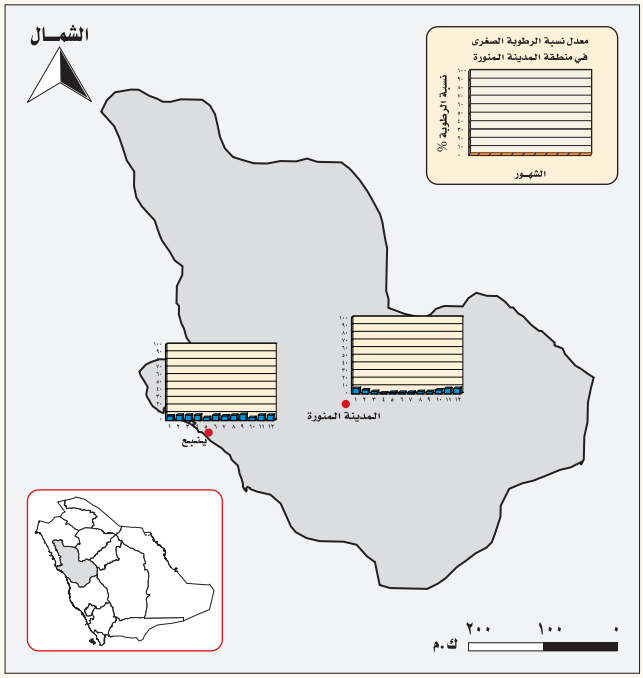

خريطة ٧: معدل نسبة الرطوبة الصغرى بمنطقة المدينة المنورة خلال الفترة من ١٤١٣ ـ ١٤٢٣ هـ/١٩٩٣ ـ ٢٠٠٢ م(*)

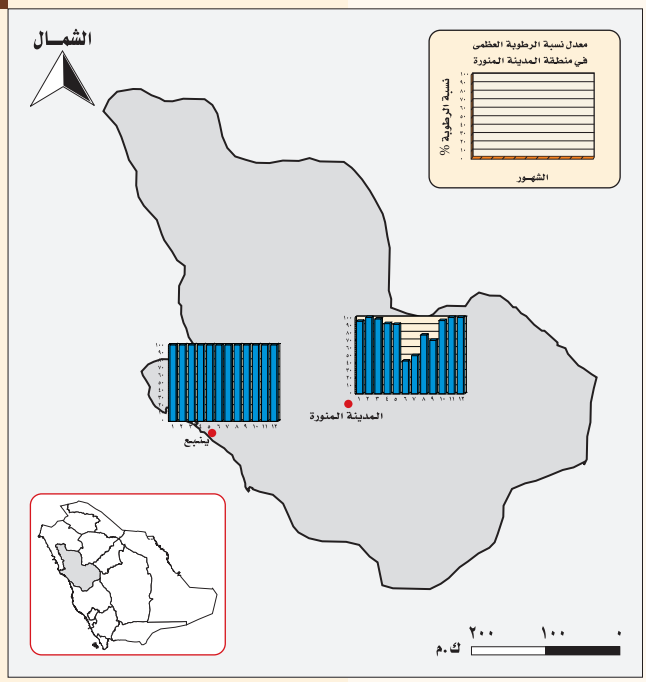

خريطة ٨: معدل الرطوبة العظمى بمنطقة المدينة المنورة خلال الفترة من ١٤١٣ ـ ١٤٢٣ هـ/١٩٩٣ ـ ٢٠٠٢ م(*)

وهطل عام ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م ١٠٨,٤ مم، كما هطل عام ١٤١٧ هـ/١٩٩٦ م ١٨,٤ مم، وفي السنة التي تليها ٩٨,١ مم، والوضع نفسه نجده في محطة ينبع، إذ هطل عام ١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م ٥,١ مم. وهطل عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٣ م ٩٠,١ مم، وفي عام ١٤١٦ هـ /١٩٩٥ م هطل ١,١ مم وسقط في السنة التالية ٥٦,٧ مم. وهذا يدل دلالة واضحة على أن أمطار منطقة المدينة المنورة تتميز بالتذبذب وعدم الانتظام والقلة، إذ بلغ معدل الهطلان السنوي لمحطة المدينة المنورة ٧٢,٣ مم خلال الفترة من ١٤٠٥ ـ ١٤٢٣ هـ/ ١٩٨٥ ـ ٢٠٠٢ م، و ٣٠,٤ مم لمحطة ينبع، (شكل ٥)[١].

ويتضح من (جدول ١٧) أن الأمطار تهطل في فصول السنة جميعها مع اختلاف كمية الأمطار من فصل إلى آخر. وتعد فصول الخريف والربيع والشتاء فصول هطلان الأمطار في المدينة المنورة. ويأتي فصل الخريف في المركز الأول بالنسبة إلى محطة المدينة المنورة، إذ بلغ معدل هطلان الأمطار فيها في أشهر الخريف ١٥,٨ مم ٥٤,١٪ من معدل المطر السنوي، ويأتي فصل الربيع في المركز الثاني بمعدل هطلان ٣٠,٩ مم ٢٥,٤٪ من معدل المطر السنوي. يبلغ نصيب فصل الصيف ٤,٩٥ مم ٤,١٪ من معدل المطر السنوي. ويرجع السبب في سقوط الأمطار في فصلي الخريف والشتاء إلى تقدم منخفضات

(١) الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة. بيانات مناخية للفترة من ١٩٨٥ - ٢٠٠٢ م، مرجع سابق.

(*) من إعداد الموسوعة اعتماداً على بيانات الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة.

البحر المتوسط بالإضافة إلى هبوب الرياح الغربية في فصل الشتاء وانحرافها جنوباً إلى البحر الأحمر الذي يعد امتداداً طبيعياً للبحر المتوسط في فصل الشتاء، (شكل ٦).

أما بالنسبة إلى محطة ينبع فإن فصل هطلان الأمطار الرئيس هو فصل الشتاء، يبلغ نصيبه نحو ٥٣,٤٪ من مجموع كمية المطر السنوي، ويتضح من (جدول ١٨) أنه قد هطل في عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٣ م على محطة ينبع ٩٠,١ مم منها ٤٨,٥ مم في شهر ديسمبر، وفي يوم واحد ٢٢ ديسمبر[١]. وهذا يدل على أن المطر يهطل في دقائق وساعات محدودة على شكل زخات عنيفة،

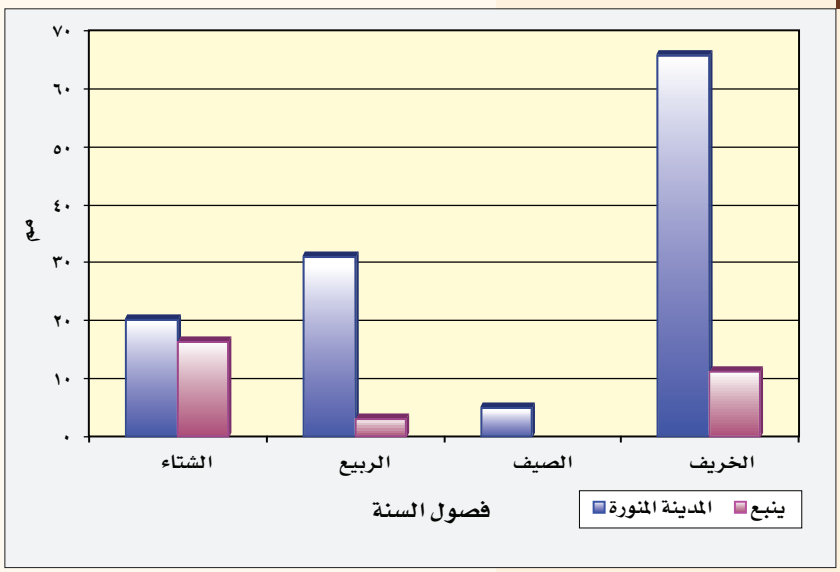

شكل ٥: كميات الأمطار الفصلية الهاطلة على منطقة المدينة المنورة خلال الفترة من ١٤٠٥ ـ ١٤٢٣ هـ /١٩٨٥ ـ ٢٠٠٢ م

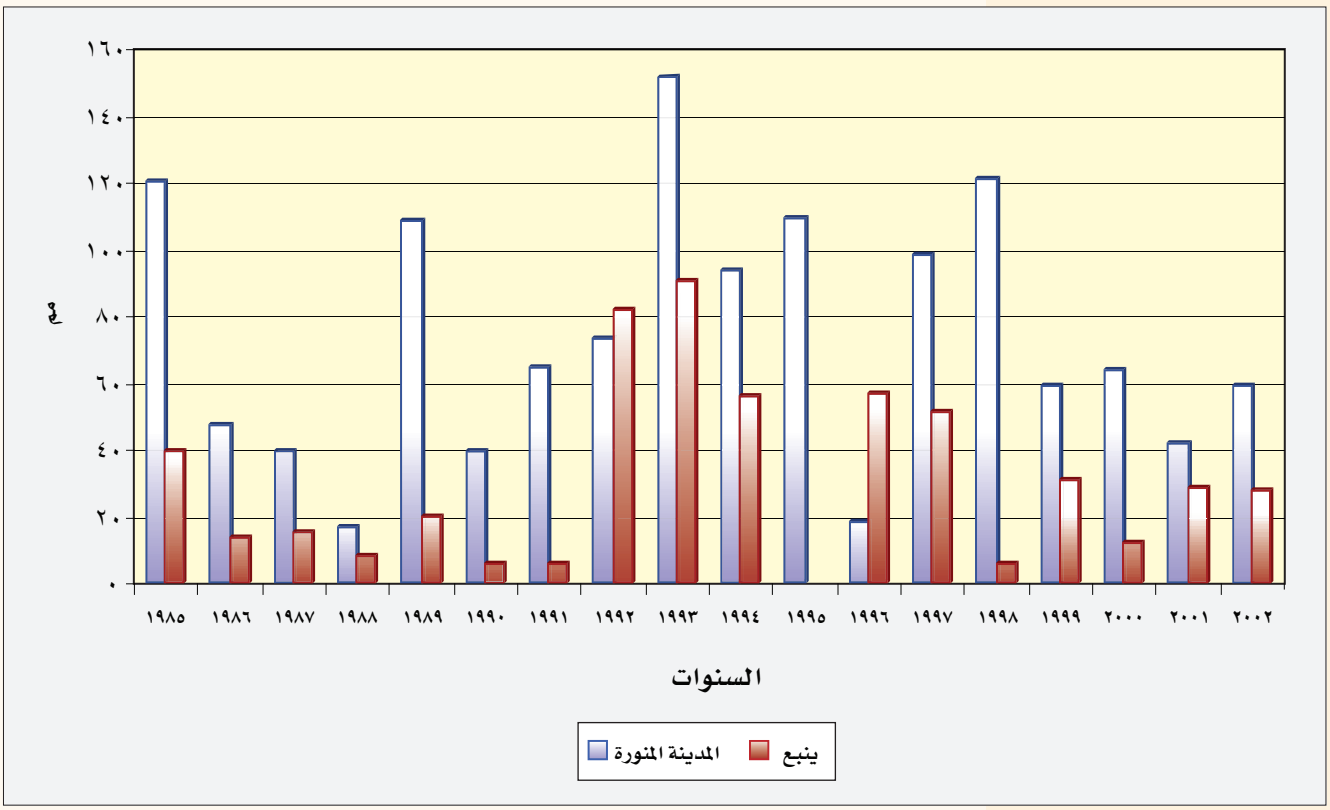

شكل ٦: كميات الأمطار الهاطلة على منطقة المدينة المنورة خلال الفترة من ١٤٠٥ ـ ١٤٢٣ هـ /١٩٨٥ ـ ٢٠٠٢ م

(١) الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة. بيانات مناخية للفترة من ١٩٨٥ - ٢٠٠٢ م، مرجع سابق.

جدول ١٧
كميات الأمطار الهاطلة في منطقة المدينة المنورة حسب فصول السنة خلال الفترة من ١٤٠٥ - ١٤٢٣ هـ /١٩٨٥ ـ ٢٠٠٢ م(*)

الشهر	المدينة المنورة				ينبع			
	الشتاء	الربيع	الصيف	الخريف	الشتاء	الربيع	الصيف	الخريف
١٤٠٥ هـ /١٩٨٥ م	٢٣	٤٢,٥٣	٠,٠	٥٤,٧	٨,٣	٢,١	٠,٢	٢٩,٠
١٤٠٦ هـ /١٩٨٦ م	٨,٨	٣٢,٢	٠,٤	٦,٠	١,٦	٠,٢	٠,٠	١٣,٥
١٤٠٧ هـ /١٩٨٧ م	٢,٣	٣٣,٦	٠,٨	٢,٦	٣,٢	٠,٠	٠,٠	١١,٩
١٤٠٨ هـ /١٩٨٨ م	١,٥	٦,٢	٠,٠	٨,٧	٧,٥	٠,١	٠,٠	٠,٠
١٤٠٩ هـ /١٩٨٩ م	٢٥,٣	٨٢,٤	٠,٧	٠,٠	١٥,٥	٠,٥	٠,٠	٣,٤
١٤١٠ هـ /١٩٩٠ م	٠,٠	٣٩,٠	٠,٠	٠,٠	٤,٢	٠,٩	٠,٠	٠,٠
١٤١١ هـ /١٩٩١ م	٣٢,٢	١٤,٥	٠,٠	١٧,٦	٠,٠	١,٠	٠,٠	٤,٨
١٤١٢ هـ /١٩٩٢ م	٢٥,٦	٧,٧	١٣,١	٢٦,٧	٣٢,١	١,٠	٠,٠	٤٨,٧
١٤١٣ هـ /١٩٩٣ م	٤٠,٣	١٠١,٤	٠,٠	٩,٨	٥٩,٧	١١,٥	٠,٠	١٨,٩
١٤١٤ هـ /١٩٩٤ م	١٦,٦	٤٤,٤	١١,٠	٢١,٠	٤٣,١	٠,٠	١,٠	١١,٤
١٤١٦ هـ /١٩٩٥ م	٤٧,٤	٤٠,٥	١٥,٢	٦,٠	٠,٥	٠,٠	٠,٠	٠,٦
١٤١٧ هـ /١٩٩٦ م	٠,٤	٠,٢	١,٠	١٦,٨	٣,٥	١,٢	٠,٠	٢٥,٠
١٤١٨ هـ /١٩٩٧ م	٢١,٩	٦,٧	٠,٠	٦٩,٥	٤٣,٣	٠,٣	٠,٠	٧,٥
١٤١٩ هـ /١٩٩٨ م	٦,٠	٧٥,٠	٣٩,٥	٠,٠	٠,٠	٤,٨	٠,٩	٠,٠
١٤٢٠ هـ /١٩٩٩ م	٤٧,٤	٨,٨	١,٤	١,٥	١٢,٦	١٦,٥	٠,٠	١,٣
١٤٢١ هـ /٢٠٠٠ م	٠,٠	٠,٠	٠,٠	٣٦,٤	١٢,٠	٠,٠	٠,٠	٠,٠
١٤٢٢ هـ /٢٠٠١ م	٢٧,٥	٨,٣	٦,١	٠,٠	١٥,٣	١٣,٢	٠,٠	٠,٠
١٤٢٣ هـ /٢٠٠٢ م	٣٤,٠	١٢,٤	٠,٠	١٢,٧	٣,٣	١,٨	٠,٠	٢٢,٠

وهذه من سمات الأمطار وخصائصها في المناطق الجافة.

ويعد فصل الصيف فصلاً جافاً في منطقة المدينة المنورة، إذ لا يتجاوز معدل كمية الأمطار الهاطلة ٥ مم في محطة المدينة المنورة، ونحو ٠,١١ مم في محطة ينبع خلال الفترة من ١٤٠٥ ـ ١٤٢٣ هـ/١٩٨٥ ـ ٢٠٠٢ م.

ويعود سبب قلة الأمطار وندرتها في فصل الصيف إلى أن الأمطار تقل كلما اتجهنا شمالاً وإلى الداخل، إذ إن الرياح الجنوبية الغربية تفرغ معظم حمولتها ورطوبتها على الجزء الجنوبي الغربي من المملكة، وبالتحديد على مرتفعات السروات، وعندما تصل منطقة المدينة المنورة تكون قد أفرغت معظم حمولتها على الجزء الجنوبي

(*) المصدر: الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة، بيانات مناخية. الجدول من عمل الباحثة.

جدول ١٨

كميات الأمطار الهاطلة على منطقة المدينة المنورة
خلال الفترة من ١٤٠٥ - ١٤٢٣ هـ / ١٩٨٥ - ٢٠٠٢ م مع بيان لأعلى كمية هاطلة في السنة(*)

السنة	إجمالي الكمية الساقطة		أعلى كمية/الشهر		أعلى كمية/اليوم	
	المدينة المنورة	ينبع	المدينة المنورة	ينبع	المدينة المنورة	ينبع
١٤٠٥ هـ /١٩٨٥ م	١٢٠,٢	٣٩,٦	٤٥,٧	٢٧,٠	١١	١١
١٤٠٦ هـ /١٩٨٦ م	٤٧,٤	١٣,٥	٨,٠	١٣,٥	٤	١٠
١٤٠٧ هـ /١٩٨٧ م	٣٩,٣	١٥,١	٢٨,٢	١١,٩	٣	١١
١٤٠٨ هـ /١٩٨٨ م	١٦,٤	٧,٦	٦,٣	٥,١	١١	١
١٤٠٩ هـ /١٩٨٩ م	١٠٨,٤	١٩,٤	٣٣,١	١١,٤	٣	١٢
١٤١٠ هـ /١٩٩٠ م	٣٩,٠	٥,١	٢١,٦	٤,٢	٣	٢
١٤١١ هـ /١٩٩١ م	٦٤,٣	٥,٨	٢٢,٣	٤,٨	٢	١٠
١٤١٢ هـ /١٩٩٢ م	٧٣,١	٨١,٨	١٨,٥	١٩,٧	١١	١١
١٤١٣ هـ /١٩٩٣ م	١٥١,٥	٩٠,١	٤١,٩	٤٨,٥	٣	١٢
١٤١٤ هـ /١٩٩٤ م	٩١,٠	٥٥,٥	٢٦,١	٤٣,٠	٥	١٢
١٤١٦ هـ /١٩٩٥ م	١٠٩,١	١,١	٣٩,٤	٠,٥	٣	٢
١٤١٧ هـ /١٩٩٦ م	١٨,٤	٥٦,٧	٨,٤	٢١,٨	١١	١٢
١٤١٨ هـ /١٩٩٧ م	٩٨,١	٥١,١	٢٥,٩	٤١,١	١١	١
١٤١٩ هـ /١٩٩٨ م	١٢٠,٥	٥,٧	٢٨,٥	٣,٣	٨	٣
١٤٢٠ هـ /١٩٩٩ م	٥٩,١	٣٠,٤	٣٠,٤	١٦,٥	١	٥
١٤٢١ هـ /٢٠٠٠ م	٦٣,٤	١٢,٠	٥٢,٤	١٠,٤	١١	١١
١٤٢٢ هـ /٢٠٠١ م	٤١,٩	٢٧,١	٢٧,٢	١٢,٤	١٢	٣
١٤٢٣ هـ /٢٠٠٢ م	٥٩,١	١٨١,٩	٢٩,٦	١٩,٢	٢	١١

الغربي، كما أن الرياح الغربية تسقط معظم حمولتها على شرق إفريقية، وعندما تعبر البحر الأحمر فإن كمية الرطوبة التي تحملها لا تسمح بسقوط الأمطار بكميات كبيرة.

(*) المصدر: الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة، بيانات مناخية. الجدول من عمل الباحثة.

الفصل الخامس

التربة

أولاً عوامل تكوين التربة وعملياته

ثانياً تصنيف التربة

ثالثاً خصائص ترب الأراضي الزراعية

رابعاً مشكلات ترب الأراضي الزراعية

إعداد

الأستاذ الدكتور عبدالله بن أحمد الطاهر

أستاذ الجغرافيا الحيوية والتربة

تعد التربة أحد المصادر الطبيعية المتجددة في منطقة المدينة المنورة، وهي من المقومات الأساسية والضرورية التي يعتمد عليها وجود الكائنات الحية وتوزيعها. ويعتمد الغطاء النباتي خصوصاً في المنطقة اعتماداً كلياً على التربة في الحصول على متطلباته المائية والغذائية جميعاً. والتربة بشكل عام هي الطبقة العلوية المفتتة من صخور المنطقة التي طرأ عليها بعض التغيرات الكيميائية والفيزيائية، واختلطت بها نسبة من المادة العضوية ومن الماء والهواء، وبعد ذلك أصبحت ملائمة لنمو نباتات المنطقة.

وتشتمل تربة منطقة المدينة المنورة على أربعة مكونات رئيسة هي: المادة المعدنية والمادة العضوية والمادة السائلة والمادة الغازية، إلا أن هذه المكونات تختلف نسبتها من تربة إلى أخرى، وأحياناً تختفي بعض تلك المكونات في بعض الترب كما هي الحال بالنسبة إلى اختفاء المادة العضوية من الترب الخالية من الغطاء النباتي. ومكونات التربة يرتبط كل واحد منها بغلاف من أغلفة الكرة الأرضية، فالمادة المعدنية ترتبط بتركيب المنطقة الصخري، وترتبط مادة التربة العضوية بكائنات المنطقة الحية، وأما الماء فإنه يرتبط بالغلاف المائي، ويرتبط الهواء بالغلاف الجوي[١].

بناء على ما تقدم يمكن القول إن تربة منطقة المدينة هي مجموعة التفاعلات التي تتم بين الأغلفة الأربعة في المنطقة، وإن مكوناتها الفيزيائية والكيميائية وخصائصها كافة تتأثر مع مرور الوقت بخصائص المنطقة المناخية والجيولوجية والتضاريسية والحيوية؛ ولذا فإن فهم التربة ومعرفة



أحد مظاهر التربة في المنطقة

مكوناتها الكيميائية والفيزيائية وخصائصها خلال وقت معين في منطقة المدينة المنورة يتطلب معرفة خصائص المنطقة الجيولوجية والتضاريسية والمناخية والحيوية. ففيما يتعلق بالتركيب الجيولوجي لمنطقة المدينة المنورة فإن صخور الدرع العربي تغطي معظم الأجزاء الشمالية من منطقة المدينة الذي تنتمي صخوره إلى ثلاث مجموعات رئيسة: صخور القاعدة النارية والمتحولة، والصخور البركانية البازلتية، والصخور الرسوبية المنتشرة بشكل رئيس في الأجزاء الساحلية والعائدة إلى العصر الرباعي[٢].

أما ما يتعلق بسطح منطقة المدينة المنورة، فإنه يتكون من مجموعة من الأشكال التضاريسية، ومن أهمها مرتفعات السراة والحجاز التي تتسم سفوحها الغربية بالانحدار الشديد نحو البحر، وسفوحها الشرقية بالانحدار التدريجي نحو الشرق. ويشتد تواصل جبال الحجاز ويقل ارتفاعها في منطقة المدينة المنورة، لذا تكاد تتلاقى

(١) علي حسين الشلش، *جغرافية التربة*، (البصرة: جامعة البصرة، ١٩٨٥ م)، ١٣، ١٤.

(٢) وزارة الزراعة والمياه، *أطلس المياه في المملكة العربية السعودية*، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، ١٩٨٤ م)، ٤، ٥.

أوديتها المتجهة نحو البحر الأحمر مع الأودية المتجهة إلى الداخل مثل وادي الحمض[١]. وتعد الهضاب الواقعة إلى الشرق من مرتفعات الحجاز من الوحدات التضاريسية الواضحة في المنطقة التي يتجه انحدارها نحو الشرق، وتنتشر الحرات (حرة رهاط وكرماء وخيبر) في أجزاء واسعة من سطح المنطقة. ويعد السهل الساحلي الشرقي للبحر الأحمر أحد مظاهر السطح الرئيسة في المنطقة[٢].

وأما خصائص منطقة المدينة المناخية فإنها تتسم بقلة أمطارها وتذبذبها وعدم انتظامها من سنة إلى أخرى، وتعد من أقل مناطق المملكة مطراً، ومن أكثرها ارتفاعاً في درجات الحرارة، وأعلاها في معدلات التبخر. ويعد الجفاف السمة المناخية السائدة في المنطقة. ويكاد الغطاء النباتي يكون شبه معدوم عدا بعض الأعشاب التي تنمو بعد سقوط المطر، أو بعض الأشجار والشجيرات المتناثرة في بعض الأجزاء التي يتوافر فيها القدر الكافي من المياه لسد احتياجات تلك النباتات.

في ضوء ما سبق فإن تربة المنطقة تختلف في خصائصها من جهة إلى أخرى تبعاً لاختلاف خصائص أجزاء المنطقة المناخية والجيولوجية والتضاريسية والبيولوجية، كما تختلف في مدى صلاحيتها لنمو النباتات. وأهم ما تتميز به تربة المنطقة انخفاض محتواها الرطوبي في معظم شهور السنة.

وتكوين التربة في منطقة المدينة المنورة لا يتوقف على العوامل الطبيعية آنفة الذكر بل أن الإنسان أيضاً أدى دوراً مهماً في تكوين تربة المنطقة والتأثير على خصائصها الفيزيائية والكيميائية. وبدأ الإنسان في المنطقة يتعامل مع التربة، ويحاول معرفة دورها في تحديد إنتاجية محصولاته الزراعية، وكذلك أخذ يتوسع في استغلال التربة في المنطقة باعتبارها مورداً طبيعياً، ما أدى إلى إحداث بعض التغيرات السلبية على التربة مثل ارتفاع ملوحتها وزيادة معدلات تعريتها. وللإنسان أيضاً مجموعة من التأثيرات السلبية الأخرى في تربة منطقة المدينة المنورة، الناتجة عن الرعي الجائر والاحتطاب والتوسع العمراني وبناء الطرق وإقامة السدود وإنشاء المصانع، وغيرها من الأنشطة البشرية في المنطقة. وقد تعرضت تربة منطقة المدينة المنورة نتيجة لتلك الأنشطة إلى التعرية الريحية والمائية وإلى التلوث.

إن معرفة تربة منطقة المدينة المنورة ونشأتها وتكوينها، ومعرفة مركباتها الكيميائية والبيولوجية والعوامل والعمليات التي تؤثر فيها، ومحاولة تحديد أصنافها وتوزيعها في المنطقة، وكذلك معرفة خصوبتها ومدى صلاحيتها لنمو النباتات أمر مهم لإدارة تلك الأراضي، وتحسين إنتاجيتها، والبحث في آليات الحفاظ عليها من التدهور، والتعرض إلى عملية التعرية والتملح وغيرهما من العمليات المضرة بإنتاجية التربة.

أولاً ـ عوامل تكوين التربة وعملياته:

تؤدي مجموعة من العوامل والعمليات دوراً بارزاً ومهماً في تكوين التربة وتشكيلها في منطقة المدينة. وتقوم تلك العوامل والعمليات بدور واضح في تحديد خصائص تربة المنطقة الفيزيائية والكيميائية. وفيما يلي نناقش أهم العوامل والعمليات المؤثرة في تكوين تربة منطقة المدينة المنورة:

(١) شاهر جمال آغا، *جغرافية الوطن العربي*، (دمشق: مطبعة ابن حيان، ١٩٨٧ م)، ٤٠، ٤١.

(٢) وزارة الزراعة والمياه. أطلس المياه، مرجع سابق، ٦٢.

أ ـ عوامل تكوين التربة:

١ ـ المواد الأولية:

تشتق مواد التربة الأولية في منطقة المدينة من تكوينات المنطقة الصخرية التي تعود في معظمها إلى زمن ما قبل الكمبري. وتنقسم تكوينات المدينة المنورة الصخرية التي تعد المصدر الأساس لمواد تربة المنطقة الأصلية إلى ما يأتي:

- الصخور القاعدية النارية شديدة الصلابة وعالية القدرة على مقاومة عمليات التجوية والتعرية (الديوريت والجرانيت) التي يعود وقت تكوينها إلى زمن ما قبل الكمبري. وينتشر هذا النوع من الصخور على نطاق واسع، ويغطي الجزء الأكبر من منطقة المدينة المنورة.
- الصخور المتحولة كالنيس والشيست.
- الصخور البركانية (البازلت) المنتشرة في الحرات التي تشكل جزءاً لا بأس به من مساحة المنطقة.
- الصخور الرسوبية المتراكمة فوق صخور القاعدة كما في الأجزاء الساحلية وفي أمكنة مختلفة في المنطقة [١].

إن مواد التربة الأصلية التي تكونت منها ترب منطقة المدينة المنورة تختلف من مكان إلى آخر تبعاً لاختلاف خصائص الصخور الأم الفيزيائية والكيميائية المشتقة منها تلك المواد. ولهذا السبب ترث ترب منطقة المدينة المنورة خصائص تلك الصخور المشتقة منها مادتها الأولية. ويكون أثر المادة الأولية أكثر وضوحاً في خصائص الترب الأقل تطوراً من تلك الناضجة. وتعد سمة القوام من أهم خصائص الترب التي تتأثر بالمادة الأولية؛ فالترب التي تشتق مادتها الأولية من الحجر الرملي والصخر الجرانيتي يكون حجم حبيباتها كبيراً، وقوامها خشناً، ونفاذيتها عالية، ومساميتها منخفضة، وتهويتها جيدة، وقدرتها على الاحتفاظ بالماء منخفضة. في حين تتسم الترب التي تشتق مادتها الأولية من الحجر الطيني والصخر البازلتي بصغر حجم حبيباتها، وقوامها الناعم، ونفاذيتها المنخفضة، ومساميتها العالية، وتهويتها الرديئة، وقدرتها العالية على الاحتفاظ بالماء. كما تؤثر المادة الأولية في نوعية المواد المغذية وكميتها التي تشتمل عليها التربة، ويستفيد منها النبات؛ فعلى سبيل المثال تكون الترب التي تشتق مادتها الأولية من صخور ذات معادن قاعدية غنية غالباً بالحديد والكالسيوم والماجنيزيم، في حين نجد أن الترب التي تشتق مادتها الأولية في المنطقة من صخور ذات معادن حامضية غالباً ما تكون غنية بالسليكا والألمنيوم [٢].

٢ـ المناخ:

يؤدي موقع منطقة المدينة المنورة الفلكي وإطلالها على البحر الأحمر وهو مسطح مائي ضيق، وبعدها عن تأثير المسطحات المائية الكبيرة دوراً واضحاً في تحديد سمات الجفاف القارية لمناخها. لذا يتميز مناخ منطقة المدينة المنورة بالارتفاع الشديد في درجات الحرارة التي سبق ذكرها [٣] في محطة المدينة. كما يتميز مناخ المنطقة بقلة الأمطار التي تختلف من جهة إلى أخرى، ففي محطة الحناكية والسويرقية تزيد كمية الأمطار السنوية، في حين تقل في محطات: القصيبة ومهد الذهب والخرمة والعقيق

(١) المرجع السابق، ٦٢، ٦٣.

(٢) عبدالله أحمد سعد الطاهر، *الجغرافيا الحيوية*، (الرياض: ١٤٢٤ هـ)، ٢٦١.

(٣) Abdulla, A.Al-Taher. "Drought and Human Adjustment in Saudi Arabia". 33.4., GeoJournal, 1994, pp 411- 422.



غطاء نباتي في المنطقة

وأم البرك والمدينة المنورة. ويرافق قلة الأمطار والارتفاع الشديد في درجات الحرارة في المنطقة ارتفاع كبير في معدلات التبخر، لمزيد من التفاصيل راجع فصل المناخ[١].

تؤدي ظروف المنطقة المناخية دوراً مهماً في تكوين تربة المنطقة. فعلى سبيل المثال تؤدي قلة الأمطار الساقطة على المنطقة إلى خفض معدل كثير من عمليات تكوين التربة، كما هو الحال بالنسبة إلى عملية التجوية الكيميائية والتعرية المائية وكذلك عمليتي الغسيل والإزالة. وفي الوقت نفسه تؤدي قلة الأمطار إلى تنشيط عمليتي التجوية الميكانيكية، والتعرية الريحية، وعمليتي التكلس والتملح[٢]. وتؤدي قلة الأمطار وارتفاع معدلات التبخر إلى حدوث عجز في رطوبة التربة في معظم أشهر السنة، إلا أن ذلك العجز يختلف في قيمته من شهر إلى آخر ومن جزء إلى آخر في المنطقة. ويؤدي ارتفاع معدلات التبخر من ماء التربة إلى تحرك الماء فيها من الأسفل إلى الأعلى، وإلى جفاف الجزء العلوي من قطاعها، وقد ينتج من هذه العملية تراكم الأملاح على سطح تلك الترب، وتحويلها إلى أراضٍ ملحية أو قلوية. ولا يتوقف دور الظروف المناخية في التأثير في تكوين تربة منطقة المدينة المنورة على عنصر المطر فقط، بل إن ارتفاع درجات الحرارة فيها يؤدي دوراً فعالاً في تنشيط عمليات تحلل المخلفات والبقايا النباتية والحيوانية، وتحويلها إلى مادة عضوية خلال فترة زمنية قصيرة.

٣ـ الكائنات الحية:

أثرت ظروف منطقة المدينة المنورة البيئية المتمثلة في قلة الأمطار وشدة الإشعاع الشمسي والارتفاع العالي في درجات الحرارة والتبخر في المنطقة في توزيع الكائنات الحية وتنوعها وكثافتها في المنطقة. وعلى الرغم من ذلك استطاعت أنواع من الكائنات الحية بعضها نباتي والآخر حيواني التكيف والتأقلم مع ظروف المنطقة البيئية، وتتسم الحياة النباتية والحيوانية في المنطقة بقلة تنوعها وانخفاض كثافتها. ففي الأراضي قليلة الأمطار التي لا يتوافر فيها مياه كافية يختفي الغطاء النباتي المعمر، وتظهر الأعشاب والحشائش بعد سقوط الأمطار لفترة قصيرة جداً. وفي الأودية في الجبال العالية والسفوح المرتفعة القليلة الانحدار التي تنتشر فيها الترب العميقة وتتساقط عليها كمية لابأس بها من الأمطار ينمو فيها غطاء نباتي من الأشجار مثل: أنواع الأكاسيا والبشام والعراد والعوسج والمرخ والطرفاء والعشر، كما تنمو في الأجزاء الأقل ارتفاعاً بعض الشجيرات مثل: الحرمل والرمث والثمام. وفي المنخفضات والقيعان

(١) خوجلي، مصطفى محمد، ومرعي البيشي. «المناخ»، في: المدينة المنورة: البيئة والإنسان، مرجع سابق، ٥٩، ٦٠.

(٢) أحمد فوزي يوسف، *البيدولوجي نشأة ومورفولوجي وتقسيم الأراضي*، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠٨ هـ)، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٧.

ينمو غطاء نباتي كثيف من الشجيرات والأعشاب مثل: السدر البري والشري والشيح. أما في المنخفضات ذات الترب المالحة، فتنمو نباتات من الأنواع المتحملة للملوحة مثل السويدا والرمث الأشنان[١].

ويرتبط نوع الكائنات الحيوانية وكثافتها في المنطقة ارتباطاً قوياً بنوع الغطاء النباتي وكثافته فيها[*]. ففي الأمكنة التي يتوافر فيها غطاء نباتي متميز تعيش الذئاب والضباع على اللحوم؛ وهي حيوانات مفترسة وليست كثيرة لتؤثر في التربة، كما تعيش في المنطقة القوارض، مثل: الجرذان والفئران والجرابيع والقنافذ، وتنتشر الحشرات مثل الخنافس بأنواعها المختلفة وأشكالها[٢]. وعلى الرغم من انخفاض كثافة الكائنات الحية التي تعيش في منطقة المدينة سواء كانت نباتية أو حيوانية، إلا أن لها دوراً فعالاً وواضحاً في تكوين تربة المنطقة وتشكيلها، وخصوصاً ما يتعلق بتكوين المادة العضوية فيها التي تمثل أحد مكونات التربة الأساسية. وتعد بقايا نباتات وحيوانات المنطقة المختلفة ومخلفاتها المصدر الأساس للمادة الأولية اللازمة لتكوين المادة العضوية في تربة المنطقة.

إن وفرة المادة اللازمة لتكوين المادة العضوية مختلفة تبعاً لاختلاف كثافة الغطاء النباتي في المنطقة[٣]. ففي بعض أراضي المدينة المنورة تنعدم المادة العضوية نتيجة انعدام الغطاء النباتي هناك، وفي أراضٍ أخرى من المنطقة قد تحتوي تربتها على نسبة منخفضة من المادة العضوية ١ ـ ٢٪، كما في المنخفضات والأودية الجبلية حيث الغطاءات النباتية، وفي ترب الواحات الزراعية ترتفع نسبة المادة العضوية إلى أكثر من ٣٪. ولا يتوقف أثر الكائنات الحية في تربة المنطقة فقط على تكوين المادة العضوية، ولكنه يؤدي دوراً بارزاً في حماية التربة من الانجراف والتعرية المائية والريحية. ففي الأمكنة الخالية من الغطاء النباتي في المنطقة تزداد معدلات التعرية الريحية والمائية، وتفقد التربة جزءاً كبيراً من مكوناتها الأساسية، في حين تنخفض معدلات التعرية سواء الريحية أو المائية في الأمكنة التي يتوافر فيها غطاء نباتي؛ وإن كان ذا كثافة منخفضة. وتقوم النباتات التي تنمو في ترب منطقة المدينة المنورة بدورٍ مهم في امتصاص بعض العناصر المغذية من نطاق جذور النباتات إلى سطح التربة وبخاصة تلك العناصر الموجبة الشحنة كما هو الحال بالنسبة إلى الكالسيوم والصوديوم وغيرهما. وبهذه الطريقة تحافظ النباتات على تلك العناصر من الغسيل من قطاع التربة إلى خارجه. وتؤثر الحيوانات الرعوية في تكوين تربة منطقة المدينة المنورة عن طريق أكلها النباتات وتجريد التربة منها ومن ثم تعريضها للتعرية، وتقوم الحيوانات الحفّارة كالفئران والجرذان والجرابيع بدور فعال في خلط حبيبات تربة المنطقة ومزجها بالمادة العضوية، وبهذه الطريقة تؤثر تلك الحيوانات في بناء التربة[٤].

٤ـ التضاريس:

يتكون سطح منطقة المدينة المنورة من مجموعة من الوحدات التضاريسية؛ أهمها سلسلة جبال السراة والحجاز، ومن التلال المتباينة في الشكل والارتفاع، كما يتكون سطحها من الهضاب، مثل هضبة الوحفة، والحرات، مثل: حرة رهط وحرة خيبر وحرة

(١) عبدالرحمن صادق الشريف، « البيئة الحيوية في منطقة المدينة»، في: *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: محمد أحمد الرويثي، ومصطفى محمد خوجلي، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٨ هـ/١٩٩٨ م)، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٦.

(٢) المرجع السابق ٩٩، ١٠٠.

(٣) المرجع السابق، ٩٢.

(٤) الطاهر، عبدالله أحمد سعد. الجغرافيا الحيوية، مرجع سابق، ٢٦٧.

(*) لمزيد من التفاصيل: انظر: الباب الثامن، (الحياة الفطرية)؛ الفصل الأول.



جانب من جبال الحجاز

الرحا وحرة عويرض، والأودية، مثل: وادي العقيق ووادي قناة ووادي بطحان ويتشكل من تلك الأودية وادي الحمض، والسباخ، مثل: سباخ وادي الحمض، والقيعان مثل: قاع حضوضاء وقاع القرن وقاع الاشديدة وقاع الحرجة وقاع الحاقنة، ويشكل السهل الساحلي الشرقي للبحر الأحمر جزءاً من تضاريس منطقة المدينة المنورة. وتمثل الأجزاء الشمالية لمرتفعات الحجاز الوحدة التضاريسية الأكثر انتشاراً ووضوحاً في منطقة المدينة المنورة. وبشكل عام يقل ارتفاع جبال الحجاز في منطقة المدينة المنورة، ويصل ارتفاعها إلى حده الأدنى ١٠٠٠ م بالقرب من المدينة المنورة. وتنحدر سفوح مرتفعات الحجاز الغربية في منطقة المدينة انحداراً شديداً نحو الغرب، وأما سفوحها الشرقية فإنها تنحدر انحداراً تدريجياً نحو الأجزاء الداخلية. وتتسم مرتفعات الحجاز في المنطقة بتواصلها، وتكاد تتلاقى أوديتها المتجهة نحو البحر الأحمر مع الأودية المتجهة إلى الداخل لوادي الحمض[١].

يتأثر تكوين قطاعات الترب في منطقة المدينة المنورة بالأشكال التضاريسية في المنطقة. فعلى سبيل المثال يتوقف عمق قطاعات ترب سفوح مرتفعات الحجاز على درجة انحدارها. فالترب التي تتكون على السفوح الغربية لجبال الحجاز تتسم قطاعاتها بالضحالة وعدم احتوائها على الآفاق التشخيصية، وهذا عائد إلى الانحدار الشديد لتلك السفوح التي تؤدي إلى النقل المستمر لمكونات التربة عن طريق التعرية المائية والجاذبية الأرضية. ومن أهم خصائص ترب هذه السفوح أنها جيدة التهوية والتصريف، وقدرتها على الاحتفاظ بالماء محدودة جداً وفقيرة بالمادة العضوية. على حين تتسم قطاعات ترب السفوح الشرقية ذات الانحدار التدريجي بالعمق النسبي مقارنة بترب السفوح الغربية. وأما ترب الأراضي المستوية كالسهول الساحلية والسهول الفيضية والسباخ والقيعان، فإن قطاعاتها تتسم بأنها عميقة بسبب تجمع الرواسب المائية ورواسب الجاذبية وتراكمها، وترب هذه الأراضي رديئة التهوية والتصريف، وقدرتها على الاحتفاظ بالماء عالية، لذا قد تتحول بعض تلك الأراضي إلى سباخ.

٥ ـ عامل الزمن:

يختلف طول الزمن المطلوب لتكوين ترب ذات قطاعات مشتملة على آفاق تطويرية متميزة في المنطقة تبعاً لاختلاف طبيعة الصخور التي تشتق منها مادة التربة الأولية. وتحتاج التربة التي تشتق مادتها الأولية من الصخور النارية الصلبة عالية المقاومة إلى عمليات التجوية كالصخور الجرانيتية والبازلتية إلى وقت طويل؛ لكي يكتمل قطاعها

(١) وزارة التعليم العالي، *أطلس المملكة العربية السعودية*، (الرياض: وزارة التعليم العالي، ١٤١٩ هـ)، ٥٢.

مقارنة بتلك التي تشتق مادتها الأولية من الصخور الهشة واللينة غير المقاومة لعمليات التجوية كالصخور الرسوبية، وترب هذه الأجزاء لا تحتاج إلى وقت طويل لكي يكتمل قطاعها. كما أن خصائص مادة التربة الأولية الكيميائية في المنطقة تؤدي دوراً كبيراً في تحديد فترة تكوين التربة. وإن احتواء مادة التربة الأولية على كمية عالية من كربونات الكالسيوم والصوديوم قد يؤدي إلى إعاقة حركة مواد التربة، وبالتالي قد يؤخر عملية تطوير قطاعاتها، كما يؤدي ارتفاع نسبة حبيبات الطين في الترب التي تشتق مادتها الأولية من الحجر الطيني في منطقة المدينة المنورة إلى إبطاء عملية تكوين الآفاق؛ لأن ارتفاع نسبة حبيبات الطين في تلك الترب قد يبطئ حركة الماء نحو الأجزاء السفلية من قطاع التربة، وهذا يجعل ترب تلك الأجزاء رديئة التهوية والتصريف.

ويختلف الوقت المطلوب من أجل تكوين التربة في المنطقة تبعاً لاختلاف درجة الانحدار، ففي الأمكنة التي يكون فيها الانحدار شديداً جداً تبقى التربة في مرحلة الشباب، ولا يحتوي قطاعها على الآفاق التشخيصية جميعها؛ لذا يعد الانحدار الشديد أحد عوامل إعاقة تكوينها؛ لأنه ينشط عملية التعرية المائية التي تقوم بنقل مواد الجزء العلوي من التربة بسرعة عالية. ويؤدي انخفاض السطح واستواؤه في بعض أراضي منطقة المدينة المنورة دوراً كبيراً في تكوين التربة، لأن هذه الأراضي تتجمع فيها المواد المنقولة من المناطق المرتفعة. وتعد خصائص المنطقة المناخية كالانخفاض في كمية الأمطار والارتفاع الشديد في درجات الحرارة وانخفاض الرطوبة النسبية من أهم الظروف التي تؤدي إلى تأخير عملية تكوين التربة في المنطقة. وهذا قد يكون راجعاً إلى تأثيرها في انخفاض معدلات التجوية وعمليات تشكيل الآفاق وتكوينها داخل القطاع كعمليات الغسيل والإزالة والتجمع والتراكم وغيرها. كما أن للظروف المناخية في المنطقة دوراً كبيراً في خفض كثافة الغطاء النباتي، وهذا يؤدي إلى انعدام نشاط الكائنات الحية في معظم أجزاء المنطقة، وانعدام وجود المواد اللازمة لتكوين المادة العضوية في تربها.

ب ـ عمليات تكوين التربة:

تقوم عمليات تكوين التربة في منطقة المدينة المنورة بدور فعال في تحديد عمق قطاعات التربة، وتحديد ما تحتويه تلك القطاعات من آفاق. وتتوقف عملية تكوين القطاع والآفاق على تضافر جهود عمليات التكوين التي يختلف دورها وسرعة حدوثها من مكان إلى آخر في المنطقة. ويتطلب تحلل صخور الجرانيت والنيست والديوريت وتفتيتها بوساطة عمليات التجوية وقتاً أطول من تحلل الحجر الرملي والجيري وتفتته بوساطة تلك العمليات. ومن أهم العمليات التي تؤدي دوراً كبيراً في تكوين التربة وقطاعاتها في منطقة المدينة المنورة عمليات التجوية الفيزيائية والميكانيكية والكيميائية والحيوية التي تقوم بتحليل الصخور وتفتيتها، وتكوين المادة الأولية للتربة، إلا أن دور عمليات التجوية الكيميائية والحيوية في القيام بعمليات التحلل والتفتيت للصخور محدود جداً بسبب قلة الأمطار في المنطقة[1]. وفي الأمكنة شديدة الانحدار تنشط عمليتا التذرية والنقل لمواد

(١) عبدالحفيظ محمد سعيد سقا، *الجغرافية الطبيعية للمملكة العربية السعودية*، (جدة: ١٤١٩ هـ)، ٢٤٢، ٢٤٣.

التربة، وعملية التجمع والتراكم لمواد التربة في الأمكنة المنخفضة والمستوية. كما تنشط عملية التكلس في معظم أجزاء منطقة المدينة المنورة بسبب قلة الأمطار، وحدوث هذه العملية يؤدي إلى تراكم الجير والكلس وتجمعهما في الأجزاء العلوية من القطاع، ومع مرور الوقت قد يتكون أفق جيري أو كلسي في تلك الأجزاء. وينتج عن قلة الأمطار في المنطقة انخفاض في معدلات حدوث عملية الغسيل والإزالة لمواد التربة داخل قطاعها في معظم أجزاء المنطقة. وفي الأراضي المنخفضة والمستوية التي يتوافر فيها منسوب ماء أرضي قريب جداً من السطح تنشط عملية التملح، وينتج عنها نشأة الأراضي الملحية والسباخ في الأراضي الساحلية.

أدى عامل قلة الأمطار في المنطقة دوراً كبيراً في خفض معدلات حدوث كثير من عمليات تكوين التربة، وأحياناً أخرى عطلت قلة الأمطار حدوث تلك العمليات. لهذا السبب فإن معظم ترب منطقة المدينة المنورة لا تحتوي قطاعاتها على الآفاق التشخيصية، وهي ترب غير ناضجة.

ثانياً ـ تصنيف الترب:

بناءً على نتائج المسح الشامل لأراضي المملكة العربية السعودية الذي قامت به وزارة الزراعة والمياه في سنة ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م[١] والمعمول به حتى تاريخه، والمبني على أساس معايير التصنيف الأمريكي الشامل للأراضي، فإن أراضي منطقة المدينة المنورة تقع ضمن رتبتي الأراضي الجافة أريدي سولز (Aridisols)، والأراضي الحديثة إنتي سولز (Entisols). وفيما يأتي نتحدث عن تلك الأراضي:

أ ـ رتبة الأراضي الجافة (أريدي سولز Aridisols) تربة طمية ملحية حصوية عميقة ومتوسطة العمق:

تشتمل رتبة الأراضي الجافة في منطقة المدينة المنورة على تحت رتبة الأورثيدز، وتحتوي رتبة أراضي الأورثيدز في المنطقة على مجموعات الترب الكبرى الآتية:

- مجموعة الكالسي أورثيدز.
- مجموعة الكامب أورثيدز.
- مجموعة الجبسي أورثيدز.
- مجموعة السال أورثيدز.

وتتسم ترب الأراضي الجافة بأن محتواها المائي منخفض في معظم أيام السنة، ولا تحتفظ بكمية من الرطوبة الكافية لسد المتطلبات المائية للنباتات ذات الاحتياجات المائية المتوسطة لفترة زمنية طويلة. وكذلك لا تحتوي قطاعاتها على الآفاق التشخيصية، وقد تحتوي فقط على أفق أو أفقين من تلك الآفاق. كما تحتوي ترب الأراضي الجافة جميعها على نظام رطوبي جاف ما عدا ترب أراضي السباخ التي تحتوي على مستوى ماء أرضي مرتفع في معظم أيام السنة. وفيما يأتي وصف لمجموعات الترب الكبرى الواقعة ضمن تحت رتبة الأورثيدز كما جاء في الخريطة العامة للتربة في المملكة ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م:

١ ـ مجموعة الكالسي أورثيدز (Calciorthids):

تعد ترب الكالسي أورثيدز إحدى مجموعات الترب الكبرى الواقعة ضمن تحت رتبة الأورثيدز التابعة لرتبة الأراضي الجافة المنتشرة في منطقة المدينة المنورة. وتحتوي قطاعات ترب الكالسي

(١) وزارة الزراعة والمياه، *الخريطة العامة للتربة*، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، ١٤٠٦ هـ)، ٣٦.

أورثيدز في منطقة المدينة على الأفق الكلسي، ويتشكل ذلك الأفق في قطاعات الترب نتيجة ترسب كربونات الكالسيوم وتراكمها، وأحياناً أخرى من ترسب كربونات الكالسيوم والماجنيزيم وتراكمها على عمق لا يزيد على ١٠٠ سم من سطح التربة. وتعد عملية غسل كربونات الكالسيوم في الطبقة العلوية من قطاع التربة أمراً غير ممكن بسبب قلة الأمطار المتساقطة على بعض الأراضي، وأن معظم الأجزاء العلوية من قطاعات ترب هذه الأراضي تعد أراضي جيرية. ومن أهم ما تتسم به ترب أراضي الكالسي أورثيدز أن عمق قطاعاتها يراوح بين القطاع الضحل والقطاع العميق. وتعد ترب الكالسي أورثيدز من أكثر ترب الأراضي الجافة انتشاراً في منطقة المدينة المنورة. وفيما يأتي وصف لمجموعات الترب الكبرى الواقعة ضمن تحت رتبة الأورثيدز في المنطقة:

أ) وحدة الكالسي أورثيدز ١٠:

تتكون أراضي هذه الوحدة الخرائطية من سهول شبه مستوية تجري في بعض أجزائها مجاري الأودية الكبيرة المتقطعة والمجاري المائية الضحلة جداً والضيقة. وتشكل تربة الكالسي أورثيدز هذه نحو ٨٥٪ من أراضي هذه الوحدة، في حين تشكل الأنواع الأخرى من الترب والبروزات الصخرية نحو ١٥٪. وتتسم ترب الكالسي أورثيدز بالقوام الطميي، والقطاع العميق، والملوحة العالية التي تراوح قيمتها بين ٠ و١٦ ملليموز/سم. وأما محتواها الرطوبي فيقدر بين ١٥ و٢٢ سم/١٥٠ سم. وتعد هذه الترب صالحة للزراعة (جدول ١٩).

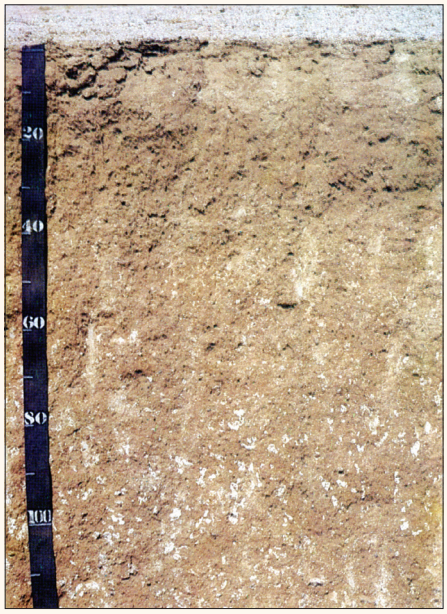

مقطع لتربة كالسي أورثيدز
رقم الوحدة الخرائطية ١٠(*)

ب) وحدة الكالسي أورثيدز ١١:

تتكون أراضي هذه الوحدة الخرائطية من الأراضي السهلية شبه المستوية والخفيفة الانحدار ٠ - ٣٪ ويجري في بعض أراضيها الأودية الكبيرة المتقطعة، وبعض المجاري المائية الضحلة والضيقة. وتشكل تربة الكالسي أورثيدز هذه نحو ٧٥٪ من أراضي هذه الوحدة الخرائطية، في حين تشكل الأنواع الأخرى من الترب والبروزات الصخرية نحو ٢٥٪. وتكرر ظهور ترب هذه الوحدة في سبع لوحات خرائطية. وتتسم ترب هذه الأراضي بقوام طميي وقطاع عميق، وبملوحة عالية تزيد على ١٦ ملليموز/ سم، وقدرتها على الاحتفاظ بالماء فإنها عالية، إذ تراوح بين ١٥ و٢٢ سم/١٥٠ سم. وتعد ترب هذه الوحدة غير صالحة للزراعة إلا أنها قابلة للاستصلاح، (جدول ١٩).

(*) المصدر: كتاب الخريطة العامة للتربة/وزارة الزراعة والمياه، ١٤٠٦هـ.

جدول ١٩

خصائص ترب وحدات الكالسي والكامبي أورثيدز في منطقة المدينة المنورة (*)

رمز الوحدة الحرائطية	وصف مختصر عن تربة الوحدة	قوام التربة	عدد ظهور التربة في اللوحات الخرائطية	الانحدار٪	الملوحة ملليموز/سم	المحتوى المائي سم/١٥٠ سم	صلاحية الأرض للزراعة
١٠	كالسي أورثيدز: تربة طمية عميقة	طمية	١٠	٣-٠	١٦-٠	٢٢-١٥	صالحة
١١	كالسي أورثيدز: تربة طمية عميقة ملحية	طمية	٧	٣-٠	١٦ <	٢٢-١٥	قابلة للاستصلاح
١٣	كالسي أورثيدز: تربة طمية متوسطة العمق وملحية	طمية	٢	٨-٠	١٦-٠	١٥-٨	غير صالحة
١٤	كالسي أورثيدز: تربة طمية حصوية عميقة	طمية حصوية	٩	٥-٠	٨-٠	١٥-١٠	صالحة
١٥	كالسي أورثيدز: تربة طمية حصوية عميقة وملحية	طمية حصوية	٧	٥-٠ و١-٨	١٦ <	١٥-١٠	قابلة للاستصلاح
١٧	كالسي وكامب أورثيدز - حمم بركانية تربة حجرية عميقة وصخور.	طمية حصوية	١٤	١٥-٠	٤<	١٠-٨	غير صالحة
١٨	كالسي أورثيدز-بروزات صخرية: تربة طمية عميقة	طمية	١٢	٦٠-١٥	٤-٠	٢٢-١٥	غير صالحة
١٩	كالسي أورثيدز - بروزات صخرية: سهول ذات تربة طمية عميقة	طمية	١٢	٨-٠ و ٣٠-٠	١٦-٠	٢٢-١٥	صالحة
٢٠	كالسي أورثيدز-بروزات صخرية: سهول ذات تربة طمية عميقة وملحية وتلال صغيرة وتلال صخرية	طمية	٩	٨-٠ و٣٠-٠	١٦<	٢٢-١٥	قابلة للاستصلاح
٢١	كالسي أورثيدز - بروزات صخرية: سهول ذات تربة طمية متوسطة العمق وصخور	طمية	٤	٨-٠ و ١٥-٠	١٦-٠	١٥-٨	غير صالحة
٢٧	كامب أورثيدز - تربة طمية حصوية وعميقة	طمية حصوية	٢	٥-٠	٨-٠	١٥-١٠	صالحة
٢٨	كامب أورثيدز: تربة طمية حصوية وعميقة	طمية حصوية	٥	٣٥-٨	١<	١٥-١٠	غير صالحة
٢٩	كامب أورثيدز: تربة طمية وطمية حصوية عميقة وملحية	طمية وطمية حصوية	٤	٥-٠	١٦ - <	٢٢-١٠	قابلة للاستصلاح

(*) تم إعداد الجدول بناء على بيانات: وزارة الزراعة والمياه، الخريطة العامة للتربة، (الرياض: وزارة الزراعية، ١٤٠٦ هـ.

ج) وحدة الكالسي أورثيدز ١٣:

تتكون أراضي هذه الوحدة الخرائطية من أراضي السهول شبه المستوية والخفيفة الانحدار، وتجري في بعض أراضيها مجاري الأودية الكبيرة والمتقطعة. وتشكل تربة الكالسي أورثيدز نحو ٨٥٪ من أراضي هذه الوحدة، في حين تشكل الأنواع الأخرى من الترب الجزء المتبقي منها وهو ١٥٪. وتتسم ترب هذه الوحدة بالقوام الطميي، والقطاعات المتوسطة العمق، والملوحة العالية التي تراوح بين ٠ و١٦ ملليموز/سم، وأما قدرتها على الاحتفاظ بالماء، فهي تراوح بين ٨ و١٥ سم/١٥٠ سم. وتعد ترب هذه الوحدة الخرائطية غير صالحة للزراعة بسبب ارتفاع الأملاح فيها، (جدول ١٩).

د) وحدتا الكالسي أورثيدز ١٤ و١٥:

تنتشر ترب الوحدتين ١٤ و١٥ في الأراضي شبه المستوية والخفيفة الانحدار ٠ ـ ٥٪ وفي السهول والرواسب المروحية. وتشكل تربة الكالسي أورثيدز نحو ٨٠٪ من أراضي هاتين الوحدتين، في حين تشكل الأنواع الأخرى من الترب والسباخ والبروزات الصخرية الجزء المتبقي من هذه الأراضي ٢٠٪. وتنتشر ترب الوحدة ١٤ في تسع لوحات خرائطية، وأما ترب الوحدة ١٥ فتنتشر في سبع لوحات خرائطية في المنطقة. ويعد قوام ترب هذه الأراضي قواماً طمييا حصوياً، وفيما يتعلق بحموضتها فإنها تراوح بين ٠ و٨ ملليموز / سم في الوحدة ١٤، وأعلى من ١٦ ملليموز / سم في الوحدة ١٥. وأما قدرتهما على الاحتفاظ بالماء، فإنها تراوح بين ١٠ و١٥ سم/١٥٠ سم. وتعد ترب الوحدة ١٤ صالحة للزراعة، وترب الوحدة ١٥ قابلة للاستصلاح (جدول ١٩).



مقطع لتربة كالسي أورثيدز رقم الوحدة الخرائطية ١٤(*)

هـ) وحدة الكالسي أورثيدز ١٨:

تنتشر ترب هذه الوحدة الخرائطية في أراضي السهول الخفيفة الانحدار التي يراوح انحدارها بين ١ و٨٪، وكذلك في أراضي البروزات الصخرية فوق التلال المنعزلة والحادة الانحدار التي يراوح انحدارها بين ١٥ و٦٠٪. وتشكل تربة الكالسي أورثيدز نحو ٦٠٪ من ترب أراضي هذه الوحدة، في حين تشكل البروزات الصخرية نحو ٢٠٪ من تلك الأراضي، ونحو ٢٠٪ تشكلها أنواع ثانوية أخرى من الترب. ويعد قوام تربة هذه الوحدة قواماً طمييا، وتراوح كمية الأملاح بين ٠ و٤ ملليموز/سم، وأما قدرتها على الاحتفاظ بالماء، فإنها تراوح بين ١٥ و٢٢ سم/١٥٠ سم. وتعد ترب هذه الأراضي غير صالحة للزراعة، (جدول ١٩).

و) وحدات الكالسي أورثيدز ـ بروزات صخرية ١٩ و٢٠ و٢١:

تنتشر ترب هذه الوحدات الخرائطية في الأراضي السهلية شبه المستوية والخفيفة

(*) المصدر: كتاب الخريطة العامة للتربة/ وزارة الزراعة والمياه، ١٤٠٦هـ.



أحد مواقع تربة الأورثيدز رقم الوحدة الخرائطية ١٨(*)

الانحدار، وفي أراضي البروزات الصخرية المنتشرة في السهول شبه المستوية والخفيفة الانحدار كما في الوحدتين ١٩ و٢٠، وفي التلال الصغيرة وحواف الهضاب الضيقة وشبه المستوية في الوحدة ٢١. وتشكل ترب الكالسي أورثيدز نحو ٧٠٪ من ترب الوحدتين ١٩ و٢٠، والبروزات الصخرية ٢٠٪، والأنواع الأخرى من الترب ١٠٪ من ترب هاتين الوحدتين. وأما ترب أراضي الوحدة ٢١، فإن ترب الكالسي أورثيدز تشكل بها نحو ٦٥٪، والبروزات الصخرية ١٥٪، والأنواع الأخرى من الترب ٢٠٪ من ترب تلك الوحدة. ويتسم قوام هذه الترب بأنه قوام طميي، وأما الملوحة فإنها تراوح في الوحدتين ١٩ و٢١ بين ٠ و١٦ ملليموز/سم، في حين تزيد الملوحة في تربة الوحدة ٢٠ على ١٦ ملليموز/سم. ويراوح المحتوى المائي بين ١٥ و٢٢ سم/١٥٠ سم في الوحدتين ١٩ و٢٠، وبين ٨ و١٥ سم/١٥٠ سم في الوحدة ٢١. وتعد ترب الوحدة ١٩ صالحة للزراعة، وترب الوحدة ٢٠ قابلة للاستصلاح، وأما تربة الوحدة ٢١ فإنها غير صالحة للزراعة، (جدول ١٩).

ز) وحدة الكالسي أورثيدز ـ الكامب أورثيدز ١٧:

وتتداخل تربة الكالسي أورثيدز مع ترب الكامب أورثيدز كما في هذه الوحدة:

تتكون ترب هذه الوحدة الخرائطية في الأراضي شبه المستوية، وفي التلال شديدة الانحدار، وفي سفوح المنحدرات، وكذلك في الرواسب المروحية وفي مناطق الحرات. وتشكل تربة الكالسي أورثيدز نحو ٧٠٪ من أراضي هذه الوحدة، تربة الكامب أورثيدز نحو ٢٥٪ من تلك الأراضي، وبقية أراضي هذه الوحدة تتشكل من أنواع أخرى من الترب. وتتسم ترب هذه الأراضي بأن قوامها طميي حصوي، وتزيد كمية الأملاح فيها على ٤ ملليموز/سم، في حين يراوح محتواها المائي بين ٨ و١٠ سم/١٥٠ سم، وتعد هذه الترب غير صالحة للزراعة، (جدول ١٩).

٢ ـ مجموعة الكامب أورثيدز (Camborthid):

تعد تربة الكامب أورثيدز إحدى مجموعات الترب الكبرى الواقعة ضمن تحت رتبة الأورثيدز التابعة لرتبة الأراضي الجافة في منطقة المدينة المنورة. وتمثل الوحدات ٢٧ و٢٨ و٢٩ ترب الكامب أورثيدز في المدينة المنورة. وفيما يأتي وصف لتلك الوحدات الأكثر انتشاراً في المنطقة كما جاء في الخريطة العامة للتربة في المملكة ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م:

(*) المصدر: كتاب الخريطة العامة للتربة/وزارة الزراعة والمياه، ١٤٠٦هـ.

أ) وحدة الكامب أورثيدز ٢٨:

تتكون ترب هذه الوحدة الخرائطية في أراضي السفوح التلالية الشديدة إلى الحادة الانحدار، وكذلك في الرواسب المروحية وفي السهول الساحلية. وتشكل ترب الكامب أورثيدز الجزء الأكبر من أراضي هذه الوحدة ٨٥٪. وتتسم ترب هذه الأراضي بالقوام الطميي الحصوي، وأما كمية الأملاح في ترب هذه الأراضي فإنها منخفضة إلى أعلى من ١ ملليموز/سم. ويراوح المحتوى المائي لهذه الترب بين ١٠ و١٥ سم/١٥٠ سم. وتعد هذه الترب غير صالحة للزراعة، (جدول ١٩).

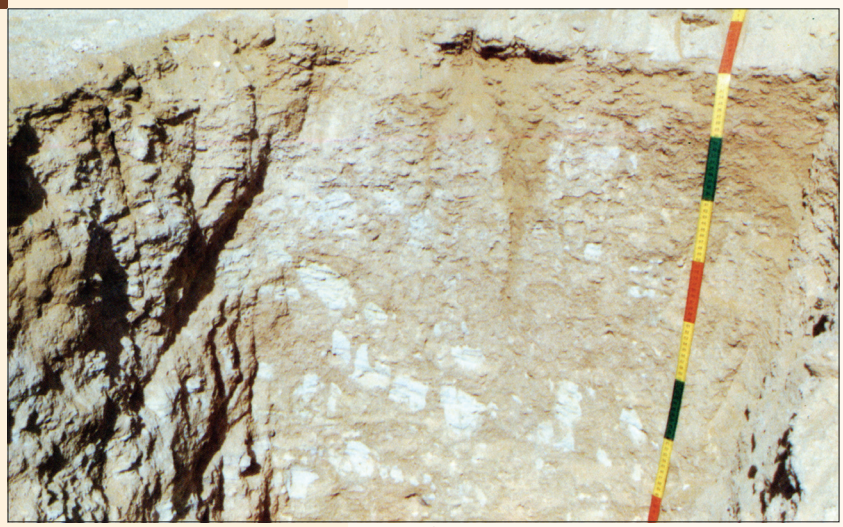

آفاق تشخيصية كالسية لترب الكالسي أورثيدز(*)

ب) وحدة الكامب أورثيدز ٢٩ :

تتكون ترب هذه الوحدة الخرائطية في أراضي الرواسب المروحية ذات السطح شبه المستوي والخفيف الانحدار. وتتشكل ترب هذه الأراضي من ترب الكامب أورثيدز ٨٥٪، ومن أنواع أخرى من الترب ١٥٪. وتتسم ترب هذه الوحدة بالقوام الطميي والطميي الحصوي، وكذلك بالملوحة العالية التي تزيد على ١٦ ملليموز/سم، ويراوح محتواها المائي بين ١٠ و٢٢ سم/١٥٠ سم. وتعد ترب هذه الأراضي قابلة للاستصلاح الزراعي، (جدول ١٩).



مجموعة السباخ ـ السال أورثيدز

٣ ـ مجموعة الكالسي والكامب أورثيدز المتداخلة:

تتداخل ترب وحدات الكالسي في منطقة المدينة المنورة مع وحدات الكامب أورثيدز، ومع مجموعة من وحدات ترب الأراضي الحديثة في بعض مناطق المدينة كما في الوحدات ٢٢ و٢٣ و٢٤ و٣٠ و٣٣ و٤٠ و٤٥، (جدول ٢٠).

٤ ـ مجموعة السباخ ـ السال أورثيدز (Salorthids):

ترب مجموعة السباخ ـ السال أورثيدز ـ إحدى مجموعات الترب الكبرى الواقعة ضمن تحت رتبة الأورثيدز التابعة لرتبة الأراضي الجافة. وتنتشر ترب هذه المجموعة في أجزاء متفرقة من منطقة المدينة المنورة، وتمثل الوحدة الخرائطية ٣٨ هذه المجموعة

(*) المصدر: كتاب الخريطة العامة للتربة/وزارة الزراعة والمياه، ١٤٠٦هـ.

جدول ٢٠

خصائص ترب الكالسي والكامب أورثيدز المتداخلة مع ترب التوري فلوفنتس والتوري أورثنتس والتوري سامنتس والجبسي أورثيدز في منطقة المدينة المنورة(*)

رمز الوحدة الخرائطية	وصف مختصر عن تربة الوحدة	قوام التربة	عدد ظهور التربة في اللوحات الخرائطية	الانحدار٪	الملوحة ملليموز/ سم	المحتوى المائي سم/١٥٠ سم	صلاحية الأرض للزراعة
٢٢	كالسي أورثيدز ـ توري فلوفنتس: تربة طمية ورملية عميقة معرضة للغمر	طمية	١٠	٠ ـ ٥	٠ ـ ١٦	١٥ ـ ٢٢	صالحة
٢٣	كالسي أورثيدز وتوري أورثنتس ـ بروزات صخرية: تربة طمية وطمية حصوية	طمية وطمية حصوية	٨	٠ ـ ٥ و٠ ـ ١٥	< ١	< ٦	غير صالحة
٢٤	كالسي أورثيدز ـ توري أورثنتس ـ بروزات صخرية: تربة طمية عميقة وتربة طمية حصوية ضحلة	طمية وطمية حصوية	١٢	١ ـ ٨ و٥ ـ ٦٠	٠ ـ ١٦	١٥ ـ ٢٢ و < ٦	غير صالحة
٣٠	كامب أورثيدز وتوري سامنتس: تربة طمية وتربة رملية عميقة	طمية	٣	٠ ـ ٥	٠ ـ ٨ و٠ ـ ٤	١٥ ـ ٢٢ و٦ ـ ٨	صالحة
٣٣	جبسي أورثيدز ـ كالسي أورثيدز: سهول وتلال صغيرة ذات تربة طمية	طمية	١	٠ ـ ٢٥	< ٤	٤ ـ ٢٢ و١٥ ـ ٢٢	غير صالحة
٤٠	بروزات صخرية ـ توري أورثنتس وكالسي أورثيدز: صخور وتربة طمية وحصوية ضحلة	طمية حصوية	٣	٠ ـ ١٥	< ٤	< ٦	غير صالحة
٤٥	توري أورثنتس وكالسي أورثيدز ـ بروزات صخرية: تربة طمية وطمية حصوية، ضحلة ومتوسطة العمق	طمية وطمية حصوية	٩	١٥ ـ ٤٠	< ١	٣ ـ ١٥	غير صالحة

(*) تم إعداد الجدول بناء على بيانات: وزارة الزراعة والمياه، الخريطة العامة للتربة، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه)، ١٤٠٦ هـ.

من الترب التي تكرر ظهورها في تسع لوحات خرائطية. ويرجع أسباب تكوين هذه الأراضي في منطقة المدينة إلى:

- وجود الأراضي المنخفضة المغلقة.
- وجود الطبقة الصماء المتكونة من كربونات الكالسيوم داخل أعماق مختلفة من قطاع ترب تلك الأراضي.
- ارتفاع منسوب الماء الأرضي.
- حركة الماء من الأسفل إلى الأعلى (الخاصية الشعرية).

وتتسم ترب السباخ ـ السال أورثيدز ـ بسطح يراوح انحداره بين ٠ و١٪، بقطاعات عميقة. وأما قوامها فإنه قوام طميي أو طيني. كما تتسم ترب السباخ بالملوحة العالية أكثر من ١٦ ملليموز/سم، وبالقدرة العالية على الاحتفاظ بالماء ١٥ ـ ٢٢ سم/١٥٠ سم. وتعد نفاذية ترب السباخ منخفضة جداً ٠,٠٨ ـ ٠,٥١ سم/الساعة. وترب هذه الوحدة غير صالحة للزراعة وغير قابلة للاستصلاح، وقد يعود السبب إلى زيادة الأملاح فيها، وارتفاع منسوب الماء الأرضي، والغمر بالماء.

ب ـ رتبة الأراضي الحديثة (إنتي سولز Entisols) جبال ومدرجات زراعية شبه مستوية:

رتبة الأراضي الحديثة من أكثر رتب الأراضي انتشاراً لإمكانية تكونها في ظل أنظمة رطوبية مختلفة، واشتقاق مادتها الأولية من مواد صخرية مختلفة، وقد تتكون تحت أي نوع من الغطاءات النباتية[١]. وأهم ما تتميز به ترب الأراضي الحديثة هو حداثة تكوينها، وأن قطاعاتها لا تحتوي على الآفاق الوراثية، على الرغم من احتوائها على آفاق عميقة جداً نوعاً ما كما لترب الكثبان الرملية، وكذلك ترب السواقي. وقد عزا فوث (Foth)[٢] ذلك إلى الأسباب الآتية:

- جفاف المناخ والارتفاع الشديد في درجات الحرارة.
- شدة عمليات التعرية.
- سرعة حدوث عمليات الترسيب والتراكم.
- اختفاء الغطاء النباتي والأنشطة الحيوية الأخرى.
- زمن التكوين قصير وغير كافٍ من أجل تكوين الآفاق.

وتنتشر رتبة الأراضي الحديثة في منطقة المدينة المنورة في الكثبان الرملية ومناطق المرتفعات شديدة الانحدار، وكذلك في رواسب الأودية الفيضية الحديثة.

وتعد ترب التوري أورثنتس والتوري فلوفنتس والتوري سامنتس واليودي سامنتس المتداخلة مع التوري سامنتس من أهم المجموعات الكبرى التابعة لرتبة الأراضي الحديثة المنتشرة في منطقة المدينة المنورة، ويمكن تناولها على النحو الآتي:

١ـ مجموعة التوري أورثنتس (Torriorthents):

تعد ترب التوري أورثنتس إحدى مجموعات الترب الكبرى الواقعة ضمن تحت رتبة أورثنتس التابعة لرتبة الأراضي الحديثة المنتشرة في منطقة المدينة المنورة التي تمثل الوحدة الآتية:

(١) يوسف، أحمد فوزي. البيدولوجي نشأة ومورفولوجي وتقسيم الأراضي، مرجع سابق، ٣٤٥.

(٢) Foth, H.D. Fundamental of Soil. 9 th ed., New York: Macmillan Publishing Company, 1984, pp.303, 304.

جدول ٢١

خصائص ترب التوري فلوفنتس والتوري أورثنتس سمانتس واليودي سمانتس مع التوري أورثنتس التابعة لرتبة الأراضي الحديثة في منطقة المدينة المنورة(*)

رمز الوحدة الخرائطية	وصف مختصر عن تربة الوحدة	قوام التربة	عدد ظهور التربة في اللوحات الخرائطية	الانحدار٪	الملوحة ملليموز/سم	المحتوى المائي سم/١٥٠ سم	صلاحية الأرض للزراعة
٣٩	بروزات صخرية ـ توري أورثنتس: جبال	طميية حصوية	٢١	١٥ ـ ٨٠	٠ ـ ٨	> ٦	غير صالحة
٤١	بروزات صخرية ـ توري سامنتس: تلال صخرية وسهول تربتها رملية عميقة	رملية	٣	٨ ـ ٦٠	> ٤	٦ ـ ٨	غير صالحة
٤٢	بروزات صخرية ـ توري سامنتس: تلال صخرية وتربة رملية ضحلة ومتوسطة العمق	رملية	٦	٣٠ ـ ٦٠ و٣ ـ ١٥	٠ ـ ٨	> ٦	غير صالحة
٤٣	توري فلوفنتس ـ توري أورثنتس: تربة طميية وعميقة ومعرضة للغمر.	طميية	١	٠ ـ ٥	٠ ـ ٨	١٥ ـ ٢٢	صالحة
٤٤	توري فلوفنتس ـ توري سامنتس: تربة طميية ورملية عميقة ومعرضة للغمر.	طميية	١	٠ ـ ٥	٠ ـ ٨	١٥ ـ ٢٢ و٦ ـ ٨	صالحة
٤٧	توري أورثنتس ـ بروزات صخرية ـ توري فلوفنتس: تربة طميية عميقة وتلال صخرية.	طميية	٣	٠ ـ ٥ و٥ ـ ٦٠	٠ ـ ٨	١٥ ـ ٢٢ و٦ ـ ١٠	غير صالحة
٤٩	توري سامنتس: سهول تربتها رملية عميقة وكثبان رملية ارتفاعها أقل من ٢ م	رملية	١	٠ ـ ٥ و ٢ ـ ١٠	٠ ـ ٨	٦ ـ ٨	صالحة
٥٢	توري سامنتس: كثبان رملية ارتفاعها أكثر من ١٠ م	رملية	١	١٠ ـ ٦٠	٠ ـ ٨	٦ ـ ٨	غير صالحة
٥٤	توري سامنتس: بروزات صخرية: كثبان رملية وصخور	رملية	٤	٣ ـ ٦٠	٠ ـ ٤	٦ ـ ٨	غير صالحة
٥٥	توري سامنتس ـ بروزات صخرية: سهول تربتها رملية عميقة وتلال صخرية	رملية	١	٠ ـ ٨ و٣ ـ ٦٠	٠ ـ ٤	٦ ـ ٨	غير صالحة
٥٨	يودي سامنتس ـ توري سامنتس: سهول ساحلية منبسطة وكثبان رملية	رملية	١	٠ ـ ٣ و٣ ـ ٦٠	< ١٦	٦ ـ ٨	غير صالحة

(*) تم إعداد الجدول بناء على بيانات: وزارة الزراعة والمياه، الخريطة العامة للتربة، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، ١٤٠٦ هـ.

وحدة البروزات الصخرية ـ
توري أورثنتس ٣٩:

تتكون أراضي هذه الوحدة الخرائطية من ترب البروزات الصخرية الحادة الانحدار التي تشكل نحو ٤٥٪ من أراضي هذه الوحدة، وتشكل تربة التوري أورثنتس نحو ٤٠٪، وأما الأنواع الأخرى من الترب، فإنها تشكل الجزء المتبقي من هذه الأراضي ١٥٪. ويتسم قوام ترب هذه الوحدة بأنه قوام طميي حصوي، وتراوح كمية الأملاح فيها بين ٠ و٨ ملليموز/سم، ويقل محتواها المائي عن ٦ سم/١٥٠ سم. وتعد ترب هذه الوحدة من أكثر وحدات هذه المجموعة ظهوراً في منطقة المدينة، إلا أنها غير صالحة للزراعة، وهذا قد يعود إلى شدة انحدارها وضحالة قطاعها، (جدول ٢١).

٢ـ مجموعة التوري سامنتس (Torripsamments):

تعد ترب التوري سامنتس إحدى مجموعات الترب الكبرى الواقعة ضمن تحت رتبة سامنتس التابعة لرتبة الأراضي الحديثة المنتشرة في منطقة المدينة المنورة. وتمثل الوحدات ٤١ و٤٢ و٤٩ و٥٢ و٥٤ و٥٥ ترب بمجموعة التوري سامنتس في منطقة المدينة المنورة، وفيما يأتي وصف لأكثر تلك الوحدات الخرائطية انتشاراً في المنطقة:

أ) وحدة البروزات الصخرية ـ التوري سامنتس ٤٢:

تتكون أراضي هذه الوحدة الخرائطية من ترب البروزات الصخرية حادة الانحدار ٣٠ ـ ٦٠٪، ومن ترب الأراضي الخفيفة إلى الشديدة الانحدار ٣ ـ ١٥٪. وتشكل ترب البروزات



تربة وحدة التوري سامنتس رقم الخرائطية ٥٢

الصخرية من أراضي هذه الوحدة ٦٥٪، وترب التوري سامنتس ٢٥٪ من تلك الأراضي، في حين تشكل الأنواع الأخرى من الترب الجزء المتبقي ١٠٪. ويتسم قوام ترب هذه الأراضي بالقوام الرملي، والمحتوى المائي المنخفض أقل من ٦ سم/١٥٠ سم، وتراوح كمية الأملاح فيها بين ٠ و٨ ملليموز/سم. وتعد ترب هذه الأراضي غير صالحة للزراعة (جدول ٢١).

ب) وحدتا التوري سامنتس ٥٢ و٥٤:

تتكون أراضي هاتين الوحدتين الخرائطيتين من ترب الكثبان الرملية ذات الانحدار الخفيف إلى شديدة وحادة الانحدار. تشكل ترب التوري سامنتس من أراضي الوحدة ٥٢ نحو ٨٥٪، في حين تشكل أنواع أخرى من الترب الجزء المتبقي من أراضي تلك الوحدة ١٥٪. أما الوحدة ٥٤ فإن ترب التوري سامنتس تشكل نحو ٧٠٪ من أراضي هذه الوحدة، وأراضي البروزات الصخرية ١٥٪، والأنواع الأخرى من الترب ١٥٪. ويعد



ترب الحرات

قوام ترب هاتين الوحدتين قواماً رملياً. وتراوح كمية الأملاح فيها بين ٠ و٨ ملليموز/سم في الوحدة ٥٢، وبين ٠ و٤ ملليموز/سم في الوحدة ٥٤. ويراوح محتوى الوحدات المائي بين ٦ و٨ سم/١٥٠ سم. وتعدان غير صالحتين للزراعة، وهذا قد يعود إلى عدم استواء سطحهما وانخفاض قدرتهما على الاحتفاظ بالماء، (جدول ٢١). وتتداخل ترب التوري فلوفنتس في المنطقة مع ترب التوري سامنتس في الوحدة ٤٤. كما تتداخل ترب اليودي سامنتس مع التوري سامنتس في الوحدة ٥٨.

ج ـ ترب الحرات:

تعرف الحرات بأنها أراضٍ يغطي سطحها المصهورات الباطنية التي تدفقت من خلال فوهات البراكين إلى السطح، وبعد أن بردت وتجمدت تحولت إلى صخور نارية ذات ذرات صغيرة وناعمة وقوام زجاجي كما في صخر البازلت القاعدي. وفي منطقة المدينة المنورة ينتشر عدد من الحرات في أمكنة متفرقة من المنطقة، ويعود تاريخ تكوين حرات المدينة إلى الزمن الثالث والرابع[١]. ومن أهم تلك الحرات: حرة رهاط وكرماء وخيبر والرحى والنقيع وهرمة والخرم والوشام والصفاة وغيرها من الحرات الأخرى التي تغطي مساحة لابأس بها من منطقة المدينة المنورة[٢]. وعلى الرغم من أن معظم أراضي الحرات في المنطقة تغطي سطحها طبقة صلبة من الصخور البازلتية المقاومة لعمليات التجوية، إلا أن بعضها قد تفكك إلى قطع صخرية حادة الزوايا، وبعضها الآخر تفتت إلى أجزاء صغيرة مكونة تربةً ناعمة قليلة العمق تنتشر في بقع متناثرة محدودة المساحة كما في الرواسب الفتاتية المتراكمة في مجاري أودية الحرات[٣]. وبناءً على التصنيف الأمريكي لأراضي المملكة العربية السعودية الذي تم الاعتماد عليه في هذا الفصل، فإن أراضي الحرات تقع ضمن الوحدة ٣٦ التي تتشكل من مساحات من الحمم البركانية ٨٠٪، ومن أنواع أخرى ثانوية من الترب ٢٠٪. وتشتمل أراضي هذه الوحدة على الترب الرملية المنتشرة في مناطق الكثبان الرملية، وعلى الترب الحصوية المتداخلة مع الحمم البركانية. وتحتوي هذه الوحدة على الترب ذات القطاعات الضحلة العمق المتراكمة فوق الصخور الأم في الجبال والعروق البركانية الحادة الانحدار. وتراوح ملوحة ترب هذه الوحدة بين ترب خفيفة الملوحة وترب شديدة الملوحة. وتعد ترب أراضي الحرات غير صالحة للزراعة، وقد يعود عدم صلاحيتها إلى وجود الكتل الصخرية على السطح[٤].

(١) عبدالباسط الخطيب، *سبع سنابل خضر*، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه بالمملكة العربية السعودية، ١٩٨٠ م)، ٢٠١.

(٢) وزارة التعليم العالي. أطلس المملكة، مرجع سابق.

(٣) الخطيب، عبدالباسط. سبع سنابل خضر، مرجع سابق، ٢٠٢.

(٤) وزارة الزراعة والمياه. الخريطة العامة للتربة، مرجع سابق، ١٥.

ثالثاً - خصائص ترب الأراضي الزراعية:

تنتشر الأراضي الزراعية في منطقة المدينة المنورة في الأودية والواحات والمنخفضات حيث يتوافر القدر الكافي من المياه الجوفية اللازمة لسد احتياجات المحصولات المزروعة. وتُنتج أنواع مختلفة من المحصولات الزراعية، من بينها الحبوب والخضراوات والأعلاف والتمور وغيرها. وقدرت مساحة الأراضي المزروعة في سنة ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م بنحو ٣٣٢٧ هكتاراً، في حين وصلت مساحة الأراضي المزروعة في المنطقة في سنة ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م إلى نحو ٢٧٨٦٤ هكتاراً[١].

إن معرفة الخصائص الكيميائية والفيزيائية لترب الأراضي الزراعية من الأمور المهمة في إنجاح الزراعة وزيادة إنتاجيتها في المنطقة، لذا قامت وزارة الزراعة والمياه (وزارة الزراعة حالياً) بدراسة ترب عشرة حقول في مزارع منطقة المدينة المنورة. وقد دلت نتائج تلك الدراسة على أن قوام ترب الحقول المدروسة إما أن تكون تربا رملية لومية أو لومية رملية أو لومية، (جدول ٢٢). ويدل قوام ترب هذه الحقول على أن هذه الترب ذات نفاذية عالية وتهوية جيدة، كما أن قدرتها على الاحتفاظ بالماء متوسطة، ما يجعلها تربا صالحة لنمو معظم المحصولات الزراعية. وتراوح قيمة الحموضة فيها بين ٧ و٧,٤، وتدل قيمة الحموضة على أن ترب الحقول المدروسة تعد تربا متعادلة؛ أي أنها ليست حامضية أو قاعدية، فهي ترب تعد صالحة لنمو معظم المحصولات الزراعية. وأما قيمة الملوحة في تلك الترب فإنها تراوح



ترب الأراضي الزراعية

بين ٠,٥٨ و٤,٠ ملليموز/سم، وتدل قيمة تركز الملوحة في الترب المدروسة على أنها تراوح بين كونها تربا غير ملحية وتربا خفيفة الملوحة وكونها تربا مالحة، ومعظمها صالح لنمو المحصولات الزراعية جميعاً. وتراوح قيمة كربونات الكالسيوم فيها بين ٧,٥٧ و٢١,٨١٪، وتدل قيمتها المدونة في جدول ٢٢ على أن بعض ترب الحقول الزراعية المدروسة تكون نسبة كربونات الكالسيوم فيها عالية كما في الحقول رقم ٣ و٦ و١٠. وأما قيمة المادة العضوية في ترب تلك الحقول المدروسة، فإنها تراوح بين ٠,٨٩ و٢,٩٣٪، وترتفع قيمتها في الحقول رقم ٥ و٧ و١٠، في حين تنخفض في الحقل رقم ٩، (جدول ٢٢).

ودلت نتائج الدراسة كذلك على أن كمية العناصر الغذائية للنباتات التي تحتوي عليها ترب الحقول الزراعية المدروسة في المنطقة تختلف من تربة إلى أخرى، إلا أن قيمة الفسفور في ترب معظم الحقول عالية، وتنخفض قيمة النحاس في معظم

(١) وزارة الزراعة والمياه، إدارة الدراسات الاقتصادية والإحصاء، *السلاسل الزمنية للإحصاءات الزراعية في المملكة العربية السعودية*، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، ١٤٢٣ هـ)، ٤٧، ٨٤، ١١٤، ١٣١.

جدول ٢٢

قوام ترب الحقول الزراعية المدروسة في منطقة المدينة المنورة وخصائصها الكيميائية وعناصرها الصغرى (مليجرام/كيلو جرام)(*)

العدد	الرمل (٪)	السلت (٪)	الطين (٪)	القوام	الحموضة	الملوحة (ملليموز/سم)	الكربونات (٪)	المادة العضوية (٪)	الفسفور	النحاس	الحديد	المانجنيز	الخارصين
١	٦٠	١٧	١٨	لومية رملية	٧,١	٠,٥٨	١١,٨٧	١,٠٩	١١,١	٠,٢١	٩,١٩	٢,٠٢	٢٠,٢
٢	٧٥	١٠	٩	رملية لومية	٧,١	٠,٨٢	١٣,٧٧	١,١٩	٠٥,٧	٠,٨٧	٥,٨٦	١,٧٢	١٦,٥
٣	٧٣	١١	٩	-	٧,٤	٤,٠٠	٢١,٨١	١,٢٧	١١,٥	٠,٦٦	٧,٦٢	٣,٨٩	١٥,٦
٤	٧١	١٨	١٧	لومية رملية	٧,٢	٢,٠٤	١٣,١٦	١,٩٩	٠٨,٥	٠,٠٩	٤,٩٥	٢,٤٠	٠٢,٩
٥	٦٢	١٨	١٦	-	٧,٣	٢,٠٣	١٢,٢٨	٢,٩٣	٠٨,٩	٠,٤٤	٣,٨٥	٣,٠٠	٠٢,٥
٦	٦٢	١٥	١١	-	٧,١	٢,٠٨	١٦,٤٣	٢,٢٧	١١,٦	٠,٤٠	٤,٩٥	٣,١٦	١٥,٥
٧	٦٣	١٤	١٩	-	٧,٢	٣,٥٠	٠٧,٥٧	٢,٤٩	٠٨,٢	٠,٣٩	٧,٤٢	٦,٨٢	١٣,٠
٨	٦١	١٦	٢٠	-	٧,٠	١,٨٢	١٣,٢٥	١,٧٣	٠٥,٣	٠,٣٣	٥,٢٠	٩,٥٩	٠٩,٣
٩	٦٧	١٨	٧	-	٧,٢	٢,٠٣	١٥,٤٧	٠,٨٩	٠٥,١	٠,٢٢	٦,٠٦	٢,٤٥	٠٣,١
١٠	٥٦	١٩	١٧	طينية رملية	٧,٣	١,٩٠	١٧,٤٤	٢,٤٩	١٢,٨	٠,٢٠	٦,٠٦	١,٩٢	٠٢,٧
المتوسط					٧,٢	٢,٠٨	١٤,٣١	١,٨٣٤	٨,٨٧	٠,٣٨١	٦,١٢	٣,٧٠	١٠,١٣

ترب الحقول المدروسة. ومعرفة قيم تلك العناصر في التربة أمر بالغ الأهمية، وبناء عليه يتم تحديد كمية الأسمدة التي يجب إضافتها إلى تلك الترب، (جدول ٢٢).

رابعاً ـ مشكلات ترب الأراضي الزراعية:

تعاني ترب الأراضي الزراعية في منطقة المدينة المنورة مجموعة من المشكلات التي قد تؤدي إلى تدهور تربة المنطقة، وإلى خفض معدلات إنتاجيتها. ومن أهم المشكلات التي تواجهها تربة الأراضي الزراعية في منطقة المدينة المنورة ما يأتي:

أ ـ تملح التربة:

تعد مشكلة تملح التربة من أهم المشكلات الرئيسة التي تواجهها الأراضي الزراعية في منطقة المدينة المنورة. وتصبح التربة متملحة عندما يزداد تركيز الأملاح في الجزء العلوي من قطاعها. ويؤدي تراكم الأملاح وتجمعها في التربة إلى عدم قدرة جذور النباتات على امتصاص الماء الموجود في التربة، وينتج عن ذلك إعاقة لنمو النباتات والإضرار بها، وإلى خفض معدلات إنتاجيتها، وأحياناً يعد تملح التربة، أحد العوائق الرئيسة في وجود النباتات.

(*) Ministry of Agriculture and water. Analysis of some Saudi Arabian soil and associated crops. Saudi Arabia ministry of agriculture and water,1977.

وتملح التربة يحدث نتيجة لاستخدام مياه ري ذات ملوحة عالية، أو عندما تكون مياه الري غير كافية لغسل الأملاح من موقع جذور النباتات، وأحياناً أخرى قد يكون نتيجة استخدام طرق ري غير ملائمة كالري بالتنقيط أو الري بالرش اللذين يؤديان إلى تراكم الأملاح في التربة.

ويمكن حل مشكلة تملح التربة إما عن طريق منع وصول الأملاح إلى التربة أو عن طريق الحد من تجمع الأملاح في موقع جذور النباتات، ويمكن تحقيق ذلك باتباع ما يأتي:

- تحديد مصدر الأملاح، ومعرفة مقدار تلك الأملاح الموجودة في التربة.
- إنشاء نظام صرف إذا لم يتوافر صرف طبيعي في المنطقة.
- استخدام طرق الري بالغمر خصوصاً أن معظم ترب منطقة المدينة المنورة ذات نفاذية عالية، وهذه الطريقة قد تساعد على غسل الأملاح من التربة.
- استخدام مياه الري قليلة الملوحة أو الخالية منها.
- خفض مستوى الماء الأرضي إلى ما تحت نطاق جذور النباتات.
- زراعة المحصولات الزراعية المتحملة للملوحة، مثل: أشجار النخيل والرمان والشعير، ومحصولات البرسيم وحشيشة الرودس والبصل والجزر والطماطم.



تملح التربة في الأراضي الزراعية



تعرية التربة

ب ـ تعرية التربة:

تتعرض بعض ترب منطقة المدينة المنورة إلى التعرية الريحية، كما يتعرض بعضها الآخر إلى التعرية المائية. وتعرية التربة هي عملية نقل بعض مكونات التربة أو تذريتها بأكملها، إما بوساطة الرياح (تعرية ريحية)، أو بوساطة الجريان المائي (تعرية مائية). وتنشط التعرية المائية في بعض أجزاء منطقة المدينة للأسباب التالية:

- زراعة الأراضي التلالية التي تتعرض للجريان المائي السطحي.

- الانحدار الشديد لبعض الأودية المتجهة نحو الغرب الذي يساعد في زيادة معدلات التعرية.
- كثافة سقوط الأمطار وشدتها وفجائيتها على تلك الأراضي يساعد على تشكيل جريان مائي سطحي سريع يؤدي إلى جرف التربة.
- انخفاض كثافة الغطاء النباتي في معظم أجزاء المنطقة.
- قابلية تربة منطقة المدينة للتعرية.

ويؤدي حدوث عملية التعرية المائية في منطقة المدينة المنورة إلى حدوث مجموعة من الأضرار بتربتها من أهمها ما يأتي:

- انجراف الجزء العلوي من قطاع التربة ذي الأهمية الثمينة للزراعة والمراعي.
- نشأة الأخاديد في الأراضي الزراعية، ما يجعلها غير صالحة للزراعة.
- تدني إنتاجية التربة نتيجة انخفاض خصوبتها وفقرها لبعض العناصر الضرورية للإنتاج الزراعي، وهذا قد يؤدي إلى تبوير تلك الأراضي.

ويمكن التقليل من أثر التعرية المائية في تربة الأراضي الزراعية في منطقة المدينة المنورة عن طريق خفض معدل الجريان المائي السطحي بوساطة تطبيق الأساليب الآتية:

- اتباع طريقة الزراعة الكنتورية، وزراعة القطع الكنتورية في المناطق التلالية والمتموجة، وهذه الطريقة تتطلب حراثة الأراضي الزراعية في تلك الأمكنة بطريقة تتفق مع خطوط الكنتور بدلاً من أن تكون حراثتها مع اتجاه الانحدار. واتباع هذه الطريقة قد يساعد على خفض معدلات التعرية المائية عن طريق التقليل من سرعة الجريان المائي السطحي.
- ترك المخلفات النباتية في الحقول المزروعة بعد حصادها.
- اتباع نظام الدورات الزراعية؛ أي زراعة الأرض بأنواع مختلفة من المحصولات الزراعية خلال مواسم الزراعة، لأن المحصولات الزراعية تختلف في قدرتها على حماية التربة من التعرية المائية، وتعد محصولات الأعلاف والحشائش والبقوليات من أكثر المحصولات الزراعية فعالية في الحفاظ على التربة من التعرية المائية، في حين تعد محصولات الحبوب الصغيرة كالقمح والشوفان ذات فعالية متوسطة في الحفاظ على التربة من التعرية، وأما محصولات الذرة وفول الصويا والبطاطس، فإنها تقدم تغطية بسيطة نسبياً، وإن فعاليتها في الحفاظ على التربة من التعرية محدودة جداً[1].

وأما ما يتعلق بالتعرية الريحية فإنها تنشط في منطقة المدينة المنورة للأسباب الآتية:

- قلة الأمطار المتساقطة على المنطقة، إذ إنها تقل عن ١٠٠ مم في معظم أجزاء المنطقة.
- انخفاض كثافة الغطاء النباتي في بعض أنحاء المدينة المنورة وانعدامه في أنحاء أخرى.
- تعرض أراضي منطقة المدينة المنورة إلى هبوب الرياح ذات السرعة العالية في بعض أشهر السنة.
- تساعد بعض خصائص التربة في المنطقة (القوام والبناء والمادة العضوية وكذلك محتوى التربة الرطوبي) على تنشيط

(١) الطاهر، عبدالله أحمد سعد. الجغرافيا الحيوية، مرجع سابق، ٣٤٢.

التعرية الريحية التي تحدث مجموعة من الأضرار على تربة المنطقة من بينها إزالة الأجزاء السطحية للتربة في الحقول الزراعية، وهذا الجزء من قطاع التربة ذو خصوبة عالية. ويمكن الحفاظ على تربة منطقة المدينة المنورة من التعرية الريحية والتقليل من أضرارها عن طريق خفض معدل سرعة الرياح عن طريق تطبيق الأساليب الآتية:

- إقامة مصدات الرياح بزراعة الأشجار في الاتجاه المعاكس لهبوب الرياح السائدة في المنطقة. إذ يمكن التقليل من سرعة الرياح التي تهب على تلك الأراضي، ومن ثم تقل قدرتها على نقل مكونات التربة.
- ترك مخلفات النباتات وبقاياها في الحقول الزراعية بعد حصادها، إذ تؤدي بقايا النباتات ومخلفاتها دوراً فعالاً في تماسك جزئيات التربة، وكذلك الحد من سرعة الرياح، وبالتالي تحمي التربة من التعرية الريحية.
- عدم حراثة الأرض بعد عملية الحصاد، لأن عدم القيام بالحراثة سوف يؤدي إلى تماسك جزئيات التربة، ومن ثم يقلل من تعرضها للتعرية الريحية.

إن حماية ترب الحقول الزراعية في منطقة المدينة المنورة من التعرية المائية والتعرية الريحية تعد أمراً ضرورياً ومهماً، لأن استمرار حدوث التعرية دون اتخاذ التدابير الفعالة في الحفاظ على التربة قد يؤثر في بعض خصائص التربة التي قد تقلل من خصوبتها وإنتاجيتها، أو قد تؤدي إلى تدهورها.

الفصل السادس

موارد المياه

أولاً مياه السيول

ثانياً المياه الجوفية قليلة العمق (الضحلة)

ثالثاً المياه الجوفية العميقة

رابعاً العيون الطبيعية

خامساً العيون غير الطبيعية (الصناعية)

سادساً تغذية المياه الجوفية

سابعاً تحلية المياه المالحة

ثامناً إعادة استخدام المياه

إعداد

الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالله الصالح

أستاذ جغرافيا المياه

تقع منطقة المدينة المنورة ضمن الأقاليم الجافة التي تسقط فيها كميات قليلة وغير منتظمة من الأمطار. ولعدم وجود أنهار دائمة الجريان فيها، تبرز أهمية المياه الجوفية مورداً طبيعياً دائماً. ولكن كمية المياه الجوفية ونوعيتها وتغذيتها في المنطقة تحكمها بشكل رئيس الخصائص الجيولوجية والجيومورفولوجية والمناخية في الماضي والحاضر؛ فمن الناحية الجيولوجية تقع معظم أجزاء منطقة المدينة المنورة ضمن الدرع العربي الذي يتكون من صخور نارية ومتحولة قديمة. وإن بعض أجزائها الشمالية بالقرب من مدينة العلا تقع ضمن الرف العربي الذي يتكون من طبقات مائلة من الصخور الرسوبية. وقد تعرضت منطقة المدينة المنورة في الماضي - كبقية مناطق المملكة الأخرى - إلى مناخ أكثر أمطاراً مما هو عليه في الوقت الحاضر[1]. وبناء عليه، يمكن تقسيم المياه الجوفية فيها إلى نوعين هما: المياه الجوفية المتجددة في خزانات المياه الجوفية الضحلة (Shallow Aquifers)، والمياه الجوفية الحفرية (Fossil) (غير المتجددة) في خزانات المياه الجوفية العميقة (Deep Aquifers).

يزداد الطلب على المياه في منطقة المدينة المنورة بسبب الزيادة المستمرة في عدد السكان وتحسن مستواهم المعيشي وتزايد أعداد الزوار، ومن ثم زيادة استهلاكهم المائي. ولتأمين الكميات المطلوبة من المياه في بيئة معروفة بقلة الموارد المائية الطبيعية فيها، يتم العمل باستمرار على تخفيف الضغط على الموارد الطبيعية للمياه من خلال رفع كفاءة استخدامها وتعزيزها. ويساعد الاستخدام الجيد للمياه على تقليل كمية الاستهلاك دون أن يؤثر في الحاجة الفعلية؛ ولذا تطبق عدد من الطرق التي تهدف إلى رفع الكفاءة في استخدام المياه، وفي مقدمتها ترشيد الاستهلاك المنزلي للمياه من خلال برامج التوعية المستمرة والتشجيع على استخدام طرق الري الحديثة. كما يتم في الوقت نفسه العمل على تعزيز الموارد المائية، وتخفيف الضغط عليها بزيادة كميتها من خلال زيادة تغذية المياه الجوفية (التغذية الصناعية)، أو بإيجاد موارد مائية غير تقليدية مثل تحلية مياه البحر المالحة وإعادة استخدام المياه.

يهدف هذا الفصل إلى التعريف بالموارد المائية في منطقة المدينة المنورة بصورة عامة مع إلقاء الضوء على خصائصها وسماتها، من خلال الاعتماد على ما هو متوافر من معلومات وبيانات في الدراسات والإحصاءات المتاحة في الوزارات والمؤسسات الحكومية ذات العلاقة وغيرها.

أولاً - مياه السيول:

معلوم أن الأودية جميعها في منطقة المدينة المنورة داخلية المنشأ، ومياه السيول



وادي ينبع النخل

(١) Hotzl, H.and J.G. Zotl, "Climatic Changes during the Quaternary Period" in: S.S. Al-Sayari and J.G. Zotl, eds., Quaternary Period in Saudi Arabia, New York: Springer Verlag, 1978, p 302.



سد الفرعة على وادي ينبع النخل

التي تجري فيها مرتبطة بالأمطار المحلية. فعلى الرغم من أن كميات الأمطار السنوية التي تسقط في منطقة المدينة المنورة قليلة، إلا أنها قد تؤدي إلى حدوث السيول؛ ويرجع ذلك إلى أن كمية كبيرة من الأمطار قد تسقط في فترة زمنية قصيرة حيث إن كمية الأمطار التي تسقط في يوم واحد قد تتجاوز المتوسط السنوي للأمطار ويعود أيضاً إلى الانحدار الشديد في المناطق الجبلية. فقد ذكر أحد الباحثين[١] أن سد الفرعة بينبع النخل الذي تبلغ سعته التخزينية ٢٠ مليون متر مكعب تُمَكِن من حجز كميات كبيرة من المياه ارتفعت إلى أعلى مستوى فيه، وسالت من فوق المفيض بعد هطلان الأمطار مساء يوم ١٤٠٥/٣/٨ هـ الموافق ١٩٨٤/١٢/٢ م. ولقلة الأمطار الساقطة على منطقة المدينة المنورة وعدم انتظامها، فإن جريان مياه السيول في الأودية قليل الحدوث، وغالباً ما تجري المياه في الأودية فترات قصيرة، ولكنها في بعض الأحيان ـ خصوصاً بالأودية الكبيرة نسبياً ـ تستمر في الجريان عدة أيام، ولكن في السنوات التي تكثر فيها الأمطار قد تجري المياه في الأودية لأسابيع. ويوجد في منطقة المدينة المنورة عدد كبير من الأودية منها أودية صغيرة ومنها أودية طويلة تنحدر باتجاه البحر الأحمر، مثل: وادي الصفراء ووادي الحمض وروافده الرئيسة، أو باتجاه الأجزاء الداخلية من المملكة مثل: وادي الغرس ووادي الضمران ووادي الوقيط التي تمثل روافد الأجزاء العليا لوادي الرمة.

ويُعد حوض وادي الحمض من أحواض التصريف الرئيسة بالمملكة، إذ يبلغ طوله نحو ٩٠٠ كم، حيث تبدأ روافده الرئيسة من محافظة الحناكية ومحافظة الطائف بمنطقة مكة المكرمة. ومن الأودية الرئيسة التي تشكل حوض وادي الحمض وادي الجزل ووادي العقيق (عقيق المدينة) ووادي قناة. وعلى الرغم من أن حوض وادي العقيق ليس كبيراً جداً، لكنه يعد من أشهر أودية المدينة المنورة لوفرة مياهه وتاريخه العريق. وتتجمع مياه وادي العقيق من النقيع التي تقع على بعد نحو ١٠٠ كم إلى الجنوب من المدينة المنورة، حيث تنحدر مجاريه العليا من السفوح الشرقية لجبال عوف والسفوح الغربية للجبال الساحلية[٢]. ويتجه مجراه الرئيس نحو الشمال إلى أن يلتقي بوادي قناة شمال غرب المدينة المنورة في موقع زغابة، وبالتقائهما يتشكل وادي الحمض الذي يتجه بشكل عام نحو الشمال إلى أن يتصل بوادي الجزل الذي ينحدر من حرة الرحى، ثم يتجه نحو الغرب حتى يصب في البحر الأحمر إلى الجنوب من مدينة الوجه بمسافة تقارب ٦٠ كم.

(١) عبدالكريم محمود الخطيب، *ينبع: سلسلة هذه بلادنا*، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٩٩٣ م)، ٨١.

(٢) عبدالرحمن صادق الشريف، «تضاريس المدينة المنورة»، في: *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: محمد أحمد الرويثي، ومصطفى محمد خوجلي، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٨ هـ/١٩٩٨ م).

يمثل وادي العقيق بمحافظة الطائف ووادي الحناكية الأجزاء العليا لحوض وادي قناة؛ فقد نقل ياقوت الحموي[١] المتوفى سنة ٦٢٦ هـ /١٢٢٩ م عن المدائني قوله: «وقناة وادٍ يأتي من الطائف ويصب في الأرحضية وقرقرة الكدر ثم يأتي بئر معاوية ثم يمر على طرف القدوم في أصل قبور الشهداء بأحد». ويذكر ابن خميس[٢] أن وادي العقيق (عقيق الطائف) ينحدر من السفوح الشرقية لجبال السراة والحجاز الواقعة شمال الطائف، ويتجه مجراه الرئيس بشكل عام نحو الشمال بين الجبال من الغرب والحرار من الشرق إلى أن يجتمع في قاع حضوضاء مع وادي الحناكية والأودية الأخرى التي ترفده، حيث تمتد مجاريها الرئيسة بشكل عام من الشرق إلى الغرب. وبعد أن تصب هذه الأودية في قاع حضوضاء تخرج المياه من القاع لتجري في وادي الخنق الذي يتصل بوادي قناة المتجه نحو الغرب إلى الشمال من المدينة واقعاً بينها وبين جبل أحد.

تجري مياه السيول أحياناً في بطون الأودية بمنطقة المدينة المنورة في مواسم سقوط الأمطار. ولكن كميات المياه الجارية في الأودية تختلف زمانياً ومكانياً تبعاً لاختلاف كميات الأمطار الساقطة في المنطقة التي تبلغ معدلاتها السنوية على سبيل المثال نحو ٩٦ مم في محطة السويرقية ونحو ٢٩ مم في محطة البوير[٣]. وعلى الرغم من أنه لا تتوافر عن مياه السيول الجارية في أودية منطقة المدينة المنورة سوى معلومات غير شاملة وقليلة ولفترة قصيرة وقديمة نسبياً، لكن يمكن أن يستفاد منها للتعرف على الخصائص العامة للسيول في المنطقة.



وادي الخنق

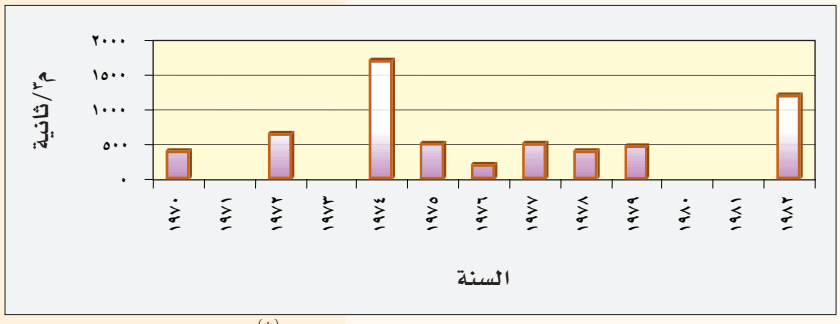

شكل ٧: ذروة السيول في وادي الصفراء بمنطقة المدينة المنورة(*)

فـ(شكل ٧) يبين ذروة السيول السنوية[٤] في وادي الصفراء نحو ١٣ سنة لفترة تمتد من ١٣٩٠ ـ ١٤٠٢ هـ /١٩٧٠ ـ ١٩٨٢ م. ويتضح من هذا الشكل أن نحو ٧٠٪ من سنوات التسجيل حدث فيها جريان لمياه السيول، في حين أن نحو ٣٠٪ من سنوات التسجيل لم يحدث فيها جريان. ويتضح أيضاً من هذا الشكل أن أعلى كمية لتدفق المياه خلال السنة سجلت عام ١٣٩٤ هـ /١٩٧٤ م، إذ بلغت أكثر من ١٦٠٠ م^3 في الثانية، في حين سجلت أدنى كمية لذروة السيول السنوية عام ١٣٩٦ هـ /١٩٧٦ م وهي ٢٠٠ م^3 في الثانية.

(١) ياقوت بن عبدالله الحموي، *معجم البلدان*، (بيروت: دار صادر، ١٩٧٩ م)، جـ٤، ٤٠١.

(٢) عبدالله بن محمد بن خميس، *معجم أودية الجزيرة*، (الرياض: ١٩٩٤ م)، ٢٤٢.

(٣) وزارة المياه والكهرباء، *معلومات الأمطار الشهرية في المملكة العربية السعودية للفترة من ١٩٨٥ - ٢٠٠٠ م*، (الرياض: وزارة المياه والكهرباء، د.ت)، ١٠١.

(٤) يقصد بذروة السيول السنوية أعلى كمية لتدفق المياه الجارية خلال السنة.

(*) المصدر: وزارة الزراعة والمياه، أطلس المياه في المملكة العربية السعودية، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، ١٩٨٤ م)، ٣٩.

ولموسمية مياه السيول وقلة كمياتها وتذبذبها من زمان إلى آخر، فإنها ليست من الموارد المائية الدائمة، ولا تعتمد عليها أنشطة السكان في المنطقة بشكل كلي، بل يستفاد منها لري المزارع الواقعة في بطون الأوديـة. فقد ذكر الفوزان[1] أن البيانات الإحصائية أظهرت أن ١٠٪ من المساحة المزروعة في منطقة المدينة المنورة عام ١٣٨١ هـ/١٩٦٢ م ونحو ٥٪ منها عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م كانت ترتوي بالأمطار والسيول مباشرة. ولكن لم تظهر البيانات الإحصائية لعام ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م أي مزارع تعتمد كلياً على مياه الأمطار والسيول. والواقع أن مياه السيول كانت ـ وما زالت ـ تستغل مصدراً إضافياً لري المزارع في المنطقة؛ إذ يحرص المزارعون على غمر مزارعهم بمياه السيول ليس فقط للاستفادة منها بوصفها مورد مياه إضافياً، بل أيضاً للاستفادة مما تحمله هذه السيول من الطمي الذي يساعد على تجديد خصوبة التربة في مزارعهم.

ثانياً ـ المياه الجوفية قليلة العمق (الضحلة):

تسمى التكوينات الجيولوجية التي لها نفاذية ومسامية تسمح بمرور الماء وخزنه في مسامات الصخور أو المواد الصخرية المفككة، وتسمح أيضاً بخروجه منها ودخوله إلى الآبار بكميات اقتصادية تسمى بخزانات المياه الجوفية (Aquifers). وقد تتكون خزانات المياه الجوفية من مواد صخرية مفككة مثل رواسب الأودية (الرواسب الفيضية) أو تتكون من صخور منفذة كالصخور الرملية أو صخور الجرانيت المجواة (Weathered). وتصنف خزانات المياه الجوفية إلى نوعين، هما: الخزانات الحرة (Unconfined) والخزانات المحصورة (Confined). ويكون الخزان من النوع الحر إذا كان التكوين الجيولوجي الخازن للماء منكشفاً على سطح الأرض، أو أن الطبقة الجيولوجية التي تعلوه تكون منفذة. في حين يكون الخزان من النوع المحصور إذا كان التكوين الجيولوجي الخازن للماء يقع بين تكوينين غير منفذين؛ أحدهما يعلوه والآخر إلى الأسفل منه. وإذا كانت الطبقة التي تعلو الخزان المحصور ذات نفاذية منخفضة جداً، فإنه في هذه الحالة يسمى بالخزان شبه المحصور (Semi-Confined). وفي الغالب توجد خزانات المياه المحصورة بالمملكة في طبقات الصخور الرسوبية بالرف العربي. وأما تكون معظم خزانات المياه الجوفية بالدرع العربي فهو من النوع الحر. وتكون المياه غير عميقة ومتجددة في الخزانات الحرة، وعميقة وغير متجددة في الخزانات المحصورة.

تقع معظم منطقة المدينة المنورة ضمن الدرع العربي الذي يتكون من صخور نارية ومتحولة قديمة (ما قبل الكمبري عدا الجزء الواقع بالقرب من مدينة العلا). وتغطي الرواسب الفيضية في بعض الأمكنة هذه الصخور القديمة، كما تغطي أيضاً أجزاء كبيرة منها حقول اللابة البركانية (Lava Fields) (الحرات) الحديثة نسبياً[2]. وإن الجزء الواقع ضمن الدرع العربي من منطقة المدينة المنورة يحتوي على مياه جوفية قليلة العمق مخزونة؛ إما في الرواسب الفيضية بالأودية (Alluvial Aquifers) وما تحتها من صخور مجواة (Weathered) وشقوق وصدوع (Fractures)، أو في الحرات التي تتكون

(١) فوزان بن عبدالرحمن الفوزان، «الزراعة في المدينة المنورة»، في: *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: محمد أحمد الرويثي، ومصطفى محمد خوجلي، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٨ هـ/١٩٩٨ م)، ٣٠٤، ٣٠٥.

(٢) Brown, G.F. et. al., Geology of the Arabian Peninsula: Shield Area of Western Saudi Arabia, Washington: U.S. Geological Survey , 1989, pp.A151-A163.

من صخور البازلت (Basalt Aquifers) التي تغطي أيضاً في بعض الأمكنة الرواسب الفيضية الأقدم منها.

تحتوي بطون الأودية على خليط من المواد الصخرية المفككة التي رسبتها المياه الجارية في العصر الرباعي. وتختلف سماكة هذه الرواسب وحجم حبيباتها من مكان إلى آخر. فسماكتها قد لا تتعدى عدداً قليلاً من الأمتار، ولكنها في بعض الأمكنة قد تصل إلى ١٠٠ م، وحبيباتها في الغالب خليط من مواد تكون في حجم السلت (مواد الطمي الناعمة) والرمل والبطحاء والجلاميد. وتكون أقل سماكة وأكثر خشونة في الأجزاء العليا من الأودية، وتزداد سماكتها ونعومتها باتجاه الأجزاء السفلى من الأودية.

تغطي الحرات التي تتكون من صخور البازلت أجزاء واسعة من منطقة المدينة المنورة. ويمكن أن تكون صخور الحمم البركانية ـ مثل البازلت وغيرها من الصخور البركانية ـ خزانات جيدة للمياه الجوفية، إذا كانت فجواتها التي تكونت بعد تطاير الغازات متصلة أو متشققة بدرجة كافية. وتختلف خصائص الصخور في الحرات، ويتصف بعضها بكثرة الفجوات والشقوق الصغيرة (Vesicular)، وبعضها صماء غير منفذة. وصخور البازلت المنفذة في الحرات تسمح بتسرب مياه الأمطار وتعمل بوصفها خزانات للمياه الجوفية. وتشير البيانات الرسمية[١] إلى أن خزانات المياه الجوفية في الحرات أفضل ما تكون إذا حدث اتصال مائي (هيدروليكي) بين الرواسب الفيضية الحديثة وصخور البازلت المنفذة والرواسب الفيضية القديمة الواقعة إلى الأسفل منها، وعملت هذه الطبقات مجتمعة بوصفها خزاناً للمياه الجوفية. وتوجد مثل هذه الخزانات بالقرب من المدينة المنورة، وتتصف بأنها واسعة نسبياً، وتحتوي على كميات جيدة من المياه. فصخور البازلت المنفذة في حرة رهاط جنوب المدينة المنورة تراوح سماكتها بين ٤٠ و٧٠ م، وتمتد على مساحة واسعة تقارب ١٨١٠٠ كم^{٢}، ويبلغ طولها نحو ٣١٠ كم، ويقارب عرضها المتوسط ٦٠ كم. وتغطي صخور البازلت المنفذة في حرة رهاط الرواسب الفيضية القديمة لحوض العقيق الأعلى التي تعد خزاناً



وادي العقيق

(١) وزارة الزراعة والمياه. أطلس المياه في المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، ٦٢.

جيداً للمياه الجوفية في المنطقة. إضافة إلى ذلك تشغل حرة خيبر والحرات المجاورة لها مثل حرة هتيم وحرة الكرى مساحة واسعة تقارب ٢١٤٠٠ كم٢. وتصل سماكتها إلى ٩٠ م، وتغطي صخور البازلت أيضاً في بعض الأمكنة رواسب فيضية قديمة، والصخور الرملية لتكوين خيبر. وفي هذه المواقع، يكون خزان المياه محصوراً في الرواسب الفيضية القديمة والصخور الرملية. في حين يكون خزان المياه شبه محصور في الرواسب الفيضية الحديثة وفي صخور البازلت.

إن رواسب الأودية الحديثة والقديمة وصخور البازلت في الحرات تخزن كميات من المياه الجوفية المتجددة (أي التي تعتمد على مياه الأمطار والسيول في الوقت الحاضر) التي تعد المورد المائي الطبيعي الدائم في المنطقة. ولكن كميات المياه التي تخزنها الرواسب الفيضية وصخور البازلت في الحرات، ونوعيتها وعمقها تختلف من مكان إلى آخر، ومن زمان إلى آخر؛ لأنها تعتمد على عوامل كثيرة. وتعد الخصائص الجيولوجية في مقدمة العوامل المؤثرة خصوصاً حجم الفجوات والشقوق في صخور البازلت، ونوعية المعادن التي تتكون منها رواسب الأودية التي لها تأثير كبير على نوعية المياه، وتعتمد أيضاً على الخصائص الجيومورفولوجية ولا سيما سماكة الرواسب في الأودية، والمساحة التي تغطيها، وحجم حبيباتها، ومساحة حوض الوادي، ومعدلات الانحدار فيه، كما تتأثر أيضاً بالخصائص المناخية، خصوصاً كميات الأمطار الساقطة وغزارتها، وكميات مياه السيول ومعدلات التبخر.

تعتمد كميات المياه في خزانات المياه الجوفية وإمكانية استغلالها على الخصائص الهيدرولوكية (Hydraulic) لخزان المياه الجوفية وبخاصة الناقلية (Transmissivity) والمخزونية (Storativity)، إذ يعبّر عن المخزونية في الخزانات المحصورة بمعامل الخزن (Storage Coefficient)، وعن الخزانات الحرة بالقدرة الإنتاجية أو التصريف النوعي (Specific Yield) [١]؛ فالناقلية تحكم بدرجة كبيرة حجم المياه الجوفية المتحركة نحو البئر، على حين يعتمد حجم المياه المخزونة على المخزونية. ومعامل التخزين والقدرة الإنتاجية ليست لها أبعاد، وأما الوحدات المستخدمة للتعبير عن الناقلية فهي (م٣/يوم/م) وتختصر لتصبح (م٣/يوم)[٢]؛ ففي دراسة[٣] أجريت على وادي الصفراء بمنطقة المدينة المنورة وُجد أن الناقلية عالية في الأجزاء العليا من الوادي ٠,٧١ م٣/دقيقة، والأجزاء السفلى منه ٠,٨١ م٣/دقيقة، في حين كانت متوسطة في الأجزاء الوسطى من ٠,١٤ م٣/دقيقة. كما وجدا أن معامل الخزن يساوي ٠,١ في الأجزاء العليا، ويساوي ٠,٠٠٦ في الأجزاء الوسطى، و ٠,٠١ في الأجزاء السفلى. وفي دراسة أخرى[٤] على وادي العقيق تم الوصول إلى أن متوسط الناقلية يساوي ٠,٠٧ م٣/دقيقة، في حين يساوي متوسط معامل الخزن ٠,٠٠٤. من جهة أخرى، تشير وزارة المياه[٥] إلى أن الرواسب الفيضية القديمة المغطاة بصخور البازلت الحديثة جيدة التخزين للماء، إذ يصل الإنتاج في بعض الآبار ٢٨٣٠٠ م٣/يوم.

(١) محمود السلاوي، *المياه الجوفية بين النظرية والتطبيق*، (مصراتة: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٦ م)، ٤٦.

(٢) Price, Michael Introducing Groundwater, London: George Allen & Unwin, 1985, p 54.

(٣) Al-Ahmadi, M.E. and Z. Sen, "The Depletion of the Groundwater Resources in Wadi As-Safra, Saudi Arabia", Journal of King Abdulaziz University: Earth Sci., 2 1989, pp 1-15.

(٤) Op. Cit., Bazuhair, Abdulghaffar S. et. al., 2002, p 213.

(٥) وزارة الزراعة والمياه. أطلس المياه، مرجع سابق.

جدول ٢٣

عمق المياه الجوفية ونوعيتها في وادي العقيق بمنطقة المدينة المنورة(*)

رقم العينة	دائرة العرض (درجة، دقيقة، ثانية)	خط الطول (درجة، دقيقة، ثانية)	العمق الكلي للبئر (م)	عمق سطح الماء (م)	نوع الخزان	مجموع المواد الصلبة الذائبة مجم/لتر
١	٢٤° ٠٢´ ٠٠	٣٩° ٣٢´ ٤٨	٧٥	٣٣,٣	رواسب فيضية	١١٤٦
٢	٢٤° ٠١´ ٣١	٣٩° ٣٢´ ٥٢	٨٤	٣١,٥	رواسب فيضية	٢٤٨٨
٣	٢٤° ٠١´ ١٤	٣٩° ٣٣´ ٠١	٩٦	٣٥,٣	رواسب فيضية	٢٨٩٨
٤	٢٣° ٥٩´ ٤٤	٣٩° ٣٣´ ٠٥	١٠٠	٤٥,٠	رواسب فيضية	١٦٢٨
٥	٢٣° ٥٩´ ٤١	٣٩° ٣٣´ ٠٦	١٠٥	٤٧,٠	رواسب فيضية	١٤٨٤
٦	٢٤° ٠٠´ ٥٠	٣٩° ٣٣´ ٠٨	١١٠	٣٨,٢	رواسب فيضية	١٦٥٢
٧	٢٤° ٠٢´ ٠٩	٣٩° ٣٢´ ٤٥	١٢٦	٣٥,٣	رواسب فيضية	٩٦٠
٨	٢٤° ٠٥´ ٢١	٣٩° ٣٥´ ٢٢	١٤٢	٣٩,٥	رواسب فيضية	١٠٣٢
٩	٢٤° ٠٧´ ٣١	٣٩° ٣٣´ ٤١	١٥٠	٤٤,٣	رواسب فيضية	٦٢٠
١٠	٢٤° ٠٧´ ٢٥	٣٩° ٣٤´ ٠٧	١٦٩	٤١,٥	رواسب فيضية	٩٥٤
١١	٢٤° ٠٧´ ٤٠	٣٩° ٣٣´ ٢٥	١٥٨	٤٦,٠	رواسب فيضية	٤٤٢
١٢	٢٤° ٢٢´ ١٣	٣٩° ٣٢´ ٥١	١٤٦	٣٠,٣	رواسب فيضية	٤٨١٢
١٣	٢٤° ٢٢´ ٤٣	٣٩° ٣٢´ ٢٨	١٤٥	٣٥,٥	رواسب فيضية	١٨٤٤
١٤	٢٤° ٢٣´ ١٣	٣٩° ٣٢´ ٢٤	١٥٠	٤٠,١	رواسب فيضية	٤٦١٤
١٥	٢٤° ٢٤´ ٥٥	٣٩° ٣٢´ ٥٢	١٢٦	٤٤,٣	رواسب فيضية	٤١١٢
١٦	٢٤° ٢٨´ ٣١	٣٩° ٣٥´ ٠٠	١١٠	٣٦,٦	رواسب فيضية	٨٩٢
١٧	٢٤° ٢٨´ ٥١	٣٩° ٣٤´ ٤١	٧٥	٣٤,٢	رواسب فيضية	٣٩٣٦
١٨	٢٤° ٢٩´ ٣٣	٣٩° ٣٤´ ٤١	٨٢	٣٦,٩	رواسب فيضية	٢٨٦
١٩	٢٤° ٣١´ ٢١	٣٩° ٣٥´ ٠٩	٨٩	٤٢,٦	رواسب فيضية	٤٣٧٢

تحتوي المياه الجوفية على قدر معين من الأملاح الذائبة، وتحدد درجة تركيز الأملاح في الماء مدى ملائمتها للشرب أو لري نوع معين من المحصولات الزراعية. ووفقاً لمواصفات منظمة الصحة العالمية لمياه الشرب فإن الحد الأعلى المقبول (المرغوب) لتركيز المواد الصلبة الذائبة (الأملاح) يكون ٥٠٠ ملجم/لتر[١]، التوصيل الكهربائي نحو ٧٧٠ ميكروموز/سم، في حين يكون الحد الأعلى المسموح ١٥٠٠ ملجم/لتر نحو ٢٣٠٠ ميكروموز/سم[٢]. وتختلف المحصولات الزراعية في قدرة تحملها للملوحة، إذ إن بعض النباتات حساسة للأملاح مثل البرتقال، في حين يتحمل النخيل والبرسيم التركيز العالي للأملاح.

يختلف تركيز الأملاح في المياه الجوفية باختلاف المواد الصخرية؛ إذ إن بعضها يتكون من معادن قابلة للذوبان، وبعضها يتكون من معادن غير قابلة للذوبان. ويتبين من (جدول ٢٣) اختلاف نوعية المياه الجوفية في حوض وادي

(١) إن وحدتي جزء في المليون وملليجرام لكل لتر تعدان من الوحدات شائعة الاستخدام للتعبير عن تركيز الأملاح في الماء. والقيم الرقمية لهاتين الوحدتين متساوية تقريبا، إذ يكون تركيز الأملاح في الماء منخفضاً وتكون قيمة الوزن النوعي (الكثافة النوعية) (Specific Gravity) تساوي واحداً. كما أن وحدة قياس التوصيل الكهربائي ميكروموز/سم التي تزداد قيمتها مع زيادة الأملاح الذائبة تعد أيضاً من الوحدات شائعة الاستخدام للتعبير عن درجة الملوحة في الماء التي يمكن تحويلها إلى جزء في المليون بضربها في ثابت وقدره (٠,٦٥).

(٢) خليفة درادكة، *هيدرولوجية المياه الجوفية*، (عمان: دار البشير، ١٩٨٨ م)، ٤١٦.

(*) Bazuhair, A., et. al., (2002), Groundwater Recharge Estimation in some Wadi Aquifers of the Western Saudi Arabia, King Abdullaziz City for Science and Technology, Project AT-17-63, Final Report, 375, p 368.

جدول ٢٤

نوعية المياه بوادي الصفراء في منطقة المدينة المنورة(*)

رقم العينة		مغنسيوم جزء/ مليون	صوديوم جزء/ مليون	بوتاسيوم جزء/ مليون	كالسيوم جزء/ مليون	كبريتات جزء/ مليون	كلوريد جزء/ مليون	بيكربونات جزء/ مليون	مجموع المواد الصلبة الذائبة جزء/مليون
الأجزاء السفلى من الوادي	١	١١٤,٣	٦٧١,٣	٧,٨	٣١٢,٦	٨٧١,٠	١١٥٩,٢	١٩٥,٤	٣٣٣١,٦
	٢	١١٦,٧	٦٤١,٤	١١,٧	٣٦٠,٧	٤١١,٣	١١٦٦,٣	١٤٦,٥	٢٨٥٤,٦
	٣	١٤٨,٣	٩٢٤,٢	١١,٧	٤٤٩,٩	١٢٣٨,٨	١٦٨٣,٩	٢١٩,٨	٤٦٧٦,٦
	٤	١٢٢,٨	٧٧٩,٤	٧,٨	٣٥٨,٧	١٠٢١,٣	١٢٩٧,٥	١٩٥,٤	٣٧٨٢,٩
	٥	٧١,٧	٤٨٥,١	٧,٨	١٧٠,٣	٤٩٣,٦	٧٢٣,٢	١٨٩,٣	٢١٤١,٠
	٦	١٦٠,٥	١٠٠٠,١	١١,٧	٥١٧,٠	١٣٢٥,٩	١٧٤٧,٧	٢٨٧,٠	٥٠٤٩,٩
	٧	١٢٤,٠	٦٨٩,٧	٧,٨	٣١٢,٦	٩٤٨,٤	١١٤٨,٦	٢٤٤,٢	٣٤٧٥,٣
	٨	١٣٦,٢	٧٠٥,٨	٧,٨	٤٣٢,٩	١٠٢٥,٩	١٢٤٧,٨	٢٦٢,٦	٣٨١٩,٠
	٩	٩٧,٣	٦٢٥,٣	٧,٨	٣٤٠,٧	٨٤٢,٠	١٠١٧,٤	٢٥٠,٣	٣١٨٠,٨
	١٠	١٣٧,٤	٥٩٣,١	٧,٨	٤٩١,٠	٩٢٩,١	١٢٧٤,١	١٩٥,٤	٣٦٢٧,٩
الأجزاء الوسطى من الوادي	١١	٦٥,٧	٦٨٧,٤	٧,٨	٧٣٧,٥	٧٤٠,٤	١٩٢٤,٩	١٢٢,١	٤٢٨٥,٨
	١٢	٧٧,٨	٣٨٣,٩	٧,٨	٢٤٠,٥	٥٥٦,٥	٦٤٨,٧	٢٥٦,٤	٢١٧١,٦
	١٣	٨٣,٩	٦١٣,٨	٧,٨	٣١٨,٦	٨٠٨,١	٩٢٥,٢	٣١٧,٥	٣٠٧٤,٩
	١٤	٦٠,٨	٤٢٥,٣	٣,٩	٢٢٤,٤	٤٩٨,٤	٥٨١,٤	٤١٥,٢	٢٢٠٩,٤
	١٥	٤٥,٠	٢٥٠,٦	٣,٩	١٢٢,٢	٢٨٠,٧	٣٣٣,٢	٢٨٧,٠	١٣٢٢,٦
	١٦	٥٠,٠	٢٠٠,٠	٣,٩	٨٤,٢	٢٣٧,١	٢٤٨,١	٢١٣,٧	١٠٣٧,٠
	١٧	٤٦,٢	٢٨٩,٧	٣,٩	١٨٨,٤	٤٠١,٦	٤٣٢,٥	٣١٧,٥	١٦٧٩,٨
	١٨	٣٨,٩	١٩٥,٤	٣,٩	٩٦,٢	٢٠٣,٢	٢٣٤,٠	٢٢٦,٠	٩٩٧,٦
	١٩	٤٨,٦	١٧٤,٧	٣,٩	٧٦,١	١٧٩,٠	٢٤١,١	٢١٣,٧	٩٣٧,١
	٢٠	١٩,٥	١٧٠,١	٣,٩	١٠٠,٢	١٧٤,٢	٢١٦,٢	٢٢٦,٠	٩١٠,١
الأجزاء العليا من الوادي	٢١	٨٣,٩	٦٥٠,٦	٣,٩	٢٦٨,٥	٧٩٣,٦	٩٣٢,٣	١٧٧,١	٢٩٠٩,٩
	٢٢	٤٨,٦	٣٤٩,٤	٣,٩	١٦٠,٣	٤٣٠,٧	٤٦٧,٩	١٩٥,٤	١٦٥٦,٢
	٢٣	١٠,٩	٢٩,٩	٧,٨	٤٠,١	٤٣,٥	٤٦,١	١٤٠,٤	٣١٨,٧
	٢٤	٢٨,٠	٤٠٠,٠	٣,٩	١٧٢,٣	٤٧٤,٢	٥١٧,٦	٢٠١,٥	١٧٩٧,٥
	٢٥	٨,٥	٦٩,٠	٣,٩	١٠٤,٢	٤٣,٥	٨٥,١	٢٣٢,٠	٥٤٦,٢
	٢٦	٦٣,٢	٢٢٠,٧	٧,٨	٣٤٨,٧	٥٣٧,١	٥٩٥,٦	٢١٣,٧	١٩٨٦,٨
	٢٧	٧٠,٥	١٦٠,٩	٣,٩	١٠٠,٢	٢٤٦,٨	٢٦٥,٩	١٥٨,٧	١٠٠٦,٩

(*) Op. Cit., Al-Ahmedi M. E. and Sen, Z., "The Depletion of the Groundwater Resources in Wadi As - Safra, Saudi Arabia", JKAu: Earth Sci., Vol. 2, 1989, pp. 1 - 15.

العقيق، ويتضح أن أقل قيمة لمجموع المواد الصلبة الذائبة تساوي ٢٨٦ ملجم/لتر، في حين أن أعلى قيمة تساوي ٤٨١٢ ملجم/لتر. وقد وجد أن نحو ٤٢٪ من العينات يقل تركيز الأملاح فيها عن ١٥٠٠ ملجم/ لتر، في حين وجد أن نحو ٢١٪ من العينات يزيد تركيز الأملاح فيها على ٤٠٠٠ ملجم/لتر. ويتضح من (جدول ٢٤) اختلاف تركيز الأملاح في حوض وادي الصفراء، إذ يراوح تركيز الأملاح بين ٣١٨ و٤٦٧٦ جزء/مليون. إذاً تركيز الأملاح أقل في الأجزاء العليا من الوادي، ويزداد باتجاه الأجزاء السفلى.

يظهر التحليل الكيميائي لعينات المياه في حوض وادي الصفراء أن أيونات الكلوريد والكبريتات والصوديوم والكالسيوم موجودة بتركيز عالٍ، وخصوصاً في الأجزاء السفلى من الوادي، ما يحد من استخداماته للأغراض المنزلية ولري النباتات قليلة ومتوسطة المقاومة للأملاح. تركيز الكلوريد في عينات الأجزاء السفلى من الوادي تراوح بين ٧٢٣ و١٧٤٧ جزء/مليون. ويزيد تركيز الكلوريد في الأجزاء السفلى من الوادي على ١٠٠٠ جزء/مليون ما عدا عينة واحدة. ومن المعروف أن نسبة ادمصاص الصوديوم (SAR) تعد من أهم الخواص الأيونية لمياه الري التي تحددها العلاقة بين أيونات الصوديوم والكالسيوم والمغنسيوم. وتزداد نسبة ادمصاص الصوديوم في حوض وادي الصفراء من ١,١ في الأجزاء العليا إلى ٩,٩ في الأجزاء السفلى من الحوض. وعلى الرغم من أن نسبة ادمصاص الصوديوم منخفضة نسبياً إلا أنه لارتفاع تركيز الملوحة في الحوض، فإن درجة خطورة الصوديوم



بئر رومة وتسمى بئر عثمان

في وادي الصفراء تكون متوسطة إلى عالية. ويدل التركيز العالي للكالسيوم والمغنسيوم في معظم العينات على عسر الماء في الوادي؛ والمقصود بعسر الماء هو فقدان الماء لقدرته على إذابة الصابون. ويعد الماء عسراً إذا زاد تركيز أملاح الكالسيوم والمغنسيوم على ١٥٠ جزء/مليون[١].

تستخرج المياه الجوفية في منطقة المدينة المنورة منذ القدم من خلال حفر آبار في الطبقات الخازنة للمياه. فقد تميزت المدينة المنورة وينبع والعلا وخيبر والعيص عبر التاريخ بكثافة الاستقرار السكاني وأهمية الأنشطة الزراعية والتجارية لسكانها تؤكدها الشواهد التاريخية والأدلة الأثرية. ولا تزال كثير من الآبار القديمة باقية في مواقعها، شاهدة على أهمية المياه الجوفية واستخدامها في سد احتياجات الإنسان من الماء لأغراض الشرب وري المزارع في ذلك الوقت. ويذكر ياقوت الحموي[٢] عدداً من هذه الآبار؛ منها بئر أريس (الخاتم) وبئر

(١) محمود حسان عبدالعزيز، *أساسيات الهيدرولوجيا*، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٩٨٢ م).

(٢) الحموي، ياقوت بن عبدالله. معجم البلدان، مرجع سابق، جـ١، ٢٩٨، ٢٩٩.

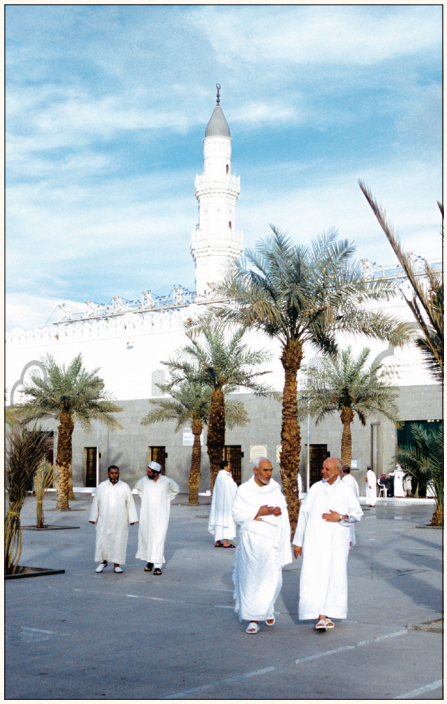

موقع بئر أريس

بضاعة وبئر جمل وبئر ذروان وبئر رومة وبئر عروة وغيرها. وتقع في الشمال الغربي من المدينة المنورة قرب وادي العقيق، وتبعد عن المسجد النبوي الشريف مسافة خمسة كيلومترات تقريباً. وقد حض رسول الله ﷺ المسلمين على بذلها للمسلمين لسد حاجتهم من المياه. وقد اشتراها عثمان بن عفان رضي الله عنه، وجعلها في سبيل الله، وتسمى بئر عثمان، وبقيت عبر العصور الماضية معلماً تاريخياً. ويذكر الفيروزأبادي[١] المتوفى سنة ٨١٧ هـ/١٤١٤ م أيضاً أن طول (عمق) بئر رومة ١٨ ذراعاً؛ أي نحو ٩ م. وتشير إمارة منطقة المدينة المنورة[٢] في موقعها على الإنترنت إلى أن بئر أريس من الآبار التي لها تاريخ مهم، إذ يذكر في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ جلس على حافتها ودلى رجليه فيها، وتوضأ منها. ويقال أيضاً إن خاتم الخلافة سقط فيها من عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة السادسة من خلافته، ولم يجدوه على الرغم من أن البحث عنه استمر ثلاثة أيام. وكان الخاتم لرسول الله ﷺ، ثم حمله أبوبكر رضي الله عنه مدة خلافته، وكذلك عمر بن الخطاب مدة خلافته، وانتقل إلى عثمان رضي الله عنه بانتقال الخلافة إليه.

ثالثاً ـ المياه الجوفية العميقة:

تحتوي بعض تكوينات الصخور الرسوبية المائلة[٣] في المملكة التي تتعاقب من الأقدم في الغرب إلى الأحدث في الشرق على مياه جوفية قديمة (غير متجددة) تختلف كمياتها باختلاف نوع صخور التكوين وسمكها وخواصها الهيدروليكية (النفاذية ومعامل التخزين). إن خزانات المياه فيها من النوع المحصور الذي تكون المياه فيه تحت ضغط ارتوازي عدا الأجزاء المنكشفة من التكوينات الرسوبية. وفي هذه الحالة تكون المياه الجوفية الموجودة بها تحت ضغط أعلى من الضغط الجوي؛ ولذا يرتفع الماء في الآبار المحفورة على الخزان المحصور إلى مستوى تساوي الضغط (السطح البيزومتري Piezometric Surface)[٤] الذي قد يكون تحت سطح الأرض، وقد يكون في بعض المواقع Piezometric Surface فوق سطح الأرض. فإذا كان مستوى السطح البيزومتري في أمكنة معينة أعلى من سطح الأرض، فإن المياه في الآبار المحفورة على الخزان المحصور في هذه الأمكنة سترتفع إلى أعلى وتتدفق ذاتياً وتلقائياً على سطح الأرض من دون استخدام مضخات المياه كما كان يحدث في بعض مناطق المملكة.

(١) مجد الدين أبوالطاهر محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، *المغانم المطابة في معالم طابة*، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٦٩ م)، ٤٢.

(٢) إمارة منطقة المدينة المنورة، موقع إمارة المدينة المنورة على الشبكة العالمية: www.imaratalmadinah.gov.sa

(٣) المقصود بالتكوين طبقة أو طبقات من الصخور تكونت في فترة زمنية معينة، وتحت ظروف بيئية قارية أو بحرية معينة، وقد سميت هذه التكوينات بأسماء محلية، فمثلاً تكوين ساق نسب إلى جبل ساق الواقع في منطقة القصيم.

(٤) السطح البيزومتري خط وهمي أفقي يساوي ارتفاع مستوى الماء عند منكشف التكوين الخازن للمياه.

على الرغم من أن معظم أجزاء منطقة المدينة المنورة تقع ضمن الدرع العربي، إلا أن الأجزاء الواقعة بالقرب من مدينة العلا تدخل ضمن الرف العربي. إذ إن أجزاء من تكوين ساق، وهو أقدم تكوينات الصخور الرسوبية في المملكة، ويتشكل في منطقة المدينة المنورة. ويتكون تكوين ساق بشكل رئيس من الصخور الرملية.

إن منكشف تكوين ساق يمتد مسافة ١٢٠٠ كم بمحاذاة الدرع العربي من داخل الأردن إلى القرنة في محافظة الدوادمي بمنطقة الرياض. ويكون منسوب المياه في خزان الساق تحت سطح الأرض في مواقع منكشفة، أما في الأمكنة الواقعة على جزئه المحصور، فإن المياه فيه قد تتدفق على سطح الأرض بعد حفر الآبار فيه، أو تتدفق بشكل طبيعي في مواقع العيون.

لا تتوافر بيانات حديثة عن خصائص خزان الساق في منطقة المدينة المنورة. وعلى الرغم من أن البيانات المتوافرة تعد قديمة نسبياً، ولا تعكس خصائص الخزان في الوقت الحاضر، إلا أنه يمكن استخدامها للحصول على فكرة عامة. فقد ذكر عثمان[١] أن لمياه الساق مخارج طبيعية موضحاً أن المياه التي تغذي عيون العلا التي بدورها تغذي رواسب الأودية هناك آتية من المياه الجوفية بخزان الساق. ويستنتج من هذا أن خزان الساق يعد من النوع المحصور في عيون العلا، وأن السطح البيزومتري فيه كان أعلى من سطح الأرض. ويذكر عثمان أيضاً أن مستوى الماء الثابت (مستوى الماء في البئر قبل الضخ) كان يساوي ١٨ م، في حين أن مستوى الماء المتحرك (مستوى الماء في البئر أثناء الضخ) كان ٢١ م في إحدى الآبار الأنبوبية المحفورة في خزان الساق بعمق ٩٠ م في العلا، وقد بلغت إنتاجية هذه البئر ٢٠ لتراً/ثانية، وبلغ مجموع المواد الصلبة الذائبة لمياهها ٦٤٠ جزء/مليون. كما أوردت وزارة الزراعة والمياه[٢] معلومات لبئر أخرى حفرت في خزان الساق بعمق نحو ١٠٠ م في العلا بلغت إنتاجية المياه فيها ٨ لترات/ثانية، وبلغ مجموع الأملاح الذائبة ٣٠٠ ملجم/لتر. إضافة إلى ذلك أجرت الشركة الاستشارية (Parsons Basil Consultant)[٣] ضخاً اختبارياً على بئر بعمق ١٥٠ م في مدائن صالح تخترق بشكل كامل خزان الساق، وقد بلغت إنتاجية هذه البئر ٨,٢ لترات/ثانية. كما أظهرت نتائج الضخ الاختباري أن الناقلية في الخزان عالية وتساوي ٠,٦٠ م^{٢}/دقيقة، ومعامل الخزن يساوي ٠,٢٢. أما مجموع الأملاح الذائبة في هذه البئر، فقد وجد أنه يساوي ٣٢٥ جزء/مليون. إذاً إن إنتاجية المياه في الآبار المحفورة في خزان الساق بمنطقة المدينة المنورة جيدة إلى متوسطة، ذات نوعية جيدة.

رابعاً ـ العيون الطبيعية:

حينما تخرج المياه الجوفية إلى سطح الأرض بكميات تكون كافية لتدفقها دون أن يتدخل الإنسان في خروجها تسمى بالعيون الطبيعية (الينابيع) (Springs). أما حينما تخرج المياه الجوفية طبيعياً إلى السطح بكميات قليلة لا تسمح بالتدفق، فإنه يطلق عليها الرشح (النز أو الوشل) (Seepage). وتخرج المياه الجوفية طبيعياً إلى سطح الأرض تحت تأثير الجاذبية الأرضية في الأمكنة

(١) مصطفى نوري عثمان، *الماء ومسيرة التنمية في المملكة العربية السعودية*، (جدة: تهامة، ١٩٨٣ م)، ٦٥ ـ ٧٦.

(٢) وزارة الزراعة والمياه. أطلس المياه، مرجع سابق، ٤٧.

(٣) Parsons Basil Consultant, Agricultural and Water Resources: the Great Nafud Sedimentary Basin, Kingdom of Saudi Arabia, Riyadh: Ministry of Agriculture and Water, 1968. P.157.



العيون الطبيعية في محافظة خيبر

المنخفضة التي يكون عندها سطح الماء الجوفي في الخزانات الحرة أعلى من سطح الأرض أو من خلال الشقوق. كما أنها أيضاً تخرج طبيعياً إلى سطح الأرض تحت ضغط ارتوازي في الأمكنة التي يكون فيها مستوى السطح البيزومتري للخزانات المحصورة أعلى من سطح الأرض، وتجد منافذ طبيعية تسمح بخروج الماء نتيجة لضعف الطبقة غير المنفذة أو لتشقق صخورها.

ترتبط العيون عالية التدفق غالباً بالخزانات ذات النفاذية العالية، مثل الخزانات التي تتكون من الحمم البركانية (lava)، أو من الصخور الجيرية، أو من الرواسب الخشنة. في حين أن خزانات الصخور الرملية قد لا تسمح النفاذية فيها بتدفق كميات كبيرة من المياه. وتعتمد كمية المياه المتدفقة من العين على النفاذية في الخزان، وعلى حجمه وكذلك على مساحة مواقع التغذية وكمية التغذية، إذ تكون العلاقة طردية بين تصريف العين والمتغيرات السابقة. فمياه العيون تتدفق بكميات كبيرة وبشكل منتظم إذا كانت العيون تستمد مياهها من خزانات جيدة النفاذ، وتحتوي على مخزون كبير من المياه. في حين أن معظم العيون قليلة التدفق غالباً تتذبذب كميات المياه المتدفقة منها وفقاً لتذبذب الأمطار في المنطقة ووفقاً للتغيرات اليومية والفصلية لمعدلات التبخر والنتح، إذ إن كميات المياه المتدفقة تزداد في مواسم سقوط الأمطار، وتزداد أيضاً عندما تنخفض معدلات التبخر والنتح في الفترات الباردة نسبياً سواء في الليل أو في فصل الشتاء.

لقد كان للعيون الطبيعية دور مهم في نشأة مراكز الاستيطان القديمة في منطقة المدينة المنورة مثل العلا (وادي القرى) وخيبر. فقد ذكر ياقوت الحموي[1] المتوفى سنة ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م أن:

«وادي القرى: وادٍ بين الشام والمدينة وهو بين تيماء وخيبر فيه قرى كثيرة وبها سمي وادي القرى، قال أبوالمنذر: سمي وادي القرى لأن الوادي من أوله إلى آخره قرى منظومة وكانت من أعمال البلاد وآثار القرى إلى الآن بها ظاهرة، إلا أنها في وقتنا هذا كلها خراب ومياهها جارية تتدفق ضائعة لا ينتفع بها أحد... وهي كانت قديماً منازل ثمود وعاد، وبها أهلكهم الله، وآثارها إلى الآن باقية».

(١) الحموي، ياقوت بن عبدالله. معجم البلدان، مرجع سابق، جـ٤، ٣٣٨.

إن عدد العيون الطبيعية بمنطقة المدينة المنورة قد قل في الوقت الحاضر بسبب هبوط مستوى الماء الجوفي في الخزانات، وبالتالي جفت معظم العيون، ويعود ذلك إلى تطور وسائل حفر الآبار، وتطور وسائل ضخ المياه منها، وكذلك الزيادة الكبيرة لعدد السكان في المنطقة، وتحسن مستواهم المعيشي؛ الأمر الذي أدى إلى زيادة الطلب على المياه للأغراض المنزلية والزراعية. ولا تتوافر دراسات سابقة تحتوي على معلومات وبينات حديثة تبين عدد العيون في منطقة المدينة المنورة، وكميات المياه المتدفقة منها ونوعية مياهها. كما أن مثل هذه المعلومات أيضاً غير متوافرة لدى وزارة المياه والكهرباء. ولكن تشير وزارة المياه[١] إلى وجود ينابيع مهمة في الصخور البازلتية بالقرب من المدينة المنورة والعلا. ويذكر أحد الباحثين[٢] أن الدراسات الفنية التي أجرتها شركات استشارية لصالح وزارة الزراعة والمياه قد دلت على وجود ١٥٠ عيناً طبيعية متمركزة في عشرة مواقع بمنطقة خيبر، وتستمد مياهها من خزانات صخور البازلت، مؤكداً أن عدد العيون الرئيسة كان يبلغ ٣٠ عيناً، يراوح إنتاجها من المياه (التصريف) بين ٣,٢ و١٩ لتر/ ث. وهذا يعني أن تصريف العيون الرئيسة في خيبر يعد من الرتبة الرابعة والخامسة وفقاً لتصنيف منذر (Meinzer)[٣]. أما بقية العيون الأخرى في خيبر، فإنها كانت تنتج كميات قليلة من المياه. وتعد نوعية مياه العيون في خيبر حسنة، إذ كان يراوح تركيز الأملاح الذائبة فيها بين ٩٥٠ و٢٠٠٠ جزء/مليون.

خامساً ـ العيون غير الطبيعية (الصناعية):

استطاع الإنسان منذ القدم بطريقة هندسية أن يجعل المياه الجوفية تتدفق بشكل تلقائي على سطح الأرض من خلال قنوات أفقية دون الحاجة إلى مضخات. وتعد القنوات التي أنشأها الإنسان لتتدفق المياه منها عيوناً صناعية تسمى بالعيون أو الدبول أو الخيوف أو الأفلاج[٤]. وتتكون العين الصناعية من أربعة أقسام هي: البئر أو الآبار الأساسية التي تمثل منبع العين، والقنوات الأفقية للعين، والآبار المكملة (شفاط ـ خرز) التي يتطلبها حفر القناة وصيانتها، وأخيراً مخرج القناة على سطح الأرض الذي يمثل العين. ولإنشاء العيون الصناعية يتم العمل على حفر بئر أو أكثر لتزويد العين بالمياه في الأجزاء العليا أو الوسطى من الأودية أو في موقع مرتفع نسبياً، وتكون هذه الآبار الأساسية بعمق قد يتجاوز ٢٠ م، كما أنها تخترق كلياً أو جزئياً الطبقة الخازنة للمياه الجوفية. ويحفر من قاع البئر الأساسية نفق أو قناة أفقية تحت سطح الأرض تميل ميلاً خفيفاً يسمح بانسياب المياه بالجاذبية خلال هذه القناة، ويراعى أن يتفق اتجاه قناة العين مع انحدار سطح الأرض المحلي، وتمتد قناة العين نحو الأجزاء السفلى لمسافة قد تصل إلى عدد من الكيلومترات حتى تصل الأمكنة المنخفضة حيث يكون قاع قناة العين عندها أعلى من سطح الأرض، لتخرج المياه متدفقة على السطح. وخلال عملية حفر القناة وعلى طول قناة العين لا بد من حفر آبار رأسية (شفاط ـ خرز) بعد كل بضعة أمتار، الهدف

(١) وزارة الزراعة والمياه. أطلس المياه، مرجع سابق، ٤٣.
(٢) عثمان، مصطفى نوري. الماء ومسيرة التنمية، مرجع سابق، ١١١.
(٣) Op. Cit ., Davis, S.N. and Weiest, J.M De,1966, P 62.
(٤) عثمان، مصطفى نوري. الماء ومسيرة التنمية، مرجع سابق، ١٠٥.

منها أن تمد العاملين على حفر قناة العين بالهواء أثناء الحفر وتسهل عليهم عملية إخراج الأتربة، وتسمح أيضاً بإجراء عمليات التنظيف والصيانة لقناة العين فيما بعد[١].

وتشير وزارة الزراعة والمياه[٢] إلى أن نظام العيون الصناعية ربما انتشر في البداية في مصر وعمان وجنوب الجزيرة العربية في فترة توسع وامتداد الإمبراطورية الفارسية.

تعرف هذه القنوات الصناعية في منطقة المدينة المنورة بالعيون، وتوجد عيون كثيرة في المدينة المنورة وفي العلا وينبع وخيبر وبدر. وتشير الدلائل إلى أن بعض هذه العيون قد أنشئت في عصور ما قبل الإسلام. وكانت تستغل مياهها في الري[٣]. ومن أكثر العيون شهرة في المدينة المنورة عين الأزرق (العين الزرقاء) لعذوبة مائها ولأهميتها في سد احتياجات سكان المدينة المنورة من المياه لفترة تزيد على ثلاثة عشر قرناً. وعرفت بهذا الاسم نسبة إلى مروان بن الحكم الذي أنشأها عام ٥١ هـ/٦٧١ م وكان أزرق العينين[٤]. وتقع البئر الأساسية للعين الزرقاء قرب مسجد قباء جنوب المدينة المنورة، وتتجه قناة العين شمالاً نحو المدينة المنورة، وتعبر سورها القديم من الشمال إلى الجنوب على امتداد المساكن، وتستمر إلى أن تصب في المزارع قرب جبل أحد. وقد جُرّت منها فروع إلى المسجد النبوي وبعض الأحياء.

اهتم جلالة الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - بمسألة توفير مياه الشرب في أرجاء المملكة كافة، خصوصاً في المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث يفد إليهما أعداد كبيرة من الحجاج والمعتمرين. فقد أصدر توجيهاته بالاهتمام والعناية بأوضاع عيون المياه التي كانت تزودهم بمياه الشرب في ذلك الحين، ووجوب المحافظة عليها وتطويرها؛ ففي عام ١٣٤٤ هـ/١٩٢٥ م أمر الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - بتشكيل هيئة مختصة بالعين الزرقاء سميت بهيئة العين الزرقاء لإدارتها والإشراف عليها، وتأمين المياه للسكان المقيمين والزائرين. ورصد لهيئة العين الزرقاء ما تحتاج إليه من أموال لإنجاز أعمالها، فقد حفرت منابعها القديمة واستخدمت فيها الأنابيب المعدنية بدلاً من قنواتها القديمة بهدف حفظ مياه العين من التلوث وإيصالها إلى كل حي بالمدينة[٥]. ولكن الزيادة المستمرة في أعداد السكان وتحسن مستواهم المعيشي في المدينة المنورة صاحبهما زيادة في الطلب على المياه وزيادة في استخراج المياه الجوفية؛ ما أدى إلى انخفاض مستوى الماء الجوفي، الأمر الذي أثر في تدفق المياه تلقائياً من العيون. فقد ذكرت وزارة الزراعة والمياه[٦] أيضاً أن:

«من الأعمال التي قامت بها الهيئة عندما انخفض مستوى ماء العين عن مجراها وعجز مياهها عن الجريان في دبولها إلى المدينة بناء خزانين؛ سعة كل خزان ٧٥٠ م³. واستمرت العناية بالعين الزرقاء بعد وفاة الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - فأنشئ خزان ثالث بسعة ٤٠٠٠ متر مكعب في جنوب غرب مسجد قباء، وتم إنشاء خزانين آخرين ساهما في إيصال المياه إلى المنازل التي لم تصلها المياه في المرحلة الأولى».

وفي ينبع النخل كانت العيون الصناعية في الماضي كثيرة، ولكنها تناقصت، ويوجد منها الآن عين الجابرية وعين الشعثاء وعين

(١) Agnew, Cilive and Anderson, Ewan. Water resources in the arid realm, London: Routledge, 1992, PP.143-145.

(٢) وزارة الزراعة والمياه. أطلس المياه، مرجع سابق، ١٤.

(٣) عمر الفاروق السيد رجب، *المدينة المنورة: اقتصاديات المكان - السكان - المورفولوجية*، (جدة: دار الشروق، ١٩٧٩ م)، ٦٩.

(٤) محمد أحمد الرويثي، ومصطفى محمد خوجلي، «الموارد المائية في المدينة المنورة»، في: *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: محمد أحمد الرويثي، ومصطفى محمد خوجلي، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٨ هـ/١٩٩٨ م)، ٧١.

(٥) وزارة الزراعة والمياه، *تحدٍ وانجاز عبر مئة عام للزراعة والمياه في المملكة العربية السعودية*، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، ١٤١٩ هـ)، ١٠٥.

(٦) المرجع السابق، ١٠٥.

خيف وعين حسين وعين الحربية[١]. ويذكر الخطيب[٢] أن «ينبع النخل غنية بمياه عيونها الجارية والتي يبلغ عددها في وقتنا الحاضر أربعاً وعشرين عيناً، وإن نضب بعضها في سنين ماضية لكن أخذت تعود تباعاً بعد أن شيدت الدولة سد وادي الفرعة وبدأت فعاليته في يوم ١٤٠٥/٢/٨ هـ». أما في بدر فقد أكد البليهشي[٣] أن المنطقة لم تعرف العيون الصناعية إلا في العهد الأموي، فقد كانت تسود الآبار فيها. ومن العيون التي أنشئت في العهد الأموي عين بدر التي قام عليها عدد من المزارع في جهة بدر مما يلي مقبرة الشهداء، وعين إدمان في الجهة المقابلة لها. ويذكر أيضاً أن «ميناء الجار على ساحل البحر الأحمر والذي يبعد ٣٠ كم تقريباً عن بدر كان يسقى من البحيرة وهي عين بوادي (يليل) الذي يسير مخترقاً مدينة بدر. وقد جفت تلك العيون بمرور السنين وصارت المنطقة تعتمد على الآبار في الوقت الحاضر».

وأدى استغلال مياه العيون الصناعية للري دوراً مهماً في الحياة الاقتصادية بمدينة العلا قبل توحيد المملكة. ويذكر نصيف[٤] أن العيون الصناعية جميعها في العلا كانت ميتة، وفي حالة خراب عدا عينين فقط هما: عين تدعل وعين المعلق، مشيراً إلى أن تاريخ إنشاء عين تدعل يعود إلى ما قبل الميلاد. وقد تمكن أهل العلا في نهاية القرن الثالث عشر الهجري وخلال القرن الرابع عشر الهجري من إحياء إحدى وأربعين عيناً، في حين فشلت جهودهم في إحياء إحدى عشرة عيناً أخرى. وقد أورد بياناً بأسماء العيون وتاريخ إحيائها وتاريخ انقطاعها مرتبة من الشمال إلى الجنوب، (جدول ٢٥). ويتضح



آثار موقع عين الجابرية في ينبع النخل



آثار عين خيف في ينبع النخل

(١) عثمان، مصطفى نوري. الماء ومسيرة التنمية، مرجع سابق، ١٠٦.

(٢) الخطيب، عبدالكريم محمود. ينبع: سلسلة هذه بلادنا، مرجع سابق، ١٨.

(٣) محمد صالح البليهشي، *بدر: سلسلة هذه بلادنا*، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٩٩٣ م)، ٢٧.

(٤) عبدالله آدم نصيف، *العلا والحجر: سلسلة هذه بلادنا*، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٩٩٨ م)، ٧٣.

جدول ٢٥

العيون الصناعية في العلا مرتبة من الشمال إلى الجنوب(*)

التسلسل	اسم العين	تاريخ إحيائها (تقريباً)	تاريخ انقطاعها (تقريباً)	التسلسل	اسم العين	تاريخ إحيائها (تقريباً)	تاريخ انقطاعها (تقريباً)
١	العادلية	١٣٤٨ هـ/١٩٢٩ م	١٣٦٩ هـ/١٩٥٠ م	٢٢	صلاح	غير معروف	١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م
٢	فتح الخير	١٣٧٧ هـ/١٩٥٧ م	١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م	٢٣	العوجاء	١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م	١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ م
٣	الزهرة	١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م	١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م	٢٤	الجديدة	١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م	١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م
٤	الصالحية	١٣٤٧ هـ/١٩٢٨ م	١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م	٢٥	المالحة	١٣٣١ هـ/١٩١٣ م	١٣٣٦ هـ/١٩١٨ م
٥	السالمية	١٣٤٧ هـ/١٩٢٨ م	١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م	٢٦	فضية	١٣٦١ هـ/١٩٤٢ م	غير معروف
٦	سهلة	١٣٣٧ هـ/١٩١٩ م	١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م	٢٧	الخميسية	١٣٧٤ هـ/١٩٥٥ م	١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م
٧	العلوية	١٣٦٠ هـ/١٩٤١ م	١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م	٢٨	الفراة	١٣٢٤ هـ/١٩٠٦ م	١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م
٨	المعلية	١٣٢٠ هـ/١٩٠٢ م	غير معروف	٢٩	البحرية	غير معروف	غير معروف
٩	السعة	١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م	١٤٠١ هـ/١٩٨١ م	٣٠	الهبوب	غير معروف	غير معروف
١٠	العطية	١٣١٩ هـ/١٩٠١ م	١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م	٣١	المرادية	غير معروف	غير معروف
١١	الجادة	١٣١٩ هـ/١٩٠١ م	١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م	٣٢	الرزيقية	١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م	١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م
١٢	المبارك	١٣١٤ هـ/١٨٩٦ م	١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م	٣٣	البركة	١٣١٧ هـ/١٨٩٩ م	١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م
١٣	المعلق	غير معروف	١٣٧٠ هـ/١٩٥١ م	٣٤	الحمدية	١٣١٥ هـ/١٨٩٧ م	١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م
١٤	الدحي	غير معروف	١٣٧٣ هـ/١٩٥٤ م	٣٥	المحمودية	١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م	١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م
١٥	الفروة	١٣٣٧ هـ/١٩١٩ م	١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م	٣٦	الحزم	١٣١٣ هـ/١٨٩٥ م	١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م
١٦	ضبعة	غير معروف	١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م	٣٧	الراشدية	١٣٦٧ هـ/١٩٤٨ م	١٣٧٥ هـ/١٩٥٦ م
١٧	الشرقية	خلال القرن الـ ١٣	١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م	٣٨	المنصورة	١٣١٣ هـ/١٨٩٥ م	١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م
١٨	أم الليف	خلال القرن الـ ١٣	١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م	٣٩	اليسيرة	١٣١٣ هـ/١٨٩٥ م	١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م
١٩	كريمة	خلال القرن الـ ١٣	١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م	٤٠	المدينة	١٣٤٨ هـ/١٩٢٩ م	١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م
٢٠	تدعل	لم تنقطع	١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م	٤١	المنشية	١٣١١ هـ/١٨٩٣ م	١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م
٢١	عين جاسم (السبسبي)	غير معروف	غير معروف				

من هذا الجدول أن عين العوجاء وعين الجديدة تعدان أقدم العيون المحياة، فقد تم إحياؤهما عام ١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م. كما يتبين أن العيون جميعها توقفت عن التدفق في الوقت الحاضر، وأن عين ضبعة كانت آخر عين توقفت عن العمل فقد توقف تدفق الماء منها عام ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م. وكانت مياه هذه العيون تستخدم للأغراض المنزلية وري المزارع. وطور أهل العلا نظاماً للري يتم من خلاله توزيع مياه العيون على المزارعين بما

(*) المصدر: عبدالله آدم نصيف، العلا والحجر، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٩٩٨ م)، ٧٥ ـ ٧٨.

يتناسب مع ما يملكه كل مـزارع من مساحة مزروعة، إذ كان كل مزارع يستقبل مياه العين لفترة من الزمن، تسمى كل ٢٤ ساعة وجبة، وكل ١٢ ساعة نصف وجبة، وكل ٦ ساعات ربع وجبة. وكانوا يستخدمون الساعة الشمسية (الطنطورة والعلمان) في التوزيع[١].

سادساً ـ تغذية المياه الجوفية:

إن ارتفـاع أو انخفـاض مستوى المـاء الجوفي في الخزان يعكس الفروق بين كميات المياه الداخلة إليه والخارجة منه. ولكن في كثير من خزانات المياه الجوفية تتحقق درجة معينة من التوازن بين الداخل إليه المتمثل في التغذية (Recharge)، والخارج عنه المتمثل في التصريف (Discharge). وعندما تكون كميات المياه الخـارجة من الخـزان بشكل مستمر أعلى من معـدلات التغذية بسبب السحب الجائر للمياه، فإن ذلك يؤدي إلى خلل في التوازن، واستمرار في انخفاض مستوى سطح الماء فيه حتى ينضب المخزون المائي. ولضمان استمرارية هذا المورد يجب أن يتم العمل على تحقيق التـوازن من خـلال تقليل استخراج المياه منه للأغراض البشرية أو العمل على زيادة معدلات التغذية فيه.

تتغذى المـيـاه الجـوفيـة بمـيـاه الأمـطـار والسيول. وتعد التغذية بالمياه الجارية أهم أنواع التغذية(Recharge Mechanisms) لخزانات رواسب الأودية لأن لها نفاذية عالية تسمح بترشيح(Infiltration) كميات كبيرة من المياه[٢]؛ فخزانات رواسب الأودية وما تحتها من صخور مجواة وشقوق تمتد في الغالب على مساحات صغيرة، وتعتمد في تغذيتها على الأمطار المحلية الحالية. وعلى الرغم من



العيون الطبيعية في محافظة العلا

أن تقدير تغذية المياه الجوفية يعد من الأمور المهمة عند تقييم الموارد المائية في خزانات المياه الجوفية في البيئات الجافة، إلا أنه في الوقت نفسه من الأمور الصعبة.

تتوافر معلومات قليلة جداً عن تقديرات تغذية المياه الجوفية في منطقة المدينة المنورة؛ ففي دراسة حديثة يقدر متوسط تغذية المياه الجوفية في وادي العقيق بنحو ٠,٧٢ مـم في السنة؛ أي بنسبة ١,٥٪ من الأمطار السنوية[٣]. وبناء على هذا التقدير فإن حجم المياه التي تغذي الخزان تعتمد على مساحة حوض التغذية. فـإذا كانت مساحة حوض التغذية ١٠٠٠ كـم^{٢}، سوف تتم تغذيته بنحو ٧٢٠٠٠٠ م^{٣} في السنة. وعند مقارنة هذه النسبة بتقديرات تغذية المياه الجوفية في المملكة في الدراسات السـابقـة التـي تـراوح بيـن ١٥ و٢٥٪ من

(١) موقع العلا على الشبكة العالمية: www.al-ola.com

(٢) Abdulrazzak, M.J., et al., "Estimation of natural groundwater recharge under Saudi Arabian arid climatic conditions". In: Simmers, I. (ed.), Estimation of natural groundwater recharge, 1988, pp. 125-138.

(٣) Abdulghaffar S. Bazuhair, et. al., 2002, P.340.



سد القصيبة (سد البنت)



سد المشقوق

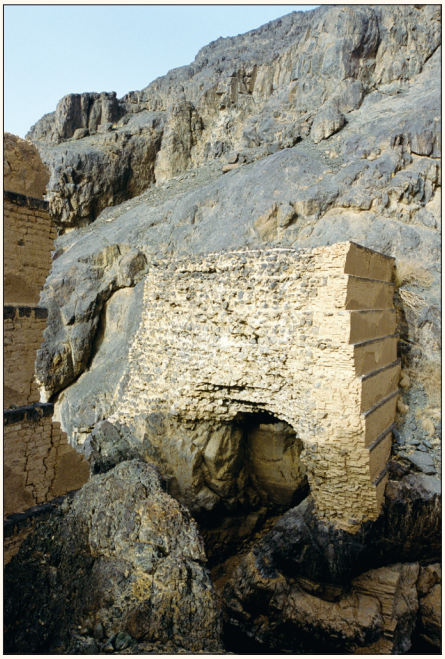

سد العاقول

الأمطار السنوية يمكن القول إنه تقدير بخس (Underestimated). وعلى الرغم من أن هذا التقدير قد يؤخذ مؤشراً للتغذية، إلا أنه يعد مؤشراً غير دقيق لأنه قدر بطريقة ميزان كتلة الكلوريد (Chloride-Mass Balance CMB)[١] التي لا تتوافر شروطها[٢] في وادي العقيق، إذ بنيت طريقة ميزان كتلة الكلوريد على عدد من الافتراضات؛ منها أن مياه الأمطار تتسرب مباشرة لتغذي الماء الجوفي في الخزان، وأنه لا يوجد جريان سطحي (سيول) من أو إلى الأمكنة خارج حدود الخزان، وأنه لا توجد مصادر أخرى للكلوريد. وهذه الشروط لا تنطبق على وادي العقيق لأن خزانات المياه الجوفية فيه تتغذى بشكل رئيس من مياه السيول ومأهولة بالسكان وتنتشر فيه الحقول الزراعية، وهذا يؤثر في تركيز الكلوريد في المياه الجوفية وبالتالي تؤثر في تقدير تغذية المياه الجوفية.

إن التغذية الطبيعية للمياه الجوفية في منطقة المدينة المنورة قليلة جداً بسبب قلة كميات الأمطار وتذبذبها، ولذا فقد تدخل الإنسان في منطقة المدينة المنورة منذ القدم، وعمل على تعزيز الموارد المائية، وتخفيف الضغط عليها بزيادة كميتها من خلال إقامة السدود على الأودية لحجز مياه السيول فيها[٣]. وتنشأ السدود على الأودية موسمية الجريان لغرض معين أو

(١) التغذية = تركيز الكلوريد في مياه الأمطار ÷ تركيز الكلوريد في المياه الجوفية × كمية الأمطار السنوية.

(٢) Warren, W. Wood and Sanford, Ward E. "Chemical and Isotopic Methods for Quantifying Ground-Water Recharge in a Regional, Semiarid Environment", Ground Water, vol 33, 1995, pp. 458-468.

(٣) وزارة الزراعة والمياه. أطلس المياه، مرجع سابق، ١٤.

جدول ٢٦

السدود القديمة في منطقة المدينة المنورة(*)

التسلسل	اسم السد	الموقع	وصف السد
١	القصيبة/ سد البنت	خيبر	يقع جنوب شرق مدينة خيبر بمسافة تقارب ٢٥ كم، وقد شيد على وادي الغرس، ويعد من أكبر السدود الأثرية في المملكة العربية السعودية، إذ يبلغ طوله نحو ٢٠٥ م وارتفاعه ٣٠ م. وقد بني من الحجارة بشكل هرمي، إذ إن قاعدته عريضة وتقل بارتفاعه. وقد طليت جهته المحاذية لحجز المياه بالملاط. وفي الوقت الحاضر حالته غير جيدة لأن نحو ربع السد مفتوح.
٢	الحصيد	خيبر	يقع جنوب مدينة خيبر بمسافة تقارب ١٤ كم. وقد بني من الحجارة ويبلغ طوله نحو ٦٠ م وارتفاعه نحو ٦ م. وحالة السد جيدة في الوقت الحاضر، إذ عملت وزارة الزراعة والمياه عام ١٣٩٤هـ الموافق ١٩٧٤ هـ/١٩٧٥ م على ترميمه.
٣	المشقوق	خيبر	يقع شمال خيبر على أحد روافد شعيب حلحال. وقد بني من الحجارة ويبلغ طوله نحو ١٠٠ م وعرضه نحو ١٠ م.
٤	الزايدية	خيبر	يقع شمال شرق مدينة خيبر، وقد بني بالحجارة على مضيق وادي الزايدية بطول نحو ٢٥ م وعرض جدرانه نحو ٨ م وارتفاعه ٤ م. وتوجد على صخوره من الجهة الجنوبية نقوش إسلامية تعود إلى القرن الأول الهجري الأمر الذي ساعد على تحديد الفترة التاريخية لهذا السد.
٥	العاقول/ سد معاوية	المدينة	يقع جنوب قرية العاقول إلى الشرق من المدينة المنورة بمسافة تقارب ٢٥ كم. وقد أنشئ هذا السد على وادي الخنق الذي يربط وادي قناة بقاع حضوضا. وقد بني من الحجارة بطول يبلغ نحو ٣٠ م ويبلغ ارتفاعه نحو ٢٠ م وعرض جداره نحو ١٠ م عند القاعدة. وقد عثر على حجر التأسيس وعليه اسم معاوية بن أبي سفيان، ما يعزز تحديد الفترة التاريخية لهذا السد. وسد معاوية من النوع المركب، إذ يوجد آثار سد آخر على مقربة منه ولكن أكثر طولاً وأقل ارتفاعاً كان يحجز مزيداً من مياه السيول التي تفيض من بحيرة السد الأول. وقد تعرض السد الرئيس والسد المساند إلى انهيارات في منتصفيهما.
٦	العقيق	المدينة	يقع جنوب المدينة المنورة بمسافة تقارب ١٥ كم وذلك عند دائرة عرض ٢٥ َ ٢٤ ° شمالاً وخط طول ٣٥ َ ٣٩ ° شرقاً، ويقدر ارتفاعه بنحو ٨ م.
٧	سدود أخرى	المدينة	سد وادي السد وسد وادي رانوناء الذي يقع جنوب المدينة المنورة بالقرب من جبل عير. وقد بناه عبدالله بن عمرو بن عفان.

لأكثر من غرض، فقد ينشأ السد بهدف الاستفادة من مياه السيول لأغراض الشرب ولري المزارع أطول مدة ممكنة، أو بهدف زيادة كميات المياه التي تغذي خزانات المياه الجوفية أو للحد من أخطار السيول على القرى والمدن، أو للأهداف السابقة مجتمعة. ويوجد في المدينة المنورة وخيبر عدد من السدود القديمة أنشئ بعضها في العصور الإسلامية المبكرة وبعضها الآخر ربما شيد قبل الإسلام. وقد كونت خلفها بحيرات كبيرة تحتفظ بالمياه لمدة طويلة، ما أدى إلى رفع مستوى المياه في الآبار والعيون[١]، وكان يستفاد منها لري المزارع بتوصيل مياهها من خلال فتحات تصريف مياه السدود وقنوات توصل المياه إلى المزارع[٢]. ويبين (جدول ٢٦) أهم السدود القديمة الباقية آثارها في منطقة المدينة المنورة.

(١) إمارة منطقة المدينة المنورة. موقع إمارة المدينة المنورة على الشبكة العالمية، مرجع سابق.

(٢) وزارة الزراعة والمياه. أطلس المياه، مرجع سابق، ١٤.

(*) المصدر: وزارة الزراعة والمياه، أطلس المياه في المملكة العربية السعودية، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، ١٩٨٤ م)، ١٥؛ سعد بن عبدالعزيز الراشد وآخرون، آثار منطقة المدينة المنورة، (الرياض: وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، ٢٠٠٣ م)، ١٤٧ ـ ١٥٥؛ موقع إمارة منطقة المدينة المنورة على الإنترنت: www.imaratalmadinah.gov.sa

جدول ٢٧

السدود في منطقة المدينة المنورة(*)

التسلسل	اسم السد	الموقع	نوع السد	الغرض من السد	الطول (م)	الارتفاع (م)	سعة التخزين م٣	تاريخ التنفيذ
١	بطحان	المدينة	خرساني	للتحكم	٢٦٦	١٢	٥٠٠٠٠٠	١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م
٢	قران	المهد	ترابي	للتغذية	٥٠٠	٥	٥٠٠٠٠٠	١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م
٣	الترعة	بدر	خرساني	للتحكم	٤٥٠	١٢	٢٠٠٠٠٠٠	١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م
٤	الغاب	المدينة	ترابي	للتغذية	٦٥٠	١١	١٠٠٠٠٠٠	١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م
٥	العاقول	المدينة	خرساني	للتغذية	٤٥٠	١١	٧٠٠٠٠٠٠	١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م
٦	الشرائع	المدينة	ترابي	للتغذية	٥٠٠	٨	٨٨٠٠٠٠	١٤٠١ هـ/١٩٨١ م
٧	العيص	ينبع	ترابي	للتغذية	٦٠٠	١٥	١٠٠٠٠٠٠	١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م
٨	الفرعة	ينبع	خرساني	للتحكم	٦٠٠	١٣,٥	٢٠٠٠٠٠٠٠	١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م
٩	قصيباء	الحناكية	خرساني	للتحكم	٦٨٠	٤	١٠٠٠٠٠٠	١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م
١٠	عروه	المدينة	خرساني	للتحكم	١٧٠	٥,٥	٩٥٠٠٠٠	١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م
١١	أبوغاشا	المدينة	ركامي	للتغذية	١٠٥	٨	١٦٠٠٠٠	١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م
١٢	أبوحنك	المدينة	خرساني	للتغذية	٤٥	٨	٨٠٠٠٠	١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م
١٣	بيضان	المدينة	ترابي	للتغذية	٤٧٠	٩	٢٢٠٠٠٠٠	١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م
١٤	قاع حضوضا	المدينة	ترابي	للتحكم	٤٩٠	٧	٤٠٠٠٠٠٠	١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م
١٥	ملل	المدينة	ترابي	للتغذية	٤٣٠	٩	٣٠٠٠٠٠٠	تحت التنفيذ
١٦	الصلحانية	المدينة	ترابي	للتغذية	١٠٠	١٣	٥٠٠٠٠٠	تحت التنفيذ

في الوقت الحاضر بلغ عدد السدود في مختلف مناطق المملكة أكثر من ٢٠٧ سدود منها ١٦ سداً ٨٪ في منطقة المدينة المنورة. ويبين (جدول ٢٧) خصائص السدود في المنطقة والهدف الرئيس لإنشائها وتاريخ إنشائها. ويتضح من هذا الجدول أن تسعة من السدود ٥٦٪ في منطقة المدينة المنورة أنشئت بهدف زيادة تغذية المياه الجوفية. كما أن السدود التي أنشئت بهدف الحد من خطورة الفيضانات تؤدي دوراً كبيراً في زيادة التغذية سواء المياه التي يتم ترشيحها أثناء حجزها في بحيرة السد أو المياه التي يتم ترشيحها أثناء جريان مياه السيول في بطون الأودية؛ لأن السد يطيل مدة جريان السيول وبالتالي يزيد من كميات المياه التي تغذي الخزانات الجوفية. فسد الفرعة بينبع النخل الذي أنشئ بهدف التحكم في المياه الجارية والحد من خطورة الفيضانات ساعد على زيادة كميات مياه التغذية وارتفاع مستوى الماء الجوفي في الخزانات[١].

(١) الخطيب، عبدالكريم محمود. ينبع: سلسلة هذه بلادنا، مرجع سابق، ٨١.

(*) المصدر: وزارة الزراعة والمياه، السدود في المملكة العربية السعودية، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، د.ت)، ١٣ - ١٩.

سابعاً ـ تحلية المياه المالحة:(*)

لا تكفي الموارد المائية التقليدية لسد احتياجات السكان المتزايدة من المياه ولا سيما للأغراض المنزلية في المدن الكبيرة. ولمواجهة الطلب المتزايد على المياه في المدن عملت المؤسسة العامة لتحلية المياه المالحة على توفير المياه من خلال تحلية المياه المالحة التي تسمى أحياناً بالإعذاب. ويمكن تعريف تحلية المياه المالحة بأنها عملية فصل الأمـلاح من المـاء وإزالتهـا. وتتم إزالة الأملاح بإحدى الطرق التي من أكثرها استخداماً التبخير والتجميد وأغشية التناضح العكسي وأغشية الفرز الكهربائي والتبادل الأيوني. وقد عملت المؤسسة على التوسع في إنشـاء محطات التحلية لسد حاجات مدن المملكة من المياه العذبة حتى أصبحت المملكة من الدول الرائدة في هذا المجال، إذ بلغ إنتاج محطات التحلية فيها عام ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣ م أكثر من بليون متر مكعب.

توجد في منطقة المدينة المنورة محطة رئيسة لتحلية المياه مقامة في محافظة ينبع على ساحل البحر الأحمر. وتزود هذه المحطة محافظة ينبع والمدينة المنـورة بالمياه. ويبين (شكل ٨) كميات المياه المنتجة من هذه المحطة للفترة من ١٤١٠ ـ ١٤٢٤ هـ/ ١٩٩٠ ـ ٢٠٠٣ م. ويتضح من هـذا الشكل التـزايد الواضـح في الإنتـاج السنوي من المياه في محطة ينبع، إذ كان الإنتاج فيها عام ١٤١٠ هـ/١٩٩٠ م نحو ٣٥٠٠٠٠٠٠ م^3 في حين بلغ عـام ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣ م نحو ١٢٥٠٠٠٠٠٠ م^3. وكانت المدينة المنورة تحصل على احتيـاجاتهـا مـن المـيـاه من



سد بطحان



سد العيص

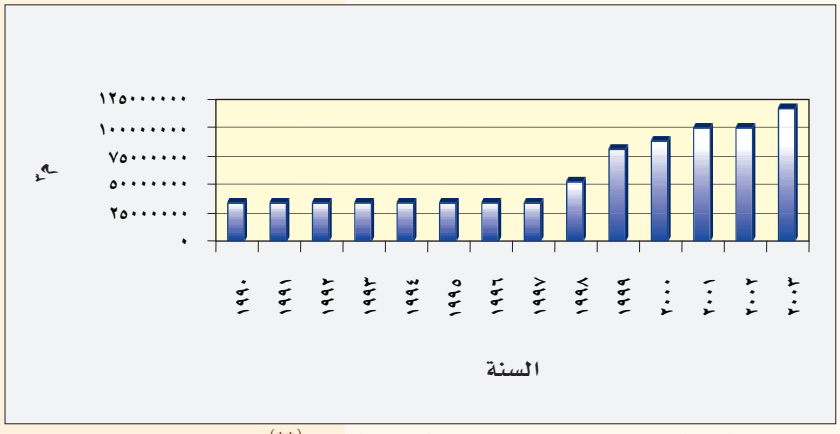

شكل ٨: كميات مياه التحلية السنوية المنتجة في محطة ينبع(**)

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب السـادس، (الخـدمـات والمـرافـق التنموية): الفصل السادس.

(**) مصدر البيانات: التقارير السنوية للمؤسسة العـامة لتحلية المياه المالحة.

المصادر التقليدية المتمثلة في المياه الجوفية، ولكن في السنتين الأخيرتين أصبح معظم احتياجاتها من المياه يتم الحصول عليها من مياه البحر المحلاة.

ثامناً ـ إعادة استخدام المياه:

تعد مياه الصرف الصحي من الملوثات الرئيسة للبيئة إذا لم تتم معالجتها؛ ولذا يتم العمل على معالجتها في المناطق المختلفة بهدف الحد من آثارها السلبية على البيئة وعلى الصحة العامة، ولكن معالجتها في البيئات الجافة لا يقتصر على تحقيق الهدف السابق، بل تحقق هدفاً آخر هو توفير كميات إضافية من المياه التي يمكن استخدامها للأغراض المختلفة بما في ذلك أغراض الشرب إذا تمت معالجتها وتنقيتها وتطهيرها من الملوثات جميعاً، ما يخفف الضغط على الموارد المائية الأخرى.

تتم إزالة ملوثات مياه الصرف الصحي المتمثلة بصورة رئيسة في المواد الصلبة والمواد العضوية والكائنات الدقيقة والمخلفات الكيميائية من خلال عدد من العمليات الطبيعية والكيميائية والحيوية. وتمر معالجة مياه الصرف بأربع مراحل حسب درجة المعالجة هي: المعالجة التمهيدية والمعالجة الأولية والمعالجة الثانوية (البيولوجية) والمعالجة المتقدمة ثم مرحلة التطهير (التعقيم). ولا تصلح المياه المعالجة في مرحلتي المعالجة التمهيدية والمعالجة الأولية لأي استخدام. أما مياه مرحلة المعالجة الثانوية فيمكن أن تستخدم للأغراض الزراعية بعد تطهيرها بالكلور على أن يكون تركيز عناصر المواد الضارة والسامة (الزرنيخ والسيانيد والزئبق والرصاص وغيرها) ضمن الحدود المسموح بها. وأخيراً مرحلة المعالجة المتقدمة التي تستخدم فيها طريقة أو أكثر مثل التناضح العكسي والتبادل الأيوني والأكسدة الكيميائية والتعقيم بالكلور أو الأوزون للحصول على مياه نقية صالحة للاستخدامات كافة، بما في ذلك الشرب[1]. وتوجد في المدينة المنورة محطة واحدة لمعالجة مياه الصرف الصحي يعاد استخدام جزء من مياهها. وتتم معالجة المياه في هذه المحطة بعملية الحمأة المنشطة إضافة إلى عملية التطهير، ويبلغ متوسط تدفق المياه منها نحو ١٠٠٠٠٠ م^{٣} في اليوم، ويستخدم جزء منها للري الزراعي ولري المسطحات الخضراء[2].

(١) عبدالرحمن إبراهيم العبدالعالي، «معالجة مياه الصرف الصحي»، *العلوم والتقنية*، مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، ع١٢، (الرياض: ١٩٩٠ م)، ٢٧ ـ ٣١.

(٢) خالد بن حمد الضويلع، وعبدالله بن محمد الرحيلي، «إعادة استخدام مياه الصرف الصحي المعالجة»، *ندوة المياه تحدٍ إستراتيجي يواجه الإنسانية جمعاء*، (الرياض: مركز الملك عبدالعزيز التاريخي، ١٤٢٣ هـ)، ٩، ١٠.

الفصل السابع

السـكان

أولاً نمو السكان

ثانياً عناصر النمو السكاني

ثالثاً التوزيع الجغرافي

رابعاً التركيب السكاني

إعداد

الأستاذ الدكتور محمد شوقي بن إبراهيم مكي

أستاذ جغرافيا العمران

أولاً ـ نمو السكان:

لا توجد تقديرات تاريخية لعدد سكان منطقة المدينة المنورة على عكس المدينة المنورة (المدينة) التي تتوافر عنها تقديرات وافرة لنمو السكان؛ لأن سكان المدينة المنورة يمثلون نسبة مرتفعة من سكان المنطقة بلغت ٣٨٪ في سنة ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، ثم ٥٦٪ في سنة ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م؛ ولذا فإن نمو سكانها يمثل الاتجاه العام لنمو سكان المنطقة.

ويمكن تقسيم نمو سكان المدينة المنورة إلى أربع مراحل رئيسة هي:

أ ـ سكان المدينة المنورة من فجر الإسلام ١ ـ ١٣٢هـ /٦٢١ ـ ٧٤٩ م:

انتشر في منطقة المدينة المنورة قبل الإسلام عدد من القبائل والحضارات مثل ثمود، ودادان، ولحيان، والأنباط في الحجر في الخريبة، ومدائن صالح التي اشتهرت بعبادة الأصنام مثل (ود) الذي عبد في شمال منطقة المدينة وفي مكة المكرمة واليمن. وقد كانت هذه أمكنة تلتقي فيها ثقافات عربية تجمعت من الجنوب والشمال والشرق والغرب، وتمركزت في الحجر والعلا، واشتهرت هذه الممالك والحضارات بفن النحت، فأقامت الأبنية والحدائق في سهول الحجر. ولقد مرت هذه المنطقة بفترة ركود قبل الإسلام فيما يسمى عصر الجمل أو عصر الظلام الذي استمر من القرن ٣ ـ ٧ م، إذ نشبت النزاعات والحروب بين القبائل، ولم تقم بينها وحدة سياسية تجمع شتاتها تحت زعامة واحدة[١].

وتمركز أهم تجمع سكاني في المنطقة حول موقع المدينة المنورة الحالي، وكان هؤلاء السكان قبل الإسلام يتألفون من بعض القبائل العربية وعلى رأسها الأوس والخزرج، وبعض اليهود وعلى رأسهم بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة[٢].

ومع ظهور الإسلام توحدت المجموعات السكانية المحلية مع المهاجرين في أمة واحدة أصبح لها انتماء وشعور وطني واحد.

وقُدّر عدد الأوس والخزرج عند ظهور الإسلام بنحو ٢٠٠ ألف نسمة، واليهود بنحو ٩٠٠٠ نسمة؛ أي بإجمالي سكان نحو ٢٠٩ آلاف نسمة، ولعل ما يؤكد تفوق عدد السكان العرب انتشارهم على مساحات واسعة في عالية المدينة وقربان وقباء ومعظم سافلتها. وقد يكون في التقدير السابق بعض المبالغة[٣]؛ إلا أن تقدير سكان المدينة المنورة مع ظهور الإسلام لم يتجاوز ٢١ ألف نسمة، ولكن مع استقرار الأوضاع السياسية والأمنية للدولة الإسلامية تدفق المهاجرون إليها، ما ضاعف من عدد السكان حتى وصل إلى نحو ٦٠ ألف نسمة عند وفاة الرسول ﷺ في سنة ١١ هـ /٦٣٢ م. ومع تحول مركز الحكم بعد عهد الخلافة الراشدة إلى دمشق، ظلت المدينة المنورة مركز جذب للزوار وطلاب العلم. ولا توجد تقديرات للسكان خلال هذه الفترة، وإن كانت بعض المصادر تشير إلى أن عدد سكان وادي العقيق وحدهم بلغ ٤٠ ألف نسمة في إمارة سعيد بن العاص[٤].

ب ـ سكان المدينة المنورة خلال العهدين العباسي والمملوكي ١٣٢ ـ ٩٢٣هـ /٧٤٩ ـ ١٥١٧ م:

توالت الثورات وقمعها في العهد العباسي في المدينة المنورة؛ ما أدى إلى تدهور عدد من المباني والمزارع التي اشتهرت بها المدينة المنورة. وتناقص سكان المدينة في القرن ١٠/٤ م إلى أقل من نصف حجم سكان

(١) أمين مدني، *التاريخ العربي وبدايته*: الكتاب العربي السعودي. ط٢، (جدة: تهامة، ١٤٠١ هـ)، ٨٣، ١٠٣، ١٦٩، ٢٢١، ٢٤٧، ٢٥١، ٢٥٢.

(٢) أحمد سوسة، *العرب واليهود في التاريخ: حقائق تاريخية ظهرت في المكتشفات الأثرية*. ط٤، (دمشق: العربي للإعلان والنشر والطباعة والترجمة، ١٣٩٥ هـ)، ٨٩٦.

(٣) محمد العيد الخطراوي، *المدينة المنورة في صدر الإسلام: الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، دراسات حول المدينة المنورة*، (المدينة المنورة: مكتبة دار التراث، ١٤٠٤ هـ)، ١٦، ١٧؛ محمد شوقي بن إبراهيم مكي، *سكان المدينة المنورة*، (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٥ هـ)، ٢٩.

(٤) محمد بن أحمد المطري، *التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة*، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٣٧٢ هـ)، ٦٣.

مكة المكرمة[1]. وفي نهاية القرن ٩ هـ/١٥ م امتد الزحف السكاني نحو الغرب[2]. وفي القرن ١٠ هـ/١٦ م ذكر فارثيما وجود نحو ٣٠٠ منزل فقط داخل أسوار المدينة المنورة؛ ما يعني الانخفاض الكبير خلال هذه الفترة[3].

ج ـ سكان المدينة المنورة خلال العهد العثماني ٩٢٣ ـ ١٣٣٧هـ /١٥١٧ ـ ١٩١٨ م:

حظيت المدينة المنورة في هذا العصر، خصوصاً في فترة حكم السلطان سليمان ٩٢٦ ـ ٩٧٤ هـ/١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م باهتمام كبير، وبخاصة فيما يتعلق بعمارة المسجد النبوي الشريف وسور المدينة. وقد قدر بعض الرحالة عدد السكان خلال هذه الفترة بين ١٦ و٢٠ ألف نسمة. وقد كان لنمو طرق المواصلات في المدينة المنورة، ولا سيما بعد بناء الخط الحديدي الحجازي الذي انتهى العمل منه في رجب ١٣٢٦ هـ/ أغسطس ١٩٠٨ م وافتتح في ذلك الشهر، أثر كبير في نمو عدد السكان؛ إذ قدر عددهم في هذه السنة بنحو ٣٠ ألف نسمة، وازداد إلى نحو ٨٠ ألف نسمة في سنة ١٣٣٢ هـ/١٩١٤ م، (جدول ٢٨). إن هذا النمو يعني أن عدد السكان قد ازداد خلال ٣٨ سنة بين ١٢٩٤ و١٣٣٢ هـ/١٨٧٧ و١٩١٤ م بنحو ثلاثة أضعاف بنسبة زيادة سنوية مقدارها نحو ١٠٪، بل ازداد عدد السكان خلال ست سنوات فقط هي سنوات تشغيل الخط الحديدي بنسبة زيادة سنوية مقدارها ٢٧,٨٪.

وبعد الحرب العالمية الأولى وانتهاء الخلافة العثمانية على الوطن العربي، تناقص عدد السكان إلى نحو ٤٠ ألف نسمة، بل وتقدره بعض المراجع بنحو ١٥ ألف نسمة فقط في سنة ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٨ م[4]. وأثناء النزاع بين الملك عبدالعزيز والشريف حسين للسيطرة على الحجاز انخفض عدد سكان المدينة إلى نحو ٦٠٠٠ نسمة فقط وكان ذلك عام ١٣٤٣ هـ/ ١٩٢٥ م[5].

د ـ سكان المدينة المنورة خلال العهد السعودي من عام ١٣٤٤هـ /١٩٢٦ م حتى الوقت الحاضر:

ترجع أقدم المعلومات السكانية عن هذه الفترة إلى ما كتبه فيلبي عن رحلته إلى المدينة المنورة في عام ١٣٥٠ هـ/١٩٣١ م، وقد قدر عدد السكان بنحو ١٥ ألف نسمة، (جدول ٢٨). وأخذ يتزايد عدد السكان تدريجياً حتى وصل إلى ٧١٩٩٨ نسمة خلال التعداد السكاني الأول في المملكة في ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٢ م. وتعني هذه الأرقام أن عدد السكان ازداد بنسبة زيادة سنوية تقدر بنحو ١٢٪ خلال الفترة من ١٣٥٠ ـ ١٣٨٢ هـ/ ١٩٣١ ـ ١٩٦٢ م وفي ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م قدر عدد السكان بنحو ١٣٦٥٥٧ نسمة، أي بنسبة زيادة سنوية تصل إلى نحو ١٠٪ بين ١٣٨٢ و١٣٩١ هـ/ ١٩٦٢و١٩٧١ م. ومع أن هذه النسب تشير إلى النمو السريع لسكان المدينة المنورة، إلا أن هؤلاء السكان يشكلون فقط ٢,٣٪ من مجموع سكان المملكة. ولعل هذه النسبة المنخفضة تعزى إلى وجود عدد من المراكز العمرانية الأخرى في المملكة التي تجذب السكان مثل مدينتي الرياض وجدة اللتين كانتا تضمان نحو ٧٪، ٦٪ من سكان المملكة على التوالي.

وتوالت الزيادات الكبيرة في عدد السكان حتى بلغ ٦٠٨٢٩٥ نسمة في سنة ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م، و٨١٧١٣٧ نسمة في سنة ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م[6]، (جدول ٢٨). وتعني هذه

(١) شمس الدين المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، (بيروت: مكتبة خياط، ١٣٢٥ هـ)، ٨٠.

(٢) نور الدين علي بن أحمد السمهودي، *وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى*، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٤ هـ)، جـ٤، ٧٧.

(٣) مكي، محمد شوقي بن إبراهيم. سكان المدينة المنورة، مرجع سابق، ٣٣.

(٤) علي حافظ، *فصول من تاريخ المدينة المنورة*، (جدة: دار المدينة للطباعة والنشر، ١٤٠٥ هـ)، ٤٩.

(٥) مكي، محمد شوقي بن إبراهيم. سكان المدينة المنورة، مرجع سابق، ٣٨.

(٦) وزارة التخطيط، مصلحة الإحصاءات العامة، *البيانات التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣ هـ*، (الرياض: وزارة التخطيط، ١٤١٨ هـ)، ٦؛ استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى، ومكتب عبدالله بخاري، *مشروع دراسة المخطط الاقليمي لمنطقة المدينة المنورة، المخطط الهيكلي للمحافظات*، (المدينة المنورة: أمانة المدينة المنورة، ١٤٢٠ هـ)، تقرير رقم ١/ ٢/، ٤ ـ ٨.

جدول ٢٨

التطور العددي لسكان المدينة المنورة(*)

السنوات	عدد السكان	المصدر	الزيادة السنوية (٪)(**)
١ هـ/٦٢٢ م	٢١٠٠٠	إدريس، مكي	-
١١ هـ/٦٣٢ م	٦٠٠٠٠	الكتاني	١٨,٦
٩٠٨ هـ/١٥٠٢ م	٣٠٠٠	فارثيما (Ludovico de Varthema)	٠,١-
١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م	١٦٠٠٠ - ٢٠٠٠٠	بوركهارت (Burckhardt)	١,٦
١٢٣٦ هـ/١٨٢١ م	١٨٠٠٠	سادلر (Sadler)	٠,٠
١٢٧٠ هـ/١٨٥٤ م	١٦٠٠٠	برتون (Burton)	٠,٣-
١٢٩٤ هـ/١٨٧٧ م	٢٠٠٠٠	جون كين (Keane)	١,١
١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م	٣٠٠٠٠	وافل (Wavell)	١,٦
١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م	٥٦٠٠٠	إبراهيم رفعت باشا	٤٣,٣
١٣٣٢ هـ/١٩١٤ م	٨٠٠٠٠	فيلبي	١٠,٧
١٣٣٥ هـ/١٩١٧ م	٣٠٠٠٠	مصطفى لمعي، اعتماداً على تقرير روبرت ماثيو	٢٠,٨
١٣٣٦ هـ/١٩١٨ م	١٥٠٠٠	علي حافظ	٥٠,٠-
١٣٤٣ هـ/١٩٢٤ م	٦٠٠٠	رتر (Rutter)	٨,٦-
١٣٥٠ هـ/١٩٣١ م	١٥٠٠٠	فيلبي	٢١,٤
١٣٧٩ هـ/١٩٥٩ م	٤٠٠٠٠	ليبسكي (Libsky)	٥,٨
١٣٨٢ هـ/١٩٦٢ م	٧١٩٩٨	التعداد السكاني الأول	٢٦,٧
١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م	٩٠٠٠٠	سوغريا (Sogreah)	٤,٢
١٣٩١ هـ/١٩٧١ م	١٣٦٥٥٧	روبرت ماثيو وجونسون مارشال	١٧,٢
١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م	١٩٨١٨٦	التعداد السكاني الثاني	١٥,٠
١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م	٣١١٢٨٤	مصلي وشركاه	١٤,٣
١٤٠٧ هـ/١٩٨٧ م	٥٠٠٠٠٠	النطاق العمراني	٦,٤
١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م	٦٠٨٢٩٥	التعداد السكاني الثالث	٣,٦
١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م	٨١٧١٣٧	استشاري تضامن	٥,٧
١٤٢٥هـ /٢٠٠٤ م	٩١٩٨٣٨	التعداد السكاني الرابع	٢,١

الأرقام أن المدينة المنورة تجاوزت النصف مليون نسمة في العقد الثاني من القرن الخامس عشر الهجري، وهي تقترب الآن حثيثاً لتكون مدينة مليونية. ويوضح (شكل ٩) تذبذب تقديرات حجم سكان المدينة المنورة، وأن الانتظام بدأ منذ الثمانينيات من القرن الرابع عشر الهجري، و(شكل ١٠) ربما يكون أكثر تمثيلاً لنمو سكان المدينة المنورة

(*) المصادر: محمد شوقي بن إبراهيم مكي، سكان المدينة المنورة، (١٤٠٥ هـ)، ٤٢؛ مصلحة الإحصاءات العامة، التعداد العام للسكان والمساكن لعام (١٣٩٤ هـ)، (١٣٩٧ هـ)، ١؛ مصلحة الإحصاءات العامة، البيانات التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام (١٤١٣ هـ)، (١٤١٨ هـ)، ٦؛ استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى، تقرير ٢/١، ٤ - ٨، (١٤٢٠ هـ)؛ مصلحة الإحصاءات العامة، النتائج الأولية للتعداد العام للسكان، (١٤٢٥ هـ)، ٧١.

(**) النسب من حساب الباحث.

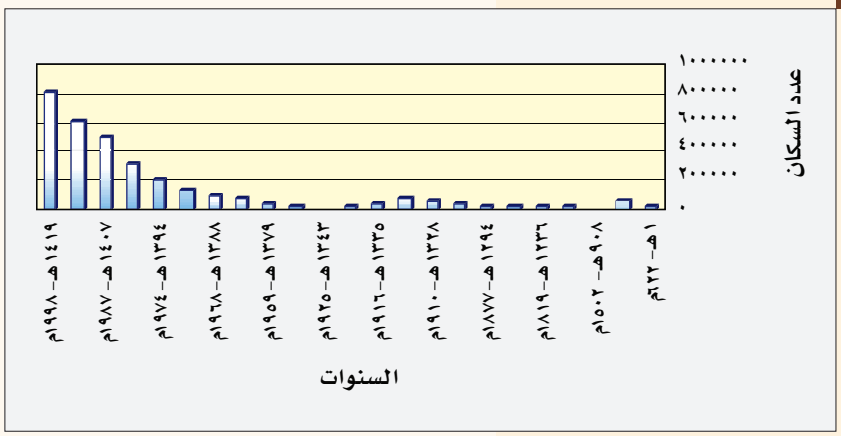

شكل ٩: نمو عدد السكان في المدينة المنورة (بالألف) عام ١ ـ ١٤١٩ هـ/٦٢٢ ـ ١٩٩٨ م

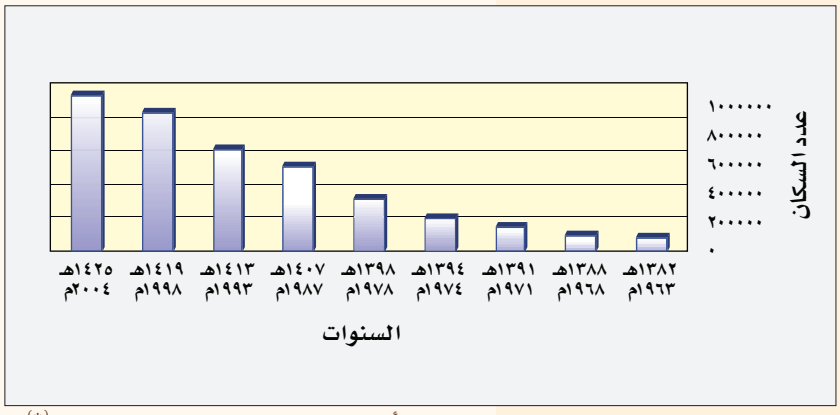

شكل ١٠: نمو عدد السكان في المدينة المنورة (بالألف) عام ١٣٨٢ ـ ١٤٢٥ هـ /١٩٦٣ ـ ٢٠٠٤ م(*)

لاعتماده على تعدادات سكانية، ومسوحات عينات تعتمد الأسلوب العلمي الصحيح. وعلى الرغم من هذا الانتظام فإن نسبة الزيادة السنوية لم تكن بالقوة نفسها، إذ راوحت بين ٥,٧٪ في العام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م ونحو ١٧٪ في العام ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م. ولعل ذلك يعود إلى اختلاف برامج التنمية وتوجهاتها من فترة إلى أخرى.

وعلى مستوى المنطقة والمحافظات لم تتوافر البيانات إلا في تعدادات: ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م، ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م، ومسح ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م التي تشير إلى نمو السكان واحتلال المدينة المنورة والمراكز التابعة لها المرتبة الأولى، (جدول ٢٩)، مع ملاحظة زيادة التركز في المدينة المنورة، واحتلال محافظة ينبع المرتبة الثانية مع تزايد نصيبها من السكان في عامي ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م، ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م مقارنة بعام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، وتقارب نصيب المحافظات الأخرى من السكان بنسبة نحو ٣ ـ ٤٪ من مجموع سكان المنطقة. وقد كان أكبر نمو عددي في المدينة المنورة والمراكز التابعة لها، إذ تضاعفت أكثر من ثلاث مرات خلال ٣٠ سنة ١٣٩٤ ـ ١٤٢٥ هـ/ ١٩٧٤ ـ ٢٠٠٤ م. وكذلك الحال في محافظة ينبع، وتلتهما في ذلك محافظة الحناكية حيث تضاعف عدد سكانها بنحو ٢,٦ مرة خلال الفترة نفسها. أما بقية المحافظات فقد ازداد عدد سكانها بين ١,٥ و٢,٠ مرة للفترة نفسها. وقد قدرت نسبة الزيادة السنوية للسكان بين ١٣٩٤ و١٤٢٥ هـ/١٩٧٤ و٢٠٠٤ م بنحو ١٢٪. ولا شك أن هذا النمو السريع لسكان المنطقة، وبخاصة سكان المدينة المنورة حتماً سينعكس على الخصائص الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية للسكان الأمر الذي يمكن أن يتضح في الفقرات الآتية.

ثانياً ـ عناصر النمو السكاني:

يتحكم في نمو السكان عاملان أساسيان هما: النمو الطبيعي للسكان (الفرق بين الولادات والوفيات)، والهجرة سواء كانت داخلية أو خارجية. ولهذا يشير هذا الفصل إلى كل عنصر من عناصر النمو على حدة على النحو الآتي:

(*) المصدر: جدول (٢٩).

جدول ٢٩

نمو سكان منطقة المدينة المنورة حسب المحافظات(*)

المحافظة/ المدينة ومرتبتها	عدد سكان ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م	٪	عدد سكان ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م	٪	عدد سكان ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م	٪	عدد سكان ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م	٪	التغير العددي ١٣٩٤-١٤٢٥ هـ/ ١٩٧٤ - ٢٠٠٤ م	نسبة الزيادة السنوية ١٣٩٤-١٤٢٥ هـ/ ١٩٧٤ - ٢٠٠٤ م
المدينة المنورة ومراكزها	٢٦٧٥٥٨ (١)	٥١,٥	٦٨٦٩٥٨ (١)	٦٣,٣	٩٠١٦٣٢ (١)	٦٣,٨	٩٩٤١٧٥ (١)	٦٥,٢	٧٢٦٦١٧	٩,١
محافظة ينبع	٦٩٠٩٠ (٢)	١٣,٣	١٧٢٠٨٦ (٢)	١٥,٩	٢١٤٣٩٤ (٢)	١٥,٢	٢٥٠٢٤٤ (٢)	١٦,٦	١٨١١٥٤	٨,٧
محافظة العلا	٤٦٥٢٨ (٣)	٩,٠	٥٠٠٦٧ (٥)	٤,٦	٦٦١٩٤ (٣)	٤,٧	٥٧٥٠٦ (٤)	٣,٨	١٠٩٧٨	٠,٨
محافظة بدر	٤٣١٦٨ (٤)	٨,٣	٥٠٥٦٧ (٤)	٤,٦	٥٨٦٤٠ (٥)	٤,١	٥٨٣٥٢ (٣)	٣,٩	١٥١٨٤	١,٢
محافظة المهد	٣٦٠٥٨ (٥)	٦,٩	٥٢٢٩٧ (٣)	٤,٨	٦٠٨٣٨ (٤)	٤,٣	٥٣٧٣٤ (٥)	٣,٦	١٧٦٧٦	١,٦
محافظة خيبر	٣٢٢١٦ (٦)	٦,٢	٣٩٩٨٤ (٦)	٣,٧	٥٤٦٩٥ (٧)	٣,٩	٤٥٥٤١ (٧)	٣,١	١٣٣٢٥	١,٤
محافظة الحناكية	٢٤٦٧٧ (٧)	٤,٨	٣٢٩٨٨ (٧)	٣,١	٥٦٦١٤ (٦)	٤,٠	٥٢٥٢٤ (٦)	٣,٥	٢٧٨٤٧	٣,٨
المجموع	٥١٩٢٩٥	١٠٠,٠	١٠٨٤٩٤٧	١٠٠,٠	١٤١٣٠٠٨	١٠٠,٠	١٥١٢٠٧٦	١٠٠,٠	٩٩٢٧٨١	٦,٤

أ ـ المواليد:

يقصد بالمواليد عدد حالات الولادة بين مجموع السكان، ويعالج هذا العدد بعدة طرق، من أهمها معدل المواليد الذي يحسب بنسبة عدد المواليد المرصودة في مجتمع ما إلى عدد الأفراد في هذا المجتمع، فإذا لم يوصف هذا المعدل، كان معدل المواليد الأوليّ. وقد يقال عنه أيضاً معدل المواليد السنوي الأولي الفعلي الذي يستخرج بقسمة العدد السنوي للمواليد الأحياء على متوسط عدد السكان في السنة[١]. وتعود بيانات المواليد في المدينة المنورة إلى عام ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م فقط. ويلاحظ وجود نوعين من بيانات الولادات: أحدهما يشتمل على حالات الولادات في مستشفيات وزارة الصحة، والآخر يمثل الشهادات التي تصرف سنوياً للمواليد الجدد. وقد تم اختيار النوع الثاني لهذه الدراسة لأنه من المعروف، خصوصاً في فترة الثمانينيات والتسعينيات من القرن الهجري الرابع عشر، حدوث حالات ولادة خارج المستشفيات

(١) اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، *المعجم الديموغرافي متعدد اللغات*، (بغداد: اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، د.ت)، ١٢٥.

(*) المصدر: مصلحة الإحصاءات العامة، التعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٣٩٤ هـ، ١٣٩٧ هـ، ١ ـ ٦؛ مصلحة الإحصاءات العامة، النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣ هـ، ١٤١٨ هـ، ١٩؛ استشاري تضامن مصطفى فريد، مشروع دراسة المخطط الإقليمي لمنطقة المدينة المنورة، ١٤٢٠ هـ، ٤ ـ ٨؛ مصلحة الإحصاءات العامة، النتائج الأولية للتعداد العام للسكان، ١٤٢٥ هـ، ٧١ ـ ٧٦.

وبالتالي لم يتم إدراجها في سجلات ولادة المستشفيات، بالإضافة إلى تزايد الولادات التي تحدث في المستشفيات الخاصة في العقدين الماضيين. ولهذا كان النوع الثاني من البيانات هو الأكثر دقة وشمولية. ولكن نجد أن بيانات الولادات حسب المنطقة لا تتوافر إلا منذ سنة ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م، وهذه لا تتوافر بالتفصيل حسب المحافظات وإنما لإجمالي المنطقة، ولهذا فإن تحليل المواليد هنا سيلقي الضوء على بيانات منطقة المدينة المنورة إجمالاً.

يشير (جدول ٣٠) إلى الزيادة العامة في عدد مواليد منطقة المدينة الخام بين سنوات من ١٤٠١ و١٤٢٠ هـ/١٩٨١ و١٩٩٩ م، وإن كان يلاحظ على معدل المواليد التذبذب وعدم الانتظام. وقد بلغ متوسط هذا المعدل خلال هذه الفترة نحو ٢٤,٧ في الألف، كما بلغ عدد السنوات التي تطابق تقريباً معدل المواليد فيها مع هذا المتوسط خمس سنوات، وعدد السنوات التي ازداد معدل المواليد فيها عن هذا المتوسط كانت خمس سنوات. أما عدد السنوات التي قل معدل المواليد فيها عن هذا المتوسط، فقد بلغت تسع سنوات، ما يدل على الاتجاه العام نحو تناقص معدل المواليد الخام كما ورد في (شكل ١١). وتعد هذه المعدلات منخفضة قياساً على معدل المواليد العام للمملكة الذي بلغ في عام ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م ٣٥ في الألف، ولكنها مرتفعة إذا ما قورنت بمعدل المواليد في الدول المتقدمة من العالم. فمثلاً نجد أن معدل المواليد في بريطانيا كان ١٢ في الألف في سنة ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م، وفي الولايات المتحدة الأمريكية ١٥ في الألف في السنة نفسها[١].

ويلاحظ أن متوسط معدل المواليد للسكان السعوديين ٣٠,٣ في الألف في منطقة المدينة المنورة خلال فترة الدراسة، كان متقارباً مع متوسط معدل المواليد للسكان غير السعوديين ٢٩,٦ في الألف، مع أننا قد نجد فارقاً واضحاً في معدل المواليد للفئتين في بعض السنوات كما في سنوات ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م، ١٤١٢ ـ ١٤١٤ هـ/ ١٩٩١ ـ ١٩٩٣ م. ويلاحظ بشكل واضح الاتجاه نحو انخفاض معدل المواليد لدى السكان غير السعوديين أكثر منه للسكان السعوديين، (شكل ١١)، ما يمكن أن يعزى إلى تنظيم الإنجاب لدى السكان غير السعوديين أكثر منه بين السكان السعوديين.

وإذا ما نظرنا إلى عدد الولادات ومعدلاتها في المدينة المنورة ذاتها نلاحظ الاتجاه نفسه في عدم الانتظام والاتجاه العام نحو التناقص. ولعل هذا الاتجاه يرجع إلى تأثير حالات الولادات في المدينة المنورة التي شكلت ٨١,٣٪ من مجموع الولادات في المنطقة. وقد كان متوسط معدل المواليد للسكان السعوديين ٢٤,٢ في الألف للفترة من ١٤٠١ ـ ١٤٢٠ هـ/١٩٨١ ـ ١٩٩٩ م، في حين بلغ معدل المواليد للسكان غير السعوديين ٢٤,٨ في الألف خلال الفترة نفسها.

ب ـ الوفيات:

ترجع بيانات الوفيات في المدينة المنورة إلى عام ١٣٦١ هـ/١٩٤٢ م حين بدأت إدارة شؤون الموتى بأمانة المدينة المنورة في تسجيل حالات الوفيات التي تدفن في بقيع المدينة المنورة. ولكن هذه البيانات قد تشتمل

(١) PRB, World Data Sheet, 2000.

جدول ٣٠
عدد المواليد الخام الذين صرفت لهم شهادات ميلاد في منطقة المدينة المنورة حسب الجنسية والنوع لسنوات مختارة من ١٤٠١ ـ ١٤٢٠ هـ/١٩٨١ ـ ١٩٩٩ م(*)

الجنسية \ السنوات	النوع	١٤٠١ هـ/١٩٨١ م	١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م	١٤١٠ هـ/١٩٨٩ م	١٤١٥ هـ/١٩٩٤ م	١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م
سعوديون	ذكور	٦٤٠٦	١١٦٩٩	١٢٤٤٥	١٠٩٢٢	٦٥٠٢
	إناث	٥٨٧٣	١٠٩٥١	١٠٥٣٧	١٠٨٠٦	٦١٣٥
	المجموع	١٢٢٧٩	٢٢٦٥٠	٢٢٩٨٣	٢١٧٢٨	١٢٦٢٧
غير سعوديين	ذكور	١٨٨٢	٢٩٠٤	٢٣٢٧	٢٠٦٠	١٧٣١
	إناث	١٧٧٦	٢٨١٠	٢١٤٢	١٩٦٤	١٥٨٠
	المجموع	٣٦٥٨	٥٧١٤	٤٤٦٩	٤٠٢٤	٣٣١١
المجموع	ذكور	٨٢٨٨	١٤٦٠٣	١٤٧٧٣	١٢٩٨٢	٨٢٣٣
	إناث	٧٦٤٩	١٣٧٦١	١٢٦٧٩	١٢٧٧٠	٧٧١٥
	المجموع	١٥٩٣٧	٢٨٣٦٤	٢٧٤٥٢	٢٥٧٥٢	١٥٩٤٨
مجموع السكان(**)		٦٩٨١١٩	٨١٧١٤٣	٩٦٥٦٧٩	١١٩٤٢٧١	١٤٦٧٦٨٩
معدل المواليد (في الألف)		٢٢,٨	٣٤,٧	٢٨,٤	٢١,٦	١٦,٣

على حالات وفيات حصلت خارج المدينة المنورة، ودفنت في البقيع لرغبة كثيرين في دفن موتاهم فيه لما روي عن الرسول محمد ﷺ في فضل الموت بالمدينة المنورة. ولكن هذه البيانات يشوبها بعض الاضطراب في طريقة التصنيف، فمرة تصنف حسب المدينة المنورة فقط، وأخرى حسب المنطقة الإدارية، وثالثة حسب المنطقة التخطيطية (المنطقة الغربية)، ما يشكل صعوبة بالغة لأي دراسة منتظمة ومقارنة لحالات الوفيات في المدينة المنورة أو منطقتها. ولم تبدأ البيانات التي تفرق بين الوفيات التي حصلت في المدينة المنورة وتلك التي حصلت خارجها إلا منذ عام ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م.

ويلاحظ بشكل عام ارتفاع معدلات الوفيات في المدينة المنورة عنها في منطقة المدينة المنورة، ما يؤكد تحقق الرغبة لغالبية السكان في الوفاة بالمدينة المنورة أكثر من المنطقة، ولكن بشكل عام نجد أن معدلات الوفيات في المدينة المنورة أو

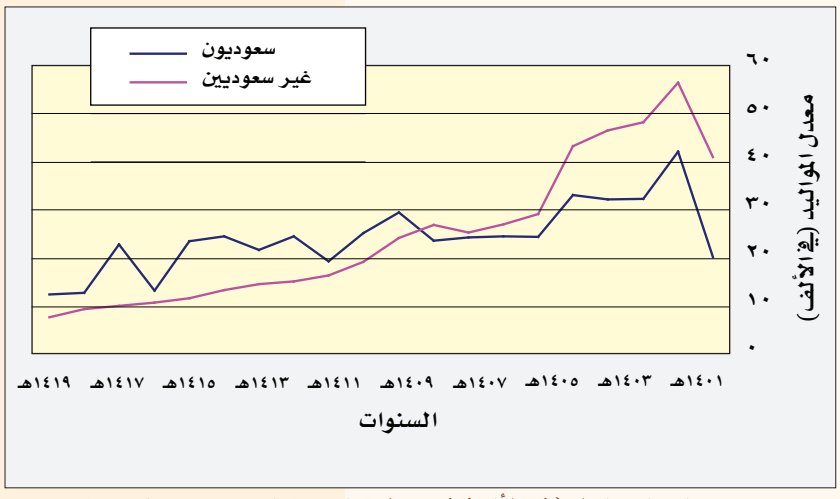

شكل ١١: معدل المواليد الخام (في الألف) في منطقة المدينة المنورة حسب الجنسية

(*) المصدر: إدارة الإحصاء، التقرير الصحي السنوي، ١٤٠١ ـ ١٤٢٠ هـ/١٩٨١ ـ ١٩٩٩ م.

(**) قدر عدد السكان لسنوات غير التعداد بناء على تقديرات نسبة النمو السنوية بين سنتي التعداد ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م، وسنة التقدير ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م.

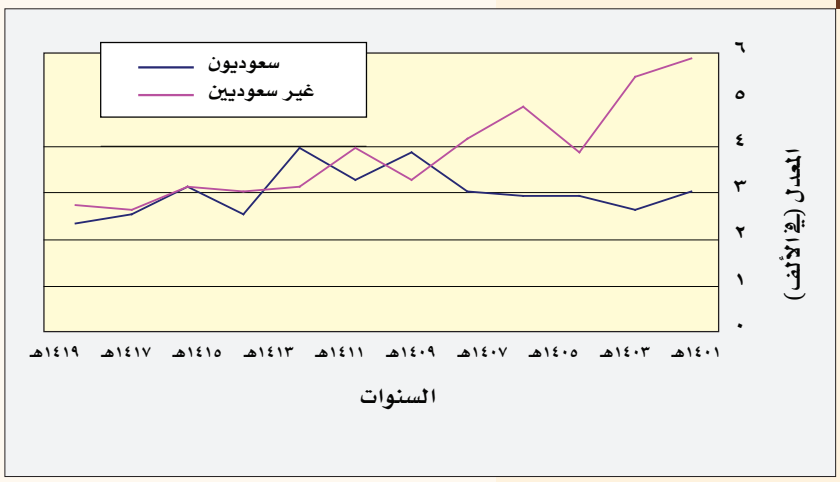

شكل ١٢: معدلات الوفيات الخام (في الألف) حسب الجنسية في منطقة المدينة المنورة ١٤٠٩ ـ ١٤٢٠ هـ/١٩٨٩ ـ ١٩٩٩ م

في المنطقة تتصف بالانخفاض واتجاهها لمزيد من الانخفاض، خصوصاً في المنطقة من ٣,٣ في الألف إلى ٢,٣ في الألف خلال الفترة من ١٤٠٩ ـ ١٤٢٠ هـ/١٩٨٩ ـ ١٩٩٩ م، وفي المدينة المنورة من ٥,٤ في الألف إلى ٣,٢ في الألف، (جدول ٣١) و(شكل ١٢). ولعل هذه النسب الأخيرة تشير إلى مدى التقدم الصحي وتطور الخدمات الصحية التي تتمتع بها منطقة المدينة المنورة مثل قريناتها من المناطق الأخرى في المملكة التي تقارن

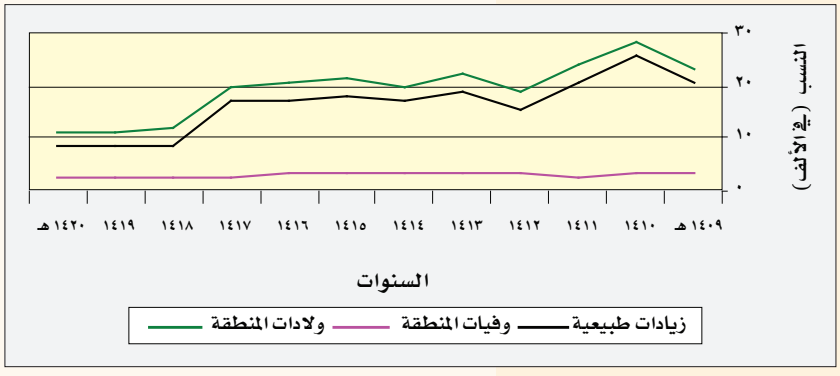

شكل ١٣: معدلات الولادات والوفيات والزيادات الطبيعية في منطقة المدينة المنورة ١٤٠٩ ـ ١٤٢٠ هـ/١٩٨٩ ـ ١٩٩٩ م

بمعدل الوفيات في الدول المتقدمة، إذ بلغت مثلاً في الولايات المتحدة الأمريكية ٩ في الألف، وفي المملكة المتحدة ١١ في الألف في عام ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م[١].

وينطبق هذا التعميم على السكان السعوديين وغير السعوديين، إذ كانت ترتفع معدلات وفيات غير السعوديين على السعوديين، ثم اتجهت إلى التناقص ما يؤكد شمولية الخدمات الصحية وشمولية الرغبة في الوفاة بالمدينة.

ج ـ الزيادة الطبيعية:

انعكس التناقص الكبير في معدلات الوفيات على ارتفاع الزيادات الطبيعية في منطقة المدينة المنورة (جدول ٣١) و(شكل ١٣)، مقارنة بعدد من الدول المتقدمة التي بلغت مثلاً ٦ في الألف في الولايات المتحدة الأمريكية، ١ في الألف في المملكة المتحدة عام ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م، ولكنها أفضل حالاً من عدد من الدول النامية، فهي مثلاً تصل إلى ٣٠ في الألف في النيجر، ٢٨ في الألف في باكستان[٢]. ولكنها طيلة فترة الدراسة كانت أقل من المستوى العام للزيادة الطبيعية في المملكة الذي بلغ نحو ٣٠ في الألف في عام ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م. أما في المدينة المنورة فلم تتجاوز ١٠ في الألف في عام ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م.

د ـ الهجرة:

يتضح من (شكل ١٣) نسب الزيادات الطبيعية في منطقة المدينة المنورة التي بلغ معدلها السنوي خلال الفترة ١٤٠٩ ـ ١٤٢٠ هـ/ ١٩٨٩ ـ ١٩٩٩ م ١٤ في الألف. وبناء على

(١) Op. Cit., PRB, World Data Sheet, 2000.

(٢) Ibid.

جدول ٣١

عدد الوفيات الخام ومعدلاتها (في الألف) في المدينة المنورة ومنطقتها حسب الجنسية(*)

المحافظة	١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م		١٤١٥ هـ/١٩٩٤ م		١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م	
	س	غ.س	س	غ.س	س	غ.س
المدينة: ذكور	٩٢٩	٥٩٩	١٢٥٩	٦٦٦	١٠٥٥	٦٤٨
إناث	٥٧٧	٣٧٢	٧٤٢	٤١٥	٦٢٥	٤٢٦
المجموع	١٥٠٦	٩٧١	٢٠٠١	١٠٨١	١٦٨٠	١٠٧٤
منطقة المدينة: ذكور	١٢٠٨	٦٠٨	١٦٤٦	٧١٨	١٤٢٩	٦٩٤
إناث	٧٥٨	٣٨٢	٩٨٧	٤٣٦	٨٤٣	٤٣٦
المجموع	١٩٦٦	٩٩٠	٢٦٣٣	١١٥٤	٢٢٧٢	١١٣٠
معدلات الوفيات الخام في المدينة المنورة(**)	٤,٩		٤,٥		٣,٢	
معدلات الوفيات الخام في المنطقة/الجنسية(**)	٢,٥	٥,٣	٣,١	٣,٨	٢,٢	٢,٦
معدلات الوفيات في المنطقة(**)	٤,٩		٣,٢		٢,٣	
معدل الزيادة الطبيعية(**)	٢٥,٣		١٨,٤		١٤,٠	

جدول ٣٢

معدل الهجرة إلى منطقة المدينة المنورة، حسب مكان الميلاد، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م(***)

عدد السكان	عدد المهاجرين إلى المدينة	معدل الهجرة إلى المدينة	عدد المهاجرين من المدينة	معدل الهجرة من المدينة	صافي الهجرة	معدل صافي الهجرة
١٣١٠٤٤٨	٣٠٢٩٧٦	٢٣١,١٢	١٩٩١٦٥	١٥١,٩٨	١٠٣٨١١	٧٩,٢٢

هذا المعدل فإن عدد سكان منطقة المدينة المنورة في عام ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م كان يدور حول ١١٠٥٦٣٦ نسمة إذا ما اعتبرنا سنة ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م هي الأساس الذي تتوافر عنه بيانات الولادات والوفيات، أي أقل من مجموع السكان المذكور في (جدول ٣٠) بمقدار ٣٦٢٠٥٣ نسمة. ويمكن أن يعزى هذا الفرق إلى تأثير الهجرة إلى المدينة المنورة، أي إن الهجرة تسهم في نمو سكان منطقة المدينة المنورة بمعدل سنوي يصل إلى ٣٢٩١٤ نسمة. وتعني هذه الأرقام أن الهجرة سواء كانت داخلية أم خارجية هي أكثر تأثيراً من الزيادات الطبيعية في نمو عدد سكان المنطقة بنحو ١٤٨٪ خلال الفترة ١٤٠٩ ـ ١٤٢٠ هـ/ ١٩٨٩ ـ ١٩٩٩ م.

وتؤكد ذلك بيانات نتائج البحث الديموغرافي الذي أنجزته مصلحة الإحصاءات العامة بوزارة التخطيط في سنة ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م، إذ اتضح أن معدل صافي الهجرة في منطقة المدينة المنورة كان يعادل ٧٩,٢٢ (جدول ٣٢)، ما يعني ارتفاع تأثير الهجرة في تركيب سكان المنطقة مقارنة بمناطق أخرى في المملكة التي كان صافي

(*) المصادر: إدارة الإحصاء، التقرير الصحي السنوي، (١٤٠٩ ـ ١٤٢٠ هـ)؛ إدارة الإحصاء والبحوث، إحصائيات البلديات، (١٤٠٩ ـ ١٤٢٠ هـ).

(**) المعدلات من حساب الباحثة.

(***) المصدر: مصلحة الإحصاءات العامة، الخصائص السكانية في المملكة العربية السعودية (من واقع نتائج البحث الديموغرافي)، الرياض، وزارة التخطيط.

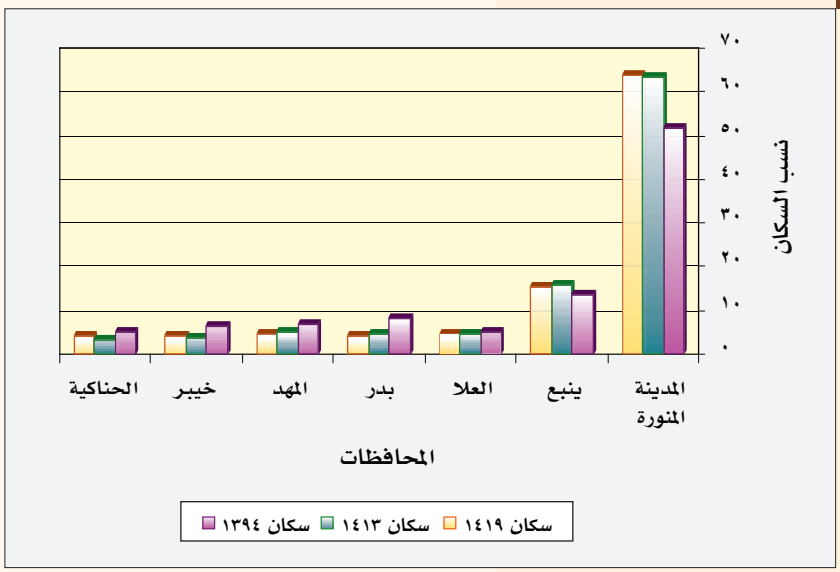

شكل ١٤: النسب المئوية لتوزيع السكان في منطقة المدينة المنورة حسب المحافظات

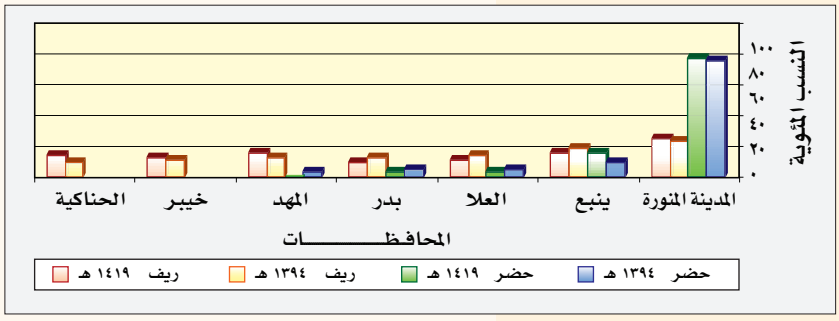

شكل ١٥: النسب المئوية لتوزيع السكان الحضر والريف في محافظات منطقة المدينة المنورة

معدل الهجرة فيها سالباً، أي زيادة الهجرة الخارجة على الداخلة كما في مناطق جازان وعسير وحائل وغيرها[1]. ويظهر ذلك بشكل واضح عند التدقيق في نسبة الهجرة التي تنتج من قسمة صافي الهجرة على عدد المواليد ناقصاً عدد الوفيات مضروباً في ألف، إذ كانت في المدينة المنورة تعادل ٨٢٧٤,٤٣ في سنة ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م.

وقد شكل الذكور نحو ٦٣٪ من مجموع الهجرة الوافدة، ونحو ٦٧٪ من الهجرة المغادرة لمنطقة المدينة في سنة ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م.

ثالثاً ـ التوزيع الجغرافي:

أ ـ التوزيع النسبي:

مر توزيع السكان في منطقة المدينة المنورة بعدة تغيرات بين عامي ١٣٩٤ و١٤١٣ هـ/١٩٧٤ و١٩٩٢ م، ولكن المدينة المنورة العاصمة الإدارية للمنطقة تضم أكبر تجمع سكاني، إذ كان يقيم بها نحو ٥١٪ من جملة سكان المنطقة عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، فأصبح يقيم بها نحو ٦٣,٣٪ منهم في عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م، بمعنى استمرار التركز، بل زيادته في المدينة المنورة، (جدول ٢٩).

وتأتي محافظة ينبع في المرتبة الثانية، إذ كانت تضم نحو ١٣٪ من سكان المنطقة في عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، فأصبحت تضم نحو ١٦٪ منهم في عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م، بمعنى زيادة نصيبها من سكان المنطقة. وأمام هذه الزيادة السكانية للمدينة المنورة ومحافظة ينبع تناقصت نسبة السكان في معظم المحافظات الأخرى. ولعل أكبر تناقص حدث في محافظة العلا، إذ انخفض من ٩٪ ـ ٣,٨٪ من سكان المنطقة بين عامي ١٣٩٤ و١٤٢٥ هـ/١٩٧٤ و٢٠٠٤ م، بل نجدها قد احتلت المرتبة الخامسة في تعداد عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م، ولكنها عادت للمرتبة الثالثة في تقدير عام ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م، ثم المرتبة الرابعة في عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م. واللافت للنظر تقدم مرتبة محافظة المهد من المرتبة الخامسة في عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م إلى المرتبة الثالثة في تعداد عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م، ثم عودتها للمرتبة الخامسة في عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م. أما المرتبتان الأخيرتان السادسة والسابعة فكانتا دائماً من نصيب محافظتي خيبر والحناكية

(١) رشود بن محمد الخريف، السكان: *المفاهيم والأساليب والتطبيقات*، (الرياض: ١٤٢٣ هـ)، ٣٨٨.

جدول ٣٣
النسب المئوية لتوزيع السكان الحضر والريف في محافظات منطقة المدينة المنورة ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م(*)

المحافظة	١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م			١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م		
	٪ سكان مدن من سكان المنطقة	٪ سكان قرى ورحل من سكان المنطقة	٪ للسكان الحضر من سكان المحافظة	٪ سكان مدن من سكان المنطقة	٪ سكان قرى ورحل من سكان المنطقة	٪ للسكان الحضر من سكان المحافظة
المدينة المنورة ومراكزها	٧٤,٨	٢٣,٨	٧٨,٩	٧٦,٧	٢٤,٣	٩٠,٦
ينبع	٩,١	١٨,٤	٢٠,٤	١٥,٠	١٥,٥	٧٤,٧
العلا	٤,٦	١٤,٢	٢٧,٧	٢,٧	١٠,٧	٤٣,٥
بدر	٤,٩	١٢,٤	٣١,٨	٢,٤	٩,٦	٤٣,٤
المهد	٢,٩	١١,٧	٢٣,٣	٠,٩	١٥,٠	١٦,٢
خيبر	٢,٣	١٠,٨	٢٠,٤	١,٣	١١,٧	٢٥,١
الحناكية	١,٤	٨,٧	١٥,٨	١,٠	١٣,٢	١٨,٣
المجموع ٪	١٠٠,٠	١٠٠,٠	٥٤,٣	١٠٠,٠	١٠٠,٠	٧٥,٤
العدد	٢٨٢١٩٦	٢٣٧٠٩٩		١٠٦٥٤٥٧	٣٤٧٥٥٢	

بالتناوب بينهما بين أعوام: ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م، (شكل ١٤)، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م. وفيما عدا سكان المدينة المنورة وينبع يكاد يتوزع باقي السكان بالتساوي بين بقية المحافظات الخمس، إذ تراوح نسبة السكان فيها بين ٣,١ و٣,٩٪ من مجموع سكان المنطقة في عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م.

ب ـ التحضر:

تشير البيانات إلى وجود تفاوت كبير في مستويات التحضر (التغير في نسب سكان المدن والقرى) بين عامي ١٣٩٤ و١٤١٩ هـ/ ١٩٧٤ و١٩٩٨ م، إذ تغلب صفة التحضر دائماً على كل من الوحدة الإدارية للمدينة المنورة، ومحافظة ينبع، فقد شكل سكان الحضر نحو ٧٩ و٢٠٪ من مجموع سكانهما في عام ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م، ونحو ٩٠ و٧٥٪ في عام ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م على التوالي. ولم تتوافر بيانات مفصلة حسب مكان الإقامة في تعدادي ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م؛ ولذلك لم يكن بالإمكان إدراجهما في (جدول ٣٣)، (شكل ١٥).

واستمرت المدينة المنورة ومراكزها ومحافظة ينبع في اجتذاب القسم الأكبر من السكان الحضر في المنطقة، إذ ارتفع نصيب الأولى بنحو درجتين مئويتين، في حين ارتفع نصيب الثانية بنحو ٦ درجات مئوية. وانخفض نصيب المحافظات الأخرى فيما بين ١,٤ و٤,٩٪ عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، وبين ٠,٩ و٢,٧٪ عام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م، بمعنى أن الارتفاع في الوحدتين الإداريتين الأوليين كان على حساب الوحدات الإدارية صغيرة الحجم.

(*) المصادر: مصلحة الإحصاءات العامة، التعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م؛ استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى ومكتب عبدالله بخاري، مشروع دراسة المخطط الإقليمي لمنطقة المدينة المنورة، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م.

جدول ٣٤

كثافة السكان في محافظات منطقة المدينة المنورة (نسمة/كم٢) ١٣٩٤ ـ ١٤٢٥ هـ/١٩٧٤ ـ ٢٠٠٤ م(*)

المحافظة	المساحة الكلية	مساحة عاصمة المحافظة	الكثافة في المحافظة عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م	الكثافة في المحافظة عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م	الكثافة في عاصمة المحافظة، عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م	الكثافة في عاصمة المحافظة عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م
العلا	٢٨١٣٢	٢٨٥,٤٠	١,٥	١,٥	٤٠,٤	١٠٢,٧
الحناكية	٢٥٤٤٩	٦١٧٤,٢٩	١,٠	٢,١	٠,٥	٣,٦
المهد	٢٤٨٣٨	٥٥٣٠,٢٤	١,٤	٢,١	٠,٨	٣,٦
المدينة المنورة ومراكزها	٢٣٩٩٤	٢٥٩٦,٤٩	١٠,٦	٣٩,٣	٧٦,٣	٣٥٤,٣
ينبع	١٩٥٠٠	١٠٠٧,٨٨	٣,٧	١٣,٣	١٦,٥	١٨٧,٢
خيبر	١٨٩٤٥	٥٢٦٨,٨٨	١,٦	٢,٣	٣,٢	٣,٧
بدر	٧٧٥٢	٣١٤٥,١٩	٠,٥	٠,٧	٢,٢	١٠,٧
المجموع	١٤٨٦١٠	٢٤٠٠٨,٣٧	٣,٤	٩,٨	١٠,٩	٥١,٤

جدول ٣٥

التوزيع النسبي للسكان السعوديين وغير السعوديين في منطقة المدينة المنورة، ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م، ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م(**)

المحافظة	١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م		١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م		١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م		١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م	
	٪ سعودي	٪ غير سعودي	٪ سعودي	٪ غير سعودي	٪ سعودي	٪ غير سعودي	٪ سعودي	٪ غير سعودي
المدينة المنورة ومراكزها	٨٦,٢	١٣,٨	٧٣,١	٢٦,٩	٦٧,٢	٣٢,٨	٧٢,٤	٢٧,٦
ينبع	٩٦,٨	٣,٢	٧٧,٨	٢٢,٢	٦٧,٩	٣٢,١	٧٧,٦	٢٢,٤
العلا	٩٩,٦	٠,٤	٨٤,٢	١٥,٨	٧٤,٤	٢٥,٦	٨٣,٦	١٦,٤
بدر	٩٩,٣	٠,٧	٩١,٣	٨,٧	٨٦,٥	١٣,٥	٨٩,٢	١٠,٨
المهد	٩٨,٨	١,٧	٩١,٧	٨,٣	٨٤,١	١٥,٩	٨٩,٩	١٠,١
خيبر	٩٨,٣	١٢,٩	٩٢,١	٧,٩	٩٢,٩	٧,١	٩١,٧	٨,٣
الحناكية	٨٧,١	١,٢	٩٠,١	٩,٩	٨٥,٦	١٤,٤	٩١,٣	٨,٧
المجموع	٩١,٦	٨,٤	٧٧,٢	٢٢,٨	٧٠,٩	٢٩,١	٧٧,٠	٢٣,٠

ج ـ الكثافة:

تشير بيانات (جدول ٣٤) إلى أن محافظة العلا تحتل المرتبة الأولى من حيث المساحة، إذ تضم نحو ٢٠٪ من مجموع مساحة المنطقة، ويبلغ طول حدودها الخارجية ٥١٩,٣ كم طولياً، في حين تعد محافظة بدر أصغر المحافظات، إذ تضم ٥,٢٪ فقط من مجموع مساحة المنطقة، ويبلغ طول حدودها الخارجية ٧٧,٣ كم طولياً، وتعد عاصمة محافظة الحناكية أكبر المراكز الإدارية

(*) المصدر: استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى ومكتب عبدالله بخاري، ١٤٢٠ هـ، تقرير رقم ٢/١، ٧ ـ ٨، ٧ ـ ١١؛ تقرير رقم ٣/١، ٢ ـ ٤؛ جدول (٢٩).

(**) المصدر: مصلحة الإحصاءات العامة، التعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٣٩٤ هـ، ١٣٩٧ هـ، ٧ ـ ٨؛ مصلحة الإحصاءات العامة، النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣ هـ، ١٤١٨ هـ، ١٩؛ استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى ومكتب عبدالله بخاري، تقديرات مشروع دراسة المخطط الإقليمي لمنطقة المدينة المنورة، ١٤٢٠ هـ، ٤ ـ ٨؛ مصلحة الإحصاءات العامة، النتائج الأولية للتعداد العام للسكان، ١٤٢٥ هـ، ٧١ ـ ٧٦.

مساحة في المنطقة، إذ تحتل نحو ٢٦٪ من مساحة العواصم الإداريـة للمحافظات في المنطقة، على حين تحتل عاصمة محافظة العلا أصغر نطاق إشرافي ضمن النطاقات الإشرافية لعواصم المحافظات في المنطقة، إذ تحتل فقط ١,٢٪ من مجموع مساحة عواصم مراكز المحافظات.

وقد انعكست هذه الحقائق على الكثافة العامة للسكان في المحافظات وعواصمها، فقد احتلت المدينة المنورة ومراكزها وينبع المركزين الأول والثاني ضمن كثافة المحافظات. ويلاحظ الاتجاه نحو زيادة التركز وارتفاع الكثافة في المدينة المنورة من عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م إلى ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م بمعدل نحو ثلاث مرات للمنطقة، ونحو أربع مرات لعاصمة المنطقة. وتضاعفت الكثافة في ينبع نحو ثلاث مرات للمحافظة، ونحو إحدى عشرة مرة للمركز. أما في محافظة العلا، ونتيجة لصغر مساحة العاصمة الإدارية من إجمالي مساحة المحافظة، فقد ارتفعت كثافة المركز عدة أضعاف كثافة المحافظة؛ من ١,٥ نسمة/كم٢ للمحافظة إلى ١٠٢,٧ نسمة/كم٢ في عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م لمدينة العلا، وبقيت المحافظة تحافظ على كثافتها العامة خلال واحد وثلاثين عاماً امتدت بين عامي ١٣٩٤ و١٤٢٥ هـ/١٩٧٤ و٢٠٠٤ م. وتشير هذه الحقائق إلى الاتجاه إلى زيادة الضغط على استخدامات الأرض في عواصم المحافظات وبخاصة في الوحدات الإدارية الثلاث: المدينة المنورة، وينبع، والعلا؛ ما يؤكد تباين الكثافة بين المحافظات، وبالتالي عدم التوزيع المتجانس للسكان داخل المنطقة الإدارية، (خريطة ٩).

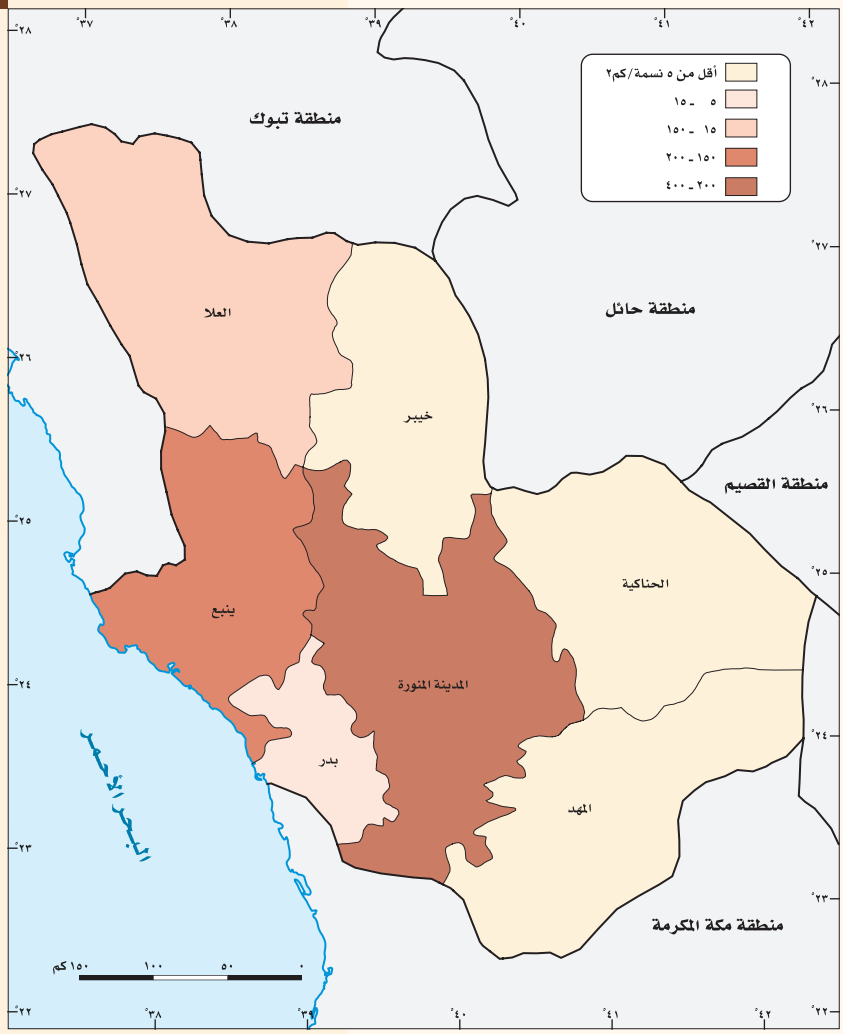

خريطة ٩: كثافة السكان في محافظات المدينة المنورة، ١٣٩٤ هـ ـ ١٤٢٥ هـ/١٩٧٤ ـ ٢٠٠٤ م(*)

رابعاً ـ التركيب السكاني:

تتأثر بعض عناصر تركيب السكان بعضها ببعض وببعض العوامل الخارجية الأخـرى. ولعل أهـم عناصـر التركيب السكاني مايأتي:

أ ـ تركيب السكان حسب الجنسية:

تشير بيانات (جدول ٣٥) إلى تزايد نسبة غير السعوديين في منطقة المدينة المنورة من

(*) من إعداد الموسوعة اعتماداً على بيانات وزارة الاقتصاد والتخطيط ممثلة بمصلحة الإحصاءات العامة.

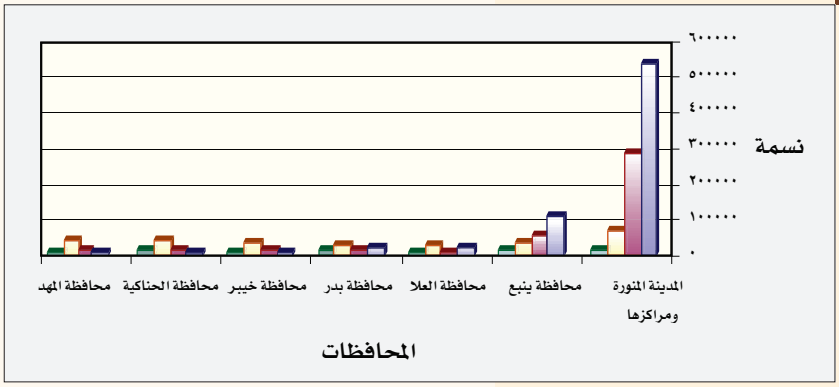

شكل ١٦: توزيع سكان منطقة المدينة المنورة حسب الجنسية ومكان الإقامة الحضري والريفي ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م

٨,٤٪ في عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م إلى ٢٩,١٪ من مجموع السكان في عام ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م، وإلى نحو ٢٣٪ في عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م. ويلاحظ تناقص النسبة في عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م مقارنة بنسبتهم في عام ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م، ولكن هذا التناقص ما زال بعيداً عن نسبتهم في عام ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م. وقد كان أوضح تزايد للسكان غير السعوديين في محافظة العلا، إذ ازدادت نسبتهم من أقل من ١٪ في عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م إلى أكثر من ٢٥٪ في عام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م، ويتركز غير السعوديين بشكل واضح في عاصمة المنطقة (المدينة المنورة) بنسبة ٣٢,٨٪ في سنة ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م، ٢٧,٦٪ في سنة ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م من جملة سكانها. ويقترب نصيب محافظة ينبع من نسب المدينة المنورة ٣٢,١٪ من جملة السكان في عام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م، ونحو ٢٢,٤٪ في سنة ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م. أما أقل نسبة لغير السعوديين فأصبحت توجد في محافظة خيبر في عام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م وفي عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م.

ويوضح (شكل ١٦) توزيع السكان السعوديين وغير السعوديين على المحافظات ومراكزها وقراها بمنطقة المدينة المنورة في عام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م، إذ يلاحظ ارتفاع نسبة السكان السعوديين بالمراكز الحضرية، ولا سيما في المدينة المنورة. وبالمثل ترتفع نسبة غير السعوديين في المراكز الحضرية، ولكن نسبتهم من مجموع السكان غير السعوديين أقل من نسبة السعوديين، وهذا ما أدى إلى ارتفاع واضح في نسبة السكان غير السعوديين في القرى من مجموع السكان غير السعوديين. ولعل هذا الاختلاف يعزى إلى تباين القاعدة الاقتصادية بين السكان الحضر والريفيين، وسياسات السعودة في المدن التي أدت إلى توجيه نسبة لا بأس بها من العمالة غير السعودية إلى الريف. ولكن ربما يخفف من وطأة هذا التوجه أن نحو ٩٦٪ من غير السعوديين المقيمين في القرى هم من الجنسيات العربية[١].

ب ـ التركيب العمري والنوعي:

لم يهتم مشروع المخطط الإقليمي لمنطقة المدينة المنورة في عام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م بتفاصيل التركيب العمري، ولهذا سيتم الاعتماد في هذا القسم على بيانات تعداد عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م. وتشير بيانات هذا التعداد إلى أن التوزيع العمري لسكان منطقة المدينة المنورة يتميز بالفتوة، أي وجود نسبة عالية من صغار السن، إذ بلغت نسبة من هم دون سن الخامسة عشرة نحو ٤٥٪ من مجموع السكان في عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م. وتشكل الفئة ١٥ ـ ٥٩ سنة نحو ٥١٪ من مجموع السكان، في حين تبلغ نسبة كبار السن ٦٠ سنة فأكثر نحو ٤٪

(١) استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى، ومكتب عبدالله بخاري. مشروع دراسة المخطط الإقليمي لمنطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٤ ـ ١٢.

جدول ٣٦

التوزيع العمري النسبي لسكان منطقة المدينة المنورة حسب الجنسية، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م(*)

فئات العمر	الجنسية								
	سعودي			غير سعودي			المجموع		
	ذكور	إناث	المجموع	ذكور	إناث	المجموع	ذكور	إناث	المجموع
أقل من سنة	٣,٧	٣,٥	٣,٦	١,٣	٢,٩	١,٨	٣,١	٣,٤	٣,٢
١ - ٤	١٤,٩	١٤,٥	١٤,٧	٥,٢	١١,٥	٧,١	١٢,١	١٤,١	١٢,٩
٥ - ٩	١٧,٨	١٧,٥	١٧,٧	٦,١	١٣,٧	٨,٤	١٤,٤	١٦,٩	١٥,٦
١٠ - ١٤	١٥,٢	١٤,٧	١٤,٩	٤,٥	١٠,٣	٦,٣	١٢,١	١٤,٠	١٢,٩
١٥ - ١٩	١٠,٣	١٠,٦	١٠,٥	٢,٨	٦,٨	٤,٠	٨,١	٩,٩	٨,٩
٢٠ - ٢٤	٧,١	٧,٨	٧,٥	٧,٥	٨,١	٧,٧	٧,٢	٧,٩	٧,٦
٢٥ - ٢٩	٥,٩	٧,٣	٦,٦	١٨,١	١٠,٥	١٥,٨	٩,٥	٧,٨	٨,٧
٣٠ - ٣٤	٥,٠	٥,١	٥,٠	١٨,٨	١٥,٦	١٧,٨	٩,٠	٦,٧	٧,٩
٣٥ - ٣٩	٤,١	٤,٨	٤,٤	١٤,٩	٨,٦	١٣,١	٧,٣	٥,٤	٦,٤
٤٠ - ٤٤	٢,٨	٣,٢	٣,٠	٩,٨	٤,٦	٨,٢	٤,٨	٣,٥	٤,٢
٤٥ - ٤٩	٢,٤	٢,٧	٢,٦	٥,٣	٢,٤	٤,٤	٣,٣	٢,٧	٣,١
٥٠ - ٥٤	٢,٣	٢,٥	٢,٤	٢,٩	١,٧	٢,٤	٢,٤	٢,٤	٢,٤
٥٥ - ٥٩	٢,٠	١,٥	١,٧	١,٣	٠,٩	١,٢	١,٨	١,٤	١,٦
٦٠ - ٦٤	٢,٣	١,٥	١,٩	٠,٧	١,١	٠,٨	١,٨	١,٤	١,٦
٦٥ - ٦٩	١,٤	٠,٨	١,١	٠,٣	٠,٣	٠,٤	١,١	٠,٧	٠,٩
٧٠ - ٧٤	١,٢	٠,٩	١,٠	٠,٢	٠,٥	٠,٣	٠,٩	٠,٨	٠,٨
٧٥ - ٧٩	٠,٦	٠,٣	٠,٥	٠,١	٠,٢	٠,١	٠,٤	٠,٣	٠,٤
٨٠سنة فأكثر	١,٠	٠,٨	٠,٩	٠,٢	٠,٣	٠,٢	٠,٧	٠,٧	٠,٨
المجموع٪ العدد	٤٩,٧ ٤١٦٦٨٦	٥٠,٣ ٤٢١٠٠٩	١٠٠,٠ ٨٣٧٦٩٥	٦٩,٥ ١٧١٧٥٩	٣٠,٥ ٧٥٤٩٣	١٠٠,٠ ٢٤٧٢٥٢	٥٤,٢ ٥٨٨٤٤٥	٤٥,٨ ٤٩٦٥٠٢	١٠٠,٠ ١٠٨٤٩٤٧
نسبة النوع	٩٨,٩٧			٢٢٧,٥٢			١١٨,٥٢		

فقط من مجموع السكان. ويختلف التركيب العمري حسب الجنسية، إذ نجد نسبة مرتفعة من غير السعوديين في سن العمل ١٥ - ٥٩ سنة الذين بلغت نسبتهم نحو ٧٥٪ من مجموع غير السعوديين مقارنة بنحو ٤٤٪ من السكان السعوديين، (جدول ٣٦). وقد أدت هذه النسبة المرتفعة للسكان غير السعوديين في عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م إلى ابتعاد الهرم العمري للسكان عن الانتظام الذي تميز به في عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، (شكل ١٧). أما السكان

(*) المصدر: مصلحة الإحصاءات العامة، النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣ هـ، ٢٠.

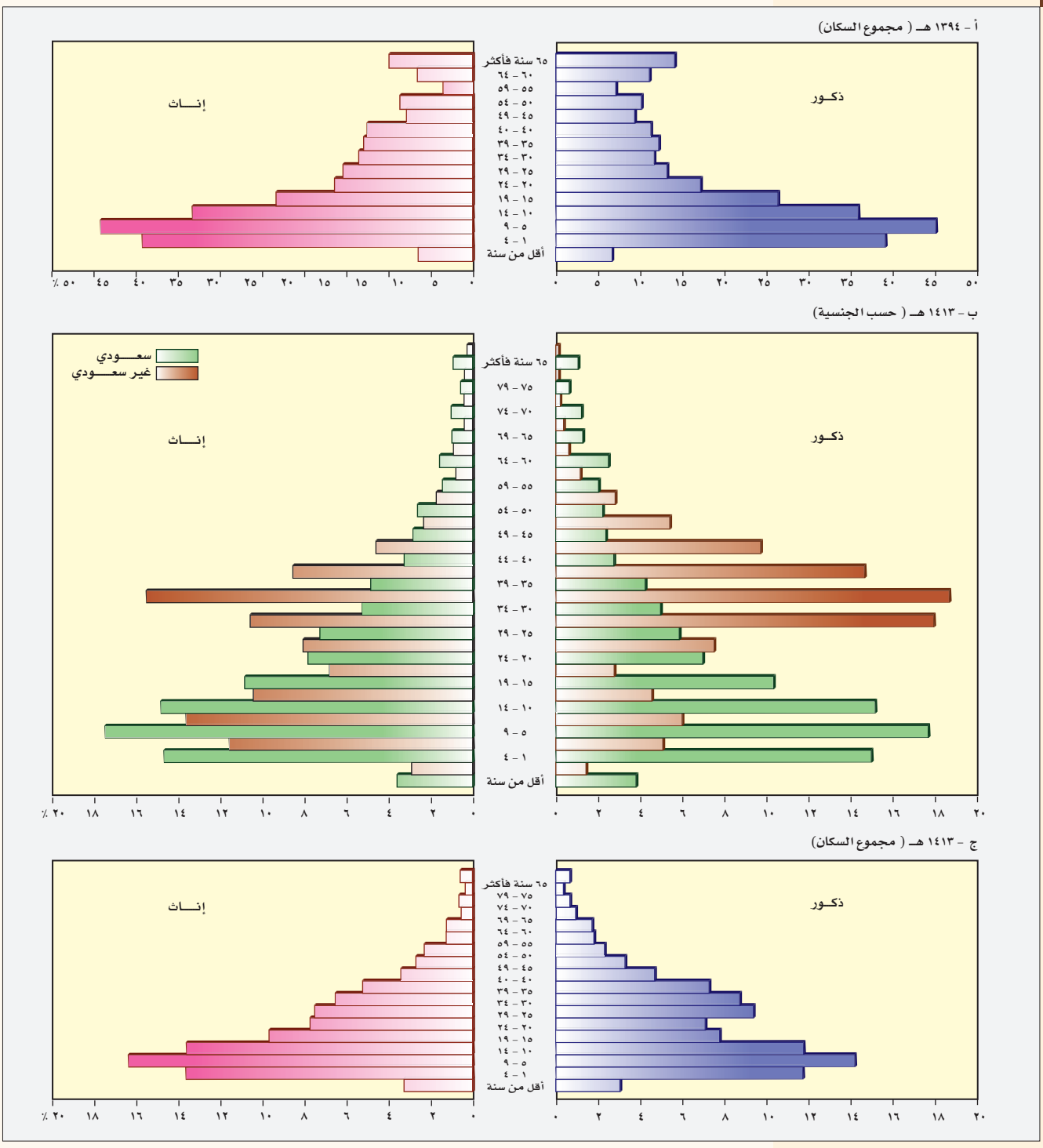

شكل ١٧: التركيب العمري لسكان المدينة المنورة حسب الجنسية

دون سن الخامسة عشرة فتقل نسبتهم إلى ٤١٪ بين السعوديين، وتنخفض إلى ٢٧٪ بين السكان غير السعوديين. وتقل نسبة كبار السن من السكان غير السعوديين إلى ١,٨٪ فقط مقارنة بنحو ٥٪ للسكان السعوديين.

وقد بلغ متوسط الأعمار لإجمالي سكان منطقة المدينة المنورة ١٧,٩ في عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م. وارتفع متوسط الأعمار بمقدار ١,٩ سنة عما كان عليه في تعداد عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م. ويعد متوسط الأعمار في منطقة المدينة المنورة مرتفعاً مقارنة بعدد من مناطق المملكة مثل مناطق جازان، ونجران، والجوف، ولكنه أقل من مستوى متوسط الأعمار العام في المملكة الذي بلغ في عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م ١٩,٧ سنة[١]. ويمكن أن يعزى هذا الارتفاع إلى تأثير الهجرة الوافدة إلى المنطقة، خصوصاً إلى المدينة المنورة، إذ نجد أن متوسط الأعمار يرتفع بين السكان غير السعوديين إلى ٢٩,٧ سنة مقابل ١٤,٧ سنة للسكان السعوديين. ويلاحظ أن متوسط الأعمار للذكور السعوديين كان ١٥,٣ سنة في عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، وانخفض إلى ١٤,٥ سنة في عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م. أما بالنسبة إلى الذكور غير السعوديين، فقد كان متوسط الأعمار ٢٤,٦ سنة في عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، وارتفع إلى ٣١,٣ سنة في عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م. وبالنسبة إلى الإناث السعوديات، فقد كان متوسط الأعمار ١٥,٥ سنة في عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، وانخفض إلى ١٤,٩ سنة في عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م. وفي عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م كان متوسط الأعمار للإناث غير السعوديات ١٩,٩ سنة، وارتفع إلى ٢٢,٩ سنة في عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م.

ويتسم السكان بتوزيع نوعي غير متوازن لأن نسبة كبيرة من غير السعوديين هم من الذكور غير المتزوجين أو غير المصاحبين لأسرهم؛ ما جعل نسبتهم ترتفع إلى ٦٩,٥٪ من مجموع غير السعوديين، ونسبة الذكور بشكل عام مرتفعة، إذ بلغت ٥٤,٢٪ من مجموع السكان. وقد أدى ارتفاع نسبة النوع في منطقة المدينة المنورة إلى نحو ١١٩ من الذكور مقابل كل مئة من الإناث. ويظهر عدم التوازن بشكل جلي بين السكان غير السعوديين، إذ تصل نسبة النوع إلى نحو ٢٢٨ من الذكور مقابل كل مئة من الإناث. أما بالنسبة إلى السكان السعوديين، فالتركيب النوعي أكثر توازناً، إذ تصل نسبة الذكور إلى ٤٩,٧٪ مقابل ٥٠,٣٪ للإناث، وبالتالي تصل نسبة النوع للسعوديين إلى نحو ٩٩ من الذكور مقابل كل مئة من الإناث. وقد انعكس تأثير النوع غير المتوازن للسكان غير السعوديين في العمر الوسيط للذكور منهم الذي ارتفع إلى ٣١,٣ سنة مقابل ٢٣ سنة للإناث، في حين ينخفض متوسط الأعمار للذكور السعوديين ولإجمالي السكان إلى ١٤,٥ سنة، ١٥,٨ سنة على التوالي.

ج ـ حجم الأسرة:

يُعرِّف تعداد عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م الأسرة بأنها فرد أو مجموعة من الأفراد تربطهم أو لا تربطهم صلة قرابة ويشتركون في المسكن والمأكل، وقضوا ليلة الإسناد الزمني للتعداد في هذا المسكن[٢]. واعتماداً على هذا التعريف يمكن أن تكون الأسرة نووية أو ممتدة[٣]، كما تشمل الأفراد الذين يعيشون معاً دون أن تربطهم صلة قرابة، لأن الأسرة تضم الخدم والسائقين والضيوف.

(١) الخريف، رشود بن محمد. السكان: المفاهيم والأساليب والتطبيقات، مرجع سابق، ٥٦، ٥٧.

(٢) وزارة التخطيط، مصلحة الإحصاءات العامة. البيانات التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن عام ١٤١٣ هـ، مرجع سابق، ٧.

(٣) الأسرة النووية هي: الأسرة التي تتألف من أب وأم وأطفالهما، أما الممتدة فهي: الأسرة التي يسكن معها شخص آخر على الأقل بشرط أن تربطه رابطة قرابة بالعائلة.

ولعل تعبير حجم الأسرة وتركيبها يعكس بعض التحول في بعض المتغيرات الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية لدى السكان. فتبعاً لتعداد ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م بلغ إجمالي عدد الأسر في منطقة المدينة المنورة ١٩٤٢٢٩ أسرة يعيش فيها ١٠٨٤٩٤٧ نسمة، وبمتوسط ٥,٦ أفراد للأسرة الواحدة. وقد صنف ٣,٨٪ من إجمالي السكان على أنهم أفراد يعيشون في مساكن عامة. ويقصد بالمسكن العام المكان المخصص لسكن مجموعة من الأفراد لا تربطهم صلة قرابة ويشملون نزلاء الفنادق، والاستراحات، والأقسام الداخلية بالمستشفيات، وعنابر المرضى، والمدن الجامعية، والمدارس الداخلية، ودور الضيافة، والسجون، ومؤسسات الرعاية الاجتماعية، ومعسكرات العمل.

وتسود في المنطقة الأسر التي تربطها علاقات صلة قرابة، إذ نجد أن الأفراد الذين يقطنون داخل الأسرة وتربطهم علاقة قرابة برب الأسرة يشكلون ٩٣,٥٪، في حين أن الباقين ٦,٥٪ أفراد لا تربطهم علاقة برب الأسرة. وينطبق ذلك بشكل واضح على السكان السعوديين، إذ ترتفع نسبة الأفراد الذين يعيشون داخل أسر تربطهم علاقة برب الأسرة إلى ٩٩,٥٪، مقارنة بـ٢٦,٧٪ من السكان غير السعوديين. وتعني هذه الحقائق أن سرعة التحضر وزيادة عدد سكان المدن في المنطقة لم تضعف من قوة الروابط الأسرية في المنطقة.

وتشير بيانات تعداد ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م إلى أن حجم الأسرة يتفاوت تبعاً للجنسية. فمن الملاحظ أن متوسط أفراد الأسرة السعودية يرتفع إلى ٥,٨ أفراد للأسرة الواحدة، وينخفض للأسرة غير السعودية إلى ٥,١ أفراد للأسرة الواحدة.

وتسود في المنطقة الأسر التي يرأسها الذكور بنسبة ٨٨,٣٪، وينطبق ذلك على السعوديين وغير السعوديين، إذ كانت نسبة أرباب الأسر الذكور بين السعوديين ٧٢,٧٪، و٩٥,٨٪ للسكان غير السعوديين.

ويشير المسح الاقتصادي الاجتماعي لمشروع دراسات المخطط الإقليمي لمنطقة المدينة المنورة للعام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م إلى أن حجم الأسرة يتفاوت بين المدن والقرى تبعاً للجنسية. وقد أوضحت هذه البيانات أن متوسط عدد أفراد الأسرة السعودية بلغ ٦,٧ أفراد في المدينة المنورة، وارتفع إلى ٧,٤ أفراد في باقي المنطقة، وبلغ متوسط أفراد الأسرة غير السعودية ٧,٢ أفراد في المدينة المنورة، وتناقص إلى ٦,١ أفراد في المراكز الحضرية الأخرى في المنطقة، وإلى ٥,١ أفراد في المناطق الريفية. ولعل هذا التباين يعكس اختلاف الخصائص الديموغرافية والاجتماعية بين سكان المدينة المنورة والمراكز العمرانية الأخرى في المنطقة، سواء كان الأمر يتعلق بالسكان السعوديين أو غير السعوديين. ومن هذه الخصائص اتجاه الأسر السعودية المقيمة في المدينة المنورة إلى تفضيل الأسر الصغيرة أكثر من الأسر التي تقيم في المراكز الحضرية الأخرى أو القرى. أما بالنسبة إلى السكان غير السعوديين، فيرتبط ارتفاع متوسط عدد أفرادها في المدينة المنورة عن المدن الأخرى أو القرى بوجود نسبة لا بأس بها من الأسر المكونة من مجموعات لا تربطها صلة قرابة، وإنما تربطها صلة العمل أو الجنسية. وعلى الرغم من انخفاض متوسط حجم

جدول ٣٧
التوزيع النسبي للأسر حسب حجم الأسرة والجنسية ومحل الإقامة ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م(*)

حجم الأسرة	الأسر السعودية			الأسر غير السعودية		
	المدينة المنورة	مدن أخرى	القرى	المدينة المنورة	مدن أخرى	القرى
(١ ـ ٤) أفراد	٢٥,٠	٢٣,٠	٢٦,٥	٣٥،٦	٥٤,٣	٣١,٨
(٥ ـ ٨) أفراد	٤٣,٩	٤٣,٥	٣٧,٠	٥١,٠	٣٩,٥	٦٨,٢
(٩) فأكثر	٣١,١	٣٣,٥	٣٦,٥	١٣,٤	٦,٢	-
المتوسط	٦,٧	٧,٤	٧,٤	٧,٢	٦,١	٥,١

الأسرة السعودية مقارنة بالأسرة غير السعودية في المدينة المنورة إلا أن الزيادة في هذا المتوسط في عام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م مقارنة بعام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م يفرض مؤشرات يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند التخطيط لتنمية السكن من حيث الحجم وتوافر الخدمات والمرافق.

وتشير بيانات مسح عام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م إلى أن نحو ربع الأسر السعودية لا يزيد عدد أفرادها على أربعة أفراد، أما الأسر التي يراوح عدد أفرادها بين ٥ و٨ أفراد فتصل إلى ٤٣,٩ و٤٣,٥٪ في المدينة المنورة والمدن الأخرى في المنطقة على التوالي. وتنخفض هذه النسبة إلى ٣٧٪ في القرى. أما الأسر التي يزيد عدد أفرادها على ٨ أفراد، فتزداد في القرى بنسبة ٣٦,٥٪، وتنخفض في المدينة المنورة إلى ٣١,١٪، وفي المدن الأخرى إلى ٣٣,٥٪. أما بالنسبة إلى الأسر غير السعودية فهي في الغالب من الأسر الصغيرة أو المتوسطة الحجم، (جدول ٣٧).

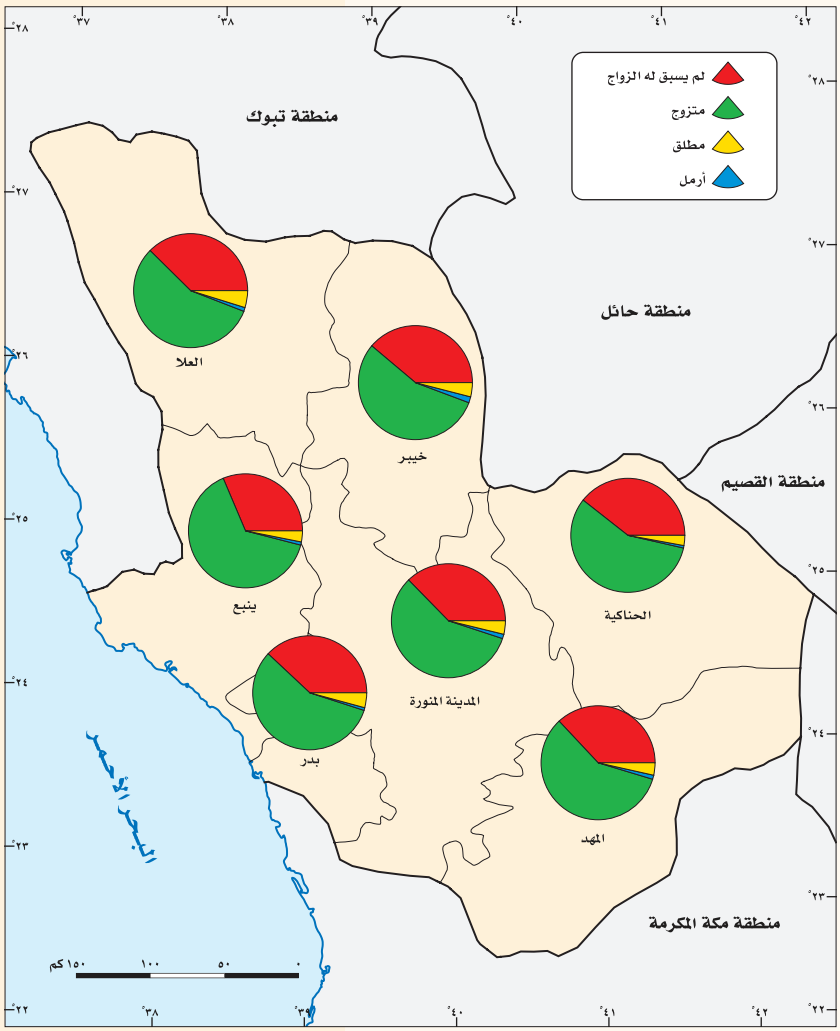

خريطة ١٨: الحالة الزواجية (١٢ سنة فأكثر) في محافظات منطقة المدينة المنورة لعام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م(**)

د ـ الحالة الزواجية:

تعد الأسرة نواة المجتمع، ويعتمد بالتالي صلاح المجتمع وتطوره على صلاح الأسرة

(*) المصدر: استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى، مشروع دراسة المخطط الإقليمي لمنطقة المدينة المنورة، تقرير رقم ١ ـ ٢، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م، ٤ ـ ١٣.

(**) المصدر: من إعداد الموسوعة اعتماداً على بيانات وزارة الاقتصاد والتخطيط ممثلة بمصلحة الإحصاءات العامة.

جدول ٣٨
التغيرات في الحالة الزواجية في منطقة المدينة المنورة للسكان ١٢ سنة فأكثر حسب الجنسية والنوع، ١٣٩٤ هـ - ١٤١٣ هـ/١٩٧٤ - ١٩٩٢ م(*)

الجنسية	النوع	الحالة الزواجية	١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م ٪	١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م ٪
سعوديون	ذكر	أعزب	٤١,٠	٤٨,٠
		متزوج	٥٤,٩	٥٠,٠
		مطلق	٠,٩	٠,٦
		أرمل	٢,٧	٠,٩
		غير مبين	٠,٥	-
	أنثى	أعزب	٢٣,٨	٣٣,٥
		متزوج	٦٣,٣	٥٧,٦
		مطلق	١,٨	١,٧
		أرمل	١٠,٦	٧,٢
		غير مبين	٠,٥	-
غير سعوديين	ذكر	أعزب	٣٥,٨	٢٨,٣
		متزوج	٥٩,٩	٧١,٢
		مطلق	١,٥	٠,٢
		أرمل	٢,٢	٠,٣
		غير مبين	٠,٦	-
	أنثى	أعزب	١٦,٢	٢٧,٦
		متزوج	٦٥,١	٦٤,٩
		مطلق	٣,٢	٢,٤
		أرمل	١٤,٨	٥,١
		غير مبين	٠,٧	-
المجموع	ذكر	أعزب	٤٠,٤	٤٠,٥
		متزوج	٥٥,٦	٥٨,٣
		مطلق	٠,٩	٠,٥
		أرمل	٢,٦	٠,٧
		غير مبين	٠,٥	-
	أنثى	أعزب	٢٣,٢	٣٢,٥
		متزوج	٦٣,٥	٥٨,٨
		مطلق	١,٩	١,٩
		أرمل	١٠,٩	٦,٨
		غير مبين	٠,٥	-

(*) المصدر: مصلحة الإحصاءات العامة، التعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٣٩٤ هـ، ١٣٩٧ هـ؛ مصلحة الإحصاءات العامة، النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣ هـ، ١٤١٨ هـ.

وتلاحمها. ولقد فرض تطور الحياة عدة تغيرات على الأسرة وعلاقتها في العالم. ولعل دراسة الحالة الزواجية وتغيراتها عبر الزمن يعد أحد المؤشرات لدراسة الحالة الاجتماعية التي تعكس مدى متانة التركيب الاجتماعي. وإن تحديد هذه التغيرات مفيد جداً في تحديد اتجاهات الإنجاب ونمو المجتمع.

ويوضح (جدول ٣٨) تغيرات الحالة الزواجية بين عامي ١٣٩٤ و١٤١٣ هـ/١٩٧٤ و١٩٩٢ م، حيث حافظ مجموع الذكور على نسب حالات العزوبية، وازدادت نسب حالات الزواج، وتناقصت نسب حالات الطلاق والترمل. أما الإناث فقد ازدادت نسبة العازبات بينهن، وقلت نسبة المتزوجات والأرامل، وبقيت نسبة المطلقات على حالها.

وتتباين الحالة الزواجية حسب النوع والجنسية، إذ أوضح (جدول ٣٨) أن نسبة العزاب قد ازدادت بين الذكور والإناث السعوديين بين عامي ١٣٩٤ و١٤١٣ هـ/ ١٩٧٤ و١٩٩٢ م. أما المتزوجون من السكان السعوديين ١٢ سنة فأكثر فقد بلغت نسبة الذكور منهم نحو ٥٥٪ في ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م، وتناقصت إلى ٥٠٪ في ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م، وكانت ٦٣,٣٪ بين الإناث سنة ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، وتناقصت إلى ٥٧,٦٪ في سنة ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م. وتقل هذه النسب قليلاً عن نسبة المتزوجين على مستوى المملكة ٥٨,٤٪ للذكور، ٥٧,٧٪ للإناث. وتزيد نسبة المطلقات على المطلقين السعوديين ولكنها تتجه بشكل عام إلى التناقص للجنسين. وترتفع نسبة الأرامل من السعوديات أكثر من الذكور،

جدول ٣٩
التوزيع النسبي للسكان ١٢ سنة فأكثر حسب الحالة الزواجية والنوع في محافظات منطقة المدينة المنورة ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م(*)

المحافظة	الحالة الزواجية والنوع							
	لم يسبق له الزواج		متزوج		مطلق		أرمل	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث
المدينة المنورة ومراكزها	٤١,٣	٣٣,٣	٥٧,٦	٥٧,٦	٠,٥	٢,٠	٠,٦	٧,١
ينبع	٣٥,٣	٢٧,٥	٦٣,٦	٦٥,٦	٠,٥	١,٣	٠,٧	٥,٦
العلا	٣٩,٥	٣٥,٧	٥٨,٦	٥٤,٤	٠,٥	١,٧	١,٤	٨,٢
بدر	٤٢,٢	٣٣,٩	٥٦,٣	٥٧,٧	٠,٥	١,٠	١,١	٧,٤
المهد	٤٣,٢	٣٠,٧	٥٥,٨	٦٠,٩	٠,٤	١,٩	٠,٦	٦,٤
خيبر	٤٤,٠	٣٣,٧	٥٤,١	٥٦,٨	٠,٧	٢,٧	١,٢	٦,٨
الحناكية	٤٤,٧	٣٢,٣	٥٤,٥	٦١,٥	٠,٤	١,٠	٠,٤	٥,٢
المجموع	٤٠,٥	٣٢,٥	٥٨,٣	٥٨,٨	٠,٥	١,٩	٠,٧	٦,٨

ولكنها تتجه أيضاً إلى التناقص من عام ١٣٩٤و١٤١٣ هـ/١٩٧٤و ١٩٩٢ م.

أما بالنسبة إلى السكان غير السعوديين فقد تناقصت نسبة العزاب الذكور، وتزايدت نسبة الإناث العازبات بين عامي ١٣٩٤ و١٤١٣ هـ / ١٩٧٤ و ١٩٩٢ م. وفي المقابل تزايدت نسبة المتزوجين من الذكور وحافظت الإناث على نسبتهن تقريباً بين السنتين. وتناقصت كذلك نسبة المطلقين والأرامل من الذكور والإناث. ولعل هذه التغيرات تعكس تحسن الأوضاع الاقتصادية لغير السعوديين، ونجاح ضوابط الهجرة إلى المملكة التي حدت من هجرة غير السعوديين من أصحاب المهن الدنيا التي لا يسمح لها بجلب أسرها، ما يعني تزايد عدد الوافدين من أصحاب الدخل المرتفع الذين يسمح لهم بجلب أسرهم.

وتشير بيانات توزيع السكان ١٢ سنة فأكثر حسب الحالة الزواجية والنوع في محافظات منطقة المدينة المنورة إلى أن أعلى نسب الذكور الذين لم يسبق لهم الزواج توجد في محافظة الحناكية، وأقلها في محافظة ينبع، في حين تتقارب حالات الإناث غير المتزوجات في معظم المحافظات، إذ تراوح بين ٢٧,٥ و٣٥,٧٪، وتنخفض بشكل واضح في محافظة ينبع. وفي المقابل ترتفع حالات الزواج للذكور والإناث في محافظة ينبع، وبشكل عام تتجاوز النسبة ٥٠٪ من مجموع الذكور أو الإناث. وترتفع حالات الطلاق، وخصوصاً للإناث في المدينة المنورة ومحافظة خيبر. وترتفع حالات الترمل في محافظتي العلا وبدر، وهي أكثر وضوحاً للإناث منها للذكور في المحافظات جميعاً، (جدول ٣٩).

كما تشير بيانات المسح الاجتماعي ـ الاقتصادي إلى مشروع دراسة المخطط الإقليمي لمنطقة المدينة المنورة في عام ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨ م إلى تفاوت

(*) المصدر: مصلحة الإحصاءات العامة، النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣ هـ، ١٤١٨ هـ.

جدول ٤٠

التوزيع النسبي للسكان السعوديين حسب الحالة الزواجية والنوع ومكان الإقامة ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م(*)

الحالة الزواجية	ذكور			إناث		
	المدينة المنورة	المدن الأخرى	القرى	المدينة المنورة	المدن الأخرى	القرى
أعزب	٥١,٢	٥٧,٦	٦٥,٨	٤٢,٢	٤٧,٥	٥٥,١
متزوج	٤٨,٢	٤١,٩	٣٣,٨	٥٢,٥	٤٦,٨	٤٠,٣
مطلق	٠,٢	٠,٣	٠,١	١,٠	١,١	٠,٤
أرمل	٠,٤	٠,٢	٠,٣	٤,٣	٤,٦	٤,٢

جدول ٤١

التوزيع النسبي للسكان ١٢ سنة فأكثر حسب الحالة الزواجية وفئات العمر في منطقة المدينة المنورة ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م(**)

الفئات العمرية بالسنوات	الحالة الزواجية والنوع											
	لم يسبق له الزواج		متزوج		مطلق		أرمل		المجموع		
	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	المجموع
١٢ - ١٤	٩٩,٩	٩٩,١	٠,٠٠٧	٠,٩	٠,٠٠٥	٠,٠١	٠,٠١	٠,٠٠٧	٥٠,٣	٤٩,٧	١٠٠,٠
١٥ - ١٩	٩٨,٩	٧٦,٦	١,١	٢٢,٩	٠,٠١	٠,٤	٠,٠١	٠,٠٨	٤٩,١	٥٠,٩	١٠٠,٠
٢٠ - ٢٤	٧٧,٦	٢٧,٦	٢٢,١	٧٠,٧	٠,٢	١,٤	٠,١	٠,٣	٥١,٩	٤٨,١	١٠٠,٠
٢٥ - ٢٩	٤٠,٨	٨,٨	٥٨,٧	٨٨,٦	٠,٥	٢,١	٠,١	٠,٦	٥٩,٠	٤١,٠	١٠٠,٠
٣٠ - ٣٤	١٤,٣	٧,٤	٨٥,٠	٨٨,٦	٠,٥	٢,٤	٠,١	١,٦	٦١,٥	٣٨,٥	١٠٠,٠
٣٥ - ٣٩	٤,٩	٢,٦	٩٤,٣	٩١,٨	٠,٦	٢,٥	٠,٢	٣,١	٦١,٧	٣٨,٣	١٠٠,٠
٤٠ - ٤٤	٢,٦	١,١	٩٦,٥	٩٠,١	٠,٦	٢,٤	٠,٣	٦,٥	٦٢,٣	٣٧,٧	١٠٠,٠
٤٥ - ٤٩	١,٩	٠,٧	٩٦,٩	٨٤,٦	٠,٧	٢,٩	٠,٤	١١,٨	٥٩,٠	٤١,١	١٠٠,٠
٥٠ - ٥٤	١,٥	٠,٧	٩٧,٠	٧٤,٩	٠,٧	٣,٥	٠,٨	٢٠,٩	٥٥,١	٤٤,٩	١٠٠,٠
٥٥ - ٥٩	١,٤	٠,٧	٩٦,٤	٦٥,٥	٠,٨	٤,٣	١,٤	٢٩,٥	٦٣,٩	٣٩,١	١٠٠,٠
٦٠ - ٦٤	١,٧	٠,٧	٩٤,٦	٥٢,٦	١,٢	٤,٩	٢,٥	٤١,٨	٦٠,٧	٣٩,٣	١٠٠,٠
٦٥ - ٦٩	١,٥	٠,٧	٩٢,٦	٢,٨	١,٣	٤,٤	٤,٦	٥١,٧	٦٣,٨	٣٦,٢	١٠٠,٠
٧٠ - ٧٤	١,٨	٠,٦	٨٩,٩	٢٨,٨	٢,٠	٤,٩	٦,٤	٦٥,٧	٥٧,٠	٤٣,٠	١٠٠,٠
٧٥ - ٧٩	١,٥	٠,٥	٨٨,٤	٢٣,٨	١,٤	٥,٢	٨,٧	٧٠,٥	٦١,٩	٣٨,١	١٠٠,٠
٨٠سنة فأكثر	٢,٢	٠,٦	٧٧,٦	١٠,٩	٢,٥	٥,٤	١٧,٧	٨٣,٢	٥٦,٩	٤٣,١	١٠٠,٠

(*) المصدر: استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى، مشروع دراسة المخطط الإقليمي لمنطقة المدينة المنورة، تقرير رقم ١/٢، ٤ - ١٧.

(**) المصدر: مصلحة الإحصاءات العامة، النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م، ١٤١٨ هـ/١٩٩٧ م

الحالات الزواجية بين المدينة المنورة والمدن الأخرى والقرى في المنطقة حسب النوع، (جدول ٤٠)، إذ يتضح تزايد نسبة العزاب والعازبات من السكان السعوديين في المدينة المنورة على نسب المنطقة المذكورة في (جدول ٣٩). وترتفع نسبة العزاب والعازبات بشكل أكبر في المدن الأخرى في المنطقة لتصل أقصاها إلى ٦٥,٨٪ للذكور في قرى المنطقة. وتنخفض نسبة المتزوجين في المدينة المنورة عن نسب عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م، وتتجه للانخفاض بشكل أكبر في المدن الأخرى والقرى في المنطقة، وكذلك الحال بالنسبة إلى الإناث. وتعني هذه النسب الاتجاه نحو تأخير سن الزواج بسبب التوسع في التعليم أو تحسن المستويات الاقتصادية أو غير ذلك.

ويتضح من (جدول ٤١) تناقص نسبة من لم يسبق لهم الزواج مع تقدم العمر لكل من الذكور والإناث، وهذا اتجاه سائد في معظم دول العالم، ولكن الملاحظ هنا في منطقة المدينة المنورة التناقص السريع من فئة العمر ١٥ ـ ١٩ سنة إلى فئة العمر ٢٠ ـ ٢٤ سنة، ولا سيما بالنسبة إلى الإناث؛ ما يعني الاتجاه لزواج الإناث في سن مبكرة. ويؤكد ذلك ارتفاع نسبة المتزوجات الإناث في الفئات العمرية نفسها. ويبدو أن العمر الذي تتم حوله نسبة عالية من حالات الزواج هو ٢٥ سنة للذكور، و٢٠ سنة للإناث.

كما تشير أيضاً بيانات المسح الاجتماعي ـ الاقتصادي لمشروع دراسة المخطط الإقليمي لمنطقة المدينة المنورة في عام ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م إلى تناقص نسبة من لم يسبق لهم الزواج خارج المدينة المنورة بصورة أكبر في الفئة العمرية ١٥ ـ ١٩ سنة، إذ بلغت هذه النسبة ٩١٪ في المدينة المنورة، ٨٤٪ في المدن الأخرى في المنطقة، ٨١٪ في قرى المنطقة[١].

أما نسب المطلقين فترتفع مع تقدم العمر، إذ تبدأ في الارتفاع الملحوظ في الفئة العمرية ٦٠ ـ ٦٤ سنة للذكور، وفي الفئة العمرية ٢٥ ـ ٢٩ للإناث، وتبلغ أقصاها في الفئة العمرية ٨٠ سنة فأكثر للذكور والإناث، وهي بشكل عام منخفضة جداً، إذ لا تشكل سوى ٠,٥٪ من مجموع الذكور في الفئة العمرية ١٢ سنة فأكثر، و١,٩٪ للإناث في عام ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م.

وترتفع حالات الترمل بشكل أكبر للذكور عند الفئة العمرية ٧٠ ـ ٧٤ سنة، وللإناث عند الفئة العمرية ٢٥ ـ ٤٩ سنة، وتشكل حالات الترمل ٠,٧٪ من مجموع الذكور ١٢ سنة فأكثر، و٦,٨٪ للإناث ١٢ سنة فأكثر.

هـ ـ الحالة التعليمية:(*)

تؤدي الحالة التعليمية للسكان دوراً مهماً في تحديد نوعية القوة البشرية للمجتمع. وقد خطت المملكة خطوات سريعة نحو تحسين الخصائص التعليمية للسكان، خصوصاً السعوديين. ويؤكد ذلك التغير في مستويات التعليم خلال العقود الثلاثة الماضية.

تشير بيانات (جدول ٤٢) إلى تناقص نسبة الأمية بين مجموع السكان إلى الثلث تقريباً من ٦١,١٪ من مجموع السكان في عام ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م إلى ٢٠,٥٪ في عام ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م، وكان التناقص جلياً جداً بالنسبة إلى

(١) استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى، وعبدالله بخاري. مشروع دراسة المخطط الإقليمي لمنطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٤ ـ ١٧.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب السادس، (الخدمات والمرافق التنموية)؛ الفصل الأول.

جدول ٤٢

التغيرات في الحالة التعليمية في منطقة المدينة المنورة للسكان ١٠ سنوات فأكثر حسب الجنسية والنوع ١٣٩٤ هـ - ١٤١٣ هـ/١٩٧٤ م - ١٩٩٢ م(*)

الجنسية	النوع	الحالة التعليمية	٪من مجموع الجنسية، ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م	٪من مجموع الجنسية، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م
سعوديون	ذكر	أمي	٦٢,٩	١٩,٦
		يقرأ ويكتب	٢١,٧	٢٧,٠
		ابتدائي	٨,٦	٢٥,٩
		متوسط	٣,٨	١٢,٩
		ثانوي	١,٧	٨,٨
		دبلوم	٠,٤	١,٩
		جامعي	٠,٥	٣,٤
		دراسات عليا		٠,٥
		غير مبين	٠,٤	-
	أنثى	أمي	٨٥,٤	٤٤,١
		يقرأ ويكتب	٩,٤	٢١,٣
		ابتدائي	٣,١	١٦,٦
		متوسط	١,١	٩,٢
		ثانوي	٠,٤	٦,٢
		دبلوم	٠,١	٠,٩
		جامعي	٠,١	١,٦
		دراسات عليا		٠,١
		غير مبين	٠,٤	-
غير سعوديين	ذكر	أمي	٣٧,٢	٢٢,٢
		يقرأ ويكتب	٤٩,٢	٢٨,١
		ابتدائي	٣,٤	١٢,٩
		متوسط	٢,٣	١٠,٤
		ثانوي	٢,٩	١١,٩
		دبلوم	٠,٧	٥,٧
		جامعي	٣,٦	٧,٦
		دراسات عليا		١,٢
		غير مبين	٠,٧	-
	أنثى	أمي	٥٨,٦	٢٢,٠
		يقرأ ويكتب	٢٦,٤	٣١,٦
		ابتدائي	٤,٣	١٢,٩
		متوسط	٢,٩	١٠,٢
		ثانوي	٢,٨	٥,٣
		دبلوم	١,٤	٨,٠
		جامعي	٢,١	٠,٩
		دراسات عليا		-
		غير مبين	١,٥	-

(*) المصدر: مصلحة الإحصاءات العامة، التعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٣٩٤ هـ، ١٣٩٧ هـ؛ مصلحة الإحصاءات العامة، النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣ هـ، ١٤١٨ هـ.

الجنسية	النوع	الحالة التعليمية	٪من مجموع الجنسية، ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م	٪من مجموع الجنسية، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م
المجموع	ذكر	أمي	٦١,١	٢٠,٥
		يقرأ ويكتب	٢٣,٢	٢٧,٣
		ابتدائي	٨,١	٢١,٢
		متوسط	٣,٧	١٢,١
		ثانوي	١,٩	٩,٥
		دبلوم	٠,٥	٣,٣
		جامعي	١,٠	٤,٩
		دراسات عليا		٠,٧
		غير مبين	٠,٥	٠,١
	أنثى	أمي	٨٣,٥	٤٠,٤
		يقرأ ويكتب	١٠,٤	٢٣,٠
		ابتدائي	٣,٢	١٦,١
		متوسط	١,٢	٩,٢
		ثانوي	٠,٥	٦,٨
		دبلوم	٠,٥	١,٧
		جامعي	٠,٢	٢,٦
		دراسات عليا		٠,٢
		غير مبين	٠,٥	-

السكان السعوديين. وقد كانت نسبة الأمية أقل بين السكان غير السعوديين، ومع ذلك فقد تناقصت حتى بالنسبة إليهم بين عامي ١٣٩٤ و١٤١٣ هـ/ ١٩٧٤ و١٩٩٢ م. وتزايدت نسبة المتعلمين، وبخاصة حاملو الشهادة الابتدائية للذكور والإناث السعوديين. أما بالنسبة إلى السكان غير السعوديين، فقد كانت نسبة المتعلمين منهم أكبر من السكان السعوديين في عام ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م، ومع هذا فقد تحسنت مستويات تعليمهم في عـــام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م. ويلاحظ ارتفاع نسبة الحاملين لشهادات دراسات عليا، وخصوصاً الذكور السعوديين وغير السعوديين، وكذلك غير السعوديات.

وتشير بيانات توزيع السكان ١٠ سنوات فأكثر حسب الحالة التعليمية والنوع في محافظات منطقة المدينة المنورة في عام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م إلى أن نسبة الأمية تقل في المدن والمحافظات الرئيسة التي تنتشر فيها خدمات التعليم مثل المدينة المنورة وينبع، وتزداد هذه النسبة إلى أقصاها بالنسبة إلى الذكور في محافظة خيبر ٣٧,٨٪ من مجموع الذكور في المحافظة، وفي محافظة المهد بالنسبة إلى الإناث. وترتفع مستويات التعليم الأخرى بشكل واضح في المدينة المنورة وينبع، (جدول ٤٣). وأن من يحملون الشهادة الابتدائية يشكلون نحو خمس الذكور في معظم المحافظات، ويلاحظ

انخفاض نسبة من يحملون شهادات عليا في محافظات المنطقة جميعها، بما فيها المدينة المنورة وينبع، (خريطة ١٩). وتتفق هذه الحقيقة مع النسب العامة في المملكة، إذ تنخفض نسبة من يحملون شهادات عليا عن ١٪ للذكور والإناث.

ويلاحظ أن نسبة الأمية تتناقص بوضوح بين الأفواج العمرية الصغيرة، ففي حين كانت نسبة الأمية بين الذكور ٦٥ سنة فأكثر تصل إلى ٨٠,٢٪ من مجموع الذكور في هذه الفئة العمرية، نجدها تنخفض تدريجياً لتصل إلى ١٩,٥٪ للفئة ٣٠ ـ ٣٤ سنة، وتواصل الانخفاض لتصل إلى ٣,٢٪ للفئة ١٠ ـ ١٤ سنة. ونجد أن المستويات التعليمية الأساسية ترتفع أيضاً بين صغار السن ومتوسطي الأعمار أكثر منها بين الفئات العمرية المتقدمة. وهذا يعني حداثة التعليم في المملكة وأنه لم يترسخ بعد في الأفواج العمرية المتقدمة. أما التعليم العالي فيرتفع بين الفئات العمرية المتوسطة ٣٠ ـ ٥٤ سنة، خصوصاً بين الذكور، (جدول ٤٤).

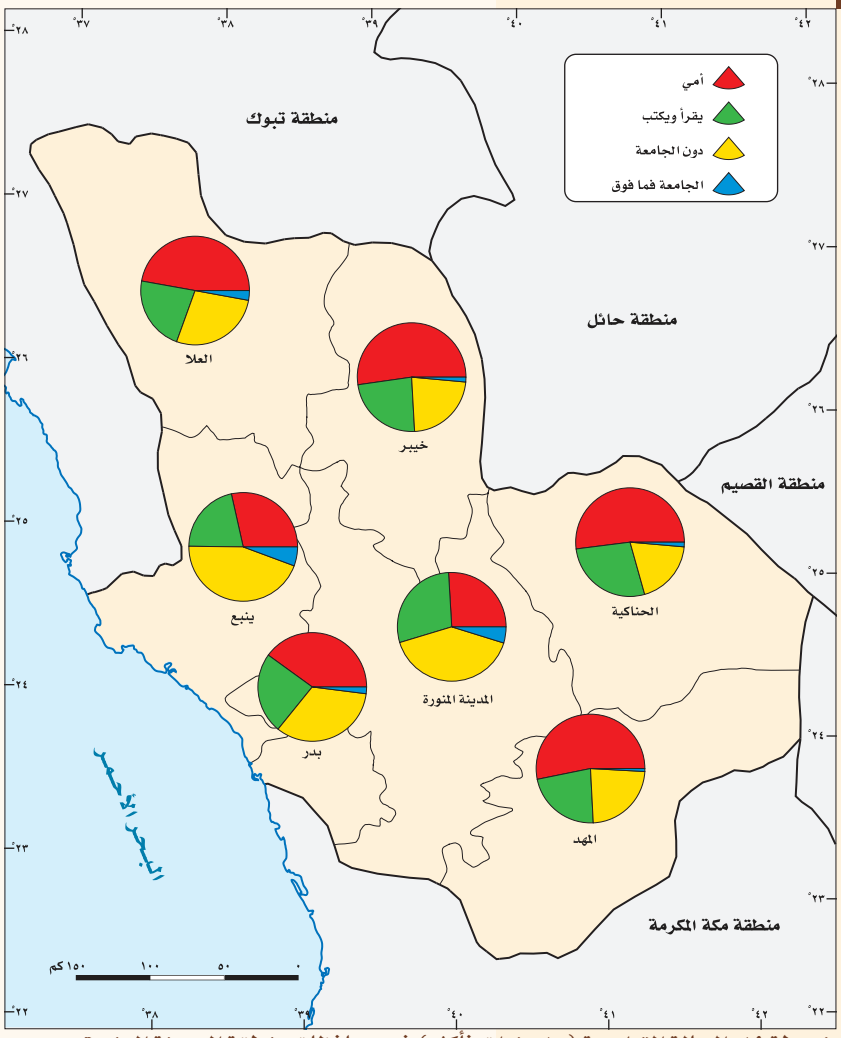

خريطة ١٩: الحالة التعليمية (١٠ سنوات فأكثر) في محافظات منطقة المدينة المنورة لعام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م(*)

(*) المصدر: من إعداد الموسوعة اعتماداً على بيانات وزارة الإقتصاد والتخطيط ممثلة بمصلحة الإحصاءات العامة.

جدول ٤٣
التوزيع النسبي للسكان (١٠) سنوات فأكثر حسب الحالة التعليمية والنوع في محافظات منطقة المدينة المنورة ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م(*)

الوحدة الإدارية	الحالة التعليمية والنوع															
	أمي		يقرأ ويكتب		ابتدائي		متوسط		ثانوي		دبلوم		جامعي		دراسات عليا		المجموع	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث
المدينة المنورة ومراكزها	١٦,٠	٣٣,٣	٢٨,٨	٢٥,٨	٢٢,٣	١٨,٠	١٣,١	١٠,٤	١٠,٧	٧,٨	٣,١	١,٦	٥,٢	٢,٩	٠,٨	٠,٢	٦٤,٨	٦٣,٧
ينبع	١٨,١	٣٧,٥	٢١,١	٢٠,٥	١٩,٨	١٦,٥	١٣,٨	١٠,٣	١٤,٥	٨,٩	٥,٣	٢,٧	٦,٣	٣,٣	١,١	٠,٣	١٦,٧	١٤,٥
العلا	٣٥,١	٥٩,٣	٢٧,٦	١٦,٩	٢٠,٧	١٠,٦	٧,٤	٦,٠	٣,٥	٣,٤	٢,٢	١,٥	٣,٣	٢,٢	٠,٢	٠,١	٤,٥	٤,٩
بدر	٢٩,٥	٥٠,٥	٢٨,١	٢٠,٢	٢٠,٥	١٤,٩	١٠,٤	٧,٣	٦,٦	٤,٧	٢,٤	٠,٩	٢,٣	١,٤	٠,٢	٠,١	٤,٢	٥,١
المهد	٢٩,٩	٧٤,٦	٣١,٦	١٢,٨	٢٠,٦	٧,٠	٦,٧	٢,٣	٤,٢	١,٢	٢,٧	١,١	٤,٠	٠,٩	٠,٣	٠,١	٤,١	٤,٩
خيبر	٣٧,٨	٦٦,١	٣٢,٣	١٥,٢	١٩,٨	١٠,٦	٤,٦	٤,٢	١,٦	٢,٣	١,٨	٠,٦	١,٩	٠,٨	٠,٢	-	٣,١	٣,٩
الحناكية	٣٥,٠	٦٩,١	٣٦,٤	١٨,٣	١٦,٧	٦,٦	٦,٢	٢,٨	٢,٦	١,٤	١,٢	٠,٩	١,٧	٠,٨	٠,٢	٠,١	٢,٦	٣,٠
المجموع	٢٠,٥	٤٠,٤	٢٧,٣	٢٣,٠	٢١,٢	١٦,١	١٢,١	٩,٢	٩,٩	٦,٨	٣,٣	١,٧	٤,٩	٢,٦	٠,٧	٠,٢	١٠٠	١٠٠,٠

جدول ٤٤
التوزيع النسبي للسكان ١٠ سنوات فأكثر حسب الحالة التعليمية والنوع وفئات العمر في منطقة المدينة المنورة ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م(**)

الفئات العمرية	الحالة التعليمية															
	أمي		يقرأ ويكتب		ابتدائي		متوسط		ثانوي		دبلوم		جامعي		دراسات عليا	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث
١٤-١٠	٣,٢	١٧,٠	٧٠,٤	٥٧,٨	٢٦,٢	٢٤,٦	٠,٢	٠,٦								
١٩-١٥	٤,١	٢١,٨	١٣,٤	١١,٢	٤٥,٢	٢٩,٩	٣٣,٣	٣,٤	٣,٩	٦,٦	٠,١	٠,١				
٢٤-٢٠	٩,٨	٢٥,٨	١٣,٤	١٢,١	٢٢,٠	١٥,٩	٢٣,٦	١٦,٧	٢٦,٩	٢٢,٩	٢,٢	٢,٦	٢,١	٣,٩	٠,١	٠,١
٢٩-٢٥	١٥,٩	٣٤,٣	١٩,٦	١٥,١	١٩,٤	١٤,٤	١٤,٥	١٠,١	١٦,٩	١٣,١	٥,٧	٤,٤	٧,٨	٨,٤	٠,٢	٠,٢
٣٤-٣٠	١٩,٥	٣٩,٢	٢٠,٦	٢٢,٦	١٧,١	١٢,١	١٢,٣	٦,٩	١٤,٤	٨,٥	٥,٤	٤,٠	٩,٦	٦,٣	١,١	٠,٦
٣٩-٣٥	٢٢,٣	٥٧,١	٢١,٦	١٧,٦	١٦,١	٨,٧	٩,٣	٤,٠	١١,٨	٤,٩	٦,٦	٣,٠	١٠,٢	٤,١	٢,١	٠,٦
٤٤-٤٠	٢٦,٧	٧٠,٣	٢٢,١	١٤,٠	١٥,٤	٥,٨	٧,٧	٢,١	٩,٦	٢,٨	٦,٤	١,٩	٩,٦	٢,٦	٢,٥	٠,٥
٤٩-٤٥	٣٢,٧	٧٩,٢	٢١,٨	١٢,٢	١٥,١	٣,٨	٦,٧	١,١	٨,٢	١,٤	٥,٨	١,٠	٧,٦	١,١	٢,١	٠,٢
٥٤-٥٠	٤٢,٨	٨٦,٧	٢١,٥	٨,٧	١٢,٥	٢,٢	٥,٦	٠,٧	٦,٢	٠,٦	٣,٧	٠,٤	٥,٦	٠,٥	٢,١	٠,٢
٥٩-٥٥	٥٣,٦	٨٩,٢	٢١,٧	٧,٩	١١,٣	١,٥	٣,٦	٠,٢	٣,٥	٠,٥	١,٨	٠,٢	٣,٢	٠,٣	١,٣	٠,٢
٦٤-٦٠	٦٨,٨	٩٢,٩	١٨,١	٥,٧	٦,٨	٠,٧	١,٨	٠,١	١,٧	٠,٢	٠,٦	٠,١	١,٧	٠,٢	٠,٥	٠,١
٦٥ سنة فأكثر	٨٠,٢	٩٦,٤	١٤,٢	٣,١	٣,٢	٠,٢	٠,٧	٠,٠٢	٠,٧	٠,١	٠,٢	٠,٠٦	٠,٧	٠,٠٢	٠,١	٠,١
المجموع	٢٠,٥	٤٠,٤	٢٧,٣	٢٣,٠	٢١,٢	١٦,٠	١٢,١	٩,٢	٩,٩	٦,٨	٣,٣	١,٧	٤,٩	٢,٦	٠,٧	٠,٢

(*) المصدر: مصلحة الإحصاءات العامة، النتائج التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣ هـ، ١٤١٨ هـ.

(**) المصدر السابق.

الفصل الثامن

العمران

أولاً مراكز العمران الريفية

ثانياً التوزيع الحجمي للمراكز العمرانية الريفية

ثالثاً مراكز العمران الحضرية والتركيب الحجمي لها

إعداد

الأستاذ الدكتور محمد شوقي بن إبراهيم مكي

أستاذ جغرافيا العمران

جدول ٤٥

التوزيع العددي والنسبي للقرى في منطقة المدينة المنورة حسب الحجم(*)

الوحدة الإدارية	أقل من ١٠٠ نسمة		١٠٠ ـ ٤٩٩ نسمة		٥٠٠ ـ ٩٩٩ نسمة		١٠٠٠ ـ ٢٤٩٩ نسمة		٢٥٠٠ ـ ٤٩٩٩ نسمة		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
المدينة المنورة ومراكزها	٢٣٥	٨٠,٨	٢١	٧,٢	٢٠	٦,٩	١٠	٣,٤	٥	١,٧	٢٩١	١٠٠,٠
محافظة ينبع	١٣٨	٦٣,٠	٦٤	٢٩,٢	٩	٤,١	٧	٣,٢	١	٠,٥	٢١٩	١٠٠,٠
محافظة العلا	١٣٢	٦٤,٧	٥٩	٢٨,٩	٩	٤,٤	٣	١,٥	١	٠,٥	٢٠٤	١٠٠,٠
محافظة بدر	٨٨	٥٧,٥	٥٥	٣٦,٠	٤	٢,٦	٤	٢,٦	٢	١,٣	١٥٣	١٠٠,٠
محافظة المهد	٤٣	٢٩,٧	٦٩	٤٧,٦	١٩	١٣,١	١٤	٩,٦	-	-	١٤٥	١٠٠,٠
محافظة خيبر	١١٨	٦٢,٤	٥٩	٣١,٢	٧	٣,٧	٤	٢,١	١	٠,٦	١٨٩	١٠٠,٠
محافظة الحناكية	٢٦	٢٤,١	٥٨	٥٣,٧	١٤	١٣,٠	٩	٨,٣	١	٠,٩	١٠٨	١٠٠,٠
المجموع	٧٨٠	٥٩,٦	٣٨٥	٢٩,٤	٨٢	٦,٣	٥١	٣,٩	١١	٠,٨	١٣٠٩	١٠٠,٠

مرت منطقة المدينة المنورة بعدة مراحل في نموها السكاني، وكل مرحلة من تلك المراحل تمثل لبنة في نموها العمراني. والتاريخ العمراني في المنطقة ممعن في القدم، فهي جزء من شبه جزيرة العرب التي استقبلت عدة هجرات استقرت شمال المنطقة ووسطها وجنوبها. فقد استقطب شمال المنطقة في بلاد الحجر ومدائن صالح والعلا دولة عاد الأولى منذ ما قبل القرن السابع قبل الميلاد التي اشتهرت بالقدرة الفائقة على الإنشاء والتعمير والبذخ في الزخرفة والمغالاة في الترف[١]. كما أن تاريخ يثرب ممعن في القدم، مع صعوبة التحديد الدقيق لأول من اختطها، وتجمع المصادر التاريخية العربية على أن المدينة المنورة تم استيطانها بعد حدوث الفيضان في عهد نوح (نحو منتصف الألف الثالث قبل الميلاد) من قبل قوم من العماليق (قبيلة عبيل) التي أوجدت مدينة إلى الشمال قليلاً من موقع المدينة المنورة الحالي، إذ يحتمل أن الاستيطان الأول في المدينة المنورة كان في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد[٢].

أولاً- مراكز العمران الريفية:

عرف التعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣ هـ/١٩٩٢ م القرية بأنها: مكان به تجمع سكاني ثابت وله اسم متعارف عليه وغالباً لا يقل سكانه عن ٥٠ نسمة. كما حدد المدينة بأنها كل تجمع سكاني به بلدية أو يزيد عدد سكانه على ٥٠٠٠ نسمة[٣]؛ وبهذا يكون عدد القرى في منطقة المدينة المنورة ١٤٥٧ تجمعاً قروياً في عام ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م. وتتكون منطقة المدينة المنورة من المدينة المنورة ومراكزها وست محافظات. وتتشكل من العناصر التالية:

- المدينة المنورة: (مقر الإمارة)، ومعظم المحافظات أحادية المدينة.

(١) مدني، أمين. التاريخ العربي وبدايته، مرجع سابق، ٢٥٠، ٢٥١.

(٢) المرجع السابق، ٧٧.

(٣) وزارة التخطيط، مصلحة الإحصاءات العامة. البيانات التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣ هـ، مرجع سابق، ٥.

(*) المصدر: استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى ومكتب عبدالله بخاري، المخطط الهيكلي للمحافظات، تقرير رقم٢، (المدينة المنورة: أمانة المدينة المنورة، ١٤٢٠ هـ.

- المحافظات وتسمى كل محافظة باسم مقر الإدارة بها، ومعظم المحافظات أحادية المدينة.
- مركز: تتكون كل محافظة من مجموعة من المراكز تتفاوت أعدادها من محافظة إلى أخرى.
- قرية أو هجرة: يتبع كل مركز مجموعة من القرى ذات الأحجام السكانية المختلفة والأعداد المتفاوتة بين ١٠٨ قرى في محافظة الحناكية و٢٩١ قرية في المدينة المنورة ومراكزها، (جدول ٤٥ و٤٦).

ويتشكل الهيكل العمراني لمنطقة المدينة المنورة، بالإضافة إلى المدينة المنورة، من مجمع قروي واحد وعدد من المراكز التي سبق إيضاحها في الفصل الأول.

ويختلف ترتيب المحافظات في عدد القرى عن عدد المراكز، إذ تحتل المدينة المنورة وقراها المرتبة الأولى بنحو ٢٩١ قرية، (جدول ٤٦). ثم تأتي بعدها محافظتا ينبع والعلا لتحتلا المرتبة الثانية والثالثة بنحو ٢١٩ قرية، ٢٠٤ قرى على التوالي، (جدول ٤٥ و٤٦)، (خريطة ١٠).

ويتباين عدد القرى بين المراكز داخل كل محافظة، إذ نجد أن أكبر عدد للقرى ٤٨ قرية في مركز أبيار الماشي، وأقلها ٥ قرية في مركز الفقرة في القسم الإداري التابع للمدينة المنورة. وفي محافظة ينبع نجد أكبر تجمع للقرى ٤٣ قرية في مركز خمال، وأقلها ٦ في مركز أميرة. وفي محافظة العلا نجد أكبر تجمع للقرى ٢٧ قرية في مركز الهجر الثلاث، وأقلها ٣ في مركز شلال. وفي محافظة بدر نجد أكبر تجمع للقرى ٥٥ قرية في مركز المسيجيد، وأقلها ٦ لكل من مراكز

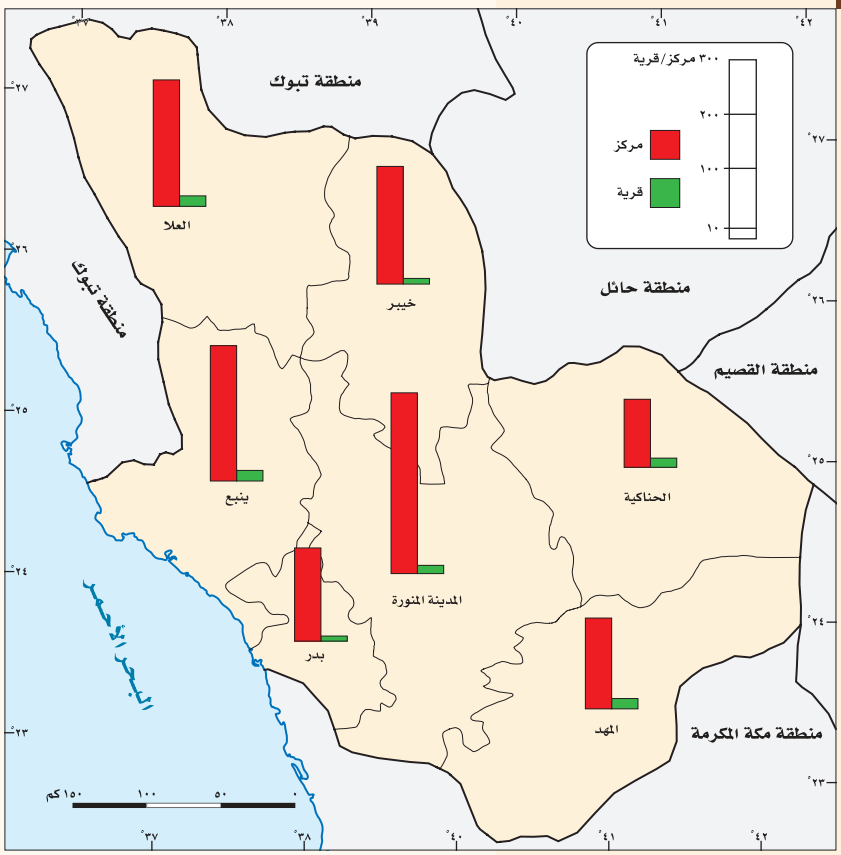

خريطة ١٠: توزيع المراكز والقرى في منطقة المدينة المنورة حسب المحافظات ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م

جدول ٤٦

التوزيع العددي والنسبي للمراكز العمرانية في منطقة المدينة المنورة حسب المحافظات ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م(*)

الوحدة الإدارية	المدن		القرى		٪ من إجمالي عدد السكان
	العدد	٪ من السكان	العدد	٪ من السكان	
المدينة المنورة ومراكزها	١	٧٤,٨	٢٩١	٢٧,٢	٦٣,٨
ينبع	٢	١٦,٠	٢١٩	٩,٤	١٥,٢
العلا	١	٣,٣	٢٠٤	١١,٢	٤,٧
بدر	١	٢,٦	١٥٣	١١,٤	٤,١
المهد	١	١,٠	١٤٥	٤,٨	٤,٣
خيبر	١	١,٣	١٨٩	١٧,١	٣,٩
الحناكية	١	١,٠	١٠٨	١٨,٩	٤,٠
المجموع	٨	١٠٠,٠	١٣٠٩	١٠٠,٠	١٠٠,٠

(*) المصدر: استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى ومكتب عبدالله بخاري، المخطط الهيكلي للمحافظات، تقرير رقم ٢، ١٤٢٠ هـ.

الرايس بئر الروحاء، الشفية. وفي محافظة المهد نجد أعلى تجمع للقرى ٣٢ قرية في القسم الإداري التابع لمدينة المهد، وأقلها ١ قرية في كل من مركز الحمنة والفاشية. وفي محافظة خيبر نجد أكبر تجمع للقرى ٩٢ قرية في مركز العشاش، وأقلها ٥ قرى في مركز العشيرة. وأخيراً في محافظة الحناكية نجد أكبر تجمع للقرى ٣٤ قرية في القسم الإداري التابع لمدينة الحناكية، وأقلها ١ في كل من مركز بلغه، وصخيبرة، حذرة، ضعة والشقرة، لكل منهما.

ويتباين حجم سكان القرى بين المحافظات، فيتضح أنه يشكل نحو ٨,٩٪ من مجموع سكان المدينة المنورة والمراكز التابعة لها، ونحو ٢٣٪ من مجموع سكان محافظة ينبع، و٤٥٪ من مجموع سكان محافظة العلا، و٥٢٪ من مجموع سكان محافظة بدر، و٧١٪ من مجموع سكان محافظة خيبر، و٨١٪ من مجموع سكان محافظة الحناكية، و٨٣٪ من مجموع سكان محافظة المهد.

ثانياً ـ التوزيع الحجمي للمراكز العمرانية الريفية:

يغلب على القرى الحجم الصغير حيث إن نحو ٦٠٪ من القرى تضم كل منها أقل من ١٠٠ نسمة، (جدول ٤٥). وتشكل هذه القرى ٨١٪ من مجموع قرى المدينة المنورة والمراكز التابعة لها. وتحتل العلا المرتبة الثانية بنسبة نحو ٦٥٪ من قرى المحافظة بهذا الحجم. وتلاحظ أقل نسبة للقرى الصغيرة في محافظة الحناكية ٢٤٪.

تحتل الفئة الحجمية ١٠٠ ـ ٤٩٩ نسمة المرتبة الثانية بنسبة نحو ٢٩,٤٪ من مجموع قرى منطقة المدينة المنورة. وتوجد أعلى نسبة لهذه الفئة الحجمية في محافظة الحناكية بنسبة نحو ٥٤٪ من مجموع قرى المحافظة، وأقلها في المدينة المنورة بنسبة نحو ٧,٢٪ من مجموع القرى التابعة للمدينة المنورة ومراكزها.

وتحتل الفئة الحجمية ٥٠٠ ـ ٩٩٩ نسمة المرتبة الثالثة بين قرى المنطقة بنسبة نحو ٦,٣٪ من مجموع القرى. وتوجد أعلى نسبة لهذه الفئة في محافظتي المهد والحناكية ١٣,١٪، ١٣,٠٪ على التوالي. وتوجد أقل نسبة لهذه الفئة الحجمية في محافظة بدر ٢,٦٪. وتشكل قرى الفئة الحجمية الرابعة ١٠٠٠ ـ ٢٤٩٩ نسمة نحو ٤٪ من مجموع قرى المنطقة. وتوجد أعلى نسب هذه الفئة في محافظة المهد ٩,٦٪ من قرى المحافظة، وأقلها في محافظة العلا بنسبة ١,٥٪ فقط.

وتحتل فئة ٢٥٠٠ ـ ٤٩٩٩ نسمة المرتبة الأخيرة بنسبة ٠,٨٪ من مجموع قرى المنطقة. وتوجد أعلى نسب هذه الفئة في المدينة المنورة ١,٧٪، وأقلها في محافظتي ينبع والعلا بنسبة ٠,٥٪ لكل منهما. ولا تضم محافظة المهد أي قرية بهذا الحجم في عام ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م.

ويشكل العدد الغالب للقرى الصغيرة الحجم جداً أقل من ١٠٠ نسمة حتى أقل من ١٠٠٠ نسمة نحو ٩٥٪ من إجمالي قرى المنطقة تحدياً كبيراً لبرامج التنمية في محافظات منطقة المدينة المنورة، خصوصاً في المحافظات التي ترتفع فيها نسبة هذه القرى.

ثالثاً ـ مراكز العمران الحضرية والتركيب الحجمي لها:

إن معظم المحافظات أحادية المدينة، بمعنى وجود مدينة واحدة في كل محافظة

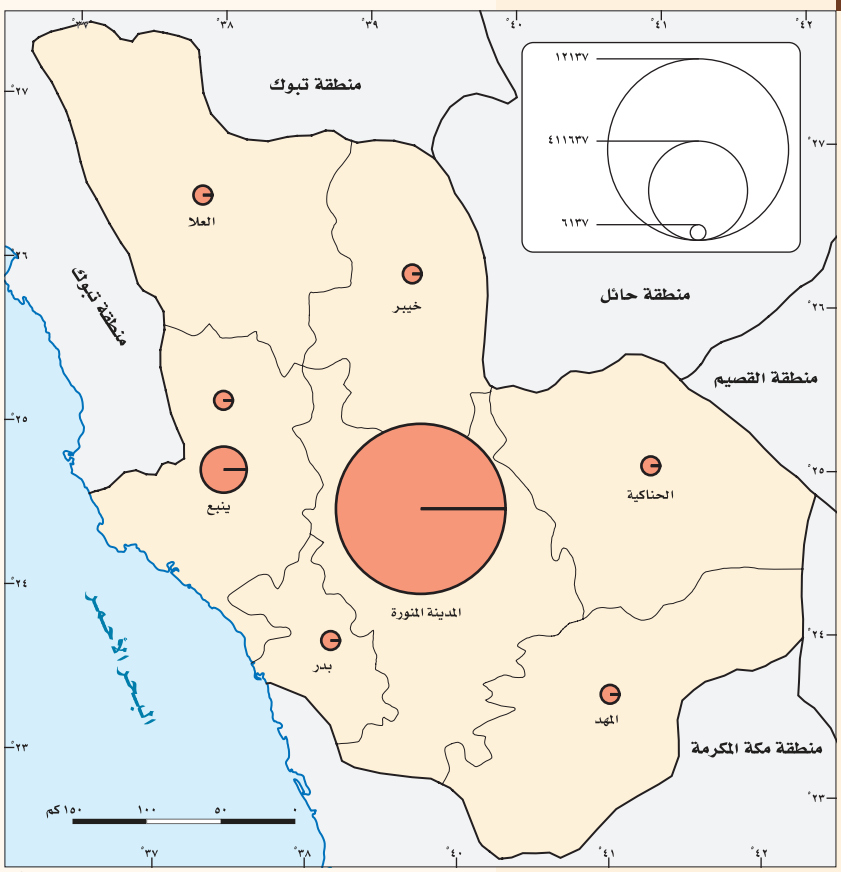

خريطة ١١: التوزيع الحجمي للمراكز الحضرية في منطقة المدينة المنورة ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م(*)

جدول ٤٧

التوزيع الفعلي والنظري للمدن في منطقة المدينة المنورة حسب الحجم ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م(**)

المدينة	الرتبة	النسبة الفعلية لحجم السكان(***)	النسبة النظرية لحجم السكان
المدينة المنورة	١	١٠٠,٠	١٠٠,٠
ينبع	٢	٢٠,٣	٥٠,٠
العلا	٣	٤,٥	٣٣,٣
بدر	٤	٣,٥	٢٥,٠
المهد	٧	١,٤	١٤,٣
خيبر	٥	١,٣	٢٠,٠
الحناكية	٦	١,٧	١٦,٧

(*) المصدر: استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى، ١٤٢٠ هـ.

(**) المصدر: من عمل الباحث.

(***) اعتماداً على استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى ومكتب عبدالله بخاري، المخطط الهيكلي للمحافظات، (المدينة المنورة: أمانة المدينة المنورة، ١٤٢٠ هـ.

كما سبق ذكره، وهي دائماً عاصمة المحافظة، ومن تعريف المدينة الذي سبقت الإشارة إليه، سيرتفع عدد المدن بإضافة كل من العيص والمهد إلى مرتبة المدن على الرغم من عدم وجود بلدية فيهما، (جدول ٤٦).

وترتبط هذه المراكز العمرانية بشبكة مواصلات داخلية جيدة وأخرى تربطها بالمحافظات الأخرى في الاتجاهات كلها، فهي ترتبط مثلاً عبر الحناكية في الشرق بالطريق السريع الذي يربط المدينة المنورة بالقصيم ثم الرياض، وفي الشمال تتصل المدينة المنورة عبر خيبر بالطريق الذي يمتد شمالاً إلى تبوك ثم الحدود الأردنية، وفي الغرب يمتد المحور العرضي (الرياض ـ المدينة) إلى ينبع وإلى جدة، وفي الجنوب يمتد الطريق السريع الذي يربط المدينة المنورة بمكة المكرمة.

ويشير (جدول ٤٦) إلى أن منطقة المدينة المنورة تضم فقط ثماني مدن، وتحتل المدينة المنورة المرتبة الأولى بينها من حيث الحجم في سنة ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م ،إذ تضم نحو ثلاثة أرباع سكان المدن. وبعد ضم عدد السكان في مدينة ينبع الصناعية إلى ينبع البحر تصبح مدينة ينبع صاحبة المركز الثاني بين مدن المنطقة. وتعد العِيص أصغر المراكز الحضرية في محافظة ينبع بمنطقة المدينة المنورة، إذ تضم ٦١٢٧ نسمة فقط، (خريطة ١١).

وتبعاً لقاعدة الحجم ـ الرتبة (Rank-Size Rule) نلاحظ أن التوزيع الحجمي لمدن المنطقة بعيد كل البعد عن النمط النموذجي لتوزيع المدن تبعاً لأحجامها، (جدول ٤٧)، إذ يبدو التركز الكبير واضحاً جداً في البنية العمرانية الحضرية. أما

البنية العمرانية الريفية فأقل تركزاً، ولكنها تتصف بالتبعثر وصغر الحجم، ما يجعل من المهم جداً لإستراتيجية التنمية في المنطقة الاهتمام بالمراكز الحضرية والريفية في التوزيع والحجم.

ويمكن تناول ذلك على النحو التالي:

أ ـ المدينة المنورة:

تتمتع منطقة المدينة المنورة بخصائص طبيعية ومظاهر حضرية مميزة قوامها التنوع والخصوصية المتمثلة في الجبال، والأودية، والآثار، والمباني والخدمات، الأمر الذي يجعل إعطاء نبذة مختصرة عن هذه الخصائص والمظاهر أمراً ضرورياً جداً.

بعد بزوغ فجر الإسلام وهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة في السنة الأولى للهجرة ٦٢٢ م، أخذ شكل المدينة في التغير، فأصبح مسجد الرسول ﷺ مركزاً للمدينة، وبدأت تنمو حوله المساكن والأسواق. لقد كانت المدينة المنورة في الفترة السابقة للإسلام تتألف من عدة أحياء منفصلة، وربما يعود هذا إلى عامل توزيع مصادر المياه، فقد سكنت كل عشيرة أو قبيلة حول بئر أو ينبوع ماء متخذة من الحصون والآطام وسيلة لحماية أفرادها، واتجه النموفي هذه المرحلة نحو الجنوب الشرقي حيث المياه الوفيرة والأرض الخصبة. وقد شجع الإسلام على اندماج الأحياء المنفصلة لتتشكل أول مدينة إسلامية في العالم. وأخذت المدينة المنورة تنمو مساحياً مع مرور الزمن حتى أحيطت بسور طوله ٣٠٠٠ م، (خريطة ١٢)، في العهد العثماني. وانطلقت المدينة المنورة خارج أسوارها متأثرة بالتوسعات المتكررة للمسجد النبوي الشريف حتى بلغت مساحتها



المسجد النبوي الشريف

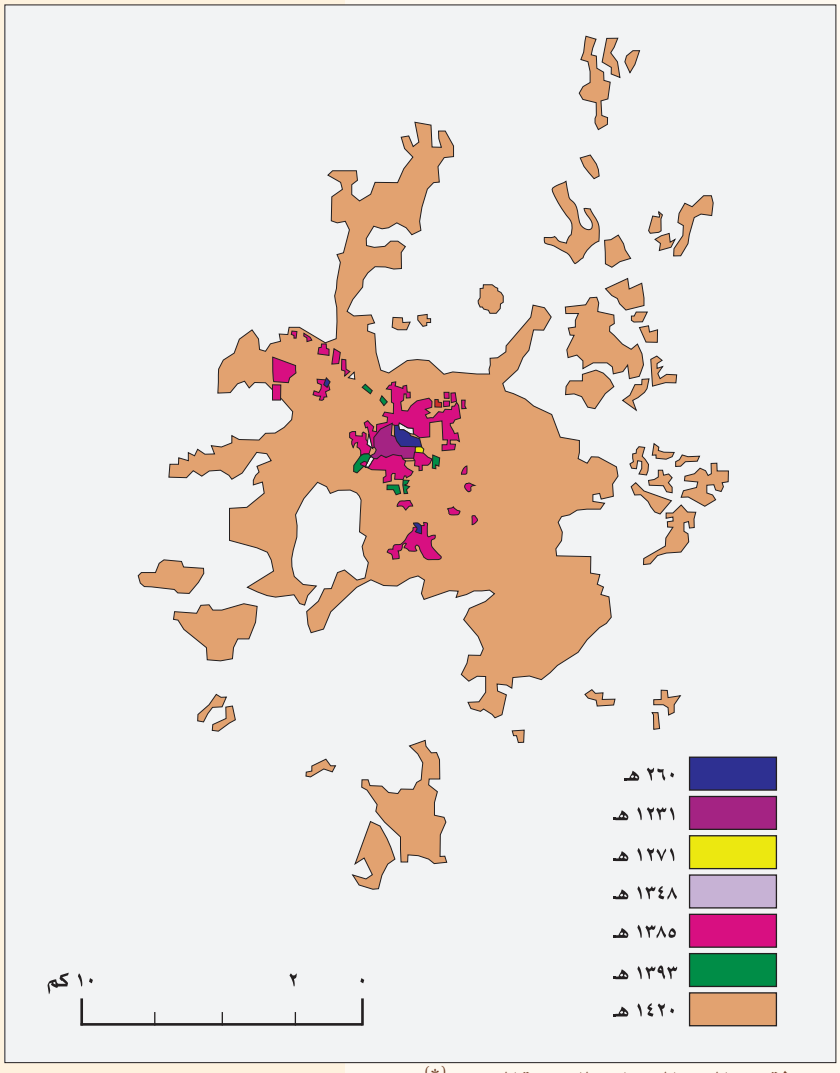

خريطة ١٢: النمو العمراني للمدينة المنورة (*)

(*) المصدر: محمد شوقي بن إبراهيم مكي، تأثير التنمية الحضرية على المظهر العام للمدينة المنورة، ١٤٢٢ هـ.



مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

المعمورة ٢٩٣ كم٢ مقارنة بنحو ١,٤ كم٢ داخل الأسوار[١].

وتشكل المدينة المنورة عصب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في منطقة المدينة المنورة، فتضم نحو ثلثي السكان سكان حضر يصل إلى نحو ٩١٪. وتستقطب المدينة أنواع التجارة كافة، ويكاد ينحصر النشاط الصناعي في المدينة المنورة، وفي محافظة ينبع، مع بعض المؤسسات الصناعية المحدودة جداً في محافظة بدر (التي تعمل في صناعة الزجاج والفخار). أما بقية المحافظات فيقل فيها النشاط الصناعي بشكل واضح. كما تحصل المدينة المنورة غالباً على نصيب الأسد من الخدمات والمرافق.

وتتنوع ملامح العمران في المدينة المنورة بين المظاهر الطبيعية والمظاهر الحضرية؛ فمن الطبيعة نجد الجبال، ومنها: أحد، وثور، وعير، وسلع، وجبال البيضاء، وكذلك الحرات والأودية، وأبرزها وادي العقيق.

أما المظاهر الحضرية فمنها المسجد النبوي الشريف والتوسعات التي مر بها منذ عهد النبوة حتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز حفظه الله، وكذلك مسجد قباء، وبقيع الغرقد، ومجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ومحطة خط الحديد الحجازي، وجامعة طيبة، وسد العاقول.

ب - ينبع:

تقع محافظة ينبع بين تلال جبال الحجاز والبحر الأحمر. وتقسم ينبع إلى: ينبع البحر وينبع الصناعية. كانت توجد في وادي ينبع ويقع على الوادي عدد من القرى العامرة مثل: سويقة، والبثنة، والبركة، والجابرية وغيرها. وقد توقف كثير من عيون الوادي عن الجريان منذ أواخر القرن ١٤ هـ/٢٠ م، كما هُجرت عدد من قراه، ومعظم سكان الوادي من جهينة وحرب. وقد شجعت برامج التنمية في العقود الأخيرة نمو بعض القرى ونمو الخدمات فيها. وينحدر الوادي غرباً حتى يصب في البحر قرب مدينة ينبع البحر. ومن أبرز المظاهر الطبيعية والحضرية في المدينة جبل رضوى، والمدينة الصناعية، وكذلك محطة تحلية المياه.

ج - العلا:

مدينة العلا تشتهر بمزارعها، فأصبحت في الوقت الحاضر مدينة تتكامل فيها الخدمات الأساسية كافة، ويمر بها الطريق

(١) محمد شوقي بن إبراهيم مكي، *أثر تطور أنظمة تقسيم الأرض على النمو العمراني في المدينة المنورة*، بحث مقدم للملتقى الثالث للجغرافيين العرب ٢٣ - ١٤٢٤/٨/٢٦ هـ، (الرياض: الجمعية الجغرافية السعودية، ١٤٢٤ هـ)، ١٠ - ١٥.

الموصل بين المدينة المنورة وتبوك في منتصف المسافة تقريباً. وكان واديها يعرف قديماً بوادي القرى، وهو أحد الروافد الكبيرة لوادي الحمض (إضم)، يأتيه من الشمال بعد أن يجتمع بوادي الجزل.

وتقع بطرف العلا الشمالي الشرقي آثار بلدة الخريبة عاصمة مملكة لحيان التي كانت تسيطر على شمال الحجاز. وفي العلا مسجد يقال إنه مسجد رسول الله بقرح الذي صلى فيه أثناء مروره بها في غزوة تبوك. وفي كتب السيرة أنه نزل وادي القرى، فصالحه أهلها وبنى بها مسجداً في قرح. وكانت قرح سوقاً من أسواق العرب.

ولا يعرف متى أطلق اسم العلا على المكان، ويذكر أنه من عادة أهل الحجاز تسمية أعالي الأودية بالعوالي والمعالي والعالية، فربما أتاها الاسم من هذا القبيل لأنها أعلى وادي القرى. وكانت العلا (قرح) حتى القرن الخامس الهجري من أكبر المدن وأشهرها في شمال الحجاز بعد مكة المكرمة. ومع تدهور الأوضاع السياسية في

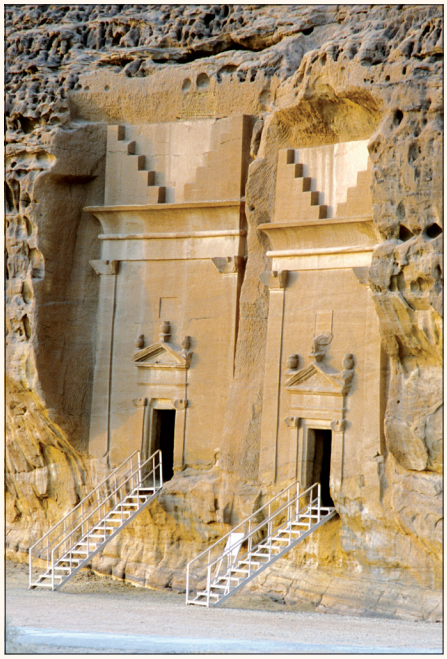

جانب من مدائن صالح

نهاية القرن الخامس الهجري اندثرت قرح واختفى اسمها. ومع القرن السادس الهجري بدأ اسم العلا يظهر وينمو في المنطقة. ومن أهم المواقع في المحافظة مدائن صالح، وآثار المابيات والخشيبة(*).



مظاهر العمران في مدينة ينبع

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثالث، (الآثار والمواقع التاريخية)؛ الفصل الثالث.

د ـ بدر:

بدر ـ بفتح الباء، وسكون الدال المهملة، بلفظ البدر من القمر ـ بلدة عامرة تقع أسفل وادي الصفراء على بعد نحو ١٥٠ كم جنوب غربي المدينة المنورة. كانت بدر قبل الإسلام مورداً لقوافل العرب في حركتها بين الشمال (بلاد الشام) والجنوب (مكة المكرمة واليمن)، فنمت لتصبح سوقاً من أسواق العرب المشهورة. وفي العهد السعودي أصبح يمر بها الطريق العام المعبد القديم إلى جدة ومكة المكرمة. وهي قاعدة محافظة بدر.

وقيل إن المكان ينسب إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة، وقيل بل هو رجل من بني ضمرة سكن هذا الموضع فنسب إليه، ثم غلب اسمه عليه. وهناك أقوال أخرى تنسب تسمية المكان إلى أناس آخرين، ولكن أكثرها انتشاراً هو القول الأول.

وفي بدر كانت الوقعة الشهيرة التي أظهر الله بها الإسلام، وفرق بين الحق والباطل في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة. وقد نسب إلى بدر جميع من شهدها من الصحابة رضوان الله عليهم. وقد ورد ذكر بدر في القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١]. وإلى الغرب من بدر وعلى بعد نحو ٢٠ كم تقع الجار ميناء المدينة القديم.



موقع غزوة بدر في محافظة بدر

هـ ـ المهد:

يطلق على المهد غالباً اسم (مَهْدُ الذَّهَب) في الوقت الحاضر وهي بلدة صغيرة جنوب شرقي المدينة المنورة على بعد نحو ٢٧٥ كم، فيها مجمع قروي. وأفضل الطرق إليها هو الطريق الغربي المتفرع من طريق المدينة المنورة ـ مكة المكرمة السريع إلى السويرقية فالمهد.

وأصل المهد يدعى (ذا الموقعة) فيه معدن لبني سليم، ثم آل إلى غيرهم بعد انكماش بني سليم إلى الحرة. وفي العهد السعودي تم التعاقد مع شركة أجنبية لاستخراج الذهب من مناجمه؛ ولهذا سميت باسم (مهد الذهب). ويوجد في المهد معظم الخدمات الأساسية من إمارة، ومركز للشرطة، والمحكمة العامة، ومستوصف، ومدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية لتعليم البنين والبنات.

ويُذكر أن منجم الذهب أنتج ٢٦١١٤ طناً من التبر بين عامي ١٣٦٤ و١٣٧٠ هـ/١٩٤٥ و١٩٥١ م نتج منه ٣٤٥٨٣٥ أوقية من الذهب، و٣٢١٩٥٦ أوقية من الفضة[٢]، ثم توقف إنتاج المعدن بعد ذلك لارتفاع تكلفته الاقتصادية؛ ليعود بعد ذلك في التسعينيات من القرن العشرين الميلادي باستخدام تقنيات حديثة مكنت من رفع المردود الاقتصادي من التنقيب عن الذهب واستخراجه. ويتوافر المعدن الثمين بالإضافة إلى معادن أخرى في

(١) آل عمران، آية: ١٢٣.

(٢) الجمعية الجغرافية السعودية، *الموسوعة الجغرافية للأماكن في المملكة العربية السعودية*، قرص مرن، (١٤١٩ هـ).



منجم الذهب في محافظة المهد

عدد من المراكز التابعة لمحافظة المهد مثل: ثرب والعمق والسويرقية.

و ـ خيبر:

خيبر مدينة قديمة تقع في وسط حرة واسعة يعرف الجزء الذي تقع فيه المدينة بحرة خيبر، في حين يطلق على أجزائها الجنوبية اسم حرة الكورة، وتعرف الأجزاء الشمالية باسم القبيلة التي تسكنها وهي قبيلة بني رشيد (الرشايدة). ويبلغ متوسط ارتفاع حرة خيبر نحو ٨٥٠ م فوق سطح البحر، وتنتشر في هذه الحرة أشكال طبيعية متعددة تجذب رواد الرحلات البرية مثل الأعمدة الصخرية والدحول التي ساعدت الرياح والمياه في تشكيلها.


العيون الطبيعية في محافظة خيبر

وتشتهر خيبر بتوافر المياه؛ فقد كان فيها نحو ١٨٠ عيناً جارية، وشجر النخيل، وقد احتلت خيبر مع القرى التابعة لها المرتبة الرابعة في عدد النخيل المثمر بعد المدينة المنورة، وينبع، والعلا[١]، ويوضح آخر حصر زراعي شامل عام ١٤١٨ هـ/١٩٩٧ م ارتفاع عدد نخيلها[٢]. ولهذا ظهر المثل الشعبي: «يا مهدي التمر على أهل خيبر».

ويمر حول خيبر عدد من الأودية الغزيرة الجريان ما جعل عيونها وآبارها دائمة الجريان والغزارة. ومن هذه الوديان وادي الغرس (السرير) الذي يمر جنوب المدينة، ووادي السلمة الذي يمر بين مدينة خيبر ودبل عطوة في جنوبها، ووادي الصوير (وادي الشريف)، ووادي أبي وشيع شمالي وادي الصوير، ووادي المضاويح شمالي وادي أبي وشيع، ووادي الزهيراء آخرها نحو الشمال. وعلى كل وادٍ من هذه الأودية تنتشر القرى الزراعية. وتجتمع هذه الأودية في مكان

(١) وزارة الزراعة والمياه، شعبة الإحصاء والاقتصاد الزراعي، *نتائج الحصر الزراعي: المنطقة الغربية والمدينة المنورة*، (الرياض: وزارة الزراعة، ١٣٨٢ هـ)، ١١١.

(٢) وزارة الزراعة والمياه، شعبة الإحصاء والاقتصاد الزراعي، *نتائج الحصر الزراعي الشامل*، (الرياض: وزارة الزراعة، ١٤١٨ هـ).



قرية الربذة في محافظة الحناكية

يسمى المجمعة يكون رأس وادي الطبق الذي يتجه إلى وادي الحمض ثم البحر الأحمر.

وتشتهر خيبر كذلك بعدد من الحصون، منها: ناعم، وعنده قتل مسعود بن سلمة الذي ألقيت عليه رحى فمات، وحصن القموص حصن أبي الحقيق (زوج صفية التي اصطفاها النبي ﷺ لنفسه وتزوجها رضي الله عنها بعد غزوة خيبر)، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن الكتيبة، وحصن الوطيح، وحصن السلالم، وحصن البازة وهو في المنطقة المعروفة حالياً بالروان.

وتعني لفظة خيبر ـ بلغة الأقوام السابقة التي سكنت خيبر قديماً ـ الحصن، ولكون الموضع يشتمل على هذه الحصون سمي خيابر، ثم ساد اسم المفرد خيبر على الجميع. وقيل إنها سميت على اسم خيبر بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل وهو أول من نزل هذا الموضع[1]. ومن أشهر معالم خيبر: مسجد النبي، وسدود: القصيبة والحصيد والمشقوق والزايدية.

ز ـ الحناكية:

الحناكية ـ بكسر الحاء المهملة وفتح النون، بعدها ألف فكاف مكسورة فياء مثناة مشددة فهاء ـ محافظة تقع على بعد ١٠٥ كم نحو الشرق من المدينة المنورة. وكانت في السابق مورد ماء، وفيها بئر لسقي المواشي. ومن أهم معالم محافظة الحناكية صخرة الحناكية وقريتا النخيل والربذة.

(١) الجمعية الجغرافية السعودية. الموسوعة الجغرافية للأماكن في المملكة العربية السعودية، مرجع سابق.

الباب الثاني

التطور التاريخي

المقدمة

أسهمت جملة من الظروف الطبيعية والبيئية في جعل منطقة المدينة المنورة مكاناً مناسباً لنشأة حضارة إنسانية مبكرة، فالمنطقة بمساحتها وموقعها المميز في الأجزاء الشمالية الغربية من المملكة العربية السعودية، ومجاورتها لمناطق حيوية أدَّت أدواراً بارزة في نشأة الحضارة الإنسانية وتطورها؛ فمن الجهة الغربية يحدها البحر الأحمر؛ ما أسهم في ربط منطقة المدينة المنورة منذ أقدم العصور بالموانئ المطلة على الجهة الشرقية للبحر الأحمر، وهيأ لسكانها فرصة للاتصال البحري بالأمم والشعوب داخل الجزيرة العربية وخارجها، ومن الجهة الشمالية الغربية تحدها منطقة تبوك، ومنطقة حائل من الجهة الشمالية الشرقية، ومنطقتا القصيم والرياض من الجهة الشرقية، أما من الجهة الجنوبية فتحدها منطقة مكة المكرمة ذات العمق التاريخي والثقافي، فضلاً عن ذلك تتميز منطقة المدينة المنورة بتنوع تضاريسها الطبيعية من جبال وأودية وسهول وحرات؛ فعبر أراضيها تمتد سلسلة جبال السروات محاذية لطول الساحل الشرقي للبحر الأحمر؛ ما ساعد في وجود بيئات طبيعية أسهمت في تركيز تجارب سكان المنطقة الحضارية وتطورها.

وبفضل هذه المقومات الطبيعية أصبحت منطقة المدينة المنورة منطقة جذب للعنصر البشري منذ أزمنة موغلة في القدم، ففي أرجائها نشأت حواضر تاريخية ذات حضارة متجانسة؛ فإضافة إلى المدينة المنورة نفسها، وهي اليوم قاعدة المنطقة وأكبر مدنها، قامت مراكز حضارية في دادان (العلا حالياً)، وفي خيبر والحناكية وفي بدر وينبع والعيص، كما انتشرت على ضفاف الأودية ووسط الحرات الخصبة مواقع استيطانية مبكرة؛ ما هيأ للمنطقة أن تتبوأ دوراً بارزاً في نمو الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتطورها لسكان جزيرة العرب.

الفصل الأول

عصور ما قبل الإسلام

أولاً بدايات الاستيطان

ثانياً مملكة دادان (العلا)

ثالثاً التوسع البابلي

رابعاً مملكة لحيان

خامساً الوجود المعيني في دادان (العلا)

سادساً مملكة الأنباط

سابعاً يثرب (المدينة المنورة)

إعداد

الأستاذ الدكتور سعيد بن فايز السعيد

أستاذ اللغات والحضارات القديمة

مر تاريخ منطقة المدينة المنورة قبل الإسلام بمراحل زمنية كثيرة، جميعها ترتبط ببداية استيطان العنصر البشري للمنطقة، وشروعه في إعمار الأرض، وتفاعله مع البيئة وتسخيره لمقوماتها فيما يخدم احتياجات حياته وتطوير أساليبها المتنوعة.

وتاريخ المنطقة قبل الإسلام بعصوره الزمنية المختلفة شبيه ببقية العصور الزمنية لأغلب حضارات أرجاء جزيرة العرب، بل هو متجانس معها إلى حد كبير في موروثها الحضاري وفكرها الاجتماعي، وتشتمل كل حقبة زمنية من التسلسل التاريخي للمنطقة على معلومات تاريخية عن الإنسان والمكان والزمان في المنطقة. وتؤكد شواهد الأدلة الأثرية التي كشفت عنها الدراسات الآثارية في منطقة المدينة المنورة على قدم الاستيطان في المنطقة منذ عصور موغلة في القدم؛ فقد شهدت المنطقة استيطاناً بشرياً منذ عصور ما قبل التاريخ بتفرعاتها المختلفة، ثم تزايد الاستيطان وزادت كثافته خلال العصر الحجري الحديث، كما كشف في المنطقة أيضاً عن أنشطة مختلفة تجسد تاريخ إنسان المنطقة خلال عصر فجر التاريخ وبداياته، وخلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، ومع مطلع الألف الأول قبل الميلاد الذي تبلورت فيه الأسس الحضارية لإنسان المنطقة، ودخلت منطقة المدينة المنورة أثناءه في عصر جديد يطلق عليه اسم عصر الممالك العربية، وينتهي تاريخ منطقة المدينة قبل الإسلام مع ذلك الحدث الجليل حينما شرح الله صدر نفر من أهل يثرب إلى الإسلام في السنة العاشرة من البعثة النبوية الشريفة[1]، وتبلور هذا العهد الجديد مع هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة.

أولاً ـ بدايات الاستيطان:

تؤرخ الدراسات العلمية المعاصرة لبداية الاستيطان في الجزيرة العربية ـ حسب ما كشف حتى الآن من أدلة أثرية مادية ـ لأقدم مراحل العصر الحجري القديم(*)، مستدلة في ذلك بما كشف عنه علم الآثار من مستوطنات في شمالي المملكة العربية السعودية وجنوبيها، تلك المواقع التي أكدت وجود تجمعات بشرية تمكنت من صقل تجاربها الطويلة واستطاعت تسخير البيئة في صناعة أدوات حجرية يعدها المختصون من أقدم ما عرفته البشرية من تقنية في صناعة الأدوات الحجرية[2].

إن المنطقة بتنوع تضاريسها وتوفر مصادر المياه فيها آنذاك، كانت مصدر جذب للعنصر البشري منذ أقدم مراحل الاستيطان البشري في الجزيرة العربية(**)، ولكن بسبب قلة الأبحاث العلمية المنظمة عن المنطقة، وتعرض كثير من أدلة تلك العصور ـ نظراً لتقادم زمنها ـ للضياع والاندثار لم تُسجَّل سوى مواقع تعود إلى العصر الآشولي الأوسط نحو ٢٥٠ ألف سنة قبل الوقت الحاضر، جاءت من مواقع متفرقة في حرة خيبر، وبالقرب من العلا، وتمثلت في مجموعات من الأدوات الحجرية المتنوعة كالفؤوس، والقواطع والمعاول ذات الأسطح الثلاثية، وأدوات الطرق[3]، وهذه الأدوات من بين الأدوات التي وظفها إنسان المنطقة في بعض جوانب اقتصاده المعيشي خلال تلك الحقبة الزمنية، وعلى ما يبدو في ضوء الاكتشافات الأثرية المعاصرة أن استيطان الإنسان استمر في

(١) عبدالباسط بدر، *التاريخ الشامل للمدينة المنورة*. ط١، (المدينة المنورة: ١٤١٤ هـ/١٩٩٣م)، ج١، ١٣٠، ١٣١.

(٢) من أقدم مواقع الاستيطان البشري التي كشف عنها حتى الآن في الجزيرة العربية موقع نجران في جنوب غرب المملكة العربية السعودية، وموقع الشويحطية في شمال غرب المملكة العربية السعودية، انظر: يوسف مختار الأمين، «العصور الحجرية في المملكة العربية السعودية: دراسة تقويمية»، *أدوماتو*، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، ع٨، (الجوف: ١٤٢٤ هـ)، ١٠ - ١٢.

(٣) سعد بن عبدالعزيز الراشد، وآخرون، *آثار منطقة المدينة المنورة*، (الرياض: وزارة التربية والتعليم، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣ هـ)، ٦١.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثالث، (الآثار والمواقع التاريخية)؛ الفصل الأول.

(**) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الأول، (الخصائص الجغرافية)؛ الفصلان الثالث والسادس.



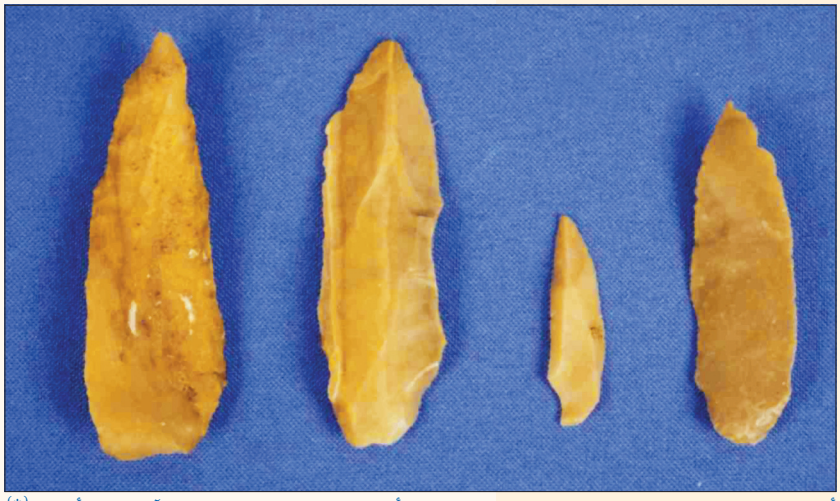

أدوات حجرية كالفؤوس والقواطع والمعاول ذات الأسطح الثلاثة من العصر الآشولي الأوسط(*)

منطقة خيبر، خصوصاً على ضفاف الأودية وبالقرب من سفوح الجبال التي عُثر فيها على عدد من المصنوعات الحجرية من بينها الأنصال والشفرات والمكاشط والأزاميل، وتميزت بتقنية عالية في الصنع، كما تظهر عليها سمات تقنية صناعة العصر الحجري الأوسط، ما يعني أن إنسان المنطقة كان مستقراً ومتعايشاً ـ آنذاك ـ مع بيئته، ويسعى إلى تطوير أدواته مستفيداً من التراكمات الحضارية وتجاربه المستمرة في محيطه البيئي في منطقة المدينة المنورة.

استمر إنسان المنطقة في توظيف موارد بيئته فيما يخدم تطوير سبل معاشه مستفيداً من ذلك التحسن المناخي الذي طرأ على المنطقة خلال العصر الحجري الحديث (نحو عشرة آلاف سنة قبل الوقت الحاضر) الذي نتج منه تحول تدريجي نحو الجفاف، ما جعل التجمعات السكانية في أرجاء المنطقة تلجأ إلى التجمع حول مناطق تتوفر فيها مصادر المياه، ما أدى إلى نمو المجتمعات السكانية وإلى قيام ما يمكن أن يطلق عليه بداية نشوء المستوطنات السكانية، ويمثل ذلك ما كشف النقاب عنه على ضفاف وادي الغرس في حرة خيبر من منشآت معمارية تمثلت في سلسلة من الجدران المنخفضة، وما ينتشر فيها من مجموعة متنوعة من المصنوعات الحجرية كالمكاشط الصوانية والرُّحي والرقائق الحجرية المشحوذة الوجهين.

ويتجسد نشاط إنسان المنطقة خلال العصر الحجري الحديث بشكل واضح في تلك المنشآت المعمارية التي جاءت على هيئة دوائر حجرية ومذيلات تنتشر بشكل واسع ومكثف في حرة خيبر وفي حرة عويرض وعلى قمم الجبال وفي سفوحها، كما هو متمثل في تلك الدوائر الحجرية في جبل عير جنوبي المدينة المنورة، وفي الجهة الغربية من جبال البيضاء في الأجزاء الشمالية من المدينة المنورة، أو على ضفاف الأودية كتلك المنشآت المعمارية في وادي العقيق ووادي الغرس[1].

وتشير مواقع العصر الحجري الحديث المكتشفة حتى الآن في المنطقة إلى أن ثمة تحولاً طرأ على أسلوب حياة الإنسان

(١) سعد بن عبدالعزيز الراشد، وآخرون، *آثار منطقة المدينة المنورة*، (الرياض: وزارة التربية والتعليم، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣ هـ)، مرجع السابق، ٦٢ - ٦٥.

(*) المصدر: وكالة الآثار والمتاحف.



جبل عير

في المنطقة تمثل في ازدياد عدد سكانها، وقدرته على استغلال موارد البيئة في جمع القوت وبناء المنشآت المعمارية، وتحسن ملحوظ في تقنية صناعة أدواته الحجرية، ما مهد لنشوء المستوطنات التي تعتمد في اقتصادها على الزراعة البدائية والصيد، ومع استمرار حركة التطور الثقافي لإنسان المنطقة تمكن من تدجين كثير من النباتات والحيوانات، ما كان له الأثر الواضح في تعزيز الاستقرار ونشوء المستوطنات والقرى والبلدات في المنطقة، وتزامن ذلك مع تزايد في وعي إنسان تلك الفترة الزمنية؛ فكثير من الرسوم الصخرية المنتشرة في أرجاء متفرقة من المنطقة،خصوصاً تلك العائدة للعصر الحجري الحديث(*)، تشهد أن إنسان المنطقة كان يسعى نحو تطوير سبل حياته، ما انعكس بدوره على تطور ملموس في فكره الديني والاجتماعي، ومهد لانتقاله من عصر ما قبل التاريخ إلى عصر ما يمكن أن يطلق

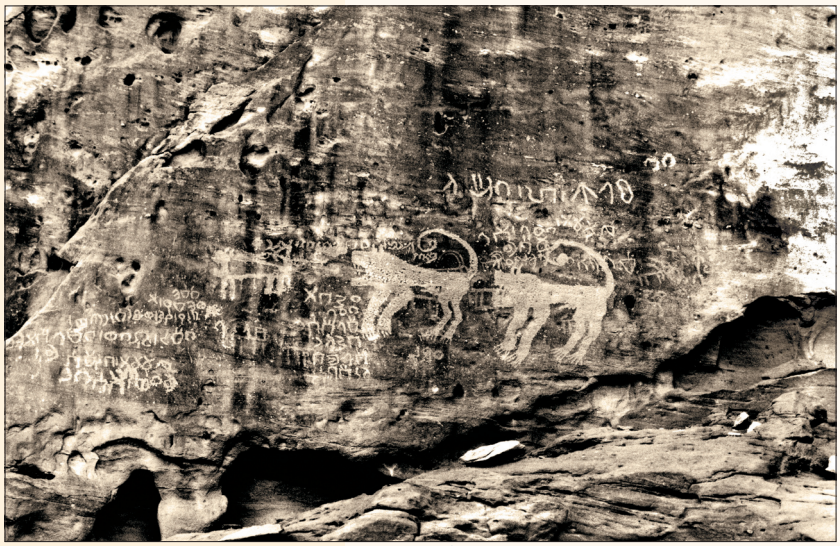

رسوم صخرية من العصر الحجري الحديث(**)

عليه اسم عصر نشوء الحضارات القديمة خلال الألف الثالث قبل الميلاد، تلك الفترة التي شهدت أنماطاً من التنظيمات الاجتماعية تبلورت في ظهور زعامات أو مشيخات تتولى إدارة شؤون التجمعات السكانية وتنظيمها، وشهدت هذه الفترة أيضاً تطوراً في المعتقدات

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثالث، (الآثار والمواقع التاريخية)؛ الفصل الأول.

(**) Op. Cit., Najd, Humbertoda Silveira, 1992.

الدينية، وتزايداً في حركة الاتصال بين مناطق التجمعات السكانية، ما أدى إلى إثراء التجربة الإقليمية وظهور ملامح التأثير والتأثر بين المدن والقرى في الجزيرة العربية مع بلاد الشام والرافدين ومصر، وانعكس على تقدم في مجريات التطور الثقافي لإنسان المنطقة عبر مسيرة حياته الطويلة، الأمر الذي مهد لدخوله في مرحلة جديدة تبلورت خلال نهاية الألف الثاني ومطلع الألف الأول قبل الميلاد، وظهرت نتائجها في نشوء الأنظمة السياسية ذات التركيبة المعقدة وفق مقاييس تلك الفترة.

وهكذا استطاع إنسان منطقة المدينة بفضل استغلاله الأمثل لمخرجات بيئته المحلية وتفاعله معها أن يسير من خلال نسق حضاري متجانس ومتدرج نحو التطور والارتقاء بمفاهيمه الفكرية والاجتماعية من عصر إلى آخر، بدأت ملامحه تتراءى بشكل واضح مع مطلع الألف الأول قبل الميلاد، حينما تمكن إنسان المنطقة من الانتقال من عهد المشيخة القبلية إلى عصر جديد تبلورت من خلاله مفاهيم الفكر السياسي، وأفضى إلى ما يمكن للمرء أن يسميه عصر الممالك العربية القديمة، وقد شهدت المنطقة خلال ذلك العصر قيام ممالك متتابعة ذات نظم سياسية تعتمد على توارث الحكم من الأب إلى الابن، ومن تلك الممالك العربية القديمة التي سادت في منطقة المدينة المنورة مملكة دادان، ومملكة لحيان، ومملكة الأنباط.

لم تتضح بعد - بسبب قلة الدراسات الآثارية والتاريخية في المنطقة - ملامح التكوينات السياسية التي سادت في المنطقة قبل الألف الأول قبل الميلاد؛ فالدراسات العلمية لم تقف حتى الوقت الراهن على أسماء الممالك والتنظيمات السياسية خلال تلك الفترة، هذا على العكس من الخلفية التاريخية عن المنطقة خلال الألف الأول قبل الميلاد وما يليه، إذ أمكن التعرف على أسماء عدد من الممالك والدويلات التي سيطرت على المنطقة أو أجزاء منها، وفيما يلي عرض موجز لها:

ثانياً - مملكة دادان (العلا):(*)

مملكة دادان هو الاسم القديم لمنطقة العلا في شمال غربي المملكة العربية السعودية؛ ما يعني أن هذه المملكة اتخذت من اسم موطنها علماً لمملكتها، وفي ضوء ما تشير إليه شواهد الآثار الدادانية نفسها يتضح أن مملكة دادان اتخذت من المكان الواقع على مسافة نحو ثلاثة كيلومترات شمال شرقي مدينة العلا القديمة والمعروف اليوم باسم الخريبة مركزاً



من تماثيل مملكة دادان

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثالث، (الآثار والمواقع التاريخية)، الفصل الأول.



نقوش ورسوم صخرية دادانية

لها[١]، ثم سيطرت منه على منطقة الحجر (مدائن صالح حالياً) والمناطق المحيطة بواحة العلا.

إن المعلومات عن التاريخ السياسي والاجتماعي لمملكة دادان لا تزال قليلة بالمقارنة مع مثيلاتها من ممالك شمالي الجزيرة العربية اللحيانية والنبطية، إلا أن رواية المصادر التي تحدثت عن دادان المكان والمملكة تؤكد وجود مملكة عربية حملت اسم مملكة دادان، واتخذت من العلا مركزاً لها، كما كشفت هذه المصادر عن جملة من المسائل في التاريخ السياسي والاجتماعي لمملكة دادان.

لقد تحدثت الآثار والنقوش الدادانية التي كشف النقاب عنها في منطقة دادان (العلا) عن طبيعة السيادة الدادانية في واحة العلا، إذ يشير أحد النقوش الدادانية إلى أن هرم السلطة في دادان كان يقوم عليه شخص بمنصب ملك، ويتضح ذلك جلياً في شاهد قبر الملك (كبر إل بن متع إل)[٢] الذي نعت في متن النص بأنه ملك دادان، وعلى ما يبدو أن هذا الملك ورث الحكم من أبيه (متع إل)، فقد عثر حسين أبوالحسن على نقش داداني[٣] على قمة جبل إثلب الواقع في الجهة الشرقية من الحجر (مدائن صالح)، معناه (تيم بن زبدة حرس متع إل ودادان)[٤].

وبما أن النقش لم يشر مباشرة إلى منصب (متع إل)، فإن مضمون النقش وارتباط حراسة متع إل باسم دادان، وكذلك فإن ما جاء في نقش الملك الداداني (كبر إل) آنف الذكر من أنه ابن لمتع إل، يعزز من أن (متع إل) هذا كان أيضاً من ملوك دادان، ولعله أبوالملك الداداني (كبر إل بن متع إل)، ومن بين النقوش التي تسلط الضوء على السيادة الدادانية على منطقة العلا، تلك النقوش التي عثر عليها أيضاً مكتوبة على صخور قمة جبل إثلب في الجهة الشرقية من الحجر (مدائن صالح)، حيث الإشارة فيها إلى قيام مجموعة من الأشخاص بتسجيل نقوش دادانية تحدثت عن قيامهم بحراسة دادان[٥]، ومضمون هذه

(١) عبدالله بن آدم نصيف، العلا: *دراسة في التاريخ الحضاري والاجتماعي*، (الرياض: ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م)، ٨.

(٢) II, Publications de la Société Française des Fouilles Archéologiques, 138. Paris 1909-1914, ; Savignac, R. Mission archéologique en Arabie, Vols. I - A. Jaussen.

(٣) حسين بن علي أبوالحسن، *نقوش لحيانية من منطقة العلا: دراسة تحليلية مقارنة*، (الرياض: وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م)، ٣١٣.

(٤) نظراً لطبيعة الموسوعة لم تدون النصوص الأثارية، واكتُفي بمعناها، ويندرج هذا على باقي النصوص في هذه المنطقة.

(٥) أبوالحسن، حسين بن علي. نقوش لحيانية من منطقة العلا، مرجع سابق، ٢٥٧ - ٣٠٠.

النقوش يشير بوضوح إلى جزء من منظومة الهيكل السياسي والإداري للمملكة الدادانية في منطقة العلا؛ فقيام أولئك بتناوب أعمال الحراسة على دادان المكان والمملكة، يؤكد على وجود منظومة دفاعية تحفظ الأمن في دادان، وتصد عنها أي هجوم طارئ قد يهدد مصالحها ويقضي على كيانها السياسي.

من جانب آخر قد يشير ذلك إلى أن مملكة دادان وقت كتابة هذه النقوش كانت في حالة تأهب، وتعيش حياة أمنية غير مستقرة، ما تطلب قيام أولئك بالمرابطة على قمة جبل إثلب المطل على واحة دادان لكشف أمر أي سرية قبل أن تهاجم مملكتهم على حين غرة.

ومن النقوش الدادانية التي تتحدث عن الكيان السياسي لمملكة دادان، نقش دادانى[١] معناه: «نوران بن حاضر وكتب (النقش) في أيام جشم بن شهر وفي أيام عبد والي دادان في فترة حكم... ». إن النقص الذي أصاب نهاية النقش حرمنا من معرفة اسم الحاكم الذي كان يحكم دادان وقت كتابة النقش، فهل هو ملك دادانى، أم أن دادان فقدت سلطتها السياسية على المنطقة، وأصبحت ـ آنذاك ـ تدار من قبل حاكم آخر؟ ولكن على الرغم من ذلك، فذكر كلمة (فحت) في متن النقش التي تفيد معنى (والي) تنطوي على دلالة مهمة في تاريخ مملكة دادان السياسي، فالإشارة هنا تؤكد على أن دادان كانت ـ آنذاك ـ تحت ولاية حاكم محلي، فهل هذا الحاكم تابع للملك الدادانى نفسه[٢]، أم هو حاكم آخر يقيم خارج منطقة دادان، وهذا الوالي ينوب عنه في إدارة شؤون منطقة دادان؟

ومن جهة أخرى جاء ذكر دادان في المصادر غير الدادانية في عدد من نقوش تيماء الثمودية، حيث عثر في جبل غنيم على مجموعة من النقوش تؤرخ لحرب وقعت في دادان[٣]، كما أشارت مجموعة من نقوش منطقة (رم) الواقعة جنوب غرب تيماء كتبت من قبل أشخاص من أهل تيماء إلى إقامتهم في دادان على نحو: (فلان بن فلان حلَّ في دادان)[٤].

وضمن إطار العلاقة بين مناطق شمالي الجزيرة العربية وبلاد الرافدين، يجد المرء في المصادر المسمارية، منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد، إشارات في الحوليات الآشورية والبابلية تتحدث عن تلك العلاقة التي اتسمت في الغالب بالصراع الدائم بين ممالك شمالي الجزيرة العربية وقبائلها وحكام الدولة الآشورية والبابلية. وبغض النظر عن أسباب ذلك الصراع، وما آل إليه من أحداث تاريخية[٥]، فقد اشتملت الكتابات البابلية والآشورية وما سجله ملوكها في حولياتهم على معلومات مهمة حول تاريخ ممالك شمالي الجزيرة العربية وقبائلها خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، ومن بينها دادان المكان والمملكة؛ فقد جاء ذكرها في نص (حران) الذي تحدث عن حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غربي الجزيرة العربية، ضمن المناطق التي يذكر النص أن نبونيد احتلها.

وعلى ما يبدو ـ من مضمون النص ـ أن نبونيد أحكم سيطرته على منطقة دادان طوال فترة إقامته في تيماء التي امتدت بين عامي ٥٤٣ و٥٣٥ ق.م، ويشتمل النص نفسه على إشارة مهمة إلى ملك دادان (ميش شَرُ شا دَ ـ دَنَ)[٦]، وعلى الرغم من أن النص لا يفصح عن اسم الملك الدادانى، أو عما فعله معه

(١) Jaussen, Savignac, Mission archéologique en Arabie, 349; W. Caskel, Lihyan, und Lihyan=isch (Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen, Geisteswissenschaften, Heft 4), Köln 1954, p. 55.

(٢) إن صح ذلك فقد يكون نظام السلطة وتدرج المناصب في مملكة دادان مشابها لذلك النظام الذي عرفته الدولة السبئية والدولة المعينية في جنوب الجزيرة العربية، فإلى جانب الملك كأعلى سلطة في هرم وظائف الدولة، يتولى رئاسة المدن ولاة، يطلق عليهم في النقوش العربية الجنوبية اسم (كبير).

(٣) Reed, W Ancient Records from North Arabia (Near and Middle East Series 6), Toronto F.Winnett, 1970, p. 20, 21, 22, 23, 33.

(٤) خالد محمد أسكوبي، *دراسة تحليلية مقارنة لنقوش من منطقة (رم) جنوب غرب تيماء*، (الرياض: وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٠ هـ)، ٢٠، ٥٤، ٥٥، ١٦٧.

(٥) سعيد بن فايز السعيد، *حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية*، (الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، بحوث تاريخية ٨، ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠م)، ١٩ ـ ٢٢، ٣٤ ـ ٣٧.

(٦) المرجع السابق، ٩، ٢٧، ٢٨، ٧٩.

نبونيد، فإن الإشارة فيه تؤكد أن دادان كانت إبان حملة الملك البابلي نبونيد على المنطقة ذات كيان سياسي مستقل، وكانت تتمتع بنظام سياسي مركزي في دادان والمناطق المحيطة بها.

ثمة إشارات أخرى في المصادر الآشورية جاءت بصيغة (دِدنم، تيدنم)، وقد حاول بعض الدارسين ربطها بدادان في شمال غربي الجزيرة العربية[١]. ولكن تلك الإشارات يجب أن تؤخذ بحذر شديد، فالسياق التاريخي والجغرافي لورود تلك المصطلحات الجغرافية فيها لا يدعم كون المقصود فيها منطقة دادان (العلا) في شمال غربي الجزيرة العربية[٢].

أما في العهد القديم فقد تكرر ذكر دادان، المكان والقبيلة، في عدد من أسفار التوراة، حيث وردت في سفر التكوين[٣] إشارة إلى تحديد أصل الداديانيين، فتارة يجعلهم ساميين من نسل نبي الله إبراهيم عليه السلام وزوجته قطورة، وتارة أخرى وفي السفر نفسه[٤] يجعلهم حاميين من نسل كوش، وعلى الرغم من هذا التفاوت في رواية التوراة عن الداديانيين وأصلهم، فإن المهم في روايات التوراة أنها تؤكد أن الداديانيين أمة لها كيانها المنظم آنذاك، وذات دور مهم في الحياة السياسية والاقتصادية للشرق القديم، وهذا ما تؤكده رواية التوراة نفسها؛ ففي سفر حزقيال[٥] ثمة إشارة إلى أن الداديانيين يعملون بنقل البضائع التجارية ويقومون على تسويقها في مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي السفر نفسه[٦] يقرن بين الداديانيين والسبئيين الذين أكدت رواية المصادر أنهم كانوا في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد يتولون أعمال نقل البضائع التجارية من مناطقهم في جنوبي بلاد العرب إلى مناطق متفرقة من العالم القديم[٧].

ومن بين أبرز المصادر التي تمدنا بمعلومات تاريخية عن الداديانيين في منطقة العلا ما ذكرته نقوش جنوبي الجزيرة العربية (نقوش المسند)، فقد تحدثت رواية النقوش المعينية عن دادان والداديانيين في عدة مواضع، من بينها تلك الوثائق التي كتبت على مسلات حجرية في معبد رصفم في معين (قرناو قديما) التي أشارت إلى دادان الأرض والشعب[٨].

وتشير مضامين هذه النقوش إلى قيام مجموعة من أفراد القبائل المعينية بالزواج من نساء داديانيات، تنتمي أصولهن إلى دادان في منطقة العلا، ولعل المهم في الأمر أن مجموعة هذه الوثائق جاءت ضمن قوائم طويلة سُجل فيها قيام أفراد من القبائل المعينية في جوف اليمن بالزواج من نساء أجنبيات ينتمين إلى أقوام وشعوب متعددة في بلدان الشرق القديم[٩]، وفيها جعلت دادان في مصاف الدول والشعوب التي صاهرها المعينيون، ما يشير إلى أن دادان - آنذاك - كانت تشكل كياناً مستقلاً تربطه علاقات اجتماعية مع قبائل جنوبي الجزيرة العربية.

أما المصادر العربية فقد اكتفت إشاراتها بذكر اسم دادان المكان، إذ يقول عنه ياقوت في معجمه ما نصه: (الديدان مدينة حسنة كانت في طريق البلقاء من ناحية الحجاز، خربت)[١٠]، أما ابن شجاع فيذكر دادان اسماً لوادٍ متسع يقع جنوب العلا[١١].

وفي ضوء رواية المصادر عن الداديانيين ومملكتهم، فإن المقاربة فيما بين معطياتها تشير بجلاء إلى أن ثمة مملكة عربية ذكرتها

(١) Albright, W.F. Dedan, in: Geschichte und Altes Testament, Albrecht Alt zum Siebzigsten Geburtstag, Tübingen 1953, P.1- 12.

(٢) Scagliarini, F. La chronologie dedanite et lihyanite: mise au point. In: H. Lozachmeur (ed), Presence arabe dans le Croissant fertile avant l.'Hegire, Actes de la table ronde internationale, Paris 1996, 125.

(٣) سفر التكوين ٢٥، ١ - ٤.

(٤) سفر التكوين ١٠، ٧، والإشارة هنا إلى قيام الداديانيين بتوريد (طنافس للركوب) إلى مدينة صور، الواقعة على السواحل اللبنانية اليوم.

(٥) سفر حزقيال ٢٠، ٢٧.

(٦) سفر حزقيال؛ ١٣، ٣٨.

(٧) السعيد، سعيد بن فايز. حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية، مرجع سابق، ٣١، ٣٢.

(٨) Garbini, G. (Ed.), Iscrizioni sudarabiche, vol. I. Iscrizioni minee. (Pubblicazioni del Seminario di Semitistica, Ricerche 10), Napoli 1974, 392D/5-8-3/297, 4-1/398, 31-A29, 392, 36-A/34, 392, 10-B/7392, 16-B/14, 392, 43-B/45, 392,4-1/393 ; سعيد بن فايز السعيد، «زوجات المعينيين الأجنبيات في ضوء نقوش جديدة»، *أدوماتو*، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، ع٥، (الجوف: ١٤٢٢ هـ /٢٠٠٢م)، النقش رقم: ٢، ٥٨.

(٩) المرجع السابق، ٥٦، ٥٧.

(١٠) ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ج٢، ٥٣٦.

(١١) حمد الجاسر، «ليس الحجر من مدائن صالح»، *العرب*، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ج١، ٢، (الرياض: رجب، شعبان ١٣٩٨ هـ/تموز، آب ١٩٧٨م)، ٧.

المصادر باسم (مملكة دادان)، وحددت مركز استيطانها في دادان (العلا حالياً) في شمال غربي المملكة العربية السعودية، كما أشارت إلى أن سكانها كانوا على درجة عالية من التنظيم السياسي والاجتماعي، ما مكنهم من تأسيس علاقات سياسية واجتماعية مع الأمم والشعوب داخل الجزيرة العربية وخارجها، وهيأ لهم فرصة للقيام بدور فعال في اقتصاد المنطقة، كما أسهموا مع غيرهم من قبائل جزيرة العرب بنقل البضائع التجارية إلى مناطق الاستهلاك في أسواق الشرق القديم.

وعلى الرغم من أن رواية المصادر عن مملكة دادان وقبائلها لا تتحدث عن الإطار الزمني لنشأة هذه المملكة، فإن السياق التاريخي لسير الأحداث التي أشارت إلى الدادانيين فيها ترجح أن مملكتهم شهدت ازدهاراً اقتصادياً، وكانت خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد في أوج قوتها، وقد استمرت على هذه الحال حتى نهاية القرن السادس قبل الميلاد الذي شهد بروز قبيلة لحيان في المنطقة وظهورها على مسرح الأحداث ـ آنذاك ـ كقوة سياسية تطالب بزعامة مناطق الدادانيين في وادي العلا.

ثالثاً ـ التوسع البابلي:

تعرضت مناطق متفرقة في شمالي الجزيرة العربية وشماليها الغربي لعدد من الحملات الحربية التي قادها حكام بابل وآشور ضد القبائل والممالك العربية في الأجزاء الشمالية من الجزيرة العربية، على إثر تزايد الهيمنة البابلية والآشورية في الشرق القديم مع مطلع الألف الأول قبل الميلاد، وما طبع به حكام بلاد الرافدين من نزعة توسعية في المناطق المحيطة بهم، وقد كانت حملات الحكام البابليين والآشوريين الحربية تتسم في بادئ أمرها بالغارات الخاطفة على المنطقة، وتعيين الحكام الموالين، أو إثقال كاهل الشعوب المحلية في شمالي الجزيرة العربية بدفع الإتاوات الكبيرة[١]، الأمر الذي تسبب في إضعاف حكامها وجعلهم غير قادرين على الوقوف في وجه السياسة التوسعية البابلية والآشورية في مناطقهم، وعلى الرغم من محاولاتهم المتكررة للتخلص من التبعية لحكام بلاد آشور وبابل[٢]، إلا أن قوة الآلة الحربية الآشورية والبابلية وجبروتها لم تترك لهم فرصة سانحة للاستقلال التام بمناطق نفوذهم.

وعلى إثر سقوط الدولة الآشورية في بلاد الرافدين على يد الملك البابلي نبوبولاصر ٧٢٥ ـ ٦٠٥ق.م، وتفرد الدولة البابلية بميزان القوى في المنطقة، واصل الحكام البابليون سياستهم التوسعية في شمالي الجزيرة العربية، ولكن تلك السياسة سرعان ما تحولت من مفهوم الغارات الخاطفة إلى الهيمنة المباشرة، وهذا ما حدث بالفعل إثر وصول الملك البابلي نبونيد إلى دفة حكم الدولة البابلية في عام ٥٥٦ق.م الذي استبدل تطبيق مبدأ الاحتلال المباشر والإقامة في المناطق المحتلة بدل سياسة أسلافه.

ولم يمض سوى سنتين من تولي نبونيد مقاليد الحكم في بابل حتى أقدم في مطلع السنة الثالثة على التوجه على رأس حملة نحو الأجزاء الشمالية الغربية من الجزيرة العربية، واتخذ من (تيماء) في شمال غربي الجزيرة العربية مركزاً لإقامته في المنطقة، كما يؤكد ذلك نص (نبونيد ـ كورش) الذي معناه[٣]:

(١) السعيد، سعيد بن فايز. حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية، مرجع سابق، ١٩ - ٢٢.

(٢) المرجع السابق، ٣٦، ٣٧.

(٣) Smith, S. Babylonian Historical Texts Relating to the Capture and Downfall of Babylon, Hildesheim,1975, pp. 84 - 85; Beaulieu, P. "The Reign of Nabonidus King of Babylon 556 - 539 B.C." Yale Near Eastern Researches, 10 London 1989, p. 171؛ السعيد، سعيد بن فايز. حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية، مرجع سابق، ٢٥ - ٢٧.

«وهو (نبونيد) شق طريقاً بعيداً، وحال وصوله، قتل يَتَر ملك مدينة تيماء بالسلاح، وأراق (دماء) أنعام أهل المدينة (أي مدينة تيماء) وأنعام أهل المناطق المحيطة بها، أما هو نفسه فأقام في تيماء، ومعه أقامت القوات الأكدية، وجمَّل المدينة (تيماء)، وبنى قصراً مشابهاً لقصر بابل، وبَنَى..... وأودع ثروة المدينة (أي مدينة تيماء) وثروة المنطقة المحيطة بها فيه..... والحرس يحيطون به..... ويتحسرون (أي أهل تيماء) بصوت عالٍ..... وجعلهم (أي أهل تيماء) يحملون اللبن (الآجر) والسلال، من جراء العمل.....».

ويتضح من رواية النص أن نبونيد قصد في بادئ حملته مدينة تيماء في شمال غربي الجزيرة العربية، ولكن أهدافه لم تتحقق باحتلاله لتيماء وتحصين نفسه فيها، بل أغار منها على عدد من المراكز الحضارية التي تقع في إطار حدود منطقة المدينة اليوم، وهي حسب إشارة نص نبونيد نفسه الذي معناه[١]: (وأنا خرجت من مدينتي بابل، وسلكت طريقي إلى مدينة تيماء، ثم مدينة دادان، ثم مدينة فدك، ثم مدينة خيبر، ثم مدينة يديع وحتى مدينة يثرب، عشر سنوات (متتالية) تجولت بينها، مدينتي بابل لم أدخلها).

وينبئ مضمون النص أن نبونيد وجه من مقر إقامته الدائم في تيماء غارات متتالية على عدد من الحواضر التاريخية في منطقة المدينة المنورة، هي: دادان[٢]، ثم فدك[٣] وخيبر ويديع[٤] ثم يثرب[٥]، وتمكن من الاستيلاء عليها، وأخذ طوال مدة إقامته التي استمرت عشر سنوات متتالية يتجول بينها ولم يبرحها قط إلى عاصمة ملكه في بابل التي أناب عنه فيها ابنه وولي عهده بيلشاصر، أي أن تلك الحواضر في شمالي وشمال غربي الجزيرة العربية كانت إبان إقامة نبونيد في المنطقة خاضعة لسيطرته وإشرافه المباشر. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: ما الأسباب الكامنة وراء احتلال نبونيد لجميع تلك البلدان، ولماذا لم يكتف باحتلال تيماء وحدها؟

لقد انشغل الباحثون وما زالوا يسعون إلى محاولة التعرف على الأسباب الجوهرية لترك نبونيد عاصمة حكمه في بابل وخروجه منها ليتخذ من تيماء في شمال غربي الجزيرة العربية عاصمة ثانية لإدارة مملكته المترامية الأطراف آنذاك، وقد تراوحت آراء الدارسين في تبرير خروج نبونيد وتوسعه في الأجزاء الشمالية من الجزيرة العربية بين أسباب دينية أو سياسية أو اقتصادية[٦]. ولكن المرء حينما يقارن بين تلك الأسباب ويناقشها ضمن إطار السياق التاريخي العام، وما واكب تلك الفترة الزمنية من أحداث تاريخية في بلاد بابل، يبدو له أن الأسباب الاقتصادية هي التي جعلت نبونيد يتوسع في الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من الجزيرة العربية ويقدم على احتلال حواضرها، فمن المعروف من خلال رواية النصوص البابلية نفسها أن الدولة البابلية كانت ـ آنذاك ـ تعيش أزمة اقتصادية تفشى خلالها الفقر في أوساط المجتمع، ما أدى إلى تزايد تدهور الأوضاع السياسية في أرجاء مملكة نبونيد[٧]، ومن أجل إيجاد حلول لفك تلك الأزمة لم يجد نبونيد بداً من الخروج من عاصمة ملكه على رأس جيشه إلى حيث المناطق الحيوية التي من شأن السيطرة عليها وتوجيه مواردها إلى مملكته فك الخناق الاقتصادي الذي كانت تعيشه آنذاك، وهكذا وقع اختيار نبونيد على مناطق شمالي الجزيرة

(١) Gadd, C. J. "The Harran Inscriptions of Nabonidus", Anatolian Studies 8, H2 A/B, 1958, Col. I , pp. 22-26.؛ السعيد، سعيد بن فايز. حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية، مرجع سابق، ٨، ٩.

(٢) العلا حالياً في شمال غرب المملكة العربية السعودية.

(٣) هو ما يعرف اليوم باسم الحائط، انظر: حمد الجاسر، *في شمال غرب الجزيرة: نصوص، مشاهدات، انطباعات*، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة، ١٤٠١ هـ/١٩٨١م)، ٢٩٥ - ٣٠٨، ٥١٠.

(٤) هو ما يعرف اليوم باسم الحويط، انظر: المرجع السابق، ٥٢٤، ٦١٥، ٦١٦.

(٥) المدينة المنورة.

(٦) انظر مناقشة أسباب حملة نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية عند: السعيد، سعيد بن فايز. حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية، مرجع سابق، ١٠ - ٢٤.

(٧) المرجع السابق، ١٦ - ١٨.

العربية، تلك المناطق التي كانت - حسب رواية الشواهد التاريخية - خلال الألف الأول قبل الميلاد تشهد ازدهاراً اقتصادياً، فقد كانت حواضر تلك المنطقة في يثرب (المدينة المنورة)، وخيبر، ودادان (العلا حالياً) مراكز تجارية ومحطات رئيسة على الطريق التجاري القديم (طريق البخور) الذي كانت تنقل عبره البضائع التجارية من الهند وشرق إفريقية وجنوب الجزيرة العربية إلى مناطق الاستهلاك في بلدان شرق المتوسط وغربه، وقد كان سكان تلك الحواضر في شمال غربي الجزيرة العربية بحكم توجيه اهتمامهم إلى نقل البضائع التجارية وتسويقها في أنحاء متفرقة من العالم القديم يحكمون سيطرتهم التامة على توجيه توزيع تلك البضائع التجارية في الأسواق التي كانت تحقق لهم أكبر قدر من العوائد الربحية، فكان تركيزهم على ما يبدو على أسواق بلاد الشام ومصر[١]، الأمر الذي حرم بلاد بابل من تدفق البضائع التجارية إلى أسواقها وما يترتب عليه من انتعاش اقتصادي تعم فوائده جوانب حياتية مختلفة[٢].

ومن المرجح أن نبونيد كانت تحدوه - آنذاك - رغبة في توجيه مسار الحركة الاقتصادية الدولية والسيطرة عليها وتوظيفها في خدمة مصالح دولته، وهذا ما تحقق له إثر احتلاله مدن تيماء، دادان، يثرب، خيبر، وفدك ويديع، تلك الحواضر التاريخية التي كانت تمثل عنق الزجاجة لمسار الطريق التجاري القديم، ومن يحكم سيطرته عليها يمكنه التحكم في مسار حركة التجارة الدولية في الشرق القديم.

وعلى ما يبدو من رواية نص الملك البابلي نفسه فإن نبونيد تحققت له السيطرة على موارد تلك البلدان في شمالي الجزيرة العربية طوال عشر سنوات متتالية استمرت من عام ٥٥٣ ق.م حتى اضطر إلى ترك بلدان شمالي الجزيرة العربية عائداً إلى عاصمة ملكه في بابل عام ٥٤٣ق.م[٣].

رابعاً - مملكة لحيان:

تعود معلوماتنا عن مملكة لحيان إلى ظهور قبيلة بني لحيان على مسرح الأحداث السياسية وتمكنها من السيطرة على زمام الأمور في منطقة دادان (العلا حالياً في شمال غربي المملكة العربية السعودية)، أما قبل ذلك فليس ثمة معلومات مؤكدة تتحدث عنهم أو تساعد على تتبع أصلهم، وعلى الرغم من ذلك يعتقد بعض الباحثين أن اللحيانيين من أصول عربية جنوبية[٤]، هاجروا إلى مناطقهم الجديدة في واحة العلا من جنوبي بلاد العرب، ويستدلون على ذلك من خلال نقش عربي جنوبي، نصه: (أب ي دع/ذ ل ح ي ن)، ومؤداه: « أب يدع من قبيلة لحيان» [٥]. والحقيقة أن المرء ليس في وسعه قبول تحديد أصل اللحيانيين من خلال هذا النقش فقط، خصوصاً أن نمط خط النقش لا يشير إلى أنه من النقوش العربية الجنوبية المبكرة، بل إنه يعود إلى فترة لاحقة على استيطان مملكة لحيان في واحة العلا، ما يرجح أن صاحب النقش ربما أنه من أفراد قبيلة لحيان، وكان - آنذاك - في زيارة إلى جنوبي الجزيرة لا نعرف سببها تحديداً، ولكن المعروف أن أفراد قبائل مملكة لحيان عملوا في نقل التجارة البرية من جنوبي الجزيرة العربية إلى مراكز الاستهلاك في دول حوض البحر الأبيض المتوسط[٦]. وفي ضوء ذلك يبدو أن (أب يدع اللحياني) تاجر من تجار مملكة لحيان، وأثناء وجوده في جنوبي بلاد

(١) سعيد بن فايز السعيد، *العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر في ضوء النقوش العربية القديمة*، (الرياض: مكتبة الملك فهد، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م)، ١١٥ - ١٢٦.

(٢) السعيد، سعيد بن فايز. حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية، مرجع سابق، ١٨.

(٣) انظر مناقشة تفاصيل خروج نبونيد من مناطق شمال الجزيرة العربية: المرجع السابق، ٨١ - ٨٥.

(٤) جواد علي، *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م)، جـ٢، ٢٤٤.

(٥) Semiticarum, Tome V. VI. VII. VIII. Paris 1929. 1935.1950. 1968, 2902, 10. Répertoire d'Épigraphie Sémitique publi par la Commission du Corpus In.

(٦) يشهد على ذلك وجود اللحيانيين لأغراض تجارية في (قرية الفاو حالياً على أطراف الربع الخالي الشمالية)، حيث عثر هناك على عدد من النقوش تذكر اللحيانيين ومعبودهم الرئيس (ذو غيبة)؛ انظر: عبدالرحمن الأنصاري، *قرية الفاو: صورة للحضارة العربية قبل الإسلام*، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٩٨٢م)، ٢٣.

العرب سطر اسمه بخط عربي جنوبي، وثمة من يرى أن اللحيانيين فرع من قبيلة ثمود العربية الشمالية[١]، دون إيراد أدلة تجعل هذه الفرضية مقبولة، أو حتى تقبل المناقشة.

وترتكز المصادر المعرفية عن تاريخ مملكة لحيان إجمالاً على ما خلفه اللحيانيون أنفسهم من نقوش وآثار مادية في واحة دادان والمناطق المحيطة بها[*]، وعلى تلك الإشارات القليلة عن اللحيانيين في النقوش العربية الجنوبية القديمة، وما ذكره بعض الكتاب الكلاسيكيين في معرض حديثهم عن القبائل والشعوب العربية القديمة، وأخيراً تلك المعلومات القليلة والمقتضبة عن اللحيانيين في المصادر العربية، فضلاً عن تكرار ذكر لحيان القبيلة والمملكة في كثير من النقوش اللحيانية نفسها[٢]، وما جاء عن لحيان في أحد النقوش المعينية[٣] الذي يعود تاريخه إلى القرن الرابع قبل الميلاد على الأرجح، ويذكر أن شخصاً من قبيلة نسور المعينية عقد قرانه وتزوج من امرأة لحيانية الأصل.

أما في المصادر الكلاسيكية فقد ورد اسم اللحيانيين بصيغة لحيني (Lechiene) عند المؤرخ الروماني بلنيوس[٤] في معرض حديثه عن الشعوب والقبائل في جزيرة العرب، كما أشار لهم أيضاً ديودورس الذي أطلق على خليج العقبة اسم (خليج لحيان)[٥]. وفي المصادر العربية تكرر ذكر بني لحيان في أكثر من موضع. فابن حبيب[٦] يذكر أن شخصاً من بني لحيان اسمه أوس بن قُلاَّم بن بُطينا بن جمهور بن لحيان كان من بين الملوك الذين حكموا الحيرة[٧]. ويضيف ابن حبيب في ثنايا حديثه عن بني لحيان أن (تأبط شراً)[٨] أغار على جبل لبني لحيان يشتار منه عسلاً، كان يأتيه في كل عام، ولكن عيون بني لحيان كشفت أمره، فلم يجد بداً من الهرب لينجو بنفسه من الهلاك[٩]. أما ابن حزم[١٠] فيجعل بني لحيان بطناً من بطون بني هُذيل بن مُدركة. كما تشير المصادر العربية أيضاً إلى أن بني لحيان كانوا عشية ظهور الإسلام يستوطنون في المنطقة الواقعة شمال شرقي مكة المكرمة، وقد كانوا ـ آنذاك ـ على خلاف مع الرسول ﷺ، ما جعله يوجه ضدهم غزوة عرفت في المصادر باسم (غزوة بني لحيان)[١١].

وعند استعراض رواية المصادر التاريخية يتضح أن إشارتها ـ على الرغم من أهميتها ـ عابرة وقليلة بالمقارنة مع ما أدته مملكة لحيان من دور حضاري في تاريخ العرب القديم خلال النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد، فالمصادر العربية تذكر لحيان في مراحل تاريخية متأخرة، أي بعد أن تفرق بنو لحيان وانتهت حكومتهم المركزية في واحة دادان (العلا). وحسب رواية الإخباريين العرب يتضح أن العشائر اللحيانية ـ آنذاك ـ تركت مواطنها في واحة العلا، بعضها فضل الهجرة نحو الشمال إلى حيث حيرة النعمان، وبعضها الآخر هاجر إلى الجنوب واتخذوا من الجبال الواقعة شمال شرق مكة المكرمة مواطن جديدة لهم[١٢]. وليس من المستبعد أيضاً أن جزءاً منهم بقي في واحة دادان وتفرعوا إلى عشائر عاشت في ظل السيطرة النبطية على منطقتهم. وفي ضوء ما تحدثت عنه رواية المصادر غير اللحيانية تتبادر إلى الذهن تساؤلات كثيرة لعل من أهمها: من هم اللحيانيون، وأين كانت مواطنهم قبل تفرقهم، وما دورهم الحضاري في إطار تاريخ العرب القديم؟

(١) منذر عبدالكريم البكر، *دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (البصرة، ١٩٩٣م)، ٣٧٩.

(٢) أبوالحسن، حسين بن علي. نقوش لحيانية من منطقة العلا، مرجع سابق، ٣٤٢.

(٣) Garbini, Iscrizioni sudarabiche, 392B, pp. 44-47.

(٤) Plini, G. Natural History, trans. H. Rackham, Vol. 10, Loeb Classical Library, London Cambridge, p. 55.

(٥) Diodourus of Sicily, Diodourus Historia, The Library of History, Translated by C. H. Oldfather, Load Classical Library, 12 vols: 3, New York, 1933, pp. 43.4-5.

(٦) محمد بن حبيب، *كتاب المحبر*، رواية: أبوسعد الحسن بن الحسين السكري، تحرير: إيلزه ليختن شتاين، (بيروت: د ت)، ٣٥٨.

(٧) انظر أيضاً: (Caskel, Lihyan und Lihyanisch, 44) الذي يضيف، نقلاً عن كتاب الأغاني، أن لحيان كان اسم حي يطلق على أحد أحياء الحيرة.

(٨) تأبط شراً هو ثابت بن جابر بن سفيان الفهمي، مات نحو عام ٥٣٠م، كان شاعراً وأحد فتاكي العرب، لقب (تأبط شراً) على إثر تأبطه لسيفه ذات مرة، وبعد خروجه جاء من يسأل أمه عنه، فقالت: لا أدري، تأبط شراً وخرج.

(٩) ابن حبيب، محمد. كتاب المحبر، مرجع سابق، ١٩٦، ١٩٧.

(١٠) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م)، ٤٦٦.

(١١) عبدالسلام هارون، *تهذيب سيرة ابن هشام*، (بيروت: المجمع العلمي العربي الإسلامي، د.ت)، ٢٣٥.

(١٢) لا يزال مجموعة من بني لحيان يقيمون حتى اليوم في قرية عين شمس شمال شرق مكة المكرمة.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثالث، (الآثار والمواقع التاريخية)؛ الفصل الأول.

أ ـ الإطار الجغرافي لمملكة لحيان:

تشير بقايا الآثار الظاهرة والمنتشرة في الخريبة (دادان قديماً) الواقعة اليوم في سفح جبل الخريبة على مسافة ثلاثة كيلومترات شمال شرقي بلدة العلا القديمة إلى أن اللحيانيين اتخذوا من ذلك المكان مركزاً رئيساً لحكومتهم المركزية وأداروا منه أرجاء البلاد فترة زمنية تربو على خمسة قرون متتالية، وامتد نفوذهم ليشمل دادان بمفهومها الواسع (واحة العلا حالياً)، والحجر (مدائن صالح حالياً) الواقعة على مسافة ٢٢ كم شمال مدينة العلا الحالية. وعلى الرغم من اتفاق الدارسين على حقيقة المقر الرئيس لمملكة لحيان في واحة العلا (دادان) إلا أن آراءهم متعددة فيما يخص الامتداد الجغرافي لحدود مملكة لحيان إبان فترة ازدهارها، فمنهم من يرى[١] في تلك الإشارة التي ذكرها الجغرافي اليوناني أجاثر خريدس (عاش في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد) أن خليج العقبة كان يطلق عليه ـ آنذاك ـ اسم (خليج لحيان) دليلاً على سعة حدود دولة لحيان. بيد أن ذلك يجب أن يؤخذ بحذر شديد، إذ قد لا تعني تلك الإشارة بالضرورة امتداد رقعة الأراضي اللحيانية إلى تلك النواحي البعيدة، ولعل الأقرب إلى الواقع أن تكون الإشارة هنا دليلاً على قوة النفوذ اللحياني خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد، تلك الفترة التي شهدت تزايد نفوذ اللحيانيين على مجريات نقل البضائع التجارية في الأجزاء الشمالية الغربية من البحر الأحمر، ما جعل خليج العقبة يطلق عليه ـ آنذاك ـ اسم خليج لحيان.

أما وجهة نظر فرنر كاسل[٢] من أن نفوذ مملكة لحيان امتد إلى واحة الخرج في الأجزاء الجنوبية من منطقة نجد، اعتماداً على تشابه اسم مدينة الخرج مع اسم المعبود اللحياني



جبل الخريبة

(١) محمد بيومي مهران، *دراسات في تاريخ العرب القديم*. ط٢، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٠ هـ)، ٥٢٧.

(٢) Op. Cit., Caskel, Lihyan und Lihyanisch, 37.

(خرج)، فلا يعد حجة على امتداد دولة بني لحيان إلى تلك المناطق، خصوصاً إذا ما أخذ المرء في الحسبان البعد المكاني.

والحقيقة إن تشابه كثير من أسماء الأمكنة والأسماء الخاصة في الموروث العربي القديم لا يدل بالضرورة على أي رابط فيما بينها. وثمة من يرى في ذكر بعض أسماء الأمكنة التاريخية في النقوش اللحيانية، مثل اسم المكان (ذعمن) الذي تكرر ذكره في بعض النقوش اللحيانية[١] إشارة إلى امتداد مملكة لحيان شمالاً إلى عمان عاصمة الأردن الحالية[٢]، ولكن ذلك يجب ألا يجزم بحقيقة صوابه، فمن المرجح أن اسم المكان (ذعمن) في متون تلك النصوص يدل على أنه من أسماء الأمكنة القريبة من محيط حدود مملكة لحيان في واحة العلا، وفضلاً عن ذلك فإن المرء حين يعيد النظر في تلك النقوش اللحيانية التي جاء في متونها موقع (ذعمن) يتضح أنها من نوع النقوش الإهدائية التي تتحدث عن قيام أشخاص بتقديم قرابين لمعبود مملكة لحيان الرئيس (ذو غيبة)، ومثل هذه النقوش يصعب الأخذ بإشاراتها ـ خصوصاً أسماء الأمكنة ـ لتأكيد امتداد نفوذ سياسي على منطقة بعيدة، فالشواهد التاريخية في النقوش العربية القديمة يرد فيها قيام أشخاص ينتمون إلى ممالك أو قوى سياسية أخرى بتقديم القرابين والهدايا لمعبودات ممالك أخرى، خصوصاً أن الموروث الديني العربي القديم متشابه في شعائره إلى حد كبير، وقيام أولئك الأشخاص المنتمين إلى (ذعمن) حتى لو قبل المرء جدلاً أنهم من عمان (ربة عمون قديماً) عاصمة الأردن الحالية، فمن المرجح أنهم ممن يرتبطون بعلاقات تجارية أو اجتماعية



مدائن صالح

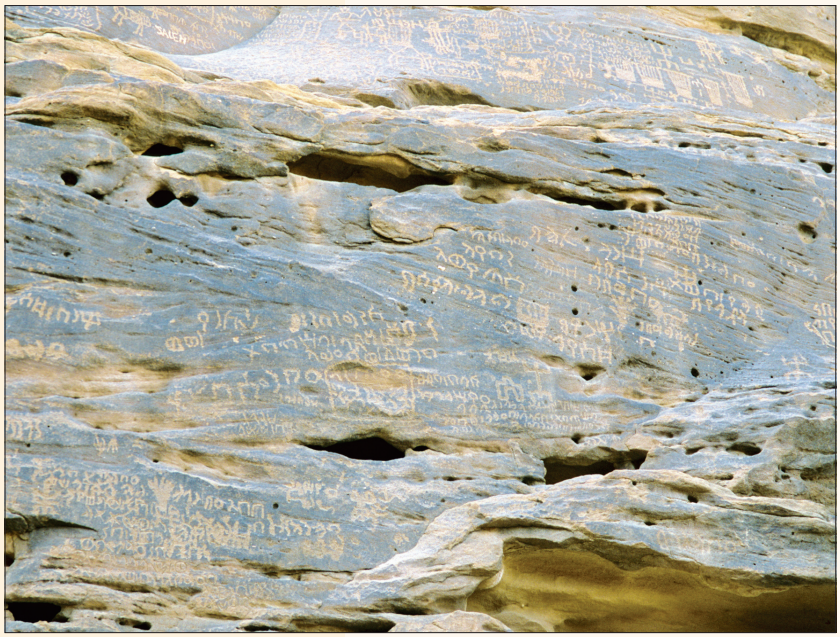

نقوش لحيانية

مع اللحيانيين في واحة العلا، أو قد يكونون من أفراد جالية لحيانية كانت تقيم في عمان. ولكن على الرغم من ذلك فإن قيامهم بتقديم القرابين لمعبود لحيان الرئيس (ذو غيبة) لا يعد حجة على امتداد نفوذ دولة لحيان إلى تلك المناطق في شمالي جزيرة العرب.

(١) حسين بن علي أبوالحسن، *قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا*. (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٨ هـ/١٩٩٧م)، ٦، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٤٥، ٦٠.

(٢) المرجع السابق، ٧٤.

ومما يعزز من حقيقة استبعاد فرضية امتداد مملكة لحيان إلى تلك المناطق هو عدم تسجيل أي مادة أثرية، سواء من النقوش اللحيانية نفسها أو من موروثاتهم الأثرية في محيطها، علاوة على ذلك فإن جميع النقوش اللحيانية التي ذكر فيها اسم (ذعمن) تنحصر خلال فترة زمنية كانت فيها عمان ومناطقها المحيطة تقع تحت نفوذ قوى سياسية قوية، ولن تسمح لمملكة لحيان بالتدخل ومد نفوذها في محيط أراضيها، كذلك الأمر فيما يخص موقع (بدر) الذي تكرر ذكره في مجموعة من النقوش اللحيانية الإهدائية[1]، وبما أن ربطه بموقع بلدة بدر الواقعة جنوب غرب المدينة المنورة أمر وارد، إلا أن المرجح، إذا ما قبل المرء أن موقع بدر في النقوش اللحيانية هو نفسه موقع بدر الحالي جنوب غرب المدينة المنورة، أن أولئك الأشخاص الذين ذكرت النقوش اللحيانية قيامهم بتقديم قرابين لمعبود مملكة لحيان الرئيس (ذو غيبة)، إما ممن يرتبطون بعلاقات اقتصادية وإما اجتماعية مع مملكة لحيان وشعبها، أو أنهم من اللحيانيين المستوطنين في بدر،أي أن ثمة جالية لحيانية كانت تقيم ـ آنذاك ـ في بدر، وبحكم ذلك لم يجدوا غضاضة في تقديم الهدايا للمعبود (ذو غيبة) عن ممتلكاتهم في بدر، كي يباركها الإله ويرضى عنهم، حسب معتقداتهم، ولعل ما يعزز ذلك هو عدم وجود أي دليل أثري في موقع بدر نفسه يشير إلى سيطرة للحيان ومملكتها في تلك النواحي.

وأخيراً يذهب بعضهم إلى القول إن سلطة اللحيانيين ونفوذهم وصلت إلى تيماء، معتمدين في ذلك على نقش آرامي عثر عليه في تيماء[2]، يذكر في متنه ما نصه:

١. ف ض ج وط هـ رو ب ر.
٢. م ل ك ز ل ح ي ن.

وقد فسر الدارسون لهذا النقش كلمة ملك الواردة في السطر الثاني منه على أنه اسم لقب بمعنى (ملك؛ أي حاكم)، وفي ضوء ذلك فسر النقش على النحو الآتي: (فضجو شهرو بن ملك (حاكم) لحيان)، وبناء على هذا التفسير لمضمون النقش اعتقد الدارسون أن ثمة سيطرة أو نفوذاً لمملكة لحيان خلال القرن الرابع قبل الميلاد على تيماء، ولكن الحقيقة الثابتة أن التفسير أعلاه للنقش غير دقيق، إذ يتضح من خلال ورود كلمة (بر) قبل الاسم التي تطابق أداة النسب إلى الأب (ابن) في العربية الفصحى، أن معنى النص لا علاقة له بملك لحيان، بل هو اسم علم خاص يماثل اسم العلم العربي مالك، وعليه هذا الجزء من النص على النحو الآتي: (فضجو الطاهر بن مالك من (قبيلة) لحيان)، وهذا التفسير للنقش بقدر ما ينفي أي نفوذ سياسي لمملكة لحيان أو ملوكها في تيماء، إلا أنه لا يحول دون علاقة لشخص (مالك اللحياني) بتيماء وسكانها، وقد يكون أحد أفراد جالية لحيانية كانت تستوطن تيماء، أو ممن لهم علاقات خاصة أو عامة بقبائل تيماء.

وخلاصة القول إن الشواهد التي يرى فيها بعض الدارسين امتداداً لمحيط حدود مملكة لحيان الجغرافي حتى منطقة الخرج في الجنوب وحتى عمان في الشمال، أو في منطقة بدر وتيماء يشوبها الغموض وقابلة لتفسيرات مختلفة ويجب أن تؤخذ بحذر شديد، وعلى ما يبدو في ضوء ما هو متاح من أدلة ـ حتى الآن ـ أن حدود نفوذ مملكة لحيان السياسي

(١) أبوالحسن،حسين بن علي. قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة، مرجع سابق، ١٠، ١٧، ٢٠، ٢١، ٢٨.

(٢) AL-Theeb, S. Aramaic and Nabataean In scriptions from North-West Saudi Arabie, 47. Riyadh: 1414H./1993.

لم يتعد محيط منطقة العلا (دادان القديمة) والأمكنة القريبة منها.

ب ـ نشأة مملكة لحيان وتطورها التاريخي:

أسفرت الدراسات الآثارية في منطقة العلا عن الكشف عن مجموعة من المخلفات الأثرية اللحيانية من أبرزها الكشف عن كثير من النقوش اللحيانية في موقع دادان نفسه، وعلى أسطح سفوح الجبال المحيطة في جبل عكمة وأم درج وغيرها، ولكن مضامين هذه النقوش لم تشر لا من قريب أو من بعيد إلى أصل اللحيانيين، أو حتى إلى كيفية نشأة مملكتهم في واحة دادان القديمة؛ فمضامين النقوش اللحيانية المعروفة ـ حتى الآن ـ تؤكد فقط على قيام مملكة لحيان وتكتفي بذكر عدد من ملوكها، وفي ضوء ذلك تعددت آراء الباحثين في التاريخ العربي القديم، خصوصاً من تعرضوا لتاريخ مملكة لحيان، واختلفوا في تاريخ نشأة مملكة لحيان ومراحل حكمها للمنطقة، فمنهم من يرى أن مملكة لحيان مرت بمرحلتين تاريخيتين، وبعضهم يرى أنها مرت بثلاث مراحل تاريخية، فبينما ذهب وينت (Winnett) إلى أن مملكة لحيان قامت في القرن الخامس قبل الميلاد على أنقاض مملكة دادان ثم استمرت حتى القرن الثالث قبل الميلاد، وأعقبتها مباشرة المرحلة الثانية لمملكة لحيان حتى سقوطها على يد ملوك الأنباط[١]، يرى فرنر كاسكل (Caskel) أن مملكة لحيان مرت بمرحلتين تاريخيتين أيضاً، ولكنه يحدد تاريخ لحيان الأولى في الفترة ما بين عام ١١٥ و٩ ق. م، ثم أعقبتها فترة من الزمن شهدت سيطرة من قبل مملكة الأنباط على المنطقة حتى عام ٨٠ م، إذ



جبل أم درج

أعقب هذا التاريخ عودة لحيان الثانية وسيطرتها على مجريات السياسة في واحة العلا حتى عام ١٣٤ م على حد زعم كاسكل[٢].

وعندما يمعن النظر في الآراء آنفة الذكر يجد أنها يشوبها عدم الدقة، خصوصاً وجهة نظر فرنر كاسكل التي لم يستند فيها إلى أدلة تبين الأساس الذي بنى عليه مثل هذا التقسيم لتاريخ مملكة لحيان. وهي بعبارة أخرى ـ ومن وجهة نظر علمية ـ تعتمد على الحدس والتخمين، أما وجهة نظر وينت (Winnett) فعلى الرغم من أن رأيه بتقسيم تاريخ مملكة لحيان إلى مرحلتين حضاريتين غير مبرر[٣] في ضوء الشواهد التاريخية المعروفة عن مملكة لحيان، إلا أن تأريخه لقيام تلك المملكة في القرن الخامس قبل

(١) Winnett, F. A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, 51., Toronto, University of Toronto, 1937.

(٢) Op, Cit,. Caskel, Lihyan und Lihyanisch, p. 41.

(٣) لقد اعتمد وينت (Winnett, A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, p. 9) في تقسيمه لمملكة لحيان إلى مرحلتين على أشكال حروف الخط اللحياني، إذ لاحظ في بعض حروف نقوش القرن الثالث قبل الميلاد اختلافاً عن مثيلاتها من القرون السابقة، خصوصاً حرفي الجيم والميم، والحقيقة أن اختلاف بعض أشكال الحروف في إطار الخط الواحد لا ينهض سنداً تاريخياً يسوغ إلى تقسيم حضاري لمملكة إلى مرحلتين، فالنقوش اللحيانية المبكرة والمتأخرة لا تشير إلى تغير في الأسرة الحاكمة، فالحكام اللحيانيون ينعتون أنفسهم دوماً بأنهم ملوك قبيلة لحيان. ولم تشر النقوش اللحيانية إلى تولي قبيلة أخرى غير قبيلة لحيان إدارة شؤون المملكة، ما يعني أن حضارة مملكة لحيان تشكل وحدة متكاملة استمر فيها الحكم والزعامة لقبيلة لحيان منذ قيامها في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد وحتى زوالها على يد الأنباط في منتصف القرن الأول قبل الميلاد.

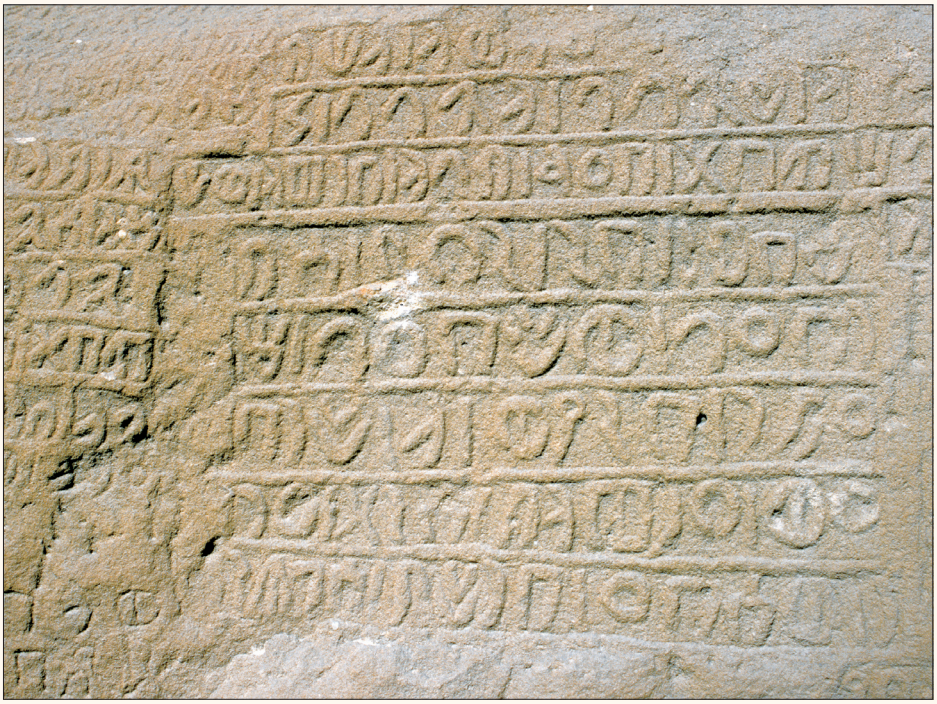

نقش لحياني في جبل عكمة في محافظة العلا

الميلاد أقرب إلى الصواب، ويتفق إلى حد كبير مع معطيات شواهد آثار اللحيانيين ونقوشهم التي كُشف عنها حتى الآن في واحة دادان القديمة.

لقد كشفت شواهد النقوش اللحيانية أسماء بعض ملوك دولة لحيان، فقد بلغ المعروف منهم ـ حتى الآن ـ اثني عشر ملكاً هم على النحو الآتي:

١. شهر بن هنأس[١].
٢. هنأس بن شهر[٢].
٣. عبدان بن هنأس[٣].
٤. لوذان بن هنأس[٤].
٥. جشم بن لوذان[٥].
٦. تلمي بن لوذان[٦].
٧. تلمي بن هنأس[٧].
٨. هنأس بن تلمي[٨].
٩. جلت قوس[٩].
١٠. سلحان[١٠].
١١. فضج[١١].
١٢. ذأب سموي[١٢].
١٣. مسعود.

وفي ضوء ما عرف حتى الآن من أسماء حكام مملكة لحيان يذهب بعض الدارسين إلى محاولة وضع قائمة بتسلسل ملوك لحيان حسب ورودهم في النقوش اللحيانية، فقد جعل فرنر كاسكل[١٣] الملك اللحياني (هنأس بن شهر) على رأس قائمة ملوك لحيان، أما كتشن[١٤] فيرى أن أباه (شهر) هو أول حاكم لحياني،أما آخر حاكم لحياني فهو (فضجو) عند فرنر كاسكل، و(عبدان بن هنأس) عند كتشن، ولكن الحقيقة التي يجب ألا تغيب عن الأذهان أن هذا التحقيب الزمني لملوك لحيان لا يقوم

(١) أبوالحسن، حسين بن علي. قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا، مرجع سابق، ١٣.

(٢) Jaussen, Savignac, Mission archéologique en Arabie, 53.

(٣) Ibid. Jaussen, 72.

(٤) Ibid. Jaussen, 82.

(٥) Ibid. Jaussen, 85.

(٦) أبوالحسن، حسين بن علي. نقوش لحيانية من منطقة العلا، مرجع سابق، ١٩٧.

(٧) Jaussen, Savignac, Mission archéologique en Arabie, 54؛ سعيد بن فايز السعيد، *نقوش لحيانية غير منشورة من المتحف الوطني - المملكة العربية السعودية*، (الرياض: جامعة الملك سعود، إصدارات مركز البحوث بكلية اللغات والترجمة ١٤١٤، ١٤٢٠ هـ)، ٥.

(٨) Ibid. Jaussen, 75.

(٩) Ibid. Jaussen, 83.

(١٠) Ibid. Jaussen, Nr. 68; Op, Cit,. Caskel, Lihyan und Lihyanische, 80.

(١١) Ibid. Jaussen, Nr. 63; Op, Cit,. Caskel, Lihyan und Lihyanische, 86. اسم هذا الملك غير مؤكد فلم يرد سوى في نقش واحد، ومن خلال سياق النقش لا يتضح بجلاء أهو اسم ملك لحياني أم هو اسم لحدث تاريخي أرخ فيه النقش؟

(١٢) عبدالله نصيف، «نقوش لحيانية مؤرخة من العلا: المملكة العربية السعودية»، *مجلة جامعة الملك سعود، الآداب*، مج١٤، جـ٢، (الرياض: ١٤٢٢ هـ/٢٠٠٢م)، ٣٥٩.

(١٣) Op, Cit,. Caskel, Lihyan und Lihyanische, 41.

(١٤) Kitchen, K. Documentation for Ancient Arabia, Part I, Chronological framework and historical sources Liverpool: 1994, pp 169-170.

على أسس ثابتة، وليس من دليل لدى الدارسين حتى الآن في النقوش اللحيانية نفسها أو من الشواهد التاريخية الأخرى يحدد أول حاكم لحياني، أو حتى آخر من حكم لحيان.

من جانب آخر فإن قائمة ملوك لحيان لم تكتشف كلها، فالشواهد المكتشفة حتى الآن لا تمثل بأي حال من الأحوال جميع الموروث النقشي لمملكة لحيان، بل إن ما كشف حتى الآن لا يمثل سوى تلك النقوش الظاهرة على سطح مواقع المستوطنات اللحيانية، أو على سفوح الجبال المحيطة في واحة دادان القديمة.

ومن المؤكد أن ثمة عدداً كثيراً من النقوش اللحيانية التي يرد في متونها ذكر لحكام مملكة لحيان لم تكتشف بعد، لذا فإن أي محاولة لوضع قائمة تثبت التسلسل الزمني لفترات ملوك لحيان فيها تسرع وسابقة لأوانها[1]. وليس أمام المرء سوى الانتظار عما ستكشفه الأعمال الأثرية الميدانية التي بدأت في دادان (الخريبة) مركز الدولة اللحيانية.

وتشير النقوش اللحيانية الملكية المذكورة أعلاه إلى أن اللحيانيين عاشوا في ظل حكم مملكتهم حياة مستقرة، أسهم في استقرارها قوة حكامها في إدارة شؤون الدولة، فعلى ما يبدو من شواهد الآثار والنقوش اللحيانية نفسها فإن قبيلة لحيان كانت تحكم قبضتها على البلاد، فلم تتحدث النقوش المعروفة - حتى الآن - عن نزاعات أو قلاقل سياسية عاشتها المملكة طوال خمسة قرون متتالية، كما لم يبرز على الساحة السياسية - آنذاك - أي زعامات أخرى تنافس الملوك اللحيانيين على إدارة شؤون مملكتهم. ولا ريب في أن ثمة عوامل أسهمت في استقرار مملكة لحيان وازدهارها طوال تلك الفترة الزمنية لعل من أبرزها:

- الموقع المميز لمملكة لحيان في واحة العلا، ذلك الموقع على الطريق التجاري القديم (ما يسمى بطريق البخور) الذي كان يمتد من أقصى جنوبي الجزيرة العربية مروراً بالواحات والمراكز التجارية وسط جزيرة العرب وشمالها حتى دول حوض البحر الأبيض المتوسط.
- اهتمام سكان واحة العلا (دادان قديماً) في جعل واحتهم مركزاً تجارياً مهماً في شمال غربي جزيرة العرب، فقد كانت القوافل التجارية القادمة من أرجاء متفرقة من الجزيرة العربية تمر عبر دادان وتحط رحالها فيها، الأمر الذي جعل تلك المنطقة تزدهر تجارياً.



مزارع في أرض مملكة دادان

(١) السعيد، سعيد بن فايز. نقوش لحيانية، مرجع سابق، ١٤.

- اهتمام اللحيانيين بالزراعة، وقد ساعدهم على ذلك موقع دولتهم على ضفاف وادي القرى، ذلك الوادي الذي يشتمل على مقومات بيئية وخصوبة في التربة ووفرة في المياه ساهمت في نماء الاقتصاد الزراعي في واحة دادان.

وبفضل تضافر هذه المقومات الحيوية، واهتمام مملكة لحيان شعباً وحكومة في توظيف مخرجاتها لخدمة سبل معاشهم واستقرار دولتهم، عاشت مملكة لحيان طوال تلك الفترة الزمنية في دعة من العيش، وسهل على حكامها توجيه نشاطهم إلى إعمار البلاد والاهتمام بالجوانب الحضارية وحمايتها من القلاقل أو النزاعات[١].

ج ـ نهاية مملكة لحيان:

مثلما تباينت الدراسات العلمية في تحديد بدء نشأة مملكة لحيان في دادان القديمة تباينت أيضاً آراء الدارسين وفرضياتهم حول سقوط مملكة لحيان، ويعود السبب في ذلك إلى أن الوثائق القديمة التي عثر عليها حتى الآن في المنطقة لم ترد فيها أي إشارات تتحدث عن موضوع انهيار تلك المملكة، فهناك من يرى أن سقوط مملكة لحيان كان على فترتين، وقد تبنى هذا الرأي فرنر كاسكل (Caskel) الذي يرى أن مملكة لحيان المبكرة سقطت على يد الأنباط فيما بين عامي ٢٥ و٢٤ ق.م[٢]، وفرضوا سيادتهم على المنطقة حتى قضى الرومان على مملكتهم في عام ١٠٦ م، وحسب رأي كاسكل فقد ترتب على سقوط مملكة الأنباط فراغ سياسي في منطقة العلا أدى إلى قيام مملكة لحيان مرة أخرى، وهي ما يسميها (مملكة لحيان المتأخرة) التي استمرت تحكم المنطقة حتى نهايتها في عهد الملك اللحياني (فضج) نهاية عام ١٣٤ م.

أما وينيت (Winnett) فلم يأخذ برأي فرنر كاسكل آنف الذكر، بل يرى أن سقوط مملكة لحيان كان متزامناً مع بروز شخص يدعى مسعود على مسرح الأحداث التاريخية آنذاك، إذ اعتمد (وينيت) في تأريخه لنهاية مملكة لحيان على ثلاثة نقوش عثر عليها في منطقة العلا كتبت بخط نبطي يقول نصها: (مسعودو ملك لحيان)[٣]، فقد أوحت له كتابة هذه النقوش بخط نبطي، وليس بخط لحياني، وكذلك تأريخه لشكل حروف النقوش الثلاثة بأنها تعود إلى مرحلة أشكال رسم الحروف الآرامية المتأخرة أو النبطية المبكرة، ما دفعه إلى القول إن مملكة لحيان انتهت في القرن الثاني قبل الميلاد[٤].

ويلاحظ أن آراء الدارسين تتفق فيما بينها أن زوال مملكة لحيان كان على يد حكام مملكة الأنباط، ولكنها تتباين في التاريخ الزمني لسقوطها، وحيال ذلك فإن المرء حينما يعيد النظر في الأحداث التاريخية التي شهدتها المنطقة وتزايد نفوذ دولة الأنباط في الشمال[٥] في نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الأول قبل الميلاد، يبدو من المرجح أن منتصف القرن الأول قبل الميلاد شهد نهاية مملكة لحيان[٦] وزوالها بعد حكم استمر قرابة خمسة قرون متتالية للمنطقة.

خامساً ـ الوجود المعيني في دادان (العلا):[*]

المعينيون هم قبائل عربية جنوبية كانت تستوطن منطقة جوف اليمن، وقد برزوا على مسرح الأحداث السياسية في جنوبي الجزيرة

(١) سعيد بن فايز السعيد، «دراسة تحليلية لنقوش لحيانية جديدة»، *مجلة جامعة الملك سعود، الآداب*، مج١٣، جـ٢، (الرياض: ١٤٢١ هـ)، ٣٣٥.

(٢) Op. Cit., Caskel, Lihyan und Lihyanisch, 42.

(٣) Jaussen, Savignac, Mission archéologique en Arabie, pp. 334, 335, 337.

(٤) Op. Cit., Winnet, A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions, 51.

(٥) هتون أجواد الفاسي، *الحياة الاجتماعية في شمال غرب الجزيرة العربية في الفترة ما بين القرن السادس قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي*، (الرياض: ١٤١٤ هـ)، ٨٩، ٩٠.

(٦) السعيد، سعيد بن فايز، «دراسة تحليلية لنقوش لحيانية»، مجلة جامعة الملك سعود، الآداب، مرجع سابق، مج١٣، جـ٢، ٣٣٥.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثالث، (الآثار والمواقع التاريخية)؛ الفصل الأول.

العربية خلال القرن السادس قبل الميلاد، عندما تمكنت مدن منطقة جوف اليمن من التحرر من السيطرة السبئية عليها، وشكلت اتحاداً فيما بينها بزعامة القبائل المعينية، ظهرت على إثره مملكة معين، ومركزها مدينة قرناو (معين حالياً) في الأجزاء الشمالية من اليمن، وقد ظلت مملكة معين تحكم تلك المناطق حتى تمكن حكام مملكة سبأ من القضاء عليها خلال القرن الأول قبل الميلاد.

وبحكم العقلية التجارية للقبائل المعينية وموقعهم المميز في الأطراف الشمالية من اليمن فقد استطاعوا الإمساك بزمام أمور نقل التجارة الدولية من جنوبي الجزيرة العربية إلى أنحاء متفرقة من العالم القديم[١]. وقد دلت النقوش المعينية المنتشرة في أرجاء متفرقة من الجزيرة العربية ومناطق الشرق القديم، على انتشار القبائل المعينية في عدد من الحواضر في الجزيرة العربية وخارجها، وكانت منطقة دادان (العلا) من بين أبرز الحواضر التي شهدت كثافة استيطانية للقبائل المعينية، إذ كشف في أرجاء متفرقة من منطقة العلا عن عدد كبير من النقوش المعينية تتحدث مضامينها عن استقرار عدد من القبائل المعينية في دادان القديمة[٢]، وتعايشها مع السكان المحليين. وفي ضوء حقيقة الوجود المعيني في منطقة العلا تعددت آراء الدارسين وتساءل عدد منهم عن أسباب انتقال القبائل المعينية إلى تلك المناطق واستيطانها في أمكنة بعيدة عن مركز دولتهم في منطقة جوف اليمن، وتكاد جل تلك الدراسات العلمية تتفق فيما بينها على اعتبار الوجود المعيني في منطقة دادان يعود إلى أسباب اقتصادية[٣]، فقد اضطر المعينيون بسبب تركيزهم على نقل البضائع التجارية عبر الطريق التجاري القديم (طريق البخور) إلى إنشاء مستوطنة تجارية في منطقة العلا، هدفها تسيير وتسهيل أمور تجارتهم، وضمان وصولها إلى مراكز الاستهلاك في مناطق العالم القديم المختلفة.

وبسبب كثافة الاستيطان المعيني في منطقة العلا فقد اعتقد بعض الدارسين[٤] أن ثمة سيطرة سياسية معينية لبعض الوقت على دادان القديمة (العلا). فقد ذهب كتشن[٥] إلى الاعتقاد أن المعينيين حكموا منطقة العلا، وحاول وضع تسلسل زمني لحكم المعينيين للمنطقة ضمن إطار الممالك العربية القديمة التي حكمت منطقة العلا، فجعل فترة حكمهم للمنطقة تبدأ من عام مئة وثمانين حتى مئة وعشرين قبل الميلاد، أي أنهم ـ حسب رأي كتشن ـ حكموا منطقة العلا قرابة ستين عاماً متتالية، ولكن المرء عندما يعيد النظر في وجهة نظر كتشن يجد أنه لم يذكر الأسباب التي جعلته يرى هذا الرأي، وعلاوة على ذلك فإن النقوش المعينية سواء تلك التي كشف النقاب عنها في وطنهم الأم في منطقة جوف اليمن[٦]، أو تلك التي تركها المعينيون أنفسهم في منطقة العلا وعلى سفوح جبالها[٧] لا تتحدث عن سيطرة سياسية على منطقة العلا طوال فترة وجودهم في المنطقة، بل إن مضامين النقوش المعينية تؤكد عكس ما ذهب إليه كتشن. فهي تتحدث عمّا يمكن أن يُطلق عليه اسم (الجالية المعينية التجارية في واحة دادان القديمة)، وقد كان السبب الكامن وراء توافد أفراد هذه الجالية إلى منطقة دادان هو تحقيق أهداف محددة لعل من أبرزها:

(١) السعيد، سعيد بن فايز، العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر، مرجع سابق، ٢٠ - ٥٥، ٦٩ - ٧٨.

(٢) Jaussen, Savignac, Mission archéologique en Arabie, pp. 236- 362.

(٣) AL-Said, S. «Die Verben rtkl und sa rab und ihre Bedeutung in den minäischen Inschriften», Festschrift W.W, Arabia Felix. Müller, Wiesbaden, 1994, pp. 260-267.

(٤) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب، مرجع سابق، جـ٤، ١٢١.

(٥) Kitchen, Documentation for Ancient Arabia, p. 170.

(٦) F. Bron, Inventaire des inscriptions sudarabiques, Tome 3. ‘ñn, Paris Ma - Rome, 1998.

(٧) Op. Cit., Jaussen Savignac, Mission archéologique en Arabie, pp. 236- 362.

- توفير الحماية للقوافل التجارية المعينية حتى تصل إلى مراكز الاستهلاك في الجزيرة العربية وخارجها.
- إدارة البضائع التجارية المنقولة عبر طريق البخور من أقصى جنوبي بلاد العرب، وإعادة تصدير الفائض منها إلى حيث يزداد الطلب عليها في أمكنة أبعد من العالم القديم.
- العمل على إيجاد اتصال مباشر مع الشعوب والبلدان خارج وطنهم الأم في منطقة جوف اليمن، من أجل تسهيل عملية البيع والشراء لبضائعهم التجارية[١]، وتسويقها دون وسطاء، حفاظاً عليها من تذبذب الأسعار.

وفي ضوء ما تشير إليه مضامين النقوش المعينية في منطقة العلا يتضح أن الجالية المعينية في منطقة دادان (العلا) كانت مرتبطة بوطنها الأم في منطقة جوف اليمن، فالنقوش المعينية الجنوبية، أي تلك التي كشف عنها في منطقة جوف اليمن تتحدث عن زيارات متعددة لأفراد من الجالية المعينية في منطقة دادان (العلا) إلى حواضرهم في براقش ومعين في منطقة جوف اليمن، وقيامهم هناك بتقديم القرابين لمعبوداتهم، وكذا مشاركتهم في دفع الضرائب المفروضة عليهم من قبل معبوداتهم الرئيسة في جوف اليمن[٢]. إضافة إلى أن تلك النقوش المعينية تسمي أفراد الجالية المعينية باسم (معين مصران)[٣]، ما يعني أن ثمة ارتباطاً وثيقاً من قبل أفراد الجالية المعينية في دادان (العلا) تجاه أوطانهم في جنوبي الجزيرة العربية، واتصالاً مباشراً يتطلب منهم تأدية حقوق المواطنة والتزامهم تجاهها.

وتشير رواية النقوش المعينية أيضاً إلى أن الجالية المعينية في العلا كانت منظمة، فعلى رأسها يقوم شخص كانوا يطلقون عليه اسم (كبير)، وهو شيخ الجالية، وفي بعض الأحيان كان يتزعم تلك الجالية أكثر من شخص[٤]. وكانت مهامهم تنحصر في أمرين:

- تنظيم أمور الجالية المعينية في دادان (العلا)، ومتابعة تسهيل نشاطها التجاري.
- تحمل مسؤولية الجالية تجاه الحكومة المحلية في دادان (العلا)[٥].

وحسب رواية النقوش المعينية في منطقة العلا، فقد عاش المعينيون في وئام مع السكان المحليين في منطقة العلا، وإن الطبيعة المسالمة للقبائل المعينية، أو بعبارة أخرى عقليتهم التجارية، كانت تملي عليهم عدم التدخل في الشؤون السياسية لمنطقة العلا التي كانت تدار من قبل حكام مملكة دادان ثم في فترة لاحقة من قبل حكام مملكة لحيان،وذلك لضمان سهولة تدفق تجارتهم ونقلها عبر الأراضي اللحيانية دون أي قلاقل أو خوف عليها، وبفضل ذلك توطدت علاقتهم بالشعوب والقبائل، ونشأ بينهم وبين الشعب الداداني والشعب اللحياني علاقة صداقة، يدل عليها قيام القبائل المعينية بتقديس معبود لحيان الرئيس (ذو غيبة)، كما يؤكد على ذلك مضمون أحد النقوش اللحيانية[٦]، ويشهد على ذلك أيضاً قيام علاقة مصاهرة بين الجالية المعينية في العلا والقبائل الدادانية واللحيانية[٧].

سادساً ـ مملكة الأنباط:

الأنباط هم شعب عربي تركز استيطانهم في بادئ الأمر في المنطقة الواقعة جنوب

(١) AL-Said, S. «Die Verben rtkl und rab und ihre Bedeutung in den minäischen Inschriften», p 265.

(٢) انظر على سبيل المثال النقش المعيني، Garbini, Iscrizioni sudarabiche، ٢٤٧ ؛ السعيد، سعيد بن فايز. العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر، مرجع سابق، ٣١ - ٣٥.

(٣) Garbini, Iscrizioni sudarabiche، ١/٢٤٧ ؛ السعيد، سعيد بن فايز. العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر، مرجع سابق، ٣٥.

(٤) Mordmann, J. H.Beiträge zur minäischen Epigraphik, Weimar 1897, pp. 17, 35.

(٥) Ibid, AL-Said, S. p 265.

(٦) Op. Cit,. Jaussen Savignac, Mission archéologique en Arabie, 49.

(٧) السعيد، سعيد بن فايز، «زوجات المعينيين الأجنبيات في ضوء نقوش جديدة»، أدوماتو، مرجع سابق، ع٥، ٦٤، ٦٥.

البحر الميت، واتخذوا من البتراء في شرق الأردن حاضرة لهم، ومع مرور الوقت تزايدت مواردهم الاقتصادية وقوي نفوذهم السياسي، ما أدى إلى اتساع نطاق رقعة أراضيهم الجغرافية حتى شمل في أوج ازدهار الدولة النبطية المنطقة الواقعة بين الحجر (مدائن صالح في شمال غربي المملكة العربية السعودية) جنوباً وحتى دمشق شمالاً.

وعلى الرغم من اتفاق الدراسات العلمية الحديثة على عروبة الأنباط كما دلت على ذلك أسماء أعلامهم[١]، إلا أن ثمة نقاشاً ما زال لم يحسم بعد حول الموطن الأصلي للأنباط، ومن أي مكان في جزيرة العرب كانت هجرتهم الأولى إلى مناطق استيطانهم المبكر في شرق الأردن، فبعضهم يرى أنهم من قبائل جنوبي الجزيرة العربية التي اضطرتها ظروف العيش بعد انهيار سد مأرب في القرن الخامس قبل الميلاد إلى ترك أمكنتهم الأصلية والهجرة إلى شرق الأردن[٢]، وثمة من يعتقد أنهم هاجروا من المناطق الشمالية الغربية للجزيرة العربية[٣]. وبعضهم الآخر يرى أنهم قدموا من منطقة الأحساء في شرقي المملكة العربية السعودية[٤]، وآخرون يعتقدون أنهم اتحاد قبلي تشكل من القبائل المستوطنة لمنطقة جنوب الأردن[٥]، وهناك من يرجح أن الأنباط قبل هجرتهم كانوا يستوطنون المنطقة الواقعة بين حائل شمالاً والقصيم جنوباً[٦].

فالآراء متباينة في تحديد الموطن الأول للقبائل النبطية، ما يجعل ترجيح أي منها أمراً صعباً خصوصاً في ظل غياب دليل مادي ومقنع يحدد موطنهم الأول بدقة غير قابلة للترجيح.

ومهما يكن من أمر فالحقيقة الثابتة أن الأنباط ظهروا على مسرح الأحداث التاريخية كقوة منافسة للسلوقيين في بلاد الشام والبطالمة في مصر منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وتعود أقدم إشارة إلى الأنباط في المصادر إلى عام ٣١٢ق.م، فقد جاء ذكرهم عند ديودوروس الصقلي[٧] (Diodourus Sicily) في معرض حديثه عن انتصارهم على الملك السلوقي أنتيجونوس (Antigonus) حينما وجه ضدهم حملتين؛ الأولى بقيادة أثينايوس والثانية بقيادة ابنه دمتريوس كانتا تهدفان إلى السيطرة على الأنباط وكبح تزايد نفوذهم السياسي والاقتصادي في المنطقة[٨]، ولكن الأنباط تمكنوا من القضاء على أفراد الحملة الأولى، واستطاعوا صد الحملة الثانية، ولعل ما يهم هنا أن نتائج هاتين الحملتين تنبئان عمّا للأنباط ـ آنذاك ـ من قدرة دفاعية عن مواطنهم، وأنهم كانوا أمة متماسكة وذات سيادة ونفوذ على مناطق استيطانهم، مكنتهم من الوقوف في وجه السياسة التوسعية للملك السلوقي في محيط نطاق أراضيهم.

لقد أدرك الأنباط أهمية منطقتهم والموقع المميز الذي كانت تتبوؤه، ما جعلهم ينصرفون عن حياة الترحال، ويميلون إلى الاستقرار والتركيز على تنمية مواردهم الاقتصادية، وقد ساعدهم على ذلك وقوع مناطق استيطانهم على مسارات الطرق التجارية القديمة القادمة من جنوبي الجزيرة العربية؛ فقد كانت حاضرتهم البتراء في شرق الأردن واحدة من أهم المحطات التجارية في منطقة الشرق القديم، ومما أكسبها تلك الأهمية عنايتهم بها وتشجيع أرباب القوافل التجارية على المرور والإقامة بها، فقد عملوا على توفير

(١) مهران، محمد بيومي. دراسات في تاريخ العرب القديم، مرجع سابق، ٤٩٦ - ٥٠٠.

(٢) Glueck, N. The Story of the Nabataean Deities and Dolphine, London 1965, p 4.

(٣) Knauf, E. "Nabataean Origins", in: Arabians Studies in Honour of Mahmoud Ghul, p 57.

(٤) Milik, J. "Origines des Nabateens", in: Studies in the History and Archaeology of Jordan4, (ed): A. Hadidi: pp. 261-265.

(٥) Healey, J. The Nabataean Tomb Inscriptions of Mda in Salih, Journal of Semitic Studies Supplement 1, 16., Oxford, 1993.

(٦) سليمان بن عبدالرحمن الذييب، *نقوش جبل أم جذايذ النبطية: دراسة تحليلية*، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٢ هـ)، ١٣.

(٧) Diodourus of Sicily, Diodourus Historia, Translated by C. H. Oldfather, vol 19,New York, Load Classical Library, 1933, pp. 94-95.

(٨) تذكر رواية ديودوروس الصقلي، أن الملك السلوقي أنتيجونوس جهز سرية بقيادة صديقه أثينوس قوامها أربعة آلاف من المشاة يدعمهم ستمئة خيال توجهت في الخفاء إلى البتراء مركز تجمع الأنباط آنذاك. وعلى حين غرة وبينما كان الرجال من الأنباط في سفارة لهم خارج البتراء هجموا على المدينة واستباحوها وغنموا ما فيها من طيوب وتوابل. ولكن الأنباط بعد عودتهم سرعان ما تعقبوا الجيش السلوقي وفاجؤوهم في جنح الظلام فأعملوا السيف في رقابهم وتمكنوا من القضاء عليهم. وعلى إثر ذلك كتبوا رسالة إلى أنتيجونوس يخبرونه بما حدث لمدينتهم على يد قائد جيشه أثينوس، فما كان من أنتيجونوس سوى استخدام الحيلة قائلاً لهم: إن الحملة على مدينتهم حدثت دون علمه، ولكنه في الوقت نفسه كان يجهز لحملة ثانية على الأنباط. وهذه المرة كانت الحملة بقيادة ابنه دمتريوس الذي توجه على رأس أربعة آلاف من الخيالة والمشاة ضد الأنباط، فحاصرهم، ولم ينتصر عليهم، بل قنع بعد طول الحصار بما قدمه له الأنباط من هدايا.

الحماية لها، وكذلك توظيف مهارتهم في أنظمة الري وتقنية صناعة القنوات المائية[١]، ما جعل مناطقهم ذات وفرة مائية على مدار العام، واكبتها نهضة زراعية، شجعت تجار القوافل - آنذاك - على المرور والإقامة بها.

ونظراً لتزايد همة الأنباط - آنذاك - في توسيع رقعة نفوذهم الجغرافي وزيادة مواردهم الاقتصادية، فقد جرهم ذلك إلى الدخول في صراعات طويلة مع السلوقيين من جانب والبطالمة من الجانب الآخر[٢]. بيد أنهم على الرغم من ذلك حافظوا على استقلالهم، حتى بدأ الضعف يدب في مملكتي السلوقيين في بلاد الشام والبطالمة في مصر، ما أسهم في ازدياد قوة الأنباط. وفي ضوء أدلة المصادر التاريخية المعروفة - حتى الآن - فإن الأنباط غيروا في نمط نظامهم السياسي من المشيخة القبلية إلى النظام الملكي، ففي نحو عام ١٧٠ق.م بدأ ظهور لقب ملك عند الحديث عن الأنباط في المصادر التاريخية، فكان أول ملوكهم الحارث الأول الذي نعت في سفر المكابيين باسم طاغية العرب[٣]، ومن بعده تعاقب على حكم الدولة النبطية مجموعة من الملوك بلغ عدد المعروف منهم - حتى الآن - أحد عشر ملكاً، وعلى الرغم من أن ثمة تبايناً فيما بين الدارسين حول ترتيب سنوات حكم بعض ملوك الدولة النبطية[٤]، فإن المرجح في ضوء ما تنبئ عنه نقوشهم المكتشفة - حتى الآن - أن فترات حكمهم جاءت على النحو الآتي:

الحارث الثاني ١٢٠ - ٩٦ ق.م؛ عبادة الأول ٩٦ - ٨٧ ق.م؛ رب إل الأول ٨٧ ق.م؛ الحارث الثالث ٨٧ - ٦٢ق.م؛ عبادة الثاني ٦٢ - ٥٩ق. م؛ مالك الأول ٥٩ - ٣٠ ق.م؛ عبادة الثالث ٣٠ - ٩ ق.م؛ الحارث الرابع ٩ق.م - ٤٠ م؛ مالك الثاني ٤٠ - ٧٠ م؛ رب إل الثاني ٧٠ - ١٠٦ م.

وتذكر مصادر التاريخ النبطي أن حكام الدولة النبطية منذ الحارث الأول دافعوا عن سيادتهم على مناطقهم، واتسمت علاقاتهم مع القوى المحيطة بهم تارة بالصراع المسلح، وتارة أخرى بالعلاقة السلمية[٥]؛ ففي عهد الملك النبطي الحارث الثالث الذي حكم من عام ٨٧ - ٦٢ ق.م شهدت الدولة النبطية توسعاً جغرافياً لم تشهده من قبل، فقد تمكن في نحو عام ٨٠ق.م من ضمّ دمشق وأدخلها في نطاق مملكته، وكان يواكب توسع مملكة الأنباط باتجاه الشمال توسع نحو الجنوب، فمن المرجح أن بداية النفوذ النبطي في شمال غربي الجزيرة العربية يعود إلى فترة حكم الحارث الثالث[٦]، ذلك النفوذ الذي توطد خلال فترة حكم عبادة الثاني ومالك الأول ليشمل الحجر (مدائن صالح) كأقصى مكان وصلته سيطرة الأنباط السياسية نحو الجنوب[٧]، ومنذ فترة حكم عبادة الثالث الذي حكم من عام ٣٠ق. م - ٩ق.م، ثمة إشارة في المصادر الكلاسيكية تؤكد على تبعية الحجر (مدائن صالح) للدولة النبطية، فقد أشار الكاتب الروماني (سترابو) في معرض حديثه عن حملة أليوس جالوس العسكرية على جنوبي الجزيرة العربية[٨] إلى أن المنطقة الواقعة جنوب مدائن صالح كانت تحكم من شخص نبطي اسمه الحارث، كما أشار أيضاً إلى أن الحملة بعد فشلها في تحقيق أهدافها الاستعمارية كرَّت عائدة بمن تبقى من جنودها، ومرَّت وهي في طريقها إلى مصر بالميناء النبطي (إجرا) على البحر الأحمر[٩].

(١) زيدون المحيسن، *هندسة المياه والري عند الأنباط العرب*، (البتراء: مشروع بيت الأنباط للتأليف والنشر، ٣، ٢٠٠٢م)، ١٤٨ - ١٥٥.

(٢) Göritz, E. «Die Nabatäer, ihre Rolle in der Geschichte der antiken Völker», in: Petra Königin der Weihrauchstrasse, (ed) M. Lindner, 14-16.

(٣) سفر المكابيين الثاني، ٥، ٨.

(٤) ثمة اختلاف بين الدارسين في ترتيب سنوات حكم ملوك الدولة النبطية، سببه قلة المعلومات التاريخية عن بعض الملوك، انظر حول هذا الموضوع: Kammerer, A. Pétra et La Nabatène, (Paris: 1929), pp. 174-177. W.Bowersock, «A Report on Arabia Provincia» in: JRS 61 (1971), pp. 222-223. Y Meshorer, Nabataean Coins, Jerusalem 1975, pp. 85-108؛ إحسان عباس، *تاريخ دولة الأنباط: بحوث في تاريخ بلاد الشام*، (عمان: ١٩٧٨م)، ٣٧ - ٧٠؛ حمد بن صراي، *تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم*، (رأس الخيمة: مركز الخليج للكتب، ١٩٩٧م)، ٢٤٩، ٢٥٠.

(٥) عباس، إحسان. تاريخ دولة الأنباط، مرجع سابق، ٣٧ - ٧٠.

(٦) حصة بنت تركي محروت الهذال، «تدخل روما السياسي والعسكري في شبه الجزيرة العربية خلال الفترة من بداية القرن الأول قبل الميلاد. حتى أواخر القرن الثالث الميلادي»، رسالة ماجستير غير منشورة، (الرياض: كلية الآداب للبنات بالرياض، قسم التاريخ، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م)، ١٥٩ - ١٦٢.

(٧) لعل ما يعزز من أن الحجر (مدائن صالح) في منطقة المدينة المنورة كانت تمثل الحدود الجنوبية للدولة النبطية هو عدم وجود آثار لمستوطنات نبطية تقع إلى الجنوب منها، أما ذلك النقش النبطي الذي كشف عنه في خيبر (Corpus Inscriptions Semiticarum, Pars II, Inscriptions Aramaicas Continens I, 1889, p. 335). فلا يعدو كونه من تأثير انتشار الثقافة النبطية في المنطقة، ومن المرجح أنه كتب من قبل أحد الأنباط الذين كانوا في سفارة إلى منطقة خيبر.

(٨) السعيد، سعيد بن فايز. العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر، مرجع سابق، ١١٧، ١١٨.

(٩) Healey, The Nabataean Tomb Inscription of Mdain Salih, p. 26.

ويتضح من رواية النقوش النبطية وبخاصة تلك النقوش الثلاثة التي كشف النقاب عنها في تيماء وجاء فيها ما نصه:

- النقش الأول[١] معناه: (مسعود ملك لحيان كتب هذا النقش).
- النقش الثاني[٢] معناه: (مسعودو).
- النقش الثالث[٣] معناه: (مسعود ملك لحيان).

إن سيطرة الدولة النبطية على المنطقة كانت تدريجية، فمضمون النقوش الثلاثة أعلاه يشير بوضوح إلى أن الأنباط في البداية مارسوا ضغوطاً سياسية على مملكة لحيان السابقة لهم في حكم منطقة العلا وتدخلوا في شؤونها، ما مكنهم من تنصيب شخص موالٍ على رأس هرم المملكة اللحيانية نبطي الأصل، أو متأثر بالثقافة النبطية، الأمر الذي مهد لهم القضاء على مملكة لحيان في نحو النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد.

ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو: ما الأسباب وراء توسع الأنباط نحو الجنوب واتخاذهم من مدائن صالح في منطقة المدينة المنورة مركزاً ثانياً لدولتهم؟

في ضوء السياق التاريخي للأحداث التي شهدتها المنطقة يبدو أن ثمة أسباباً جوهرية جعلت الأنباط يمدون نفوذهم نحو الجنوب ويتخذون من الحجر (مدائن صالح) مركزاً من مراكز قواهم الرئيسة، لعل من أبرزها:

- هدف اقتصادي، فالحجر كانت - آنذاك - محطة رئيسة على مسار الطرق التجارية القديمة.
- هدف إستراتيجي، حفزه تزايد ضغوط الإمبراطورية الرومانية على الأنباط في الشمال، ما جعلهم يتوجهون نحو الجنوب لإيجاد ملاذ بعيد إلى حد ما عن مطامع الرومان.

ويشير تعدد النقوش النبطية التي كشف النقاب عنها في الحجر (مدائن صالح) وتنوع موضوعاتها إلى تزايد أهميتها لدى الدولة النبطية، خصوصاً منذ فترة حكم الحارث الرابع العام ٩ق.م - ٤٠ م، فقد عثر على عدد من النقوش النبطية مؤرخة في فترة حكمه[٤]، ليس ذلك فحسب، بل إن أهمية الحجر عند الدولة النبطية تبرز من خلال قيام الملك النبطي الحارث الرابع بسك عملة نبطية باسم الحجر[٥]. والواضح من خلال نقوش الحجر النبطية أن ملوك الأنباط لم يتخذوا من الحجر (مدائن صالح) مركزاً لحكومتهم يديرون منه شؤون البلاد فحسب، بل أسندوا مهام شؤونها إلى حكام وولاة لإدارتها نيابة عنهم.

والنقوش النبطية التي كشف عنها في منطقة الحجر تؤكد ذلك، فالعديد منها يحمل أسماء أولئك الحكام[٦]، وتنبئ مضامينها عن أن منصب الحاكم في الحجر كان وراثياً[٧]، وتتركز مهامه في أمور تتعلق بإدارة المنطقة من شؤون عسكرية ومدنية، ففي أحد نصوص مقابر الحجر نص معناه[٨]:

١. هذا القبر الذي أنشأه ترصو القائد
٢. ابن تيم لنفسه ولزوجته بنت
٣. عبدعدنان ولعبد رب إل وتيم أبنائه ولأولادهم وذريتهم
٤. وورثتهم من اليوم هذا إلى الأبد.....، القبر
٥. هذا..... وأبناؤه
٦. يشتري أو يبيع أو يمنح.....
٧. وأي إنسان يبيع القبر هذا أو يكتبه (لأحد) عطية، فعليه أن يدفع

(١) Op. Cit,. Jaussen, Savignac, Mission archeologique en Arabie, p. 334.

(٢) ibid, Jaussen, p. 335.

(٣) ibid, Jaussen, p. 337.

(٤) سليمان بن عبدالرحمن الذييب، *نقوش الحجر النبطية*، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨م)، النقوش رقم: ١٩٠، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٧.

(٥) Op. Cit,. Meshorer, Nabataean Coins, p. 53.

(٦) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش الحجر النبطية، مرجع سابق، ٢، ٤، ١٨، ٢٢، ٢٢٢.

(٧) الفاسي، هتون أجواد. الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ١٨٧.

(٨) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش الحجر النبطية، مرجع سابق، ٢٢٨.

٨. لحاكم الحجر ألف قطعة حارثية ومثلها لسيدنا مالك الملك

٩. (تم ذلك) في شهر طبت سنة عشرين وأربع (من حكم) مالك الملك، ملك الأنباط

وينبئ مضمون النص، خصوصاً عبارة (ل ا س ر ت ج ا د ي ه وا ب ح ج ر) في السطر الثامن من النقش، أن منطقة الحجر كان يقوم فيها حاكم محلي ينوب عن الملك النبطي، يلقب في النقوش باسم (أ س ر ت ج ا)، أي الحاكم، ومن مسؤولياته المباشرة تولي رعاية شؤون المجتمع المحلي وحفظ حقوقهم. فالنقش يشير إلى أن من يتخطى التشريع المنصوص عليه في متن النقش يعاقب بدفع ألف عملة حارثية للحاكم نفسه، ومثلها للملك النبطي. وإن تساوي الغرامة المدفوعة للأسرتجا والملك النبطي يشير إلى مدى النفوذ والصلاحية التي كان يتمتع بها من يتولى مهام الحاكم (أ س ر ت ر ج ا) في الحجر.

وفي ضوء رواية نقوش الحجر النبطية فإن حاكم (ا س رت ج ا) الحجر كانت مسؤولياته تتعدى رعاية شؤون المجتمع المدني في المنطقة إلى الإشراف المباشر على الوجود العسكري النبطي في الحجر الذي دللت النقوش النبطية على وجوده بكثرة في المنطقة، فقد ورد في نقوش الحجر النبطية ألقاب عسكرية متعددة معروفة منها ـ حتى الآن ـ لقب (ه ف رك ا)، أي (قائد الجيش)[١]، ولقب (ك ل ي ر ك ا)، أي (رئيس الحامية)[٢]، ولقب (ق ن ط ر ي ن ا)، أي (القائد)[٣]، ولقب (س م ي ف ر ا) أي (حامل الراية)[٤]، ولا ريب في أن تكرار ورود مثل هذه الألقاب في نقوش الحجر النبطية ينبئ عن أن الدولة النبطية أولت اهتماماً متزايداً للحجر، ما جعلها تركز عدداً من فيالق الجيش النبطي في تدعيم وجودها السياسي هناك وحماية مصالحها الحيوية فيه.

استمرت الحجر منطقة خاضعة لسيادة الدولة النبطية منذ منتصف القرن الأول قبل الميلاد حتى فترة حكم الملك (رب إل) الثاني، تلك الفترة الزمنية التي تزايد فيها النفوذ الروماني في المنطقة، ما أدى في نهاية الأمر إلى إصدار الإمبراطور الروماني تراجان ٩٨ ـ ١١٧ م أمره بالقضاء على استقلال الدولة النبطية في عام ١٠٦ م وضمها تحت ما عرف ـ آنذاك ـ باسم الولاية العربية (Provincia Arabia)[٥]. وعلى الرغم من قضاء الرومان على حكومة الأنباط المركزية، ما ترتب عليه زوال نفوذهم السياسي والعسكري في منطقة الحجر وشمالي الجزيرة العربية، فإن الوجود الشعبي النبطي والثقافي في الحجر نفسها وفي المناطق الواقعة إلى الشمال منها ظل كما كان في السابق، ويشهد على ذلك تلك النقوش النبطية المؤرخة من القرن الأول حتى القرن الرابع الميلادي[٦] في منطقة الحجر، ولكن هذا لا يعني أن الشعوب الموجودة ـ آنذاك ـ في منطقة الحجر كلها من الأنباط، بل إن ثمة إشارة مصدرها نقوش المنطقة نفسها تؤكد على أنه بجانب انتشار النقوش النبطية، هناك عدد كبير من النقوش العائدة إلى الفترة الزمنية نفسها كتبت بخط ثمودي، بل إن نقش (رقوش) كتب بخطين، خط نبطي ـ عربي مبكر ـ وخط ثمودي[٧]، ما يعني أن الثموديين كانوا ـ آنذاك ـ أيضاً من العناصر الشعبية المكونة لسكان المنطقة.

ومنطقة مدائن صالح بعيد زوال السيادة النبطية عليها كانت تدار من قبل زعماء

(١) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش الحجر النبطية، مرجع سابق، ١٩٥، ١٩٦.

(٢) المرجع السابق، ٢١٩.

(٣) المرجع السابق، ٢٢١.

(٤) المرجع السابق، ٢١.

(٥) الهذال، حصة بنت تركي محروت، « تدخل روما السياسي والعسكري في شبه الجزيرة العربية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ٢٠٥، ٢٠٦؛ عرفان شهيد، *روما والعرب: مقدمة لدراسة بيزنطة والعرب*، ترجمة: محمد فهمي عبدالباقي محمود، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت)، ٥٦، ٥٧.

(٦) Healey, The Nabataean Tomb Inscriptions of Mda in Salih, 28.

(٧) Op. Cit,. Jaussen, Savignac, Mission archéologique en Arabie,17.

محليين، ففي نقش نبطي مؤرخ من النصف الثاني للقرن الرابع الميلادي نص معناه[١]:

١. هذا الشاهد والمقبرة التي أنشأ
٢. عدنان بن حبي بن سموإل رئيس (حاكم)
٣. الحجر لمونة زوجته بنت
٤. عمر بن عدنان بن سموإل
٥. حاكم تيماء التي ماتت في شهر
٦. آب سنة مئتين وخمسين

وتنبئ رواية النص أعلاه أن الحجر مثلها مثل تيماء كانت شؤونها في القرن الرابع الميلادي تدار من قبل شخص لقب بمنصب (رئيس الحجر)، اسمه عدنان بن حبي بن سموإل (السموأل عند الإخباريين العرب)، ويتضح من مضمون النقش أن ثمة علاقة أسرية بين حاكم الحجر وتيماء، وقد تكون أسرة سموإل التي جاء ذكرها في المصادر العربية هي التي تفردت بزعامة المنطقة بعد زوال السيادة النبطية عنها.

سابعاً ـ يثرب (المدينة المنورة):

لم يكن تاريخ يثرب (المدينة المنورة) القديم في المصادر العربية أحسن حالاً من تواريخ بقية مناطق جزيرة العرب؛ فرواية المصادر العربية عنه تتسم بطابع الخيال والبعد عن الحقيقة، ولا تفضي مخرجاتها إلا إلى رؤية ضبابية ليس في وسع المؤرخ تأكيدها أو نفيها، خصوصاً أن الاكتشافات الآثارية لا تسعف في إعادة قراءة تلك الروايات الأسطورية والتأكد من حقيقتها، وعلى العكس من ذلك فإن روايات المصادر العربية للعصور التاريخية في يثرب قبيل الإسلام تبدو أكثر واقعية وأقرب إلى الحقيقة التاريخية منها إلى الخيال، وليس أمام المؤرخ سوى المحاولة لرسم صورة تاريخية تعتمد على المقاربة بين رواية الإخباريين العرب وما أثبتته رواية الشواهد الآثارية والتاريخية ليثرب في عصورها الموغلة في القدم.

اختلفت روايات المصادر العربية في أصل تسمية يثرب بهذا الاسم، فذهبت مذاهب شتى في تعليل دلالته، فبعضهم[٢] يذكر أن أصل التسمية منسوبة إلى يثرب بن قامة بن مهلائيل بن إرم بن عبيل، وفي رواية أخرى ينسب اسم يثرب إلى زعيم العماليق[٣]. وثمة من يذكر أن الاسم مشتق من (التثريب) في اللغة، أي اللوم بالذنب، وفي التنزيل العزيز: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[٤]. ويرى آخرون أن الاسم كان في الأصل يطلق على حي صغير في يثرب، ومع مرور الوقت أصبح الاسم الخاص يطلق على العام[٥]، وهناك من يعتقد أن اسم يثرب هو تحريف للكلمة المصرية (أتريبس)[٦].

ولقد تعددت الأقوال في تحديد مدلول اسم يثرب، وهي إجمالاً تنحو في تفسيرها لمدلول الاسم وفق ما درج عليه منهج الإخباريين من ربط أسماء الأمكنة بأسماء الأشخاص والزعماء، أو ربطه بدلالة معنى الاسم الاشتقاقية.

والحقيقة أن المرء في ضوء ما هو متاح من مصادر ليس في وسعه تأكيد تلك الإشارات أو نفيها، بيد أن الأمر المؤكد أن اسم يثرب موغل في القدم، وأول إشارة إليه في المصادر التاريخية الموثوقة جاءت في نقش الملك البابلي نبونيد[٧] الذي تحدث فيه عن حملته العسكرية على شمال غربي الجزيرة العربية، بوصفها إحدى الأمكنة التي احتلها، وقد جاء الاسم في متن النص البابلي بصيغة (ي ـ

(١) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش الحجر النبطية، مرجع سابق، ١٨٨.

(٢) علي بن أحمد السمهودي، *وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى*، (القاهرة: ١٣٢٦)، جـ١، ١٥٦، ١٥٧.

(٣) أحمد بن يحيى البلاذري، *أنساب الأشراف*، تحقيق: محمد حميدالله، (القاهرة: ١٩٥٩م)، ٦.

(٤) يوسف، الآية: ٩٢.

(٥) السمهودي، علي بن أحمد. وفاء الوفاء، مرجع سابق، ٨.

(٦) مهران، محمد بيومي. دراسات في تاريخ العرب القديم، مرجع سابق، ٤٣٤.

(٧) السعيد، سعيد بن فايز. حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية، مرجع سابق، ٩.



جبل أحد

أَتْ ـ رِبُ «يثرب»)، ما يعني أن يثرب كانت في منتصف القرن السادس قبل الميلاد تحمل الاسم نفسه، أما الإشارة الثانية إلى اسم يثرب فقد وردت في أحد النقوش المعينية بصيغة (ي ث ر ب)[١]، أي يثرب، وذلك في نحو القرن الرابع قبل الميلاد، كذلك تكرر اسم يثرب في المصادر الكلاسيكية، فقد جاء في جغرافية بطليموس وعند استيفانوس البيزنطي بصيغة (Iathripa)، وفي أحد نقوش أم جذايذ، ثمة نقش كتب بالخط النبطي[٢] معناه:

١. سلام كأد بن أسلم

٢. الذي من يثرب

فالإشارة في هذا النص تمدنا بدليل جديد من النقوش النبطية عن يثرب المكان والمدينة، ومن المرجح في ضوء رسم حروف النقش أن تاريخه يعود إلى القرن الثاني الميلادي، كما ورد اسم يثرب في التنزيل العزيز في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ۛ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[٣]. وأخيراً تكرر الاسم بصيغة يثرب في عدد من قصائد شعراء العصر الجاهلي من مثل قيس بن الخطيم، وأبي قيس بن الأسلت، ويستدل من رواية المصادر العربية أن اسم يثرب كان في البداية يطلق على مكان يقع في الوقت الحالي شمال المدينة المنورة، في المنطقة الواقعة بين جبل أحد وجبل سلع[٤]، وظل كذلك حتى غيّر الرسول ﷺ الاسم من يثرب إلى المدينة المنورة[٥].

أ ـ استيطان يثرب:

إن الحديث عن بداية الاستيطان في يثرب أمر ليس باليسير، خصوصاً أن الأبحاث العلمية لا تزال في بداياتها، بل هي مقارنة ببعض مناطق المملكة العربية السعودية الأخرى قليلة جداً، ولكن على الرغم من ذلك واستناداً على المقومات الطبيعية والبيئية، وما تبوأته يثرب من موقع مميز مقارنة مع بعض بلدان جزيرة العرب التي أكدت الأبحاث الآثارية قدم الاستيطان البشري فيها، وأشارت إلى جزء من حياة الإنسان فيها خلال عصور سابقة لعصر فجر التاريخ، فإن المرء بوسعه أن يفترض أن يثرب شهدت أيضاً استيطاناً مبكراً يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، خصوصاً خلال العصر الحجري الحديث الذي تزايد فيه نشاط العنصر البشري في أرجاء متفرقة من منطقة المدينة المنورة[٦]. وما تلك المكتشفات الأثرية لعدد من المنشآت الصخرية، سواء كانت تلك المنشآت على هيئة دوائر أو مثلثات أو مذيلات حجرية في قمم جبل عير جنوب المدينة المنورة، وفي جبال

(١) Bron, F., Inventaire des inscriptions sudarabiques, Tome 3. Ma ñn, Paris-Rome, 1998.؛ السعيد، سعيد بن فايز. «زوجات المعينيين الأجنبيات»، أدوماتو، مرجع سابق، ع٥، ٦٤.

(٢) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش جبل أم جذايذ النبطية، مرجع سابق، ١٦٣.

(٣) الأحزاب، الآية: ١٣.

(٤) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة المنورة، مرجع سابق، ١١٢.

(٥) جاء في مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٨٥) قوله ﷺ: «من قال للمدينة يثرب فليستغفر الله»؛ وتجدر الإشارة إلى أن المؤرخ البيزنطي ستيفانوس (عاش في النصف الأول من القرن السادس الميلادي) قد ذكر يثرب باسم مدينة (Medinat)، انظر: بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة المنورة، مرجع سابق، ١٧.

(٦) انظر: بداية الاستيطان وعصور ما قبل التاريخ في بداية هذا الباب.

البيضاء في الأجزاء الشمالية من المدينة المنورة، وتلك التي على ضفاف وادي العقيق ووادي الغرس[١]، وعلى الرغم من قلتها إلا إيماءات وشواهد مهمة تسجل جزءاً من نشاط إنسان يثرب خلال العصر الحجري الحديث وتؤكد على استيطانه فيها خلال تلك العصور الموغلة في القدم.

أما رواية المصادر العربية التي تناولت بداية الاستيطان في يثرب فهي، وإن كانت في مجمل أقوالها متضاربة، ويغلب عليها السرد الأسطوري، فإنها تمثل جزءاً مكملاً لرسم الصور التاريخية لبداية إعمار المدينة المنورة من قبل الإنسان، وحسب رواية الإخباريين العرب فإن أول من سكن يثرب شخص يسمى يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح، ونسبة إليه سميت يثرب بهذا الاسم، وحسب ما تشير إليه الرواية التاريخية فإن قبيلة عبيل هي أول قبيلة تسكن المدينة[٢]، ولكنها ما لبثت أن هوجمت من قبل العماليق الذين تمكنوا من إجلائها واستيطان يثرب[٣].

ومهما يكن من أمر هذه الرواية التاريخية، فإن الحقيقة الثابتة أنه ليس ثمة دليل مادي يسندها أو ينفيها، وعلى الرغم من ذلك فإنها تشير إلى قدم الاستيطان في يثرب، وهذا أمر أكدته مكتشفات علم الآثار. فالنقوش البابلية، خصوصاً نقوش الملك البابلي نبونيد تؤكد على أن يثرب كانت في القرن السادس قبل الميلاد مدينة عامرة ومركزاً تجارياً مهماً يماثل في أهميته موقع دادان (العلا حالياً) وتيماء، فرواية نقش حران البابلي تفيد أن الملك البابلي نبونيد أقدم خلال حملته على شمال غربي الجزيرة العربية في عام ٥٥٣ق.م على احتلال يثرب، وجعلها ضمن نطاق المدن الخاضعة لسيطرته في شمال غربي الجزيرة العربية، ولا ريب في أن عزم الملك البابلي نبونيد - آنذاك - على جعل يثرب تخضع لسيطرته إنما يرجع إلى الأهمية الاقتصادية والاجتماعية ليثرب من أجل توطيد أركان حكمه للمنطقة الذي دام عشر سنوات متتالية[٤]. ومما يعزز من أهمية يثرب، وقدم الاستيطان فيها خلال تلك الفترة هو ما تحدثت عنه رواية النقوش المعينية، فمن المعروف حسب رواية المصادر المعينية نفسها أن المعينيين قوم امتهنوا نقل التجارة البرية من جنوبي الجزيرة العربية إلى مناطق الاستهلاك في العالم القديم[٥]، ومن أجل تسهيل مهامهم التجارية ارتبطوا بعلاقات اقتصادية واجتماعية مع عدد من الأمم والشعوب والبلدان داخل جزيرة العرب وخارجها، ومن بين تلك البلدان التي جاء ذكرها في النقوش المعينية يثرب[٦]. ففي أحد النقوش المعينية[٧] يرد ما معناه:

١. م بن فَرَخ من عائلة شعثم
٢. من قبيلة جَبّآن عقد قرانه
٣. ودفع مهر خَبَّابة من يثرب

وفي نقش معيني آخر[٨] مشابه في مضمونه للنقش السابق يرد ما معناه:

١. ى د بن ما سك من قبيلة
٢. جبآن عقد قرانه ودفع مهر.....
٣. من يثرب

وتنبئ مضامين النقشين أعلاه اللذين يعود تاريخهما على الأرجح إلى القرن الرابع قبل الميلاد، وكذلك رواية نقش نبونيد السالف الذكر إلى حقائق تاريخية مفيدة عن تتبع تاريخ الإنسان في يثرب خلال عصور ما قبل الإسلام، فهي تشير إلى:

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٦٣ - ٦٥.

(٢) ثمة روايات أخرى تناقلتها المصادر التاريخية حول مسألة أول من استوطن يثرب، ففي رواية أن أول من سكن يثرب هم صعل وفالج، السمهودي، علي بن أحمد. وفاء الوفاء، مرجع سابق، ١٦٥؛ وفي رواية أخرى تشير إلى أن موسى عليه السلام وقومه هم أول من سكن يثرب؛ المرجع السابق، ١٥٧؛ وتقول رواية ثالثة إن الأوس والخزرج هم أول من نزل المدينة، انظر: إسماعيل بن عمر بن كثير، *البداية والنهاية*، تحقيق: أحمد أبوملحم، وآخرون، (القاهرة: دار أم القرى، د. ت)، جـ٢، ١٤٨، ١٤٩.

(٣) السمهودي، علي بن أحمد. وفاء الوفاء، مرجع سابق، ١٥٦، ١٥٧.

(٤) السعيد، سعيد بن فايز. حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية، مرجع سابق، ٩.

(٥) السعيد، سعيد بن فايز. العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر، مرجع سابق، ٨.

(٦) تذهب بعض الدراسات العلمية الحديثة إلى زعم أن يثرب خضعت لسيطرة المعينيين السياسية، انظر: بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة المنورة، مرجع سابق، ٤١؛ بيد أن رواية المصادر المعينية نفسها أثبتت أن الوجود المعيني في شمال غرب الجزيرة العربية، خصوصاً في يثرب ومنطقة العلا لا يتعدى كونه وجود جاليات معينية يتركز نفوذها في تسيير أمور التجارة المعينية، ولا يصل إلى حد السيطرة السياسية على تلك المناطق.

(٧) Garbini, Iscrizioni sudarabiche, 394/10-12.

(٨) ibid, Garbini, Iscrizioni sudarabiche, 392/3-5.

- قدم الاستيطان البشري في يثرب.
- تفاعل سكان يثرب في تلك العصور الموغلة في القدم مع بيئتهم، وتوظيف مقدراتها بما يحقق استقرارهم في مناطقهم.

إن يثرب وسكانها لم يكونوا يعيشون حياة بدائية، بل تمكنوا بفضل جهدهم من جعل يثرب منطقة حيوية، أغرت جيش الملك البابلي أن يطمع في احتلالها، وجعلت قوافل المعينيين التجارية تتوقف فيها وتسوق ما حملته من بضائع من جنوب بلاد العرب في أسواقها.

إن يثرب كانت ـ آنذاك ـ محطة رئيسة على طريق التجارة القديم (طريق البخور) الذي يخترق جزيرة العرب من أقصى جنوبيها حتى يصل إلى مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط.

ارتباط يثرب بعلاقات اقتصادية واجتماعية مع شعوب وممالك الجزيرة العربية القديمة.

ب ـ سكان يثرب:

إن مقاربة الروايات التاريخية للمصادر العربية مع شواهد مكتشفات الدراسات الآثارية الحديثة تؤكد على قدم الاستيطان في يثرب، وتدل على أن يثرب تبوأت مكانة اقتصادية واجتماعية بارزة خلال الألف الأول قبل الميلاد؛ ما جعلها مصدر جذب للعنصر البشري على مر العصور، وهذا ما تشير إليه معطيات المصادر العربية الخاصة بتاريخ يثرب، فهي تتضمن إشارة مفيدة عن سكان يثرب، خصوصاً خلال عصور ما بعد الميلاد وفترة قبيل الإسلام، فإشارتها تذهب إلى أن عدداً من القبائل اتخذت من يثرب موطناً لها، ومن بينها قبائل: بني أنيف، وبني مريد حيان من بلي، وبني معاوية بن الحارث، وبني الحذمي، وبني الحرمان، وهما حيان من اليمن، وبني الشطبان من غسان[1]، وبني النضير، وبني قريظة، وبني هدل، وبني ضخم، وبني زعوراء، وبني زيد اللات، وبني القمعة، وبني ماسكة، وبني قينقاع، وبني عكوة، وبني مزاية، وبني حجر، وبني ثعلبة، وبني زهرة[2]، وقبائل الأوس والخزرج[3].

وقد اختلفت المصادر العربية، وكذلك الدراسة العلمية الحديثة في تحديد أصول هذه القبائل، ومتى، وكيف، ومن أين هاجرت إلى يثرب؟ فبعضهم يذهب إلى أن تلك القبائل كانت خليطاً من القبائل العربية والقبائل اليهودية، وبعضهم الآخر يرى أن جميع هذه القبائل هي قبائل ذات أصول عربية اعتنق بعضها الديانة اليهودية[4] وظل بعضهم الآخر على ديانته الوثنية.

ج ـ الأوضاع السياسية في يثرب قبيل الإسلام:

إذا ما استثنينا تلك السنوات العشر ٥٥٣ ـ ٥٤٣ ق.م التي تمكن خلالها الملك البابلي نبونيد من فرض سيطرته على يثرب وإدخالها ضمن المدن العربية الشمالية (دادان، يثرب، يديع، فدك، وخيبر) التي خضعت له وأدارها من مقر إقامته في تيماء، فإنه لم تقم في يثرب وحدة سياسية تتزعمها قيادة مركزية، كما هو الحال في المناطق المجاورة ليثرب في دادان (العلا حالياً) وفي الحجر (مدائن صالح) اللتين شهدتا تعاقب أنظمة سياسية عليها تمثلت في قيام مملكة دادان ثم مملكة لحيان وأخيراً سيطرة مملكة

(١) علي بن الحسين الأصفهاني، *الأغاني*، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٩م)، جـ٢٢، ٩٧.

(٢) علي بن أحمد بن عمر بن رسته، *الأعلاق النفيسة*، (ليدن: برايل، ١٩٨٢م)، ٦٠، ٦١.

(٣) علي بن أبي الكرم الشيباني ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م)، جـ١، ٦٥٥؛ عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *كتاب المعارف*، تحقيق: ثروت عكاشة. ط٦، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م)، ٦٤١.

(٤) انظر: آراء القدماء والمحدثين حول الموضوع نفسه عند: محمد بن فارس الجميل، *النبي ويهود المدينة*، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠٢م)، ٣٢ - ٤١.

الأنباط عليها حتى تمكن الرومان من القضاء على سيادتهم السياسية في عام ١٠٦ م.

لقد تحدثت المصادر التاريخية عن عدد من الزعامات القبلية في يثرب التي كانت تتنازع فيما بينها رغبة في سيطرة كل منها على الأخرى؛ فقد دخلت القبائل العربية المتهودة، أو اليهودية كما يزعم بعضهم، وهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع في صراع فيما بينها، وتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[١]، وأدى تزايد هجرات القبائل العربية الأخرى إلى يثرب إلى إشعال نار الصراع فيما بينها، فعندما قدمت قبيلتا الأوس والخزرج من مواطنهما في جنوبي الجزيرة العربية، خشيت القبائل المستوطنة في يثرب من سيطرة هاتين القبيلتين على يثرب ومواردها الاقتصادية، ما جعلها تؤجج نار الفتنة بين القبيلتين، وتمخض عنها قيام حروب ووقعات طاحنة بين قبيلتي الأوس والخزرج استمرت حسب رواية السمهودي مئة وعشرين عاماً[٢]. ومن بين تلك الحروب والوقعات بين القبيلتين حرب سمير التي استمرت قرابة العشرين سنة وكان سببها حسب المصادر العربية أن مالك بن العجلان الخزرجي استضاف رجلاً من بني ذبيان يدعى كعب الثعلبي، وبينما هو في ضيافته ذهب كعب الثعلبي إلى سوق بني قينقاع، وهناك سمع منادياً يبحث عن أقوى شخص في يثرب ليبيعه فرسه، فما كان من كعب الثعلبي إلا أن قال على الفور له: إن من تبحث عنه هو مالك بن العجلان الخزرجي، ولكن سمير بن زيد عارضه وقال له: كلا بل أعز أهل يثرب هو أحيحة بن الجلاح الأوسي، بيد أن صاحب الفرس لم يأبه بقوله، فما كان من سمير بن زيد هذا إلا أن تربص لكعب الثعلبي فأرداه قتيلاً، ما أدى إلى انتفاض مالك بن العجلان مطالباً بدم ضيفه الذبياني، وتمخض ذلك عن حرب ضروس بين الأوس والخزرج استمرت سجالاً بين الطرفين إلى أن اقتنع الأوسيون بدفع دية كعب الثعلبي كاملة[٣].

لم يمضِ وقت طويل على نهاية حرب سمير بين القبيلتين حتى دخلتا في حرب أخرى ذكرتها المصادر العربية باسم حرب حاطب، وتتلخص رواية المصادر عن أسبابها في أن شخصاً من بني ذبيان حل ضيفاً على حاطب بن قيس الأوسي، وبينما كان الضيف يسير في السوق رآه رجل من بني الخزرج، فقال ليهودي كان بجانبه: لك ردائي إن كسعت هذا الذبياني، فما كان من اليهودي إلا أن ضرب الذبياني، فصاح الذبياني قائلاً: يالحاطب كُسع ضيفك، وحال سماع حاطب نداء ضيفه أسرع فقتل اليهودي، فما كان من الخزرجي إلا أن حاول قتل حاطب، وعندما لم يتمكن من ذلك قتل شخصاً غيره من الأوس، وكان ذلك مدعاة لنشوب حرب جديدة بين القبيلتين انتصر فيها الخزرج على الأوس[٤].

استمرت الوقعات والأيام بين الأوس والخزرج، فكان الطرفان يلتحمان لأقل الأسباب، ومن هذه الوقعات وقعة جحجبا، ووقعة السرارة، ووقعة الحصين بن الأسلت، ووقعة فارع، ووقعة الفجار الأولى، ووقعة معبس ومضرس، ووقعة الفجار الثانية ويوم الربيع[٥]، وكان آخرها حرب بعاث التي وقعت قبيل الهجرة بخمس سنوات، وتحالفت فيها قبيلة الأوس مع بني قريظة وبني النضير وبني

(١) البقرة، الآية: ٨٥.
(٢) السمهودي، علي بن أحمد. وفاء الوفاء، مرجع سابق، ٢١٥.
(٣) محمد جاد المولى، وعلي محمد البجادي، ومحمد إبراهيم، *أيام العرب في الجاهلية*، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٦١م)، ٦٢.
(٤) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الشيباني. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ١، ٤١١، ٤١٢.
(٥) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة المنورة، مرجع سابق، ٧٤-٨١.

أوس اللات ضد قبيلة الخزرج وأحلافها من قبائل جهينة وأشجع وبني قينقاع، فثار القتال بين الطرفين وانتهى بهزيمة الخزرجيين وحلفائهم[١].

والسياق التاريخي لسير الأحداث في يثرب خلال فترة قبيل الإسلام ينبئ عن تدهور الأوضاع الأمنية في محيط يثرب، ويؤكد على أن قبائل المنطقة عاشت في صراع وتناحر فيما بينها، ما حال دون قيام وحدة سياسية تجمع شتات القبائل تحت زعامة واحدة، والسبب الرئيس وراء تلك الصراعات بين قبائل يثرب يرجع إلى تطلع كل قبيلة إلى التفرد بزعامة يثرب، وإحكام السيطرة على مواردها الاقتصادية، ولكن تكافؤ قوة قبائل يثرب، خصوصاً قبيلتي الأوس والخزرج، جعل من قيام حكومة مركزية في يثرب أمراً مستحيلاً، والقبائل الأخرى من بني قريظة وبني النضير وغيرهما كانت تقف حائلاً دون ذلك، فقد كانت تراقب الوضع وتسعى إلى مد يد العون إلى القبيلة الضعيفة، وتناصرها على القبيلة القوية، كما يشهد على ذلك دعمها لقبيلة الأوس إبان حرب بعاث، خشية منها أن تهزم أمام قوة قبيلة الخزرج فتتفرد بزعامة يثرب، ما يحرم تلك القبائل من نفوذها الذي كانت تنعم به في ظل غياب حكومة مركزية من شأنها أن تضبط الأمر وتحد من جو الفوضى والاضطراب السائد آنذاك.

ونظراً لغياب الوعي بأهمية الوحدة السياسية لدى قبائل يثرب خلال فترة قبيل الإسلام، اضطرت بعض القبائل من أجل حماية نفسها، وضمان استمرارية رعاية مصالحها ومواردها الاقتصادية، إلى بناء علاقات منفردة مع الزعامات والقوى المحيطة بيثرب، فالقبائل العربية المتهودة التي من بينها بنو قريظة وبنو النضير كانت ترتبط بعلاقات صلة مع قبائل وادي القرى[٢]، كذلك فعلت قبائل الأوس والخزرج التي تسابقت لعقد تحالفات مع القبائل المحيطة بها مثل: قبائل مزينة وفزارة وجهينة، بل كانت تدفع لبعض القبائل إتاوات، كتلك التي كان يأخذها عيينة بن حصن الفزاري كل عام من أهل يثرب[٣]، وفي حال تعرضهم للخطر كانوا يستنجدون بالقوى المحيطة، وقد فعلوا ذلك عندما اشتد الصراع بينهم وبين قبائل بني قريظة وبني النضير، حينما استنجدوا بمملكة الغساسنة في الشمال لترد عنهم تزايد نفوذ بني قريظة وبني النضير وتدخلهما في شؤونهم، فما كان من الملك الغساني إلا أن لبى طلب أبناء عمومته من الأوس والخزرج، فأرسل جيشاً إلى يثرب خلص الأوس والخزرج وأدب قبائل بني قريظة وبني النضير[٤].

ظل اليثربيون تتنازعهم روح العصبية القبلية ويسود بينهم التناحر والصراع المسلح الذي ما تكاد نيرانه تهدأ حتّى تُخْتَلَقَ أَسْبَابٌ لتأجيجه مرة أخرى، ولا ريب أن مثل هذا الوضع الأمني المتأزم كان ثقيلاً على اليثربيين، وأثر على تنمية مواردهم الاقتصادية، كما حد من قدرتهم على مدّ نفوذهم إلى المنطقة نفسها، أو إلى المناطق الأخرى في جزيرة العرب، على الرغم مما كانت تملكه يثرب - آنذاك - من مقومات طبيعية واجتماعية لو قدر لها أن توظف كما ينبغي لكان ليثرب دور مهم في سير الأحداث خلال فترة قبيل الإسلام. وبينما كانت يثرب غارقة في هذه الحالة كان نور الإسلام قد انبثق يرسل شعاعه المضيء

(١) ابن الأثير، وعلي بن أبي الكرم الشيباني. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ١، ٤١٨.

(٢) علي، جواد. المفصل في تاريخ العرب، مرجع سابق، جـ٤، ٥٢٦.

(٣) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة المنورة، مرجع سابق، ٩٧.

(٤) محمد بن محمود بن النجار، *الدرر الثمينة في تاريخ المدينة*، تحقيق: محمود زينهم عزب. ط١، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٦ هـ)، ٤١.

في مكة المكرمة، وقد صادف في هذه الأثناء أن وفداً من بني الأشهل برئاسة أبو الجسر بن رافع كان في مكة المكرمة لحشد القوى وحث قبيلة قريش لمد يد العون لبني الأوس في حرب بعاث المرتقبة بينهم وبين أبناء عمومتهم بني الخزرج، وبينما هم في ذلك سمع بمقدمهم رسول الهدى ﷺ فخاطبهم بقوله: «هل لكم في خير ما جئتم إليه، قالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن». وعندما سمعوا هذا القول سرعان ما تقدم فيهم إياس بن معاذ قائلاً: (أي قوم هذا والله خير لكم ما جئتم له)، أما رئيسهم فاحتج بانشغالهم عن ذلك بأمر آخر قدموا من أجله[١]، ذلك هو إعداد العدة لحرب بعاث والنيل من بني الخزرج، ولكن الله قدر أن يلتقي رسول الله ﷺ في العام نفسه برهط من الخزرج عند العقبة (فسألهم من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟: قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن)[٢]، وبينما كان الرسول ﷺ يدعوهم إلى الله، (قال بعضهم لبعض: تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه)[٣]. وانطلقوا عائدين إلى يثرب ليبشروا أهل يثرب بمقدم الدين الجديد، ذلك الدين الذي أصلح ذات البين بين قبائل يثرب المتناحرة وخلصها من حروب طاحنة فيما بينها[٤]. وبذلك دخلت يثرب في مرحلة جديدة من تاريخها الموغل في القدم، تغير بموجبها اسمها منذ ذلك الحين من يثرب إلى المدينة، وانقلبت مفاهيم سكانها من تعصب للقبيلة إلى ولاء للأمة ودينها الإسلامي الجديد.

(١) عبدالملك بن هشام، *السيرة النبوية*، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، (القاهرة: د. ت)، ج١، ٣٧.

(٢) هارون، عبدالسلام. تهذيب سيرة ابن هشام، مرجع سابق، ١١٤، ١١٥.

(٣) المرجع السابق، ١١٥.

(٤) أحمد إبراهيم الشريف، *الحجاز قبل ظهور الإسلام: دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث: الجزيرة العربية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين*، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١٠ هـ/١٩٨٩م)، ج١، ٣٢.

الفصل الثاني

العصر الإسلامي

أولاً	العهد النبوي	١ ـ ١١هـ /٦٢٢ ـ ٦٣٢م
ثانياً	العهد الراشدي	١١ ـ ٤١هـ /٦٣٢ ـ ٦٦١م
ثالثاً	العهد الأموي	٤١ ـ ١٣٢هـ /٦٦١ ـ ٧٥٠م
رابعاً	العهد العباسي	١٣٢ ـ ٦٥٦هـ /٧٥٠ ـ ١٢٥٨م
خامساً	العهد المملوكي	٦٥٦ ـ ٩٢٣هـ /١٢٥٨ ـ ١٥١٧م

إعداد

الدكتور محمد بن علي عسيري

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك

أولاً ـ العهد النبوي

١ ـ ١١هـ/٦٢٢ ـ ٦٣٢م:

يعد الوقوف على طبيعة الأوضاع السكانية في يثرب قبيل الهجرة مدخلاً موضوعياً لمعرفة الواقعين الاجتماعي والسياسي وفهمهما، إذ تعاملت معهما الدعوة الإسلامية في مرحلتها المدنية. وبناء على ذلك يمكن القول إن يثرب قد ضمّت عناصر سكانية عربية تميزت بأغلبيتها العددية وعلاقاتها الصراعية التي لا تهدأ، وبجانب ذلك هناك مجموعات كتابية يهودية استقرت بالمدينة المنورة؛ فالعناصر العربية تنتمي في معظمها إلى قبيلتي الأوس والخزرج من قبائل الأزد اليمانية[١]، وقد سكنت بطون الأوس المنطقتين الجنوبية والشرقية من المدينة المنورة، ونزل بنو عمرو بن عوف (وهم من الأوس) قباء من عوالي المدينة المنورة[٢]، واستقرت بطون الخزرج في وسط المدينة المنورة ومنهم بنو النجار الذين كانت منازلهم حول المسجد النبوي[٣]،أما الجاليات اليهودية فقد نزحوا من الشام في أزمنة تاريخية سابقة بعد ظهور الرومان وغلبتهم، وقيل إن ذلك حدث بعد سيطرة بختنصر ـ الملك البابلي ـ على بلاد الشام وبيت المقدس[٤]. وثمة رأي ثالث يميل إلى أنهم جاؤوا إلى المدينة المنورة بناءً على أنهم كانوا يتوقعون ظهور نبي بالحجاز وتكون هجرته إلى أرض ذات نخل[٥]. وقد سكنوا الجهات الخصبة من المدينة المنورة واتخذوا الحصون والآطام لشعورهم بالمخاوف على وجودهم الطارئ في تلك البقاع، وقد اشتملت الجاليات اليهودية على بطون قريظة والنضير وقينقاع وكان بينهم عرب تهودوا في رأي بعض المؤرخين[٦]. وقد قامت الحروب بين الأوس والخزرج ودارت الأيام والصراعات، وآخر تلك



المسجد النبوي الشريف

(١) نور الدين علي الهيثمي، *مجمع الزوائد ومنبع الفوائد*، (القاهرة: دار الريان، ١٤٠٧ هـ)، جـ٣، ٣٠٠، وقد وردت تسميتها بيثرب في القرآن حكاية عن المنافقين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْ﴾، الأحزاب، الآية: ١٣.

(٢) علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، *جمهرة أنساب العرب*، تحقيق: محمد عبدالسلام هارون. ط٤، (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ٣٣٢، ٣٤٦.

(٣) كل ما في جهة نجد يسمى العالية، وما في جهة تهامة يسمى السافلة وقباء من العالية. انظر: أحمد بن حجر العسقلاني، *فتح الباري في شرح صحيح البخاري*، (بيروت: دار الفكر، د.ت)، جـ٧، ٢٢٦، ٣٣٤، ٣٣٥؛ نورة آل الشيخ، *الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام*، (جدة: دار تهامة، ١٤٠٣ هـ)، ٣٤.

(٤) أكرم العمري، *المجتمع الديني في عهد النبوة*، (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤٠٣ هـ)، ٥٧، ٥٨؛ أحمد إبراهيم الشريف، *مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول*، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٨م)، ٣٢٠.

(٥) نور الدين علي بن عبدالله السمهودي، *وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى*، تحقيق: قاسم السامرائي، (مكة: دار الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٢ هـ)، جـ١، ٢٩٧.

(٦) الشريف، أحمد إبراهيم. مكة والمدينة، مرجع سابق، ٣١٩، ٣٢٠.

الأيام يوم بُعاث قبل الهجرة بخمس سنوات لمّا انهزم الخزرج من الأوس[١].

لقد كانت تلك الصراعات والحروب ثغرة خطيرة في أوضاع يثرب قبل الإسلام على الرغم من توافر مقومات الاستقرار والعوامل الدافعة إلى السلام والتصالح؛ فالبلدة ذات اقتصاد زراعي وفيها أسواق نشطة خلال الأشهر الحرم التي يمتنع فيها العرب عن القتال، ثم هي ممر للقوافل التجارية المكية، وديمومة الحروب والصراعات تؤذن بخراب عمرانها وجلاء سكانها؛ وهي بكل حال لا تتوافق مع متطلبات العيش الحضري المستقر.

وكان ليثرب صلات تجارية واجتماعية بمكة المكرمة، فقوافل قريش التجارية التي تتجه إلى الشام تمر بالمدينة المنورة وأحياناً تنزل في بلدات قريبة منها مثل بدر، ويقدم أهالي يثرب من عرب ويهود خدمات الإيواء والإجارة لتلك القوافل، وتعبيراً عن الأهمية البالغة التي توليها مكة المكرمة لعلاقاتها مع يثرب قال قائلهم بعد بيعة العقبة الثانية لوفد من الأوس والخزرج: «إنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»[٢].

وارتبطت بعض الأسر المكية بروابط المصاهرة مع أسر عربية من يثرب، ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك زواج هاشم بن عبدمناف (الجد الثاني للنبي ﷺ) من سلمى بنت عمرو بن زياد النجارية الخزرجية؛ وهي أم عبدالمطلب جد رسول الله ﷺ[٣]. وثمة قبائل مجاورة للمدينة تشكل ريفها وباديتها، وقد ارتبط أغلبها بروابط اجتماعية وسياسية واقتصادية مع سكان المدينة المنورة، وأبرز هذه القبائل قبائل مزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع وهي القبائل التي تشغل منطقة ما حول المدينة[٤]. ولقد ارتبطت بعض تلك القبائل بتحالفات مع الأوس والخزرج، فمزينة كانت حليفة للأوس بينما تحالفت أشجع وجهينة مع الخزرج[٥]. ولم تكن بوادي المدينة المنورة مصدر تهديد للسكان الزراعيين فيها، على الرغم من الضعف الناشئ عن التفكك الداخلي ويرجع ذلك إلى أن قدرات أهل المدينة المنورة ليست ضعيفة، فهم أهل السلاح وأهل الحرب، وكان هؤلاء البداة المجاورون للمدينة لا يطمعون في حيازة شيء من تمر المدينة المنورة إلا قرى (ضيافة) أو بيعاً[٦]. كما أن المدينة المنورة وبحكم مميزاتها الجغرافية والطبيعية تستعصي دوماً على المغيرين، إذ إن الحرات والحصون والبساتين تحيط بها[٧].

أ ـ هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة:

مكث النبي ﷺ في مكة المكرمة مدة ثلاثة عشر عاماً في ظل صراع غير متكافئ مع الزعامة المكية، ثم انتقل رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة مهاجراً إليها ومعه أصحابه المؤمنون ممن لم يحل بينهم وبين الهجرة، ويمثل هذا الانتقال النبوي إلى المدينة المنورة حدثاً بالغ الأهمية لا في تاريخ المدينة المنورة فحسب، بل سوف يرتبط بتاريخ الدعوة الإسلامية، وفي تاريخ الحجاز والجزيرة العربية بصفة عامة. لقد سبقت الهجرة مقدمات وخطوات هيأت المجال أمام الرسول ﷺ وأصحابه وأغلبهم من أهل مكة المكرمة ـ آنذاك ـ للانتقال إلى المدينة المنورة، فقد كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على ممثلي قبائل العرب والوافدين إلى مكة المكرمة في مواسم الحج والأسواق التي تقام

(١) علي بن محمد بن الأثير، *الكامل في التاريخ*، (بيروت: دار صادر، ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥م)، جـ١، ٦٨١.

(٢) عبدالملك بن هشام، *سيرة النبي* ﷺ، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، (القاهرة: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، جـ٢، ٧١.

(٣) ابن الأثير، علي بن محمد. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ٢، ١٠.

(٤) يتحدد مصطلح ما حول المدينة في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، التوبة، الآية: ١٠١؛ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، التوبة، الآية: ١٢٠، عند بعض المفسرين بقبائل مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار. انظر: عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، *زاد المسير في علم التفسير*، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤ هـ)، جـ٣، ٣٧١، ٣٨٩.

(٥) ابن الأثير، علي بن محمد. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ١، ٦٨٠.

(٦) المرجع السابق، جـ٢، ٥٠، جـ٣، ٢٣٩.

(٧) انظر: محمد بن عمر الواقدي، *المغازي*، تحقيق: مارسدن جونس، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٤ هـ)، جـ١، ٢٠١؛ وفي مناعة كتائب المدينة يقول كعب بن مالك:

وأبت بسالتها على الأعراب

أعيت أبا كربٍ وأعيت تعباً

انظر: ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٣، ٢٨٨.

خلال إقامة شعائره، ويأتي ذلك رغبة من رسول الله ﷺ في الحصول على تأييد قوم لهم منعة، وقبل ذلك استجابتهم لدعوته. ولقد التقى ﷺ ببعض من قدم من المدينة المنورة، ومنهم ستة نفر من الخزرج سمعوا من النبي ﷺ وكلموه، ثم قالوا له: (إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى الله أن يجمعهم بك، فإن يجمعهم الله بك فلا رجل أعز منك)، ولما قدموا المدينة المنورة ذكروا رسول الله ﷺ ودعوا قومهم إلى الإسلام، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ، وفي العام التالي التقى رسول الله ﷺ في عقبة منى بنفر من الأوس والخزرج وبايعوه في تلك العقبة، وعرفت تلك البيعة ببيعة العقبة الأولى، ولم تكن هذه البيعة كافية لأن يغادر الرسول مكة المكرمة معهم لكنه أرسل مع الأنصار مصعب بن عمير ليعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، وبمعاونة من أسعد بن زرارة أسلم على يد مصعب بن عمير خلق كثير من الأوس والخزرج من أبرزهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وبإسلام سعد بن معاذ أسلم بنو عبدالأشهل، وفي رواية أنها لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون إلا دور محدودة[١].

وجاءت بيعة العقبة الثانية لتؤكد تغلغل الإسلام بين عرب المدينة المنورة، فيما عدا أحياء قليلة، ولتؤكد أيضاً تهيؤ عرب المدينة المنورة المسلمين من الأوس والخزرج ـ وسوف يحملون اسم الأنصار ـ لاستقبال النبي ﷺ وحمايته والدفاع عنه حال وصوله إلى بلدتهم[٢]. وقد جرت هذه البيعة خلال موسم الحج من العام الثالث عشر للبعثة النبوية، وأحيطت بجو من السرية والكتمان عن قريش. وهكذا مهدت هذه اللقاءات والتطورات السبيل أمام هجرة النبي ﷺ وأصحابه، فقد أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالانتقال إلى تلك البلدة المباركة، إلا من رأى رسول الله أن تتأخر هجرتهم كأبي بكر الصديق الذي طلب منه النبي ﷺ لما تجهز مهاجراً التريث ليصحب النبي بعد ذلك[٣].

ومكث رسول الله في مكة المكرمة بعد الحج ما تبقى من ذي الحجة ومحرم وصفر ثم أذن الله له بالهجرة، في حين كانت قريش ساعية إلى عرقلة هجرة المسلمين، وفي المنتدى المكي الرئيس (دار الندوة) قرر زعماء مكة المكرمة التخلص من الرسول ﷺ قبل أن يهاجر بقتله؛ على أن يتولى ذلك مجموعة من شباب قريش موزعين على القبائل ليتفرق دمه فيها[٤] لكن الله أنجى نبيه من كيد أولئك المنتدين لينتقل بعد ذلك إلى دار هجرته المدينة المنورة النبوية بصحبة أبي بكر الصديق، حيث اتجها أولاً إلى غار ثور فمكثا فيه ثلاث ليالٍ، ثم انطلقا نحو المدينة المنورة ومعهما دليل من بني الديل سار بهما عبر طريق الساحل وهو أبعد من طريق الجادة، وقد ذكر عدد من كتّاب السير والمغازي الطريق الذي سلكه النبي ﷺ في هجرته حيث مر بعدة منازل حتى انتهى إلى قباء جنوب المدينة[٥].

وكان الأنصار رضي الله عنهم ينتظرون قدومه منذ بلغهم مخرجه بتلهف بالغ، ويحدد ابن إسحاق تاريخ قدوم النبي ﷺ إلى قباء، دار بني عمرو بن عوف بيوم الاثنين ١٢ ربيع الأول[٦] الموافق شهر أيلول ٦٢٢ م. قال ابن كثير هذا هو المشهور، أي قول ابن إسحاق، ومما

(١) انظر تفاصيل ذلك في روايات: أحمد بن حميد البيهقي، *دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة*، تحقيق: عبدالمعطي قلعجي، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٥ هـ)، جـ٢، ٤٣٤، ٤٣٧، ٤٤٠.

(٢) عن بيعة العقبة الثانية انظر: ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٢، ٤٧ - ٥١.

(٣) محمد بن إسماعيل البخاري، *الجامع الصحيح*، (إستانبول: المكتبة الإسلامية، د.ت)، جـ٤، ٤٧٥؛ البيهقي، أحمد بن حميد. دلائل النبوة، مرجع سابق، جـ٢، ٤٥٩.

(٤) ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٢، ٩٤، ٩٥.

(٥) المرجع السابق، جـ٢، ٩٩، ١٠٤ - ١٠٨؛ البيهقي، أحمد بن حميد. دلائل النبوة، مرجع سابق، جـ٢، ٤٧٤؛ وانظر: عبدالقدوس الأنصاري، *طريق الهجرة*، (جدة: مطابع الروضة، ١٣٩٨ هـ)، ٦٥ - ٨٣.

(٦) ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٢، ١٠٩.

توصل إليه ابن كثير أيضاً أن بين خروج رسول الله ﷺ من مكة المكرمة ودخوله المدينة المنورة خمسة عشر يوماً[1].

ب ـ استقبال أهل المدينة المنورة لرسول الله ﷺ وبناء المسجد النبوي:

فرح الأنصار رضي الله عنهم فرحاً شديداً بقدوم النبي ﷺ، ويصف أحد الصحابة المشهد فيقول: «ما رأيت أهل المدينة المنورة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله»[2]. وكان الأهالي يكبرون ويقولون: الله أكبر، جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسول الله[3]. وجاء في بعض المصادر أن الرسول ﷺ استقبل بهذا النشيد:

طلع البدر علينا

من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا

ما دعا لله داع[4]

وسجلت مدونات السنة وكتب السيرة صوراً رائعة لاستقبال الأنصار للرسول وصحابته، ويكفي أن نذكر هنا قول الله تعالى في مدح الأنصار والثناء عليهم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[5].

ولقد أقام النبي ﷺ في قباء من الاثنين إلى الجمعة كما ذكر ابن إسحاق وقيل غير ذلك، فقد ورد أنه أقام بضع عشرة ليلة[6]، ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة المنورة بعد الجمعة فلا يمر بدار من دور الأنصار[7]، إلا أخذوا بزمام راحلته يدعونه للنزول عندهم حتى بركت الناقة في أحياء بني النجار عند مكان مسجده، وبادر أبوأيوب الأنصاري رضي الله عنه إلى رحل النبي ﷺ فأدخله بيته، فقال النبي ﷺ: المرء مع رحله[8]. ونزل رسول الله ﷺ عند أبي أيوب الأنصاري، قيل: شهراً، وقيل: سبعة أشهر[9]، ثم انتقل بعد بناء المسجد وحجر زوجاته إلى مسكنه الجديد في ظل رعاية الله ثم حفاوة الأنصار وترحيبهم، وقد شملت هذه الحفاوة أصحابه المهاجرين من مكة المكرمة، فقد اقترعت الأسر الأنصارية[10] على سكنى أولئك المهاجرين عندها لأن عدد الراغبين في الإيواء أكثر من عدد المهاجرين، ولقد آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فلم يكتف ﷺ بمجرد الحث على التآخي بل عمد إلى تفعيل ذلك في الواقع للحاجة الشديدة إلى خطوة من هذا القبيل، ولأن الأنصار أسراً وأشخاصاً كانوا مهيئين لذلك فقد نجحت المؤاخاة، وظلت بيوت الأسر الأنصارية تؤوي المهاجرين حتى ابتنى رسول الله ﷺ لأصحابه المتفرقين في دور الأنصار دوراً في الأراضي التي وهبها الأنصار لرسول الله ﷺ[11].

ووسط هذا الاستقبال الكريم الرائع من قبل الأنصار لرسول الله ﷺ اتجه إلى بناء مسجده عند المكان الذي بركت فيه ناقته في أرض كانت لغلامين يتيمين من بني النجار، وهي مربد للتمر فابتاع المكان منهما، ويبدو أن المكان احتوى أيضاً على قبور ونخيل، فأمر النبي ﷺ بتجهيز الموقع وتهيئته وتسوية الأرض وإزالة ما فيها من القبور والنخيل، ثم شرعوا في العمل ببناء المسجد بسرور بالغ، مستخدمين المواد المتاحة من حجارة ولبن وجذوع النخيل وجريدها، وقد بلغ عرض المسجد ٦٠×٧٠ ذراعاً، وكانت قبلته أول الأمر إلى بيت المقدس، وقد استغرق البناء خمسة عشر يوماً، وبنيت بجوار المسجد حجرتان لسودة بنت زمعة وعائشة بنت أبي بكر، وهما أول بيتين بنيا لأزواج النبي ﷺ[12].

(١) إسماعيل بن عمر بن كثير، *البداية والنهاية*، تحقيق: عبدالله التركي. ط١. (القاهرة: مركز هجر للدراسات العربية، ١٤١٧ هـ)، جـ٤، ٤٧٢، ٥٢٦.

(٢) البخاري، محمد. الجامع الصحيح: كتاب التفسير، مرجع سابق، حديث رقم (٤٩٤١).

(٣) ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٤، ٤٦٤، ٤٨٨.

(٤) المرجع السابق، جـ٤، ٤٦٤؛ العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٧، ٢٦٢. ولبعض العلماء وقفات حول هذا النشيد من جهة ثبوته سنداً، ومن جهة مناسبة إنشاده، هل هو في زمن الهجرة أو بعد عودة النبي ﷺ من تبوك أو في مناسبة أخرى؟ انظر: إسماعيل الأنصاري، «نشيد الفرح بقدم النبي ﷺ»، *مجلة البحوث الإسلامية*، مج١، ع٣، (الرياض: رئاسة الإفتاء والبحوث العلمية، ١٣٩٥ هـ)، ١٣٤٣ - ١٣٤٨.

(٥) الحشر، آية: ٩.

(٦) ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٢، ١١١؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٤، ٥٣٠.

(٧) كانت المدينة تسع دوائر أو محال كالقرى المتجاورة، وكل دائرة أو دار كانت مستقلة بمساكنها وأهلها وزروعها، وقد اجتمع أهل كل قبيلة (من القبائل الفرعية) في محلة واحدة. انظر: المرجع السابق، جـ٨، ٥٠١.

(٨) البيهقي، أحمد بن حميد. دلائل النبوة، مرجع سابق، جـ٢، ٥٠١.

(٩) المرجع السابق، جـ٢، ٤٠٥، ٥٠١؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٤، ٥٣٠. ويرجح بعض المعاصرين أن رسول الله ﷺ أقام عند أبي أيوب شهراً واحداً. انظر: مهدي رزق الله، *السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية*، (الرياض: مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، ١٤١٢ هـ)، ٢٨٨.

(١٠) البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح: كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي ﷺ المدينة، مرجع سابق، جـ٤، ٢٦٥.

(١١) أحمد بن يحيى البلاذري، *أنساب الأشراف*، تحقيق: محمد حميد الله، (القاهرة: ١٩٥٩م)، جـ١، ٢٧٠.

(١٢) انظر: العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري: كتاب مناقب الأنصار، مرجع سابق، جـ٧، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٧؛ رزق الله، مهدي. السيرة النبوية، مرجع سابق، ٢٩٣ - ٢٩٥.

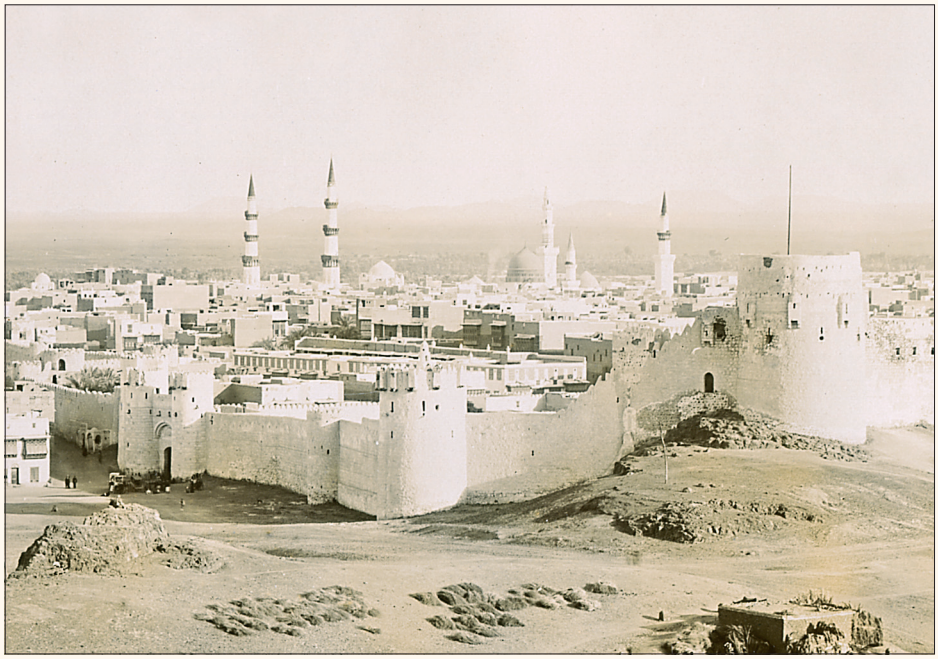

المسجد النبوي الشريف

لقد نشطت حركة البناء والعمران في المدينة المنورة نتيجة الهجرة؛ فبنى الناس دورهم بأنفسهم وبمساعدة معارفهم دون أجر، كذلك[١] نشط البناء فيما حول المسجد في مركز المدينة المنورة. على أن الرسول ﷺ كره أن تعرَّى المدينة المنورة، أي أن تترك بعض أحياء المدينة المنورة خالية من السكان وطلب من بني سلمة لما أرادوا التحول إلى قرب المسجد النبوي البقاء في أمكنتهم[٢]. ووسع المسجد بعد ذلك بعد أن كثر عدد المسلمين إثر فتح خيبر ليصبح المسجد ٩٠×١٠٠ ذراع، أي ٤٥×٥٠ م. وكانت حجرات نساء الرسول ﷺ تبنى تباعاً في فناء واسع بالجانب الشرقي من المسجد، كما اتخذ ﷺ غرفة خاصة به تسمى المشربة أو العلية[٣].

وقد انتشرت في محال المدينة المنورة عدة مساجد، أشهرها: مسجد قباء، مسجد الفتح، مسجد القبلتين، مسجد بني حرام، ومسجد الإجابة[٤]. والمهم أن بناء المسجد النبوي وسط المدينة المنورة أكسبها رمزاً خالداً يجسد مكانتها وفضلاً وشرفاً لا ينتهيان[*].

وعلاوة على ما حازته تلك البلدة المباركة من الفضائل والمناقب فقد نالت دار هجرة المصطفى شرفاً وفضلاً بوجود النبي ﷺ ونصرتها له واختيار الله لها لتكون دار الهجرة ومحل نشاط الدعوة في دور جديد حققت فيه شرط بناء الأمة ذات الكيان الآمن المتميز الذي تطبق فيه الأحكام الشرعية وتنتظم فيه الحياة على أسس إسلامية، ومما أكرم الله به المدينة المنورة نزول جزء من التنزيل في بقاعها وتحريم قتل صيدها وقطع عضاها وأخذ لقطتها إلا على سبيل التعريف، فقد جعل النبي ﷺ ما بين لابتيها (أي الحرتين) حرماً كما حرم إبراهيم عليه السلام مكة[٥]. ولقد ظفرت

(١) أكرم العمري، *الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة*، (الرياض: دار إشبيليا، ١٤١٧ هـ)، ٤٣.

(٢) العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٢، ١٣٩، ١٤٠، وفي الحديث: (فكره رسول الله ﷺ أن يعروا المدينة فقال: ألا تحتسبون آثاركم).

(٣) خليل إبراهيم السامرائي، وثامر حامد محمد، *المظاهر الحضارية للمدينة المنورة في عصر النبوة*. ط١، (الموصل: مكتبة بسام، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٤م)، ٤٠، ٤١، ٤٥. وعن إقامة النبي ﷺ بالمشربة، انظر: العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٥، ١١٤.

(٤) أورد ابن شبه في كتابه تاريخ المدينة مجموعة من المصليات والمساجد في المدينة التي صلى بها رسول الله ﷺ زادت على الستين مسجداً، انظر: محمد أنور البكري، «مساجد الفتح بالمدينة أو المساجد السبعة»، *مجلة مركز أبحاث الحج بالمدينة المنورة*، ع٤، (المدينة المنورة: محرم، ١٤٢٤ هـ)، ٩ - ٤٤؛ وقد جاء في الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ كان يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً، انظر: البخاري، محمد إسماعيل، *الجامع الصحيح*، مرجع سابق، جـ٣، ٦٩. حديث رقم ١١٩٣؛ مسلم بن حجاج النيسابوري، *الجامع الصحيح*، (إستانبول: المكتبة الإسلامية، د. ت)، جـ٢، ١٠١٦.

(٥) انظر عن إفادة تحريم المدينة: محمد بن يوسف الصالحي، *سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد*، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٠٧ هـ)، جـ٣، ٤٥٦، ٤٥٧.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثالث، (الآثار والمواقع التاريخية)؛ الفصل الثاني.



مسجد قباء

المدينة المنورة بفضائل مروية عن النبي ﷺ سجلها العلماء والحفاظ، ومن ذلك قوله ﷺ: «إن الإيمان ليأرز إليها كما تأرز الحية إلى جحرها»[١]، وقوله: «إنها طيبة - يعني المدينة المنورة - وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة»[٢]، ولما واجه المهاجرون حمى يثرب دعا لها رسول الله قائلاً: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها لنا وانقل حماها إلى الجحفة»[٣]، وورد أيضاً أنه «لا يصبر على لأوائها أحد فيموت إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة»[٤].

ج - الأوضاع الداخلية في المدينة المنورة بعد الهجرة:

من معالم مرحلة تاريخ المدينة المنورة بعد الهجرة، تغير الأوضاع السياسية داخلها وصورة العلاقات بين عربها، ما أزعج البطون اليهودية التي كانت تفتعل النزاعات بين الأوس والخزرج حتى لقد عمد بعضهم إلى إثارتها بعيد الهجرة غير أن النبي ﷺ احتوى تلك الفتنة المثارة[٥].

فمن متغيرات الواقع السياسي الداخلي أن النبي ﷺ أصبح، يقوم بمهام القيادة والإدارة في المدينة المنورة ويستجيب له عن قناعة ويقين الأنصار والمهاجرون، كذلك نتج عن وجود النبي ﷺ في المدينة المنورة المصالحة بين الأوس والخزرج وإنهاء الخصومة التاريخية بين الطرفين والالتقاء على قاعدة الإسلام، حيث حمل الجميع اسم (الأنصار) ذي النشأة الإسلامية والدلالات العظيمة.

كذلك دخل المدينة المنورة عنصر جديد هم المهاجرون من أهل مكة المكرمة، فقد كان لهم دور في إنضاج تجربة المسلمين السياسية والإدارية في هذه المرحلة مشاركة مع زعماء الأنصار وبإشراف النبي ﷺ، كما كان لهم دور في النشاط الاقتصادي والتجاري بالمدينة المنورة، إذ لم يظلوا عالة على

(١) أخرجه البخاري وغيره، انظر: العسقلاني، أحمد بن حجر، فتح الباري، مرجع سابق، جـ٤، ٩٣.

(٢) النيسابوري، مسلم بن حجاج. الجامع الصحيح، مرجع سابق، جـ٢، ١٠٠٧؛ الصالحي، محمد بن يوسف. سبل الهدى والرشاد، مرجع سابق، جـ٣، ٤٤٢.

(٣) العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٤، ٩٩.

(٤) الصالحي، محمد بن يوسف. سبل الهدى والرشاد، مرجع سابق، جـ٣، ٤٤١.

(٥) ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٢، ١٨٣، ١٨٤.

إخوانهم الأنصار فقد عملوا في السوق ومزارع الأنصار ثم تنامت ثرواتهم حتى أصبح مثل عبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان في مقدمة أثرياء المدينة المنورة وأنفقا مالاً عظيماً على بعض الغزوات[١]، وعلى وجوه البر والخير الأخرى[٢].

ولا يكتمل الحديث عن الأوضاع السياسية الداخلية بالمدينة المنورة بعيد الهجرة دون الإشارة إلى وجود عناصر مثيرة لقلق المسلمين داخل المدينة المنورة وهم من عرفوا بمجموعة المنافقين الذين يمثلون أقلية من الأوس والخزرج ممن لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وجزء منهم رأى أن وجود الرسول ﷺ يفوّت عليه مصالح رئاسية ونفعية، ومن هؤلاء زعيم المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول[٣]. وإلى جانب هؤلاء هناك العناصر اليهودية التي تشكل مجتمعات قائمة بذاتها يلازمها شعور بالتفوق على الآخرين، وقد أزعجها أشد الإزعاج المصالحة الأوسية الخزرجية تحت لواء الإسلام وحمل النبي ﷺ النبوة وأمانة التبليغ عن الله، ولقد أسلم عدد قليل منهم من أبرزهم عبدالله بن سلام رضي الله عنه من بني قينقاع، إذ أسلم أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة[٤]. ولقد ظلت بطون اليهود تثير القلاقل والمشكلات داخل المدينة المنورة إلى السنة الخامسة للهجرة ٦٢٧ م حتى تخلص المسلمون من آخر تلك البطون الباقية بعد غزوة الأحزاب.

أما بالنسبة إلى القوى الخارجية (خارج المدينة) التي تتربص بالوضع الجديد في المدينة المنورة وأهمها قريش بأغلبيتها الكافرة، ثم تلك القبائل المتناثرة بين مكة المكرمة والمدينة التي يخضع جزء منها لنفوذ قريش، فقد نظر نظام الزعامة المكي إلى قيام دولة في شمالي الحجاز أسهمت في تكوينها عناصر معارضة لها، تحمل ثقافة مغايرة لأنظمة قريش الدينية والسياسية على أنها خطوة تؤذن بتقلص سيادتها ونفوذها على تلك القبائل. كما يعني وجود النبي ﷺ زوال الوضع المضطرب في المدينة المنورة الذي أفاد منه زعماء قريش كثيراً، وسيأتي الحديث عن المواجهات بين المدينة المنورة، وتلك القوى التي أزعجها الوضع الجديد في المدينة المنورة.

نجح رسول الله ﷺ في معالجة بؤر التوتر والقلق الداخلية وترتيب الوضع الداخلي وضبط العناصر المثيرة للقلق والإرباك للجبهة الداخلية فتعامل مع أقلية المنافقين بكل حكمة وواقعية[٥].



مسجد القبلتين

(١) المرجع السابق، جـ٤، ٢٠٢.

(٢) هناك فئة من المهاجرين من غير أهل مكة يغلب أن يكونوا من القبائل المجاورة للمدينة ومع وجود جزء من هؤلاء بالمدينة إلا أن رسول الله ﷺ جعل هجرة بعض القبائل في أمكنتها، فقال لمزينة: أنتم مهاجرون حيث كنتم، انظر: محمد بن سعد، *الطبقات الكبرى*، (بيروت: دار صادر، د.ت)، جـ١، ٢٩١. وبعد الخندق لم تعد المدينة بحاجة إلى مهاجرين جدد، فمواردها لا تحتمل مزيداً من السكان، كما أن بقاء بعض القبائل المسلمة على تخوم المدينة وفي الطرق المؤدية إليها ما يدعم أمن المدينة، وقد جاء في المسند عن النبي ﷺ وهو يوجه كلامه لقبيلة (أسلم): أبدوا يا معشر أسلم فتنسموا الرياح وأسكنوا الشعاب، فقالوا: إنا نخاف أن يضرنا ذلك في هجرتنا، فقال: أنتم مهاجرون حيث كنتم، انظر: أحمد بن حنبل، *المسند*، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ)، ٢٧، ٤٨، ٨٥.

(٣) انظر تحليل ظاهرة النفاق في العهد المدني: عماد الدين خليل، *دراسة في السيرة*، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧ هـ)، ٣٦٣ - ٣٦٩.

(٤) أحمد بن حجر العسقلاني، *الإصابة في تمييز الصحابة*، (القاهرة: مطبعة الكليات الأزهرية، ١٣٢٨ هـ)، جـ٢، ٣٢٠.

(٥) لم يقبل النبي ﷺ أن يتم قتل بعض العناصر القيادية في حركة النفاق، ورفض عرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه بهذا الشأن انظر: ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٣، ٣٣٧.

ومن خلال ما عُرف بمعاهدة المدينة المنورة أُلزمت العناصر اليهودية وغيرها بعدم التعاون مع قريش وإجارة قوافلها[١]. ولما ظهر من البطون اليهودية مثل: بني قينقاع وبني النضير ما يخل بالأمن في المدينة المنورة تم إخراجهم[٢]. وفي غضون ذلك عمل الرسول ﷺ على ترسيخ قيم الإسلام بين المهاجرين والأنصار من خلال تعهده المستمر لمختلف شرائحهم، ومما يسر ذلك، منهج النبي ﷺ الحكيم، وتدرج الأحكام الشرعية النازلة عليه ﷺ بشكل يسر انتقال أهل المدينة المنورة المسلمين من العادات المألوفة إلى الأحكام الشرعية، ولا جدال في أن تعهد النبي ﷺ للمهاجرين والأنصار ونشاطه التعليمي والتربوي بينهم ونزول القرآن مقوماً لكثير من السلوكيات كان من العوامل الأساسية التي دعمت كيان المدينة المنورة الإسلامية وحصنته ضد مؤثرات الكتابيين والمنافقين الذين عملوا على هز تلك الوحدة وذلك التآلف.

ولقد قام الوضع الجديد في المدينة المنورة بعد الهجرة من الناحية العملية وبصورة جوهرية على التحالف والإخاء بين المهاجرين والأنصار، فهذا الترابط العضوي الذي رسمت أسسه في بيعة العقبة الثانية وفّر للإسلام بيئة تطبقه وتذود عنه واحتفظ زعماء الأنصار بدور كبير في إدارة بلدتهم وفي القضايا التي تمسها كقضية المواجهة في بدر، إذ كان الأنصار أكثرية الجيش[٣]. وقضية مصالحة غطفان في أثناء غزوة الأحزاب. وفضلاً عن الزعماء هناك نقباء اختارتهم عشائرهم ليكونوا همزة وصل بينها وبين الرسول ﷺ، كما تجلى ذلك في بيعة العقبة الثانية[٤].

وتولى رسول الله ﷺ إدارة المدينة المنورة والإشراف على مجتمعها يؤازره كبار صحابته الكرام وفي مقدمتهم أبوبكر وعمر من المهاجرين وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة من الأنصار وغيرهم من كبار الصحابة الذين استشارهم رسول الله ﷺ في قضايا كثيرة. يروى عن أبي هريرة قوله: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[٥].

وثمة صحابة آخرون من شباب المدينة المنورة كانوا بقرب رسول الله ﷺ خدموه ولازموه وكتبوا له الوحي، والعقود وغير ذلك مثل: أنس بن مالك وزيد بن ثابت وأبي بن كعب. وكان ﷺ إذا خرج من المدينة المنورة استعمل أحد أصحابه عليها؛ فعندما خرج إلى بدر في رمضان من السنة الثانية استعمل عبدالله بن أم مكتوم على الصلاة بالناس ثم رد أبا لبلبة الأنصاري من الروحاء واستعمله على المدينة المنورة، وعند ما خرج إلى الحديبية في العام السادس استعمل على المدينة المنورة نميلة الليثي[٦]، وعندما خرج إلى خيبر في أول العام السابع استعمل على المدينة المنورة سباع بن عرفطة الغفاري[٧].

واجهت المدينة المنورة في العهد النبوي قوى خارجية، داخل إقليم الحجاز وخارجه، ولعل أبرز تلك القوى ما يأتي:

- قريش المتمركزة في مكة المكرمة بأغلبيتها المشركة وزعامتها المتعنتة.
- يهود خيبر شمال المدينة المنورة.
- قبائل عربية يغلب عليها طابع البداوة وقد امتدت مراعيها إلى شرق وشمال المدينة المنورة كفزارة الغطفانية وبعض بطون سليم الذين تمدروا بالقرار في بئر معونة.

(١) المرجع السابق، جـ١، ١٢١، ١٣٣، هناك آراء حول هذه المعاهدة؛ ويرى بعض الباحثين أنها مقبولة من الناحية التاريخية؛ أكرم ضياء العمري، *السيرة النبوية الصحيحة*، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٢ هـ)، جـ١، ٢٧٩.

(٢) ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٢، ١٧٩، ١٨٠.

(٣) لم يطمئن الرسول ﷺ حتى تحدث سعد بن معاذ، مع أنه قد تحدث قبله أبوبكر وعمر رضي الله عنهما. انظر: المرجع السابق، جـ٢، ٢٥٣. وبناء على بعض الروايات كان عدد المهاجرين في بدر (٨٣) بينما كان عدد الأنصار (٢٣١).

(٤) المرجع السابق، جـ٢، ٥١.

(٥) أحمد بن حميد البيهقي، *السنن الكبرى*، (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٣ هـ)، جـ٧، ٤٥، ٤٦.

(٦) المرجع السابق، جـ٢، ٢٥١، جـ٣، ٣٥٥.

(٧) البيهقي، أحمد بن حميد. دلائل النبوة، مرجع سابق، جـ٤، ١٩٨.



موقع غزوة بدر

- القبائل العربية المتنصرة ومن ورائها الروم في شمالي الجزيرة العربية، وليس بوسعنا الإتيان على تفاصيل المواجهات والغزوات التي دارت بين المسلمين وخصومهم - فهذا مبسوط في مظانه[١] - على أنه لابد من الإشارة إلى الحقائق الآتية:
- إن الأصل في علاقات المسلمين بغيرهم ليس المواجهة بل السلم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾[٢]، وإنما شرع الجهاد بعد مرور أكثر من ثلاثة عشر عاماً من نزول الوحي لأول مرة.
- إن قريشاً قد بدأت العدوان على المسلمين عندما حاولت فتنتهم في دينهم ثم حاولت منعهم من الهجرة ثم إنها أخذت تسير قوافلها قرب المدينة المنورة دون تفاهم مع المسلمين، ثم سارت إليهم بكامل طاقتها في بدر.
- إن علاقات المدينة المنورة بغيرها من القوى والإمارات لا يمكن اختزالها في المواجهات العسكرية، فقد خرج من المدينة المنورة قراء ومفقهون ومبعوثون يحملون الدعوة حيث لقي بعضهم مصرعه على يد بعض القبائل كما حدث لأصحاب بئر معونة وهم سبعون من القراء جلهم من الأنصار[٣].

وكانت المواجهة مع قريش من شواغل القيادة النبوية الأساسية؛ إذ صعّدت الزعامة المكية قبيل بدر المواجهة وأصرت على مقاتلة المسلمين[٤] فتلقت هزيمة مريرة أثرت على أوضاع مكة المكرمة العامة. ثم جاءت غزوة أحد في شوال من العام الثالث للهجرة ٦٢٥ م حيث وقفت القوات المكية على تخوم المدينة المنورة عند جبل أحد. وعلى الرغم من تفوق جيش قريش في الجولة الثانية من القتال إلا أنها بادرت بالانسحاب بعد أن استشهد عدد من المسلمين في مقدمتهم حمزة بن عبدالمطلب ومصعب بن عمير، وجرح النبي ﷺ جراحاً بليغة، فقد ورد أنه شج في وجهه وكسرت سنّه الرباعية وتفرق عنه الصحابة ولم يبق معه إلا قلة لم يلبثوا أن تكاثروا[٥].

(١) يؤخذ في الحسبان أن الدراسة تأتي في سياق عمل موسوعي عام وقد خصصت لكل دراسة مساحة محدودة.

(٢) البقرة، الآية: ٢٠٨؛ وانظر: خليل، عماد الدين. دراسة في السيرة، مرجع سابق، ٢٢٣.

(٣) البيهقي، أحمد بن حميد. دلائل النبوة، مرجع سابق، جـ٣، ٢٧٧؛ البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح: كتاب المغازي، مرجع سابق، جـ٥، ٣٨.

(٤) انظر: إصرار أبي جهل على مواجهة المسلمين في: ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٢، ٢٥٨.

(٥) العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٧، ٣٦٢؛ رزق الله، مهدي. السيرة النبوية، مرجع سابق، ٣٩٠، ٣٩٦.



موقع غزوة أحد

لقد نكبت أسر المدينة المنورة، وبخاصة الأسر الأنصارية، بسقوط عدد من الأبناء والآباء شهداء في هذه المعركة فقد استشهد من الأنصار ما يزيد على الستين[١]. وقد قابلت الأسر المدينية تلك الفاجعة وذلك (القرح) بالصبر والاحتساب وبمعنويات عالية متذكرة ما أعد الله للمجاهدين والشهداء من المنازل والدرجات في الدار الآخرة.

كما أن مجتمع المدينة المنورة المتشرب لقيم الإسلام أولى رعاية الأيتام والسعي على الأرامل عناية بالغة امتثالاً لقوله ﷺ: (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين...)، (والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وكالذي يصوم النهار ويقوم الليل)[٢].

وفي شوال من العام ٥ هـ/٦٢٧ م واجهت المدينة المنورة حصاراً لا سابق له من قبل قريش وحلفائها من اليهود وغطفان وأسد وسليم، فقد أرادت قريش وحلفاؤها من اليهود الذين نزلوا خيبر إنزال هزيمة مدوية بأهل المدينة المنورة، وكان ليهود بني النضير دور في التحريض والدفع بفكرة التحالف ضد المسلمين إلى الظهور.

وشاركت في ذلك التحالف قبائل عربية تم إغراؤها بالدخول في ذلك المشروع الذي بلغ عدد من شارك فيه عشرة آلاف مقاتل تولى قيادتهم العامة أبوسفيان بن حرب، وقد عسكرت هذه الحشود في شمال المدينة المنورة بمجمع الأسيال من رومه[٣] (قريش)، وذنب نقمي (غطفان)، وكان من الطبيعي إزاء هذه الحشود أن يتبنى المسلمون في المدينة المنورة خطة دفاعية من مقتضياتها:

- حفر خندق شمال المدينة المنورة، بمشورة سلمان الفارسي، وجاء حفر الخندق من الجهة الشمالية لأنها الجهة المكشوفة، حيث لا توجد حرات ولا بساتين ولا حصون تعوق حركة الجيوش، ويربط ذلك الخندق بين حرة واقم وحرة الوبرة (في شرق المدينة) وحرة المدينة المنورة الغربية،

(١) ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٣، ٧٥ - ٨٠.

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح: كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيماً وباب الساعي على الأرملة، مرجع سابق، جـ٧، ٧٦، ٧٧.

(٣) ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، جـ٣، ٢٣٦؛ وانظر: رزق الله، مهدي. السيرة النبوية، مرجع سابق، ٤٤٤، ٤٤٥.

ويبلغ طول الخندق ٥٠٠٠ ذراع وعرضه ٩ أذرع وعمقه من سبعة إلى عشرة أذرع[١] ويقدر بعض الدارسين امتداده بما يزيد على ستة كيلومترات[٢].

- عسكر الرسول ﷺ بجيشه عند جبل سلع إذ جعلوا ظهورهم إلى ذلك الجبل. وتشير بعض الروايات إلى أن عدد من كان مع رسول الله ﷺ بلغ ثلاثة آلاف[٣].
- كذلك اقتضت خطة المسلمين إبقاء النساء والذرية في الحصون مخافة العَدُوِ عليهم[٤].

لقد وقعت المدينة المنورة تحت وطأة حصار شديد وتأزم الموقف بأهل المدينة المنورة، ولا أبلغ من وصف القرآن لحال المسلمين آنذاك، إذ يقول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[٥]. وما زاد في صعوبة وضع أهل المدينة المنورة نقض بني قريظة العهد، وهم الطائفة اليهودية الباقية التي تقبع حصونها داخل المدينة المنورة، فاشتد البلاء والخوف بأهل المدينة المنورة وأضيف إلى ذلك أن الجبهة الداخلية للمدينة عانت من عنصر المنافقين الذين ورد في القرآن الكريم حكاية عن حالهم في قوله تعالى: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[٦]، فقد أظهروا استهتاراً واستهزاء بما كان رسول الله ﷺ يعد به أصحابه من حيازة كنوز كسرى الفرس وقيصر الروم في إشارة إلى امتداد الأمة القريب خارج الجزيرة وحيازة المسلمين الإمكانات المادية الكبيرة التي كانت للساسانيين (ملوك الفرس) وللروم بمصر والشام، وما زاد في تأزم الموقف في الجبهة الإسلامية محاولات فرسان قريش عبور الخندق، إذ تصدى لهم فرسان المسلمين[٧].

وقد واكب حصار المدينة المنورة من جانب الأحزاب أن المسلمين واجهوا مشكلة قلة الغذاء والأقوات، فقد قلت الأطعمة وكان الطعام الذي يأكله أهل المدينة المنورة في ظل تلك الظروف قوت الشعير ومعه دهن متغير الريح، ما يوجد بشاعة في الحلق مع ريح منكرة[٨].

عالجت القيادة النبوية الهادية ذلك الموقف المتأزم بوسائل مختلفة، ومن ذلك التصدي لأولئك المهاجمين ومشاغلتهم حتى كان المسلمون لا يستريحون ليلاً أو نهاراً، وروي أن أولئك الأحزاب شغلوا المسلمين عن صلاة العصر[٩].

كذلك عمل النبي ﷺ على بث الطمأنينة في قلوب المسلمين وتوطينهم على الثبات مؤكداً صدق وعد الله تعالى، فكان يعد الناس بالفتوحات وبنصر الله عز وجل وسط هذا الكرب الشديد[١٠]. كذلك حاول النبي ﷺ استمالة غطفان، الطرف الأضعف في الحلقة بحكم أنهم جاؤوا لأهداف مالية ليس إلا، وقد عرض عليهم النبي ﷺ جزءاً من تمر المدينة المنورة مقابل رحيلهم، إلا أنه قبل أن يبرم الصلح والاتفاق عرض الأمر على زعيمي الأنصار، سعد بن معاذ الأوسي وسعد بن عبادة الخزرجي فأبيا وقالا للنبي ﷺ: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله تعالى به لابد لنا من العمل به؟ أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: (بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم)، فقال سعد بن معاذ: يا

(١) العمري، أكرم. السيرة النبوية الصحيحة، مرجع سابق، ٤٢٠؛ رزق الله، مهدي. السيرة النبوية، مرجع سابق، ٤٤٦.

(٢) جمال الدين محفوظ، *غزوات الرسول* ﷺ، (القاهرة: دار الاعتصام، د.ت)، ٢٠٨.

(٣) ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٣، ٢٣٥.

(٤) البيهقي، أحمد بن حميد. دلائل النبوة، مرجع سابق، جـ٣، ٤٤٠.

(٥) الأحزاب، الآيتان: ١٠، ١١.

(٦) الأحزاب، الآية: ١٢؛ وانظر: ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٣، ٢٣٨.

(٧) البيهقي، أحمد بن حميد. دلائل النبوة، مرجع سابق، جـ٥، ٤٣٧.

(٨) العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٧، ٢٣٩؛ البيهقي، أحمد بن حميد. دلائل النبوة، مرجع سابق، جـ٣، ٤٩٢.

(٩) العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٧، ٤٠٥.

(١٠) ابن حنبل، أحمد. المسند، مرجع سابق، جـ٤، ٣٠٣؛ البيهقي، أحمد بن حميد. دلائل النبوة، مرجع سابق، جـ٣، ٤١٧، ٤١٨.

رسول الله، قد كنا نحن وهـؤلاء القوم على الشرك وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة[١]. وقد ظلت المدينة المنورة تحت وطأة الحصار مدة تقدرها بعض الروايات بعشرين يوماً وقيل خمسة عشر يوماً وهو ما يرجحه الواقدي[٢] ثم فرج عن المدينة المنورة بجلاء الأحزاب عندما سلط الله عز وجل عليهم الريح الشديدة بالإضافة إلى طغيان الشكوك وانعدام الثقة في العلاقة بين المتحزبين المحاصرين للمدينة، إذ عمل نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني ـ وقد أسلم حديثاً ـ على إيجاد تلك الحالة[٣].

وبعد جلاء الأحزاب عن المدينة المنورة زال كابوس ثقيل ظل يهدد أمن حاضرة الإسلام ومعقله الرئيس، وتنفس الأهالي الصعداء. ولا تكمن أهمية الحدث بنتائجه الميدانية فحسب بل إن انسحاب الأحزاب أكد لقريش استحالة تحقيق أي نصر على المسلمين وأدى إلى نهاية مرحلة كانت فيها المدينة المنورة تتحمل مدافعة الجيوش القادمة من مكة المكرمة إلى مرحلة تفوقت فيها كفة المسلمين، بحيث أصبحوا يسيرون من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة لا للتشفي والانتقام وإنما لإظهار تعظيم البيت وأداء العمرة كما حدث في العامين السادس والسابع للهجرة إبان صلح الحديبية وعمرة القضاء. ولهذا قال رسول الله ﷺ: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير إليهم)[٤].

وثمة تطور أمني وعسكري حدث عقب الخندق مباشرة، وهو القضاء على يهود بني قريظة في أواخر ذي القعدة وأوائل ذي الحجة من السنة ٥ هـ/٦٢٧ م[٥]، بعد محاصرتهم خمساً وعشرين ليلة[٦]. وهذه الخطوة تتكافأ مع خيانتهم للمسلمين وكانوا على عهد معهم في أحرج اللحظات، فنقضوا العهد وانضموا إلى الأحزاب المحاصرين للمدينة وبذلك طُهِّرت المدينة المنورة من آخر بؤر القلق والعدوان الظاهرة.

د ـ المدينة المنورة بعد غزوة الأحزاب:

ابتداء من العام ٦ هـ/٦٢٨ م أخذت سرايا المدينة المنورة تجوب منازل القبائل في الحجاز وعالية نجد ليس فقط لإشعار تلك القبائل بقوة أمة الإسلام ولكن لنشر الدعوة وتهذيب سلوكيات البادية وإيجاد حالة من الأمن والسلام في تلك المناطق.

جاءت رحلة النبي ﷺ إلى مكة المكرمة في شهر ذي القعدة من العام السادس وإقامته بالحديبية ثم كتابة الصلح مع قريش لتهيئ المجال أمام المسلمين لفتح خيبر والمعاقل الأخرى مثل فدك ووادي القرى في أوائل عام ٧ هـ/٦٢٨ م. وجاء فتح مكة المكرمة في العام الثامن ليوحد المدينتين الرئيستين في الحجاز وليطهر المسجد الحرام من رجس الأوثان فيرتفع الأذان بين جنباته أسوة بالمسجد النبوي. كما جاء الفتح ليؤكد مكانة المدينة المنورة ودورها القيادي كحاضرة هيأها النبي ﷺ لتكون مهد الإسلام ومنطلقه ونقلها من أتون الضلالة والصراعات إلى رحاب الإسلام لتبدو حاضرة للعرب ينجذبون إليها ويسارعون إلى التقرب منها، وأوجد فيها مجتمعاً واعياً يحمل أهداف الإسلام بصدق ويقين ليكون النموذج والقدوة لجموع الأمة الأخرى بعد النبي ﷺ، فيتولى قيادتها الروحية والثقافية ويقف بصلابة ضد أي انتكاسة

(١) ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٣، ٢٣٩.
(٢) الواقدي، محمد بن عمر. المغازي، مرجع سابق، جـ٢، ٤٩١.
(٣) البيهقي، أحمد بن حميد. دلائل النبوة، مرجع سابق، جـ٣، ٤٠٤.
(٤) البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح، مرجع سابق، جـ٥، ٤٨؛ البيهقي، أحمد بن حميد. دلائل النبوة، مرجع سابق، جـ٣، ٤٥٨.
(٥) ابن سعد، محمد بن سعد. الطبقات الكبرى، مرجع سابق، جـ٣، ٧٤.
(٦) ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٣، ٢٥٤.

حضارية تتبناها الزعامات والقوى القبلية في الجزيرة العربية التي لم تستوعب بعد مفاهيم الإسلام وقيمه. وبعد فتح مكة المكرمة ساور الأنصار رضي الله عنهم شعور بأن النبي ﷺ سوف يرجع إلى سكنى مكة المكرمة والإقامة الدائمة فيها، إلا أنه ﷺ بدد هذا الوهم وقال لهم: (قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، كلا إني عبدالله ورسوله. هاجرت إلى الله وإليكم والمحيا محياكم والممات مماتكم)[١].

كما عبّر ﷺ بعد حنين في شوال من العام ٨ هـ/ ٦٣٠ م عن حبه للأنصار وارتباطه المعنوي والعاطفي بهم مشيراً إلى أثرهم في الجهاد معه ومواساته بالنفس والمال[٢].

وهكذا لم يؤد فتح مكة المكرمة إلى التأثير في البناء الاجتماعي في المدينة المنورة، فلم يكن وارداً أن يعود المكيون المهاجرون إلى بلدتهم الأولى فقد حازوا شرف الهجرة التي انقطعت بفتح مكة المكرمة وأصبح بقاء هؤلاء المهاجرين في مكة المكرمة بقصد الإقامة والاستيطان ما لا يحل، وقد جاء في الحديث تحديد ثلاثة أيام مدة محدودة لسكن مكة المكرمة لمن قصدها بحج أو عمرة من المهاجرين[٣]. وقد عرف العام ٩ هـ/ ٦٣٠ م بعام الوفود[٤] وخلاله استقبلت المدينة المنورة عدداً من ممثلي القبائل العربية ووفودها بشكل أكبر من ذي قبل، وأغلب هؤلاء كان راغباً في الإسلام ساعياً إلى توثيق علاقاته مع هذه الحاضرة العربية الناهضة. لقد استقبلت دور الأنصار كدار رملة بنت الحارث[٥] عدداً من الوافدين، واستضافت أسر أنصارية رجالاً وافدين على النبي ﷺ. وعلى سبيل المثال أوصى رسول الله ﷺ الأنصار بوفد عبدالقيس القادم من البحرين (المنطقة الشرقية الآن) وقال لهم: يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم فإنهم أشباهكم في الإسلام وأشبه شيء بكم شعاراً أو بشاراً، أسلموا طائعين غير مكرهين، ولما سأل عليه الصلاة والسلام وفد بني عبدالقيس عن إكرام الأنصار لهم أثنوا عليهم وأشاروا إلى أنهم علموهم من كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وأنهم قاموا بواجب ضيافتهم وأطابوا مطعمهم.

وفي شهر رجب من ذات العام كانت غزوة تبوك الموجهة نحو نصارى العرب والروم في زمن شدة وجدب وضيق اقتصادي لهذا سميت بغزوة العسرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[٦]. وقد كشفت تلك الغزوة عن أن المدينة المنورة لا تزال تحتوي على فئات من المنافقين المخذولين، وقد بلغت بهم الجرأة أن بنوا بناء زعموه مسجداً ودعوا الرسول للصلاة فيه وهو مسجد ضرار[٧] للتآمر على المسلمين، كما اتضح من أحداث الغزوة أن جزءاً من المهاجرين رضي الله عنهم قد نموا أموالهم حتى أصبحوا من أثرياء المدينة المنورة من خلال السعي وبذل الجهد، فكانوا في مقدمة المنفقين على جيش المسلمين وفي مقدمة هؤلاء: عبدالرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان رضي الله عنهما[٨].

هـ- المدينة المنورة تودع الرسول ﷺ:

حجَّ النبي ﷺ حجة الوداع في العام العاشر ثم رجع إلى المدينة المنورة، وقد ورد أنه خرج فصلى على شهداء أحد واستغفر لهم كالمودّع للأحياء والأموات[٩]. وبعد ذلك مرض ﷺ في اليوم الثاني والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هـ/ ٦٣٢ م كما في إحدى الروايات[١٠]. ولما

(١) النيسابوري، مسلم بن حجاج. الجامع الصحيح: كتاب الجهاد والسير، مرجع سابق، جـ٣، ١٤٠٦.

(٢) انظر مجموع الروايات في هذا الموضوع عند: إبراهيم العلي، *صحيح السيرة النبوية*، (عمان: دار النفائس، ١٤١٦ هـ)، ٤٥٣ - ٤٥٦. ومما قاله ﷺ: (لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل وتذهبون برسول الله إلى رحالكم)؛ العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٦، ٢٧٦، جـ٢، ٧٣٩.

(٣) العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٦، ٢٦٧.

(٤) الصالحي، محمد بن يوسف. سبل الهدى والرشاد، مرجع سابق، جـ٦، ٣٨٦.

(٥) ابن سعد، محمد بن سعد. الطبقات الكبرى، مرجع سابق، جـ١، ٣١٥.

(٦) التوبة، آية: ١٠٧.

(٧) ابن حنبل، أحمد. المسند، مرجع سابق، ٢٩، ٣٦٦.

(٨) ابن هشام، عبدالملك. سيرة النبي، مرجع سابق، جـ٤، ٢٠٢.

(٩) العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٧، ٣٤٩؛ والرواية مخرجة في الجامع الصحيح للبخاري.

(١٠) وهي رواية التيمي، ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٨، ١٠٦.

اشتد به المرض أمر أبا بكر بإمامة الناس في الصلاة، وفي غضون اشتداد المرض برسول الله ﷺ، خرج فخطب بالناس وأشار إلى تخيير الله له بين الدنيا والآخرة وأنه اختار الآخرة[1]،وقد ورد أنه ﷺ أوصى بالأنصار إذ جاء قوله: «إن الناس يكثرون ويقل الأنصار حتى يكونوا بمنزلة الملح من الطعام فمن ولي منكم شيئاً يضر فيه قوماً وينفع آخرين فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم»[2].

وتوفي رسول الله ﷺ في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، وصلى عليه المسلمون أوزاعاً بغير إمام ثم دفن حيث قبض في حجرة عائشة رضي الله عنها[3] التي أدخلت في المسجد النبوي مع حجرات نساء النبي الأخريات لاحقاً في عهد الوليد بن عبدالملك ٨٦ - ٩٨ هـ/٧٠٥ - ٧١٧ م. وهكذا فقدت المدينة المنورة رسول الله ﷺ الذي أنقذها من الضلال والصراع وأحب أهلها الذين نصروه وآووه، وانتهت سنوات من تاريخ المدينة المنورة لا نظير لها فيما يستقبل من تاريخها حيث كان الوحي الرباني يوجه سلوكيات مجتمع المدينة المنورة ناقداً ومقوماً، وموضحاً ما هو خير ورشاد، وحيث وجد رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي يدير أمور المدينة المنورة جامعاً بين العمل بتوجيهات ربانية محددة وبين إدارة المدينة المنورة من خلال سياسات وتدبيرات بشرية يتوخى فيها المصلحة العامة وينطلق فيها من قيم الإسلام الأساسية.

ثانياً ـ العهد الراشدي ١١ ـ ٤١هـ/٦٣٢ ـ ٦٦١م:

جاءت وفاة النبي ﷺ صدمة لأهل المدينة المنورة، يروى عن أنس بن مالك أنه لما توفي رسول الله ﷺ أظلم من المدينة المنورة كل شيء[4]، وبلغ الاندهاش حدّهُ عند عمر، وأنه أخذ يخطب ويتكلم في الناس ويقول: إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفني الله عز وجل المنافقين، وفي رواية أنه قال: إن رسول الله ﷺ لم يمت ولكن ربه أرسل إليه، كما أرسل إلى موسى عليه السلام فمكث أربعين ليلة، وجاء أبوبكر رضي الله عنه من منزله بالسنح (من أحياء المدينة المنورة في منطقة العوالي) فكشف عن وجه النبي ﷺ ثم قبله ثم خرج إلى الناس وعمر يكلم الناس، فتحدث أبوبكر وذكّر القوم بقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[5] وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[6] وقال: من كان يعبد الله عز وجل فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فقد مات[7]. لقد كان عمر رضي الله عنه يتحدث من واقع اندهاش وذهول عاطفي وما أن تلا أبوبكر الآيات حتى أيقن عمر أن النبي ﷺ قد مات وتراجع عن أقواله التي بدّدها الصديق بعلمه وعقليته الفذة[8].

وكان التساؤل الأبرز بعد أن تلقى مجتمع المدينة المنورة تلك الصدمة هو: من يتولى قيادة المسلمين في حاضرة الإسلام الأولى خلفاً للرسول ﷺ؟ ولهذا اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة (في الشمال الغربي من المسجد النبوي)، ثم لحق بهم أبوبكر وعمر بن الخطاب وأبوعبيدة عامر بن الجراح ورهط من المهاجرين لما علموا باجتماعهم، وتكلم أبوبكر رضي الله عنه في هذا الاجتماع فأثنى على الأنصار بما هم أهل له وذكّرهم أن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش؛ فهم أوسط العرب نسباً وداراً ثم قال

(١) العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٨، ١٤١.

(٢) العلي، إبراهيم. صحيح السيرة النبوية، مرجع سابق، ٥٥٧.

(٣) ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٨، ١٣٢، ١٥١؛ وفي تاريخ وفاته انظر: ابن سعد، محمد بن سعد. الطبقات الكبرى، مرجع سابق، جـ٢، ٢٧٣؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٨، ١٥١. ويوافق ١٢ ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة أوائل شهر يونيو من سنة (٦٣٢م). وهناك من يرى أن تاريخ وفاة النبي ﷺ في يوم الاثنين الثاني من شهر ربيع الأول، انظر: العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٨، ١٢٩.

(٤) البيهقي، أحمد بن حميد. دلائل النبوة، مرجع سابق، جـ٧، ٢٦٥.

(٥) آل عمران، آية: ١٤٤.

(٦) الزمر، آية: ٣٠.

(٧) ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ ٨، ٧٣، ٧٤، وانظر مجموع الروايات في هذا الموضوع عند: العلي، إبراهيم. صحيح السيرة النبوية، مرجع سابق، ٥٧٢، ٥٧٣؛ رزق الله، مهدي. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مرجع سابق، ٦٩٣، ٦٩٤.

(٨) ورد في الصحيح عن عمر رضي الله عنه: (والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر قالها: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل... الآية) حتى ما تقلني رجلاي.. علمت أن النبي ﷺ قد مات)؛ أخرجه: البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح: كتاب المغازي، مرجع سابق، حديث رقم (٤٤٥٤)؛ العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٨، ١٤٥.

لهم: وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين يقصد عمر بن الخطاب وأبا عبيدة عامر بن الجراح، فقال عمر رضي الله عنه: ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعه عمر وأبوعبيدة ثم بايعه الأنصار ثم تمت بيعة أبي بكر الصديق في المسجد النبوي، ثم بايعه من لم يبايعه في السقيفة، وكان عمر رضي الله عنه قد خطب في المسلمين بالمسجد النبوي ومما قاله: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا، فإن يكُ محمد ﷺ قد مات فإن الله قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به بما هدى الله وإن أبا بكر صاحب رسول الله ثاني اثنين إذ هما في الغار، فإنه أولى الناس بأموركم فقوموا فبايعوه[١]. وهكذا توضح لنا هذه الروايات التي أخرجها غير واحد من أئمة الحديث والسنة صورة ما جرى في المدينة المنورة بعد وفاة الرسول ﷺ.

وواضح أن الأنصار رضي الله عنهم عندما كانوا يتشاورون في أمر اختيار أمير للبلدة (المدينة) خاصة، وللمسلمين عامة، قد نظروا من زاوية كونهم أصحاب الدار وسكان المدينة المنورة الأصليين، أما المهاجرون فقد وضعوا في اعتبارهم بعداً آخر له أهميته الجوهرية وهو استمرار ولاء العرب لهذا الكيان الذي أسسه محمد ﷺ، والعرب إنما ترى أن قريشاً هم أهل القيادة والسؤدد، ولهذا قال أبوبكر للأنصار رضي الله عنهم: (لن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش)[٢]. وهكذا شهدت المدينة المنورة إنجاز نظام الخلافة الراشدة وكان مجتمعها قاعدة هذا النظام الراشد ومحل صفوته التي تضم أهل الفقه في دين الله، ولقد برز أمام قيادة المدينة المنورة الجديدة تحدٍّ كبير تمثل في ردة



الحُجرة الشريفة

معظم العرب خارج المدينة المنورة فيما عدا أهل مكة المكرمة والطائف، وتعرض أمن المدينة المنورة للخطر من أولئك المرتدين، لهذا جعل أبوبكر الصديق على أنقاب المدينة المنورة رجالاً يحرسونها، منهم: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبدالله بن مسعود[٣]. وفي ظل هذه الظروف الصعبة، أزمع المرتدون غزو المدينة المنورة حيث تجمعوا في ذي القصة والأبرق (مواضع قريبة من المدينة)، وقد ظن هؤلاء أن بأهل المدينة المنورة وهناً، ولهذا أغاروا بالفعل على المدينة المنورة، فخرج أبوبكر ومعه النعمان بن مقرن، وعبدالله بن مقرن، وصدوا ذلك الهجوم. ونزل أبوبكر بذي القصة، ليخيف تلك الجموع ما زاد ثبات أهل المدينة المنورة وقوى عزائمهم، ولما قدم أسامة بن زيد من الشام - وكان أبوبكر قد بعثه إنفاذاً لأمر رسول الله ﷺ - خرج أبوبكر لتتبع المرتدين[٤]، وقد بقي أمام المدينة

(١) الرواية مخرجة عند البخاري وغيره؛ العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري: كتاب الأحكام وكتاب الحدود، مرجع سابق، جـ١٢، ١٤٥، جـ١٣، ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق، جـ١٢، ١٤٥.

(٣) محمد بن جرير الطبري، *تاريخ الأمم والملوك*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم. ط٤، (القاهرة: دار المعارف بمصر، د.ت)، جـ٣، ٢٤٦.

(٤) المرجع السابق، جـ٣، ٢٤٨؛ محمد محمد حسن شراب، *المعالم الأثيرة في السنة والسيرة*، (دمشق: دار القلم، ١٤١١ هـ)، ١٢٥.

المنورة مواجهة حركات الردة في منابتها بقواها المتمردة، وهي لا تشكل فقط تهديداً لأمن المدينة المنورة وإنما للأمن والنظام في الجزيرة العربية ككل، واستفحالها يؤذن بانتكاسة حضارية للعرب وعودة لدوامة الصراعات القبلية التي لم تخلف سوى البؤس والدمار في أرض الجزيرة العربية.

لقد تصدت المدينة المنورة حاملة مشعل الهداية المحمدية لتلك الانتكاسة الحضارية، وأسهم الأنصار والمهاجرون في دفع حركات الردة، وبرز دور الأنصار رضي الله عنهم واضحاً في معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب وغيرها من المعارك الموجهة ضد المرتدين، وقد استشهد في هذه المعركة وحدها ما يقرب من ستين وثلاثمئة رجل من أهل المدينة[١].

ظل أبوبكر رضي الله عنه يدير مجتمع المدينة المنورة ويتولى رئاسة الدولة الإسلامية حتى توفاه الله في جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة، وقبيل وفاته أوصى بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٣ ـ ٢٣ هـ/٦٣٤ ـ ٦٤٤ م[٢]. وفي عهد عمر رضي الله عنه أصبحت المدينة المنورة عاصمة لدولة عظيمة الاتساع والامتداد نتيجة لحركة الفتوحات الإسلامية، فقد نازلت الفتوحات الإسلامية القوتين الرئيستين في شرق المتوسط وجنوبه، وفتحت مدناً كبيرة كالمدائن ودمشق وبيت المقدس التي خرج عمر لاستلامها. وعندما تأزمت أوضاع المسلمين في جبهة العراق سنة ١٤ هـ/٦٣٥ م أزمع عمر الخروج بنفسه، فخرج من المدينة المنورة ونزل عند ماء يقال له (صرار) عازماً على غزو العراق بنفسه، واستخلف على المدينة المنورة علي بن أبي طالب واستصحب معه عثمان وسادات الصحابة رضي الله عنهم، ثم استشار القوم فأشار عليه عبدالرحمن بن عوف بالبقاء داخل المدينة المنورة على أن يرسل إلى العراق من يقود المسلمين هناك، فبعث عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما[٣].

وكان قطار الفتوحات يمضي، والمدينة المنورة تستقبل الغنائم والثروات التي حازها المسلمون وكان ذلك مدعاة لترتيب أسماء الناس في صحائف على حسب القرابة من رسول الله والسبق والبلاء في الإسلام ومن ثم توزيع أعطيات مقررة عليهم، فكان عطاء من شهد بدراً من المهاجرين والأنصار ٥٠٠٠ درهم[٤]، وأعطى أبناء المهاجرين والبدريين الذين أسهموا في الغزوات ٣٠٠٠ درهم إلا الحسن والحسين رضي الله عنهما، إذ فرض لهما ٥٠٠٠ ألحقهما بأبيهما لمكانته عند رسول الله ﷺ. ويلاحظ اختلاف اجتهاد عمر رضي الله عنه عن اجتهاد أبي بكر فيما يخص طريقة توزيع المال على الناس، إذ إن أبا بكر كان يقول: إن هذا المعاش الأسوة فيه خير من الأثرة، ويقول عن المهاجرين والأنصار: أجر أولئك على الله، أما عمر فكان يقول: لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه[٥]، وكان عمر يعطي أهل المدينة المنورة بنفسه وكذلك القبائل القريبة منها[٦]. ولقد أسهمت تلك الأعطيات في ارتفاع المستوى الاقتصادي والمعيشي في مجتمع المدينة المنورة من غير أن تبدو لذلك آثار سلبية ملحوظة في عهد عمر رضي الله عنه، بحكم أن جزءاً من تلك الأموال المعطاة كثيراً ما يتصرف بها في وجوه الخير والبر، كما أن حزم عمر وهيبته من عوامل بقاء ذلك المجتمع على صورته الأولى وحفظه من المؤثرات السلبية.

(١) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٣، ٢٩٦. (ومن أبرز من استشهد من الأنصار رضي الله عنهم، ثابت بن قيس وكانت معه راية الأنصار، وعباد بن بشر وأبودجانة، وسماك بن خرشة، وممن استشهد من المهاجرين: زيد بن الخطاب، والطفيل بن عمرو، وسالم مولى أبي حذيفة)، انظر: محمد بن حبان البستي، *السيرة النبوية وأخبار الخلفاء من كتاب الثقافة*، (الكويت: مؤسسة الكتب، ١٤٠٧ هـ)، ٤٤٠، ٤٤١.

(٢) خليفة بن خياط، *تاريخ خليفة بن خياط*، تحقيق: أكرم ضياء العمري. ط٢، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م)، ١٢١؛ الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٣، ٤٢٨.

(٣) ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ٩، ٦١٣، ٦١٤.

(٤) ورد عند البخاري أنه فرض للمهاجرين الأولين أربعة آلاف في أربعة، الجامع الصحيح: باب الهجرة، مرجع سابق، جـ٤، ٢٦١.

(٥) البيهقي، أحمد بن حميد. السنن الكبرى، مرجع سابق، جـ٦، ٣٥٠، وانظر: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، *فتوح البلدان*، تحقيق: صلاح الدين المنجد، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د.ت)، ٤٣٧ وتوجد روايات أخرى في مقدار العطاء.

(٦) محمد عبدالفتاح عليان، «تقويم النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب لتوزيع العطاء»، *مجلة كلية العلوم الاجتماعية*، ع٢، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٣٩٨ هـ)، ٤٠٥ - ٤٢٦؛ وكان الديوان يطلق على الصحائف المدون بها أسماء المستحقين للعطاء، ولذلك لم يطلق عليه ديوان الجند أو ديوان العطاء وإنما كان يطلق عليه الديوان. المرجع السابق، ٤١٣.

وواجهت المدينة المنورة في عهد عمر أزمة اقتصادية حادة عانى خلالها سكان المدينة المنورة وما حولها من البوادي والأرياف من الجوع والقحط بسبب انحباس المطر سنة ١٨ هـ/٦٣٩ م، وكانت الريح تسفي تراباً كالرماد فسمي ذلك العام بعام الرمادة، وقد اشتد الجوع بالناس والبهائم حتى جعلت الوحوش تأوي إلى الإنس[١]، وتأثرت البوادي والأرياف حول المدينة المنورة بهذه الأزمة بشكل كبير، فقد تلفت مواشيها واضمحلت زراعتها البسيطة، لهذا جفلت وفرت جموعهم إلى المدينة المنورة، فأنفق عليهم عمر من حواصل بيت المال ما فيه من الأطعمة والأموال[٢] واسترفد ولاة الأقاليم المفتوحة وأمر رجالاً يقومون عليهم ويقسمون عليهم الطعام، وقد أضاف ذات مرة عشرة آلاف، أما عيالاتهم وذراريهم فبلغوا خمسين ألفاً[٣]، وألزم عمر نفسه بمتابعة الناس في هذه الأزمة الاقتصادية التي استمرت تسعة أشهر ثم تحول الحال إلى الخصب والدعة وانشمر الناس عن المدينة المنورة إلى أمكنتهم[٤].

ظلت المدينة المنورة تعيش في ظل إدارة عمر بن الخطاب وبإشرافه، وفي نهاية العام الثالث والعشرين للهجرة تعرض ذلك الخليفة العادل للطعن من قبل مولى المغيرة بن شعبة أبي لؤلؤة وهو يؤدي الصلاة إماماً بالمسلمين بمسجد رسول الله ﷺ، وحمل عمر إلى بيته جريحاً، فسأل: من قتلني؟ فأخبروه، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الإسلام، وأوصى بأن تكون الخلافة بعده في ستة من الصحابة المهاجرين وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والزبير بن عوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف. وقد تشاور هؤلاء الستة في هذه المسألة وتولى أمر الشورى عبدالرحمن بن عوف، وكانت نتيجتها اختيار عثمان بن عفان خلفاً لعمر بن الخطاب[٥] رضي الله عنهما.

وكان أسلوب عثمان بن عفان رضي الله عنه يختلف في إدارته لمجتمع المدينة المنورة، وللأقاليم الإسلامية الأخرى عن منهج عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع سيرها على مبادئ الإسلام وسننه إلا أن فارق الخصائص بين الرجلين جعل هناك تغايراً بينهما في كثير من التطبيقات والممارسات.

استقبلت المدينة المنورة خليفتها الجديد بعد أن أمست ثكلى حزينة جراء قتل الخليفة الثاني، حتى كأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ[٦]. يقول ابن عباس: إنه ما مر بملأ إلا وهم يبكون وكأنما فقدوا اليوم أبكار أولادهم[٧].

ولقد شهدت مرحلة الخليفة عثمان بن عفان تفاعل مجموعة المؤثرات التي تغيرت معها صورة حياة الناس الاجتماعية واتسعت الرفاهية التي لم تكن موجودة في عهد عمر رضي الله عنه، ومع انتشار القبائل في الأقاليم والأمصار وانتشار الرخاء وظهور قوى محلية نشطة في بعض المدن الإسلامية أرادت التعبير عن ذاتها ومصالحها، ظهرت بوادر الفتنة والاعتراض على بعض سياسات عثمان رضي الله عنه وبعض ولاته من أقاربه، وشهدت المدينة المنورة في أواخر عهد عثمان قدوم أهل الفتنة والتمرد من مصر والكوفة والبصرة، وقد ناقشهم عثمان رضي الله عنه وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا الطاعة ولا يفارقوا جماعة[٨] ثم غادروا باتجاه بلدانهم، لكنهم ما لبثوا أن رجعوا

(١) ابن الأثير، علي بن محمد. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ٢، ٥٥٦. وقيل إنما سمي هذا العام بذلك لأن الأرض اسودت من قلة المطر، حتى عاد لونها شبيهاً بالرماد؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ١٠، ٦٨.

(٢) المرجع السابق، جـ١٠، ٦٨.

(٣) ابن سعد، محمد بن سعد. الطبقات الكبرى، مرجع سابق، جـ٣، ٣١٦؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ١٠، ٦٨.

(٤) ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ١٠، ٦٩. وفضلاً عن أزمة الرمادة شهدت المدينة في عهد عمر بن الخطاب زلزلة سنة ٢٠ هـ، كما ظهرت نار من حرة ليلى. انظر: البستي، محمد بن حبان. السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، مرجع سابق، ٤٧٩؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ١٠، ٨٥.

(٥) انظر: العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري: قصة البيعة، مرجع سابق، جـ٧، ٥٩ - ٦٢؛ أمين القضاة، *الخلفاء الراشدون: أعمال وأحداث*. ط٢، (الأردن: دار المنارة، ١٤١٠ هـ)، ٥٦، ٥٧، ٦٤.

(٦) العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٧، ٦٠.

(٧) الهيثمي، نور الدين علي. مجمع الزوائد، مرجع سابق، جـ٩، ٧٤.

(٨) القضاة، أمين. الخلفاء الراشدون، مرجع سابق، ٧٥.

إلى المدينة المنورة مثيرين بعض المزاعم والافتراءات ثم حوصر عثمان في داره بالمدينة المنورة من قبل أهل الفتنة، أكثر من شهر وقيل عشرين يوماً وقيل أربعين يوماً وقيل غير ذلك[١]. وقد دافع عنه مجموعة من أبناء الصحابة بطلب من آبائهم منهم: الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب، وعبدالله بن الزبير وكان أمير الدار، وعبدالله بن عمر. وقد دعاهم عثمان إلى العودة إلى منازلهم وترك المدافعة عنه[٢]، أما أولئك المحاصرون لعثمان فقد تسوروا عليه داره فقتلوه رضي الله عنه في ذي الحجة سنة ٣٥ هـ/٦٥٥ م ويمثل ذلك انتهاكاً لحرمة مدينة الرسول ﷺ وتجرؤاً على سفك دم الخليفة، في موسم مبارك إذ تزامنت تلك الحوادث مع موسم الحج[٣]. وقد حلت بالمدينة المنورة كارثة عنيفة بسفك دم الخليفة بمدينة النبي ﷺ في تحدٍّ سافر لقيم الشريعة الإسلامية ومقاصدها، وترك أولئك العصاة المتمردون جروحاً غائرة في جسم الأمة بفتح أبواب الفتنة، وفي ظل هذه الأجواء المضطربة التي شهدتها المدينة المنورة، بويع بالخلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ ابن عم رسول الله ﷺ، وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنها، وقد خرج علي رضي الله عنه، فبايعه الناس من المهاجرين والأنصار وغيرهم[٤]. وروى ابن سعد أن البيعة لعلي إنما كانت في اليوم الثاني من مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فبايعه جميع الصحابة، ممن كان بالمدينة المنورة[٥]. وقد رأى علي رضي الله عنه الخروج إلى العراق لمواجهة المشكلات التي نشأت في دولته، وكان خروجه من المدينة المنورة في آخر شهر ربيع الآخر سنة ٣٦ هـ/٦٥٦ م[٦]. ولم يكن خروج علي بن أبي طالب من المدينة المنورة بصفته خليفة المسلمين للإقامة في الكوفة حدثاً عادياً، فهو يمثل بداية إنهاء دور المدينة المنورة السياسي كعاصمة مركزية للدولة الإسلامية[٧] بعد أن انطلقت منها، لتصبح المدينة المنورة منذ ذلك الحدث ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، وممن تولاها في عهد علي بن أبي طالب في رواية ابن خياط تمام بن العباس وسهل بن حنيف ثم أبو أيوب الأنصاري[٨].

تميز عهد الراشدين بأن الخليفة كان يعايش مجتمع المدينة المنورة ويحتك بأفراده ويباشر حل مشكلاته ويقبل التعقيب والمراجعة[٩]، وبالإضافة إلى القيادة السياسية كان الخليفة يتولى الصلاة بالناس في المسجد النبوي والقيادة الروحية والثقافية للأمة مع خوف من الله ووعي ديني عميق، إضافة إلى أن هؤلاء الخلفاء كانوا على درجة من الزهد والتقشف وترسم السنة والاتباع للنبي ﷺ.

لقد كان ذلك العهد معبّراً عن المنهج الإسلامي في مجال الإدارة والحكم؛ ذلك المنهج الذي يعطي مجالاً كبيراً للاجتهاد في الجانب السياسي والإداري تبعاً للظروف والمتغيرات والمصالح المتوخاة.

ومن أبرز الإنجازات الحضارية التي شهدتها طيبة في عهد الراشدين رضي الله عنهم جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق، وجمع الناس على مصحف واحد وتعميمه على أنحاء العالم الإسلامي في عهد عثمان رضي الله عنه، ويمثل ذلك خطوة رائعة جنبت الأمة شروراً كثيرة جراء الاختلاف في كتاب الله، فقد شهدت المدينة المنورة عملية جمع القرآن الكريم من اللخاف والعسب[١٠] وصدور الرجال عام ١٢ هـ/٦٣٣ م لاستشهاد عدد من القراء

(١) انظر: محمد بن عبدالله الغبان، *فتنة مقتل عثمان* رضي الله عنه، (الرياض: دار العبيكان، ١٤١٩ هـ)، جـ١، ١٣٩.

(٢) ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ١٠، ٢٨٦، ٢٨٩.

(٣) ابن خياط، خليفة. تاريخ خليفة بن خياط، مرجع سابق، ١٧٦، وقد أورد مجموعة من الأقوال في يوم قتله رضي الله عنه.

(٤) أحمد بن حنبل، *فضائل الصحابة*، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس. ط١، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م)، جـ٢، ٥٧٣؛ الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٤، ٤٢٧؛ البستي، محمد بن حبان. السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ٥٢٢.

(٥) ابن سعد، محمد بن سعد. الطبقات الكبرى، مرجع سابق، جـ٣، ٣١. وهناك روايات أخرى في بيعة الإمام علي رضي الله عنه وقد اكتفينا بما أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة وإحدى الروايات الموثوقة عند الطبري.

(٦) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٤، ٤٧٨.

(٧) نصح بعض الصحابة رضي الله عنهم علياً بالبقاء في المدينة وقالوا: الزم منبر رسول الله ﷺ. انظر: العسقلاني، أحمد بن حجر. الإصابة في تمييز الصحابة، مرجع سابق، جـ٢، ٣٢١.

(٨) ابن خياط، خليفة. تاريخ خليفة بن خياط، مرجع سابق، ٢٠١، وذكر أن أبا أيوب استخلف رجلاً من الأنصار حتى مقتل علي رضي الله عنه.

(٩) مثل مراجعة المرأة لعمر رضي الله عنه في مسألة الزيادة في مهور النساء ورجوع عمر إلى رأيها، البيهقي، أحمد بن حميد. السنن الكبرى، مرجع سابق، جـ٧، ٢٣٣.

(١٠) اللخاف، قيل: صحائف الحجارة الرقاق، والعسب: جريد النخل؛ العسقلاني. أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٩، ١٢.

حفّاظ القرآن في معركة اليمامة[١]، حيث أمر الصديق زيد بن ثابت الأنصاري بالقيام بهذه المهمة إذ لم يكن القرآن الكريم مجموعاً في كتاب؛ ويحتمل أن ذلك عائد إلى ما كان يُتَرَقّبُ من ورود النّسْخ لبعض الأحكام أو تلاوتها، فلما انقضى نزوله بوفاة النبي ﷺ ألهم الله ذلك أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب، فإنه هو الذي أشار على أبي بكر بجمع القرآن بعد معركة اليمامة، وجاء ذلك وفاء لوعد الله الصادق بضمان حفظه، وفي عهد عثمان بن عفان أفزع حذيفة بن اليمان رضي الله عنه اختلاف المسلمين في قراءة القرآن الكريم، فدعا عثمان أن يدرك هذه الأمة لئلا يختلفوا في الكتاب، فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوا الصحف التي جمعها زيد بن ثابت في عهد أبي بكر رضي الله عنه في مصاحف أرسلت إلى الأمصار[٢].

وفي عهد الراشدين كانت المدينة المنورة كما كانت في عهد الرسول ﷺ منبع الحركة الفكرية والثقافية في الدولة الإسلامية، وأهم مراكز تلك الحركة؛ فهي دار السنة ومجمع الصحابة ومنها انتشر العلم الشرعي إلى بقية المدن والأمصار بخروج عدد من الصحابة منها، وكان القرآن الكريم تلاوة وتدبراً وحفظاً محور النشاط العلمي في المدينة المنورة آنذاك، إلى جانب ذلك كانت الرواية عن رسول الله ﷺ تتم مع احتياط وتوثق خشية أن يتسرب إلى السنة المطهرة الكذب والتحريف، وقد حمل عمر رضي الله عنه الناس على التروي فيما يروون، ولما عرف عن بعض الصحابة إتقاناً وحفظاً سمح لهم بالتحديث والرواية[٣] وقد يحدث أن يطلب من الراوي شاهداً ليؤكد روايته[٤].

ولقد كان المسجد النبوي وبيوت الصحابة من أمكنة التعليم والرواية الرئيسة في ذلك العهد، ودور المدينة المنورة الريادي في الجوانب العلمية بحكم وجود أعداد كبيرة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولهذا لا غرابة أن ينظر الفقهاء إلى عمل أهل المدينة المنورة كأحد المصادر التي تؤخذ بعين الاعتبار عند تأصيل الأحكام الشرعية[٥].

وقد واصل المسجد النبوي دوره التاريخي الخالد في التعليم والدعوة ونشر الفقه في الدين في عهد الخلفاء الراشدين محافظاً بذلك على دوره المتأصل منذ عهد النبي ﷺ، فقد كان مركز الأنشطة العلمية والتربوية والسياسية، إلى جانب كونه مركزاً لأداء الشعائر التعبدية تؤدى فيه الصلوات وتقام فيه الجمع والجماعات[٦].

وقد جرت في عهد عمر رضي الله عنه توسعة وزيادة في عمران المسجد تقدر بعشرين ذراعاً من جهة الشمال، وتقدر زيادة عمر تلك بـ١١٠٠ م٢، وقد استعملت في التوسعة الجديدة أعمدة من جذوع النخل والطوب، وبلغ ارتفاع سقف المسجد ٥,٥ م.

وفي عهد عثمان رضي الله عنه نشأت الحاجة إلى الزيادة في المسجد النبوي وتوسعته، فقد ضاق بالمصلين وتفتتت الجذوع التي تحمل السقف وتقدر الزيادة التي حدثت في عهد عثمان بنحو ٤٩٦ م٢[٧]. وقد بناه عثمان رضي الله عنه بالجص، وجعل أعمدته من حجارة وسقفه بالساج[٨].

وهكذا نال هذا المسجد العظيم من الاهتمام في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ما يليق بفضله ودوره في حياة الناس البسيطة - آنذاك - وما يتناسب ومكانته والحاجة إلى توسيعه وعمارته، إذ يفد إليه المسلمون من البادية والريف والبلدان الجديدة التي أضيفت إلى

(١) القضاة، أمين. الخلفاء الراشدون، مرجع سابق، ٢٩، ٣٠.

(٢) العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري، مرجع سابق، جـ٩، ١١٠.

(٣) محمد عجاج الخطيب، *السنة قبل التدوين*، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٠ هـ)، ٩٢، ٩٣، ١٠٥.

(٤) طلب عمر رضي الله عنه من أبي موسى الأشعري أن يأتي بشاهد يؤكد روايته للحديث في الاستئذان، ولما جاء أبوسعيد الخدري بالشاهد، قال: أما إني لا أتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ، البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح: كتاب الاستئذان، مرجع سابق، جـ١١، ٢٦، ٢٧؛ العسقلاني، أحمد بن حجر. فتح الباري: كتاب الاستئذان، مرجع سابق، جـ١١، ٢٦، ٢٧.

(٥) انظر: محمد المدني أبومساق، *المسائل التي بناها الإمام مالك على عمل أهل المدينة توثيقا ودراسة*. ط١، (دبي: دار البحوث والدراسات، ١٤٢١ هـ)، جـ١، ٦٤، ٧٦.

(٦) ورد في الحديث: (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام)، البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، مرجع سابق، جـ٣، ٦٣.

(٧) انظر: محمد السيد الوكيل، *المسجد النبوي عبر التاريخ*، (جدة: دار المجتمع، ١٤٠٩ هـ)، ٦٣، ٦٧، ٩١؛ ناجي محمد عبدالقادر الأنصاري، *عمارة وتوسعة المسجد النبوي عبر التاريخ*. ط١، (المدينة المنورة: النادي الأدبي، ١٤١٦ هـ)، ٨٥، ٩٧.

(٨) حسين مؤنس، المساجد، (الكويت: عالم المعرفة، ١٤٠١ هـ)، ٦١.

دولة الراشدين لما له من الشرف والفضل ولاحتضانه المرجعيات الفقهية المعتبرة في ذلك الزمن.

ثالثاً ـ العهد الأموي

٤١ ـ ١٣٢هـ/٦٦١ ـ ٧٥٠م:

اضطرت الظروف الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الخروج من المدينة المنورة سنة ٣٦ هـ/٦٥٦ م لمواجهة الأحداث التي استجدت عقب توجه بعض الصحابة إلى البصرة للمطالبة بدم الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، والقصاص من قاتليه، وقد خرج معه عدد كبير من الصحابة وبخاصة من الأنصار، ورجال الدولة، والقادة، وأهل الحل والعقد، وقد أناب عنه في المدينة المنورة نواباً أو ولاة بقية خلافته[١]. وبذلك تحولت المدينة المنورة إلى ولاية أو مدينة من مدن أقاليم العالم الإسلامي، وبعد استشهاد علي على يد أحد الخوارج سنة ٤٠ هـ/٦٦٠ م، بايع أهل الكوفة ابنه الحسن رضي الله عنه بالخلافة، ولكنه ولأسباب كثيرة لعل من أهمها رغبته رضي الله عنه في توحيد كلمة المسلمين تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما في عام ٤١ هـ/٦٦١ م الذي عرف عند المؤرخين بعام الجماعة لاجتماع كلمة المسلمين على خليفة واحد، وتوقف النزاعات والحروب التي كانت قائمة بينهم.

اتخذ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما دمشق عاصمة للدولة الإسلامية لوجود أنصاره من أهل الشام الذين أخلصوا له الطاعة منذ ولايته على هذا الإقليم التي بدأت سنة ١٨ هـ/٦٣٩ م، واستمرت إلى أن أصبح خليفة بمساعدتهم، فهم قوة الدولة الأموية وعصبتها التي قامت عليها، وهم متفقو الكلمة، وكلهم على رأي واحد[٢]. وبذلك تراجعت المدينة المنورة في بعض شؤونها عما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين من الناحية السياسية بوصفها عاصمة الدولة الإسلامية، ومقراً للحكم، ومكان اجتماع رجال الدولة وأهل الحل والعقد في الأمة، أما من الناحية الاقتصادية فإن المدينة المنورة فقدت كثيراً من الأموال التي كانت تتدفق عليها من الفتوح، وتناقصت التجارة التي كانت ترد إليها، وتوجهت إلى البلاد المفتوحة في الشام والعراق ومصر بعد توحيدها جميعاً في ظل الدولة الإسلامية، وتم إحياء الطرق التجارية القديمة بين هذه الأقاليم، والعالم الخارجي[٣]. كما فقدت المدينة المنورة مركز الثقل السياسي والاقتصادي اللذين كانت تتمتع بهما في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ولكن ذلك لم يؤثر على مكانتها الدينية والروحية عند المسلمين.

أما سكانها من المهاجرين والأنصار، على الرغم مما أصابهم نتيجة خروج عاصمة الدولة من مدينتهم، فقد ظلت نفوسهم تتوق إلى إعادة المجد السابق إلى مدينتهم، باستقطاب مقر الخلافة إليها، أو إحياء الخلافة فيها إن استطاعوا، فليس بالسهولة استسلام أبناء المدينة المنورة للواقع الجديد وفي مدينتهم ذلك العدد من الصحابة، وأبناؤهم من المهاجرين والأنصار، وقد كان لذلك أثره على الأحداث التي شهدتها المدينة المنورة في عهد الدولة الأموية.

قامت الدولة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما بعد تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما له بالخلافة عام ٤١ هـ/٦٦١ م، ويقسِّم المؤرخون الدولة الأموية إلى عهدين هما:

(١) عارف أحمد عبدالغني، *تاريخ أمراء المدينة المنورة ١ هـ - ١٤١٧ هـ*، (دمشق: دار كنانة للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت)، ٤٥.

(٢) محمود شاكر، *التاريخ الإسلامي: العهد الأموي*. ط١، (بيروت، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م)، ١١٩.

(٣) محمد أحمد زيود، *أثر انتقال الخلافة على الحجاز: كتاب الجزيرة العربية في العصر الأموي*، (الرياض: جامعة الملك سعود، النشر العلمي والمطابع، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م)، ٢٢.

- عهد الأسرة السفيانية ويمتد من سنة ٤١ ـ ٦٤ هـ/٦٦١ ـ ٦٨٤م وحكم فيه ثلاثة خلفاء من هذه الأسرة هم: معاوية بن أبي سفيان (المؤسس رضي الله عنهما) ٤١ ـ ٦٠ هـ/٦٦١ ـ ٦٨٠م، ويزيد بن معاوية ٦٠ ـ ٦٤ هـ/٦٨٠ ـ ٦٨٤م، ومعاوية الثاني بن يزيد ولم يحكم سوى ثلاثة أشهر من العام ٦٤ هـ/٦٨٤م، ثم تنازل عن الخلافة لتنتقل إلى فرع جديد أو أسرة جديدة هي:
- عهد الأسرة المروانية في الفترة من ٦٥ ـ ١٣٢ هـ/٦٨٥ ـ ٧٥٠م وقد حكم فيه أحد عشر خليفة أولهم مروان بن الحكم، وآخرهم مروان (الثاني) بن محمد الذي انتهى بمقتله، على يد الجنود العباسيين، حكم الدولة الأموية.

أ ـ المدينة المنورة في العهد السفياني ٤١ ـ ٦٤هـ/٦٦١ ـ ٦٨٤م:

دخلت المدينة المنورة في نفوذ معاوية بن أبي سفيان قبل توليه الخلافة سنة ٤١ هـ/٦٦١ م بحملة بشر بن أرطأة التي وجهها معاوية بعد التحكيم لانتزاع الحجاز واليمن من يد ولاة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد نجح في ذلك فعندما تولى الخلافة كانت المدينة المنورة تحت نفوذه[١]. وقد أبدى معاوية اهتماماً خاصاً بالمدينة المنورة لأهميتها الدينية ومكانتها الخاصة عند المسلمين، وهي في الوقت نفسه مركز تجمع الصحابة وأبنائهم، لذلك حرص على أن تكون في صفّه وليست ضده، وكان يفضل أن يكون ذلك باللين والمداراة وليس بالقوة، والحرص على كسب ود أهل المدينة المنورة، وعدم تحريك سكانها ضده، والرضا منهم بالطاعة الظاهرة، وعدم التفتيش عن خوابي الصدور من حب أو كراهية[٢]. ومعاوية من أقدر الحكام على تنفيذ هذه السياسة لما جبلت عليه طبيعته من الحلم، وما عرف به من الدهاء والحكمة وحسن السياسة، فقد روي عنه قوله: (لو أن بيني وبين الناس شعرة ما قطعتها، إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها)[٣]، وقد عمل على كسب القلوب بالإحسان إلى الزعماء بالأعطيات الجزيلة، وكان يكرم من يفد إليه من أهل المدينة المنورة، ويتغاضى عما يبلغه عنهم أو يسمعه من بعضهم من النقد اللاذع فلا يرد عليه، وقد أثمرت سياسة معاوية هذه ركون المدينة المنورة إلى الهدوء طيلة عهده على الرغم من عدم رضا كثير من أهلها عن خلافته، ويمكن القول إن الأغلبية قبلوا بخلافة معاوية لصحبته ومكانته وحسن سياسته، وعاشت المدينة المنورة في عهده حياة يسودها الهدوء والاستقرار، وعاد إليها كثير من سكانها وبخاصة الأنصار الذين خرجوا مع علي بن أبي طالب إلى العراق، وقصدت إليها أعداد كبيرة من الناس لزيارة المسجد النبوي، وأخذ العلم الشرعي من منابعه، وسجلت المدينة المنورة تفوقاً سكانياً على كل من مكة المكرمة والطائف، وأصبحت مركز الثقل السكاني في الحجاز كله[٤].

وتبرز السياسة الإدارية لمعاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد مدى اهتمامهما بإقليم الحجاز عامة والمدينة المنورة بصفة خاصة، فهي تهدف إلى وضع الإقليم تحت الحكم الأموي المباشر، وإشراف الخليفة بنفسه على الإقليم وفي مقدمته المدينة المنورة، وعدم

(١) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٥، ١٣٩، ١٤٠.

(٢) زيود، محمد أحمد. أثر انتقال الخلافة على الحجاز، مرجع سابق، ٣٤.

(٣) أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي*، (بيروت: دار صادر، د.ت)، جـ٢، ٢٨ ـ ٣٨.

(٤) إبراهيم بيضون، *الحجاز والدولة الإسلامية*. ط١، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م)، ١٩٠.

إطلاق يد الولاة فيه كما هو الحال مع الأقاليم الأخرى مثل العراق وخراسان ومصر، واختيار الولاة في المدينة المنورة من الأسرة الأموية مع مراقبتهم وتغييرهم باستمرار حتى لا تكون لهم قوة ينافسون بها على الخلافة[١].

وعند إمعان النظر في ولاة المدينة المنورة في العهد السفياني نجد أنهم يتركزون في بيتين هما: بيت الحكم من الفرع السفياني، وبيت بني العاص الذين جاء منهم الفرع المرواني، فمن البيت الأول الوليد بن عتبة الذي ولاه معاوية في آخر عهده لكسر احتكار بني العاص الإمارة في المدينة المنورة، إذ كان يتناوب الحكم فيها مروان بن الحكم أول أمرائها وسعيد بن العاص الذي خَلَفَهُ في الإمارة، وكانت سياسة أمراء المدينة المنورة الإدارية تنفيذاً عملياً لسياسة معاوية وابنه يزيد، فهي تقوم على معاملة الناس باللين ما استطاعوا وإذا لم ينفع اللين لجؤوا إلى شيء من العنف المشوب بالحذر[٢].

غير أن سياسة معاوية تجاه المدينة المنورة ما لبثت أن تغيرت في آخر عهده بسبب ولاية العهد لابنه يزيد، فقد عارض زعماء المدينة المنورة ولاية العهد ليزيد، ولم يقدموا البيعة ومنهم: الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، ما حمل معاوية على القدوم بنفسه إلى المدينة المنورة سنة ٥٦ هـ/٦٧٦ م، فلم يتمكن من إقناع الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير بالمبايعة لابنه يزيد بالخلافة من بعده، ولكنه استطاع بدهائه المعهود أن يقنع الناس بأن المذكورين قد بايعا ليزيد، ولم يستطيعا أن ينكرا ذلك والسيوف على رأسيهما[٣]. وعلى إثر ذلك أخذ معاوية في التضييق على المدينة المنورة لإضعاف قوة المعارضين ومنع تأثيرها على الناس لأنه يعلم تمام العلم أن خطته لإقناع الناس بمبايعتهما سوف تنكشف بعد عودته إلى الشام، وظل أمر هؤلاء المعارضين شغله الشاغل حتى آخر حياته، إذ ترك لابنه يزيد عندما حضرته الوفاة وصية يوصيه فيها بأهل الحجاز عموماً والمدينة على وجه الخصوص، وذكر فيها أبرز المعارضين لخلافته، وبخاصة الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير وكيفية التعامل مع كل منهما[٤].

١ ـ أحداث المدينة المنورة في عهد يزيد بن معاوية ٦٠ ـ ٦٤هـ/٦٨٠ ـ ٦٨٤م:

ساد الهدوء في المدينة المنورة في عهد معاوية بن أبي سفيان، أما في عهد يزيد، فعلى الرغم من قصره فقد وقعت فيه أحداث جِسام هزت مشاعر المسلمين وألّبتهم ضد يزيد، ومن هذه الأحداث مقتل الحسين بن علي في كربلاء في شهر محرم سنة ٦١ هـ/٦٨٠ م، ثم تلاه بعد ذلك بعامين وقعة الحرة، واستباحة المدينة المنورة، ثم حصار مكة المكرمة، ورمي الكعبة بالمنجنيق.

وقد اتسع نطاق المعارضة لخلافة يزيد من بعد أبيه، خصوصاً في المدينة المنورة التي يوجد بها أبرز المعارضين وهما: الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير اللذان كانا في نظر كثير من الناس أولى بالخلافة من يزيد بن معاوية، لذلك كان أول عمل قام به يزيد بعد استلامه الخلافة أن بعث إلى واليه على المدينة المنورة الوليد بن عتبة لأخذ البيعة من الحسين بن علي وعبدالله بن الزبير، ولكنهما ترددا في ذلك وخرجا تحت ستار الليل إلى مكة المكرمة[٥] ما حمل يزيد

(١) بيضون إبراهيم، الحجاز والدولة الإسلامية، مرجع سابق، ٢٢٢.

(٢) محمد محمد حسن شراب، *المدينة المنورة في العصر الأموي*. ط١، (المدينة المنورة: مكتبة دار التراث؛ دمشق: مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م)، ١٧٠.

(٣) ابن الأثير، علي. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ٣، ٥١١.

(٤) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٥، ٣٢٣.

(٥) ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ١١، ٤٦٧ وما بعدها.

على تغيير واليه على المدينة المنورة بتهمة التقصير، وعيّن عمرو بن سعيد (الأشدق) مكانه ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً[١]، ثم ما لبث الحسين بن علي أن خرج إلى الكوفة بالعراق بناء على إلحاح شيعته هناك، فقُتل مع جماعة من أهل بيته في كربلاء في العاشر من محرم سنة ٦١ هـ/٦٨٠ م، وقد أدت مأساة كربلاء إلى زيادة النقمة على يزيد بين أهل المدينة[٢]. ومن جهة ثانية، كان لجوء عبدالله بن الزبير إلى مكة المكرمة، وتحريضه على يزيد، وبث دعاته في المجتمع المدني، ونشر الأخبار السيئة عن يزيد، وتأليب الناس عليه قد فاقم الوضع في المدينة المنورة ضد يزيد، وزاد من جرأة الناس على الخلافة[٣]، وأصبح الوضع في المدينة المنورة متوتراً والثورة قاب قوسين من الانفجار. ولم تُجدِ نفعاً سياسة الوالي الجديد عمر بن محمد بن أبي سفيان الذي عينه يزيد لمعالجة الوضع باللين وتأليف القلوب، بل جاءت النتائج بعكس المطلوب، فعندما أرسل الوالي الجديد وفداً من زعماء المدينة المنورة برئاسة عبدالله بن حنظلة إلى يزيد في دمشق لينالوا من عطائه وصلته ويغيروا رأيهم فيه ثم يقنعوا الناس بخلافته بعد عودتهم، ويصرفوهم عن الاستجابة لدعاية عبدالله بن الزبير، عاد الوفد من دمشق بصورة سيئة وقالو إنا نشهدكم أنا قد خلعناه، فاستجاب الناس لهم، وخلعوا طاعة يزيد[٤]، وتجمعت الأسباب من تراكمات سابقة في عهد معاوية، وأسباب أخرى استجدت في عهد يزيد، وأدت مجتمعة إلى ثورة المدينة المنورة سنة ٦٢ هـ/٦٨٢ م، وكانت فتنة لم تجد جميع المحاولات في إيقافها ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

شاركت جميع فئات السكان في المدينة المنورة من الأنصار والمهاجرين من قريش والموالي وغيرهم في هذه الثورة، وقد تم اختيار قائدين للثورة هما عبدالله بن حنظلة قائداً للأنصار وعبدالله بن مطيع العدوي قائداً لقريش ومن معهم من العرب والموالي.

وعندما بلغهم خبر إعداد يزيد حملة من الشام لمحاربتهم أخذوا يعدون العدة للمواجهة، وأول عمل قام به أهل المدينة المنورة هو إخراج بني أمية الموجودين فيها خشية أن يتعاونوا مع الجيش القادم ويضربوهم من الخلف، وقد أخذوا منهم العهود والمواثيق على ألا يدلّوا لهم على عورة، ثم قاموا بعد ذلك بحفر الخندق شمال المدينة المنورة، ووضعوا خطة محكمة للدفاع عنه ومنع الجيش الشامي من عبوره[٥].

أما من جهة يزيد، فإنه بعد أن استنفد جميع الحلول السلمية لمنع الثورة لجأ إلى الحل العسكري لإخمادها، فأعد حملة من أهل الشام وزودهم بالمال والسلاح والعتاد اللازم، وجعل قيادة هذه الحملة إلى مسلم بن عقبة المري بناء على نصيحة سابقة لوالده معاوية، وكان رجلاً كبيراً قد طعن في السن، ولكنه كان من أشد أنصار بني أمية المخلصين، وقد زوده يزيد بتعليماته التي تقتضي ألا يتعجل في قتال أهل المدينة المنورة ويمنحهم مهلة ثلاثة أيام فإن هم أجابوا إلى إيقاف الثورة والبيعة ليزيد قَبِل منهم، وإن امتنعوا قاتلهم حتى يستسلموا ويعودوا إلى الطاعة[٦]. انطلقت الحملة من الشام إلى المدينة المنورة، فالتقى الجيش الشامي ببني أمية الذين أخرجهم أهل المدينة المنورة في وادي القرى[٧] فاستدعاهم مسلم بن عقبة للمشاورة والوقوف

(١) عبدالغني، عارف أحمد. تاريخ أمراء المدينة، مرجع سابق، ٥٧.

(٢) علي بن الحسين المسعودي، *مروج الذهب ومعادن الجواهر*، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. ط٤، (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥م)، جـ٣، ٧٨.

(٣) شراب، محمد حسن. المدينة المنورة في العصر الأموي، مرجع سابق، ١٢٧.

(٤) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٥، ٤٨٠.

(٥) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة المنورة، مرجع سابق، جـ١، ٣٦١، ٣٦٢.

(٦) ورد في بعض الروايات الإشارة إلى أمر يزيد بن معاوية بإباحة المدينة للجند ثلاثة أيام، منها ما ورد عند الطبري في عدة روايات؛ منها رواية عن أبي مخنف لوط بن يحيى أن مسلماً أباح المدينة للجند ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون المال، ورواية أخرى عن وهب بن جرير لم يشر فيها إلى إباحة المدينة، ورواية ثالثة عن عوانة بن الحكم لم تذكر الإباحة. أما المصادر الأخرى فلم تذكر خبر إباحة المدينة إلا كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة، ولم تصح نسبته إليه فهو مجهول المؤلف، وروايته لوقعة الحرة تدل على المبالغة وتعمد التزييف، إذ وصف الوقعة وصفاً مسهباً مروعاً مستشهداً بمختارات من الفظائع التي ارتكبها جيش مسلم بن عقبة أثناء أيام الإباحة الثلاثة. إذن فالأخبار التي تذكر إباحة المدينة لم ترد إلا في روايات مطعون في صحتها، أو في مصادر مجهولة الأصل كما في كتاب الإمامة والسياسة المنسوب إلى ابن قتيبة، أو في مصادر متأخرة ولا يوجد ما يؤيدها في المصادر الأصلية. وبالتالي فإن ما جاء في بعض المصادر عن إباحة المدينة لا يمكن الاعتماد عليه. وبذلك يمكن القول إن الحادثة مشكوك فيها. انظر: أحمد بن محمد العريان، *إباحة المدينة وحريق الكعبة في عهد يزيد بن معاوية بين المصادر القديمة والحديثة*. ط١، (الكويت: مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٨ هـ).

(٧) وادي القرى: واد بين تيماء وخيبر فيه قرى كثيرة وبها سمي الوادي. انظر: ياقوت بن عبدالله الحموي، *معجم البلدان*، (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٣٧٦ هـ/١٩٥٧م)، جـ٤، ٣٣٨.

على ثغرات المدينة المنورة، فأبى جماعة منهم أن يدلوه على عورات المدينة المنورة للعهد والميثاق الذي قطعوه على أنفسهم لأهل المدينة المنورة، غير أن عبدالملك بن مروان لم يتحرج من العهد ودل مسلم بن عقبة على مواطن ضعف تحصين المدينة المنورة، ونصحه أن يهاجمها في الصباح من جهة الحرة الشرقية فتكون الشمس في عيون المدافعين تحول بينهم وبين رؤية أهدافهم من جند الجيش المهاجم[١].

وصلت الحملة إلى المدينة المنورة، وبعد انقضاء المهلة التي أمر بها يزيد بدأت المناوشات حول الخندق الذي أحكم المدافعون الدفاع عنه، واستبسلوا في القتال بشجاعة وحماسة أذهلت المهاجمين وأعاقت اندفاعهم، وأضعفت معنوياتهم حتى اضطر مسلم بن عقبة قائد الجيش إلى الاستعانة بمروان بن الحكم بصفته من بني أمية المقيمين بالمدينة المنورة العارفين بمداخل البلد ومخارجه، وكان يعلم ثغرة من جهة حصون بني حارثة فتوجه إليها، واستطاع أن يغري أحد حراسها بالصلة من يزيد والأمان له ولقومه، فدخل مروان بخيله من هذه الثغرة إلى داخل المدينة المنورة، بينما كان المدافعون منشغلين عنه بموجات الهجوم التي يشنها عليهم جيش مسلم بن عقبة من جهة الحرة، ففوجئوا بالهجوم عليهم من الخلف فتراجعوا، وكذلك فعل المدافعون عن الخندق لما علموا بدخول بعض الجيش من خلفهم خافوا على بيوتهم وأهليهم فتركوا مواقعهم، فاندفع المهاجمون، ودارت رحى معركة شرسة سقط فيها عدد من المدافعين، ومنهم القائد العام الميداني عبدالله بن حنظلة، فانفرط عقد المدافعين بعد ذلك، وتدفقت جيوش مسلم بن عقبة إلى داخل المدينة المنورة بعد اجتياز الخندق من عدة جهات، ولم يجد جيش مسلم إلا مقاومة يسيرة من بعض الجماعات، ولجأ الناس إلى بيوتهم يتحصنون بها، فنودي بوقف القتال والأمان للناس[٢].

وفي اليوم التالي استدعى مسلم بن عقبة أهل المدينة المنورة وطلب منهم البيعة ليزيد بشكل يتسم بالذل والهوان، فامتنع بعض الناس من البيعة بهذه الصيغة فأمر بقتلهم، فلم يجد الآخرون بداً من المبايعة بالصيغة التي فرضها عليهم خوفاً من القتل، وقد أسرف مسلم بن عقبة في القتل بعد موقعة الحرة لذلك سماه الناس مسرف بن عقبة[٣].

٢ ـ تقييم ثورة المدينة المنورة وموقعة الحرة:

من الأمور التي تناولها الباحثون دراسة أسباب ثورة المدينة المنورة، فاختلفت آراؤهم فيها بين من يميل إلى السبب الاقتصادي، فيجعل معاناة أهل المدينة المنورة من سياسة معاوية بن أبي سفيان الاقتصادية في المدينة المنورة هي السبب الرئيس في الثورة[٤]. ومنهم من يورد أسباباً عدة منها عدم الرضا عن يزيد وعدم أهليته للخلافة بالمقارنة مع بعض زعماء الثورة الذين يرون أنفسهم أولى بها من يزيد، ومنها ضعف ولاة يزيد وعدم حزمهم، كما أن حدوث ثورة ابن الزبير في مكة المكرمة شجع أهل المدينة المنورة على الثورة، ومن الأسباب أيضاً مقتل الحسين بن علي، وقلة الجند في المدينة المنورة وغير ذلك من الأسباب[٥]. غير أن هناك سبباً مهماً

(١) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٥، ٤٨٦.

(٢) المرجع السابق، جـ٥، ٤٩٥.

(٣) ابن كثير، إسماعيل. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ١١، ٦١٩.

(٤) شراب، محمد حسن. المدينة المنورة في العصر الأموي، مرجع سابق، ١٣٢.

(٥) بيضون، إبراهيم. الحجاز والدولة الإسلامية، مرجع سابق، ٢٦٦، ٢٦٧.

يستحق الوقوف عنده والتأمل فيه، وهو حرص أهل المدينة المنورة على إحياء مبدأ الشورى انطلاقاً من دورهم القيادي فيما سبق، ورفضهم تهميش دورهم.

ويمكن تفسير ثورة المدينة المنورة بأنها من منطلق التمسك بمبدأ الشورى الذي أوصى به الإسلام وحث عليه في جميع أمور المسلمين المهمة وعلى رأسها مسألة الخلافة، وهو المبدأ الذي حرص أصحاب النبي ﷺ على تطبيقه في اختيار الخلفاء الراشدين في المدينة المنورة، فلا غرابة إذن أن يتمسك بقية الصحابة في المدينة المنورة بهذا المبدأ، ويحرصوا على تطبيقه عملياً برفض البيعة ليزيد لعدم توفر الشورى في خلافته، ويرون في مركزهم وموقعهم في المدينة المنورة ما يحتم عليهم النهوض لإنكار ما حدث من خلافة يزيد. وهم في تمسكهم بهذا المبدأ وإصرارهم عليه كانوا يرجون أن يؤدي ذلك إلى الثورة في سائر أقاليم العالم الإسلامي لإسقاط يزيد وإعادة أمر الخلافة إلى الشورى بعد وفاة معاوية. ومما يؤكد حرصهم على الشورى عدم مبايعة واحد منهم بالخلافة على الرغم من أن فيهم مؤهلين لها لأن في ذلك ما يخالف مبدأ الشورى، إذ يجب أن يشارك في اختيار الخليفة جميع أقاليم العالم الإسلامي، كما أن المدينة المنورة لم تعد مركزاً للعالم الإسلامي يجتمع فيها أهل الحل والعقد كما كان الحال عليه زمن الخلفاء الراشدين. ولكن هل يعد حرص المدنيين على الشورى وتمسكهم بها سبباً كافياً لخوض الحرب والتضحية؟ الجواب بالنسبة إليهم نعم. ولو أمعنا النظر في حروب المسلمين الأولى مع بعضهم لوجدنا أن معظمها قام على الإيمان بمبدأ معين واختلاف الآراء في مسألة معينة ما جرهم إلى تجريد السيوف في ظل انعدام لغة الحوار.

ومما بالغت فيه الروايات التاريخية عن هذه الموقعة كثرة القتلى من أهل المدينة المنورة وهي روايات فيها مبالغة ظاهرة، فقد قيل إن عدد القتلى بلغ سبعمئة من وجوه المهاجرين والأنصار، وممن لا يعرف من حر وعبد وغيرهم عشرة آلاف[1]، بل إن المبالغة واضحة أيضاً في نوعية الرجال الذين سقطوا في هذه المعركة من أهل المدينة المنورة، فقد قيل إن عدد من قُتل من الصحابة بلغ ثمانين رجلاً، ولم يبق بالمدينة المنورة بعد ذلك بدري، وقيل قتل من حفظة القرآن سبعمئة رجل[2] وهذا العدد لاشك أنه مبالغ فيه بصورة واضحة، ولا توجد إحصائية دقيقة لعدد القتلى في المعركة من مصدر موثوق به، ولكن الذي يمكن قوله إن معظم الفئات النشطة الفاعلة في المجتمع المدني قد أصيبت في هذه الوقعة بالقتل أو الجراحات البالغة ما أفلّ حدهم وأضعف قوتهم، وما كان له أثر واضح على مستقبل المدينة المنورة السياسي خلال العهد الأموي أن الناس الذين سلموا من القتل أو الجراحات قد أضنتهم المأساة، وجعلتهم لا يفكرون في القتال مرة أخرى ما جعل المدينة المنورة تركن إلى الهدوء والاستكانة طيلة العهد المرواني[3].

ب ـ المدينة المنورة في العهد المرواني ٦٤ ـ ١٣٢هـ/ ٦٨٤ ـ ٧٥٠م:

يطلق معظم المؤرخين العهد المرواني على فترة حكم الأسرة المروانية للدولة الأموية خلال الفترة من سنة ٦٤ هـ/٦٨٤ م بداية من ولاية مروان بن الحكم مؤسس الأسرة إلى سقوط

(١) ابن الأثير، علي بن محمد. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ٣، ٩٦.

(٢) زيود، محمد أحمد. أثر انتقال الخلافة على الحجاز، مرجع سابق، ٢٨.

(٣) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ١، ٣٧٥.

الدولة الأموية على أيدي العباسيين بقتل آخر خلفاء هذه الأسرة مروان بن محمد في قرية بوصير بمصر سنة ١٣٢ هـ/٧٤٩ م. على أن بعض المؤرخين يجعلون الحكم الحقيقي لهذه الأسرة يبدأ من خلافة عبدالملك بن مروان وبالتحديد عام ٧٣ هـ/٦٩٢ م الذي أنهى فيه عبدالملك ثورة عبدالله بن الزبير، وانفرد بحكم العالم الإسلامي دون منازع، ويطلقون على هذا العام عام الجماعة الثاني لاجتماع المسلمين تحت مظلة خلافة عبدالملك بن مروان، وانتهاء التفرق بين خلافتين، خلافة عبدالله بن الزبير[١] وخلافة المروانيين، وقد دام حكم الأسرة المروانية ٦٨ عاماً حكم خلالها أحد عشر خليفة.

١ـ الوضع الإداري:

دخلت المدينة المنورة تحت نفوذ المروانيين بحملة أرسلها عبدالملك بن مروان سنة ٧٢ هـ/٦٩١ م بقيادة طارق بن عمرو أنهت حكم بن الزبير فيها، وأعادتها إلى حظيرة الدولة الأموية[٢]. وقد أبدى جميع خلفاء الدولة الأموية اهتماماً خاصاً بالمدينة المنورة لأهميتها الدينية، ومكانتها الخاصة في العالم الإسلامي لوجود المسجد النبوي ثاني الحرمين الشريفين، كما أنها مقر تجمع الصحابة وأبنائهم، وهي عاصمة الإسلام الأولى[٣]، وتحوي هي ومكة المكرمة الأمكنة المقدسة، والبقاع المباركة، ومهبط الوحي، ومركز الذكريات المرتبطة بمنابع الإسلام الأولى ما يجعل لها مكانة خاصة في نفوس المسلمين، ويدفع الخلفاء إلى الحرص على ضمها لدولتهم وعدم الاستغناء عنها مهما اتسعت رقعة دولتهم، فالسيادة والزعامة على العالم الإسلامي لا تكتمل إلا بضم بلاد الحجاز بما فيها المدينة المنورة تحت نفوذهم ليستمد منها الخليفة السلطة الروحية على جميع بلاد المسلمين[٤]، هذا إلى جانب ما تمثله للأسرة المروانية من أهمية سياسية تكمن في المعارضة التي قامت فيها في عهد الأسرة السفيانية، وهذه المعارضة وإن كانت قد سكنت في عهد خلفاء الأسرة المروانية وتخلت عن العنف السياسي، إلا أنها تحولت إلى معارضة لسانية قلبية تظهر في بعض الأحيان[٥]، وهذا ما يثير قلق المروانيين من عودة العنف السياسي إلى هذا البلد المؤهل بما فيه من الزعامات كالعلويين وآل الزبير وغيرهم للمعارضة الجديّة للحكم الأموي، لذلك عمل خلفاؤهم (المروانيون) على تشديد قبضتهم على المدينة المنورة منذ عهد عبدالملك بن مروان الذي اتسمت سياسته بالشدة والحزم الممزوجين باللين، فقد رمى المدينة المنورة بالحجاج بن يوسف الثقفي بعد قضائه على ابن الزبير سنة ٧٣ هـ/٦٩١ م فقدم إلى المدينة المنورة، وطبق القبضة الحديدية، وأساء إلى من فيها من الصحابة خلال فترة إمارته التي دامت سنتين، ولم يمنعه من التنكيل بأهل المدينة المنورة إلا ما كان يصله من تعليمات الخليفة عبدالملك الذي على الرغم من خطبه التي انتهج فيها القوة والشدة لإخافة الطامعين والمتطلعين والمتربصين، فإنه كان في مجال التطبيق العملي ومن خلال أُمرائه على المدينة المنورة يميل إلى سياسة الملاينة والرحمة، يدل على ذلك توليته لإبان بن عثمان بن عفان على إمارة المدينة المنورة بعد الحجاج بن يوسف مدة سبع سنوات، وهو رجل فقيه عالم لم يُعرف عنه أنه آذى أحداً طيلة إمارته[٦].

(١) يعد بعض المؤرخين عبدالله بن الزبير خليفة ومنهم: ابن حزم، علي بن أحمد. جمهرة أنساب العرب، مرجع سابق، ٨٧، ١٢٢، ومنهم الإمام ابن كثير، إسماعيل بن عمر. نقل ذلك عن ابن حزم وطائفة من العلماء، البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ١٢، ١٨٦، ٦٦٦، وترجمه باسم أمير المؤمنين، والواقع يؤيد ذلك إذ تمت بيعته من جميع الأقاليم مثل: الحجاز والعراق واليمن ومصر والجزيرة وخراسان وبعض أجزاء الشام، وكما عده الأمويون خارجاً على خلافة يزيد، فإن كلا من مروان بن الحكم وعبدالملك بن مروان في فترة حكمه الأولى ٦٥ - ٧٣ هـ يعدان خارجين على خلافة عبدالله بن الزبير. انظر: شاكر، محمود. التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ١٥٢.

(٢) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٦، ١٨٧.

(٣) زيود، محمد أحمد. أثر انتقال الخلافة على الحجاز، مرجع سابق، ٣٤.

(٤) بيضون، إبراهيم. الحجاز والدولة الإسلامية، مرجع سابق، ٣١٨.

(٥) شراب، محمد حسن. المدينة المنورة في العصر الأموي، مرجع سابق، ١٧٥، ١٧٦.

(٦) شمس الدين السخاوي، *التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة*، (القاهرة: دار نشر الثقافة، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م)، جـ١، ١٠٠.

وقد سار خلفاء عبدالملك من بعده على سياسته نفسها في الشدة والحزم الممزوجين باللين، ومن الأساليب التي اتبعها الخلفاء المروانيون في المدينة المنورة بث العيون والجواسيس على الأشخاص الذين يخشون منهم، وبعض الأسـر المرموقة مثل آل علي وآل الزبير، وحتى على الأمـراء أنفسهم لإبـلاغ الخليفة بمختلف الأنشطة في المدينة المنورة فلا يغيب عنه شيء ليتخذ لكل أمر عدته سواء من جهة السكان أو من جهة الأمير، وهذه سياسة ورثوها من مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبي سفيان، ومما يذكره بعض الباحثين أن من السياسات التي اتبعها المروانيون في المدينة المنورة سياسة الإغراق المالي لأهل هذا البلد بالإكثار من العطاء، وإعادة ما سبق أن قطعه معاوية عن أهل المدينة المنورة في آخر عهده والزيادة عليه لكسب قلوب الناس وإشغالهم بالأمور الاقتصادية عن التفكير في السياسة والتمرد على السلطة[١]، وبذلك نجح المروانيون في إزالة سبب مهم من أسباب التذمر التي أدت إلى ثورة أهل المدينة المنورة في عهد يزيد وهو التضييق الاقتصادي عليهم من قبل معاوية بن أبي سفيان.

ومن أساليب المروانيين الناجحة في حكم المدينة المنورة سياسة التودد إلى أهلها التي اتبعها بعض بني مروان مثل عمر بن عبدالعزيز عندما كان والياً على المدينة المنورة في عهد الوليد بن عبدالملك، فقد اختط لنفسه سياسة حرة كسب بها رضا الناس خاصة وعامة، فكان مدة ولايته التي امتدت من سنة ٨٧ هـ إلى سنة ٩٤ هـ من أحسن الناس معاشرة، وأعدلهم سيرة، معتمداً على الشورى في تسيير أمور المدينة[٢].



الحرم النبوي الشريف

وعلى العموم فإن سياسة الخلفاء المروانيين الإدارية في المدينة المنورة لم تختلف كثيراً عن سياسة السفيانيين التي أرسى قواعدها مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبي سفيان من حيث تطبيق سياسة الحكم المباشر، وتركيز السلطات في يد الخليفة، وعدم إطلاق يد الولاة في الحكم بحيث يكون الواحد منهم ممثلاً للخليفة منفذاً لتعليماته فقط، إلا إذا استثنينا من ذلك عمر بن عبدالعزيز الذي اشترط على الخليفة الوليد بن عبدالملك استقلاله في إدارته لتحقيق أهدافه التي يرمي إليها في المدينة المنورة التي نشأ فيها[٣]. ومما شابهت فيه الإدارة المروانية الإدارة السفيانية التي سبقتها الاعتماد على ولاة أغلبهم من الأمويين أو القرشيين وبعض العرب من

(١) بيضون، إبراهيم. الحجاز والدولة الإسلامية، مرجع سابق، ٣٥٣.

(٢) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٦، ٨٧.

(٣) شراب، محمد محمد حسن. المدينة المنورة في العصر الأموي، مرجع سابق، ١٨١؛ نجدة خماش، *الإدارة في العصر الأموي*. ط١، (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠م)، ١١٠.

المقربين إلى الخلفاء بصلة قرابة، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الأمويين كانوا أولى بثقة الخلفاء وأقدر من غيرهم على فهم سياسة الخلفاء المروانيين وتنفيذها، أما القرشيون فلأنهم الأنسب للحكم في هذا الجزء المهم من الدولة؛ فقبيلة قريش صاحبة الرئاسة والخلافة فلا يتوقع خضوعهم لوالٍ من خارج القبيلة، لذلك نجد أن أكثر من نصف الولاة هم من قريش وأغلبهم أمويون[١]. كما شابهت سياسة المروانيين الإدارية سياسة السفيانيين في كثرة تولية الولاة وعزلهم لأسباب مختلفة؛ فالتولية تكون أحياناً لتنفيذ سياسة معينة يريد الخليفة تطبيقها، وأحياناً أخرى لإكرام أحد الأقارب وتشريفه بحكم هذا البلد المقدس، وأحياناً تكون لمجرد الرغبة في تغيير ولاة الخليفة السابق، وقد كثر هذا في المرحلة الأخيرة من حكم الدولة الأموية، أما العزل فيكون أحياناً لجور الوالي وظلمه، وشكوى الناس منه، وأحياناً أخرى لعدم قدرته على تنفيذ سياسة الخليفة التي رسمها له.

ومما خالف فيه المروانيون سياسة أسلافهم السفيانيين الإدارية في المدينة المنورة تخصيص المدينة المنورة بإمارة مستقلة ووالٍ مستقل بعد أن كانت تجمع مع إمارة مكة المكرمة لوالٍ واحد، وأصبحت المدينة المنورة هي المركز الإداري، ومقر الولاة عندما تجمع المدينة المنورة ومكة المكرمة والطائف لوالٍ واحد مثل عبدالواحد بن بشر النصري الذي ولاه يزيد بن عبدالملك المدينة المنورة ومكة المكرمة والطائف وجعل مقره المدينة المنورة، ومثل محمد بن هشام المخزومي الذي ولاه هشام بن عبدالملك المدينة المنورة ومكة المكرمة والطائف سنة ١٠٦ هـ/٧٢٤ م ثم عزله عن المدينة المنورة سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م[٢].

٢- الوضع السياسي وأهم الأحداث:

لم تشهد المدينة المنورة والمنطقة المحيطة بها أحداثاً مهمة خلال العهد المرواني إلا في آخر عهد الدولة الأموية، فقد نعمت بالهدوء والاستقرار طيلة عهد خلفاء بني مروان، فبعد تلك الأحداث الدامية التي عصفت بها في عهد يزيد بن معاوية[٣] والمتمثلة في ثورة أهل المدينة المنورة وموقعة الحرة، وما خلفته من آثار عظيمة ذهب فيها عدد من الشخصيات البارزة من ذوي الطموح السياسي والتأثير الكبير على مجتمعهم، وما أعقب ذلك من تشديد الأمويين قبضتهم على المدينة المنورة خصوصاً في عهد الخلفاء الأوائل عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك وسليمان بن عبدالملك، الذين منعوا الحديث في السياسة، والمجاهرة بانتقاد أمرائهم وخلفائهم، ورصدوا تحركات الأمير، ومنعوا لجوء المعارضين من الأقاليم الأخرى إلى المدينة المنورة والإقامة بها، فلم يجرؤ أحد على ممارسة أي نشاط سياسي، وقطعت الدولة الطريق على أي محاولة لاستعادة المدينة المنورة دورها السياسي السابق، وفي الوقت نفسه أغدقت الأموال على الأعيان والكبار، فنشأ من أبنائهم جيل مترف عاش حياة البذخ والرفاهية وألفها ولم يكن لهم ذلك الدور الريادي والطموح الذي كان لأسلافهم ليدفعهم إلى التضحية بما يتمتعون به من حياة الرفاهية في سبيل استعادة أمجاد سالفة[٤]. وقد أثبتت لهم التجارب السابقة من موقعة الحرة وعدم نجاح ثورة عبدالله بن

(١) شراب، محمد حسن. المدينة المنورة في العصر الأموي، مرجع سابق، ٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) المرجع السابق، ٢٢٤، ٢٢٥.

(٣) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ١، ٤١٢.

(٤) أحمد إبراهيم الشريف، *دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني من الهجرة*. ط١، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٨م)، ٤٥٢.

الزبير ضعف إمكانات بلاد الحجاز وعدم قدرتها على الصمود ومواجهة قوة الأمويين، فرضوا بالواقع واستسلموا له، ونتيجة لذلك ساد الهدوء والاستقرار في المدينة المنورة طيلة عهد المروانيين، ولم تقم فيها حركات مناوئة للدولة.

ولعل أهم حدث شهدته المدينة المنورة وبلاد الحجاز كان في آخر عهد الدولة الأموية وهو حملة أبي حمزة الخارجي واسمه المختار بن عوف الأزدي من الخوارج الإباضية، موطنه البصرة، وقدم إلى مكة المكرمة في موسم الحج عدة سنين لنشر مبادئ الأباضية، فالتقى في أحد المواسم برجل قدم من حضرموت يسمى عبدالله بن يحيى من قبيلة كندة، وكان هذا الرجل يدعو إلى الثورة على جور بني أمية، فاتفق رأياهما على ذلك وخرج معه إلى حضرموت وآزر دعوته حتى بايعه في حضرموت على الخلافة ثم تقدم إلى اليمن فاحتلها واستولى على عاصمتها صنعاء.

وفي موسم حج سنة ١٢٩ هـ/٧٤٧ م والناس في موقف عرفة لم يرعهم سوى خروج رايات الخوارج عليهم بقيادة أبي حمزة الخارجي، فهادنه أمير الحج عبدالواحد بن بشر النصري أمير الحجاز ومقره في المدينة المنورة، ليكمل الناس شعائر حجهم فأجاب إلى ذلك.

وبعد انتهاء موسم الحج توجه عبدالواحد إلى المدينة المنورة لإعداد القوة اللازمة لمحاربة الخوارج واستولى أبوحمزة على مكة المكرمة، ثم توجه إلى المدينة المنورة لاستخلاصها ومد نفوذه على بلاد الحرمين، وكان عبدالواحد قد أعد جيشاً من أهل المدينة المنورة يقدر بنحو ألف وخمسمئة رجل جُمع أكثرهم بالإكراه، وجعل قيادته إلى رجل من ذرية عثمان بن عفان رضي الله عنه، هو عبدالعزيز بن عبدالله، ولم يخرج معهم، فالتقى الجيش المدني بالخوارج في قديد[١] وعلى الرغم من تفوق عدد جيش المدينة المنورة على الخوارج إلا أنه كانت تنقصهم الخبرة القتالية والخشونة اللازمة للقتال فأكثرهم من الجيل المترف من الذين لم يتمرسوا على فنون الحرب والقتال، لذلك لم يستطيعوا الصمود أمام الخوارج وانهزموا وقُتل قائدهم ومعه نحو سبعمئة، وعادت فلول الجيش المهزوم إلى المدينة المنورة، وهرب أميرها عبدالواحد إلى الشام لطلب المدد. أما أبوحمزة فقد دخل المدينة المنورة واستولى عليها بغير قتال ومكث بها ثلاثة أشهر[٢]. وقد أعد مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان جيشاً من أهل الشام بلغ أربعة آلاف رجل وجعل قيادته إلى عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي لطرد الخوارج من المدينة المنورة والحجاز وضربهم في عقر دارهم بحضرموت، وقد نجحت الحملة في هزيمة الخوارج بوادي القرى ثم دخل عبدالملك المدينة المنورة ومكث بها لبعض الوقت، فأخذ يستعد لمطاردة الخوارج ثم لحق بهم إلى مكة المكرمة فدارت معركة بين الجانبين قتل فيها أبوحمزة قائد الخوارج فعادت فلولهم إلى اليمن ثم تبعهم عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي إلى هناك واستعاد منهم اليمن، وتوجه إلى حضرموت وقتل زعيمهم بها عبدالله بن يحيى (طالب الحق)[٣].

وقد أثبتت حملة الخوارج على مكة المكرمة والمدينة عدم قدرة أهل المدينة المنورة على

(١) قديد تصغير القَد من قولهم: قددت الجلد، اسم موضع قرب مكة. انظر: الحموي، ياقوت بن عبدالله. معجم البلدان، مرجع سابق، جـ٤، ٣١٣؛ وقديد واد فحل من أودية الحجاز التهامية يَقطعه الطريق من مكة المكرمة إلى المدينة على نحو (١٢٠) كم، فيه عيون وقرى كثيرة لحرب وبني سلم. انظر: عاتق بن غيث البلادي، *معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية*. ط١، (مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م)، ٢٤٩.

(٢) ابن خياط، خليفة. تاريخ خليفة بن خياط، مرجع سابق، ٣٩١، ٣٩٢.

(٣) اليعقوبي، أحمد. تاريخ اليعقوبي، مرجع سابق، ٣٤٠.



وادي القرى

الدفاع عنها واحتياجهم إلى من يدافع عن مدينتهم[١].

ج ـ حياة المجتمع المدني في العهد الأموي:

هدأت الأحداث السياسية في العهد المرواني ما أتاح الفرصة للحياة الاجتماعية أن تنمو وتزدهر في ظل الهدوء والاستقرار.

لا يمكن للباحث المنصف أن يجد شريحة كبيرة من سكان المدينة المنورة في غير مجالات العمل الجاد بعد أن انقطعت عنهم الأموال والثروات التي تدفقت على أسلافهم من الفتوح في عهد الخلفاء الراشدين، وبعد أن قطع عنهم معاوية بن أبي سفيان الأعطيات، ومنع وصول الحنطة التي كانت تصل إلى أهل المدينة المنورة منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبالتحديد منذ عام الرمادة سنة ١٨ هـ/٦٣٩ م الذي وقع فيه القحط والمجاعة، وما فعله معاوية كان عقاباً لأهل المدينة المنورة على موقفهم من البيعة ليزيد[٢]، واستمر ذلك في عهد يزيد بن معاوية، فلم يكن أمام سكان المدينة المنورة إلا الانخراط في جميع الأنشطة الاقتصادية من زراعة وتجارة وأعمال أخرى كالرعي، وبعض الحرف والصناعات الخفيفة لسد احتياجاتهم المعيشية، ويجب ألا نتصور أن يقوم الموالي بجميع هذه الأعمال لأنهم على كثرتهم في المجتمع المدني إلا أنهم يعدون قلة أمام العناصر الأخرى في المجتمع، ثم إن أغلب الموالي يعملون في أعمال سادتهم الأغنياء من قريش،

(١) الشريف، أحمد إبراهيم. دور الحجاز في الحياة السياسية العامة، مرجع سابق، ٤٠٠.

(٢) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٥، ٣٠٥.

أما غالبية السكان من الأنصار وغيرهم فهم يعملون فيما تبقى من مزارعهم بعد أن اضطروا إلى بيع كثير منها بثمن زهيد لسد احتياجاتهم[١]. وتعد التجارة مجال عمل آخر يعمل به كثير من الناس في البيع والشراء في أسواق المدينة المنورة ونقل التجارة عن طريق كراء الجمال، لاسيما وأن المدينة المنورة تقع على طريق القوافل التجارية، ومارس سكانها نقل التجارة منذ القدم.

وفي جانب آخر من هذه الصورة من صور حياة المجتمع المدني نجد نوعاً آخر من الحياة الجادة الوقورة وتمثلها شريحة لا بأس بها من المجتمع المدني هم العلماء والفقهاء وطلاب العلم.

لقد فرضت طبيعة المدينة المنورة أن تكون المركز الأول للعلم في الجزيرة العربية بل في العالم الإسلامي، ففيها نزل الوحي على الرسول ﷺ بجميع التشريعات خلا العقيدة والصلاة التي فُرضت قبل ذلك في مكة المكرمة، وهي مركز تجمع الصحابة الذين أخذوا العلم عن الرسول ﷺ وحفظوا سيرته[٢]. وبالتالي أصبحت المدينة المنورة مقصداً لطلاب العلم من أقاصي البلاد الإسلامية يفدون إليها لأخذ العلم الأصيل من موطنه، ويكفي في هذا المجال أن نشير إلى أن عدداً من علماء الصحابة أدركوا العهد الأموي منهم: عبدالله بن عمر بن الخطاب (ت ٧٣ هـ/٦٩١ م)، أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر (ت ٥٥ هـ/٦٧٥ م)، أبوسعيد الخدري سعيد بن مالك بن سنان (ت ٧٤ هـ/٦٩٢ م)، وجابر بن عبدالله الخزرجي (ت ٧٨ هـ/٦٩٧ م). وقد تبعهم جيل ممن أخذ العلم عنهم من أوائل التابعين، اشتهر منهم فقهاء المدينة المنورة السبعة[٣]، وتلاميذهم الذين خلفوهم في حمل العلم وتدريسه، وأبرزهم وآخرهم إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩ هـ/٧٩٥ م).

وقد اشتهرت المدينة المنورة بأنها موطن الحديث والسنة، وعلوم الشرع، والسيرة النبوية، وكانت حلقات العلم تُعقد في المسجد النبوي وتدرس فيها هذه العلوم وغيرها على أيدي علماء يجلسون في حلقات عامة يحضرها من يرغب، وكان المسجد النبوي كخلية النحل من الحركة الدائبة لطلاب العلم ينتقلون من حلقة عالم إلى آخر، ولم تقتصر حلقات العلم على المسجد النبوي بل إن منها ما يعقد في بيوت العلماء والفقهاء[٤]. وفي مثل هذا الجو العلمي المميز من المتوقع أن يقبل كثير من الناس على طلب العلم، يشجعهم على ذلك فترة الهدوء والسكينة التي شهدتها المدينة المنورة في عهد الدولة الأموية لا سيما في عهد خلفاء بني مروان.

وإلى جانب هذا النوع من الحياة العلمية النشطة هناك نوع آخر من الحياة الوقورة تمثلها طائفة من المنقطعين للعبادة في المسجد النبوي منهم طائفة من سكان المدينة المنورة نفسها وطائفة أخرى من القادمين إليها من العالم الإسلامي فراراً بدينهم من الفتن ورغبة في قضاء حياتهم في جو روحاني لا تعكر صفوه تجاذبات الحياة ومشاغلها، وقسم من هؤلاء عمل في مجال التعليم إلى جانب التفرغ للعبادة.

(١) بيضون، إبراهيم. الحجاز والدولة الإسلامية، مرجع سابق، ٢٦٧.

(٢) شراب، محمد حسن. المدينة المنورة في العهد الأموي، مرجع سابق، ٣٥٨.

(٣) فقهاء المدينة السبعة هم: أبوبكر بن عبدالرحمن بن الحارث المخزومي (ت ٩٤ هـ)، سعيد بن المسيب المخزومي (ت ٩٤ هـ)، عروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ)، عبدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود (ت ٩٨ هـ)، خارجة بن زيد بن ثابت (ت ١٠٠ هـ)، القاسم بن محمد بن أبي بكر (ت ١٠٦ هـ)، سليمان بن يسار (ت ١٠٧ هـ)، وقد أضاف لهم بعض العلماء ثلاثة آخرين هم: سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب (ت ١٠٦ هـ)، أبوسلمة بن عبدالرحمن بن عوف (ت ١٠٤ هـ)، نافع مولى ابن عمر (ت ١١٧ هـ).

(٤) عبدالله بن محمد السيف، *الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي*. ط٣، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م)، ٣١٢.

نخلص إلى حقيقة مهمة هي أن غالبية سكان المدينة المنورة يمثلون الحياة الجادة الوقورة التي تلائم طبيعة الحياة في المدينة المنورة والمكانة الخاصة لها.

رابعاً ـ العهد العباسي ١٣٢ ـ ٦٥٦هـ/ ٧٥٠ ـ ١٢٥٨م:

ظلت المدينة المنورة تحت حكم الأمويين إلى سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين بهزيمة جيوش مروان بن محمد آخر حكام الدولة الأموية في معركة الزاب الكبير في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م، ثم بقتله على يد الجيوش العباسية في قرية بوصير بمصر في شهر ذي الحجة من السنة نفسها[١]. وكانت الدولة العباسية قد قامت فعلياً في المشرق بمبايعة أبي العباس السفاح في الكوفة في شهر ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م. قام السفاح بتولية عمه داود بن علي أميراً على المدينة المنورة ومكة المكرمة واليمن، فقدم إلى المدينة المنورة، ولم يبدِ أهلها أي مقاومة للدولة الجديدة تعبيراً عن تأييدهم، ولم يترددوا في المبايعة لأبي العباس السفاح، وقابل داود بن علي تلك الطاعة بالعفو والصفح عن جميع سكان المدينة المنورة بمن فيهم الأمويون، وبذلك دخلت المدينة المنورة تحت حكم العباسيين[٢].

أ ـ الأوضاع السياسية في المدينة المنورة خلال الفترة ١٣٢ ـ ٣٥٨هـ/ ٧٥٠ ـ ٩٦٨م:

تركزت الأحداث السياسية المهمة في المدينة المنورة في عهد الدولة العباسية خلال الفترة من قيام الدولة سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م إلى قيام إمارة الحسينيين في المدينة المنورة سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م على ثورات العلويين ضد الخلافة العباسية، وثورات العرب المقيمين حول المدينة المنورة، وسنتناول أبرز هذه الثورات بإيجاز.

١ـ ثورات العلويين ضد الخلافة العباسية:

كان العلويون ـ نسبة إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ـ هم القائمون بأمر المقاومة ضد الأمويين لأنهم يعدون أنفسهم أحق بالخلافة منهم، وقد تعددت ثوراتهم ضد الدولة الأموية، وقدموا تضحيات جسيمة في سبيل طلب ذلك الحق، في حين كان العباسيون ـ نسبة إلى العباس بن عبدالمطلب ـ هادئين ولم يقوموا بأي عمل ضد الأمويين، بل لم يكن لهم طموح نحو الخلافة حتى نهاية القرن الأول الهجري عندما سنحت لهم الفرصة للقيام بدور مهم لإسقاط حكم الأمويين فيما يعرف في التاريخ بالوصية[٣]. لقد نظم زعماؤهم الدعوة السرية ضد الأمويين وتوجهوا نحو خراسان لبعدها وكثرة المتشيعين لآل البيت بها، ولم يجعلوا للحجاز دوراً في الدعوة لكونه تحت مراقبة شديدة من الأمويين، ولأنه كان الموطن الأساس للعلويين وهم لا يريدون للعلويين دوراً في هذه الدعوة على الرغم من أن الدعوة كانت في بداية أمرها للرضا من آل محمد لكسب مساندة الشيعة (شيعة العلويين) فلما نجحت الدعوة، وحققت هدفها في إسقاط الدولة الأموية استأثر العباسيون بأمر الخلافة ولم يُشركوا

(١) جلال الدين السيوطي، *تاريخ الخلفاء*. ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م)، ٢٠٥.

(٢) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ٤، ٥.

(٣) الوصية المقصود بها وصية عبدالله أبي هاشم التي تنازل فيها عن حقه في الخلافة لابن عمه محمد بن علي بن عبدالله بن عباس عند مروره عليه في الحميمة قادماً من عند هشام بن عبدالملك الذي يقال إنه دس له السم. ويشك كثير من المؤرخين والباحثين في صحة هذه الوصية. انظر: عبدالعزيز المليلم، *العلاقات بين العلويين والعباسيين من سنة ٩٨ ـ ٢٣٢ هـ*. ط٥، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٢ هـ/١٩٩٣م)، ٤٥ وما بعدها.

العلويين فيها[١]. ولهذا غضب العلويون من تصرف العباسيين، ورَأَوْهُمْ مغتصبين لحقهم في الخلافة مثلهم في ذلك مثل الأمويين، لذلك بدأت المعارضة واتخذت أشكالاً متعددة، ومن تلك الثورات:

أ) ثورة محمد بن عبدالله (ذو النفس الزكية) ١٤٥هـ/٧٦٢م:

كان قائد الثورة محمد بن عبدالله من أبرز العلويين في آخر عهد الدولة الأموية وكان يطمح إلى الخلافة، وقد أيده في ذلك العلويون والعباسيون معاً حتى إنهم بايعوه بالخلافة في حال سقوط الدولة الأموية وذلك بمؤتمر الأبواء الذي عقده وجوه العلويين والعباسيين وبحثوا فيه مستقبلهم في حال سقوط الدولة الأموية، وتذكر المصادر أن من بين من بايعه بالخلافة في ذلك المؤتمر كلاً من أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور من وجوه العباسيين[٢].

وعندما قامت الدولة العباسية امتنع محمد بن عبدالله وأخوه إبراهيم عن تقديم البيعة لأول خلفاء العباسيين أبي العباس السفاح، وظلا مختفيين عن أعين والي المدينة المنورة طيلة عهد السفاح ومع ذلك لم يتخذ السفاح أي إجراء ضدهما أو ضد العلويين في المدينة المنورة، واكتفى بأخذ العهود والمواثيق من والدهما عبدالله بن الحسن (المحض) بعدم خروجهما عليه أو عمل شيء يكرهه.

وعندما توفي السفاح سنة ١٣٦ هـ/٧٥٣ م وآلت الخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور أخذ الأمر بما عرف عنه من حزم وقوة فأمر واليه على المدينة المنورة زياد بن عبدالله الحارثي بتشديد المراقبة على العلويين وبخاصة محمد وإبراهيم اللذان أصبحت سيرتهما حديث المجالس، وعندما لاحظ تساهلاً من واليه مع والدهما، عزله وعين بدلاً منه محمد بن خالد القسري، ومهمته الأساسية الكشف عن محمد وإبراهيم واستخراجهما من مخبئهما بشتى الوسائل، فاتخذ عدة إجراءات منها القبض على أقارب محمد والزج بهم في السجن، والمراقبة الشديدة لمن يتصل بهم، وفرض منع التجول، لكن جميع هذه الإجراءات لم تفلح في الكشف عن المطلوبين والقبض عليهما، فغضب المنصور عليه وعزله وعين أميراً آخر هو رباح بن عثمان المري الذي شدد على والد محمد وأقاربه في السجن، وقبض على عدد آخر من أقارب محمد وزج بهم في السجن، وأساء معاملتهم، وشتم أهل المدينة المنورة على المنبر واتهمهم بالغش والخيانة، وكانت هذه الأعمال ضد العلويين وضد أهل المدينة المنورة تحز في نفس محمد وتدفعه إلى الخروج وإعلان ثورته، وأخيراً لم يستطع محمد السكوت بعد أن أمر المنصور بحمل جميع المسجونين من العلويين إلى العراق وعلى رأسهم والد محمد حيث عُذبوا ومات عدد منهم في السجن ومنهم عبدالله والد محمد[٣].

لذلك لم يجد محمد بداً من إعلان الثورة والخروج في الأول من شهر رجب سنة ١٤٥ هـ/٧٦٢ م وسيطر على المدينة المنورة بسهولة وأخذ البيعة من أهلها له بالخلافة، وبعث ولاته إلى الأمصار ومنها مكة المكرمة التي أصبحت في

(١) الشريف، أحمد إبراهيم. دور الحجاز في الحياة السياسية، مرجع سابق، ٤٠٥.

(٢) ابن الأثير، علي. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ٤، ٣٧٠. أما الأبواء فهي بلدة من الفرع من أعمال المدينة بها قبر آمنة بنت وهب أم الرسول ﷺ دفنت بها عندما وافاها الأجل في طريق عودتها من زيارة قبر عبدالله والد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ انظر: الحموي، ياقوت. معجم البلدان، مرجع سابق، جـ١، ٧٩.

(٣) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٥، ٥٥١ وما بعدها.

حوزته، وبذلك تطورت ثورة محمد لتشمل الحجاز جميعه، كما بعث أخاه إبراهيم إلى البصرة[١].

فرح المنصور بخروج محمد بن عبدالله الذي أعياه اختباؤه طيلة تلك المدة، وفي خروجه حسم المسألة بالقوة التي هي في صالح المنصور، ولكنه قبل المواجهة لجأ إلى أسلوب المفاوضة فدارت بينه وبين محمد النفس الزكية عدة مراسلات ولم ينتج عنها ما يذكر بل إن المنصور قد استغل الفترة في إعداد القوة اللازمة لإخماد ثورة محمد النفس الزكية، وبالفعل فقد أعد جيشاً قوياً بقيادة ابن أخيه وولي عهده عيسى بن موسى، اختاره المنصور عن قصد وهو أن يزج به في هذه الحرب لتحقيق هدفه في القضاء على ثورة المدينة المنورة، أو قتله والتخلص منه ليخلو الطريق أمام ابنه لولاية العهد[٢]. وقد أشار أصحاب محمد النفس الزكية عليه التحصن في المدينة المنورة وإعادة حفر الخندق كما فعل ثوار المدينة المنورة في زمن يزيد بن معاوية[٣]. ووصلت قوات المنصور إلى المدينة المنورة ودارت مفاوضات بين الجانبين لم تنته إلى نتيجة، فبدأ الهجوم ونجح المهاجمون في عبور الخندق في عدة نقاط، كما نجح بعضهم في التسلل من ثغرات أخرى ودارت رحى المعركة حامية بين الفريقين، فتفرق عن محمد النفس الزكية معظم أنصاره ووجد نفسه وحيداً في ميدان المعركة إلا من عدد قليل من المخلصين له، فلم يجد بداً من الاستبسال والقتال إلى أن قتل قبل مغيب الشمس من يوم الرابع عشر من رمضان سنة ١٤٥ هـ/٧٦٢ م[٤]. أما أخوه إبراهيم فقد ثار بالبصرة بعدد قليل من الأتباع، وما لبث أن قُتل وانتهت ثورته، وهكذا تم القضاء على أول ثورة للعلويين ضد العباسيين في المدينة المنورة ولكن لم تكن لها آثار سيئة كبيرة على المدينة المنورة كما حدث في موقعة الحرة.

ب) ثورة الحسين بن علي ١٦٩هـ/٧٨٥م:

هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فهو ابن عم محمد بن عبدالله (النفس الزكية) الذي سبق أن ثار في المدينة المنورة سنة ١٤٥ هـ/٧٦٢ م.

هدأت ثورات العلويين في عهد المهدي الذي خلف والده أبا جعفر المنصور، وقد غيّر المهدي سياسة الشدة التي اتبعها والده مع العلويين واتبع سياسة فيها كثير من اللين والرحمة بهم، وأخرج من كان منهم في سجون والده وأمر لهم بالجوائز والصلات، كما تعامل بلطف مع العلويين في المدينة المنورة وأعاد لهم قطائعهم، وفك الحصار الاقتصادي الذي فرضه والده على أهل المدينة المنورة بسبب ثورة محمد بن عبدالله[٥]. لكن هذه السياسة لم تُجدِ نفعاً في تغيير نظرة العلويين إلى العباسيين وعدهم مغتصبين للخلافة، فاستغل الطامحون من العلويين سياسة التسامح التي انتهجها المهدي مع العلويين وعادوا من جديد إلى مناقشة مسألة الخلافة والحديث فيها منذ آخر عهد المهدي، إذ قدم بعض الشيعة من العراق إلى المدينة المنورة وشجعوا الحسين بن علي على الخروج والمطالبة بالخلافة[٦]. فلما توفي المهدي

(١) النجم عمر بن فهد، *إتحاف الورى بأخبار أم القرى*، تحقيق: فهيم محمد شلتوت. ط١، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث، ١٤٠٤ هـ)، جـ٢، ١٨٦، ١٨٧.

(٢) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٥، ٥٥٢.

(٣) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ٣٣.

(٤) المليلم، عبدالعزيز. العلاقات بين العباسيين والعلويين، مرجع سابق، ١٣٩.

(٥) المليلم، عبدالعزيز. العلاقات بين العباسيين والعلويين، مرجع سابق، ١٣٩.

(٦) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ٦٩، ٧٠.

سنة ١٦٩ هـ/٧٨٥ م وخلفه ابنه الهادي عزم على وضع حد لتطلع العلويين إلى الخلافة، فغير سياسة اللين والرحمة التي اتبعها والده مع العلويين بسياسة أخرى تقوم على الشدة والبطش والتنكيل بهم لإشعارهم بقوة الدولة. وقد نفذ هذه السياسة واليه على المدينة المنورة عمر بن عبدالعزيز العمري الذي جمع العلويين وهددهم وحذرهم من الخلاف، وجعل بعضهم يضمن بعضاً[١]. واشتط في معاقبة من يخطئ منهم كما فعل مع الحسن بن محمد بن عبدالله (النفس الزكية) ورفاقه ما جعل كبار العلويين يتدخلون لدى الأمير ومنهم الحسين بن علي وعمه يحيى بن عبدالله، ولكنه اشترط لذلك أن يضمنا حضوره إلى دار الإمارة يومياً، فلما تغيب عن الحضور مدة ثلاثة أيام طلبهما وأغلظ لهما في القول ما أدى إلى ثورة الحسين بن علي وعمه ضد العباسيين، وقامت ثورة الحسين بن علي في المدينة المنورة في ١٤ من ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ/٧٨٦ م، واستولى على دار الإمارة فهرب الوالي، وسيطر الحسين وأتباعه على المدينة المنورة مدة أحد عشر يوماً، ولما لم يجد من أهلها مناصراً ومؤيداً له، قرر الخروج إلى مكة المكرمة في موسم الحج لعله يحصل على المزيد من المؤيدين والأنصار في الموسم وفي مكة المكرمة، لكن قوات الهادي تصدت له ودارت بين الجانبين معركة غير متكافئة في وادي فخ يوم التروية سنة ١٦٩ هـ/٧٨٦ م قتل فيها الحسين وأكثر من مئة من أصحابه، وكانت هذه الوقعة من الشدة بحيث قيل لم تكن واقعة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ[٢].

وبعد ثورة الحسين بن علي لم تقم في المدينة المنورة ثورة للعلويين طيلة العهد العباسي الأول ١٣٢ - ٢٣٢ هـ/٧٥٠ - ٨٤٧ م وإن كانت قد امتدت إليها بعض ثورات العلويين في مناطق أخرى ومنها ثورة ابن طباطبا في جنوب العراق سنة ١٩٩ هـ/٨١٥ م في عهد المأمون، فقد قام القائد العسكري للثورة أبوالسرايا السري بن منصور الشيباني بإرسال أمير على المدينة المنورة من الطالبيين يدعى محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن أبي طالب فاستولى عليها بعد أن هرب أميرها، ومكث بها إلى أن قدمت قوة عباسية من قبل المأمون واستعادت السيطرة على المدينة المنورة. وهناك ثورة محمد بن جعفر (الديباجة) الذي بويع بالخلافة في مكة المكرمة سنة ٢٠٠ هـ/٨١٦ م ثم هُزم من جيوش المأمون إلى بلاد جهينة، ومن هناك حاول مرتين الاستيلاء على المدينة المنورة ولكن تصدى له أهلها وردوه على عقبيه[٣].

كما تعرضت المدينة المنورة لحملة من قبل إسماعيل بن يوسف العلوي سنة ٢٥١ هـ/٨٦٥ م الذي خرج في مكة المكرمة متزعماً جماعة من الأعراب، وارتكب فيها أعمالاً شنيعة من القتل والسلب والنهب ثم توجه إلى المدينة المنورة فتوارى عاملها الأمير علي بن الحسين، ولكن أهل المدينة المنورة عزموا على التصدي له والدفاع عن مدينتهم فأعادوا حفر الخندق، ونفروا جميعاً لمقاومته فحاصر المدينة المنورة حصاراً شديداً حتى مات أهلها جوعاً[٤]، وتعطلت الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ مدة الحصار الطويلة بسبب انشغال الناس، ثم انفرجت أزمة أهل المدينة المنورة عندما فك الحصار عنها ورحل إلى مكة المكرمة بعد أن أجهدها بالحصار والتجويع[٥].

(١) ابن الأثير، علي. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ٥، ٧٥.

(٢) أحمد السباعي، *تاريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران*، (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩ هـ/١٩٩٩م)، جـ١، ١٦١، ١٦٢.

(٣) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ٨٩ - ٩٤.

(٤) ابن حزم، علي بن أحمد: جمهرة أنساب العرب، مرجع سابق، ٤٦.

(٥) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (تاريخ ابن خلدون)*، (بيروت: دار البيان، ١٩٧٩م)، جـ٤، ١٢٧.

٢ ـ ثورة قبائل بني سليم وبني هلال:

وهما من القبائل العربية المتمركزة حول المدينة المنورة في حرة بني سليم وفي الطريق بين المدينة المنورة ومكة المكرمة، بدأ تمرد هذه القبائل يظهر بوضوح عندما أحست بضعف قوة الخلافة العباسية، فضلاً عن إهمال الخلافة لشؤون البادية واستغنائها عن خدماتهم في الجيش وإحلال العناصر التركية مكانهم، يضاف إلى ذلك ما حل ببواديهم من الجدب والقحط، لذلك بدأت تحركاتهم بقطع الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومهاجمة الأسواق وفرض سلطتهم عليها، ولم يستطع أمراء المدينة المنورة التصدي لهم بسبب عدم وجود قوة تحت أيديهم، ومع ذلك فقد حاول أمير المدينة المنورة بالتعاون مع أهلها مهاجمة تجمعات البادية في الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولكن حملته لم توفق وانهزمت بعد أن خسرت عدداً من رجالها، وهذا ما شجع البدو على مهاجمة المدينة المنورة والعبث فيها ونهب ما وصلته أيديهم، فلما بلغ ذلك الخليفة العباسي الواثق أعد حملة بقيادة أحد قادته الكبار ويدعى بغا الكبير (أبوموسى) سنة ٢٣٠ هـ/٨٤٥ م فقدم بالقوة الكافية المجهزة وهاجم مراكز تجمعات بني سليم وبني هلال وأنزل بهم الهزيمة، وقتل عدداً منهم، وقبض على مجموعات ممن عرفوا بأنهم رؤوس الفتنة والمفسدين والمشاغبين، وأودعهم سجن المدينة المنورة، وبعد ذلك قام بحملة واسعة في المناطق الواقعة حول المدينة المنورة لتنظيفها من المفسدين وقطاع الطرق، وقبض على جماعة منهم وأودعهم سجن المدينة المنورة، واستغرق ذلك بقية عام ٢٣٠ هـ/٨٤٥ م[١]، ثم واصل حملاته على بعض قبائل نجد التي تمردت على سلطة الدولة العباسية طيلة عام ٢٣١ هـ/٨٤٦ م[٢]. وبعد ذلك عاد إلى بغداد بالأسرى والرهائن الذين أودعهم السجن، وقد أثمرت جهود بغا الكبير في كسر شوكة القبائل البدوية وإراحة الناس من شرهم وعودة الهدوء والأمن إلى المدينة المنورة والمناطق المجاورة لها وطريق الحجاج والقوافل التجارية مدة طويلة.

ب ـ سياسة العباسيين وإدارتهم:

حرص العباسيون منذ قيام دولتهم على حكم المدينة المنورة حكماً مباشراً والاحتفاظ بسلطة الخلافة العباسية في هذا البلد المقدس لأهميته الدينية ومكانته الخاصة في نفوس المسلمين ما يدعم شرعية الخلافة العباسية وزعامتها في العالم الإسلامي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهي موطن العلويين الذين يرون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين وقام بعضهم بالثورة ضدهم[٣].

وقد اتبع العباسيون سياسة تقوم على تأليف قلوب الناس، وكسب رضاهم، وعدم تنفيرهم حتى لا يكونوا مع أعدائهم الخارجين عليهم من العلويين، وقد أثمرت هذه السياسة في عزوف كثير من سكان المدينة المنورة عن الاشتراك في ثورات بعض العلويين كما في ثورة محمد النفس الزكية وثورة الحسين بن علي، وحرص الخلفاء العباسيون الأوائل على زيارة المدينة

(١) الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، جـ٩، ١٢٩ - ١٣١.

(٢) ابن الأثير، علي. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ٧، ٢٠.

(٣) راجع ما سبق من ثورات العلويين.

المنورة أثناء أدائهم فريضة الحج مثل أبي جعفر المنصور وابنه المهدي وابنه هارون الرشيد، وقد أنفق هؤلاء الخلفاء في زيارتهم إلى المدينة المنورة مبالغ طائلة كنوع من الهبات والعطايا للسكان والمجاورين[١]. كما قام المهدي بإصلاحات مهمة في المدينة المنورة ومنها توسعة المسجد النبوي وإعادة بنائه على صورة لم يسبقه إليها أحد من الخلفاء، كما أمر بإقامة البريد بين المدينة المنورة ومكة المكرمة واليمن. وكان لذلك مردوده الطيب على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية في هذا البلد المقدس، وهذه السياسة العباسية نحو هذا البلد وسكانه لا تفرق بين فئة وأخرى من السكان سواء كانوا من العلويين أو من قريش أو من الأنصار إلا أن العلويين كانوا يحظون باهتمام خاص من حيث المراقبة والمتابعة من قبل الوالي ومن قبل الخليفة العباسي نفسه، ويبدو أن سياسة الخلفاء العباسيين تجاه العلويين في المدينة المنورة كانت تتغير بحسب موقف العلويين أنفسهم من الخلافة، فإذا ركنوا إلى الهدوء وعدم الخروج والثورة فإن الخليفة الموجود على رأس السلطة يحسن معاملتهم ولا يستثيرهم، أما إذا وصلت إلى الخليفة أخبار عن تحركاتهم فإنه يغير معاملته لهم ويضيق عليهم الخناق ليشعرهم بقوة الدولة، فإذا حدثت منهم ثورة فإن العباسيين كانوا يقمعونها بكل قوة، وينكلون بقادتها أشد تنكيل، ولكنهم مع ذلك لا يأخذون السكان بجريرة ثورات العلويين في المدينة المنورة.

أما في العهد العباسي الثاني فقد بدأت قبضة الخلفاء تضعف في المدينة المنورة بسبب انشغالهم بالمشكلات الداخلية، وتسلط الأتراك عليهم، واستئثارهم بالحكم دونهم، وبذلك قل اهتمام الخلفاء العباسيين بالمدينة المنورة، ولم يستطيعوا التصدي لثورات العلويين التي ازدادت في العهد العباسي الثاني وتغلبت على حكم المدينة المنورة لفترة طويلة خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري، وأخيراً عندما اتضح للعباسيين ضعفهم وعدم قدرتهم على حماية الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة أوكلوا مهمة حماية الحرمين الشريفين إلى الدولة الإخشيدية في مصر سنة ٣٣١ هـ/٩٤٣ م وذلك في عهد الخليفة العباسي المتقي الذي أقر للإخشيد بحكم مصر والشام، وأضاف إليه بلاد الحرمين الشريفين[٢].

أما إدارة المدينة المنورة فكانت في العهد العباسي الأول تُدار بوساطة أمراء من الأسرة العباسية تكريماً لهم وضماناً لبقائها تحت الحكم العباسي المباشر بوساطة أمراء العباسيين الذين هم محل ثقة الخلفاء، ولكن ذلك لا يمنع وجود بعض الأمراء من خارج البيت العباسي من قريش أو بعض قبائل العرب ممن عرفوا بالولاء والإخلاص للعباسيين.

وكانت منطقة نفوذ الوالي في بداية الدولة العباسية واسعة تشمل الحجاز بأسره واليمامة واليمن كما في ولاية داود بن علي عم أبي العباس السفاح[٣]، ثم تقلصت منطقة نفوذ والي المدينة المنورة واقتصرت على المدينة المنورة نفسها في عهود الخلفاء التالين، أما في العهد العباسي الثاني فأصبحت مكة

(١) عن هذا الموضوع انظر: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، *الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك*، تحقيق: جمال الدين الشيال. ط١، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م)، ٦٧، ٧٣، ٧٥، ٧٩.

(٢) السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ١، ٢٠٦.

(٣) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، مرجع سابق، جـ٢، ٣٣، ٣٤.

المكرمة مقر الوالي العباسي، ويرسل من قبله من ينوب عنه في المدينة المنورة، ومن الظواهر الجديدة في إمارة المدينة المنورة في العهد العباسي الثاني الإمارة الفخرية لبعض كبار رجال الدولة والقادة والأتراك مثل إيتاخ الخزري الذي ولاه الخليفة العباسي المعتصم إمارة الحج والحرمين سنة ٢٣٤ هـ/٨٤٩ م، وعج بن حاج أمير الحرمين في عهد الخليفة المعتضد سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م، ومؤتمن الخادم والمظفر بن حاج وغيرهم[١]. وتعد إمارة أغلب هؤلاء إمارة فخرية لا يباشرونها بأنفسهم بل يقيمون في عاصمة الخلافة بغداد أو في مكة المكرمة وينيبون عنهم من يقوم بأعبائها[٢].

ولقد كانت سلطات أمير المدينة المنورة محدودة، ولا يمتلك قوة الدفاع عنها لأنها ليست من بلدان الثغور، وحتى رجال الشرطة الذين يفترض أن يقوموا بحماية الأمن في المدينة المنورة كان عددهم قليلاً جداً، فاقتصر دورهم على حماية الأمير، ولعل ذلك ما شجع الأعراب ورجال القبائل على غزو المدينة المنورة ونهبها دون أن يجدوا قوة رادعة حتى بعثت الخلافة العباسية قوة لمحاربتهم والقضاء على المتمردين منهم.

ج ـ إمارة الأشراف الحسينيين ٣٥٨ ـ ٦٥٤هـ/ ٩٦٨ ـ ١٢٥٦م:

١ ـ بنو طاهر بن مسلم:

كانت المدينة المنورة تابعة للدولة الإخشيدية في مصر التي بدأ حكمها يضعف في الحجاز بعد وفاة كافور الإخشيدي، ما نتج منه قيام إمارة بني الحسن المستقلة في مكة المكرمة سنة ٣٥٨ هـ/٩٦٩ م، أما المدينة المنورة فقد استقل بها الحسينيون في الوقت نفسه وأعلنوا ولاءهم للفاطميين، وخلع طاعة العباسيين، ولم تذكر المصادر اسم القائم الحسيني في المدينة المنورة ولا تاريخ قيامه[٣]، وأول من تذكر المصادر من أمراء المدينة المنورة طاهر بن مسلم بن محمد بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى (المحدث) بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن علي بن حسين (الأعرج) بن علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٤]. وقد ذكر المؤرخون من أسلافه الحسن بن جعفر ذهب إلى مصر في عهد محمد بن طغج الإخشيدي، وأقام عنده، وأقطعه أرضاً تغل كل سنة مئة ألف دينار[٥]. وكان والده مسلم صديقاً لكافور الإخشيدي، وله مكانة عنده، وهو المدبر لأمره[٦]، غير أنه بعد وفاة كافور أصبح من المتعاونين مع الفاطميين بعد استيلائهم على مصر بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ هـ/٩٦٩ م، بل كان على رأس وجهاء مصر الذين خرجوا لاستقبال المعز لدين الله الفاطمي لدى قدومه إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م[٧] فحظي بمكانة خاصة عنده، وظل على مكانته حتى وفاته سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٧ م في عهد ابنه العزيز بالله الفاطمي[٨]. ولاشك أن ذلك ما ساعد طاهر بن مسلم على تولي إمارة المدينة المنورة عند قدومه إليها، وتقديم الحسينيين الموجودين له لمكانة والده في مصر، ويبدو أن قدوم طاهر بن مسلم إلى المدينة المنورة كان بتولية من

(١) عبدالغني، عارف أحمد. تاريخ أمراء المدينة، مرجع سابق، في موضوعات متفرقة.

(٢) السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ١، ١٦٨.

(٣) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ١٣٦.

(٤) ابن حزم، علي بن أحمد. جمهرة أنساب العرب، مرجع سابق، ٥٥؛ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، جـ٤، ١٠٩.

(٥) شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي، *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، (القاهرة: المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م)، جـ٤، ١٣٠.

(٦) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، جـ٤، ١٩٠.

(٧) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، *اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء*، تحقيق: جمال الدين الشيال وزميله، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٣م)، جـ١، ١٠٣.

(٨) يوسف بن تغري بردي، *المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي*، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي. ط١، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٧٥ هـ/١٩٥٦م)، جـ٤، ١٨٩.

المعز الفاطمي، مدعوماً بقوة فاطمية فرض بها نفوذه على الحسينيين في المدينة؛ إذ لا يمكن أن يتنازل له الحسينيون في المدينة المنورة عن الإمارة، وهم الذين قاتلوا بني عمهم الحسنيين وأخرجوهم من المدينة المنورة، فكيف يسلمون الإمارة لمغترب قادم من مصر إن لم يكن مدعوماً بولاية وقوة تحميه؟

وأياً كان الأمر فقد مكث طاهر بن مسلم في الإمارة إلى وفاته سنة ٣٨١ هـ/٩٩١ م[١]، وكان موالياً للفاطميين يقيم الخطبة لهم في البداية، غير أنه تحول عن ذلك وخطب للعباسيين سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٦ م، ولعله فعل ذلك بضغط من العباسيين أو بإغراء منهم، وقد فعل أمير مكة المكرمة عيسى بن جعفر الشيء نفسه، ما اقتضى إرسال حملة من قبل العزيز الفاطمي لإعادة الخطبة له في كل من مكة المكرمة والمدينة وذلك سنة ٣٦٥ و٣٦٦ هـ/٩٧٦ و٩٧٧ م[٢]. وفي الإطار نفسه تندرج حملة زيري بن باديس الصنهاجي التي قدمت من مصر سنة ٣٦٧ هـ/٩٧٨ م[٣].

ومن أهم الإنجازات التي تمت في المدينة المنورة خلال فترة إمارة طاهر بن مسلم بناء سور للمدينة بأمر من عضد الدولة البويهي وزير الخلافة العباسية لحماية المدينة المنورة من هجمات الأعراب الذين دأبوا على مهاجمتها ونهب ما تصل إليه أيديهم، والفرار قبل أن يطاردهم رجال الإمارة وأهل المدينة[٤].

بعد وفاة طاهر بن مسلم سنة ٣٨١ هـ/٩٩١ م خلفه في الإمارة ابنه الحسن بن طاهر، واستمر بها إلى سنة ٣٩٧ هـ/١٠٠٧ م في رواية[٥]، وفي رواية أخرى أن داود بن قاسم، وهو حفيد ابن عم أبيه انتزع الإمارة منه سنة ٣٨٣ هـ/٩٩٣ م[٦].

٢ ـ إمارة آل مهنا:

ينتسب بنو مهنا إلى مهنا بن هانئ بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر انتقلت الإمارة إليه من الحسن بن طاهر، ويورد ابن خلدون هذه الرواية[٧] لكنه ينقضها ويرجح رواية أخرى مفادها أن داود بن القاسم هذا هو من نسل الحسن بن طاهر وكان يلقب بمهنا، وعلى جميع الأحوال فأسرة مهنا هي فرع من الأسرة الحسينية ذاتها سواء المهنا بن طاهر بن مسلم أو حفيد ابن عمه، وقد حكمت هذه الأسرة المدينة المنورة عدة قرون[٨]، ويحيط الغموض بتاريخ حكام الفترة الأولى من هذه الأسرة منذ أواخر القرن الرابع الهجري إلى منتصف القرن الخامس الهجري.

وأهم حدث شهدته المدينة المنورة خلال هذه الفترة هو استيلاء أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني أمير مكة المكرمة عليها سنة ٣٩٠ هـ/١٠٠٠ م.

وقد روى بعض المؤرخين طلب الحاكم الفاطمي من أبي الفتوح نقل جسد النبي ﷺ، وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ليعود جمالها على مصر وساكنيها[٩]، وقد استغل أبوالفتوح هذه الفرصة لضم المدينة المنورة إلى نفوذه، ولم يتعرض لقبر الرسول ﷺ وصاحبيه بسوء[١٠]، لكنه لم يمكث في المدينة المنورة أكثر من شهر ثم رجع إلى مكة المكرمة فاستعاد بنو مهنا حكمهم مرة

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، جـ٤، ١٠٩.

(٢) ابن فهد، النجم عمر بن فهد. إتحاف الورى بأخبار أم القرى، مرجع سابق، جـ٢، ١٤٠.

(٣) عبدالقادر بن محمد الأنصاري الجزيري، *الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة*، تحقيق: محمد حسن محمد. ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠٢م)، جـ٢، ١٤٠.

(٤) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ١٤٠.

(٥) القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي. صبح الأعشى، مرجع سابق، جـ٤، ٢٠٤.

(٦) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، جـ٤، ١٠٩.

(٧) المرجع السابق، جـ٢، ١٤٤.

(٨) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ١٤٤.

(٩) عبدالعزيز بن عمر بن فهد، *غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام*، تحقيق: فهيم شلتوت. ط١، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، كلية الشريعة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م)، جـ١، ٤٩١، ٤٩٢.

(١٠) أحمد بن عمر الزيلعي، *مكة وعلاقاتها الخارجية* (٣٠١ - ٤٨٧ هـ). ط١، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠١ هـ/١٩٨١م)، ٤٩.

أخرى واستمروا في إمارتهم عدة قرون، أما بقية أمراء المدينة المنورة في هذه الفترة فلا تذكر المصادر إلا عدداً قليلاً منهم دون تفاصيل ومنهم عبيد الله بن مهنا، ثم أخوه الحسين بن مهنا، وقد انحصرت الإمارة في نسله لفترة من الزمن لم يحددها المؤرخون ولكنهم ذكروا له ولدين هما: مالك ومهنا الثاني الذي خلف والده على الإمارة لذلك أطلق على أمراء المدينة المنورة منذ ذلك الوقت بنو مهنا[١].

وكما تعرضت المدينة المنورة لغزوة أبي الفتوح أمير مكة المكرمة سنة ٣٩٠ هـ/١٠٠٠ م، فقد تعرضت لغزوة جديدة في عهد خلفه وابنه شكر بن أبي الفتوح، الذي استطاع في هذه الغزوة بعد حروب وخطوب مع بني مهنا الاستيلاء على المدينة المنورة والتغلب على بني مهنا وطردهم منها، وضمها إلى إمارة مكة المكرمة، إذ جمع إمارة الحجاز مدة ٢٣ سنة إلى وفاته سنة ٤٥٣ هـ/١٠٦١ م[٢]. لكن بني مهنا لم يلبثوا أن عادوا إلى إمارتهم في المدينة المنورة بعد وفاة شكر بن أبي الفتوح، وظلوا متمسكين بولائهم للفاطميين على الرغم من انقطاع المعونات التي كانت تصلهم من مصر، ولم يغيروا الخطبة للعباسيين كما فعل أمير مكة المكرمة أبوهاشم محمد بن جعفر ولم تنفع معهم الإغراءات المالية التي وعدهم بها السلطان السلجوقي ألب أرسلان[٣]، لذلك ساند العباسيون أبا هاشم أمير مكة المكرمة بقوة من الأتراك توجه بها إلى المدينة المنورة بعد موسم الحج سنة ٤٦٣ هـ/١٠٧١ م، فاستولى عليها، وأقام بها الخطبة للعباسيين[٤]، ولكنه أقام أحد بني مهنا في الإمارة بالمدينة المنورة، وقد سار أمير المدينة المنورة على نفس سياسة أبي هاشم في فرض الضرائب والمكوس لتعويض النقص الحاصل من انقطاع الصلات الفاطمية، فأرهق كاهل الناس، لذلك أعانوا محيطاً العلوي الثائر الذي خرج في المدينة المنورة سنة ٤٦٩ هـ/١٠٧٧ م، وطرد أميرها الحسين بن مهنا، وأقام الخطبة للفاطميين.

أما الحسين بن مهنا فإنه لجأ إلى السلطان السلجوقي ملكشاه، ومحيط العلوي المذكور ليس من أهل المدينة المنورة بل هو قادم من خارجها كما تشير إلى ذلك عبارات المؤرخين الذين ذكروا خبر ثورته[٥] وقد يكون من قبل الفاطميين، ومكث محيط العلوي في الإمارة بالمدينة المنورة فترة من الزمن، ثم تسلمها منصور بن عمارة بن مهنا بعد وفاة محيط العلوي، أو تنازله عنها طواعية، وعادت الخطبة للعباسيين، وانقطع الولاء للفاطميين نهائياً، وتولى الإمارة بعد منصور بن عمارة ابنه مهنا عام ٥٠٧ هـ/١١١٣ م[٦]. ولم تذكر المصادر أحداً من أمراء المدينة المنورة بعده لفترة ليست يسيرة؛ إذ إن أول من أشارت إليه المصادر من بني مهنا القاسم بن مهنا الذي حكم المدينة المنورة إلى سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م[٧].

ومن أهم الأحداث التي شهدتها المدينة المنورة خلال هذه الفترة تجديد سورها القديم، وإصلاح ما تهدم منه بأموال أرسلها الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني صاحب الموصل وذلك سنة ٥٤٥ هـ/١١٥٠ م، لحماية المدينة المنورة من هجمات الأعراب المفسدين الذين نقبوا أجزاء منه ليهاجموا المدينة المنورة من خلالها[٨].

(١) أحمد بن محمد صالح الحسيني، *المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي*. ط١، (بيروت: دار الكتاب، ١٣٩١ هـ/١٩٧٢م)، ١١١ - ١١٣.

(٢) تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي، *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، تحقيق: فؤاد سيد، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٨٣ هـ/١٩٦٤م)، جـ٥، ١٤.

(٣) ابن الأثير، علي. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ٨، ١٠٧.

(٤) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ٣، ٥٥٢.

(٥) عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*. ط١، (حيدر آباد، الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧ هـ)، جـ٨، ٢٠٤؛ يوسف بن تغري بردي، *النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة*، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، (د.ت)، جـ٥، ١٠٤.

(٦) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ١٦٧، ١٦٨.

(٧) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، جـ٤، ١١٠.

(٨) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، ١٧١، ١٧٢.

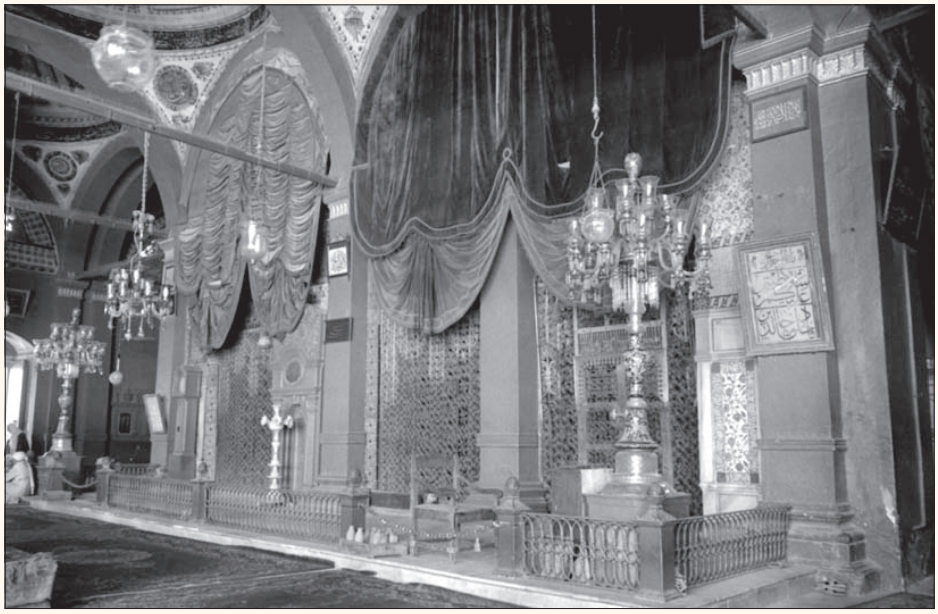

الحجرة النبوية الشريفة

أ) إمارة قاسم بن مهنا:

وهو أول من أشارت إليه المصادر من أمراء المدينة المنورة بعد فترة الاضطراب المذكورة آنفاً، وقد ولاه الخليفة العباسي المستضيء ٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ/١١٧١ ـ ١١٧٩ م، ويبدو أنه كان متولياً الإمارة قبل هذا التاريخ بدليل ما ذكره المؤرخون من حادثة وقعت في الحجرة النبوية في عهده سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣ م[١] فتكون بذلك تولية المستضيء له تجديداً لولايته وليست أول ولاية له.

اشتهر القاسم بن مهنا بأنه كان صديقاً مقرباً إلى صلاح الدين الأيوبي، شارك معه في حروبه ضد الصليبيين، وحضر معه حصار عكا سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨ م[٢]، وهذا يدل على حرص صلاح الدين الأيوبي على كسب ود أمراء المدينة المنورة.

ومن الغريب أن بعض المصادر تذكر أن عيسى بن فليته أمير مكة المكرمة ٥٥٦ ـ ٥٧١ هـ/ ١١٦١ ـ ١١٧٥ م كان يلقب بأمير الحرمين[٣] في الوقت الذي لم تذكر له حملة إلى المدينة المنورة أو أنه استولى عليها بل على العكس من ذلك تماماً نجد أمير المدينة المنورة القاسم بن مهنا قد شارك في حملة عباسية على مكة المكرمة سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥ م بقيادة طاشتكين، أمير الحج العراقي، نجحت في طرد أمير مكة المكرمة وتولية قاسم بن مهنا إمارتها مدة ثلاثة أيام ثم اعتذر عنها، فولاها طاشتكين لداود بن عيسى[٤].

ومن الحوادث المهمة التي وقعت في المدينة المنورة في عهد قاسم بن مهنا:

١) محاولة سرقة جسد النبي ﷺ:

وهي قصة مشهورة متعلقة بمحاولة اثنين من النصارى سرقة جسد النبي ﷺ سنة ٥٥٧ هـ/١١٦٢ م بوساطة نفق حفراه يؤدي إلى القبر من حجرة استأجراها في منطقة قريبة من الحجرة الشريفة، وكانا متخفيين في زي ناسكين من المغرب، وقد

(١) الحسين بن عمر المراغي، تحقيق *النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة*، تحقيق: محمد عبدالجواد الأصمعي. ط٢، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٤٠١ هـ/١٩٨١م)، ٨٢.

(٢) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، جـ٤، ١٠٩؛ القلقشندي، شهاب الدين. صبح الأعشى، مرجع سابق، جـ٤، ٣٠٠.

(٣) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ٣، ٣٨٧.

(٤) ابن فهد، النجم عمر بن فهد. إتحاف الورى، مرجع سابق، جـ٢، ٥٣٧، ٥٣٨.

ألهم الله السلطان نور الدين محمود زنكي[١] اكتشاف هذه المؤامرة بالرؤيا التي رآها في منامه، إذ رأى النبي ﷺ يطلب منه حمايته من رجلين ويشير إليهما، فبادر بالقدوم إلى المدينة المنورة، فأجرى تحرياته حتى اكتشف الرجلين وأقرا بما خططا له من نبش قبر النبي ﷺ، وسرقة جسده الشريف بأمر من بعض ملوك النصارى نكاية بالمسلمين فأمر بقتلهما، وأمر بحفر خندق عميق حول الحجرة الشريفة وملأه بالرصاص حتى لا تتكرر مثل هذه المحاولة مرة أخرى[٢]. وقد تصدق نور الدين محمود في زيارته تلك للمدينة المنورة بصدقات عظيمة، كما أمر ببناء سور ثانٍ للمدينة خارج السور القديم فتم ذلك سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣ م[٣].

٢) حملة أرناط:

وهي حملة صليبية قام بها أحد أمراء الصليبيين الحاقدين (صاحب قلعة الكرك) ويدعى في المصادر الإسلامية (أرناط) وذلك سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م في البحر الأحمر، وقد توجه قسم من الغزاة الصليبيين إلى المدينة المنورة حتى أصبحوا على مقربة منها وهددوها، ولكن الله جلت قدرته كف شرهم وقضى عليهم بحملة أيوبية مضادة أفسدت مخططات أرناط الخبيثة، وسيق بعض الذين تم القبض عليهم قرب المدينة المنورة إلى منى لينحروا فيها يوم النحر، وقتل الباقون في مصر بعد أن طيف بهم في شوارع مدنها، أما أرناط فذاق عاقبة خبثه ومكره بالإسلام والمسلمين بالقتل على يد صلاح الدين الأيوبي في أعقاب معركة حطين المشهورة سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م[٤].

ب) إمارة سالم بن قاسم
٥٨٣ - ٦١٢هـ/١١٨٧ - ١٢١٥م:

خلف والده في إمارة المدينة المنورة، وكان شجاعاً شاعراً، وسار على سياسة والده نفسها في إقامة علاقات طيبة مع الأيوبيين ومع الخلافة العباسية، وقد تعرضت المدينة المنورة في غيبته في أحد أسفاره إلى غزوة من الأعراب القاطنين إلى جوارها، وقد حاول شقيقه هاشم بن قاسم الدفاع عنها ولكنهم غلبوه بكثرتهم، ودخلوا المدينة المنورة فأفسدوا فيها سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٤ م ولما عاد سالم إلى المدينة المنورة عمل على إصلاح ما أفسده الأعراب بالأموال التي جلبها معه[٥].

وإذا كانت المدينة المنورة قد عانت في غزوة الأعراب تلك امتحاناً عسيراً فإنها قد واجهت امتحاناً آخر خلال إمارة سالم بن قاسم تمثل في غزوة قتادة بن إدريس الحسني أمير مكة المكرمة ومؤسس طبقة الأشراف الرابعة (بني قتادة) سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م[٦]. والحقيقة أن قتادة بن إدريس لم يكتف بحملة واحدة على المدينة المنورة بل قام بعدة حملات، منها اثنتان في إمارة سالم بن قاسم الأولى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٥ م، والثانية سنة ٦١٢ هـ/١٢١٥ م، وكان يطمع في ضم إمارة المدينة المنورة ليفوز بلقب أمير الحرمين، ولكنه وجد في سالم بن قاسم خصماً عنيداً نجح بجميع الوسائل الحربية والسياسية في تحويل الانتصار الذي حققه قتادة في حملته الأولى إلى هزيمة، ورد له الصاع صاعين باللحاق به إلى مكة المكرمة وفرض الحصار عليها[٧].

أما الحملة الثانية فكانت سنة ٦١٢ هـ/١٢١٥ م، قام بها قتادة بن إدريس على

(١) الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، ولد في حلب سنة ٥١١ هـ (١١١٧م)، وقد انتقلت إليه إمارة حلب بعد وفاة والده سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦م) ثم وسع إمارته وضم دمشق. تولى قيادة الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين وحقق انتصارات مهمة عليهم، وخطب له في الحرمين الشريفين. مات في قلعة دمشق سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤م)، انظر: شهاب الدين عبدالرحمن بن إبراهيم المقدسي، *الروضتين في أخبار الدولتين*، (بيروت: دار الجيل، د.ت)، جـ١، ٢٧ - ٣٠؛ أحمد بن محمد بن خلكان، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د.ت)، جـ٥، ١٤٨ - ١٨٩.

(٢) علي بن عبدالله بن أحمد السمهودي، *خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى*، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢م)، ٣١٤، ٣١٥.

(٣) إبراهيم رفعت باشا، *مرآة الحرمين*، (د. ت)، جـ٢، ٤١١.

(٤) ابن الأثير، علي. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ١١، ٤٩٠.

(٥) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ١٩٣.

(٦) السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ١، ٢٥٩.

(٧) ابن الأثير، علي. الكامل في التاريخ، مرجع سابق، جـ١٢، ٢٠٥؛ السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ١، ٢٠٣.

المدينة المنورة مستغلاً فرصة غياب سالم بن قاسم عنها مع الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق الذي حج سنة ٦١١ هـ/١٢١٤ م وعاد بفكرة سيئة عن قتادة، وقد عزم على معاقبته[١]، فجهز مع سالم جيشاً من التركمان لمحاربة قتادة، ولكن سالماً توفي في الطريق إلى المدينة المنورة، وقد تصدى لحملة قتادة أهل المدينة المنورة بقيادة قاسم بن جماز - ابن أخ سالم - ومنعوه من دخول المدينة المنورة، ثم وصل الجيش الذي بصحبة سالم فتولى قاسم بن جماز قيادته، وطارد به قتادة، وأنزل به هزيمة كبيرة حتى كاد قتادة يقتل لولا أن أنقذه أحد فرسانه وأردفه على فرسه وفر به، وغنموا منهم غنائم كثيرة[٢].

ج) إمارة قاسم بن جماز:

يبدو أن قاسم بن جماز كان قد تولى إمارة المدينة المنورة خلفاً لهاشم بن قاسم أمير المدينة المنورة الذي كان ينوب عن أخيه سالم بن قاسم في إحدى سفراته، وقد قتل هاشم في إحدى غارات الأعراب على المدينة المنورة سنة ٥٩٠ هـ/١١٩٤ م، فلما عاد سالم تولى الإمارة حتى وفاته في طريق عودته من الشام سنة ٦١٢ هـ/١٢١٥ م فوقع الاختيار على قاسم ليتولى خلفاً له[٣]، وعلى الفور كوّن قوة من أهل المدينة المنورة إضافة إلى التركمان الذين قدموا من الشام مع سالم للدفاع عن المدينة المنورة في وجه الحملات التي يرسلها قتادة بن إدريس من جهة ومن جهة أخرى للدفاع عنها ضد غارات الأعراب التي لم تنقطع، وقد نجح سالم في ذلك وحقق انتصارات مهمة على قتادة بن إدريس وعلى الأعراب، ما أتاح الفرصة لأن تعيش المدينة المنورة في سلام، وتنعم بالهدوء والاستقرار، فانعكس ذلك على الحياة العامة، فقد تحسنت الحياة الاقتصادية، وبخاصة التجارة، ونشطت الحركة العلمية في المسجد النبوي، وفي المدارس التي أنشئت حوله، وفي بعض الرباطات[٤].

وإلى جانب النجاحات العسكرية التي حققها، فإنه أقام علاقات متوازنة مع الأيوبيين بفرعيهم في مصر والشام، واستطاع أن يجنب إمارته الانحياز إلى أحد الفرعين المتنافسين، ما أكسبه رضا الجميع، غير أنه لم يستطع المحافظة على ذلك التوازن ولم يلبث أن انحاز إلى جانب الأيوبيين في الشام، لقربهم من المدينة المنورة، ولعلاقة أسلافه بهم، خصوصاً أنه قد استجد في إمارته حدث مهم يتمثل في استيلاء الملك المسعود بن الكامل ملك اليمن على مكة المكرمة سنة ٦١٩ هـ/١٢٢٢ م وإسقاط إمارة بني قتادة فيها؛ إذ خرج منها الحسن بن قتادة وولاها للأمير عمر بن علي بن رسول بعد عودته إلى اليمن[٥]. وهذا العمل من قبل الملك المسعود بن الكامل يندرج في إطار التنافس بين الفرعين الأيوبيين على النفوذ في الحجاز[٦]، وهذا ما جعل قاسماً يخرج عن حياده ويقود حملة سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م إلى مكة المكرمة لانتزاعها من نائب الملك المسعود بن الكامل، غير أن نائب الملك المسعود لم يمكنه من دخول مكة المكرمة على الرغم من حصارها نحو شهر، بل خرج لمواجهته خارج مكة المكرمة ودارت بينهما معركة قتل فيها قاسم بن جماز وانهزمت الحملة لتعود إلى المدينة[٧].

ويرى أحمد السباعي أن الذي دفع الأمير قاسم لغزو مكة المكرمة هم الأيوبيون في

(١) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، *الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك*، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٥م)، ٧٦.

(٢) ابن فهد، النجم عمر بن فهد. اتحاف الورى، مرجع سابق، جـ٣، ٢١، ٢٢.

(٣) هذه الرواية الراجحة التي ذكرها كل من الفاسي وابن فهد، وهي أحرى بالقبول من رواية السخاوي التي تفيد أنه تولى بعد أبيه جماز، ويبدو أن الأمر فيه التباس بسبب وجود قاسم في إمارة المدينة لبعض الوقت نيابة عن سالم بن قاسم بعد مقتل أخيه هاشم على أيدي الأعراب.

(٤) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٢٠٤، ٢٠٩.

(٥) تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت)، جـ٢، ١٩٩.

(٦) عبدالرحمن بن مديرس المديرس، *المدينة المنورة في العصر المملوكي*. ط١، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١م)، ٤٨، ٤٩.

(٧) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٢٠٩، ٢١٠.

مصر؛ لأن مكة المكرمة في ذلك الحين كانت تابعة لهم، والأصح أن يقال إن الذي دفعه إلى ذلك هم الأيوبيون في الشام، وبخاصة الملك المعظم عيسى صاحب دمشق الذي كان على خلاف مع أخيه الملك الكامل صاحب مصر[١].

وفي الوقت نفسه يصعب قبول السبب الذي ذكره بعض المؤرخين[٢] أن راجح بن قتادة هو الذي استنصر الأمير قاسم لتخليص مكة المكرمة من حكم الملك المسعود وإعادتها إلى بني قتادة، لأن راجح بن قتادة هو الذي حرض الملك المسعود بن الكامل حاكم اليمن على غزو مكة المكرمة وإسقاط حكم أخيه الحسن الذي استأثر بالحكم على الرغم من أنه أصغر من راجح، وقد شارك راجح مع الملك المسعود بن الكامل في حملته وساعده على دخول مكة المكرمة أملاً في أن يؤول الحكم إليه، ولكن الملك المسعود لم يحقق أمله ذلك بل كافأه بإقطاعات صغيرة في بعض أودية تهامة جنوب مكة المكرمة[٣]، وما كان الأمير قاسم ليقوم بهذه الحملة من أجل بني قتادة فهو لم ينس بعد موقف قتادة وأبنائه من المدينة المنورة وحملاتهم المتعددة عليها طيلة حكم قتادة في مكة المكرمة[٤]. ويذكر جميل حرب أن الذي دفع الأمير قاسم بن جماز للقيام بهذه الحملة خوفه من طمع الملك المسعود في المدينة المنورة بعد أن تم له الاستيلاء على مكة المكرمة[٥]؛ وهو تعليل مقبول لكن الغالب أن أيوبيي الشام قد صوروا له هذا التخوف من طمع المسعود في المدينة المنورة، لأنه لو كان ذلك وارداً في حسبان المسعود لما رجع إلى اليمن قبل أن يجهز على إمارة المدينة المنورة وينهي حكم بني مهنا فيها ويضمها إلى نفوذه كما فعل في إمارة مكة المكرمة.

وأياً كان السبب الذي دفع الأمير قاسم بن جماز للقيام بهذه الحملة، فقد دفع حياته ثمناً لها وقتل في المعركة التي وقعت بينه وبين نائب الملك المسعود على مكة المكرمة عمر بن علي بن رسول خارج أسوار مكة المكرمة سنة **٦٢٢ هـ/١٢٢٥ م**[٦].

وردت الإشارة في بعض المصادر[٧] إلى أن قاسماً قتل على يد قبائل بني لام[٨] وهو في طريقه إلى العراق بعد أن مكث في الحكم **٢٥** سنة[٩]، وهنا خطأ مزدوج، فإن الذي قتله بنو لام هو خلفه في حكم المدينة المنورة شيحة بن هاشم بن قاسم وهو في طريقه إلى العراق لزيارة الخليفة العباسي سنة **٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م**[١٠]. أما الخطأ الثاني فهو القول إنه مكث في الحكم **٢٥** سنة مع أن الثابت أن قاسم بن جماز قد تولى حكم المدينة المنورة بعد وفاة سالم بن قاسم سنة **٦١٢ هـ/١٢١٥ م**، أما حكمه السابق في المدينة المنورة فلم يكن أميراً بل نائباً عن الأمير سالم في غيابه بعد مقتل أخيه هاشم على يد الأعراب سنة **٥٩٠ هـ/١١٩٤ م**، ولم يدم حكم قاسم في المدينة المنورة إلا فترة وجيزة انتهت بعودة سالم كما سبق بيانه، ويبدو أنه حصل التباس بين مدة حكم قاسم بن جماز وبين مدة حكم جده مهنا الذي حكم المدينة المنورة **٢٥** سنة متواصلة دون انقطاع[١١].

د) إمارة شيحة بن هاشم ٦٢٤ ـ ٦٤٧هـ/١٢٢٧ ـ ١٢٤٩م:

هو شيحة بن هاشم (سالم) بن قاسم بن مهنا بن داود بن قاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر بن عبدالله بن الحسين بن علي بن أبي طالب، يكنى أبا عيسى[١٢].

(١) السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ١، ٢٧٠، ٢٧١.

(٢) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، *السلوك لمعرفة دول الملوك*، تحقيق: محمد مصطفى زيادة. ط٢، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٦ هـ/١٩٥٦م)، جـ١، قسم ١، ٢١٩.

(٣) ابن فهد، النجم عمر بن فهد. إتحاف الورى، مرجع سابق، جـ٣، ٢٨.

(٤) راجع ما سبق من حملات قتادة على المدينة المنورة.

(٥) جميل حرب محمود حسين، *الحجاز واليمن في العصر الأيوبي*. ط١، (جدة: تهامة للنشر والتوزيع، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م)، ٥٦.

(٦) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ٢١٠.

(٧) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ٣، ٣٩٩.

(٨) بنو لام بطن من جديلة من طيء بن زيد كهلان القحطانية، كانت مساكنهم المدينة المنورة وما حولها وجبلي أجا وسلمى على الطريق بين العراق ومكة المكرمة. انظر: عمر رضا كحالة، *معجم قبائل العرب القديمة والحديثة*. ط٣، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م)، جـ٣، ١٠٠٧، ١٠٠٨.

(٩) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ٣، ٣٩٩.

(١٠) ابن فهد، عبدالعزيز بن عمر. غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، مرجع سابق، جـ١، ٦٢٨، ٦٢٩.

(١١) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ٣، ٤٠٤.

(١٢) ابن فهد، عبدالعزيز بن عمر. غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، مرجع سابق، جـ١، ٦٢٨.

تولى الإمارة بالقوة بعد مقتل أمير المدينة المنورة قاسم بن جماز سنة ٦٢٤ هـ/١٢٢٧ م، وكان شيحة مقيماً بين أتباعه من الأعراب خارج المدينة المنورة، فلما بلغه مقتل قاسم بن جماز جمع أنصاره من الأعراب وتوجه بهم إلى المدينة المنورة، واستولى عليها، وانفرد بحكمها هو وبنوه مدة من الزمن.

كان يميل إلى المسالمة ونبذ الحرب، فغير السياسة العسكرية التي انتهجها سلفه قاسم بن جماز، وأوقف الصراع مع حكام مكة المكرمة من قبل أيوبيي اليمن، وكان موالياً للملك الكامل الأيوبي صاحب مصر[١]، إلا أن ظروف الصراع بين الدولة الأيوبية في مصر والدولة الرسولية القائمة في اليمن على السيطرة على مكة المكرمة فرضت عليه التخلي عن السياسة السلمية التي عزم على انتهاجها، فانخرط في الصراع بين الجانبين، وكان يعمل إلى جانب الأيوبيين في مصر، وقد شارك في بعض الحملات الأيوبية القادمة من مصر لإخراج جيوش الرسوليين من مكة المكرمة خلال السنوات ٦٢٩ هـ و٦٣٧ هـ و٦٣٨ هـ/١٢٣٢ م و١٢٤٠ م و١٢٤١ م[٢].

وقد ثار ضده أحد الجمامزة لاستعادة الإمارة التي كانت لهم في المدينة المنورة قبل أن يستولي عليها شيحة، وقد اختلفت المصادر في اسم هذا الثائر هل هو عمر أو عمير بن قاسم بن جماز الذي قام بثورته سنة ٦٣٩ هـ/١٢٤٢ م، واستولى على الإمارة بالطريقة نفسها التي استولى عليها شيحة من قبل، أي بمساعدة الأعراب من البادية، لكن شيحة نجا من الموت وهرب من المدينة المنورة، واختبأ في بعض التلال، وقيل في مزارع النخيل خارج المدينة المنورة حتى نهار اليوم التالي، ثم توجه إلى اتباعه ومؤيديه من الأعراب الذين ساعدوه في الاستيلاء على الإمارة سنة ٦٢٤ هـ/١٢٢٧ م، وكرّ بهم على المدينة المنورة، واستولى عليها، وطرد الثائر عمر أو عمير[٣]، وبعد ذلك استمر في الإمارة إلى مقتله سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م على يد قبيلة بني لام انتقاماً لقتله أحد زعمائهم أثناء غارة لهم على المدينة المنورة، وكان قتله وهو في طريقه إلى العراق لزيارة الخليفة العباسي المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين[٤].

خامساً ـ العهد المملوكي ٦٥٦ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٨ ـ ١٥١٧م:

أ ـ إمارة عيسى بن شيحة ٦٤٧ ـ ٦٤٩هـ/١٢٤٩ ـ ١٢٥١م:

هو عيسى بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر بن عبدالله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٥].

كان عيسى على صلة بالحكم في المدينة المنورة منذ أيام والده، فقد كان ينيبه عليها إذا غاب وكان مجتبى والده وحِبه، وعلى الملك أمينه[٦]، وعندما قتل والده شيحة على يد بني لام سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م، أمسك بزمام الأمور في المدينة المنورة وحل محله في الإمارة، وسار على سياسة والده نفسها في انتهاج السياسة السلمية ونبذ السياسة الحربية، وأقام علاقات ودية مع إمارة مكة المكرمة بعد عودة بني قتادة للحكم فيها، كما نجح في إقامة علاقات طيبة وودية مع الأيوبيين في مصر والشام، وكان ذلك في آخر عمر الدولة الأيوبية في مصر التي سقطت على أيدي المماليك في السنة التالية لحكمه[٧]، وقد

(١) ابن فهد، عبدالعزيز بن عمر. غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، مرجع سابق،جـ٢، ٦٢٧.

(٢) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ٢، ٢٢٦؛ الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد. شفاء الغرام، مرجع سابق، جـ١، ٦٢٧.

(٣) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ٢، ٢٢٦.

(٤) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ٢٢٠.

(٥) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ٣، ٣٨٢.

(٦) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ٢٢١.

(٧) المديرس، عبدالرحمن بن مديرس. المدينة المنورة في العصر المملوكي، مرجع سابق، ٣١.

واجه شيحة منذ بداية حكمه بعض المشكلات ومنها:

- ثورة بني جماز لاستعادة الإمارة التي انتزعها والده منهم، فقد جاء جماعة منهم إلى المدينة المنورة وحاولوا اغتنام الفرصة للانقضاض على الإمارة بمساعدة بعض أهل المدينة المنورة من أنصارهم، ولكن عيسى كان متيقظاً لهم فكشف أمرهم وقبض عليهم وسجنهم، ويقال إنه قتلهم[١].
- منافسة أخويه منيف وجماز، إذ كان عيسى يلاحظ حسد أخويه منيف وجماز له على الإمارة، لكون والده فضله عليهما وعلى بقية إخوته، لذلك خشي منهما فقام بإخراجهما من المدينة المنورة دفعاً لشرهما، لكنهما تآمرا عليه، ودخلا القصر بمساعدة وزيره، وقبضا عليه، وأودعاه السجن سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥١م، وتداولا الإمارة، فبقي سجيناً لفترة من الزمن، ثم أطلق سراحه، فعاش في ظل إمارة أخيه جماز حتى توفي سنة ٦٨٣ هـ/١٢٨٤م[٢].

ب ـ إمارة منيف وجماز ابني شيحة ٦٤٩ ـ ٦٥٧هـ/١٢٥١ ـ ١٢٥٩م:

منيف وجماز هما ابنا شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن القاسم، بدأ الحكم شراكة بينهما، وكان منيف بن شيحة هو البادئ في الإمارة، وبقي فيها إلى وفاته سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م، ثم خلفه أخوه جماز حسب رواية السخاوي[٣]. بينما يذكر ابن خلدون أن أول من وليها جماز بن شيحة بعد القبض على أخيه عيسى وسجنه سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥١ م[٤].

ويبدو من ملاحظة اختلاف المؤرخين فيمن ولي الأول، واختلافهم في تحديد سنوات حكم الأخوين أن الإمارة كانت شراكة بينهما في الفترة الأولى من ٦٤٩ هـ/١٢٥١ م إلى وفاة منيف سنة ٦٥٧ هـ/١٢٥٩ م، وهذه الشراكة كانت على نظام التناوب كل ٤ سنوات، فقد حكم في الفترة الأولى جماز من سنة ٦٤٩ ـ ٦٥٣ هـ/ ١٢٥١ ـ ١٢٥٥ م، ثم تركها لأخيه منيف الذي حكم بدوره أربع سنوات من سنة ٦٥٣ ـ ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٥ ـ ١٢٥٩ م ثم توفي فانفرد جماز بعد ذلك بالحكم إلى تنازله عن الحكم لابنه سنة ٧٠٠ هـ أو ٧٠٢ هـ/١٣٠١ م أو ١٣٠٣ م[٥].

ومن الأحداث المهمة التي وقعت في المدينة المنورة خلال فترة حكم منيف ٦٥٣ ـ ٦٥٧ هـ/١٢٥٥ ـ ١٢٥٩ م ظهور النار في شرق المدينة المنورة في منطقة الحرة الشرقية التي عرفت في التاريخ بنار الحرة أو نار الحجاز، وهي ثوران بركاني في منطقة الحرة الشرقية في شهر رجب عام ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م[٦]، وكان قد سبق ظهور الثوران البركاني سلسلة من الزلازل الخفيفة لعدة أيام، ثم بدأ البركان بقذف كميات هائلة من الرماد من ضحى يوم الجمعة الخامس من شهر جمادى الآخرة سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م، وتبعها تدفق الحمم البركانية الهائلة، فسالت مع المنخفضات حتى اقتربت من المدينة المنورة، ثم صرفها الله سبحانه وتعالى إلى جهة الشمال حيث تجمعت في منخفض من الأرض هناك، وقد استمر تدفق الحمم من تلك الفوهة البركانية مدة ثلاثة أيام ثم توقفت، وجمد ما سال منها من اللابة البركانية محدثة تغييرات على طبيعة المنطقة[٧]. وقد أحدثت هذه الظاهرة الكونية في نفوس سكان المدينة

(١) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ٣، ٣٨٣.

(٢) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، جـ٤، ١١٠.

(٣) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ٢، ٣٢٧.

(٤) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، مرجع سابق، جـ٤، ١١٠.

(٥) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد. العقد الثمين، مرجع سابق، جـ٣، ٤٣٦، ٤٣٧.

(٦) حمد الجاسر، *رسائل في تاريخ المدينة*. ط١، (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٢ هـ)، ٩٨.

(٧) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل للمدينة، مرجع سابق، جـ٢، ٢٢٢. وتفاصيل هذه الحادثة مفصلة في المصادر والبحوث والدراسات التي تحدثت عن الموضوع.

المنورة تأثيراً كبيراً امتزجت فيها الدهشة من هذه الظاهرة الفريدة التي لم يعتادوا عليها بالخوف من قدرة خالقها، وخشية أن تكون هذه عقوبة إلهية، وإنذاراً بقرب قيام الساعة للحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن رسول الله ﷺ، قال: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»[١]، فعدها الناس علامة على قرب القيامة، فبادروا بالتقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة والإقلاع عن المعاصي، وبدأهم أمير المدينة المنورة منيف بن شيحة فأعتق مماليكه، ورد على الناس مظالمهم، وأبطل المكس[٢] وتبعه بقية السكان، «وقد تاب جميع أهلها، وما بقي يسمع فيها رباب ولا دف ولا شرب»[٣].

وتبع ذلك بأقل من شهرين، وفي أول ليلة من شهر رمضان المبارك عام ٦٥٤ هـ/١٢٥٦ م وقوع حريق المسجد النبوي بقضاء وقدر من الله تعالى حيث اشتعلت النار في أحد المخازن من سراج مع أحد الفراشين كان يخرج القناديل لتعليقها في الليلة الأولى من الشهر الكريم، وقد انتشرت النار في سطح المسجد حتى أتت عليه بكامله ولم يسلم من الحريق في المسجد إلا قبة صغيرة كانت مستودعاً لذخائر المسجد النبوي[٤]، فكانت فاجعة أخرى لأهل المدينة المنورة لا تقل عن فاجعة النار (نار الحرة) التي سبق الحديث عنها، فقد كان هذا العام عام ابتلاء ومحن لأهل بلد نبيه ﷺ.

وكتب الأمير منيف بن شيحة إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله يخبره بالحدث، ويطلب منه المساعدة بإعادة بناء المسجد، فاستجاب الخليفة، وبعث المعدات اللازمة، والأيدي الفنية، والأموال مع قافلة الحج العراقية، وبدأ العمل بالبناء بعد انتهاء موسم الحج ومع بداية العام الجديد ٦٥٥ هـ، ثم أكمل المنصور علي بن أيبك الصالحي سلطان المماليك في مصر البناء بعد مقتل الخليفة العباسي على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ وساهم في إعادة البناء بعض قادة المسلمين منهم الملك المظفر يوسف ملك الدولة الرسولية في اليمن[٥].

ج ـ إمارة جماز بن شيحة ٦٥٧ ـ ٧٠٤هـ/١٢٥٩ ـ ١٣٠٥م:

هو أبوسند جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا الحسيني، وهو جد الجمامزة الذين تواصل الحكم فيهم في إمارة المدينة المنورة إلى نهاية العهد المملوكي ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م من دون انقطاع وعرفوا بالجمامزة لأنهم جميعاً من نسل جماز المذكور[٦]. وهذه هي فترة حكم جماز الثانية التي حكم فيها المدينة المنورة منفرداً إلى سنة ٦٦٦ هـ/١٢٦٨ م، إذ ثار عليه ابن أخيه مالك بن منيف، وانتزع الإمارة منه فخرج من المدينة المنورة، واستنجد بأمير مكة المكرمة أبي نمي، وبغيره من العرب، فساروا إلى المدينة المنورة لاستخلاصها من مالك بن منيف، فلم يقدروا على إخراجه منها، فلما يئسوا رحل أبونمي صاحب مكة المكرمة إلى بلده، وعاد غيره من العرب إلى قبائلهم، وبقي جماز في جماعته لا يقدر على فعل شيء، وأخيراً تصالح مع ابن أخيه مالك الذي تنازل له عن الإمارة في المدينة المنورة لما رأى حرصه الشديد عليها[٧]، وللمصادر المملوكية رواية مغايرة لما ذكر ومفادها أن السلطان الظاهر بيبرس

(١) البخاري، محمد بن إسماعيل. الجامع الصحيح، مرجع سابق، الحديث رقم ٧١١٨.

(٢) السمهودي، علي بن عبدالله. خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، ٨٢. والمكس هو كل ضريبة غير شرعية، وقد اعتاد أمراء مكة المكرمة والمدينة على أخذ مثل هذا النوع من الضرائب على الحجاج والزائرين والبضائع.

(٣) ابن كثير، إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية، مرجع سابق، جـ١٧، ٣٣٦.

(٤) ابن تغري بردي، يوسف. النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، مرجع سابق، جـ٧، ٣٦؛ الجاسر، حمد. رسائل في تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٩٨.

(٥) علي حافظ، *فصول في تاريخ المدينة*. ط٢، (جدة: شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م)، ٢٧ ـ ٢٩.

(٦) ذكر السخاوي في ترجمة جماز بن قاسم بن مهنا (جـ١، ٤٢٦) أنه هو جد الجمامزة، وهذا لا يستقيم لعدة أسباب منها: إن جمازاً المذكور شبه مجهول بين أمراء المدينة ولا نعرف شيئاً عن إمارته أو حياته، وكل ما ذكره عنه السخاوي أنه تولى الإمارة بعد وفاة والده قاسم بن مهنا في حين تذكر المصادر الأخرى أن الذي تولى بعد القاسم بن مهنا هو ابنه سالم بن قاسم، ولا تذكر شيئاً عن جماز. انظر: ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٤، ١١٠، أن جمازاً المذكور فضلاً عن جهل حاله، لم يتصل الحكم في ذريته من بعده بل انقطع بتولي إخوته ومنهم سالم المذكور، ثم هناك شيحة بن هاشم بن قاسم، ثم ابنه عيسى، ثم أخواه منيف وجماز، والأخير هو الذي تسلسل الحكم في أبنائه فهو جد الجمامزة.

(٧) عبدالغني، عارف. تاريخ أمراء المدينة، مرجع سابق، ٢٦٤.

قد أرسل تقليداً للشريف مالك بن منيف بالمشاركة في نصف إمارة المدينة المنورة وأوقافها مع عمه جماز بن شيحة، ولم يسع الأمير جماز سوى التسليم وتنفيذ التقليد[١].

ولم تحدد المصادر تاريخ تنازل مالك عن الإمارة أو عن نصيبه من الشراكة فيها[٢]، وكل ما نعرفه أن جمازاً قد استمر في الإمارة منفرداً حتى تنازل عنها لابنه منصور سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠١ م وقيل ٧٠٢ هـ/١٣٠٣ م[٣].

وفي فترة إمارة جماز الثالثة كان يرتبط بعلاقات حسنة مع سلاطين دولة المماليك الأولى الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل، بل إنه سافر إلى مصر سنة ٦٩٢ هـ/١٢٩٣ م فأكرمه السلطان الأشرف خليل، وعظم قدره، ولشفاعته أفرج عن أمير ينبع الذي كان سجيناً في مصر ولشفاعته أيضاً رضي السلطان عن أمير مكة المكرمة، وحمد له السلطان صنيعه في ثانيهما[٤].

أما علاقته مع أمير مكة المكرمة أبي نمي فكانت على العكس من ذلك، إذ كانت له صولات وجولات وبلغ من طموحه أن تطلع إلى حكم إمارة مكة المكرمة وانتزاعها منه، وقد واتته الفرصة عندما غضب السلطان المنصور قلاوون على أبي نمي وقرر إرسال حملة لتأديبه سنة ٦٨٧ هـ/١٢٨٨ م، وأوكل إلى أمير المدينة المنورة جماز المشاركة فيها فسارت الحملة إلى مكة المكرمة، واستولت عليها، بعد أن هرب منها أبونمي، وحكم جماز مكة المكرمة لفترة من الزمن باسم السلطان المنصور قلاوون، وخطب له فيها، ثم تركها وعاد إلى إمارته في المدينة المنورة لما بلغه خبر المراسلات السرية بين قائد الحملة المملوكي، وبين أبي نمي[٥].

ومن إصلاحات جماز المهمة نجاحه في ضبط الأمن داخل المدينة المنورة وحمايتها من الطامعين ولا سيما من الأعراب الذين اعتادوا الإغارة عليها ونهب خيراتها، ومن ذلك تصديه لأحد زعماء العرب سنة ٦٩٣ هـ/١٢٩٤ م الذي حاول الإغارة على المدينة المنورة، فوجد جماز له بالمرصاد، ونجح في قتله وقتل جماعة من رجاله فحمد الناس له هذا الصنيع، وعاشت المدينة المنورة بقية إمارته هادئة آمنة[٦].

بقي جماز في الإمارة إلى أن تقدمت به السن وضعفت قواه وكف بصره في آخر عمره، ولم يعد قادراً على النهوض بأعباء الإمارة، فتنازل عنها لولده منصور، وحلف الناس على الطاعة له والنصرة والوفاء وخطب له على المنبر النبوي بحضرته في حياته، وكان ذلك سنة ٧٠٢ هـ/١٣٠٣ م[٧] ثم اعتزل جماز بقية عمره في داره التي بناها في عرصة السوق بدار خزيمة إلى وفاته في صفر سنة ٧٠٤ هـ/١٣٠٥ م، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان شجاعاً، مهيباً، سائساً، حازماً، ذا رأي صلب وهمة عالية[٨].

د ـ أوضاع المدينة المنورة في عهد خلفاء جماز بن شيحة ٧٠٤ ـ ٩٢٣هـ/١٣٠٥ ـ ١٥١٧م:

يلاحظ أن أوضاع الإمارة قد اضطربت كثيراً في عهد خلفاء جماز بن شيحة، إذ دبّت الخلافات والمنازعات بين أبناء جماز وأحفاده على الإمارة طيلة النصف الأول من القرن الثامن الهجري، ثم بين بقية خلفائهم إلى نهاية الدولة المملوكية سنة ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م؛ فلم تخلُ الإمارة

(١) المديرس، عبدالرحمن بن مديرس. المدينة المنورة في العصر المملوكي، مرجع سابق، ٣٠، ٥١.
(٢) المرجع السابق، ٣٠.
(٣) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ١، ٤٢٦.
(٤) المرجع السابق.
(٥) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد. العقد الثمين، مرجع سابق، جـ١، ٤٦٢.
(٦) المرجع السابق، جـ٢، ٢٤٥.
(٧) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ١، ٤٢٤.
(٨) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد. العقد الثمين، مرجع سابق، جـ٣، ٤٣٧.

من الصراع بين اثنين أو أكثر من الأقارب على الإمارة، وفي الأحوال العادية يفترض أن يفوز بالإمارة الأقوى من الخصمين المتنازعين، ولكن تدخلت في هذا الصراع المحلي قوة جديدة هي قوة المماليك لأنها السلطة المركزية التي تتبع لها بلاد الحجاز والحرمان الشريفان[١]، حتى أصبحت هي المرجع الذي يحسم النزاع بين المتنافسين على الإمارة.

والذي ساعد على ذلك وأتاح الفرصة لتدخل المماليك في الصراعات الداخلية على الإمارة هم الأشراف الحسينيون أنفسهم الذين كثيراً ما يلجؤون إلى السلطان المملوكي ليفصل في الخلاف بينهم، وكثيراً ما وفد عليه أحد الأشراف أو جماعة منهم يشكون إليه ظلم أمير المدينة المنورة، وتعديه عليهم فينصفهم، ويرد عليهم حقوقهم، ولا يسع أمير المدينة المنورة إلا الرضا والتسليم بما حكم به السلطان المملوكي[٢].

ومن الأمثلة على دور السلطنة المملوكية في حل المنازعات بين أمراء المدينة المنورة ومنافسيهم أنه في إمارة منصور بن جماز ٧٠٠ ـ ٧٢٥ هـ/١٣٠١ ـ ١٣٢٥ م وقع نزاع بينه وبين إخوته الذين نافسوه على الإمارة، ولم يستطع أهل المدينة المنورة حل النزاع بينهم، فتوجه أخوه مقبل بن جماز إلى مصر وقابل السلطان الظاهر بيبرس، وشكا إليه حيف أخيه، فحكم له بالشراكة مع أمير المدينة المنورة في الإمارة، وفي الأوقاف المخصصة لأمير المدينة المنورة في الشام[٣].

كما قدم إلى القاهرة في عهد السلطان الناصر قلاوون كل من وُدي بن جماز، وابن أخيه طفيل بن منصور بن جماز متنازعين على الإمارة، فلما أدلى كل منهما بحجته بين يدي السلطان ظهر الحق في جانب طفيل، فأمر السلطان بالقبض على وُدي وإيداعه السجن، وحكم بالإمارة لابن أخيه طفيل، وقد مكث وُدي في السجن لفترة من الزمن، ثم أفرج عنه، وأعيد إلى المدينة المنورة ولكن شريكاً لابن أخيه في الإمارة، وهذه سياسة يتبعها سلاطين المماليك في كثرة الإشراك في إمارة المدينة المنورة لضرب الشريكين ببعضهما، ومنع بروز قوة أحدهما حتى لا يتمرد على السلطنة[٤].

وفي بعض الأحيان يحكم المماليك بين المتنازعين على الإمارة أحكاماً غريبة، كما حصل في عهد دولة المماليك الثانية (الجراكسة)، حينما طلب جماز بن هبة بن جماز الإمارة في المدينة المنورة، وكان يليها في أوائل القرن التاسع ثابت بن نعير، وأرسل إلى المماليك في مصر بذلك، فجاء الجواب بأن يقتتلا (جماز وثابت) فمن غلب فله الإمارة، فاقتتلا سنة ٨٠٩ هـ/١٤٠٦ م فغلب جماز، واستولى على الإمارة في المدينة[٥].

ومن صور اضطراب الأحوال في إمارة المدينة المنورة خلال هذه الفترة تفشي ظاهرة القتل أو السجن لأمراء المدينة المنورة من قبل السلطنة المملوكية، وقليل منهم من بقي في الإمارة إلى وفاته، وذلك بسبب المنازعات بين أبناء وأحفاد جماز بن شيحة على الإمارة ما يؤدي أحياناً إلى قتل الأمير، أو جرحه جراحاً مميتة[٦]، وأحياناً أخرى يتدخل سلاطين المماليك أو أمراؤهم الكبار بعزل من لا يرضون عنه، وقد يعمدون أحياناً إلى تدبير اغتيال الأمير[٧].

(١) أصبحت السلطنة المملوكية في مصر السلطة المركزية التي حلت محل الخلافة العباسية في زعامة العالم الإسلامي وذلك بعد قيام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء الخلافة العباسية في مصر سنة ٦٥٩ هـ(١٢٦١م)، وتقليد الخليفة العباسي المستنصر بالله له جميع البلاد الإسلامية وما يضاف إليها ما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. السلوك لمعرفة دول الملوك، مرجع سابق، جـ١، ٤٤٥؛ ويرى بعض الباحثين أن الظاهر بيبرس كان يهدف فيما يهدف إليه من إحياء الخلافة العباسية أن يستغل هذه القوة الدينية الجديدة في بسط سيادته على الحجاز؛ سعيد عبدالفتاح عاشور، *مصر والشام في زمن الأيوبيين والمماليك*، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢م)، ٣٣٧.

(٢) المديرس، عبدالرحمن بن مديرس. المدينة المنورة في العصر المملوكي، مرجع سابق، ٣٠، ٥١.

(٣) علي بن حسين السليمان، *العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك*، (القاهرة: الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣م)، ٣٦.

(٤) عبدالغني، عارف. أمراء المدينة، مرجع سابق، ٢٧٧.

(٥) السخاوي، شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ١، ٣٩٦.

(٦) المرجع السابق، جـ٢، ١٢٦.

(٧) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. السلوك لمعرفة دول الملوك، مرجع سابق، جـ٣، ٦٤.

كما تميزت هذه الفترة بكثرة الأمراء الصغار الذين حكموا فترات قصيرة خصوصاً من أحفاد جماز بعد منتصف القرن الثامن الهجري، ومنهم سعد بن ثابت بن جماز ٧٥٠ ـ ٧٥٢ هـ/١٣٤٩ ـ ١٣٥١ م وفضيل بن قاسم بن قاسم بن جماز سنة ٧٥٩ هـ/١٣٥٨ م مدة ٨ أشهر، ومنهم محمد بن مقبل بن جماز الذي حكم المدينة المنورة سنة ٧٥٠ هـ/١٣٥٠ م من ظهر يوم الأحد ١٨ من ذي الحجة حتى قدم سعد بن ثابت بن جماز أول يوم الثلاثاء من نفس الشهر والسنة فيكون حكمه يوماً وبعض يوم[١].

ومن الظواهر التي تميزت بها هذه الفترة كثرة عزل أمراء المدينة المنورة وتوليهم مرة أخرى حسبما يرى سلاطين المماليك أو أمراؤهم الكبار، خصوصاً في عهد سلطنة المماليك الثانية (الجراكسة)، ومنهم على سبيل المثال؛ جماز بن هبة بن جماز الذي تولى الإمارة في المدينة المنورة أربع مرات خلال الفترة من سنة ٧٨٣ ـ ٨١١ هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٤٠٩ م، والأمير زهير بن سليمان بن هبة بن جماز الذي تولى الحكم ثلاث مرات خلال الفترة من ٨٦٥ ـ ٨٧٤ هـ/ ١٤٦١ ـ ١٤٧٠ م. وبذلك تحول أمراء المدينة المنورة إلى ألعوبة في أيدي سلاطين المماليك تشبه الدمى يحركونها كيفما يشاؤون[٢].

إن خلاصة ما يمكن أن يخرج به الباحث من دراسة أوضاع الإمارة في المدينة المنورة خلال العهد المملوكي، ودور سلاطين المماليك فيها هو صورة واضحة لطبيعة العلاقة بين إمارة المدينة المنورة وبين السلطة المركزية في مصر التي يمكن وصفها بالقول: إن إمارة المدينة المنورة قد تحولت إلى مجرد ولاية مملوكية تابعة للسلطنة المملوكية في مصر وفقدت وضعها المستقل الذي تمتعت به في العهد العباسي والعهد العبيدي (الفاطمي) والعهد الأيوبي، ولم يقتصر دور سلاطين المماليك على ما سبق ذكره من التدخل في تولية أمراء المدينة المنورة، أو عزلهم، ومعاقبة بعضهم، بل تولت السلطنة المملوكية مهمة الإشراف على جميع الأحوال في إمارة المدينة المنورة سواء منها الدينية، والاقتصادية، والإدارية، والعلمية والاجتماعية[٣].

وحتى العلاقات الخارجية لإمارة المدينة المنورة نجد أنها قد تأثرت بالنفوذ المملوكي المباشر، ففي مجال العلاقة بين إمارة المدينة المنورة وإمارة مكة المكرمة في عهد جماز بن شيحة في المدينة المنورة وأبي نمي في مكة المكرمة نجد أنها في الغالب يسودها الهدوء والاستقرار في معظم الفترات عكس ما كان عليه الحال في العصور السابقة (العهد العباسي، العهد العُبيدي (الفاطمي)، والعهد الأيوبي)، إذ كانت العلاقات بين الإمارتين تراوح بين التوتر والعداء المستمرين مع إمارة مكة المكرمة والحملات العسكرية بين الجانبين خصوصاً من قبل أمراء مكة المكرمة[٤].

وعند البحث عن السبب في هذا الهدوء في العلاقات بين الجانبين نجد ذلك يرجع إلى عدة أسباب:

- انشغال كل من إمارة مكة المكرمة وإمارة

(١) عبدالغني، عارف. تاريخ أمراء المدينة، مرجع سابق، ٢٨٠، ٢٨١.

(٢) السليمان، علي. العلاقات الحجازية المصرية، مرجع سابق، ٣٧، ٥٠.

(٣) السليمان، علي. العلاقات الحجازية المصرية، مرجع سابق، ٢٤٥ ـ ٢٤٧.

(٤) راجع ما سبق في إمارة بني مهنا، وإمارة سالم بن قاسم، وجماز بن قاسم.

المدينة المنورة بالأوضاع الداخلية المضطربة في كل منهما عن التفكير في التوسع أو مد سلطانها خارج منطقة نفوذها.

- كثرة الأمراء الضعاف الذين يفتقرون إلى الطموح الذي كان عند الأمراء الكبار أمثال أبي الفتوح وابنه شكر، وقتادة بن إدريس من جانب أمراء مكة المكرمة، وأمثال قاسم بن مهنا وابنه سالم وقاسم بن جماز من جانب أمراء المدينة المنورة.
- والغالب على الأمراء الضعاف أنهم يؤثرون السلامة ويقبعون داخل إماراتهم ويفضلون العلاقات السلمية.
- إن كلاً من أمراء المدينة المنورة وأمراء مكة المكرمة كانوا يسيرون وفق سياسة مرسومة من قبل السلطنة المملوكية، وهذه السياسة تقتضي المحافظة على الهدوء والاستقرار في الحجاز والأمكنة المقدسة خدمة لمصالح السلطنة المملوكية الدينية والاقتصادية[١].

لكن السلطنة المملوكية لم تستمر على سياستها في إشاعة العلاقة السلمية بين إمارتي المدينة المنورة ومكة المكرمة بل نجد أنها قد خرجت عن هذه القاعدة إلى انتهاج سياسة إثارة النزاعات والحروب بين الإمارتين، فالسلطنة المملوكية حاولت تجنب إرسال حملات عسكرية من مصر لتأديب من يخرج عن طاعتها من أمراء مكة المكرمة والمدينة المنورة إلا عند الضرورة وفي موسم الحج، واستعاضت عن ذلك باستخدام إحدى الإمارتين مكة المكرمة أو المدينة المنورة لتأديب من يخرج عن نفوذها من الإمارتين، حدث ذلك عندما استخدم السلطان الظاهر بيبرس أمير المدينة المنورة جماز بن شيحة بالتعاون مع صاحب ينبع ضد أبي نمي أمير مكة المكرمة الذي كان يقاوم النفوذ المملوكي، ولم ينفذ العهود التي قطعها على نفسه لبيبرس، وحرضهما للقيام بعدة حملات ضد أبي نمي خلال الفترة من سنة ٦٧٠ ـ ٦٧٥ هـ/١٢٧٢ ـ ١٢٧٦ م حتى عاد أبونمي إلى حظيرة السلطنة المملوكية[٢]. وحدث ذلك أيضاً عندما استخدم السلطان المنصور قلاوون أمير المدينة المنورة جماز بن شيحة على رأس قوة من المدينة المنورة للمشاركة في حملة بعثها المنصور من مصر لتأديب أبي نمي أمير مكة المكرمة، وإعادته إلى الولاء والطاعة والإخلاص للسلطنة المملوكية، وقد نجحت الحملة في الاستيلاء على مكة المكرمة سنة ٦٨٧ هـ/١٢٨٨ م، وطرد أبي نمي منها، ولكن أبانمي عاد إلى إمارته بعد مغادرة أمير المدينة المنورة إلى بلده[٣].

وعندما استحدثت دولة المماليك الجراكسة منصب نائب السلطنة في الديار الحجازية وولته لأمير مكة المكرمة حسن بن عجلان سنة ٨١١ هـ/١٤٠٨ م حدثت نقلة في العلاقة بين الإمارتين؛ فبعد أن كانت الإمارتان متكافئتين في العصور السابقة، أصبحت إمارة مكة المكرمة منذ بداية القرن التاسع الهجري هي المهيمنة على المدينة المنورة، وأصبح أميرها يتدخل في شؤون إمارة المدينة المنورة، ويقوم بما يقوم به السلطان المملوكي، وقد ساعد ذلك على إزالة أسباب المنافسة

(١) السليمان، علي بن حسين. العلاقات الحجازية المصرية، مرجع سابق، ٤٢.

(٢) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد. العقد الثمين، مرجع سابق، جـ١، ٤٦٠، ٤٦١.

(٣) ابن فهد، النجم عمر بن فهد. إتحاف الورى بأخبار أم القرى، مرجع سابق، جـ٣، ١١٨، ١١٩.

والخلاف بين الإمارتين طيلة الفترة المتبقية من عمر الدولة المملوكية في مصر التي تقدر بأكثر من قرن، من بداية القرن التاسع سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م إلى سقوط الدولة على يد العثمانيين سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م[١].

(١) المديرس، عبدالرحمن بن مديرس. المدينة المنورة في العصر المملوكي، مرجع سابق، ٧٢، ٧٤.

الفصل الثالث

العصر الحديث

أولاً	العهد العثماني الأول	٩٢٣ ـ ١٢٢٠هـ / ١٥١٧ ـ ١٨٠٥م
ثانياً	عهد الدولة السعودية الأولى	١٢٢٠ ـ ١٢٢٧هـ / ١٨٠٥ ـ ١٨١٢م
ثالثاً	حكم محمد علي	١٢٢٧ ـ ١٢٥٦هـ / ١٨١٢ ـ ١٨٤٠م
رابعاً	العهد العثماني الثاني	١٢٥٦ ـ ١٣٣٤هـ / ١٨٤٠ ـ ١٩١٦م
خامساً	حكم الشريف حسين بن علي	١٣٣٧ ـ ١٣٤٤هـ / ١٩١٩ ـ ١٩٢٥م
سادساً	المملكة العربية السعودية	١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م

إعداد

الدكتور عويضة بن متيريك الجهني

أستاذ التاريخ المشارك

تتزامن بداية التاريخ الحديث للمدينة المنورة مع امتداد النفوذ العثماني إلى غربي الجزيرة العربية في مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)؛ بعد استيلاء السلطان العثماني سليم الأول في بداية عام ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م على مصر، وأنهى بذلك دولة المماليك التي كانت تشمل مصر والشام والحجاز[١]. وبما أن أحد الأسباب التي دفعت الدولة العثمانية إلى التوسع في قلب العالم الإسلامي والقضاء على دولة المماليك كان الحصول على شرف السيادة على الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد تطلع السلطان سليم إلى إرسال قوة عسكرية من مصر إلى الحجاز لتحقيق ذلك الهدف[٢]. وحين استولى السلطان سليم الأول على القاهرة كان في سجن السلطان المملوكي قانصوه الغوري عدد من أهل الحجاز، فعفا عنهم السلطان سليم الأول وأطلق سراحهم، وكان منهم قاضي مكة المكرمة الشافعي صلاح الدين بن ظهيرة المخزومي، فلما علم بن ظهيرة بعزم السلطان على إرسال حملة إلى الحجاز نصحه بأنه لا لزوم لذلك واقترح عليه أن يرسل إلى أمير مكة المكرمة يبلغه باستيلائه على مصر ويطلب منه إعلان الولاء للدولة العثمانية، وتعهد القاضي أن يكتب إلى الأمير من جانبه بذلك[٣]. فما كان من أمير مكة المكرمة الشريف بركات بن محمد بن بركات ٩٠٣ - ٩٣١ هـ / ١٤٩٨ - ١٥٢٥ م حين وصلته هذه المكاتبات إلا أن أرسل ابنه محمداً أبا نمي إلى القاهرة بهدايا وتهنئة للسلطان العثماني بملك مصر وإعلان الطاعة للدولة الجديدة[٤].

وكانت دولة المماليك خلال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) قد تمكنت من فرض سلطة أقوى في الحجاز وتحويله إلى نيابة (ولاية) مملوكية[٥]. وقد توثقت العلاقة بين السلطان المملوكي وأمير مكة المكرمة في أواخر ذلك القرن، ما حدا بالسلطان إلى تفويض أمور الحرمين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) وجميع الأقطار الحجازية إلى أمير مكة المكرمة[٦]. وقد استمر ذلك الوضع السياسي قائماً حتى استيلاء السلطان سليم على مصر، ولذلك حين بعث الشريف بركات ابنه أبانمي لإعلان الولاء والطاعة للسلطان العثماني في عام ٩٢٣ هـ/١٥١٧ م فعل ذلك بصفته والياً على الحرمين الشريفين وما يتبعهما من الأقطار الحجازية مثل جدة والطائف وحلي وينبع وخيبر وغيرها، ولذلك أيضاً لُقّب السلطان سليم العثماني بلقب خادم الحرمين الشريفين، وهو لقب كان يحمله سلاطين دولة المماليك[٧].

أولاً - العهد العثماني الأول ٩٢٣ - ١٢٢٠هـ/١٥١٧ - ١٨٠٥م:

أ - دخول المدينة المنورة تحت الحكم العثماني:

لقد سر السلطان سليم الأول سروراً عظيماً بامتداد سيادته إلى الحرمين الشريفين وبلاد الحجاز لما في ذلك من شرف ومكانة دينية أصبحت الدولة العثمانية تتمتع بها في نظر المسلمين، ولذلك فوض للشريف بركات جميع السلطات في الحجاز وجعله المتصرف في أمر مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأنعم

(١) محمد بن أحمد بن إياس، *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، تحقيق: محمد مصطفى زيادة. ط٢، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١م)، جـ٥، ١٩٠.

(٢) محمد عبداللطيف هريدي، *شؤون الحرمين الشريفين في العهد العثماني في ضوء الوثائق التركية العثمانية*. ط١، (القاهرة: دار الزهراء، ١٩٨٩م)، ١٣ - ١٥.

(٣) عبدالملك بن حسين العصامي، *سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي*، (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٠ هـ)، جـ٤، ٣١٨.

(٤) ابن إياس، محمد بن أحمد. بدائع الزهور، مرجع سابق، جـ٥، ١٩٠.

(٥) ريتشارد مورتيل، *الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي*، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، ١٤٠٥ هـ)، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٨، ١٣٩.

(٦) المرجع السابق، ١٥٥ - ١٦١؛ ابن فهد، عبدالعزيز بن عمر. غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، مرجع سابق، جـ٣، ٣٥، ٧٣، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨٠، ٣١٥، ٣١٦.

(٧) انظر عن ذلك: محمد بن علي بن فضل الطبري، تاريخ مكة: *إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن*، تحقيق: محسن محمد سليم. ط١، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، ١٩٩٦م)، جـ١، ٣٥٨، ٣٥٩؛ أحمد زيني دحلان، *خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام*. ط١، (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٥ هـ)، ٥١.

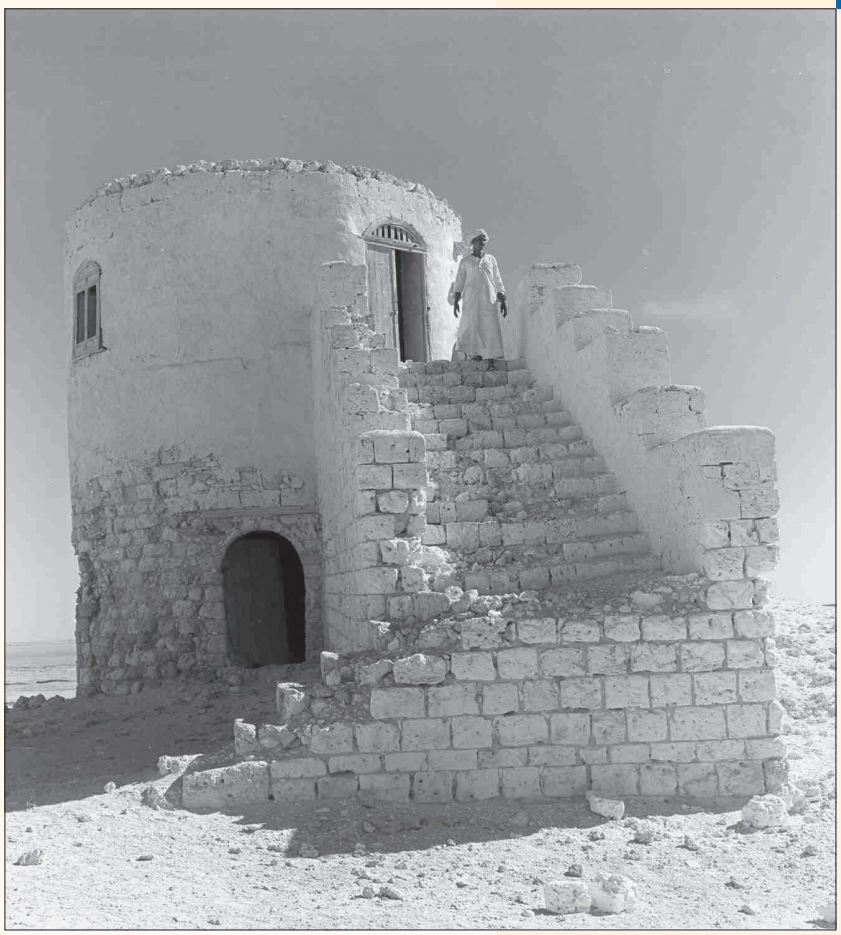

بئر قديمة في مدينة ينبع التاريخية(*)

على القاضي يحيى بن البرديني بمشيخة الحرم النبوي[١]. كما أغدق السلطان سليم وابنه وخليفته السلطان سليمان القانوني ٩٢٦ ـ ٩٧٤ هـ/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م الأموال والغلال والصدقات والهبات على سكان الحرمين من الأشراف والعلماء والمجاورين وأهل الوظائف والفقراء، فبالإضافة إلى الأموال والصدقات وريع الأوقاف التي كانت ترسل من مصر والشام في عهد المماليك التي أبقاها السلاطين العثمانيون، فقد أضاف أولئك السلاطين أموالاً وغلالاً وصدقات وأوقافاً أخرى لكي ترسل سنوياً إلى الحرمين من مصر بصحبة المحمل المصري ومن إستانبول بصحبة محمل رومي (عثماني) استحدثوه[٢].

أقر السلاطين العثمانيون أمراء مكة المكرمة على ما كانوا عليه من ولاية الحرمين الشريفين والأقطار الحجازية منذ أواخر عهد الدولة المملوكية؛ ففي عام ٩٦١ هـ/١٥٥٤ م طلب أمير مكة المكرمة، الشريف أبونمي؛ محمد بن بركات من السلطان سليمان القانوني تفويض الأمر (حكم الحجاز) إلى ولده الثاني الشريف حسن بن أبي نمي، «فتقلد ـ بعد أن أجيب إلى مراده ـ حماية الحرمين الشريفين وجدة المعمورة وينبع وخيبر وحلي وجميع ما شمله اسم الأقطار الحجازية وذلك من خيبر إلى أطراف حلي وأعمال جازان طولاً، ومن أعمال الينبع المبارك إلى حجاز ثقيف وما تصل به من أرض نجد عرضاً»[٣]. وكان نفوذ أمراء مكة المكرمة يصل إلى العلا ومدائن صالح في شمال الحجاز، فقد كان السلاطين العثمانيون يطلبون منهم استقبال قوافل الحج هناك أو إرسال ممثلين عنهم لذلك الغرض، إذ تبدأ حماية أمراء مكة المكرمة والحجاز لتلك القوافل من ذلك الموضع[٤]. وبذلك بقي الوضع السياسي والإداري في المدينة المنورة كما كان في السابق مرتبطاً بإمارة مكة المكرمة، إلا أن العثمانيين أرادوا تقوية سلطتهم في المدينة من ناحية، وإضعاف نفوذ أمير مكة المكرمة فيها من ناحية أخرى، فوضعوا نظاماً للحكم في المدينة المنورة قسموا بموجبه السلطات بين عدة جهات، وذلك حسب ما يقتضيه نظام الحكم العثماني في الولايات التابعة للدولة، وقد قسمت السلطات في المدينة بين

(١) ابن إياس، محمد بن أحمد. بدائع الزهور، مرجع سابق، جـ٥، ١٩٢، ١٩٣.

(٢) الطبري، محمد بن علي. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ١، ٣٦١ ـ ٣٦٥؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٥١.

(٣) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٣٠.

(٤) علي بن تاج الدين السنجاري، *منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم*، دراسة وتحقيق: ماجدة زكريا. ط١، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤١٩ هـ)، جـ٤، ٤٥١، ٤٥٧؛ وانظر أيضاً: إسماعيل حقي جارشلي، *أشراف مكة وأمراؤها في العهد العثماني*، ترجمة: خليل مراد. ط١، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٤ هـ)، ١٠٩. وتجدر الملاحظة هنا أن العلا ومدائن صالح تشكل أقصى الحدود الشمالية لمنطقة المدينة المنورة في الوقت الحاضر.

(*) المصدر: أرامكو السعودية.



سور المدينة المنورة

خمسة من كبار المسؤولين فيها هم: شيخ الحرم النبوي، وقاضي الشرع، وقائد الحامية العسكرية، ونواب أمير مكة المكرمة، وأمير المدينة المنورة الحسيني، وسيأتي الحديث عن كل واحد من هؤلاء المسؤولين والمهام الموكلة إليه.

أرادت الدولة العثمانية حماية المدينة المنورة من هجمات القبائل مثل عنزة والظفير التي تعودت على مهاجمة أطراف المدينة بين فترة وأخرى، فلما تزايدت تلك الهجمات طلب سكان المدينة والمسؤولون العثمانيون فيها من السلطان سليمان القانوني بناء سور جديد يحيط بالمدينة بدلاً من السور القديم الذي تهدمت بعض جوانبه، وقد كلف السلطان سليمان والي مصر بمهمة بناء السور والإنفاق عليه من خزينة مصر، وبدأ والي مصر في إرسال المواد اللازمة للبناء والمهندسين والبنائين والعمال الذين سيقومون بالعمل منذ عام ٩٣٨ هـ/١٥٣١ م[١]. وقد اكتمل بناء السور والقلعة الملحقة به في أواخر عام ٩٤٦ هـ/١٥٣٩ م. وقد أورد الرحالة العثماني الشهير، أولياء جلبي الذي زار المدينة في عام ١٠٨٢ هـ/١٦٧١ م وصفاً مفصلاً للسور والقلعة، فقد ذكر أنه يوجد في القلعة ثمانون مدفعاً وسجن ومهتر[٢] وجنود محاصرة ومحافظ، وأن سمك جدران السور يصل إلى ستة أذرع وارتفاعها عشرون ذراعاً، ويوجد داخل القلعة مخزن للذخيرة وما بين سبعين إلى ثمانين منزلاً صغيراً ومسجدها بديع الصنع وهو من مآثر السلطان سليمان وتشييده، وتقام الجمعة والخطبة في الجامع الكبير (المسجد النبوي) فقط[٣].

لقد وفر هذا السور القوي والقلعة الملحقة به التي ظلت أقوى التحصينات في غربي جزيرة العرب لفترة طويلة حماية فعالة لسكان المدينة خلال ما تبقى من القرن

(١) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٣٥.

(٢) المهتر هي فرقة موسيقى النوبة التي تعزف أمام أبواب رجال الدولة في ذلك الوقت.

(٣) أوليا جلبي، *الرحلة الحجازية*، ترجمة وتقديم: الصفصافي أحمد المرسي، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م)، ١١٥، ١١٦. وتتضمن هذه الترجمة ما يخص المدينة المنورة ومكة المكرمة من رحلة أوليا جلبي فقط؛ وانظر أيضاً: هريدي، محمد عبداللطيف. شؤون الحرمين، مرجع سابق، ١٩.

العاشر الهجري وبداية القرن التالي[١]. وإذا ما أخذنا في الاعتبار الأموال والصدقات والهبات والغلال والحبوب التي أمر السلطان القانوني وخلفاؤه بإرسالها إلى سكان الحرمين الشريفين، والفرق العسكرية التي أصبحت ترابط في القلعة، فإن سكان المدينة لم يعودوا في حاجة إلى من حولهم، فقد توفر لهم الأمن والغذاء الذي صار يأتي من الخارج.

طلب الشريف أبانمي من السلطان العثماني في عام ٩٦١ هـ/١٥٥٤ م أن يشرك معه ابنه الحسن في إمارة مكة المكرمة والحجاز ووافق السلطان على ذلك[٢]، فعيّن الحسن ابنه محمداً حاكماً في المدينة المنورة، وفي عام ٩٦٣ هـ/١٥٥٦ م امتنع أمير المدينة المنورة مانع الحسيني عن دفع المخصصات والإتاوات التي كان أسلافه يدفعونها لزعماء عشيرته بني حسين الذين خرجوا من المدينة ولشيوخ قبائل عنزة والظفير[٣]، وذلك على ما يبدو بسبب قلة ما بيده من المال من ناحية، وقوة ثقته بحماية الدولة العثمانية وأمير مكة المكرمة والحجاز للمدينة وسكانها من ناحية أخرى، وفي أواخر شهر ذي القعدة من ذلك العام اعترضت جماعات من بني حسين وعنزة والظفير ركب الحج المدني في الفريش[٤] وهو في طريقه إلى مكة المكرمة، وكان في ذلك الركب عبدالرحمن أفندي قاضي المدينة العثماني والأمير محمد بن الحسن الجناب العالي (نائب أمير مكة المكرمة في المدينة) وشيخ الحرم النبوي الشريف وعدد من أعيان المدينة وبعض السادة من بني حسين[٥]، وكان ضمن العرب المهاجمين للركب عشائر من بني حسين مثل آل نعير وآل جماز، بقيادة الأمير منصور بن محمد آل نعير أمير المدينة وابن أميرها سابقاً وأولاد الأمير جماز الذي سبق أن تولى إمارة المدينة[٦]، وبعد مناوشات بين المهاجمين والركب المدني قتل فيها عدد من الجانبين وسلبت بعض الأموال، توصل قاضي المدينة وشيخ الحرم النبوي مع المهاجمين إلى اتفاق تعهدا بموجبه بدفع المخصصات والعوائد التي كانت تدفع لتلك العشائر في السابق[٧]. ويتضح جلياً من هذه الحادثة أن المهاجمين لركب الحج المدني وبخاصة زعماء بني حسين كانوا يحاولون استعادة عوائدهم ومخصصاتهم وامتيازاتهم القديمة التي حرمتهم منها السلطات العثمانية ونواب أمير مكة المكرمة والحجاز في المدينة.

شكا زعماء ركب الحاج المدني ما وقع لهم في الفريش للشريف حسن بن أبي نمي بعد وصولهم إلى مكة المكرمة وطلبوا حمايته، وبعد انقضاء مناسك الحج أرسل الشريف حسن بصحبة حجاج المدينة جماعة من الجند لحمايتهم بقيادة أحد الأشراف يدعى عجل بن عرار لإيصالهم إلى المدينة بسلام والبقاء هناك لحفظها[٨].

وفي بداية العام التالي عزم الشريف حسن على معاقبة الذين اعترضوا حجاج المدينة، فجمع أتباعه من الأشراف والعرب وعسكر صاحب جدة وتوجه شرقاً، فلما علم بنو حسين وعنزة والظفير بخروجه إليهم انحازوا إلى جبل شمر، فتبعهم إلى هناك وقبض على بعض زعمائهم وعاد بهم إلى المدينة المنورة أسرى مكبلين بالسلاسل، وكان من ضمنهم بعض الأشراف من بني حسين[٩].

وكانت الدولة العثمانية قد أرادت إضعاف سلطة أمير مكة المكرمة والحجاز في المدينة المنورة وتقوية سلطتها هناك، فوضعت نظاماً

(١) انظر مقادير هذه الأموال والصدقات والغلال في: الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ١، ٣٦٤، ٣٦٥؛ هريدي، محمد عبداللطيف. شؤون الحرمين، مرجع سابق، ٣٤ - ٣٩.

(٢) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٣، ٣٣٣، ٣٣٤.

(٣) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٦٥.

(٤) تقع الفريش على بعد أربعين كيلومتراً تقريباً من المدينة على طريق مكة المكرمة.

(٥) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٦٦.

(٦) المرجع السابق، جـ٤، ٣٦٥، ٣٦٦.

(٧) المرجع السابق، جـ٤، ٣٦٦؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ١، ٤٩٥.

(٨) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٦٦؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ١، ٤٩٥.

(٩) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٦٦.

للحكم في المدينة قسمت السلطة بموجبه بين عدة جهات هي:

١ ـ شيخ الحرم النبوي الشريف:

يمثل شيخ الحرم السلطة العليا في المدينة التي ترجع إليها جميع السلطات الأخرى، وهي السلطة التي لها حق الاتصال بالعاصمة العثمانية في إستانبول، وكان اختيار شيخ الحرم النبوي يتم من بين العلماء الذين تمرسوا في الإفتاء والقضاء أو في مشيخة الإسلام في العاصمة، كما يجب أن يكون عثمانياً متقدماً في السن ويحسن الحديث باللغة العربية، ويتم تعيين شيخ الحرم النبوي لمدة سنة واحدة ثم يستبدل بغيره، وهو يتقاضى راتباً عالياً مساوياً لراتب الصدر الأعظم ويساعده عدد كبير من الموظفين والخدم، وقد خصص لشيخ الحرم النبوي في المدينة مقر يسمى (الدار الكبرى) لإقامته وممارسة العمل مع موظفيه، (والدار الصغرى) لإقامة أسرته وخدمه[١].

ظلت سلطة شيخ الحرم النبوي قوية ونافذة خلال القرن الأول من الحكم العثماني في الحجاز، إلا أن سلطته ونفوذه أخذا في التراجع منذ أواخر القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) إذ صار يرسل لشغل هذه الوظيفة بعض كبار أغوات (خصيان) قصر السلطان العثماني على سبيل النفي والإبعاد، وعلى الرغم من علو رتبهم الوظيفية إلا أن كون هؤلاء الأغوات من الخصيان وعدم حماس بعضهم للقيام بمهام أعمالهم الجديدة وعدم تزويدهم بقوة عسكرية تساعدهم في تنفيذ أوامرهم قد أسهم في إضعاف سلطتهم في المدينة وقلل من قدرتهم على فرض نفوذهم على رؤساء السلطات الأخرى في المدينة وبخاصة قاضي الشرع وقائد الحامية العسكرية[٢].

٢ ـ قاضي الشرع:

كان هذا القاضي يرسل من العاصمة العثمانية ويتم اختياره من بين القضاة المتمرسين من العثمانيين ومن المنتمين إلى المذهب الحنفي ـ مذهب الدولة ـ ويعين القاضي لمدة سنة واحدة ثم يستبدل بغيره، وهو يرأس المحكمة الكبرى في المدينة وهي المحكمة الحنفية، كما يترأس قضاة المذاهب الأخرى في المدينة، وكانت الدولة العثمانية تولي اهتماماً خاصاً بقضاة الحرمين الشريفين ويصدر السلطان مرسوماً سنوياً وخلعاً ونياشين لهؤلاء القضاة وتدفع لهم رواتب ومخصصات جزيلة[٣]. وكان من مهام قاضي الشرع في المدينة المنورة مراقبة أمرائها والقوى السياسية والعسكرية الأخرى فيها وكتابة التقارير عنها، ولما كان قضاء مكة المكرمة والمدينة غير مغرٍ لكبار القضاة، فقد صدرت أوامر سلطانية في أواخر القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) تقضي بأن يكون القضاة الذين أنهوا الخدمة في مكة المكرمة أو المدينة المنورة مؤهلين لتولي قضاء العاصمة إستانبول أو الحصول على درجة مساوية لدرجة قضاة العاصمة[٤].

وفي أواخر القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) لم يكن قاضي الشرع يحضر المجلس الذي كان يعقده شيخ الحرم النبوي في منزله ويحضره جميع المسؤولين الكبار في المدينة، ربما لعدم قناعته بخضوع

(١) أحمد ياسين الخياري، *تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً*، تعليق: عبيدالله محمد أمين كردي. ط١، (المدينة: النادي الأدبي بالمدينة، ١٤١٠ هـ)، ٢٦٧، ٢٦٨؛ وانظر أيضاً: علي حافظ، *فصول من تاريخ المدينة المنورة*، (جدة: شركة المدينة للطباعة والنشر، د.ت)، ٣٠، ٣١.

(٢) محمد أمحزون، *المدينة المنورة في رحلة العياشي*: دراسة وتحقيق. ط١، (الكويت: دار الأرقم، ١٤٠٨ هـ)، ٢٣٠، ٢٣١؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، ٣٨٢ ـ ٣٨٨.

(٣) هريدي، محمد عبداللطيف. شؤون الحرمين، مرجع سابق، ٣٢، ٣٣؛ جارشلي، إسماعيل حقي. أشراف مكة، مرجع سابق، ١١٦ ـ ١١٨.

(٤) هريدي، محمد عبداللطيف. شؤون الحرمين، مرجع سابق، ٣٢، ٣٣؛ جارشلي، إسماعيل حقي. أشراف مكة، مرجع سابق، ١١٦ ـ ١١٨.

السلطة القضائية للسلطة الإدارية أو عدم رغبته في الخضوع لشيخ الحرم[١].

٣ ـ قائد الحامية العسكرية (محافظ المدينة المنورة):

قررت الدولة العثمانية إقامة حامية كبيرة في المدينة لحمايتها من هجمات القبائل المحيطة بها والمساعدة في حماية قوافل الحج بعد دخولها إلى الحجاز لأن المدينة المنورة تقع في وسط البادية وتحيط بها منازل القبائل التي لم يهتم العثمانيون بها ولم يكن لهم نفوذ عليها، ولكي تكون المدينة هي مركز القوة العسكرية العثمانية في الحجاز[٢]. وقد شغل قائد هذه الحامية العسكرية فيما بعد منصب (محافظ المدينة المنورة)[٣]. وخلال حكم السلطان سليمان القانوني شيدت الدولة لهذه الحامية قلعة كبيرة هي قلعة الباب الشامي، وكان العسكر العثماني في المدينة يتكون من أربع أوجاقات (فرق) هي: وجاق القلعة، وجاق السباهية الفرسان، وجاق النوبتجية المشاة، ووجاق الانكشارية[٤]. ويقوم قسم من هؤلاء الجنود بمهمة الشرطة وحفظ الأمن داخل المدينة في حين تقوم فرق أخرى بالمهمات الأمنية والدفاعية خارج البلدة.

ويظهر أن أمير مكة المكرمة والحجاز محمد أبانمي وابنه الحسن قد وجدا في هذه القوة العسكرية الكبيرة في المدينة عقبة في طريق فرض سلطتهما في البلدة ومنافساً لهما في الحجاز، فأرسلا في محرم عام ٩٦٥ هـ/ سبتمبر ١٥٥٧ م مبعوثاً إلى إستانبول يدعى قطب الدين المكي بهدف عزل قائد حامية المدينة المنورة المدعو بيري بسبب خلافات حدثت بينه وبين الشريفين، إلا أن قطب الدين المكي لم ينجح في مهمته لأن السلطان سليمان القانوني لم ير إضعاف نفوذ الدولة العثمانية في الحجاز وتقوية سلطة أمير مكة المكرمة في ذلك الإقليم المهم، فرفض عزل قائد حامية المدينة وأوضح للمبعوث أنه سيأمر بإجراء تحقيق في الموضوع وأنه سيأمر باستبدال القائد فقط إذا ما تبين ذلك ضرورياً[٥].

وفي عام ١١٣٦ هـ/١٧٢٤ م بدأت الدولة العثمانية في تعيين ولاة في إقليم الحجاز للحد من سلطة أمراء وأشراف مكة المكرمة وكان هؤلاء الولاة يحملون رتبة وزير، وقد أسندت مهام هذا المنصب إلى محافظ المدينة المنورة حيث كان يمارس مهام منصب الوالي من مقر إقامته في المدينة حتى عام ١٢١٥ هـ/١٨٠٠ م حين تقرر نقل مقر إقامة الوالي إلى جدة[٦]. وخلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) أصبح محافظ المدينة المنورة بيده أقوى السلطات، بسبب اعتماده على قوة الفرق العسكرية المقامة في المدينة من ناحية وضعف سلطة شيخ الحرم النبوي من ناحية أخرى.

٤ ـ نواب أمير مكة المكرمة في المدينة المنورة:

كان أمراء مكة المكرمة بحكم ولايتهم على الحرمين الشريفين منذ عهد المماليك يرسلون نواباً عنهم إلى المدينة المنورة يسمى أحدهم وزيراً ويسمى الثاني حاكماً لتمثيل وتأكيد نفوذهم في البلدة، وقد استمر هذا التقليد بعد استيلاء العثمانيين على الحجاز وتفويضهم ولاية الحرمين الشريفين لأمراء مكة المكرمة، وكان أمير مكة المكرمة يختار هؤلاء الوزراء والحكام في أغلب الأحيان من

(١) أمحزون، محمد. المدينة المنورة في رحلة العياشي، مرجع سابق، ٣٤.

(٢) لم يكن أمير مكة المكرمة يسمح إلا بوجود قوة عسكرية عثمانية صغيرة في جدة.

(٣) حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٣٠.

(٤) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٣٥ ـ ٣٤٣.

(٥) جارشلي، إسماعيل حقي. أشراف مكة، مرجع سابق، ١٣٨.

(٦) هريدي، محمد عبداللطيف. شؤون الحرمين، مرجع سابق، ٣٠، ٣١؛ انظر: الوثيقة الصادرة عن الصدر الأعظم بهذا الخصوص في ٢٩ جمادى ١٢١٥ هـ في الصفحة ١١٧ ـ ١٢٠ في المرجع نفسه.

بين أقاربه، وكانت سلطات هؤلاء الموظفين تشمل: تمثيل أمير مكة المكرمة في المدينة، وتبليغ أوامره فيها، وجمع الضرائب التي كانت تجبى باسمه في المدينة وإرسالها إليه، والمساهمة في توزيع الصدقات والأموال المرسلة إلى المدينة عن طريق أمير مكة المكرمة[١].

٥ ـ أمير المدينة المنورة الحسيني:

حكم بنو الحسين المدينة المنورة منذ منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وقد أحرز بنو مهنا منهم سلطة قوية في المدينة على الرغم من امتداد نفوذ أمراء مكة المكرمة إليها في فترات قصيرة وامتداد سيادة السلاطين الأيوبيين والمماليك إليها خلال القرون التالية، وقد فقد الأمراء الحسينيون جزءاً كبيراً من سلطتهم حينما فوض سلاطين المماليك خلال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ولاية الحرمين والأقطار الحجازية لأمراء مكة المكرمة ما دفع أحدهم في عام ٩٠١ هـ/ ١٤٩٥ م وهو الأمير حسن بن زبيري إلى أخذ الأموال والذخائر المودعة في الحجرة النبوية للإنفاق منها على نفسه ورجاله وكبار عشيرته ثم غادر المدينة إلى البادية مبرراً ما أقدم عليه بحاجته لذلك المال الذي نُذر لجده وأن أمير مكة المكرمة لم يترك له شيئاً من دخل الإمارة وقاسمه في الميراث[٢].

لقد أصبح أمير المدينة الحسيني تابعاً لأمير مكة المكرمة الذي غالباً ما كان يختاره من بين الموالين له من بني مهنا[٣]. وصار أمير مكة المكرمة يعين نواباً عنه (وزيراً وحاكماً) من أقاربه وخدمه يشاركون أمير المدينة في إدارة الأمور فيها، ويتحكمون في الموارد المالية المحلية وتلك التي ترسل من الخارج إلى المدينة، وقد نتج عن ذلك شح الموارد المتاحة لأمير المدينة، وبالتالي ضعف سلطته وهيبته في داخل المدينة وبين القبائل المحيطة بها وانكماش نفوذه عن القرى والبلدان التي كانت تابعة له خصوصاً في شمال الحجاز، كما نتج عن ذلك خروج أعداد كبيرة من بني الحسين، عشيرة الأمير، إلى القرى والبوادي المجاورة بسبب ضعف مواردهم[٤]. وخلال القرن العاشر الهجري فقد أولئك الأمراء جزءاً أكبر من سلطاتهم وامتيازاتهم لصالح السلطات التي أقامتها الدولة العثمانية في المدينة إلى جانب سلطة نواب أمير مكة المكرمة وبخاصة شيخ الحرم النبوي ومحافظ المدينة وقائد حاميتها العسكرية، وقد نتج من ذلك اضمحلال سلطة الأمراء الحسينيين وضعف مكانتهم وفقر ثقيل طال عشيرتهم.

ازداد ضعف سلطة الأمراء الحسينيين وتدني مكانتهم في المدينة خلال القرن الحادي عشر الهجري، وأصبحت سلطة أمير المدينة صورية؛ على الرغم من ذكر اسمه على منبر المسجد النبوي بعد اسم السلطان العثماني واسم أمير مكة المكرمة إلا أنه لم يكن له من ولاية المدينة وإمارتها إلا الاسم[٥]. وقد اقتصرت سلطة الأمير الحسيني ـ على ما يبدو ـ خلال هذه الفترة على النظر في شؤون عشيرته والعلاقة مع القبائل المحيطة بالمدينة[٦]. ومع نهاية القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) غابت الإشارة إلى مشاركة الأمراء الحسينيين في حوادث المدينة كما غاب ذكرهم في المصادر

(١) أمحزون، محمد. المدينة المنورة في رحلة العياشي، مرجع سابق، ٢٣٦؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٤٥، ٣٥١.

(٢) الجاسر، حمد. رسائل في تاريخ المدينة، مرجع سابق، ١٨٣ ـ ١٨٥؛ وانظر أيضاً: بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٢٠ ـ ٣٢٤.

(٣) المرجع السابق، مرجع سابق، جـ٢، ٣٣٣، ٣٣٤؛ وأيضاً: عارف أحمد عبدالغني، تاريخ أمراء المدينة المنورة ١ هـ ـ ١٤١٧ هـ، (دمشق: دار كنان، ١٩٩٦م)، ٣٢٦.

(٤) أمحزون، محمد. المدينة المنورة في رحلة العياشي، مرجع سابق، ٢٣٧.

(٥) المرجع السابق، ٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧.

(٦) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٣٩.

التاريخية ما يشير إلى ذبول إمارتهم مع نهاية ذلك القرن[١].

لقد نجح العثمانيون في إضعاف سلطة أمير مكة المكرمة والأقطار الحجازية وسلطة الأمير الحسيني في المدينة بإقامة سلطات سياسية وعسكرية ودينية تشاركهما في إدارة شؤونها، لكن الحكم العثماني هناك لم يسلم من نقطة الضعف التي كانت تعاني منها الولايات البعيدة عن العاصمة، وهي توزيع السلطات بين قوى مختلفة في الولاية وعدم إعطاء أي منها صلاحيات كبيرة خوفاً من أن تستبد تلك القوة بالولاية أو تنفصل بها عن الدولة.

لقد أنشأ العثمانيون ثلاث سلطات جديدة في المدينة إضافة إلى سلطاتها القديمة هي: سلطات شيخ الحرم النبوي، وسلطات محافظ المدينة وقائد حاميتها العسكرية، وسلطات قاضي الشرع. وحسب ما يقتضيه النظام العثماني فإن أياً من هذه القوى ليس له سلطة مطلقة على القوى الأخرى، كما أن تعيين أصحاب هذه السلطات يصدر عن العاصمة العثمانية ولمدة عام واحد فقط. وقد أسهم عدم وجود مسؤول واحد في المدينة ترجع إليه جميع السلطات الأخرى ويملك صلاحية اتخاذ القرار بالإضافة إلى قصر فترة ولاية أولئك المسؤولين وتقدمهم في السن وشعور بعضهم أن تعيينه في المدينة المنورة إنما هو نوع من الإبعاد أو ما يشبه التقاعد، وعدم معرفة بعضهم اللغة العربية أسهم كل ذلك في عدم قدرتهم على ضبط الأمور الإدارية والأمنية في المدينة[٢].

كان شيخ الحرم النبوي يعقد مجلساً أسبوعياً بعد صلاة الجمعة يدعى (مجلس الإدارة) في مقر إقامته في (الدار الكبرى) لمناقشة المشكلات التي تحدث خلال الأسبوع في المدينة والتوصل إلى حلول لها، أو التداول في مشروعات مطروحة لصالح المدينة المنورة أو تبليغ وتنفيذ أوامر سلطانية واردة، وكان يحضر هذا المجلس محافظ المدينة وقائد حاميتها وقاضي الشرع وقائد الشرطة ومفتو المذاهب الأربعة وعدد من أعيان أهل المدينة[٣].

وفي أواخر القرن الحادي عشر حينما أصبح شيخ الحرم النبوي يتم اختياره من بين أغوات القصر السلطاني وبالتالي ضعفت مكانته وهيبته، تخلى قاضي الشرع عن حضور مجلس الإدارة الذي يعقده شيخ الحرم في مقر إقامته[٤]. والواقع أن العياشي الذي زار المدينة في عام ١٠٧٣ هـ/١٦٦٢ - ١٦٦٣ م ومكث فيها قرابة العام لم يستطع أن يتبين كيفية توزيع السلطات في المدينة أو طريقة ممارستها، فقال: «وعلى طول إقامتي في المدينة لم أدر كيفية تصرف الولاة فيها ولا من له التصرف التام بها... ولا أعلم هل لكل واحد من هؤلاء (الولاة) ولاية على قوم بالخصوص أو عمل من الأعمال؟ ولم يكشف لي أحد غرضاً في كيفية ذلك، ولم أبالغ في الفحص عنه»[٥].

وكان تركيز الدولة العثمانية منذ أن امتدت سلطتها إلى الحجاز على المدن والحواضر مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة وطرق الحج المؤدية إليهما لاحتوائهما على الحرمين الشريفين والأمكنة المقدسة ومثل جدة وينبع للاستفادة من الجبايات التي تفرض في ميناءيهما. أما القرى والبلدات والوديان والقبائل المحيطة بتلك المدن والحواضر فلم يعرها العثمانيون اهتماماً

(١) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٤٢.

(٢) أمحزون، محمد. المدينة المنورة في رحلة العياشي، مرجع سابق، ٣٧ - ٣٩.

(٣) حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٣١؛ وانظر أيضاً: الخياري، أحمد ياسين. تاريخ معالم المدينة، مرجع سابق، ٢٦٨.

(٤) أمحزون، محمد. المدينة المنورة في رحلة العياشي، مرجع سابق، ٣٤.

(٥) المرجع السابق، ٣٦، ٢٣٦.

وتركوا أمورها للزعماء المحليين تحت نفوذ أمير مكة المكرمة والحجاز، ربما لأن تلك القرى والوديان والقبائل لم تكن تدر من الموارد ما يستحق الاهتمام والجهد المبذول وربما تفادياً للمشكلات التي يمكن أن تواجهها الدولة عندما تتدخل في شؤون تلك المناطق والقبائل، والواقع أن اهتمام شيخ الحرم النبوي - أبرز المسؤولين العثمانيين في المدينة - لم يتجاوز حرم المدينة النبوية.

ولقد سمح العثمانيون بالاضمحلال التدريجي لإمارة بني الحسين في المدينة المنورة وذلك حين لم يبق المسؤولون العثمانيون ونواب أمير مكة المكرمة للأمراء الحسينيين إلا السلطة الاسمية في المدينة، وبما أن سلطة هؤلاء المسؤولين لم تكن تتجاوز في الغالب حدود حرم المدينة، فقد انقطعت الصلة بين المدينة والقرى والمناطق والقبائل المحيطة بها، وهي الصلة التي كان يتولاها ويحافظ عليها أمراء المدينة القدماء من بني الحسين.

وفقد هؤلاء الأمراء عناصر القوة التي كانت تساعدهم على فرض نفوذهم على المناطق والقبائل المحيطة بالمدينة والمحافظة على الروابط والعلاقات بين مجتمع المدينة والمجتمعات التي كانت تعيش خارجها وحفظ التوازن بين تلك المجتمعات، وكان أهم تلك العناصر الموارد المالية والسلطة السياسية والإدارية والقوة العسكرية التي فقدها الأمراء الحسينيون لصالح العثمانيين، لقد حل العثمانيون مكان الأمراء الحسينيين في داخل المدينة، لكنهم أهملوا المناطق والقبائل المحيطة بها وبذلك وسعوا الفجوة بين مجتمع داخل المدينة والمجتمعات المحيطة بها.

اضطربت الأوضاع في مكة المكرمة والحجاز بعد وفاة الشريف حسن بن أبي نمي في عام ١٠١٠ هـ/١٦٠١ م، فقد أخذ أبناؤه وأحفاده يتنافسون ويتحاربون على السلطة، وتداول الحكم في مكة المكرمة خلال الثلاثين سنة التي أعقبت وفاته ثلاثة عشر أميراً، وقد تطلب الاضطراب والفوضى التي نتجت من صراع بني أبي نمي وأتباعهم على السلطة تدخل قادة الدولة العثمانية مثل ولاة اليمن وأمراء قوافل الحج لوضع حد لذلك الاضطراب والفوضى[١]. وقد ضعفت سلطة أمراء مكة المكرمة والحجاز في المدينة المنورة نتيجة لانشغالهم بالصراع على الحكم فيما بينهم، كما زاد تدخل القادة العثمانيين في ذلك الصراع من عدم استقرار الأوضاع في مكة المكرمة وضعف سلطة أمراء الحجاز في المدينة المنورة. وفي شعبان من عام ١٠٤١ هـ/مارس ١٦٣٢ م تمكن بعض العساكر المتمردين على والي اليمن (الجلالية) من الاستيلاء على مكة المكرمة وقتل أحد أمرائها وطرد الآخر وهو الشريف زيد بن محسن[٢]. أخذ الشريف زيد بن محسن يراسل والي مصر العثماني من المدينة المنورة ويطلب منه المساعدة ضد العسكر المتمردين والأمير الذي نصبوه في مكة المكرمة، فأرسل والي مصر ثلاثة آلاف وخمسمئة جندي يقودهم قادة برتبة سنجق وخلعة سلطانية. لبس الشريف زيد الخلعة السلطانية في المسجد النبوي الشريف واستقبل العسكر المصري في ينبع وسار بهم إلى مكة المكرمة وتمكن من استعادة الحكم فيها وملاحقة المتمردين إلى بلدة تربة والقضاء عليهم في محرم عام ١٠٤٢ هـ/أغسطس ١٦٣٢ م[٣].

(١) الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٣٦ - ٤٥، ٦١ - ٦٦؛ العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢١ - ٤٢٣، ٤٣٧ - ٤٤٠.

(٢) الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٦١، ٦٢؛ العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٣٧، ٤٣٨.

(٣) الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٦٣ - ٦٦؛ العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٣٨ - ٤٤٠؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ١٥١ - ١٦٥.

طالت فترة إمارة الشريف زيد بن محسن لمكة المكرمة والحجاز، فبلغت خمسة وثلاثين عاماً ١٠٤٢ ـ ١٠٧٧ هـ/١٦٣٢ ـ ١٦٦٦ م تمكن خلالها من إعادة القوة لسلطة أمير الحجاز على مناطقه وقبائله بعد الضعف الذي أصابها خلال الثلاثين عاماً التي سبقت توليه الإمارة، قال العصامي عن ذلك: «واستقل.. الشريف زيد بالملك منفرداً في الأقطار الحجازية كافة... واستنزل أرباب الحصون الشامخة، واستولى على القلاع الراسخة، وملك البلاد البعيدة المنازل»[١] وكانت المدينة المنورة والقبائل والقرى المجاورة لها من أهم المناطق التي عمل الشريف زيد على تقوية نفوذه فيها، وكان من الحملات التي شنها الشريف زيد لإعادة سلطة أمير مكة المكرمة والحجاز على القبائل، حملة قام بها ضد قبيلة بني صبح إحدى قبائل حرب في الجبل المنسوب إليهم والواقع إلى الجنوب من بلدة بدر على بعد ١٦٠ كم جنوب المدينة المنورة تقريباً، وذلك في بداية عام ١٠٤٣ هـ/يوليو ١٦٣٣ م. وتذكر المصادر المكية أن الشريف اقتحم عليهم الجبل[٢] وحاربهم وانتصر عليهم، فصالحه أهل السهل بالسلاح والأموال فأخذها منهم ورجع إلى مكة[٣]. ويظهر أن دوافع الحملة هي إخضاع هذه القبيلة الممتنعة بحصانة ووعورة جبلها لسلطة أمير الحجاز وإجبارها على دفع الإتاوات المطلوبة.

تنبه العثمانيون لتنامي نفوذ الشريف زيد بن محسن في الحجاز، فأرادوا الحد من توسع ذلك النفوذ وبخاصة في المدينة المنورة التي تعوَّد الشريف على زيارتها من وقت إلى آخر، فأرسل السلطان مراد الرابع (١٠٣٢ ـ ١٠٤٩ هـ/ ١٦٢٣ ـ ١٦٤٠ م) قبل وفاته بأشهر مملوكه المحظي لديه بشير آغا الطواشي وزوده بأوامر ومراسيم سلطانية تخوله التصرف بما يراه من عزل وتولية، وقد تخوف الشريف زيد ما يمكن أن يصدر عن بشير آغا بحقه، خصوصاً حينما سمع أن والي مصر استقبله خارج القاهرة وترجل عند لقائه وقبل ركبته ومشى وهو راكب، وقد فكر الشريف في الخروج من مكة المكرمة تفادياً لمقابلته، وكان من حسن طالعه أن ورد الخبر حين وصول الطواشي إلى ينبع بوفاة سيده السلطان الذي منحه الأوامر والمراسيم التي تخوله العزل والتولية فبطلت سلطاته بوفاة سيده[٤].

في عام ١٠٥٢ هـ/١٦٤٢ م رفع العثمانيون رتبة مصطفى آغا أمين جدة إلى سنجق (أمير لواء) لتمكينه من إضعاف سلطة أمير مكة المكرمة والحجاز، ويذكر السنجاري المتوفى عام ١١٢٥ هـ/١٧١٣ م أنه أول سنجق تولاها (أي جدة)، وأنه لم يزل كذلك إلى سنة ١٠٥٦ هـ/١٦٤٦ م حين وردت إليه مشيخة الحرم المكي مضافة إلى سنجقية جدة، فلما استفحل أمره شرع في التطرق إلى الأحكام بمكة المكرمة فنفرت نفس الشريف من ذلك[٥]. وفي العام نفسه عينت الدولة العثمانية بشير آغا الطواشي المتقدم ذكره شيخاً للحرم النبوي الشريف، ووصل إلى مكة المكرمة وأدى نسك الحج مع سنجق جدة وخرجا بعد الحج إلى بلدة الطائف للنزهة والتشاور ـ على ما يبدو ـ في كيفية الحد من سلطات الشريف زيد في مكة المكرمة والمدينة المنورة[٦]. أدرك الشريف زيد أهداف وخطط المسؤولين العثمانيين ضده، فدبر مؤامرة لقتل السنجق وإخافة الطواشي وإجباره على مغادرة الحجاز[٧].

(١) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٤١.

(٢) يعد جبل صبح الذي كان يسمى (ثافل الأكبر) من أمنع جبال الحجاز بسبب ارتفاعه ووعورة مسالكه؛ انظر: عاتق بن غيث البلادي، *قلب الحجاز*. ط١، (مكة: دار مكة، ١٤٠٥ هـ)، ١١٩، ١٣٣ ـ ١٤٣.

(٣) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ١٧٠، ١٧١؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٧٥.

(٤) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ١٨٧ ـ ١٨٩؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٧٢، ٧٣؛ العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٥٨، ٤٥٩.

(٥) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٠٢، ٢٠٣.

(٦) المرجع السابق، جـ٤، ٢٠٤؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٧٤، ٧٥؛ العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٦٤، ٤٦٥.

(٧) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٠٤ ـ ٢٠٩؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٧٥، ٧٦؛ العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٦٤ ـ ٤٦٦.

وصل الشريف زيد بن محسن المدينة المنورة زائراً في اليوم الثامن من شعبان عام ١٠٥٩ هـ/أغسطس ١٦٤٩ م ونزل بعسكره خارج السور، وفي اليوم التالي وثب رجل على زفر أفندي، قاضي الشرع العثماني في المدينة المنورة وقتله وهو في طريقه إلى المسجد النبوي لصلاة الفجر، فلما سمعت العساكر العثمانية في المدينة بمقتل القاضي وهروب القاتل اعتقدوا أن ذلك من تدبير الشريف زيد، فحشدوا قواتهم وأغلقوا أبواب سور المدينة ووجهوا المدافع تجاه معسكر الشريف وطالبوه بمغادرة المدينة المنورة، وقد حاول الشريف زيد إقناع رؤساء العسكر العثماني بأنه لا علم له بالحادثة ولا ضلع له فيها، وبعث إليهم كبار رجاله في ذلك واستدعى أولئك الرؤساء للتباحث في مقتل القاضي وتعهد بالتحقيق فيه والبحث عن الجاني، وأخذ يمسكهم واحداً بعد الآخر ويحبسهم، وأرسل تسعة منهم إلى السجن في ينبع وظلوا هناك حتى وصل أمير الحج فشفع فيهم[١].

وقد أوضح الرحالة العياشي شكوك سكان المدينة المنورة وعسكرها حين قال:

«بيد أن في سنة تسع وخمسين وألف وهي أول سنة حججت فيها جاء إلى المدينة قاضٍ تركي من قبل القسطنطينية فأظهر فيها العدل غاية، وأقام الدين وضرب على أيدي كثير من ولاة المدينة، ومنعهم من كثير من الباطل والظلم الذي هم به متصفون، فثقلت وطأته عليهم واشتدت شكيمته حتى على السلطان الأمير زيد بنفسه، حال بينه وبين كثير من مراداته التي على خلاف الديانة. وكان السلطان زيد قد قدم في تلك السنة إلى المدينة وأقام بها مدة، فلم يزالوا يحتالون على القاضي حتى اغتيل ليلة من الليالي... فأظهر السلطان (زيد) التأسف على موته والتحسر، وأظهر التفتيش عن الضارب، وزعم أنه لا علم له به ولو علمه لنكل به وقتله. والخاص من الناس لم يصدقوه في ذلك، وعلموا أنه لا يقدر أحد على الجرأة على هذا الفعل العظيم إلا بإذنه، وأنه لا يخفى عليه فاعله لشدة حزمه وعظيم مكره وكثرة دهائه حتى أنه لا يكاد يخفى عليه سارق شملة بأرض الحجاز كلها فكيف يخفى عليه مثل هذا؟!»[٢].

يظهر جلياً ما تقدم أن أمير مكة المكرمة والحجاز كان يعمل وفق سياسة مدروسة ومستمرة هدفها إضعاف السلطات العثمانية في المدينة المنورة منذ عام ١٠٥٧ هـ/١٦٤٧ م عندما أرهب بشير آغا الطواشي شيخ الحرم النبوي المعين بقتل زميله مصطفى بك سنجق جدة وأجبره على ترك الحجاز، ثم دبر اغتيال قاضي الشرع العثماني في المدينة ثم بعد ذلك ألقى القبض على رؤساء العسكر العثماني في المدينة الذين حاولوا الانتقام لمقتل القاضي وإيداعهم السجن ولم يطلقهم إلا بشفاعة أمير قافلة الحج العثماني، وعندما توفي الشريف زيد في محرم عام ١٠٧٧ هـ / يوليو ١٦٦٦ م كان ابنه الأكبر محمد يحيى مقيماً في المدينة المنورة، وكان الشريف زيد قد حصل في وقت سابق على موافقة السلطان العثماني على أن يخلفه ابنه هذا في إمارة مكة المكرمة والحجاز[٣]، ويظهر أن أمير مكة المكرمة كان يقيم أكبر أبنائه في المدينة المنورة لتقوية سلطته فيها.

وخلال السبعة عشر عاماً الأخيرة من عهد الشريف زيد هدأت الأوضاع في الحجاز

(١) المرجع السابق، جـ٤، ٤٦٦؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٧٧، ٧٨؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢١٠، ٢١١.

(٢) أمحزون، محمد. المدينة المنورة في رحلة العياشي، مرجع سابق، ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٣) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٨٤، ٤٨٥؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٤٠ - ٢٦١.

وصلحت الأمور بين أمير مكة المكرمة وبين أمراء قوافل الحج وسنجق جدة وشيخ الحرم المكي سليمان بك الذي تفرغ للأعمال العمرانية في المسجد الحرام والمشاعر[١]. بل لقد بلغ الاتفاق بين أمير مكة المكرمة والحجاز وبين سنجق جدة وشيخ الحرم المكي أن خرج السنجق المعين حديثاً المدعو عماد أفندي الرومي في عام ١٠٧٦ هـ/١٦٦٥ م بصحبة الشريف زيد ومعهما عساكر محمد علي لمحاربة قبيلة جهينة التي تقع ديارها في نواحي ينبع وشمال غرب المدينة المنورة بسبب مقتل أحد بني عمومة الشريف البعيدين في ديار تلك القبيلة[٢]؛ وهو أمر لا يدعو - على ما يبدو - إلى خروج السنجق وعساكر الدولة إلى تلك الجهات البعيدة.

عندما توفي الشريف زيد بن محسن في بداية عام ١٠٧٧ هـ/يوليو ١٦٦٦ م أرسل سنجق جدة وشيخ الحرم عماد أفندي خلعة الولاية إلى أصغر أبنائه الشريف سعد بن زيد، متجاهلاً الابن الأكبر محمد يحيى الذي كان أبوه قد حصل له على موافقة السلطان بالولاية من بعده وحمود بن عبدالله وأحمد الحارث اللذين كانا أبرز زعماء الأشراف في مكة المكرمة محدثاً بذلك صراعاً مريراً بين هؤلاء على السلطة[٣]. وأصبحت بلاد ينبع - التي انحاز إليها حمود بن عبدالله أقوى المنافسين للشريف سعد بن زيد - ميداناً لذلك الصراع، فقد اعترض حمود وأتباعه من الأشراف وغيرهم في رجب ١٠٧٨ هـ/ديسمبر ١٦٦٧ م الجردة العسكرية التي كان يقودها يوسف بك سنجق جدة وشيخ الحرم المكي المعين والمرسلة من قبل والي مصر للسيطرة على الوضع في الحجاز، وكان يصحب هذه الجردة عدد كبير من التجار والعمار والزوار يصل إلى ألف وخمسمئة مسافر، وقد قتل في هذه المواجهة غالب أفراد القافلة ونهبت أموالهم ولم ينج منهم سوى ما يقارب المئة نفس، ومات السنجق بعد المعركة[٤]. وقد أحدثت هذه الواقعة المؤلمة اضطراباً وخوفاً عظيماً في نواحي ينبع والمدينة المنورة إذ انقطعت السبل وارتفعت الأسعار بسبب ذلك[٥].

لم تقتصر المشكلات التي ثارت في بداية عهد الشريف سعد بن زيد على ينبع بل امتدت إلى المدينة المنورة فقد اشتد النزاع في منتصف عام ١٠٧٨ هـ أواخر ١٦٦٧ م بين سكان المدينة المنورة ورؤساء العسكر العثماني بها وبين قاضي الشرع وكاتب الصرة (الصدقات) ونواب أمير مكة المكرمة والحجاز في المدينة، فقد اتهم أعيان المدينة ورؤساء عسكرها هؤلاء المسؤولين بإساءة توزيع الأموال والصدقات والغلال المخصصة لسكان المدينة المنورة، وكان يتزعم المحتجين من سكان المدينة رجل من أبناء المجاورين في البلدة يدعى محمد ظافر بن حسن آغا الذي كان قائداً لأوجاق السباهية العثمانية (فرقة الخيالة) في المدينة، وقد كتب هؤلاء المحتجون شكوى رفعوها إلى الشريف سعد بن زيد وطلبوا محاسبة المسؤولين عن توزيع الأموال والصدقات في المدينة، ولما وافق أمير مكة المكرمة على ذلك تمكن أهل المدينة من استخراج نحو أربعة وعشرين ألف قرش من أولئك المسؤولين[٦].

ولا يظهر أن محاسبة أهل المدينة لأولئك المسؤولين قد أنهت النزاع بين الطرفين، بل ربما تكون قد أسهمت في تأزم الموقف، فقد ضيق الشريف سعد على أهل المدينة واشتد

(١) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٦٨ - ٤٧١؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٢١ - ٢٣١.

(٢) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٧١؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٨٤؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٣٤.

(٣) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٧٣، ٤٧٤؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٣٧ - ٢٤٠، ٢٦٠ - ٢٧١؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٨٧، ٨٨.

(٤) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٩١، ٤٩٢؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٧٣ - ٢٧٥.

(٥) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٩٤، ٤٩٨ - ٥٠١؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٧٧ - ٢٨٢؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٩١ - ٩٣.

(٦) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٨٩، ٢٩٠؛ العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٩٦؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٥٥.

نوابه في معاملة السكان وتدخل الشريف في الوظائف التي كانت متروكة لشيخ الحرم النبوي وقادة العسكر العثماني وحجب ما كان يرسل إلى المدينة المنورة من الأموال والغلال والصدقات، فاشتد غضب أهل المدينة من هذه السياسة التي تهدف إلى معاقبتهم، فأرسلوا العرائض إلى مصر والعاصمة العثمانية يشكون فيها من سوء معاملة الشريف سعد ونوابه في المدينة المنورة، وسافر محمد ظافر، قائد أوجاق السباهية في المدينة إلى إستانبول لعرض شكاوى أهل المدينة نيابة عنهم على الصدارة العظمى[١]. وقد تخوف المسؤولون العثمانيون في القاهرة وإستانبول من تزايد قوة سلطة الشريف سعد في المدينة المنورة، كما كان الوضع في عهد أبيه الشريف زيد بن محسن.

كان يتولى الصدارة العظمى في الدولة العثمانية في ذلك الوقت فاضل أحمد باشا كوبريلي ١٠٧٢ ـ ١٠٨٧ هـ/١٦٦١ ـ ١٦٧٦ م الذي كان يحاول هو وأبوه من قبله إعادة التماسك والقوة للدولة وإصلاح أوضاعها الإدارية والمالية والعسكرية والحفاظ على سلطتها في الولايات البعيدة[٢]. قرر الصدر الأعظم معالجة المشكلات التي نتجت من وصول الشريف سعد إلى إمارة مكة المكرمة والحجاز، ومن أهمها اضطراب الأمن في مكة المكرمة وما جاورها وإهمال معاقبة الذين أوقعوا المذبحة بعسكر السلطان والتجار والزوار الذين كانوا يرافقونهم في ينبع والمعاملة السيئة والجور الذي ألحقه الشريف سعد بأهل المدينة، فأرسل مع قافلة الحج الرومية قائداً عسكرياً كبيراً يدعى حسن باشا في أواخر عام ١٠٧٩ هـ بداية ١٦٦٩ م وفوض إليه أمر (سنجقية) جدة والنظر في أمر مكة المكرمة ومشيخة الحرم المكي[٣]. ولما علم الشريف سعد بوصول هذا المسؤول الكبير إلى المدينة ـ وهو أول قائد عسكري عثماني برتبة باشا يعين سنجقاً لجدة ومشيخة الحرم المكي ـ أدرك الهدف من إرساله وتخوف جداً ما يمكن أن يقوم به ضده، فأخذ الحذر منه[٤].

استقبل أعيان المدينة المنورة ورؤساء العسكر العثماني فيها حسن باشا استقبالاً حافلاً خارج البلد، ولما استقر في المدينة أخذوا يشكون إليه ما يلاقونه من الظلم والمعاملة السيئة والشطط والتعدي على مخصصاتهم من قبل الشريف سعد ونوابه وموظفيه في المدينة، فاستدعى حسن باشا أولئك النواب والموظفين وشتمهم وأهانهم وعزرهم ثم أودعهم السجن في القلعة وأمر بحذف اسم أمير مكة المكرمة والحجاز من الخطبة في المسجد النبوي الشريف. وكان لمحمد ظافر، قائد السباهية دور كبير في ذلك، فقد كان هو المحرض على ما قام به الباشا ضد نواب الشريف والموالين له في المدينة، كما قام رجاله بمساعدة الباشا في تنفيذ أوامره في حقهم[٥].

في السابع والعشرين من شهر رجب ١٠٨٠ هـ/ديسمبر ١٦٦٩ م وقع قتال في المدينة المنورة بين العسكر العثماني في المدينة وجماعة من قبيلة حرب قدموا المدينة لزيارة المسجد النبوي في الموسم المعروف بـ(الرجبية) وكان على رأسهم شيخهم المشهور أحمد بن رحمة، ولم يكد هؤلاء الزوار يدخلون المدينة حتى فاجأهم العسكر بالقتال، وقد استمرت المعركة بين

(١) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٠٦؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٩٠؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٥٥.

(٢) محمد فريد المحامي، *تاريخ الدولة العلية العثمانية*، تحقيق: إحسان حقي، (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٣ هـ)، ٢٩٤ ـ ٣٠٠.

(٣) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٠٦؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٨٩.

(٤) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٠٦؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٨٩.

(٥) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٠٦؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٥٦.



المسجد النبوي الشريف

الطرفين حتى حلول الظلام من ذلك اليوم إذ أمر الشيخ أحمد بن رحمة أفراد قبيلته لكي يتمكن من معرفة سبب اندلاع الحرب، وفي صباح اليوم التالي أرسل شيخ الحرم النبوي وقاضي المدينة إلى شيخ حرب وطلبوا حضوره، فلما حضر أخذ هو ورؤساء العسكر وأعيان المدينة يختصمون ويدعي كل على الآخر بأنه هو البادئ بالعدوان، وفي النهاية تم الإصلاح بين الطرفين وأُلبس الشيخ وبعض مرافقيه خلعاً من الجوخ وتم الاتفاق على عدم العودة لما مضى[١]، ويظهر أن عسكر المدينة وسكانها الذين كانوا يتوجسون خيفة من الشريف سعد ويتوقعون انتقامه منهم بسبب ما قام به حسن باشا ضد نواب الشريف لإنصافهم، قد ظنوا أن جماعة حرب جاؤوا إلى المدينة مهاجمين لها بدافع من أمير مكة المكرمة.

وتدل هذه الحادثة على انقطاع الروابط بين سكان المدينة والقبائل المجاورة لها وانعدام الثقة بين الطرفين الناتج عن أسلوب الحكم العثماني في المنطقة.

بعد نحو عام من تسلم حسن باشا لمهام منصبه سنجقاً لجدة وشيخاً للحرم المكي والنظر في أمور الحرمين نيابة عن السلطان، بدأ الباشا في تنفيذ سياسته الهادفة إلى الحد من سلطات الشريف سعد بن زيد فكف أيدي وزير الشريف وموظفيه في جدة عن التصرف واستبدلهم بغيرهم وضرب بعضهم وأظهر مرسوماً سلطانياً يقضي بأن لسنجق جدة وحده التصرف بجميع مواردها للإنفاق منها على المسجد الحرام[٢]. وقد وصل حسن باشا إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج لعام ١٠٨١ هـ/إبريل ١٦٧٠ م مصطحباً عدداً كبيراً من العسكر، وبينما كان منحدراً من منى إلى مكة المكرمة أطلق عليه ثلاثة من العرب النار عند جمرة العقبة فأصابوه في فخذه، فعم الاضطراب الحجاج واستعد الشريف وعسكر الباشا للقتال الذي حال دونه تدخل أمراء الحج بين الطرفين[٣]. ويذكر العصامي عن سبب هذه الحادثة أن الباشا قطع عن الشريف حقه في نصف موارد جدة، فوثب عليه الشريف في طلب حقه[٤]، أما السنجاري فيرى أن الشريف سعد نفى أن تكون له علاقة بمحاولة اغتيال الباشا، لكنه طلب من أمراء الحج محاسبته ما دام على قيد الحياة عما هو للشريف من مدخول جدة وألح في الطلب وعين وكيلاً عنه في الدعوى لدى القاضي وتقاضى في النهاية جزءاً من المبلغ[٥].

توجه حسن باشا بعد الحج مع قافلة حجاج مصر إلى المدينة المنورة وقد عقد العزم

(١) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥١١، ٥١٢؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٩٥؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٥٧، ٣٥٨.

(٢) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥١٣؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٠٣، ٣٠٤؛ في حين يجعل العصامي المعاصر لهذه الأحداث هذه الإجراءات في شوال عام ١٠٨٠ هـ(١٦٦٩م)، ويوردها السنجاري المتوفى عام ١١٢٥ هـ ضمن أحداث العام الآتي ١٠٨١ هـ(١٦٧٠م).

(٣) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥١٧، ٥١٨؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٠٥، ٣٠٦؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٩٧، ٩٨.

(٤) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥١٨.

(٥) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٠٦، ٣٠٧؛ وانظر أيضاً: الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٩٧، ٩٨.

على الانتقام من الشريف سعد. وفي المدينة أشار عليه محمد ظافر قائد أوجاق السباهية وغيره من رؤساء العسكر وأعيان المدينة بعزل الشريف سعد وتولية بديل عنه، فوقع الاختيار على أحمد بن محمد الحارث الذي كان يقيم في ذلك الوقت في قرية الشعرا في عالية نجد، وبعد وصوله إلى المدينة المنورة أظهر حسن باشا أمراً سلطانياً يقضي بعزل الشريف سعد وتولية الشريف أحمد الحارث وألبسه خلعة التولية في الحجرة النبوية الشريفة، وأقيمت الخطبة باسمه في المدينة. أخذ حسن باشا يجهز قواته من عسكر المدينة وغيرهم، وأنشأ في قلعة المدينة مصنعاً للقنابل والقذائف وأرسل إلى نائبه في جدة يطلب منه إرسال ما يتوفر لديه من المال والذخيرة والمواد الغذائية[١].

أما الشريف سعد فقد توجه بعد الحج إلى ينبع وأقام هناك متوقعاً أن يواجهه حسن باشا بالحرب، وكان يرافقه أخوه الشريف أحمد بن زيد الذي كان قد أشركه معه في إمارة مكة المكرمة والحجاز منذ محرم عام ١٠٨١ هـ/يونيو ١٦٧٠ م، وأخذ الشريفان يجمعان المقاتلين من قبائل المنطقة ومن زعماء عشيرتهما[٢]. انتقل الشريفان بعد ذلك بقواتهما إلى مكان يقع على بعد سبعين كيلومتراً إلى الشمال من المدينة المنورة يسمى (ملحة)[٣]. ولما علم الشريف سعد بخروج القافلة التي تحمل الأموال والذخيرة والمؤن التي طلبها الباشا من جدة، أرسل أتباعه لاعتراضها والاستيلاء عليها ووزعها على قواته، وفي ملحة علم الشريف سعد بصدور أوامر الدولة العثمانية بعزل حسن باشا من منصبه ومغادرة الحجاز، فتوجه الشريف إلى مكة المكرمة، كما غادر الباشا المدينة المنورة وبصحبته محمد ظافر وعدد من قادة العسكر العثماني في المدينة إلى غزة، لأنهم خافوا على أنفسهم من انتقام أمير مكة المكرمة، إذ توفي الباشا قبل وصوله إلى هناك، وتوجه محمد ظافر وأصحابه إلى مصر[٤]، وسلمت المدينة المنورة من حرب كانت وشيكة بين الطرفين.

قرر الصدر الأعظم أحمد باشا كوبريلي بعد أن تتابعت الشكاوى من الشريف سعد بن زيد عزله وأخاه أحمد عن إمارة مكة المكرمة والحجاز، فأصدر أوامره إلى والي مصر بتجهيز ثلاثة آلاف جندي من مصر وإرسالهم إلى مكة المكرمة، كما أمر صاري حسين باشا والي حلب بتجهيز ألفي عسكري والتوجه بهم مع قافلة الحج الشامية إلى مكة المكرمة وبصحبته الشيخ محمد بن سليمان المغربي، أحد العلماء المجاورين بمكة المكرمة الذي وصل إلى العاصمة العثمانية للشكوى من أمير مكة المكرمة، وأسند الصدر الأعظم إلى حسين باشا النظر في أمر الحرمين وطلب منه ألا يبرم أمراً دون استشارة الشيخ محمد بن سليمان المغربي الذي أوكل إليه الإشراف العام على شؤون الحرمين الشريفين وتولية من يرى فيه الصلاح إمارة مكة المكرمة والحجاز[٥]. وبعد وصول عساكر محمد علي وحسين باشا والعساكر الشامية والشيخ المغربي إلى مكة المكرمة أدرك الشريف سعد وأخوه عدم قدرتهما على مواجهة القوات العسكرية الكبيرة فاختارا الخروج من مكة المكرمة[٦].

وبعد مغادرة الشريفين مكة المكرمة اجتمع حسين باشا وأمين الصرة وكاتب

(١) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥١٨، ٥١٩؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٠٧ ـ ٣٠٩؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٩٨ ـ ١٠٠.

(٢) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥١٨ ـ ٥٢٠؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٢٩٨ ـ ٣٠٠، ٣٠٤، ٣٠٨ ـ ٣١٠.

(٣) ملحة وادٍ ينحدر من القسم الشمالي من جبل الأشعر (الفقرة) المعروف بالكويرة ويصب في وادي الحمض جنوب وادي بواط الجلسي.

(٤) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٢٠؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٣١٠، ٣١١.

(٥) المرجع السابق، جـ٤، ٣١٢؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ١٠١.

(٦) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٢٠، ٥٢١؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٣١٦ ـ ٣١٩، ٣٢٤ ـ ٣٤٢؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ١٠٢ ـ ١٠٧.

الديوان ومحمد جاوش قائد العسكر المصري في منزل الشيخ محمد بن سليمان المغربي في منى، ودعوا الشريف بركات بن محمد بن إبراهيم بن بركات بن أبي نمي، وأظهر الباشا مرسوماً سلطانياً يقضي بتولية الشريف بركات إمارة مكة المكرمة والحجاز وألبسه خلعة التولية[١]. وقد أشار الصدر الأعظم أحمد باشا كوبريلي ووالي مصر في خطاباتهما إلى زعماء مكة المكرمة أن سبب عزل الشريف سعد بن زيد عن الإمارة هو:«ما ظهر من السيد سعد من الأمر الشنيع ما يشيب عنده الطفل الرضيع، وما كفاه ذلك حتى شدد الخناق على أهل المدينة البهية، وأذاقهم كأس المنون روية. فلما بلغ هذا الحال السمع الكريم السلطاني، أمر بعزل السيد سعد عن شرافة مكة وتفويضها إلى الشريف بركات»[٢]. وكان المدبر لكل هذه الأمور والمرتب لمراحل تنفيذها منذ البداية هو الشيخ محمد بن سليمان المغربي، فقد جمعت بين الشيخ المغربي وبين الصدر الأعظم أحمد كوبريلي بعد أن تقابل الرجلان في إستانبول الرغبة في إصلاح أوضاع الدولة العثمانية والقضاء على المفاسد والانحرافات السياسية والإدارية والدينية التي كانت تنخر في جسدها، ولذلك أوكل الصدر الأعظم مهمة النظر في أمور الحرمين الشريفين وإصلاح الأوضاع فيهما إلى الشيخ المغربي.

وبتولية الشريف بركات إمارة مكة المكرمة والحجاز، لم ينجح الشيخ المغربي في عزل الشريف سعد بن زيد وأخيه فحسب، بل نجح في نقل تلك الإمارة من فرع ذوي زيد إلى فرع ذوي بركات من أشراف مكة المكرمة، وبذلك وضع البداية لتنافس طويل بين الفرعين على الإمارة، وقد بدأ الشيخ المغربي خلال السنوات التالية في إصلاح وتغيير أوضاع بعض الأوقاف والمدارس والصدقات وغيرها في الحرمين الشريفين، ما أثار ضده نقمة المستفيدين من تلك الأوضاع[٣].

لقد أسهمت المشورة التي كان يقدمها الشيخ محمد بن سليمان المغربي للشريف بركات وتنامي القوات العسكرية العثمانية في الحجاز وتدخل قادة تلك القوات ومن بينهم: محمد جاوش، وأحمد باشا في صراعات الأشراف في عهد الشريف بركات وابنه الشريف سعيد في تزايد قوة النفوذ العثماني في الحجاز وإضعاف سلطة أمراء مكة المكرمة في الإقليم؛ ففي عام ١٠٨٤ هـ/١٦٧٣ م والعام الذي يليه شن الشريف بركات الحروب ضد قبائل منطقة المدينة المنورة لتأديبهم بمساعدة القوات العثمانية، وربما كان ذلك بإيعاز من الشيخ المغربي والقادة العثمانيين، فقد خرج الشريف بركات في منتصف ذلك العام ومعه الأشراف والعبيد والعساكر لقتال قبيلة حرب في وادي الصفراء بزعامة شيخهم أحمد بن رحمة، وقد ألحق بهم الشريف وقواته الهزيمة واضطر الشيخ أحمد بن رحمة إلى اللجوء إلى شيخ الحرم النبوي في المدينة المنورة، وتشير المصادر إلى أن سبب هذه الحملة هو لجوء الشريفين سعد بن زيد وأخيه أحمد أميري مكة المكرمة السابقين إلى قبيلة حرب[٤]. ولما ارتحل الشريفان المعزولان في العام التالي إلى وادي الفرع[٥]، جرد الشريف بركات حملة ضد سكان ذلك الوادي وقد اشترك معه في هذه الحملة سنجق جدة بعسكره ومدافعه، ونزلت

(١) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٢١؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٤٣، ٣٤٤.

(٢) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٢٢.

(٣) المرجع السابق، جـ٤، ٥٢٤، ٥٢٥؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٥١ ـ ٣٥٤، ٣٥٧ ـ ٣٥٩؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ١١٤ ـ ١١٦.

(٤) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٢٧، ٥٥١؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٦٦، ٣٩٧، ٣٩٩ ـ ٤٠١؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ١١١.

(٥) وادي الفرع: من أهم أودية الحجاز وأغناها بالمياه والنخيل ويعد من المناطق التابعة للمدينة المنورة قديماً وحديثاً، يقع على بعد (١٧٠) كم إلى الجنوب من المدينة تقريباً على الطريق إلى مكة المكرمة. سكانه قبيلة بني عمرو من حرب، وأم العيال وأبوضباع من أهم قراه. انظر: البلادي، عاتق بن غيث. قلب الحجاز، مرجع سابق، ١٠٢ ـ ١١١.

قواتهم في قريتي أم العيال وأبي ضباع، وبعد مفاوضات توصل زعماء وادي الفرع إلى اتفاق مع الشريف بركات الذي عاد بقواته إلى مكة المكرمة[١].

كان من نتائج ازدياد قوة النفوذ العثماني في الحجاز خلال عهد الشريف بركات أيضاً ضعف سلطة وهيبة شريف مكة المكرمة في المدينة المنورة، فعلى الرغم من استمرار الشريف بركات في إرسال ممثلين له إلى المدينة كالوزير والحاكم ومساعديهم[٢]، إلا أن العساكر العثمانيين في المدينة المنورة تجرؤوا في شهر رمضان عام ١٠٩٠ هـ/١٦٧٩ م على محاصرة منزل محمد بن أحمد الخلفاني وزير الشريف بركات في البلدة ثم اقتحام المنزل وقتل الوزير وحاكم المدينة المعين من قبل الشريف القائد متعب بن إدريس وخمسة عشر رجلاً آخرين من مساعديهما وأتباعهما، وقد ادعى العسكر أن الوزير سب السلطان العثماني فاجتمعوا على باب منزله ودعوه إلى الشرع، ولما طلب منهم التفرق عن بابه لكي يتمكن من الوصول إلى القاضي بسلام أبوا ذلك واستصدروا حكماً بعصيانه للشرع وكسروا الباب وأعطوا عدداً من الأعوان الذين كانوا بداخل المنزل أمان الله وأمان السلطان ولكنهم قتلوهم حين خرجوا، وهتكوا حرمة الدار ونهبوها واستخرجوا الوزير من بين نسائه وقتلوه وطرحوه في الشارع العام[٣].

شكا الشريف بركات ما حل بوزيره وحاكمه في المدينة على يد الجند العثمانيين إلى والي مصر، وعين له أسماء القتلة، كما أرسل إلى المدينة وزيراً بدلاً من وزيره المقتول، لكن الوزير الجديد لم يستطع ممارسة مهامه بل تعرض للتهديد بالقتل ففر هارباً، كما أن الدولة العثمانية لم تفعل إزاء هذه الجريمة أكثر من إخراج بعض المتهمين بالقتل من المدينة وقطع رواتبهم، وقد تمكن عدد منهم من العودة إلى المدينة بعد سنوات[٤]. وتدل هذه الحادثة وموقف الدولة العثمانية منها على رغبة الدولة في إضعاف نفوذ شريف مكة المكرمة في المدينة المنورة، كما يدل على ذلك أيضاً لجوء شيخ قبيلة حرب أحمد بن رحمة الذي كان يطارده الشريف بركات ـ كما تقدم ـ إلى شيخ الحرم النبوي في المدينة وشفاعة شيخ الحرم له لدى الشريف حتى عفا عنه[٥].

ترتب على تعاظم النفوذ العثماني في الحجاز على حساب سلطة أمير مكة المكرمة أيضاً تمرد زعماء عشائر الأشراف ـ وبخاصة من ذوي زيد الذين خسروا الإمارة ـ على الشريف بركات وابنه الشريف سعيد، وأخذوا يثيرون الفوضى والاضطراب في مكة المكرمة ويطالبونهما بالأموال حتى رضخا لهم وتنازلا لهم عن ثلاثة أرباع موارد مكة المكرمة والهبات والصدقات التي ترد إليها، وذلك بموافقة الدولة العثمانية[٦]. وفي عام ١٠٩٩ هـ/١٦٨٨ م تجاهل سنجق جدة محمد بك أبوشوارب ووالي مصر اختيار الشريف سعيد بن سعد بن زيد من قبل جماعة الأشراف في مكة المكرمة ليكون أميراً لمكة المكرمة والحجاز، وتسلم السنجق والوالي الرشى من الشريف أحمد بن غالب بن مساعد بن مسعود بن حسن بن أبي نمي وأصدرا الأوامر بتعيينه أميراً لمكة المكرمة والحجاز[٧]، وقد أصبحت ينبع ومنازل القبائل المحيطة بها ميداناً للصراع بين الأمير أحمد بن غالب ومنافسيه[٨]. وقد

(١) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٢٧، ٥٥١؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٣٦٧، ٤٠٩، ٤١٠؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ١١٢، ١١٣.

(٢) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٤٤ ـ ٤٥٨.

(٣) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٣٠؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٥٦، ٤٥٧؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ١٢١.

(٤) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٣٠؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٥٨، ٤٥٩؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ١٢١.

(٥) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٤٠١.

(٦) العصامي، عبدالملك بن حسين. سمط النجوم، مرجع سابق، جـ٤، ٥٣٢، ٥٣٩ ـ ٥٤٢، ٥٥٠، ٥٥١؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٤، ٤١٣، ٤٧٤ ـ ٤٧٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٥٠١ ـ ٥٠٤، ٥٢٣، ٥٢٤.

(٧) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٥، ٥٥ ـ ٦٢؛ جارشلي، إسماعيل حقي. أشراف مكة، مرجع سابق، ١٦٠، ١٦١.

(٨) الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ١٣٥ ـ ١٣٨؛ السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٥، ٩٥ ـ ٩٩، ١١٥ ـ ١١٧.

استولى ذلك الأمير على غلال وصرة أهالي الحرمين الشريفين، والغلال المخصصة للقبائل المكلفة بنقل الغلال من ينبع إلى المدينة المنورة وحراستها المسماة (صاحب درك)، وأخذ مجوهرات الروضة الشريفة[١]، وقد اضطر نائبه (قائمقامه) في المدينة المنورة إلى العودة إلى مكة المكرمة بسبب انحلال سلطته في المدينة وينبع[٢].

لقد نتج من رغبة الساسة العثمانيين في إضعاف سلطة أمير مكة المكرمة والحجاز وعدم ثبات سياستهم تجاه أشراف مكة المكرمة أن ثارت النزاعات والحروب بين زعمائهم وعشائرهم على الإمارة ومواردها خلال العقد الأخير من القرن الحادي عشر والعقدين الأولين من القرن التالي، إذ تداول الإمارة في مكة المكرمة خلال هذه الفترة أكثر من خمسة عشر شريفاً، وصل بعضهم إلى الإمارة أربع مرات وبعضهم الآخر ثلاث مرات وبعضهم مرتين[٣]. وقد نتج من تلك النزاعات والحروب اضطرابات وفوضى وخسائر في الأرواح والأموال عانى منها سكان مكة المكرمة وجدة والطائف والحجاج والتجار، كما عانت منها القبائل المجاورة لمكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع، أما سكان المدينة المنورة نفسها فلم يتأثروا بتلك النزاعات بسبب قوة النفوذ العثماني في المدينة وضعف سلطة أمراء مكة المكرمة فيها وانشغالهم بنزاعاتهم وحروبهم، وكان من أبرز أمراء مكة المكرمة والحجاز خلال هذه الفترة الشريف سعد بن زيد وابنه الشريف سعيد بن سعد بن زيد اللذان وصل كل منهما إلى الإمارة أربع مرات[٤].

ب ـ المدينة المنورة خلال القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي):

تمكنت الدولة العثمانية في أواخر القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) من إضعاف سلطة أمراء مكة المكرمة في المدينة المنورة، وصارت سلطة نواب شريف مكة المكرمة في المدينة محدودة ومقتصرة على أمور محددة، أما ينبع فقد حرص أمراء مكة المكرمة على بقاء نفوذهم قوياً فيها، بسبب ورود مراكب تجارية كثيرة إليها يمكن فرض الضرائب عليها، ولكونها فرضة المدينة المنورة التي تمر عبرها الغلال والحبوب المرسلة إلى المدينة، كما يمر عبرها بعض المسؤولين العثمانيين القادمين من مصر بالأوامر والهدايا والخلع المرسلة إليهم. كما أن ينبع هي بلادهم الأولى التي ما زال يعيش فيها بعض عشائرهم وحلفاؤهم ويلجأ إليها في أغلب الأحيان الخارجون على أمير مكة المكرمة للتقوي بعشائرها ومواردها، ولذلك كان أمير مكة المكرمة يحتفظ في ينبع بوزير وحاكم وفرقة عسكرية[٥].

استقبلت المدينة المنورة خلال القرن الحادي عشر الهجري ـ بحكم ازدياد النفوذ العثماني فيها ـ أعداداً كبيرة من الموظفين العثمانيين، والفرق من الجنود المرسلين للتمركز فيها، والمجاورين الذين تقاطروا من مختلف الأقاليم التابعة للدولة العثمانية، خصوصاً من الأناضول والبلقان وبلاد الشام، وقد استقرت أعداد كبيرة من أولئك الموظفين والجنود والمجاورين في المدينة واتخذوها وطناً، ونمت وتكاثرت أسرهم فيها، وأصبحوا يشكلون قسماً مهماً ومتميزاً من سكان المدينة إلى جانب سكانها القدماء[٦]. وقد ساعد على

(١) جارشلي، إسماعيل حقي. أشراف مكة، مرجع سابق، ١٦١.

(٢) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٥، ١٠٤.

(٣) انظر: جارشلي، إسماعيل حقي. أشراف مكة، مرجع سابق، ١٥٠ ـ ١٦٩.

(٤) الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٢٥٢، ٢٥٣؛ جارشلي، إسماعيل حقي. أشراف مكة، مرجع سابق، ١٥٠ ـ ١٥٧، ١٦٣ ـ ١٦٦.

(٥) حمد الجاسر، *بلاد ينبع*، (الرياض: دار اليمامة، د.ت)، ٢٨، ٢٩، ٦٧ ـ ٧١.

(٦) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٤٣، ٣٤٤.

استقرار هذه الفئات الاجتماعية في المدينة هدوء الأوضاع السياسية والاجتماعية فيها بسبب قوة سلطة الدولة في المدينة المنورة وقلة الصراعات السياسية والاجتماعية مقارنة بمكة المكرمة، وتمتعت هذه الفئات وبخاصة العسكر والموظفون بموارد مالية ترسل من الدولة العثمانية، بالإضافة إلى استفادتهم من الغلال والأموال والهدايا والصدقات التي كانت ترسل إلى الحرمين الشريفين من أقاليم الدولة العثمانية والبلدان الإسلامية الأخرى، ومشاركة بعضهم في الوظائف والخدمات التي تقدمها المؤسسات الدينية التي أقامتها الدولة المملوكية ثم الدولة العثمانية في المدينة المنورة مثل: المدارس والأوقاف والتكايا والأربطة، وقد استقطبت هذه المؤسسات الدينية وكذلك الرغبة في الحصول على الغلال والصدقات الواردة إلى المدينة بشكل خاص أعداداً من المجاورين، خصوصاً من المنقطعين للعبادة وطلب العلم.

كانت الحكومة العثمانية ترسل كبار موظفيها في المدينة المنورة مثل شيخ الحرم النبوي وقاضي الشرع وقادة الفرق العسكرية من العاصمة، وكان هؤلاء الموظفون يصطحبون معهم أسرهم وبعض أقاربهم وخدمهم، وعلى الرغم من أنهم كانوا يستبدلون بين فترة وأخرى إلا أن بعضهم كان يطيب له المقام في المدينة والمجاورة فيها بعد تركه الوظيفة، كذلك فضل كثير من الجنود الذين كانوا يرسلون إلى المدينة المنورة ضمن الفرق العسكرية المقامة هناك خلال القرن الحادي عشر الهجري التوطن في مكان إقامته، كما كان يفعل غيرهم في الولايات العثمانية الأخرى، وبدؤوا يمارسون أنشطة مهنية وتجارية أخرى، كما بدأ بعضهم في اقتناء العقارات والمزارع والدخول في النسيج الاجتماعي والاقتصادي في المدينة وأهملوا مهامهم العسكرية الأصلية، ويذكر الرحالة العياشي «أن بها (المدينة المنورة) طائفة كبيرة من عسكر الترك زاعمين أنهم معدون لحراستها، وفي الحقيقة إنما يأكلون مال السلطان في غير شيء، فلا يغيثون ملهوفاً ولا يردعون ظالماً»[١]. ومع مرور سنوات القرن الحادي عشر الهجري توقف إرسال أوجاقات (فرق) عسكرية جديدة من العاصمة العثمانية أو مصر، وأخذت الفرق المقامة في المدينة تقبل أبناء الجنود السابقين والمتطوعين من سكان المدينة والمقيمين فيها، حتى صارت تعتمد عليهم اعتماداً كلياً، ولم يعد يرسل من الدولة إلا القادة وكبار الضباط[٢].

ويذكر الرحالة العياشي «أن بها (المدينة المنورة) من الأعاجم أقواماً كثيرين من الأكراد والترك وأطراف الشام يشترون الحصص والجامكية (المخصصات والرواتب) فيجلسون بالمدينة ويرتزقون بما يأتيهم من ذلك على حالهم التي كانوا عليها في بلادهم من التوسعة، فاقتدى بهم غالب أهل المدينة من أقويائها»[٣].

نتج من النمو السكاني الذي شهدته المدينة المنورة خلال القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) توسع عمراني كبير لسد حاجة المهاجرين والمجاورين والمتوطنين من المساكن الجديدة، وقد أقيمت هذه المساكن والبيوت خارج السور الذي بُني خلال حكم السلطان سليمان القانوني في الجهات الشمالية والغربية والجنوبية من المدينة القديمة[٤].

(١) أمحزون، محمد. المدينة المنورة في رحلة العياشي، مرجع سابق، ٢٢٧.
(٢) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٤٣.
(٣) أمحزون، محمد. المدينة المنورة في رحلة العياشي، مرجع سابق، ٢٢٧.
(٤) جلبي، أوليا. الرحلة الحجازية، مرجع سابق، ١٣٧؛ حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٣٣.

وبرزت في هذه الجهات أحياء جديدة يضاهي مجموع مساحتها مساحة المدينة القديمة، وفيما بعد أحيطت هذه الأحياء الجديدة بسور ثانٍ امتد من البقيع واتجه جنوب غرب إلى باب قباء فالعنبرية ثم امتد شمالاً موازياً لوادي بطحان من الغرب حتى وصل إلى طرف جبل سلع عند باب الكومة[١]. ويشير الرحالة أوليا جلبي الذي زار المدينة المنورة في عام ١٠٨٢ هـ/١٦٧١ م إلى هذه الأحياء الجديدة ويسميها ضاحية المدينة قائلاً:

«وتقع هذه الضاحية قبالة القلعة (السور القديم) وأطرافها الشمالية والغربية والجنوبية، كلها عبارة عن قصور وبيوت ذات حدائق غناء وبساتين يانعة... وبهذه الضاحية حمام عام وبالقرب منه مدرسة الخاصكية حيث ينام الحجاج... وبها أربعة مبانٍ كبيرة، إحداها من آثار السلطان سليمان، وهو بالقرب من حمام مراد الثالث، ومن الخاصة السلطانية توزع الشربة ولحم الضأن والأرز والزردة والعاشوراء[٢] على الفقراء والمساكين ليلاً ونهاراً، كما توزع على الذين يسكنون داخل أسوار القلعة جميعاً غني أو فقير، خادم أو مخدوم. وبهذه الضاحية أربعون مَضْيَفَة يؤمها عابرو السبيل، أشهرها مضيفة المفتش محمد باشا...»[٣].

ويتضح مما تقدم أن هذه الأحياء الجديدة أو الضاحية قد أنشأها السلاطين العثمانيون ورجال دولتهم وكبار موظفيهم في المدينة بالإضافة إلى أثرياء البلدة رغبة في التوسع خارج السور القديم، وقد قدر الرحالة أوليا جلبي سكان المدينة المنورة في غير أيام الحج بنحو أربعة عشر ألف نسمة، لكن البلدة تتحول إلى بحر من البشر عندما يفد الحجاج ويعم الرخاء[٤].

ترتب على هذا التغير السكاني في المدينة المنورة تحولات اجتماعية وثقافية في المجتمع، فانتشرت اللغة التركية في المدينة وصار يتحدث بها عدد من أهل البلدة خصوصاً ممن لهم علاقة بالدولة ووظائفها، هذا فضلاً عن الموظفين العثمانيين والعسكر الذين يرسلون من العاصمة العثمانية أو مصر من الذين لا يحسنون اللغة العربية[٥]. كذلك نقل هؤلاء المهاجرون والمجاورون عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم وطرائق معيشتهم في المسكن والملبس والمأكل، وبما أن هذه الفئات الاجتماعية الطارئة من الأثرياء والمرتبطين بالدولة العثمانية كانوا يحرصون على التقيد بأنماط الحياة العثمانية وعاداتها وتقاليدها تمييزاً لأنفسهم عن الرعية، فقد أصبحوا مثالاً يحاول أثرياء أهل المدينة وكبراؤها التشبه بهم والاقتباس منهم، فشاع البذخ والترف والتأنق في المسكن والملبس والمأكل والمركب، وفشت عادات وتقاليد وطرائق معيشة العثمانيين وسلوكهم، وتميزت المدينة المنورة عن غيرها من مدن الحجاز والجزيرة العربية في هذه النواحي الثقافية والاجتماعية بسبب كونها مركزاً للنفوذ والتأثير العثماني، ويقول الرحالة العياشي في هذا الخصوص:

«وأهل المدينة ... أهل رفاهية وتوسع في المعيشة في زماننا هذا ١٠٧٣ هـ/١٦٦٢ م وتغال في الملابس الفاخرة، وتزيوا بزي الأعاجم في مأكلهم ومشاربهم وملابسهم لكثرة سكنى الأعاجم بها، فإن بها طائفة كبيرة من عسكر الترك... وقد كانت المدينة في الزمن المتقدم معروفة بالقناعة حتى قال مالك رضي الله عنه في الكفارة والنفقات بالتفاوت بين المدينة وغيرها لقناعتها، فآل الأمر في هذا

(١) جلبي، أوليا. الرحلة الحجازية، مرجع سابق، ١٣٧؛ حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٣٣.

(٢) المقصود بالخاصة السلطانية هي: التكية التي أنشأها السلطان سليمان القانوني لإطعام فقراء المدينة وفقراء الحجاج، وقد عرفت فيما بعد بالتكية المصرية؛ لأن الحكومة المصرية التابعة للدولة العثمانية تولت تشغيلها والإنفاق عليها، والزردة نوع من الأرز يطبخ مع الهرد والسكر، والعاشوراء طعام يطبخ بمناسبة العاشر من محرم.

(٣) جلبي، أوليا. الرحلة الحجازية، مرجع سابق، ١٣٧ ـ ١٣٩.

(٤) المرجع السابق، ١٤٠.

(٥) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٤٣.

الزمن إلى خلاف ذلك، فصاروا أرفه الناس عيشاً وأكثرهم في المأكل والملابس إسرافاً، أعني الكبراء منهم»[١].

ج ـ المدينة المنورة خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي):

أسهمت السياسة العثمانية الرامية إلى إضعاف نفوذ أمير مكة المكرمة والحجاز في المدينة المنورة من ناحية، وصراع زعماء أشراف مكة المكرمة على الإمارة ومخصصاتها في أواخر القرن الحادي عشر والعقدين الأولين من القرن التالي من ناحية أخرى، في تقليص سلطة أمراء مكة المكرمة في المدينة والمناطق المحيطة بها، وقد حاول الشريف سعد بن زيد أقوى أولئك الأمراء المحافظة على سلطته في المدينة وعلى القبائل المحيطة بها لكن ذلك لم يستمر طويلاً، ولذلك يلاحظ أن غالب أحداث المدينة المنورة خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) هي أحداث محلية ومشكلات وصراعات داخلية بين القوى الاجتماعية والسياسية والعسكرية في المدينة.

حينما استرد الشريف سعد بن زيد في عام ١١٠٦ هـ/١٦٩٤ م إمارة مكة المكرمة بالقوة وأجبر الأمير المعين من قبل الدولة على مغادرة مكة المكرمة، رفض المسؤولون العثمانيون في المدينة المنورة إقامة الخطبة له فيها حتى يصلهم مرسوم التولية من السلطان العثماني، وقد استاء الشريف سعد من ذلك، وبعد وصول المرسوم بعث الشريف سعد ابن أخيه الشريف محسن بن حسين بن زيد الذي سبق له أن تولى إمارة مكة المكرمة حاكماً للمدينة[٢]. ويدل تعيين الشريف سعد لشخصية بارزة من أسرته حاكماً للمدينة على رغبته في تقوية سلطته فيها، لكن إقامة الشريف محسن في المدينة لم تطل حيث توفي هناك بعد فترة وجيزة[٣]. وفي عام ١١٠٨ هـ آخر عام ١٦٩٦ م وصل إلى ينبع مسؤول عثماني (آغا) ومعه مبلغ مئة وخمسين كيساً من النقد ثمن غلال متأخرة لأهل الحرمين، ولما علم الشريف سعد بذلك طلب منه القدوم إلى مكة المكرمة قبل الذهاب إلى المدينة المنورة، لكن المسؤول العثماني أبلغ الشريف أنه مأمور بالوصول أولاً إلى المدينة لتوزيع ما معه من الأموال على مستحقيها، ويبدو أن المسؤولين العثمانيين كانوا متخوفين من أن يستولي أمير مكة المكرمة على غالب تلك الأموال ويحرم مستحقيها منها كما حدث في الماضي، ولذلك أمروه بالتوجه إلى المدينة أولاً، وقد سارع الآغا إلى الاتصال بشيخ الحرم النبوي وشيوخ حرب وطلب منهم إرسال قوة من الجند لحمايته وإيصاله إلى المدينة. وقد وصل الآغا بالمال إلى المدينة تحت حماية شيوخ حرب وفرقة من عسكر شيخ الحرم النبوي، وبدأ في الحال في تقسيم المال ليلاً ونهاراً مخافة تدخل أمير مكة[٤].

إن علاقة كل من أمير مكة المكرمة والحجاز وأمراء الحج العثمانيين بالقبائل التي تمر قوافل الحج بديارها لها أثر كبير على سلامة الحجاج، فقد كانت الدولة العثمانية تخصص مبالغ مالية (صرة) ومقادير من الحبوب تدفع سنوياً لشيوخ تلك القبائل مثل: بني صخر وعنزة وحرب لقاء حمايتهم وخدمتهم لقوافل الحج، لكن أمراء مكة المكرمة والحجاز وأمراء قوافل الحج كانوا أحياناً يحجبون تلك الأموال

(١) أمحزون، محمد. المدينة المنورة في رحلة العياشي، مرجع سابق، ٢٢٧.
(٢) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٥، ٢١٧.
(٣) المرجع السابق، جـ ٥، ٢١٧.
(٤) الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٢٠١.

والحبوب عن أصحابها أو يعطونهم أقل مما هو مخصص لهم، فتثور تلك القبائل وتهاجم قوافل الحج[١]. ففي عام ١١١٢ هـ/١٧٠١ م جاء شيوخ قبيلة عنزة إلى حسن باشا أمير قافلة الحج الشامي يطلبون مخصصاتهم عند وصول القافلة إلى العلا، فما كان منه إلا أن لوح لهم بسيفه استخفافاً بهم، وبينما كانت القافلة في طريق عودتها إلى الشام بعد الحج هاجمت عنزة القافلة، واستمرت المعركة نحو عشرة أيام مات خلالها قريباً من ثلاثين ألف شخص من القتل والجوع والعطش وفقد الطريق. ولم ينج من القافلة سوى عدد قليل وصلوا إلى أطراف الشام أو عادوا إلى المدينة المنورة، واكتسب حسن باشا لقب (ملطخ الحاج) بسبب ذلك، وتم استدعاؤه إلى إستانبول وسجنه، لكنه تمكن في النهاية من إلصاق أسباب الجريمة بنائبه الذي أمر السلطان بإعدامه[٢]. وبعد المعركة جاءت قبيلة عنزة إلى المدينة لبيع المنهوبات التي أخذوها من القافلة المذكورة، وقد اشترى أهل المدينة تلك المنهوبات[٣]. وبعث المسؤولون العثمانيون رسالة توبيخ لأمير مكة المكرمة الشريف سعد بن زيد بسبب تقصيره في حماية الحجاج، وحضوه على القيام بواجبه تجاههم وحمايتهم منذ وصولهم إلى مدائن صالح (العلا) حتى عودتهم إليها، وإن ذلك من شروط إمارة مكة[٤].

كانت الدولة العثمانية تعتمد على شيوخ قبيلة حرب في نقل الغلال والحبوب المرسلة من مصر عبر ينبع إلى المدينة المنورة مقابل أموال تدفع لهم، ولكن عندما تسوء علاقة أمير مكة المكرمة والحجاز بتلك القبيلة كما حدث في عهد الشريف سعد بن زيد، أو يستولي الشريف على الغلال المخصصة للمدينة المنورة أو مخصصات نقل تلك الغلال، فإن الاضطرابات والحروب تعم المنطقة وتنقطع السبل ويتعرض سكان المدينة والحجاج والزوار الذين يؤمونها للغلاء والخوف والجوع[٥]. ولذلك كانت الدولة العثمانية توصي أمير مكة المكرمة والحجاز بتحسين علاقته مع (العرب) وبخاصة قبيلة حرب، وتحذره من التعرض لشيخها أو التفريط في حق هذه القبيلة أو الإيقاع بها[٦].

في عام ١١١٥ هـ/١٧٠٣ م ثار الصراع بين أمير مكة المكرمة والحجاز الشريف سعيد بن سعد بن زيد وزعماء الأشراف بسبب مخصصاتهم المالية، وبعد نزاع وحروب طويلة اضطر الشريف سعيد إلى مغادرة مكة المكرمة وتوجه إلى المدينة ونزل على شيخ حرب مبارك بن رحمة واستنجد به، لكن الشيخ مبارك رفض التدخل في صراع أشراف مكة المكرمة، فارتحل الشريف سعيد إلى ينبع ونزل على بني إبراهيم وغيرهم من جهينة، واستولى بمساعدتهم على بندر ينبع، كما وضع يده على قسم من الأموال والغلال الواردة عن طريق ينبع لأهل الحرمين، وبقيت ينبع أحد ميادين الصراع بين أشراف مكة المكرمة طوال عام ١١١٦ هـ/١٧٠٤ م حتى وصلت المراسيم العثمانية بتولية الشريف سعيد بن سعد وهو مقيم في قرية الجابرية في ينبع النخل في أواخر ذلك العام إذ نودي له بإمارة مكة المكرمة والحجاز هناك[٧].

لئن نجحت الدولة العثمانية في إضعاف نفوذ أمراء مكة المكرمة والحجاز في المدينة المنورة إلى حد كبير، إلا أنها لم تعمل في المقابل على تقوية سلطاتها المتعددة في المدينة وإصلاح أوضاعها عن طريق تحديد

(١) جارشلي، إسماعيل حقي. أشراف مكة، مرجع سابق، ١١٠ ـ ١١٢.

(٢) جارشلي، إسماعيل حقي. أشراف مكة، مرجع سابق، ١١٢، ١١٣؛ وانظر أيضاً: السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٥، ٢٦٩، إذ يشير إلى الحادثة إشارة مقتضبة.

(٣) عبدالرحمن الأنصاري، *تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب*، تحقيق: محمد العروسي المطوي، (تونس: المكتبة العتيقة، ١٩٧٠م)، ١٧٨.

(٤) جارشلي، إسماعيل حقي. أشراف مكة، مرجع سابق، ١١٢.

(٥) المرجع السابق، ٨٤، ١١١، ١٦١.

(٦) السنجاري، علي بن تاج الدين. منائح الكرم، مرجع سابق، جـ٥، ١٧١، ١٧٢.

(٧) المرجع السابق، جـ٥، ٣٢٦ ـ ٣٢٨، ٣٥٧ ـ ٣٥٩؛ الطبري، محمد بن علي فضل. تاريخ مكة، مرجع سابق، جـ٢، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٤؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٥.

مهام كل منها وتحديد علاقة بعضها ببعض ومنح الصلاحيات الكافية لواحدة منها تمكنها من التنسيق بين تلك السلطات في أوقات الأزمات، وذلك بسبب الضعف العام والفساد الذي تغلغل في مختلف مؤسسات الدولة خلال هذا القرن. ولما تقلص نفوذ أمراء مكة المكرمة والحجاز في المدينة المنورة وضعفت سيطرة الدولة على سلطاتها في المدينة مثل: الفرق العسكرية الأربع، مشيخة الحرم النبوي، والقضاء والإفتاء، نشبت النزاعات بين تلك السلطات بسبب المنافسات بين القوى العسكرية والإدارية والاجتماعية في المدينة وصراع رؤساء تلك القوى على السلطة، وعدم انضباط المنتمين للفرق العسكرية.

في عام ١١١١ هـ/١٦٩٩ م نشب نزاع بين سكان المدينة المنورة وجيرانهم بني علي، وهم عشيرة من حرب كانوا يسكنون العوالي، الضاحية الجنوبية للمدينة، وقد تزعم هذا النزاع الذي تطور إلى حرب بين الطرفين، شيخ الحرم النبوي شاهين أحمد آغا الذي تمكن هو وجنوده ومن انضم إليه من سكان المدينة من إلحاق الهزيمة ببني علي ومطاردتهم إلى حرة بني قريظة، لكن بني علي تمكنوا - على ما يبدو - من الاستنجاد ببعض عشائر حرب القريبة من المدينة وأعادوا الكرة على أطراف المدينة وبساتينها، إذ أطلقوا لأنفسهم الحرية في نهب ما وصلت إليه أيديهم، ولم يوقف هذا الهجوم المعاكس سوى تدخل جنود القلعة العثمانيين الذين هبوا للوقوف بجانب شيخ الحرم النبوي وسكان المدينة، وقد ألقى سكان المدينة باللائمة على شيخ الحرم النبوي بسبب سوء إدارته للأزمة والمعركة[١]. وتدل هذه الحادثة على غياب نفوذ أمير مكة المكرمة في المدينة المنورة وضعف سلطة شيخ الحرم النبوي وعدم التنسيق بين السلطات العثمانية في المدينة، حيث تسببت هذه الحادثة في عزل شاهين آغا من منصبه[٢].



قلعة المدينة (قباء)

في عام ١١٢٧ هـ/١٧١٥ م حدث خلاف شديد بين حامية القلعة (القلعجية) وبين الفرق العسكرية الأخرى في المدينة فقد هاجمت جماعات من عساكر تلك الفرق القلعة وفرضت عليها الحصار، وانحاز نائب القاضي إلى حامية القلعة، وبعد مناوشات بين الطرفين تمكن المحاصرون من اقتحام القلعة وأخرجوا من فيها وأودعوهم السجن[٣]. ولأن هذا القتال

(١) جعفر بن حسين آل هاشم الحسيني، *الأخبار الغريبة في ذكر ما وقع ببطيبة الحبيبة*، مخطوطة توجد صورة منها في مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة برقم (٨٧٣١)، ٣.

(٢) الأنصاري، عبدالرحمن. تحفة المحبين، مرجع سابق، ٦٣.

(٣) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٨١، ٣٨٢.

وهذه الصراعات بين الفرق العسكرية في المدينة تؤثر على سكانها بسبب ما يحدث من نهب لأموالهم وممتلكاتهم وما يحدث من قتل لبعض المنتمين أو المرتبطين بتلك الفرق من سكان المدينة[١]، فقد اتفق جماعة من أعيان أهل المدينة المنورة على تشكيل جماعة منهم تقوم بنصرة الحق ودرء الفساد، وتعاهدوا على الالتزام بما اتفقوا عليه ولذلك سموا (جماعة العهد)، وقد اختاروا رئيساً عليهم هو السيد محمد بن علي بن أبي العزم[٢]. وقد ظهرت هذه الجماعة نتيجة لتردي الأوضاع في المدينة وشيوع الفساد وضعف السلطات في البلدة وكثرة الصراعات بينها وسقوط العديد من أهل المدينة ضحايا لها.

في عام ١١٣٤ هـ/١٧٢٢ م حدثت فتنة الأغوات وتنازعهم مع حامية القلعة[٣].لم يكن عدد الأغوات يتجاوز المئة شخص لكن علاقتهم بالمسجد النبوي والقبر الشريف وتلقيهم كثيراً من الهبات والصدقات والأموال وتخصيص عدد من الأوقاف عليهم بسبب ذلك وارتباطهم بشيخ الحرم النبوي، قد جعلهم فئة ثرية ومحترمة في المدينة وأكسبهم عدداً من الحلفاء والأتباع، وفي العام المذكور طُرد أحد أتباعهم كان يعمل في خدمة حامية القلعة من وظيفته بسبب سوء تصرفه، فحاول الأغوات إعادته إلى وظيفته لكن قائد الحامية رفض ذلك، فعدَّ الأغوات ذلك إهانة لهم، واشتد الخلاف والقتال بينهم وبين عسكر الحامية، ثم امتد ذلك إلى أنصار الطرفين في المدينة[٤].

وقف جماعة العهد وغيرهم من أهل المدينة إلى جانب عسكر الحامية لأن الأغوات رفضوا الحضور إلى مجلس القاضي وتسببوا في تعطيل الصلوات في المسجد النبوي، وحاصرت جماعة من العسكر ومعهم جماعة العهد الأغوات في المسجد وتبادل الطرفان إطلاق النار، وامتدت الاشتباكات إلى نواحٍ أخرى من المدينة بين أنصارهما، وسقط عددٌ من الجرحى والقتلى، ولما اشتد الحصار على الأغوات طلبوا الأمان وقبلوا الجلوس للمحاكمة لكن بشرط أن تكون على يد أمير مكة المكرمة والحجاز في مكة المكرمة، وقد أدان قاضي مكة المكرمة الأغوات وحكم بعزل رؤساء الفتنة وسجن بعضهم ونفي بعضهم الآخر[٥].

لم يرضَ الأغوات بالحكم الذي صدر في حقهم، فرحل عدد منهم إلى إستانبول واتصلوا بكبار المسؤولين هناك طمعاً في إبطال الحكم ورد اعتبارهم، ولم يعدموا من يتعاطف معهم في العاصمة العثمانية بسبب علاقتهم بالمسجد النبوي والحجرة الشريفة، وبسبب ارتباطهم بشيخ الحرم النبوي الذي غالباً ما يكون موظفاً كبيراً في قصر السلطان قبل أن يعين في منصبه في المدينة، وقد تمكن الأغوات من إقناع المسؤولين العثمانيين أن جماعة العهد هم سبب تفاقم المشكلة، وأن في ظهور هذه الجماعة خطراً على السلطة العثمانية في المدينة،ولم يكن من الغريب أن تتخوف الحكومة العثمانية الضعيفة على سلطتها في المدينة وتهمل التحقيق في المشكلة وتأخذ بوجهة نظر الأغوات، ومن ثم تأمر بقتل أربعة من جماعة العهد ونفي ثلاثة آخرين من المدينة وإلغاء الأحكام الصادرة عن القاضي بحق الأغوات وإعادتهم إلى مناصبهم، وكان أشهر من نفذ فيه أمر القتل الشيخ عبدالكريم البرزنجي الذي شنقه سنجق جدة في المكان الذي عرف فيما بعد بحارة المظلوم نسبة إليه[٦].

(١) المستعرض لكتاب *(تحفة المحبين)* للأنصاري الذي يفصل في أنساب أهل المدينة وأعمالهم يلاحظ كثرة عدد الذين كانوا يشغلون وظائف في الفرق العسكرية في المدينة منهم، وبخاصة وظائف الشوربجية.

(٢) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٨٢، ٣٨٣.

(٣) الأغوات: جماعة من الخصيان (الطواشية) كانوا يخصون في بلادهم في جهات الحبشة غالباً، ثم يرسلون إلى المدينة المنورة ويخصصون لخدمة المسجد النبوي والقبر الشريف.

(٤) الحسيني، جعفر بن حسين آل هاشم. الأخبار الغريبة، مرجع سابق، ٤ ـ ٨؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٨٥، ٣٨٦؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ١٧٣.

(٥) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٨٥، ٣٨٦؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ١٧٣. ويذكر دحلان أن الذي طلب أن تكون المحاكمة على يد أمير مكة المكرمة هم العسكر وأهل المدينة، وأن الأغوات حبسوا في القلعة قبل ترحيلهم إلى مكة المكرمة.

(٦) الحسيني، جعفر بن حسين آل هاشم. الأخبار الغريبة، مرجع سابق، ٨ ـ ١١؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٨٧، ٣٨٨؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ١٧٤.

وتدل هذه الحادثة على عدم وجود سلطة حقيقية في المدينة المنورة، إذ لم يرد ذكر فيها لأعلى مسؤول عثماني في المدينة وهو شيخ الحرم النبوي، كما لم تستطع جميع السلطات العثمانية في المدينة التوصل إلى حل للمشكلة، فانتقلوا بها إلى أمير مكة المكرمة الذي تعمل الدولة العثمانية على الحد من تدخله في شؤون المدينة، وقد تجاهل الأغوات أوامر قاضي الشرع في المدينة ثم رفضوا حكم قاضي الشرع في مكة المكرمة، كما تجاهل المسؤولون العثمانيون الفاسدون في العاصمة كل ذلك وحملوا أعيان المدينة - الذين تدخلوا للإصلاح - أوزار مشكلة حدثت بين موظفي الدولة في المدينة واستحلوا دماءهم ظلماً.

في منتصف القرن الثاني عشر الهجري تجددت الصراعات بين الفرق العسكرية في المدينة المنورة، كما تجددت في عام ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م الحروب والهجمات المتبادلة بين عشيرة بني علي وبين عساكر حامية القلعة، وفي غضون تلك الهجمات تسلل بعض بني علي إلى داخل المدينة وتمكنوا من قتل قائد الحامية عبدالرحمن بن عثمان الليبي، ولوجود خلاف بين الليبي وبين مفتي المدينة المنورة عبدالله أسعد أفندي فقد اتهم عساكر القلعة المفتي بالتدبير لمقتل قائدهم، فثاروا وتوجهوا إلى بيت المفتي واقتحموه بالأسلحة وتمكنوا من قتل من وجدوه هناك من خدمه ورجاله وأصابوا المفتي بعدة طلقات نارية [١]. ومرة أخرى تثبت هذه الحادثة ضعف السلطات العثمانية في المدينة وتنافسها وجهل الدولة العثمانية لما كان يحدث هناك.

في عام ١١٥٥ هـ/١٧٤٢ م وردت إلى المدينة المنورة كميات من الغلال مع أحد المسؤولين العثمانيين لتوزيعها على فقراء المدينة، لكن قادة الفرق العسكرية وكبار الموظفين في المدينة تقاسموا تلك الغلال فيما بينهم، فغضب سكان المدينة لذلك وثاروا للمطالبة بنصيبهم من الغلال، وقد تزعم هذه الثورة رجل كان يبيع الحبوب والغلال في سوق الحبابة وينتسب في الوقت نفسه إلى فرقة النوبتجية كما هي عادة كثير من سكان المدينة يدعى حسن كابوس، وقد تفرق الثوار في جهات المدينة وحاصر أغلبهم القلعة التي تحصن بها قادة الفرق العسكرية وكبار الموظفين، ولما اشتد الحصار طلب المحصورون المفاوضة واتفق الطرفان على إخراج ثمانية عشر رجلاً من المدينة منهم قائد حامية القلعة وقائد فرقة النوبتجية وقائد فرقة السباهية وغيرهم من كبار الموظفين العثمانيين في المدينة، وكتب القاضي حجة شرعية بذلك وقعها المفتي وشيخ الحرم النبوي وزعماء الطرفين المتنازعين وبعث بها إلى العاصمة العثمانية، لكن المسؤولين العثمانيين في المدينة دبروا اغتيال حسن كابوس زعيم الثورة في شهر صفر من العام التالي[٢]. أعقب ذلك الاغتيال فتنة عظيمة بين أهل المدينة والعسكر، فقد استعان أهل المدينة بعشيرة من حرب يدعون الجلوية ضد حامية القلعة التي تحصن فيها قتلة كابوس، وقد تمكن الجلوية من قتل قائد الحامية وابنه وأخيه؛ فهدد عساكر القلعة بالانتقام من أهل المدينة، ولم يفد استنجاد شيخ الحرم بالعاصمة العثمانية وأمير مكة المكرمة وسنجق جدة.

(١) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٨٩، ٣٩٠.

(٢) المرجع سابق، جـ٢، ٣٩٠ - ٣٩٢.

اشتد الصراع واضطرب الأمن داخل المدينة وقتل كثير من الناس ونزح عدد كبير من الأسر عنها خوفاً على أرواحهم وأموالهم، وقد استمرت الفتنة إلى أواخر العام، ولم تفعل الدولة العثمانية أكثر من عزل شيخ الحرم عبدالرحمن آغا الكبير استجابة لطلب أمير مكة المكرمة[١].

لم يستطع شيخ الحرم النبوي الجديد عبدالرحمن آغا الصغير المحافظة على التوازن بين القوى في المدينة المنورة مثل: أهل المدينة والفرق العسكرية والقبائل المجاورة ووقف حالة الفوضى في البلدة، كما لم يستطع خلفاؤه الحد من تسلط قادة الفرق العسكرية الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم من ناحية وفيما بينهم وبين القوى الأخرى في المدينة من ناحية أخرى، وحتى حين ترفع القضايا إلى أمير مكة المكرمة، فإن أوامره يتم تجاهلها من قبل المتنفذين في المدينة[٢].

وفي عام ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م عينت الدولة العثمانية والياً على المدينة المنورة يدعى أحمد شاهين باشا، وقد تمكن هذا الوالي من ضبط الأمن في المدينة ووقف الصراع بين الفرق العسكرية فيها ومنع تعدياتهم على أهل المدينة، ولكن تعيين ولاة يحملون رتباً كبيرة لم يستمر طويلاً إذ عادت الأمور إلى ما كانت عليه في السابق[٣].

في عام ١١٨٦ هـ/١٧٧٢ م حدث خلاف بين قادة فرقة النوبتجية لم يستطع شيخ الحرم النبوي ولا أمير مكة المكرمة وضع نهاية له[٤]. ولم تلبث المشاحنات بين المنتمين لفرقة النوبتجية أن انتقلت بين قادة تلك الفرقة وقادة فرقة حامية القلعة، وقد شعر محمد فلبلي، قائد فرقة حامية القلعة بتزايد نشاط وقوة محمد قمقمجي، قائد فرقة النوبتجية، وأخذ زعماء العسكر المتنافسون يكاتبون الشريف سرور بن مساعد أمير مكة المكرمة والحجاز وزاره بعضهم في مكة المكرمة، وأراد أمير مكة المكرمة استغلال هذا الخلاف لفرض سلطته في المدينة، فدعم محمد قمقمجي بقوة من الجند لترجيح كفته، لكن القمقمجي فشل في السيطرة على المدينة بعد شن الهجوم على خصومه في المسجد النبوي ووسط المدينة، كما لم يستطع محمد باشا العظم، أمير قافلة الحج الشامي وضع حد لذلك النزاع [٥]. وفي يوم جمعة من شهر ربيع الآخر ١١٨٩ هـ/يونيو ١٧٧٥ م وبينما كان أتباع الأطراف المتنازعة يجلسون في المسجد النبوي للصلاة، أطلق عيار ناري، فاضطربت العساكر وعامة الناس في المسجد وبادروا إلى السلاح وثارت الحرب في داخل المسجد وخارجه، وقتل في المسجد وحده أكثر من ثلاثين شخصاً [٦].

وفي شهر شعبان من ذلك العام وصل مبعوث من أمير مكة المكرمة الشريف سرور وعقد مجلساً حضره شيخ الحرم النبوي والقاضي ورؤساء المتحاربين وعدد من أعيان المدينة، واتفق الجميع على وقف النزاع وعقد هدنة إلى أن يصل أمير قافلة الحج الشامي للبت في إنهاء هذه المشكلة[٧]. ولما وصل أمير الحج الشامي محمد باشا العظم أخرج مرسوماً سلطانياً بالقبض على القمقمجي ونفيه من المدينة وتنصيب أحمد مكي قائداً لفرقة النوبتجية، كما تضمن المرسوم رفع يد أمير مكة المكرمة عن الموظفين والقادة العثمانيين في المدينة وعدم تدخله في شؤونهم وقصر نفوذه على الجبايات المعتادة

(١) الأنصاري، عبدالرحمن. تحفة المحبين، مرجع سابق، ٤١٢؛ الحسيني، جعفر بن حسين آل هاشم. الأخبار الغريبة، مرجع سابق، ١٨ ـ ٢٠؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٩٢ ـ ٣٩٥.

(٢) الأنصاري، عبدالرحمن. تحفة المحبين، مرجع سابق، ٢٤؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٩٥ ـ ٣٩٧.

(٣) الأنصاري، عبدالرحمن. تحفة المحبين، مرجع سابق، ٢٤، ٢٥؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٩٧.

(٤) الحسيني، جعفر بن حسين آل هاشم. الأخبار الغريبة، مرجع سابق، ٤٠ ـ ٤٢؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٩٨، ٣٩٩.

(٥) الحسيني، جعفر بن حسين آل هاشم. الأخبار الغريبة، مرجع سابق، ٤٣ ـ ٤٦؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٣٩٩ ـ ٤٠٤.

(٦) الحسيني، جعفر بن حسين آل هاشم. الأخبار الغريبة، مرجع سابق، ٥١ ـ ٥٣.

(٧) المرجع السابق، ٥٩؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤٠٥ ـ ٤٠٨.

له والعلاقة مع القبائل المحيطة بالمدينة[١]. وقد اتخذت الدولة هذه القرارات بناء على تقارير شيخ الحرم النبوي التي بعثها بعد قتال العساكر في المسجد النبوي، وسعي من مفتي المدينة تاج الدين إلياس الذي كان قد عزله أمير مكة المكرمة من منصبه[٢].

غضب الشريف سرور من هذا القرار الذي حد من نفوذ أمير مكة المكرمة في المدينة وقضى بعزل ونفي حليفه القمقمجي، لكن الشريف كان مشغولاً في ذلك الوقت بمحاربة عمه الشريف أحمد بن سعيد، فاكتفى بإلزام محمد باشا العظم بتسليمه القمقمجي وإلا فإنه لن يمكنه من أداء نسك الحج[٣]. وفي عام ١١٩٢ هـ/١٧٧٨ م توترت العلاقة بين أمير مكة المكرمة وبين أهل المدينة وقبيلة حرب التي خرجت على طاعته حين ألقى شيخها بدوي بن عيد في السجن حتى مات فيه، وكان شيخ حرب قد هدد أمير قافلة الحج المصري في مجلس الشريف في مكة المكرمة بسبب رفض أمير القافلة إعطاءه المعاليم المخصصة لقبيلته[٤]. وفي العام التالي اعترضت جماعة من حرب قافلة الحج المصري مطالبين أميرها بمعاليمهم المتأخرة، فادعى أن أمير مكة المكرمة قد أخذ منه معاليمهم لثلاث سنوات وقام بخوزقة عدد من شيوخهم كانوا رهائن معه[٥].

في منتصف عام ١١٩٤ هـ/١٧٨٠ م التفت الشريف سرور إلى المدينة والقبائل المجاورة لها بعد أن تمكن من القبض على عمه ومنافسه على الإمارة الشريف أحمد بن سعيد؛ فخرج على رأس خمسة آلاف مقاتل من العرب وألفين وخمسمئة من العبيد والأشراف وثلاثة آلاف من الجمال ومائتين وخمسين من الخيل[٦]. وعندما وصل إلى بدر اعترضته قبيلة حرب وطالبته بعوائدها وبما أخذه من أمير الحج المصري من مخصصاتها من الدولة، وحين رفض ذلك ثارت الحرب بين الطرفين، وتم الاتفاق في النهاية على أن يدفع الشريف لحرب مبلغاً من المال ويأخذ منها رهائن، وبعد أن اجتاز مضيق وادي الصفراء وضع رهائن حرب في القيود، ووصل إلى المدينة في التاسع من رجب[٧]، ولما دخل المسجد النبوي حضر إليه أعيان المدينة يسترضونه ويطلبون منه العفو فعفا عنهم[٨].

في السادس والعشرين من الشهر نفسه دعا الشريف سرور أعيان المدينة وكبار موظفيها إلى داره ثم قبض عليهم زاعماً أن رجاله قد اعترضوا رسالة من الكواخي[٩] إلى شيوخ حرب يطلبون فيها أن تهاجم حرب عسكر الشريف من الخارج في حين يهاجمه أهل المدينة من داخل البلدة، وأرسل في الوقت نفسه عسكره للاستيلاء على القلعة، ولما عجز عسكر الشريف عن الاستيلاء عليها، عرض على شيخ الحرم النبوي وأعيان المدينة المقبوض عليهم تسليم القلعة في مقابل إطلاق سراحهم، فرفض المتحصنون في القلعة ذلك، عندها ثارت الحرب بين أهل القلعة وبين عسكر الشريف ومن انضم إليهم من سكان المدينة مثل القمقمجي وأتباعه والأغوات، وبعد عدة أيام تسلل بعض المحاصرين من القلعة كما أحدث عسكر الشريف ثغرة في سورها تمكنوا بعده من الاستيلاء عليها ونهب ما فيها من ودائع أهل المدينة كما أمر الشريف بنهب بيوت بعض أعيان أهل المدينة[١٠].

أقام أمير مكة المكرمة والحجاز بعد استيلائه على القلعة نحو عشرين يوماً في

(١) المرجع السابق، جـ٢، ٤٠٨، ٤٠٩.

(٢) الأنصاري، عبدالرحمن. تحفة المحبين، مرجع سابق، ٤١؛ الحسيني، جعفر بن حسين آل هاشم. الأخبار الغريبة، مرجع سابق، ٦٠ ـ ٦٢.

(٣) المرجع السابق، ٦١؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤٠٨، ٤٠٩.

(٤) عبدالله بن محمد بن عبدالشكور، *تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة الذين حكموها منذ منتصف القرن الثاني عشر إلى نهاية العقد الثاني من القرن الثالث عشر الهجري*، (لم يضع له مؤلفه عنواناً)، نسخة مصورة عن نسخة مكتبة الشيخ إبراهيم عقيل في تعز قام بتصويرها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تحت رقم (٣٠٤)، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩؛ وانظر أيضاً: دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢١٣، ٢١٤.

(٥) ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٨٠؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢١٦.

(٦) المرجع السابق، ٢١٦.

(٧) المرجع السابق، ٢١٦، ٢١٧؛ ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٨٢ ـ ١٨٤؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤١٠.

(٨) زين العابدين بن محمد البرزنجي، «كشف الحجب والستور عما وقع لأهل المدينة مع أمير مكة سرور»، رسالة نشرها الشيخ حمد الجاسر وقدم لها بدراسة في: *مجلة العرب*، جـ٧ ـ ٨، (١٤٠٦ هـ)، ٥٩٧. وتجدر الإشارة إلى أن البرزنجي كان حاضراً للحوادث التي يتحدث عنها؛ وانظر أيضاً: ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٨٥.

(٩) الكواخي: جمع كخيا وهو نائب قائد الفرقة العسكرية. وكان جميع قواد الفرق العسكرية في المدينة في هذه الفترة نواباً من سكان المدينة.

(١٠) البرزنجي، زين العابدين بن محمد، «كشف الحجب»، مجلة العرب، مرجع سابق، جـ٩ ـ ١٠، ٥٩٧، ٥٩٨؛ الحسيني، جعفر بن حسين آل هاشم. الأخبار الغريبة، مرجع سابق، ٦٧ ـ ٧٣. ويمكن مقارنة وصفهما لحرب الشريف سرور لأهل المدينة بوصف: ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٨٦ ـ ١٩٠؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢١٧، ٢١٨؛ وانظر أيضاً: بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤١٢ ـ ٤١٤.

المدينة يرتب أمورها؛ فأقام حامية من جنده في القلعة بقيادة محمد بن جمهور العدواني الذي عينه وزيراً في المدينة، كما قبض على نحو خمسين من أعيان المدينة وعساكرها ومن توقع منهم الشغب[١]. وكذلك عزل شيخ الحرم النبوي، أحمد آغا وكبَّل الجميع بالأغلال وتوجه إلى مكة المكرمة على الطريق الشرقية متجنباً المرور على حرب بعد أن أطلق رهائن تلك القبيلة الذين أخذهم من بدر، وكتب إلى الدولة عرضاً يبلغها فيه أنه إنما قاتل قبيلة حرب لأنهم اعتدوا على قوافل الحج وقطعوا السبل، وأنه قاتل أهل المدينة لأن رؤساءهم قد اتصلوا بالبادية يستصرخونهم لقتاله، ولذلك قبض عليهم واستولى على القلعة وعين بها وزيراً من قبله، وبعد ذلك أمر أهل المدينة والمجاورين بوضع أختامهم على العرض وتصديقه[٢].

في رمضان من العام نفسه ١١٩٤ هـ/١٧٨٠ م قرر بعض أهل المدينة إخراج حامية أمير مكة المكرمة من القلعة وطردها من البلدة، ففرضوا الحصار على الوزير وجنوده وأخذوا يناوشونهم القتال، ولم يشترك الأغوات وبنو علي وبنو السفر سكان ضواحي المدينة في هذه الثورة، في حين جاءت عشائر أخرى من حرب لمساعدة أهل المدينة بقيادة شيخين يدعيان محمود ونصار بن عطية[٣]. وقد أرسل الوزير العدواني للشريف سرور يخبره بالثورة ويطلب منه المدد، فأرسل له سرية مكونة من ثمانمئة فارس وراكب، لكن أهل المدينة تمكنوا من صد المهاجمين بمساعدة حلفائهم من حرب، وأجبروهم على الانسحاب في بداية شهر ذي القعدة[٤]. ولما وصلت قافلة الحج الشامي، شكا أهل المدينة لأميرها محمد باشا العظم ما أصابهم من أمير مكة المكرمة وطلبوا منه التوسط لإطلاق سراح المسجونين من أهل المدينة لدى الشريف، لكن الشريف رفض إطلاق سراح المساجين[٥].

في أواخر عام ١١٩٤ هـ/١٧٨٠ م اعترضت قبيلة جهينة قافلة الحج المصرية لأن أمير القافلة لم يعطهم مخصصاتهم كاملة - على ما يبدو - وحدث قتال قتل فيه نحو ثمانين رجلاً[٦]، فأشار أمير الحج الشامي على أمير الحج المصري أن يأتي معه ليصلح له الحال مع القبيلة المذكورة، لكن أمير مكة المكرمة منعه من ذلك وأشار عليه بأن يسلك الطريق الشرقي ووعده بأن يرسل معه ألفين من الأعراب[٧]، فاعترضته جهينة في عودته من الحج على طريق القزاز وقاتلته[٨]، ولما علم أمير مكة المكرمة بأن نصار بن عطية أحد شيوخ حرب الذي ساعد أهل المدينة ضد الحامية الشريفية، قد عزم على السفر إلى مصر ليشكوه هناك، أمر وزيره في ينبع باعتراض الشيخ نصار والقبض عليه، فأرسل الوزير سرية قتلته، فاستصرخ ابنه قبائل حرب وجهينة فاجتمع منهم نحو خمسة آلاف وحاصروا ينبع حتى اضطر الوزير إلى الهرب إلى جدة بعد أسبوعين من القتال[٩].

غضب الشريف سرور غضباً شديداً لطرد وزيره من ينبع، فقرر القيام بحملة كبيرة لتأديب قبائل حرب واسترداد بندر ينبع، وربما لتأديب أهل المدينة بعد ذلك كما فعل في العام السابق، ولكي يطمئن أهل المدينة أطلق الشريف خمسة وعشرين رجلاً من محابيسهم الذين اعتقلهم في العام السابق وأرسل الباقين إلى القنفذة، وتوجه في شهر شوال ١١٩٥ هـ/أكتوبر ١٧٨١ م على رأس اثني عشر ألف مقاتل وخمسمئة من أهل

(١) يذكر البرزنجي أن عدد الذين اعتقلهم أمير مكة المكرمة من أهل المدينة كان ستة وستين رجلاً في حين يذكر ابن عبدالشكور ودحلان والحسيني أن عددهم كان خمسين.

(٢) البرزنجي، زين العابدين بن محمد، «كشف الحجب»، مجلة العرب، مرجع سابق، جـ٩ - ١٠، ٥٩٩، ٦٠٠؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤١٥.

(٣) البرزنجي، زين العابدين بن محمد، «كشف الحجب»، مجلة العرب، مرجع سابق، جـ٩ - ١٠، ٦٠١؛ وأيضاً: ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٩٢ - ١٩٤.

(٤) انظر تفاصيل المناوشات والتحالفات والمفاوضات والمعارك بين الطرفين عند: البرزنجي، زين العابدين بن محمد، «كشف الحجب»، مجلة العرب، مرجع سابق، جـ٩ - ١٠، ٦٠١ - ٦٠٧؛ وأيضاً: جـ١١ - ١٢، ٧٦٧، ٧٦٨ من المجلة نفسها؛ وانظر أيضاً: ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٩٥، ١٩٦؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤١٥ - ٤٢٠؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٣١٨.

(٥) البرزنجي، زين العابدين بن محمد، «كشف الحجب»، مجلة العرب، مرجع سابق، جـ١١ - ١٢، ٧٦٩ - ٧٧١؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢١٨، ٢١٩؛ ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٩٧، ١٩٨.

(٦) ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٩٦، ١٩٧؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢١٨.

(٧) البرزنجي، زين العابدين بن محمد، «كشف الحجب»، مجلة العرب، مرجع سابق، جـ١١ - ١٢، ٧٧١.

(٨) ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ١٩٧؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢١٨.

(٩) ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢٠١، ٢٠٢؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢١٩؛ البرزنجي، زين العابدين بن محمد، «كشف الحجب»، مجلة العرب، مرجع سابق، جـ٧ - ٨، ٤٥٥.

الخيل ومئة وخمسين من أرباب الصنائع لقتال حرب، وكان يحمل أثقاله وذخائره سبعة آلاف بعير. وكان قد أمر وزيره في جدة بشحن عدد من الأغربة والسواعي والداوات بأنواع الذخائر وإرسالها إلى ينبع مع العسكر[١]. فلما اقتربت هذه المراكب من ينبع خرجت لها قبيلة جهينة بداواتها وهزمتها وأجبرتها على العودة إلى جدة[٢]. ولما وصل الشريف سرور بقواته البرية الكبيرة إلى خليص انتقض عليه من كان معه من قبيلة هذيل ورفضوا مواصلة المسير معه، ولما عجز عن إقناعهم وتركوه عائدين إلى مكة المكرمة اضطر إلى قتالهم، وبذلك تبعثرت هذه الحملة التي أنفق عليها الشريف أموالاً طائلة وأجبر على تأجيلها والعودة إلى مكة المكرّمة[٣].

في رجب عام ١٢٠١ هـ/مايو ١٧٨٦ م أراد أمير مكة المكرمة والحجاز إعادة الكرة على قبيلة حرب، وجمع معه تسعة آلاف مقاتل من عتيبة وهذيل وغيرهم، بالإضافة إلى رجاله من الأشراف والعبيد والعسكر، فلما وصل إلى قرية مستورة عسكر هناك طويلاً، فتجمعت قبائل حرب وهاجمت معسكره ودارت معركة شديدة بين الطرفين قتل فيها أعداد كبيرة من الطرفين، وأرسل أمير مكة المكرمة بعدها مئات الأسرى إلى جدة، وأخذ بعد هذه المعركة الحاسمة يمر على قرى حرب في الفرع وبدر والخيف وقرى جهينة في ينبع النخل، يقبض على بعض زعمائهم ويهدم دورهم ويقطع نخيلهم، حتى وصل إلى المدينة المنورة في منتصف شهر شوال، حيث مكث هناك إلى أن قدمت عليه قافلة الحج الشامي، وقد اختار أمير مكة المكرمة ألا يتعرض هذه المرة لأهل المدينة بحل ولا عقد ولا عزل ولا تولية[٤].

على الرغم من الأوضاع السياسية والإدارية والاجتماعية غير المستقرة في المدينة المنورة خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) بسبب إهمال الدولة العثمانية للمنطقة وضعف السلطات العثمانية وتنافسها في البلدة وسوء تصرف أمراء مكة المكرمة وأمراء قوافل الحج في معالجة مشكلاتها، إلا أن هناك جانباً مشرقاً من حياة سكان المدينة المنورة خلال ذلك القرن، وهو الجانب المتعلق بالحياة العلمية والنشاط الفكري.

لقد كان المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة على مر العصور الإسلامية مركزاً مهماً من مراكز العلم والتعليم في العالم الإسلامي، فقد دأب العلماء وطلبة العلم من جميع أنحاء البلاد الإسلامية على الرحلة إلى الحرمين لأداء مناسك الحج وزيارة المسجد النبوي والمجاورة في المدينة لفترة قد تطول وقد تقصر وللالتقاء بالعلماء الآخرين الذين يأتون من بلاد بعيدة للغرض نفسه للدراسة على أيديهم أو الأخذ عنهم في علم من العلوم أو مسألة من المسائل المهمة، ثم يعودون إلى بلدانهم حاملين علوماً وأفكاراً اكتسبوها من مجالس العلم في المسجد النبوي[٥].

حرصت الدولة العثمانية على إرسال الأموال والغلال والهبات والصدقات لتوزيعها على مختلف الفئات الاجتماعية في المدينة والإنفاق على عمارة المسجد النبوي والمؤسسات الدينية والعلمية والمرتبطين بها من العلماء والمجاورين وأصحاب الوظائف الدينية والفقراء والمساكين وغيرهم، وقد أسهمت تلك الأموال والصدقات المرسلة من الدولة بالإضافة إلى الهبات والصدقات المرسلة من بعض ملوك وأثرياء البلدان

(١) الأغربة والسواعي والداوات جمع غراب وساعية وداو، وهي أنواع من المراكب تستخدم في البحر الأحمر.

(٢) ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢٠٢ - ٢٠٤؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢١٩.

(٣) ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢٠٣ - ٢٠٧؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢١٩، ٢٢٠.

(٤) ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢٣١ - ٢٤٠؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢٢٢، ٢٢٣.

(٥) John Obert Voll, Islam: Continuity and change in the Modern world, (Boulder, Colorado: West View 1982) pp 56-57.

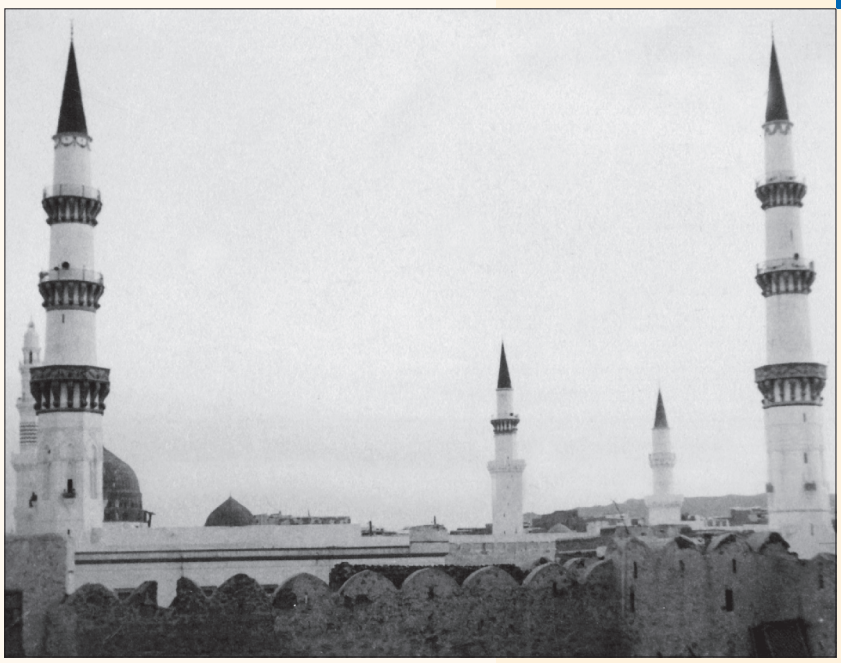

المسجد النبوي الشريف

الإسلامية الأخرى في تشجيع العلماء وطلبة العلم على الرحلة إلى المدينة المنورة وتسهيل إقامتهم للمجاورة والدراسة فيها.

لقد أصبح المسجد النبوي الشريف خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) مركزاً مهماً من مراكز العلم في العالم الإسلامي امتد أثره إلى مختلف البلاد الإسلامية، فقد برز في المدينة المنورة خلال الفترة الواقعة بين منتصف القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ومنتصف القرن التالي مجموعة من أبرز العلماء جمعت بينهم الدراسة على شيوخ معينين أو الدراسة على بعضهم بعضاً، كما جمع بينهم الاهتمام بدراسة الحديث من ناحية والانتماء إلى طرق صوفية معتدلة من ناحية أخرى مع أن أصولهم تعود إلى بلدان إسلامية مختلفة[١]. أبدت هذه المجموعة توجهاً عاماً نحو عدم قبول الدراسات والتفسيرات التي وضعها علماء الحديث المتأخرون والعودة إلى الأصول الحديثية المتقدمة ومحاولة دراستها بأنفسهم، وهذا معناه رفض مبدأ التقليد وفتح باب الاجتهاد ومحاولة دراسة وفهم نصوص المجموعات الحديثية المتقدمة، وقد هدف أولئك العلماء من خلال الدراسة الفاحصة للأحاديث النبوية إلى تخليص المجتمعات الإسلامية من العادات والعقائد التي لا يقرها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وقد وُصف بعض أولئك العلماء من قبل تلاميذهم بمجددي الحرمين وحاملي لواء السنة في المدينة، وعلى الرغم من أن هذه المجموعة من العلماء وتلاميذهم لم يرفضوا التصوف رفضاً تاماً إلا أنهم لم ينخرطوا في الممارسات الصوفية الشعبية أو الوجودية، بل انصبت دراساتهم على صوفية الغزالي وتجنبوا صوفية ابن عربي محدثين بذلك حركة إصلاحية في التصوف[٢].

كان من أبرز تلاميذ هؤلاء العلماء المحدثين المجددين في الحرمين الذين نقلوا فكر شيوخهم ومبادئهم وإصلاحاتهم إلى مناطق مختلفة من العالم الإسلامي: شاه ولي الله الدهلوي في الهند (ت ١١٧٦ هـ/١٧٦٢ م)، والشيخ عبدالرؤوف السنكيلي في إندونيسيا (ت بعد ١١٠٥ هـ/١٦٩٣ م)، والشيخ أحمد بن إدريس الفاسي في المخلاف السليماني (ت ١٢٥٣ هـ/١٨٣٧ م)، وتلميذه السيد محمد بن علي السنوسي، والشيخ جبريل بن عمر وتلميذه عثمان بن فودي في شمال نيجيريا (ت ١٢٣٢ هـ/١٨١٧ م)، لكن أشهر أولئك التلاميذ كان المصلح

(١) John Obert Voll, Islam, 58; "Muhammad Hayya Al - Sindi and Muhammad Ibn Abd Al - Wahhab: An Analysis of An Intellectual Group in eighteenth - century Madina", Bulleten of the school of the Orient and African Studies, 38, 1975, pp. 338-33,8.

(٢) Ibid, Voll, Islam ,27-58. Muhammad Hayya, pp. 35-59.

المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد (ت ١٢٠٦ هـ/١٧٩٢ م) صاحب الدعوة الإصلاحية المشهورة[١].

ثانياً ـ عهد الدولة السعودية الأولى ١٢٢٠ ـ ١٢٢٧هـ /١٨٠٥ ـ ١٨١٢م:

يبدأ عهد الدولة السعودية الأولى بمبايعة الدرعية التاريخية بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب في سنة ١١٥٧ هـ/١٧٤٤ م على نشر الدعوة السلفية وتخليص الدين مما كان قد شابه من البدع والخرافات.

كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب قد عاد إلى نجد بعد رحلاته العلمية في الحجاز والبصرة والأحساء نحو عام ١١٤٦ هـ/١٧٣٣ م، وأخذ يدعو الناس إلى التوحيد الخالص والعودة إلى الأصول الأولى للإسلام وتنقية عقائدهم وعباداتهم من البدع ومظاهر الشرك والخرافات التي تراكمت عليها خلال العصور المتأخرة، وقد تعرضت الدعوة في البداية في بلدتي حريملاء والعيينة إلى بعض النكسات حتى تعهد بحماية الشيخ ودعوته والقيام على نشرها الأمير محمد بن سعود أمير بلدة الدرعية في عام ١١٥٧ هـ/١٧٤٤ م[٢]، وخلال الأربعين عاماً التالية تمكن الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب والأمير محمد بن سعود وابنه الأمير عبدالعزيز ـ بفضل من الله ثم بمثابرتهم وإخلاصهم وقوة عزيمتهم وشجاعتهم وجهود أتباعهم ـ من نشر مبادئ الدعوة الإصلاحية في جميع أقاليم نجد وتوحيد تلك البلاد ضمن دولة واحدة تطبق الشريعة الإسلامية خالية من البدع والشوائب والانحرافات التي تسربت إلى عقائد وعبادات المسلمين بعد القرون المفضلة هي الدولة السعودية الأولى[٣].

ومع بداية القرن الثالث عشر الهجري بدأ قادة الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية يحاولون نشر دعوتهم ومد نفوذ دولتهم إلى الأحساء والمناطق الشمالية من جزيرة العرب، كما بدؤوا يحتكون بقبائل عالية نجد التي يعتقد أمير مكة المكرمة والحجاز أنها من رعاياه[٤]. وفي عام ١٢٠٢ هـ/١٧٨٨ م خلف الشريف غالب بن مساعد أخاه سروراً في إمارة مكة المكرمة والحجاز وتنبه لخطورة امتداد نفوذ الدولة السعودية على قبائله ومناطقه، فعزم على مواجهة ذلك الخطر، وخلال السنوات التالية دأب أمير مكة المكرمة على إرسال حملات تأديبية ضد القبائل الحجازية والنجدية التي أخذت في الانضمام للدولة السعودية، ولكن تلك القبائل كانت غالباً ما تلحق الهزائم بحملات أمير مكة[٥]. وكان آخر تلك الهزائم الهزيمة التي تلقاها الشريف غالب بنفسه على يد تلك القبائل في الخرمة في عام ١٢١٢ هـ/١٧٩٧ م[٦]. ولا تشير المصادر المعاصرة والمتوافرة لهذه الدراسة إلى أي احتكاك بين القبائل التابعة للدولة السعودية والقبائل المحيطة بالمدينة المنورة أو أي مواجهة بين السلطات العثمانية في المدينة وبين الدولة السعودية خلال هذه الفترة، وربما يعود ذلك إلى عدم رغبة السعوديين في استثارة الدولة العثمانية وسلطاتها في المدينة المنورة في هذا الوقت، خصوصاً أنه كان يتولى منصب محافظ المدينة منذ عام ١٢٠٨ هـ/١٧٩٤ م موظف عثماني كبير برتبة باشا ودرجة وزير[٧].

(١) Op. Cit,. Voll, Islam, 59-81-73-69, Martin, B. G. Muslim Brotherhoods in 19th Century Africa, 15-19, 102-112, Ibid, Voll. Muhammad Hayya, 39., Cambridge : Cambridge University press, 1976.

(٢) حسين بن غنام، *تاريخ نجد المسمى روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام*، تحرير: ناصر الدين الأسد، ومقابلة عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ، (الرياض، الصفحات الذهبية، ١٤٠٣ هـ)، جـ١، ٧٧ ـ ٨٢؛ عثمان بن عبدالله بن بشر، *عنوان المجد في تاريخ نجد*، تحقيق: عبدالرحمن آل الشيخ، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٢ هـ)، جـ١، ٣٧ ـ ٤٣.

(٣) تضمن كتابا ابن غنام وابن بشر المشار إليهما في المرجع السابق توثيقاً جيداً لجهود الشيخ محمد بن عبدالوهاب، والأمير محمد بن سعود، والأمير عبدالعزيز بن محمد لنشر الدعوة الإصلاحية وتوحيد نجد.

(٤) ابن غنام، حسين. تاريخ نجد، مرجع سابق، جـ١، ١٦٥ ـ ١٦٨؛ ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ١٦٠ ـ ١٧٩، ٢٠٠ ـ ٢٠٧.

(٥) ابن غنام، حسين. تاريخ نجد، مرجع سابق، جـ١، ١٧٥ ـ ١٧٨، ١٩٠ ـ ١٩٢، ٢٠١ ـ ٢٠٦؛ ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ١٧٣ ـ ١٧٦، ٢١١ ـ ٢١٤، ٢٣٨ ـ ٢٤٣؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢٦٣ ـ ٢٦٦.

(٦) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٢٤٢ ـ ٢٤٤؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢٦٧؛ ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ٣٦٤ ـ ٣٦٦.

(٧) المرجع السابق، ٢٧٧ ـ ٢٧٩.

في بداية عام ١٢١٣ هـ صيف ١٧٩٨ م وصلت الأخبار من مصر باستيلاء الفرنسيين على الإسكندرية[١]. وقد أجبرت هزيمة الخرمة، ووصول الفرنسيين إلى مصر، وعدم وصول مساعدة من الدولة، الشريف غالب على التوصل إلى صلح مع الدولة السعودية، كان من أهم شروطه السماح لأتباع الدولة السعودية بأداء نسك الحج وتحديد القبائل التابعة لكل طرف ووقف الحرب بينهما[٢]. وقد أتاحت فترة الصلح وقدوم أعداد كبيرة من أهل الدعوة الإصلاحية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة لأداء نسك الحج وزيارة المسجد النبوي انتشار الدعوة بين قبائل الحجاز. وفي بداية شهر المحرم ١٢١٨ هـ/١٨٠٣ م دخل الأمير سعود بن عبدالعزيز مكة المكرمة على رأس قواته محرماً بالعمرة، وأعطى الأمان لأهل مكة المكرمة وطلب منهم البيعة وعين عليهم الشريف عبدالمعين بن مساعد أميراً، ولما عجز عن الاستيلاء على جدة، أقام حامية في مكة المكرمة وعاد إلى نجد[٣].

نجح الشريف سرور بن مساعد في إعادة نفوذ أمير مكة المكرمة والحجاز في المدينة المنورة ونكّل بأعيان المدينة وقبائل حرب وجهينة، وحين خلفه أخوه الشريف غالب أراد الاستمرار في تلك السياسة، لكنه شغل بحروبه مع الدولة السعودية؛ فحينما حدث نزاع بين وزيره في المدينة وبين قادة الفرق العسكرية (الكواخي) في شعبان عام ١٢٠٧ هـ/١٧٩٣ م، ونزاع آخر بين شيخ الحرم النبوي وبين أهل المدينة في شوال من العام نفسه، أرسل الشريف غالب أحد كبار قادته من أقاربه يدعى ناصر بن مستور لفض تلك المشكلات والإصلاح بين المتنازعين[٤]. في عام ١٢٠٨ هـ/١٧٩٤ م عينت الدولة العثمانية الوزير والصدر الأعظم السابق يوسف باشا والياً على جدة وشيخاً للحرم المكي ومحافظاً للمدينة المنورة، وبعد أن أقام في جدة أربعة أشهر وأدى نسك الحج توجه إلى المدينة المنورة وأبقى نائبه في جدة[٥]. ويبدو أن الدولة العثمانية أرسلت هذا الموظف الكبير إلى الحجاز لإبعاد سلطة أمير مكة المكرمة عن المدينة المنورة ومراقبته والتحقق من خطورة التهديدات السعودية للحجاز التي يزعمها أمير مكة المكرمة.

بعد وصول الوزير يوسف باشا إلى المدينة ببضعة أشهر أجبر مفتي المدينة المنورة أبوالسعود أفندي الشوراني على الهرب من المدينة واللجوء إلى أمير مكة المكرمة الذي بالغ في إكرامه[٦]. وبعد ذلك بفترة قصيرة دبر الوزير حيلة معقدة تمكن بواسطتها من إرسال قادة الفرق العسكرية إلى خارج المدينة وقتلهم هناك والاستيلاء على القلعة في غيابهم وتعيين قادة آخرين موالين له في مناصبهم[٧]. وعندما وصل أحمد باشا الجزار والي الشام وأمير قافلة الحج الشامي إلى المدينة بعد موسم حج عام ١٢٠٩ هـ/١٧٩٥ م أخذ الوزير يوسف باشا يفسد عليه عساكره ويحتال للقبض عليه حتى اضطره للهرب وترك أغلب الحجاج بالمدينة[٨]. وفي المحرم ١٢١٥ هـ/١٨٠٠ م توفي الوزير يوسف باشا في المدينة المنورة، وقد اتهمه ابن عبدالشكور مؤرخ مكة المكرمة المعاصر والمعادي للدعوة الإصلاحية بموالاته لأهل الدعوة[٩]. ويظهر أن الذي دفع ابن عبدالشكور إلى هذا الرأي في يوسف باشا هو عدم تعاون الوزير مع الشريف غالب في حربه للدولة السعودية، لعدم اقتناعه

(١) ابن بشر، عثمان بن عبدالله، عنوان المجد، مرجع سابق، ٢٩٥، ٢٩٦؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢٦٧.

(٢) المرجع السابق، ٢٦٧، ٢٦٨؛ ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٢٤٤.

(٣) انظر تفاصيل ذلك عند ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ٤١٤ ـ ٤٣٥؛ وأيضاً: دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢٧٥ ـ ٢٧٩؛ ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٢٦٠ ـ ٢٦٣؛ Burckhardt, John Lewis. Notes on the Bedouins and The Wahabys, London: Henry Colbum and Richard Bentley, 1930, pp. 328-330.

(٤) ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ٢٧١، ٢٧٢.

(٥) المرجع السابق، ٢٧٧ ـ ٢٨٠.

(٦) المرجع السابق، ٢٨٦.

(٧) المرجع السابق، ٢٨٢ ـ ٢٨٤.

(٨) المرجع السابق، ٢٨١، ٢٨٢.

(٩) المرجع السابق، ٣٠٥.

بخطورتها على الحجاز في ذلك الوقت ومحاولته الحد من نفوذ الشريف.

لقد أتاح اتفاق الصلح والهدنة الذي توصل إليه أمير مكة المكرمة مع السعوديين في عام ١٢١٣ هـ/١٧٩٨ م لأهل الدعوة الإصلاحية نشر دعوتهم بين قبائل شمالي الحجاز وبخاصة حرب وجهينة كما فعلوا في جنوبي الحجاز وعسير، وقد ساعد على تغلغل الدعوة الإصلاحية ونفوذ السعوديين بين القبائل المحيطة بالمدينة المنورة توتر العلاقة بين تلك القبائل وبين أمير مكة المكرمة منذ مقتل أحد شيوخ حرب في سجن الشريف سرور وتنكيله بتلك القبائل، بالإضافة إلى عدم اتخاذ الوزير يوسف باشا محافظ المدينة إجراءات للحد من تغلغل الدعوة بين تلك القبائل، وما يشير إلى توتر العلاقة بين أمير مكة المكرمة والحجاز والعثمانيين وبين قبائل حرب وجهينة ترك قوافل الحج الشامية والمصرية للطريق السلطاني الذي يمر بديار تلك القبائل وسلوك الطريق الشرقي على الرغم من وعورته وندرة المياه فيه خلال هذه الفترة[١]. كذلك، فإن استيلاء الفرنسيين على مصر وشيوع عزمهم على الوصول إلى الحرمين الشريفين وإرسال الدولة العثمانية الفرمانات إلى كل من الوزير يوسف باشا في المدينة والشريف غالب في مكة المكرمة وحثهما على الاستعداد بالرجال والكفاح وتحصين جدة ومكة المكرمة والمدينة لحمايتها من الفرنسيين[٢] قد صرف انتباه الرجلين عن الاهتمام بأهل الدعوة الإصلاحية إلى الاهتمام بمواجهة الخطر الفرنسي.

يذكر ابن بشر:

«إن آل مضيان رؤساء حرب وهما بادي وبداي ابنا بدوي بن مضيان ومن تبعهما من عربانهم أحبوا المسلمين (أهل الدعوة الإصلاحية) ووفدوا على عبدالعزيز وبايعوه. وأرسل معهم عثمان بن عبدالمحسن أبا حسين يعلمهم فرائض الدين ويقرر لهم التوحيد. فأجمعوا على حرب المدينة ونزلوا عواليها ثم أمرهم عبدالعزيز ببناء قصر فيها، فبنوه وأحكموه واستوطنوه، وتبعهم أهل قباء ومن حولهم وضيقوا على أهل المدينة وقطعوا عنهم السوابل، وأقاموا على ذلك سنين»[٣].

لا تحدد المصادر المتوفرة متى وفد بادي وبداي على الإمام عبدالعزيز، ومتى نزلا العوالي وبنيا لهما قصراً فيها وبدآ في فرض الحصار على المدينة، ويظهر أن بادي وبداي قد ورثا الزعامة في بعض قبائل حرب بعد اعتقال الشريف سرور لوالدهما بدوي بن عيد بن مضيان عام ١١٩٢ هـ/١٧٧٨ م ووفاته في السجن، وربما دفعهما ذلك إلى الاتصال بأهل الدعوة الإصلاحية بعد اتفاق الصلح الذي توصل إليه أهل الدعوة مع أمير مكة المكرمة في عام ١٢١٣ هـ/١٧٩٨ م وقدوم الأمير سعود بن عبدالعزيز على رأس الآلاف من أتباع الدعوة لأداء نسك الحج في العامين التاليين، كما يظهر أن الإمام عبدالعزيز قد أمرهما بالنزول في عوالي المدينة وبناء قصر فيها بعد وفاة والي جدة ومحافظ المدينة المنورة الوزير يوسف باشا في بداية عام ١٢١٥ هـ/١٨٠٠ م.

وفي حين يذكر ابن بشر أن آل مضيان أقاموا على حصار المدينة سنين، يذكر البسام أن ذلك الحصار استمر سنة ونصف السنة[٤]. وتجدر الإشارة إلى أن آل مضيان كانوا يتزعمون قبائل حرب الشماليين المجاورين للمدينة المنورة، أما قبائل حرب

(١) المرجع السابق، ٢٨٠، ٢٩١، ٣٠١ - ٣٠٩.

(٢) المرجع السابق، ٢٩٦، ٢٩٧.

(٣) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٢٨٨.

(٤) عبدالله بن محمد البسام، *تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق*، نسخة نقلها عن أصلها الخطي نور الدين شريبة في عام ١٣٧٥ هـ، ١٠٦.

الجنوبيون القريبون من مكة المكرمة فقد أبقوا على ارتباطهم بأمير مكة المكرمة ومقاومة أهل الدعوة[١].

في شهر رجب عام ١٢١٨ هـ/نوفمبر ١٨٠٣ م قتل الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود في الدرعية، وبايع أهل الدعوة الإصلاحية سعود أكبر أبنائه الذي كان يقود أغلب الحملات العسكرية في آخر عهد أبيه. وخلال العامين التاليين شدَّد الإمام سعود الضغط على أمير مكة المكرمة والحجاز، فأمر قادته في الحجاز وعسير بمهاجمة جدة ومكة المكرمة، وفرض حصاراً اقتصادياً عليهما[٢]. فاشتد الكرب على الشريف غالب حتى اضطر إلى التفاوض مع القادة السعوديين، وتم الاتفاق على أن يدخل أولئك القادة مع أتباعهم الذين كانوا يزيدون على ثلاثين ألفاً مكة المكرمة وأن يرسل الشريف وفداً إلى الإمام سعود للاتفاق على الصلح والبيعة والطاعة[٣]. وقد تم الاتفاق في بداية عام ١٢٢١ هـ على مبايعة أمير مكة المكرمة للإمام سعود على أن تكون حكومة مكة المكرمة وتوابعها بيد الشريف غالب الذي أمر بتطبيق مبادئ الدعوة الإصلاحية في مكة المكرمة وجدة[٤].

في هذا الوقت كانت قبائل حرب وجهينة تفرض حصاراً مماثلاً على المدينة المنورة، وكان الشيخ بداي بن مضيان وأتباعه من حرب يشدد ذلك الحصار من قلعته في العوالي، وفي شهر صفر من عام ١٢١٩ هـ/مايو ١٨٠٤ م تمكن الشيخ بداي بن مضيان والشيخ جابر بن جبارة شيخ جهينة من طرد محمد الحجري، وزير الشريف غالب من ميناء ينبع والاستيلاء على البلدة وإلحاقها بالدولة السعودية، إلا أن أمير مكة المكرمة تمكن من إرسال حملة بحرية لاستعادتها بعد شهرين[٥]. وفي أواخر عام ١٢٢٠ هـ/١٨٠٥ م اعترض بداي بن مضيان وأتباعه من حرب وجابر بن جبارة وأتباعه من جهينة قافلة الحج الشامي في جبال النازية[٦]، ودار بين الطرفين قتال شديد، وكان يقود القافلة عبدالله باشا العظم ويصحبه عابدي باشا والي جدة، كما كانت تصحب القافلة قوة عسكرية كبيرة من ضمنها ألف وخمسمئة خيال تابعون للعظم وسبعمئة خيال تابعون لعابدي باشا[٧]؛ ويبدو أن سبب اعتراض القافلة هو اصطحابها لهذه القوة العسكرية الكبيرة على غير العادة. وقد تمكن العظم من المرور بالقافلة بفضل تلك القوة العسكرية.

تقدم الحديث عن السلطة العثمانية وأوضاع الفرق العسكرية في المدينة خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، وأنه لم يعد يربط الفرق العسكرية بالدولة العثمانية سوى الرواتب والمخصصات التي كانت ترسل باسمهم بانتظام من العاصمة العثمانية التي أسهمت في تضخم أعدادهم دون أن تكون لهم أي دراية بالأمور العسكرية أو قدرة على تقديم حماية لأهل المدينة، وعدم نجاح محاولة الوزير يوسف باشا لإصلاح أوضاعهم.

ويصف الرحالة السويسري، بوركهارت الذي زار المدينة المنورة في عام ١٢٣٠ هـ/ ١٨١٥ م ومكث فيها عدة شهور وضع السلطات العثمانية في البلدة بأنه:

«لم يكن هناك عسكر من الأتراك سوى رهط من سلالة أولئك الذين أرسلوا إلى هنا في الأصل والذين تزاوجوا مع أهل البلدة، وأن آغا القلعة هو السيد الحقيقي للمدينة، وقد تم

(١) Op. Cit., Burckhardt, Notes, 330.

(٢) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٢٨٣، ٢٨٤.

(٣) المرجع السابق، جـ١، ٢٨٥ ـ ٢٨٧؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢٨٩ ـ ٢٩٣.

(٤) المرجع السابق، ٢٩٢، ٢٩٣.

(٥) ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ٤٥٩ ـ ٤٦٣؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢٨٤.

(٦) تقع النازية إلى الجنوب من بلدة المسيجيد على بعد تسعين كيلومتراً تقريباً من المدينة على طريق مكة المكرمة؛ انظر: البلادي، عاتق بن غيث. معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، مرجع سابق، ٣١١.

(٧) ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة، مرجع سابق، ٥٤٠، ٥٤١؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢٩٢.

اختياره من قبل كبار رجال الحامية الذين تخلى معظمهم عن المهنة العسكرية، وأن له أنصاراً من بين أفراد كل العائلات الكبيرة بالإضافة إلى عدد آخر من أوباش أهل المدينة، وأن هذه القبيلة العسكرية التي تسمي نفسها بالمرابطين قد تضخمت كثيراً لدعم قائدها الأغا، وشملت امتيازاتها كثيراً من سكان المدينة ومن الأجانب الذين استقروا فيها، ما يؤهلهم للرواتب السنوية المخصصة من السلطان للحامية بالإضافة إلى ما يغتصب من الصرة والأموال المرسلة للمسجد النبوي وأهل المدينة. أما آغا الحرم (شيخ الحرم النبوي) والقاضي اللذان يرسلان سنوياً من إسطنبول فهما في ظل هذه الظروف مجرد أصفار، وتقتصر مسؤولية آغا الحرم على المسجد النبوي والطواشية (الأغوات) وخدم المسجد»[١].

ويذكر بوركهارت أنه خلال العشرين عاماً التي مضت قبل زيارته للمدينة عُين رجل يدعى حسن آغا على القلعة فتلقب بحسن القلعي[٢]. وعلى الرغم من انتمائه إلى أصل متواضع إلا أنه تمكن بوساطة جرأته ومهارته ومكره وقوته البدنية من أن يصبح سيد المدينة المستبد بأمورها دون منازع بعد عدة سنوات من الجهد الشاق، وقد اتخذ لنفسه حرساً من سكان المدينة والمغاربة والبدو واكتسب شعبية بين العامة، وكان لا يتورع عن اقتراف أبشع أنواع الظلم في حق سكان المدينة والحجاج والزوار الذين يفدون إليها ويستولي على قسم كبير من أموال الصرة المرسلة لأهل المدينة، حيث كدس من ذلك ثروة عظيمة، ولم تجد الشكاوى التي كانت ترفع إلى السلطان في عزله، فقد كان يقاوم أمير قافلة الحج الشامي الذي كان الموظف العثماني الوحيد القادر على ذلك[٣]. وعلى الرغم من قوة نفوذ حسن القلعي في المدينة إلا أن ذلك لم يمنع حدوث الاضطرابات والفوضى فيها الناتجة عن الاشتباكات بين سكان الأحياء المختلفة، وبين سكان داخل المدينة وسكان الضواحي القريبة منها، وبين المنتمين للفرق العسكرية وبين أهل المدينة من ناحية، وبينهم وبين سكان الضواحي من ناحية أخرى، وخلال الثلاث سنوات التي سبقت ضم الدولة السعودية للمدينة المنورة التي كان شيخ حرب يفرض خلالها حصاراً على المدينة، اشتدت قسوة حسن القلعي وأتباعه على سكان المدينة[٤].

لقد اتسم ضم الدولة السعودية الأولى للمدينة المنورة بالهدوء والخلو من العنف والأعمال العسكرية التي مهدت لضم الطائف ومكة المكرمة وجدة، فقد اكتفى الإمام سعود بالحصار الاقتصادي الهادئ لإجبار أهل المدينة على التسليم، وربما يعود ذلك لقوة ارتباط المدينة بالدولة العثمانية التي لم يرغب السعوديون في استثارتها في ذلك الوقت، وعدم وجود قوة عسكرية في المدينة تتصدى لقوة الدولة السعودية كما حدث من قبل الشريف غالب في نواحي مكة المكرمة والطائف وجنوبي الحجاز، وعندما طال حصار الشيخ بداي بن مضيان وأتباعه من حرب للمدينة وعلم حسن القلعي وأعيان المدينة باشتداد الحصار والضغوط العسكرية السعودية على الشريف غالب خلال عام ١٢٢٠ هـ/١٨٠٥ م قرروا التفاوض مع الإمام سعود لتسليم المدينة في بداية تلك السنة، «وجرت المكاتبات بين حسن قلعي وأحمد الطيار والأعيان والقضاة وبايعوا في هذه السنة سعوداً قبل مبايعة غالب»[٥]. ويذكر

(١) جون لويس بوركهارت، *رحلات في شبه جزيرة العرب*، ترجمة: عبدالعزيز الهلابي، وعبدالرحمن الشيخ، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣ هـ)، ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢) ربما كان حسن أحد قادة الفرق العسكرية الذين عينهم الوزير يوسف باشا في عام ١٢٠٩ هـ (١٧٩٥م) بعد أن قتل القادة السابقين.

(٣) بوركهارت، جون لويس. رحلات في شبه جزيرة العرب، مرجع سابق، ٣٦٠، ٣٦١.

(٤) بوركهارت، جون لويس. رحلات في شبه جزيرة العرب، مرجع سابق، ٣٦٠، ٣٦١.

(٥) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٢٨٨.



بلدة الدرعية(*)

ابن عيسى أن وفد أهل المدينة قدم على سعود بن عبدالعزيز في الدرعية في العام المشار إليه وبايعوه على السمع والطاعة(١). وقد اشترط حسن القلعي على الإمام سعود إبقاءه في منصبه ووعده الإمام بذلك ووفى له بوعده، وظل القلعي حاكماً للمدينة في ظل الدولة السعودية، إلا أنه لم يستطع اقتراف المظالم التي كان يتجرأ عليها في الماضي، وأخذ يتظاهر بالحماسة الشديدة لمبادئ الدعوة الإصلاحية واستخدام أكثر الأساليب قسوة لفرضها على السكان(٢).

في عام ١٢٢١ هـ/١٨٠٦ م توفي شيخ حرب بداي بن مضيان، فعين الإمام سعود أخاه مسعوداً شيخاً في بوادي حرب(٣). وفي أواخر تلك السنة أمر الإمام سعود حجيلان بن حمد ومعه قوة أهل القصيم، ومحمد بن عبدالمحسن بن علي ومعه قوة أهل جبل شمر، ومقاتلي أهل الوشم بالتوجه إلى المدينة المنورة والاجتماع بمسعود بن مضيان وأتباعه من حرب وجابر بن جبارة وأتباعه من جهينة والنزول بالقرب من المدينة، وحينما خرج الإمام من الدرعية قاصداً مكة المكرمة أرسل إلى أولئك الأمراء وطلب منهم ألا يمكنوا قافلة الحج التي تأتي من الشام وإستانبول من التقدم إلى مكة المكرمة، وذلك لأن الإمام سعود خاف من تعاون عسكر تلك القافلة مع أمير مكة المكرمة ضده(٤).

ويذكر دحلان أن الإمام سعود كان قد اشترط على عبدالله باشا العظم أمير قافلة الحج الشامي وأمير قافلة الحج المصري في العام السابق ألا يصطحبا معهما في العام القادم المحمل والطبول والزمور لكونها بدعاً مستحدثة، وأن الإمام سعود أرسل إلى العظم حين وصوله إلى محطة هدية ـ شمال المدينة ـ بألا يقدم إلا على الشرط الذي شرطه عليه في العام الماضي، فلما قرأ العظم مكاتيب سعود

(١) إبراهيم بن صالح بن عيسى، *تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان (من ٧٠٠ إلى ١٣٤٠ هـ)*، (الرياض: دار اليمامة، ١٣٨٦ هـ)، ١٣٢.

(٢) بوركهارت، جون لويس. رحلات في شبه جزيرة العرب، مرجع سابق، ٣٦١.

(٣) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٢٩١.

(٤) المرجع السابق، جـ١، ٢٩١، ٢٩٢؛ وقد تقدمت الإشارة إلى أن عبدالله العظم ووالي جدة كانا يصطحبان قوات كبيرة في العام السابق وقد أبقيا قسماً منها في مكة المكرمة.

(*) المصدر: الهيئة العليا للسياحة.

رجع من هدية من غير حج[١]. فلما علم أولئك الأمراء بعودة القافلة رحلوا بقواتهم إلى مكة المكرمة لأداء نسك الحج مع الإمام سعود.

بعد الحج قصد الإمام سعود المدينة المنورة ودخلها ورتب الأوضاع فيها، وأجلى عنبر باشا شيخ الحرم النبوي والقاضي العثماني وبعض الأشخاص المرتبطين بالولاء للعثمانيين، وأقام حامية ترابط في ثغور المدينة بقيادة حمد بن سالم من أهل العيينة، وعين على الشؤون المالية محمد الغريبي من أهل الدرعية[٢]، كما عين الشيخ أحمد بن حسن بن رشيد أحد العلماء المجاورين بالمدينة والشيخ أحمد إلياس الحنفي قاضيين فيها[٣]. وكان حسن القلعي وابن مضيان قد هدما جميع القباب التي كانت مبنية على القبور والمشاهد في المدينة[٤]. كما فرض الإمام سعود على أهل المدينة الزكاة الشرعية على الحبوب والتمور وهو ما تخلى عنه الإمام لصالح الشريف غالب في مكة المكرمة، ولم تكن الدولة العثمانية تفرض زكاة أو ضرائب على أهل الحجاز[٥]. وقد تضرر سكان المدينة من توقف قوافل الحج عن الوصول إلى بلدتهم، لأن غالب أولئك السكان كانوا يعتمدون على الأموال والهبات التي كانت ترسل من إستانبول ومصر بصحبتها وعلى الخدمات التي كانوا يقدمونها للحجاج، وقد هدفت الدولة العثمانية من إيقاف قوافل الحج الواردة من البلدان التابعة لها إلى فرض حصار اقتصادي على الدولة السعودية في الحجاز.

يذكر بوركهارت أن حسن القلعي وأعيان المدينة وغيرهم كانوا قد استولوا على قسم كبير من الذخائر والهدايا التي كان بعض الملوك والأثرياء قد أودعوها في الحجرة النبوية. بدعوى توزيعها على الفقراء، لكنهم في النهاية اقتسموها فيما بينهم[٦]. وبعد أن أدى الإمام سعود ورعاياه مناسك الحج في عام ١٢٢٢ هـ بداية ١٨٠٨ م زار المدينة المنورة وأقام فيها عدة أيام رتب خلالها الأوضاع هناك، فأخرج من كان في القلعة من أتباع حسن القلعي وأقام فيها حامية من أهل نجد تحت قيادة عبدالله بن مزروع أمير منفوحة، وعين على الأمور المالية حمد بن يحيى بن غيهب أمير شقراء[٧]. وفي العام التالي لم يزر الإمام سعود المدينة المنورة بعد الحج، وإنما بعث حامية جديدة بديلة للحامية التي أقامها في العام السابق في القلعة والجيار[٨]. وفي العامين التاليين ١٢٢٤ ـ ١٢٢٥ هـ/ ١٨٠٩ ـ ١٨١٠ م، فعل الإمام سعود الشيء نفسه فيما يتعلق بتبديل حامية المدينة المنورة[٩]. وبعد أن أدى الإمام سعود نسك الحج في عام ١٢٢٦ هـ آخر ١٨١١ م وعلم بوصول حملة محمد علي والعثمانيين إلى ينبع، أرسل إلى المدينة المنورة جموعاً كثيرة من أهل نجد وعسير والحجاز للتمركز في القلعة ونواحي البلدة وحفظها وعاد إلى نجد[١٠]. ويذكر بوركهارت أن السعوديين أحاطوا سور المدينة بخندق[١١] ويظهر أن حفره تم في هذه السنة استعداداً للحصار المتوقع.

وفيما عدا الضائقة الاقتصادية التي عانى منها سكان المدينة المنورة نتيجة لتوقف وصول قوافل الحج من البلدان التابعة للدولة العثمانية، فقد شهدت المدينة خلال السبع سنوات التي خضعت خلالها للدولة السعودية الأولى سلماً عاماً وسكوناً مستمراً اتسمت به علاقات سكانها بعضهم ببعض وعلاقات أولئك السكان بالقبائل المجاورة،

(١) دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢٩٤.

(٢) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٢٩٢، ٢٩٣.

(٣) عبدالله بن عبدالرحمن البسام، *علماء نجد خلال ثمانية قرون*، (الرياض: دار العاصمة، ١٤١٩ هـ)، جـ١، ٤٥٧ ـ ٤٥٩؛ ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٦٤.

(٤) المرجع السابق، جـ١، ٢٨٨.

(٥) بوركهارت، جون لويس. رحلات في شبه جزيرة العرب، مرجع سابق، ٣٢٨، ٣٦١ ـ ٣٦٢؛ Burckhardtr, Notes, 331-332

(٦) بوركهارت، جون لويس. رحلات في شبه جزيرة العرب، مرجع سابق، ٣٠٩؛ Burckhardt, Notes, 331

(٧) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٢٩٥.

(٨) المرجع السابق، جـ١، ٢٩٧.

(٩) المرجع السابق، جـ١، ٣٠٥، ٣١٦.

(١٠) المرجع السابق، جـ١، ٣٢٧.

(١١) بوركهارت، جون لويس. رحلات في شبه جزيرة العرب، مرجع سابق، ٢٩٨.

فقد اختفت النزاعات بين المنتمين للفرق العسكرية العثمانية والخلافات بين قوى السلطة العثمانية في المدينة، كما اختفت الهجمات التي كانت تقوم بها بعض العشائر المجاورة للمدينة على أطرافها أو على القوافل الواردة إليها أو الخارجة منها، كذلك غابت النزاعات التي كانت تنتج من محاولات أمراء مكة المكرمة التدخل في شؤون المدينة وفرض سلطتهم فيها ومقاومة القوى العثمانية لتلك المحاولات، كما غابت النزاعات التي كانت تترتب على محاولات أمير قافلة الحج الشامي التدخل لإصلاح الأوضاع في المدينة خلال الفترة الوجيزة التي كانت تمضيها القافلة في المدينة ولم تسهم في الغالب إلا في تفاقم تلك النزاعات بين الطوائف المحلية.

وقد أسهمت الصرامة والحزم والعدل التي اتصفت بها حكومة الإمام سعود وحاميته العسكرية التي أقامها في المدينة، وتمسك أتباع الدعوة الإصلاحية وموظفي الإمام في المدينة بالشريعة الإسلامية والتزامهم بها في تحقيق السلام والأمن والهدوء لسكان المدينة خلال تلك الفترة، ومن اللافت للنظر أن قبيلة حرب التي كان يعتقد في الماضي أنها تثير الخوف والاضطراب وعدم الاستقرار في المدينة والمناطق المجاورة لها، أصبح شيخها ـ الآن ـ من أبرز المسؤولين عن حماية أهل المدينة وتوفير الأمن لهم.

ثالثاً ـ حكم محمد علي ١٢٢٧ ـ ١٢٥٦هـ (١٨١٢ ـ ١٨٤٠م):

لقد وقع السلطان العثماني في حرج شديد نتيجة ضم الدولة السعودية الأولى للحرمين الشريفين ومنع الدعاء في الخطبة فيهما له، وبخاصةٍ أنه يحمل لقب (خادم الحرمين الشريفين) وأن للحجاز وأمكنته المقدسة أهمية كبيرة لدولته خلال تلك الفترة. ولذلك عزم السلطان على استرداد الحرمين مهما كلفه الأمر، فكلف ولاته في العراق والشام بالقيام بتلك المهمة، وحين فشلوا في ذلك ألقى بالمهمة إلى واليه الجديد في مصر منذ عام ١٢٢٢ هـ/١٨٠٧ م، وبعد أربع سنوات من الاعتذار والتردد، قرر محمد علي باشا، والي مصر إرسال أولى حملاته إلى الحجاز[١]. وقد ترتب على قدوم حملة محمد علي والعثمانيين براً وبحراً من مصر أن أصبحت المدينة المنورة وينبع، باستثناء الفترة التي جاء خلالها محمد علي باشا لقيادة قواته بنفسه في الحجاز، القاعدتين اللتين تنطلق منهما قوات محمد علي والقوات العثمانية للاستيلاء على الحجاز ونجد والأحساء حتى عام ١٢٥٦ هـ/١٨٤٠ م.

وبعد أن تغلب والي مصر على مشكلاته الداخلية وثبت سلطته في مصر واستكمل استعداداته المالية والعسكرية اللازمة لحملة الحجاز، أرسل طلائع تلك الحملة تحت قيادة ابنه طوسون في صيف عام ١٢٢٦ هـ/١٨١١ م[٢]. وقد وصلت الحملة المكونة من ثمانية آلاف من الفرسان والمشاة إلى ينبع واستولت عليها بعد مقاومة خفيفة، بسبب تواطؤ الشريف غالب الذي كان يسيطر على الميناء مع الباشا[٣]. وبعد أن تكاملت قواته البرية والبحرية قرر طوسون وحلفاؤه من قبائل شمالي الحجاز الاستيلاء على ينبع النخل، فانضم مسعود بن مضيان شيخ حرب إلى جابر بن جبارة شيخ جهينة وأمير ينبع النخل لمواجهة قوات محمد علي والقوات

(١) عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، *الدولة السعودية الأولى ١١٥٨ ـ ١٢٣٣ هـ/١٧٤٥ ـ ١٨١٨م*، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، ١٤٠٧ هـ)، ٣٠٥ ـ ٣١٠.

(٢) عبدالرحمن الجبرتي، *عجائب الآثار في التراجم والأخبار*، (بيروت: دار النفائس، ودار الجيل، د.ت)، جـ٣، ٣٣٢، ٣٣٣؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. الدولة السعودية، مرجع سابق، ٣١٠ ـ ٣١٢.

(٣) الجبرتي، عبدالرحمن. عجائب الآثار، مرجع سابق، جـ٣، ٣٣٣، ٣٣٤؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. الدولة السعودية، مرجع سابق، ٣١٢، ٣١٣.

العثمانية، لكنهم تلقوا هزيمة عنيفة في أواخر شهر شوال ١٢٢٦ هـ/نوفمبر ١٨١١ م، واستولى طوسون على بلدة السويق قاعدة ينبع النخل وهرب منها ابن جبارة[١].

تقدم طوسون بقواته من ينبع النخل في اتجاه المدينة المنورة واستولى في طريقه على بلدة بدر، وكان الإمام سعود قد أمر أتباعه من أهل نجد وعسير والحجاز وتهامة بالتوجه إلى نواحي المدينة تحت قيادة ابنه عبدالله، وقد كمن هذا الجيش الذي قدر عدده بثمانية عشر ألفاً من المشاة وثمانمئة فارس في قريتي الخيف والجديدة وجبال وممرات وادي الصفراء الضيقة في طريق قوات محمد علي إلى المدينة[٢]. ولما وصل طوسون بقواته إلى قريتي الخيف والجديدة عند أضيق نقطة في وادي الصفراء في منتصف ذي القعدة انهالت عليه القوات السعودية من سفوح الجبال، واستمرت المعارك مدة يومين أو ثلاثة، انهزمت على إثرها عساكر محمد علي والعثمانيين هزيمة شنيعة، وفر العسكر هاربين إلى ينبع وتركوا أسلحتهم وذخائرهم وخيامهم ومؤنهم، وفقد طوسون أكثر من نصف جيشه بالقتل والعطش والجوع والتعب، وكان من حسن حظه أن القوات السعودية لم تتعقبه، بل جمع الأمير عبدالله مقاتليه وتوجه بهم إلى مكة المكرمة لأداء الحج[٣].

كتب طوسون إلى أبيه يبلغه بما حدث ويطلب منه الإمداد بالجند والمؤن والسلاح والمال، وكان الباشا يدرك أن مصيره في مصر يتوقف على نجاحه أو فشله في هذه الحرب، كما كان يدرك أن نجاح هذه الحملة يعتمد على استمالته للقبائل المحيطة بالمدينة، ولذلك



ينبع النخل

اجتهد في توفير ما يحتاج إليه طوسون من الجند والسلاح والذخيرة ومقادير كبيرة من المال ليكسب بها شيوخ تلك القبائل، وأرسل تلك الإمدادات مع خازنداره أحمد نابرت الذي أشركه مع طوسون في قيادة الحملة، وقد تمكن طوسون وقواته من عبور مضيق وادي الصفراء من دون مقاومة، ووصل إلى المدينة في منتصف شوال ١٢٢٧ هـ/أكتوبر ١٨١٢ م وفرض عليها الحصار[٤].

كانت ترابط في قلعة المدينة المنورة حامية سعودية كبيرة تتألف من سبعة آلاف مقاتل، وقد اعتمد الإمام سعود ـ فيما يبدو ـ على انتصار قواته في الصفراء وحصانة قلعة المدينة وكبر حاميتها، فتوجه هو وعدد كبير من رعاياه إلى مكة المكرمة لأداء نسك

(١) الجبرتي، عبدالرحمن. عجائب الآثار، مرجع سابق، جـ٣، ٣٣٦؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. الدولة السعودية، مرجع سابق، ٣١٣.

(٢) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٢٢، ٣٢٣؛ الجبرتي، عبدالرحمن. عجائب الآثار، مرجع سابق، جـ٣، ٣٣٦، ٣٣٧.

(٣) المرجع السابق، جـ٣، ٣٣٦، ٣٣٧؛ ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٢٣ ـ ٣٢٦؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. الدولة السعودية، مرجع سابق، ٣١٤، ٣١٥.

(٤) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٢٨؛ الجبرتي، عبدالرحمن. عجائب الآثار، مرجع سابق، جـ٣، ٣٥٣، ٣٥٨؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. الدولة السعودية، مرجع سابق، ٣١٧، ٣١٨؛ Op. Cit., Burckhardt , Notes, pp. 352-353

الحج في الوقت الذي كانت قوات محمد علي والعثمانيين تحاصر المدينة[١]. وقد حاصرت عساكر محمد علي وعساكر العثمانيين المدينة نحو شهر، وسلطوا على القلعة المدافع ورموها بالقنابل وحفروا السراديب تحت أسوارها ووضعوا فيها الألغام وقطعوا عن الحامية المياه، ففشت بينهم الأمراض ونفدت مؤونتهم فاضطروا إلى طلب الأمان[٢]. منح أحمد نابرت للحامية الأمان على أرواحهم وأمتعتهم وتعهد بتزويدهم بجمال تنقلهم إلى بلدانهم، لكنهم حين خرجوا من القلعة لم يجدوا سوى خمسين جملاً، فاضطروا إلى حمل ما خف من أمتعتهم على ظهورهم، ولم يكادوا يجتازون بساتين المدينة حتى غدر بهم نابرت، فأمر جنوده بقتلهم ونهبهم، ولم ينج منهم إلا من كان راكباً جملاً وهرب عليه، وقد فني أربعة آلاف من السبعة آلاف الذين كانوا يشكلون الحامية[٣].

ويذكر بوركهارت أن حسن القلعي دخل في مفاوضات مع طوسون ونابرت، وانضم إليهما حينما وصلا إلى أسوار المدينة وقدم لهما المساعدة في مقابل بقائه في منصبه، فقلده نابرت أوسمة التشريف. ولكن بعد الاستيلاء على القلعة والقضاء على الحامية تم اعتقاله وإرساله إلى القاهرة ثم إلى إستانبول حيث قتل هناك[٤]. أما مسعود بن مضيان فقد تحصن في قلعة له خارج المدينة مع أسرته وأربعين من أتباعه، وبعد أن دخلت قوات محمد علي والعثمانيون المدينة قرر الاستسلام وطلب الأمان لنفسه وأبنائه وأتباعه فأعطي ذلك، ولكن بعد الاستيلاء على القلعة والقضاء على الحامية ألقى العثمانيون القبض عليه وقتلوا أبناءه وأتباعه ونهبوا أمواله وأرسلوه إلى إستانبول حيث قتل[٥]. وكان للاستيلاء على المدينة المنورة أثر عظيم على والي مصر والسلطان العثماني، فحين وصلت الأخبار بذلك إلى القاهرة ثم إلى إستانبول أقيمت احتفالات عظيمة في المدينتين دامت عدة أيام[٦].

بعد أن علم الإمام سعود بسقوط المدينة في يد قوات محمد علي والعثمانيين، وأدى هو وأتباعه مناسك حج عام ١٢٢٧ هـ/١٨١٢ م، أخذ العهود على الشريف غالب بعدم الخيانة، وأقام حامية في مكة المكرمة وأمر ابنه عبدالله وجمعاً كبيراً من المقاتلين بالإقامة في وادي مر (وادي فاطمة) القريب من مكة المكرمة ورجع إلى الدرعية[٧]. أما الشريف غالب فقد اتصل بطوسون وتعهد بالتعاون معه لدخول قواته جدة ومكة المكرمة، وفي بداية عام ١٢٢٨ هـ/١٨١٣ م، أرسل طوسون فرقة من جيشه للاستيلاء على جدة ومكة المكرمة بناء على ذلك، عندها اضطر الأمير عبدالله للانسحاب بقواته إلى العبيلاء ومنها إلى الخرمة، ما سهل على قوات طوسون الاستيلاء على الطائف بتعاون من أمير مكة[٨]. أما على الجبهة الشمالية فقد أراد طوسون إبعاد الخطر عن المدينة المنورة، فبعث بثلاثمئة فارس بقيادة عثمان كاشف للتمركز في الحناكية الواقعة على بعد ثمانين كيلومتراً إلى الشرق على طريق القصيم.

أنعم السلطان على طوسون برتبة باشوية جدة نظير خدماته، وأرسل إلى المدينة المنورة قاضياً عثمانياً وشيخاً للحرم النبوي، فتوجه طوسون باشا إلى مكة المكرمة للإشراف على قواته هناك، حتى يكون في استقبال والده الذي قرر الحضور إلى الحجاز لقيادة قواته بنفسه، وقد عين طوسون محمد

(١) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٣٠، ٣٣١.

(٢) المرجع السابق، جـ١، ٣٢٩.

(٣) Op. Cit., Burckhardt, Notes, pp. 353- 355؛ ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٢٩.

(٤) بوركهارت، جون لويس. رحلات في شبه جزيرة العرب، مرجع سابق، ٣٦٢.

(٥) Op. Cit., Burckhardt, Notes, p 355.

(٦) الجبرتي، عبدالرحمن. عجائب الآثار، مرجع سابق، جـ٣، ٣٥٩، ٣٦٠، ٤١١؛ دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢٩٦.

(٧) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٣٠، ٣٣١.

(٨) دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢٩٥، ٢٩٦؛ ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٣١؛ ٣٣٢-٣٥٧. Ibid., Burckhardt, Notes, 356.

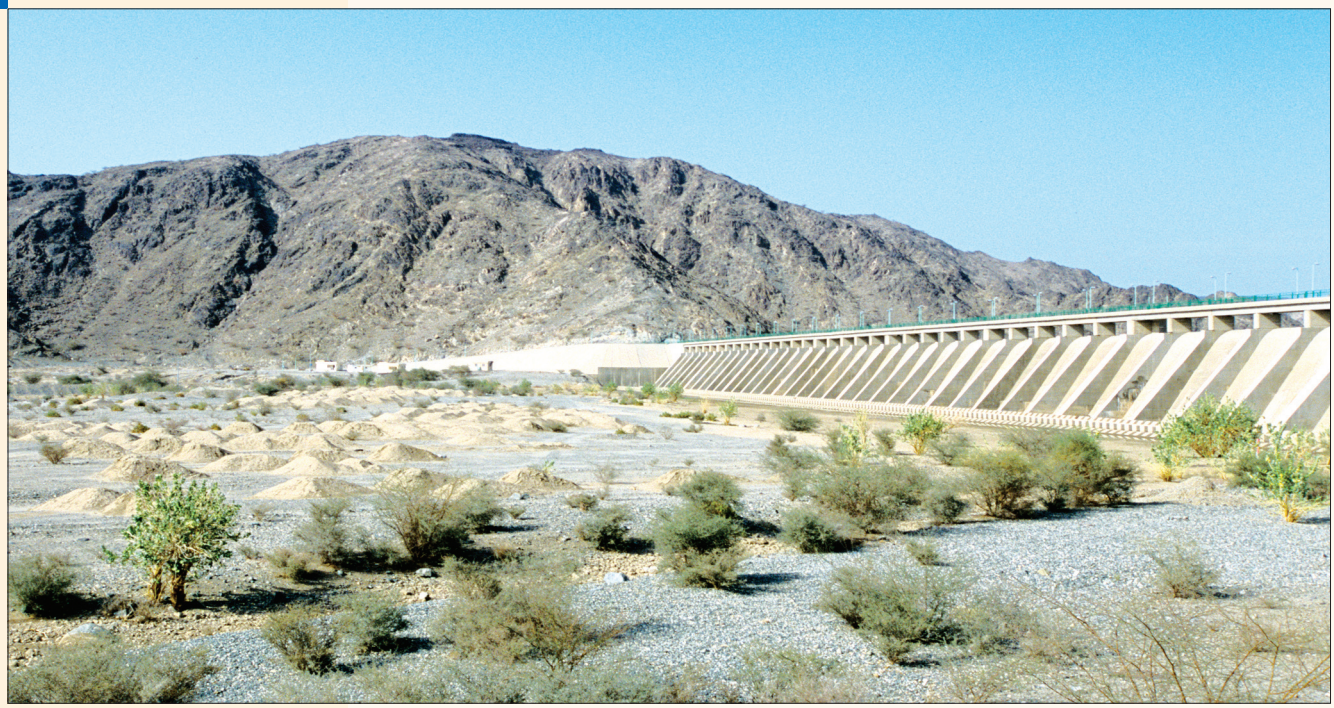

وادي فاطمة

أفندي، (ديوان أفندي) كاتب والده حاكماً على المدينة المنورة[١]،حيث ظلت حكومة المدينة بيده، واقتصرت سلطة شيخ الحرم النبوي على الأمور الدينية والمالية والإدارية للمسجد النبوي، وكان من الشخصيات المهمة في المدينة في ذلك الوقت، إلى جانب حاكم محمد علي على المدينة والقاضي العثماني وشيخ الحرم، كبير الأشراف أو شيخ السادة، أما أمير مكة المكرمة فلم يعد له أي ممثل أو نفوذ في المدينة المنورة[٢].

وقد أسهم إعادة إرسال الأموال والهدايا والمخصصات المرصودة للحرمين الشريفين والفئات الاجتماعية المختلفة في المدينة، ونمو الحركة التجارية الناتجة عن كل ذلك، ووجود قوات محمد علي والعثمانيين في الحجاز، أسهم كل ذلك في تحسين الأوضاع الاقتصادية والمعيشية لسكان المدينة المنورة، كما نتج من تتابع وصول الفرق العسكرية من مصر إلى ينبع والمدينة المنورة، وما يصاحبها من خدم ومساعدين وأصحاب حرف وتجار وزوار، استيطان أعداد كبيرة من المصريين والمغاربة في هاتين المدينتين، وبقاء بعضهم فيهما حتى بعد انتهاء الحملات العسكرية.

وصل محمد علي باشا إلى جدة في أوائل رمضان ١٢٢٨ هـ/١٨١٣ م، بعد أن أرسل أمامه أربعة آلاف من المشاة والفرسان وثمانية آلاف من الإبل ومقادير من السلاح والذخيرة[٣]. وقد انشغل الباشا بعد وصوله إلى الحجاز بتنظيم أوضاع قواته في المنطقة، والقبض على الشريف غالب بن مساعد ونفيه، وإرسال الحملات ضد أتباع الدولة السعودية في جنوبي الحجاز، وأهمل الجبهة

(١) Op. Cit., Burckhardt, Notes, pp.359_360.

(٢) بوركهارت، جون لويس. رحلات في شبه جزيرة العرب، مرجع سابق، ٣٦٣.

(٣) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٣٨؛ الجبرتي، عبدالرحمن. عجائب الآثار، مرجع سابق، جـ٣، ٤٠٨؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. الدولة السعودية، مرجع سابق، ٣٢٢، ٣٢٣؛ Ibid., Burckhardt, Notes, pp. 60_361.

الشمالية حول المدينة[١]. وفي جمادى الآخرة ١٢٢٩ هـ/١٨١٤ م وصل الشيخ جزا[٢] أحد شيوخ حرب إلى المدينة المنورة لمقابلة الديوان أفندي حاكم البلدة، وبعد أن مل الشيخ جزا من النقاش الطويل مع القائد العثماني صاح على مسمع من الحضور في المجلس: وسرد أفضاله وقبيلته عليه وعلى جيش محمد علي، ما عده الحاكم العثماني إهانة عظيمة لا يمكن تحملها، فشتم الشيخ جزا وصفعه وقيده، وفي اليوم التالي زعم أن الشيخ قتل نفسه وأنه على علاقة بالسعوديين[٣].

لقد أثار مقتل الشيخ جزا قبائل حرب الشماليين، فأقفلوا مضيق وادي الصفراء وقطعوا طريق الإمدادات بين ينبع والمدينة، وأخذوا في مهاجمة حاميات محمد علي الذي أسرع لإصلاح ما أفسده حاكم المدينة، فأرسل ابنه طوسون إلى المدينة المنورة لتهدئة الأوضاع، ولما وصل طوسون إلى بدر لم تسمح له حرب بالعبور وطالبوه بقتل قاتل شيخهم، وكان من حسن حظ طوسون وأبيه أن مات الديوان أفندي في هذا الوقت، فزعم طوسون أن أباه أمر بقتله عقاباً له، وتمكن طوسون بعد ذلك من ترضية (الحروب) بدفع دية شيخهم وتوزيع الهدايا على الشيخ الجديد وصغار الشيوخ، ثم وصل إلى المدينة المنورة في ذي القعدة ١٢٢٩ هـ/١٨١٤ م وبصحبته خمسمئة فارس وثلاثمئة من المشاة، وعلى الفور أرسل طوسون الفرسان إلى الحناكية على طريق القصيم[٤].

لقد منيت الدولة السعودية في هذه الفترة بخسارة جسيمة تمثلت في القبض على عثمان المضايفي أمير الطائف والحجاز وأبرز قادة تلك الدولة في الحجاز في رمضان عام ١٢٢٨ هـ/١٨١٣ م، ووفاة الإمام سعود في جمادى الأولى ١٢٢٩ هـ/١٨١٤ م، وقد سهل غياب هذين الرجلين مهمة محمد علي باشا الذي أحرز انتصاراً حاسماً على القوات السعودية في معركة بسل شرقي الطائف في بداية عام ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م، اجتاح بعدها جنوب الحجاز وعسير وتهامة ثم عاد إلى مكة المكرمة مسيطراً بذلك على غربي جزيرة العرب[٥]. وفي الوقت الذي كان فيه الباشا يحرز انتصاراته على الجبهة الجنوبية، كان ابنه طوسون يعد نفسه في المدينة المنورة لإحراز انتصارات مماثلة على الجبهة الشمالية، وقد شجعه على ذلك بعض رؤساء القصيم الذين زاروه في المدينة وتعهدوا بمساندته حينما سمعوا بانتصارات أبيه في الجنوب وخافوا من أن يلقوا المصير نفسه، فأرسل جماعات من الفرسان إلى بعض بلدان القصيم[٦].

على الرغم من عدم توفر العساكر والمؤن والجمال الكافية للقيام بحملة إلى داخل الصحراء، وربما عدم موافقة محمد علي باشا على هذه الحملة في هذا الوقت، خرج طوسون من المدينة على رأس سبعمئة من الفرسان والمشاة وأربعمئة جمل تنقل مؤنهم في ربيع الثاني ١٢٣٠ هـ نهاية مارس ١٨١٥ م متوجهاً إلى الحناكية ومعه عدة مئات من رجال القبائل، تاركاً خازنداره الإسكتلندي توماس كيث (Thomas Keith) ـ الذي كان قد أسلم وتسمى إبراهيم آغا وأصبح من كبار ضباطه ـ حاكماً للمدينة المنورة [٧]. وخلال وجود طوسون باشا في الحناكية وصل والده إلى المدينة المنورة فجأة، وأرسل يطلب من ابنه العودة إلى المدينة للتشاور في أمر الحملة على القصيم، لكن طوسون بدلاً من الانصياع

(١) دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٢٩٧ ـ ٣٠٠؛ Op. Cit., Burckhardt, Notes, pp. 361 - 366, 371 - 388.

(٢) يُسمَّى جزا بن عامر الأحمدي عند: فائز بن موسى الحربي، *ابن مضيان الظاهري وعلاقته بالحملات المصرية في عهد الدولة السعودية الأولى*، (الرياض: دار البدراني، ١٤١٤ هـ)، ٥٥ ـ ٥٧.

(٣) Ibid., Ibid, Burckhardt, Notes, pp. 387- 388.

(٤) Op. Cit., Burckhardt, Notes, 388. عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. الدولة السعودية، مرجع سابق، ٣٢٨.

(٥) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٧٠ ـ ٣٧٦. Ibid., Burckhardt, Notes, pp. 394 - 408.

(٦) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٧٦؛ Ibid, Burckhardt, Notes, p 409.

(٧) Ibid., Burckhardt, Notes, pp. 409 - 410.

لأوامر أبيه تقدم بمن معه من الجنود إلى القصيم، واستولى في الطريق على خمسمئة من إبل قبيلة بني رشيد لاستخدامها في جلب المؤن من ينبع، ووصل إلى بلدة الرس في جمادى الأولى ١٢٣٠ هـ/مايو ١٨١٥ م[١]. وحين يئس محمد علي باشا من ثني عزم ابنه عن التقدم إلى نجد أرسل في إثره بضع مئات من الفرسان والمشاة تحت قيادة حاكم المدينة المنورة إبراهيم آغا وعاد مسرعاً إلى مصر.

حين علم الإمام عبدالله بن سعود بوصول طلائع قوات طوسون باشا إلى القصيم جمع المقاتلين من أهل القصيم الذين بقوا موالين له والمناطق الأخرى وتوجه للتصدي للقوات الغازية، وأخذ الإمام ينازل تلك القوات في غربي القصيم ويهاجم إمداداتها والقبائل والقرى المتحالفة معها حتى مال الطرفان للمصالحة وتراسلا لعقد صلح وهدنة[٢]. وكان من أهم شروط الصلح: وقف القتال بين الطرفين وانسحاب قوات محمد علي والعثمانيين من نجد، وتأمين الانتقال بين الجانبين لأداء نسك الحج والتجارة، وتخلي الإمام عبدالله عن الحرمين وخضوعه للسلطان العثماني وحاكم المدينة المنورة، وأن يعيد الذخائر التي أخذها والده من الحجرة النبوية[٣]. عدَّ الإمام عبدالله بعض هذه الشروط إهانة له، ولذلك بعث في ساقة قوات طوسون باشا الذي سارع إلى الانسحاب من نجد إلى المدينة في شعبان ١٢٣٠ هـ/يونيو ١٨١٥ م، مبعوثين برسائل إلى محمد علي باشا والسلطان العثماني لإتمام التفاوض على شروط الصلح والموافقة عليه[٤].

كان الإمام عبدالله حريصاً على إتمام الصلح بعكس والي مصر الذي كانت لديه وجهة نظر أخرى فيما يتعلق بالدولة السعودية ونفوذ مصر في الجزيرة العربية، فلم يستطع المبعوثون السعوديون التوصل معه إلى اتفاق، وأصر على الشروط التي اقترحها ابنه طوسون وعلى ضرورة حضور الإمام عبدالله إلى مصر ثم مقابلته للسلطان[٥]. وقد زاد من تشدد محمد علي باشا وإصراره على إرسال حملة جديدة ضد الدولة السعودية قيام الإمام عبدالله على رأس عدد كبير من قواته بغزوة واسعة لمعاقبة القبائل والعشائر التي تعاونت مع قواته، وقد وصلت عملياته التأديبية إلى مناطق قريبة من المدينة المنورة[٦].

عزم محمد علي باشا على إرسال حملة عسكرية أخرى للقضاء على الدولة السعودية، فأخذ خلال عام ١٢٣١ هـ/١٨١٦ م في إعداد ما تحتاجه الحملة من جنود وأسلحة ومؤن وأموال، وإرسالها عبر ميناءي السويس والقصير إلى ينبع، وقد أسند الباشا قيادة هذه الحملة إلى ابنه الأكبر إبراهيم باشا، الذي وصل إلى ينبع في ذي القعدة ١٢٣١ هـ/ سبتمبر ١٨١٦ م ومعه ألفا جندي من المشاة وألف وخمسمئة من الفرسان وعدد من الخبراء العسكريين والأطباء الأوربيين[٧]. أقام إبراهيم باشا معسكره خارج أسوار المدينة المنورة، وبدأ مناورات عسكرية مكثفة بالذخيرة الحية للرفع من قدرات جيشه القتالية وإرهاب السعوديين والقبائل النازلة بين المدينة المنورة والدرعية، كما أخذ في تدريب جنوده على الحرب الصحراوية ومنعهم من الإساءة إلى القبائل التي سيمر جيشه في ديارها، ومنح رؤساء تلك القبائل الهدايا ورتب لهم الرواتب، وطعَّم جيشه بعدد من فرسان تلك القبائل لكي يضمن مساعدتها وولاءها[٨].

(١) Op. Cit., Burckhardt, Notes, p. 411.

(٢) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٧٦ ـ ٣٧٨؛ Ibid., Burckhardt, Notes, pp. 412 - 413.

(٣) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٧٨، ٣٧٩؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. الدولة السعودية، مرجع سابق، ٣٣٢، ٣٣٣؛ Ibid., Burckhardt, .Notes, pp. 413 - 414

(٤) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٧٨ ـ ٣٧٩؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. الدولة السعودية، مرجع سابق، ٣٣٣، ٣٣٤؛ Ibid., Burckhardt, .Notes, pp. 414 - 415.

(٥) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٧٨، ٣٧٩؛ الجبرتي، عبدالرحمن. عجائب الآثار، مرجع سابق، جـ٣، ٤٩٣، ٤٩٤؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. الدولة السعودية، مرجع سابق، ٣٣٤، ٣٣٥.

(٦) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٨١، ٣٨٢؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. الدولة السعودية، مرجع سابق، ٣٣٩.

(٧) Ibid., Burckhardt, Notes, pp. 419 - 420.

عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. الدولة السعودية، مرجع سابق، ٣٤٠.

(٨) المرجع السابق، ٣٤٠ ـ ٣٤٢.

تقدم إبراهيم باشا بقواته إلى الحناكية التي اتخذها مركزاً متقدماً لعملياته الحربية، وواصل من هناك سياسته القبلية الرامية إلى إرهاب القبائل أو استقطابها، وكانت المدينة المنورة وينبع في هذا الوقت تمثل قواعد لقوات محمد علي الزاحفة إلى نجد، تصل إليهما الإمدادات من الجنود والسلاح والمؤن من مصر، وترسل منهما إلى الحناكية والقصيم والدرعية، حتى تمكنت الجيوش الغازية من الاستيلاء على الدرعية في ذي القعدة ١٢٣٣ هـ/سبتمبر ١٨١٨ م[١]. ولذلك شهدت المدينة المنورة وينبع خلال هذه الفترة نشاطاً عسكرياً واسعاً وحركة نقل وتجارة نشطة بسبب توافد الفرق العسكرية وجماعات الزوار وإرساليات المؤن والذخيرة والسلاح المرتبطة بالحملة العسكرية ومرورها بالمدينتين[٢].

عاد إبراهيم باشا إلى المدينة المنورة في أواخر عام ١٢٣٤ هـ/١٨١٩ م بعد أن قضى على الدولة السعودية الأولى وهدم عاصمتها الدرعية، وكان السلطان العثماني قد بعث قبل ذلك الخلع والهدايا إلى محمد علي باشا وابنه إبراهيم تقديراً للخدمات التي قدماها للدولة، وفي ذي القعدة ١٢٣٥ هـ/أغسطس ١٨٢٠ م أنعم السلطان العثماني على إبراهيم باشا بباشوية جدة، وكان محمد علي باشا قد عين ابن أخته أحمد باشا يكن قبل ذلك بشهرين قائداً عاماً للجيوش في الجزيرة العربية ومحافظاً لمكة المكرمة وحاكماً عاماً للحجاز[٣]. وبذلك أتيح لوالي مصر أن يتولى حكم المناطق التي استولت عليها جيوشه في جزيرة العرب تحت السيادة العثمانية، وقد أوكل الوالي إدارة هذه المناطق لحاكم عام الحجاز ومقره مكة المكرمة، وأمره بالتنسيق مع أمير مكة المكرمة في تنفيذ سياسة الحكومة[٤].

قسم محمد علي باشا المناطق التي أصبح يديرها في جزيرة العرب إلى محافظات، أهمها محافظة مكة المكرمة التي يديرها حاكم الحجاز بنفسه، وتليها في الأهمية محافظة المدينة المنورة ثم محافظة ينبع، وقد ألحقت شؤون نجد الإدارية والعسكرية بمحافظة المدينة المنورة[٥]. وكان محمد علي باشا وحاكم الحجاز يختاران لمنصب محافظ المدينة المنورة أكفأ رجالهما العسكريين، بسبب أهمية المنطقة، وسعتها، وكثرة القبائل التابعة لها، وعدم وجود حاكم محلي فيها مثل أمير مكة المكرمة، وكان محافظ المدينة المنورة يشرف على الشؤون الإدارية والمالية والعسكرية وشؤون القبائل وأمور نجد، ويرجع في ذلك إلى حاكم عام الحجاز، ولكنه يستطيع في الوقت نفسه مخاطبة القاهرة مباشرة خصوصاً في الأمور المالية والعسكرية[٦].

كان يساعد محافظ المدينة المنورة وكيل أو معاون له، يساعده في ممارسة اختصاصاته، وينوب عنه في حال غيابه عن مقر عمله، كما كان يساعد المحافظ في إدارة المحافظة مجلس شورى يتكون من كبار الموظفين في المحافظة مثل أمين الشَّوْنَة[٧]، ومعاون الخزينة، وقاضي المدينة، ومفتش الحسابات وغيرهم، ويجتمع هذا المجلس في ديوان المحافظة برئاسة المحافظ، وتناقش فيه الأمور الإدارية والمالية وغيرها، وتتخذ فيه القرارات التي يرفع المهم منها إلى حاكم الحجاز والقاهرة وتشمل مهام المجلس تشكيل

(١) لمعرفة تفاصيل تقدم قوات إبراهيم باشا حتى استيلائها على الدرعية؛ انظر: ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٣٨٤ ـ ٤٢٠.

(٢) دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٣٠٢.

(٣) عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، *محمد علي وشبه الجزيرة العربية*، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٦م)، ٣٦، ٧١.

(٤) المرجع السابق، ٧٢، ٧٣.

(٥) عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، *محمد علي وشبه الجزيرة العربية*، مرجع سابق، ١٧، ١٩، ٨١.

(٦) عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، *محمد علي وشبه الجزيرة العربية*، ، مرجع سابق، ٨١، ٨٢.

(٧) الشَّوْنَة: هي المخزن الذي تودع فيه الحبوب والغلال التابعة للحكومة لاستهلاك الجند والحجاج والمواطنين.

لجان التحقيق في الأمور المهمة تمهيداً لإعادة مناقشتها واتخاذ القرار المناسب فيها[١].

حرص محمد علي باشا على تقوية هيبة الحكم وتدعيم الجهاز الإداري في المدينة المنورة عن طريق إصلاح النظام القضائي، وكان القضاء في المدينة قد وصل إلى مرحلة متدنية من الفساد والضعف قبل ضم الدولة السعودية للمدينة، بسبب ضعف تأهيل القضاة الذين كانوا يرسلون من إستانبول، واعتماد تعيينهم على الرشى والمحسوبيات، وتدخل القوى السياسية مثل أمير مكة المكرمة في أحكامهم، وعدم إلمامهم بالأوضاع المحلية[٢]. وكان القضاء في المدينة قد تحسن خلال الفترة القصيرة التي حكمتها الدولة السعودية، لذلك عمد والي مصر إلى تعيين قضاة من أهل الكفاءة والنزاهة، وشدد على ضرورة تحقيق العدالة، ومنع أمراءه وموظفيه من التدخل في أمور القضاء، كما منع القضاة من أخذ الرشوة وجعل القضاء أداة من أدوات إظهار سطوة الدولة وهيبة الحكم[٣]. وقد أبقى محمد علي باشا منصب شيخ الحرم النبوي السابق واستخدمه كأحد أجهزة الإدارة في المدينة، إذ كان شاغل هذا المنصب يشرف على شؤون المسجد النبوي الشريف والمؤسسات الدينية والتعليمية في المدينة المنورة كالمساجد والمدارس والتكايا والزوايا[٤].

إن بلاد الحجاز بشكل عام ومنطقة المدينة المنورة بشكل خاص فقيرة في مواردها الاقتصادية؛ وكانت الدولة العثمانية تنفق أموالاً كثيرة في سبيل إدارتها ورعاية الحرمين الشريفين، وعلى الرغم من أن غالب تلك الأموال كانت تأتي من مصر، إلا أن والي مصر صار يتحمل عبئاً إضافياً بعد أن أصبح يحكم الحجاز نيابة عن السلطان العثماني، ولذلك حرص الباشا على ضبط موارد موانئ الحجاز، والتشدد في جباية الزكاة والرسوم خصوصاً من البادية، لأنه عدها دليلاً على الطاعة وهيبة الحكومة. ولم تكن هذه الموارد شحيحة فحسب بل كانت متذبذبة أيضاً، فقد بلغت الزكاة التي جباها حاكم الحجاز من البدو الرحل في عام ١٢٣٥ هـ/١٨٢٠ م ٨٠٠٠ ريال، وفي العام التالي وصل المبلغ إلى ١٤٠٠٠ ريال[٥]. ولذلك اعتمدت ميزانية إدارة محافظة المدينة المنورة ونفقات الحرم النبوي ونفقات الحملات العسكرية ضد نجد وقبائل المدينة على إمدادات خزينة مصر[٦].

ومن جهة أخرى أدخل محمد علي باشا أنماطاً جديدة من الأنظمة الإدارية والمالية والعسكرية إلى الحجاز بشكل عام ومنطقة المدينة المنورة بشكل خاص، وقد اتسمت تلك الأنظمة بالحيوية والانضباط والقدرة على التجديد ومواجهة المشكلات الطارئة، وتميز القائمون على تطبيق تلك الأنظمة بقدر من الكفاءة والنشاط تحت إشراف مباشر من الباشا نفسه، وقد بعثت تلك الأنظمة روحاً جديدة ونهجاً حكومياً حديثاً لم تعهده المدينة المنورة خلال الحكم العثماني السابق[٧]. وعلى الرغم من أن الانضباط ودقة التنظيم التي اتسمت بها حكومة الباشا قد أرضت قطاعاً كبيراً من سكان المدينة المنورة الذين لم يظهروا تذمراً أو تمرداً ضد حكومته، إلا أن إضعاف محمد علي باشا للقوى المحلية واستخدامها كأدوات لتنفيذ أهدافه، وتشدده في فرض سطوة الحكومة، واستخدام العنف في جباية الزكاة والرسوم

(١) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ٨٢، ٨٣.
(٢) المرجع السابق، ٨٣، ٨٤.
(٣) المرجع السابق، ٨٤، ٨٥.
(٤) المرجع السابق، ٨٥، ٨٦.
(٥) المرجع السابق، ٨٨، ٨٩.
(٦) المرجع السابق، ٩١، ٩٢.
(٧) المرجع السابق، ٩٧، ٩٨.

من القبائل قد دفعها إلى التمرد والعصيان والثورة ضد حكومته، وقد استمر ذلك التمرد وانتشر إلى بقية مناطق جزيرة العرب حتى نهاية حكمه[١].

لم يكد إبراهيم باشا يعود إلى المدينة المنورة حتى استؤنفت المحاولات لبعث الدولة السعودية في نجد من جديد بجهود مشاري بن سعود ثم الإمام تركي بن عبدالله، وقد أزعج ذلك الدولة العثمانية ومحمد علي باشا، فصدرت الأوامر إلى حاكم الحجاز ومحافظ المدينة المنورة بإرسال الحملات للقضاء على تلك المحاولات في مهدها[٢]. وبما أن تنظيمات محمد علي باشا قد قضت بتبعية نجد لمحافظة المدينة المنورة، فقد تولى محافظ المدينة إرسال الفرق والحملات العسكرية إلى نجد؛ فقد بعث في منتصف عام ١٢٣٥ هـ/١٨٢٠ م فرقة من الجند بقيادة أبوش آغا الذي أقنعه محمد بن مشاري بن معمر أنه تابع للدولة العثمانية[٣]. وفي بداية العام التالي ١٢٣٦ هـ/١٨٢١ م أرسل حاكم الحجاز حملة عسكرية مكونة من أكثر من ألفين من الفرسان والمشاة ومعهم مدفعية وجماعات من مطير وعتيبة بقيادة حسين بك قائد الفرسان الكشافة الذي كان يتولى محافظة المدينة المنورة [٤]. وقد سار حسين بك بجنوده إلى القصيم ومنها إلى ثرمدا في الوشم، وانضم إليه بعض أهل بلدان نجد، وقد هاجم قسم من حملته الإمام تركي بن عبدالله في الرياض وأجبره على الهرب منها، وقتل من بقي فيها من أتباعه ودبر مذبحة لأهل الدرعية، ثم أرسل حسين بك فرقاً من قواته ومن حلفائه النجديين إلى بلدان نجد لجمع الأموال والغلال والدواب، ثم عاد بجنده إلى المدينة المنورة بعد أن أبقى حاميات صغيرة في الرياض وثرمدا وعنيزة في شوال ١٢٣٦ هـ/١٨٢١ م[٥].

دبت الحروب والفوضى في نجد بعد مغادرة حملة حسين بك، فأرسل محمد علي باشا إلى محافظ المدينة المنورة يأمره بإرسال حملة جديدة إلى نجد (وإيقاع العقاب الشديد بأهل الفساد)[٦]، فخرجت من المدينة حملة بقيادة حسن بك أبوظاهر الذي أظهر في البداية التنسك وأن هدفه محاربة البدو وجمع الزكاة منهم، لكنه لم يلبث أن عاد إلى سيرة سلفه حسين بك في العسف والغدر والقتل في سبيل جمع الأموال والمؤن، ما أثار ضده البادية والحاضرة الذين حاربوه وهزموه وأرغموه على جمع قواته والعودة إلى المدينة بعد أن ترك حاميات صغيرة في منفوحة والرياض وعنيزة، وذلك في منتصف عام ١٢٣٨ هـ/١٨٢٣ م[٧]. وقد شجعت هذه الحوادث الإمام تركي بن عبدالله على الظهور والبدء في العمل على طرد ما تبقى من جنود محمد علي من نجد وإقامة الدولة السعودية.

لقد أصبحت المدينة المنورة خلال هذه الفترة قاعدة عسكرية مهمة في شمالي الحجاز، تصل إليها إمدادات الجنود والمؤن والسلاح والذخيرة من مصر عبر ينبع، وتخرج منها تلك الإمدادات إلى نجد، وأصبح تحت تصرف محافظ المدينة المنورة أعداد كبيرة من العساكر ومقادير كبيرة من المؤن والذخائر والأموال، ما قوَّى من سلطته في المدينة والمناطق والقبائل التابعة لها[٨]. كذلك أسهمت تلك الإمدادات في نمو الحركة التجارية وحركة النقل بين المدينة ومحافظة ينبع وبينها وبين نجد، كما تزايدت أعداد السكان المقيمين

(١) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ١٢٤ ـ ١٢٩.

(٢) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٤٤١ ـ ٤٤٩؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ٧ ـ ١٤.

(٣) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٤٤٧ ـ ٤٤٩.

(٤) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ١٤.

(٥) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٤٥١ ـ ٤٥٦.

(٦) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ١٩.

(٧) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ١، ٤٦١ ـ ٤٦٣، جـ٢، ٢٥ ـ ٢٧؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ١٧ ـ ٢١.

(٨) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤٧٢ ـ ٤٧٤.

في المدينة وينبع من المصريين والعثمانيين والمغاربة المنتمين إلى جيوش محمد علي باشا أو المرتبطين بخدمة تلك الجيوش.

تزامن تمرد القبائل المحيطة بالمدينة المنورة مع محاولات التخلص من حكم محمد علي باشا في نجد، ما شكل عبئاً عسكرياً مضاعفاً على محافظ المدينة؛ ففي عام ١٢٣٦ هـ/١٨٢٨ م ثارت قبائل بني علي وبني سفر وبني عمرو وعوف النازلة إلى الجنوب والشرق من المدينة المنورة وأخذت تهاجم المدينة وتفرض عليها الحصار، فهبت العساكر الموجودة في البلدة من المغاربة والسكان وتمكنت من إجبار المهاجمين على الانسحاب [١]. وفي العام التالي امتدت حركة التمرد القبلي إلى قبائل غرب وشمال المدينة المنورة، إذ ثارت قبائل حرب في وادي الصفراء والجديدة وبدر وقبائل جهينة في ينبع، وبعث محافظ المدينة إلى الباشا يشكو إليه سوء وضع المناطق والقبائل التابعة له، ويطلب منه الإمدادات للتغلب على تلك التمردات[٢]. ولم تقتصر حركة التمرد القبلي هذه على القبائل المجاورة للمدينة، بل امتدت بعد ذلك إلى قبائل جنوبي الحجاز وعسير، وكان سبب حركات العصيان هذه تشدد موظفي الباشا في فرض الضرائب المختلفة وجمعها تحت اسم الزكاة وعجز القبائل عن تأديتها وسوء الأحوال الاقتصادية في الحجاز نتيجة للحروب التي قام بها محمد علي في المنطقة، واستيلاء قواته على إبل وماشية وأموال تلك القبائل، وما أحدثته سياسة الباشا من انقسام بين الأشراف وانقسام القبائل تبعاً لذلك[٣].

تخوف محمد علي باشا من هذه الاضطرابات القبلية وخشي أن يفقد سلطته وسلطة العثمانيين في الحرمين بسببها، فكتب إلى محافظ المدينة المنورة يشجعه ويثبته ويحضه على ضرورة التصدي لتمردات العرب بالقوة والشدة، كما وعده بتجهيز الجنود وإرسالهم إلى المدينة على وجه السرعة، كما أرسل الباشا إلى حاكم الحجاز أحمد باشا يكَن يوجهه إلى ضرورة التنسيق بينه وبين محافظ المدينة بهذا الشأن[٤].

من ناحية أخرى، عمد محمد علي باشا إلى سياسة الترغيب مع شيوخ القبائل، مثل: الشيخ واصل بن غانم بن مضيان شيخ حرب، الشيخ مشعان بن هذال شيخ عنزة، الشيخ فيصل الدويش شيخ مطير، الشيخ حمد بن سبيع شيخ جهينة، فكتب إليهم وأعطاهم الأمان وحثهم على الامتثال لأوامر حسن بك محافظ المدينة المنورة والتعاون معه في «العمل على رفاهية البلاد وزجر من يرفع راية العصيان، وأن من يفعل ذلك فسوف يعود عليه بالخير العميم، وأن من يخدم بابه بالصداقة فسوف لا يضيع سعيه وسيرى مكافأته»[٥]. وخص الشيخ واصل بن مضيان بسبب سيطرة قبائله على طريق الحج في مضايق وادي الصفراء والجديدة بقوله: «لأنك أنت ممن نعتمد عليه بذلك الطرف»[٦].

لقد نجحت سياسة الترغيب والترهيب التي سار عليها محمد علي باشا مع القبائل المجاورة للمدينة المنورة، فهدأت الأوضاع في المدينة وما جاورها بعد عام ١٢٤٠ هـ/١٨٢٥ م، وذلك لأن الباشا وحكومة الحجاز قد انشغلا خلال هذه الفترة بالنزاع الذي دب بين أشراف مكة المكرمة على الإمارة منذ عام ١٢٤٢ هـ/ ١٨٢٧ م وامتداده إلى قبائل جنوبي الحجاز وعسير[٧]، فهادن الباشا قبائل المدينة المنورة للتفرغ لمعالجة تلك المشكلات، لكنه

(١) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ٣٨، ٣٩، ١٠٥، ١٠٦.
(٢) المرجع السابق، ٣٩، ٤٣، ١١٠.
(٣) المرجع السابق، ١٠٣ ـ ١٠٥.
(٤) المرجع السابق، ٣٩ ـ ٤٤، ١٠٦ ـ ١١٠.
(٥) المرجع السابق، ٤٠، ٤٣، ١١٠.
(٦) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ٤٠، ١١٠.
(٧) دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٣٠٤ ـ ٣١٠؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ١١٢ ـ ١١٩، ١٣٣ ـ ١٦٧، ١٧١ ـ ١٩١.

استأنف حملاته العسكرية ضد السعوديين في نجد عام ١٢٥٢ هـ/١٨٣٦ م، التي استمرت حتى انسحابه من جزيرة العرب في عام ١٢٥٦ هـ/١٨٤٠ م. وكانت تلك الحملات والإمدادات اللازمة لها تمر عبر ينبع والمدينة المنورة[١]. وقد أدت هذه الأنشطة العسكرية في المنطقة إلى عودة الاضطراب والعصيان مرة أخرى بين القبائل المجاورة للمدينة، بسبب أخذ الحكومة جمال تلك القبائل لاستخدامها في نقل الجند والمؤن والإمدادات بين ينبع وبين المدينة وجدة ونجد وتعطل مصالح القبائل بسبب ذلك[٢].

في عام ١٢٥٤ هـ/١٨٣٨ م أعلنت قبائل حرب التي تسيطر على طريق الحج والطرق الواصلة بين المدينة المنورة وبين ينبع ومكة المكرمة وجدة والتي تعمل في نقل الحجاج والتجارة والإمدادات بين تلك الأمكنة، العصيان على حكومة محمد علي باشا، ورفضت نقل المؤن والإمدادات واعترضت جماعات منها تلك الطرق[٣]. استنجد محرم بك ـ محافظ المدينة المنورة ـ بدرويش بك محافظ ينبع لمساعدته في التصدي لذلك العصيان، فأرسل محافظ ينبع بعض العساكر والمدافع والأسلحة التي وصلته من مصر، فضمها محرم بك إلى قوات من المدينة وسيرها بقيادة قائد مدفعية المدينة لإخضاع الثائرين في الجديدة ووادي الصفراء، لكن فرقة المدفعية وفرقة الفرسان واجهتا مصاعب كبيرة بسبب قلة المؤن والمياه وصعوبة الحركة في المناطق الجبلية[٤]. كتب محافظ المدينة المنورة إلى مصر يطلب الإمدادات، فأرسل الباشا حملة جديدة بقيادة سليم باشا أطزبير في عام ١٢٥٥ هـ/١٨٣٩ م، وأخذ سليم باشا يهاجم تجمعات المتمردين وقراهم ومعاقلهم ويقطع نخيلهم، وقد نتج من هذه العمليات العسكرية انقطاع الطرق وشح المؤن والأغذية في المدينة وارتفاع أسعارها[٥].

أثار توسع محمد علي باشا في الأحساء ونواحي الخليج العربي وسيطرته على بلاد الشام مخاوف بريطانيا، فانتهزت فرصة انتصاره على قوات الدولة العثمانية في معركة نصيبين عام ١٢٥٥ هـ/١٨٣٩ م وتزعمت عدداً من القوى الأوروبية بالإضافة إلى الدولة العثمانية، وعقدت مؤتمر لندن في عام ١٢٥٦ هـ/١٨٤٠ م الذي أجبر محمد علي باشا على الانسحاب من بلاد الشام والجزيرة العربية[٦].

خاف والي مصر على قواته في الحجاز ونجد والأحساء وأراد حمايتها وتنظيم انسحابها، خصوصاً أن طريق انسحاب تلك القوات يمر بديار حرب التي كانت في ذلك الوقت في حالة عصيان ومواجهة عسكرية شديدة مع قوات محمد علي. استدعى الباشا أمير مكة المكرمة، الشريف محمد بن عون الذي كان محتجزاً لديه في القاهرة بسبب خلافاته مع حاكم الحجاز أحمد باشا يكن، وأبلغه أنه سيعيده إلى إمارة مكة المكرمة بموافقة الدولة العثمانية، وأنه سيترك له المخزون الكبير من المؤن والذخائر والسلاح الموجود في الحجاز، وطلب منه تنظيم انسحاب قوات محمد علي الموجودة في ذلك الوقت في منطقة المدينة المنورة ومنطقة نجد والأحساء وتأمينها، وسيكون انسحابها عن طريق المدينة وينبع[٧].

توجه الشريف محمد بن عون من مصر إلى ديار حرب عن طريق ينبع، وأراد استغلال

(١) ابن بشر، عثمان بن عبدالله. عنوان المجد، مرجع سابق، جـ٢، ١٤٠ ـ ١٥٧، ١٦٢ ـ ١٧٢؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ٢٨١ ـ ٣١٢.

(٢) المرجع السابق، ١٢٠؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤٧٥، ٤٧٦.

(٣) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ١٢٠، ١٢٤؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤٧٦.

(٤) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ١٢٤، ١٢٥؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤٧٦، ٤٧٧.

(٥) دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٣١١؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤٧٧، ٤٧٨.

(٦) المحامي، محمد فريد. تاريخ الدولة العلية، مرجع سابق، ٤٥٣، ٤٦٢ وما بعدها.

(٧) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤٧٨، ٤٧٩.

وجود قوات محمد علي في ديار حرب وينبع والمدينة المنورة لضرب تلك القبيلة المتمردة لتأمين انسحاب قوات محمد علي من نجد والمدينة من ناحية، ولتقوية سلطته.

اجتمع الشريف بقوات سليم باشا في الخيف والنازية بعد موسم حج عام ١٢٥٥ هـ/١٨٤٠ م، واستأنف الرجلان الهجمات على قبائل حرب وقراها، وأحكما السيطرة على موارد المياه والطرق، وأجبرا تلك القبائل على اللجوء إلى جبل الفقرة وطلب الأمان وإعلان الطاعة والتعهد بتأمين الطرق وتقديم الخدمات اللازمة لحكومة الحجاز[١].

توجه الشريف محمد بن عون بعد ذلك إلى المدينة المنورة التي مكث فيها أكثر من عشرة أشهر يرتب انسحاب قوات محمد علي القادمة من نجد والموجودة في المدينة عن طريق ينبع، كما بدأ الشريف بالتعاون مع عثمان باشا شيخ الحرم النبوي ومحرم بك محافظ المدينة في تنظيم الأوضاع السياسية والإدارية في المدينة المنورة وترتيب تسلم الموظفين العثمانيين مهامهم من نظرائهم المصريين، وعين الشريف محمد بن عبدالله بن سرور قائمقام عنه في المدينة المنورة، وتوجه إلى مكة المكرمة في أواخر عام ١٢٥٦ هـ/١٨٤٠ م[٢]. وهكذا أتيحت الفرصة لأمير مكة المكرمة والحجاز لإعادة نفوذه في المدينة المنورة مع نهاية حكم محمد علي باشا وعودة حكم الدولة العثمانية للحجاز.

رابعاً ـ العهد العثماني الثاني ١٢٥٦ ـ ١٣٣٤هـ / ١٨٤٠ ـ ١٩١٦م:

أدخل محمد علي باشا عدداً من الأنظمة الإدارية والمالية الحديثة إلى الحجاز، وتمكن بواسطتها من إحكام سيطرته على المنطقة، وحين أُجبر الباشا على التخلي عن الحجاز للدولة العثمانية عام ١٢٥٦ هـ/١٨٤٠ م ورث العثمانيون تلك الأنظمة ولم يغيروا كثيراً منها، وأرادوا أن يرثوا أيضاً قوة السلطة التي حققها الباشا في الحجاز، وبخاصة أن الدولة العثمانية قد دخلت في عهد جديد، هو عصر التنظيمات الذي مكن العثمانيين من إعادة تنظيم دولتهم وإعادة فرض هيمنة الحكومة المركزية على الولايات.

عينت الدولة العثمانية عثمان باشا الذي كان شيخاً للحرم النبوي والياً في جدة وشيخاً للحرم المكي في عام ١٢٥٧ هـ/١٨٤١ م، ومنحته سلطات واسعة، الهدف منها الحد من سلطات أمير مكة المكرمة الشريف محمد بن عون الذي كان محسوباً على والي مصر محمد علي باشا[٣]. وكان من الطبيعي أن ينشب النزاع على السلطة في الحجاز بين أمير مكة المكرمة والوالي العثماني، ما اضطر الدولة العثمانية إلى تعيين عدد من الولاة وعزل آخرين خلال إمارة هذا الشريف[٤].

وقد قدم الشريف محمد بن عون خلال هذه الفترة خدمات عسكرية كبيرة للدولة العثمانية في أقاليم نجد وعسير واليمن، وكافأته الدولة على ذلك بمنح رتبة الباشوية ورتبة الوزارة له ولأبنائه الأربعة[٥]. لكن كل ذلك لم يثن الحكومة العثمانية عن العمل على فرض سلطتها في الحجاز عن طريق دعم سلطة والي جدة على حساب سلطة أمير مكة المكرمة، ولم تكن الدولة تتردد في عزل والي جدة عندما يفشل في تحقيق سياستها في الحجاز، فعزلت حسيب باشا الذي فشل في فرض الإصلاحات في مكة المكرمة في عام

(١) دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٣١١؛ عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. محمد علي، مرجع سابق، ١٢٦.

(٢) دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٣١١، ٣١٢؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤٧٩ ـ ٤٨١.

(٣) دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٣١١، ٣١٣، ٣١٤؛ مريم فريح المهوس، «موقف الحامية العثمانية في المدينة المنورة من ثورة الشريف حسين ١٣٣٤ـ١٣٣٧ هـ/١٩١٦ ـ ١٩١٩م»، رسالة ماجستير غير منشورة، (الرياض: جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٤٢٢ هـ)، ١٢.

(٤) دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٣١٣، ٣١٤؛ أحمد السباعي، *تاريخ مكة*. ط٦، (مكة: نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤ هـ)، ٥٢٩.

(٥) دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٣١٤، ٣١٥.

١٢٦٦ هـ/١٨٥٠ م وعـينت عبدالعزيز باشا والياً في جدة، وأمرته بالقبض على الشريف محمد بن عون وأولاده وإرساله إلى إستانبول في عام ١٢٦٧ هـ/١٨٥١ م[١].

كفت الدولة العثمانية يد أمير مكة المكرمة محمد بن عون عن المدينة المنورة على الرغم من الخدمات التي قدمها في المدينة وفي غيرها، وأصبح محافظ المدينة يتلقى أوامره من والي جدة، وعندما أصدرت الدولة منشور التنظيمات الخيرية في عام ١٢٧٣ هـ/١٨٥٦ م ونظام الولايات في عام ١٢٨١ هـ/١٨٦٤ م اللذين تضمنا تغييرات وإصلاحات جذرية للأنظمة الإدارية والمالية في الدولة، حاول المسؤولون العثمانيون في الحجاز تطبيق بعض ما جاءت به تلك الأنظمة[٢]. وقد قسمت ولاية الحجاز حسب نظام الولايات لعام ١٢٨١ هـ/١٨٦٤ م إلى متصرفيتين هما: متصرفية جدة، ومتصرفية المدينة المنورة، وألحقت بمتصرفية المدينة أربعة أقضية هي: ينبع البحر والوجه والسوارقية والعقبة[٣]، وصار لمتصرفية المدينة المنورة فيما بعد وضع خاص، إذ أصبح بمقدورها الاتصال بالعاصمة العثمانية مباشرة[٤].

كان يترأس الجهاز الإداري في المدينة المنورة المحافظ الذي يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية ويحمل رتبة باشا، ويساعد المحافظ هيئة تسمى (هيئة أركان اللواء) تتكون من أربعة أعضاء من كبار الموظفين في المدينة هم: القاضي، مدير الحرم، المحاسب، والكاتب، وتشكل هذه الهيئة السلطة الإدارية العليا في محافظة المدينة[٥]. ويأتي تحت هذه الهيئة هيئة أخرى تسمى (مجلس الإدارة) مهمته مناقشة الأمور الإدارية والبلدية وغيرها واقتراح الحلول للمشكلات التي تطرأ في المحافظة، وعدد أعضاء هذا المجلس نحو عشرة، بعضهم أساسيون من كبار موظفي المحافظة، مثل القاضي والمفتي الحنفي ومدير الحرم والمحاسب، يضاف إليهم عدد من الأعيان يتم انتخابهم من بين وجهاء المدينة[٦]. وقد شهدت المدينة المنورة هدوءاً ملحوظاً خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، حيث لم يوجد فيها سوى خمسمئة من الجند غير النظاميين غالبهم من بقايا قوات محمد علي باشا، بالإضافة إلى عدد محدود من الجند النظاميين العثمانيين[٧].

في عام ١٢٦٠ هـ/١٨٤٤ م عين داود باشا والي بغداد المشهور محافظاً للمدينة المنورة وشيخاً للحرم النبوي[٨]، وقد لاحظ الباشا تسرب الخراب إلى مباني المسجد النبوي التي أُنشئت في عهد السلطان المملوكي قايتباي (ت ٩٠١ هـ/١٤٩٥ م)، فكتب إلى السلطان العثماني عبدالمجيد يوصي بضرورة إعادة عمارة المسجد النبوي، وقد وافق السلطان على إجراء عمارة شاملة للمسجد لم يسبق لها مثيل، وبعث في عام ١٢٦٦ هـ/١٨٥٠ م مشرفاً على المشروع مصحوباً بعدد من المهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والفنيين والنحاتين وما يلزم من مواد البناء عن طريق ينبع[٩]. وقد أقيمت الورش في ضواحي المدينة لقطع الأحجار ونحتها ونقلها إلى المسجد النبوي، ولكي لا تتعطل الصلاة في المسجد قرر المشرفون على العمارة هدم وإعادة بناء أروقة المسجد واحداً بعد الآخر، وبدؤوا بالرواق الشمالي، كما حرصوا على إقامة أعمدة الرواق الجنوبي (القبلي) في نفس

(١) دحلان، أحمد زيني. خلاصة الكلام، مرجع سابق، ٣١٥، ٣١٦؛ السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، ٥٢٩ ـ ٥٣١.

(٢) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ١٥، ١٦، ١٨.

(٣) ساطع الحصري، *البلاد العربية والدولة العثمانية*، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٥م)، ٢٤١؛ المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ٢٦.

(٤) المرجع السابق، ١٥، ٢٧.

(٥) المرجع السابق، ٢٨.

(٦) المرجع السابق، ٢٨، ٢٩.

(٧) المرجع السابق، ٣١؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٢، ٤٧٩.

(٨) انظر ترجمة مختصرة لداود باشا عند: خير الدين الزركلي، *الأعلام*. ط٦، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م)، جـ٢، ٣٣١.

(٩) ناجي محمد الأنصاري، *عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ*، (المدينة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٦ هـ)، ١٤٥، ١٤٦.

الأمكنة التي كانت فيها أعمدة جذوع النخل على عهد الرسول ﷺ، ولم يتعرضوا للحجرة النبوية والقبة المقامة فوق القبر الشريف، ونفذت العمارة على الطراز العثماني، حيث أقيمت الأعمدة الأسطوانية وربط بينها بعقود دائرية، وشيدت على تلك العقود قباب مختلفة الأحجام والأشكال، وجعل لبعضها نوافذ وزين بعضها الآخر بالزخارف النباتية البديعة من الداخل، وطوقت قواعد الأعمدة بالنحاس الأصفر وغطي جدار القبلة بالرخام الصيني والخطوط البديعة[١].

استغرقت العمارة المجيدية للمسجد النبوي إحدى عشرة سنة، بين عامي ١٢٦٦ و١٢٧٧ هـ/١٨٥٠ و١٨٦١ م، وتوالى على الإشراف عليها سبعة مشرفين مات بعضهم أثناء العمل، وبلغت تكاليفها مئة وأربعين كيساً من الذهب، أي ما يعادل واحداً وتسعين مليوناً من القروش العثمانية، وزيد في مساحة المسجد ما مقداره ١٢٩٣ م٢[٢]. وقد بقي من هذه العمارة اليوم القسم القبلي من المسجد، وقد أسهم هذا المشروع في تنشيط الحركة التجارية والعمرانية في المدينة المنورة بما ضخه من أموال طائلة في الاقتصاد المحلي، فنشط أهل المدينة في بناء المنازل والدور، وإجراء العيون وغرس النخيل والحدائق الواسعة عليها[٣].

تتابع على تولي منصب محافظ المدينة المنورة ومشيخة الحرم النبوي بعد وفاة داود باشا في عام ١٢٦٧ هـ/١٨٥١ م عدد من الباشوات الذين أشرفوا على استكمال العمل في عمارة المسجد النبوي، واستمرت الأوضاع هادئة في المدينة وما حولها حتى بداية القرن الرابع عشر الهجري، وقد تأثرت المدينة



محطة قطار وبجانبها أعمدة اتصال لاسلكي

المنورة بسياسة السلطان عبدالحميد الثاني (١٢٩٣ ـ ١٣٢٦ هـ/١٨٧٦ ـ ١٩٠٨ م) العربية والإسلامية، فقد أظهر السلطان اهتماماً شديداً بالحرمين الشريفين وسكان الحجاز، فقرب إليه عدداً من أهل المدينة واستخدم أحدهم ويدعى السيد أحمد أسعد سكرتيراً خاصاً له[٤]. وزاد في الأموال التي كانت تدفع للقبائل النازلة على طريق الحج[٥]. وكان السلطان عبدالحميد الثاني كأحد سلاطين عصر التنظيمات يسعى إلى تقوية سلطة الدولة على ولاياتها وربط تلك الولايات بالعاصمة وتطبيق التنظيمات الإدارية الجديدة فيها؛ ففي عام ١٣١٨ هـ/١٩٠٠ م أنشأت الدولة في المدينة المنورة محطة اتصال لاسلكي كبيرة تربطها بالعاصمة العثمانية[٦].وفي عام ١٣٢٠ هـ/١٩٠٢ م عينت الدولة محافظاً للمدينة يدعى علي باشا مرمحين الذي أراد تطبيق بعض قوانين التنظيمات بفرض رسوم على أهل المدينة، ولأن أهل المدينة لم يتعودوا على دفع الضرائب والرسوم ثاروا

(١) حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٧٥، ٧٦؛ الأنصاري، ناجي محمد. عمارة وتوسعة المسجد النبوي، مرجع سابق، ١٤٦ ـ ١٥٢؛ إبراهيم رفعت باشا، *مرآة الحرمين*، (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ج١، ٤٦٥، ٤٦٦.

(٢) الأنصاري، ناجي محمد. عمارة وتوسعة المسجد النبوي، مرجع سابق، ١٤٥، ١٥٣.

(٣) انظر: (وصف المدينة المنورة) الذي كتبه علي بن موسى من أهل المدينة في عام ١٣٠٣ هـ (١٨٨٦م) عند: الجاسر، حمد. رسائل في تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٢٠ ـ ٢٨.

(٤) محمد حسين زيدان، *ذكريات العهود الثلاثة*. ط١، (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤٠٨ هـ)، ٧١، ٧٢.

(٥) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ٢١.

(٦) عبدالعزيز عوض، *الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ ـ ١٩١٤م*، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م)، ٢٨٧، ٢٨٨؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، ج٣، ٥.



محطة سكة القطار في المدينة المنورة

على المحافظ وحاصروه في مقر عمله وطالبوه بإلغاء الرسوم، واتصلوا برقياً بالعاصمة وطلبوا إلغاء الرسوم وعزل المحافظ، فاستجاب السلطان عبدالحميد الثاني لمطالبهم[١].

وقد تكرر شغب سكان المدينة واعتراضهم على المحافظين الذين تعينهم الدولة في المدينة وتطلب منهم تطبيق بعض قوانين التنظيمات وتقوية سلطة الدولة في المدينة، ما اضطر الدولة إلى إرسال فرق عسكرية من الشام واليمن لمساعدة المحافظ، ولجنة تحقيق للنظر في أسباب الشغب والاعتراض على المحافظين من قبل الأهالي والعسكر في بداية عام ١٣٢٢ هـ/١٩٠٤ م[٢]. وقد أدانت لجنة التحقيق ٤٢ شخصاً من المدنيين و٤٠ من العسكر أرسلوا إلى السجن في قلعة الطائف حيث بقوا فيها ١٨ شهراً قبل أن يطلق سراحهم[٣]. وبذلك قضت الدولة على نوازع الاعتراض على سياستها المركزية، وأتيحت الفرصة لتنفيذ بعض تنظيماتها الإدارية، وخلال هذه الفترة كان العمل يجري على قدم وساق في مشروع سكة حديد الحجاز الذي كان من أهم مشروعات حكم التنظيمات العثمانية وحكم السلطان عبدالحميد الثاني أثراً على المدينة المنورة.

أقدم السلطان عبدالحميد الثاني على إنشاء سكة حديد الحجاز مدفوعاً بسياسة الجامعة الإسلامية والمحافظة على الحرمين الشريفين ومواجهة الأطماع البريطانية في البحر الأحمر والجزيرة العربية[٤]. وقد جمع السلطان التبرعات للمشروع من داخل الدولة العثمانية ومن خارجها مستخدماً عدداً من الوسائل، وقد زادت الأموال التي جمعت لتمويل المشروع على الكلفة النهائية التي بلغت خمسة ملايين ونصف مليون ليرة عثمانية ١٢٥ مليون فرنك[٥]. واختار السلطان للإشراف على المشروع مهندسين ألمانيين لهم خبرة واسعة ومقاولين نمساويين وإيطاليين لتنفيذ الإنشاءات والجسور، وتم توفير العمال من سكان البلدان التي تمر بها السكة ومن جنود الجيش العثماني[٦]. ولم يكن المهندسون والفنيون والجنود والمشرفون على المشروع بأقل حماسة من السلطان نفسه على إنجاز المشروع خصوصاً بعد أن وصل الخط إلى بلدة العلا في اتجاه المدينة المنورة، فقد انبعث في نفوس أولئك العاملين من النشاط والهمة والعاطفة الدينية والحماس للعمل ما مكنهم من إنجاز ما تبقى من الخط بين العلا والمدينة المنورة ٣٢٥ كم في غضون عام

(١) حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٣٥، ٣٦؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ٥ ـ ٩.

(٢) المرجع السابق، جـ٣، ٩، ١٠؛ حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٣٦.

(٣) رفعت، إبراهيم. مرآة الحرمين، مرجع سابق، جـ٢، ١٠٥، ١٠٦؛ حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٣٦، ٣٧؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٥ ـ ٢١.

(٤) السيد محمد الدقن، *سكة حديد الحجاز الحميدية: دراسة وثائقية*، (القاهرة: مطبعة الجبلاوي، ١٩٨٥م)، ٧٦ ـ ٧٨.

(٥) المرجع السابق، ٩٤ ـ ١١٤.

(٦) المرجع سابق، ١١٨ ـ ١٢٠، ١٢٦ ـ ١٢٩.



أول قطار يصل المدينة المنورة

واحد، لاعتقادهم بسمو الأهداف التي يسعى لتحقيقها المشروع[١]. وقد وصل أول قطار إلى المدينة المنورة في شهر رجب ١٣٢٦ هـ/ أغسطس ١٩٠٨ م. وفي شهر شعبان أقيم احتفال كبير بمناسبة وصول الخط إلى المدينة وافتتاح محطة السكة الحديد في البلدة حضره كبار رجال الدولة في الشام والحجاز وكبار المسؤولين والمشرفين على المشروع وعلى رأسهم المشير كاظم باشا مدير عام المشروع ومختار بك، رئيس المهندسين وعدد كبير من أهل المدينة، وقد زاد من ابتهاج أهل المدينة افتتاح محطة الكهرباء التي أنارت مصابيحها المسجد النبوي ومحطة السكة الحديد لأول مرة في تاريخ المدينة، وقد كافأ السلطان المشير كاظم باشا على خدماته في مشروع سكة الحديد بتعيينه والياً للحجاز[٢].

لقد كان الخط الحديدي الحجازي أسرع الخطوط الحديدية العثمانية إنجازاً وأقلها تكلفة وأنبلها أهدافاً. وعلى الرغم من أن عمره لم يزد كثيراً على فترة إنشائه، إلا أن أثره كان كبيراً على المدينة المنورة من النواحي الدينية والاقتصادية والعمرانية والعسكرية.

وفر الخط وسيلة سفر مريحة وسريعة وآمنة ورخيصة لحجاج بلاد الشام والأناضول الذين كانوا يقطعون المسافة بين دمشق والمدينة في أربعين يوماً على القوافل، مليئة بالمصاعب والإرهاق والخوف، فصاروا يقطعونها في أربعة أيام في غاية الراحة وبتكاليف زهيدة، ولم يقتصر استخدام الخط على حجاج الشام والأناضول، بل إن بعض حجاج المشرق الإسلامي والمغرب قد استخدموه أيضاً[٣]. ولذلك تزايدت أعداد الحجاج والزوار والتجار القادمين على الخط الحديدي إلى المدينة المحطة النهائية لهذا الخط من ناحية الجنوب، فنشطت الحركة التجارية بين دمشق وفلسطين والأناضول وبين المدينة المنورة، وتم تبادل المنتجات الزراعية والصناعية بين تلك المناطق، وارتفع مستوى المعيشة في المدينة المنورة ونما اقتصادها، وبسبب كثرة الوافدين إلى المدينة من الحجاج والزوار والمجاورين نمت حركة العمران هناك حتى تضاعفت قيمة العقارات عدة مرات، كما تضاعف عدد سكان المدينة، فقد قفز عددهم من عشرين ألفاً قبل تشغيل الخط إلى ثمانين ألفاً في عام ١٣٣٢ هـ/١٩١٤ م[٤]. ولم يقتصر أثر الخط الحديدي على نقل الناس والبضائع والأموال فحسب، بل تجاوز ذلك إلى نقل الأفكار والتقنية والتحديث، فقد انفتح سكان المدينة المنورة على بلاد الشام والأناضول،

(١) المرجع السابق، ١٥٩ ـ ١٦٢.
(٢) المرجع السابق، ١٦٢ ـ ١٦٥.
(٣) المرجع السابق، ٣٠١ ـ ٣٤٠.
(٤) المرجع السابق، ٢٧٥ ـ ٢٨١؛ محمد شوقي مكي، *سكان المدينة المنورة*، (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٥ هـ)، ٣٥، ٣٦.

ما سهل التبادل الفكري وحركة المطبوعات، كما تزامن تشغيل الخط مع وصول الكهرباء وخدمات البريد وخدمات البرق إلى المدينة المنورة[١].

كان من الأهداف التي أنشئ الخط الحديدي الحجازي من أجلها إحكام سلطة الحكومة المركزية على أقاليم غربي الجزيرة العربية والتصدي للنفوذ البريطاني في المنطقة، وذلك بتوفير سرعة نقل الجنود والسلاح والأخبار إلى تلك الأقاليم، وبما أن المدينة المنورة أصبحت النهاية الجنوبية للخط، فقد اكتسبت أهمية خاصة في هذا المجال، وكان يوجد في المدينة عام ١٣٠٣ هـ/١٨٨٥ م ثلاثة طوابير من العسكر النظامي، يتكون كل طابور من ٣٥٠ جندياً مع ضباطهم وآلاتهم ومهماتهم تحت قيادة (أميرلاي)، وكان يوجد في القلعة مئة من جنود المدفعية بذخيرتهم وحيواناتهم، وطابوران من الشرطة أحدهما من الجند النظامي والآخر من غير النظامي، يتكون كل طابور من نحو مئة نفر[٢].

تزايدت أعداد القوات العسكرية العثمانية في المدينة خاصة والحجاز بصفة عامة مع إنشاء الخط الحديدي، فبالإضافة إلى الجنود الذين عملوا في إنشاء السكة الحديدية أُرسلت فرق عسكرية لحماية الخط ومنشآته ومحطاته والعاملين فيه من هجمات القبائل التي لم تكن راضية عنه بسبب تأثيره على مصادر رزقها[٣]. وبعد وصول الخط الحديدي إلى المدينة المنورة زادت الدولة من عدد قواتها في الحجاز والمدينة، فوصل ذلك العدد إلى ستة آلاف جندي كان نصفهم يتمركزون في المدينة وما حولها.

وخلال السنوات الأولى من حكم حزب الاتحاد والترقي الذي وصل إلى الحكم في الدولة العثمانية في عام ١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م شعرت الحكومة العثمانية بالخطر على سلطتها في الجزيرة العربية، وبخاصة في اليمن وعسير، فزادت من قواتها العسكرية في الحجاز حتى بلغت عشرة آلاف جندي كان معظمهم يتمركزون في المدينة المنورة وحول محطات ومسار الخط الحديدي[٤].

أعاد حزب الاتحاد والترقي العمل بالدستور واختار الشريف الحسين بن علي أميراً لمكة المكرمة، وعلى الرغم من أن أمير مكة المكرمة الجديد لم يكن يشارك الاتحاديين توجهاتهم السياسية والدستورية، إلا أنه ظل خلال السنوات الأولى من حكمه يسايرهم ويظهر الولاء لهم، في الوقت الذي كان فيه يقوي سلطته في الحجاز ويوثق علاقته بالقبائل[٥]. وفي حين أمرت الحكومة العثمانية والي الحجاز في مكة المكرمة ومحافظ المدينة المنورة بإعلان الدستور وتطبيق التنظيمات والقوانين العثمانية الجديدة في الحجاز وإخضاع الإقليم لسلطة الحكومة المركزية كان الشريف حسين يعمل على المحافظة على الامتيازات القديمة التي كان يتمتع بها الحجاز وحكامه من الأشراف ويحاول مد نفوذه إلى المدينة المنورة وغيرها من مدن المنطقة، ولذلك دخل الشريف في صراع شديد مع الولاة العثمانيين المتعاقبين في الحجاز[٦]. وللحد من طموحات الشريف حسين وتقوية السلطة المركزية في المنطقة أوعزت الحكومة العثمانية إلى محافظ المدينة المنورة أن يكتب أعيان

(١) الدقن، السيد محمد. سكة حديد الحجاز، مرجع سابق، ٢٨٠ ـ ٢٨٩، ٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) انظر وصف المدينة الذي كتبه علي بن موسى عند: الجاسر، حمد. رسائل، مرجع سابق، ٥٦.

(٣) الدقن، السيد محمد. سكة حديد الحجاز، مرجع سابق، ٢٤٣ ـ ٢٤٩، ٢٨٩ ـ ٢٩٦.

(٤) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ٣١.

(٥) السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، ٥٥٨ ـ ٥٦٢.

(٦) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ٢٥.

المدينة التماساً يطلبون فيه فصل محافظة المدينة المنورة عن مكة المكرمة وربطها مباشرة بالعاصمة إستانبول، وقد تمكن المحافظ علي رضا الركابي من إقناع بعض أعيان المدينة بذلك، ووافقت الحكومة على الفصل في عام ١٣٢٨ هـ/١٩١٠ م[١]. وقد شجع الحكومة العثمانية على اتخاذ هذا القرار ارتباط المدينة بالشام والأناضول بالخط الحديدي الحجازي وخطوط البرق واللاسلكي، وعندما أعيدت الانتخابات في الدولة لمجلس المبعوثين كان للمدينة المنورة مبعوثها الخاص بها في ذلك المجلس[٢].

عندما فشل العثمانيون في إقناع أمير مكة المكرمة بمد الخط الحديدي الحجازي إلى مكة المكرمة وجدة قرروا أن يجعلوا من المدينة المنورة التي ينتهي إليها ذلك الخط قاعدة عسكرية عثمانية في غربي جزيرة العرب، وذلك للمحافظة على سلطة الدولة ونفوذها في مكة المكرمة وعسير واليمن ونجد، وبخاصة بعد أن أحكم البريطانيون قبضتهم على مصر وقناة السويس[٣]. وخلال السنوات التي سبقت قيام الحرب العالمية الأولى زادت الحكومة العثمانية من قواتها في المدينة المنورة، إذ بلغت نحو خمسة عشر ألف جندي يتمركز معظمهم في المدينة وحول سكة الحديد، وكانت هذه القوات مجهزة بمدافع ميدان ومدافع كبيرة ومدفعية جبلية بالإضافة إلى الأسلحة الخفيفة والبنادق والبغال والعربات اللازمة لنقل الأسلحة الثقيلة[٤].

أصدرت حكومة الاتحاد والترقي في عام ١٣٣١ هـ/١٩١٣ م قانون الولايات الجديد، ثم عينت وهيب باشا والياً على الحجاز لتطبيق ذلك القانون في الإقليم وتقوية قبضة الحكومة المركزية فيه، وقد أثار ذلك الشريف حسين وسكان الحجاز الذين فقدوا كثيراً من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في السابق، وقد تزامن ذلك مع سياسة التتريك التي أخذت تنتهجها الحكومة العثمانية في الحجاز وبلاد الشام والعراق، فقد تشكلت أحزاب المعارضة العربية ضد سياسة المركزية والتتريك[٥]، وبدأ قادة بعض أحزاب المعارضة العربية يتصلون بالشريف حسين لإقناعه بقيادة ثورة ضد العثمانيين[٦]. وفي المحرم ١٣٣٣ هـ/١٩١٤ م أعلن العثمانيون الدخول في الحرب إلى جانب دول المحور، ما مهد الطريق للاتصالات بين أمير مكة المكرمة وبين زعماء الحركة العربية في بلاد الشام من ناحية، وبينه وبين البريطانيين في مصر من ناحية أخرى بهدف العمل على الحفاظ على مصالح العرب خلال الحرب وبعدها[٧].

دخل الشريف حسين في مراسلات مع المسؤولين البريطانيين في القاهرة الهدف منها الحصول من بريطانيا وحلفائها على اعتراف منهم باستقلال البلاد العربية في الجزيرة العربية والشام والعراق تحت زعامته مقابل الانضمام إلى الحلفاء في الحرب والثورة ضد الدولة العثمانية، وقد امتدت تلك المراسلات التي عرفت بمراسلات الحسين ـ ماكماهون ـ نحو ثمانية أشهر، أعلن الشريف على إثرها في شعبان ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م الثورة ضد الدولة العثمانية من مكة المكرمة[٨]. وكان العثمانيون قد ارتابوا في سلوك أمير مكة المكرمة وتصرفاته قبل إعلان ثورته بعدة شهور، فأرسل جمال باشا قائد الجيش الرابع في سورية حملة عسكرية مكونة من ٣٥٠٠ جندي إلى المدينة المنورة

(١) المرجع السابق، ٢٨.
(٢) زيدان، محمد حسين. ذكريات، مرجع سابق، ٣٩، ٤٠؛ المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ٢٧، ٢٨.
(٣) نبيل عبدالحي رضوان، *الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ١٢٨٦ ـ ١٣٢٦ هـ/١٨٦٩ ـ ١٩٠٨م*، (جدة: تهامة، ١٤٠٣ هـ)، ١٨٦، ١٨٧، ٢١٠، ٢١١.
(٤) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ٣١، ٣٢.
(٥) الحصري، ساطع. البلاد العربية، مرجع سابق، ١٢٤ ـ ١٣٨.
(٦) السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، ٥٩٨ ـ ٦٠١.
(٧) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ٣٧ ـ ٣٩.
(٨) السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، ٦٠١ ـ ٦٠٧.

في جمادى الآخرة ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م، ثم أتبع ذلك بإرسال فخري باشا إلى المدينة، وأمره بأن يتسلم قيادة القوات العثمانية هناك ومنصب محافظ المدينة من بصري باشا في حالة حدوث حركة من الشريف حسين[١].

تمكنت قوات الشريف حسين، على الرغم من افتقارها إلى التدريب والتسليح، من التغلب على الحاميات العثمانية في مكة المكرمة وجدة والليث والقنفذة بسهولة[٢]. كما تمكن الأميران علي وفيصل ابنا الشريف حسين من جمع نحو ستة آلاف مقاتل من القبائل المحيطة بالمدينة وغيرها والمرابطة بهم في آبار علي، وكان حجم القوات العثمانية في المدينة في ذلك الوقت يزيد على ٢٣ ألف جندي و٦٠٠ ضابط، بالإضافة إلى الحاميات المقامة لحراسة سكة حديد الحجاز، وكانت هذه القوات على مستوى جيد من التسليح والتموين والتدريب والتنظيم في الوقت الذي كانت القوات الشريفية تفتقر إلى كل ذلك[٣].

بدأ الأميران علي وفيصل في مهاجمة بعض المواقع والقرى المحيطة بالمدينة المنورة للاستيلاء عليها وفرض حصار على المدينة والقوات العثمانية فيها، لكن عدم التكافؤ بين الجانبين ساعد فخري باشا على إلحاق الهزائم المتلاحقة بالقوات الشريفية في مخيط والحسا والعلاوة وقباء وقربان والعوالي وإجبارها على التراجع إلى الجفر وبئر الماشي وبئر عباس، ثم واصل فخري باشا ضغطه في شوال ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م لإبعاد القوات الشريفية عن المدينة والطرق المؤدية إليها حتى اضطر الأمير فيصل إلى التراجع إلى ينبع والأمير علي إلى رابغ[٤].

وخلال هذه الفترة كان الشريف حسين يلح في طلب الإمدادات من السلاح والذخيرة والمال التي وعده بها البريطانيون، فأرسل البريطانيون من مصر والهند كميات من الأسلحة والذخيرة برفقة عدد من الضباط والجنود العراقيين الذين أرسلوا إلى جبهة المدينة[٥]. وخلال هذه الفترة أيضاً عزلت الحكومة العثمانية الشريف حسين عن إمارة مكة المكرمة وعينت بدلاً منه الشريف علي حيدر وأرسلته إلى المدينة المنورة لكسب القبائل وزعماء الجزيرة العربية إلى جانب العثمانيين والتعاون مع فخري باشا، لكن علي حيدر فشل في كسب العرب واختلف مع فخري باشا وصار عبئاً عليه، فاضطرت الحكومة إلى سحبه إلى سورية[٦].

تحسنت أوضاع قوات الشريف حسين مع بداية عام ١٣٣٥ هـ/١٩١٧ م بسبب وصول الإمدادات البريطانية من السلاح والذخيرة والأموال والمستشارين والخبراء الإنجليز مثل لورنس ونيوكمب، وعدد من الضباط العرب الذين عملوا في الجيش العثماني مثل نوري السعيد وعزيز علي المصري وجعفر العسكري الذين قاموا بتنظيم القوات الشريفية وتدريبها على استخدام الأسلحة التي أرسلها البريطانيون، بالإضافة إلى عدة مئات من الجنود والضباط العرب في الجيش العثماني الذين وقعوا في أسر جيوش الحلفاء[٧]. وقد تشكلت القوات الشريفية من ثلاثة جيوش تحيط بالمدينة المنورة: الجيش الجنوبي بقيادة الأمير علي في رابغ، والجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل في ينبع، والجيش الشرقي بقيادة الأمير عبدالله في وادي العيص. وأخذت هذه الجيوش تقوم

(١) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ٤٦ ـ ٤٨.

(٢) هنادي يوسف غوانمة، *المملكة الهاشمية الحجازية*، (عمان: دار الفكر، ١٩٨٩م)، ٩٥ ـ ٩٨؛ السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، ٦٠٦ ـ ٦٠٨.

(٣) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ٥٠ ـ ٥٥، ٨١؛ غوانمة، هنادي يوسف. المملكة الهاشمية الحجازية، مرجع سابق، ١٠١، ١٠٧، ١٠٩.

(٤) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ٨٢ ـ ٨٤.

(٥) نوري السعيد، *مذكرات نوري السعيد عن الحركات العسكرية للجيش العربي*، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٧م)، ٢٨ ـ ٣٥؛ غوانمة، هنادي يوسف. المملكة الهاشمية الحجازية، مرجع سابق، ١٠١ ـ ١٠٣.

(٦) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ٨٦ ـ ٨٩.

(٧) المرجع السابق، ٩٤ ـ ١٠٠؛ السعيد، نوري. مذكرات نوري السعيد، مرجع سابق، ٣٥، ٣٦.

بغارات على المواقع العثمانية المتمركزة حول المدينة[١].

حين أبدت القوات العثمانية مقاومة شديدة لتلك الغارات غيرت الجيوش الشريفية خطتها، وعمد الجيشان الشمالي والشرقي إلى اعتراض اتصال القوات العثمانية في المدينة بسورية والأناضول، وذلك بمهاجمة سكة حديد الحجاز ومحطاتها وخطوط البرق والتقدم شمالاً للاتصال بقوات الحلفاء في مصر وفلسطين[٢]. وقد نتج من استمرار تلك الهجمات تراجع القوات العثمانية والتمركز في المدينة والمناطق القريبة منها خلال عام ١٣٣٥ هـ/١٩١٧ م، كما فشل ابن رشيد حليف العثمانيين في تقديم المساعدة لحامية المدينة بسبب الحصار المفروض عليها[٣]. وأُحكم الحصار على القوات العثمانية في المدينة، فقد وصل آخر قطار في رحلة عادية إليها في جمادى الأولى ١٣٣٦ هـ/١٩١٨ م، عندها اقترح القادة العسكريون الألمان على حلفائهم العثمانيين سحب قواتهم التي كان يراوح عددها بين ٢٣ و٢٥ ألف جندي من المدينة إلى الشام للاستفادة منها في مواجهة قوات الحلفاء هناك، لكن البريطانيين الذين علموا بذلك أحبطوا الخطة بتشديد الحصار على المدينة والقيام بأعمال تدميرية للخط الحديدي، وبذلك أُبقيت القوات العثمانية في حالة عزلة[٤]. وقد حاول فخري باشا الاتصال بالأمير عبدالعزيز آل سعود وطلب منه المساعدة، لكن عبدالعزيز آثر الحياد في الحرب[٥].

كان لانقطاع صلة القوات العثمانية في المدينة المنورة بالشام والأناضول وشدة الحصار المفروض عليها أثر بالغ على تلك القوات وعلى سكان المدينة أنفسهم، فقد تناقصت المؤن والأغذية ودبت الأمراض في الجنود وسكان المدينة، ما دفع فخري باشا إلى التحكم في محصولات التمور والحبوب في المدينة وتشغيل جنوده في الزراعة لزيادة الإنتاج. وعندما تفاقمت الأزمة وعم الغلاء والجوع بدأ كثير من سكان المدينة يغادرونها إلى مكة المكرمة وينبع وبلاد الشام، كما بدأ بعض الجنود يهربون من معسكراتهم[٦]. وقد اضطر فخري باشا حينما طال الحصار وتناقصت المؤن إلى ترحيل بعض سكان المدينة قسراً إلى بلاد الشام وغيرها لغرض توفير المؤن والأغذية للعدد الكبير من الجنود العثمانيين المحاصرين في المدينة[٧].

خامساً ـ حكم الشريف حسين بن علي ١٣٣٧ ـ ١٣٤٤هـ (١٩١٩ ـ ١٩٢٥م):

استولت القوات البريطانية وبعض قوات الشريف حسين على دمشق في ذي الحجة ١٣٣٦ هـ/١٩١٨ م، كما وصلت قوات الحلفاء إلى إستانبول بعد شهر من ذلك التاريخ، ما اضطر العثمانيين إلى توقيع معاهدة مودروس في محرم ١٣٣٧ هـ/١٩١٨ م التي نصت على استسلام جميع الحاميات العثمانية للحلفاء ومنها حامية المدينة المنورة[٨]. وقد رفض فخري باشا البلاغات التي وصلته من البريطانيين والشريف حسين بأن الحرب قد انتهت وأن الدولة العثمانية قد استسلمت وأنه يجب عليه الاستسلام للقوات الشريفية، وأصر على أن يبلغه ذلك من السلطان نفسه[٩]. وقد ترتب على إصرار فخري على عدم الاستسلام شيوع تذمر بين جنود وضباط حامية المدينة الذين تمكنوا في النهاية من إقناع الباشا

(١) غوانمة، هنادي يوسف. المملكة الهاشمية الحجازية، مرجع سابق، ١٠٢؛ المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ١٠٤؛ السعيد، نوري. مذكرات نوري السعيد، مرجع سابق، ٤٠ ـ ٤٩.

(٢) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ١٠٦ ـ ١١١؛ غوانمة، هنادي يوسف. المملكة الهاشمية الحجازية، مرجع سابق، ١٠٣ ـ ١٠٦.

(٣) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ١١٢ ـ ١١٥؛ غوانمة، هنادي يوسف. المملكة الهاشمية، مرجع سابق، ١٠٤ ـ ١٠٦.

(٤) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ١١٦ ـ ١٢١؛ غوانمة، هنادي يوسف. المملكة الهاشمية الحجازية، مرجع سابق، ١٠٧.

(٥) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ١٢٣ ـ ١٢٥؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ٦٠، ٦١، ٦٧.

(٦) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ١٢٦ ـ ١٢٩؛ حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٤٢؛ زيدان، محمد حسين. ذكريات، مرجع سابق، ٩٥ ـ ٩٦.

(٧) حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٤٢؛ زيدان، محمد حسين. ذكريات، مرجع سابق، ٩٥، ٩٦؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ٦٤ ـ ٦٩.

(٨) المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ١٣١، ١٣٢.

(٩) المرجع السابق، ١٣٢ ـ ١٣٤.

بضرورة المفاوضة مع القوات الشريفية بشأن التسليم، وحين تعثرت تلك المفاوضة مع الأمير علي بن الحسين الموجود في ذلك الوقت في بئر درويش الواقع على بعد ٤٨ كم جنوب المدينة، قبض على الباشا كبار ضباطه وسلموه إلى الأمير علي في مركز قيادته، وقد أرسل الأمير علي أخاه الأمير عبدالله لاستلام المدينة المنورة من القوات العثمانية، فقام عبدالله باستلام المواقع الحكومية والعسكرية من المسؤولين العثمانيين، كما تسلم كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة والمؤن كانت مخزنة في قلاع ومنازل البلدة في ٧ ربيع الآخر ١٣٣٧ هـ/ ١٠ يناير ١٩١٩ م، ورتب الأمير بعد ذلك مغادرة فخري باشا إلى المعتقل والقوات العثمانية إلى الشام والأناضول عن طريق ينبع والسكة الحديد[١].

عندما أعلن الشريف حسين نفسه ملكاً على البلاد العربية في نهاية عام ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م، شكل مجلساً للوكلاء (الوزراء) ومجلساً للشيوخ في الحجاز وذلك قبل استيلاء قواته على المدينة المنورة بنحو سنتين[٢]. وبعد استسلام الحامية العثمانية في المدينة عين الشريف ابنه الأكبر وقائد الجيش الجنوبي وولي العهد ورئيس الوكلاء الأمير علي أميراً للمدينة المنورة، وبسبب كثرة المهام المناطة بالأمير علي عُيِّن الشريف أحمد بن منصور وكيلاً لأمير المدينة، كما عُيِّن الشريف شحات بن علي الحسيني الذي ينتمي إلى بيت الإمارة القديم في المدينة على وظيفة قائمقام[٣]. وإضافة إلى هذه المراكز الإدارية الثلاثة كانت هناك القوات العسكرية والشرطة التي أوكلت قيادتها إلى بعض كبار الضباط العرب الذين انضموا إلى حركة الشريف حسين مثل: شكري الأيوبي وجميل الراوي وعبدالمجيد باشا[٤].

كانت الدولة العثمانية قد تمكنت من إقامة إدارة حكومية جيدة في المدينة منذ بداية القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) وبخاصة بعد فصل المدينة المنورة عن إمارة مكة المكرمة في عام ١٣٢٦ هـ/١٩٠٨ م، لكن ظروف الحرب والحصار التي أعقبت ذلك أسهمت في بعثرة سكان المدينة وتشتيت أوضاعها الإدارية. ولما ورثت الحكومة الهاشمية السلطة العثمانية في المدينة حاولت تسيير الأوضاع هناك على النسق السابق. لكن التغييرات التي أحدثتها الحرب والحصار وقلة الموارد التي أتاحتها الحكومة الجديدة للمدينة لم تساعد على استعادة المدينة لأوضاعها المزدهرة السابقة، وقد زاد من سوء الأوضاع الإدارية في المدينة تعدد مراكز القوى والسلطة هناك وتداخل صلاحياتها، إذ لم تكن صلاحيات هذه القوى محددة، وكثيراً ما يحدث تضارب بين تلك الصلاحيات، ما أسهم في انفلات الأمن في المدينة[٥].

لم تتجاوز فترة حكم الشريف حسين للمدينة المنورة سبع سنوات، كانت حكومته خلالها مشغولة بأمور سياسية وعسكرية عليا، ولذلك لم تستطع تحقيق إنجازات كبيرة على المستوى المحلي، فبعد أن أعلن الأمير علي عفواً عاماً، تم تنظيم قوة عسكرية وقوة شرطة محلية من بقايا العسكر العثماني ومن بين السكان المحليين، وأخذت الحكومة في تسهيل عودة سكان المدينة الذين هاجروا أو هجِّروا خلال سنوات الحرب، وأخرجت إمارة المدينة للعائدين الأغذية والمؤن من المخازن التي تركها فخري باشا، وبدأت الحركة تدب

(١) عبدالله بن الحسين، *مذكراتي*، (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م)، ١٥١ ـ ١٥٩؛ المهوس، مريم فريح، «موقف الحامية»، رسالة ماجستير غير منشورة، مرجع سابق، ١٣٤، ١٣٥؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ٧٨ ـ ٨٣.

(٢) غوانمة، هنادي يوسف. المملكة الهاشمية الحجازية، مرجع سابق، ٧١ ـ ٧٥.

(٣) أحمد بن محمد صالح البرادعي، *المدينة المنورة عبر التاريخ*، (١٣٩١ هـ)، ١٣٨، ١٣٩؛ أحمد سعيد بن سلم، *المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري*، (القاهرة: دار المنار، ١٤١٤ هـ)، ٤٥، ٤٩؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١١٨.

(٤) المرجع السابق، جـ٣، ١١٨، ١٣١، ١٣٢.

(٥) المرجع السابق، جـ٣، ١٣١ ـ ١٣٣؛ زيدان، محمد حسين. ذكريات، مرجع سابق، ١٠٩ ـ ١١١؛ إبراهيم بن علي العياشي، *المدينة بين الماضي والحاضر*، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٣٩٢ هـ)، ٥٧٣.

في منازل المدينة ومتاجرها وشوارعها وبساتينها من جديد، وعادت القبائل المحيطة بالمدينة إلى التردد عليها[١]. كذلك حاولت الحكومة إعادة الحياة للمؤسسات الدينية والتعليمية في المسجد النبوي وخارجه وأنشأت أربع مدارس ابتدائية ومدرسة واحدة راقية[٢]. وكان من دلائل افتقار الحكومة الجديدة للخبرة في الأمور الإدارية والعسكرية حدوث حريق هائل في قلعة الباب الشامي في ذي القعدة ١٣٣٨ هـ/١٩٢٠ م؛ فقد نقلت الحكومة الجديدة جميع الأسلحة والذخيرة من القلاع والمخازن المتفرقة في أطراف المدينة وركمتها في قلعة الباب الشامي الكبيرة من دون اتخاذ وسائل للسلامة، فلما اشتدت حرارة الصيف بدأت بعض الذخائر والمتفجرات بالاشتعال وسرت النار من مخزن إلى آخر، وأخذت القنابل والمتفجرات تتطاير في السماء وتتساقط على الأحياء والأسواق والميادين المجاورة للقلعة، وقد استمرت الانفجارات تتكرر مدة ثلاثة أيام من وقت الزوال إلى المساء، وجراء ذلك تهدمت أجزاء من القلعة وعدد من المنازل المجاورة ومات عدد من الناس نتيجة الحريق والهدم[٣].

في أواخر عام ١٣٤٢ هـ منتصف ١٩٢٤ م غادر أمير المدينة المنورة علي بن الحسين إلى مكة المكرمة على رأس قافلة حجاج المدينة وبصحبته ثمانمئة جندي لأداء نسك الحج[٤]. ولم يعد بعدها إلى المدينة، لأن والده كان يحتاج إليه في مواجهة الأخطار التي بدأت تتزايد على الحدود الشرقية للحجاز، والناتجة من الخلاف بين الشريف حسين والسلطان عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود حول تبعية بلدتي تربة والخرمة.

سادساً ـ المملكة العربية السعودية ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥م:

تمكن الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود من استعادة الرياض في الخامس من شوال ١٣١٩ هـ/١٥يناير ١٩٠٢ م من يد والي ابن رشيد، مبتدئاً بذلك عهداً جديداً هو عهد المملكة العربية السعودية، وخلال السنتين التاليتين استطاع الأمير عبدالعزيز فرض نفوذه في المناطق الجنوبية والوسطى من نجد، ولم ينته عام ١٣٢٤ هـ/١٩٠٦ م إلا وقد تمكن من إخراج قوات ابن رشيد والقوات العثمانية التي أرسلت لمساعدته من المدينة المنورة والعراق من منطقة القصيم المهمة وضمها إلى دولته بعد عدد من المعارك والمناورات[٥]. وزاد من ضعف قوة آل رشيد نزاع استشرى بين زعمائهم أرغم بعضهم على اللجوء إلى العثمانيين في المدينة المنورة[٦]. وقد أثارت هذه الانتصارات السريعة مخاوف بعض أصدقاء الأمير عبدالعزيز ومنافسيه وأعدائه في داخل نجد وخارجها، لكن الأمير أخذ في مواجهة تلك الأطراف واحدة بعد الأخرى حتى تمكن من التغلب عليها[٧].

في بداية عام ١٣٣١ هـ/١٩١٣ م أدرك الأمير عبدالعزيز أن ظروفه وظروف الدولة العثمانية في منطقة الأحساء والقطيف قد أصبحت مناسبة لضم تلك المنطقة إلى دولته، فتوجه بقواته إليها في جمادى الأولى الموافق لشهر إبريل من ذلك العام، وتمكن من إجبار الحامية العثمانية في الأحساء على التسليم ومغادرة المنطقة إلى البحرين[٨]. وقد ترتب على ضم الأمير عبدالعزيز للأحساء والقطيف اتساع رقعة دولته وزيادة موارده المالية وبروزه على المستوى

(١) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٢٨ ـ ١٣٠.

(٢) المرجع السابق، جـ٣، ١١٥ ـ ١١٩؛ حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٤٣.

(٣) المرجع السابق، جـ٣، ١٢٠ ـ ١٢٦.

(٤) المرجع السابق، جـ٣، ١٣٧.

(٥) أمين الريحاني، *الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد الحديث*، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م)، ١٥٤ ـ ١٦٤؛ عبدالله الصالح العثيمين، *تاريخ المملكة العربية السعودية*، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٦ هـ)، جـ٢، ٧١ وما بعدها.

(٦) المرجع السابق، جـ٢، ١٢١ ـ ١٢٣.

(٧) الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ١٦٨ وما بعدها؛ العثيمين، عبدالله الصالح. تاريخ المملكة، مرجع سابق، جـ٢، ١١١ ـ ١٣١.

(٨) الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٢٠٥ ـ ٢١١؛ محمد بن عبدالله آل عبدالقادر، *تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد*، (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمئوية المملكة، ١٤١٩ هـ)، جـ١، ٣٤٤ ـ ٣٤٧.

الإقليمي[١]. وخلال الحرب العالمية الأولى لم ينضم الأمير عبدالعزيز إلى العثمانيين ولا إلى البريطانيين على الرغم من طلب الطرفين منه المساعدة، وبدلاً من ذلك اهتم بأموره الداخلية وبدأ في إنشاء الهجر لتوطين البادية، ومع نهاية سنوات الحرب أصبحت تلك الهجر قواعد عسكرية على أطراف بلاده[٢].

تخوف الأمير عبدالعزيز من إعلان الشريف حسين في محرم عام ١٣٣٥ هـ/ نوفمبر ١٩١٦ م نفسه ملكاً على العرب، فاتصل بالبريطانيين الذين كانوا يدعمون ثورة الشريف فطمأنوه[٣]. وخلال السنوات الثلاث التالية ظل الأمير عبدالعزيز يراقب تطورات الحرب وما كان يجري في جبل شمر والحجاز، وفي الوقت نفسه أخذت حركة الإخوان تنتشر بين القبائل النازلة بين نجد والحجاز وبخاصة في واحتي تربة والخرمة، ولم تجد محاولات الشريف حسين خلال عام ١٣٣٦ هـ/١٩١٨ م لوقف ذلك الانتشار[٤]. وبعد استسلام حامية المدينة المنورة أمر الشريف حسين ابنه عبدالله بالتوجه بمن معه من الجنود النظاميين ورجال القبائل لتأديب أهل تربة والخرمة وإخضاعهم لسلطته، فلما تأكد الأمير عبدالعزيز من نوايا الشريف حسين وابنه تجاه البلدتين أمر أمير هجرة الغطغط سلطان بن بجاد بالتوجه بأتباعه إلى بلدة الخرمة والانضمام إلى أميرها خالد بن لؤي للدفاع عن المنطقة، فلما علم الإخوان باستيلاء الأمير عبدالله على تربة يوم ٢٤ شعبان ١٣٣٧ هـ/٢٦ مايو ١٩١٩ م قرروا مهاجمته في الليلة التالية، وقد تمكن نحو ألف وخمسمئة من الإخوان من التغلب على الجيش الشريفي المكون من نحو سبعة آلاف مقاتل والمجهز بكميات كبيرة من البنادق والمدافع والذخائر والأموال التي جلبها من المدينة المنورة[٥].

خاف البريطانيون من اجتياح الإخوان للطائف ومكة المكرمة وما يمكن أن يحدثه ذلك من أثر على حليفهم الشريف حسين ورعاياهم المسلمين في الهند ومصر، فأرسلوا تحذيراً شديداً للأمير عبدالعزيز الذي وصل إلى ميدان المعركة وطلبوا منه إخلاء المنطقة والعودة بقواته إلى نجد وإلا فإنه سيعد محارباً لهم[٦]. انسحب الأمير من تربة مشترطاً على البريطانيين ضمان عدم اعتداء الشريف حسين على تربة والخرمة وتسوية الأمور معه. وخلال الثلاث سنوات التالية تمكن الأمير عبدالعزيز من مد نفوذه إلى جنوبي الحجاز وعسير وإلى جبل شمر والجوف، وتلقب على إثر ذلك بلقب (سلطان نجد وملحقاتها). وفي عام ١٣٣٩ هـ/١٩٢١ م منح البريطانيون إمارة شرق الأردن ومملكة العراق لاثنين من أبناء الشريف حسين، فأسهم كل ذلك في تعقيد المشكلات بين سلطان نجد وملك الحجاز، وقد بذلت الحكومة البريطانية عدة محاولات لحل المشكلات بين نجد والحجاز والعراق وشرق الأردن، كان أهمها وآخرها مؤتمر الكويت في جمادى الأولى ١٣٤٢ هـ/ ديسمبر ١٩٢٣ م، لكن الشريف حسين رفض المشاركة فيه[٧].

في جمادى الآخرة ١٣٤٢ هـ/يناير ١٩٢٤ م أعلن الملك حسين نفسه خليفة للمسلمين في عمَّان، وهو أمر لم يوافق عليه السلطان

(١) Gary Troeller, The Birth of Saudi Arabia, Britain and the Rise of the House of Saud, London: Frank Cass, 1976) 83-89؛ الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٢١٢ ـ ٢١٦، ٢٣٠ ـ ٢٣٣.

(٢) المرجع السابق، ٢٥٨ ـ ٢٦٦؛ محمد المانع، *توحيد المملكة العربية السعودية*، ترجمة: عبدالله العثيمين، (الدمام: مطابع المطوع، ١٤٠٢ هـ)، ١١٠ ـ ١١٦.

(٣) خير الدين الزركلي، *شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز*، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٥م)، جـ١، ٣٠٨ ـ ٣١٦؛ الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٢٣٤ ـ ٢٣٦.

(٤) الزركلي، خير الدين. شبه الجزيرة، مرجع سابق، جـ١، ٣١٧ ـ ٣١٩.

(٥) الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٢٥١ ـ ٢٥٧؛ الزركلي، خير الدين. شبه الجزيرة، مرجع سابق، جـ١، ٣٢٠ ـ ٣٢٣؛ العثيمين، عبدالله الصالح. تاريخ المملكة، مرجع سابق ، جـ٢، ١٨٣ ـ ١٨٥.

(٦) Troeller, The birth, pp. 142-143.

(٧) الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٣١٨ ـ ٣٢٣. Treoller, The birth , pp. 198_208؛ الزركلي، خير الدين. شبه الجزيرة، مرجع سابق، جـ١، ٣٢٥، ٣٢٦.

عبدالعزيز وغيره من حكام المسلمين، وكان الملك حسين قد منع النجديين من أداء نسك الحج منذ معركة تربة ١٣٣٧ هـ/١٩١٩ م، كما أن مشكلة تبعية واحتي تربة والخرمة لم تجد حلاً. ونتيجة لتذمر النجديين الشديد من عدم السماح لهم بأداء الحج، عقد السلطان عبدالعزيز في ذي الحجة ١٣٤٢ هـ/يوليو ١٩٢٤ م اجتماعاً في الرياض حضره العلماء وأمراء البلدان وقادة الإخوان ورؤساء القبائل، وترأسه الإمام عبدالرحمن الفيصل والد السلطان، وقد اتفق الجميع على وجوب أداء نسك الحج سلماً أو بالقوة[١]. وفي بداية شهر صفر من العام التالي وصل إلى الطائف خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد على رأس أكثر من ثلاثة آلاف من الإخوان، ولم يستطع الجنود النظاميون المتمركزون في الطائف ولا الأمير علي بن الحسين والقوات التي أرسلت من مكة المكرمة للدفاع عنها الوقوف في وجه الإخوان الذين اجتاحوا الطائف وأجبروا الأمير علي وقواته على الانسحاب إلى مكة المكرمة[٢].

اجتمع أعيان الحجاز في جدة وقرروا أن يتنازل الملك حسين لابنه علي على أمل أن يتوصل الأخير إلى سلام مع السلطان عبدالعزيز، فقبل الملك حسين وبويع الملك علي في الخامس من ربيع الأول ١٣٤٣ هـ/١٩٢٤ م، لكنه لم يستطع التوصل إلى اتفاق مع السلطان عبدالعزيز، ولم يكن واثقاً من قدرته على المقاومة فانتقل إلى جدة، وفي السابع عشر من الشهر نفسه دخل جيش الإخوان مكة المكرمة محرمين بالعمرة من دون قتال[٣]. وفي الثامن من جمادى الأولى وصل السلطان عبدالعزيز إلى مكة المكرمة على رأس جيشه محرماً، فأمن الناس ووعدهم بإزالة المظالم وتطبيق الشريعة. وبعد شهر زحف بجيشه إلى جدة - التي تحصن فيها الملك علي - وفرض عليها حصاراً استمر قريباً من السنة، وخلال فترة الحصار كان السلطان يبعث السرايا إلى الموانئ والبلدان الواقعة إلى الجنوب والشمال من جدة لضمها إلى دولته، فلما يئس الملك علي من إمكانية كسر الحصار أو الحصول على مساعدات خارجية وسَّط المعتمد البريطاني في جدة لترتيب عملية تسليم البلاد للسلطان عبدالعزيز، وقد قام المعتمد بالمهمة، وغادر الملك علي جدة في ١٣٤٤/٦/٦ هـالموافق١٩٢٥/١٢/٢١ م[٤]. وبعد أسبوعين بايع أعيان مكة المكرمة وجدة والمدينة وغيرهم من الأهالي السلطان عبدالعزيز آل سعود ملكاً على الحجاز [٥].

أ - عهد الملك عبدالعزيز:

أرسل الملك عبدالعزيز عدة سرايا إلى شمالي الحجاز وجنوبيه حين بدأ حصاره لمدينة جدة، فقد توجهت إحدى هذه السرايا بقيادة صالح بن عذل إلى الحناكية لحصار المدينة المنورة من الشمال والشرق، ثم أرسلت سرية أخرى بقيادة إبراهيم النشمي لترابط في ضاحية العيون الواقعة على بعد خمسة كيلومترات شمال المدينة، وقد كلفت هذه السرايا بالحصار ومنع الإمدادات، وبخاصة من الأردن والعقبة ومنعت من الحرب أو دخول المدينة[٦]. وكان للنشمي علاقات تجارية سابقة مع أهل المدينة، و كان بعضهم يتردد على معسكره للحصول على المؤن، وكان يأمل من ذلك في كسب أهل المدينة إلى جانبه ودخولها من دون حرب[٧]. وفي

(١) الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٣٢٦، ٣٢٧؛ الزركلي، خير الدين. شبه الجزيرة، مرجع سابق، جـ١، ٣٢٩، ٣٣٠.

(٢) الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٣٣١ - ٣٣٥؛ الزركلي، خير الدين. شبه الجزيرة، مرجع سابق، جـ١، ٣٣٠ - ٣٣٢؛ السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، ٦٢٨، ٦٢٩.

(٣) المرجع السابق، ٦٣٢ - ٦٤٠؛ الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٣٣٦ - ٣٤١.

(٤) السباعي، أحمد. تاريخ مكة، مرجع سابق، ٦٥١ - ٦٥٨؛ الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٣٧٢ وما بعدها؛ الزركلي، خير الدين. شبه الجزيرة، مرجع سابق، جـ١، ٣٣٦ وما بعدها.

(٥) سعود بن هذلول، *تاريخ ملوك آل سعود*. ط٢، (الرياض: ١٤٠٢ هـ)، ١٥٠؛ الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٤٢٧ - ٤٢٩.

(٦) عبداللطيف بن محمد الحميد، «من رجال الملك عبدالعزيز: إبراهيم بن عبدالرحمن النشمي (١٣١٣ - ١٣٩٨ هـ) حياته وأعماله»، *مجلة الدرعية*، ع١، (الرياض: محرم ١٤١٩ هـ)، ١٢٩ - ١٣١؛ الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٤١٣؛ ابن هذلول، سعود. تاريخ ملوك آل سعود، مرجع سابق، ١٤٢.

(٧) الحميد، عبداللطيف بن محمد، «من رجال الملك عبدالعزيز»، مجلة الدرعية، مرجع سابق، ع١، ١٢٩، ١٣١ - ١٣٤.



مدينة الحناكية

أواخر عام ١٣٤٣ هـ/١٩٢٥ م، أرسل الملك عبدالعزيز عدة سرايا بقيادة عمر بن ربيعان والأمير سعود بن عبدالعزيز الملقب بالكبير وخالد بن لؤي إلى بدر وينبع النخل[١]. وبعد موسم حج عام ١٣٤٣ هـ/١٩٢٥ م وصلت إلى المدينة المنورة جماعات من الإخوان بقيادة عبدالمحسن الفرم وأتباعه من حرب، وفيصل الدويش وأتباعه من مطير، وقد نزل الفرم بأتباعه في العوالي في حين نزل الدويش بأتباعه في قباء[٢]. وبذلك اشتد الحصار على المدينة المنورة.

في غياب أمير المدينة المنورة علي بن الحسين، اجتهد باقي المسؤولين في المدينة في الدفاع عنها، وعلى الرغم من وجود كميات كبيرة من السلاح والذخيرة في المدينة إلا أن عدد الجنود فيها لم يكن يتجاوز الأربعمئة، وقد وزع عبدالمجيد باشا قائد عسكر المدينة جنوده النظاميين والمتطوعين على ستة مراكز على أطراف البلدة للدفاع عنها[٣].

وقد أحدث وصول الدويش وأتباعه من الإخوان مناوشات بينهم وبين المدافعين في الجهات الجنوبية والغربية للمدينة أطلقت خلالها نيران المدافع على المهاجمين، وانتقلت أخبار هذه المناوشات عن طريق وكالة رويتر إلى مصر وإيران والهند، وصُوِّرت المناوشات على أنها محاولة لإلحاق الأذى بالمسجد النبوي والأمكنة الأثرية، فتلقى الملك عبدالعزيز الاستفسارات من حكومات تلك البلدان حول الموضوع، فأجاب الملك بأن كل ذلك دعاية كاذبة من أعدائه، وأنه حريص على حرم المدينة وعلى آثار السلف الصالح في البلدة، كما رتب زيارة السفير الإيراني في مصر للمدينة لكي يتأكد من ذلك[٤].

أمر الملك عبدالعزيز فيصل الدويش وأتباعه بالرحيل عن المدينة، وأرسل الشيخ عمر بن سليم ليكون إماماً وواعظاً وقاضياً لقواته المحاصرة للبلدة ولضمان تنفيذ سياسته الهادفة إلى الاكتفاء بالحصار وعدم اللجوء إلى القتال[٥]. وكان الحصار قد طال وبدأ يؤثر على سكان المدينة وحاميتها والمسؤولين فيها مع بداية عام ١٣٤٤ هـ صيف ١٩٢٥ م، فلم يجد أولئك المسؤولون ما ينفقونه على الموظفين والجنود، حتى اضطروا إلى بيع بعض الأسلحة المخزنة في القلعة التي وجد قسم منها طريقه إلى المحاصرين، كما قلت المؤن في البلدة وارتفعت أسعارها ما حدا بكثير من أهلها إلى مغادرتها، ولم يستطع الملك علي المحاصر في جدة إمداد وكيله وقائمقامه وعسكره في المدينة بما يحتاجونه من مال ومؤن وجنود[٦]. ولما طال التسويف وتكررت الوعود غير المنجزة من الملك علي بإرسال الإمدادات إلى المدينة،

(١) الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٤١٣، ٤١٤؛ العثيمين، عبدالله الصالح. تاريخ المملكة، مرجع سابق، جـ٢، ١٩٧، ١٩٨.

(٢) الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٤١٤؛ العثيمين، عبدالله الصالح. تاريخ المملكة، مرجع سابق، ، جـ٢، ١٩٨؛ زيدان، محمد حسين. ذكريات، مرجع سابق، ١٢٠.

(٣) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٤١ ـ ١٤٥.

(٤) ابن هذلول، سعود. تاريخ ملوك آل سعود، مرجع سابق، ١٤٢، ١٤٣؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٤٩ ـ ١٥٣؛ الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٤١٩.

(٥) الحميد، عبداللطيف بن محمد، «من رجال الملك عبدالعزيز»، مجلة الدرعية، مرجع سابق، ع١، ١٣٧، ١٣٨.

(٦) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٤٦ ـ ١٤٨، ١٥٥.

وأدرك أهل المدينة أن أوضاع الملك علي في جدة لم تكن أفضل من أوضاعهم، وأن كفة الملك عبدالعزيز هي الراجحة، اجتمعوا بالوكيل والقائمقام وتشاوروا في أمر التسليم، ولأنهم تخوفوا من عدم انضباط القوات المحاصرة عند دخولها المدينة، قرروا الاتصال مباشرة بالملك عبدالعزيز، فأرسل القائمقام شحات بن علي أحد تجار المدينة المنورة ويدعى مصطفى عبدالعال برسالة إلى الملك عبدالعزيز يعرض فيها تسليم المدينة، ويشترط الأمان لموظفي وعساكر حكومة الملك علي وأن يكون أحد أبناء الملك عبدالعزيز هو الذي يتسلم المدينة[١].

بعث الملك عبدالعزيز ابنه محمداً على رأس فرقة من الجند لتسلم المدينة المنورة، وقد تسلم الأمير محمد ورجاله المواقع الإدارية والعسكرية من الوكيل والقائمقام وقائد الحامية في ١٣٤٤/٥/١٩ هـ الموافق ١٢/ ٤/ ١٩٢٥ م بغاية الهدوء والنظام، وخلال الأيام التالية جلس الأمير محمد لتقبل بيعة أهل المدينة نيابة عن أبيه، وأمر بتوزيع المؤن والطعام على المحتاجين، وفي اليوم الرابع عقد الأمير اجتماعاً حضره كبار الموظفين والأعيان في دار البلدية أعلن فيه العفو العام، وخير الموظفين والعسكريين من غير أهل المدينة بين البقاء على وظائفهم في المدينة أو مغادرتها إذا رغبوا في ذلك[٢]. وبذلك تحقق للملك عبدالعزيز ما كان يأمله من ضم المدينة المنورة دون قتال[٣].

عين الملك عبدالعزيز ابنه الأمير محمداً أميراً للمدينة المنورة وإبراهيم السبهان من أهل حائل وكيلاً له، وقد أبقى الأمير محمد الموظفين الذين اختاروا البقاء في وظائفهم مثل: إسماعيل حفظي رئيساً لديوان الإمارة، والشيخ إبراهيم البري قاضياً، ومهدي بك قائداً للشرطة، وذياب بن ناصر رئيساً للبلدية والمالية، كما عين الشيخ أحمد كماخي مديراً للمعارف، ومحمد بن إبراهيم القاضي مديراً لشؤون الحرم والأوقاف. وفي بداية شهر رجب عاد الأمير محمد إلى جدة[٤]. وفيما بعد أدخلت هيئة التفتيش والإصلاح برئاسة الشيخ حافظ وهبة بعض التعديلات على النظم الإدارية والمالية والوظائف[٥]. وفي شهر رجب ١٣٤٤ هـ/١٩٢٦ م استدعى الملك عبدالعزيز شيوخ قبائل حرب وجهينة وبلي وأكرمهم ووعظهم وأبلغهم بضرورة الالتزام بالشريعة وتأدية الزكاة والمشاركة في الجهاد، كما حملهم مسؤولية استتباب الأمن في مناطقهم، وأن كل شيخ قبيلة مسؤول أمام الدولة عما يحدث في ديار قبيلته وأن من يقصر في ذلك يكون عرضة للعزل، كما أبلغهم بإلغاء الأدراك والمخافر التي كانت خلال حكم العثمانيين، وأنه ليس لهم شيء من الحقوق على الحجاج أو المسافرين إلا ما يبذله لهم الملك من أعطيات من بيت المال[٦].

وبناءً على نظام (التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية) الذي أمر الملك عبدالعزيز بوضعه بعد مبايعته ملكاً على الحجاز، تم تأسيس مجلسين في المدينة المنورة؛ أحدهما مجلس استشاري (المجلس الإداري) والآخر مجلس بلدي بطريق الانتخاب والتعيين، وقد تكوّن المجلس الإداري من ستة أعضاء من ضمنهم القاضي ومدير الأوقاف والمالية بالإضافة إلى الرئيس، ومهمة هذا المجلس مساعدة الأمير أو وكيله في إدارة

(١) الريحاني، أمين. الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد، مرجع سابق، ٤١٩ ـ ٤٢٢؛ الحميد، عبداللطيف بن محمد، «من رجال الملك عبدالعزيز»، مجلة الدرعية، مرجع سابق، ع١، ١٣٨، ١٣٩؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٥٦، ١٥٧.

(٢) ابن هذلول، سعود. تاريخ ملوك آل سعود، مرجع سابق، ١٤٣ ـ ١٤٥؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٥٧ ـ ١٦٤؛ الحميد، عبداللطيف بن محمد، «من رجال الملك عبدالعزيز»، مجلة الدرعية، مرجع سابق، ع١، ١٤٠ ـ ١٤٢.

(٣) المرجع السابق، جـ١، ١٤٣.

(٤) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٦٤، ١٦٥؛ زيدان، محمد حسين. ذكريات، مرجع سابق، ١٢٣، ١٢٤.

(٥) المرجع السابق، ١٢٣، ١٢٤؛ ابن سلم، أحمد سعيد. المدينة المنورة، مرجع سابق، ٤٧.

(٦) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٦٩ ـ ١٧١.

أمـور المنطقة واختيار ممثليها في مجلس الشورى العام للمملكة، أما المجلس البلدي فقد شكل من خمسة أو ثمانية أعضاء برئاسة رئيس البلدية، ومهمته النظر في الشؤون المحلية ووضع الأنظمة العمرانية والبلدية ومراقبة الأسواق في المدينة[١].

فـي أواخـر شـهـر ربـيـع الآخـر ١٣٤٥ هـ/١٩٢٦ م زار الملك عبدالعزيز المدينة المنورة قادماً من جدة في موكب يتكون من تسع عشرة سيارة لتفقد أحوالها، وبعد زيارة المسجد النبوي والصلاة فيه جلس الملك لاستقبال الأهالي الذين أقاموا له حفلاً فيما بعد في محطة السكة الحديد[٢]. وقد أقام الملك في المدينة نحو شهرين قضاهما في تنظيم الأوضـاع الإداريـة وتفقد أحـوال أهـل المنطقة، فقد عـزل إبراهيم السبهان من وكالة الإمـارة وعين مشاري بن جلوي آل سعود بـدلاً منه، وأعـاد تشكيل إدارة الحرم والأوقـاف وخلصهما من الموظفين الذين لم يكن لهم عمل، وشكل مجلساً جديداً للقضاء، ونظم أمور أمكنة الزيارة في المدينة بحيث تم تخليصها من الممارسات المنافية للشريعة، كما ركب الملك القطار لتفقد أوضاع القبائل النازلة شمال المدينة[٣].

في شهر ربيع الآخر عام ١٣٤٦ هـ/١٩٢٧ م عين الملك عبدالعزيز عبدالعزيز بن إبراهيم وكيلاً لأمير المدينة وياسين الرواف معاوناً لـه، وكـان ابـن إبـراهـيـم قـد اشتهر بالشدة والحزم، فـأراد الملك عبدالعزيز من تعيينه هناك أن يضبط الأوضاع الأمنية في منطقة المدينة والطرق المؤدية إليها، وقد بعث الملك عبدالعزيز إلـى وكيل الأمير ومعاونه وسكان المدينة رسائل حدد فيها واجبات وصلاحيات الوكيل ومعاونه وضرورة تعاون سكان المدينة معهما[٤]. كذلك أمر الملك عبدالعزيز بحل المجلس الإداري والمجلس البلدي ومجلس الأوقاف، وأرسل في الشهر نفسه لجنة التفتيش والإصـلاح إلـى المدينة للنظر في الأوضـاع الإدارية هناك، وبناء على توصيات هذه اللجنة أُعيد تشكيل المجالس الثلاثة المشار إليها وصدر عدد من قـرارات العزل والتعيين في الوظائف الحكومية في المدينة[٥]. وقد أمضى ابن إبراهيم في منصبه أكثر من تسع سنوات، شهدت المنطقة خلالها هـدوءاً واستقراراً ملحوظاً على الرغم من القحط والمجاعة التي ضربت القبائل المحيطة بالمدينة وما يمكن أن يترتب على ذلك من اضطراب[٦]. وقد أنشأت الدولة خلال هذه الفترة المدارس الابتدائية مثل: المدرسة الناصرية والمدرسة المنصورية التي أسهمت مع مجالس العلم في المسجد النبوي والمدارس الأهلية مثل: مدرسة العلوم الشرعية، ودار الأيتام والصنائع الوطنية، ودار الحديث وغيرها من المدارس الخيرية في تعليم الناشئة في المدينة[٧]. وأثمر كل ذلك في نمو حركة ثقافية في المدينة المنورة تمثلت في ظهور منتديات أدبية وإصدارات ثقافية مثل: مجلة المنهل وجريدة المدينة المنورة اللتين ظهرتا في عامي ١٣٥٥ ـ ١٣٥٦ هـ/١٩٣٧ م على التوالي[٨].

في صفر ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م عين الملك عبدالعزيز عبدالله بن سعد السديري وكيلاً لإمارة المدينة المنورة، وقد استمر السديري في منصبه مدة عشرين عاماً، تزامن النصف الأول منها مع فترة الحرب العالمية الثانية التي شهدت هدوءاً في جميع أنحاء المملكة، وخلال هـذه الفترة سيّرت الحكومة الأمـور

(١) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٧١ ـ ١٧٣.

(٢) يوسف ياسين، الرحلات الملكية؛ *رحلات جلالة الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض المنشورة في جريدة أم القرى ١٣٤٣ هـ ـ ١٣٤٦ هـ*، (الرياض؛ دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩ هـ)، ٧٩، ٨٥ ـ ٨٧؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٧٥، ١٧٦.

(٣) يوسف ياسين، الرحلات الملكية؛ *رحلات جلالة الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض المنشورة في جريدة أم القرى ١٣٤٣ هـ ـ ١٣٤٦ هـ*، (الرياض؛ دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩ هـ)، ٧٩، ٨٥ ـ ٨٧؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٧٦ ـ ١٧٩.

(٤) انظر؛ جريدة أم القرى، ع١٤٨، ١٣٤٦/٤/١٨ هـ.

(٥) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٨٢ ـ ١٨٨.

(٦) زيدان، محمد حسين. ذكريات، مرجع سابق، ١٧٨، ١٧٩.

(٧) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ١٩٠، ٢٠٠؛ ابن سلم، أحمد سعيد. المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٠٨، ١٠٩.

(٨) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ٢١٤ ـ ٢١٩؛ حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٢٥٠؛ ابن سلم، أحمد سعيد. المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٣١، ١٣٢.

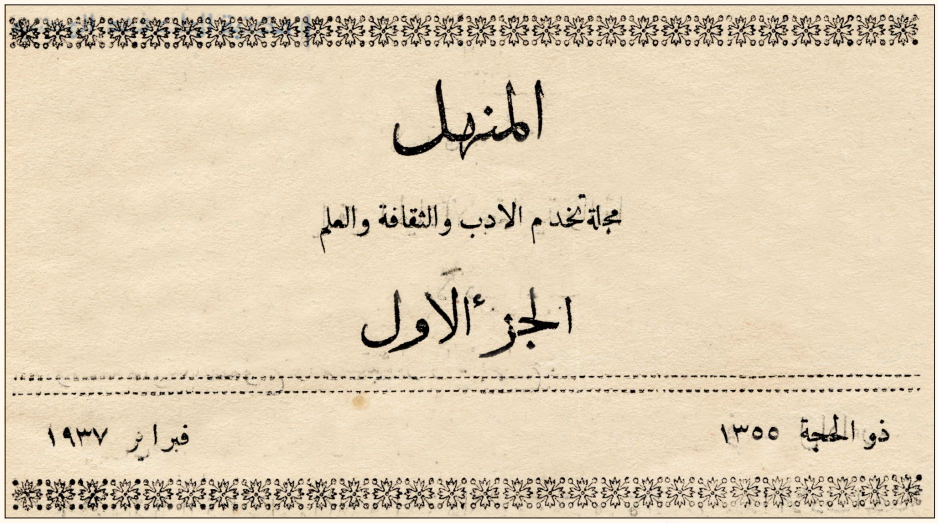
المنهل

مجلة تخدم الادب والثقافة والعلم

الجزء الاول

ذو الحجة ١٣٥٥ فبراير ١٩٣٧

الإصدار الأول لمجلة المنهل(*)

الإدارية والتعليمية وغيرها في المدينة بالموارد المتاحة، وبعد نهاية الحرب في عام ١٣٦٤ هـ/١٩٤٥ م استؤنف استخراج النفط بكميات تجارية، وبالتالي تزايدت موارد الدولة من عائداته، وانعكس ذلك على نفقاتها على الخدمات والمرافق العامة، وكان أهم حدث شهدته المدينة المنورة في أواخر عهد الملك عبدالعزيز هو عمارة وتوسعة المسجد النبوي.

نقلت الصحف المصرية في عام ١٣٦٧ هـ/١٩٤٩ م عن بعض زوار المدينة المنورة حدوث تشققات في بعض أعمدة المسجد النبوي، وتشكلت على إثر ذلك لجان لجمع التبرعات في مصر لترميم المسجد النبوي، فلما علم الملك عبدالعزيز بذلك طلب رد التبرعات إلى أصحابها وعزم على عمارة وتوسعة المسجد النبوي[١]، وبخاصة أن أعداد الحجاج والزوار قد تضاعفت عدة مرات بسبب استقرار الأوضاع في الحجاز وتطور المواصلات في العالم، وقد كلف الملك


العدد ٣٥ يوم الخميس ٢٩ رمضان سنة ١٣٥٦ الموافق ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٧

المدينة المنورة

(صحيفة الشعب العربي السعودي)

تصدر أسبوعيا

إن الايمان ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها « حديث شريف »

صاحب الجريدة ومحررها المسؤل

عبدالحافظ

عنوان المراسلات

المدينة : ادارة جريدة (المدينة المنورة)

يوفياً — جريدة المدينة

العيد بالمدينة المنورة

في عهد النبي ﷺ — وفي العصر الحاضر

يوم بدر

« الموقعة الحاسمة بين الهدى والضلال »

العدد الخامس والثلاثون من جريدة المدينة المنورة(*)

عبدالعزيز محمد بن لادن الذي استعان بعدد من المهندسين المصريين والباكستانيين لدراسة المشروع، وأوصت الدراسة بهدم القسم الشمالي من المسجد بسبب تسرب الرطوبة إلى أساساته، والإبقاء على القسم الجنوبي الذي يحوي القبر النبوي، أصدر الملك عبدالعزيز أوامره بتنفيذ التوصية ونزع ملكية العقارات اللازمة لذلك وعمارة المسجد وتوسعته، وبدأ العمل في المشروع

(١) الأنصاري، ناجي محمد. عمارة وتوسعة المسجد النبوي، مرجع سابق، ١٦٤.

(*) المصدر: مكتبة الملك فهد الوطنية.



ترميم المسجد النبوي وتوسعته

في عهد الملك عبدالعزيز في شوال عام ١٣٧٠ هـ/١٩٥١ م وانتهى في عهد الملك سعود في ربيع الأول عام ١٣٧٥ هـ/١٩٥٥ م[١]. كان من أهم معالم هذه العمارة دخول الخرسانة المسلحة لأول مرة في عمارة المسجد النبوي الشريف، وبناء مئذنتين بارتفاع سبعين متراً، وزيادة مساحة المسجد بمقدار ٦٠٢٤ م٢، وقد بلغ ما أنفق على هذه العمارة بما في ذلك التعويضات عن العقارات المنزوعة سبعين مليون ريال[٢].

في ١٣٧٣/٣/٢ هـ الموافق ١٩٥٣ م توفي الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، موحد أغلب أقاليم الجزيرة العربية ومؤسس المملكة العربية السعودية، بعد أن أمضى أربعة وخمسين عاماً في الجهاد العسكري والسياسي والدبلوماسي والتنموي وبناء الروابط بين أقاليم فرقتها نوازع التفكك المختلفة لعدة قرون، وقد ضم الملك الموحد المدينة المنورة إلى دولته دون اللجوء إلى القتال، ونعمت المنطقة خلال عهده بالاستقرار والازدهار والسلامة من النزاعات التي عانت منها خلال الفترات السابقة.

ب ـ بعد عهد الملك عبدالعزيز:

زار الملك سعود بن عبدالعزيز المدينة المنورة في الشهر نفسه الذي توفي فيه والده، لتفقد أحوالها ولوضع حجر الأساس لعمارة وتوسعة المسجد النبوي بعد أن ارتفع البناء عن الأرض للتأكيد على الاستمرار في المشروع والاهتمام به[٣]. وفي شعبان ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠ م توفي عبدالله السديري وكيل إمارة المدينة، وتم تثبيت ابنه عبدالرحمن السديري في منصب أبيه بعد عام من ذلك التاريخ[٤]. وخلال عهد الملك سعود ١٣٧٣ ـ ١٣٨٤ هـ/١٩٥٣ ـ ١٩٦٤ م زادت موارد الدولة من عائدات النفط، وانعكس ذلك على مشروعات التنمية والتطوير في البلاد، فقد شهدت منطقة المدينة المنورة توسعاً في مرحلة التعليم ما بعد الابتدائي؛ كالتعليم الثانوي والمهني وإعداد المعلمين والتعليم العالي والخدمات الصحية والمشروعات البلدية، كما أنشئت في المدينة وينبع والعلا فروع للوزارات والمصالح الحكومية التي توسعت خلال هذه الفترة[٥]. وفي عام ١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م أصدر الملك سعود مرسوماً ملكياً بتأسيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وبدأت الدراسة فيها في السنة التالية، بكلية الشريعة وكلية الدعوة وأصول الدين، وقد نص نظام الجامعة على قبول الطلاب من مختلف البلدان الإسلامية، فتقاطر الطلاب إليها من أنحاء العالم الإسلامي[٦].

(١) حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٨١ ـ ٨٣؛ الأنصاري، ناجي محمد. عمارة وتوسعة المسجد النبوي، مرجع سابق، ١٦٤، ١٦٥.

(٢) حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٨٤ ـ ٨٧؛ الأنصاري، ناجي محمد. عمارة وتوسعة المسجد النبوي، مرجع سابق، ١٦٦ ـ ١٨٤.

(٣) حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٨٤ ـ ٨٧؛ الأنصاري، ناجي محمد. عمارة وتوسعة المسجد النبوي، مرجع سابق، ١٦٦.

(٤) البرادعي، أحمد بن محمد صالح. المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٤١؛ ابن سلم، أحمد سعيد. المدينة المنورة، مرجع سابق، ٥٠.

(٥) حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٢٢٤ ـ ٢٣٣، ٢٤٦ ـ ٢٤٩؛ ابن سلم، أحمد سعيد. المدينة المنورة، مرجع سابق، ١١٠ ـ ١١٢.

(٦) حافظ، علي. فصول من تاريخ المدينة، مرجع سابق، ٢١٩ ـ ٢٢٤؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ٢٣٦ ـ ٢٣٩.



الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة

تولى الملك فيصل بن عبدالعزيز الحكم في عام ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م، وبعد عام من ذلك التاريخ عين أخاه الأمير عبدالمحسن بن عبدالعزيز أميراً لمنطقة المدينة المنورة[١]، وكان هذا التعيين فرصة لاقتراح ووضع الخطط التطويرية للمنطقة ودعمها، إذ نشط الأمير عبدالمحسن خلال السنوات الأولى من إمارته وقبل أن يرهقه المرض في متابعة مشروعات التطوير والتنمية في المنطقة، ولمواجهة الزيادة الهائلة في أعداد الزوار وقاصدي المسجد النبوي في المواسم أمر الملك فيصل في عام ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣ م بحل مؤقت وهو استملاك قطعة كبيرة من الأرض تقع غربي المسجد النبوي تكتظ بالمنازل والدكاكين القديمة وتتخللها الأزقة الضيقة تقدر مساحتها بـ٣٥٠٠٠ م٢، وإعدادها لتكون مصلى يضاف إلى المسجد النبوي[٢].

في عام ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م تولى الملك خالد بن عبدالعزيز الحكم، وقد تضاعفت الموارد المالية للمملكة من عائدات النفط بسبب ارتفاع أسعاره خلال هذه الفترة، وترتب على ذلك زيادة كبيرة في ميزانية الدولة ومخصصات الوزارات والمصالح الحكومية المختلفة وفروعها في منطقة المدينة المنورة، وقد استقطبت المدينة المنورة أعداداً كبيرة من المهاجرين من داخل المنطقة ومن خارجها، فصار عدد سكان المدينة ينمو بنسبة ١٥٠٪ كل ثلاث أو أربع سنوات[٣]. ولمواجهة الزيادة في عدد سكان المدينة والبلدان والقرى التابعة لها وحاجة المنطقة إلى مؤسسات للتعليم العالي، افتتحت في المدينة منذ عام ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م كلية تربية للبنين وكلية تربية للبنات[٤] ومعهد عالٍ للدعوة، وفي عام ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م أُنشئت الهيئة الملكية للجبيل

(١) ابن سلم، أحمد سعيد. المدينة المنورة، مرجع سابق، ٥٠؛ عبدالغني، عارف أحمد. تاريخ أمراء المدينة، مرجع سابق، ٤٣١.

(٢) عبدالعزيز بن عبدالرحمن الحصين، العناية بالمسجد النبوي الشريف وأثرها في خدمة الإسلام والمسلمين، (الرياض: بحوث مؤتمر مئوية المملكة، ٧ ـ ١١ شوال ١٤١٩ هـ)، ٤٠، ٤١.

(٣) مكي، محمد شوقي. سكان المدينة، مرجع سابق، ٤٠، ٤١، ٨٠ ـ ٩٥ وما بعدها.

(٤) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ٢٤٨ ـ ٢٥٣.

وينبع التي أقامت لها مصانع بتروكيماوية ومينـاء صناعياً في ينبع.

في صيف عام ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م شب حريق هائل في سوق القماشة الواقع جنوب غرب المسجد النبوي الذي كان من أقدم وأهم أسواق المدينة، ولضيق شوارع السوق والحي المحيط به لم تستطع سيارات المطافئ الدخول إليه، فاستمر الحريق ثلاثة أيام حتى أتى على جميع المتاجر والمنازل في الحي، وقد أمر الملك خالد بإزالة الأنقاض واستملاك المنطقة التي بلغت مساحتها ٤٣٠٠٠ م٢ وتجهيز قسم منها ليكون مصلى، والقسم الآخر يخصص كساحة لخدمات المسجد النبوي[١]. وفي عام ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م تم رفع درجة بلدية المدينة المنورة إلى رتبة أمانة، وقد ترتب على ذلك منحها صلاحيات أوسع وقدرة أكبر على القيام بمتطلبات النمو العمراني والتطوير في المدينة[٢].

في شعبان ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م تولى الملك فهد بن عبدالعزيز الحكم، وفي عهده الميمون نالت منطقة المدينة المنورة نصيباً وافراً من الاهتمام والرعاية وقدراً كبيراً من المشروعات التنموية ومشروعات البنية التحتية التي نفذتها حكومته، كما نالت حظاً أوفر من اهتماماته الإسلامية لاحتوائها على المسجد النبوي ومثوى الرسول ﷺ والأمكنة التي شهدت أحداثاً تاريخية مهمة في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين؛ فخلال هذه الفترة ربطت المدينة المنورة بمكة المكرمة والقصيم بطرق سريعة، وفي صفر ١٤٠٥ هـ/١٩٨٤ م افتتح الملك فهد (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف) الذي أراده الملك أن يكون منارة لنشر القرآن الكريم في العالم من البقعة التي شهدت نزول أكثر آياته وسوره بأفضل ما يمكن من الدقة والضبط، وقد صار المجمع يصدر ملايين النسخ من القرآن الكريم سنوياً ما بين مقروءة ومسموعة بقراءات مختلفة وترجمات لمعاني القرآن الكريم بعدة لغات[٣]. وفي جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ/يناير ١٩٨٦ م عين الملك فهد الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز أميراً لمنطقة المدينة المنورة[٤]، مانحاً بذلك منطقة المدينة أميراً يتمتع بقدر كبير من الحيوية والنشاط والرغبة في العمل، وفي عام ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦ م أعلن الملك فهد في احتفال عام في المدينة المنورة اتخاذه لقب (خادم الحرمين الشريفين) مؤكداً بذلك سياسته الإسلامية التي كان لها أكبر الأثر على المسجد النبوي والمدينة المنورة[٥].

لم يمض على تولي الملك فهد للحكم خمسة أشهر حتى قام بزيارة للمدينة المنورة، وأعلن هناك عزمه على تنفيذ توسعة كبرى للمسجد النبوي الشريف(*) تسخر لها الإمكانات الهندسية والتقنية كافة لجعل المسجد النبوي من أوسع المساجد في العالم وأجملها، وليكون هذا المشروع منطلقاً لحركة تطوير شاملة للمدينة المنورة[٦]. وبعد وضع الدراسات والتصميمات اللازمة كلف الملك مؤسسة محمد بن لادن بتنفيذ المشروع لما لها من خبرة في إنجاز مثل هذه المشروعات، وفي صفر ١٤٠٥ هـ/١٩٨٤ م وضع الملك فهد حجر الأساس لهذا المشروع العملاق، وقد حرص على الإشراف بنفسه على سير العمل ومناقشة المهندسين وإدخال التعديلات واختيار المواد المناسبة،

(١) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ٢٤٤ ـ ٢٤٨؛ الحصين، عبدالعزيز بن عبدالرحمن. العناية بالمسجد النبوي، مرجع سابق، ٤١.

(٢) بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ٢٥٣.

(٣) محمد سالم بن شديد العوفي، *تطور كتابة المصحف الشريف وطباعته وعناية المملكة العربية السعودية بطبعه ونشره وترجمة معانيه*، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢١ هـ)، ٧١ ـ ٩٢.

(٤) عبدالغني، عارف أحمد. تاريخ أمراء المدينة، مرجع سابق، ٤٣١، ٤٣٢.

(٥) وكالة الأنباء السعودية، خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود: عشرون عاماً من الانجاز، (الرياض: وكالة الأنباء السعودية، د.ت)، ١٥.

(٦) الأنصاري، ناجي محمد. عمارة وتوسعة المسجد النبوي، مرجع سابق، ١٩٣.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثالث، (الآثار والمواقع التاريخية)؛ الفصل الثاني.



مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

ولذلك كان يحرص على زيارة المدينة المنورة في بداية كل عام لمتابعة المشروع حتى نهايته[١].

يتكون مبنى التوسعة من ثلاثة أدوار: الدور السفلي الذي خصص للخدمات والمرافق المساندة ومساحته ٨٣٤٨٢ م٢، والدور الأرضي (صالة الصلاة) ومساحته ٨٢٠٠٠ م٢ ويستوعب ١٣٧٠٠٠ مصلٍّ، وقد بني هذا الدور على شكل أفنية بارتفاع ٥,١٢ م، ويحمل سقفه ٢٥٦٧ عموداً تبعد عن بعضها ٦ ـ ١٨ م، وتتخلل السقف ٢٧ قبة متحركة آلياً وزن الواحدة منها ٨٠ طناً[٢]. وتقف على أطراف الدور الأرضي ست مآذن بطول ١٠٤ م، ويدخل إليه من خلال سبعين بوابة وباباً[٣]. ويعلو الدور الأرضي السطح الذي تصل مساحته إلى ٦٧٠٠٠ م٢ الذي صمم لاستيعاب ٩٠٠٠٠ مصلٍّ في أوقات الذروة، وزود السطح بست مجموعات من السلالم المتحركة وثماني عشرة مجموعة من السلالم الثابتة، وقد روعي عند وضع المخطط الإنشائي إمكانية إضافة دور علوي على السطح[٤]. وقد تطلبت المساحة



توسعة المسجد النبوي الشريف في عهد الملك فهد (رحمه الله)[*]

العظيمة للمسجد النبوي ومئات الآلاف من المصلين فيه ضرورة إحاطته بساحات واسعة لتسهيل حركة الدخول والخروج وإبراز جمال مبانيه وتهيئة مساحات إضافية لاستيعاب آلاف أخرى من المصلين في أوقات الذروة، فأحيط المسجد من الجهات الأربع بساحات تبلغ مساحتها الإجمالية ٢٣٥٠٠٠ م٢ يمكنها استيعاب أربعمئة ألف مصلٍّ، وفرشت بالرخام

(١) الحصين، عبدالعزيز بن عبدالرحمن. العناية بالمسجد النبوي، مرجع سابق، ٤٥، ٤٦؛ وأيضاً: عبيدالله محمد أمين كردي، *الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارة وتاريخاً*، (جدة: مجموعة بن لادن السعودية، ١٤١٩ هـ)، ٢٧٠؛ حامد عباس، *قصة التوسعة الكبرى*، (جدة: مجموعة بن لادن السعودية، ١٤١٦ هـ)، ٣٤٤، ٣٤٥.

(٢) الحصين، عبدالعزيز بن عبدالرحمن. العناية بالمسجد النبوي، مرجع سابق، ٤٨؛ الأنصاري، ناجي محمد. عمارة وتوسعة المسجد النبوي، مرجع سابق، ٢١٦ ـ ٢١٩؛ كردي، عبيد الله محمد أمين. الكعبة المعظمة والحرمان، مرجع سابق، ٢٨٠.

(٣) المرجع السابق، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٩٦، ٢٩٧؛ الأنصاري، ناجي محمد. عمارة وتوسعة المسجد النبوي، مرجع سابق، ٢٢٢ ـ ٢٢٦، ٢٤٥، ٢٤٦.

(٤) المرجع السابق، ٢٠٧؛ الحصين، عبدالعزيز بن عبدالرحمن. العناية بالمسجد النبوي، مرجع سابق، ٤٨، ٤٩.

(*) المصدر: وكالة الرئاسة العامة لشؤون المسجد النبوي.



القباب المتحركة في المسجد النبوي(*)



ساحات المسجد النبوي(*)

المقاوم للحرارة لراحة المصلين[1]. كما أنشئت محطة ضخمة لتكييف كامل المسجد تبلغ طاقتها أكثر من ١٧٠٠٠ طن تبعد عنه سبعة كيلومترات[2]. وقد استمر العمل في هذا المشروع العظيم والمرافق المساندة له قريباً من عشر سنوات.

وكان لتوسعة المسجد النبوي آثار عميقة على المدينة وسكانها تجاوزت النواحي العمرانية إلى النواحي الاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

ولقد رأى الملك فهد أنه ليس من المناسب تنفيذ هذا المشروع العظيم بأحدث ما توصلت إليه فنون العمارة وتقنيتها في قلب نسق عمراني عشوائي ومنشآت تعود إلى مئات السنين، ولذلك أمر بوضع الخطط لتطوير المنطقة المركزية المحيطة بالمسجد النبوي، وأمر بهدم ما فيها من مبانٍ بلغت مساحتها مليوناً وربع المليون متر مربع وإعادة تخطيطها وبنائها على أحدث النظم الهندسية وبمواصفات موحدة ومتميزة، وقد بدا المشروع وكأنه عملية إزالة مدينة قديمة وبناء مدينة حديثة بدلاً منها، لقد استوعبت هدميات توسعة المسجد والمنطقة المركزية كل مساحة المدينة القديمة، وقد ساعدت التعويضات الكبيرة لاستملاك العقارات على تنشيط الحركة العمرانية بشكل لم يسبق له مثيل أدى إلى تضاعف مساحة النطاق العمراني للمدينة أكثر من ٢٥ ضعفاً[3].

(١) كردي، عبيد الله محمد أمين. الكعبة المعظمة والحرمان، مرجع سابق، ٢٨٤؛ عباس، حامد. قصة التوسعة الكبرى، مرجع سابق، ٣٤٩؛ الحصين، عبدالعزيز بن عبدالرحمن. العناية بالمسجد النبوي، مرجع سابق، ٥١، ٥٢.

(٢) كردي، عبيد الله محمد أمين. الكعبة المعظمة والحرمان، مرجع سابق، ٢٩٥، ٢٩٦؛ الأنصاري، ناجي محمد. عمارة وتوسعة المسجد النبوي، مرجع سابق، ٢٣٣ ـ ٢٣٥.

(٣) الحصين، عبدالعزيز بن عبدالرحمن. العناية بالمسجد النبوي، مرجع سابق، ٧٩ ـ ٨٧.

(*) المصدر: وكالة الرئاسة العامة لشؤون المسجد النبوي.



المباني المحيطة بالمسجد النبوي

أثناء سير العمل في مشروع توسعة المسجد النبوي التفت الملك فهد إلى عمارة وتوسعة المساجد التاريخية في المدينة المنورة مثل: مسجد قباء، مسجد القبلتين، مسجد الميقات، مسجد الجمعة، ومسجد الإجابة، فأصدر أوامره بإعادة بناء هذه المساجد وتوسعتها حسب أحدث الأنظمة العمرانية مع المحافظة على طرازها العمراني السابق، وقد استخدم في البناء أفضل المواد، وضوعفت مساحتها عدة مرات، وزودت بالمرافق اللازمة مثل: المواضئ والمواقف ومحطات الكهرباء ومكاتب الخدمات وبيوت الأئمة والمؤذنين والحراس، كما تم تكييفها وإنارتها وفرشها بأفضل الأثاث[1].

في ١٤١٢/٨/١٥ هـ الموافق ١٩٩٢ م عين الملك فهد الأمير مقرن بن عبدالعزيز أميراً لمنطقة المدينة المنورة خلفاً للأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز الذي عين أميراً لمنطقة مكة المكرمة، فعمل سموه بهمة وحيوية على استكمال المشروعات القائمة



مسجد قباء

ووضع الخطط للمشروعات التي تحتاجها منطقة المدينة المنورة في المستقبل، وفي الشهر نفسه صدر نظام المناطق الذي قسم منطقة المدينة المنورة إلى محافظات ومراكز أهمها: محافظات ينبع والعلا من فئة (أ) ومحافظات مهد الذهب وبدر وخيبر والحناكية من فئة (ب)، كما نص نظام المناطق على تشكيل مجلس إداري للمنطقة يتكون من

(١) أحمد ياسين الخياري، *تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً*، (الرياض: منوية المملكة، ١٤١٩ هـ)، ٤٠١ ـ ٤١٣؛ محمد إلياس عبدالغني، *المساجد الأثرية في المدينة النبوية*، (المدينة المنورة: مطابع الرشيد، ١٤١٨ هـ)، ٢٥ ـ ٣٤، ٦٤ ـ ٦٩، ١٩٤ ـ ١٩٧؛ بدر، عبدالباسط. التاريخ الشامل، مرجع سابق، جـ٣، ٢٨٦ ـ ٢٩٥.



كلية العلوم بجامعة طيبة

رؤساء الأجهزة الحكومية الرئيسة وما لا يقل عن عشرة أشخاص من أعيان الأهالي[١].

ونظراً لحاجة منطقة المدينة المنورة لمؤسسة كبيرة وشاملة للتعليم العالي ورغبة الدولة في تنظيم مؤسسات التعليم العالي القائمة في المنطقة، فقد صدرت الموافقة السامية في ١٤٢٤/٥/١٠ هـ / ٢٠٠٣ م على دمج فرعي جامعة الملك عبدالعزيز وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في المدينة المنورة ليكونا جامعة مستقلة باسم جامعة طيبة اعتباراً من العام الدراسي ١٤٢٤/١٤٢٥ هـ الموافق ٢٠٠٣/٢٠٠٤ م، وقد بدأت هذه الجامعة بكليات: التربية والعلوم والدعوة والطب وعلوم الحاسب والعلوم المالية والإدارية[٢].

وبعد وفاة الملك فهد ـ رحمه الله ـ بويع الملك عبدالله بن عبدالعزيز في ١٤٢٦/٦/٢٦ هـ الموافق ٢٠٠٥/٨/٢م ملكاً للمملكة العربية السعودية، وبعد تولّيه الحكم بأيام أمر في ١٤٢٦/٧/١٤ هـ الموافق ٢٠٠٥/٨/١٩م باستكمال الأعمال المتبقية من مشروع المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة بتكلفة ٤,٧ مليارات ريال، وتشمل هذه الاستكمالات: تركيب ١٨٢ مظلة تغطي جميع ساحات المسجد النبوي الشريف لوقاية المصلين والزائرين من الأمطار وأشعة الشمس، وتنفيذ الساحة الشرقية لتستوعب ٧٠ ألف مصلٍّ، بالإضافة إلى خدمات مساندة، ومواقف لإنزال الركاب وتحميلهم، وتنفيذ مداخل مواقف السيارات ومخارجها في المسجد النبوي الشريف، واستكمال طريق الملك فيصل الدائري الأول[٣].

وفي ١٩ رمضان ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م عَيَّنَ خادمُ الحرمين الشريفين الملكُ عبدالله بن عبدالعزيز صاحبَ السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن ماجد بن عبدالعزيز أميراً على منطقة المدينة المنورة خلفاً لصاحب السمو الملكي الأمير مقرن بن عبدالعزيز؛ ليبذل كل جهد في خدمة المنطقة ويستكمل ما بدأه سلفه من صروح النهضة وعوامل التطوير.

ـ الأمراء الذين تولوا إمارة منطقة المدينة المنورة منذ عهد الملك عبدالعزيز، وتواريخ توليهم:

١ـ الأمير محمد بن عبدالعزيز آل سعود (١٣٤٤/٥/١٩ هـ).

٢ـ الأمير عبدالمحسن بن عبدالعزيز آل سعود (١٣٨٥/٦/٢ هـ).

٣ـ الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز آل سعود (١٤٠٦/٥/١٥ هـ).

٤ـ الأمير مقرن بن عبدالعزيز آل سعود (١٤٢٠/٨/١٦ هـ).[٤]

٥ـ الأمير عبدالعزيز بن ماجد بن عبدالعزيز آل سعود (١٤٢٦/٩/١٩ هـ؛ وحتى تاريخه).[٥]

(١) وكالة الأنباء السعودية، بيانات جلسات مجلس الوزراء في المملكة العربية السعودية ١٤١١ ـ ١٤١٢ هـ، (الرياض: ١٤١٢ هـ)، جـ٥، ٢٧٢ ـ ٢٧٩.

(٢) وزارة التعليم العالي، دليل التعليم العالي: المنطقة الوسطى، الإصدار الأول ١٤٢٥ ـ ١٤٢٦ هـ، (الرياض: ١٤٢٥ هـ)، ١٢٢.

(٣) مدينة الرياض، إصدار شهري لأمانة منطقة الرياض، عدد خاص، رمضان ١٤٢٧ هـ، (الرياض: التراث، ١٤٢٧ هـ)، ٥٧-٥٨.

(٤) وزارة الداخلية، *وزارة الداخلية النشأة والتطور*. ط٢، (الرياض: وزارة الداخلية، ١٤٢٢ هـ)، ١٥٠.

(٥) عبدالله بن راشد السنيدي، *الأجهزة الحكومية في المملكة العربية السعودية*. ط٨، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٣٠ هـ/٢٠٠٩م)، ١٣١.

الباب الثالث

الآثار
والمواقع التاريخية

المقدمة

اكتسبت منطقة المدينة المنورة أهميتها بوصفها مركزاً استيطانياً منذ أقدم العصور، نظراً لتوافر المياه فيها وخصوبة أرضها، الأمر الذي أدى إلى نشوء المستوطنات السكانية، وانتشار أنشطة الزراعة والرعي في أرجاء متفرقة منها، فضلاً عن اشتهار بعض محافظاتها بوفرة المعادن[١]، وقد تبوأت المنطقة كذلك مكانتها بوصفها محطةً على طريق التجارة القديم (طريق البخور) لسهولة الوصول إلى مراكزها الاستيطانية عبر طرق سهلية وأودية طبيعية تربطها مع مناطق متفرقة في الجزيرة العربية وخارجها[٢]، كما أدى قربها من شواطئ البحر الأحمر إلى تعزيز مكانتها التجارية، وتفعيل حركة تجارية نشطة في بعض مدنها وفي مرافئها القديمة.

وقد كان لموقع منطقة المدينة المنورة في الأجزاء الشمالية الغربية من الجزيرة العربية دور كبير في المنطقة مع الحضارات المجاورة في بلاد الشام ومصر وبلاد الرافدين وما وراءها من حضارات كبيرة أخرى، وبما انعكس على كثير من الآثار والمخلفات الحضارية التي عثر عليها في كثير من المواقع الأثرية بالمنطقة، ولاسيما في دادان (العلا حالياً)، والحجر (مدائن صالح)، وغيرهما من المواقع الأثرية.

فضلاً عما كان لمنطقة شمال غربي جزيرة العرب عامة من دور في مجال التعدين منذ أقدم العصور، ومن ذلك الشهرة الكبيرة لموقع مهد الذهب في العصور الإسلامية الذي من المرجح أن بداية استخراج المعادن منه تعود جذورها إلى فترات ما قبل الإسلام[٣]، والأمر نفسه في موقع النقرة، الواقع في منتصف الطريق بين بريدة والمدينة المنورة، حيث كشف فيه عن مناجم قديمة للفضة، يفترض بعض الباحثين عمق قدمها، بما يحتمل معه تصديرها الفضة إلى بعض مناطق الشرق القديم خلال عصور ما قبل الإسلام[٤].

وتنتشر في منطقة المدينة المنورة مواقع أثرية يربو عددها على ألفي موقع، تجسد جميعها شواهد مادية على نشاط إنسان المنطقة في عصور ما قبل الإسلام[٥]، وتشهد ما تنطوي عليه مضامينها الفكرية والحضارية على أن المنطقة مرت خلال عصور ما قبل الإسلام بفترات

(١) سعد بن عبدالعزيز الراشد، وآخرون، *آثار منطقة المدينة المنورة، سلسلة آثار المملكة*. ط١، (الرياض: وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٣م)، ٧٢.

(٢) وزارة الشؤون البلدية والقروية، *التراث العمراني في المملكة العربية السعودية*، (الرياض: وكالة الوزارة لتخطيط المدن، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م)، ٩٢.

(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثارمنطقة المدينة المنورة،مرجع سابق، ٢٢٢ ـ ٢٢٩.

(٤) أحمد كسناوي، وآخرون، «تقرير مبدئي عن مسح مناطق التعدين القديمة شمال غرب الحجاز ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م»، *أطلال*، إدارة الآثار والمتاحف،ع٧، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣م)، ٦٢.

(٥) الراشد، سعد، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٢٣٦ ـ ٢٣٩.

استيطانية طويلة ومراحل تاريخية مختلفة، شهدت خلالها حلقات طويلة ومتشابكة من التواصل والتفاعل الحضاري الكبير مع الأمم والشعوب والممالك السائدة ـ آنذاك ـ في منطقة الشرق القديم، كما تشهد أيضاً على تميز المنطقة في آثارها الشاخصة والمنقولة خلال عصور ما قبل الإسلام المتعاقبة.

الفصل الأول

آثار العصور الحجرية وآثار ما قبل الإسلام

أولاً آثار العصر الحجري القديم

ثانياً آثار العصر الحجري الوسيط

ثالثاً آثار العصر الحجري الحديث

رابعاً الرسوم الصخرية للعصور الحجرية

خامساً آثار واحة العُلا

سادساً الرسوم الصخرية لآثار ما قبل الإسلام

سابعاً النقوش

إعداد

الدكتور مشلح بن كميخ المريخي

أستاذ علم الآثار الإسلامية المشارك

الأستاذ الدكتور سعيد بن فايز السعيد

أستاذ اللغات والحضارات القديمة

أولاً ـ آثار العصر الحجري القديم:

اكتشفت في منطقة المدينة المنورة صناعات حجرية متنوعة ترجع إلى العصرين: الآشولي الأوسط والآشولي الأعلى، إذ تؤرخ من ٢٥٠,٠٠٠ وحتى ١٠٠,٠٠٠ عام قبل الوقت الحاضر، وقد عثر على هذه الأدوات في خمسة مواقع على ضفاف أودية حرة خيبر، تتركز في وادي الغرس، ووادي غمرة، ووادي الحفير، ووادي القاع. كما عُثر أيضاً على نماذج من صناعة العصر الآشولي في موقع بالقرب من طريق العلا ـ خيبر. وتشتمل هذه الأدوات على مجموعة من الفؤوس الحجرية (Hand-axes) والأدوات ثنائية الحد (Bifacial Tools) وأحجار الطرق وبعض القواطع والمعاول ثلاثية الأوجه[١].

ثانياً ـ آثار العصر الحجري الوسيط:

سجلت المسوحات الأثرية التي أجريت في أجزاء من المنطقة أربعة مواقع تنتمي إلى العصر الحجري الوسيط، تتركز في الأجزاء الشمالية والغربية من حرة خيبر، وقد عثر على أدوات حجرية تعود إلى نمط الصناعة الحجرية المعروفة خلال العصر الحجري الوسيط، من بينها مجموعة من بعض المكاشط والأزاميل والأنصال[٢].

ثالثاً ـ آثار العصر الحجري الحديث:

عُثر في بعض مواقع حرة خيبر على مجموعة من الأدوات الحجرية المصقولة التي تشتمل على بعض المكاشط والرُّحي والشفرات. وعُثر في أمكنة مختلفة من منطقة المدينة المنورة ـ منها: حرة خيبر، وحرة عويرض، وجبل علي، ووادي العقيق، ووادي الغرس ـ على



ركام من الحجارة في حرة عويرض(*)

أبنية قديمة استخدمت في بنائها كتل الأحجار في أشكال دائرية أو مثلثة، ما يدل على احتمال وجود منشآت استيطانية قديمة، أو مقابر، أو غير ذلك من الأغراض التي لم يتم حسمها بعد، حيث لم تتم حفريات منظمة في مواقع أغلب هذه التركيبات الحجرية حتى الآن، وترجع هذه الأبنية القديمة على وجه الترجيح إلى فترة العصر الحجري الحديث[٣].

رابعاً ـ الرسوم الصخرية للعصور الحجرية:

لم يعثر على رسوم صخرية في محيط يثرب (المدينة المنورة) نفسها، نظراً لطبيعة الصخور البازلتية السوداء المحيطة بها التي يصعب النقش عليها، في حين عثر على رسوم صخرية كثيرة في عدد من المواقع الأخرى تنتمي إلى النطاق الجغرافي والمحيط الإداري لمنطقة المدينة المنورة، ومن أهم هذه المواقع: وادي الصويدرة الواقع إلى الشمال الشرقي من المدينة، ومواقع أبواط والمليليح

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٦٠، ٦١.
(٢) المرجع السابق، ٦٢.
(٣) المرجع السابق، ٦٣.
(*) المصدر: وكالة الآثار والمتاحف.



رسوم صخرية من جبل العهين



نقوش ورسوم صخرية من وادي نخلي(**)

شمال غربي المدينة، وجبل العهين شرقي الحناكية. وعُثر على رسوم صخرية في بعض المواقع القريبة من العلا، أو تلك المحيطة بمدائن صالح، وفي خيبر، وبموقع وادي نخلي في ينبع النخل[١]. ويرجع تاريخ بعض هذه الرسوم الصخرية إلى فترة العصر الحجري الحديث، وتصور أغلب موضوعاتها مناظر الحيوانات البرية، مثل: الوعول ذات القرون الطويلة والنعام وغيرها، ومناظر أخرى لعدد من الأبقار في أوضاع مختلفة، وكذلك مناظر لبعض الصراعات القتالية بين أشخاص مسلحين بالرماح، وطبعات الأيدي والأرجل، ورسوم كبيرة الحجم، تصور أشخاصاً بالحجم الطبيعي في بعض الأحوال أو بنصف الحجم الطبيعي في أحوال أخرى[٢].

خامساً ـ آثار واحة العلا:(*)

العلا هو اسم حديث لواحة قديمة، تقع على مسافة نحو ٣٧٠ كم شمال غربي المدينة المنورة، ضمن منطقة وادي القرى وتحيط بها سلسلة من الجبال من الشرق والغرب.

وتضم منطقة العلا مواقع أثرية وتاريخية مهمة، منها موقع دادان (الخريبة) وموقع الحجر (مدائن صالح) وأم الدرج والمابيات[٣] وخيف الزهرة[٤]، وعلاوة على عدد من مواقع النقوش والرسوم الصخرية، فقد أسفرت المسوحات الأثرية عن تسجيل ما يربو على ١٠٨ مواقع في محافظة العلا ،منها: دنن، ووادي صدر، والمزحم، والشقيمة، وجبو الخويرة، وشختب[٥]، وجبل الرزيقية[٦]، وجبل عكمة وغيرها[٧].

أ ـ آثار دادان (الخريبة):

تضم منطقة العلا عدداً من المواقع الأثرية، منها الموقع المسمى اليوم (الخريبة)، الواقع في الجهة الشمالية الشرقية من العلا، وكان يعرف قديماً باسم (ددن) ومن المرجح ضبطه على صيغة فعلان، أي (دادان)، وقد تسمَّت به مملكة دادان، واتخذت منه حاضرة لها ونسبت إليه.

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٦٦.

(٢) المرجع السابق، ٦٦ ـ ٦٨.

(٣) عبد الله بن آدم صالح نصيف، العلا: *دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي*. ط ١، (الرياض: مطابع الخالد للأوفست، ١٤١٦ هـ/١٩٩٥م)، ٧.

(٤) جارث بودن، «موقع خيف الزهرة وطبيعة السيادة الدادانية بواحة العلا»، *أطلال*، إدارة الآثار والمتاحف، ع٣، (الرياض: وزارة المعارف، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م)، ٧٣.

(٥) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٨٤.

(٦) عبدالرحمن الطيب الأنصاري، وحسين بن علي أبو الحسن، *العلا ومدائن صالح، حضارة مدينتين*. ط١، (الرياض: دار القوافل، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م)، ٣٤.

(٧) Sima, A Die. Udayb (Saudi Arabien), Epigraphische Forschungen auf Lihyanischen Inschriften von al der arabischen Halbinsel 1, Berlin 1999, p1.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثاني، (التطور التاريخي)؛ الفصل الأول.

(**) المصدر: وكالة الآثار والمتاحف.

وتقع البقايا الأثرية الظاهرة في دادان (الخريبة حالياً) على مساحة شبه مربعة في سفح جبل دادان، وتمتد نحو ٣٠٠م طولاً و٢٠٠م عرضاً[١]، يبرز في الجزء الشمالي من الموقع حوض حجري ضخم من المرجح أنه يقع بالقرب من المعبد الرئيس لدادان. ويحيط بأجزاء من الموقع سور حجري مكون في بعض نقاطه من ثلاثة جدران متعاقبة. كما عثر بالموقع أيضاً على بقايا برجين كبيرين ضمن الأسوار، وبقايا صف من التماثيل في جهته الشمالية[٢]. وإضافة إلى بقايا المنشآت الأثرية يشتمل الموقع على عدد غير قليل من المقابر الصخرية ومجموعات من النقوش كتبت بالخط الثمودي والدادانية والمعينية والنبطية على سفح جبل دادان المطل على الموقع من الناحية الشرقية.

١ ـ مقابر دادان (الخريبة):

يضم جبل دادان مجموعة كبيرة من المقابر الصخرية التي تتميز بتصميمات وأحجام مختلفة، وأغلب هذه المقابر فجوات مربعة الشكل تقريباً ومحفورة في واجهة الجبل وبعمق يزيد على ٢م نحو الداخل، ويؤرخ أقدمها بالقرن الخامس قبل الميلاد؛ أي خلال فترة السيادة اللحيانية[*] على المكان. وقد نحتت هذه المقابر على عدد من المستويات في الجبل، في حين وجد ما يقرب من ٢٠ منها على مستوى واحد تقريباً، اثنتان منها فقط زينتا بواجهة من أسدين منحوتين بجانب القبر، بوصفهما رمزين دينيين للحماية، أو ربما تمييزاً لمقابر بعض كبار الشخصيات أو الحكام، وخصوصاً عندما يقارن المرء ويربط هيئة الأسد

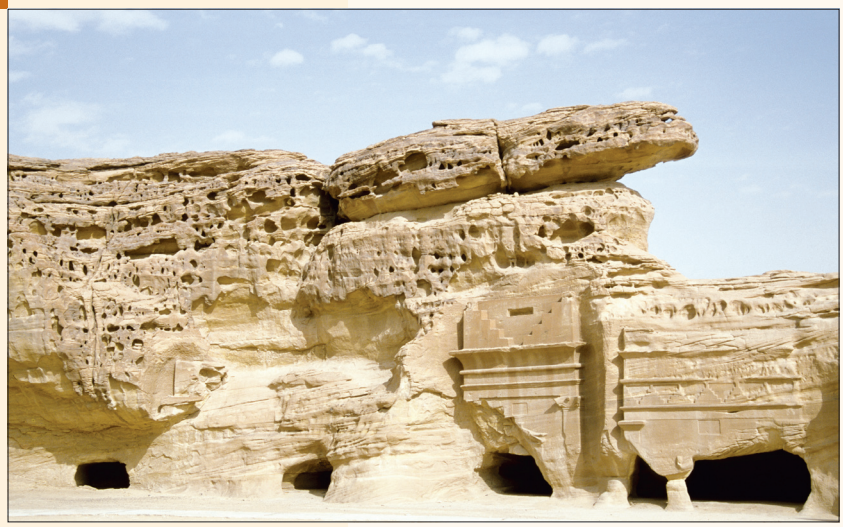

مقابر مدائن صالح بالحجر



المقابر الصخرية في موقع الخريبة

بشخصية الزعيم في حضارتي كل من بلاد الرافدين ووادي النيل، وحضارة الحيثيين في آسيا الصغرى كذلك[٣]. ويرى كاسكل من ملاحظته لبعض الاختلافات في أسلوب نحت الأسود الخاصة وتفاصيلها بكلتا المقبرتين أن إحداهما معينية[**] والأخرى ترجع إلى الفترة اللحيانية المتأخرة[٤]. ولعل ما يعزز وجهة نظر كاسكل أن إحدى هذه المقابر تخص شخصاً من أفراد الجالية المعينية

(١) Op. Cit., Caskel, Lihyan und Liyanisch, p17.

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر الشرح التفصيلي عن ذلك في الحديث عن العناصر الزخرفية في واجهات مقابر الحجر أدناه.

(٤) Ibid, Caskel, Lihyan und Lihyanisch, p 58.

(*) لمزيد من التفاصيل حول تاريخ مملكة لحيان، انظر: الباب الثاني، (التطور التاريخي)؛ الفصل الأول.

(**) لمزيد من التفاصيل حول تاريخ الجالية المعينية وأسباب وجودها في العلا، انظر: الباب الثاني، (التطور التاريخي)؛ الفصل الأول.



مقابر دادان الصخرية



نقش معيني من جبل الخريبة(*)

المستوطنة في العلا ـ آنذاك ـ هو وجود نقش معيني بين الأسدين يقول نصه:

- ه ن أ / ب ن و ب إ ل
- ذ م ل ح / ه ن / ب خ ط أ ت / ن
- ك ر ح / و و د / أ ح ل ي
- ذ ي ن ق ل / ق ب ر ن / ع م ر
- خ ر ف ن / و أ ر ض ن

نقل المعنى إلى اللغة العربية الفصحى:

- هانئ بن وهب إل
- آل مليح كَفَّر عن معاصيه
- بقرابين للإله نكرح وللإله ودّ
- ولتعاقب (الآلهة) كل من ينقل (يخرب، يدمر) القبر ما دامت
- الأرض والسماء (إلى أبد الدهر)

لقد نحتت بعض هذه المقابر من الداخل على شكل غرفة تتوزع حفرات الدفن في جدرانها أو أسفل أرضيتها. وتوجد في المنطقة مقابر فردية عادية مستطيلة، نحتت في أرضية الجبل، ودونت على سطوح بعض مقابر دادان (الخريبة) الصخرية نقوش توضح ملكية المقابر. وحددت على واجهة الجبل حدود لمساحات خصصت لمقابر أخرى لم يتم نحتها، أو بدأ العمل فيها ولم يستكمل.

وعثر في موقع مقابر دادان (الخريبة) الصخرية على بقايا عظمية، وكذلك بعض لفائف وأقمشة الأكفان، وبقايا خشبية لبعض توابيت الدفن(١).

٢ ـ حوض الماء (محلب الناقة أو الحلوية):

يوجد في الجزء الشمالي من موقع دادان (الخريبة) حوض حجري ضخم دائري الشكل، ومنحوت بدقة هندسية يشتهر باسم (محلب الناقة)، ويسمى أيضاً من قبل الأهالي (الحلوية). يبلغ قطر الحوض نحو ٣٧٠سم، وعمقه نحو ٢٢٠سم(٢). وتوجد بداخله ثلاث عتبات منحوتة من كتلة الحوض الحجرية نفسها لتسهيل النزول إليه. وتعد دقة استدارة هذا الحوض عملاً هندسياً رائعاً يتسم بالتناسق. وهو يتسع لنحو ٦٠٠٠ جالون

(١) Op. Cit., Caskel, Lihyan und Lihyanisch, pp. 18 - 19.

(٢) نصيف، عبدالله بن آدم صالح. العلا: دراسة في التراث، مرجع سابق، ٩.

(*) المصدر: وكالة الآثار والمتاحف.

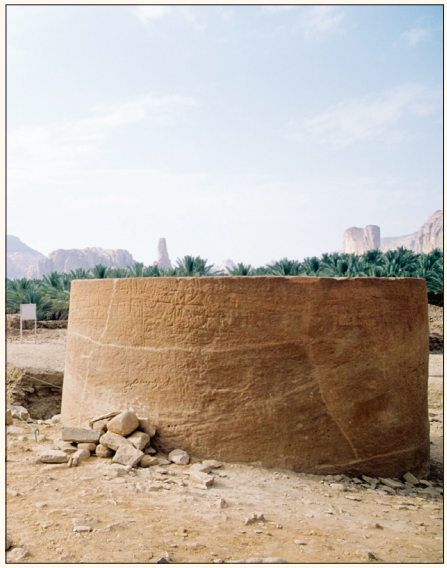

محلب الناقة أو الحلوية

من الماء (ما يقرب من ٢٤٠٠٠ لتر). ومن المرجح أن هذا الحوض كان يستخدم إبان ازدهار مملكة لحيان وسيادتها على المنطقة لتخزين المياه، وقد تكون له علاقة بماء الطهور الخاص بالطقوس الدينية المرتبطة بمعبد (ذو غيبة) المعبود الرئيس لشعب مملكة لحيان.

٣ ـ الميزاب على هيئة رأس الأسد:

عثر الباحثان الفرنسيان جوسين وسافيناك على ميزاب حجري بشكل الأسد في أطلال أحد المعابد في موقع دادان (الخريبة)[١]، ومن المرجح أن هذا الميزاب كان مثبتاً على سطح المعبد لتصريف مياه السيول. ويسترعي الانتباه أن ملامح وجهه وتفاصيل فمه وأنيابه جاءت على الطراز المتبع في فنون الآشوريين، وفنون الحيثيين في عصرهم الإمبراطوري. وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من الحليات المعمارية ذات الوظيفة المحددة، ظهرت أيضاً في العمارة المصرية القديمة، وخصوصاً في معابد الأسرة الخامسة التي حكمت من عام ٢٤٩٤ ـ ٢٣٤٥ق.م تقريباً. ومن أمثلته ما عُثر عليه في المعبد الجنائزي للملك أوسركاف، أول ملوك هذه الأسرة في جبانة سقارة، ثم في معبد الشمس الذي أنشأه الملك (ني أوسر رع) في منطقة (أبو غراب) شمالي سقارة[٢]، ثم وجدت ميازيب تصريف المياه الزائدة عن أسطح المعابد كذلك من عصر الأسرة الثانية عشرة (حكمت من عام ١٩٩١ وحتى عام ١٧٨٦ قبل الميلاد تقريباً)، ومن أمثلتها أيضاً ما وجد في مقصورة مواكب آمون التي أنشأها الملك سنوسرت الأول في الأقصر والمعروفة باسم المقصورة البيضاء[٣]، وقد استخدمت مثل هذه الميازيب في المنشآت والمعابد في بلدان أخرى متعددة من الشرق القديم، حيث انتشرت في عمائر الأنباط الدينية، فلقد عثر على ميازيب أخرى بالهيئة نفسها في معبد خربة التنور وكذلك في موقع قصر الربة.[٤]

٤ ـ التماثيل:

كشفت المسوحات الأثرية في الجزء الواقع شمال الحوض الحجري والمعروف محلياً باسم (محلب الناقة) عن تمثالين بالحجم الطبيعي تقريباً، نحتا من الحجر[٥]. وتظهر عليهما ملامح فنون النحت اللحيانية التي عرفت في حاضرة دادان القديمة إبان ازدهارها، ويعكس نحت هذين التمثالين ـ كما تظهر هيئتاهما وكثير من تفاصيلهما ـ مزيجاً من الملامح الفنية المحلية والتأثيرات الشائعة ـ آنذاك ـ في مناطق الشرق الأدنى القديم، حيث تتجسد في الوقفة الصلبة للتمثال وارتدائه مئزراً قصيراً، فضلاً عن النظرة الحادة، والتصاق الذراعين

(١) Op. Cit., Jaussen, A. Savignac, Mission archéologique, Pl. XXVI.

(٢) انظر الصورة لميزاب الماء بشكل الأسد من هذا المعبد عند: إسكندر بدوي، *تاريخ العمارة المصرية القديمة*، ترجمة: هيئة الآثار المصرية، مشروع المئة كتاب ـ رقم ١٥، (القاهرة: ١٩٨٨م)، جـ١، شكل ٣٧٢.

(٣) Smith, W. S. the Art and Architecture of Ancient Egypt, 2ed.,London: 1965, Fig. pp. 40, 95.

(٤) فهد بن سليمان بن حمد السليم، «الزخارف المعمارية النبطية: التصنيف والمعاني»، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم الآثار والمتاحف، (الرياض: ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٣م)، ٩٥.

(٥) Op. Cit., Jaussen A. Savignac, Mission archéologique, Pl. XXX – XXXI.



الحيوانات الخرافية المنحوتة على إحدى المقابر في الخريبة



تمثال من الحجر يعود للفترة اللحيانية في العلا

بمحاذاة الجانبين واليدين المقبوضتين، وتقدم القدم اليسرى بخطوة واحدة على القدم اليمنى. وتجدر الإشارة إلى أنه مع مرور الوقت اتجهت خطوط نحت التماثيل - وخصوصاً خلال العصر الهلينستي - إلى الليونة والتحرر من الخطوط الجامدة، حتى طغى عليها بعد ذلك طابع الحيوية والحركة الظاهرة[١]، وربما يكون ذلك بتأثير من مدرسة فن النحت اليونانية التي تحولت منذ القرن الخامس قبل الميلاد من طابع الجمود إلى طابع التحرر.

وسبق أن عثر جوسين وسافيناك في العلا على تمثال لحياني آخر، يكاد يكون كاملاً بجسده ورأسه، عثر عليه وسط ركام خرائب المنطقة[٢]، وعلى الرغم من الطابع العام للتمثال المتأثر بأسلوب مدرسة فن النحت المصرية القديمة بشكل جزئي، ولاسيما في الوقفة ونسب الجسم وأغلب تفاصيل المئزر، إلاّ أن ملامح الوجه وبخاصة منطقة العينين والحاجبين تظهر تأثيرات من فنون منطقة وادي الرافدين، ما يؤكد دور العلا بوصفها نقطة التقاء بين حضارات منطقة الشرق القديم.

لقد نشر كل من المزروع ونصيف[٣] ثلاثة أجزاء من تماثيل أخرى صغيرة نحتت من الحجر الرملي، تراوح ارتفاعاتها بين ١٦ و٢١سم، بالإضافة إلى أربعة رؤوس لتماثيل، عثر عليها فوق جبل أم الدرج الواقع في الجهة الغربية من الوادي المواجه لجبل الخريبة بمنطقة العلا[٤]، وقد رجح الباحثان وجود معبد قديم في هذا الموقع، كرس للمعبود اللحياني (ذو غيبة)، أحد المعبودات الرئيسة لدى اللحيانيين.

كما تناول الباحثان في الدراسة نفسها بعض الآثار التي عُثر عليها سابقاً في موقع الخريبة، حيث كانت التماثيل وبقاياها والآثار الأخرى - فيما يرجح - تتبع للمعبد الرئيس في موقع الخريبة، دادان القديمة، إذ يذكر معبود اللحيانيين (ذو غيبة) في نقوش

(١) لطفي عبدالوهاب يحيى، اليونان: *مقدمة في التاريخ الحضاري*، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٩م)، ٢٨٠ - ٢٨٩.

(٢) Op. Cit., Jaussen and Savignac, Mission archéologique, XXX-XXXI.

(٣) Hamad, Al-Mazroo, I. and Abdallah A. Nasif, «New Lihyanite Sculptures from Al-Ula , Saudi Arabia». Ages, vol.7, part 2, (1992), pp 27 - 41.

(٤) Op. Cit. Al-Mazroo & Nasif, «New Lihyanite Sculptures» Ages, vol.7, part 2, p27.

تأسيسية كتبت بالخط اللحياني على بعض الكسر الحجرية التي كانت تشكل أجزاءً من أحجار بناء المعبد[١]، وكشف في موقع دادان (الخريبة) كذلك على عدد من الأجزاء الأخرى العلوية والسفلية من التماثيل الحجرية مختلفة الأحجام، إلى جانب أعداد غير قليلة من أقدام التماثيل الحجرية المحطمة[٢].

وتظهر هيئات بعض التماثيل وأوضاعها التي قام المزروع ونصيف بدراستها، تشابهاً واضحاً مع تلك التماثيل التي كشف النقاب عنها في موقع دادان (الخريبة) (شمال الحوض)، وقد تعرف عليها الباحثان في الوقفة وشكل الشعر، وغطاء الرأس، وبعض تفاصيل الملامح، ومحاذاة الذراعين لجانبي الجسم، فضلاً عن بقايا عمود الظهر للتمثال، وقد رجحت دراسة المزروع ونصيف لتماثيل أم الدرج أنها تحمل طابع مدرسة فنية محلية، سواء في تشكيل خطوط الجسم أو في بعض التفاصيل ذات الصبغة المحلية، وتجدر الإشارة إلى أن أحد تماثيل أم الدرج كتب عليه نقش لحياني يذكر اسم شخص يدعى (عيذ منات)، واقتران اسم مقدم التمثال باسم المعبودة العربية القديمة (منات) قد يرجح وجود مجموعة من المعابد كانت على قمة جبل أم الدرج مكرسة لعبادة عدد من المعبودات المحلية التي انتشرت عبادتها عند اللحيانيين خلال فترة ازدهارها في القرون الخمسة قبل الميلاد.

ويبرز من بين التماثيل التي كشف النقاب عنها في دادان ذلك التمثال الحجري على هيئة رجل، يتمنطق بحزام ثبت به من الأمام، في حين اتشح جسمه بوشاحين ضيقين متصلين أحدهما بالآخر من الكتف إلى الخصر، وزين عنقه بما يشبه القلادة، كما عبر الفنان عن استدارة الوجه والعينين والأنف بخطوط تجريدية[٣].

وتبدو التأثيرات الآشورية والبابلية أو المصرية القديمة واضحة[٤] على التماثيل اللحيانية في دادان، خصوصاً خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، ومرد ذلك يعود إلى اتصال اللحيانيين مع سكان بلاد الرافدين ومصر آنذاك[٥].

٥ ـ موائد القرابين الحجرية:

ترتبط المذابح وموائد القرابين الحجرية بالطقوس الدينية السائدة آنذاك، فقد كان بعض منها يستخدم لإراقة القرابين اللازمة للمعبودات التي تقدم من أتباع المعبود تقرباً ووفاءً للنذور، أو تُقَدَّم في المقابر لأرواح الموتى. وتنتشر ظاهرة استخدام موائد القرابين في جميع مناطق الشرق القديم؛ فقد عُثِرَ على مجاميع متنوعة منها في جنوب الجزيرة العربية[٦] وشرقها، وبلاد الرافدين ومصر وبلاد الشام[٧]. أما في العلا القديمة فقد عثر على عدد من المجامر الحجرية، بعضها بسيط ويأخذ شكل إناء مربع الشكل، وبعضها الآخر كبير الحجم نحت على هيئة أعمدة دائرية مزخرفة بأشكال حيوانية، ويعلوها حوض المجمرة[٨]، وفي بعضها يحمل حوض المجمرة نقوشاً تذكر اسم صاحبها واسم المعبود متلقي المجمرة وسبب تقديمها له[٩]. وكشف عن مجموعة من المذابح الحجرية في أمكنة أثرية متفرقة، بعضها محفوظ إلى اليوم في متحف العلا والمتحف الوطني بالرياض، وبعضها الآخر أعاد أهالي العلا استخدامه لبناء منازلهم الطينية في حي

(١) Op. Cit. Al-Mazroo, & Nasif, «New Lihyanite Sculptures» Ages, vol.7, part 2, pp 27 - 28.

(٢) Op. Cit., Caskel, Lihyan und Lihyanisch, p 56.

(٣) Deputy Ministry of Antiquities and Museums, An Introduction to Saudi Arabian Antiquities, 57. Riyadh: 1977/1397.

(٤) Op. Cit., Caskel, Lihyan and Lihyanisch, 57; P.J. Parr, "Aspects of the Archaeology of North West Arabia in the First Millennium BC". In: L´Arabie preislamique et son Environement Historique et Culturel, T. Fahd (ed.), Leiden, 1989, pp 62, 65.

(٥) سعيد بن فايز السعيد، *العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر*، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٣م)، ٦٣ ـ ١٣٣.

(٦) منير عبدالجليل العريقي، *الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم: من ١٥٠٠ ق.م حتى ٦٠٠م*، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢م)، ٢٧٣ ـ ٢٩٧.

(٧) Maragten, M. Typen altsuedarabischer altaere, FS W.W. Mueller, 171 ,Wiesbaden ,1994.

(٨) حسين بن علي أبو الحسن، *نقوش لحيانية من منطقة العلا: دراسة تحليلية مقارنة*. ط١، (الرياض: وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م)، ٣٦٦.

(٩) المرجع السابق، ٤٨.



مائدة قرابين حجرية من موقع أم درج

الديرة، وعلى ما يبدو أنهم جلبوها من موقع دادان (الخريبة)، مثلها مثل كثير من القطع الحجرية التي نزعت من مواقعها الأصلية لبناء البيوت الطينية الحديثة في العلا[١].

وعُثِرَ في حي الديرة وسط العلا على عدد من المذابح الحجرية التي استخدمها الأهالي: إما أحجاراً لبناء جدران البيوت، وإما زخرفة معمارية لتزيين مداخل الأبواب الخارجية[٢]، ويتشكل كل مذبح على هيئة مستطيل يخرج منه امتداد مستقيم من وسط أحد ضلعيه الطويلين، في حين فرّغ وسط المستطيل ليكون أشبه بالحوض غير العميق، وشقت قناة وسط الامتداد المستقيم لإخراج ما زاد من سوائل الإراقة التي كانت تسكب على المذبح لتكريسها للمعبودات (Libation's Water). ويحمل بعضها كتابة بخط المسند، ما يعني أن هذه المذابح من عمل المعينيين الذين استوطنوا واحة العلا إبان ازدهارها خلال القرون الخمسة السابقة للميلاد، ويحمل بعضها الآخر كتابات بالخط الداداني. وعثر في مجمع المعابد المشيد على قمة جبل أم الدرج على أشكال أخرى من المذابح الحجرية بأشكال مختلفة، منها ما يأخذ شكل المربع، ومنها ما هو نصف دائري، وبعضها نحت بشكل دائري وسط حجر رملي مربع الشكل[٣].

٦ ـ فخار دادان:

أفادت إحدى الدراسات[٤] ـ فيما يتعلّق بالكسر الفخارية من موقع دادان (الخريبة) والمواقع المحيطة به ـ التي أجراها على مجموعة من الأواني والكسر الفخارية ـ عثر عليها على سطح الموقع المسمى (قلعة بئر وطيف)، على بُعد نحو ٥٠٠ م من دادان (الخريبة) ـ عن وجود سمات تشابه بينها وبين البقايا الفخارية الملتقطة من موقع السبلة في محافظة السيح (الخرج)، وبما يشير إلى أساليب صناعة طرز مشتركة جمعت بين فخار الإقليمين: الشمالي الغربي والأوسط من المملكة العربية السعودية في عصور ما قبل الإسلام.

وأشار الغزي في هذا الصدد إلى دراسات كل من البعثتين: الكندية والبريطانية، ودراسات أخرى تالية لها لكسر فخارية من دادان (الخريبة)، ترجع إلى عصور ما قبل الإسلام، وتفيد باحتمالية تأريخها على وجه الإجمال بالفترة الممتدة بين القرن العاشر أو التاسع وحتى القرن الأول قبل الميلاد[٥]، وقد خلص الغزي من ذلك إلى أن تأريخ المجموعة الفخارية من قلعة (بئر وطيف) يرجع إلى فترة النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، وذلك بناءً على دراسته المقارنة لما يماثلها من فخار الإقليم الشمالي الغربي من مواقع قريّة، وتيماء، والحجر وغيرها[٦].

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٨٤.

(٢) الأنصاري، عبدالرحمن، وحسين بن علي أبو الحسن. العلا ومدائن صالح، مرجع سابق، ٣١.

(٣) انظر: أبو الحسن، حسين. نقوش لحيانية، مرجع سابق، الصور ٤ ـ ٧، ٣٦٦ ـ ٣٦٨.

(٤) عبدالعزيز بن سعود الغزي، «سمات مشتركة بين فخار وسط الجزيرة العربية وشمالها الغربي»، *العصور*، دار المريخ للنشر، مج٨، جـ٢، (لندن: ١٤١٤ هـ/١٩٩٣م)، ٢٥٥، ٢٦٥.

(٥) المرجع السابق، ٢٥٧، ٢٥٨.

(٦) المرجع السابق، ٢٥٩.

ب ـ الدلائل الاستيطانية في موقع خيف الزهرة:

كشفت بعثة إدارة الآثار والمتاحف عام ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨م موقعاً استيطانياً يعرف باسم (خيف الزهرة)، يقع عند نهاية مصب وادي المعتدل على مسافة كيلو متر واحد شمالي العلا. ويؤرخ أحدهم فترة الازدهار الرئيسة لهذا الموقع بمنتصف الألف الأول قبل الميلاد، أي خلال فترة سيادة المملكة الدادانية في العلا[١].

وقد كُشف بالموقع عن بقايا سور حجري ضخم مشيد من كتل الأحجار الرملية، يصل عرضه إلى نحو ٣م، وكانت تقوم عليه بعض الأبراج الكبيرة، ذات الأغراض الدفاعية غالباً، كما يتضح ذلك من بقايا أساساتها التي كشف عنها شمال الموقع وشرقه[٢]، ويحيط السور بمستوطنة زراعية كبيرة، عثر فيها على بقايا منازل جدرانها مشيدة من الطوب اللبن فوق أساسات حجرية، كما كُشف بينها عن بعض بقايا المواقد وأمكنة إعداد الطعام[٣].

وتشير الآثار في موقع خيف الزهرة إلى أنه كان مستوطنة زراعية كبيرة بكثافة سكانية عالية، وقدرة إنتاجية ضخمة؛ فالدراسات المبدئية ترجح أنه مزرعة غزيرة الإنتاج، تمد واحة دادان القديمة باحتياجاتها من الغذاء.[٤] فقد كشف في الموقع عن نظام ري متطور يعتمد على نظام القنوات، وسد حجري ضخم تتفرع منه قناتان كبيرتان للتحكم في مياه الري بالمنطقة، وشبكة كبيرة من القنوات الفرعية عملت لاستيعاب مياه الأمطار والسيول المتدفقة عبر وادي المعتدل وتنتظم مساراتها عبر مجموعة من بوابات التحكم الفرعية، وتؤمن تدفق مياه السيول إلى المزارع بصورة متوازنة، وتشير الدلائل الأثرية في الموقع إلى وجود وحدات من مساحات زراعية شاسعة تتم في الغالب عن ملكيات عائلية قبلية أو جماعية، وليست فردية، كانت تخضع في إدارتها وتنظيماتها إلى التعليمات الواردة من دادان (الخريبة) العاصمة، ولعل تلك المنشآت المعمارية التي كشف النقاب عنها بالقرب من الموقع نفسه تعزز من كونها مباني إدارية أنشئت بالقرب من الموقع لتخدم أغراض إدارة المشروعات الزراعية الضخمة في أرجاء الموقع[٥].

ج ـ المعثورات الأثرية في موقع أم الدرج:

يقع جبل أم الدرج عند المدخل الجنوبي لوادي ساق[٦]، في الجهة الشمالية الغربية من العلا مقابل جبل الخريبة، ويوجد في الجبل درج منحوت يصعد حتى أعلى الجبل، وقد عثر بالموقع على عدد من بقايا التماثيل اللحيانية وبقايا الآثار الأخرى[٧]، ما يعزز فرضية وجود ورشة محلية للنحت في موقع أم الدرج، ووجود عدد من المعابد فوق قمة الجبل. ويؤرخ لأغلب الآثار التي عُثر عليها في جبل أم الدرج بفترة ما بين القرن الخامس وحتى منتصف القرن الأول قبل الميلاد.

وعُثر فوق قمة جبل أم الدرج على بقايا معبد كبير، بُني بكتل من الحجر الرملي الأحمر المثبتة بالملاط الطيني، يبلغ طول أحد مرافقه نحو ١٥م وعرضه ما يقرب من ١١م، ومن المرجح أنه مكرس للمعبود الرئيس لمملكة لحيان (ذو غيبة)، فضلاً عن العثور على خزانين دائريين محفورين في الصخر، ومبطنين بالجص من الداخل، وكذلك على

(١) بودن، جارث، «موقع خيف الزهرة وطبيعة السيادة الدادانية بواحة العلا»، أطلال، مرجع سابق، ع٣، ٧٣ ـ ٨٣.

(٢) المرجع السابق، ٧٥، ٧٦، ٧٩.

(٣) المرجع السابق، ٧٥ ـ ٧٩.

(٤) المرجع السابق، ٨٠ ـ ٨٣.

(٥) المرجع السابق، ٧٧، ٧٨.

(٦) Abdalla Nasif Al-'Ula: An Historical and Archaeological Survey with Special Reference to its Irrigation System,Riydh: King Saud University, 1988, P. 24.

(٧) Op. Cit. Al-Mazroo & Nasif, "New Lihyanite Sculptures", Ages, vol.7, part 2, pp. 27 - 41.



الدرج المنحوت على سفح جبل أم درج في العلا القديمة(*)

عدد من الكوات أو النيشات المنحوتة في الصخر، والمخصصة لوضع التماثيل وأنصاب المعبودات على الأرجح[١]، كما عثر في الموقع على عدد من أجزاء التماثيل مختلفة الأحجام، وبعض المذابح وموائد القرابين ذات الأشكال والطرز والأبعاد المتباينة، والمنقوش على بعضها نقوش لحيانية أو معينية تتحدث عن بعض المعبودات المحلية وصنوف القربان المقدمة لها وكمياتها، وكذلك عُثر على بعض المجامر القديمة المصنوعة من الحجر الرملي[٢]، إلى جانب كمية ضخمة من بقايا الأواني الفخارية ذات الزخارف المتنوعة بين هندسية ونباتية وحيوانية[٣].

سادساً ـ الرسوم الصخرية لآثار ما قبل الإسلام:

تتميز الجزيرة العربية إجمالاً بكثرة الرسوم الصخرية المنتشرة على سفوح الجبال والمرتفعات،تلك الرسوم التي ترتبط بالنقوش وتشكل جزءاً من موضوعاتها، إذ يلاحظ أن الكاتب أو الفنان العربي القديم لم يكتف فقط بالتعبير عن أفكاره من خلال الصور الصخرية وحدها، بل أضاف إليها نقشاً يعرِّف بها ويحدد ملكيتها، فارتبطت بذلك الصورة مع الحرف، وأصبح كلاهما مكملاً للآخر وشارحاً له.

وتمثل الرسوم الصخرية المرافقة للنقوش مصدراً مفيداً في دراسة المجتمعات العربية القديمة، ففيها تتجسد ملامح النشاط الاقتصادي، وينعكس من خلالها بعض أوجه الفكر الاجتماعي والديني، ليس ذلك فحسب، بل إن أهمية الرسوم الصخرية تتعدى ذلك إلى أنها في كثير من الأحيان تعين على شرح مضمونات النقوش، خصوصاً تلك التي ترد فيها مسميات لحيوانات أو خلافه، ما يصعب التعرف على دلالات معانيها في ضوء المعاجم اللغوية للغات الشرق القديم، بسبب عدم تدوين تلك المسميات، أو انقراض استخدامها وتوقف تواتره، وفي أحيان أخرى بسبب تطور دلالات معانيها من المعنى الخاص إلى العام، وبُعدها عن الوضع الأصلي لمعنى الكلمة.

كشفت المسوحات الأثرية في الحناكية، وفي الصويدرة، وخيبر، وينبع والعلا، والحجر[٤] عن نماذج مختلفة من الرسوم الصخرية تتفاوت في أسلوب رسمها، فبعضها يتبع مدرسة الفن الواقعية وروعي فيها النسب الطبيعية، وبعضها الآخر رسم بأسلوب تجريدي، كما جاءت تفاصيلها التشريحية متفاوتة أيضاً، ولم يراع في بعضها منظور التناسب والحركة، أما موضوعاتها فهي أيضاً متنوعة، ومنها:

(١) حسين بن علي أبو الحسن، «تقرير مبدئي عن المسح الأثري لموقع أم الدرج بمحافظة العلا»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، ع١٦، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢١ هـ/٢٠٠١م)، ٢٧٣.

(٢) المرجع السابق، ٢٧٣، ٢٧٤.

(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٢٠٠، ٢٠١.

(٤) عبدالرحمن كباوي، وآخرون،«حصر وتسجيل الرسوم والنقوش الصخرية: الموسم الرابع ١٤٠٨ هـ»، *أطلال*، إدارة الآثار والمتاحف، ع١٢، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤١٠ هـ/١٩٨٩م)، ٥٣، ٥٤، ٥٦ ـ ٥٩.

(*) المصدر: وكالة الآثار والمتاحف.

أ ـ الرسوم الصخرية الآدمية:

نفذت الرسوم الآدمية في منطقة المدينة المنورة وفق الأسلوب الشائع في أنحاء الجزيرة العربية، أي وفق أسلوبي النحت البارز والرسم التخطيطي، حيث يصور الرسام الأشخاص بأوضاع مختلفة، بعضها واضح الملامح والتفاصيل التشريحية للجسد، وبعضها الآخر صور وفق أسلوب مبالغ فيه، كأن يكون حجم الشخص كبيراً، وتتفاوت فيه نسب حجم الرأس عن بقية أجزاء الجسد، أو أن يكون هناك طول في حجم الأيدي أو الأرجل مما لا يتناسب وبقية أجزاء الجسم.



رسوم صخرية من العلا

ب ـ الرسوم الصخرية الحيوانية:

تحتل الحيوانات، مثل: الإبل والنعام والأبقار والوعول والخيول، مساحة في خيال رسام المنطقة آنذاك، وبخاصةٍ الإبل بأنواعها (الجمل والناقة والبكرة) حيث يندر وجود موقع للرسوم الصخرية في منطقة المدينة يخلو من رسوم للإبل فيه، وهذا أمر ليس بالغريب، فالعلاقة وثيقة بين العربي وجمله، ليس فقط لما يؤديه الجمل من دور فعّال في حياته اليومية، بل لأن العربي يكنُّ له احتراماً وتقديراً بلغ حد التقديس[1].

لقد جُسدت الرسوم الصخرية الحيوانية وفق أساليب فنية مختلفة، فبعضها رسم وفق أسلوب المدرسة التخطيطية، تلك التي تظهر من خلالها ملامح الحيوانات المصورة على هيئة خطوط مجردة، دون إبراز لتفاصيل أجسادها الدقيقة، وبعضها الآخر نفذ وفق أسلوب النحت البارز، أي أن يقوم الفنان بنحت جسد الحيوان نفسه على سطح الصخر مبرزاً تفاصيل جسده كاملة. ويظهر على بعض رسوم الحيوانات مراعاة الرسام النسب التشريحية أحياناً وإغفالها أحياناً أخرى، كذلك الأمر بالنسبة إلى مراعاة المنظور الذي يحاول الفنان في بعض الرسومات إبرازها بمنظور مزدوج الزاوية، وكذلك الحال في محاولة الرسام إبراز حال الحركة على الصورة.

ج ـ الرموز:

اشتملت مواقع الرسوم الصخرية في المنطقة على مجموعة من الرموز التجريدية، من بينها الخطوط المتعامدة والمتقاطعة أو العلامات الهندسية، بعضها ربما يتضمن دلالات دينية، وبعضها الآخر يشتمل على دلالات اجتماعية، مثل تلك المجموعات المختلفة من الوسوم التي تخص بعض القبائل أو الأفراد المستوطنين ـ آنذاك ـ في المنطقة.

د ـ الآلات الوترية:

يوجد في منطقة العذيب الواقعة على مسافة ٣كم شمال غربي العلا على صخور

(١) حمد محمد بن صراي، «الإبل في بلاد الشرق الأدنى وشبه الجزيرة العربية»، *بحوث تاريخية*، الإصدار الثالث. ط١، (الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، ١٤٢٠ هـ)، ٤٣.



نقوش ورسوم صخرية لآلات وترية في جبل عكمة

جبل عكمة رسم نادر لآلة موسيقية وترية، وهذا النوع من الآلات الوترية منتشر في عدد من مناطق الشرق القديم، فقد كانت مستخدمة في بلاد الشام منذ الألف الثالث قبل الميلاد، حيث صورت آلة وترية مشابهة بصحبة مهاجرين من منطقة سورية القديمة إلى مصر خلال زمن الأسرة الثانية عشرة التي حكمت من عام ١٩٩١ - ١٧٨٦ق. م تقريباً، وذلك في المناظر الجدارية للمقبرة الصخرية للنبيل خنوم حوتب أحد حكام إقليم الوعل في مصر الوسطى[١] (منطقة بني حسن بمحافظة المنيا حالياً). إن هذه الآلة الموسيقية بعينها، وبهيئتها نفسها وتفاصيلها المصورة في نقوش جبل عكمة لا تزال تستخدم في الأغاني الشعبية والفولكلورية في منطقة المدينة المنورة حتى الوقت الحاضر، ويطلق عليها اليوم اسم (السمسمية)، وذلك بالمقارنة مع نعومة حبات السمسم، لأن صوتها ناعم ورقيق، ويختلف عن الصوت القوي للآلات الموسيقية الوترية الأخرى كالعود والطنبور مثلاً.

سابعاً ـ النقوش:

اهتدى سكان الجزيرة العربية منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد إلى اختراع نظام للكتابة مكنهم من حفظ معاملاتهم الخاصة والعامة على هيئة وثائق كتبت على مواد مختلفة، من أبرزها ما كتب على الأحجار وقطع المعادن، ومنطقة المدينة المنورة بفضل موقعها المميز وسط التفاعلات الحضارية في جزيرة العرب، وبحكم اتصالها بالأمم والشعوب خارجها، كانت من بين المناطق التي انتشرت فيها الكتابة في وقت مبكر، ففي واحة دادان (العلا) كشف عن أقدم نماذج للكتابة في المنطقة، فقد عثر في أمكنة متفرقة من العلا والحجر (مدائن صالح) على مجموعات من النقوش بالخط الداداني. ومن أهم النقوش الدادانية المعروفة وأبرزها حتى الآن نقشان جاء فيهما ذكر لملكين من ملوك الدولة الدادانية، الأول عثر عليه مكتوباً على صخور قمة جبل إثلب في الجهة الشرقية من مدائن صالح، ويتحدث عن الملك الداداني (متع إل)[٢]، أما الثاني فقد كشف عنه وسط أنقاض عاصمة الدادانيين (الخريبة حالياً)، وفيه إشارة إلى الملك الداداني (كبر إل بن متع إل)[٣].

استمر سكان العلا في كتابة معاملاتهم الخاصة والعامة حتى بعد تغير التركيبة السياسية فيها، على إثر تمكن قبيلة لحيان من السيطرة على زمام الأمور في القرن الخامس قبل الميلاد وتأسيسها مملكة حملت اسمها، فقد واصل اللحيانيون الكتابة بالخط الداداني ولم يطرأ عليه أي تغير يذكر، خصوصاً خلال مراحله المبكرة. وإلى فترة السيادة اللحيانية يعود كثير من النقوش التي كشف عنها مؤخراً

(١) Pritchard, J. B. (ed.), the Ancient Near East, an Anthology of Texts and Pictures, Princeton: University Press, 1958. Fig. 2.

(٢) أبو الحسن، حسين بن علي. نقوش لحيانية، مرجع سابق، ٢٦١.

(٣) سعيد بن فايز السعيد، وعبدالله بن محمد المنيف، *حضارة الكتابة*. ط١، (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢٣ هـ)، ٤٠، ٤١.

في عدد من المواقع الأثرية في العلا، فقد كشف عن مجموعات من النقوش اللحيانية في جبل أم الدرج ، دنن، وأبو عود[١] وجبل عكمة[٢] الواقعة في الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من مدينة العلا. وتعد مجاميع النقوش المكتشفة في هذه المواقع أرشيفات مهمة للنقوش اللحيانية، حيث أماطت مضموناتها ومعطياتها الحضارية اللثام عن عدد من جوانب الحياة الاقتصادية والدينية في مملكة لحيان، وسلطت الضوء على نشاط بعض ملوكها، كما قدم بعض من هذه النقوش معلومات قيمة عن الحياة العامة لسكان دادان القديمة، وعلاقاتهم الخارجية مع جيرانهم آنذاك. فقد تكررت في النصوص إشارات إلى قيام اللحيانيين بتقديم قرابين وعشور عن نتاج زروعهم وأموالهم وممتلكاتهم كانت تؤدى من المتعبدين إلى معبد ذي غيبة في دادان[٣]. وقد أكدت هذه النقوش أن المؤسسة الدينية اللحيانية كانت تتبع نظاماً دقيقاً في إدارة ممتلكاتها، وجباية العشور من الشعب، وقد عينت أشخاصاً يطلق عليهم في النقوش اسم (سلح)، للرجل،أو (سلحت)[٤] للمرأة، فيتعين عليه أو عليها مسؤولية جباية العشور والالتزامات الضريبية المفروضة من المعبد على الرعية تجاه المعبد، فضلاً عما ثبت فيها من وجود شعيرة الزيارات المقدسة لدى اللحيانيين، حيث يقصدون معابد أربابهم في مواسم محددة، ويتحلقون حولها في مظاهر من التعبد وأداء واجباتهم الدينية على هيئة طقوس محددة تجاه معبوداتهم الوثنية[٥]، كما اتضح من خلالها كثير من الاتجاهات والممارسات الدينية والشعائرية الأخرى تجاه الأرباب المحلية والمعابد التي كانت تنتشر بكثرة إبان ازدهار مملكة لحيان.



أحد النقوش في العلا

انتشر فيها أيضاً ـ إضافة إلى انتشار الكتابة بالخط الدادانـي في أجزاء من المنطقة ـ استخدام الخط الثمودي[٦] الذي كان أوسع انتشاراً من الخط الداداني، وتركز استخدامه في محيط واحة العلا، فقد عثر على نقوش ثمودية كثيرة في أرجاء متفرقة من المنطقة، أي في المدينة نفسها، وفي خيبر، والصويدرة والحناكية وينبع، وكذلك في العلا، وقد كان استخدام الخط الثمودي في المنطقة متزامناً مع الخط الداداني في منطقة العلا، خصوصاً خلال المراحل المتأخرة من عمر الخط، ما يعني أن سكان المنطقة كتبوا بالخطين معاً خلال عصور ما قبل الإسلام، وإن كان الخط الداداني قد قلَّ استخدامه، وقد يكون انتهى، مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد، أما الخط الثمودي فقد استمر أداة للتعبير عن ثقافة المنطقة حتى القرن الرابع الميلادي.

(١) أبو الحسن، حسين. نقوش لحيانية من منطقة العلا، مرجع سابق، ٢٧ ـ ٢٥٣.

(٢) حسين بن علي أبو الحسن، *قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا*. ط١، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٨ هـ/١٩٩٧م)، ٣٨٨، ٣٨٩؛ Sima, A. Die Lihyanischen Inschriften von al-'Udayb (Saudi Arabien). (Epigraphische Forschungen auf der arabischen Halbinsel 1, 5-47., .Berlin, Deutsches Archaeologisches Institut. 1999.

(٣) أبو الحسن، حسين. قراءة لكتابات لحيانية، مرجع سابق، ٣٨٨، ٣٨٩.

(٤) أبو الحسن، حسين. نقوش لحيانية، مرجع سابق، ٣، ١٥، ٦٤، ٨٩.

(٥) المرجع السابق، ٣٩١.

(٦) السعيد، سعيد بن فايز، وعبدالله المنيف. حضارة الكتابة، مرجع سابق، ٣٦، ٣٧.



جبل أم درج

ومع تزايد النفوذ النبطي في شمال غرب الجزيرة العربية خلال القرنين الثاني والأول قبل الميلاد انتقل إلى المنطقة خط ثالث هو الخط النبطي الذي كشف عن نقوشه في عدد من المواقع الأثرية في المنطقة، وقد تركز استخدامه في الحجر (مدائن صالح) [١]. كما عثر في العلا، على طول الطرق التجارية القادمة من جنوب الجزيرة العربية عبر المنطقة، على مجموعات من النقوش المكتوبة بخط المسند الذي شاع استخدامه منذ القرن التاسع قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادي في مناطق جنوب الجزيرة العربية. ففي العلا عثر على مجموعات كثيرة من النقوش التي كتبها أفراد الجالية المعينية الذين دفعتهم أعمالهم التجارية إلى الاستيطان في دادان (العلا) خلال ازدهار مملكتهم في جنوب الجزيرة العربية[٢].

(١) سليمان بن عبدالرحمن الذييب، *نقوش الحجر النبطية*. ط١، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٩ هـ)، ٢ ـ ٥.

(٢) Garbini, G. Iscrizioni sudarabiche, Vol. I. Iscrizioni minee Napoli Pubblicazioni del Seminario di Semitistica, Ricerche 10, 1974.

الفصل الثاني

آثار العصور الإسلامية

أولاً الآثار الثابتة

ثانياً الآثار المنقولة

ثالثاً المواقع الأثرية

إعداد

الدكتور مشلح بن كميخ المريخي

أستاذ علم الآثار الإسلامية المشارك

كانت المدينة المنورة تعرف باسم (يثرب)، وذلك قبل هجرة الرسول ﷺ إليها، فقد ورد اسمها بهذه الصيغة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾[١]، وتجدر الإشارة إلى أن الاسم يثرب ورد في عدد من الكتابات العربية القديمة، مثل النقوش النبطية[٢].

وتُعد يثرب إحدى أهم مدن الحجاز المتحضرة، ومركزاً تجارياً وثقافياً في فترة ما قبل الإسلام، وبلغت أوج مجدها، واكتسبت أهميتها ومكانتها بعد أن خرج النبي ﷺ إليها مهاجراً من مكة، إذ قال صلوات الله عليه وسلامه: «اللهم إنك أخرجتني من أحب أرضك إليَّ فأنزلني أحب أرض إليك»[٣]. وإذا كان تاريخ المدينة زاخراً في فترة ما قبل الإسلام، فإن هجرة الرسول ﷺ قد حولتها إلى (مدينة) بمفهوم حضاري واضح، وانسحب على تسميتها فسميت (المدينة)، وأصبحت مهبط الوحي، وصارت عاصمة الإسلام، ومقراً للخلفاء الراشدين، وإليها تشد الرحال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[٤].

وتُعد يثرب مبتدأ نشأة المدينة الإسلامية وتخطيطها بعد هجرة الرسول ﷺ إليها، وبها وضعت اللبنات الأولى لبذور العمارة الإسلامية وتكويناتها المعمارية الجديدة، وكان المسجد الجامع نواتها، بالإضافة إلى مساجد الصلوات الخمس[٥].

واتسمت المدينة بكثرة أسمائها، فقد أورد السمهودي[٦] أكثر من مئة وخمسة عشر اسماً منها: طابة، طيبة، المباركة، المختارة، مدينة الرسول، دار الإيمان، دار الأبرار، دار الأخيار، دار الهجرة، دار الفتح، قرية الأنصار، ذات النخل، ذات الحرار، بيت رسول الله، سيدة البلدان، جزيرة العرب، أما بالنسبة إلى تسميتها المدينة المنورة فهي تسمية متأخرة ويرجح أنها ترجع إلى العهد المملوكي؛ نظراً لاهتمام سلاطين المماليك بالحرمين الشريفين[٧].

وكانت المدينة ـ بالإضافة إلى مكة المكرمة ـ موضع اهتمام من قِبل الخلفاء والحكام على مر العصور التاريخية، وهو ما ساعد على ازدياد النمو العمراني للمدينة، كما حظيت المنشآت المعمارية بشكل عام، والمسجد النبوي بشكل خاص، بالعناية والرعاية والتجديد والإضافة، ما أخرج هذه المنشآت عن صورتها الأولى[٨].

أسهبت المصادر التاريخية والجغرافية وكتب الرحلات في وصف المنشآت المعمارية بالمدينة المنورة، وأعمال التجديد، والإضافة التي قام بها الخلفاء والسلاطين على مرّ العصور، بالإضافة إلى عمائرهم التي شيدوها فيها من: مساجد، ومدارس، وأربطة، وتكايا، وحمامات، وبرك، وأسبلة، وقصور، ودور، بالإضافة إلى الأسوار والبوابات وغيرها، كما تضمنت هذه العمائر كثيراً من اللوحات الكتابية التأسيسية نقشت بخطوط متنوعة[٩].

ويعد الجزء الواقع ضمن نطاق المدينة المنورة من طريق الهجرة النبوية الشريفة، وما ارتبط بها من أمكنة ومعالم تاريخية أقدم الشواهد الأثرية الإسلامية بالمدينة المنورة[١٠].

وتقسم الآثار الإسلامية بالمدينة المنورة إلى:

(١) الأحزاب، الآية: ١٣.

(٢) سليمان بن عبدالرحمن الذييب، *نقوش جبل أم جذايد النبطية: دراسة تحليلية*. ط١، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٢ هـ)، نقش ٦٣: ٢.

(٣) محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، *المستدرك على الصحيحين، باب: ذكر مناقب الحارث بن هشام المخزومي*، ج١٢.

(٤) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، *سنن أبي داود، باب: في إتيان المدينة*، ج٥.

(٥) أحمد رجب محمد علي، *المسجد النبوي بالمدينة المنورة ورسومه في الفن الإسلامي*. ط١، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م)، ١٩.

(٦) جمال الدين أبو المحاسن السمهودي، *وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى*، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧١م)، ج١، ٨.

(٧) حصة الشمري، «تخطيط المدينة المنورة في العهد النبوي والخلافة الراشدة»، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم الآثار والمتاحف، (الرياض: ١٤٢٤/١٤٢٥ هـ)، ٣٩.

(٨) لمزيد من المعلومات عن اهتمامات الخلفاء والحكام بالمنشآت المعمارية في المدينة المنورة على مر العصور، انظر: صالح لمعي مصطفى، *المدينة المنورة: تطورها العمراني وتراثها المعماري*، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١م)، ١١ ـ ٤٦؛ وانظر أيضاً: الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٩٦ ـ ١٠٦.

(٩) إبراهيم رفعت باشا، *مرآة الحرمين*، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٤ هـ/١٩٢٥م)، ج١، ٤١٤؛ سعد بن عبدالعزيز الراشد، *دراسات في الآثار الإسلامية المبكرة بالمدينة المنورة*. ط١، (الرياض: مؤسسة الحزيمي، ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠م)، ٢١.

(١٠) عن هذا الجزء من الطريق الواقع ضمن النطاق الجغرافي للمدينة المنورة انظر: صالح أحمد العلي، «منازل الطريق بين المدينة ومكة»، *الدارة*، دارة الملك عبدالعزيز، ع٣، (الرياض: ١٩٧٧/١٩٧٨م)، ١٩ ـ ٦٥.

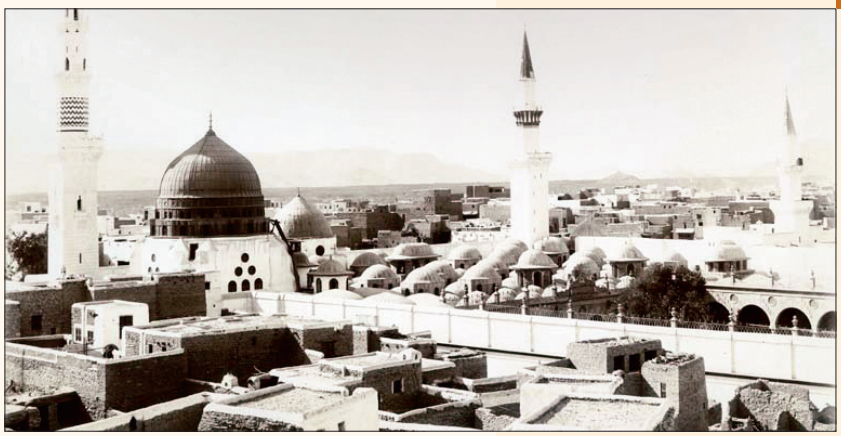

المسجد النبوي الشريف

أولاً ـ الآثار الثابتة:

أ ـ العمارة:

تنقسم العمارة الإسلامية بالمدينة المنورة حسب وظائفها إلى الأنواع الآتية:

- العمارة الدينية، وتشمل: المساجد، والمدارس، والأربطة.
- العمارة المدنية، وتشمل: القصور والمنازل، والحمامات، والأسواق.
- العمارة الحربية، وتشمل: الآطام، والحصون، والأسوار.
- المنشآت المائية، وتشمل: الآبار، والعيون، والسدود، والبرك.

١ ـ العمارة الدينية:

تتمثل العمارة الدينية بما شيد بالمدينة المنورة من مساجد ومدارس وأربطة، وهي على النحو الآتي:

أ) المساجد:

أول ما عني به الرسول ﷺ بعد أن قدم إلى يثرب (المدينة المنورة) هو تأسيس المسجد النبوي الشريف[١]، وقد ألحق به حجرات سكن بضلعه الشرقي، وأصبح هذا المسجد النموذج الأول للمساجد الكبرى[٢]، وخطط بطريقة تجعل تخطيطه يناسب إقامة شعائر الصلاة، بالإضافة إلى أنه المركز الرئيس للمسلمين، فيبحثون فيه جميع أمور دينهم ودنياهم[٣]، كما كان يقوم في بداية عهده بعدد من الوظائف التي تطورت بعد ذلك، وأصبحت لها منشآتها الخاصة مثل التدريس وغيره[٤]، ومن ثمّ صار تخطيط المسجد النبوي الشريف أساساً لتصميم المساجد الجامعة في الأقطار الإسلامية، ولاسيما في القرون الأربعة الأولى من الهجرة[٥]، كما صار من أهم الطرز المعمارية لبناء المساجد في مختلف الأقطار الإسلامية على مرّ العصور التاريخية[٦].

ولم يكن مسجد الرسول أول مسجد بناه الرسول ﷺ في المدينة، فقد سبقه في الوجود مسجد قباء[٧] الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[٨].



مسجد العنبرية

(١) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ١١؛ علي، أحمد رجب محمد. المسجد النبوي بالمدينة المنورة ورسومه في الفن الإسلامي، مرجع سابق، ١٩.

(٢) فريد شافعي، *العمارة العربية الإسلامية: ماضيها وحاضرها ومستقبلها*، (الرياض: جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م)، ٣.

(٣) أحمد إبراهيم الشريف، *دولة الرسول في المدينة*، (الكويت: دار البيان، ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢م)، ٨٦، ٨٧.

(٤) حسني محمد نويصر، *الآثار الإسلامية*، (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، ١٩٩٦م)، ٤١.

(٥) حسن الباشا، *مدخل إلى الآثار الإسلامية*، (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٠م)، ١٠٣.

(٦) شافعي، فريد. العمارة العربية الإسلامية، مرجع سابق، ٣.

(٧) عبدالقدوس الأنصاري، *آثار المدينة المنورة*. ط٣، (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣م)، ٨٠ ـ ٨٥؛ مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ١٦٣ ـ ١٧٨.

(٨) التوبة، الآية: ١٠٨.

وقد انتشرت المساجد حول المسجد النبوي، وصلى ﷺ في معظمها، وحرص الخلفاء والسلاطين على مر العصور التاريخية على الاهتمام بها، وتجديدها، وتوسيعها[١]. وقد ورد في المصادر التاريخية أن الوالي عمر ابن عبدالعزيز، من قِبل الخليفة الأموي الوليد ابن عبدالملك، حدد الأمكنة والمواضع التي صلّى فيها الرسول ﷺ فجددها[٢]. وقد شُيّد على مرّ العصور الإسلامية المتعاقبة عدد من المساجد الأخرى في المدينة المنورة، لعل من أشهرها: مسجد المصلّى، ومسجد أبي بكر الصديق، ومسجد علي بن أبي طالب. وفي منطقة قباء: مسجد قباء، ومسجد الجمعة، ومساجد الفتح مثل: مسجد الفتح، ومسجد سلمان الفارسي، ومسجد عمر بن الخطاب. ومساجد خارج المدينة مثل: مسجد القبلتين، ومسجد الفضيح، ومسجد الإجابة، ومسجد الشجرة، ومسجد السقيا، ومسجد العنبرية، ولعل من أشهر تلك المساجد(*) ما يأتي[٣]:

١) مسجد قباء:

يقع مسجد قباء في منطقة قباء جنوبي المدينة المنورة، وهو أول مسجد بني في الإسلام[٤]. فقد شيّده الرسول ﷺ بمجرد وصوله إلى قباء، وأسسه لبني عمرو بن عوف، وكان أول من وضع حجراً في قبلته، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه إلى جوار حجر الرسول ﷺ، ثم أخذ الناس في البنيان، وهكذا ضرب الرسول الكريم مثلاً للقدوة الحسنة التي أمر بها الإسلام حيث شارك المسلمين في البناء بنقل الحجارة بيده الكريمة[٥].

لقد اهتمّ الخلفاء المسلمون بهذا المسجد لما له من مكانة خاصة عندهم، فهو أول مسجد بناه الرسول مع الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وأورد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكره في القرآن الكريم؛ لذلك قام بترميمه وتجديده وتوسعته الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكذلك والي المدينة عمر بن عبدالعزيز من قِبل الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك الذي عمل على توسعته وزيّنه بالفسيفساء، وشيد له مئذنة، وسقفه بخشب الساج، وأصبح تخطيطه يتألف من صحن أوسط يحيط به أربع ظلل[٦].

لقي مسجد قباء كل الاهتمام والرعاية والتجديد من قِبل المسلمين في العصور التالية، وكان آخر هذه التجديدات في العهد السعودي حيث بلغت مساحته الإجمالية ١٤٤٠م٢، وذلك في عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ عام ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٧م حيث زيد فيه رواق بالجهة الشمالية مع مدخل خاص للسيدات، وهكذا دخلت المئذنة ضمن نطاق المسجد بعد أن كانت بارزة في الركن الشمالي الغربي في السابق[٧]. وأصبح تخطيط المسجد مؤلفاً من: صحن مستطيل



مسجد قباء

(١) سعد بن عبدالعزيز الراشد، *الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية*، الكتاب الثالث، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١٠ هـ/١٩٨٩م)، جـ٢، ١٤٧ ـ ١٥٢.

(٢) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار، مرجع سابق، ٢٣.

(٣) عن هذه المساجد انظر: أحمد بن عبدالحميد العباسي، *عمدة الأخبار في مدينة المختار*، تصحيح: الشيخ محمد الطيب الأنصاري، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، د.ت)، ١٦٧ ـ ١٨٩؛ مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ١٣٥ ـ ٢١٤؛ الأنصاري، عبدالقدوس. آثار المدينة المنورة، مرجع سابق، ٨٠ ـ ١٤٢؛ محمد إلياس عبدالغني، *المساجد الأثرية في المدينة المنورة*. ط٢، (المدينة المنورة: ١٤١٩ هـ/١٩٩٩م)، ٢٥.

(٤) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ١٦٣؛ الأنصاري، عبدالقدوس. آثار المدينة المنورة، مرجع سابق، ٨٠.

(٥) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٣، ٨٠٤؛ أحمد فكري، *مساجد القاهرة ومدارسها: المدخل*، (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦١م)، ١٧٠.

(٦) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٣، ٨٠٩، ٨١٠.

(٧) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ١٦٩، ١٧٠.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب التاسع، (السياحة والتنزه)؛ الفصل الأول.



المسجد النبوي الشريف

يحيط به أربع ظلل، أكبرها ظلة القبلة، وتتكون من ثلاثة أروقة، يقابلها بالجهة الشمالية رواقان، أما الظلتان الجانبيتان (الشرقية والغربية) ففي كلٍّ منهما رواق واحد، وسقفت الأروقة بالقباب، وأما أرضية الصحن والأروقة فمغطاة بالرخام الأبيض[١].

ثم قام الملك فهد بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ بأكبر توسعة للمسجد وذلك كما هو موضح في اللوحة التأسيسية المثبتة في الجهة الغربية من المسجد ونصها: «قال الله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾. بسم الله الرحمن الرحيم: تحت رعاية الملك فهد بن عبدالعزيز وفي عهده الميمون تم بعون الله وتوفيقه الاحتفال بإنجاز مشروع إعادة بناء وتوسعة مسجد قباء بالمدينة المنورة، وذلك في يوم ٢/٢٦ / ١٤٠٦ هـ الموافق ٢٩ /١٠ / ١٩٨٦ م » وأصبحت المساحة الإجمالية ١٣,٥٠٠ م٢.

وقد اتبع في تجديد المسجد وتوسعته التخطيط نفسه أي: الصحن ويحيط به أربع ظلل مسقوفة أيضاً بقباب يبلغ عددها حالياً ٥٦ قبة صغيرة بقطر ٦م، وست قباب كبيرة بقطر ١٢م، بالإضافة إلى ثماني قباب على مداخل المسجد، كما بنيت أربع مآذن في الأركان الأربعة للمسجد متشابهة من حيث الشكل والارتفاع، وكسيت أرضية الصحن بالرخام والجرانيت المزخرف، وغطي الصحن بخيمة كهربائية متحركة لوقاية المصلين من حرارة الشمس[٢]. ثم قامت وزارة الحج والأوقاف سنة ١٤١٣ هـ /١٩٩٢م بتعميره وتجديده وفرشه مع الحفاظ على الطراز المعماري الخاص به؛ وذلك تنفيذاً لتوجيهات الملك فهد ابن عبدالعزيز آل سعود رحمه الله[٣].

٢) المسجد النبوي:[*]

يتوسط المسجد النبوي المدينة المنورة، وهو أول ما شيده الرسول ﷺ بعد أن قدم إلى يثرب (المدينة المنورة)، وكان موقعه مِربداً لغلامين يتيمين في المدينة، هما سهل وسهيل والمربد هو محبس النَّعَم[٤]، كان قد بركت فيه الناقة التي كان يمتطيها الرسول ﷺ حين دخل يثرب أول الهجرة، وابتاعه الرسول وأمر ﷺ بتمهيد أرضه وبناء المسجد[٥]، واشترك ﷺ بنفسه في البناء مع الصحابة رضي الله عنهم، فقد كان ينقل اللبن والحجارة بنفسه، وكان هذا المسجد في أول أمره بسيطاً بساطة الإسلام ويسره[٦].

وأقيم المسجد الأول للرسول ﷺ على قطعة أرض أطوالها سبعون ذراعاً في ستين ذراعاً تقريباً نحو ٣٥×٣٠م، وبني أساسه من الحجارة، وجدرانه من اللبن[٧]، ولم يكن للمسجد في بداية الأمر سقف، فشكا

(١) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني مرجع سابق، ١٧٠ ـ ١٧٥، وشكل رقم ١٢٠.

(٢) عبدالغني، محمد إلياس. المساجد الأثرية، مرجع سابق، ٢٨، ٢٩.

(٣) وزارة الأوقاف، *أسبوع العناية بالمساجد بين إنجازات الحاضر وتطلعات المستقبل*، (المدينة المنورة: ١٤١٣ هـ)، ١١٢.

(٤) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، *القاموس المحيط*. ط٢، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧م)، ٣٥٩.

(٥) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ١، ٢٥٩، ٢٩٥، ٣٢٤ ـ ٣٢٧؛ الإمام شمس الدين السخاوي، *التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة*، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤ هـ/١٩٩٣م)، جـ١، ١٥.

(٦) عبدالقادر الريحاوي، *العمارة في الحضارة الإسلامية*. ط١، (جدة: جامعة الملك عبدالعزيز، ١٤١٠ هـ /١٩٩٠م)، ٢٧.

(٧) حسين مؤنس، «المساجد»، *عالم المعرفة*، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع٣٧، (الكويت: صفر ـ ربيع الأول ١٤٠١ هـ /يناير ١٩٨١م)، ٥٧.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثاني، (التطور التاريخي)؛ الفصل الثالث.

المسلمون إلى رسول الله ﷺ، فأمر بعمل ظلة من ثلاثة أروقة، بوساطة ثلاثة صفوف من الأساطين من جذوع النخل، وسقفه كان جريداً وخوصاً[١]، وبعد سبع سنوات من الهجرة تمّت توسعته في عهد الرسول ﷺ من ثلاث جهات، هي: الشرقية، والغربية، والشمالية، فأصبحت أطوال المسجد تسعين ذراعاً في مئة ذراع تقريباً ٤٥×٥٠م[٢]. وتخطيطه: صحن أوسط، تحيط به ظلتان: ظلة القبلة من ثلاثة أروقة، بوساطة ثلاثة صفوف، كل صف يحتوي على تسع سوارٍ من جذوع النخل: خمس على يسار المسجد نحو الغرب، وأربع من يمينه نحو الشرق. وظلت أمكنة هذه السواري تقام فيها الأعمدة، عند أي تعمير في المسجد، وصار جدار المسجد الشرقي ملتصقاً ببيوت (حجرات) الرسول ﷺ[٣]. كما فُتح بالمسجد ثلاثة أبواب، ظلت في أمكنتها هي الأخرى بعد ذلك، وما زالت تعرف بأسمائها وهي: باب جبريل في الشرق، وباب النساء في الشمال، وباب الرحمة في الضلع الغربي[٤]. وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى دفن في حجرة السيدة عائشة التي توفي فيها، ومن ثم تحوَّلت إلى قبر[٥].

اهتمّ الخلفاء الراشدون بالمسجد النبوي، فجرت توسعته في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ١٧ هـ/ ٦٣٧ م[٦]. وفي عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٢٩ هـ/ ٦٤٩م[٧]، أمر بهدم المسجد، وأعاد تشييده وعمارته، وأصبحت مساحته ١٦٠ × ١٣٠ ذراعاً ٨٠ × ٦٥م، وشيده بالحجارة المنقوشة والجص، وجعل أعمدته من الحجر المنقوش، وسقفه بالساج، وبنى بداخله مقصورة من الحجر، وجعل له ستة أبواب[٨].

بقي المسجد على حاله ما يقرب من ستين سنة، حتى أجرى الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك عمارة مهمة فيه من الناحية المعمارية والفنية، على يد واليه على المدينة عمر بن عبدالعزيز سنة ٨٨ هـ /٧٠٦م[٩]، وبدأت عملية الهدم، وفُرِغَ من العمارة والبناء بعد ثلاث سنوات، وذلك سنة ٩١ هـ / ٧٠٩ م، ولذلك حدثت لأول مرة توسعة للمسجد النبوي جهة الضلع الشرقي، حيث ضمت حجرات النبي ﷺ لمساحة المسجد، وزودت الحجرة النبوية الشريفة، التي دفن فيها الرسول ﷺ بضلع خامس، لكي يختلف شكلها عن شكل الكعبة المشرفة، وجعل الجدار الشرقي للمسجد منحرفاً لا عمودياً على جدار القبلة. كما زوّد المسجد لأول مرة بأربع مآذن، واتخذت المقصورة التي توجد بظلة القبلة من الساج، كما أدخل عمر بن عبدالعزيز لأول مرة المحراب المجوف في جدار القبلة[١٠]. هذا من الناحية المعمارية، أما من الناحية الفنية، فقد كسيت جدران المسجد من الأسفل بألواح الرخام، تعلوها زخرفة بفسيفساء من فصوص الزجاج الملون، وسقف بخشب الساج المزين بالزخارف المدهونة المذهبة[١١]، وأصبحت مساحة المسجد بعد التوسعة ١٦٧,٥ × ٢٠٠ ذراعاً (٨٤ × ١٠٠م)، تتكون من صحن أوسط، يحيط به أربع ظلل، أكبرها ظلة القبلة، وتتكون من خمسة أروقة، يقطعها مجاز قاطع (بلاطة عمودية)، تنتهي بدخلة المحراب، ويعلو مربع المحراب قبة[١٢]، والظلة الثانية من خمسة أروقة أيضاً، أما الظلة الغربية فتتكون من أربعة أروقة، على حين تتكون الظلة الشرقية من ثلاثة أروقة[١٣].

(١) فكري، أحمد. مساجد القاهرة، مرجع سابق، ١٦٩، ١٧٠.

(٢) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٥٨.

(٣) فكري، أحمد. مساجد القاهرة، مرجع سابق، ١٧١.

(٤) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٥٩، شكل ٤٨.

(٥) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٢، ٥٤٤.

(٦) فكري، أحمد. مساجد القاهرة، مرجع سابق، ١٧٢.

(٧) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٦٤، ٦٥.

(٨) فكري، أحمد. مساجد القاهرة، مرجع سابق، ١٧٣.

(٩) الريحاوي، عبدالقادر. العمارة في الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ٢٧.

(١٠) فكري، أحمد. مساجد القاهرة، مرجع سابق، ١٧٨.

(١١) محمد حمزة الحداد، *عمارة المسجد النبوي الشريف: دراسة جديدة في ضوء مشاهدات ابن عبدربه الأندلسي*، بحوث تاريخية، الإصدار الأول، (الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، جامعة الملك سعود، ١٤١٩ هـ/١٩٩٩م)، ٥٧.

(١٢) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٦٧ - ٦٩، شكل ٥٢.

(١٣) فكري، أحمد. مساجد القاهرة، مرجع سابق، ١٧٧.

استمرت عمارة الوليد للمسجد النبوي الشريف منذ ٩١ هـ / ٧٠٩ م دون تغيير يذكر حتى تولى الخلافة الخليفة العباسي المهدي، فأمر بعمارته في سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م، وقيل ١٦٢ هـ / ٧٧٩ م، وانتهى من العمارة سنة ١٦٥ هـ/٧٨٢م، واقتصرت توسعة المسجد الشريف من جهة الشمال بقدر خمسة وستين ذراعاً ٣٣م فقط، وقيل إن مؤخره زخرف بالفسيفساء[١].

احتفظ المسجد النبوي بنظامه وتخطيطه على عهد الخليفة المهدي العباسي، إلا أنه جدد على أيدي سلاطين المماليك دون توسعات[٢]، ومن أهم تجديدات سلاطين المماليك تلك التجديدات التي أمر بها السلطان قايتباي ٨٧٩ـ٨٨١ هـ / ١٤٧٤ـ١٤٧٦م[٣]. وقد اهتم أيضاً سلاطين آل عثمان بالمسجد النبوي، حيث شهد في عهدهم تجديدات وتوسعات[٤]، وكان أول من قام منهم بإصلاحات فيه هو السلطان سليمان القانوني ٩٢٦ـ ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ ـ١٥٦٦م[٥]. أما في حكم السلطان محمود الثاني ١٢٢٣ـ١٢٥٥ هـ / ١٨٠٨ـ ١٨٣٩ م فقد حظيت قبة الحجرة النبوية الشريفة بالاهتمام الكبير، فهدمت القبة التي أقيمت في حكم السلطان قايتباي المملوكي لوجود شروخ بها، وأنشئت قبة جديدة وغطيت بالرصاص، ودهنت باللون الأخضر، وذلك سنة ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م[٦]، كما كسيت الجدران الخارجية للحجرة النبوية الشريفة بالبلاطات الخزفية (القيشاني) العثمانية الطراز[٧].

وفي حكم السلطان عبدالمجيد الأول ١٢٥٥ـ ١٢٧٧ هـ /١٨٣٩ـ١٨٦١ م شهد المسجد النبوي أكبر عمارة في العصر العثماني، حيث أعيد بناء المسجد وزخرفته، واستغرقت عمارته اثني عشر عاماً، من عام ١٢٦٥ حتى عام ١٢٧٧ هـ/١٨٤٨ ـ ١٨٦١م، وتكلفت هذه العمارة ٤,٣ ملايين جنيه مجيدي[٨]، وأصبحت مساحته مستطيلة المسقط ١١٦,٢٥م طولاً وعرضه من جهة القبلة ٨٦,٢٥م ومن الجهة الشمالية ٦٦م، وله خمسة أبواب هي: السلام والرحمة في الغرب، والنساء وجبريل في الشرق، والباب المجيدي بجهة الشمال[٩]. وللمسجد خمس مآذن، في كل ركن من أركانه مئذنة، وجميع المآذن على الطراز العثماني، حيث تمَّ تجديدها في هذا العصر، باستثناء المئذنة الموجودة في الزاوية الجنوبية الشرقية من المسجد بجوار القبة الخضراء فهي على الطراز المملوكي[١٠].

وبحلول العهد السعودي شهد المسجد النبوي الشريف أهم التوسعات وأجلها[١١]، وأخذ صورته الجميلة الحالية التي تعد آية من آيات فن العمارة الحالية في القرن الحادي والعشرين، وما زال هذا المسجد محل اهتمام ورعاية الدولة حتى اليوم، وذلك منذ عهد الملك عبدالعزيز وأبنائه من بعده ـ رحمهم الله ـ سعود، وفيصل، وخالد[١٢]. أما في حكم الملك فهد بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ فقد شهد المسجد النبوي أكبر توسعة على مرِّ التاريخ الإسلامي[١٣]، بل إن هذه التوسعة شملت معظم مساحة المدينة المنورة القديمة، ونفذت على أعلى مستوى معماري من الناحيتين الهندسية، والفنية، واستخدم في البناء أرقى المواد، وأغلاها من المرمر، والرخام الملون وغير الملون، والأخشاب النفيسة، والمعادن الغالية، والمظلات الكهربائية، إلا أنها حافظت على العمارة

(١) مؤنس، حسين، «المساجد»، عالم المعرفة، مرجع سابق، ع٣٧، ٦٥.

(٢) فكري، أحمد. مساجد القاهرة، مرجع سابق، ١٧٩، ١٨٠.

(٣) نويصر، حسني محمد. الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٥٠.

(٤) مؤنس، حسين، «المساجد»، عالم المعرفة، مرجع سابق، ع٣٧، ٦٥.

(٥) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٨٨.

(٦) الأنصاري، عبدالقدوس. آثار المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٠٥، ١٠٦.

(٧) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٩٠.

(٨) الأنصاري، عبدالقدوس. آثار المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٠٧.

(٩) نويصر، حسني محمد. الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٤٥ ـ ٤٩.

(١٠) المرجع السابق، ٤٩.

(١١) الأنصاري، عبدالقدوس. آثار المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٠٧.

(١٢) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٩٩؛ محمد السيد الوكيل، *المسجد النبوي عبر التاريخ*. ط١، (جدة: ١٤٠٩ هـ/١٩٨٨م)، ١٨٥ ـ ٢٠٣.

(١٣) سوسن سليمان يحيى، *آثارنا الإسلامية: العمارة في صدر الإسلام والعصر العباسي الأول*، (القاهرة: دار نهضة الشرق، ٢٠٠٠م)، ٤٣، شكل ١٢؛ عبدالغني، محمد إلياس. المساجد الأثرية، مرجع سابق، ٢٢.

الإسلامية السابقة وأبقت عليها، وواءمت بينها وبين العمارة الإسلامية الحديثة[١].

٣) مسجد القبلتين:

يقع هذا المسجد في الجهة الشمالية الغربية من المدينة المنورة، على هضاب حرة الوبرة قريباً من العقيق غربي جبل سلع، وهو على يمين القادم إلى المدينة المنورة من طريق خالد بن الوليد[٢].

شيَّد بنو سواد بن غنم بن كعب هذا المسجد على عهد الرسول ﷺ[٣]، وسمي بهذا الاسم؛ لأن الرسول ﷺ أمر بأن يستقبل الكعبة بدلاً من بيت المقدس في حين كان يصلي صلاة الظهر بالمسجد في ١٥ شعبان سنة ٢ هـ /٦٢٤م[٤]، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[٥]، وتشير بعض المصادر إلى أن التحول كان في صلاة الظهر بالمسجد النبوي، وأن المصلين في مسجد بني سواد أتاهم آتٍ فأخبرهم بتحول القبلة بعد أن صلوا ركعتين، فاستداروا جهة الكعبة، لذلك سُمّي مسجد القبلتين[٦].

وحظي هذا المسجد بعناية ورعاية الخلفاء والحكام المسلمين بالتوسعة والتجديدات، ولعل أهمها تجديد الوالي عمر بن عبدالعزيز من قِبل الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك ٨٧ ـ ٩٣ هـ/٧٠٦ ـ ٧١٢م[٧].

ويغلب على الظن أن عمارة المسجد كانت في عهد الرسول ﷺ مشيدة من الأحجار واللبن وجذوع النخيل، ومسقوفة بالجريد والسقف، على غرار مسجده[٨].

وتشير المصادر التاريخية إلى أن المسجد جُدد في العهد المملوكي[٩]، كما جدد في



مسجد القبلتين

حكم السلطان العثماني سليمان القانوني في عام ٩٥٠ هـ/١٥٤٣ ـ ١٥٤٤م[١٠]، وآخر هذه التجديدات تمت في العهد السعودي[١١] وقد قام بها الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود رحمه الله.

كما يتضح من خلال اللوحة التأسيسية التي تثبت هذه العمارة والمثبتة على ناصية المسجد ونصها: «بسم الله الرحمن الرحيم..﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.. صدق الله العظيم. تحت رعاية خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود وفي عهده الميمون تم بعون الله وتوفيقه إنجاز مشروع إعادة بناء وتوسعة مسجد القبلتين بالمدينة المنورة وذلك في ١٤٠٨/٣/٣٠ هـ الموافق ١٩٨٧/١٠/٢١م».

وبلغت مساحة المسجد ٣٩٢٠ م، وله مدخلان أحدهما للرجال والآخر للنساء، وقد كسيت أرضيته بأفخم أنواع السجاد الوطني الذي يحمل في شكله القديم ورسومه الأثرية

(١) مؤنس، حسين، «المساجد»، عالم المعرفة، مرجع سابق، ع٣٧، ٦٦.

(٢) عبدالغني، محمد إلياس. المساجد الأثرية، مرجع سابق، ١٨٥.

(٣) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٣، ٨٤٠.

(٤) محمد بن جرير الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط٤، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م ـ ١٩٧١م)، جـ٢، ٤١٦، ٤١٧.

(٥) البقرة، الآية: ١٤٤.

(٦) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ١٩٩.

(٧) المرجع السابق، ١٩٩.

(٨) هشام الصفدي، وآخرون، *الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي*. ط١، (الرياض: ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م)، ٣١٥.

(٩) جدده شيخ خدام الحرم النبوي الشجاعي شاهين الجمالي وذلك سنة ٨٩٣ هـ (١٤٨٨م)، ويستدل على ذلك من خلال نقش رخامي مثبت فوق مدخل المسجد؛ الأنصاري، عبدالقدوس. آثار المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٣٣.

(١٠) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ١٩٩.

(١١) المرجع السابق، ٢٠١، ٢٠٢؛ عبدالغني، محمد إلياس. المساجد الأثرية، مرجع سابق، ١٩٤ ـ ١٩٧.

طرازاً فريداً تميز به مسجد القبلتين عن غيره من المساجد[١].

٤) مساجد الفتح:

تقع في الجهة الشمالية الغربية لجبل سلع بالمدينة المنورة، في الساحة المعروفة الآن باسم المساجد السبعة[٢] التي عسكر فيها الرسول ﷺ أثناء غزوة الأحزاب كما ذكر ابن سعد في (الطبقات الكبرى): «وعسكر بهم رسول الله ﷺ إلى سطح سلع وجعل سلعاً خلف ظهره»[٣]، وأن الرسول ﷺ كان يصلي في هذه الساحة أثناء الغزوة كما يتضح من خلال ما رواه سعد بن معاذ: «أن رسول الله ﷺ صلى في مسجد الفتح في الجبل وفي المساجد التي حوله»[٤]. وقد بنى والي المدينة عمر ابن عبدالعزيز أثناء ولايته في خلافة الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك هذه المساجد وهو الذي جدد المساجد بالمدينة المنورة[٥] ٨٧-٩٣ هـ / ٧٠٦ - ٧١٢ م بعد تجديده للمسجد النبوي الشريف.

ويوجد حالياً بهذه الساحة ستة مساجد يطلق عليها المساجد السبعة، وترتيبها من الجنوب إلى الشمال على النحو التالي: مسجد الفتح، مسجد سلمان الفارسي، مسجد أبي بكر، مسجد عمر بن الخطاب، مسجد السيدة فاطمة، مسجد علي بن أبي طالب، وهي مساجد صغيرة (مصليات) تخطيطها مستطيل المسقط وتتكون من ظلة واحدة من دون صحن، وهذه الظلة إما أن تتكون من رواق واحد مثل مسجدي سلمان الفارسي والسيدة فاطمة، أو من رواقين وذلك بوساطة بائكة تسير عقودها موازية لجدار القبلة مثل: مسجد الفتح، ومسجد عمر بن الخطاب، ومسجد علي بن أبي طالب، وذلك على غرار مسجد الرسول ﷺ وقت الإنشاء الذي كان يشتمل على ظلة واحدة فقط[٦]، وسنلقي الضوء على مسجد منها وهو مسجد الفتح[٧].

٥) مسجد الفتح:

يقع هذا المسجد على جزء مرتفع من جبل سلع في الغرب، وفي هذا الموضع كان الرسول ﷺ يدعو على الأحزاب أثناء غزوة الخندق، فاستجاب الله دعاءه وأرسل عليهم ريحاً كفأت قدورهم وقلعت خيامهم فانخذلوا ورحلوا[٨]، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ ﴾[٩].

وعرف هذا المسجد بعدة أسماء هي: مسجد الفتح، مسجد الأحزاب، المسجد الأعلى، ولكل تسمية مبرراتها وأشهر هذه الأسماء مسجد الفتح وسمي بذلك لقوله ﷺ:«أبشروا بفتح الله ونصره» فعرف بمسجد الفتح[١٠].

وقد جدد هذا المسجد والي المدينة عمر ابن عبدالعزيز في العهد الأموي، وتوالت التجديدات لهذا المسجد على مر العصور التاريخية وآخرها في العهد السعودي، إذ قام الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله - بتجديده وأحاطه بسور مزين بمشربيات ذات فتحات مزخرفة، وأثبت هذا التجديد بلوحة مثبتة على يمين مدخل المسجد بصيغة: «بسم الله الرحمن الرحيم، تم ترميمه وتجديده في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز في سنة ١٤١١ هـ». والمسجد مشيد بحجر البازلت، ويتمتع بالبساطة، وهو خالٍ من الزخرفة، ويشتمل على ظلة واحدة تتكون من رواق واحد طوله نحو ٨,٥٠ م وعرضه نحو ٣,٥٠م وارتفاعه ٤,٥٠م، وفتح بصدر جدار

(١) عبدالغني، محمد إلياس. المساجد الأثرية، مرجع سابق، ١٩٤ - ١٩٧.

(٢) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ١٨٣.

(٣) محمد بن سعد، *الطبقات الكبرى*، تصحيح: إدوارد سخو، (ليدن: مطبعة برايل، ١٣٢٥ هـ/١٩١٩م)، جـ٢، ٦٦.

(٤) عبدالغني، محمد إلياس. المساجد الأثرية، مرجع سابق، ١٣١.

(٥) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ١٨٤.

(٦) مصطفى،صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، لوحة (١٣٣).

(٧) عن هذه المساجد انظر: عبدالغني، محمد إلياس. المساجد الأثرية، مرجع سابق، ١٣١ - ١٥٠؛ مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ١٨٣ - ١٩٨.

(٨) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٢، ٨٣٠.

(٩) الأحزاب، الآية: ٩.

(١٠) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ١٨٣؛ عبدالغني، محمد إلياس. المساجد الأثرية، مرجع سابق، ١٣٨، ١٣٩.

قبلته دخلة المحراب، وهي معقودة بعقد مدببة وغطي المسجد بقبو متقاطع. وتطل ظلة القبلة على رحبة بفتحة معقودة بعقد مدبب وعلى كل جانب من جوانبها فتحة دائرية حديثة للإضاءة والتهوية.

ب) المدارس:

تخدم المدارس طلاب العلم المجاورين، بيد أن المصادر التاريخية والجغرافية لم تزودنا بمعلومات وافية عمَّا شيد منها في المدينة المنورة، وقد ظل المسجد النبوي الشريف منارة علم من خلال حلقات الدروس، والمواعظ المقامة فيه لشرح تعاليم الدين الإسلامي الحنيف[١]، إلى أن ظهرت المدارس في المدينة المنورة في العصور المتأخرة، وتم إنشاؤها بالقرب من المسجد النبوي. وتعد المدرسة الشهابية التي أنشأها الملك المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل الأيوبي صاحب ميافارقين (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م)، وأوقفها على المذاهب الأربعة، والمدرسة الشيرازية التي قام عليها إبراهيم الرومي في القرن السابع الهجري لأكثر من خمسين سنة، والمدرسة الجوبانية التي أنشأها في سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م جوبان أتابك العساكر المغولية، والمدرسة الأشرفية التي أنشأها السلطان الأشرف قايتباي عام ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢م، والمدرسة الباسطية من أشهر هذه المدارس. وفي العصر العثماني ازداد عدد المدارس، ومنها: المدرسة الزمنية، ومدرسة إبراهيم الخياري، والمدرسة المحمودية[٢]. ومن المدارس التاريخية المشهورة، المدرسة الرستمية[٣]، ومدرسة حسين آغا[٤]، ومدرسة الوزير علم الدين[٥].

ومع مطلع القرن الرابع عشر الهجري بلغ عدد المدارس الدينية سبع عشرة مدرسة، والمدارس الرشدية خمس مدارس، ومدرسة واحدة لتعليم الخط، وبلغ عدد الكتاتيب ثلاثة عشر كتاباً، وفي عام ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩م أنشئت دار المعلمين.

وقد كان بالمدينة المنورة إلى عهد قريب عدد من المدارس، والأربطة، والمكتبات، والتكايا، والسبل، والمستشفيات، والوكالات التجارية، حيث كان بها ١٨ مكتبة، و١٧ مدرسة، و٨ تكايا، و٢١ سبيلاً، و١٠٨ أربطة للفقراء[٦].

المدرسة الرستمية:

تقع في حارة الرستمية (البقيع سابقاً) في مقابل رباط ياقوت الماردان. وتخلو هذه المدرسة من أي نص تأسيس يؤرخ عمارتها، ولكن من خلال عناصرها المعمارية يرجح أن تاريخ تشييدها يرجع إلى النصف الثاني من القرن ١٣ هـ /١٩م، أي أنها ترجع إلى العصر العثماني.

وقد عرفت هذه المدرسة في المصادر التاريخية باسم المدرسة الرستمية «مدرسة الرستمية المخصصة لجلوس ومعايدة الأغوات في رابع أيام العيد (عيد الفطر)»، أو الدكة الرستمية «يزيد الأغوات دكة الرستمية الكائنة بحارتهم المخصوصة بجلوسهم دائماً»[٧].

وتتكون المدرسة من طابق واحد، ويقع مدخلها في الواجهة الشمالية، ويؤدي إلى فناء مكشوف مستطيل المساحة، يدور حوله حجرات مقببة يتقدمها رواق (سقيفة) يشرف على الفناء المكشوف ببائكة معقودة مدببة ترتكز على أعمدة أسطوانية لها تاج ذو قطاع متدرج[٨].

(١) آمال العمري، وعلي الطايش، *العمارة في مصر الإسلامية في العصرين: الفاطمي والأيوبي*، (القاهرة: مكتبة الصفا والمروة، ١٩٩٦م)، ١٠١.

(٢) دار الدائرة، *الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية: الآثار*. ط١، (الرياض: دار الدائرة للنشر والتوثيق، ١٤٢٠ هـ/٢٠٠٠م)، جـ١، ٢٠٧.

(٣) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٢١٧ ـ ٢١٩.

(٤) المرجع السابق، ٢٢٠ ـ ٢٢٢.

(٥) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٢٢٢.

(٦) دار الدائرة. الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية، مرجع سابق، جـ٢، ٤٨٠؛ الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار، مرجع سابق، ٢١.

(٧) علي بن موسى، *وصف المدينة المنورة*، نشر حمد الجاسر في: *رسائل في تاريخ المدينة*، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢م)، ٤٦، ٤٧، ٧٨.

(٨) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٢١٧ ـ ٢١٩، أشكال ١٦٧ ـ ١٦٩.

ج) الأربطة:(*)

نشأت الأربطة في المدينة المنورة في الأحياء المحيطة بالمسجد النبوي، وهي أبنية خُصصت لإقامة المجاورين، والزائرين، والمنقطعين من الغرباء وطلاب العلم. وقد كان كل رباط مخصصاً لفئة معينة من أحد الأقطار الإسلامية، أو لمذهب من المذاهب، وبعض هذه الأربطة كان موقوفاً على النساء دون الرجال. ومن المرجح أن أقدم رباط بالمدينة المنورة كان ذلك الرباط الذي شيد في موضع دار عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢م[١]. ومن أشهر الأربطة المبكرة رباط الناصر لدين الله بُني سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م، ورباط المراغي بُني سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥م، ورباط الزنجيلي بُني سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣م، ورباط والدة الخليفة العباسي الناصر لدين الله بُني سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣م، ورباط جمال الدين الأصفهاني (بُني في القرن السادس الهجري)، ورباط السبيل بُني سنة ٦٢٠ هـ /١٢٢٣م[٢]، أما أقدم الأربطة الباقية بالمدينة، فهو رباط ياقوت المارداني في حارة البقيع بالمنطقة المعروفة بحارة الأغوات، في الجهة الشرقية من المسجد النبوي. وقد أقيم طبقاً لنص التأسيس على المدخل سنة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م خلال حكم السلطان المملوكي محمد بن قلاوون، وقد خصص لسكن الرجال الغرباء دون النساء[٣].

والجدير بالذكر أن الأربطة بلغت في زمن السخاوي، ٨٣١ ـ ٩٠٢ هـ / ١٤٢٨ـ١٤٩٧م، ما يقارب الأربعين رباطاً[٤]، وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري بلغت نحو ١٠٨ أربطة[٥].

١) رباط مظهر الأحمدي:

يقع هذا الرباط في حارة الأغوات بزقاق المواليد، ويطل حالياً على شارع الملك عبدالعزيز في الطريق المؤدي إلى باب النساء في المسجد النبوي الشريف، وشيد هذا الرباط مظهر الأحمدي سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥ م كما يتضح من خلال النص التأسيسي المثبت في أعلى مدخله. ويعرف الرباط اليوم باسم مكتبة محمد مظهر الفاروقي.

وقد أشاد به علي بن موسى في مخطوطه الذي يرجع إلى سنة ١٣٠٣ هـ/١٨٨٥م ـ أي بعد عشر سنوات من تشييده ـ فقال عنه: «رباط مظهر من أعظم رباطات المدينة للشيخ مظهر النقشبندي»[٦].

يتكون الرباط من مساحة مستطيلة تشتمل على طابقين، يقع مدخله في الواجهة الغربية بأقصى الطرف الجنوبي منها يؤدي إلى ممر منكسر، يفضي إلى صحن مكشوف مستطيل المساحة تدور حوله حجرات مقببة يتقدمها رواق (سقيفة) يشرف على الفناء ببائكة معقودة بعقود نصف دائرية ترتكز على دعامات حجرية[٧] ويوجد بالطابق الأول مكتبة تضم عدداً من الكتب العربية والمخطوطات، منها مخطوط ابن شبه النميري البصري ١٧١ ـ ٢٦٢ هـ / ٧٨٧ ـ ٨٧٦ م عن المدينة المنورة.

٢) رباط ياقوت المارداني:

يقع هذا الرباط في حارة البقيع (حارة الأغوات) في الجهة الشرقية من المسجد النبوي، وتعلوه لوحة رخامية نقش عليها بخط الثلث المملوكي النص التأسيسي للرباط ونصه: «وقف هذا الرباط المبارك لوجه الله تعالى العبد الفقير ياقوت المظفري

(١) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٢١٦.

(٢) دار الدائرة. الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية: الآثار، مرجع سابق، جـ١، ٢١٢.

(٣) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٢١٧؛ أحمد بن عمر الزيلعي، «نقش تأسيسي من حارة الأغوات بالمدينة المنورة مؤرخ في سنة ٧٠٦ هـ/١٣٠٦ ـ ١٣٠٧م»، *دراسات في الآثار*، الكتاب الأول، تحرير: عبدالرحمن بن محمد الطيب الأنصاري، وآخرون، (الرياض: جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم الآثار والمتاحف، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢م)، ٢٧١ ـ ٣٠٣.

(٤) السخاوي، الإمام شمس الدين. التحفة اللطيفة، مرجع سابق، جـ١، ٣٧.

(٥) باشا، إبراهيم رفعت. مرآة الحرمين، مرجع سابق، جـ١، ٤١٤.

(٦) ابن موسى، علي. وصف المدينة المنورة، مرجع سابق، ٤٦.

(٧) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٢١٥، لوحة (١٦٦).

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الخامس، (الحياة الثقافية والفكرية)؛ الفصل الثاني.

المنصوري المارداني على الفقراء والمساكين الغرباء، الرجال خصوصاً دون النساء، تقبل الله منه وأثابه الجنة برحمته وكرمه بتاريخ سنة ست وسبعمائة» ١٣٠٦ ـ ١٣٠٧م، أي في العهد المملوكي خلال فترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

٢ ـ العمارة المدنية:

فتحت المدينة ذراعيها مستقبلة أعداداً كبيرة من المهاجرين بهجرة الرسول ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة؛ ما قاد بالتالي إلى إكساب المدينة المنورة أهمية سياسية، واقتصادية، ودينية، فزادت تبعاً لذلك سعتها عمّا قبل. وتركز استقرار المهاجرين بادئ الأمر في الأراضي البور، والمزارع التي تحولت تدريجياً إلى مناطق مأهولة، ونتيجة لهذه الزيادة المطردة في السكان تعددت المرافق الرئيسة والخدمات في شتى أرجاء المدينة المنورة[١].

أ) القصور والمنازل:

تحتضن عاصمة الإسلام الأولى أقدم الشواهد الأثرية الإسلامية، حيث شيدت القصور، والمزارع، والضياع، وتعددت الدور، والمرافق الرئيسة، ومرافق الخدمات في مختلف أرجاء المدينة المنورة.

وقد شهدت المدينة المنورة في العهد الأموي نهضة عمرانية واسعة، تمثلت في بناء القصور والدور التي أنشأها الصحابة والتابعون والأمراء والأثرياء. وتركزت غالبية هذه القصور في وادي العقيق المشهور بوفرة مياهه وخصوبة أرضه، وارتبطت بهذه القصور ملاحق أخرى، مثل: الدور، والآبار، والبرك، والسدود، والبساتين[٢]. ويذكر أحد مؤرخي



أطلال قصر سعيد بن العاص(*)

المدينة المنورة المتأخرين أن عدد القصور التي كانت قائمة على ضفاف وادي العقيق بلغت أكثر من سبعين قصراً[٣]، كما تزخر المصادر التاريخية، والجغرافية، والأدبية بمعلومات وافرة عن وادي العقيق، وما شيد على ضفافه من قصور ودور[٤].

ولا تزال آثار بعض قصور وادي العقيق باقية ومشاهدة حتى يومنا هذا، وقد بلغت هذه القصور التي يعرف أصحابها أحد عشر قصراً، من أشهرها قصر هشام بن عبدالملك، وقصر عروة بن الزبير، وقصر سعيد بن العاص، وقصر المراجل[٥]. ومن القصور المشهورة أيضاً قصر عاصم بن عمرو بن عمر بن عثمان بن عفان الواقع في الجهة الغربية من وادي العقيق، وقد شاهد هذا القصر عدد ممن كتبوا عن المدينة المنورة. ويذكر أن مساحته تبلغ قرابة ٩٠٠م٢، وقد بني من الحجارة المغطاة بطبقة من الجص، أما الغرف فيبلغ عددها ٨ غرف مع بعض المرافق داخل الفناء، وألحقت به من الخارج

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٢٠.

(٢) الأنصاري، عبدالقدوس. آثار المدينة المنورة، مرجع سابق، ٢١٩ ـ ٢٣٠.

(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ١٥٨.

(٤) ومن أشهر هذه الكتب: وفاء الوفا لجمال الدين أبو المحاسن السمهودي، ومرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا، والرحلة الحجازية للبتنوني.

(٥) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ١٦١، ١٦٢.

(*) المصدر: وكالة الآثار والمتاحف.

بعض المرافق كالاصطبلات والمخازن، ودكة للسمر، فضلاً عن بعض الغرف الملاصقة لسور القصر من الناحية الجنوبية[١]. ومن الدور المشهورة بالمدينة المنورة دار كلثوم ابن الهدم، ودار سعد بن خيثمة، ودار أبي أيوب الأنصاري، ودار عبدالله بن عمر، ودار جعفر الصادق، ودار عثمان بن عفان، ودار أبي بكر الصديق، ودار ريطة، ودار خالد بن الوليد، ودار عمرو بن العاص، ودار مروان بن الحكم[٢].

وبالإضافة إلى القصور والدور القديمة التي ترجع إلى العصر الإسلامي المبكر، فما زالت المدينة المنورة تحتفظ ببعض المنازل التي ترجع إلى العصر العثماني، واتسمت هذه المنازل بخصائص معمارية لعل من أهمها:

- يصل ارتفاع المنزل إلى طابقين، وفي حالات قليلة إلى ثلاثة طوابق.
- فتحت بالواجهات الرواشن[٣] محمولة على كوابيل ذات قطاع متدرج، وارتفاع هذه الرواشن بكامل ارتفاع الطابق، أما فتحات الشبابيك فيغشيها مشربيات.
- تطل هذه المنازل بصفة عامة على شوارع ضيقة (أزقة) بواجهة صغيرة، ويمتد المنزل بعمق إلى الداخل. ومن أمثلة هذه المنازل منزل خاص بجوار رباط عثمان بن زكريا[٤] بحي الأغوات.

أما فيما يتعلق بتاريخ هذا المنزل فيتضح من خلال النص التأسيسي المثبت أعلى شباك السبيل الملحق بالمنزل الذي كتب باللغة التركية أنه شيد في سنة ١٢٧٥ هـ/١٨٥٨-١٨٥٩م أي في العصر العثماني.

وقد شيد هذا المنزل من الحجر، ويتكون من ثلاثة طوابق، ويشرف بواجهته الشرقية الصغيرة على حارة الأغوات، وفتحت بهذه الواجهة رواشن ومشربيات من الخشب أجزاؤها السفلية متحركة. ويقع المدخل في الطرف الشمالي لهذه الواجهة، ويتألف من فتحة معقودة بعقد مدبب يغلق عليها باب خشبي من مصراعين (ضلفتين)، وعلى يمين (جنوب) هذا المدخل يوجد شباك السبيل، ويعلو هذا الشباك النص التأسيسي للمنزل والسبيل، ويتكون من ثلاثة أسطر باللغة التركية، وترجمتها العربية على النحو الآتي: (... مرحوم ومغفور له.../ من أجل روح حضرة إسماعيل باشا الشريفة (صاحبة) العصمة زن لنكار (زوجته)/ وأوصل الحياة بروحنا من هذا الماء، وقد أنشئ وأجري سبيل ماء الكوثر هذا في سنة ١٢٧٥ هـ/١٨٥٨-١٨٥٩م).

تؤدي فتحة الباب إلى ممر منكسر يؤدي إلى الصحن المكشوف، وعلى اليمين فتحة باب دخول حجرة السبيل وعلى يسار الداخل من الممر المنكسر سلم صاعد للطوابق العليا للمنزل، وكانت أرضية الصحن مغطاة بالرخام الأبيض، ويحيط بالصحن وحدات المنزل، حيث كانت توجد بالجهة الشرقية قاعة كبيرة تتكون من إيوانين بارتفاع طابقين، بينهما دور قاعة بارتفاع ثلاثة طوابق، وأرضية القاعة من الرخام أيضاً، كما أن جدران القاعة مكسوة بوزرة من الرخام.

ب) الحمامات:

لا تمدنا المصادر التاريخية بمعلومات وافرة عن تحديد البدايات الأولى لظهور الحمامات، بيد أنها تشير إلى أنها بدأت تنتشر في العهد الأموي، فيذكر أن جرير بن عبد الله البجلي (ت ٥١ هـ/٦٧١م) كان له حمام في العاقول، كما يوجد بها حمام آخر بني في عهد

(١) الأنصاري، عبدالقدوس. آثار المدينة المنورة، مرجع سابق، ٥٣ - ٥٦.

(٢) المرجع السابق، ٢٤ - ٤٣.

(٣) الرواشن أو الرواشين، جمع روشن، أو روشان، وأصل الكلمة روزته بالفارسية التي تعني الكوة بمعنى الضوء، وهو عند الشباك، أو تأتي بمعنى الشرفة، كما في هذا المنزل، وهو أهم مجلس فيه، ويخصص للأمراء والأثرياء وأهل البيت ولا يحق للخدم ذلك، وهي من سمات منازل الحجاز، للمزيد انظر: ناصر بن علي الحارثي، *أعمال الخشب المعمارية في الحجاز*، (الرياض: المهرجان الوطني للتراث والثقافة، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م)، ٩٢ - ٩٩.

(٤) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ٢٢٩ - ٢٣٣.

نور الدين محمود زنكي سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢م عندما شُيد سور المدينة[١]، وكذلك وجد حمام داخل المدينة، ويعرف حالياً باسم حمام طيبة بناه السلطان سليمان القانوني في عام ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ - ١٥٦٦ م ثم جُدد بناؤه بعد ذلك في حكم السلطان محمود الثاني في عام ١٢٥٤ هـ/١٨٣٨م حسب النص التأسيسي الذي كان مثبتاً فوق باب الحمام. وقد شيد الحمام من الحجر البازلت، وله مدخل معقود بعقد مدبب يقع في دخلة غير عميقة، ويؤدي إلى المسلخ مباشرة، ومسقطه مربع، ويتوسط أرضيته حوض للمياه ذو مسقط مثمن يرتفع عن مستوى الأرضية بنحو متر واحد، وبسقفه قبة ترتكز على حنايا ركنية، وفي نهايته فتحة باب تؤدي إلى ممر منكسر على جانبه الأيمن دورات مياه ويؤدي هذا الباب إلى بيت الحرارة، وهو مربع المسقط مغطى بقبة كبيرة مثقبة ومزدانة بزجاج غير شفاف، وغطيت أرضية الحمام برخام، وهيئت بها فتحات لتصريف المياه[٢].

ج) الأسواق:

تذكر المصادر التاريخية أن الرسول ﷺ اختط سوق المدينة بعد أن فرغ من بناء مسجده استكمالاً لمرافقها العمرانية بالإضافة إلى أن ذلك يجعل المسلمين يستغنون في تعاملهم التجاري عن الأسواق في الجاهلية، بأن يكون لهم سوقهم الذي يعرف بهم، ويكون قريباً منهم ويخدم مصالحهم، ويقوم هذا السوق على أسس إسلامية جديدة حددها الرسول ﷺ [٣]، إذ قال: «هذا سوقكم فلا ينقص منه ولا يضربن عليه خراج»[٤]، كما قال ﷺ أيضاً: «هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه صراح»[٥].

ولم يرد في المصادر التاريخية شيء عن وصف أو مساحة السوق الذي اختطه الرسول ﷺ سوى إشارة بسيطة تقول: «كان الراكب ينزل سوق المدينة فيضع رحله ثم يطوف بالسوق ورحله بعينه يبصره ولا يغيب عنه شيء»[٦].

ويُفهم من العبارة السابقة أن سوق المدينة كان مساحة فضاء مكشوفة واسعة لا بناء فيها، وبقي على هذه الحال في عهد الخلفاء الراشدين[٧].

وكان السوق يخضع للمراقبة، وقام الرسول ﷺ بوظيفة المحتسب، حيث يخرج بنفسه لتفقد أحوال السوق ومراقبة أعمال البيع والشراء[٨]، ويروى أن الرسول ﷺ مر على رجل يبيع طعاماً، فأدخل يده، فإذا هو مبتل، فقال: «من غشنا فليس منا»، ثم كلف رسول الله ﷺ بعد ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه على سوق المدينة[٩].

وأطلقت المصادر التاريخية على سوق المدينة عدداً من الأسماء منها: سوق المدينة، سوق البطحاء، سوق البقيع، وأخيراً: سوق المناخة في العصر الحديث[١٠].

وأول توسعة لسوق المدينة منذ عصر الرسول ﷺ كانت في العهد الأموي، وقد قام بها الخليفة هشام بن عبدالملك باقتراح من خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل الذي كان والياً على المدينة ١٠٦ - ١١٤ هـ/ ٧٢٤ - ٧٣٢ م، فبنى هشام داراً عظيمة في السوق وجعل لها أبواباً[١١]، وجعل لدار السوق حوانيت في أسفلها وأعلاها تؤجر للسكن، كما ورد في المصادر التاريخية «حوانيت في أسفلها وعلالي تكرى للسكن»[١٢].

(١) المرجع السابق، ٢٢٥.
(٢) المرجع السابق، ٢٢٥ - ٢٢٨، أشكال (١٧٥)، (١٧٦).
(٣) خالد بن محمد إبراهيم النعمان، *تاريخ أسواق المدينة في الجاهلية والإسلام: دراسات حول المدينة المنورة*. ط١، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٥ هـ/١٩٩٤م)، مج٢، ١٨٧.
(٤) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٢، ٧٤٨.
(٥) عمر بن شبه النميري البصري، *تاريخ المدينة المنورة*، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، (د. ت)، جـ١، ٣٠٤.
(٦) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٢، ٧٤٩.
(٧) عبدالله إدريس، *مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ*، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤١٢ هـ)، ٢١٠.
(٨) خليل إبراهيم السامرائي، وثائر محمد، *المظاهر الحضرية للمدينة المنورة في عصر النبوة ١ - ١١ هـ*. ط١، (بغداد: ١٤٠٥ هـ/١٩٨٤م)، ٦٥.
(٩) حسان علي الخلاف، *الإدارة المحلية الإسلامية: المحتسب*، (بيروت: ١٩٨٠م)، ٥١.
(١٠) النعمان، خالد بن محمد إبراهيم. تاريخ أسواق المدينة، مرجع سابق، ١٨٤.
(١١) البصري، عمر بن شبه. تاريخ المدينة المنورة، مرجع سابق، ٢٧٠.
(١٢) المرجع السابق، ٢٧٠.

ثم تطورت بعد ذلك أسواق المدينة في العهد العباسي وما تلاه من عصور، فكانت الأسواق مصطفة على امتداد الأزقة والممرات[١]. وقد توزعت هذه الأسواق وتنوعت حسب السلع المعروضة بها، وتذكر المصادر التاريخية عدداً من الأسواق أشهرها: سوق الحبابة، أسواق السمانة، سوق الرواسة، سوق الفلتية، سوق الخضرية، سوق الدلانية، سوق الجزارة، سوق العطارة، سوق القماشة، سوق المزرية، سوق الحدرة (سويقة)، وسوق المناخة[٢].

واستمر بناء هذه الأسواق حتى مطلع القرن ١٤ هـ / القرن الـ٢٠م حيث استطاع مؤرخ معاصر أن يحصر عدد الأسواق المتبقية في المدينة منذ العهد الأموي، وقد بلغت أحد عشر سوقاً أكبرها وأوسعها سوق الحبابة[٣].

كما كان بالمدينة في مطلع هذا القرن أيضاً قرابة ٩٣٢ حانوتاً ومخزناً، وأربعة متاجر كبيرة (وكالات)[٤].

٣ ـ العمارة الحربية:

تتمثل العمارة الحربية فيما شيد من آطام، وحصون، وأسوار، وأبراج، بالإضافة إلى الخندق الذي نُفذ في غزوة الخندق في شوال سنة ٥ هـ /٦٢٦م[٥].

وتذكر المصادر أن عدد الآطام في المدينة المنورة زمن وصول النبي ﷺ إليها بلغ ١٩٩ أطماً،[٦] وهذه الآطام عبارة عن تحصينات عسكرية استفاد منها المسلمون ـ خصوصاً في عهد الرسول ﷺ ـ أوقات الحروب والنزاعات، فقد كانت مأوىً وملجأً للنساء والأطفال والشيوخ والعجزة في غزوة الخندق في شوال سنة ٥ هـ/٦٢٦م[٧]. وما تزال أطلال بعض الآطام باقية حتى اليوم، منها حصن كعب بن الأشرف، وأطم الضحيان الذي شيده أحيحة بن الجلاح، وأطم أبي دجانة الساعدي الأنصاري[٨].

بالإضافة إلى أن المدينة كانت محصنة طبيعياً من شرقها وغربها وجنوبها لما يحيط بها من حرات وعرة ومع ما يتخللها من قرى ومزارع ونخيل ما يشتت ويبعثر أي جيش يفكر في غزوها، ما عدا الجهة الشمالية من المدينة، فكانت غير محصنة ومكشوفة وعادة ما كانت تغزى منها، كما حدث في سنة ٥ هـ / ٦٢٦ م عندما اتفق المشركون من القبائل العربية على القيام بهجوم على المدينة من جهة الشمال، ما اضطر معه المسلمون إلى أن يقوموا بعمل أول عمل حراسي لتحصين المدينة وتأمينها من هذه الجهة وهو حفر خندق، وهو الذي أشار به على الرسول ﷺ سلمان الفارسي، وباشر الرسول ﷺ العمل بنفسه، وأنجز هذا الخندق في نحو ٢٤ يوماً ويبلغ طوله ١٢,٠٠٠ ذراع نحو ٦,٠٠٠ م[٩].

ومن التحصينات الدفاعية المعروفة: الأسوار، والبوابات، والأبراج. ونظراً للمخاطر التي كانت تتعرض لها المدينة المنورة فقد أحيطت بسور لحمايتها ابتداءً من سنة ٢٦٣ هـ/٨٧٦ م ، ثم أعيد بناء السور وجدد في حقب زمنية متعاقبة، حيث أعيد بناؤه وجدد في عام ٣٧٠ هـ/٩٧٠م، وكذلك في سنة ٥٥٨ هـ / ١١٣٩م، وأيضاً سنة ٧٥٥ هـ /١٣٥٤ م، ثم في سنة ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩م[١٠].

وتذكر المدونات التاريخية أن الأسوار في العمارة العثمانية كانت تمتاز بالارتفاع. وكان برج المدينة يرتفع إلى ٢٥ م، وفيه ٤٠

(١) دار الدائرة. الثقافة التقليدية، مرجع سابق، جـ١، ٢١٨.

(٢) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٢٢.

(٣) ابن موسى، علي. وصف المدينة المنورة، مرجع سابق، ٤٢.

(٤) دار الدائرة. الثقافة التقليدية، مرجع سابق، ٢١٨.

(٥) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٢٥.

(٦) السيد عبيد مدني،«آطام المدينة المنورة»، *مجلة كلية الآداب*، جامعة الرياض، مج٣، (الرياض: ١٣٩٣ هـ/١٩٧٣/١٩٧٤م)، ٢٢٣.

(٧) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٢٥.

(٨) للمزيد عن هذه الآطام انظر: العباسي، أحمد بن عبدالحميد. عمدة الأخبار، مرجع سابق، ٣٨ ـ ٤٢؛ الأنصاري، عبدالقدوس. آثار المدينة المنورة، مرجع سابق، ٦٤ ـ ٧١.

(٩) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٤، ١٠٦.

(١٠) العباسي، أحمد بن عبدالحميد. عمدة الأخبار، مرجع سابق، ٣٤١، ٣٤٢؛ باشا، إبراهيم رفعت. مرآة الحرمين، مرجع سابق، ٤١٠ ـ ٤١٣.

برجاً تشرف على ضواحي المدينة للدفاع عنها[١]، بيد أن هذا السور قد هدم في عام ١٣٦٨ هـ /١٩٤٨م نتيجة لتطور المدينة وتوسعها، وذلك لأجل فك الاختناق وتسهيل الحركة، ودمج الأحياء بعضها ببعض، فضلاً عمّا تم للمسجد النبوي الشريف من توسعات، أشهرها وأكبرها توسعة الملك فهد بن عبدالعزيز -رحمه الله- التي شملت معظم مساحة المدينة المنورة القديمة[٢].

٤ - المنشآت المائية:[*]

تتمثل المنشآت المائية بما حُفر وشُق من آبار وعيون، وبما شُيد من سدود وبرك، فقد أوردت المصادر ما اشتهرت به المدينة المنورة من آبار وعيون، منها ما كان موجوداً عند الهجرة النبوية الشريفة، ومنها ما أُحدث في العهد الإسلامي[٣]. وقد بلغ عدد الآبار المشهورة ما يقارب ٢٣ بئراً، تزود المدينة بما تحتاج إليه من مياه، منها بئر أريس (بئر الخاتم)، وبئر بضاعة، وبئر أنس بن مالك، وبئر غرس، وبئر عثمان بن عفان (بئر رومة)، وبئر معونة، وبئر عمرة بن الزبير. وهذه الآبار منها ما دخل ضمن نطاق التوسعات التي تمت في المسجد النبوي الشريف، ومنها ما دخل ضمن نطاق الأملاك الخاصة[٤]. وذكرت المصادر أن عدد العيون في المدينة المنورة بلغ قرابة ٤٤ عيناً، كما اشتهرت المدينة بوجود عدد من القنوات (العيون)، خصوصاً تلك التي شقها مروان بن الحكم (والي المدينة المنورة زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان) الذي شق عين الشهداء، وكذلك عين الزرقاء، وهي العين التي تعهدها بالرعاية والعناية الخلفاء والأمراء المسلمون حتى العهد السعودي الحاضر[٥].



سد عنتر في وادي رانوناء

أما فيما يتعلق بالسدود التي تعد من أهم المنشآت المائية التي عرفتها المدينة المنورة منذ فجر الإسلام، وساعدت على توفير المياه لأغراض الزراعة من جهة ودرء مخاطر السيول عن المناطق السكنية من جهة أخرى، فإن الباقي منها حتى اليوم عدد قليل مقارنة بما كان سائداً في العصور الإسلامية الأولى[٦]، ومنها سد معاوية بوادي الخنق إلى الشرق من المدينة المنورة وسد عاصم الواقع في شرقي جماء تضارع، الذي يبلغ طوله قرابة ٣٦ م، وعرضه ٢,٥ م، وكذلك سد عبدالله بن عمرو بن عثمان ابن عفان (سد عنتر) الواقع في وادي رانوناء، وهو يتكون في الواقع من ثلاثة سدود متصلة، أطوالها ٦٥ و٤٩ و٨٥ م[٧].

أ) سد معاوية بوادي الخنق:

يقع سد معاوية إلى الشرق من المدينة المنورة[٨]. ويتضح من خلال النص التأسيسي للسد المثبت فوق قمته من الجهة الجنوبية الغربية أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٢١.
(٢) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٢١.
(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية، مرجع سابق، ١٦٥.
(٤) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٢٧.
(٥) الأنصاري، عبدالقدوس. آثار المدينة المنورة، مرجع سابق، ٢٥٩ - ٢٦٩.
(٦) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٢٦.
(٧) المرجع السابق، ٣١ - ٨٦.
(٨) المرجع السابق ٣٢.
(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الأول، (الخصائص الجغرافية)؛ الفصل السادس؛ والباب التاسع، (السياحة والتنزه)؛ الفصل الأول.



سد معاوية في وادي الخنق

٤١ ـ ٦٠ هـ شيده أثناء خلافته، وقد تولى بناء السد ـ الهندسة ـ أبو رداد مولى عبدالله بن عباس، وأشرف على البناء كل من كثير بن الصلت، وأبو موسى.

وبنيت جدران هذا السد بخليط من الأحجار النارية البازلتية الممزوجة بالمونة (النورة المصهورة)، وغطيت واجهة السد برصفات من الطوب الممروق، أو بكتل حمرية متنوعة الأحجام مثبتة بالمونة والحصى.

ويتكون سد معاوية بوادي الخنق من سدين أحدهما شرقي والآخر غربي، وتصل المياه إلى وادي خنق من السيول الآتية من قاع حضوضاء من الجهة الجنوبية الغربية ومنها تتجه المياه في غالبها باتجاه الشمال، ليستفاد منها في الزراعة بالإضافة إلى حفر الآبار السطحية التي تغذيها المياه المحجوزة خلف السدين.

ويتكون كل سد عادة من كتلتين لكل منهما قاعدة قوية مقاومة لجرف السيول. ويبلغ طول السد الأول ٥٦ م ويصل عرضه عند القاعدة إلى ١٧,٥ م، أما السد الثاني فيصل طوله إلى ٥٦ م، وعرض القاعدة ١١م.

أما بالنسبة إلى برك المياه، فكما يتضح من خلال ما ورد في المصادر التاريخية، أن المحطات الرئيسة والمنازل المخصصة لاستراحة المسافرين الواقعة على طريق الحج مزودة بعدد كبير منها، وقد كشفت الحفريات الأثرية بهذه المحطات عن مجموعة كبيرة من برك المياه، ومنها المحطات الواقعة بمنطقة المدينة المنورة.

فقد كشفت الحفريات الأثرية التي قام بها قسم الآثار والمتاحف في جامعة الملك سعود، بموقع الربذة عن بركتين لحفظ مياه الأمطار والسيول إحداهما دائرية المسقط وهي الشرقية، والأخرى (الشمالية) مربعة المسقط[1].

ب) البركة الدائرية:

تتميز بأنها كبيرة الحجم، مستديرة المسقط يبلغ قطرها ٦٤,٥ م، ويصل عرضها إلى ٤,٧٠ م، وقد شيدت من الحجر ويبلغ سمك جدرانها نحو ٢ م، وهي مثبتة بالمونة، وطليت جدرانها وأرضيتها بطبقة من الجص.

وتتغذى البركة بالمياه عبر مصفاة ملاصقة لها من الغرب، وهي مستطيلة المسقط ٥٥×١٧ م تقريباً، وعمقها نحو ٣,١٥ م. وتصل مياه السيول إلى المصفاة عبر مدخلين: الأول الركن الشمالي الشرقي، والآخر الركن الجنوبي الشرقي، وكلٌّ منهما يهبط إلى أرضية المصفاة بانحدار تدريجي. وقد ساعد على إيصال المياه إلى المصفاة سدان بغرض التحكم في مياه الوادي في حالة تدفق السيول. وعند امتلاء المصفاة بالمياه، تنتقل المياه إلى البركة عبر مصب علوي منحدر. وزودت البركة في جزئها

(١) سعد بن عبدالعزيز الراشد، «برك المياه على طريق الحج من العراق إلى مكة ونظائرها في الأقطار الأخرى»، أطلال، إدارة الآثار والمتاحف، ع٣، (الرياض: وزارة المعارف، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م)، ٦٥ ـ ٧٢، لوحات (٢٨ ـ ٤٣)؛ سعد بن عبدالعزيز الراشد، *درب زبيدة طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة: دراسة تاريخية وحضارية وأثرية*. ط١، (الرياض: دار الوطن للنشر والإعلام، ١٤١٤ هـ/١٩٩٣م)، ٢٤٦ ـ ٢٤٩؛ سعد بن عبدالعزيز الراشد، «الربذة: تاريخ وحضارة، الأثر والحضارة»، المنهل، دار *المنهل* للصحافة والطباعة والنشر المحدودة، س٥٣، مج٤٨، ع٤٥٤، (جدة: شوال ١٤٠٧ هـ/مايو ١٩٨٧م)، ٦٢ ـ ٧٠.



البركة الدائرية في موقع الربذة

الجنوبي بسلم هابط من أجل تنظيف قاع البركة وجدرانها.

وتقدر سعة البركة عند امتلائها بالمياه بنحو ١٤٢٥٠ م^{٣}، وهي كمية هائلة تكفي عدداً كبيراً من المسافرين والحجاج والمقيمين بدوابهم عدة أشهر.

ج) البركة المربعة:

شيدت هذه البركة على بُعد ٢ كم شمال المنطقة السكنية لخدمة المسافرين من حجاج بيت الله الحرام وغيرهم، وإتاحة الفرصة لهم للتزود بالمياه بيسر وسهولة دون مضايقة السكان المحليين في المنطقة، وتخفيف الضغط والزحام على البركة الدائرية. وهي مربعة المسقط ٢٦×٢٦ م، وشيدت أيضاً من الحجر، وقد دعمت جدرانها من الداخل بأكتاف نصف دائرية لضمان تحمل البركة بالمياه.

وتصل مياه السيول إلى هذه البركة عبر مدخلين (مصبين)، يهبطان إلى داخل البركة



البركة المربعة في موقع الربذة

بانحدار تدريجي، ويتصل أحد المصبين بسد يمتد شمالاً في وسط الوادي ليعترض مياه الأمطار والسيول لتنساب إلى داخل البركة، وتعد هاتان البركتان نموذجين من الأساليب الهندسية التي برع فيها المسلمون في العصور الإسلامية المبكرة، كما أنهما تمثلان نموذجين واضحين للتطور والخبرة في عمارة المنشآت المائية وهندستها، حيث شيد المسلمون عشرات البرك من هذا النوع على امتداد طرق الحج إلى مكة المكرمة.

ب ـ الكتابات الإسلامية:

أدى الدين الإسلامي دوراً عظيماً في تبني العرب القراءة والكتابة في مطلع الإسلام، فقد كان له أثر واضح وجلي في تعلم الكتابة ونشرها في المجتمع الإسلامي، فلقد أنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ في محكم كتابه الكريم ما يحض على تعلم القراءة والكتابة، إذ قال المولى عز وجل: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[١] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾[٢]، وغيرهما من الآيات التي لها دلالات واضحة تشير إلى عظيم شأن الكتابة وعلو مكانتها. كما كان لتشجيع النبي الكريم على تعلم القراءة والكتابة، سواء من خلال أحاديثه الشريفة، أو أفعاله الكريمة، دور واضح في هذا الانتشار، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه: «ما حق امرئ له ما يوصي فيه يبيت ثلاثاً إلا ووصيته عنده مكتوبة»، وقال ﷺ : «قيدوا العلم بالكتابة»[٣]، ومن أفعاله الكريمة ما ترويه المصادر التاريخية من أنه ﷺ قد طلب يوم بدر ممن لا يستطيع أن يفتدي نفسه من أسرى قريش أن يقوم بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة[٤].

وعلى الرغم من المكانة المرموقة والدور الرائد الذي أدته المدينة من حيث تطور الخط العربي والعناية به، فضلاً عما تحويه من مخزون هائل من النقوش العربية التي تغطي مختلف الفترات الإسلامية، وعلى الرغم من أن الكتابات الإسلامية تأتي في المقام الأول بين المصادر الآثارية الأصلية التي يصعب الطعن في قيمتها أو التشكيك في صحتها، إلا أن المتخصصين في علم الكتابات الإسلامية لم يبرزوا دور المدينة في تطور الخط العربي، ونشره إلى مختلف أصقاع العالم الإسلامي، فقد أهملت إهمالاً تاماً، ولم تحظ إلا ببعض المجهودات الفردية[٥].

وتزخر منطقة المدينة المنورة ـ كما أشير آنفاً ـ بكم هائل من النقوش الإسلامية التي تغطي بدورها مختلف الفترات الزمنية، ويمكننا تقسيم نقوش المنطقة إلى قسمين، هما:

١ ـ نصوص وثقتها المدونات الإسلامية:

يأتي على رأس هذه القائمة ما أوردته المصادر من كتابة آيات القرآن الكريم وتوثيقها زمن الرسول ﷺ التي قام بكتابتها كتبة الوحي على الرق، وعسب النخيل، واللخاف، وعظام الأكتاف، وغيرها من المواد المتوافرة في تلك البيئة وذلك الزمان[٦]. وكذلك مكاتبات الرسول ﷺ إلى الأمراء، والملوك، والقياصرة، والأباطرة التي يدعوهم فيها إلى الإسلام وغيرها من مكاتباته ﷺ، وما ظهر أخيراً وأصبح متداولاً أو محفوظاً في بعض المتاحف وينسب إلى أنه رسائل للرسول ﷺ فمشكوك في أمره، بل إن أكثر المتخصصين يسمونها بالمزورة[٧].

ويندرج أيضاً تحت هذا القسم ما أوردته المصنفات التاريخية بشأن الصحيفة التي أمر الرسول ﷺ بكتابتها لتكون دستوراً يهدف إلى تنظيم الحياة العامة للمجتمع الإسلامي ويحدد علاقاته فيما بين أفراده والمجتمعات الأخرى[٨]، كما تزخر المدونات التاريخية بعدد من شواهد المكاتبات الرسمية في فترة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين إلا أننا نفتقد أصولها، المتمثلة ـ على سبيل المثال

(١) العلق، الآيات: من ٣ إلى ٥.

(٢) القلم، الآية: ١.

(٣) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، باب: مسند عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، جـ١٠.

(٤) ابن سعد، محمد. الطبقات الكبرى، مرجع سابق، جـ٢، ١٤.

(٥) انظر على سبيل المثال: Hamidullah, M . «Some Arabic Inscriptions of Medinah of Early Years of Hijrah»,Islamic Culture, No.4, vol. XIII, (1939). محمد بن فهد الفعر، تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، (جدة: تهامة للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)؛ الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق؛ الزيلعي، أحمد بن عمر، «نقش تأسيسي من حارة الأغوات بالمدينة»، دراسات في الآثار، مرجع سابق، ٢٧١ ـ ٣٠٣؛ al-Moraekhi, M. «a Critical and Analytical Study of Some Early Islamic Inscriptions from Medina in the Hijàz, Saudi Arabia., University of Manchester Ph. D. Thesis, 1995.

(٦) غانم قدوري الحمد، موازنة بين رسم المصحف والنقوش العربية القديمة، (بيروت: مؤسسة المطبوعات العربية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ٢٩.

(٧) سهيلة ياسين الجبوري، أصول الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، (بغداد: مطبعة الأديب البغدادية،١٩٧٧م)، ٧٨ ـ ٩٢.

(٨) الشريف، أحمد إبراهيم. دولة الرسول، مرجع سابق، ٩٠ ـ ٩٤.

لا الحصر ـ بمكاتبات الرسول الكريم ﷺ عند إعطائه للأراضي التي وثقتها المصادر التاريخية، ومنها ما يأتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى محمد رسول الله بلال بن الحارث المزني، أعطاه من العقيق ما أصلح معتملاً أن صدق وكتبه معاوية». ثم ختمه الرسول الكريم بخاتمه المنقوش عليه «محمد رسول الله»[١].

هذا بالإضافة إلى مكاتبات الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه لولاته وقواد جيوشه إبان الفتوحات الإسلامية وبعدها[٢]، ولا بد من الإشارة إلى أن ثمة أعداداً هائلة من النقوش التأسيسية والشاهدية التي تمثل مختلف الفترات الزمنية، والمذكورة في المدونات التاريخية لا تزال مفقودة حتى الآن، ومنها ـ على سبيل المثال ـ ما تشير إليه المصادر التاريخية من وجود حجر منقوش على باب بئر أريس فيه ذكر لإحدى صدقات عثمان بن عفان رضي الله عنه [٣]، ويندرج تحت هذا أيضاً ما يطلق عليها المصاحف العثمانية التي تحتفظ بها بعض المكتبات الإسلامية، والمتاحف، والمساجد الأثرية التاريخية، وهي مصاحف تنسب للخليفة عثمان بن عفان، بيد أنها في واقع الأمر تعود إلى فترات زمنية متأخرة، فضلاً عن أنها لم تكتب بخط واحد، فهي تتباين في خطوطها، ويتضح أنها لم تدون في عصر واحد، بالإضافة إلى أن مقتنيات متحف طشقند والمشهد الحسيني بالقاهرة، ومتحف الآثار الإسلامية بإستانبول، ومتحف طوب قبو سراي بإستانبول، ما هي إلا نسخ متأخرة زمنياً عن فترة خلافة عثمان بن عفان، ولعله من الأرجح أنها نسخت عن أصل عثماني قديم[٤]. وتشير المصادر أيضاً إلى ما قام به السلطان العادل نور الدين محمود زنكي في عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م عند بنائه سور المدينة وكتابته اسمه على باب البقيع، وصورة النص في الحديد المصفح به الباب ما نصه: «هذا ما أمر بعمله العبد الفقير إلى الله تعالى محمود بن زنكي بن اقسنقر غفر الله له سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م»[٥].

تذكر المصادر التاريخية أيضاً أنه كان بجانب قصر مسلمة بن عبد الله بن عروة ابن الزبير حجر مكتوب عليه ما نصه:«أنا مسلمة بن عبد الله بن عروة بن الزبير أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله على ذلك أحيا وأموت وأبعث إن شاء الله»[٦]. كما تشير أيضاً المصادر إلى ما قام به زياد بن عبيدالله بن عبدالمدان الحارثي عندما كان والياً على المدينة لأبي جعفر المنصور في سنة ١٣٨ هـ /٧٥٥ م من هدم للدار المعروفة بدار القضاء، وجعلها رحبة لمسجد رسول الله ﷺ . وتشير بعض الروايات إلى أنه كان عليها نص تأسيسي مكتوب على لوح من ساج مضروب بمسامير، مكتوب فيه: «أمر عبدالله أمير المؤمنين أكرمه الله بعمل مسجد رسول الله ﷺ وعمارة هذه الرحبة توسعةً لمسجد رسول الله ﷺ ولمن حضره من المسلمين في سنة إحدى وخمسين ومائة ابتغاء وجه الله والدار الأخرة ... »[٧]. كذلك فإن النصوص التي كانت مدونة في المسجد النبوي الشريف على الرغم من فقداننا أصولها إلا أنها لا تزال مسطرة في كتابات المؤرخين والرحالة الذين زاروا المسجد النبوي ودونوا

(١) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٣، ١٠٤٢.

(٢) أحمد زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، (القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٨م)، جـ١، ١٠٣.

(٣) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٣، ٩٤٢ - ٩٤٩.

(٤) نفائس بيت القرآن، معرض مؤقت مقام في دار الآثار الإسلامية بالكويت، (الكويت: مطابع اليقظة، رمضان ١٤٠٧ هـ/مايو ١٩٧٨م)، ٢٠.

(٥) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٢، ٧٦٧؛ دار الدائرة. الثقافة التقليدية، مرجع سابق، جـ٢، ٤٨١.

(٦) أحمد ياسين الخياري، تاريخ معالم المدينة المنورة قديما وحديثا. ط٤، (جدة: دار القلم للطباعة والنشر، ١٤١١ هـ/١٩٩٠م)، ١٧٣، ١٧٤.

(٧) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٢، ٧٠٠.

مشاهداتهم عنها، ومن أبرزهم الحربي في كتابه المناسك الذي أشار إلى النصوص كافة المتعلقة بالمسجد كل في موضعه[١]، أيضاً ابن رسته الذي قرأ هذه النصوص - كما صرح هو بذلك - أثناء زيارته للمسجد سنة ٢٩٠ هـ /٩٠٣م[٢]. وما هذه إلا أمثلة وشواهد لعدد من النصوص التي فقدت نتيجة للتجديدات المعمارية وغيرها.



النقش التأسيسي لسد معاوية بوادي رانوناء بالمدينة وتفريغه(*)

٢ - نصوص إسلامية وصلتنا أصولها:

على الرغم من أهمية حقبة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، وما تخللها من أحداث جسام، وعدد من المكاتبات، إلا أن ما وصل من تلك الفترة يُعَدُّ قليلاً جداً، أما الحقب الإسلامية التالية فنماذجها أكثر من أن تحصى، ويمكن أن نقسم الكتابات إلى الفروع الآتية:

أ) النقوش التأسيسية:

تعد النقوش التأسيسية من أهم المصادر التي توثق لإقامة المنشآت الدينية، والمدنية، والحربية، وأسماء وألقاب من أمروا أو قاموا على بنائها، كما أنها تحدد فترات إنشاء أو ترميم أو تجديد المنشآت المعمارية كالمساجد، والخانات، والمنشآت المائية، والقلاع، والحصون وغيرها. ولعل من أحدث ما كشفت عنه الدراسات الآثارية الحديثة نقش تأسيسي يعود إلى الخليفة معاوية، يقرأ على النحو الآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم/ هذا السد لعبدالله/ معوية (معاوية) أمير المؤمنين/ اللهم برك (بارك) له فيه رب/ السموت (السموات) والأرض / بنه (بناه) ابو رداد مولى / عبدالله بن عباس بحو/ ل الله وقوته/ وقام عليه كثير بن ا/لصلت وابو موسى».

والواقع أن المنطقة تزخر بعدد من النقوش التأسيسية التي غطت مختلف الفترات الزمنية، ففي الفترات المتأخرة يوجد عدد من اللوحات التأسيسية التي تتعلق بعمارة الحرم النبوي أو تجديده وبعض المرافق العامة مثل: المساجد، والأربطة، والعيون، ومن أهم النصوص التأسيسية، وتؤرخ لتشييد بعض المنشآت المعمارية في الجزيرة العربية أو تجديدها، ما وجد في المسجد النبوي الشريف، فقد أرّخت لنا ما مرّ به المسجد من تجديدات وإضافات وتوسعات وعمارة على مر العصور التاريخية الإسلامية، وغير ذلك من نصوص تأسيسية[٣].

ب) النقوش التذكارية:

تعد النقوش التذكارية من المصادر التي يعول عليها لفهم مجمل أحوال المجتمعات

(١) إبراهيم الحربي، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة العربية، تحقيق: حمد الجاسر، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩م)، ٣٨٥ - ٣٩٥.

(٢) أحمد بن عمر ابن رسته، الأعلاق النفيسة، تحقيق: م. ج. دي غويه، (ليدن: مطبعة برايل، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م).

(٣) مصطفى، صالح لمعي. المدينة المنورة: تطورها العمراني، مرجع سابق، ١١٨ - ١٣٤.

(*) المصدر: وكالة الآثار والمتاحف.

الإسلامية المبكرة، فهي تعكس لنا عدداً من جوانب حياة تلك المجتمعات سواء الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو اللغوية، أو الدينية وخلافه. إلا أنه يغلب على هذه النوعية من النقوش المسحة الدينية، فغالبيتها مأثورات وأدعية دينية كُتبت لطلب المغفرة والدعاء والتوبة والترحم وتأكيد الإيمان وغير ذلك من المصطلحات الدينية الإسلامية[١].

وقد قام بكتابة هذه النقوش السكان المقيمون أو قاصدو الأمكنة المقدسة؛ بهدف الحج والعمرة أو للتجارة. وتبدأ في تاريخها من القرن الأول الهجري وحتى فترات متأخرة من العصر الإسلامي، والمؤرَّخ منها قليل مقارنة بما هو غير مؤرَّخ، ومن أبرز هذه النوعية من الكتابات، نقش زيد بن حسن، الذي عُثر عليه حديثاً ويقرأ على النحو الآتي:

امن زيد بن حسن بالله وحده لا شريك له وشهد/
الا اله الا الله وان محمدا عبده/
ورسوله على ذلك يحيى ماحيي وعليه يموت/ اذا
مات وهو يسل (يسأل) الله ان يقربه من / محمد في
الاخرة كما قربه منه في / الدنيا وان يجعله من احباه
واصفيه (أصفياه)/ ونجباه اللهم بارك لنا في منزلنا
هذا واد/رأ عنا شره وشر كل ذي شر وارددنا/
اليه مرمرا (مراراً) كثيرة.

وتعد نقوش جبل سلع أقدم ما وصل من هذه النوعية من النقوش، إذ تنسب في تاريخها إلى السنة الخامسة للهجرة[٢]، إلا أن



نقش زيد بن حسن

هناك أعداداً كبيرة من النقوش المؤرخة وغير المؤرخة التي تنتشر بالقرب من المدينة، ولكن يصعب حصرها أو إبراز أهمها في مثل هذا المقام[٣].

ج) النقوش الجنائزية (شواهد القبور):

تتضمن النقوش الجنائزية (شواهد القبور) معلومات قيمة سواء فيما يتعلق بالأسماء، والكنى، والألقاب، والأنساب، والوظائف والمهن، وتواريخ الوفيات (التي في أحيان كثيرة تحدد اليوم والشهر والسنة)، أو فيما يتعلق بالخط وما يلحقه من عناصر زخرفية متنوعة، بالإضافة إلى مضامينها الدينية واللغوية. فلقد كشف عن عدد من النقوش الشاهدية في المدينة المنورة، وكذلك المناطق القريبة منها مثل الربذة، وبدر، وجبل الرس، وغيرها من المواضع، وبعض هذه الكتابات الشاهدية محفوظة في المتاحف الإقليمية، وبعضها الآخر ما زال باقياً في مواقعه الأصلية. وقد درس عدد منها وبقي المئات تنتظر المختصين لدراستها، ولعله من

(١) Op. Cit., Moraekhi, M. a Critical and Analytical Study, pp 292 - 299.

(٢) Op. Cit., Hamidullah, M. «Some Arabic Inscriptions», pp 427- 439.

(٣) سعد بن عبدالعزيز الراشد، كتابات إسلامية غير منشورة من رواة بالمدينة المنورة. ط١، (الرياض: دار الوطن للنشر والإعلام، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م)؛ سعد بن عبدالعزيز الراشد، «نقوش إسلامية مؤرخة من الصويدرة»، الدارة، دارة الملك عبدالعزيز، ع٤، (الرياض: ١٤١٢/١٩٩٢م)؛ الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٨٨ - ١٥٦؛ Ibid, Al-Moraekhi, M. a Critical and Analytical Study, pp. 63 - 290.

المناسب إعطاء مثال على نوعية الكتابات[١]، فأحد هذه النقوش يقرأ على النحو الآتي:

- المتن:

بسم اللّه الر/حمن الرحيم/ قل اعوذ برب ا/لفلق من شر ما/ خلق ومن شر غا/سق اذا وقب/ ومن شر النفث (النفاثات)/ في العقد ومن/ شر حاسد/ اذا حسد/ اللهم نور لوهب/ بن المغيرة في قبره.

- الجانب الأيمن:

بسم/ الله الرحمن/ الرحيم/ الله لا اله ا/ لا هو الحي/ القيوم لا تاخذ/ه سنة ولا نوم له/ ما في السموات/ وما في الأرض/ من ذا الذي/ يشفع عنده ا/لا باذنه يعلم ما/ بين ايديهم وم/ا خلفهم ولا يحيط/ ون بشيء من علمه الا بما/ شا وسع كرسيه ا/لسموات والارض/ ولا يوده حفظهما/ وهو العلي العظيم.

د) النقوش الزخرفية:

استخدمت الكتابات للتوثيق، كما استخدمت لتؤدي دوراً رئيساً بوصفها عنصراً زخرفياً، حُلِّيت به الأعمدة، والعقود، والدعائم، والمحاريب، والقباب، والمآذن، والواجهات، كما كسيت جدران المساجد، والأبواب، والشبابيك، والأسقف بالنقوش الزخرفية.

هذه بعض النماذج لما تزخر به المدينة المنورة وما تحتضنه من كنوز أثرية ونقوش إسلامية بمختلف أنواعها، وهي تغطي مختلف الفترات الإسلامية، كما تغطي مختلف مناحي الحياة؛ ما يجعلها مصدراً مهماً من مصادر دراسة تاريخ المنطقة السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي، علاوة على أنها المصدر الوحيد الذي يعول عليه فيما يتعلق بدراسة نشأة الخط العربي وتطوره، ومعرفة مختلف المدارس الخطية.

ج ـ طرق الحج:

احتلت المدينة المنورة مكانة إستراتيجية مميزة في منطقة الحجاز مثلها مثل مكة المكرمة، ولاسيما بعد هجرة الرسول ﷺ إليها وأصبحت عاصمة الإسلام الأولى؛ حيث أخذ المسلمون من بلدان شتى بعيدة يتوافدون عليها لتأدية الحج والعمرة وزيارة المسجد النبوي[٢]، كما كانت المدينة على مدار التاريخ ملتقى الطرق التجارية والحج، حيث وفرة المياه والمزارع والمراعي، بالإضافة إلى طبيعتها الجبلية التي توفر لها الحماية[٣].

وتتصل المدينة بالحواضر والمراكز الرئيسة داخل الجزيرة العربية وخارجها بعدد من الطرق الرئيسة، بالإضافة إلى الطرق الفرعية الداخلية في منطقة الحجاز، ومن أهم الطرق التي تؤدي إلى المدينة ما يأتي:

- طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة (درب زبيدة).
- طريق الكوفة ـ المدينة المنورة (طريق النقرة ـ المدينة المنورة).
- طريق الأخرجة.
- الطريق الشرقي (السوارقية ـ صفينة ـ حاذة).
- طريق الحج الشامي.

١ ـ طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة (درب زبيدة):

يعد من أهم الطرق القديمة الرئيسة التي كانت تربط الكوفة بمكة المكرمة والمدينة المنورة أيضاً منذ بداية العصر الإسلامي[٤]،

(١) يحتفظ مكتب الآثار والمتاحف في المدينة المنورة بعدد من شواهد القبور، ولم ينشر منها سوى عشرة شواهد. Op. Cit., Al-Moraekhi, M. a Critical and Analytical Study, p 28-63. أما البقية فيبلغ عددها قرابة (٣٦) نقشا، وهي قيد الدراسة والبحث، وسيتم نشرها فيما بعد.

(٢) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٢٧.

(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٠٧.

(٤) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٣١.

وقد لقي هذا الطريق كل الاهتمام والرعاية من الدولة العباسية التي اتخذت من بغداد عاصمة لها؛ ليستفيد منه كل من يسلكه من الحجاج والتجار[١].

وكان العصر الذهبي لهذا الطريق هو عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد ١٧٠-١٩٣ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م وزوجته السيدة زبيدة، فزود بكثير من العلامات الإرشادية والشواهد الحجرية والمنارات والمحطات، وكانت السيدة زبيدة مهتمة شخصياً بتطوير هذا الطريق، وبذلت ما في وسعها لتوفير أقصى قدر ممكن من سبل الراحة لمن كانوا يسلكونه، ومن هنا جاءت تسميته (درب زبيدة)[٢].

وينطلق هذا الطريق من الكوفة إلى مكة المكرمة تجاه الجنوب مخترقاً المناطق المعروفة اليوم بالحدود الشمالية، ثم إلى حائل، فالقصيم، والمدينة المنورة، ثم إلى مكة المكرمة. ويلتقي طريق الكوفة مع طريق البصرة في موضع معدن النقرة، حيث يتفرع منه طريق رئيس يتجه إلى مكة المكرمة، وهو استمرار لدرب زبيدة، وطريق رئيس آخر يتجه إلى المدينة المنورة، ويخترق درب زبيدة الجهة الشرقية من منطقة المدينة المنورة والمحطات الرئيسة والاستراحات والمنازل الواقعة في نطاق منطقة المدينة المنورة على امتداد هذا الطريق هي: الجفنَّة، الماوان، الصقعاء، الربذة، حمضان (الروثة)، الوسنة، السليلة، البريكة (الضبة)، العمق، معدن بني سليم، ضلع الشق (كراع)، أفيعية، خبراء الحاج (الكبوانة)، ثم يتجه الطريق إلى فيضة المسلح بمنطقة مكة المكرمة[٣].

ومن أبرز المواقع الأثرية الإسلامية على هذا الطريق موقع الربذة، حيث كشفت التنقيبات الأثرية به عن آثار إسلامية متنوعة، سواء كانت معمارية أو تحفاً منقولة، كذلك عُثر في عدد من المواقع الأثرية الأخرى على كتابات إسلامية منقوشة على الواجهات الصخرية[٤].

٢ - طريق الكوفة - المدينة المنورة (طريق النقرة - المدينة المنورة):

يتجه هذا الطريق من معدن النقرة غرباً إلى العسيلة، ومنها إلى بطن نخل (الحناكية اليوم) ثم الطرف (الصويدرة حالياً) الواقعة غرب الحناكية، ثم إلى المدينة المنورة. ومن أهم المواقع الأثرية بهذا الطريق موقع الصويدرة، حيث عثر به على عدد من النقوش الإسلامية تعود في تواريخها إلى السنوات ١٠١ و ١٩٥ و ٢٠٥ و ٢٤٩ هـ / ٧١٩ و ٨١١ و ٨٢٠ و ٨٦٣ م، وكذلك موقع السايبية (بئر السائب قديماً) الذي عُثر به على أساسات مستوطنة إسلامية، وبئر، وعدد من النقوش الإسلامية، أحدها مؤرخ بسنة ١٦٥ هـ/٧٨٢م[٥].

تتفرع من طريق الحج بين الكوفة ومكة المكرمة (درب زبيدة) فروع كثيرة تصل إليه من طرق رئيسة أخرى، وأبرز فرعين رئيسين هما: طريق من النقرة إلى المدينة المنورة، وطريق السوارقية - صفينة - حاذة[٦] (الطريق الشرقي).

٣ - طريق الأخرجة:

يعرف في المصادر الإسلامية بهذا الاسم، وهو يتفرع من طريق الكوفة (درب زبيدة) عند وصوله إلى بلدة فيد، حيث يسير - حسبما ذكر الحربي - تجاه الأخرجة، ثم غمر مرزوق والسعد،

(١) سيد عبدالمجيد بكر، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج. ط١، (جدة: تهامة، ١٤٠١ هـ/١٩٨١م)، ١٨.

(٢) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٦٥ - ٦٩.

(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٠٧، ١٠٨.

(٤) انظر: الفصل الثالث من هذا الباب (المواقع الأثرية والتاريخية).

(٥) Op.Cit., Al-Moraekhi, M. a Critical, and Analytical Study, p. 257.

(٦) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٣٠٥ - ٣١٢.

ثم بطن نخل، والشقرة، وبئر السائب (السايبية) حتى يصل إلى المدينة المنورة[١]. وهذا الطريق هو أحد فروع طريق البريد وطريق الحج في آن واحد[٢].

٤ ـ الطريق الشرقي (السوارقية ـ صفينة ـ حاذة):

هو أحد الطرق الفرعية لدرب زبيدة، ويربط المدينة المنورة بمكة المكرمة[٣]، ويعرف أيضاً بالطريق السلطاني، ومن أهم المحطات التي يمر بها: حاذة، وصفينة والسوارقية[٤] وهذه المراكز الثلاثة هي واحات في حرة راهط (حرة بني سليم)[٥].

ويتجه الطريق من النقرة إلى العسيلة ثم إلى المتعشى (المحدث)، ثم إلى بطن نخل، ثم إلى الطرف (الصويدرة) ومنها إلى المدينة، وتعد الصويدرة نقطة عبور للمسافرين قبل العصر الإسلامي وأثناءه، وتزخر هذه المنطقة بالنقوش الخطية الإسلامية، بالإضافة إلى النقوش العربية القديمة والرسوم الصخرية[٦].

٥ ـ طريق الحج الشامي:

تمر بمنطقة شمال الحجاز مجموعة من الطرق[*] التي تربط بلاد الشام ومصر بالأمكنة المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد اهتم الحكام المسلمون بهذه الطرق في مختلف العصور؛ وذلك من أجل راحة الحجاج[٧]، وأشهر هذه الطرق وأهمها طريق الحج الشامي، المحجة الرئيسة[٨]، وعرف هذا الطريق في المصادر التاريخية باسم (الطريق التبوكية) لمروره بتبوك، ويقع جزء منه في تبوك، والجزء الأكبر في النطاق الجغرافي لمنطقة المدينة المنورة[٩].

ويبدأ الجزء من مسار طريق الحج الشامي الواقع ضمن النطاق الجغرافي لمنطقة المدينة المنورة شمالي الحجر (مدائن صالح) مروراً بوادي القرى (العلا)، والسقيا، والرحيبة، وذو المروة، والمر، والسويداء، وذو خشب، ثم المدينة[١٠]. وقد ظهرت محطات جديدة في العصور الإسلامية الأيوبية، والمملوكية والعثمانية، واختفت بعض أسماء المحطات القديمة، ومن الأسماء الجديدة بعد أن يمر الطريق بالحجر (مدائن صالح)، العلا، وحفائر الغنم (مغيرة)، وسهل المطران، وزمردة، وبئر جديد، وهدية، وإسطبل عنتر، وبئر نصيف، ثم ينتهي الطريق بالمدينة المنورة[١١].

ولا تزال الآثار الإسلامية على طريق الحج الشامي باقية إلى اليوم، وتتمثل في النقوش الإسلامية والمنشآت المعمارية، مثل آثار الحِجْر، ومنها قلعة ترجع إلى الحكم العثماني، شيدها حاكم دمشق أسعد باشا العظم سنة ١١٥٦ ـ ١١٧٠ هـ/١٧٤٤ ـ ١٧٥٧م وبركة ماء وبئر. ومن آثار مدينة العلا البلدة القديمة، التي تعد النموذج الوحيد الباقي للمدن التي كانت على هذا الطريق[١٢]، وما زالت تحتفظ ببعض معالمها المعمارية مثل قلعة البلدة، ومسجدها الجامع، وحمامها العام (حمام تدعل)، بالإضافة إلى قلعة مغيرة المعروفة في المصادر التاريخية باسم قلعة الحفائر (حفائر الغنم أو أبيار الغنم)، وقد شيدت في العصر العثماني خلال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، وقلعة زمرد التي شيدها حاكم دمشق العثماني محمد ثابت أبو الذهب سنة

(١) سعيد بن فايز السعيد، وآخرون، آثار منطقة حائل، سلسلة آثار المملكة العربية السعودية، (الرياض: وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٣م)، ١٣٤.

(٢) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١١١.

(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٣٠٨.

(٤) بكر، سيد عبدالمجيد. الملامح الجغرافية، مرجع سابق، ٦١ ـ ٦٣.

(٥) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١١٢.

(٦) عبدالقدوس الأنصاري، بين التاريخ والآثار. ط٢، (بيروت: ١٩٧١م)، ١٢٨ ـ ١٤٩.

(٧) علي بن إبراهيم غبان، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، الكتاب الثاني: مدخل عام. ط١، (الرياض: مطابع سفير، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣م)، ١٢٧.

(٨) بكر، سيد عبدالمجيد. الملامح الجغرافية، مرجع سابق، ١٧٠ ـ ١٧٤.

(٩) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١١٤.

(١٠) غبان، علي بن إبراهيم. الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مرجع سابق، شكل رقم ٤٢.

(١١) المرجع السابق، شكل رقم ٤٣.

(١٢) نصيف، عبدالله بن آدم صالح. العلا، مرجع سابق، ١٥٣.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب التاسع، (السياحة والتنزه)؛ الفصل الأول.

١١٨٥ ـ ١١٩٧ هـ / ١٧٧١ ـ ١٧٨٣م، وبركة مجاورة لها وبئر، وقلعة أخرى شيدها حاكم دمشق العثماني وأمير الحج الشامي عثمان باشا ١١١٢ ـ ١١٨٤ هـ / ١٧٦١ ـ ١٧٧١م، وبئر، بالإضافة إلى قلعة إسطبل عنتر، وقلعة الفحلتين، وآبار نصيف، وقلعة الحفيرة[١].

وفي بداية القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) شهد طريق الحج الشامي ما لم يشهده طريق آخر من طرق الحج، فمدّ خط سكة حديد الحجاز في حكم السلطان العثماني عبدالحميد سنة ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م على مسار طريق الحج الشامي نفسه تسهيلاً لمواكب الحجيج، وتيسيراً لفريضة الحج[٢]، وقد وصل أول قطار إلى المدينة المنورة في ١٣٢٦ هـ / ٢٢ أغسطس سنة ١٩٠٨م، ويبلغ امتداد طريق سكة الحديد في نطاق منطقة المدينة المنورة ما يزيد على ٣٥٠ كم[٣].

ثانياً ـ الآثار المنقولة:

لم يقتصر نتاج الحفريات والتنقيبات الأثرية بمنطقة المدينة المنورة على الآثار المعمارية فقط، ولكن عُثر أيضاً على كمٍّ كبير من المعثورات الفنية مختلفة الأنواع توضح دون شك نمط الصناعات القائمة في المنطقة في العصور الإسلامية المبكرة، وهذه المعثورات الفنية عبارة عن كسر لأوانٍ فخارية وخزفية وخشبية، وقطع الأواني المصنعة من الحجر الصابوني، وكسر زجاجية، وأجزاء من الحلي وأدوات الزينة، بالإضافة إلى بعض قطع العملة، وهي متشابهة في معظم المواقع الأثرية بالمنطقة ويتشابه معظمها مع ما أخرجته حفائر موقع الربذة.



قرية السوارقية

وتدل هذه المعثورات الفنية في مواقع طريق الحج كذلك على وجود كثافة بشرية استخدمت الطريق ومحطاته، سواء كان ذلك من المسافرين وكثرة ترددهم على المنازل والقرى، أو من السكان الأصليين الذين سكنوا تلك الأمكنة وتعايشوا مع الحجاج والمسافرين في العصور الإسلامية المبكرة بالبيع والشراء وتبادل المنافع كافة.

وقد أشار الجغرافيون المسلمون إلى بعض الأسواق التي قامت بمنطقة المدينة المنورة مثل العلا إحدى محطات طريق الحج الشامي التي كانت تضاهي محطة فيد على طريق الحجاج العراقي، كما سبق القول.

وهناك أيضاً قرية السوارقية التي قال عنها الجغرافي السلمي وهو خير من قدم وصفاً لها في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي): «وهي قرية غَنّاء كثيرة الأهل فيها منبر ومسجد جماعة وسوق كبيرة يأتيها التجار من الأقطار»[٤]، كما يذكر الحربي عن السفرة وهي لمدة قريبة من بطن نخل الحناكية: «وبالسفرة قصور وحوانيت وسوق كبيرة...»[٥].

(١) غبان، علي بن إبراهيم. الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مرجع سابق، ١٤٣ ـ ١٨٩.

(٢) بكر، سيد عبدالمجيد. الملامح الجغرافية، مرجع سابق، ١٧٠ ـ ١٧٤.

(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١١٦.

(٤) عرام بن الأصبغ السلمي، أسماء جبال تهامة وسكانها، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، (القاهرة: ١٣٧٣ هـ)، ٦٤ ـ ٦٦.

(٥) الحربي، إبراهيم. المناسك وأماكن طرق الحج، مرجع سابق، ٥٢٢.

من أهم المواقع الأثرية بمنطقة المدينة المنورة التي عثر بها على كمٍّ كبير من المعثورات المنقولة موقع الربذة، وبعضها محفوظ والآخر معروض الآن بمتحف قسم الآثار والمتاحف في جامعة الملك سعود بالرياض، إضافة إلى مهد الذهب (معدن ابن سليم) ومواقع القصور التاريخية في وادي العقيق، وخيف البصل، ووادي النقمي، ووادي الخنق، ومنطقة العروة أيضاً، ورورامرة وغيرها، وفيما يأتي استعراض لأهم هذه المعثورات المنقولة وهي: الفخار والخزف، والزجاج، والمعادن، والمسكوكات.



جرة عليها زخارف بارزة من موقع الربذة(*)

أ ـ الفخار والخزف:

كان إنتاج الخزف في العالم الإسلامي عظيماً جداً، وقد صنع من الخزف الإسلامي أكثر من أي ضرب آخر من ضروب التحف الإسلامية، وكانت الحفائر ولا تزال تكشف دائماً عن كميات وافرة من هذا الخزف، ويمكن تقسيم فخار وخزف أحد المواقع المهمة في منطقة المدينة المنورة، الذي أجريت به حفريات، وهو موقع الربذة، على النحو الآتي: فخار غير مطلي اتخذ من عجينة طينية خشنة سميكة البدن مسامية، أو صلبة وناعمة خالية من المسامات، وصنع بالدولاب (العجلة)، أو بالدولاب واليد معاً، أو بالقالب، وهو مطلي، أو غير مطلي. ومعظم القطع أو الكسر التي عثر عليها في الربذة اتسمت بأنها من الفخار الرقيق البدن، ومعظمها ببطانة بيضاء من الخارج وعليه خطوط زخرفية غائرة ذات طلاء بني فاتح أو أحمر. كما عُثر في التنقيبات الأثرية في الربذة على كسر خزفية ترجع إلى العهد العباسي تمثل كسراً أو أجزاءً من أطباق، وهذه الكسر الخزفية مرسوم تحت طلائها زخارف نفذت باللون الأزرق على أرضية بيضاء، أو هي نباتية مثل المراوح النخيلية، أو كتابية كوفية مثل جزء من طبق خزفي مرسوم تحت الطلاء ومزخرف بكتابة كوفية هي كلمة (بركة) نفذت باللون الأزرق على أرضية بيضاء، أو هي من خزف ذي بريق معدني[1]، ومن المعروف أن هذا النوع من الخزف انفرد به الخزاف المسلم، ولم يكن معروفاً قبل الإسلام، ويرجع السبب في ابتكار هذا النوع من الخزف إلى اهتداء الخزاف المسلم إلى مادة الطلاء الزجاجي المعتم ذي اللون الأبيض بإضافة أوكسيد القصدير إلى الطلاء الزجاجي الشفاف الذي كان يستعمل من قبل. وكان اهتداء الخزاف المسلم إلى هذا الطلاء نقطة تحول في صناعة الخزف الإسلامي عامة، وكان ذلك في القرن ٣ هـ/٩م[2]. وتمثل القطع التي عثر عليها في الربذة أو في غزوة بوادي العقيق على سبيل المثال[3] أجزاءً من أطباق وصحون وأكواب وقدور عليها زخارف ذات

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٤٣٣ ـ ٤٤٦؛ الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٢٢٢ ـ ٢٣٤.

(٢) علي الطايش، الفنون الزخرفية الإسلامية المبكرة في العصرين الأموي والعباسي. ط٢، (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٣م)، ٣٨ ـ ٤٠.

(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٢١٢ ـ ٢٣٣.

(*) المصدر: جامعة الملك سعود.



إناء من الزجاج النقي ذو شكل كروي من موقع الربذة(*)

لون واحد أو متعددة الألوان، أما زخارفها فهي تتشابه مع خزف سامراء ذي البريق المعدني من حيث اشتماله على زخارف نباتية محورة ونقاط مطموسة وتهشيرات(١).

ب ـ الزجاج:

اهتم المسلمون بصناعة الزجاج وعملوا على تطويرها لحاجتهم إلى الأواني الزجاجية التي استخدموها في وظائف كثيرة من أهمها حفظ العطور، وصناعة العقاقير، والإضاءة والزينة والشراب وغير ذلك، واستخدموا في صناعته وتشكيله وزخرفته الطرق القديمة(٢).

وكشفت الحفائر الأثرية كميات كبيرة من التحف الزجاجية في الأقطار الإسلامية، ومنها الجزيرة العربية وذلك في عدد من المواقع الأثرية على امتداد طريق الحج العراقي (درب زبيدة)، ومن هذه المواقع الربذة، ويبدو واضحاً أن هذه التحف الزجاجية صناعة محلية؛ فقد عثر على أفران لصناعة الزجاج، إضافة إلى بعض القطع التالفة.

ويتضح من التحف الزجاجية التي عثر عليها في الربذة أنها صنعت بطريقة النفخ أو بالقالب، ونفذت عليها الزخارف بعدد من الطرق، من أهمها الإضافة والحفر والقطع. أما أشكال التحف الزجاجية التي عثر عليها فهي: أكواب، وقوارير صغيرة مخصصة للعطور، بالإضافة إلى أدوات زينة وحلي(٣).

ج ـ المشغولات المعدنية:

من المعثورات الفنية التي كشفت عنها التنقيبات الأثرية في الربذة التحف المعدنية، وتتمثل هذه التحف في كفف موازين، وأوزان، وصنج ومكاييل طبية للصيدلة والكيمياء لها صنابير، وملاعق، وجفان، وإبر خياطة، ورؤوس رماح، وأسهم، وأجزاء من خناجر، بالإضافة إلى قائم شمعدان من النحاس أسطواني الشكل، وتمثال صغير على شكل يشبه شكل الأسد، كما عثر أيضاً على أدوات زينة مثل: مراود، ومكاحل، وملاقط، وأساور، وأجزاء لمرايا، وخواتم بأشكال مختلفة بعضها من الفضة(٤).

وما ساعد على هذا الإنتاج المحلي من التحف المعدنية قرب الربذة من مواقع التعدين القديمة في منطقة الحجاز، بالإضافة إلى حاجة أهل الربذة إلى أنواع من الأسلحة لحماية الإبل والخيول التي كانت ترعى في الحمى، وتصنيع أدوات كثيرة تلزم لركوب الخيول وترويضها، وأيضاً لعرض هذه التحف المعدنية للمسافرين من الحجاج وغيرها للبيع أو للتبادل(٥).

د ـ المسكوكات:

عثر في معظم مواقع التنقيب الأثري بموقع الربذة على بعض قطع العملة من فلوس نحاسية، ودراهم فضية ودنانير ذهبية، وتغطي

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، «الربذة: تاريخ وحضارة»، المنهل، مرجع سابق، مج٤٨، ع٤٥٤، ١٠٦، ١٠٧؛ أشكال: ١٦٤، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٦.

(٢) الطايش، علي. الفنون الزخرفية، مرجع سابق، ٤٥.

(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، «الربذة: تاريخ وحضارة»، المنهل، مرجع سابق، مج٤٨، ع٤٥٤، أشكال ٨٩ ـ ٩١ ـ ١١٤ ـ ١٢٢.

(٤) المرجع السابق، أشكال ١٣٢ ـ ١٤٣.

(٥) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، «الربذة: تاريخ وحضارة»، المنهل، مرجع سابق، مج٤٨، ع٤٥٤، أشكال، ٩٥.

(*) المصدر: جامعة الملك سعود.

هذه العملة تقريباً مراحل الاستيطان للربذة على مدى ثلاثة قرون، كما تدل على الثراء والانتعاش الاقتصادي الذي تمتعت به[١].

ومن قطع العملة التي عثر عليها دينار عباسي ضرب سنة ١٧١ هـ/٧٨٧م، وتشتمل كتاباته على:

❖ **الوجه:**

المدار: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

المركز: لا إله إلا/ الله وحده/ لا شريك له

❖ **الظهر:**

المدار: بسم الله ضرب هذا الدينر (الدينار) سنة إحدى وسبعين ومئة

المركز: محمد / رسول / الله / موسى

ويلاحظ على هذا الدينار عدم ذكر مكان الضرب واسم الخليفة، ولكن تاريخ هذا الدينار يرجع إلى فترة حكم الخليفة هارون الرشيد ١٧٠ ـ ١٩٣ هـ/٧٨٦ ـ ٨٠٩ م. أما بالنسبة إلى اسم موسى بمركز ظهر الدينار فهو موسى بن عيسى بن موسى العباسي الذي تولى إمارة مصر خلال الفترات: ١٧١ ـ ١٧٢ هـ /٧٨٧ ـ ٧٨٨م، ١٧٥ ـ ١٧٦ هـ /٧٩١ ـ ٧٩٢م، ١٧٩ ـ ١٨٠ هـ/ ٧٩٥ ـ ٧٩٦م[٢].

ومن الدنانير التي عُثر عليها في الربذة أيضاً دينار عباسي ضرب بمدينة السلام سنة ٢٦٩ هـ/٨٨٢م، أي في فترة حكم الخليفة العباسي المعتمد على الله ٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م، وتشتمل كتاباته على[٣]:

❖ **الوجه:**

المدار الخارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

المدار الداخلي: بسم الله.. ضرب هذا الدينار بمدينة السلام سنة تسع وستين ومائتين.

المركز: لا إله إلا/الله وحده/لا شريك له/الموفق بالله/جعفر.

❖ **الظهر:**

المدار:محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

المركز: لله/محمد/رسول/الله/المعتمد على الله.

ثالثاً ـ المواقع الأثرية:

أ ـ الحِجْر (مدائن صالح):

تقع الحجر على مسافة ٢٣ كم شمالي العلا، وعرفت بهذا الاسم لأنها منطقة منخفضة وفسيحة تحيطها جبال من الحجر الرملي (الكوارتز)[٤]، حتى إن الداخل إلى المنطقة ليجد نفسه وسط سلسلة من الجبال المتشابكة والمنفصلة والمنحدرات الصخرية[٥]. وقد ورد ذكر الحجر في القرآن الكريم بوصفها موطناً لقوم ثمود في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾[٦].

وتعد الحجر (مدائن صالح) من أهم حواضر الأنباط بعد البتراء، ويعود أبرز أدوارها الحضارية إلى القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي، وذلك إبان ازدهار الدولة النبطية وقبل سقوطها على يد الإمبراطورية الرومانية عام ١٠٦م، ويجب التنويه إلى أن الحجر استمرت بعد هذا التاريخ مصدراً للإشعاع الحضاري والتفاعل الفكري حتى القرن الرابع الميلادي على الأرجح.

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، «الربذة: تاريخ وحضارة»، المنهل، مرجع سابق، ٩٩، أشكال ١٠٩ ـ ١١٤، ١٤٦ ـ ١٥١.

(٢) المرجع السابق، ٤٥١ ـ ٤٥٣.

(٣) المرجع السابق، ٤٥٣، ٤٥٤.

(٤) وزارة الشؤون البلدية والقروية، *التراث العمراني في المملكة العربية السعودية*، (الرياض: وكالة الوزارة لتخطيط المدن، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م)، ١٢٨، ١٢٩.

(٥) السليم، فهد بن سليمان بن حمد، «الزخارف المعمارية النبطية»، رسالة دكتوراه غير منشورة، مرجع سابق، ٧٥.

(٦) الحِجر، الآية: ٨٠.

وتوجد في الحجر (مدائن صالح) مجموعة من أهم آثار العالم القديم على الإطلاق، تلك هي مقابرها الصخرية الفريدة ذات الواجهات المميزة التي يعود أغلبها إلى القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي[١]، وتعد نماذج رائعة للعمارة الصخرية، والفنون الزخرفية في آنٍ واحد. وتتجلى من خلال أنماط عمارتها أمثلة فريدة على التناسق، والمزج الفائق بين مختلف العناصر الزخرفية من هندسية وأسطورية وطبيعية وغيرها في انسجام وتوافق تام.

وإلى جانب هذه المقابر توجد في المنطقة بقايا معابد وكوات مقدسة[٢]، تقع في جبل إثلب، أهمها الغرفة المنحوتة في الصخر المعروفة محلياً باسم (الديوان)، فضلاً عن كوات ومحاريب أخرى في جبل إثلب نفسه وفي أمكنة أخرى من الواجهات الصخرية. كما كشف في السهل المنبسط وسط الموقع عن بقايا أساسات مستوطنات سكنية قديمة تحيط بها الأسوار[٣]. وقد يعود بعض هذه المنشآت السكنية إلى بضعة آلاف من السنين، وربما كانت تضم بينها بقايا مساكن الدادانيين والثموديين والأنباط وغيرهم من الأقوام الذين تعاقبوا على استيطان الموقع.

وتشتمل المنطقة على مجموعة من الآبار التي يصل عمق بعضها إلى نحو تسعة أمتار، كما عثر في وسط جبل إثلب على خزان صخري لحفظ مياه الأمطار[٤]. وتنتشر في الموقع كميات متنوعة من المخلفات الأثرية الأخرى، منها الفخار بأنواعه المختلفة والعملات والمسارج وبعض موائد القرابين، فضلاً عن بعض الأعمال الفنية والمنحوتات



المقابر الصخرية في الحجر (مدائن صالح)

من التماثيل والأعمدة التاجية والأحواض ذات الأحجام المختلفة المصنوعة من الحجر الرملي أو الفخار[٥]، بالإضافة إلى ساعة شمسية لا تزال محفوظة حتى اليوم في متحف الشرق القديم في إستانبول. وفي أرجاء متفرقة من الموقع كتب على الواجهات الصخرية مجموعة من النقوش بخطوط دادانية ولحيانية وثمودية ونبطية ويونانية ورومانية أيضاً.

كما توجد في منطقة الحجر (مدائن صالح) مجموعة كبيرة من المقابر المنحوتة في الجبال والتلال المحيطة بالمنخفض الأوسط للموقع، وتضاهي في مجموعها مقابر البتراء النبطية في الأردن، وتتشابه معها في كثير من الأطر العامة لأساليب التنفيذ وتصميمات الواجهات واستخدام بعض

(١) Healey, J. "The Nabataean Tomb Inscriptions of Mda'in Salih", Journal of Semitic Studies Supplement No.1, 25, Oxford, 1993.

(٢) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٢٠٤.

(٣) Op. Cit., Healey, J. "The Nabataean Tomb", p. 11.

(٤) زيدون المحيس، *هندسة المياه والري عند الأنباط العرب*. ط١، (البتراء: منشورات بيت الأنباط، ٢٠٠٢م)، ١٣٥.

(٥) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٢٠٦ ـ ٢٠٨.



أماكن الدفن في مقابر الحجر (مدائن صالح)



قصر البنت

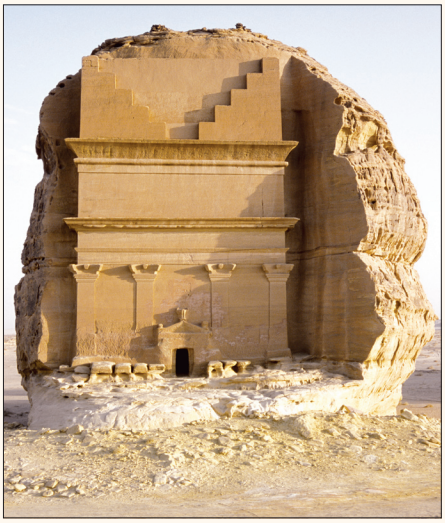

قصر الفريد

العناصر الزخرفية في تزيينها. ومن جانب آخر تختلف عنها من ناحية أن مقابر الحجر لا تحتوي غرف الدفن فيها على منحوتات زخرفية[١].

ويبدو من طرز مقابر الحجر المتعددة انتماؤها إلى أكثر من فترة زمنية، فبعضها يعود إلى الفترة النبطية المبكرة، وبعضها الآخر مؤرخ من نهايات القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي، في حين قد تؤرخ غالبيتها في القرن الثاني الميلادي؛ أي خلال الفترة التي انتهت فيها الدولة النبطية وفقدت سيادتها بوصفها حكومة مركزية على المنطقة. ويبلغ إجمالي عدد المقابر الصخرية في الحجر (مدائن صالح) نحو ١٣١ مقبرة[٢]، المؤرخ منها على وجه التحديد ٣٣ مقبرة، وترجع حسب تأريخ جون هيلي إلى الفترة من العام الأول قبل الميلاد حتى عام ٧٦م[٣]. ويخص عدد لا بأس به من هذه المقابر مجموعة من أصحاب المهن (الحرف) وكبار العسكريين والضباط الأنباط، من مراتب ومنازل مختلفة في سلم الوظائف العسكرية للجيش النبطي[٤].

وتتوزع أغلب مقابر المنطقة، وآثار الحجر بعامة، في مواقع فرعية كبيرة وجانبية منفصلة تسمى بأسماء محلية على النحو الآتي: قصر البنت، وقصر الصانع، والخريمات، والصليمية، وجبل المحجر، وقصر العجوز، وقصر الفريد، والمدقة، والهاجري، ومربط الحصان، فضلاً عن منطقة الديوان أو مجلس

(١) ج. ك. بيساك، «أساليب نحت الصخور في مدائن صالح: المشكلات والأساليب: النتائج الأولية»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، ع١٧، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ٢٠٤.

(٢) عزت زكي حامد قادوس، *آثار العالم العربي في العصرين: اليوناني والروماني - القسم الأسيوي*. ط ١، (الإسكندرية: ١٩٩٩م)، جـ١، ٣٠٥، ٣٠٦.

(٣) جون هيلي، « ملاحظات حول نقوش مدائن صالح »، أطلال، إدارة الآثار والمتاحف، ع١٣، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ٦٣ - ٦٩.

(٤) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش الحجر النبطية، مرجع سابق، ٥، ٦.

السلطان في جبل إثلب[١]، والمناطق المرقمة من (أ - و)، إلى جانب القلعة الإسلامية في الجهة الجنوبية الشرقية من المنطقة بجوار محطة السكك الحديدية[٢]. بعض هذه المواقع لا يحتوي سوى على مقبرة واحدة، كقصر العجوز أو قصر الفريد مثلاً، في حين تحتوي مواقع أخرى على أعداد كبيرة منها، مثل موقع الخريمات الذي توجد به ثلاث وخمسون من مقابر الحجر الصخرية[٣]، كما أن بعض هذه المقابر لم يكتمل العمل به، فظلت مجرد باب منحوت في الصخر يؤدي إلى غرفة الدفن، ويبدو أنه لم تنفذ لها واجهات مزخرفة حسب المتبع في أغلب مقابر المنطقة الأخرى[٤]. من جانب آخر ثَمَّ عدد قليل من المقابر لم يكتمل نحته كاملاً في واجهة الجبل؛ إذ يلاحظ أن النحات بدأ من القمة ولم يكمل بقية نحت المقبرة.

تُعّد مقابر الحِجْر حلقة متميزة ضمن حلقات تطور فن النحت الصخري في منطقة الشرق القديم بعامة. وقد أشار القرآن الكريم إلى براعة سكان الحجر من الثموديين الأقدمين في نحت بيوتهم في الجبال ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾[٥]، ثم جاءت مقابر العلا الدادانية والمعينية واللحيانية دليلاً على استمرار مهارة أهل المنطقة وخبرتهم في نحت الجبال، ثم أثبت الأنباط، سواء في بتراء الأردن أو في شمال غربي الجزيرة، في موقع البدع أو مغاير شعيب وفي الحجر نفسها، مقدرتهم الفائقة على نحت المقابر ذات الواجهات المزخرفة.

يبدأ العمل في نحت المقبرة في منطقة الحجر باختيار المكان المناسب من ناحية جودة الصخر وسلامة الكتلة الصخرية المختارة الخالية من الشقوق والتصدعات، كما أن تلك المقابر غير المكتملة في الموقع والتي لم ينفذ النحات سوى أجزائها العلوية في قمة الصخرة تشير إلى أن نحت المقبرة يبدأ من الأعلى إلى الأسفل، وليس العكس، وفي ذلك دلالة واضحة على التقدم الكبير للهندسة المعمارية لدى أهل الحجر من الأنباط؛ لأن البدء من أسفل يجعل واجهة الجبل متاحة لتنفيذ باقي أبعاد وتفاصيل أعلى الواجهة كيفما اتفق من دون قيود، أمّا البدء من أعلى فيعني تحديد نهاية الطريق قبل الشروع في بدايته، بما معناه التمكن الشديد من تنفيذ الأبعاد والعناصر بحسب تصميمات مسبقة ومحكمة، وإلا فشل العمل في الواجهة كلها، وظهر عدم اتساق الأبعاد وتوازنها.

يظهر من تناسق شطري أغلب مقابر مدائن صالح الصخرية، وتناسب أبعادها من الخط الهندسي لمنتصف المدخل؛ أي محور المقبرة، وكذلك التناسق الذي يميز عناصرها على كلا الجانبين، أن النحات استخدم تقنيات متطورة لضبط المسافات، وليس من المستبعد أن يكون الميزان المائي قد أسهم في دقة تحديد الأبعاد على واجهة القبر[٦]. وعلى ما يبدو فإن نحت هذه المقابر يتم من قِبل فرقة عمال متخصصة، تنقسم إلى جناحين متساويي العدد في كل جانب، أي ميمنة وميسرة، ثم يحدد لهم خط بداية في منتصف فتحة الباب، ويتولى عمال الميمنة العمل في الجانب الواقع أيمن هذا الخط، سواء في الداخل أو في الخارج، ويتولى عمال الميسرة العمل في الجهة المقابلة على النظام ذاته، ويقوم المعماريون المشرفون على العمل بمتابعة توافق وتناسب أبعاد وزوايا وزخارف

(١) انظر الخريطة التوضيحية لأهم هذه المواقع، في: المرجع السابق، ٢٥.

(٢) Op. Cit., Healey, J. "the Nabataean Tomb", Journal of Semitic Studies Supplement, No.1, pp. 299 - 300.

(٣) الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، وحسين بن علي أبو الحسن. العلا ومدائن صالح، مرجع سابق،٧٩.

(٤) Op. Cit., Healey, J. "the Nabataean Tomb", Journal of Semitic Studies Supplement, No.1, p. 7.

(٥) الحجر، الآية: ٨٢.

(٦) بيساك، ج.ك، «أساليب نحت الصخور»، أطلال، مرجع سابق، ع١٧، ٢٠٤.

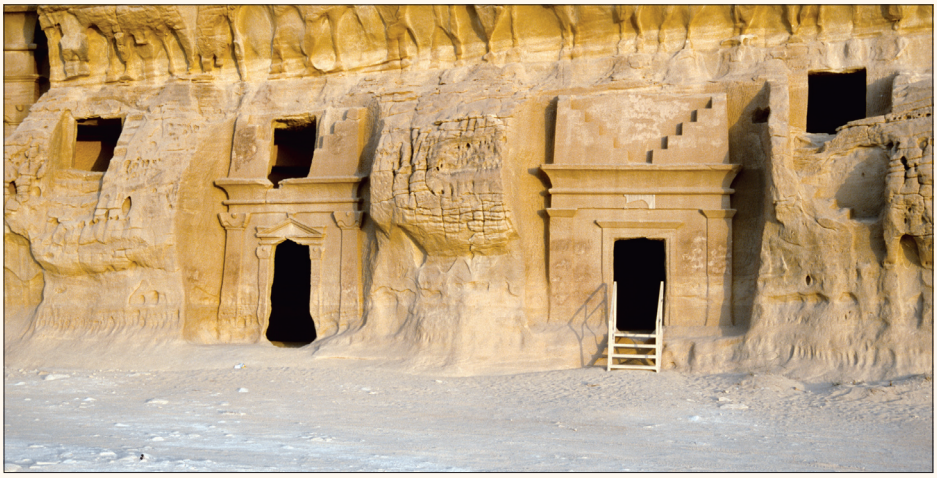

واجهات مقابر الحجر (مدائن صالح)

كلا الجانبين المتناظرين، وتصحيح العيوب أو الفروق في القياسات والأبعاد أولاً بأول؛ لكي يمضي العمل من بدايته حتى نهايته متميزاً بالتناسق، والتماثل والتطابق في كلا الجانبين على يمين محور المقبرة الأوسط ويساره.

تتنوع طرز مقابر الحجر وأحجامها بحسب الوضع الاجتماعي لصاحب المقبرة، وبحسب طبيعة الصخر وإمكانات النحاتين الفنية، وكذلك الوقت المتاح لنحت المقبرة؛ فبعض هذه المقابر عبارة عن كوات، أو تجاويف دفن بسيطة وصغيرة[1] مقطوعة داخل الجبل، وبعضها الآخر مجرد حجرات منحوتة في الصخر دون أي زخرفة في الواجهات، وهذه الحجرات هي نفسها حجرات الدفن، على حين تحتوي مقابر أخرى على حجرات داخلية صغيرة، تنحت داخل أو خلف الحجرة الأولى، كما هي الحال في مقبرة قصر العجوز مثلاً، ويتم الدخول إلى مقابر الحجر بعامة من طريق فتحات أبواب مستطيلة الشكل في الغالب، وتكون أمكنة الدفن في المقابر الصغيرة منها فردية أو محدودة العدد، كما تشتمل بعض المقابر الكبرى على مساحات داخلية خاصة بالدفن ورحبة نسبياً.

ينقسم تصميم أمكنة الدفن في مقابر الحِجْر إلى أسلوبين: الأسلوب القديم، وهو قطع خندق أو حفرة مستطيلة في الأرضية بطول يزيد قليلاً على المترين وعرض يقل قليلاً عن المتر الواحد، أو قد تكون أكبر من ذلك لتتسع لأكثر من دفنة واحدة، ثم يوسد بها المتوفى ويردم عليه، أو تسقف الحجرة بعد إتمام الدفن بألواح حجرية رقيقة، قد تغطى بالتراب مباشرة، وتلصق قبل ذلك بعضها مع بعض بملاط من عجائن جصية. الأسلوب الآخر، الأكثر انتشاراً في هذه المرحلة التاريخية الذي عرفته المقابر الصخرية العائلية أو الجماعية في كثير من بلدان منطقة الشرق القديم، وخصوصاً منذ العصر الهلينستي؛ أي في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، فيتمثل في نحت فراغات جانبية في كل أو بعض الجوانب الصخرية للمقبرة أو حجرة الدفن لتتسع كل منها ليوسد فيها متوفى واحد. وتعرف هذه التجويفات التي تنحت على شكل متوازي

(١) السليم، فهد بن سليمان بن حمد، «الزخارف المعمارية النبطية»، رسالة دكتوراه غير منشورة، مرجع سابق، ٧٥.

مستطيلات مفتوح من أحد الجوانب باسم المقابر ذات العيون[١]، حيث تكون أبعاد كل عين منها نحو ٢٠٠ ـ ٢٤٠ سم في الطول، و١٠٠ ـ ١١٠ سم في العمق، و ٨٥ ـ ٩٥ سم في الارتفاع؛ لتتسع للمتوفى موضوعاً على ظهره، وبعد إتمام الدفن تغلق العين أو التجويف على المتوفى بألواح حجرية رقيقة يثبت بعضها مع بعض بعجينة جصية، وقد تكون عيون المقبرة الواحدة في صف واحد، على مستوى واحد، كما قد تكون في عدد من الصفوف بعضها فوق بعض. وفي حالة دفن الأطفال يكون طول عيون الدفن في حدود ١٥٠ سم، على حين يكون عرضها وعمقها في حدود نصف متر[٢].

إن أبرز ما في المقابر الصخرية النبطية في كل من البتراء والحجر (مدائن صالح) واجهاتها الفريدة والمتميزة التي يعد معظمها نماذج لعبقرية المزج بين التناسق المعماري من ناحية، والثراء الزخرفي في مختلف الأطر والعناصر من ناحية أخرى. فيما يأتي عرض للطراز العام لهذه الواجهات، وأهم التفاصيل المعمارية المحتوية عليها على وجه الإجمال، مع الوضع في الاعتبار التنوع الكبير في التفاصيل، والتباين الشديد بين كثير من واجهات هذه المقابر، فقد تحتوي إحداها على بعض هذه العناصر، على حين يحتوي غيرها على بعض آخر منها، والأمر نفسه ينطبق فيما يتعلق بمكونات زخارف الواجهات وتنسيقها والدلالات الفكرية والعقدية التي قد ترمز إليها.

يبدأ العمل في المقبرة بتسوية مسطح الواجهة في مستوى رأسي من جانب الجبل ليتناسب ارتفاع واجهة المقبرة المراد إنشاؤها مع عرضها، ثم تسوى رحبة أمام هذه الواجهة، ويتم إزالة الزوائد الحجرية الموجودة فيها،



إحدى الواجهات من مقابر الحجر (مدائن صالح)

بعد ذلك يتم تحديد موضع باب المقبرة في منتصف عرض الواجهة تقريباً، وفي كثير من الحالات تعلو مدخل المقبرة لوحة يذكر فيها صاحب أو أصحاب المقبرة وبعض التشريعات اللازمة لحماية المقبرة واسم مشيدها[٣]، وقد يحيط بالباب من الجانبين عمودان نصفيان صغيران، كما قد يعلوه عتب بسيط أو جمالون مثلث على الطراز الإغريقي، بشكله التقليدي، أو قد يستبدل فيه شكل قوس بالمثلث العلوي في بعض الحالات[٤]، ولم تظهر في واجهات مقابر الحجر الجمالونات المثلثة المنقسمة إلى قسمين على الجانبين، وهي التي عُرفت في بعض مقابر البتراء.

(١) هنري رياض، *آثار الإسكندرية في العصر البطلمي*، (الإسكندرية: ١٩٨٨م)، ١٤٥.

(٢) قادوس، عزت زكي حامد. آثار العالم العربي، مرجع سابق، ٣٠٦.

(٣) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش الحجر النبطية، مرجع سابق، ٤.

(٤) السليم، فهد بن سليمان بن حمد، «الزخارف المعمارية النبطية»، رسالة دكتوراه غير منشورة، مرجع سابق، ٧٨.

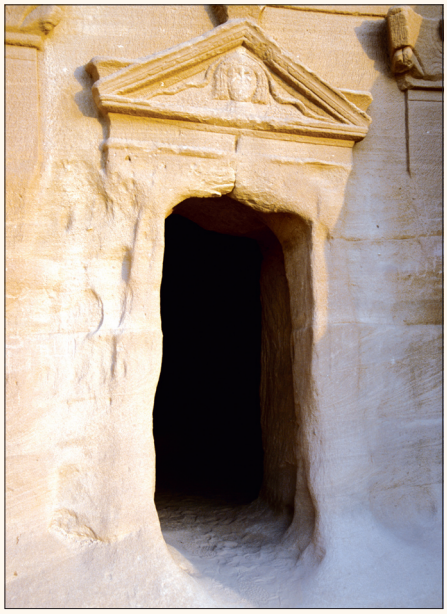

إحدى الواجهات من مقابر الحجر (مدائن صالح)

تملأ الفراغات في الواجهات المثلثة، وتقليداً للمتبع في العمارة الإغريقية، بعناصر زخرفية متعددة ومتنوعة، على حين قد يخلو القليل منها من الزخارف[١]، وتعلو الجمالون أو تحوطه في الغالب بعض الزخارف العلوية والإطارية المتنوعة، وسيرد ذكرها في وصف العناصر الزخرفية الخاصة بواجهات مقابر الحجر.

تحدَّد النهايتان الطرفيتان للواجهة في مقابر الحجر الصخرية بنحت خطين رأسيين بكامل ارتفاع المقبرة، وذلك في حالة المقابر ذات الواجهة البسيطة الخالية من الأعمدة الجانبية، أو بنحت أعمدة نصفية البدن متصلة بالواجهة من الخلف، وتكون مقاطع هذه الأعمدة دائرية أو مربعة، وقد تعلو أبدان الأعمدة وسادات أو أقراص تحميل حجرية نصف أسطوانية أو مستطيلة الشكل، تحمل عليها تيجانها، وهي ذات تفاصيل زخرفية مختلفة، فقد تكون بسيطة ذات حواف مشطوفة[٢]، أو من النوع المسمى طراز الأعمدة النبطية المقرّنة عند الأطراف، والتي يتوسطها بروز حجري، يرى فيه فهد السليم طرازاً محلياً صرفاً استوحى شكل الجزء العلوي من مجمرة حرق البخور الحالية[٣]. والواقع أن تيجان الأعمدة النبطية يمكن اعتبارها بشكل عام تحويراً ذا طابع محلي، يدمج بين التفاصيل المحلية والعمود الأيوني الإغريقي، سواء في الأركان المقرّنة، أو في الأقواس الصغيرة أسفل التاج.

وتنحت فوق هذه الأعمدة دعامات أو أعتاب أفقية، قد تكون مستقيمة وبسيطة التكوين، أو قد تتبع التقسيمات المتبعة في الأعتاب العلوية للطراز الدوري الإغريقي الشهير، حيث تقسم العتب فيه إلى مجموعات منفصلة من عنصرين معماريين زخرفيين يثبتان معاً من أعلى، على التوالي بوحدات التثبيت البرونزية، المشكلة من مثلثين يلتصقان مع بعضهما في منطقة الرأس، والمعروفة باسم (ذيل اليمامة)، وهما الترايجليفات والميتوبات، وقد توجد أعمدة نصفية إضافية قصيرة في أعلى سطح الواجهة، كما قد تضاف أنصاف أو أرباع أعمدة نصفية أخرى ضمن التكوين الزخرفي لبعض الواجهات الكبيرة[٤].

تنحت فوق الدعامة التي تعلو الأعمدة الجانبية للواجهة مجموعة من الدعامات والعناصر المعمارية الزخرفية الأخرى، وذلك في توال أفقي، وتوجد هذه التفاصيل في المنطقة الوسطى من الواجهة، أو منطقة ما دون أعلى الواجهة، وتشتمل هذه المنطقة عادة على مجموعة متعاقبة بعضها فوق بعض من الحليات المعمارية المعروفة عربياً

(١) بيساك، ج.ك، «أساليب نحت الصخور»، أطلال، مرجع سابق، ع١٧، ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق، ٢٠٣.

(٣) السليم، فهد بن سليمان بن حمد، «الزخارف المعمارية النبطية»، رسالة دكتوراه غير منشورة، مرجع سابق، ٢٢١.

(٤) المرجع السابق، ٦٥.

باسم (الطنف)، وعامياً باسم زخارف الكورنيشات. وهذه الحليات تكون قاعدتها أقل بروزاً من قممها، ويكون أوسطها على شكل القوس، وهي إمّا أن تكون بأقواس بسيطة من دون زخارف إضافية، وإما أن تكون أقواسها الوسطى مقسمة بوساطة عدد من أدوات الفصل الحجرية؛ فتعرف بالتالي بالكورنيش الإغريقي أو الكلاسيكي. وهناك إلى جانب ذلك الوحدات المتكررة الأخرى من الإطارات الزخرفية، الأفاريز، وهي الحليات المعمارية المنفذة على مستوى واحد، أو وحدات الفصل الممثلة في الحليات نصف الأسطوانية والمعروفة باسم الخيزران، أو مثيلاتها ذات الطابع الإغريقي المشكلة على هيئة أسطوانات حجرية تشبه الحبال.

تتعدد العناصر والمكونات الزخرفية التي تزين واجهات المقابر الصخرية في الحجر، ولاسيما حول منطقة الجمالون المثلث أو القوس أعلى باب المقبرة، أو في الفراغات الموجودة بداخلها، فقد تضم بينها رموزاً عربية محلية صرفة مثل المزهرية رمزاً للمعبودة (اللات)، أو أحد رموز المعبود (ذو الشرى)[١] الذي قد يصور بغطاء أو من دونه، بنسب عادية أو يشوبه بعض الانتفاخ في منتصف بدنه[٢].

وثمة رموز أخرى نحتت على واجهة المقبرة لحماية المقبرة من السطو أو التدمير أو الاحتلال، مثل النسر الذي ينقش في الغالب في قمة مثلث جمالون الواجهة رمزاً للمعبود النبطي الرئيس (ذي الشرى) على الأرجح[٣]، وقد تنوعت بعض أشكال النسور المنحوتة على واجهات مقابر الحجر، تبعاً للاختلاف في الأسلوب لدى بعض النحاتين المعروفين[٤] الذين قاموا بتنفيذها، حيث صور بعضها بأجنحة مبسوطة وبعضها الآخر بأجنحة مقوسة إلى أعلى. كما وجدت ضمن العناصر الزخرفية لواجهات مقابر الحجر رموز يونانية صرفة مثل رأس المرأة التي شُكّل شعرها على هيئة الثعابين، وهو أحد رموز الحماية في المعتقدات اليونانية القديمة.

وقد يستبدل برأس الجورجون ميدوسا في بعض الأحوال شكل قناع بشري[٥] مخيف غالباً، مثلما في واجهة إحدى مقابر المجموعة (ج)؛ ما قد يربطه كذلك بالمفاهيم والمعتقدات حول حماية المقبرة، وفي مقبرة واحدة من مقابر الحجر صور في فراغ الواجهة المثلثة للمقبرة رأس بشري تحيط به الحيّات[٦]، ويلاحظ أن التماثيل الآدمية الكاملة أو شبه الكاملة، والمصورة بثراء كبير في الملابس والحليات والرموز، سواء عبرت عن معبودات أم عن أفراد من الرجال أو النساء، ووجدت على واجهات المقابر النبطية في البتراء، لا توجد نظائر لها في واجهات مقابر الحجر[٧].

أما عن العناصر المستوحاة من أشكال الحيوانات، فهي كثيرة ومتنوعة ضمن زخارف المقابر الصخرية النبطية بعامة، فمنها هيئات الأسود المستوحاة من الموروث الفني والفكر الديني لمعظم حضارات منطقة الشرق الأدنى القديم، بوصفها رمزاً يرتبط منذ القدم بشخصية الزعيم في فنون الشرق القديم، ثم تحول في العصور التاريخية اللاحقة فأصبح رمزاً مرتبطاً بالملكية، وزينة لعرش الملوك وحماية لبوابات القصور والمعابد، فضلاً عن صلته الكبيرة بعبادة الشمس، ودلالته القوية على مفاهيم الحماية والحراسة في بعض حضارات الشرق القديم عبر عصورها المختلفة، ومنها انتقل بمفاهيم مماثلة إلى

(١) عبدالرحمن الطيب الأنصاري، وآخرون، *مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية*. ط١، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م)، ٤٢.

(٢) OP. Cit., Healey, J. "the Nabataean Tomb", Journal of Semitic Studies Supplement, No.1, p. 6.

(٣) أحمد عجلوني، *حضارة الأنباط من خلال نقوشهم*. ط١، (البتراء: منشورات بيت الأنباط، ٢٠٠٣م)، ٢٢٢؛ Ibid., Healey, J. "the Nabataean Tomb", Journal of Semitic Studies Supplement, No.1, p.10.

(٤) السليم، فهد بن سليمان بن حمد، «الزخارف المعمارية النبطية»، رسالة دكتوراه غير منشورة، مرجع سابق، ٩٨، ٩٩.

(٥) المرجع السابق، ٧٨.

(٦) المرجع السابق، ١٤٥-١٤٦.

(٧) Op. Cit., Healey, J. "the Nabataean Tomb", Journal of Semitic Studies Supplement, No.1, p. 6-7.

حضارة بلاد الأناضول، حتى وصل إلى بلاد الإغريق أخيراً محملاً بكثير من السمات الفنية والأطر العَقَدية الشرقية القديمة.

وإلى جانب الأسود زينت بعض المقابر والآثار النبطية في البتراء بأشكال تمثل رؤوس الثيران[١]، ولكن مثل هذا النوع من الزخارف الحيوانية لم يعثر عليه في واجهات مقابر الحجر.

وتحتوي إحدى واجهات المقابر على جانبي الباب على منحوتات لحيوانات أسطورية مركبة ومجنحة[٢]، وهذه التصاوير المجنحة مستوحاة من فنون ومعتقدات بلاد الرافدين ومصر القديمة اللتين عرفتا هذا النوع من المنحوتات في تاريخ مبكر من عمر الحضارة في كلا الحضارتين. والملاحظ أن الحيوانين الأسطوريين على واجهة المقبرة يحيطان بالعنصر الزخرفي الهندسي الذي يجمع بين شكل الدائرة التي تحتوي في وسطها على بؤرة مركزية يحيط بها بتلات زهرة صورت في تناسق، وهي ما تعرف بالروزيتة التي وجدت أصولها الأولى في بعض العناصر الفنية الزخرفية لحضارة مصر القديمة منذ أقدم العصور[٣].

واشتملت الحليات المعمارية لبعض واجهات مقابر البتراء على عناصر زخرفية لم يعثر على نظائر لها في واجهات مقابر الحجر، ومن أهمها المسلات بوصفها رمزاً بارزاً من رموز عبادة الشمس، ومعلماً على الأمكنة المقدسة بعامة، وشواهد للقبور كذلك[٤]. ومن الزخارف التي لم يعثر على نظائر لها في الحجر - حتى الآن - تلك الزخارف المستوحاة من العناصر النباتية على واجهة مقبرة (الخزنة) الشهيرة بالبتراء، وكحالة نادرة كذلك في منطقة حوران[٥].

تمثل شرفات السطح المدرجة بصورة عامة حليات أعالي الواجهات (Attic Storey) في مقابر كل من البتراء والحجر (مدائن صالح) الصخرية، وقد شكل أغلب هذه الشرفات، إمّا على شكل مثلثات متماثلة الحجم، متساوية الضلعين ومدرجة من الجانبين (في حدود أربع أو خمس درجات



إحدى شرفات أعالي الواجهات في مقابر الحجر

(١) السليم، فهد بن سليمان بن حمد، «الزخارف المعمارية النبطية»، رسالة دكتوراه غير منشورة، مرجع سابق، ٩٥ - ٩٧.

(٢) المرجع السابق، ٧٧.

(٣) Op. Cit., Smith, the Art and Architecture, Fig. 21/ a -c, p. 51.

(٤) السليم، فهد بن سليمان بن حمد، «الزخارف المعمارية النبطية»، رسالة دكتوراه غير منشورة، مرجع سابق، ٢٠٦، ٢١١.

(٥) المرجع السابق، ٢٢٠.

تقريباً)[١]، وذلك في حالة تكرار الشرفات فوق كامل مسطح العتب أو الكورنيش العلوي، فيما يعرف أحياناً بخطوة الغراب[٢]، وإما على شكل مثلثات كبيرة الحجم، قائمة الزاوية ومدرجة من الضلع الداخلي فقط، في حالة وجود اثنين فقط من هذه المثلثات المدرجة عند أقصى نهايتي الواجهة عند الطرفين.

وقد تأثر تنفيذ هذه الشرفات كثيراً بالطابع المعماري الخاص بشرفات الأسطح وأعالي المباني الذي عرفه كثير من البلدان الواقعة في شرق الجزيرة العربية وشمالها، فلقد انتهجه الآشوريون في عصرهم الامبراطوري في تشييد قصور ملوكهم وتحصيناتهم العسكرية، ثم استمر ذلك في شرفات بوابات بابل وأسوارها في العصر الكلداني[٣]، ثم في قصور ملوك بلاد فارس الأخمينيين، في عاصمتهم (إصطخر) التي سماها الإغريق برسوبوليس.

١ ـ المعابد والنصب الحجرية:

تنتشر المعابد والمشكاوات والكوات الخاصة بمعبودات ما قبل الإسلام في منطقة الحجر، ومن هذه المعابد ما كانت له صبغته العمومية، ومنها ما كان محراباً تعبدياً خاصاً بالعشيرة التي أقامته[٤]، وكانت ظاهرة إقامة المعابد فوق الأمكنة المرتفعة تقليداً قديماً في المعابد عموماً والنبطية بصفة خاصة، فقد أقيم كثير من هذه المعابد بأحجام مختلفة على جبل إثلب الواقع في الجهة الشمالية الشرقية من الحجر، وأشهرها بطبيعة الحال هو ذلك الإيوان المحفور في الصخر الذي اشتهر عند الأهالي باسم (الديوان) أو (مجلس السلطان)، ومن المرجح أن هذا المعبد الصخري المتسع

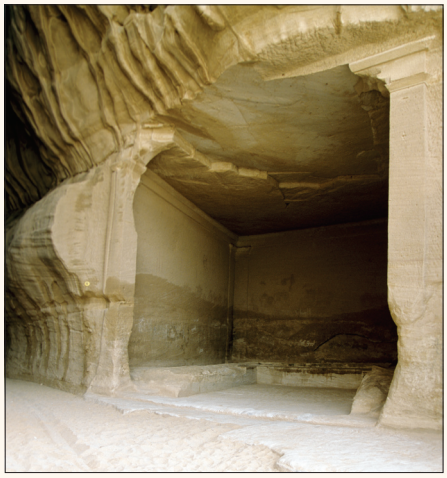

الديوان أو مجلس السلطان

والمنحوت بعناية في صخور الحجر، أحد المعابد المحلية الرئيسة للمعبود النبطي الرئيس (ذو الشرى)، وقد نحت (الديوان) على هيئة غرفة كبيرة مستطيلة الشكل، طولها نحو ١٢,٨٠ م وعرضها ٨,٩٠ م وارتفاعها ٨ م، ونحتت في ثلاثة من جوانبها مساطب حجرية؛ لتخدم غرض الجلوس أو وضع النذور ومستلزمات الطقوس عليها، في حين حليت الجدران أسفل السقف بإفريز زخرفي بارز متناسق، وشكّل على جانبي المدخل عمودان نبطيان يعلوهما عتب حجري بعرض الواجهة.

وقد نحت الديوان في إحدى كتلتين صخريتين ضخمتين في جبل إثلب، بحيث تكون الكتلة الصخرية الثانية المقابلة بمثابة مصد من الرياح وحجبٍ لأشعة الشمس الحارة عنه، ويوجد بجوار الديوان خزان ماء ضخم، منحوت في أرضية الجبل على هيئة متوازي مستطيلات، أبعاده ١٠ م طولاً و٥ م عرضاً و٥ م عمقاً، تؤدي إليه قناتان لإمداده بالمياه[٥]، وقد يخدم هذا الخزان أغراض التطهير وغيرها من مستلزمات الطقوس، فضلاً عن إمداده

(١) المرجع السابق، ٧٧، ٢١٠، يرى السليم فيها إشارة إلى أهم معبودات الأنباط: ذو الشرى، واللات، والعزى، ومناة، وشيع القوم.

(٢) قادوس، عزت زكي حامد. آثار العالم العربي، مرجع سابق، ٣٠٧.

(٣) نعمت إسماعيل علام، *فنون الشرق الأوسط والعالم القديم*. ط١، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م)، الأشكال: ١٨٦، ١٩٢، ٢٠٣، ٢١٣، لوحة رقم ٥.

(٤) الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، وحسين بن علي أبو الحسن. العلا ومدائن صالح، مرجع سابق، ٨٥.

(٥) الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، وحسين بن علي أبو الحسن. العلا ومدائن صالح، مرجع سابق، ٩١.

الكهان وزائري المنطقة الكثيرين بالمياه في مناسبات تجمعهم في الاحتفالات الدينية الخاصة بالمعبودات آنذاك.

لقد درج الأنباط، سواء في البتراء أو الحجر أو غيرهما من مواقعهم الأخرى على تصوير معبوداتهم بهيئات مجردة، تشبه النصب واللوحات الحجرية، وقد تشكل فيها أحياناً بعض ملامح الوجه كالعينين والأنف بشكل اصطلاحي وغير تفصيلي، وكان من المعتاد إقامتها أو نحتها داخل معابد أو مشكاوات صغيرة منحوتة في الصخر، ينتشر بعضها كذلك في الجهة الجنوبية من جبل إثلب وفي أمكنة أخرى من الحجر، منها واحدة تقع قبالة الديوان كتب بجانبها نقش يفيد بأنها مكرسة للمعبود (شايع القوم)،وثمة مشكاة أخرى تقع على يسار الديوان في الممر الضيق كتب بجانبها نقش نبطي[١] يذكر المعبود (أعرا) الذي انتشرت عبادته في منطقة بصرى الواقعة جنوب سورية[٢]. ويغلب على تصميم



محاريب في جبل إثلب

المشكاوات في منطقة الحجر اتخاذها شكل المحاريب المقوسة من أعلى، أو إضافة عتب علوي عليها على هيئة الجمالون الإغريقي، كما أن بعضها الآخر يحيط به الأعمدة أو يعلوه النسر المقدس الذي يرمز على الأرجح إلى المعبود النبطي (ذو الشرى).

وقد نحت في بعض محاريب جبل إثلب نصبان متجاوران، في حين نحت في بعضها الآخر ثلاثة أنصاب حجرية متجاورة، يفصل بين كل واحد منها والآخر قطع عميق في الصخر[٣]. وسواء عبرت النصب الثلاثة عن صور مختلفة لمعبود واحد، أو لمعبودات ثلاثة، فإن لها من الروابط والوشائج ما يجمعها معاً، ويجمع أتباعها من حولها.

وفي حقيقة الأمر فإن تصوير المعبودات النبطية بهذا الشكل المجرد والبسيط لا يعني عجزاً في المقدرة الفنية لفناني الأنباط، سواء في البتراء أو في الحجر، فواجهات مقابرهم شاهد كبير على تمكنهم، وعلو سهمهم في الفنون المعمارية عموماً، وفن النحت بخاصة، ولكن الدافع وراء ذلك يمكن تفسيره، فيما يرجح، بالمشاعر المتدينة المحافظة لديهم، ونظرتهم إلى ماهية معبوداتهم بحسبانها تتسم بالروحانية أكثر من المادية[٤]، وبما جعلهم يمتنعون عن أن يضفوا على معبوداتهم صوراً محددة أو قوالب جامدة تحصرهم فيها.

٢ ـ المنطقة السكنية:

كشفت بعثات وكالة الآثار والمتاحف بمنطقة مقابر مدائن صالح النبطية عن بقايا منطقة سكنية قديمة مهمة ومتميزة، تعود إلى فترات تاريخية مختلفة من الاستيطان

(١) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش الحجر النبطية، مرجع سابق، النقش رقم ١، ٢٩.

(٢) إن انتشار تقديس المعبود (أعرا) في الحجر يؤكد الروابط الدينية والاجتماعية بين الحجر وبصرى الشام.

(٣) السليم، فهد بن سليمان بن حمد، «الزخارف المعمارية النبطية»، رسالة دكتوراه غير منشورة، مرجع سابق، ١١٠ ـ ١١٢.

(٤) الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، وحسين بن علي أبو الحسن. العلا ومدائن صالح، مرجع سابق، ٨٣.

البشري والنشاط السكاني في منطقة الحجر، وذلك في الموقع السهلي المسمى (خريبة الحجر)، فيما بين مقابر قصر البنت ومحطة سكة حديد الحجاز[١]، وقد استمر العمل في هذا الموقع عدداً من المواسم أسفر عن العثور على بقايا منازل وأساسات جدران المنشآت المعمارية[٢] وبعض غرف كاملة بنيت من كتل الحجر الرملي[٣]، واستخدم في تثبيتها ملاط من الطين، كما عثر في بعض الأبنية على بقايا المواقد يحيط بها الرماد، فضلاً عن بقايا لسور ضخم، عرضه نحو مترين، كان يحيط بالمنطقة السكنية من جوانبها كافة، وقد بني من الطوب اللبن فوق أساسات من الحجر الرملي، على حين دعمت بعض جوانبه ولاسيما من الجهة الشرقية بتقوية من الأحجار الرملية[٤].



بقايا المنطقة السكنية (خريبة الحجر)

أ) آثار المنطقة السكنية:

عثر في المنطقة السكنية أيضاً على كمية ضخمة من المخلفات الأثرية، بينها أربعة تماثيل فخارية صغيرة، ذات أغراض تمائمية لبعض من المعبودات[٥] التي تبوأت مكانة دينية عند الأنباط خلال العصر الهلينستي، وهي سخمت (جسد امرأة برأس لبؤة)، وحورس - الطفل - (هربوكراتيس)، والمعبود القزم برأس الأسد المدعو (بس)، والربة بشكل حية الكوبرا (واجيت)، وبعض التماثيل الأخرى ذات الأشكال الآدمية والحيوانية[٦]، وكذلك كسر عدد من الأواني المصنوعة من الأحجار مختلفة الأنواع، منها الرخام والحجر الرملي والحجر الصابوني وغيرها، وقد تميزت منها آنية كبيرة، كانت مخصصة لحفظ الماء، كما عثر على كسر أدوات حجرية أخرى متنوعة، منها رحى من الحجر الرملي كانت تستخدم لجرش الحبوب، وكذلك تاج عمود نبطي الطراز عليه زخارف تشتمل على أوراق نباتية، فضلاً عن عدد كبير من المغازل الحجرية، بما يشير إلى انتشار مهارة غزل الصوف بين السكان الأقدمين في موقع الحجر[٧]، وإلى جانب ذلك عثر على أعداد كبيرة من قطع العملات والمسكوكات النبطية، المصنوعة من النحاس والبرونز، وقد عثر منها على عدد تجاوز السبعين في أحد المواسم[٨]، وعدد آخر قارب المئة في موسم آخر[٩]، من بينها عملات تعود للملك النبطي الحارثة الرابع الذي حكم خلال الفترة من العام التاسع قبل الميلاد حتى العام الأربعين بعد الميلاد، وعلاوة على ذلك عثر على قطع أدوات معدنية أخرى من النحاس والحديد خاصة بصناعة النسيج وبعض الحلقات والمسامير[١٠]، كما كشف عن كميات ضخمة من البقايا الفخارية متعددة الطرز والزخارف والأنواع، بينها بعض الأواني شبه

(١) محمد البراهيم، وضيف الله الطلحي، «تقرير مبدئي عن حفرية الحجر: الموسم الأول ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م»، *أطلال*، إدارة الآثار والمتاحف، ع١١، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٨م)، ٥٧ - ٦٨.

(٢) المرجع السابق، ٦١ - ٦٦.

(٣) المرجع السابق، ٦٤، ٦٥.

(٤) ضيف الله الطلحي، «تقرير مبدئي عن نتائج حفرية الحجر: الموسم الرابع ١٤١١ هـ/١٩٩٠م»، *أطلال*، إدارة الآثار والمتاحف، ع١٤، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤١٦ هـ/١٩٩٦م)، ٢٤، ٢٥.

(٥) جمال الدين صالح سراج علي، «تقرير عن نتائج حفرية الخريبة الجنوبية بالحجر: الموسم الثالث ١٤١٠ هـ»، *أطلال*، إدارة الآثار والمتاحف، ع١٣، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤١١ هـ/١٩٩٠م)، ٣٠.

(٦) البراهيم، محمد، وضيف الله الطلحي، «تقرير مبدئي عن حفرية الحجر: الموسم الأول»، *أطلال*، مرجع سابق، ع١١، ٦٦، ٦٧.

(٧) محمد البراهيم، وضيف الله الطلحي، «تقرير مبدئي عن حفرية الحجر: الموسم الثاني ١٤٠٨ هـ»، *أطلال*، إدارة الآثار والمتاحف، ع١٠، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤١٠ هـ/١٩٨٩م)، ٢٥، ٢٦.

(٨) علي، جمال الدين صالح سراج، «تقرير عن نتائج حفرية الخريبة: الموسم الثالث»، أطلال، مرجع سابق، ع١٣، ٣١، ٣٢.

(٩) البراهيم، محمد، وضيف الله الطلحي، «تقرير عن حفرية الحجر: الموسم الثاني»، أطلال، مرجع سابق، ع١٠، ٢٧.

(١٠) علي، جمال الدين صالح سراج، «تقرير عن نتائج حفرية الخريبة الجنوبية بالحجر: الموسم الثالث»، أطلال، مرجع سابق، ع١٣، ٣١، ٣٢.

الكاملة، ومنها آنية ضخمة برميلية الشكل[١]، وبعض الأواني الفخارية الكبيرة الأخرى التي استخدم أحدها تنوراً لصناعة الخبز، وآنية ثانية كبيرة ثبتت بالأرض، وكانت مستخدمة مخزناً لحفظ الحبوب[٢]، وعليها كتابة نبطية تحمل اسم صانعها المدعو (فطمي)، وكذلك مجموعة من الكسارات الرقيقة الناعمة متقنة الصنع، ولاسيما من الطبقة السفلى بالموقع[٣]، ومجموعة ثانية من كسارات الفخار النبطي الأحمر الرقيق، ذي الرسوم النباتية والهندسية وصور الطيور[٤]، وهناك كذلك عدد من قطع الحلي والأساور من المعدن، وبعض بقايا العقود من القواقع والأصداف والخرزات الملونة[٥]، فضلاً عن بقايا لمسارج ومباخر من الفخار ومكاحل من المعدن، وأمشاط لتصفيف الشعر من الخشب، وبعض القطع الأخرى المتميزة والمصنوعة من الزجاج[٦].

وعثر بالموقع في موسم الحفر الثاني على عدد من القطع الفنية المتميزة المصنوعة من الأحجار، ومنها تمثال صغير من المرمر يمثل نموذجاً لما اصطلح على تسميته أصنام الأم، ويرى البراهيم والطلحي تشابه هذا التمثال مع نموذج آخر للتماثيل نفسها، كان قد عثر عليه في منطقة ثاج شرقي المملكة العربية السعودية، وبما يشير في رأيهما إلى التواصل الحضاري بين الموقعين، وإن تباعدت المسافة بينهما، فضلاً عن كأس رائعة الجمال صنعت من الحجر الرملي، ونحتت على بدنها نقوش بارزة متقنة تغطي كامل سطوحها، وتمثل نسراً فارداً جناحيه، وأسداً جاثماً وفرسين ورجلاً يقف واضعاً يده على فخذ الأسد[٧]، وهي موضوعات تتصل بلا شك بالمعتقدات الدينية النبطية ذات العلاقة ببعض الأرباب المحلية في المنطقة، مثل ذو الشرى ومناة واللات.

إن ما كشف عنه في المنطقة السكنية، سواء من منشآت معمارية أو مواد وأدوات أثرية خاصة بالحياة اليومية لسكان منطقة الحجر آنذاك، إنما ينم عن قدرة فائقة في توظيف البيئة المحلية في خدمة الأغراض الحياتية واستثمارها وفق ما يخدم متطلبات حياتهم المعيشية، كما أن الصناعات الحجرية أو المعدنية أو الفخارية التي كشف النقاب عنها في الموقع ـ حتى الآن ـ تشهد على تقدم تقنية الصناعة بين سكان المنطقة وتعزز من حقيقة أن شعب المنطقة ـ آنذاك ـ كان مبتكراً ومبدعاً وعلى جانب مرموق من التحضر الفكري والثقافي.

ب) درب البكرة:

وكشف منذ سنوات قليلة عن طريق قديمة ومهمة[٨]، كانت تسلكها القوافل التجارية بين الحجر والبتراء، وتبدأ هذه الطريق المسماة درب البكرة من موقع خشم صنعا الواقع على مسافة نحو ١٠٠ كم شمالي الحجر، وتسير في اتجاه الشمال الغربي حتى البتراء[٩]، مارة عبر حرة عويرض ووادي رويشدة وشعيب الأتقة ثم حرة الرهاة وأم جذايذ.

وقد عثر في بطن وادي الرويشد على أطلال معبد نبطي، يتوسط بعض التلال الصخرية، ونقشت كمية ضخمة من النقوش النبطية على أحجار بناء هذا المعبد المتناثرة من حوله، بفعل السيول الشديدة، وكذلك على صفحات الجبال المحيطة بالموقع[١٠].

وفضلاً عن وجود بقايا عدد من أبراج المراقبة المبنية بالحجر على طول الطريق،

(١) الطلحي، ضيف الله، «تقرير مبدئي عن نتائج حفرية الحجر: الموسم الرابع»، أطلال، مرجع سابق، ع١٤، ٢٦، ٢٧.

(٢) البراهيم، محمد، وضيف الله الطلحي، «تقرير مبدئي عن حفرية الحجر: الموسم الثاني ١٤٠٨ هـ»، أطلال، مرجع سابق، ع١٠، ٢٧.

(٣) علي، جمال الدين صالح سراج، «تقرير عن نتائج حفرية الخريبة الجنوبية بالحجر: الموسم الثالث»، أطلال، مرجع سابق، ع١٣، ٣٥.

(٤) البراهيم، محمد، وضيف الله الطلحي، «تقرير مبدئي عن حفرية الحجر: الموسم الثاني»، أطلال، مرجع سابق، ع١٠، ٢٥، ٢٦.

(٥) علي، جمال الدين صالح سراج، «تقرير عن نتائج حفرية الخريبة الجنوبية بالحجر: الموسم الثالث»، أطلال، مرجع سابق، ع١٣، ٣١، ٣٢.

(٦) الطلحي، ضيف الله، «تقرير مبدئي عن نتائج حفرية الحجر: الموسم الرابع»، أطلال، مرجع سابق، ع١٤، ٢٦، ٢٧.

(٧) المرجع السابق، ع، ٢٧، ٢٨.

(٨) علي بن إبراهيم غبان، *درب البكرة طريق التجارة العربية القديمة بين الحجر والبتراء: بحوث ودراسات ندوة الآثار في المملكة العربية السعودية: حمايتها والمحافظة عليها*، (الرياض: وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠٢م)، ج١، ٢٣١ ـ ٢٤٠.

(٩) انظر خريطة الطريق في: المرجع السابق، ٢٤٠.

(١٠) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش جبل أم جذايذ النبطية: دراسة تحليلية، مرجع سابق، ٣٥ ـ ٢٠٧.

وكذلك بقايا مرصد أو نقطة مراقبة، على هيئة برج دائري، فقد وجد بالقرب من الموقع الذي عدّ معبداً، بقايا بناء كبير، يعرف الآن محلياً باسم بيت أبوزيد، ربما كان خاناً قديماً ومكاناً لاستراحة القوافل، وعلى بُعد كيلين منه توجد بقايا بوابة ضخمة من الحجر في مكان يدعى مفشق الناقة[١]، يرجح أنه نقطة جباية مكوس المرور عبر الطريق.

ج) نقوش الحجر:

وإذا كانت التنقيبات في موقع الحجر وما حولها لا تزال في بداياتها حتى الآن، وتحتاج إلى كثير من الجهود للكشف عن المعلومات المحيطة بهذا الموقع التاريخي والأثري الفريد في جزيرة العرب، إلاّ أن ما أمكن جمعه ونسخه من النقوش والكتابات القديمة في الحجر نفسها، وخصوصاً المكتوب منها بالخط النبطي، يبلغ بضع مئات من النقوش، وقد أماطت مجموعة هذه النقوش النبطية اللثام عن كثير من المعلومات عن حياة الأنباط بجوانبها المختلفة، سواء السياسية أو الاجتماعية أو الدينية أو المعمارية. وتشير دراسات هذه النقوش إلى أن الخط النبطي كان أداة الكتابة الرئيسة في المنطقة، ولمدة قاربت خمسة قرون متتالية، ويرجع أقدم النقوش النبطية بالحجر إلى السنة الأولى قبل الميلاد، في حين يؤرخ أحدثها بالقرن الرابع الميلادي[٢].

لقد قدمت هذه النقوش معلومات مفيدة عن شتى مجالات حياة الأنباط إجمالاً، وفي الحجر على وجه الخصوص، ففي الجانب الديني تمدنا بأسماء أحد عشر معبوداً، أهمها: ذو شرى، ومنها هبل وقيس وتبوش ومنوتو (أي

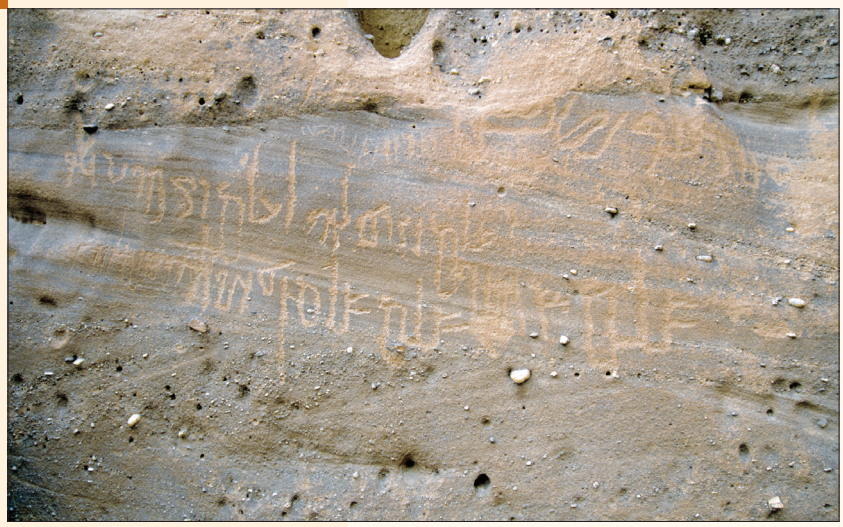

نموذج للنقوش النبطية في منطقة الحجر

مناة)؛ وهي المعبودة نفسها التي وردت في القرآن الكريم ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾[٣]، وشايع القوم، وأعرا، وصعبو، وغيرها. ووجدت تسميات لأمكنتهم المقدسة نحو: المعبد، والمسجد؛ إذ عرفت المساجد قبل الإسلام، ومن ذلك ما ورد في سورة الكهف: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾[٤]، فضلاً عن التعرف على بعض الوظائف في سلم وظائف المعبد النبطي، ومنها منصب (أفكلا) بمعنى (الكاهن)، وهو الذي كان يقوم على طقوس هذه المعبودات، وتحصيل نذورها وجباية الغرامات الموقعة على المخالفين من عبّادها[٥].

وأبرزت هذه المجموعة الكبيرة من النقوش النبطية أيضاً الأهمية العسكرية الكبيرة لمنطقة الحجر، نظراً لموقعها الإستراتيجي المهم، حيث كانت قاعدة عسكرية نبطية مهمة في فترة نهاية القرن الأول (ق. م) وطوال القرن الأول الميلادي على الأقل[٦]، وأشارت النقوش النبطية نفسها إلى بعض الألقاب المهمة لكبار القادة العسكريين، وحامل لواء

(١) انظر صورة بقايا هذه البوابة عند: غبان، علي بن إبراهيم. درب البكرة، مرجع سابق، لوحة ٤، ٢٣٨.

(٢) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش الحجر النبطية، مرجع سابق، ٣.

(٣) النجم، الآية: ٢٠، وكان مركز عبادتها الرئيس في (القديد) بين مكة والمدينة؛ انظر: الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش الحجر النبطية، مرجع سابق، ٢١٨.

(٤) الكهف، الآية: ٢١، كان (المسجد) الذي اتخذه الناس على أهل الكهف بعد أن توفاهم الله سبحانه وتعالى، وظهرت معجزته فيهم للعالمين، خارج حدود المدينة فوق الكهف الجبلي الذي لجؤوا إليه فراراً بدينهم.

(٥) سعيد بن فايز السعيد، «نقوش لحيانية غير منشورة من المتحف الوطني»، *نشرة بحثية* ١٤. ط١، (الرياض: جامعة الملك سعود، كلية اللغات والترجمة، مركز البحوث، ٢٠٠٠م)، ١٧ ـ ٢٠.

(٦) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش الحجر النبطية، مرجع سابق، ٥، ٦.

الجيش، ورؤساء حاميات الجند، بل الجواسيس (مجندي الاستخبارات العسكرية)، فضلاً عن الحرس الخاص للملك أو الوالي[١]، وهو ما يشير إلى أن قوام الجيش في المنطقة كان يتعدى الآلاف من الجند، وأن تنظيمه كان يتبع نظم الجيوش الرومانية، نظراً لتشابه بعض هذه الألقاب مع ألقاب عسكرية رومانية[٢].

تشتمل نقوش الحجر النبطية أيضاً على ألقاب إدارية وأخرى تتصل بمهنة الصرافة، وثالثة تتعلق بمهن خاصة بالنشاط الزراعي، وكذلك ألفاظ تشير إلى نشاط استصلاح زراعي مكثف في المنطقة، إلى جانب تسميات مهنية تشير إلى مهنيين يعملون بالنسيج والحياكة وصياغة المعادن، فضلاً عن إشارات متعددة عن مهنة البناء والتشييد والعاملين فيها، وكذلك فنون النحت في الحجر، كما تتحدث عن قطع المقابر في الصخر ونحت واجهاتها وزخارفها، فضلاً عن نحت التماثيل وموائد القرابين، كما تضمنت النقوش كذلك إشارات إلى مهن أخرى مهمة مثل الأطباء المعالجين[٣].

وعلى أي حال فإن النقوش النبطية من الحجر تدل على حضارة متميزة وتنظيمات عسكرية وإدارية جيدة، واقتصاد زراعي وتجاري بما يعكس بوجه عام منعة المنطقة، وقوة الاقتصاد النبطي آنذاك، كما تشير النقوش إلى رغد الحياة في مجتمع الحجر، ما سمح بوجود جاليات متعددة من جنسيات مختلفة عاشت بين ظهراني أنباط الحجر، والتمست بينهم الأمن وسعة العيش[٤].

وإلى جانب نقوش الحجر تنتشر النقوش النبطية في أرجاء متفرقة من مناطق شمال غربي الجزيرة العربية، فقد نشر مؤخراً مجموعة من النقوش النبطية من منطقة أم جذايذ الواقعة على طريق البكرة الرابط بين الحجر والبتراء، تراوح تواريخها بين القرنين الأول والثالث الميلاديين. وعلى الرغم من أن أغلب هذه النقوش من نوع النقوش التذكارية، فقد قدمت معلومات مفيدة عن تاريخ المنطقة خلال عصور ما قبل الإسلام، وأشارت إلى جملة من الأمور في الطقوس الدينية السائدة آنذاك، وإلى أنماط من التكافل الاجتماعي بين الابن وأبيه والأخ وأخيه[٥].

ب ـ يثرب:[*]

تميزت يثرب بكثرة مياهها، وأرضها الخصبة، وموقعها الجغرافي المتميز؛ ما جعلها منطقة صالحة للاستيطان الكثيف منذ أقدم العصور، ويشهد على ذلك ما عثر في أرجائها من مواقع أثرية ومستوطنات، وما صور وسطر على جبالها وصخورها من رسوم صخرية، وكتابات قديمة من عصور مختلفة، فقد سجلت مجموعات من الرسوم الصخرية ومن النقوش والكتابات القديمة في المدينة المنورة وما حولها من مواقع، منها وادي النقمي ووادي العقيق والصويدرة والحناكية وبواطة ووادي رشال[٦].

ونظراً لأهمية يثرب ودورها بوصفها منطقة عمران وزراعة وتجارة وأنشطة حرف يدوية متميزة امتد إليها نفوذ الملك البابلي نبونيد، فبعد أن استقر له المقام في تيماء في منتصف القرن السادس قبل الميلاد أقدم على احتلال يثرب ومعها عدد من المراكز الحضارية في شمال غرب الجزيرة العربية[٧]. وكانت يثرب خلال فترة ازدهار طرق التجارة البرية في النصف الثاني من الألف الأول

(١) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش الحجر النبطية، مرجع سابق، ٧.

(٢) المرجع السابق، ٥، ٦.

(٣) المرجع السابق، ٦، ٧.

(٤) المرجع السابق، ٨.

(٥) الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. نقوش جبل أم جذايذ النبطية، مرجع سابق، ٣٠، ٣١.

(٦) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٨٥.

(٧) سعيد بن فايز السعيد، «حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية»، *بحوث تاريخية*، ع٨، (الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ٩.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الثاني: (التطور التاريخي): الفصل الأول.

قبل الميلاد، من أهم الأسواق التجارية في الجزيرة العربية، فكانت تتوقف فيها القوافل التجارية القادمة من جنوب الجزيرة العربية وهي في طريقها لتسويق بضائعها التجارية في أنحاء متفرقة من بلدان الشرق القديم، وهذا ما تؤكده رواية النقوش المعينية التي أشارت إلى أن ثمة علاقات اجتماعية نشأت منذ القرن الرابع قبل الميلاد بين المعينيين واليثربيين، كان سببها الزيارات المتكررة لأصحاب القوافل التجارية المعينية إلى يثرب وتعاملهم مع سكانها آنذاك.

لقد كانت يثرب قبيل الإسلام تتكون من عدد من الأحياء أو المناطق، تفصل بينها المزارع والبساتين والأراضي، وكانت مساكن أهلها تتركز في أربع مناطق هي: عوالي المدينة، وقباء، والعصبة، وموقع يثرب القديم. وقد اشتهرت يثرب آنذاك بكثرة آطامها، حتى زاد عددها على مئة وسبعة وعشرين أطماً لم يبق اليوم سوى ثلاثة منها، الأول: أطم يقع في قباء ويعرف باسم أطم الضحيان، والثاني: يقع في حي صيادة، ويعرف باسم أطم دجانة، أما الثالث: فلا يزال قائماً بالقرب من مسجد العريض[١]. وأطم يثرب هي بيوت مبنية من الحجارة ذات أحجام مختلفة، وتثبت حجارتها بوساطة مونة الطين، وهي ذات مصاطب عالية ومشرفة على ما حولها[٢]. كما اشتهرت يثرب أيضاً بحصونها المنيعة. وتشير رواية المصادر العربية إلى أن عدداً كبيراً من الحصون كان ينتشر في يثرب قبل الإسلام، أما اليوم فلم يتبقَ منها سوى حصن واحد يقع على هضبة الحرة الجنوبية الشرقية من قباء. وتختلف الحصون في يثرب في أسلوب عمارتها عن الآطام في الشكل وطريقة البناء؛ فهي



بقايا الحصن في الحرة الجنوبية الشرقية من قباء في المدينة

تبنى بحجارة ضخمة مربعة الشكل ومصقولة، ويرص بعضها فوق بعض دون استخدام مونة لتثبيتها. وتدل البقايا المعمارية للحصن الواقع في قباء على أنه مقام على مساحة تربو على ألف متر مربع، وهو على هيئة بناء مربع الشكل ضلعه يبلغ نحو ثلاثة وثلاثين متراً، ويحيط به ثمانية أبراج، وارتفاع ما تبقى من جدرانه يبلغ أربعة أمتار، وسمكها نحو المتر الواحد، وفي وسطه ساحة مربعة الشكل تصل مساحتها إلى ألف متر مربع[٣].

ج - خيبر: (*)

لقد قام الرحالة الإنجليزي تشارلز داوتي بأول زيارة لخيبر بين عامي ١٢٩٣ و ١٢٩٥ هـ/١٨٧٦ و ١٨٧٨م[٤]، وقام فيلبي كذلك أثناء مروره في المنطقة عام ١٩٥٠م بزيارة لبعض السدود الأثرية في خيبر ومنها سد الحصيد[٥]. وإلى جانب هذا السد الشهير، يوجد في منطقة خيبر مجموعة كبيرة

(١) محمد صالح البليهشي، المدينة المنورة، سلسلة هذه بلادنا. ط١، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، د. ت)، ٣٠.

(٢) الأنصاري، عبدالقدوس. آثار المدينة المنورة، مرجع سابق، ٦٤.

(٣) الأنصاري، عبدالقدوس. آثار المدينة المنورة، مرجع سابق، ٦٥.

(٤) حمد الجاسر، *في شمال غرب الجزيرة: نصوص، مشاهدات، انطباعات*. ط١، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠١ هـ/١٩٨١م)، ٢٢٢.

(٥) المرجع السابق، ٢٧٥، ٢٧٦.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الأول، (الخصائص الجغرافية): الفصلان الأول والثامن.



سد القصيبة (سد البنت) في خيبر



حصن مرحب في خيبر

من السدود الأخرى، منها سد القصيبة أو سد البنت[١]، وسد الزايدية وسد المشقوق. وتشير الهندسة المعمارية المستخدمة في بناء هذه السدود إلى دراية كبيرة ومقدرة عالية في هندسة المنشآت المائية، فقد بني أغلبها من الأحجار البركانية الصلدة، كما أقيم لبعضها دعامات خلفية لتقويتها. وترجع كثرة السدود في خيبر إلى مظاهرها الجغرافية الطبوغرافية والبيئية، باعتبارها موضعاً تتجمع فيه الأودية المنحدرة من الحرات[٢]، كما يتوافر فيها عدد كبير من عيون الماء العذب يصل إلى ٥٠ عيناً[٣].

وتضم خيبر عدداً كبيراً من الحصون القديمة، من أهمها حصن مرحب الذي يقع غربي خيبر، وحصون الزايرية والسلالم والردات وتقع جميعها شمال شرقي خيبر[٤]، وعثر فيها على مجموعة من النقوش الثمودية، التي عثر عليها أيضاً في مواقع العين وجبال عطوي والحرضة الواقعة شمالي خيبر[٥]، كما عثر في المواقع أيضاً على رسوم تجريدية صخرية لأشخاص ورسوم لحيوانات متنوعة، منها الأبقار ذات القرون الطويلة، والوعول، والنعام، والأوز، ومناظر لصيد الوعول.

بني حصن مرحب على قمة جبل مطل على واحة خيبر، وترجع الأساسات السفلية لهذا الحصن والقصر الموجود بداخله ـ والمبنية من كتل الأحجار الضخمة، يعلوها عدد من مداميك الأحجار البركانية ثم أخرى من قوالب الطوب اللبن الكبيرة ـ إلى فترة ما قبل الإسلام[٦]، على حين تعلوها مبانٍ مختلفة من العصر الإسلامي، وترجع كذلك بعض أساسات المنازل الحجرية الواقعة ضمن أطلال المدينة القديمة في خيبر إلى فترة تأسيس الحصن والقصر القديم نفسها.

ويمكن تأريخ بناء سد الحصيد[٧] الحجري الضخم الواقع جنوبي خيبر إلى نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد، وذلك بمقارنة أسلوب البناء المتدرج فيه مع سد السملقي بالطائف الذي شيد بالأسلوب نفسه وينتمي إلى الفترة نفسها تقريباً[٨]. ويتميز سد الحصيد بمتانة بنائه وعرض بعض مدرجاته للتحكم في منسوب المياه، وقد استخدم في

(١) وزارة الشؤون البلدية والقروية. التراث العمراني، مرجع سابق،١١١.

(٢) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٧٠.

(٣) الجاسر، حمد. في شمال غرب الجزيرة، مرجع سابق، ٢٨٦؛ الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٧٣.

(٤) الجاسر، حمد. في شمال غرب الجزيرة، مرجع سابق، ٢٥٣ ـ ٢٦٠.

(٥) كباوي، عبدالرحمن، وآخرون، «حصر وتسجيل الرسوم والنقوش الصخرية: الموسم الرابع ١٤٠٨ هـ»، أطلال، مرجع سابق، ع١٢، ٥٣، ٥٤.

(٦) Op. Cit., Deputy Ministry of Antiquities and Museums, an Introduction to Saudi, pp. 70 - 73.

(٧) الجاسر، حمد. في شمال غرب الجزيرة، مرجع سابق، ٢٨٢.

(٨) Ibid., Deputy Ministry of Antiquities and Museums, an Introduction to Saudi, pp. 68 - 70.

بنائه كثير من كتل الأحجار البركانية الصلبة، كما يتميز بدقة ومهارة هندسة الري من خلال نظام تشغيله؛ فهو يشتمل على قناة مائية لتصريف المياه المتجمعة وراء السد تسمح بمرور الماء من خلالها حسب الحاجة، ويتم ذلك عبر نفق منتظم البناء و(مقبي) له فتحة من أعلى يمكن سده منها عند اللزوم.

د ـ ينبع:

كانت ينبع مركزاً استيطانياً منذ القدم، حيث عاش أهله على صيد البحر وطعامه، وكذلك على ما كانوا يزرعونه ويرعونه في سهوله ووديانه، فضلاً عما يحتمل من وجود بقايا منشآت معمارية قديمة لميناء ينبع القديم الذي كان آنذاك يربط بين سواحل البحر الأحمر الشرقية والغربية.

تعد ينبع النخل من المراكز الحضارية القديمة والإسلامية المهمة بالمنطقة[١]. وكانت قبل الإسلام واحة زراعية وفيرة المياه، ومحطة على طريق التجارة المتجهة إلى بلاد الشام[٢]، وقد عثر في ينبع النخل على مجموعة من الكتابات العربية القديمة في وادي نخلى كتبت بالخط الثمودي[٣]، وكشف عن ثمانية مواقع أثرية تعود إلى فترة ما قبل الإسلام تحتوي على رسوم صخرية لأشخاص وحيوانات مختلفة، كما عثر على مجموعة أخرى كتبت على صخرة تقع في قمة جبل لؤلؤة بالقرب من قرية المزرعة[٤].

وتعرف اليوم بينبع النخل[٥]، وفيها مرسى ينبع الذي لم يكن له شأن وشهرة في القرون الأولى من الهجرة، بسبب وجود ميناء الجار القريب منه، وأقدم إشارة في المصادر التاريخية عنه ترجع إلى أيام الرسول ﷺ، فقد



ينبع النخل

رست به السفينتان اللتان أقلّتا أصحاب الرسول العائدين من الحبشة، وكان يعرف باسم ساحل بولا، وبولا اسم عين ماء قديمة بناحية ينبع، آلت ملكيتها فيما بعد إلى الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهي إحدى عيون قرية العُشيرة التي تقع قريباً من الساحل، وتقع آثار ينبع في إحدى قراها وهي محطة الطريق المصري في قرية البريكة، وبها موضع مسجد العشيرة، كما توجد بها نقوش كوفية مبكرة على صخور الجبال بالقرب من قرية سويقة[٦].

هـ ـ ميناء الجار:

تقع منطقة الجار على ساحل البحر الأحمر غرب المملكة على بُعد عدد من الكيلومترات إلى الجهة الشمالية من بلدة الرايس، وتعرف اليوم باسم رأس البريكة[٧]، ويعد الميناء من الموانئ المهمة على سواحل البحر الأحمر الشمالية الغربية.

وتشير الدلائل الأثرية إلى أن تاريخ الميناء يعود إلى عصور ما قبل الإسلام، فقد كشف

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٨٥.

(٢) المرجع سابق، ٢٣١، ٢٣٢.

(٣) كباوي، عبدالرحمن، وآخرون، «حصر وتسجيل الرسوم»، أطلال، مرجع سابق، ع١٢، ٥٨، ٥٩.

(٤) عبدالكريم محمود الخطيب، *ينبع، سلسلة هذه بلادنا*. ط١، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣م)، ٥٢.

(٥) بكر، سيد عبدالمجيد. الملامح الجغرافية، مرجع سابق، ١٤٠ ـ ١٤٣.

(٦) غبان، علي. الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مرجع سابق، ٣٨، ٢٥٥، ٢٥٦.

(٧) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٦٢.



موقع ميناء الجار

على سطح الموقع مجموعة من العملات الرومانية التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني أو الثالث الميلادي[١]، وكذلك فإن المصادر العربية تعزز من حقيقة استيطان منطقة الجار خلال عصور ما قبل الإسلام، فابن هشام الكلبي يذكر في كتاب (التيجان)[٢] أن عمرو الجرهمي أحب ابنة عمه ميا بنت المهلهل بن عامر فلقيها يوماً في الجار وقال فيها شعراً جاء فيه:

سألتك بالرحمن لا تجمعي هو

عليه، وهجراناً، وحبك جاره

وتؤكد المصادر أن ميناء الجار كان مع بداية العصر الإسلامي من الموانئ التي ترسو فيها السفن آنذاك، ففي رواية عن ابن سعد صاحب كتاب (الطبقات) إشارة تذكر أن الرسول ﷺ كتب إلى النجاشي أن يبعث إليه من بقي عنده من المهاجرين، فحملوا في سفينتين إلى ميناء الجار (ميناء بولا قديماً)[٣]، كما بنى بها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه مخازن لاستقبال الغلال المرسلة من مصر، وعين عليها والياً من قبله[٤].

وورد للجار وصف في كتب بعض الجغرافيين، ومن أقدمهم عرام السلمي، القرن الرابع الهجري، (العاشر الميلادي)، إذ ذكر: «والجار على شاطئ البحر ترفأ إليه السفن من أرض الحبشة ومصر، ومن البحرين والصين وبها منبر، وهي قرية صغيرة كثير أهلها، وشرب أهلها من البحيرة، وبالجار قصور كثيرة، ونصف الجار في جزيرة من البحر ونصفها الآخر على الساحل»[٥]، كما وصفها المقدسي[٦] في نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بقوله: «**الجار على ساحل البحر، محصنة بثلاثة حيطان، والرابع بحري مفوه، وبها دور شاهقة، وسوق عامرة، خزانة المدينة ومدنها، يحمل إليهم الماء من بدر، والطعام من مصر، وليس لجامعهم صحن**»، كما أشاد بها الرحالة ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وقال إنها ميناء، وقرية صغيرة[٧].

وتعد الجار من أهم الموانئ الإسلامية المبكرة على ساحل البحر الأحمر، وتقع آثارها في ساحل خليج البريكة جنوب مدينة ينبع الصناعية وشمال بلدة الرايس، وترتفع قرابة ٣,٥ م عن مستوى سطح البحر، وهي تلال أثرية تغطي مساحة كبيرة من الأرض، وتحيط بهذه التلال من ثلاث جهات بقايا سور بني بالحجر الجيري، وتحت هذه التلال توجد بقايا مدينة إسلامية كبيرة وبوابتها وبقايا أرصفة الميناء، كما تنتشر على سطح موقع الجار أنواع مختلفة من كسر الزجاج، والفخار والخزف الإسلامي، وكسر من خزف السيلادون المستورد من الصين[٨].

وقد شيدت بيوت الجار من الحجر المرجاني المستخرج من البحر، أو المقطوع

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٦٢.

(٢) الجاسر، حمد. في شمال غرب الجزيرة، مرجع سابق، ٢٠٧.

(٣) المرجع سابق، ٢٠٨.

(٤) غبان، علي. الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مرجع سابق، ١٨.

(٥) السلمي، عرام بن الأصبغ. أسماء جبال تهامة، مرجع سابق، ٩.

(٦) محمد بن أحمد المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، (ليدن: برايل، ١٩٠٦م)، ٨٣.

(٧) غبان، علي. الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مرجع سابق، ٢٢.

(٨) المرجع سابق، ١٨ - ٢٢.

من محاجر الساحل القريبة من المدينة، وأثبتت المجسات الأثرية بهذا الموقع وجود عدد من المستويات السكنية المتتابعة، أقدمها يرجع إلى عصر ما قبل الإسلام، وأحدثها يرجع إلى القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين)، كما أثبتت المجسات وجود أكثر من دور واحد في بعض منازل الجار، ووجود أنظمة لتصريف المياه المستعملة[١].

و ـ الحناكية (بطن نخل):

وهي بلدة كبيرة المساحة، كثيرة السكان ويتبعها عدد من القرى والهجر[٢]. كانت الحناكية (بطن نخل) قبل الإسلام منطقة استيطان مهمة لبعض القبائل العربية جسدت بعضاً من أنشطتها من خلال مجموعة من الرسوم الصخرية والكتابات القديمة عثر عليها على صفحات جبل العهين الواقع على مسافة ٢٢ كم شرقي الحناكية، منها رسوم صخرية تصور عدداً كبيراً من الأشخاص بلغ نحو خمسة وعشرين، وكذلك قطعاناً ضخمة من الحيوانات، منها مئة وسبع وخمسون صورة لأبقار، وثماني صور لإبل، فضلاً عن بضع عشرات أخرى من الحيوانات من مختلف الفصائل مثل: الإبل والوعول والغزلان، وذلك إلى جانب ثمانية من النقوش العربية القديمة من عصور ما قبل الإسلام، كتبت بالخط الثمودي[٣]. وهي من نوع النقوش التذكارية التي تتحدث عن أسماء أشخاص كانوا يقيمون في المكان أو مروا به.

تبوأت الحناكية (بطن نخل) شهرة واسعة في العصور الإسلامية المبكرة بوصفها إحدى محطات طريق الحج المتجهة من الفقرة إلى



رسوم الحيوانات على صفحات جبال العهين في الحناكية

المدينة، ووصفها الجغرافيون والرحالة، إذ يقول عنها ابن رسته في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي): «**وهو منزل كثير الأهل والخير، كثير النخل والزرع، والماء من القنى والبئر بها قريبة القعر على خمس أذرع يظهر الماء وهي أرض رضراض عمّرها بعد الإسلام مصعب بن الزبير في أيام أخيه عبدالله بن الزبير ٦٤ - ٧٣ هـ / ٦٨٤ - ٦٩٢م**»[٤].

وقد عُثر على أعداد كثيرة من النقوش الإسلامية منتشرة في أمكنة متفرقة على الواجهات الصخرية بلغ عددها سبعة وثلاثين نقشاً[٥]، وهي نصوص غير مؤرخة تتضمن طلب المغفرة وإثبات الشهادة وتأكيد الإيمان. ويرجع تاريخها إلى ما بين القرنين الأول والثالث الهجريين (السابع والتاسع الميلاديين)[٦]، والجدير بالذكر أن أحد هذه النقوش كتب بطريقة معكوسة، أي من الشمال إلى اليمين، ويعود في تاريخه إلى القرن الثالث الهجري[٧]، وقراءته على النحو الآتي:

(١) Ghabban, Ali Hamed. Introduction á l'etude archèologique deux routes syrienne et èggptienne de pèlerinage an Nord-Ouest de l'Arabie Saoudite, p 355-367.

(٢) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، «الربذة، تاريخ وحضارة»، المنهل، مرجع سابق، مج٤٨، ع٤٥٤، ٣٧.

(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٨٦.

(٤) ابن رسته، أحمد بن عمر. الأعلاق النفيسة، مرجع سابق، ١٨٧.

(٥) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٦٦.

(٦) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، «الربذة، تاريخ وحضارة»، المنهل، مرجع سابق، مج٤٨، ع٤٥٤، ٤٠٤ ـ ٤٠٩.

(٧) مشلح بن كميخ المريخي، «رؤية جديدة لتفسير ظاهرة الكتابات المعكوسة في الخط العربي»، *الدارة*، دارة الملك عبدالعزيز، س٢٨، ع١، (الرياض: ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م)، ٥١ ـ ٦٩.



وادي العيص



قلعة الفرع

❖ «بسم الله الرحمن/ الرحيم اللهم اغفر/ لعبدالله بن ذر امين رب/ العلمين (العالمين)».

ونستدل من هذه النقوش على أن هذا الموقع كان استراحة أو مناخاً وممراً لقوافل التجارة والحجيج؛ حيث لم يتم العثور بها على آثار لمبانٍ أو منشآت معمارية.

ز ـ العيص:

تقع العيص شمال غربي ينبع النخل، وفيها وادي العيص غزير المياه الذي تتحدر مسايله من جبال شثاث وجبل حبيش وجبل الرقب، وتحتوي العيص على مجموعة من عيون الماء، ففيها ما يقرب من خمسين عيناً[١]. وقد كانت منذ القدم موقعاً استيطانياً هاماً، ولعب دوراً مهماً بوصفه محطة على طريق القوافل القديمة (طريق البخور) المتجهة إلى دادان (العلا)، كما كان الموقع في فترة قبيل الإسلام محطة مهمة لعير قريش المتجهة إلى الشام[٢]. ومن أهم الآثار القديمة التي كشف عنها حتى الآن في العيص بقايا كسر فخارية من نوع فخار (تيرا سجلاتا) الروماني، وآنية مصنوعة من حجر المرمر، وعدد من التماثيل لرؤوس آدمية وحيوانية من فصيلة الثيران[٣]، من بينها رأس تمثال حجري يبدو على ملامحه أسلوب المنحوتات العربية الشمالية، وقد يشير هذا الرأس الذي كان يشكل على الأرجح جزءاً من تمثال لأحد المعبودات العربية القديمة إلى وجود معبد قديم في منطقة العيص[٤]. وفضلاً عن ذلك كشف في موقع العيص عن قلعة قديمة تعرف اليوم باسم قلعة (الفرع)، وتسمى أيضاً (قصر البنت)[٥]، يبلغ ارتفاعها نحو عشرة أمتار، وأقيمت جدرانها الضخمة والعالية من صخور البازلت الصلبة، وتحتوي بعض أحجار الجدران على نقوش عربية شمالية قديمة، وأحد هذه الأحجار يحمل طبعة كف[٦]، ومن المعروف أن طبعات الكفوف والأرجل تقليد قديم عند العرب قبل الإسلام، وترتبط طبعات الأيدي والأرجل بنمط من الفكر الديني المتعلق بالمعبودات العربية قبل الإسلام. ولا شك في أن ما تشتمل

(١) معتاد بن عبيد السناني، *العيص*، *سلسلة هذه بلادنا*. ط٢، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٧ هـ/١٩٩٦م)، ٢٦، ٣٠، ٣١.

(٢) المرجع السابق، ١٥.

(٣) مايكل انجراهام، وآخرون، «التقرير المبدئي عن مسح المنطقة الشمالية الغربية»، *أطلال*، إدارة الآثار والمتاحف، ع٥، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٠١/١٩٨١)، ٧٠، ٧١، ٥٣ ـ ٧٦.

(٤) Op. Cit., Deputy Ministry of Antiquities and Museums, an Introduction to Saudi, p. 94-95.

(٥) السناني، معتاد بن عبيد. العيص، مرجع سابق، ٥٨؛ انجراهام، مايكل، وآخرون، «التقرير المبدئي عن مسح المنطقة الشمالية الغربية»، *أطلال*، مرجع سابق، ع٥، ٧٠، ٧١.

(٦) الخطيب، عبدالكريم محمود. ينبع، مرجع سابق، ٣٩، ٥٥.

عليه هذه القلعة من دلائل أثرية يؤكد أن تاريخ بناء القلعة يعود إلى قرون قبل الميلاد، وتوالى بعد ذلك استخدامها وتجديدها عبر العصور المتعاقبة.

استمر الاستيطان بالعيص طوال فترات التاريخ الإسلامي، وتوجد بها مجموعة من النقوش الكوفية المبكرة، وهي نقوش صخرية من عمل الحجاج والمسافرين القادمين من خارج المنطقة ومضمونها أدعية وطلب رحمة ومغفرة، وتسجيل الصلاة على الرسول ﷺ، وتسجيل لشهادة التوحيد، وتصريح بالإيمان، وحث على الطاعة والتقوى، وأسماء أشخاص، وتواقيع بصيغ مختلفة ومتعددة، وهي على درجة كبيرة من الأهمية، حيث يستفاد منها في دراسة تطور الخط العربي[١]، كما نشرت وكالة الآثار تقريراً عن نتاج المسح الأثري للعيص كشف عن آبار قديمة وبرك ومجارٍ للعيون[٢].

ح - بدر:

تقع بدر إلى الجنوب الشرقي من ينبع، وإلى الشرق من الجار، في نهاية وادي الصفراء، قبل مصبه في البحر الأحمر. ونظراً لوجود مياه عذبة بها كانت بدر منذ القدم موطناً لبعض القبائل العربية التي عاشت على الزراعة ورعي القطعان.

وأشارت النقوش اللحيانية التي كتبت على واجهات جبال عكمة شمال شرقي العلا إلى موقع بدر[٣]، فقد تكرر فيها ذكره أكثر من أربع وعشرين مرة، ومن المرجح حسب المكتشفات الأثرية والتاريخية المعروفة حتى الآن، أن موقع بدر في النقوش اللحيانية ربما يكون هو نفسه موقع بدر الحالي غربي المدينة



نقوش لحيانية من جبل عكمة في العلا

المنورة. وتشير معطيات هذه النقوش إلى أن ثمة جالية لحيانية كانت تستوطن في بدر إبان ازدهار الدولة اللحيانية في منطقة دادان، وكانت على علاقة وثيقة بوطنها الأم في دادان (العلا حالياً)، فمضامين النقوش تتحدث عن قيامهم بتقديم قرابين متنوعة لمعبودهم (ذو غيبة)، وتحتوي النقوش نفسها على إشارة مهمة إلى أسباب قيام أولئك بتقديم القرابين، وأن مسوغه دَفْعُ عشور عن ممتلكاتهم في بدر التي راوحت بين النخيل والمزروعات الأخرى، وهذا ما يعزز من أن بدر كانت خلال القرون الخمسة السابقة قبل الميلاد مستوطنة عامرة ويعمها نشاط زراعي كثيف.

فضلاً عن ذلك فقد كانت بدر قبل الإسلام منهلاً من مناهل المياه على طريق التجارة إلى الشام ومحطة لقوافل قريش الراتبة في رحلة الصيف إلى الشام، في ذهابها وعودتها؛ فقد كانت تلك القوافل ترد مياهها وتتزود منها للسفر، ومن المرجح أنه كانت تعقد فيها سوق مؤقتة ترتبط بأيام راحة هذه القوافل في موقع بدر.

(١) الخطيب، عبدالكريم محمود. ينبع، مرجع سابق، ٤٣، ١٩ - ١٢١.

(٢) انجراهام، مايكل، وآخرون، «التقرير المبدئي عن مسح المنطقة الشمالية الغربية»، أطلال، مرجع سابق، ع٥، ٧٠، ٧١.

(٣) أبو الحسن، حسين بن علي. قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا، مرجع سابق، ٤٤٠.



موقع غزوة بدر

وقد أصبحت مكاناً مشهوراً عند جميع المسلمين بعد أن وقعت على أرضها معركة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة. ولم تلبث أن تحولت إلى بلدة عامرة استفادت من موقعها على طرق الحج القادمة من الشام ومصر، وعلى طريق وادي الصفراء الذي يربط المدينة المنورة بميناء الجار. واستمر الاستيطان بها طوال فترات التاريخ الإسلامي، وكانت محل اهتمام الحكام المسلمين، لوجود مآثرها الإسلامية المتعلقة بغزوة بدر، ومنها مسجد الغمامة الذي شيد على الموضع الذي وقف به الرسول ﷺ أثناء المعركة يدعو ربه بالنصر، وكذلك مقبرة شهداء بدر، والعدوتان، وتوجد في بدر حالياً نقوش تذكارية وتأسيسية تشير إلى تجديد الحكام المسلمين المساجد، كما في مسجد الغمامة حيث يوجد نقشان أحدهما من حكم السلطان المملوكي قانصوه الغوري مؤرخ في عام ٩٢١ هـ /١٥١٥م، والآخر من حكم السلطان العثماني أحمد خان الثالث مؤرخ بعام ١١٣١ هـ /١٧١٩م، وتشير تلك النقوش إلى ما أنشأه هؤلاء الحكام من المباني برسم خدمة الحجاج، كما توجد في الموقع قنوات لعين بدر القديمة، وبقايا البركة التي أمر ببنائها السلطان المملوكي قانصوه الغوري[١]، ومسجد السوق الذي بناه الشريف أبو نمي بن بركات في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، بالإضافة إلى بقايا بلدة بدر القديمة.

وقد ورد وصف لهذا في بعض كتب الجغرافيين المسلمين الأوائل، وفي كتب الرحالة الحجاج الذين مروا بها خلال العهدين المملوكي والعثماني، منهم الجغرافي المقدسي الذي قال عنها[٢] في نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي): «بدر مدينة صغيرة من حيث الساحل جيدة التمور، ثم عين النبي ﷺ، وموضع الموقعة، ومساجد بناها ملوك مصر».

ط ـ الربذة (بركة أبي سليم):

تُعدُّ من المواقع الأثرية الإسلامية المهمة في المملكة العربية السعودية، ولم تشتهر الربذة بوصفها حمى لإبل الصدقة فحسب، بل ذاعت شهرتها أيضاً مدينةً إسلامية على طريق الحج العراقي من الكوفة إلى مكة المكرمة، وكانت على الأرجح معمورة قبل مجيء أبي ذر الغفاري رضي الله عنه سنة ٣٠ هـ / ٦٥١م وإقامته بها إلى أن مات سنة ٣٢ هـ /٦٥٣م[٣] لأنها كانت منطقة رعوية، ومركزاً لتجمع القبائل[٤]، وسميت بهذا الاسم ـ كما يذكر الحربي ـ نسبة إلى جبل أحمر، على بُعد ميل ١,٧ كم من الربذة، مما يلي الغرب فارع أحمر اسمه ربذة[٥] وهو معروف الآن باسم المصيعيكة.

(١) علي بن إبراهيم غبان، *نقشان من شبه جزيرة سيناء يؤرخان لعمارة السلطان قانصوه الغوري لطريق الحج المصري والأماكن المقدسة بالحجاز*، (الرياض: جامعة الملك سعود، مركز البحوث بكلية الآداب، ١٤١١ هـ/١٩٩١م).

(٢) المقدسي، محمد بن أحمد. أحسن التقاسيم، مرجع سابق، ٨٣، ٨٤، ١١٥، ١١٩، ٢٥٦، ٢٥٧.

(٣) الخياري، أحمد ياسين. تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، مرجع سابق، ٣٤٤.

(٤) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، «الربذة: تاريخ وحضارة»، المنهل، مرجع سابق، مج٤٨، ع٤٥٤، ٢٥١.

(٥) الحربي، إبراهيم. المناسك وأماكن طرق الحج، مرجع سابق، ٣٢٦؛ بكر، سيد عبدالمجيد. الملامح الجغرافية، مرجع سابق، ٥٧.



الحفريات الأثرية في موقع الربذة

ونشأت الربذة في وسط الحمى، وازدهرت وتطورت إلى مدينة كبيرة خاصة في العهد العباسي المبكر لوقوعها على طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة؛ فهي المحطة التاسعة عشرة بعد الكوفة، وكان يستريح بها عدد من خلفاء بني العباس وأمرائهم عند قدومهم لأداء فريضة الحج، ومن أبرزهم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، والمهدي، وهارون الرشيد الذين تعهدوا طريق الحج بالعمارة، وشمل ذلك مدينة الربذة التي عمرت فيها الدور والمساكن والبرك والآبار[1]، ثم هجرت بعد ذلك بداية من سنة ٣١٩ هـ/٩٣١م عندما هوجمت على أيدي القرامطة، فخربت وهاجر من كان بها من السكان، ولم يعد يمر بها طريق الحج بسبب اختلال الأمن[2] وأصبحت تعرف بعد ذلك بصفتها موقعاً أثرياً.

وبدأ المسح الأثري لموقع الربذة منذ سنة ١٣٩٨ هـ /١٩٨٧م، وتمت أول حفرية أثرية في هذا الموقع سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م من قبل قسم الآثار في جامعة الملك سعود، وهو موقع كبير المساحة يصل طوله من الشرق إلى الغرب نحو ١,٥ كم، وعرضه من الشمال إلى الجنوب يصل إلى قرابة كيلو متر واحد. وأسفرت التنقيبات عن ظهور مقبرة إسلامية غرب الموقع، وأعداد كثيرة من الآبار المطمورة، عدا بئر واحدة فقط ما زالت تستعمل حتى الآن. ومن المعالم الأثرية البارزة في الموقع البركة الدائرية في الشرق وإلى الشمال منها بركة مربعة تبعد عنها بنحو ٢ كم، كما تم الكشف عن مسجدين وحصن، ومعثورات كثيرة مختلفة الأنواع، منها النقوش الإسلامية، والخشب، والعاج، والأدوات الحجرية، والزجاج، والحلي، والمسكوكات، والفخار. وكثير من هذه المعثورات الأثرية معروض الآن في متحف قسم الآثار والمتاحف في جامعة الملك سعود.

كشفت الحفائر الأثرية - كما ذكر أعلاه - بموقع الربذة عن مسجدين: أحدهما من الناحية الغربية والآخر في الناحية الجنوبية من المنطقة السكنية، وهذا يتطابق مع ما ورد

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٧٥.

(٢) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، «الربذة: تاريخ وحضارة»، المنهل، مرجع سابق، مج٤٨، ع٤٥٤، ٣٤.

في المصادر التاريخية بشأن نشأة الربذة بأن أبا ذر الغفاري اختط بها مسجداً، كما توضح التنقيبات مسجداً آخر اختط بها[١]، وكلا المسجدين، تخطيطهما الحالي يشير إلى أنهما يرجعان إلى العهد العباسي، ولكنهما نفذا بأسلوبين تخطيطيين مختلفين، وذلك على النحو الآتي:

الأول: المسجد الغربي، ويتبع التخطيط التقليدي (الصحن والظلات الأربع) ومسقطه قريب من المربع. وشيد هذا المسجد من الحجر ذي الأحجام المختلفة، وتبلغ أبعاده ٢٢,٧٥×٢٠,١٥ م، ويعتقد أن هذا هو المسجد الجامع للمدينة. ويقع المدخل الرئيس للمسجد بالضلع الشمالي، ويتكون من الداخل من صحن أوسط مكشوف مستطيل المسقط ١٦×١٩م، يحيط به أربع ظلات أكبرها ظلة القبلة، وتتكون من رواقين، وفتح بصدر ظلة القبلة دخلة المحراب، وعلى يسارها بناء مستطيل الشكل يرجح أن يكون قاعدة لمنبر المسجد. أما الظلات الثلاث الأخرى فكل منها تتكون من رواق واحد، وفرشت أرضية المسجد بالحصى الصغيرة، وغطيت جدران المسجد من الداخل بطبقة جص سميكة تعلوها زخارف ملونة.

الثاني: مسجد المنطقة السكنية الجنوبية، وتخطيطه يتبع تخطيط المسجد ذي الأروقة دون الصحن.

وشيد هذا المسجد من الطوب اللبن وأساساته من الحجر؛ لذا اتسم بأن جدرانه سميكة، وكسيت من الداخل بطبقة جصية.

والمسجد مستطيل المسقط تبلغ أبعاده ١٢,٣٠×١٠,٣٠ م، ويتوسطه من الداخل حالياً أربع قواعد مستطيلة المسقط من الحجر تعلوها الأعمدة التي تحمل السقف، وقد قسمت هذا المسجد إلى ثلاثة أروقة، وفتح بصدر هذا المسجد دخلة المحراب وهي مجوفة ومستطيلة المسقط.

ويتضح من المعالم الأثرية للمسجد أنه كان له أربعة أبواب، ويعتقد أن المدخل الرئيس كان يتوسط الواجهة الشمالية حيث يتقدمه ثلاث درجات، كما يعتقد أن بقايا البناء الملاصق للجدار الجنوبي يمثل الميضأة، والكتلة البنائية المحاذية للباب الغربي تمثل قاعدة المئذنة.

وكشفت الحفائر بالربذة عن بركتين لحفظ مياه الأمطار والسيول[٢]، وهذا يتفق مع ما ورد في المصادر التاريخية عن الربذة، إذ ذكر الحربي عنها «وبها بركتان، إحداهما مدورة ولها مصفاة، والأخرى من المنزل على أقل من ميل مربع»[٣].

ي ـ العُلا:[*]

تقع مدينة العلا في الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية بين المدينة المنورة وتبوك على محجة الشام وسط وادٍ يُعَدُّ من أشهر الأودية التاريخية في الجزيرة العربية، وهو وادي القرى، المعروف في العصور الإسلامية بغزارة مياهه، وكثرة بساتينه وخيراته[٤].

وتعدّ العلا من أهم المراكز التجارية الواقعة على طريق التجارة الذي يربط جنوب الجزيرة بالمراكز التجارية في مصر وبلاد الشام وبلاد الرافدين، ونشأت على أرضها حضارات موغلة في القدم تبدأ من فترة ما قبل التاريخ، وتستمر عبر العصور الإسلامية المختلفة إلى وقتنا الراهن، ومرّ الرسول ﷺ

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، «الربذة: تاريخ وحضارة»، المنهل، مرجع سابق، ٤٦، ٤٧.

(٢) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، «الربذة: تاريخ وحضارة»، المنهل، مرجع سابق، مج٤٨، ع ٤٥٤، ٦٤ ـ ٦٧.

(٣) الحربي، إبراهيم. المناسك وأماكن طرق الحج، مرجع سابق، ٣٢٨.

(٤) نصيف، عبدالله بن آدم صالح. العلا، مرجع سابق، ١.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب الأول، (الخصائص الجغرافية)؛ الفصلان الأول والثامن.



أحد أزقة قرية العلا القديمة



المسجد القديم في العلا

بها وهو في طريقه إلى تبوك، وقيل إنه صلى بها ثم بنى في مكان مصلاه مسجداً[١] واستمر الاستيطان في العلا طوال فترات التاريخ الإسلامي.

ووصفت العلا بأنها محطة على طريق الحاج الشامي من قِبل الرحالة[٢] ومنهم الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي وصفها أثناء حجه سنة ٧٢٦ هـ/١٣٢٦م فقال عنها[٣]: «**قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخيل والمياه المعينة، يقيم بها الحجاج أربعاً يتزودون ويغسلون ثيابهم، ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية، وأهل هذه القرية أصحاب أمانة، وإليها ينتهي تجار نصارى الشام لا يتعدونها، ويبيعون الحجاج بها الزاد وسواه**». وهذا يذكرنا بمحطة فيد بمنطقة حائل على طريق الحج العراقي وأهميتها تأتي من كونها محطة مهمة للحجاج، حيث تحفظ بها ودائعهم على غرار ما يتم بالعلا[٤]، واستمرت العلا واحدة من أهم المحطات الرئيسة على طريق الحج الشامي منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) وما بعده، حتى إنشاء خط سكة حديد الحجاز.

وتقع بلدة العلا القديمة (حي الديرة)، وهي المدينة الإسلامية، في أضيق نقطة في وادي العلا الممتد من سهول الحجر (مدائن صالح) شمالاً إلى حوض قرية مغيرة الحالية أو المابيات جنوباً (موقع قرح). وقد شيدت المدينة في مكان مرتفع حول هضبة صخرية تعرف باسم الحبيل وأم ناصر، وفوق قمة طرفها الشرقي شيدت قلعة حصينة عُرفت باسم قلعة العلا (قلعة موسى بن نصير)، وتم تخطيط المدينة بطريقة تسهل الدفاع عنها فظهرت كأنها مبنى واحد، ولم يكن للبلدة سور مستقل يحميها وإنما تلاحم بيوتها مع بعضها كون بطبيعة الحال سوراً يحيط بالبلدة وله أربعة عشر باباً تفتح على الأزقة والطرقات الضيقة المؤدية إلى هذه المنازل المكونة للسور[٥]؛ ولذلك فإن هذه البلدة تمثل نمطاً فريداً للمدينة الإسلامية[٦].

(١) غبان، علي. الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مرجع سابق، ٤٩، ٥٠.

(٢) بكر، سيد عبدالمجيد. الملامح الجغرافية، مرجع سابق، ٢٠٦.

(٣) محمد بن عبدالله اللواتي ابن بطوطة، *رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*. ط١، (بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩١م)، ٥٩.

(٤) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ١٩٧.

(٥) نصيف، عبدالله بن آدم صالح. العلا، مرجع سابق، ٤٦؛ Op. Cit., Adam, Abdalla Nasif Al-cUllá an Historical and Archaeogical Survey, 129-154.

(٦) وزارة المعارف، *مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية*. ط٢، (الرياض: إدارة الآثار والمتاحف، ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥م)، ٩٧.



القلعة العثمانية في العلا



سكة الحديد في العلا

ومن أهم الآثار الإسلامية الباقية بمدينة العلا: قلعة العلا المبنية على جبل أم ناصر، والمدينة القديمة المقامة في سفح ذلك الجبل، والمسجد القديم، وحمام تدعل الذي هو حمام بلدة العلا القديمة[١].

وتشتمل العلا على ثلاثة مواقع أثرية، هي:

١ ـ الخريبة:

تقع في الشمال الشرقي على بُعد ثلاثة كيلومترات تقريباً من بلدة العلا القديمة.

٢ ـ الحِجْر (مدائن صالح):

من أهم آثارها الإسلامية قلعة عثمانية شيدها حاكم دمشق أسعد باشا العظم ١١٥٦ ـ ١١٧٠ هـ / ١٧٤٤ ـ ١٧٥٧م وبركة وبئر. وقامت وكالة الآثار والمتاحف بترميم القلعة والبركة[٢]. وتعد مباني سكة حديد الحجاز من أبرز المنشآت المعمارية الباقية، وقد تم ترميمها والمحافظة عليها، وجعلها مركزاً ثقافياً وسياحياً[٣].

٣ ـ المابيات:

تقع شمالاً بالقرب من قرية مغيراء، وتعرف باسم (قرح). ويعود هذا الموقع إلى الحضارة الأموية والعباسية، وهو من أهم المواقع الإسلامية المبكرة في شمال غرب المملكة[٤]. وفي عام ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، قامت إدارة الآثار بإجراء تنقيبات أثرية[٥] في الموقع الذي يحتل مساحة قدرها ٦٤٠ ألف متر مربع ٨٠٠×٨٠٠ م. وقد طليت جدران المنازل من الداخل بالجص ومن الخارج بالطين، وبلطت أرضيات بعض الحجرات ببلاطات رقيقة من

(١) غبان، علي. الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مرجع سابق، ٢٧٠.

(٢) OP. Cit, Nasif, Al-cUlá, p. 212.

(٣) غبان، علي. الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مرجع سابق، ٨٣، وشكل ٧٧أ؛ وزارة المعارف. مقدمة عن آثار المملكة، مرجع سابق، ٧٦.

(٤) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٢٠٨.

(٥) يجدر بنا الإشارة إلى أن قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود قد بدأ موسمه الأول للتنقيب في عام ١٤٢٤/١٤٢٥ هـ (٢٠٠٣/٢٠٠٤م)، وسوف تستمر هذه التنقيبات حسب الاتفاقية المبرمة مع وكالة الآثار مدة عشر سنوات.



موقع المابيات بالعلا

الطوب المحروق (القرميد) وهي ذات ألوان حمراء أو بيضاء وأبواب المنازل خشبية زينت واجهاتها بنقوش كتابية وأخرى جصية تذكر بطراز سامراء. وكشفت عن بقايا مدينة إسلامية محاطة بسور متعرج له ثلاث بوابات، ويتصل بالبوابات تل بنيت على قمته قلعة ومسجد وبعض المباني مشيدة باللبن والآجر.

وعُثر في الموقع كذلك على أعمال فنية تشمل الخزف ذا البريق المعدني، وزجاجاً ومسكوكات متنوعة، منها نصف دينار يحمل اسم الخليفة الفاطمي العزيز بالله، ومجامر مصنوعة من الحجر الصابوني بالإضافة إلى بعض النقوش الكتابية[١].

ك ـ رواوة:

تقع رواوة إلى الجنوب من المدينة المنورة، وهي جبلان يطلق عليهما السكان محلياً اسم حلية رواوة، وهذان الجبلان يتكونان من صخور نارية ذات لون أسود[٢]. وتنتشر على هذه الصخور النارية نقوش إسلامية قامت وكالة الآثار والمتاحف عام ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩م بتوثيقها وتسجيلها، ويبلغ عددها ٢٤١ نقشاً، بالإضافة إلى ما يقارب ستين نقشاً لم يتم تسجيلها نظراً لعدم وضوحها[٣]، وقد نشر منها مؤخراً ٥٥ نقشاً[٤].



أحد النقوش في رواوة

وتعود هذه النقوش الإسلامية، سواء المؤرخة منها أو غير المؤرخة إلى القرنين الأول والثاني الهجريين (السابع والثامن الميلاديين)، وقليل منها يعود إلى القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وقد

(١) محمد عبدالرحمن إبراهيم، وآخرون، «تقرير مبدئي عن نتائج الاستكشافات الأثرية في موقع المابيات الإسلامي: الموسم الأول ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م»، *أطلال*، إدارة الآثار والمتاحف، ع٩، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٦م)، ١١٣ ـ ١٢٣؛ محمد عبدالرحمن إبراهيم، وآخرون، «تقرير حفرية المابيات: الموسم الثاني لعام ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م»، *أطلال*، إدارة الآثار والمتاحف، ع١٠، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م)، ٧١ ـ ٧٨.

(٢) عوض الزهراني، وآخرون، «تقرير مبدئي عن مسح منطقة المدينة المنورة: الموسم ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩م»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، ع١٧، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م)، ٧٢.

(٣) المرجع السابق، ٧٢.

(٤) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. كتابات إسلامية،مرجع سابق، ١٤ ـ ١٠٥.



أحد النقوش في رواوة



جزء من البركة الدائرية في موقع معدن بني سليم

كتبت بالخط المدني الحجازي غير المنقوط. وتعد هذه المجموعة أكبر مجموعة من نوعها في منطقة الحجاز، خصوصاً في المدينة المنورة[١].

أما من حيث مضمون هذه النقوش، فهي نصوص محلية، يراوح عدد سطورها بين سطرين وسبعة أسطر، كتبت بوساطة شخصيات من المدينة المنورة ولها صلة بموقع الكتابة، كما يمتاز موقعها بقربه من طريق الحج الذي يربط المدينة المنورة بمكة المكرمة، وتشتمل على أدعية وتوسل إلى الله بطلب المغفرة والرحمة والغفران، كما تحتوي بعضها على أجزاء من آيات قرآنية، وتضمنت أسماء أصحابها وجميعهم من الذكور، فلم ترد بها أسماء إناث[٢]. وتشكل مجموعة نقوش رواوة مصدراً معلوماتياً مهماً ليس فقط في تطور الخط العربي في الفترة الإسلامية المبكرة، بل لدلالتها الواضحة على النمو والازدهار الحضاري للمدينة المنورة والمناطق المجاورة لها[٣].

ل ـ معدن بني سليم (مهد الذهب):

كشفت أعمال المسح الأثري لمنطقة مهد الذهب عن وجود آثار لمدينة إسلامية كبيرة الحجم على شكل مستطيل، تمتد من الشمال إلى الجنوب على الحافة الشرقية لوادي المعدن الذي يسيل من الجهة الجنوبية الشرقية إلى الناحية الشمالية الغربية. ويشتمل الموقع الأثري على ست وحدات رئيسة عدا الأساسات الجدارية للمباني والمنازل المتناثرة في أنحاء المنطقة الأثرية من الشمال إلى الجنوب[٤].

ومن أهم المعالم الأثرية:[٥]

- بركة دائرية الشكل في وسط الوادي، وهي حالياً شبه مطمورة، ويصل قطرها إلى ٢٩,٢٥ م، ولها مصب جنوبي، ومهبط في جزأيها: الشمالي والغربي، وللبركة أكتاف نصف دائرية تدعم جدارها من الداخل.
- بقايا قصر كبير ملحق به مسجد على الضفة الغربية للوادي، مشيد من الأحجار، وتبلغ مساحته نحو ٦٥,٥×٥٣,٥م، وما

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. كتابات إسلامية،مرجع سابق، ١٢٣ ـ ١٢٨.

(٢) الزهراني، عوض، وآخرون، «تقرير مبدئي عن مسح منطقة المدينة المنورة»، أطلال، مرجع سابق، ع١٧، ٧٢.

(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٢١٦.

(٤) خالد الدايل، وآخرون، «التقرير المبدئي لمسح درب زبيدة: المرحلة الثالثة ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨م»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، ع٣، (الرياض: وزارة المعارف، ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م)، ٥٥ ـ ٥٧.

(٥) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٢٦١ ـ ٢٦٥.

زالت توجد بقايا الأبراج الدائرية للقصر في الضلع الشمالي.

- حصن أو قصر صغير بالجهة الشمالية الشرقية للموقع، مساحته نحو ٣٣×٣١م.
- بقايا قطع قديمة كانت تستخدم في معالجة الذهب مثل أحجار الرحى الكبيرة، وبقايا مساكن العمال التي تعرضت للتخريب والتدمير في العصور اللاحقة، ونقوش كتابية إسلامية منها النقوش التذكارية، وأخرى عبارة عن شواهد قبور إسلامية، وفيما يأتي قراءة لأحد شواهد القبور من موقع معدن بني سليم[١]: «بسم الله الرحمن/ الرحيم اللهم نور السموات والأرض نور لخديجة/ ابنت عيسى في قبرها والحقها/ بنبيها محمد صلى الله عليه/ وسلم واجعلها من الآمنين/ الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».
- يوجد في موقع السايلة على بعد نحو ٢ كم جنوب مدينة المهد الحديثة بركة ماء أثرية قديمة، مساحتها نحو ٥٧,٢٥×٥٤,٥٢م، وهي شبه مطمورة حالياً.

كل هذه الآثار المشار إليها أعلاه التي تم الكشف عنها في مهد الذهب تتفق في مواقعها مع موضع معدن بني سليم، كما ورد في المصادر التاريخية، ومن أقدمها الحربي الذي يقول عنها: «معدن بني سليم هو لبني سليم بن منصور بن عكرمة،... وبه بركة مدورة زبيدية وبه آبار كثيرة، قديمة وحديثة لها أسماء،... وعلى ميلين ونصف من المعدن المنزل الذي يقال له ريان، كان الرشيد ينزله وبه قصور له، للقادة والموالي، وبقايا حوانيت خربة، وآبار وبركة مربعة على ميل من ريان ومصفاه»[٢].



البقايا الأثرية فوق قمم التلال في قرية السوارقية

ويعد موقع مهد الذهب من محطات الحج التي ازدهرت في العهد العباسي، وبعدها يسير الطريق ناحية الجنوب الغربي فيستمر مسافة قصيرة في وادي سيلا ثم يمر قرب جبل ريان، ومن هذا الموضع يتفرع عدد من الطرق، فمنه إلى المدينة، ومنه إلى مكة المكرمة عن طريق صفينة وحاذة، أو عن طريق الأفيعية[٣].

م ـ السوارقية:

تقع السوارقية إلى الغرب من مهد الذهب نحو الجنوب، وهي واحة تتوسط مجموعة من التلال البركانية المنتشرة في حرة راهط[٤]، وكانت من أهم المراكز الحضارية القريبة من طريق الحج العراقي (درب زبيدة).

وقد وصفها الجغرافي عرام السلمي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بقوله[٥]: «وهي قرية صغيرة غَنّاء كثيرة الأهل، فيها منبر ومسجد جماعة وسوق كبيرة يأتيها التجار من الأقطار، بني سليم خاصة، ولهم مزارع ونخيل كثير وفواكه».

(١) الحربي، إبراهيم. المناسك وأماكن طرق الحج، مرجع سابق، ٣٣٢ ـ ٣٣٥.
(٢) بكر، سيد عبدالمجيد. الملامح الجغرافية، مرجع سابق، ٦٠، ٦١.
(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٤٢٣، ٤٢٤.
(٤) المرجع السابق، ٣٠٩.
(٥) السلمي، عرام بن الأصبغ. أسماء جبال تهامة، مرجع سابق، ٦٤٠٦٦.



بيوت طينية أثرية في قرية صفينة



إحدى الآبار القديمة في قرية صفينة

وقد كشفت الأعمال الأثرية بموقع السوارقية عن بقايا أثرية فوق قمم التلال وعلى أطرافها السفلية، بالإضافة إلى وجود بعض المنشآت المائية، منها بقايا لسد قديم في الطرف الغربي من البلدة، وبعض النقوش الكتابية التي تعود إلى العصور الإسلامية المبكرة، وعُثر على شاهدي قبر بأحد المساجد القديمة بالبلدة تاريخهما يرجع إلى القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)[١]، وفيما يأتي قراءة لأحد هذين النقشين:

«بسم الله الرحمن الرحيم/ شهد الله أنه لا إله إلا/ هو والملائكة وألو (وأولو) العلم قائماً بالقصط (بالقسط) لا/ إله إلا هو العزيز الحكيم/ أنا سليمن (سليمان) بن محمد بن حر/ملة أشهد أن لا إله إلا الله/ وأن محمد (محمداً) رسول الله وأ/ن الموت حق والبعث/ حق».

ن ـ صفينة:

تقع على الطريق الفرعية لدرب زبيدة، وهي طريق استحدثها الأمير العباسي علي ابن موسى، وهذه الطريق تصل بين صفينة وحاذة[٢]، ويقول عنها الجغرافي عرام السلمي: «صفينة بها مزارع ونخل كثير، كل ذلك على الآبار، وبها جبل يقال له الستار، وهي على طريق زبيدة يعدل إليها الحجاج إذا عطشوا»[٣].

وتعد صفينة واحة غَنّاء ذات سكان ومزارع وتتوافر فيها المياه العذبة، وقد أشاد بها الرحالة عند المرور بها[٤]، فقد وصفها الرحالة بيرتون فذكر عنها أنها تشتمل على منازل تراوح بين ٥٠ و٦٠ منزلاً مبنية بالطين، ذات أسقف مستوية، ولها سور يحميها، وتحيط بها واحات النخيل ذات الإنتاج الوفير، وسوقها كان عامراً، كما وصفها إبراهيم رفعت الذي مكث بها يومي ٦و٧ محرم ١٣١٩ هـ /١٩٠١م ، وقال عنها: «قرية صغيرة، أبنيتها من الطين وفيها ٣٦ بئراً مبنية بالحجر، عمق الواحدة منها ثلاث قامات، وماؤها رائق نظيف، معين لا ينضب ولكنه لا يروي، وبها نخل وقليل من شجر الليمون».

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٣١٠، ٤٢٠ ـ ٤٤٢؛ الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٨٢.

(٢) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٣١٠.

(٣) السلمي، عرام بن الأصبغ. أسماء جبال تهامة، مرجع سابق، ٧٣، ٧٤.

(٤) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٨٦، ١٨٧؛ الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٣١١.

س ـ حاذة:

هي مدينة غنية بمياهها الباطنية بسبب عدد من الوديان المتجهة إليها[١]. وورد وصف لها على ألسنة الجغرافيين والرحالة، فيقول عنها الحربي[٢]: «وبحاذة قصر للمتوكل، وفيها من الآبار العذبة ست وثلاثون بئراً، وبقاع حاذة، على مقدار ميل منها نحو من مائتي بئر غزيرة، وفي ذلك الطريق أعلام قصار، يستدل بها». كما يقول عنها المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم): «حاذة مدينة مليحة للبكريين، بها عدد من الحصون وجامع كبير»[٣].

وما زالت تحتفظ حاذة ببعض البقايا الأثرية، منها آثار لحصن قديم، وبعض المنازل الواقعة على الجانب الغربي من الوادي، وبعض آبار قديمة معطلة، وبعضها الآخر ما زال صالحاً للاستعمال، كما تظهر المعالم القديمة لطريق الحج إلى الجهة الشمالية التي تصل إليها من صفينة، وتسمى هذه الطريق المنقا واتساعها إلى نحو ٢٥م، بالإضافة إلى بعض النقوش الكتابية الإسلامية المنفذة على صخور الوادي، ولكن ما يؤسف له أنه من الصعوبة قراءة بعضها بسبب ما اعتراها من التخريب[٤].

ع ـ وادي رانوناء:

من أهم الآثار الباقية سد وادي رانوناء، وهو يقع إلى الجنوب من مخطط قباء (حي الهجرة) وإلى الشمال من جبل عير، وهو مشيد من الحجارة النارية والبازلتية ذات اللون الأسود الداكن وبأحجام مختلفة[٥].

وشيد هذا السد ـ كما ذكر السمهودي[٦] ـ عبدالله بن عمرو بن عثمان الذي توفي بمصر سنة ست وتسعين من الهجرة. ويعد عبدالقدوس الأنصاري[٧] أول من حقق آثار وادي رانوناء في العصر الحديث، وبخاصةٍ السد، وبعض النقوش الإسلامية وكان ذلك بين عامي ١٣٤٧ و١٣٥٣ هـ /١٩٢٨ و١٩٣٤م. ومن أهم هذه النقوش نقش شعري، ونقش تأسيسي لترميم السد في العصر العثماني مؤرخ سنة ١٢٨٩ هـ /١٨٧٢م[٨].



بئر في قرية حاذة(*)



بقايا سد وادي رانوناء

(١) بكر، سيد عبدالمجيد. الملامح الجغرافية، مرجع سابق، ٦٢.

(٢) الحربي، إبراهيم. المناسك وأماكن طرق الحج، مرجع سابق، ٣٣٦.

(٣) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٦٤.

(٤) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٣١٢.

(٥) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٦١، ٦٢.

(٦) السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. وفاء الوفا، مرجع سابق، جـ٤، ١٢٣١، ١١٣٢.

(٧) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. آثار منطقة المدينة المنورة، مرجع سابق، ٢٣١؛ الأنصاري، عبدالقدوس. بين التاريخ والآثار، مرجع سابق، ١٠١، ١٠٢.

(٨) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٦٨ ـ ٨٠.

(*) المصدر: وكالة الآثار والمتاحف.

ف ـ وادي السد:

يقع إلى الجهة الجنوبية من المدينة المنورة، وإلى الغرب من طريق مكة السريع، وهو منطقة جبلية متباينة الارتفاعات، يتخللها شعاب وأراضٍ صالحة للزراعة. وعلى بعد ثمانية كيلومترات من طريق المدينة ومكة، عند تقاطع طريق سباق الخيل باتجاه الشرق توجد آثار قديمة لمنشآت مائية مثل السد الذي يقع على فتحة الوادي بين جبلي العُرَيْضة والخُضيرة، ويصل طوله إلى نحو ١٤٥ م، وقنوات تصريف للمياه، وآثار بنائية متفرقة شمالاً وغرباً. ويتضح من خلال هذه الآثار الباقية أنها كانت ضيعة كبيرة، ربما لأحد وجهاء المدينة في الفترة الإسلامية المبكرة، ويطلق أبناء البادية المقيمون بهذه المنطقة عليها اسم (الروضة)[١].

ص ـ وادي مهلهل:[٢]

تقع آثار هذا الوادي في نقطة التقاء الوادي مع وادي النقمي، وتشتمل هذه الآثار على بقايا قصر كبير مستطيل المسقط تبلغ أبعاده ٣٠×٥٤ م، وشيدت أساساته من الأحجار الجرانيتية، ويتضح من الشواهد المعمارية الباقية أن جدرانه الخارجية مدعمة بأبراج دائرية ونصف دائرية المسقط، بالإضافة إلى مزرعة تقع شرق القصر، تتخللها قنوات تمرير مياه، كما يوجد إلى الشمال من آثار وادي مهلهل بعض المعالم الجغرافية والأثرية لكهف قديم، وآبار مندثرة، وآثار قصر قديم آخر بقيت أساساته الحجرية بطول ٢٠×١٦م، وسد كبير مشيد بالحجارة وعليه بعض النقوش الكتابية بالخط الكوفي.

ق ـ وادي النقمي:

يقع هذا الوادي شمال المدينة المنورة، وينحدر من أعلى مصبه في اتجاه الجنوب ويميل نحو الغرب حتى يدخل المدينة المنورة، ويشمل هذا الوادي على جانبيه عدداً كبيراً من الآثار الإسلامية، من أهمها القصر الكبير.

وقد شيد هذا القصر من الحجارة الجرانيتية، ولم يتبقَ منه سوى أساساته الحجرية، وملحق بهذا القصر مزرعة تبعد عنه نحو ٢٠٠ م في الاتجاه الشمالي الغربي. ويقع المدخل الرئيس للقصر بالواجهة الغربية، وينقسم القصر من الداخل إلى خمس وحدات، وكل وحدة تضم عدداً من الغرف وإلى الغرب من هذا القصر مسجد صغير مستطيل المسقط يبلغ أبعاده ٦,٢×٤,٥٠ م، ويتبعه مجموعة من الوحدات المعمارية تحيط به وهي سد لحجر مياه السيول ويحمي القصر منها، ويقع خلف القصر من الناحية الشرقية ويبعد عنه ٨,٦٠ م، وقناة مياه تمد القصر باحتياجه اليومي من المياه، وحوض مياه بالجهة الغربية من القصر ويبعد عنه ١٦,٤٠ م، وهو مستطيل الشكل تبلغ أبعاده ٥,٦٠×١ م[٣].

ر ـ وادي الخنق:

من أهم الآثار التي تقع في هذا الوادي هو سد وادي الخنق (سد معاوية) ويقع شرق المدينة المنورة في أعلى وادي الخنق وبالقرب من قرية العطافين. وشيد هذا السد في أيام الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان كما ورد في لوحته التأسيسية التي تتكون من عشرة أسطر نفذت بالخط الكوفي البسيط غير المنقوط وذلك بصيغة[٤]: «**بسم الله الرحمن الرحيم/ هذا السد لعبدالله/ معاوية أمير**

(١) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ١٨٤.

(٢) المرجع سابق، ١٩٩ ـ ٢٠٣.

(٣) للمزيد عن آثار هذا الوادي انظر: سعود بن فهد الشويش، «تقرير عن آثار وادي النقمي بالمدينة المنورة ١٤١٧ هـ»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، ع١٧، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م)، ١٠٥ ـ ١١٤.

(٤) الراشد، سعد. دراسات في الآثار الإسلامية، مرجع سابق، ٤٦ ـ ٥٩.



موقع خيف البصل

المؤمنين/ اللهم بارك له فيه رب/ السموات والأرض/ بناه أبو رداد مولى/ عبدالله بن عباس بحو/ل الله وقوته/ وقام عليه كثير بن/ الصلت وأبو موسى».

وشيد السد من الطوب المحروق، ويبلغ طوله ٤٣ م، وعرضه ١٢,٧ م وارتفاعه ١٧م ولم يتبق منه سوى جدرانه الخارجية فقط، وتهدمت كل معالمه المعمارية التي بداخله بسبب الكوارث الطبيعية. وقد عثر في الناحية الغربية مقابل السد على منطقة أفران لحرق الطوب الذي كان يستخدم في بناء السد وترميمه، واستمر استخدام تلك الأفران منذ وقت بناء السد حتى فترات لاحقة لأعمال الصيانة والتجديد[١].

ش ـ خيف البصل:

تقع آثاره الباقية إلى الشمال من مطار المدينة المنورة على طريق تبوك القديم. وتحيط بموقع خيف البصل مرتفعات جبلية تساعد على تجميع مياه السيول والأمطار في هذا المنخفض. وتمثل آثار خيف البصل ضيعة زراعية قديمة على غرار آثار وادي مهلهل ووادي النقمي ووادي السد. وتشتمل هذه الآثار على قنوات مياه تمتد على طول المرتفعات الجبلية، وقصرين مستقلين، شيد كل منهما من الحجارة الجرانيتية غير المنحوتة[٢]، والمغطاة بطبقة جصية، وهما متشابهان من حيث التخطيط، ولكن القصر الشمالي أصغر مساحة من القصر الجنوبي، وكل منهما يتوسطه فناء يحيط به سقيفة (روان) يرتكز سقفها على مجموعة من الأعمدة الأسطوانية ذات تيجان مربعة وتقع خلفها الحجرات (الغرف)[٣].

ت ـ بئر السائب:

تقع الآثار الباقية لبئر السائب إلى الشرق من العوينة، وبينها وبين المدينة المنورة نحو ٣٤,٥ كم، وتبعد عن الصويدرة غرباً بنحو ٢٠ كم. وتشتمل هذه الآثار على أساسات حجرية لمبانٍ ومنازل قديمة ومنشآت أخرى

(١) الشويش، سعود بن فهد، «تقرير عن آثار وادي النقمي»، أطلال، مرجع سابق، ع١٧، ١١٥ ـ ١١٨.

(٢) المرجع السابق، ٢٠٤ ـ ٢٠٧.

(٣) المرجع السابق، ١١٤، ١١٥.



الآثار الباقية ـ بئر السائب



نقوش في موقع الطرف (الصويدرة)

تقع في منخفض من الأرض تحيط بها الجبال، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من النقوش الإسلامية التي تضمنت تعريفاً بعدد من الشخصيات التي يرجح أنها عاشت في المنطقة أو كانوا عابري سبيل، كما تضمنت نقوش الموقع عبارات طلب المغفرة أو إثبات الشهادة والإيمان بالله سبحانه وتعالى[١]، أحدها مؤرخ في سنة ١٦٥ هـ/٧٨٢م ، وقراءته على النحو الآتي:

- «أنا عامر بن محمد أشهد/
- ألا إله إلا الله وأ/ن محمد (محمداً) رسول/ الله
- صلى الله عليه/ وكتب في المحرم/ سنة خمس
- وستين ومئة»[٢].

ث ـ الطرف (الصويدرة):

تقع الصويدرة إلى الشرق من المدينة المنورة، وغرب الحناكية، وهي موضع الطرف قديماً، وقد أشار الأنصاري إلى أنها غنية بالنقوش القديمة والإسلامية ومنها نقش مؤرخ بسنة ٢٠٥ هـ /٨٢٠ م [٣] ورسوم صخرية متنوعة، وهذا يدل على أن هذا المكان ظل نقطة عبور للمسافرين حتى العصر الإسلامي، كما أنه إحدى المحطات الرئيسة الواقعة على الطريق الفرعية المؤدية إلى المدينة المنورة[٤]. كما يوجد بها أطلال قديمة، وآثار لمقبرة إسلامية، وقنوات مفتوحة لجلب المياه للزراعة؛ ما يدل على أنها كانت منطقة زراعية في العصور الأولى.

وتقع الكتابات والنقوش في فم الوادي مباشرة وعلى واجهتيه الشرقية والغربية، وهذا المكان مشهور بكتاباته ونقوشه، واكتشف فيه ما يربو على المئة نقش إسلامي، منها خمسة نقوش مؤرخة، أقدمها مؤرخ بسنة ١٠١ هـ /٧١٩م، وآخر مؤرخ بسنة ١٩٥ هـ /٨١١م، وثالث نفذ سنة ٢٤٩ هـ /٨٦٣م، واتسمت هذه النقوش بأنها نفذت بالخط الكوفي غير المنقوط، ومعظمها غير مؤرخ، أما من حيث المضمون

(١) OP. Cit,. Al-Moraekhi, M. a Critical and Analytical, pp. 255-290.

(٢) OP. Cit,. Al-Moraekhi, M. a Critical and Analytical, p. 257.

(٣) الأنصاري، عبدالقدوس. بين التاريخ والآثار، مرجع سابق، ١٢٨ ـ ١٤٩.

(٤) الراشد، سعد بن عبدالعزيز. درب زبيدة، مرجع سابق، ٣٠٨.

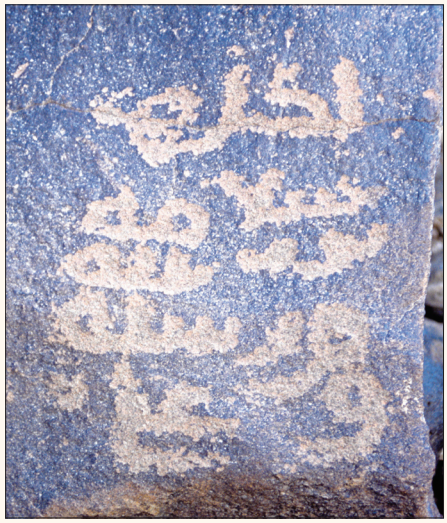

نقش إسلامي في موقع الطرف (الصويدرة)

فإن معظمها يدعو إلى طلب المغفرة والتوبة والرحمة أو إثبات الشهادة وغيرها من الأدعية والصيغ الدينية[1].

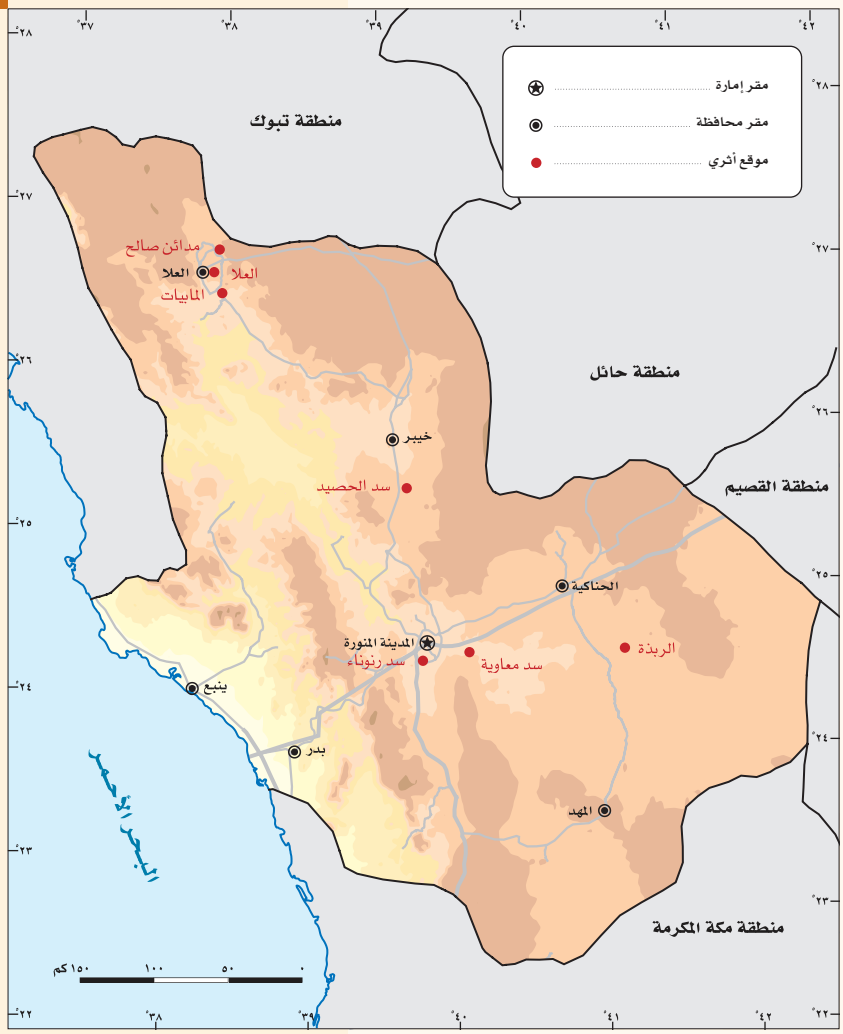

أهم المواقع الأثرية بمنطقة المدينة المنورة(*)

(١) المرجع السابق، ٤١٠ ـ ٤١٧.

(*) تمت مراجعتها واعتمادها من قبل الإدارة العامة للمساحة العسكرية.

الفصل الثالث

المتـاحـف

أولاً المتاحف الحكومية

ثانياً المتاحف الأهلية

إعداد

الدكتور مشلح بن كميخ المريخي

أستاذ علم الآثار الإسلامية المشارك

يعد إنشاء المتاحف والعناية بها أحد مظاهر رقي الأمم، ويعكس مدى اهتمامها بإرثها الحضاري والمحافظة عليه، وإبراز إسهاماتها في سلم الرقي البشري، هذا فضلاً عما تقدمه المتاحف بوصفها مراكز بحثية ومؤسسات ثقافية تعكس حال الأمم والشعوب.

وتعد المتاحف في المملكة العربية السعودية من أهم المعالم الوطنية التي لم تبخل عليها الدولة، فأعطتها جل العناية والاهتمام بإنشائها لتساهم في إثراء مسيرة التعليم والتوعية الثقافية، وتقوية الانتماء إلى حضارة الجزيرة العربية العريقة، وبيان دورها الواضح في المسيرة البشرية عبر العصور.

ومن أجل هذا أنشئت المتاحف لتوفّر بيئة تعليمية حديثة لمختلف الشرائح من المجتمع والزائرين من عامة الناس والأطفال والأسر والباحثين والمختصين وغيرهم، كما يهدف المتحف إلى تدعيم رسالته التعليمية بالمساهمة في جمع القطع الأثرية وتسجيلها وترميمها وحفظها، وإقامة المعارض التثقيفية لآثار شبه الجزيرة العربية وتراثها الشعبي خلال الحقب الزمنية المختلفة، ويعدّ مرجعاً حياً لتاريخ البلاد، ويساهم في ترابط المجتمع وغرس روح الانتماء إلى عراقة الأصول العربية ورسالة الإسلام وحضارته العظيمة.

ومن هذا المنطلق ـ وغيره من الأهداف ـ أنشئت المتاحف في مختلف مناطق المملكة، سواء أكانت هذه المتاحف حكومية أم متاحف خاصة بالأفراد، ومن هذه المناطق منطقة المدينة المنورة[1].

أولاً ـ المتاحف الحكومية:

يوجد بمنطقة المدينة المنورة متحفان تشرف عليهما وزارة التربية والتعليم (وكالة الآثار والمتاحف) هما:

- متحف المدينة المنورة للآثار والتراث الشعبي (متحف المدينة الإسلامي).
- متحف العلا للآثار والتراث.

أ ـ متحف المدينة المنورة للآثار والتراث الشعبي (متحف المدينة الإسلامي):

يقع هذا المتحف في ميدان باب العنبرية في مبنى القطار المطل على شارع عمر بن الخطاب من الجهة الشمالية، على بُعد كيلومتر واحد من المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة.

وأقيم هذا المتحف على جزء من المبنى الرئيس لمباني سكة الحديد في المدينة المنورة بعد أن قامت وكالة الآثار والمتاحف التابعة لوزارة التربية والتعليم بترميمه وتأثيثه وتجهيزه بالتعاون مع إمارة منطقة المدينة المنورة والقطاع الخاص، وافتتحه صاحب السمو الملكي الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز أمير منطقة المدينة المنورة ـ يرحمه الله ـ.

وتقوم وكالة الآثار والمتاحف في الوقت الراهن بالانتهاء من بعض الأعمال والترتيبات بالمتحف لافتتاحه للجمهور والمتخصصين.

ويشمل هذا المتحف مجموعات متنوعة من القطع الأثرية التي تعود إلى فترات تاريخية مختلفة، وبعض القطع التراثية الشعبية، بالإضافة إلى نموذج للمجلس التقليدي بالمدينة المنورة،وهو يتكون من الأقسام الآتية:

(١) عن هذه المتاحف انظر: وزارة المعارف، دليل المتاحف بالمملكة العربية السعودية، (الرياض: وكالة الآثار والمتاحف، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)؛سلامة رشدان الجهني، *متحف قمة المدينة: مجموعة نادرة من الصور التراثية القديمة*، (المدينة المنورة: ١٤٢٤هـ).

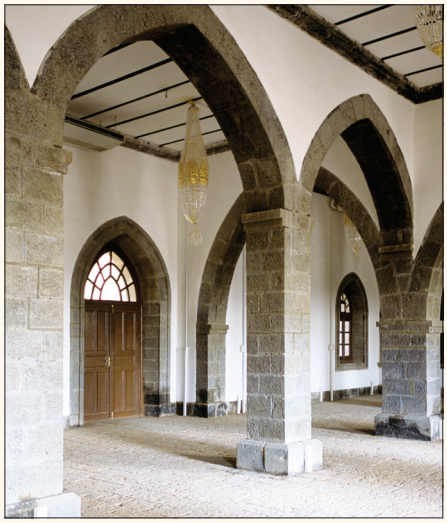

متحف المدينة المنورة

- قسم للآثار في المبنى الرئيس (دوران).
- قسم (قاعة) الملك عبد العزيز (نشرات وصور).
- قسم السكة الحديدية.
- قسم تراث المدينة المنورة.
- مكتب للنشرات السياحية.
- مسرح مفتوح (على شكل مدرج).

ب ـ متحف العُلا للآثار والتراث:

يقع هذا المتحف في مدينة العُلا، ويتبع إدارة التعليم بمحافظة العلا. وقد شُيد عام ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م، على مساحة قدرها ١٠٣٨٠ م٢، وافتتح للجمهور عام ١٤٠٧ هـ /١٩٨٧م، ويشتمل على معروضات أثرية وتراثية تعكس التطور الحضاري الذي شهدته المنطقة بصفة خاصة، والجزيرة العربية بصفة عامة؛ بالإضافة إلى أنه شيد ليكون مركزاً للأبحاث العلمية والمسح الأثري والتنقيب عن الآثار والترميم والتصوير والمساحة.

وقد روعي في تصميم المتحف أن يشتمل على عدد من الأقسام؛ حتى يقوم بوظيفتين: عرض التحف الأثرية والتراثية، وأن يكون مركزاً للأبحاث العلمية. وتتكون هذه الأقسام من:

- أربع صالات (قاعات) للعرض المتحفي.
- الإدارة.
- معامل التصوير.
- معامل المساحة والرسم.
- معامل الترميم والمختبر.
- المستودع.
- قاعات العرض التلفزيوني التي يتم فيها عرض أفلام عن آثار المملكة وتراثها.
- سكن مخصص للزوار الرسميين.
- مكتبة تضم مجموعة من الكتب المتخصصة والدوريات والنشرات.

أما بالنسبة إلى محتويات قاعات العرض المتحفي الأربع فهي على النحو الآتي:

١ ـ القاعة الأولى:

خصصت للإنسان والكون، ويتم فيها عرض نصوص وصور تتحدث عن بداية الإنسان وتكوين الأرض والطبقات الجيولوجية فيها.

٢ ـ القاعة الثانية:

مخصصة لعصور ما قبل الإسلام، وتبدأ من العصور الحجرية حتى العصر الجاهلي، ويتم فيها عرض مجموعة من القطع الحجرية والفخارية ولوحات من النقوش والكتابات الحجرية بالإضافة إلى نصوص وصور تحكي عن كل فترة من فترات ما قبل الإسلام.

٣ ـ القاعة الثالثة:

هـي الـقـاعـة الإسـلامـيـة، وتشـمـل عرضـاً يـبـدأ مـن هـجـرة الـرسـول ﷺ إلـى الـمـديـنـة، وعـهـد الـخـلـفـاء الـراشـديـن، والفترات الإسلامية التالية، بالإضافة إلى عرض مجموعة من القطع الأثرية المختلفة، ولوحات تتضمن نصوصاً وصوراً ومخططات تعود إلى تلك الفترة.

٤ ـ القاعة الرابعة:

هي قاعة توحيد المملكة، وتتحدث عن بداية الدولة السعودية الأولى إلى العصر الحاضر، من خلال عرض لوحات وصور عن فترات الدولة السعودية، بالإضافة إلى عرض مجموعات مختارة من القطع التراثية في المملكة.

ثانياً ـ المتاحف الأهلية:

يوجد بمنطقة المدينة المنورة متحفان أقيما بجهود فردية هما:

- متحف قمة المدينة في المدينة المنورة.
- متحف يوسف النجار بالهيئة الملكية في مدينة ينبع الصناعية.

أ ـ متحف قمة المدينة:

يقع هذا المتحف في المدينة المنورة في حي العزيزية قرب قاعة قمة المدينة للاحتفالات، في مكان فسيح يصله الزائر بيسر وسهولة.

قام هذا المتحف بجهود فردية من مالكه الشيخ سلامة رشدان الجهني، وتم تأسيسه عام ١٤٢٢ هـ /٢٠٠١م، وكان قبل ذلك في منزله. ولم تبخل وكالة الآثار والمتاحف التابعة لوزارة التربية والتعليم بالمساعدة له،



متحف العلا للآثار والتراث الشعبي


القاعة الأولى في متحف العلا

تشجيعاً على محافظته على التراث الشعبي، وأرسلت المتخصصين ليقدموا له المشورة والنصح في طريقة العرض وفي أعمال الصيانة والترميم. وقام صاحب السمو الملكي الأمير مقرن بن عبدالعزيز آل سعود بافتتاح هذا المتحف الذي يشغل مساحة قدرها ١٨٠٠ م٢.



متحف قمة المدينة



بعض مقتنيات متحف قمة المدينة

ويضم المتحف نحو ١٤٠٠٠ قطعة تراثية شعبية قديمة، وزعت على عدد من الأقسام، كل قسم على حدة، على النحو الآتي:

- قسم الأسلحة.
- قسم السيوف القديمة.
- قسم المخطوطات.
- قسم الأواني المنزلية.
- قسم الصوتيات السمعية.
- قسم أدوات الأكل القديمة.



بعض مقتنيات متحف قمة المدينة

- قسم الملابس القديمة.
- قسم الفضيات.
- قسم خاص بالمحنطات.
- قسم المصنوعات الخشبية.
- قسم الاتصالات.
- قسم المراسلات القديمة والخط القديم.
- قسم العملات النقدية.
- قسم الوثائق النادرة والمخطوطة.
- الأقفال القديمة والأبواب.
- قسم الخزف القديم.

ويحوي المتحف بعض القطع التراثية النادرة، من أهمها:

- آنية لحمل الطعام يعود تاريخها إلى عام ٢٦ هـ /٦٤٧م، وأخرى تعود إلى عام ٣٨ هـ/٦٥٨م.
- درهم أموي من الفضة يعود إلى عام ٩١ هـ /٧١٠م.
- مجموعة من الأقفال النادرة يعود تاريخها إلى القرن السادس الهجري.

- مجموعة من السيوف يعود تاريخها إلى نحو عام ٨٧٣ هـ /١٤٦٨م، ومنها سيوف مذهبة يعود تاريخها إلى عام ١٣٧٣ هـ /١٩٥٤م.

ب ـ متحف يوسف النجار في الهيئة الملكية بمدينة ينبع الصناعية:

يقع هذا المتحف في الهيئة الملكية في مدينة ينبع، وهو متحف خاص لصاحبه يوسف سعيد النجار، خصصت له الهيئة الملكية في مدينة ينبع الصناعية صالة كبيرة، ووافق المجلس الأعلى للآثار في جلسته التاسعة والأربعين على إقامة هذا المتحف وافتتاحه، وذلك في تاريخ ١٤٢١/٢/٢٠ هـ الموافق ٢٠٠٠م، واستمر المتحف عامين ثم انتقل إلى صاحبه بعد ذلك.

ويتضمن المتحف مجموعة كبيرة من القطع التراثية الخاصة بمنطقة المدينة المنورة، كالمشغولات اليدوية من الملابس والسجاد وبعض الأدوات والأواني النحاسية والخشبية الخاصة بطهي وتقديم الطعام، ويحوي بعض الأسلحة القديمة كالخناجر والبنادق، وبعض المصنوعات الجلدية، بالإضافة إلى قسم خاص بالأحياء البحرية وأدوات الصيد.

ويتضح من خلال مخطط متحف يوسف النجار في الهيئة الملكية أنه كان يشغل مساحة قدرها ٧٣٥ م^{٢}، ويؤدي المدخل الرئيس له إلى صالة استقبال بها بيت شَعْر، وتدور حول هذه الصالة أقسام المتحف على النحو الآتي:

- قسم إدارة المتحف.
- قسم المعروضات التراثية المختلفة، وبهذا القسم نموذج لمباني ينبع البحر.
- قسم معروضات صوفية.
- قسم معروضات الخياطة.
- قسم أدوات البحر.
- قسم الصدف والمرجان والشعاب المرجانية.
- قسم أدوات الزراعة.
- قسم أدوات فخارية.
- صالة عرض اللوحات التراثية، ويصل عددها إلى مئة وعشرين لوحة معظمها من الصوف البدوي القديم والفضيات والخشب وقطع مرجانية وصدفية.

وفي هذه الصالة يقوم نموذج لبيت من ينبع البحر، ومجسم مشيد من الحجر الأسود لسلسلة جبال رضوى الشهيرة.

الباب الرابع

الأنماط الاجتماعية والعادات والتقاليد

إعداد

الدكتور عبدالعزيز بن حمود الشثري

أستـــاذ عـلم الاجتـماع المشـارك

المقدمة

تعد العادات والتقاليد الاجتماعية نتاجاً للحياة الثقافية والاجتماعية في المجتمع، ومعبرة عنه؛ وهي تلك الأنماط السائدة من السلوك الاجتماعي التي تنتقل من جيل إلى جيل، وتستمر فترة طويلة حتى تستقر وتثبت، وتصل إلى درجة اعتراف الأجيال المتعاقبة بها.

وبما أن التغير سنَّة الحياة والأوضاع الاجتماعية لا تدوم على حال، فإن الحياة الاجتماعية والثقافية في منطقة المدينة المنورة ـ كما في غيرها ـ مرت بمراحل كثيرة وأطوار متعددة. ويركز هذا الباب على تلك المرحلة التي شهدت قيام المملكة العربية السعودية، ونشأة مؤسساتها، وهي الفترة الممتدة بين القرن الهجري الرابع عشر وأوائل القرن الهجري الحالي التي شهدت فيها مختلف الأنماط الاجتماعية والثقافية تغيراً واضحاً في كثير من جوانبها، مع ملاحظة أن التغير بدأ يشتد تسارعاً عند بدء الأخذ بأسلوب التخطيط الشامل للتنمية الاجتماعية والاقتصادية وتطبيق الخطط الخمسية للتنمية منذ عام ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م.

ونظراً إلى ما تتمتع به المدينة المنورة من مكانة وقداسة في نفوس المسلمين عامة، فقد كانت مهوى أفئدة كثير ممن قدموا لزيارة المسجد النبوي الشريف منذ بزوغ فجر الإسلام من حجاج ومعتمرين وغيرهم، فهي منطقة جذب سكاني منذ ذلك الحين وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك كله علاقة وطيدة بما يسود في هذه المنطقة من عادات وتقاليد، حيث الامتزاج الثقافي بين الوافدين أنفسهم من جهة، وبينهم وبين السكان الأصليين من جهة أخرى، وقد لوحظ هذا في كثير من الأنماط الثقافية وأساليب الحياة الاجتماعية؛ من طريقة اللبس أو مهارات الحرف أو أسلوب تحضير الوجبات الغذائية... وغيرها.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن العادات والتقاليد الاجتماعية تتأثر بطبيعة البيئة الاجتماعية والجغرافية التي يعيش فيها أبناء المجتمع؛ إذ تنشأ العادات وتتكون التقاليد وتصاغ الأعراف في ظل البيئة التي يوجد بها أي تجمع سكاني، ومن هذا المنطلق أيضاً ينبغي التنويه إلى أن منطقة المدينة المنورة بمجالها الواسع قد شملت بيئات جغرافية متعددة، منها الساحلية والجبلية

والصحراوية، كما شملت بيئات مختلفة من حاضرة وأرياف وبادية. وقد أسهم كل هذا في أن تأتي الثقافة الاجتماعية التقليدية لتلك المنطقة شاملة متنوعة، تنوع اختلاف لا تضاد، فكلها تنبع من منبع واحد هو الثقافة العربية الإسلامية، مع تأثر بالخصوصية الإقليمية أو المحلية في فرعيات الثقافة الاجتماعية.

وينبغي التنبيه هنا أيضاً إلى أن كثيراً مما يرد ذكره من أنماط الحياة الاجتماعية في المجالات المختلفة قد تأثر بما تأثرت به الحياة الاجتماعية في بقية مناطق المملكة لأسباب مختلفة؛ منها ما خلفه التقدم الاقتصادي والتقني من آثار على أوجه الحياة كافة، ومنها تحضر البادية، وتمدن القرى، والهجرة الداخلية إلى المدن، ما أدى إلى ترييف المدن سكانياً.

ولذا لم يقتصر التغيير على المدن والحواضر في هذا الشأن، بل إن عدداً من أنماط الثقافة الريفية والبدوية قد أتت عليها رياح التغيير وفُقد كثير منها، وبخاصة ما يتعلق بحياة أهل البادية والريف من أنشطة الرعي والزراعة التي كانت تشكل نمطاً اجتماعياً يسيطر على بقية الأنشطة الاقتصادية والمهنية والاجتماعية في تلك البيئات، ما أدى إلى تقارب كبير في أنماط الحياة الاجتماعية بين جميع بيئات المنطقة على اختلاف مستوياتها، حينما سهل الاتصال بينهم، وعَمّت الأنظمة الحكومية الموحدة المتعلقة بالتعليم والصحة والخدمات الاجتماعية وغيرها.

الفصل الأول

المساكن ومواد البناء

أولاً مساكن المدن

ثانياً بناء المساكن والمواد المستخدمة

ثالثاً الوصف الداخلي للمسكن

رابعاً الأثاث والفرش

خامساً مساكن القرى

سادساً مساكن البادية

سابعاً مظاهر الثبات والتغير

تتميز منطقة المدينة المنورة بنمط معماري إسلامي عريق، يعد حصيلة تجارب وخبرات متراكمة امتزجت مع حاجات المجتمع وخصوصيته، واستفاد أهلها من مهارات الصناع والحرفيين الذين قدم كثير منهم من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي إليها واستوطنوها، شأنها في ذلك شأن مكة المكرمة والمدن الحجازية الأخرى. أما المساكن في بادية المنطقة وأريافها فتشبه إلى حدٍّ كبير النمط العمراني والسكني الشائع في بقية مناطق المملكة، خصوصاً المنطقتين الشمالية والوسطى، حيث بيوت الشعر في البادية، والمساكن المشيدة بالطين في الأرياف.

وفيما يأتي عرض لأنماط المساكن في المنطقة من ناحية البناء والتشييد، والمواد المستخدمة في ذلك، والتخطيط الهندسي، وتوزيع غرف المبنى وتسمياتها واستخداماتها، وأنواع الفرش والأثاث الذي يشيع استعماله.

أولاً ـ مساكن المدن:

تتميز المدن الكبرى في غرب المملكة عموماً ـ ومنها المدينة المنورة ـ بنمط عمراني تقليدي يختلف تماماً عن بقية المناطق في المملكة، وذلك فيما يتعلق بالمواد المستخدمة وطرق الإنشاء والشكل الخارجي للمبنى من ناحية الواجهات وعدد الأدوار في المبنى، وتتميز المدينة المنورة أيضاً بأنها تختلف ـ حتى عن مدن الحجاز الأخرى ـ من ناحية التخطيط الداخلي للأحياء وتجاور المساكن. وهذا عرض موجز لأهم المظاهر التي يتميز بها المسكن في المنطقة:

أ ـ التخطيط ونمط الجوار:

لقد اتسم النمط العمراني التقليدي بسمتين من حيث التركيب: إحداهما نظام (الحارة)، والأخرى نظام (الأحواش) الذي يميز عمرانها عن غيرها من المناطق، ويتمثل الفرق بين النظامين في أن نظام الحارة يتكون من شارع رئيس يطلق عليه اسم (الحارة) وتتفرع منه طرقات ثانوية تصطف على جنباتها المساكن. ونظام الأحواش يتكون من شارع رئيس مماثل للحارة تتفرع منه فتحات، وهي بوابات تفضي إلى فراغ مفتوح تحيط به المساكن من جميع الجهات. وبما أن نمط الأحواش هو الذي ساد التركيب العمراني للمدينة المنورة ـ إذ تكاد تنفرد به من بين مناطق المملكة ـ فسوف يقتصر الحديث هنا على ذلك النمط التخطيطي دون النمط الآخر الذي هو نمط الحارات.

(الحوش) هو فراغ مفتوح مخصص لاستخدام أهالي المنازل المطلة عليه، وهي تشكل محيطه. ويتصل الحوش ببقية أجزاء المدينة من طريق بوابة تغلق ليلاً وفي أوقات اختلال الأمن، وهناك عدد محدود من الأحواش التي لها أكثر من مدخل، وتتكون البوابة من سقيفة معقودة يستخدم أعلاها لأحد المساكن المجاورة.

وتختلف مساحات الأحواش وعدد البيوت التي بداخلها، إذ يصل أكبر حوش من حيث المساحة إلى ٨٧٠٠ م^{٢} ومن حيث عدد البيوت إلى ٧٤ بيتاً، وبالمقابل تصل مساحة أصغر حوش إلى ٥٠ م^{٢}، بينما يصل عدد البيوت إلى ثمانية، وتختلف مساحات الأحواش حسب قربها من الحرم النبوي الشريف، إذ تصغر المساحة كلما قرب الحوش من الحرم، لذلك



أحد أزقة قرية العلا القديمة

تبدو الأحواش التي تقع داخل السور القديم للمدينة المنورة صغيرة المساحة، قليلة البيوت[١].

وفيما يتعلق بالوظيفة الاجتماعية والأمنية للأحواش فإن التشكيل الفراغي للحوش قد أسهم في إيجاد روابط اجتماعية قوية بين السكان؛ لاشتراكهم وتقابلهم فيه أثناء خروجهم منه ودخولهم إليه، وقد هيأ الحوش للسكان إمكانية استخدام المساحة التي أمام المنزل في الجلوس مساء ودعوة الجيران والأصدقاء؛ ما يزيد الروابط بينهم، وعادة ما تختار النساء ركناً منعزلاً داخل الحوش لجلوسهن، وكذلك يلتقي الأولاد في بقعة معينة من الحوش للتحدث والتسامر. وتستخدم الأحواش عادة للمناسبات مثل حفلات الزواج والأعياد، فتفرش منطقة منه لجلوس الرجال، وتخصص إحدى الزوايا للطبخ وإعداد الطعام، ويبقى الوسط للرقصات الشعبية.

وبما أن الجميع يشتركون في استخدام هذه المساحة المحدودة من الحوش الذي تفتح وتطل عليه مساكنهم، فإن ذلك دفعهم إلى الاهتمام بساحة الحوش من حيث النظافة وكفاءة الاستخدام الذي لا يؤثر على الآخرين.

وتكمن فائدة هذا التركيب العمراني للحوش في توافر الطمأنينة لدى سكانه، نتيجة التحكم في مدخل الحوش وإغلاقه في ساعات الليل لحمايته من دخول الأشرار، وتجنب الأغراب دخول الحوش إلا في حالة زيارة أحد السكان. وقد لوحظ أن الصبيان كانوا (وسائل إنذار مبكر)، وكانوا ينبهون الأغراب بأنهم أخطؤوا الاتجاه عند دخولهم الحوش، كما يساعد الحوش على الألفة والتعارف بين الجيران، ويجعل الرجال أكثر اطمئناناً على عائلاتهم عندما يكونون في أعمالهم[٢].

وقد أزيل عدد من تلك الأحواش في خضم النهضة العمرانية والمشروعات التطويرية الشاملة للمنطقة عموماً ووسطها خصوصاً، وبعضها أزيلت أجزاء منه أو تهدمت، وتجدر الإشارة إلى بعض تلك الأحواش بالاسم كما وردت في المصادر وعلى ألسنة أهل المدينة، ومنها على سبيل المثال:حوش خميس، وحوش القشاش، وحوش كرباش، وحوش مبرمة، وحوش المغاربة، وحوش أبوذراع، وحوش الراعي،وحوش أبوجنب،وحوش عميرة،وحوش مناع، وحوش منصور، وحوش التاجورية، وحوش الخازندار، وحوش الأشراف.. وغيرها كثير، مع الإشارة إلى أن هذه الأحواش تتفاوت في المساحة وطبيعة التشييد وعدد الأدوار، وذلك حسب الحالة الاقتصادية والاجتماعية للعائلات التي تسكنها.

(١) الصويان، سعد عبدالله، *الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية*، (الرياض: دار الدائرة للنشر،١٤٢٠ هـ)، جـ٤، ١٠١، ١٠٢.

(٢) المرجع السابق، ١٠٣، ١٠٤.

ب ـ الشكل الخارجي للمبنى:

تختلف المباني فيما بينها من حيث الشكل الخارجي في بعض التفصيلات، ولكن النمط العمراني السائد في المنطقة هو النمط الحجازي، وتنقسم واجهات المباني في المنطقة ـ بشكل عام ـ إلى نوعين:

- واجهات تغطيها الرواشين و(البلكونات) تماماً.
- واجهات ذات فتحات متعددة ومتساوية في الأبعاد.

ويلاحظ تأثر المنطقة ـ أساساً ـ بالنمط العثماني الذي كان سائداً آنذاك، ويتمثل في شكل الأقواس والقباب والمآذن والفتحات. وتنحصر صفات النمط المعماري التقليدي في المنطقة في الآتي:

- تتصف المنطقة بالمباني متعددة الأدوار التي تصل إلى خمسة أدوار.
- استخدام الحجر والطوب الفخاري أحدهما مع الآخر في بناء المساكن.
- شيوع الرواشين التي تغطي معظم أجزاء الواجهات.
- استخدام الطوب الملون الذي يرص بشكل زخرفي جميل في ستر الأسطح.
- ظهور المداخن البارزة فوق نهاية سترة السطح.
- تخصيص فتحات للقلال؛ وهي أوانٍ فخارية في الرواشين لتبريدها بمرور الهواء عليها.

وتتميز العمارة التقليدية في هذه المنطقة بأن لكل واجهةِ مبنىً نمطها المستقل عن غيره، مع الانسجام بين الواجهات المختلفة في الأحياء السكنية، وفي المدينة بشكل عام، ويرجع السبب في ذلك إلى الآتي:



الشكل الخارجي (الرواشين في واجهة المبنى)

- يبنى ـ عادة ـ كل بيت على حدة، ويظهر التنافس في الإبداع وإبراز المهارات بين البنائين.
- رغبة المالك في التميز عن غيره في تشكيل واجهة المبنى.
- الاختلاف في مستويات دخل المالكين.
- تغير الأنماط العمرانية مع مرور الزمن[1].

ويلاحظ أنه قد ساد في المنطقة نوعان من الرواشين: التركية، والمصرية (وتعرف بالمشربية). وكان النمط التركي بسيطاً في البداية، وهو إطارات نافذة مثل القفص (قفص خشبي له ثلاثة جوانب) وليس بها أي أجزاء متحركة، وبعض الرواشين من هذا النمط تصنع أعلاه مظلة لتوفر الظل وتخفف الحرارة داخل الروشان. ويمتاز النمط المصري بأنه مكون من قطع الخشب الصغيرة المقطوعة بمهارة وشكلها منسق، وتحتوي على عدد كبير من الضوابط والشيشان التي تدخل في تركيب الرواشين. وكانت الرواشين تتكون من صفين أو أربعة صفوف من الشيشان التي كانت تطوى في اتجاهات مختلفة، وعن طريق

(١) محمد عبدالرحمن الحصين، وعبدالحكيم عبدالوهاب هارون، *صور من التراث العمراني*، (١٤٢٣ هـ)، ٢٦ ـ ٢٨.



واجهة المباني التقليدية

طي الشيشان يمكن التحكم في الضوء والهواء الذي يدخل إلى المنزل، أما الأجزاء غير المتحركة من الروشان فكانت تصنع من قطع صغيرة من الخشب.

وكان الناس يولون اهتماماً خاصاً بمداخل البيوت والبوابات الرئيسة، وذلك فيما يتعلق بالحجم والزخرفة، فكان للأبواب الأمامية ـ عادة ـ ضعف الارتفاع بالأحجار المنسقة والزخارف الحجرية، وكانت تركب بها الأبواب الخشبية الكبيرة التي كان لها مصراعان: الأيمن منهما به باب صغير أو مدخل يعرف بـ(الخوخة)، وكانت الأبواب ذات المصراعين ثقيلة نوعاً ما، ما جعلها تحتاج إطاراً قوياً لتثبيتها، وكانت هذه الأبواب لا تفتح إلا لمرور الأحمال الثقيلة، بينما كانت الخوخة هي المدخل الرئيس إلى المنزل[1].

ج ـ الدّكة أو المصطبة:

قد اعتاد الناس في المدينة المنورة ـ كما في سائر مدن الحجاز ـ على أن يكون أمام البيت مكان يعد لجلوس الرجال في أوقات اعتدال الطقس وهو ما يسمى الدّكة أو المصطبة، وتكون عن يمين باب الزقاق أو يساره، وهي مرتفعة عن سطح الأرض نحو نصف المتر أو يزيد قليلاً، يجلسون عليها في أوقات العصر وأوائل الليالي، وفي أوقات الضحى قبل أن يشتد حرّ الشمس.

د ـ النقوش والزخارف:

كانت تُستخدَم في زخرفة المباني أنواع مختلفة من الزخارف، تتألف من الأشكال الهندسية والكتابات والنقوش التي يستخدم فيها الجبس والخشب والطين أحياناً، وكذا الألوان والدهانات المتعددة. وقد بالغ البناؤون في زخرفة بعض المباني وخصوصاً التيجان والأعمدة، والحفر في الحوائط لإظهار بعض الأشكال البارزة منها والغائرة إمعاناً في تزيين المباني. وفي بيوت التجار الكبيرة نجد أن هناك نقوشاً وزخارف ترجع إلى ما قبل الإسلام من مناطق متعددة من العالم مثل الهند وتركيا وحتى الصين، ونجد أيضاً نقوشاً وزخارف اعتمدت على نمط الخط العربي الجميل المستخدم لكتابة الآيات القرآنية والأحاديث. وقد شملت أعمال الخشب إطارات النوافذ والأبواب، وأسوار الخارجات والعقود، وعوارض النوافذ والشرفات وغيرها[2].

ثانياً ـ بناء المساكن والمواد المستخدمة:

لم يكن يُستخدَم المتر ومشتقاته للقياس، بل كانت مساحة الأرض تقاس بالمخزن؛ وهو وحدة قياسية للمساحة تساوي ٤٢ م٢. فعلى سبيل المثال: الأرض التي مساحتها عشرة

(١) الصويان، سعد عبدالله، الثقافة التقليدية، مرجع سابق ، جـ٤، ١٨٦، ١٨٧.

(٢) المرجع السابق، ١٧٠.

مخازن تساوي ١٠×٤٢ = ٤٢٠ م٢. وربما ذكر المعلم (رئيس البنائين) لصاحب المنزل أن هذه المساحة تكفي لثماني أو تسع غرف أو مخازن.

فإذا اتفق صاحب المنزل مع المعلم على المخططات الابتدائية مع التفصيلات الأخرى مثل عدد الرواشين و(البلكونات)، فإن المعلم يمكن أن يناقش مع المالك الميزانية المطلوبة والمدة اللازمة لبناء المنزل تبعاً للمواصفات التي تم الاتفاق عليها، ويبقى الاتفاق على نظام الدفع فقط، ويجب أن يحضر عدد من الشهود أو أحد أعضاء رابطة البنائين في كلتا المرحلتين، ويمكن التغاضي عن بعض هذه الإجراءات إذا كان المالك جاراً للمعلم أو أحد أقربائه.

وقد كان الاتفاق على نظام الدفع يعد خاتمة الاتفاقات المبدئية في أعمال البناء، فيما كان هناك نظامان مميَّزان لدفع الأجرة هما: المقاولة (الجوادة أو المجاودة)، والأجرة اليومية (دفعات يومية)، ولا يقبل المعلمون الدائمون النظام الثاني للدفع؛ لكونه أقل مكانة[1] وربحاً.

وفي الواقع لم تكن خطوات البناء وأساليبه تأخذ التسلسل والترتيب نفسه عند إنشاء كل المساكن ولدى كل البنائين، إذ قد تختلف تبعاً لاختلاف خبرات المعلمين وقدرات أصحاب المنازل وحاجاتهم، ولكننا سوف نشير إلى أكثر الخطوات شيوعاً واستخداماً لدى أهل المنطقة بشكل عام؛ إذ كانت عملية البناء تبدأ بحفر مواقع الأساسات بعمق مترين تقريباً أو أقل أو أكثر تبعاً لطبيعة الأرض وارتفاع المبنى، وبعد عملية الحفر يبدأ وضع الأساس، وتعرف هذه العملية بـ(رصد السيسان) أي موازنة الأساس، إذ يصب الطمي وتوضع



اللبن المستخدم في بناء البيت الطيني

فوقه الحجارة، وفي المناطق الجبلية لا تدعو الحاجة لعملية الحفر والتأسيس هذه.

وكان البناؤون هم الذين يقومون بالبناء الحجري أو الطيني أو بوساطة الطوب بطرقهم الفنية المستعملة في ذلك الوقت، كما كانوا يقومون بوضع بعض الأخشاب من الأثل أو السمر أو غيرها داخل الجدران ليتم التماسك بين أجزاء البناء، كما يقومون بتسقيف الغرف وغيرها بأعمدة الأثل أو جذوع النخل بعد تلوينها ورصفها على أسقف الغرف، ومن ثم وضع الجريد (جريد النخل) بطرق معينة بين أعمدة السقف، ثم يغطى بالخصف أو الحصير المصنوع من خوص النخل أو غيره، وبعضهم يقوم بتلوينها قبل وضعها لتضفي جمالاً على منظر السقف، ثم يوضع عليها الطين، وتتم تسويته على سقف الغرفة.

وأكثر منازل المدينة المنورة ـ إن لم تكن جميعها ـ مبنية بالحجارة حتى نهاية الدور الأول أو أكثر، ويتم إكمال الباقي بالطوب الطيني (اللَّبِن) أو طوب المصانع المحروق الأحمر، ويكون عرض الجدار في الدور الأول من ٤٠ ـ ٥٠ سم أو أكثر، والأدوار العلوية يكون عرضها أقل من ذلك، وتبنى بالطين

(١) المرجع السابق، ١٧٥.



الحجارة المستخدمة في بناء المنازل



أسقف المباني في البيت الطيني (*)

أو الطوب المحروق كما سبق. كما أن النجف (مداخل الغرف وغيرها) تسقف بخشب الأثل أو الصمل الأقل سماكة من خشب السقف؛ لأنه لم تكن هناك جسور أسمنتية ولا أسقف ولا أعمدة تقام عليها المنازل[1].

وقد كانت العادات المتبعة لدى أهل المدينة المنورة أن الأهل والأقارب والأصحاب يتعاونون مع من يعتزم بناء دار ليسكنها، ويقدمون له المعونة المادية والمعنوية كلٌّ حسب طاقته ووفقاً لدرجة قرابته ومودته، حتى لو اقتصر الأمر على مجرد الدعاء له بالتوفيق والبركة.

ويعد تسليم البيت لصاحبه مناسبة سعيدة للحيِّ؛ فبعد وقت طويل (من سنة إلى أربع سنوات) يأتي وقت تسليم البيت للعائلة، إذ يحرص الجميع على تسليمه قبل موسم الحج لأسباب كثيرة. وكان صاحب المنزل يجمع عدداً من كبار السن في الحارة ليشهدوا عملية التمتير المبدئي وهي (القياس بالمتر) وهي قياس المنزل والموافقة على المساحات، ويقوم المعلم وبعض مساعديه ومعهم المالك وبعض أفراد الحي (الحارة) بأخذ القياسات لمراجعتها ومعرفة مدى مطابقتها للاتفاق والعقد المبدئي الشفهي أو المكتوب بين المعلم وصاحب المنزل[2].

ومن الجدير بالذكر أن فريق البناء التقليدي يتكون من (المعلم) وهو الذي يدعوه العمال (الريِّس) لأنه يرأس العمال، والنحات (وهو قاطع الحجر القراري) الذي يقوم بتكسير الحجر وفق طلب البنّاء ليكون الحجر ملائماً للمكان الذي يوضع فيه من الجدار، وسمي قرارياً لأنه يشكل الحجر بمقدار موضعه وقراره في الجدار، و(المروج) وهو حامل الحجر، و(الطيّان) وهو حامل الطين، و(الخلاط) وهو عامل خلط الملاط، و(المناول) وهو عامل حمل الحجارة من أسفل إلى أعلى، و(الفلاتي) وهو مساعد البناء. وتحدد خبرة كل عامل وكفاءته حسب مكانته في الفريق ودرجة الاعتماد عليه.

وعلى الرغم من أن الأجر اليومي للتخصصات المختلفة من عمال طائفة البناء كان يحدده شيخ الطائفة، إلا أن

(١) السيد ياسين أحمد الخياري، *صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة*. ط٢، (جدة: دار العلم، ١٤١٥ هـ)، ٢٤٣.

(٢) الصويان، سعد عبدالله، الثقافة التقليدية، مرجع سابق، جـ٤، ١٨٨.

(*) Op. Cit., Najd , Humberto da Silveira, 1992.

معلم كل فريق كان له الحق في تغيير هذا الأجر حسبما يتراءى له من كفاءة العمال ومهاراتهم وخبراتهم وأقدميتهم[1]. وتشارك في المراحل المتعددة لعمليات البناء طوائف أخرى من العمال والحرفيين مثل: النجارين، والحدادين، والنوارة، والحجارين، والدهانة وغيرهم، كلٌّ حسب اختصاصه وفي وقت الحاجة إليه.

ثالثاً ـ الوصف الداخلي للمسكن:

على الرغم من أن تخطيط البيوت وما تحتويه من غرف ومنافع ليس على نمط واحد في جميع أنحاء المدينة المنورة إلا أن هناك قواسم مشتركة بحسب طبيعة الحياة العامة للسكان وثقافتهم، مع وجود تفاوت في عدد الغرف ـ مثلاً ـ وسعة المجالس، وعدد أدوار المبنى، وأسلوب تشييده، وطريقة زخرفته، وتزيين جدرانه ومداخله.. وما إلى ذلك بحسب الحالة الاقتصادية والمكانة الاجتماعية للأسرة، إلا أن التشابه يبدو في نمط التخطيط بوجه عام، وفي تسمية الغرف وأجزاء البيت، وطريقة استخدام كل جزء أو غرفة حسب موقعها، وما يخصص لاستقبال الضيوف أو يكون خاصاً بأهل البيت، وما عين منها للرجال وما هو خاصّ بالنساء، ونحو ذلك مما له علاقة بثقافة أهل المدينة المنورة وعاداتهم وتقاليدهم. وسوف نورد هنا وصفاً تفصيلياً للبيت المدني، مع الإشارة إلى استخدام كل جزء من أجزائه حسب ما توافر من معلومات:

- **المصطبة**: وهي مكان يعد للجلوس خارج باب المدخل، وترتفع عن الأرض نحو ٥٠ ـ ٧٠ سم، تبنى من الحجر، وتستخدم للجلوس في فترة ما بعد الظهيرة أو ليالي الصيف إذ يتسامر عليها الجيران.
- **الدهليز**: هو أول ما يدخله الداخل إلى المنزل بعد باب الزقاق، وهو على شكل ممر صغير، إلا أنه قد يكون على شكل صالة واسعة نسبياً في بيوت الأغنياء والعائلات الكبيرة.
- **دكة الدهليز**: في بعض المنازل تُنشأ دكة للجلوس في الدهليز وبخاصة في أيام الصيف، وهي أيضاً مجلس للضيف المستعجل، وقد يكون هناك أكثر من دكة حسب الحاجة أو القدرة المادية.
- **المقعد**: هو أول غرفة على يمين الدهليز أو يساره، ويستقبل فيه الضيوف في أيام الصيف، ويطل بشباك على الزقاق، وقد يستخدمه بعضهم مكتباً أو جناحاً لنوم الرجال من الضيوف. وأحياناً يكون في البيت أكثر من مقعد في الأدوار العليا بالإضافة إلى المقعد في الدور الأرضي.



دكة الدهليز

(١) المرجع السابق، ١٩٥.



المطبخ

- **بيت البئر**: هو المكان الذي توجد فيه البئر، وغالباً ما يكون خلف منطقة الدرج.
- **الديوان**: هو إيوان مفتوح للجلوس في الدور الأرضي، وغالباً يكون مفروشاً بالحجر، وهو مفتوح في وسط أعلاه إلى أعلى المنزل أي إلى السطح، وغالباً ما تكون في الديوان غرفة داخلية بابها من وسط الإيوان، كما أن بعض الدواوين يكون في وسطها ما يشبه النافورة الصغيرة، وهي ما تسمى بـ(الفسقية).
- **القاعة**: هي المجلس الداخلي للجلوس في الدور الأرضي، ويكون طريقه من داخل الديوان مفروشاً بالحجر، وهو أيضاً مفتوح في وسط أعلاه إلى السطح.
- **الجلا**: هو الفتحة التي تكون في الديوان والقاعة ـ أو في أحدهما ـ إلى السطح، وعليها غطاء يقفل أثناء هَطول الأمطار ويفتح للضوء والتهوية، واسمه مأخوذ من الجلوة أي الكشف.
- **القاعة المعلقة**: هي مجلس مخصص للجلوس، ويكون في الأدوار العلوية، وفي وسطه جلا إلى السطح.
- **المركّب (المطبخ)**: كلمة المركّب مأخوذة من التركيب ومعناه قديماً الطبخ؛ لأن عملية الطبخ كانت تتم بتركيب القدر على ثلاثة أحجار أو على رافع حديدي توضع تحته النار، ويكون المطبخ بعيداً عن المجلس والكوانين، وتكون أرضيته من الحجر، وتحفظ فيه أواني الطبخ من القدور ونحوها.
- **المؤخر**: هو الغرفة الثانية في البيت وهي غرفة المعيشة للأسرة، وعادة تكون بها نافذة كبيرة وليست لها نافذة خارجية، وقد تستخدم للنوم في أيام الشتاء.
- **الدقيسي**: هو الغرفة التي فوق المدخل في الدور الأول (بعد الأرضي) في الجزء العلوي من بيت الدرج، وتستخدم في تخزين الفحم، وعادة تحجب عن الأنظار بسقف مستعار أو نحوه، ويقال إن أهل المدينة المنورة كانوا يخفون فيها المقتنيات الثمينة في الماضي.
- **الصفة**: هي المكان المعد للجلوس العادي لأهل المنزل بين الغرف الرئيسة (صالة الجلوس حالياً).
- **الروشان (والجمع: رواشين)**: هو نافذة الغرفة التي على الواجهة وبخاصة المجلس، ويكون بارزاً عن الغرفة إلى الشارع، ولا يسمى روشاناً إلا إذا كانت به غولة أو شيش بارز.

- **المجلس**: هو الغرفة التي تقع في الدور الثاني (بعد الأرضي) وهو مخصص لاستقبال الضيوف، ويسمى المجلس بالروشن لوجود الرواشين به.
- **السيب**: هو الممر بين الغرف أو أجزاء المنزل سواء في الدور الأرضي أو الأدوار العليا.
- **الغولة**: هو الجزء البارز من النافذة إلى الشارع.
- **السقيفة**: هي المكان المظلل والمعد للجلوس إما في البستان أو في سطح المنزل.
- **الطيرمة**: هي مكان في السطح مخصص لوضع فُرُش النوم فيه، وعادة يكون فوق سلم الدرج ومظللاً بسقف، ولا توجد الطيرمة إلا في البيوت ذات الارتفاع (دورين أو أكثر)، ويستخدمها بعضهم لحفظ الحطب أو بعض المؤونة، أو لتجفيف التمور.
- **العتبة**: هي موضع الخطوة الأولى لدخول المنزل أو الغرفة.
- **الخزانة**: هي المكان المعد لوضع الأرزاق أو أي أغراض أخرى فيه.
- **الخارجة**: هي مكان معد للجلوس في السطح أو في أي دور من أدوار المنزل، وتكون مكشوفة؛ أي تحت السماء.
- **البسطة**: هي الدرجة المنبسطة بين لفات الدرج (السلالم) عندما ينعطف هذا الدرج.
- **الحنية (بيت الدرج)**: هي المكان الواقع تحت لفات الدرج (السلالم)، وفي الغالب يوضع بها المرفع الذي يحمل شِراب الماء.

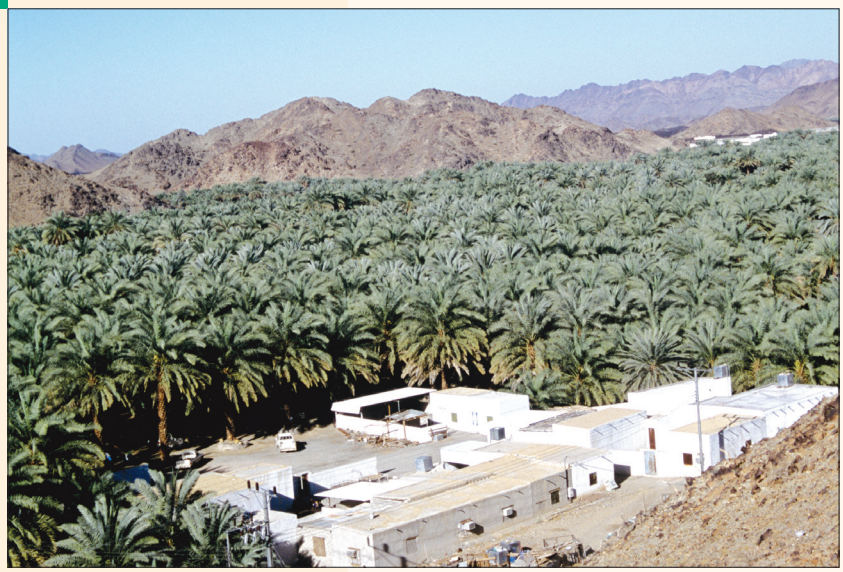

النزلة (البيت داخل البستان)

- **المسروقة**: هي الغرفة الصغيرة التي تكون بين الأدوار، وتكون مختزلة من بعض الغرف أو منحنيات الدرج.
- **السرداب (الروندية)**: هو المكان المنخفض عن مستوى المنزل، وينزل له بدرج، وتكون نوافذه عالية قرب السقف على مستوى أرض الشارع، فيما يكون أحياناً من دون نوافذ.
- **فرش الحجر**: هو ممر في الدور الأرضي، ويفرش بالحجر ليكون بارداً أيام الصيف.
- **النزلة**: هي البيت الذي يكون في البستان.
- **العشة**: هي جزء من البستان مهيأ للجلوس ومظلل بالجريد.
- **العزلة**: هي المكان الذي توضع فيه الدواب، ويسمى أيضاً (الحوش)، وهو ليس في كل بيت، ولكن البيوت الكبيرة عادة تحتوي على حوش يخصص للماعز والضأن.

- **الخن**: هو بيت الدجاج أو الدواجن.
- **المبيت**: هو غرفة في السطح، ويتبعه مطبخ وبيت خلاء (حمام)، وغالباً تنام فيه الخادمات إذا كان في البيت خادمة أو أكثر، وأيضاً تحفظ فيه الفُرُش المخصصة للنوم على السطح صيفاً.
- **البربوخ**: هو جزء من أجزاء مركبة بعضها على بعض، مصنوع من الفخار داخل فتحة معروفة لمياه مجاري الحمامات أو (البلاليع) من دور إلى دور.
- **المجاري**: هي الفتحات في أرضية المنزل الداخلية التي تستقبل مياه الحمامات والمطابخ كلٌّ على حدة، وتمتد حتى (البيارات) المنشأة خارج المنزل، وهذه المجاري مغطاة بقطع من الحجارة متلاصقة ومدفونة في الطين.
- **الطهارة (المرحاض)**: ويسمى أيضاً بيت الماء، وبيت الأدب، وبيت الخلاء، وهو المعروف في العربية بالكنيف وقد كان الحمام مستقلاً عن المرحاض، أما اليوم فهو يوجد إلى جانب الغرف.
- **الحمام**: ويسمى أيضاً (المروش)، وقد كان منفصلاً مستقلاً عن المرحاض ـ كما سبق ذكره ـ وتكون أرضيته ـ وأرضية المرحاض أيضاً ـ مبلطة تبليطاً جيداً بالنورة المخدومة (الجص) لمنع تسرب المياه[1].

وهكذا نرى أن البيت التقليدي في المدينة المنورة قد اشتمل على كل ما يحتاج ساكنوه وفقاً لقيمهم وعاداتهم الأصيلة؛ فقد كانت المجالس ـ التي هي لاستقبال الضيوف ـ من أهم مكونات المنزل وأرحبها، كما أن الفصل بين الرجال والنساء كان موضوعاً في الحسبان في تصميم المنزل المدني مهما كان حجمه وأياً كانت كلفة إنشائه.

رابعاً ـ الأثاث والفرش:

كانت بيوت المدينة المنورة في الماضي مليئة بكثير من الأدوات والفرش والأثاث الذي يتفاوت فيه الناس حسب إمكاناتهم، وإن كان يغلب على بيوت الأغنياء وجود أنواع من الفرش والأثاث المستورد من الدول الأخرى مثل الهند وإيران وبقية الدول العربية، إضافة إلى المنتجات المحلية، أما ذوو الدخل المحدود من السكان فقد كانت بيوتهم مليئة بما يستطيعون شراءه أو عمله بأيديهم من أنواع الفرش والأثاث محلي الصنع في أغلب الأحيان، كل حسب حاجته وقدرته، ولكن الطابع العام لأثاث البيت المدني هو البساطة مع الذوق الرفيع، والعناية بتناسق الألوان، وتلبية احتياجات المستخدمين من أهل البيت وزائريهم.

ونستعرض هنا بعض أنماط الفرش والأثاث الذي عُرف في الحقبة الماضية بدءاً بالمجالس وانتهاءً بالمطابخ ودورات المياه على النحو الآتي:

أ ـ المجالس وأمكنة استقبال الضيوف:

يفرش الدهليز وهو أول ما يمر به الداخل إلى البيت بالحصير، وإذا كان واسعاً فإنه تُصف على جنباته (المراكيز) وهي مقاعد خشبية للجلوس.

أما المجلس (وهو المكان المعد للاستقبال) فإنه يتألف غالباً من روشان أو اثنين ونافذة كبيرة، ويراعى دائماً أن يكون أحد الروشانين في الجهة الشمالية والآخر في الجهة الجنوبية. والروشن هو دكة مبنية

(١) الخياري، السيد ياسين. صور من الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٢١٣ ـ ٢١٥.

بالحجر يقام عليها الروشان وهو - كما سبق - نوافذ كبيرة من الخشب تتلقى الهواء من ثلاث جهات؛ لأن الروشن يعطيها السعة المطلوبة، وتكون النوافذ - عموماً - كبيرة ومرتفعة، كما أن ارتفاع السقوف عن الأرض يتيح للهواء أن يتخلل الغرف من كل اتجاه. ويفرش الروشان بوسائد لينة من القطن تفرش عليها سجادة فارسية، ثم تدار حول نوافذ الروشان المساند المحشوة بالقطن حشواً جيداً، وتكسى وجوهها بقماش حريري مشجر متين، وغالباً ما يكون ذا لون أحمر زاهٍ، وكان أحسن أنواعه الدمسك (وقد تكون هذه الكلمة منسوبة إلى دمشق؛ إذ إن هذه الأقمشة كلها كانت من صناعة الشام)، ويوضع ذلك القماش فوق المساند بحيث يغطي نصفَها الأعلى قماشٌ من الشرك الأبيض المشغول بطريقة أشبه بشغل (الدانتيل)، ولعله كذلك من صناعة الشام، وتوضع بعد ذلك الوسائد المحشوة بالقطن الناعم، الملبسة بالحرير وردي اللون، وأطرافها مكسوة بما يسمى (التنتنة)؛ وهي قماش من القطن الرفيع الأبيض المشغول بما يشبه الورود، وفيه بعض الثقوب، وهو يشبه كذلك شغل (الدانتيل)[1] إلا أنه من صناعة الهند، وتدار بعد ذلك الدكاك الخشبية في المجلس كله، وكانت هذه الدكاك تسمى الكراويت (مفردها كرويتة)، وهي تُستر بقماش من نوع قماش المساند أو الوسائد، ولكنها تحلى في أعلاها بشريط حريري من اللون نفسه تتدلى منه كتل حريرية وتسمى السجاني (مفردها سجنية)، وهي الغطاء الذي يستر الدكاك المحيطة بالمجلس، وتوضع عليها وسائد القطن، ثم تفرش إما بالسجاد الإيراني الطويل، وإما بنوع من سجاد الصوف الإيراني الذي يسمى



الفرش المكون للدهليز

الوجاهات (مفردها وجاه) وهذا حسب مركز العائلة؛ فإن كانت الأسرة ميسورة الحال كان الفرش كله من السجاد الإيراني.

أما أرضية المجلس فتفرش أولاً بالحصير المشغول الوارد من الهند، ثم تفرش كاملة بالسجاد الإيراني، بحيث يكون الفَرْش شاملاً المجلس كله، وتوضع في وسط المجلس مائدة كبيرة من الرخام، ذات قاعدة ثلاثية أو رباعية من الخشب الأسود المتين، وتزين جدران المجلس بالمرايا كبيرة الحجم، والمحلاة بإطار من الخشب الملبس بالذهب، ويكون من الخشب المنحوت نحتاً فنياً دقيق الصنعة رائع الجمال. وتزين بعض المجالس بأرفف خشبية ترص فيها الأواني الصينية من الصحون والزبادي الكبيرة المحلاة بالنقوش الخضراء الجميلة، وهي صناعة صينية أصلية أو أوروبية مقلدة تقليداً دقيقاً، ولا تستعمل هذه الصحون - أو بعضها - إلا في المناسبات المهمة، والولائم الكبيرة.

(١) المرجع السابق، ١٩٥.



المقعد في البيت المدني



الديوان في البيت المدني

أما المقعد فهو غرفة واسعة يجلس فيها صاحب البيت مستقبلاً زواره من الرجال، ولها نوافذ تطل على الشارع، وفيها روشان أو اثنان حسب سعة الغرفة وموقعها، ويفرش الروشان أو الروشن بوسائد من القطن أو الطرف حسب قدرة صاحب البيت، وتغطى بسجادة فارسية، وتدار حولها المساند، وهي كذلك من القطن أو الطرف، وتلبس عادة بقماش متين مخطط وملون من القطن، أما أرض المقعد فيوضع بها بعض الكراسي من الخشب أو الخيزران.

ب ـ الغرف والصالات الداخلية:

يفرش الديوان (الذي يتوسط الدور الأرضي من البيت) بمثل فرش المقعد المذكور سابقاً. أما المؤخر (وهو الغرفة الثانية في البيت، وغرفة المعيشة التي تقضي الأسرة فيها معظم الوقت، وبها نافذة كبيرة) فأثاثها أقل من مستوى أثاث المجلس، وتوضع بجانب النافذة ـ إن كانت الغرفة واسعة ـ دكة من الخشب، أو يكتفى بوضع شلت أرضية من القطن في أرضية الغرفة التي تفرش بسجاد أقل قيمة من سجاد المجلس، أو بحنبل هندي وهو بساط من القطن المخطط الذي يجمع بين اللون الأخضر والأصفر أو الأبيض، ويوضع بعض المساند القطنية ليستند الجالس إليها، وبعض الوسائد. وفي هذه الغرفة توضع دائماً آنية الشاي والقهوة، وهي (سماور) لغلي الماء الذي يصنع منه الشاي أو القهوة، وبعض الأباريق التي يصنع فيها الشاي، والإناء الذي تصنع فيه القهوة واسمه (الجزوة)، وهذه الأواني في مجموعها تسمى (الجزة)، وهي التي تعرف في نجد بالمعاميل. أما فناجين الشاي فهي من الزجاج، وكان أحسن أنواعها (المسكوفي) وهو من الزجاج المتين الناصع، وله يد صغيرة يمسك بها الشارب، وتحلى شفة الفنجان بخط دائري ذهبي اللون. أما الأباريق فأحسن أنواعها الصيني. وفي هذه الغرفة تتناول الأسرة طعامها الذي يوضع في تبسي (صحن) كبير يكون من النحاس أو (التوتوة)، وتفرش تحته سفرة على أرض الغرفة تتحلق الأسرة حولها لتناول الطعام [1].

(١) محمد علي مغربي، *ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز*، (جدة: دار العلم، ١٤٠٥ هـ)، ١٣ ـ ١٥.



السيسم



السحارة

أما الصفة (وهي غرفة صغيرة تقع دائماً بين المجلس والمؤخر) ففيها يوضع صندوق الملابس؛ وهو من خشب السيسم الذي يكون محلَّى بزخارف نحاسية كثيرة ذهبية اللون، وله قفل كبير، وأغلى أنواعه كان يرد من الهند، وفيه توضع الملابس المهمة للأسرة، كل نوع منها في صُرَّة (بقشة) مستقلة، وفيه درج لحفظ المجوهرات الثمينة التي تخص ربة البيت وبناتها، ولا تزال البقية الباقية من هذه الصناديق موجودة تحتفظ بها بعض الأسر على أنها أثر جميل من الماضي. وإذا كانت الأسرة لا تملك صندوق السيسم فهناك نوع آخر من صناديق الملابس هو السحارة؛ وهي صندوق من الخشب أيضاً، ذو صناعة محلية له غطاء في أعلاه مثل غطاء صندوق السيسم، تستعمله الأسر التي هي دون المستوى المتوسط اقتصادياً لحفظ الملابس، أما الأسر ميسورة الحال فتستعمله لحفظ بعض الأطعمة مثل الحلويات والمربيات والأجبان والزيتون وما إليها.

وتُكسى واجهة السحارة بقماش متين محلَّى بالأشجار وله لون زاهٍ، ويكون من نوع القطيفة، كما تُحلى جوانب السحارة بحليات من المعدن الرخيص، إلا أنها لامعة وبراقة، ويوضع فوق غطائها قفل لحفظ ما بداخلها.

ج ـ الطهارة (بيت الماء):

وهو غرفة صغيرة فيها المرحاض، وحنفية مبنية من الحجر لها صنبور لنزول الماء، وأغلب البيوت كانت تضع الماء في أزيار كبيرة أشهرها (الزير المغربي)؛ وهو من الفخار المتين، ويستوعب كمية كبيرة من الماء. وهناك (المغراف) الذي يغرف به الماء، وحذاء يسمى (القبقاب) يستعمل عند دخول المرحاض، وهو من الخشب المنحوت. وأرضية الحمام مبلطة تبليطاً جيداً بالنورة المخدومة (الجص) منعاً لتسرُّب الماء. وقد كان المروش (مكان الاستحمام) مفصولاً عن المرحاض في غرفة أخرى، ويوجد فيه ما يُحتاج إليه في عملية الاستحمام من الطشت والمغراف ونحو ذلك.



بعض الأواني الخاصة بالمطبخ

د ـ المطبخ أو المركّب:

ولم تكن القهوة أو الشاي يعدّان في المطبخ، ولذلك فقد كان المطبخ يخلو من الأباريق والأكواب وما يتعلق بها. وكان الفحم البلدي هو المستعمل لطبخ الطعام، وفي المطبخ مكان لحفظ الأواني من القدور الكبيرة والصغيرة، وكانت تستعمل من النحاس وتبيض في كل عام قبيل رمضان، ثم استُعملت (القدور التوتوة) التي لا تحتاج إلى تبييض، وكذلك الصحون و(التباسي) التي يوضع فيها الطعام، فهي إما من التوتوة، أو من الخزف وهو الأفضل. أما أواني المائدة من (الصيني) فإنها كانت خاصة بالولائم الكبيرة، وتستأجر من أشخاص معروفين يقومون بتأجيرها للراغبين، هذا بالنسبة إلى السواد الأعظم من الناس [1]، أما الأغنياء فقد يتوافر لديهم مثل هذه الأواني في منازلهم كلٌّ حسب رغبته وحاجته.

هـ ـ بعض أنواع الأواني والأدوات المنزلية المتفرقة:

بالإضافة إلى ما ذكر فقد شاع لدى الناس استخدام عدد من الأواني والأدوات المتفرقة التي ليس بالضرورة أن توجد كلها في منزل واحد، بل إن بعضها يكفي أن يوجد منه واحد أو اثنان في الحارة أو الحوش، وكان من المقبول اجتماعياً والمرغَّب فيه شرعاً أن

نماذج من الأواني والأدوات المنزلية		
بابور الغمم	الزفة (صفيحتان من التنك وحامل خشبي)	الصحفة (وعاء من الخشب)
الملقاط	الكفكير (المغرفة)	المقرمة (يقطع عليها اللحم)
مقلاة البن	الخطاف	المخباطة (تدق بها سنابل الحب)
المبخرة	المسن	السنان (لهرس الثوم)
المرفع	جرة الفول	المخبازة (يفرد عليها العجين)
المكنسة اليدوية	الغربال (المنخل)	المنسفة (سفرة للطعام)
المهفة (المروحة)	السماور (لحفظ الماء)	العتلة (لأعمال البناء)
الزنبيل	صندوق السيسم (لحفظ الملابس)	المقلى (لعمل الشعيرية والسنبوسة)
المقص	السحارة (صندوق خشبي)	المنقل (يُحمل فيه الجمر)
المطرقة	الفانوس	الحوية (وقاء فوق الرأس)
المبرد	الأتريك	البيز (قطعة قماش للإمساك بالأشياء الحارة)
القدوم	الدافور	الزوبلة (وعاء لحمل القمامة فوق الحمير)
المسحاة	كراسي الخشب (من الخيزران والخوص)	السعن (قربة صغيرة)
الفأس	الطربيزات (الطاولات)	المحفرة (زنبيل صغير)
الساطور	الجلايل	المطبابة
الهاون (الهوند)	الحنابل	الشاقوف (لقطع الأحجار)
المكوى (يعمل بالفحم)	الحصر	المرزبة
الرحى (لطحن الحبوب)	البُقَش (جمع بقشة)	المهراس الحجري
ماكينة الخياطة	الزير	الطبلية (تشبه الكمدينة)

(١) محمد علي مغربي، *ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز*، (جدة: دار العلم، ١٤٠٥ هـ)، مرجع سابق، ١٦، ١٧.



المكوى

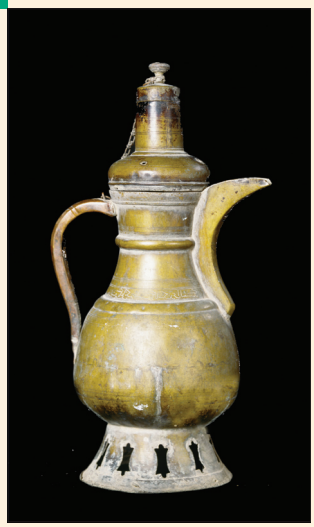

السماور

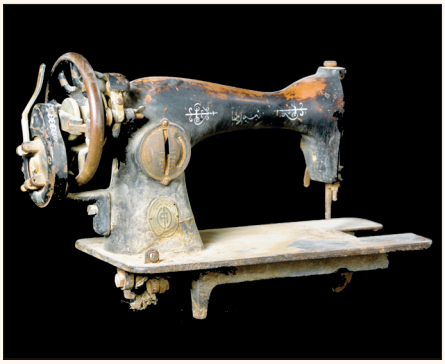

ماكينة الخياطة القديمة



الفانوس

يعير الجار جاره بعض هذه الأواني والأدوات عند الحاجة إليها، في جو من الألفة والمودة وبطريقة بسيطة وتلقائية، ويبين الجدول نماذج من تلك الأدوات على سبيل المثال لا الحصر.

خامساً ـ مساكن القرى:

وهي عادة تكون مبنية من الطين واللَّبِن وهو طوب على شكل مستطيل، إذ يُضغط التراب بوساطة قوالب مستطيلة، ثم تعرض للشمس حتى تجف، ثم تجمع على شكل أكداس أمام المكان الذي يراد البناء عليه، ثم ترص هذه القوالب بعضها فوق بعض، تتخللها (مونة) من الطين. والغرفة: أربعة جدران من الطين تُسقف بالجريد، ثم يوضع عليه الطين ويضغط بطريقة خاصة حتى يتماسك، ثم يوضع مخرج لماء المطر يسمَّى المزراب (أو المرزاب)، وبعد ذلك يوضع عدد من الأعمدة على شكل جسور تصل الجدران المتقابلة والجدار الذي به الباب، وتكون الغرفة مربعة الشكل، أما مجلس الرجال فهو مستطيل الشكل لترك مكان في الوسط توقد فيه النار في الشتاء

لصنع القهوة العربية، ويتكون البيت من عدد من الغرف المتجانبة حول مساحة كبيرة في الوسط، كما أنه توجد أعلى المنازل شرفات مزخرفة، وتمتاز بقلة النوافذ وضيق الأزقة[1]. وفي بعض القرى تستخدم الحجارة في البناء



القوالب الخشبية المستخدمة في ضغط الطين



أحد الأبواب المزخرفة في بيت طيني

وتسقف الغرف بخشب العرعر وجذوع النخل وتغطى بالجريد أو مسطحات الحجارة المستطيلة الخفيفة.

وقد أبدع سكان القرى في نقش الأبواب وتزيينها وزخرفتها، وفي الغالب فإن المنازل في القرى تتكون من دور واحد أو دورين على الأكثر. وإذا كان هناك تفاوت كبير بين القرى المحيطة بالمدينة المنورة التي تتبع إمارة المنطقة حالياً ـ من حيث الطبيعة الجغرافية وتاريخ التجمعات السكانية في كل منها، ما له أثر على طبيعة البناء وعراقة الاستيطان ـ فإن القرى الساحلية تختلف هي الأخرى عن القرى الجبلية من حيث المواد المستخدمة في البناء، كما تختلف القرى العريقة ذات التاريخ القديم في نشأتها عن الهجر التي تكونت حديثاً؛ نظراً إلى رغبة أهل البادية في الاستفادة من الخدمات التي تقدمها الدولة من مدارس ومراكز صحية وغيرها، وهذه التجمعات السكنية الحديثة التي سُمّيت قرىً أو هجراً لا تكاد تحمل من تراث الماضي إلا ما يتعلق بسلوك الأفراد وقيمهم، أما المباني فإنها في الغالب تُبنى من الخرسانة المسلحة وعلى نمط الفلل والعمارات الموجودة في المدن، وإن اتسمت بالسعة وكثرة الأحواش لرخص ثمن الأرض.

أما القرى العريقة مثل قرى وادي الصفراء وينبع النخل فقد كانت المساكن تبنى فيها على شكل مجمعات على تلال ربى؛ لتحقيق الحماية من السيول الجارفة واكتشاف المهاجمين وتأصيل التقارب للاستمتاع بذلك، إذ إن الأزقة ومساحات الدُّور تضيق وتقل مداخلها فتسهل حمايتها، والدُّور هناك غرف صغيرة، وبعضها مكون

(١) معتاد عبيد السناني، *العيص: سلسلة هذه بلادنا*، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٧ هـ)، ١٠٧.



البيوت الطينية في ينبع النخل

من أدوار؛ وذلك لضيق الرقعة السكنية والتماس الهواء عبر الارتفاع وازدياد عدد أفراد الأسرة، وفي كل منزل مكان مخصص للطبخ والماء والحمام (المروش) وغرف تناسب عدد أفراد الأسرة، وللحُجرات مظلات وشبابيك ضيقة. وقد كان استخدام المراحيض في أضيق الحدود، بل قد لا تتوافر في كل البيوت، ويبدو أن السكان كانوا يرتبون هذه المسألة؛ فالرجال يكونون خارج المنازل أغلب ساعات النهار إن لم تكن كلها، وفي الحقول والشعاب متسع لقضاء حاجاتهم، أما النساء فغالباً ما يكون خروجهن ليلاً للغرض نفسه وعلى شكل جماعات [1].

سادساً ـ مساكن البادية:

كانت مساكن أهل البادية هي بيوت الشعر التي يسهل نقلها من مكان إلى مكان، وهي بسيطة في تخطيطها، إذ لا تكاد تحتوي على أكثر من قسمين (شقين) أو أكثر على قدر كبره، أهمهما المجلس وهو الواجهة الرئيسة،

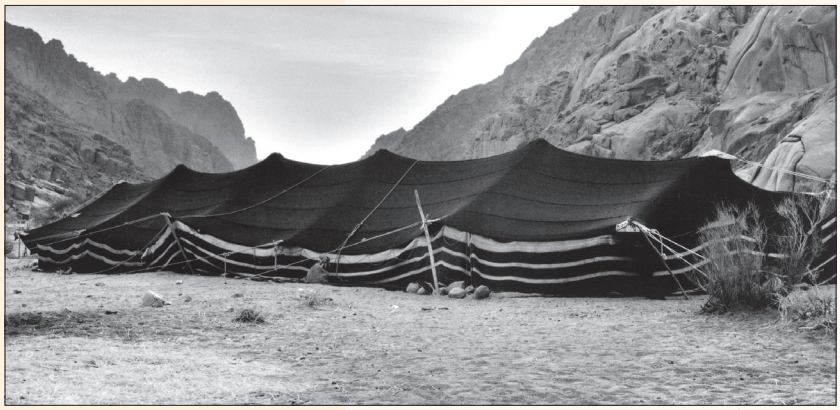

بيت الشعر (*)

وفيه يُستقبل الضيوف وينام الرجال ويسمى (الربعة)، والشق الثاني هو المخصص للنساء أثناء وجود الرجال الأجانب وكذلك في وقت النوم شتاء ويسمى (القصرة)، فيما يسمى الفاصل بينهما (القاطع) وهو قطعة تُسدل من الشمال إلى الجنوب. ويتم إعداد بيت الشعر من قطع متطاولة من نسيج تحيكه نساء البادية من وبر الإبل، أو شعر المعز، أو صوف الأغنام وتسمى (الشقق)، وطول الشقة نحو ٧ ـ ١٤ ذراعاً، وعرضها

(١) الصويان، سعد عبدالله، الثقافة التقليدية، مرجع سابق، جـ٤، ١٩٣.

(*) OP. Cit, Bedu, Humberto da Silveira , 1994 .



الرواق في بيت الشعر



الهوند

ذراع واحدة، وتضم الواحدة منها إلى أختها طولاً إلى طول بوساطة قدد طوال تدعى (طرائق)، وبيت الشعر الصغير يكون مؤلفاً - عادة - من خمس أو ست شقق مخيطة على هذه الطريقة، أما بيت الشيخ فيتكون من عشر شقق أو أكثر. ويرفع بيت الشعر على أعمدة من خشب لها أسماء مختلفة حسب موقعها؛ فالذي يكون في وسط البيت يدعى (الواسط)، والذي يكون من الجهة الشمالية يُدعى (المقدم) لأن البيت يوجه في الصيف إلى الشمال، والذي إلى ناحية الجنوب يُسمى (المؤخر) لأن البيت يوجه في الشتاء إلى الجنوب، وتُسمى أطراف البيت الشمالية والجنوبية (الكاسر)، وأطراف البيت النازلة إلى الأرض تسمى (الرفة) في الشرق والغرب، أما مؤخر البيت، أي الجهة الشمالية فيدعى (الرواق)، وتعلق الأطراف النازلة على الأرض بالبيت بوساطة (الخلال)، أي الأعواد التي تغرز فيها على شاكلة الدبابيس، وتثبت الأطراف في الأرض بوساطة أوتاد وعرى من حبال يسمونها (الشبح)، أما الحبال الكبيرة التي تُربط بالأعمدة فتسمى (الأطناب).

ويكون البيت مفتوحاً من ناحية الشمال صيفاً إلا في أوقات الأهوية، بينما تغطى البيوت في فصل الشتاء، وإذا ابْتَلَّ الشعر الذي نُسج منه البيت فإنه يشتد ولا يخترقه ماء المطر، بل يميل الماء ناحية الشمال أو الجنوب، ويقوم ابن البادية برفع التراب على شكل سور يشرف على خندق صغير حول البيت كيلا يدخله الماء، ويُضرب البيت في الشتاء بكنف الجبال لتحمي البيت من الرياح الشمالية الغربية والجنوبية.

وإذا نزل أهل البادية في أرض منبسطة بنوا بيوتهم بنظام حول بيت الشيخ الذي يكون عادة في الصدر موجهاً ناحية الطريق حتى يعرفه الضيوف فيقصدونه [1].

أ - أثاث بيت أهل البادية:

هو غاية في البساطة؛ إذ يحوي أهم ما يحتاج إليه الإنسان في مأكله ومشربه وراحته، فبساط الشعر هو أساس ما يُفرش به بيت ساكن البادية مثل (الجودري) والسجاد العجمي ويُسمى (القطيفة)، وعادة ما يكون عند مشايخ القبائل، وإلى جانب ذلك هناك الأرائك والوسائد، وتكون من القطن ونحوه، ثم الفرش واللحاف، ثم أواني القهوة وهي: (المحماس) ويده التي يحرَّك بها البن أثناء تحميصه، و(النجر) ويسمى (الهوند)، ثم الدلة والفناجين، و(الحراقة) وهي قطعة من القماش تمسك بها الدلة عندما تكون شديدة الحرارة، و(المنخلة) وهي جلد مزخرف يحفظ فيه البن قبل التحميص.

(١) السناني، معتاد عبيد. العيص: سلسلة هذه بلادنا، مرجع سابق، ١٠٥، ١٠٦.



قدر نحاسي



المعلفة أو السفرة

ب ـ أواني الطعام:

وتتكون من القدر النحاسي، و(الطاسة) والطست وهما من النحاس أيضاً، و(السحلة)، والصحون، و(المسواط)، إلى جانب الأواني الخشبية مثل (الصحفة) لتقديم الطعام للضيوف، و(المحلب)، و(المخطر) أو (الهنابة)، و(الزلفة)، والملاعق الخشبية، والسكاكين، و(المعلفة) التي تصنع من سعف النخل، وهي تشبه السفرة اليوم ويحضرها أبناء البادية وأبناء القرى، وهناك (القربة) التي يحفظ فيها الماء وتصنع من الجلد، و(البدرة) وهي أصغر من القربة، أما اللبن فيحفظ في (السقاء) وهو أيضاً من الجلد، وأما السمن فيحفظ في (العكة) وهي مثل سابقاتها تصنع من الجلد[1].

سابعاً ـ مظاهر الثبات والتغير:

يمكن الإشارة إلى أن نقطة التحول في نظام المباني والتحديث في طرق إنشائها وفرشها هي بدء مرحلة التنمية الشاملة في المملكة العربية السعودية بوجه عام، وذلك عندما شرعت في تنفيذ خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ابتداءً بالخطة الخمسية الأولى عام ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠م. وبدأ نظام منح الأراضي والقروض العقارية للمواطنين، بالإضافة إلى التحسن في دخول المواطنين بشكل عام خلال العقود الماضية، مقارنة بما كانت عليه الحال فيما سبق تلك الفترة.

وقد كانت المدينة المنورة ـ وما يتبعها من مراكز حضرية وريفية ـ من المناطق التي استفادت من هذه التغيرات التنموية، علاوة على ما حصل من تخصيص وسط المدينة المنورة ـ حيث المسجد النبوي الشريف ـ بمزيد من العناية والتطوير؛ وذلك لما اقتضته الحاجة من توسيع المسجد النبوي وتطوير المنطقة المحيطة به، وقد كان بسبب هذا التطوير والتوسعة فَقْدُ عدد من المنازل والأحواش والحارات ذات الطابع التقليدي التي كانت تحيط بالمسجد وتشكل وسط المدينة المنورة الذي ألفه أهلها وزائروها. وتبعاً لما سبق فقد توسع نطاق المدينة المنورة بما أضيف إليها من المخططات العمرانية الحديثة التي شملت المساكن العادية التي

(١) المرجع السابق، ١٠٦، ١٠٧.

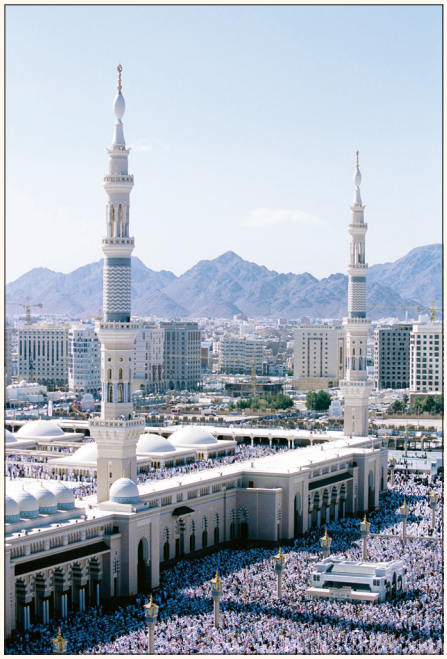

وسط المدينة المنورة مع المسجد النبوي الشريف

أقامها أصحابها على نمط الفلل الحديثة، كما شملت العمارات الكبيرة التي أقامها المستثمرون لتأجير وحداتها السكنية المتمثلة في الشقق.

وقد كان للمراكز الحضرية الأخرى (مثل ينبع وبدر وخيبر والعيص ومهد الذهب وغيرها) نصيبها من هذا التطوير والتحديث،



منزل سكني حديث في ينبع

وكذلك القرى التابعة لكل منها، بل تعدى الأمر إلى نشأة تجمعات سكنية جديدة سميت الهجر (جمع هجرة) أصبحت مقراً لمن طلب الاستقرار من أبناء البادية الذين حلت كل عشيرة أو عائلة منهم في منطقة مُنحت لهم، ووفرت لهم الدولة بها بعض المرافق الضرورية المهمة مثل المدارس والمراكز الصحية.

أهم ما يتعلق بالتغير في أنماط المساكن في تلك المنطقة هو ما حصل من استقلال كل أسرة بسكن خاص، فلم يعد البيت المدني الكبير يضم العائلة الكبيرة وأبناءها المتزوجين وأولادهم، التي يسمِّيها علماء الاجتماع الأسرة الممتدة (Extended Family)، بل إن القدرة الاقتصادية للأبناء دفعتهم إلى الاستقلال عن أسرهم بعد زواجهم، ثم أصبح هذا تقليداً شائعاً مقبولاً بعد أن كان يواجه بالرفض في أول الأمر.

أما ما يتعلق بطريقة التشييد والمواد المستخدمة في البناء فقد تغيرت بشكل جذري، وأصبح طاقم العمل في الغالب من العمالة الوافدة، وأصبحت المؤسسات والشركات هي التي تنفذ المباني بعقود مكتوبة توقع مع أصحابها، وأصبح البناء يتم وفق مخططات رسمية معتمدة ورخص للبناء من قِبل البلدية أو أمانة المدينة، وقد اختفى البناء بالطين والحجر الجبلي، ولم تعد الأخشاب وسعف النخيل أسقفاً للمباني، بل استبدل ذلك كله، وصارت المواد المستخدمة للسقف هي الأسمنت والحديد (الخرسانة المسلحة) والطوب المصنوع بطرق آلية حديثة سواء أكان من الفخار أم من الأسمنت، وحلت أبواب الحديد محل الأبواب الخشبية، وشبابيك الألمنيوم محل الشيش والرواشين.

أما ما يخصُّ الشكل الخارجي للمسكن، فقد أصبحت أغلب العمارات الكبيرة تأخذ النمط الأوروبي الحديث، وكذا كثير من الفلل الخاصة، واختفت الرواشين ونوافذ الشيش التي كانت تزين المباني، وحل محلها الزجاج والألمنيوم المستورد. وغلب على الفلل الخاصة طابع البناء من دورين، ليتكون الدور الأول من المجالس وصالات الجلوس العائلي وصالات تقديم الطعام، والدور الثاني من مجموعة من الغرف التي أصبحت تسمَّى (غرف النوم) وتفرش وتؤثث بطرق عصرية تحتوي على الأسرّة والخزانات والأدراج (الكمدينات)، ويغلب أن يكون لكل فرد غرفته الخاصة به إلا في حالة الأطفال الصغار.

أما أصحاب الدخول المنخفضة فإنهم ـ في الغالب ـ يجعلون مساكنهم (الفلل) من دورين، على أن يكون كل دور وحدة سكنية مستقلة، إذ يسكن صاحب الدار ـ غالباً ـ في الدور الأرضي، ويؤجر الدور العلوي. أما من حيث الفرش والأثاث فلم يسلم المسكن من رياح التغير والتحول، وقد أدى التحسن في بناء المساكن وطبيعة المواد المستخدمة في بنائها ودخول الكهرباء إلى اختفاء عدد من الأواني وأدوات الطبخ القديمة، ووسائل التبريد والتدفئة التقليدية.

أما ما يمكن أن يعد ثابتاً وباقياً في ثقافة المواطن والأسرة بالمنطقة ـ فيما يخص المساكن ـ فهو تلك الأمور المتعلقة بالقيم، وذلك من ناحية فصل مجالس الرجال عن مجالس النساء، ووجود مداخل خاصة بالعائلة، ومداخل خاصة بالضيوف، فقد لوحظ في المباني الحديثة العناية بهذا الأمر، وساعد في ذلك اتساع الشوارع مساحات المنازل. كما أن العناية بجانب الضيافة وتجميل مكان استقبال الضيوف لم يزل باقياً على الرغم من التغيرات الشكلية في تصميم المباني.

الفصل الثاني

الملابس وأدوات الزينة

أولاً ملابس الرجال والصبيان

ثانياً ملابس النساء والفتيات

ثالثاً أدوات الزينة للذكور

رابعاً الحلي وأدوات الزينة للنساء

خامساً مظاهر الثبات والتغير


الثياب البيضاء مع الحزام

كانت ملابس أهل المدينة من الحاضرة ـ سواءً الرجال أم النساء ـ لا تختلف كثيراً عن ملابس سكان المدن الحجازية عامة، أما أهل القرى وأهل البادية فقد كانت ملابسهم تشبه ـ إلى حد كبير ـ ملابس أهل القرى والبادية في شمال الجزيرة العربية والشام، وهناك بعض الأمور التي اختُص بها أهل المدينة المنورة أو كثرت بينهم ـ كما سيأتي عند التفصيل ـ وبخاصة في المناسبات. وهنا عرض لأنواع اللباس التي كانت سائدة في المنطقة حسب الفئة التي تستخدمها من الرجال والنساء، صغاراً وكباراً، فقراء وأغنياء، علماء وعامة، وما يتبع ذلك من الحلي وأدوات التجمل والزينة.

أولاً ـ ملابس الرجال والصبيان:

أ ـ ملابس أهل الحضر:

يرتدي الرجال عامة الثوب الأبيض ـ وأحياناً الملون ـ الذي غالباً ما يُشد وسطه بحزام ملون، وفوق الثوب تأتي الصديرية، أما فوق الرأس فتلف العمامة. وتختلف هذه الأجزاء من حيث القيمة ونوع القماش المستخدم وأعمال التطريز والزينة بحسب الفئات الاجتماعية المختلفة؛ إذ تختلف في هذا ملابس كل من العلماء والتجار وزعماء الحِرف، وعامة الناس، كما يختلف الكبار عن الصغار في بعض نواحي الزي والمظهر ـ كما سوف يأتي مفصلاً ـ ، أما الملابس الداخلية فهي ـ غالباً ـ السروال الطويل الأبيض، وأحياناً تطرز أرجله ببعض الألوان، و(الفانلة)، وهي في الغالب قميص نصفي ذو أكمام، ويسمى بعض أنواعها (العراقية) لأنها تصنع من قماش قطني لامتصاص العرق أثناء الصيف.

وقد كان العلماء والمشايخ يرتدون الثياب البيض من الكتان أو القطن، وفوقها (الشاية) وهي ثوب مفتوح، وتربط بحزام رفيع لقفلها من الوسط، وفوقها الجبة، ويضعون العمامة على رؤوسهم. وكانت ملابس العلماء واسعة وبخاصة الأكمام، وقماشها بسيط لا مغالاة فيه، وهي خالية من الزينة التي كانت تزين بها الملابس من أشغال الإبرة. وقد كانت الملابس في فصل الصيف من الكتان أو القطن، أما في فصل الشتاء فإن الجبة تكون من الصوف، وكانت تُختار من ألوان هادئة تليق بوقار العلم وأهله. أما العمامة فكانت تتميز بلفتها الكبيرة وبعدم المغالاة في إتقانها، وربما استعمل معها العالم شالاً من الصوف يطوق به عنقه ويسدله فوق كتفه وخصوصاً في الشتاء، وتزوّد الثياب دائماً بجيوب متوسطة الحجم لوضع المنديل والسبحة والنقود وبعض ما يحتاج إليه الشخص الذي يرتديها في حياته اليومية.



العمامة المدنية

أما ملابسهم الداخلية فهي السروال الطويل ـ وهو واسع جداً ـ والعراقية (الفانيلا) التي تصنع من قماش خفيف جداً من الشاش ولها أكمام نصفية كما سبق ذكره. ويلبس العلماء أحذية خاصة يسمى بعضها (أبو إصبع)، وهي تحتوي على زخارف أو نقوش كما في أحذية التجار والموظفين وغيرهم، وهذا من باب التواضع، كما تلاحظ في جميع أجزاء اللباس الذي يرتديه العلماء البساطة وعدم الكلفة وقلة الثمن، مع الحرص على النظافة والألوان الفاتحة ـ وبخاصة الأبيض ـ في غالب ما يلبسون، وثيابهم لا تتجاوز الكعبين في كل حال، كما كانوا يتجنبون لبس الحرير لأنه محرَّم على الرجال في شريعة الإسلام.

ويلبس التجار والوجهاء وكبار الموظفين الثياب الأغلى ثمناً، والصديرية المزررة بأزرار الفضة، والجبة المصنوعة من الجوخ الملون الأخضر أو النيلي الفاتح أو اللازوردي. وفي الغالب فإن ملابس هذه الطبقة عامة تختلف عن غيرها بأنها أكثر أناقة، وهي أيضاً أكثر كلفة بما يضاف إليها من أعمال الإبرة والتطريز، وبعض القطع التي قد لا يستعملها غيرهم مثل إضافة حزام يُربط فوق الشاية، وأنواع من السبح والساعات والأقلام وغيرها مما سوف يرد تفصيله عند الحديث عن أدوات الزينة. وأغلب الأقمشة التي تصنع منها ثياب هؤلاء الوجهاء والتجار هي من الأنواع غالية الثمن؛ ففي الصيف يستعمل الكتان الأبيض المنشّى فيظهر لامعاً براقاً، كما يُستعمل أغلى أنواع الحرير، وقد كان الحزام ينسج من الحرير الأحمر، ويكون مطرزاً ورفيعاً جداً، ويوضع فوق الشاية كما سبق ذكره.

وتمتاز العمامة بإتقان لفتها، وكان كثير من التجار يلفون عمائمهم بأنفسهم بعد أن يتمرنوا على هذا العمل، وهي في الغالب من الأشياء المميزة من الملابس السائدة لدى التجار والعلماء والطبقة المتوسطة والشباب المتعلمين وإن اختلفت أشكالها. وفي الشتاء تكون الشاية والجبة لدى التجار من الصوف، وكان تفصيل الجبة والثوب لديهم أكثر دقة من ملابس العلماء، وكانت أكمام الجبة عندهم أقل سعة مما يلبسه العلماء والمشايخ، كما يستعملون ـ غالباً ـ الألوان المشرقة.

وكانت أحذيتهم لامعة، يخيطونها بخيطان من الجلد الأبيض بأشكال جميلة، وكان أحسن أنواع الأحذية يُسمَّى (أبوخرزين) أي أن الخياطة فيه مضاعفة عن الحذاء العادي الذي يلبسه غيرهم.

أما ملابس الشباب المتعلمين ـ من أبناء التجار والطبقة المتوسطة ـ فهي تتألف من الثوب والجبة والعمامة، ولكن (الكوت) يحل محل الشاية التي تميز ملابس العلماء

والتجار. ولا تختلف ملابس الشباب في شيء عن ملابس التجار من جهة نوعية القماش إلا بحسب ما يكون عليه هؤلاء الشباب من يسر الحال؛ فإن كانوا من أبناء التجار كانت ملابسهم من الحرير غالي الثمن، وإن كانوا من الطبقة المتوسطة لجؤوا إلى الأقمشة معتدلة الأثمان تمشياً مع أحوالهم الاقتصادية وقدراتهم المادية[١].

لباس الرأس: يتكون من الكوفية والشال. أما الكوفية الحجازية أو الجاوية فهي من صنع محلي، وهو لباس للرأس خفيف أبيض، كان الخياطون المحليون يصنعونها ويبيعونها في الأسواق، وكانت تُغسل وتدخل في عملية الغسيل مادة (النشا)، لتجعلها متماسكة لامعة، وكانوا يتفننون في وضعها على الرأس. وأما الشال فكان يوضع على الكتف، ويلف على الرأس في حالة حضور اجتماع أو للوقاية من الشمس، وكانت (الشيلان؛ جمع شال) من أنواع كثيرة وبأسعار مختلفة حسب القماش الذي تصنع منه.

ولعل ما يحسن ذكره في هذا المقام أن العمامة الحجازية (العمامة الألفي) - التي كانت اللباس السائد لدى التجار، والعلماء، والطبقة المتوسطة، والشباب المتعلمين - كانت علامة مميزة (شعاراً) للمنطقة في ذلك الوقت، وهي تصنع من الخوص الرقيق، مكسوة من الخارج بقماش حريري مختلف الألوان، ومبطنة من الداخل بقماش حريري أيضاً، ولكنه من اللون الأبيض أو الأزرق، ويحتاج لفها إلى مهارة خاصة، إذ تلف بالشاش الذي يبلغ طوله عدداً من الأمتار، وتلف بطريقة فنية متدرجة لا يتقنها كل الناس.



الأحذية الرجالية

أما الأحذية التي يلبسها الناس - وبخاصة الشباب - فقد كانت ترد من الهند أيضاً، وأحسن أنواعها ما يصنع من الجلد اللامع، وكان بعض الصناع المهرة يصنعون الأحذية محلياً في المدينة المنورة، وهذه الأحذية محلية الصنع أغلى ثمناً وأكثر جودة من تلك التي ترد من الهند.

واستعمل الشباب أيضاً الأحذية ذات الرباط. وإلى جانب الأحذية التي كانت ترد من الهند وُجدت (الشباشب) الهندية وتسمى (التليك الهندي)، وقد توقف الناس عن استخدام هذا النوع إلا في حال الدخول إلى دورات المياه؛ حماية للأحذية الجلدية من البلل والتلف[٢].

ب - ملابس أهل القرى:

يختلف لباس أهل القرى المحيطة بالمدينة المنورة في بعض الأمور عن لباس الحاضرة، فمثلاً: في العلا وبعض القرى المجاورة لها يلبس الرجال ثوباً طويلاً يصل إلى الكعب،

(١) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٧٤ - ٧٦.

(٢) ثريا سيد نصر، *تاريخ أزياء الشعوب*، (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٨م)، ٢١١، ٢١٢.

وهـو يشبه الـثوب الحالي غير أنـه من دون ردة وأزرار، وله قران من أعلى وهو: خيطان متقابلان يُربط أحدهما مع الآخر، وله أكمام طويلة مثل الثوب الحالي، وبعضها له أكمام واسعة على شكل أردان. وكذلك يلبسون سروالاً طويلاً تحت الثوب، وقماش الثياب والسراويل من (السحل) وهو من القطن المائل لونه إلى الصفرة.

ويضع الأغنياء فوق رؤوسهم غتراً بيضاء في أطرافها خطوط حمراء أو سوداء بعرض ٣,٥ سم تقريباً، ولا يزال مثلها موجوداً بعد أن اختفى لفترة من الزمن، وبعضها يستورد من مكة المكرمة وهو ما يعرف بـ(الغباني). كما يلبس بعض الأغنياء فوق الغترة ما يسمى (الكفية) وهـي قماش يستورد من الشام، وتكون مطرزة بأشكال من الزهور أو الأشجار، وأطرافها مهدبة بخيوط الحرير بطول شبر واحد تقريباً، والكفية أكبر حجماً من الغترة، وقد لا تلبس فوق الرأس وإنما فوق الكتفين مثل العباءة. ويلبس الأغنياء أيضاً عقالاً على



الثوب المردون



العقال المقصب

رؤوسهم فوق الغترة، والعقال إما أن يكون أسود مبروماً (مرعزاً) يحضرونه من الشام، وإما من القصب الذي كان يلبسه الأشراف مثل عقال الملك فيصل رحمه الله. أما عامة الناس فيلبسون غتراً من صنف الثوب تسمى (رِدِئاً) ـ بكسرة خفيفة تحت الراء والدال ـ وهي من قماش السحل. كما يلبس الأغنياء عباءة صوف ثقيلة تسمى (مصطفاوية) تستورد من الشام، وتكون ذات خطوط طولية عريضة وملونة، فيما يكون كتف العباءة عادياً من دون قصب، أما عامة الناس فيلبسون العباءة المصنوعة محلياً المعروفة بـ(الصليحية)، وأما الحذاء فغالباً ما يكون حـذاءً مصنوعاً محلياً من جلد البعير، وتتكون أرضيته من ثلاث طبقات ومخروز، ويلبس الأغنياء في الشتاء بسطاراً مرصعاً أسفله بالمسامير.

ومن عادة الرجال استعمال الحزام يشدون به أصلابهم كما هي الآن عـادة رجـال قبيلة حرب في منازلهم. لقد كان الرجال يحتزمون بحزام جلدي، وبعضهم يحتزم بخرقة حمراء هـي (المـحـرمـة)، وبعضهم الآخـر يحتزم بقماش مخطط بألوان حمراء وبيضاء، ويتكون الشكل الأخير من طبقتين مخيطتين إحداهما

مع الأخرى وهو ما يسمى بـ(الشرقية)، وهناك من يضعها على كتفيه [1].

ج ـ ملابس أهل البادية:

كذلك يختلف لباس أهل البادية عن لباس الحاضرة وزيهم، وهو على الرغم من أنه أقرب إلى زي أهل القرى إلا أنه يختلف عنه في بعض تفصيلاته، ويمتاز لباس البادية ببساطته ـ في الغالب ـ وبأنه على قدر الحاجة ويكاد يخلو من مظاهر الزينة التي لا داعي لها من وجهة نظرهم، فيلاحظ أن لباسهم وما يحملونه في أيديهم أثناء تنقلهم يؤدي كله وظائف معينة تناسب طبيعة حياة أبناء البادية التي لا تعتمد على الاستقرار الدائم في مكان واحد سواء على مدار العام أم خلال البرنامج اليومي لرجل البادية.

وكان أهم ما يميز رجل البادية هو ثوبه طويل الأكمام؛ فقد كان كُم الثوب واسعاً ومفتوحاً من أحد طرفيه، بينما يتدلى له طرف طويل على شكل مثلث تقريباً من الطرف الآخر، أما الثوب فهو واسع وقصير، ربما إلى ما فوق الركبة، وهو قماش من الدوت الأبيض، أو مصبوغ بالحمرة. ويتحزم ابن



العباءة القصيرة من صوف الجمل



ملابس أهل البادية

البادية بحزام رفيع من الجلد، وإذا كان ممن يحملون السلاح كان هذا الحزام أعرض، وبه عيون يوضع فيها الرصاص اللازم لسلاحه. ولابن البادية كيس من الجلد أشبه بالجراب الصغير يضع فيه نقوده. أما حذاؤه فهو من الجلد الخفيف بسيط الصنعة، وله شريط رفيع يلف وسط القدم، وشريط آخر يكون بين إصبعي الرِّجل، وأغلب أهل البادية كانوا حفاة وأقدامهم قاسية الملمس نتيجة المشي في الصحراء بصفة دائمة وفي كل الظروف المناخية من حر وبرد وجفاف ومطر وغير ذلك. أما غطاء الرأس فهو شال من الدوت أو الحمودي؛ وهو قماش قطني أحمر اللون يشبه الشماغ الحالي، وكان بعضه داكن اللون وبعضه الآخر ذا لون أحمر مثل الشماغ الحالية ولكنه يصنع من قماش غليظ رخيص الثمن في أغلب الأحيان.

وفي الشتاء يستعمل ابن البادية العباءة البيدي؛ وهي عباءة قصيرة غليظة من صوف



الجراب الصغير

(١) عبدالله آدم نصيف، *العلا: دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي*، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١٦ هـ)، ١٨٥، ١٨٦.



ملابس الصغار

الجمل، وتعدُّ لحافه في الشتاء وخصوصاً في الصحراء، أما العباءة العادية فهي تصنع كذلك من الصوف إلا أنه يكون أسود أو أحمر داكن الحمرة، كما أنها رخيصة جداً، وغالباً ما تكون محلاة بالحرير في فتحة العنق بدلاً من القصب الذي تحلى به العباءات المعتادة كما هو معروف [1].

د ـ ملابس الصغار:

أما الصغار فإن ملابسهم ـ بشكل عام ـ تشبه ملابس الكبار من الفئة التي ينتمون إليها (فقراء أو أغنياء أو متوسطي الحال) سواء أكانوا من أهل الحضر أم أهل البادية أم الأرياف، إلا أن هناك بعض الاختلاف في ملابس الأطفال ومظهرهم العام تبعاً لسنهم؛ ففي الغالب يتخفف الأطفال من بعض الزيادات في اللباس التي تعيق حركتهم ولا تناسب طفولتهم مثل العباءة والعمامة والشال ونحو ذلك، إلا أن تغطية الرأس تبدأ مع تقدم الابن في السن قليلاً، فهو عندها يبدأ بلبس الطاقية، ثم العمامة أو الغترة في فترة لاحقة، وقد يكون هذا في بعض الأيام أو لبعض الوقت خلال اليوم الواحد، ويحدث ذلك خصوصاً لدى طلبة الكتَّاب الذين يدرسون في المسجد النبوي الشريف، إذ يختلف زيهم ـ في الغالب ـ عن أبناء الحارة العاديين أثناء اللعب والتجول في الأزقة، فيبدو الطالب ـ وهو ذاهب إلى حلقة العلم ـ كأنه صورة مصغرة لشيخ أو عالم (حتى في طريقة مشيه وكلامه) بخلاف غيره من الصبيان.

والجدير بالذكر أن الطاقية المدنية قد عُرفت في المدينة وفي غيرها، وتمتاز بنقوش خاصة وطريقة بديعة في التطريز، ويحرص الحجاج وزوار المدينة على شرائها وأخذها هدية لمن يحبون.

هـ ـ ملابس المناسبات:

وهي تشبه ـ في الغالب ـ الملابس العادية في مكوناتها، ولكن يعتنى بارتداء الزي الرسمي كاملاً من العمامة والعباءة والشال والصديرية والجبة، ويكون الإمساك بالعصا ـ في الغالب ـ للعلماء والوجهاء، وكذلك أخذ السبح في الأيدي. كما يحرص الرجل على الجديد من الثياب أو شبه الجديد، ويختار الأنفس والأغلى حسب استطاعته، فعلى سبيل المثال لا يمكن التنازل عن العمامة في المناسبات، فهي الشعار الرسمي ـ كما سبق ذكره ـ للعلماء والوجهاء، وكذلك يحرص عليها أبناء الطبقة المتوسطة في الحضر، بينما في البادية والأرياف تحل محلها الغترة والعقال. كما أنه لابد من الجبة والعباءة المقصبة أيضاً في الأعياد والمناسبات الاجتماعية مثل حفلات الأعراس ونحوها. وتمتاز الأزياء في

(١) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٨١، ٨٢.

المناسبات ـ سواء أكانت أعياداً أم احتفالات خاصة ـ بما يضيفه الناس من الحلي وأدوات الزينة ـ التي سوف يرد التفصيل فيها في فقرة لاحقة ـ مثل بعض الأحزمة الخاصة أو تقلد السيوف وبعض أنواع السلاح خصوصاً لدى أبناء الريف والبادية.

وكانت تستخدم العباءة والعقال المقصب في المناسبات وبخاصة في الأعياد، ويمتاز بها الأشراف وبعض أبناء البادية، وكانت صناعة العقال المقصب معروفة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ولها صناع معروفون، وبعض الناس كان يضع العقال المقصب على رأسه مع الجبة بدلاً من العمامة، ولكن ارتداء العقال والعباءة ـ على أي حال ـ كان محدوداً، ولم يكن شائع الاستعمال مثل العمامة الألفي والجبة اللتين كانتا أكثر لباس الناس في المدن الحجازية عامة ومنها المدينة المنورة.

أما الصغار في المناسبات والأعياد فإنه يلحظ على أزيائهم التغير، فهم يرتدون في تلك المناسبات ما لم يكن من عادتهم لبسه في الأيام الأخرى؛ فيلبس الصغير العمامة والعقال والصديرية المزركشة، وربما لبس العباءة والجبة، ولكن ذلك لا يدوم طويلاً إذ سرعان ما يتخلى الصغير عن بعض تلك الأزياء التي تعيق حركته وتحد من نشاطه، ولكنه يصر على اقتنائها ولبسها في أول الأمر مباهاة ومجاراة لأقرانه.

ومن المناسبات التي جرت عادة أهل المدينة المنورة أن يحتفلوا بها بأن يُلبسوا الطفل فيها ملابس مميزة ما يسمونه (السرارة) أو (الصرارة)، والسرارة هذه هي اسم يطلق على الطفل الذي أدى الحج والعمرة وهو في سن ما بين الرابعة وقبيل البلوغ، فإذا وصلت الأسرة إلى المدينة المنورة قادمة من مكة المكرمة بعد أداء فريضة الحج وفيهم الصغير أقاموا له احتفالاً خاصاً، يُلبسونه خلاله الثوب الأبيض المزركش البراق، والعباءة المطرزة بخيوط من القصب الذهبي والفضي، والغترة المطرزة بالخيوط الصفراء وعليها عقال مقصب وله تاج، وربما ألبسوه العمامة بدلاً منه، وينتعل نعلاً مزركشاً، تم خرزه بالقصب اللامع، ويمسك في يده عصاً مستقيمة أو معقوفة من الخيزران طولها متر تقريباً، وقد لُفَّت عليها خيوط ذهبية وفضية، وتتدلى منها كتلة براقة تسمى (مشعاب السرارة). ويركب الصبي حصاناً بسرج مطرز بخيوط القصب، ويغطى جميع جسم الحصان بمفرش مطرز أيضاً[1]، ويدور الحصان وسائسه ومرافقوه بهذا الصبي داخل المدينة المنورة ابتهاجاً بما أنعم الله عليه من أداء فريضة الحج في صغره.

ثانياً ـ ملابس النساء والفتيات:

على رغم أن الطابع الإسلامي العام هو الذي يشكل صورة الزي النسائي للمرأة المدنية، إلا أن هناك تفاوتاً كبيراً بين أنواع الأزياء التي تلبسها إذ إن الوضع الحضاري والديني للمدينة المنورة ـ كما لمكة المكرمة ـ أدى إلى امتزاج عدد من الأذواق والمعطيات الفنية في اقتناء الملابس وطريقة خياطتها وتزيينها وأسلوب ارتدائها، فنجد أن الوافدات من الأقطار الإسلامية اللواتي فضل بعضهن البقاء في المدينة المنورة قد تعودن أنواعاً من اللباس مختلفة من جوانب متعددة، ولبسنها في المدينة المنورة، ما أدى إلى تعرّف نسائها على كثير من الأنماط السائدة من الأزياء في

(١) ناجي محمد الأنصاري، *التعتيمة: من مظاهر الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة*، (المدينة: نادي المدينة الأدبي، ١٤٢٢ هـ)، ١٨٥.



ملابس النساء

تلك البلدان الإسلامية مثل جاوة (إندونيسيا) وتركيا والهند ومصر والشام وغيرها، إضافة إلى وفود قبائل سكان البادية من أنحاء شبه الجزيرة العربية واليمن إلى المدينة المنورة بأنواع متعددة وتصميمات متباينة من الأزياء، فلا غرابة أن يجتمع في أزياء المدينة الملاية التركية والبرقع والعباءة والجامة والأنطاري والجبة والزبون وغيرها ـ مما سيرد ذكره ـ من الملابس النسائية داخل البيت وخارجه.

أ ـ وصف لبعض قطع الملابس:

❖ **السروال:** كان غالباً من القماش القطني الأبيض المخطط باللون الأسود أو الألوان الداكنة، وكان هذا القماش يسمى (الباب العالي) ويرد من الشام. وكان أحسن أنواع السراويل (الحلبي) وهو قماش حريري ذهبي اللون من صناعة الشام، وكان مخططاً أيضاً مثل السابق وصفه. وكان هناك أيضاً القماش الذي يرد من مصر وهو من الحرير المخطط بألوان زاهية ويشبه ـ غالباً ـ الذي يستعمل في القفاطين المصرية.

❖ **الصديرية:** تستعمل للجزء العلوي من الجسم، ولها أكمام نصفية، وغالباً ما تكون من قماش خفيف يسمونه (الدورية) وهو كذلك من نسيج القطن الرفيع إلا أنه محلى بأشغال الإبرة، والصديرية مفتوحة من الأمام وتزرر بأزرار ذهبية في الغالب، وقد كانت النساء والفتيات في البيوت يكتفين بلبس السروال والصديرية؛ لأنه لم يكن هناك ما يدعو إلى ارتداء أكثر من ذلك لأنهن يقابلن النساء أو المحارم من الرجال أو الصبية الذين لم يبلغوا الحلم.

❖ **الكرتة:** هي ثوب يغطي الجسم من العنق إلى القدمين بأكمام طويلة إلى الكفين، وهو الفستان الذي تستعمله النساء، وقماشه يختلف باختلاف السن؛ فالكبيرة في السن تستعمل الأقمشة فاتحة الألوان،



الكرتة

أما الصغيرات فيلبسن الألوان الزاهية الحريرية، ولاسيما عند خروجهن للزيارات، وكانت هذه الأقمشة ترد ـ غالباً ـ من الهند، أما الفساتين الخاصة بالفتيات والسيدات فقد ينثر عليها الترتر، وتشتغل أطرافها بأشغال الكنتيل الذهبية.

- **المحرمة**: هي أحد أغطية الرأس الخاصة بستر الشعر، وهي قطعة من قماش من نسيج القطن الخفيف، وتشتغل أطرافها بشغل الإبرة، وفي أيام الأعراس والحفلات تستعمل المحارم المشغولة بالكنتيل الذهبي بدلاً من المحارم المشغولة بخيوط الحرير أو خيوط القطن العادية.
- **المدورة**: هي غطاء للرأس يوضع فوق المحرمة ويستر الرأس كله، وكانت تصنع من نسيج القطن الرقيق الشفاف، وتزخرف بأشغال الإبرة، وهناك المدورة العادية التي تصنع من قماش القطن الخفيف وتزخرف أطرافها بوساطة الطباعة أثناء الصناعة.
- **الأوية**: هي ورود مشغولة بخيوط الحرير شغلاً دقيقاً، وتخاط بدقة على أطراف المدورة، وتصنع بالهند، ولكن أصلها تركي.
- **التللي**: هي خيوط القصب الذهبية أو الفضية، وكانت تشترى أيضاً من الهند. وقد استخدم (التللي) لزخرفة المحارم وصدور الفساتين وأكمامها وأطرافها، وقد استخدمت أيضاً في زخرفة المناديل التي تكمل الملابس[1].

أما عند خروج المرأة من منزلها فإنها تضيف فوق ملابسها الاعتيادية ما يسترها ويواري زينتها، وقد تنوعت واختلفت أنواع الحجاب الذي تحتجب به المرأة تبعاً لمصادر الأزياء التي سبق أن أشرنا إليها؛ وذلك بسبب اختلاط الوفود الإسلامية والقادمين من مناطق متباينة في العادات والسلوك بأهل المدينة المنورة الأصليين، ولكن كل أنواع الحجاب والخمار التي أخذت بها المرأة المدنية كانت غاية في الستر والحشمة، ونذكر هنا بعضاً منها:

- **الملاية الجاوية**: هي قطعة كبيرة من القماش الأسود، أطرافها مخططة باللون الأبيض، وهي منسوجة من الحرير والقطن، وكانت المرأة تستر بها جسمها كله، فلا يظهر منها إلا الوجه الذي يغطى بالبرقع، وكانت الملاية في ذلك الوقت تستورد من (جاوة).
- **البرقع**: هو غطاء للوجه، وغالباً ما يكون من القطن متعدد الطبقات، أو من الكتان، وإذا وضعت المرأة البرقع على وجهها فإنه يخفيه فلا يبدو إلا العينان، إذ تترك فتحة في البرقع من أعلى، وتقسم هذه الفتحة إلى قسمين بقطعة رفيعة من نسيج البرقع نفسه، فإذا سارت المرأة استطاعت أن



البرقع

(١) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٨٣ ـ ٨٥ (باختصار).

ترى طريقها. ومن البراقع ما هو طويل يغطي الجبين إلى الصدر.

- **الملاية التركي**: هي قطعتان من القماش الأسود الحريري المتين؛ أولاهما تلف مثل الإزار على النصف الأدنى من الجسم، من الوسط وحتى القدمين، أما الأخرى فتوضع فوق الرأس وتضم اليدين، ثم تتسدل لتغطي النصف الأول من الجسم، وتتسدل أطرافها على النصف الثاني منه، أو تختفي تحت الإزار الذي يغطي الجزء الأدنى من الجسم. وتجيء (البيشة) وهي غطاء الوجه لتوضع فوق الجبين، فتستر الوجه كله بما فيه العينان، وكانوا يتخذونها من قماش حريري أسود خفيف يسمح للمرأة بأن ترى طريقها، ولكنه لا يشف عما وراءه، فلا يستطيع أي إنسان تمييز وجه المرأة[1].
- **الجامة**: وهو رداء ضافٍ مثل الكيس يتكون من قطعة واحدة، له طاقية، ويغطي الجسم كله من الرأس إلى القدمين، وبه فتحة تظهر العينين فيها ثقوب (تخريمة) مشبكة من الحرير ترى منها المرأة طريقها ولا أحد يراها[2].
- **العباءة**: وهي رداء أسود مفتوح من الأمام، تضعه المرأة فوق رأسها، وهي أشبه بعباءة الرجل من حيث التفصيل، ولكن يختلف القماش وطريقة اللبس إذ تصنع من أقمشة أرق من أقمشة عباءة الرجال، وإذا لبستها المرأة فإنها تلفها من الأمام بيديها خصوصاً عند مقابلة الرجال الأجانب. وهذا النوع من الحجاب يستعمل معه البرقع أيضاً غطاءً للوجه، وأحياناً يغطى الوجه بما يسمى (الشيلة) أو (الغطوة) وهي قطعة واحدة مثل البرقع أو أرق منه، ولكنها من دون فتحة للعينين.

ب - لباس القدمين:

أما القدمان فإن المرأة تلبس فيهما خفاً أصفر اللون يستر القدمين إلى ما فوق الكعبين، وهو يشبه ما يلبسه عرب شمال إفريقية، ويكون تحته (البابوج) وهو حذاء يلامس الأرض، شبيه بالشبشب، ولكنه من لون جلد الخف ونوعيته، وقد يغالى في تزيين البابوج بالقصب وقطع الزجاج، ثم ترك الناس لبس الخف وشاع استعمال الحذاء والجوارب للساقين والقدمين، وكانت الجوارب طويلة ومتينة، وليست شفافة كما هي الآن، كما كانت الأحذية سوداء لماعة، تزينها أشرطة من القماش الحريري الأسود في مقدمتها[3].

ج - ملابس النساء في القرى والبادية:

قد تختلف الأزياء في القرى والبادية حسب قربها وبعدها عن المدينة المنورة، وهي في الغالب أقل تنوعاً من أزياء النساء داخلها؛ إذ تلبس المرأة سروالاً عادياً أسود من قماش العشاري أو أبيض من قماش السحل بعد صبغه بلون أحمر أو أخضر أو أصفر، وتستخدم الأسر الميسورة قماشاً ملوناً يعرف بـ(لب الجوخ).

وتلبس المرأة فوق السروال ثوباً يسمونه قميصاً، ولكنه طويل مثل ثوب الرجال، له أكمام وقران وليس له ردة، وتلبس فوقه ثوباً أسود يسمى (مجوعباً) أو ثوباً كبيراً، وهذا الثوب عريض وله أكمام واسعة، وتحت الكم تخاط قطعة من القماش بلون وردي أو أصفر، وتكون على شكل مثلث متساوي الساقين رأسه متجه إلى أعلى نحو الإبط، ويعرف هذا المثلث

(١) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٨٦، ٨٧.

(٢) عبدالله الخزرجي، *المدينة المنورة، عاداتها وتقاليدها منذ عام ٩٢٥ حتى عام ١٤٠٩ هـ*، (جدة، تهامة للنشر، ١٤١١ هـ)، ١٧.

(٣) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٨٦.


ملابس نساء أهل القرية


ملابس الفتيات الصغيرات

بـ(التُّخْرُصَّة)، ويطرز الثوب بخيوط من الحرير بلون التخرصة، وتلبس المرأة هذا الثوب بدلاً من العباءة.

وتلبس المرأة فوق رأسها (غدفة) سوداء من قماش رقيق تختلف عن الغدفة التي تلبسها الفتاة غير المتزوجة أما الفتاة غير المتزوجة فتلبس غدفة من قماش أسود من نوع (لب الجوخ)، وهي توضع فوق الرأس وتخاط من الأمام من أسفل الذقن إلى أسفل الصدر[1]. أما بالنسبة إلى نساء البادية فإن العباءة والبرقع هما لباس الخروج المعتاد للمرأة، وإن كان لبسها العباءة أقل مقارنة بنساء الحضر، وتكتفي المرأة بالبرقع ـ في غالب الأحيان ـ مضافاً إليه الشيلة أو الغطاء الأسود للرأس الذي يلف أحياناً على الكتفين أو أحدهما.

د ـ ملابس الصغيرات:

يكاد يصدق ما ذكر عن الصغار من الذكور على الصغيرات من الإناث؛ إذ إن ملابس البنت في شكلها العام وأنواع أقمشتها تشبه ملابس أمها إلى حدٍّ كبير، إلا أن هناك اختلافاً فيما يتعلق بملابس الخروج وما يخص الحجاب؛ إذ تخرج الصغيرة بكامل زينتها إلى الشوارع ولزيارة الأقارب والجيران بخلاف التي قاربت البلوغ، إذ لا بد من حجابها وسترها. وقد كان الناس يتدرجون في حجاب البنت حسب سنِّها؛ فلا تترك حتى تفاجأ بالحجاب الكامل الذي ترتديه والدتها، بل تبدأ بنت التاسعة والعاشرة من العمر في تغطية الرأس بالطرحة أو ما يسمى (المسفع) وله أشكال عديدة، ولا يخلو من شيء من الزينة والتطريز، ويغلب أن تكون ملابس الفتيات من الألوان الفاتحة: الوردي والأصفر والبرتقالي والأحمر الفاتح وأحياناً الفضي أو الذهبي، ولاسيما في المناسبات، وإذا بلغت البنت فإنها تلزم بلبس العباءة أو ما يقوم مقامها من ملابس الخروج التي سبق ذكرها مثل الجامة والملاية والبرقع.


البرقع

هـ ـ ملابس المناسبات:

تعتني المرأة بجمالها ومظهرها، وتحرص في المناسبات المختلفة ـ مثل الأعياد والأعراس وغيرها من الاحتفالات والمناسبات الاجتماعية ـ على ارتداء الجديد والجميل من

(١) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ١٨٧، ١٨٨.

الملابس، مضافاً إليها كثير من قطع الحلي والزينة، وتزين بناتها الصغيرات وتلبسهن أحسن اللباس، وما يتوافر من الأحزمة والأقنعة والأحذية المتميزة وبعض أنواع الحلي، وذلك حسب طاقة العائلة ومكانتها الاجتماعية، ويغلب أن تلبس الصغيرات في الأعياد والمناسبات ما لا يلبسنه في الأيام العادية في محاكاة جميلة للكبيرات، تماماً كما يفعل الأولاد الذكور إذ يلبسون الغترة والعقال وأحياناً العباءة والعقال المقصب أو العمامة في الأعياد.

وحسب المناسبة ودور المرأة فيها يكون نوع لباسها وقيمته، ولعل مناسبات الزواج هي أهم المناسبات الاجتماعية التي تعتني فيها النساء باللباس، وتكون العروس هي صاحبة الأولوية في العناية بلبسها وبما يسمى (الشرعة)، وبعدها تأتي أم العريس التي تحرص على أن تكون مميزة هي الأخرى في ملابسها، وكذلك قريبات الزوجين، كما تتسابق المدعوات إلى إظهار ما لديهن من نفيس اللباس والحلي حسب قدرة كلٍّ منهن ومكانتها الاجتماعية.

وقد اشتهر من ملابس الأعراس عدد كبير من الألبسة والشرعات التي عرفتها المرأة المدنية ولبستها ومن أهمها ما يأتي:

- **الشرعة المديني**: وهي أعقد أنواع الشرعة وأجملها، وتلبسها العروس في ليلة العرس وهي عند أهلها، تشرعها بها النصاصة وهي المختصة بتزيين العروس، وتزف العروس فيها وقت حضور العريس إلى بيت أهلها مع والدته وأهله.
- والشرعة المديني هي ثياب مزركشة لها شهرة واسعة عند النساء، تمتاز بلونها الوردي الغامق، وهي مطرزة بالقصب والكنتير (خيوط ذهبية) ذات الأزرار المطعمة بالذهب والألماس، والسروال الطويل المشغول بالقصب.
- وتضع العروس (مدورة) على رأسها تلف شعرها بإحكام حتى يصل إلى (المدرج) المفضض الخاص بالشرعة المديني، ومن ثم توضع (المرتبة) التي ينثر عليها الألماس واللؤلؤ والجواهر، وتغطى أطرافها بعقود الفل والورد على



ملابس المناسبات (الشرعة المديني)

صدر العروس، ويوضع على أطراف وجه العروس (المدرج) وهو عقود من اللؤلؤ والفضة، يلف على أطراف الوجه من أسفل (التاج) حتى يغطي دائرة الوجه، ثم يلف حول (العنق) حتى يغطي الشعر كله، ويتدلَّى حتى نهاية الصدر.

- ويوضع (التاج) أعلى الجبين فوق الرأس، وهو مرصع باللؤلؤ والألماس، ومضغوط من داخله بالورد الناشف لكي يعطيه ثباتاً وإحكاماً، ويُثبَّت على التاج (المقنع) وهو غطاء للرأس منثور على أطرافه الفل والياسمين، تمسكه العروس بيدها المنقوشة بالحناء، وقد نُقش على المقنع عبارة: (ما شاء الله تبارك الله).
- **الشرعة التركي**: هي أخف بكثير من الشرعة المديني، وهي ثوب أبيض مزركش، تتشرع به العروس عندما تزف إلى العريس في بيته، وتلبس فوق رأسها تاجاً مكللاً بالحلي والجواهر والألماس، وتلف حول جيدها عقداً من اللؤلؤ والألماس، كما تغطي رأسها بطرحة الزفاف وقد كللت بالورد والفل والياسمين.
- **شرعة الزبون**: هي من الألبسة المشهورة والمرغوبة، خصوصاً في يوم حنة العروس، وهي ثوب مشغول يدوياً بخيوط ذهبية يلبسه الزبون فوق (الصداري) وله ياقة مشغولة ذات أزرار مذهبة.
- وتوضع على رأس العروس (محرمة) أو (مدورة) أو (مسفع) تكون مطرزة بالذهب.
- وتنتعل (صندلاً) من الجلد ذا إصبع وشراك خفيف في الوسط يُظهر نقشة الحناء في قدمي العروس.

- **شرعة المنثور**: هي ثوب نثرت عليه العقود النباتية، وتمت زركشته بالأشكال الجميلة، ويلبس عادة في الأيام الأولى للعروس في بيت الزوجية.
- **شرعة الإفرنجي**: وهي ثوب مزركش لونه وردي، تلبسه العروس في يوم الصُّبحة، وتلبس عليه طرحة مطرزة، وتلبسه النساء أيضاً في غير هذه المناسبة.
- **شرعة المحف**: وهي ثوب لونه وردي غامق، مشغول ومزركش بخيوط الذهب والفضة، تلبسه العروس في مثل هذه المناسبات.
- **شرعة المصك**: وهي ثوب طويل له أزرار من الفضة، مختلف الألوان، يغطي الجسم كله، مكلل بالورد والياسمين، تلبسه العروس في مناسبات مختلفة.
- **شرعة ضرفة الباب**: وهي ثوب أبيض ومزركش، فيه جمال التطريز والإخراج والإبداع، يلبس في مناسبات مختلفة، وقد سُمّي بهذا الاسم لأنه يحتوي على نقوش تشبه زخرفة الأبواب[1].

وتمتاز ملابس نساء القرى والبادية في المناسبات بالمبالغة في النقوش والألوان الفضية والذهبية، وبخاصةٍ في الأعراس، وكذا في كثرة ما تعلقه المرأة من الحلي على نواحي جسدها بحسب ما يتوافر لها، وسوف نفصل ذلك عند الحديث عن حُلي النساء. أما الصغيرات من الإناث فإنهن أكثر استمتاعاً بأيام العيد من الكبيرات، ولذا يعتنى بملابس الفتيات في العيد عناية كبيرة، فتلبس الصغيرة الفستان المقصب ذا الألوان الزاهية، والحذاء المطرَّز بخيوط ذهبية أو فضية، وتضع على رأسها (المسفع) أو الطرحة أو (المخنق) كما يسمى في البادية،



ملابس العروس في القرى والبادية

(١) الأنصاري، ناجي. التعتيمة، مرجع سابق، ١١١ ـ ١١٣.



المخنق

وهو نوع من الطُّرَح يخاط تحت الذقن وتزين أطرافه بالترتر والقصب والخيوط الفضية أو الذهبية. وكذلك تحتزم الفتيات بالأحزمة الذهبية أو الفضية المزخرفة.

ثالثاً ـ أدوات الزينة للذكور:

علاوة على ما يحرص عليه الرجال والشباب من اقتناء الجميل من الثياب ولبسه في المناسبات المختلفة، فإنهم يضيفون كثيراً من أنواع الطيب وأدوات الزينة وبعض الحلي الملائمة لطبيعة الرجل، كما يحملون في أيديهم أو يتقلدون بعض الأسلحة، ويحمل بعضهم عصاً من نوع خاص أو مظلة أثناء سيره أو ذهابه إلى مناسبة معينة، ويتفاوت في هذا الأغنياء والفقراء ومتوسطو الحال، كما يختلف في ذلك رجال المدينة المنورة والحاضرة عن رجال الأرياف والبادية.

فعلى سبيل المثال: اشتهر بين أهل المدينة المنورة من العلماء والتجار ومتوسطي الحال أن يعلق أحدهم في أعلى الصديرية سلسلة تنتهي إلى ساعة توضع في جيب الصديرية الأيسر، أو تدس في الحزام، وإن اختلف نوع الساعة والسلسلة بحسب لابسها، فقد وُجد من التجار من يستعمل الساعة المحلاة بالذهب والمربوطة بسلسلة ذهبية (من الذهب الخالص)، بينما يتورع العلماء عن مثل هذا، وتكون ساعاتهم معدنية عادية خالية من التذهيب بأي شكل، كما تكون السلسلة من الفضة أو مطلية بلون فضي من مادة أخرى، وكذلك يفعل غير القادرين على شراء السلاسل الذهبية والساعات غالية الثمن وإن لم يكونوا من العلماء أو الزهاد، وهذه العادة (تعليق الساعة والسلسلة) تقل بين أهل القرى وتتعدم بين رجال البادية بشكل عام.

كما كان الرجال يستعملون الخاتم من الفضة غالباً، وقد يزين بفصوص الياقوت أو نحوها وإن وجد من الأثرياء من لبس الخواتم الذهبية. أما العلماء فإنهم كانوا يتحاشون ذلك، وكانت الخواتم التي يستعملها عامة



الساعة ذات السلسلة(*)



السبحة

(*) المصدر: وكالة الآثار والمتاحف

الناس مصنوعة محلياً من الفضة وأحياناً من النحاس أو غيره، إذ كانوا لا يستطيعون شراء الغالي من الخواتم.

وكان الرجال يحرصون أيضاً على الإمساك بالسُّبحة التي كانت تصنع من مواد متعددة، وتستعمل أيضاً لأغراض مختلفة؛ فكان بعضها يصنع من الخرز، وبعضها يصنع من الخشب أو (اليسر)، وبعضها من البلاستك المقوى.. وغير ذلك، وكان بعض الرجال يمسكون بها للتدقيق في عدد التسبيحات والذكر، وبعضهم الآخر يمسك بها للتلهي وتحريكها في اليد لقضاء أوقات الانتظار في الغالب، بينما يحرص عليها آخرون من باب المبالغة في الزينة وإظهار الترف وبخاصةٍ إذا كانت من السبح النفيسة غالية الثمن، ويغلب هذا لدى الأثرياء وكبار الموظفين. وأيضاً كان هذا أقل بين رجال القرى، ويكاد ينعدم عند رجال البادية. وكان من مظاهر الزينة لدى الرجال في المدينة المنورة ـ وبخاصةٍ المتعلمون والطبقات العليا ـ وضع الأقلام بصورة بارزة في جيب الصديرية أو الثوب ليراها الآخرون فتدل على شخصية مقتنيها، وكانت مجالاً للمفاخرة؛ إذ نجد الأقلام غالية الثمن حكراً على الأغنياء والموسرين، وكان مقبضها الخارجي من الذهب، كما كانت ريشة الكتابة من الذهب أيضاً، فيما كانت أقلام المتعلمين من غير الموسرين أقلاماً عادية، ولكن وجودها في جيب الثوب أو الصديرية ذو معنى؛ إذ تشير إلى أن صاحبها ممن يجيد القراءة والكتابة على الأقل، كما كانت الشمسية (المظلة) أيضاً في يد الرجل ذات معنى جمالي، فهي مكملة لزيه وأناقته، فكان العلماء والتجار والموظفون يحرصون على الإمساك بالشمسية عند خروجهم نهاراً أو في الأيام والليالي الممطرة، وكذا كانت العصي لدى بعض الوجهاء والعلماء تعني تمام الهيبة والوقار، فقد يمسك بها الرجل ولو لم يكن محتاجاً للاتكاء عليها، بل كانت من تمام المظهر وإبراز الهيبة أمام الناس.

أما رجال القرى والبادية ـ بشكل عام ـ فقد كانت الأسلحة هي التي تميزهم عن غيرهم في الغالب، وكانوا يتفاوتون ويتفاضلون بناءً على نوع السلاح الذي يتقلده أو يحمله كلٌّ منهم، فكانت تشاهَد السيوف والخناجر والبنادق وأحزمة الرصاص (الذخيرة) وما تتطلبه هذه الأسلحة من الأغلفة والأجربة المزينة بالذهب أو الفضة أحياناً والمحلاة بالنقوش المختلفة، وكان أقل أنواع السلاح هو العصا التي يحملها ابن البادية لاحتياجه إليها وليس للتفاخر بها؛ وذلك نظراً إلى طبيعة العيش في الصحراء وما تتطلبه من الدفاع عن النفس والاستعداد لجميع الاحتمالات، وكان الذي لا يحمل السلاح يوصف بالخور والجبن.

وكان الرجال أيضاً يستعملون بعض العطور والبخور ومواد الزينة مثل الكحل وأحياناً الحناء، ولاسيما في القرى والأرياف وبعض البادية، فكانوا يخضبون أيديهم وأرجلهم بالحناء خصوصاً في المناسبات والأعياد. وقد كان سكان البادية وبعض أهل القرى يطيلون شعورهم، ومنهم من ينسدل شعره إلى كتفيه، ومنهم من يرسله ضفيرتين على جانبي رأسه[1]. أما رجال الحضر وشبابه فكانوا أكثر استعمالاً للطيب من بقية مواد الزينة وإن كان الشباب والتجار أكثر استخداماً للعطور

(١) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ١٨٦.

المستوردة من أنواع (الكلونيا) المختلفة، بينما يحرص العلماء على أنواع الدهون العطرية مثل: دهن العود والصندل والمسك والورد، التي يصنع بعضها محلياً (الورد مثلاً). ويستورد بعضها الآخر من الهند وبعض دول جنوب شرق آسيا.

رابعاً ـ الحلي وأدوات الزينة للنساء:

كانت المرأة ـ ولا تزال ـ هي صاحبة الحظ الأوفر من الحلي وأدوات الزينة ومواد التجميل؛ وذلك لطبيعتها الأنثوية وما فطرت عليه من حب الزينة والتجمل، سواء لزوجها أو خاطبها، أو بين بنات جنسها تفاخراً وتنافساً بينهن في هذا الشأن، ولم تكن المرأة المدنية بأقل في هذا من غيرها من النساء، بل إن المرأة ـ في المدينة المنورة وما حولها ـ قد عرفت من أنواع الحلي وأدوات الزينة وطرق التجميل ما لم يكن معروفاً في كثير من مناطق الجزيرة العربية بشكل عام؛ وذلك للأسباب التي سبق شرحها مما يتعلق بمكانة المدينة المنورة الحضرية والدينية، ووفود المسلمين والمسلمات إليها من شتى أقطار العالم الإسلامي حاملين معهم تراثهم وفنونهم وأساليبهم في اللباس والزينة والحلي، ومحاولة كثير من الحجاج ـ أثناء قدومهم إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ـ اصطحاب بعض منتوجات بلدانهم لبيعها في هذه الأراضي المقدسة، وأهم ما كانوا يقدمون به أنواع الحلي المختلفة ومواد الزينة مثل الطيب والعطورات وأنواع الحناء والأصباغ، ونحو ذلك مما خف حمله وغلا ثمنه. وفيما يأتي عرض لبعض ما عرفته المرأة المدنية من أدوات التزين والحلي:



المبخرة والبخور

أ ـ الطيب:

عرفت النساء أنواعاً كثيرة منه، ومنه ما كان يستعمله الرجال والنساء على حدٍّ سواء ومنه ما اختصت به النساء دون الرجال، وكان طيب النساء يشتمل على نوعين أساسيين هما:

١ـ البخور:

ويتكون من أنواع مختلفة من المواد ذات الرائحة الزكية التي تخلط ويعجن بعضها مع بعض، ثم تُجعل على شكل كريات صغيرة تجفف وتحتفظ بها المرأة لوقت الحاجة إليها، فإذا حان وقت استعمالها فإنه يوقد على الفحم حتى يصير جمراً ثم يوضع في مبخرة قد أعدت لذلك الغرض سواء أكانت من النحاس أم الزجاج السميك أم الخشب الملبس من الداخل بالحديد أو الزنك، ويوضع فوق الجمر شيء من كريات البخور التي يتصاعد منها الدخان حاملاً معه روائح

تلك المواد التي يتكون منها الخليط، ويصنع هذا البخور - في الغالب - من العنبر والمسك والريحان ومسحوق أعواد العود الهندي أو الجاوي أو الكمبودي.

٢- الرشوش:

وهو الطيب السائل الذي يُرش على جسد المرأة وشعرها وملابسها، وللرشوش أصناف متعددة وله نكهات وروائح مختلفة. ويختلف الناس في قدرتهم على الحصول على أنواع الطيب باختلاف مستوياتهم الاقتصادية، وتتفرد المناسبات العزيزة على المرأة بأنفس أنواع الطيب وأجوده.

ب - الحناء:

هو من الأصباغ التي كانت شائعة الاستعمال في الشرق الأوسط بشكل عام، ونستطيع أن نقول إن الحناء كانت زينة شائعة في البلاد لا للنساء فقط، وإنما للنساء والرجال والأطفال على السواء، وكانت تُعَدُّ مفيدة صحياً ومبردة للجسم، فكانت تستعمل كثيراً في الصيف، وذلك بأن يؤخذ ورق الحنّاء فيدق دقاً ناعماً في الهاون (الهوند) ثم تطبخ هذه الحناء بوضعها في ماء مغلي، وتترك حتى تبرد تماماً، ثم توضع في قماش تطوق به الأكف والأقدام ليلة كاملة، فإذا أصبح الصباح ونُزع هذا القماش وغُسلت الأيدي والأقدام من بقايا هذه الحناء ظهرت الكف، وقد اكتست لوناً أحمر باطناً وظاهراً، أما بالنسبة إلى القدمين فإن الحمرة تكسو أسفلهما وظاهر أصابعهما، هذا بالنسبة إلى الرجال والبنات الصغيرات، كما كانت تصنع للأطفال في مناسبات الأعياد والحفلات الخاصة بهم، أما بالنسبة إلى



الحناء

النساء فكان استعمال الحناء يتخذ شكلاً أكثر أناقة وجمالاً؛ فكانت الحناء توضع على الأظافر للكفين والقدمين، ثم تصبغ أصابع اليدين في خطوط طويلة بالحناء في وسطها، ثم يصبغ باطن الكف بالحناء نفسها أما العفص (وهو مادة سوداء تصبغ الجلد) فكان يستعمل كذلك بالطريقة نفسها لأظافر القدمين والكفين، ثم توضع منه خطوط على شكل نقط صغيرة متقاربة في وسط الأصابع[١].

كما كانت الحناء تستعمل أيضاً لصبغ شعر الرأس أحياناً. وفي يوم الحناء (بالنسبة إلى العروس) تقوم (النصاصة)[٢] أو والدة العروس بعمل الخضاب الخاص بتحنيتها، ومن ثم تتولى نقش الحناء على كفيها وأصابعها وتخضيب قدميها، وتترك الحناء فترة كافية لتثبيت اللون المرغوب.

ج - الكحل:

يصنع من لبان الذكر ومسحوق الجلا، إذ يؤتى باللبان ويوضع في حفرة صغيرة مملطة

(١) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ٩٥، ٩٦.

(٢) المرأة المختصة في تجميل العروس وتزيينها.



نماذج من الحلي

لتسهيل تنظيفها من الأتربة، وتوضع فوق اللبان قطعة من شحم الغنم ونحوه، وتشعل النار، وتوضع حول الحفرة ثلاثة أحجار صغيرة يوضع عليها (طاجن) صغير، وهو أداة كالمقلاة ولكنها مقعرة من جهة ومقببة من الجهة الأخرى، فتتجمع طبقة من الدخان على السطح من الجهة المقعرة، وبعدها ينتهي الاحتراق ويتم استخلاص هذه الطبقة، ثم تنخل بقطعة قماش رقيق، ويخلط المستخلص مع مسحوق الجلا. ويستخدم الكحل لتجميل العيون وعلاجها.

د ـ الحلي:

عرفت المرأة في المنطقة ـ بما تشمله من حاضرة وأرياف وبوادٍ ـ جميع أنواع الحلي التي عرفتها المرأة العربية بوجه عام عبر التاريخ، وزادت عليها أنواعاً من الحلي لم تعرف في مناطق أخرى إلا بعد وجودها في منطقتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، وذلك مما يقدم به الحجاج من بعض أنواع الأساور والقلائد المصنوعة من الذهب أو الفضة أو اللؤلؤ أو حتى الخرز والزجاج وغيرها، وإن لم تكن جميع أنواع الحلي تتوافر لدى أهل حقبة تاريخية معينة، فإن أنواعاً منها تندثر لتحل محلها أنواع أخرى، كما يشاهد اليوم في عالم (الموضة) و(الموديلات).

والجدير بالذكر أن غالبية ما سنذكره هنا من أنواع الحلي كانت تُلبس في الأعراس والأعياد والمناسبات الاجتماعية الكبيرة، ما عدا بعض الخواتم والأساور الخفيفة والزمام ـ الذي يكون في الأنف ـ وما خف وزنه من الأقراط والقلائد، أما الأنواع الأخرى الثقيلة من حلي الرأس والعنق والوسط والقدمين مثل الهامة والرشرش والأحزمة المذهبة والحجول وغيرها فقد كانت تلبس في المناسبات فقط.

وسوف نشير إلى بعض ما ذكرته المصادر من أنواع الحلي التي لبستها المرأة في المدينة المنورة أو في القرى التابعة لها، أو في قبائل سكان البادية التي كانت تعيش حولها إلى عهد قريب، وذلك حسب مكان استعمالها من الجسم، وذلك فيما يأتي:

١ ـ حلي الرأس:

لم تشر المصادر إلى أن النساء داخل المدينة المنورة لبسن شيئاً من الحلي فوق الرأس، أما القرى والبادية فقد وُجدت فيها أنواع من الحلي المختلفة من الذهب والفضة وغيرها تستعملها النساء، سواء فوق الرأس أو في مقدمته (الجبهة) أو تعلق على جانبي الرأس، وذلك بأسماء وأشكال مختلفة، نذكر منها ـ على سبيل المثال ـ ما يأتي:

- **الحلقة**: وتسمى أيضاً (الوطية)، وهي قطعة من الذهب، مدورة الشكل ـ تقريباً ـ تساوي سعتها راحة الكف، وفي أعلاها فصوص من الفيروز يتوسطها فص كبير يسمى (القُلب)، وتكلل أطرافها باللؤلؤ.

- **الهامة**: سميت كذلك لأن المرأة تلبسها على هامتها (رأسها)، وهي صفيحة من الذهب الأحمر مستطيلة الشكل، تتدلى من خلفها قطع ذهبية مستطيلة متحركة ومرصعة بالفيروز، وتثبت الهامة في خصل الشعر الأمامية بعرى صغيرة.
- **القبقب**: وهو يشبه الهامة، ويختلفان في أن القبقب يكون على شكل دائرة ويتدلى منه (جهاجيل) أي مورقات من الذهب على الوجه.
- **الهلال**: ويدل اسمه على شكله، ولكنه أقرب إلى الشكل المثلث، وصفته: أنه قطعة من الذهب مبطنة داخل بقماش الحرير الأحمر، ويرصع على جوانبه بفصوص من الفيروز، وفي قاعدته حِلَق صغيرة تتدلى منها وريقات صغيرة من الذهب مكللة باللؤلؤ، ويتدلى على حاجبي المرأة.
- **الشمسة**: وهي لوح من الذهب، مثلث الشكل، له عروة وحول العروة وأسفلها مثلثات، على كل جانب مثلثان، ويكون الذي في العروة أصغر من الذي أسفلها، وفي داخل المثلث فص كبير من الفيروز على شكل مثلث، وداخله قطعة مزركشة من الذهب.
- **الخدايد**: لوحان من الذهب مربعا الشكل، بداخل كل لوح فصوص مرصعة من الفيروز، ويربط اللوحان بسلسلة من الفضة، وتكون حلقة الوصل حبة من الذهب صغيرة دائرية الشكل ومرصعة بالفيروز.
- **التحافيظ**: هما شبيهان بالخدايد، ولكنهما مثلثا الشكل (شنف) ومرصعان بالفيروز الأزرق، وفي نهاية رأس كل مثلث تتصل به ثلاث دوائر من الذهب مرصعة بالفيروز الأزرق، تلبسها المرأة بأن تشبكها بالشعر فتنزل على الجانبين فوق الخدايد، وتكون سلسلة التحافيظ أصغر من الخدايد[1].
- **العلاقة (أو العلاجة)**: تلبس المرأة اثنتين منها على الجانبين تربطان في طرف الشيلة، ومنها نوعان: صغيرة وهي مثلث من الفضة، وكبيرة وهي مثلثان أحدهما فوق الآخر، وفي داخل كل مثلث فصوص من الخرز.
- **المطواح**: ويسميها أهل البادية (التلة)، وهي حلية من الفضة على شكل سلسلة مزينة في وسطها بحِلَق مجوفة على شكل أجراس، تلبسها المرأة بأن تضعها في شعرها من الخلف، وتلبس منها اثنتين، في كل جديلة واحدة، ذلك إذا جُدل الشعر جديلتين فقط وغالباً تكون واحدة[2].
- **العصائب**: هي حلية تلبس في الرأس وتغطي الجبهة، ولذلك سُمّيت عصابة، والعصائب أنواع كثيرة منها ما هو من الفضة ومنها ما هو من الأدم أو القماش وغيره.
- **الشبابيك**: لوح مثلث الشكل مزركش بفصوص من الفيروز، وقاعدته منظومة باللؤلؤ، وفي أعلاه حلقة تتصل بها سلاسل من الفضة تنتهي بلوح صغير مربع من الذهب في داخله فص من الفيروز مرتبط بسلسلة أخرى تتصل باللوح الآخر من الشبابيك، وعلى هذا تلبس المرأة منها اثنتين مشبوكتين بسلسلة تشبك بالشعر عند مفرقه، وتتدلّى على الجانبين، وحتى لا تتدلى على الوجه يشبك اللوح الصغير

(١) أحمد مساعد الوشمي، *حلي المرأة في الشعر الشعبي*، (الرياض: المهرجان الوطني للتراث والثقافة، د.ت)، ١٦ ـ ٢٠.

(٢) المرجع السابق، ٢٠ ـ ٢٢.



حلي الأذن

الـذي هـو في أعلـى السلسلة على جانب الشعر. والشبابيك تشبه الخدايد ولكنها أطول سلسلة، وبعض الشبابيك تكون على شكل نصف دائرة[1].

٢ ـ حلي الأذن:

يغلب أن تلبس النساء الحلي في الأذن بأشكال مختلفة ومن صناعات مختلفة، يستوي في هذا نساء المدينة المنورة والريف والبادية، وإن كـان يُـلاحظ أن الـمـرأة المدنية (في الحاضرة) تميل إلى الأحجام الصغرى من أنواع الحلي المعلقة بالأذن أو الملتصقة بها، بينما يكبر الحجم عند نساء الريف والبادية بشكل عام. ومن الأسماء التي اشتهرت بها حلي الأذن: الحلق والقرط والتلال والخماخم وهي حلقة مستديرة من الذهب أو الفضة (وأحياناً



حلي الأنف

من الحديد) تشبه الهلال في استدارتها. وقد وجدت أشكال أخرى للحلق بعد تطور صياغة الذهب والمجوهرات منها المثلث والمستطيل، وفي أحيان كثيرة تزين بفصوص من الفيروز أو الخرز وتتدلى منها سلاسل قصيرة حسب حجمها، ويتم تثبيتها في ثقب صغير يُجعل في أسفل الأذن. وكانت في أول الأمر ترد إلى البلاد ـ في أغلب الأحيان ـ من مصر، ثم أصبح لها تقليد محلي إلى أن ازدهرت صياغة الذهب في الحجاز بشكل عام، وتنوعت أشكال الحلق وأحجامها حسب اختلاف الأذواق بين حاضرة وبادية وفقراء وأغنياء، وإن كان الشكل الغالب للحلق لدى نساء البادية والأرياف هو ذلك الحجم الكبير من الذهب والفضة.

٣ ـ حلي الأنف:

اشتهر في بعض قرى المدينة المنورة ولدى نساء البادية لبس حلية من الذهب أو الفضة في الأنف تسمى (دبقة)، كما وجد بينهن من تلبس الزمام (وهو معروف في المنطقة الوسطى من المملكة) وهو حلقة من الذهب أو الفضة عُلِّق بها رشرش صغير، تثبت في أحد جانبي الأنف من الأسفل، حيث يُثقب الجزء الرقيق منه بما يسمح بدخول مشبك الزمام، ويربط من داخل الأنف بعقدة صغيرة من جنسه تمسك بطرف المشبك، وكان هذا النوع من الحلي أول ما أخذ في الاختفاء من الحلي التقليدية في المنطقة فلا يكاد يرى اليوم إلا ما ندر لدى بعض كبيرات السن.

٤ ـ حلي الرقبة:

وهـي أكثـر أنـواع الحلي استخداماً لدى النساء كافة في المدينة المنورة وغيرها،

(١) أحمد مساعد الوشمي، حلي المرأة في الشعر الشعبي، (الرياض: المهرجان الوطني للتراث والثقافة، د.ت)، مرجع سابق، ٢٣، ٢٤.

ويوجد لدى نساء الحضر والريف والبادية على السواء؛ وذلك لسهولة لبسه وخلعه، ولأنه ما يواجه الرائي عندما تُقبل المرأة.

وقد تعددت أشكال هذا النوع من الحلي وصناعاته وأسماؤه عبر التاريخ وباختلاف المناطق، إذ تطلق على الشكل الواحد منه أسماء مختلفة حسب المنطقة التي يشيع فيها استخدام هذا النوع أو ذاك، فقد تجد للصنف الواحد في المنطقة الواحدة عدداً من الأسماء يتداولها الناس من الرجال أو النساء أو أصحاب محلات البيع وغيرهم. ومن أشهر ما استعملته النساء من الحلي في الرقبة وعلى الصدر ما يأتي:

- **الطوق**: وسُمّي بذلك لأنه يطوق العنق، وله عدد من الأنواع أغلاها ما كان يشتمل على الألماس، وهو قلادة للعنق من الذهب ذي العيار ١٤، محلاة بفصوص كثيرة من الألماس الفلمنك (الألماس الأصفر)، وكان يرد من مصر، ويباع لدى الصاغة بوساطة الدلالين، وكان أحسن ما يقدم للعروس في (التصبيحة) هو هذا الطوق،



حلي الرقبة (الطوق)

وكان المفضل منه كبير الحجم، كثير الفصوص، وكان الثمن المتوسط لهذا النوع يصل إلى عشرين جنيهاً ذهبياً أو أكثر، وكانت التصبيحة تلبس للعروس حينما يكشف عن وجهها لأول مرة ويراها العريس، ولم تكن هناك الشبكة المعروفة حالياً؛ لأن العريس لم يكن يرى عروسه إلا ليلة الزواج [١]. وقد يكون الطوق من الفضة ومبطناً بأنواع من القماش، وهذا النوع شاع استخدامه لدى أهل البادية والأرياف.

- **الخناقة (الحشفة)**: هي قلادة من الخرز الأحمر المفصول بينه بقطع صغيرة من الذهب، ويطلق عليها العامة (الخنايق)؛ لأن المرأة ـ عادة ـ تلبس عدداً من القلائد من هذا النوع، ولذا يُسَمُّون ما يُلبس وحده منها (فريدة)[٢].
- **اللبَّة**: هي عقود كبيرة من اللؤلؤ تفصل بينها خرزات كبيرة من الضفار أو قطع كبيرة مستديرة من الذهب، واللبة كبيرة الحجم تملأ الصدر بعد إحاطتها بالعنق، ولا تستعمل إلا في الأعراس، وغالباً ما تستأجر ليوم أو يومين ممن يملكونها[٣].
- **المنثورة**: هي قلادة من الخرز الأحمر (الياقوت) وتفصل بين كل خرزة وأخرى قطع صغيرة من الذهب على شكل محالة، وتزين مقدمة القلادة بخمس إلى سبع قطع من الذهب تكون بحجم الريال العربي السعودي أو نصف الريال الحالي، ويزين أعلى القطع الذهبية بفصوص صغيرة زرقاء وحمراء[٤].
- **الزناط**: ويُسَمّيه أهل البادية (المرتعشة)، وبعض الحضر يُسَمّيه (صف اللبن)،



حلي الرقبة (الطوق)

(١) مغربي ، محمد علي . ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٩٠.
(٢) الوشمي، أحمد مساعد. حلي المرأة، مرجع سابق، ٤١، ٤٢.
(٣) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٩٢.
(٤) الوشمي، أحمد مساعد، حلي المرأة، مرجع سابق، ٤٤.

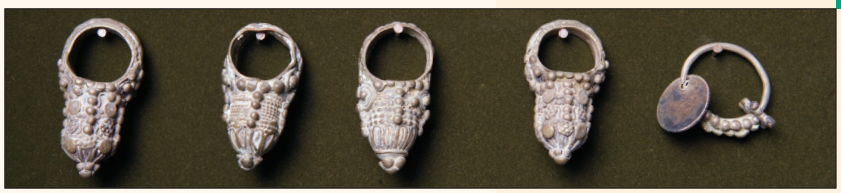





الأساور والخواتم

(وأهالي الرياض يسمّونه المرتهش)، وهو قلادة من الذهب، بل هو من أضخم القلائد، ويتكون من سلاسل من ذهب (قطع ذهبية مسطحة)؛ وهي سلاسل مورقة تتدلى بالتوازي من الرقبة إلى الصدر، وتختلف في الطول والقصر، وقد تطول حتى تصل إلى ركبة المرأة في بعض الأحيان.

- **الرشرش**: هو ما يحلى به الصدر، ويتألف من حليات كثيرة، يدار حول العنق بسلسلة ذهبية أيضاً، وهو صناعة محلية يشبه (المرتهش) مع اختلافات بسيطة[1].
- **عقود اللؤلؤ**: هي من أنواع الحلي التي كثر استعمالها بين نساء الحضر في المدينة المنورة وفي بقية مدن الحجاز بشكل عام، وإن لم تكن كذلك لدى أهل البادية والقرى[2].

٥ ـ حلي اليدين والأصابع:

عرفت المرأة المدنية كثيراً من أنواع الأساور والخواتم، سواء ما كان من الذهب أو الفضة أو اللؤلؤ، أو حتى الحديد والنحاس لدى الفقيرات أو الصغيرات من الفتيات، وقد تعددت أشكال ذلك النوع من الحلي وأسماؤه، كما هي الحال بالنسبة إلى بقية أنواع الحلي.

فبالنسبة إلى الخواتم كانت هناك خواتم اللؤلؤ، كما كان هناك نوع من الخواتم على شكل ثعبان ملفوف ثلاث لفات، وهو مصنوع من الذهب، وفي موقع عين الثعبان يوجد فص من الياقوت أو فص أزرق، وهذا ما شاع استخدامه بين النساء في الحضر، بالإضافة إلى (الدبلة) الذهبية وهي خاتم من الذهب الخالص بلا فص، يلبسه بعض النساء قبل الزواج وبعده. أما نساء البادية والأرياف فقد كنّ أوفر حظاً في هذا، فقد لبسن أنواعاً كثيرة من الخواتم ومن صناعات مختلفة؛ فأحياناً يجتمع في يد الواحدة منهن أكثر من ثلاثة أو أربعة خواتم، وقد يكون في الإصبع الواحد أكثر من خاتم، ومن الأسماء التي اشتهرت من حُلي الأصابع: (الخواتم) و(المرامي) و(الفتخة) و(الحويجز) و(صف العشر) و(المراديف) و(الحيات) وغيرها.

ومن حلى اليدين أيضاً الأساور والبناجر فقد عرفت النساء كثيراً من الأساور و(البناجر) الذهبية، وهي الزينة الشائعة التي تتحلَّى بها المرأة في معصميها، وكذلك لبست النساء ـ وبخاصة نساء الأثرياء ـ أنواعاً من الأساور التي تتكون من خرزات اللؤلؤ الطبيعي أو الصناعي التي تنظم حول المعصم، هذا بالنسبة إلى نساء الحضر في غالب الأمر. أما نساء القرى والبادية، فقد شاع بينهن لبس

(١) الوشمي، أحمد مساعد. مرجع سابق، ٤٦.

(٢) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٩٢.


الحزام

الفضة وأنواع كثيرة من الأساور والمعاضد من الذهب والفضة والزجاج، وأحياناً من الخرز وغيره، ومن أشهر الأسماء التي أطلقت على هذا النوع من الحلي - بوجه عام - ما يأتي:

الأساور، والمنافيخ، والزنود (تلبس في العضد)، والبناجر، والمعاضد، والمرفدة، والدمالج، والشمايل، والمفتول، والخصور.

٦ - حلي الوسط:

عرف بعض النساء أنواعاً من الحلي على شكل أحزمة للخصر، ولكنها لم تكن بالكثرة والتنوع اللَّذين كانا في أنواع الحلي الأخرى مثل حلي الرقبة أو اليدين، كما لم يكن انتشارها بين نساء الحضر ملحوظاً، بل كان أغلب اللاتي استعملنها نساء القرى والبادية تمشياً مع الطابع العام للزي الذي يختلف في المدن عنه في الأرياف والبادية، كما سبق ذكره، وقد وجدت أنواع مختلفة من المحازم من الذهب والفضة والخرز، وأحياناً من الجلد أو حتى من القماش المزين بالفصوص المختلفة.

ومن الأسماء التي سُمّي بها هذا النوع من الحلي:

أ) البريم:

حزام تشده المرأة على خصرها، وهو متعدد الأنواع:

- حبل فيه لونان، وهو مزين بجواهر.
- خيط ينظم فيه خرز.
- خيط يفتل على طبقتين.
- حبل مفتول وغالباً ما يكون لوناه الأسود والأبيض.
- بريم من جلد.
- بريم مفتول بأكثر من طبقتين يصل إلى ثمانية صفوف (بتوت).

ب) الحزام:

يشبه البريم، وهو على أنواع مختلفة:

- حزام من جلد، ويكون ذا طبقة واحدة، مفتول كجدائل شعر المرأة، فيما يترك طرفا الحزام دون فتل ما يضفي ناحية جمالية على الحزام.
- حزام من قماش، وهو مثل حزام الجلد يفتل كالجديلة ويترك طرفاه، ولكن يدخل عليه لون آخر يكون موضعه أقل سماكة من الحزام الأصلي.
- حزام من فضة أو من فضة مطلية بالذهب، أو من الذهب، وهو على نوعين: نوع على شكل مربعات متشابكة تتدلى منها أزارير، وينتهي طرفاه بدائرة أو شبه دائرة مع (شنكار) يشبك الطرف بالآخر، أما النوع الثاني فيكون على شكل دوائر بعضها بجانب بعض، وتستعمل في تكوينه العملات الذهبية أو الفضية[1].

(١) الوشمي، أحمد مساعد، حلي المرأة، مرجع سابق، ٧١، ٧٢.



الحجل



الخلخال

٧ ـ حلي الرجلين:

لم تخلُ الرِّجل من الحلي والزينة، بل كان هناك أنواع من الحلي التي تلبسها المرأة في الساقين للزينة، سواء أكانت ذهباً أم فضة أم غيرها بعضها يصدر خشخشة تدل على لبس المرأة إياه، إذ إن الثياب ساترة لا يبدو ما تحتها في الغالب إلا عندما تتعمد المرأة إظهاره أمام النساء تفاخراً، وقد عُرف هذا النوع لدى نساء المدينة المنورة حاضرةً وباديةً وريفاً، وإن كان قد بدأ يختفي لدى الجميع، ولا تكاد توجد له باقية في الوقت الحاضر خصوصاً في الحضر؛ وذلك تبعاً لتغير الأذواق والنظر إلى أصوات الحلي في القدمين على أنه يلفت الانتباه إلى المرأة أثناء سيرها، وغير ذلك من الأسباب. ومن أشهر الأسماء التي عرفت لهذا النوع من الحلي ما يأتي:

- **الحجول**: وهي على أنواع:حجول على شكل قضبان، والحجل منها على شكل حلقة دائرية مفتوحة الطرفين مربعة الجوانب، منقوش خارجها بزخارف محفورة. وحجول على شكل صفيحة عريضة قد يصل عرضها إلى ثلاث أصابع، وهي على هيئة حلقة، وحجول دائرية مبرومة الشكل تنتهي أطرافها بكرات صغيرة، وصياغتها من الفضة، تلبس المرأة حجلاً واحداً في كل ساق.
- **الخلاخل**: وهي حُلي من الفضة تلبسها المرأة في رجليها، في كل رجل (خلخال)، وهو ذو شكل دائري مفتوح الطرفين ومجوف وفي داخله حبات صغيرة من الفضة متحركة تعطي صوتاً جميلاً عند المشي، ولهذا يغلب أن يكون الخلخال من لباس الفتيات وصغيرات السن[١].

خامساً ـ مظاهر الثبات والتغير:

عند مناقشة التطور والتغير الذي لحق بهذا الجانب من حياة الناس في المنطقة ـ كما في بقية مناطق المملكة العربية السعودية ـ لابد من ملاحظة أن التغير يبدأ دائماً بالأمور الاختيارية المتعلقة بالذوق ويتأثر بالقدرة على الشراء، سواء ما يتعلق باللباس أو الحلي أو أدوات الزينة بشكل عام، للرجال أو النساء، صغاراً وكباراً، وأن الأمور ذات الصلة بالثوابت القيمية هي أقل عرضة للتغير؛ لوجود ما يحول بين الناس وبين التخلي عن المبادئ والقيم التي هي من أساسيات الإيمان والتقوى ونظام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المعمول به في المملكة، بالإضافة إلى التربية الدينية المدرسية والأسرية، فلا يزال الناس في هذا

(١) الوشمي، أحمد مساعد، حلي المرأة، مرجع سابق، ٧٧، ٧٨.

الإطار محافظين على قيم الحشمة والعفاف الذي يظهر في الزي الخارجي للمرأة، وإن حصل بعض الاختلاف في طريقة تفصيل العباءة التي تلبسها واختيار نوعها، وكذلك الحجاب الذي تغطي به رأسها ووجهها، كما يلاحظ استمرار في الحرص على اختلاف الرجال عن النساء في كل ما يتعلق بالزي والمظهر بشكل عام.

أما ما لحق به التغير في باب الزينة واللباس فهو ما يسوغ فيه التغيير، وهو كثير جداً سواء بالنسبة إلى لباس الرجال وزينتهم أو لباس النساء وحليهن، ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ:

- فيما يتعلق بملابس الرجال بدأت العمامة تختفي وتحل محلها الغترة والعقال اللذان أصبحا شعاراً للمواطن السعودي في كل أرجاء المملكة، وبخاصة أثناء أدائه العمل الرسمي أو في المناسبات العامة، وكذا حلت العباءة محل الجبة وغيرها في المناسبات والأعياد، وتركت الأحزمة لشد الوسط بالنسبة إلى الرجل.
- فيما يتعلق بأدوات الزينة بدأ الرجال يتخففون منها، ولم يبق إلا الخاتم لدى بعضهم، وكذلك السبحة.
- لم يعد حمل السلاح مظهراً يميز الرجال في الحضر أو القرى أو البادية، بل أصبح حمله نادراً ولابد من الحصول على ترخيص رسمي لمن يحمله، وقد بدأ الناس لا يرون ضرورة لحمل الأسلحة في ظل انتشار الأمن ولله الحمد.
- فيما يتعلق بملابس النساء فقد تعددت أنماطها وتغيرت أنواع الأقمشة وطريقة التفصيل، وأصبحت الملابس لا تخاط داخل المنزل، بل لدى المشاغل المتخصصة.
- بالنسبة إلى الحلي لم تعد تلك الأكوام من الذهب والفضة تزين صناديق النساء في البيوت، وبدأت الأذواق تتجه إلى التقليل مما تلبسه المرأة حتى في ليلة العرس، وأصبح التقييم للحلي والتفاخر بسعرها العالي وجمال نظمها يتلاشى، فحلت أطقم الألماس غالية الثمن خفيفة الوزن محل الرشرش في الصدر والأساور الكثيرة في اليدين والأقراط الكبيرة في الأذنين، ولم تعد تلبس النساء شيئاً من الحلي المخصصة للقدمين أو حتى فوق الرأس في غالب الأحيان. والشائع في هذه الآونة أن تلبس المرأة طقماً من الذهب أو الألماس يحتوي على عقد وسوار واحد وقرطين صغيرين وخاتم، وتختلف هذه الأطقم في قيمتها بناءً على ما تحتويه من اللؤلؤ والألماس وعلى طريقة شغلها ووزنها.
- بالنسبة إلى الحناء ومواد التجميل الأخرى فلم يبق منها إلا الحناء لدى بعض العائلات وبطريقة مخففة عما كان سائداً من قبل، إذ لم تعد تحنّى القدمان وكامل اليدين، بل اقتصرت التحنية على الأظافر مع بعض النقوش الخفيفة للكفين. أما بقية مواد الزينة والمشوط فقد حلت محلها مواد التجميل الحديثة من المكياج والأصباغ الكيميائية المختلفة والدهونات المتنوعة، وتتولى تزيينَ العروس بها ـ في الغالب ـ امرأةٌ متخصصةٌ تسمَّى (الكوافيرة) أو من يقوم مقامها مثل الأم أو الأخت.

الفصل الثالث

المِهن والحِرف

أولاً المهن والحرف في الحاضرة

ثانياً المهن والحرف في القرى والبادية

ثالثاً مظاهر الثبات والتغيُّر



المنتجات التقليدية في منطقة المدينة المنورة

ترتبط المهن والحرف التي يزاولها أفراد المجتمع بالطبيعة الجغرافية للمنطقة التي يعيشون فيها، كما ترتبط بالفترة التاريخية التي يحيون خلالها. ويتم تقسيم العمل المهني والحرفي بناءً على القيم التي يؤمن بها أفراد هذا المجتمع، وعلى العادات والأعراف السائدة بينهم التي توارثتها الأجيال عبر الزمان، مع حدوث تغيرات في كل هذا تبعاً للظروف الثقافية والاقتصادية والسياسية التي تخضع لها المنطقة التي يوجد بها هذا المجتمع أو ذاك.

ومنطقة المدينة المنورة ذات تميز خاص في هذا الجانب، إذ إنها تشمل أنماط الحياة الحضرية والريفية والبدوية جميعها، إذ يقع بعض بلدانها على ساحل البحر حيث الصيد والإبحار وما يتعلق بهما من الصناعات والحرف المساعدة و العادات والتقاليد، ومن بلدانها ما يقع في قلب الصحراء حيث الرعي والماشية وما تتطلبه الحياة الصحراوية من مهن وصناعات خاصة مثل الغزل والنسيج، ومنها ما هو ذو طابع ريفي زراعي يمارس البذر والسقي والحصاد، وتخزين الحبوب والتمور وتسويقها، وما يتبع ذلك من صناعات وحرف ريفية كثيرة.

تمثل المدينة المنورة قلب المنطقة ومركزها الحضاري والتجاري، تتلاقح فيها الثقافات، وتتنوع المهن وتتعدد الحرف بشكل لا يكاد يوجد في غيرها، إلا في مكة المكرمة حيث التشابه في الظروف الحضرية والتاريخية والدينية للمدينتين، وتعد الحرف والمهن في المدينة المنورة ذات طابع مميَّز، خصوصاً في الفترة الماضية قبل دخول عصر التنمية الشاملة بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية بوجه عام، فبالنظر إلى مجموع المهن والحرف التي مارسها السكان في المدينة المنورة في تلك الفترة يتبين لنا مدى التطور والسبق الحضاري لهذه المدينة مقارنة بغيرها من مناطق الجزيرة العربية، فقد وجدت مهن ومورست أعمال لم يعرفها الناس في بعض المناطق إلا مع دخول الصناعات

الحديثة وانتشار المنتجات المستوردة من الخارج، وفيما يأتي عرض لأهم أنماط المهن والحرف التقليدية، وطريقة ممارسة العمل اليومي للجنسين، وما يرتبط بذلك من عادات وتقاليد:

أولاً ـ المهن والحرف في الحاضرة:

تختلف منطقة المدينة المنورة ـ كما سبق ذكره ـ عن غيرها من المناطق فيما يتعلق بطبيعة المهن والحرف التي عمل بها سكانها، وعلى الأخص تلك المهن والحرف التي اشتغل بها الناس داخل المدينة المنورة نفسها؛ لتميز تلك المدينة المقدسة وعراقتها الحضارية والتاريخية، وأيضاً لطبيعة التركيبة السكانية التي شملت وافدين من المسلمين من أقطار شتى، يحملون خبرات متنوعة امتزجت مع خبرات السكان الأصليين لهذه المدينة، كما أن الطبيعة الدينية ووجود المسجد النبوي الشريف فيها جعل الاشتغال بالعلم الشرعي مهنة بارزة ومقدرة، يعمل بها عدد من أبناء هذه البلاد ومشايخها، ويضاف إلى ذلك أن مواسم قدوم الحجاج في أيام الحج والزائرين في شهر رمضان وغيره كانت سبباً لازدهار التجارة أيضاً وما يتعلق بها وبخدمة هؤلاء الوافدين، وتأجير المراكب والمساكن لهم... وما إلى ذلك من أمور تتعلق بتفرغ بعض السكان لأعمال ذات صلة بهؤلاء المسلمين الذين يفدون في هذه المواسم من كل عام، ومع ذلك فقد كان للزراعة(*) أيضاً نصيب من اهتمام المدنيين، فأصبحت البساتين والمزارع تحيط بالمدينة المنورة، وكانوا يعملون فيها بأنفسهم مستعينين ببعض الأُجراء من المواطنين في أحيان كثيرة.

وكان الجميع ـ رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً ـ يسهمون في كثير من الأعمال، كلٌّ حسب قدرته ووفق الدور الذي يحدد له، في ضوء القيم الشرعية والأعراف الاجتماعية، ويشمل الحديث عن المهن والحرف في حاضرة المدينة المنورة النقاط الآتية:

أ ـ تقسيم العمل اليومي داخل المنزل وخارجه:

بناءً على ما تقتضيه تعاليم الشريعة الإسلامية والأعراف العربية، فقد كان هناك تمايز واضح فيما يمكن أن يمارسه الرجل وما يمكن أن تمارسه المرأة من أعمال، وكذلك فقد كانت الأعمال التي يقوم بها الصغار تختلف ـ إلى حدٍّ ما ـ عن الأعمال التي يقوم بها الكبار ذكوراً كانوا أم إناثاً، وكان البرنامج اليومي لأفراد الأسرة يبدأ مبكراً جداً، إذ ينهض الجميع لأداء صلاة الفجر التي يصليها الرجال جماعة مصطحبين معهم أبناءهم الذكور، وكذا بعض النساء اللاتي يصلين في المسجد النبوي الشريف في الأمكنة الخاصة بهن.

أما الرجال فإنهم يذهبون إذا انتهوا من صلاة الفجر إلى الفوال أو بائع الهريسة [1] والزلابية فيبتاع أحدهم ما يشاء ابتياعه، ثم ينطلق مبكراً إلى سوق الخضار وخان اللحم[2] ويشتري منهما طلبه، مضافاً إليه الورد والنعناع والليمون، ثم يذهب بكل هذه الأشياء إلى أهله، فيفطر الجميع، ثم يذهب بعد ذلك إلى دكانه أو مبسطه مسترزقاً الله، وهي عادة مستمرة لدى التاجر وغيره من أصحاب الحِرف مثل القطان، والنجار، والحجار، وصانع الفخار، وبائع الخشب، وصانع أسرّة الجريد، وبائع

(١) الهريسة: من أنواع الطعام، وهو بر يمزج باللحم. وسوف يأتي وصفه لاحقا.

(٢) خان اللحم: سوق الجزارة اليوم.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب السابع، (الاقتصاد والثروات الطبيعية)؛ الفصل الأول.

السُّفَر وبُسُط الخصف... وغيرهم[1]، كما أنها عادة كثير من الموظفين والمدرسين ما عدا مدرسي المسجد النبوي الذين يبدأ كثير منهم بعد صلاة الصبح مباشرة الجلوس في حلقات التعليم قبل أن ينصرف إلى أهله ليتناول طعام الإفطار.

وأما الأبناء فيذهبون إلى الكتّاب، والكبير منهم قد يذهب مع والده ليساعده في متجره أو حرفته. وبعد وجود المدارس النظامية أصبح غالبية الأطفال يذهبون إليها في الصباح الباكر، ثم يعود الجميع بعد صلاة الظهر أو قبلها بقليل لتناول طعام الغداء وأخذ قسط من الراحة، يعقبه النهوض لصلاة العصر ومعاودة النشاط، إذ يذهب الأب إلى عمله مصطحباً معه بعض أولاده لمساعدته وأخذ الخبرة والاعتياد على أعمال الرجال، وأحياناً يصطحب الأولاد معهم بعض الكتب والكراسات للمطالعة وأداء الواجبات المدرسية على مرأى الوالد ومسمعه، وتحت إشرافه وتوجيهه إلى أن يغلق دكانه أو حانوته قبيل المغرب أو بعيده، ليعود الجميع إلى المنزل لتناول طعام العشاء وأداء الصلاة ثم النوم المبكر.

أما النساء فإن ربة البيت كانت تقوم بدور عظيم وتؤدي واجبات كثيرة يغلب أن تكون محصورة في المنزل وحوله، ما عدا بعض النساء اللاتي يصنعن بعض المنتجات المحلية في المنازل، وغالباً ما تكون تلك المنتجات من الثياب المطرزة بالحرير مما تنقشه أيديهن على المنسج من ثياب وقمصان وسراويل تخاط ثم تنقش بطريقة بديعة لافتة، ثم تسلم إلى البائعات اللواتي اتخذن من رصيف سبيل (فاطمة شجرة الدر) الشرقي أمام ساحة باب المصري مجلساً لبيع ما لديهن من بضاعة، وهن محجبات لا ترى من أخمرتهن المسدلة على وجوههن إلا حدق سواد أعينهن[2]. تعمل المرأة في بيتها بوصفها ربة منزل تؤدي واجباتها كاملة هو إلى جانب ما تقوم به من عمل للتكسب حسب ظروفها الاقتصادية والأسرية.

وربات البيوت غير العاملات يتحملن جميع ما يتطلبه العمل المنزلي من رعاية للزوج والأولاد وطبخ وغسيل وتنظيف وترتيب، بأدوات بدائية وطرق يدوية دون كلل أو ملل، إذ تقع على ربة البيت مسؤولية كبيرة، فإلى جانب رعايتها زوجها وعنايتها بتربية أبنائها تقوم بجهود جبارة خلال يوم حافل بالعمل منذ أن تصحو صباحاً، إذ تعدُّ طعام الإفطار، وتعجن عجين الخبز البيتي، وتصفف فُرُش النوم، وتجلب ماء الغسيل من بئر البيت، بالإضافة إلى غسل الدرج، وفَرْش الحُجُرات، وغسل الأواني والملابس، وبعد إعداد الطعام تقوم بتنظيف الأواني والقدور والصحون وأدوات الشاي من أباريق وأكواب ونحوها.

كما تقوم ـ بعد صلاة العصر ـ بتنظيف وسائل الإضاءة وإعدادها وتعبئتها، من فانوس ومسرجة ومشعل و(لمبة نمرة أربعة) و(لمبة تنك) وقمرية وغير ذلك، تنظف زجاجة هذا وتغير فتيل ذاك وتقوم بتعبئة آخر بالجاز وإسراجه. كما تقوم بحك (الشِّراب) المخصصة لشرب الماء وتنظيفها بقطعة من الفخار، وتبخيرها بالمستكة وتعبئتها بالماء من الزير الصغير. وتقوم كذلك بإعداد طعام العشاء وتنظيف الأواني، وإذا ما أرادت أن تنظف ملابسها وملابس زوجها وأولادها أحضرت طشت الغسيل، وسخنت الماء في قدر كبير أو في صفيحة تضعها على ثلاثة

(١) الخزرجي، عبدالله. المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٣.
(٢) المرجع السابق، ٣٦.

أحجار، وتشعل قطع الحطب، وتضع الملابس في الطشت وترش عليها قليلاً من الشنان، ثم تصب عليها الماء الساخن، وتقوم بتنظيفها بصابون رأس العنز أو صابون المنشار، وبعد تنظيفها تنشرها في السطح، ثم تكويها ـ بعد جفافها ـ بوساطة مكواة الفحم[١]. كما أن ربة البيت مسؤولة عن نظافة بيتها بوساطة أدوات التنظيف المتاحة، فالمكنسة من سعف النخيل، ومكنسة الحجر من السعف المجفف، ولها قبضة رأسية لإحكام التنظيف بها على فرش الحجر المفروش في مدخل البيت، ما يتطلب جهوداً وصحة.

وهي مسؤولة عن رش السطح بالماء لإخماد ثورة الغبار، وتهيئته للنوم إذا كان ذلك في فصل الصيف، وتبدأ مهمتها برش السطح عصراً، وبَسْط الحصير وعليه مراتب النوم القطنية، أما إذا كان النوم على أسرَّة القفص التي يصنعها القفاصون من جريد النخيل ـ وسوقهم يعرف بسوق القفاصة ـ فيُكتفى برش السطوح ووضع مراتب النوم (المحفوظة من أشعة الشمس) في الطيرمة[*] على هذه الأسرَّة، وإعادة المراتب في الصباح ووضعها مرتَّبة في الطيرمة. وتقوم ربة البيت بجلب الماء من البئر الموجودة في البيت، وذلك بوساطة دلو من الجلد مشدود عليه حبل معلق في بكرة يتدلى منه إلى البئر دلو ويطلع آخر، وهي تتكرر هذه العملية في اليوم كثيراً كلما احتاجت إلى ماء الغسيل والتنظيف والرش، وهي عملية تحتاج إلى جهد وصحة وعافية[٢]. كما تقوم ربة البيت ـ بالإضافة إلى ذلك ـ بأدوار اجتماعية مهمة خارج المنزل وداخله، تتفاوت ما بين زيارة الأقارب والجيران، ومواساة الضعيف والمحتاج، والمشاركة في المناسبات الاجتماعية من أفراح وأحزان، إذ تمثل أسرتها في حضور كثير من المناسبات وأداء الواجب كما هي العادات والقيم السائدة في المجتمع.

أما البنات فإنهن يمارسن من أدوار الأم شيئاً كثيراً حسب السن والقدرة، وهن في ذلك يتعلمن ويكتسبن الخبرة في الأعمال التي سوف توكل إليهن في الكبر، إذ تساعد البنت أمها في التنظيف وإعداد الطعام وتحضير السُّفرة وترتيب البيت، وتتسع مشاركتها في ذلك كله مع تقدمها في العمر، حتى إذا قاربت سن الزواج فإذا هي امرأة ناضجة وربة بيت قادرة على أداء دورها بجدارة، بما جمعته من خبرات أمها ونصائحها، فالأم تحرص على تعليمها وتدريبها في هذا الشأن أكثر من حرصها على تعلمها المعارف والفنون النظرية التي لا تؤمن الأم بأهمية الأخذ بها، ما عدا تعلم القرآن الكريم والعلوم الضرورية المتعلقة به.

ب ـ أنواع المهن والحرف عند الحضر:

بإلقاء نظرة سريعة على ما مارسه المدنيون من المهن والحرف يكاد يصدق القول إنهم مارسوا كل المهن والحرف التي عرفت في زمانهم؛ وذلك للأسباب المتعلقة بطبيعة المدينة المنورة ومكانتها، ولذا فلن يتسع المجال لبسط القول في كل مهنة أو حرفة عرفت فيها، بل سوف نشير إشارات بسيطة إليها، مع شيء من التركيز على المهن والحرف التي لم تعرف في غيرها في ذلك الزمان (عصر ما قبل التنمية)؛ فقد كان هناك التجار الذين يمارسون بيع مختلف البضائع والسلع وشراءها، سواء منها ما كان

(١) الأنصاري، ناجي. التعتيمة، مرجع سابق، ٢٧.

(٢) المرجع السابق، ٢٩.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الفصل الأول عن المساكن.

محلي الصنع أم ما كان مستورداً من خارج البلاد، وكان الاستيراد يتم - غالباً - من الهند ومصر والشام وتركيا، بالإضافة إلى ما يقدِم به الحجاج من بقاع مختلفة مثل جنوب شرق آسيا وإفريقية وغيرها، ويبيعونه في المدينة المنورة لمن يتولى تسويقه.

كما كان هناك العلماء والمعلمون الذين يغلب أن تكون حِلقهم للتعليم داخل أروقة المسجد النبوي الشريف، إذ تتنوع العلوم التي يدرسونها بدءاً بالقرآن الكريم ثم العقيدة والفقه والفرائض والتفسير وصولاً إلى علوم اللغة والأدب والحساب وغيرها...، ويوجد من تخصص في تعليم الأطفال مبادئ القراءة والكتابة على الطريقة البغدادية فيما يسمى بـ(الكتّاب). وكذلك كان المزارعون وأهل البساتين المحيطة بالمدينة المنورة يشتغلون بالزراعة وتسويق منتجاتها في كثير من الأحيان.

أما بقية المهن والحرف التقليدية التي اشتهر بها أهل المدينة المنورة فهي كثيرة جداً، كما اشتهروا بطريقتهم في تنظيمها وأسلوب الانتماء إلى كل منها واختيار رؤسائها، وقد تنوعت بين مهن التصنيع والتسويق والخدمات وحتى التطبيب والمعالجة، وذلك ضمن ما اصطلح الناس على تسميته بـ(الطوائف الحرفية) كما سيأتي في الفقرة اللاحقة.

ج - نظام طوائف الحرف:(*)

يقصد بالطائفة: المجموعة من الناس، وطائفة الحرفة: مجموعة المشتغلين بها، إذ إن لكل حرفة مجموعة من الناس تخصصوا في العمل بها، فيقال: طائفة النجارين وطائفة البنائين وطائفة الحدادين وطائفة العطارين... وهكذا. ولم يكن بالمدينة المنورة أي طائفة (حرفة) إلا ولها مشيخة نظام يحكمها تسير بموجبه في جميع أمورها، فلها شيخ يُختار من الطائفة نفسها إما لكبر سنه أو لأقدميته، ولكل طائفة مجلس يعقد إما دورياً كل فترة يتم تحديدها والاتفاق عليها، أو عند الحاجة التي يقررها شيخ الطائفة، وله نائب ينوب عنه أثناء غيابه أو مرضه، ولكل طائفة نقيب يتولى إبلاغ أوامر الشيخ أو نائبه لجميع معلمي الحرفة، كما يقوم بالمراقبة ومتابعة تنفيذ أوامر الشيخ وإبلاغه بكل ما يستجد، ولا يمكن لأي شخص أن يحترف أي حرفة إلا بعد مراجعة شيخ الطائفة، وإثبات خبرته فيها، ويمكن عقد مجلس من كبار المعلمين في الطائفة لاختباره، فإذا ثبتت صلاحيته ومقدرته أصبح معلماً في الطائفة، وإلا كُلِّف بالعمل لدى أيٍّ من المعلمين فيها لفترة معينة حتى يصبح ملماً بكل شؤون الحرفة، وعند ذلك يُعلَن لجميع أفراد الطائفة أن فلاناً أصبح معلماً في الطائفة ووجب عليه عمل وليمة لجميع أفراد الطائفة، ويسمح له بفتح محل يمارس فيه مهنته إن كانت تلك المهنة ما يستدعي ذلك. وفيما يأتي سرد لبعض تلك الطوائف الحرفية التي اشتهرت في المدينة المنورة:

١ - طائفة البنّائين:

هم الذين يقومون بالبناء الحجري أو الطيني أو بوساطة الطوب بطرقهم الفنية المستعملة في ذلك الزمن، كما يقومون بوضع بعض الأخشاب من الأثل أو السمر أو غيرها داخل الجدران ليتم التماسك بين أجزاء البناء، ويقومون كذلك بتسقيف الغرف

(*) للمزيد انظر: الخياري، ياسين. صور من الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة. ط٢، مرجع سابق، ٢٣١ وما بعدها.



مهنة الحدادة

وغيرها بأعمدة الأثل أو جذوع النخل بعد تلوينها ورصفها على أسقف الغرف، ومن ثم يتم وضع الجريد (جريد النخل) بطرق معينة بين أعمدة السقف، ثم يغطى بالخصف أو الحصير المصنوع من خوص النخل أو غيره، وبعض البنائين يقومون بتلوينه قبل وضعه ليضفي جمالاً على منظر السقف، ثم يوضع عليه الطين ويتم تسويته على سقف الغرفة.

وطائفة البنائين من أكثر الطوائف تنظيماً، ولها عادات وتقاليد مهمة تتعلق بطريقة الانضمام إليها والترقي في رتبها من عامل إلى مساعد معلم إلى معلم إلى أستاذ وغير ذلك مما سبق شرحه في الفصل الأول الخاص بالمساكن.

٢ ـ طائفة الحدّادين:

هذه الطائفة من الطوائف التي كانت لها أهمية في حياة المدن والناس، ولا يستغني عن مصنوعاتهم أي إنسان، وكثير من أصحاب الطوائف الأخرى؛ لأن الحداد يقوم بصنع كثير من الأدوات الأساسية والمعدات الرئيسة التي يستعملونها؛ فنجد مثلاً أن العائلات في المنازل تحتاج إلى بابور الفحم، والمنقل، والملقاط، ومحمصة البن، والسكاكين، والمرقع لحمل (الشِّراب) الفخارية، وحمالة الأزيار الفخارية... وغيرها من مستلزمات المنزل، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أصحاب الحرف الأخرى مثل:

- **السمكري**: فهو يحتاج إلى المقص، والملقاط، والمطرقة، والمبرد.. وغير ذلك.
- **الخراز**: فهو يحتاج إلى المقص، والمدكة التي يدك بها الخرز، والمخراز.. وغير ذلك.
- **النجار**: فهو يحتاج إلى المثاقب، والمطارق، والمكدات، والكساتير، والمسامير بمختلف أنواعها.. وغير ذلك.
- **القفاص**: فهو يحتاج إلى المثقب لثقب الجريد، والمنجل لتنظيف الجريد.. وغير ذلك.



مهنة النجارة

- **الحجار**: فهو يحتاج إلى المطارق مختلفة الأحجام والمقاطع، والقداديم المستطيلة.. وغير ذلك.
- **البناء**: فهو يحتاج إلى المساحي، والفواريع، والمسطرين، وموازين البناء، وغير ذلك.
- **النحاس**: فهو يحتاج إلى المقصات، والمطارق، والملاقيط بمختلف أنواعها وأحجامها، والسندان الذي يطرق عليه... وغيرها.

وغيرهم كثير ممن يحتاجون إلى الحداد لعمل أدواتهم التي ليس لهم غنىً عنها؛ وذلك لعدم وجودها في الأسواق في ذلك الزمن.

٣ ـ طائفة بائعي الأخشاب:

هم الذين كانوا في السابق (قبل استيراد الأخشاب) يشترون أخشاب الأثل من المزارعين الذين كانوا يعتنون بزراعته وتقليمه، وكذا جريد النخل الذي يبيعون منه جزءاً للقفاصة، والجزء الباقي يربط ربطاً جيداً ليصبح مستقيماً ويبيعونه لأصحاب المنازل أو النجارين أو البنائين، وذلك لوضعه في سقوف الغرف، وبعضهم يقوم بتلوينه حسب الرغبة، ويرص بين أخشاب السقف ليضفي عليها جمالاً بألوانه.

٤ ـ طائفة النجّارين:

هذه الطائفة من الطوائف الرئيسة التي يحتاج إليها كثير من الطوائف الأخرى، إذ إن أغلب الأدوات التي يستخدمها أصحاب الحرف الأخرى تعتمد ـ بصورة أو بأخرى ـ على أجزاء خشبية يصنعها النجار؛ فالحداد ـ مثلاً ـ يذهب بأدواته إلى النجار لعمل (أيادٍ) ونُصُب لها ليمكن الاستفادة منها، ومن هذه المهن التي تحتاج إلى النجار على سبيل الذكر : السماكرة، الكندرجية،

القطانة، الحجارة، البناؤون، النوارة.. وغيرهم. ويقوم النجارون بعمل النوافذ والرواشين المزخرفة للبيوت، والشيش للأبواب والنوافذ والمناور، كما يقومون بعمل الأبواب، وحواجز (البلكونات) المطلة على الشوارع أو المطلة على داخل المنازل، وعمل الأجلية (الأغطية) المتحركة على المناور الداخلية المطلة من الأسطح على وسط قاع البيت، وكذا يعملون الخزائن الخشبية والطربيزات (الطاولات) بمختلف أحجامها وأنواعها، وكذا سَحّارات (صناديق) الملابس، وبعض الأبواب المزخرفة بالحَفر، كما يعملون أبواب الدكاكين والمستودعات وأرفف البضائع وكل ما يتعلق بذلك من المصنوعات الخشبية.

٥ ـ طائفة أصحاب (الكوش) ومصانع النورة والطوب الأحمر (الآجر):

النورة من المواد الرئيسة التي كان النوار والمليس يعتمدان عليها في جميع أعمالهما، ولما لم تكن مادة النورة تستورد من الخارج كان لابد من وجود مصانع لإنتاجها بالمدينة المنورة حيث توجد المادة الرئيسة لها، فأنشئت مصانع النورة والآجر، وكانت هذه المصانع تزود النوارة باحتياجاتهم من النورة، كما تزود البنائين بالطوب المحروق، وقد كان من عادة أهل المدينة المنورة أن يطلُوا دورهم بالنورة كل عام قبل شهر رمضان وعيد الفطر المبارك، لذلك كان هناك طلب كبير للنورة في مواسمها، وكانت توصل إلى المنازل محملة على الحمير، ومعروف لدى الجميع المثل القائل (زي حمار النورة) يعني: شديد التحمل قليل الوعي.

٦ ـ طائفة النوّارة:

هم الذين يقومون بالتليس والتبييض بالنورة أو مشتقاتها وعمل الطباطيب (أي بلاط الأرض) للغرف والأمكنة التي تستخدم فيها المياه مثل المطابخ والحمامات. ونظراً إلى قلة الأسمنت أو عدم وجوده فقد كان النوار يستخدم النورة المضروبة أي أنه يخمر النورة منذ الليل إذ تعمل النورة في شكل حوض دائري منخفض من الوسط ويملأ بالماء إلى اليوم الثاني، ومن ثم يحضر عمال ومعهم أعمدة من أخشاب قوية ملساء فيجلسون على ركبهم ويقومون بضرب هذه العجينة من النورة، وكلما امتدت قاموا بجمعها وإعادة الضرب عليها، ثم تُحمل على أجزاء إلى المعلم الذي يكون قد استعد لاستقبالها وتوزيعها على الأمكنة المخصصة لتسويتها، فيقوم بفردها بـ(المسطرين) وتسويتها ومن ثم تركها فترة قصيرة للتهوية ثم إعادة تنعيمها بالمسطرين، وبذلك تصبح مثل البلاطة لا يتسرب منها الماء، وهذه الطريقة تعمل في المطابخ والحمامات والمراوش ومجاري المياه.

٧ ـ طائفة الدهانة:

ويقوم الدهانون بأعمال الدهان للأبواب والنوافذ وغيرها، وذلك بعد تأسيسها بدهنها بالزيت مثلاً وتركها حتى تجف ومن ثم تدهن بالدهان واللون المطلوب، ثم اتسعت عملية الدهان لتشمل الغرف والمجالس والممرات والدرج والأجلية والغول (الجزء المصنوع من الشيش والمركب خارج النافذة). أما الآن فقد أصبحت الدهانات أساساً لجميع الأبنية من الداخل والخارج إذا لم تكن مكسوّة بالرخام من الخارج، وكذا يتم تجديدها كلما لزم الأمر

ذلك، وتنوعت أصناف (البويات) ومشتقاتها، كما ظهرت الأعمال الجبسية بمختلف أنواعها وزخارفها التي تحلى بها أسقف الغرف و(الصالونات) وغيرها.

٨ ـ طائفة الحجّارين:

هم الذين يقطعون الحجارة من الجبال القريبة من المدينة المنورة ويقومون بتعديلها وتسويتها وإعدادها للبناء، ومنهم من يقوم بنقشها وزخرفتها لبناء المنازل للعائلات الميسورة. كما يقوم بعضهم بتهذيب الحجارة الضخمة وعمل المهراس الحجري وهو (هاون) مصنوع من الحجر يهرس به بعض الأشياء الخاصة بالطبخ أو المعالجة، كما تدق فيه الأشياء الصعبة التي لا يمكن أن توضع في الهوند فيتم دقها بالمهراس، ويده الضخمة مصنوعة من الحجر أيضاً. كما يقوم الحجَّارون باختيار حجارة ضخمة ليصنع منها حوض السبيل، فهي تعدل حتى تصبح مستوية ثم يتولى نحتها من الداخل بطرق معينة حتى تصبح مثل الحوض ثم تثبت في المكان المعين ليقام فيه السبيل، ويكون محصوراً إلا من مجاري الهواء، ويعمل على واجهته شبك من الحديد كي لا يعبث به الأطفال ثم يملأ بالماء ليشرب منه كل من يريد. كما يقوم الحجَّارون باختيار بعض الحجارة ليعدوا منها (الرحى) وهي المطحنة اليدوية التي لم يكن يخلو منها منزل بالمدينة المنورة لكي تطحن بها أنواع الحبوب جميعها، وهذه الحجارة تنقل من سفوح الجبال إلى داخل البلدة على عربات تجرها الحمير أو الخيل. ولا شك أن طبيعة عمل الحجارين تستدعي أن يكونوا رجالاً أشداء يتصفون بالقوة والصلابة.



الهاون الحجري

٩ ـ طائفة أصحاب المخارط (مخارط الحديد):

مهنة العمل على مخارط الحديد تحتاج إلى خبرة ودراية تامة؛ لأنها من المهن الخطرة على من لا يعرفها. ولما كان بعض القطع المصنوعة من الحديد والزهر غير موجودة أصلاً في الأسواق، وللحاجة إلى قطع مماثلة لها، فقد لجأ بعض الرجالات القدامى ذوي الخبرة والدراية بهذه الأمور إلى تصنيع قطع مشابهة للقطع التالفة وخرطها على المخارط لتصبح مثل القطع الأصلية وتركب وتعمل مثلها، لذا فقد أوجدوا المخارط وتمكنوا من العمل عليها بكل سهولة ويسر.

١٠ ـ طائفة الصفْرجية (سبك الصفر والزهر):

ويقومون بأعمال سبك الصفر (النحاس الأصفر) والزهر، ويصنعون كثيراً من الأواني

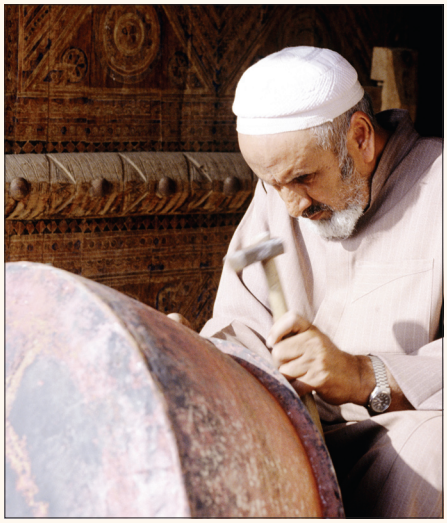

مهنة النحاسة



منتجات السمكري

المنزلية مثل الهاون (الهوند) ويده، والمكاوي التي تعمل بالفحم، وكثير من الأدوات والقطع غير الموجودة، فهم يصنعون لها قوالب ويسبكونها حسب الحاجة، ومن ثم يتولى أصحاب المخارط تنعيمها وجعلها صالحة للاستخدام، وهم يصنعون كذلك الأختام الكبيرة والصغيرة لبيعها بالجملة للمهرجية، وغير ذلك مما يطلب منهم.

١١ ـ طائفة النحّاسين:

ويقومون بتصنيع جميع الأواني النحاسية مثل القدور بمختلف أحجامها وأنواعها، والتباسي، والصواني، والطشوت، والدلال، والمباخر، وجرار الفول، والسماورات، إذ كانت أواني المطابخ والطعام في جميع البيوت من النحاس، لذا كان من الواجب تبييضها وتلميعها بين آونة وأخرى، ثم كثرت الأواني المصنوعة من التوتياء فحلت محل الأواني النحاسية. أما الآن فقد أصبح طلب الأواني النحاسية والتوتيائية نادراً لكثرة الأواني المشابهة لها من اللدائن والكروم، فهي أخف وأرخص، ولم يبق من الأواني النحاسية والتوتيائية إلا النزر اليسير مثل جرار الفول والدلال وبعض أنواع القدور والصواني.

١٢ ـ طائفة السماكرة:

يقومون بتصنيع الصفيح، ويعملون منه الأباريق، والمحاقين والمكاييل القديمة، والفوانيس، والمزاريب لتصريف مياه الأمطار من أسطح المنازل، والسماورات، والمسارج، والمغاريف بمختلف أحجامها... وغير ذلك من المستلزمات، إضافة إلى إصلاح التالف منها. وهذه المهنة تكاد تنعدم في الوقت الحاضر؛ نظراً إلى استيراد جميع المستلزمات التي كان يصنّعها السمكري ومن ثم تصنيعها.

١٣ ـ طائفة الفخارجية (مصانع الفاخورة):

يصنع الفخارجية جميع الأواني الفخارية مثل: الأزيار بمختلف أحجامها، وكذا الجحال،

والـــدوارق، والأحـواض الـتي توضـع تحت (الشِّراب) والأزيار الصغيرة التي ترص على المرافع المصنوعة من الحديد أو الخشب، ويوضـع فـي هـذه الأحـواض الليمون ويعلق النعناع والورد أسفل المرفع بعد لفه بقطعة من القماش، كما تصنع مراكن الزرع بمختلف أنواعها، وكذا أشجار الزينة، ويصنعون كذلك المجامر والكوانين، وأغطية الشراب، وكذا (زلاع) تخزين التمر.. وغير ذلـك، وقد قلَّ في الوقت الحاضر طلب هذه المهنة وندر من يحترفها اليوم.

١٤ ـ طائفة صانعي الحُصُر:

كانت الاستفادة كبيرة من سعف جريد النخل وهـو مـا يُسَمّى (الـخـوص)، وكانت تقوم عليه صناعات هي في الغالب صناعات منزلية تتولاها نساء المزارعين في أوقات فراغهن مستفيدات من منتجات الحقل، كما كان يقوم بتصنيعها أيضاً بعض النساء في البيوت داخل المدينة المنورة، وكذلك بعض الرجال، وهي تشمل الحصير الذي كان بمثابة البساط ويفرش تحت المفارش، وكانت تسقف بـه المـنـازل ليحول دون سقوط الطين من الأسقف، كما تشمل الزنابيل (القفف) على اختلاف أنواعها وأحجامها وهي قفة الحمال، وقفة المقاضي، وقفف الأطفـال من تلاميذ المـدارس، وقفف بعض الفواكه مثل العنب والرطب.

كما كـان تصنع المكانس مـن السعف، ومنها ما يسمى مكانس الحجر وهي ما يغسل بها الدرج والممرات الحجرية، ومنها ما يسمى مكانس الفراش وهي المكانس العادية، ويصنع من السعف أيضاً مفتات الطعام وهو حصير



الفخارجية



صانع الحصر

دائـري يستخدم مفرشاً يوضع عليه طعام الوجبة العادية، وقد حَلَّ محله اليوم المفارش البلاستيكية... إلـى غير ذلـك مـن الأدوات الحصيرية. وكـان يطلق على الحصير كله (الخصف).

١٥ ـ طائفة القفاصة:

وهم يصنعون الأقفاص للدواجن، والأسرّة للأطفال بحواجز تمنع سقوطهم، وكذا أسرّة للكبار، وجميعها تصنع مـن جريد النخل



نموذج من الأقفاص

الأخضر بعد نزع الخوص منه، ثم يقطع حسب المقاسات المطلوبة، ثم يثقب بأدوات مخصوصة يعدها الحداد حسب الحاجة، ومن ثم يركب بعضها مع بعض حتى تكتمل وتصبح جاهزة للاستعمال، وفي أغلب الأحيان يتم تصنيع الأقفاص والأسرَّة وغيرها حسب الطلب.

وكما هو معروف فإن أهل المدينة المنورة كانوا ينامون في الصيف على أسطح المنازل، لذا فقد كانت الأسرَّة المصنوعة من الجريد مهمة في ذلك الوقت إذ تكون مرتفعة عن الأرض، ولكي يكون الفراش محفوظاً من الغبار.

وقد أصبحت هذه المهنة قليلة الوجود بل شبه منعدمة في المدينة المنورة، إذ إن الأسرَّة المستوردة حلت محل الأسرَّة السابقة والأقفاص، كما أن الأسرَّة المعدنية حلت محل الأقفاص السابقة.

١٦ ـ طائفة الكندرجية:

يصنعون الأحذية العادية والأحذية (أم رقبة؛ اللابشين) وغير ذلك من جلود الإبل والأبقار، ويحصلون عليها من الدباغين أو من الجلود المستوردة، إضافة إلى إصلاح الأحذية المستعملة من تركيب كعوب لها أو خياطتها أو وضع تلبيسة داخلية لها أو صبغها بـ(البوية) حسب اللون.

علماً بأن جميع الأدوات التي يستعملها الكندرجي يصنعها له الحداد حسب الطلب، كما أن الكندرجي يقوم بالخياطة يدوياً لعدم وجود ماكينات خياطة إلا نادراً، فكثير من أصحاب المهنة لا يستطيعون شراء ماكينة لارتفاع أسعارها أو عدم وجودها، وكان المنتج المحلي الفردي من النوع الجيد الذي يدوم سنوات.

١٧ ـ طائفة الخرازين:

ويصنعون المداعس والأحزمة و(الكمرات)، وبعض أنواع الحقائب التي يحملها الحجاج على أكتافهم لوضع نقودهم والأوراق المهمة فيها، وجميعها تصنع من جلود الأبقار أو الجمال أو الأغنام، ويحصلون عليها من الدبَّاغة ويقومون بخرزها وتزيينها بسيور من الجلود ذات الألوان الزاهية، وتظهر فيها براعة المعلم صاحب الحرفة. ولم يطرأ



مهنة الكندرجية

عليها أي تغير على هذه الطائفة إلا من حيث التصنيع؛ فجميع المصنوعات مستوردة من عدد من المدن داخل المملكة أو خارجها، ولم يبق لصاحب الحرفة إلا إصلاح التالف منها ماعدا بعض المعلمين المحتفظين بأعمالهم وبراعتهم، ولهم عملاء مخصوصون يقدِّرون جودة عملهم خصوصاً بالنسبة إلى المداعس. أما الأحزمة و(الكمرات) والحقائب، فقد أصبح لها معلمون مخصوصون يقومون بصنعها وخياطتها على الماكينات الخاصة بهم التي أصبحت متوافرة لدى الجميع.

١٨ ـ طائفة مجلدي الكتب:

يقومون بتجليد الكتب والسجلات الحكومية ذات الأهمية مثل سجلات المحاكم والدوائر الشرعية الأخرى المحتوية على الوثائق الشرعية المختلفة... وغير ذلك من الأوراق أو الكتب ذات الأهمية. ونظراً إلى عدم وجود الخامات والأدوات الحديثة في التجليد، فقد كان التجليد بدائياً، إذ يستخدم فيه الكرتون والجلد والقماش بعد القيام بخياطة الورق بالخيط والإبرة ومن ثم تغطيته بالكرتون وتلبيسه بالقماش ووضعه تحت قطع من الرخام أو وضعه في الملازم الخشبية. أما الصمغ المستعمل فهو الدقيق المصنوع بطريقة خاصة لا يعرفها إلا ذوو الخبرة.

١٩ ـ طائفة القطّانة:

ويقومون بعمل الفُرُش العربية من طراريح ومساند وسكامج (مراكي؛ وهي الأرائك) من القطن أو الطرف حسب الرغبة، ومن ثم تلبيسها بالقماش المرغوب والمختار من قِبل العميل، وكذلك عمل اللحف من القطن



مهنة تجليد الكتب



مهنة القطانة

وتزيينها بأشكال هندسية وزخارف منوعة حسب رغبة العميل، كما يقومون بإصلاح التالف من أنواع الفُرُش أو تغيير تلبيسها... وغير ذلك من الأعمال.

٢٠ ـ طائفة الخياطين:

يقومون بحياكة الثياب الرجالية وكل ما يتعلق بها، كما يقومون بإصلاح بعض الثياب القديمة، ويزداد العمل عندهم في مواسم



مهنة الخياطة


أدوات صانع العقل

الأعياد؛ إذ إن جميع الرجال يقومون بإعداد ثياب العيد وكل ما يلزم لها.

٢١ ـ طائفة المطرزين:

يقومون بتطريز الأقمشة أغطية نعوش الأموات والستائر وغيرها؛ وذلك لعدم توافرها في المنطقة، ويكون التطريز بالحرير الملون، كما يقوم بعضهم بأعمال التطريز بالقصب الأبيض أو الأصفر حسب الطلب، وهذه المهنة لم يبق لها وجود إلا نادراً؛ فجميع المصنوعات التي كانوا يصنعونها أصبحت تستورد من الخارج وبأقل تكلفة.

٢٢ ـ طائفة العُقُلجية:

ويصنعون العُقُل السوداء والمقصبة والمحلاة بالفصوص التي تتدلى منها كتل جميلة، إذ إن العقال المقصب لا يلبسه إلا أشخاص مخصوصون، كما يقتني الحجاج هذه العُقُل، ويلبسها الأطفال في الأعياد. أما العُقُل السوداء فهي لبس أغلب الرجال ـ وبخاصة الموظفون منهم ـ وقد ازداد الطلب عليها الآن أكثر من ذي قبل.

٢٣ ـ طائفة بائعي السُّبَح والأحجار الكريمة:

لابد لزائر المدينة المنورة أو مكة المكرمة قبل عودته إلى بلاده من شراء بعض الهدايا التذكارية من هاتين المدينتين المقدستين مثل السُّبَح والأحجار الكريمة وغيرها؛ لذا فإن هاتين المدينتين يكثر فيهما بائعو هذه الهدايا بمختلف أنواعها وأحجامها وعلى الزائر اختيار ما يريد منها، وقد كان تجار السُّبَح والأحجار الكريمة حريصين على توفير الأنواع الجيدة غالية الثمن إلى جانب الأنواع الرخيصة، وأفضل السُّبَح التي كانت تباع في الأسواق هي: (اليسر)، (الكوك)، (بن زهير)، (الصدف)، (العنبر)، (الصندل)، (الكهرمان)... وغيرها، وأفضل أنواع الأحجار الكريمة الألماس والياقوت الأحمر (الروبي) والمرجان، والعقيق والفيروز والمحلب والزمرد.. وغير ذلك.



بائع السبح



العربجية

٢٤ ـ طائفة الحمَّالة (الشيالين):

يقومون بتحميل أو تنزيل البضائع الواردة إلى التجار، أو نقلها من مستودعات التجار إلى منازل المواطنين أو أصحاب الحرف بجميع أنواعها، وذلك على العربات أو السيارات ـ مؤخراً ـ أو على ظهورهم في حال المسافات القصيرة.

وكذا يقومون بنقل موجودات المنازل من منزل إلى منزل في حال الانتقال، كما يقومون بنقل جهاز العروس من منزلها إلى منزل العريس، وذلك بأن يُطلب من شيخ الطائفة إحضار العدد الكافي من أفراد الطائفة إلى دار العروس، ثم يقوم الشيخ بوضع المصحف الشريف على رأسه ويتقدم، فيتبعه جميع الأفراد كلٌّ منهم يحمل جزءاً من الجهاز، ويسيرون على أقدامهم من منزل العروس إلى منزل العريس، ويردد الشيخ الذي يقود المجموعة العبارة الآتية:(عاشق جمال النبي يصلي عليه) ويرد عليه الجميع: (صلى الله عليه وسلم) وهكذا حتى يصلوا إلى منزل العريس، فيتقدم والد العريس أو من ينوب عنه لاستقبالهم وإتاحة الفرصة لهم حتى يضعوا الجهاز الوارد معهم في أمكنة محددة، ثم توزع على الجميع العصائر في الصيف أو الحليب في الشتاء، ثم ينصرفون بعد أخذ أجورهم التي يحددها الشيخ وهي أجور رمزية. كما أن هناك من أفراد الطائفة الأقوياء متخصصين في نقل الخزائن الحديدية وغيرها من الأشياء الثقيلة.

٢٥ ـ طائفة العربجية (أصحاب العربات):

ويقومون بنقل المواطنين من جهة إلى جهة وبخاصةٍ كبار السن أو المرضى؛ وذلك لعدم وجود سيارات للقيام بهذه المهمة، كما يقومون بنقل المواطنين أو الزوار إلى بعض الأمكنة التاريخية للزيارة وبخاصة أيام الموسم، وكذا نقلهم إلى البساتين أو إلى أي ناحية يرغبونها وذلك في عربات مخصصة للركوب تجرها الخيول أو البغال. أما العربات

المخصصة لنقل الأغراض من جهة إلى جهة أو من مستودع إلى مستودع أو إنزال الخضار أو الفاكهة من البساتين إلى سوق الخضار والفاكهة فتجرها الحمير في الغالب.

٢٦ ـ طائفة القهوجية:

يقومون بإعداد القهوة التركية والعربية والشاي وجميع احتياجاتها من أباريق الشاي بمختلف أحجامها (أبوأربعة) و(أبوستة) و(أبوثمانية) و(أبو اثني عشر) وغير ذلك من المقاسات، وكذلك أواني القهوة التركية (القهوة بالسكر) ولها فناجين خاصة، كما أنهم يقومون بإعداد الكراسي الشريط أو الكراسي العادية والطربيزات (الطاولات) وذلك لاستقبال الزبائن.

ويقوم القهوجية كذلك بإعداد فُرُش للنوم لمن يريد النوم بالمقهى وهي طراحة وسادة وغطاء، كما يجب على القهوجي تأمين عدد لا بأس به من أباريق الماء وذلك لغرض الوضوء أو قضاء الحاجة.

٢٧ ـ طائفة السقائين:

يقومون بنقل الماء من العيون والحنفيات إلى المنازل بوساطة قِرَب أو (تنك) يسمونها (الزفة) وهي صفيحتان تُربط كل واحدة بسلسلة ويصل بين السلسلتين حامل خشبي، وتحمل على الكتف.

وقد كانت مناهل العين الزرقاء هي المصدر الرئيس للشرب في المدينة المنورة مع قليل من الآبار العذبة التي كانت موجودة في بعض نواحيها، إذ إن في كل بيت بئراً يُستخرج منها الماء المالح للغسيل والاستحمام وغير ذلك، وأما بالنسبة إلى الشرب والطبخ فإن



السقا

الساكن يحتاج إلى الماء العذب، ومن أجل ذلك يتم الاتفاق مع أحد السقائين لإحضار حاجة كل بيت من الماء العذب يومياً على أن يتمّ دفع ثمنه في نهاية كل أسبوع أو كل شهر حسب الاتفاق.

كما أن لكل فرع من فروع العين شيخاً ونائب شيخ ونقيباً، إذ إن ذلك هو النظام المتّبع لدى جميع الطوائف، ويتم عن طريق الشيخ أو نائبه توزيع صنابير الماء على السقائين فيكون لكل مجموعة صنبور معين يملؤون منه إذ ينادي (السقَّا) عند عودته على اسم الصنبور فيُحجز له دور، فمثلاً تراه منذ وصوله من مشواره إلى أعلى درجات العين وهو ينادي (غرباً) أي الصنبور الغربي، أو (وسط) أي الصنبور الأوسط، أو (زاويا) أي الصنبور الذي في الزاوية، وهي اصطلاحات يتمُّ التعامل بها فيما بينهم.

كما يتم توزيع أدوار غسل سلالم العين يومياً في المساء لكي تكون نظيفة صباحاً. ولا تستعمل العين في الليل إلا عند الضرورة مثل

حدوث حريق إذ يتسابق السقاؤون على نقل الماء لإطفائه مجاناً، وغير ذلك من الأمور الطارئة التي قد تحدث في أي وقت، فيبادر السقاؤون بالمشاركة لإنهاء ذلك الحدث على أحسن وجه.

٢٨ ـ طائفة السرّاجين:

وهم الذين يُعدُّون الفوانيس أو الأتاريك أو كليهما معاً، وذلك بتنظيفها وملئها بالجاز وتهيئتها للعمل، ومن ثم إسراجها وحملها على الأكتاف وتوزيعها على الأمكنة المخصصة لها في الأزقة والأحواش والسقائف (مداخل الأحواش المغطاة) داخل المدينة المنورة، وذلك لإضاءتها ومن ثم متابعتها بين الحين والآخر حتى طلوع الفجر، ومن ثم تجميعها وإعادتها إلى أمكنتها لإعدادها لليوم التالي.


أصحاب الطواحين

وهذه المهمة هي إحدى مسؤوليات قسم الإنارة بالبلدية التي تعلن ـ عندما يتطلب الأمر ـ عن حاجتها إلى من يقوم بهذه المهمة، وذلك بعد تقسيم مناطق المدينة المنورة إلى أقسام، فيتولى كل مقاول أو متعهد بهذه المهمة المنطقة التي يريدها، فيتقدم كل من لديه القدرة والاستعداد للقيام بمهامها ويحدد القسم المراد القيام بإضاءته، وعند تثبيت المهمة يعلَن عنها ويبلغ صاحبها بها، ويتولَّى القسم المختص بالبلدية مسؤولية المراقبة والمتابعة. وقد انتهت حالياً هذه المهمة بعد أن عمّت الإضاءة الكهربائية جميع الشوارع والأحواش والأزقة داخل المدينة المنورة وخارجها.

٢٩ ـ طائفة أصحاب طواحين الحبوب:

لقد كان الدقيق من المواد الغذائية الرئيسة في حياة الناس، فلا يكاد يوجد منزل إلا ويحتاج إلى الدقيق في صنع كثير من احتياجاته، وأهمها الخبز الذي كان يعد في المنزل ويقرص من الصباح ثم يخمر ويهيأ للخَبز بعد الظهر عند عودة أولاد الأسرة من المدارس أو العمل الحرفي، إذ يكلف أحدهم بأخذ العجين إلى الفرن ليخبز ثم إعادته إلى المنزل.

ولعدم وجود دقيق في الأسواق ـ إلا نادراً ـ فقد كان لابد من شراء الحبوب والذهاب بها إلى المطاحن لطحنها، لذا فقد كانت توجد طواحين للحبوب الغذائية، وأشهر هذه الطواحين طاحونة السيد محمود أحمد وطاحونة الشيخ عبدالحميد حجار وأبنائه وغيرهما. وما زالت الطواحين موجودة إلى يومنا هذا، ولكن أصبح الاعتماد عليها أضعف مما كان عليه في السابق.



العطار

٣٠ ـ طائفة ممتهني الطب العربي:

ولم يكن يقوم بالتطبيب العربي إلا من كانت لديهم خبرة ومعرفة ودراية بالكي، والتجبير، والفصد، والتمريخ... وغير ذلك من الأمور التي لا يعرفها غيرهم. ولقلة الأطباء والمستشفيات في تلك الآونة في المدينة المنورة ـ وغيرها من مدن المملكة العربية السعودية ـ فقد كان المرضى يلجؤون ـ بعد الله تعالى ـ إلى هؤلاء الأطباء، فيقوم الطبيب العربي بالفحص، ومن ثم يحدد ما يجب عمله للمريض، ومن الطبيعي أن يوافق المريض على ما يشير به الطبيب الذي يقوم بالكي أو الفصد أو التمريخ بالطريقة التي يراها، ثم يمنع المريض من أكل أو شرب أشياء يرى أنها تزيد من آلامه أو تتعارض مع عمله، وفي كثير من الأحوال كان يتم الشفاء.

٣١ ـ طائفة العطارين:

ويقومون ببيع جميع مواد العطارة مثل الأعشاب والتوابل، وقد كان لهم في السابق دور كبير ـ وبخاصة كبار السن منهم ـ في معالجة كثير من الأمراض، إذ يقصدهم الناس ويعرضون عليهم شكوى مريضهم، فيقوم العطار بتجميع بعض العقاقير ويطلب منهم طحنها أو دقها ومن ثم استعمالها بالقَدْر الذي يوضحه لهم، كما كان بعض العطارين يقومون بالسهر طوال الليل بدافع إنساني ودون أي مقابل خدمةً لمن يحتاجهم، وذلك قبل توافر الأطباء والمستشفيات والصيدليات.

٣٢ ـ طائفة مركبي الأسنان:

من المعلوم أنه لا تخلو أي مدينة من مدن المملكة العربية السعودية ـ ولا غيرها من البلدان ـ من هذه الطائفة لأهميتها ولحاجة المواطنين إليها، والمدينة المنورة من المدن التي كانت تحظى بوجود عدد من أصحاب هذه المهنة، ويتلخص عمل هذه الطائفة في عملية الخلع وأخذ مقاسات أطقم الأسنان وتصنيعها حسب رغبة العميل. ثم أخذ أطباء الأسنان المختصون يعملون في المستشفيات الحكومية مثل غيرهم من الأطباء المختصين، وصار الناس يفدون إليهم للمعالجة، بينما انحصر عمل مركبي الأسنان في عمل أطقم الأسنان، والتنظيف.. وغير ذلك.

٣٣ ـ طائفة الصيارفة:

يقومون بتحويل النقود من عملة إلى أخرى ـ حسب الطلب ـ وبخاصة أيام الحج والزيارة والمواسم، إذ يصل إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة كثير من المسلمين من جميع أقطار العالم الإسلامي لأداء والحج والعمرة والزيارة، ومن الطبيعي أن تكون معهم عملات غير سعودية فيقومون بتبديلها بالعملة السعودية


صانع الأختام (المهرجية)

والعملات التي يحتاجونها، كما يقومون بشراء العملات الزائدة من أصحابها.. وغير ذلك من الخدمات المصرفية.

٣٤ ـ طائفة المهرجية:

يقومون بعمل الأختام بمختلف أنواعها وأحجامها للجهات الرسمية وللأفراد الذين لا يجيدون القراءة الكتابة، وهم يحصلون عليها من صناع وسباكي الصفر، وما على المهرجي إلا تنظيف الختم الذي يتم اختياره من قِبل الزبون بالمبارد ومن ثم الكتابة عليه بالأقلام الخاصة بذلك المصنوعة من الحديد الصلب، وذلك بعد وضع الختم داخل المقبض المخصص له، وهو مصنوع من الخشب القوي يشبه في منظره مساكة الملابس عند نشرها، إلا أن حجمه يكون أكبر بحيث يمكن مسكه بكامل اليد.

٣٥ ـ طائفة الدلالين:

ويقومون بدور الوساطة بيعاً وشراءً في سوق الحراج، إذ يلعب الدلال دور الوسيط بين البائع والمشتري لأي سلعة، كما يقومون بالتدليل على التركات بأمر من بيت المال للأشخاص المتوفين ممن ليس لهم ورثة أو الذين يكون ورثتهم غائبين، فتحجز التركة عندئذ لفترة معينة ثم تباع أخيراً خوفاً من تلفها، وتحفظ قيمتها في صندوق بيت المال إلى حين وصول الورثة. والدلالة من الحرف التي تحتاج إلى الخبرة الطويلة والممارسة.

٣٦ ـ طائفة مصلحي الأواني الزجاجية:

نظراً إلى أن الأواني الصينية والزجاجية كانت نادرة الوجود ـ وإن وجدت فهي غالية الثمن ـ فإنه يجب على أي عائلة المحافظة على موجوداتها من تلك الأواني بقدر الإمكان، فلو حصل أن انكسرت آنية منها فلا يمكن استبدالها بغيرها لندرتها وعدم وجودها لذا اتجه بعض الوافدين إلى المدينة المنورة من البخاريين إلى هذه المهنة، ولما كانت لديهم خبرة في إصلاح القطع الصينية أو الزجاجية المشعورة أو المكسورة مكتملة القطع، فقد كانوا يقومون بهذه المهنة عن طريق لصق الزجاج من طرفي الكسر وتركيب مشبك من المعدن عليه ومن ثم وضع مادة (السبيداج؛ وهي من بياض البيض) على المشبك وتركه لفترة قصيرة يجف أثناءها وتصبح القطعة المكسورة سليمة، ويمكن استعمالها دون أي عيب فيها إلا منظر المشبك وذلك مقابل مبلغ زهيد، وبما أن أباريق الشاي في المقاهي كلها من الصيني فقد كان القهوجية هم أكثر عملاء مصلحي الصيني. وعندما بدأ التطور تلاشت هذه المهنة لعدم الاهتمام بالقطع الصينية التي تتعرض للكسر، فيكون مصيرها الرمي في القمامة واستبدالها؛ لأنها أصبحت متوافرة وبأسعار عادية.

٣٧ ـ طائفة مصلحي (الأتاريك):

من المعروف أن المدينة المنورة ـ مثل غيرها من المدن ـ عاشت فترة من الزمن دون كهرباء، لذا فقد كانت وسائل الإضاءة فيها ـ كما في غيرها ـ متنوعة، مثل الفوانيس والمسارج والمشاعل القمرية والأتاريك و(اللمبات) الزجاجية بمختلف أحجامها، وجميعها يعمل بالكيروسين، وهي سهلة الإصلاح منزلياً ماعدا (الأتاريك) التي كان لابد من وجود متخصصين في إصلاحها وتغيير بعض قطعها ـ إذا لزم الأمر ـ لتصبح صالحة للاستعمال، وهي تستخدم في المناسبات وعند الضرورة.

أما في الحالات العادية فيُكتفى بالفانوس واللمبة، وكذا المسرجة التي توضع في الحمامات والممرات بصورة دائمة، وهذه جميعها تحتاج إلى عناية مثل: التنظيف، وإصلاح الفتيلة، وملء مستودعها بالكيروسين يومياً أو عند الحاجة؛ لأنها تستخدم بصورة مستمرة طوال الليل، وتقوم بهذه المهمة إحدى نساء المنزل.

٣٨ ـ طائفة بائعي ماكينات الخياطة ولوازمها ومصلحيها:

إن ماكينة الخياطة مهمة جداً لربة البيت التي تجيد استعمالها، فهي تحتاجها لخياطة ملابسها وملابس أطفالها وإصلاح ما يحتاج منها إلى إصلاح، إذ لم تكن توجد مشاغل نسائية. ومن المعروف أن جميع ماكينات الخياطة كانت تعمل باليد أو بالرِّجل لعدم وجود كهرباء في ذلك الوقت. أما لوازم الماكينات التي تحتاجها ربة البيت فهي الإبرة (وهي معرضة للكسر)، وكذا الزيت الخاص بها، وهو يوضع في أمكنة مخصصة بين الحين والحين ضماناً لاستمرارية عملها وعدم تعرضها للجفاف الذي يؤدي إلى كسر بعضها.

وعند تعرضها لأي عطل ولا يتمكن مستخدمها من إصلاحها فلابد من أخذها إلى مصلحيها لتتم معرفة العطل ومن ثم إصلاحها أو تغيير بعض أجزائها إذا لزم الأمر، وكان لتلك المهمة رجال متخصصون اشتهروا بإتقان العمل في هذا المجال يذهب إليهم الناس كلما لزم إصلاح ماكينة أو شراء أحد مستلزماتها.

٣٩ ـ طائفة بائعي الدراجات الهوائية ومصلحيها:

من المعروف أن وسائل النقل كانت محدودة جداً لقلة السيارات، فهي تنحصر في الحيوانات أو العربات التي تجرها أو الدراجات الهوائية.

ومن الطبيعي أن يوجد مصلحون لهذه الدراجات لأنها معرضة للتلف والأعطال، فمتى حصل فيها شيء من ذلك فلابد من أخذها إلى المصلح كي يتولَّى عملية إصلاحها، إما في وقت إحضارها نفسه ـ إذا كان العطل بسيطاً ـ أو يتم تركها لديه حتى يتفرغ لإصلاحها إذا كان الأمر يحتاج إلى بعض الوقت. وحينما وردت الدراجات الهوائية لأول مرة كان من العار على أبناء الشخصيات المرموقة ركوبها، إذ إن ركوبها كان يُعَدُّ دلالة على الانفلات الأسري، ولكن سرعان ما اختفت هذه الفكرة وأصبحت الدراجات الهوائية وسيلة مواصلات رئيسة للكبار والصغار، وقد اختفت هذه الأهمية حالياً أو قلَّت لكثرة وسائل الانتقال.



بائع التمر

٤٠ ـ طائفة الساعتشية:

ويقومون ببيع الساعات بمختلف أحجامها وأنواعها، فمنها اليدوية والجيبية والجدارية، كما يقومون بإصلاحها وتغيير الزجاج في حالة كسره، أو تغيير (الأستيك) حين تلفه أو إصلاحه، وغير ذلك من الأعمال المتعلقة بالساعات. وقد تنوعت الساعات وتعددت أشكالها، فأصبح بعضها يعمل بالبطارية وبعضها يعمل بحرارة جسم الإنسان.. وغير ذلك من الأنواع الكثيرة التي تطورت بتطور صناعة الساعات.

٤١ ـ طائفة الحبَّابة:

وهم الذين يشترون الحبوب عند حصادها من المزارعين عن طريق دلالي الجملة، ويتم ذلك في مواعيد معينة معروفة عند المزارعين والحبَّابة، كما يشاركهم الشراء بعض العائلات الثرية، ومن ثم يتم تخزين الحبوب بطرق معروفة، ويؤخذ منها حسب الحاجة، أما العائلات متوسطة الحال والفقراء فتشتري منها حسب الحاجة وعلى قدر المستطاع. وهذه الحبوب إما أن تستعمل كما هي في عدد من المأكولات، أو تطحن في المطاحن، ومن ثم تستخدم حسب الرغبة والحاجة. وكان الاعتماد كبيراً على الإنتاج المحلي، وكانت الحبوب الغذائية تباع كيلاً، ومكاييلها هي: المد، والصاع (والمد ثلاثة أصواع)، ثم النصفة، والربعة، والثمنة. وكان لهم سوق خاص يسمى سوق الحبَّابة.

٤٢ ـ طائفة التمَّارة:

هم الذين يقومون بشراء التمور الواردة من البساتين وقت الجذاذ بكميات كبيرة وبيعها بالجملة. وهذه العملية تتم في مواسم معينة معروفة لدى المزارعين والتمَّارة، إذ يقومون فيها بالاستعداد للشراء والتخزين والترقيد، وهي عملية يقوم بها أشخاص مخصوصون حسب الطلب من عامة الناس أو التجار أو أصحاب المحلات، وهي تتلخص في اختيار نوعية التمر المطلوبة، والقيام بتنظيفه ومسحه من الغبار، ومن ثم وضعه داخل الصفيحة (التنكة) وكبسه إما باليد أو بالأرجل بعد تغطيته بقطعة من القماش، ثم وضع طبقة أخرى عليه وإعادة كبسها حتى تملأ الصفيحة، ثم تتم تغطيتها وتركها في الشمس لمدة معينة ومن ثم قلبها لمدة معينة أخرى، ثم ترسل أو تسلم إلى صاحبها، وهذه العملية تتم ـ في الأغلب ـ في آخر الصيف، وقبل دخول الشتاء إذ يزداد الطلب على أكل التمر في فصل الشتاء. وتقوم بعض العائلات بشراء التمور التي ترغبها في الفترة نفسها وبالكميات المطلوبة، ويقوم أفرادها بعملية



بائع الجاز (الكروسين)

الترقيد بأنفسهم في منازلهم، ولإتمام هذه العملية بنجاح فإنهم يضعون التمور على أسطح المنازل.

أما عملية التخزين لدى بائعي التمور فتتم بوضع التمر داخل أوانٍ فخارية ضخمة محكمة القفل، ويبقى التمر داخلها محفوظاً مدة طويلة لحين الحاجة.

٤٣ ـ طائفة الحطَّابة وبائعي الفحم:

ولهذه الحرفة رجالها المخصوصون الذين يعرفون أصناف الحطب أو الفحم، وهم يقومون بشراء الحطب أو الفحم من أبناء البادية، أو يحصلون عليهما بأنفسهم بالخروج إلى البراري والقفار حيث أشجار الحطب الجافة، فيقطعونها حسب حاجاتهم، كما يقومون بحرق بعضها ثم إطفائه ودفنه بطرقهم الخاصة ليصبح فحماً، ومن ثم يحملونه إلى البلد حيث يفرز حسب النوعية، ولكل فحم سعره الخاص به.

وكان الأهالي يعتمدون في حياتهم اعتماداً كلياً على الفحم في الطبخ والكي والتدفئة وذلك قبل ظهور الغاز والكهرباء، وكان الفحم يُشترى بكميات كبيرة ويوضع في أمكنة خاصة ويخزن تموين العام منه كما تخزن المواد الغذائية، ويؤخذ منه حسب الحاجة.

٤٤ ـ طائفة بائعي الجاز (الكيروسين):

كانت جميع منازل المدينة المنورة ـ وغيرها من المدن ـ تحتاج إلى الإضاءة ليلاً بالفوانيس أو المسارج أو (اللمبات) الزجاجية أو (الأتاريك) وكذا الطباخات و(الدوافير) وجميعها يعمل بالجاز (الكيروسين)، فكان كل رب أسرة يحضر إلى منزله الجاز حسب الحاجة اليومية إليه، وكان الجاز يباع في أمكنة مخصصة أو لدى البقالات، ويباع بكيله بمكاييل معروفة في ذلك الزمن يصنعها السمكري للبائع، وتقدر المكيالة بربع أقة والمكيالتان بنصف أقة. وكان في كل بيت (جالون) أو قارورة لشراء الجاز، ويكون الشراء بعد العصر يومياً في الغالب، أما إذا أراد رب الأسرة شراء الجاز بكميات كبيرة وكان لديه المكان الأمين لحفظه فما عليه إلا الذهاب إلى محطات بيع الوقود، إذ إنهم يبيعونه هناك بحساب (الجالون). أما في الوقت الحاضر فقد أصبحت الحاجة إلى الجاز محدودة جداً، لانتشار الكهرباء ووسائل الطبخ الحديثة.

٤٥ ـ طائفة الطبَّاخة:

وتنقسم هذه الطائفة إلى قسمين:

- **القسم الأول:** يقوم بالطبخ في المناسبات والولائم إما في المنازل أو في مطابخهم إن وجدت، ومن المعروف أن الولائم كانت تقام غالباً في المنازل، إذ لم تكن الفنادق وقصور الأفراح منتشرة بالشكل الحاضر، لذا كان لزاماً على صاحب الوليمة إحضار


الفرّان

الطباخ إلى منزله أو قريباً منه، ويقوم بإحضار جميع لوازم الطبخ من حطب وغيره حسب نوعية الأكل المطلوب، وما على الطباخ إلا إحضار قدوره وبقية ما يلزمه على نفقة صاحب الوليمة. أما الآن فإن الأمور قد تغيرت تغيراً كلياً؛ فقد كثرت الفنادق وقصور الأفراح الخاصة المجهزة بكل ما يحتاج إليه الطباخون، كما أن عملية الطبخ أصبحت تتم في مطابخ تستخدم الغاز بدل الحطب الذي استُعمل في السابق، فما على صاحب الوليمة إلا الذهاب إلى المطبخ الذي يختاره ويطلب الأكل المراد ويحدد الكمية المطلوبة، فيقوم العاملون في المطبخ بإحضار كل ما يحتاجه طلبه ويتولون عملية الطبخ، ثم يتم إحضار الطعام إلى مكان الوليمة أو تسليمه إلى صاحب الوليمة من المطبخ، وذلك حسب الرغبة، علماً بأن جميع الأواني ملك للمطبخ فيدفع صاحب الوليمة تأميناً له لحين عودتها إليه.

❖ **القسم الثاني:** وهم الطباخون في أمكنة معروفة ومجهزة وقريبة، ويقومون بطبخ أصناف متعددة من المأكولات الشعبية في هذه الأمكنة ويستقبلون زبائنهم، فمنهم من يأكل داخل المحل، ومنهم من يأخذ الأكل معه إلى منزله أو حيث أراد. وهذه المطابخ تقوم بعملية إعداد وجبات الطعام ظهراً ومساءً، فلكل وقت طعامه الذي يناسبه، وأشهر هذه الأكلات: المقادم، الكبدة، الكرشة، المندي، الكباب، المقلية، الفول، الهريسة، الزلابية.

٤٦ ـ طائفة الفَرَّانة وصانعي الكعك:

هم الذين يقومون بعمل الخبز بعد إنجاز المراحل التي تسبق خَبزه من عجن وتخمير وتقريص وغير ذلك من الأمور المتعلقة بمهنتهم، كما كانوا يقومون بخَبز العجين المعمول في المنازل من قِبل العائلات والمرسل إلى الفرن مع أبنائهم أو من يخدمهم، لخَبزها مقابل أجر زهيد، كما أن بعض الفرانة كانوا يعملون الكعك بالسمسم إضافة إلى الخبز، وهذا الكعك يعجن ويخمر من الليل ويخبز ويباع صباحاً لتناوله مع وجبة الإفطار فقط، وللكعك صفة مخصوصة يمتاز بها فهو دائري الشكل مفرغ من الوسط وموضوع عليه السمسم ويسمى (شريك أبوالسمسم)، كما أن هناك نوعاً آخر من الخبز يسمى (شريك أبوالسمن)، والناس عادة يأكلون خبز البُرِّ في الظهر والشريك أبوالسمسم في الصباح والشريك أبوالسمن في المساء.

أما (التميس) فإنه لم يعرف في المدينة المنورة ـ أو في الحجاز كله ـ إلا بعد أن



بائع السمن

هاجر إليها بعض البخاريين، فعند وصولهم إلى المدينة المنورة ـ وبعض مدن الحجاز وغيرها ـ أخذوا في عمل (التميس) لأنها مهنة يتقنونها في بلادهم، وانتشرت عدة أصناف منها (البسكوت) و(أبوالسمن) و(العادي). أما في الوقت الحاضر فقد تحولت هذه المهنة إلى الأفغانيين، وهم أول من أوجد التنور الأفقي والمائل وقد كان في السابق عمودياً على الأرض، وبائعي (التميس) يعملون هم أنفسهم (المنتو) (واليغمش) اللَّذَين أصبح لهما باعة مخصوصون.

٤٧ ـ طائفة السَّمَّانة:

يبيعون السمن البلدي والجبن البلدي، وكانوا يشترون السمن بالجملة ثم يقومون بوضعه داخل الصفيح أو (حلل النحاس) لبيعه بالوزن للمستهلكين، كما أن كثيراً من العائلات بالمدينة المنورة يشترون السمن بكميات كبيرة ويحافظون عليه داخل مواعين (أوانٍ) نحاسية في منازلهم ويأخذون منه حسب الحاجة، ويتم الشراء في مواعيد معينة خصوصاً في الربيع عندما يكثر السمن في الأسواق.

٤٨ ـ طائفة اللَّبَّانة:

يصنعون الألبان مثل: الزبادي الصيني والقشطة من ألبان البقر الذي يقومون بتربيته والعناية به، كما يقومون ببيع الحليب الطازج يومياً صباحاً ومساءً. وهذه المهنة تكاد تنعدم لوجود مصانع الألبان التي أخذت في التزايد وعمت جميع مدن المملكة، وأصبحت الألبان متوافرة في جميع المحلات وفي متناول جميع الراغبين، وكذا القشطة واللبنة والزبدة والجبنة بمختلف أنواعها.

٤٩ ـ طائفة الجزَّارة (القصَّابة):

ويبيعون اللحم بعد ذبح الذبائح في المسلخ حسب نوعيته وصنفه (الجمل، البقر، الغنم)، ولكل نوعية بائعون مختصون وأسعار مختلفة، ويقوم بعضهم بالذبح خارج المسلخ لمن يرغب من المواطنين في المناسبات المختلفة بأجر معين حسب الذبيحة، ويزداد الطلب عليهم في أيام عيد الأضحى المبارك، ولذا ترتفع الأجور التي يأخذونها في هذه المناسبة، ولا يكاد يخلو بيت من بيوت المدينة المنورة من أضحية أو أكثر.

ثانياً ـ المهن والحرف في القرى والبادية:

لم يكن تنوع المهن والحرف في الأرياف والبادية التابعة لمنطقة المدينة المنورة بمثل ما عليه الحال في قلب المدينة المنورة نفسها؛ وذلك لعدد من الاعتبارات التي سبق ذكر بعضها، ولأن الوضع في المدن يختلف

دائماً من ناحية الكثافة السكانية عن القرى والبادية، كما أن لدرجة التجانس بين السكان وبساطة الحياة في القرية دوراً في هذا أيضاً، وفيما يأتي عرض لطبيعة الأعمال والمهن في تلك القرى من خلال الناحيتين الآتيتين:

أ ـ توزيع العمل اليومي داخل المنزل وخارجه:

يلاحظ في حياة الناس في القرى والبادية تقارب بين الأدوار التي يؤديها كل من الرجل والمرأة على الرغم من اختصاص النساء بالأعمال المنزلية مثل: الطبخ والتنظيف وغيرهما، إلا أن المرأة في القرى ومناطق أهل البادية تعين زوجها في كثير من الأعمال التي تتعلق بالزراعة والسقي والرعي ونحوها، حتى إنه في بعض القرى مثل خيبر قديماً كانت المرأة تشارك في أعمال البناء وإنشاء المساكن. وقد كان البرنامج اليومي للأسرة في بيئات أهل القرية وأهل البادية يبدأ مبكراً جداً، حتى إن بعضهم يبدأ عمله قبل صلاة الفجر، وفي حال وجود أبناء ملتحقين بالمدارس ـ وهم في الغالب من الذكور ـ تقوم الأم بإيقاظ الجميع وإعداد طعام الإفطار الذي هو غالباً من الخبز المصنوع في المنزل وما يتيسر من طعام مع الشاي والقهوة ثم يذهب الأولاد إلى المدارس، ومن لا يدرس منهم ـ ولاسيما من البنات ـ يذهب لرعي الأغنام في أراضي المزارع والبساتين أو الصحارى القريبة، ويذهب جميع الرجال إلى أعمالهم ويصحبهم بعض نسائهم أحياناً للعمل في الحقول. كما أنه نظراً إلى طبيعة موارد المياه في تلك القرى التي تعتمد على العيون والمجاري المائية التي تتبعها فإن بعض الرجال يقضون بعض الوقت في تسليك هذه المجاري وصيانتها، وكذا يوجد متخصصون في تصريف حصص المياه وتوزيعها على المزارعين بطرق فنية متفق عليها.

ويعد وقت الظهر وقت راحة للجميع، إلا أن وجبة الغداء عندهم ليست هي الوجبة الرئيسة كما في المدينة المنورة نفسها، بل إنهم عادة يقتصرون على شيء من التمر ونحوه، ولا يطبخون لهذه الوجبة، إذ يعود الناس إلى أعمالهم بعد صلاة العصر وتبدأ ربة المنزل في إعداد وجبة العشاء، وهي الوجبة الرئيسة التي تجتمع الأسرة ـ غالباً ـ لتناولها بعد صلاة المغرب أو قبله بقليل ولا يتغيب منهم أحد، بخلاف وجبة الغداء التي قد يتناولها الراعي في المرعى والمزارع في الحقل وليس بالضرورة أن يجتمعوا لها في المنزل، وينام الجميع بعد صلاة العشاء ليستيقظوا عند الفجر أو قبله بقليل، حسب طبيعة أعمالهم وحسب المواسم المختلفة. أما الصغار من البنين والبنات، فهم يتدرجون في مزاولة مهن الآباء والأمهات حسب التقدم في السن، فالصغير قد يكلف برعي (البُهم؛ وهي صغار الماعز) قريباً من المنزل، يستوي في ذلك البنون والبنات، وكذلك تبدأ البنت بتعلم مهام المرأة بدءاً من الطبخ والعناية بالمنزل، بالإضافة إلى دورها في أمور الزراعة وجني المحصولات وتخزينها.. وهكذا.

إلا أن الملاحظ أن بيت أهل القرى والبادية أكثر بساطة وأقل أثاثاً من بيوت أهل الحضر في المدينة المنورة، ولذا لا تنفق المرأة في العمل المنزلي في القرى والبادية من الوقت مثلما تنفقه المرأة المدنية، حيث التفنن في أنواع الطبخ وتنظيف الأواني المختلفة

والعناية بالفرش والمجالس على اختلاف درجاتها: مجالس الرجال ومجالس النساء والديوان والقاعة الخاصة بأفراد العائلة وما تحويه من أثاث وفرش وسُرُج أو أتاريك تحتاج إلى عناية خاصة، ولذا وجد لدى نساء القرية والبادية متسع من الوقت لمساعدة الزوج خارج المنزل، فهن يساعدن الرجال في مختلف أعمالهم: في الزراعة والرعي والسقي، حتى إنهن قد يحملن على رؤوسهن الحجر والماء عند البناء، وكان التعاون بين الناس في مجال البناء وغيره سائداً، ومن يرغب بالقيام بعمل ما ـ مثل الحصاد أو البناء أو البذر ـ فإنه يُعلم الجيران والأقرباء ليؤدي كلٌّ منهم ما يستطيع على سبيل المعاونة وليس الأجرة، كما تقوم زوجته أيضاً بإبلاغ النساء فيبادرن بالإسهام، وسوف يَرُدُّ الرجل هذا الدَّين هو وزوجته عندما يحتاج أحد الجيران إلى المعاونة (الفزعة) في أي أمر من الأمور، وكان استئجار العمال نادراً، ولم يكن هناك طوائف حرفية منظمة كما في حاضرة المدينة المنورة، بل كانت الأمور تسير ببساطة شديدة وفي جو من الألفة والتعاون.

ب ـ أنواع المهن والحرف في القرى والبادية:

رغم بساطة الحياة وغلبة الطابع الزراعي والرعوي على حياة الناس فيما يحيط بالمدينة المنورة من القرى والبادية، إلا أن أهلها قد مارسوا ـ بالإضافة إلى الزراعة والرعي، وصيد الأسماك بالنسبة لأهل السواحل ـ أنواعاً من المهن التي توفرها لهم تلك البيئات من التصنيع والتخزين والتسويق لكثير من منتجاتهم المحلية، شارك في ذلك الرجال والنساء والكبار والصغار بأدوار مختلفة كلٌّ حسب قدرته وخبرته، ومن تلك المهن:

١ ـ الصناعات الخشبية:

ومنها صناعة السفن الشراعية الكبيرة والصغيرة وما تقرب حمولتها من أربعمئة وخمسين طناً، أما اليوم فقد اقتصرت هذه الصناعة على صناعة القوارب الصغيرة، وهي قوارب صيد الأسماك التي تتحرك بوساطة (الماكينات)، كما يصنع أهالي ينبع النخل مصاريع الأبواب الخاصة بالدور والسُّرر من أجزاء النخيل والجريد، كما يقومون بصناعة الأقفاص التي تُربَّى فيها الدواجن.



صانع القوارب

٢ ـ الصناعات الحديدية:

وتعمل في هذه المهنة فئة من الناس يُسَمّون (الحدّادة) يصنعون المسامير التي تسمى الشبرى والفترى المستعملة في صناعة



المحش

السفن، كما يصنعون الأدوات الزراعية ومنها: المحراث، والمحش، والمسحاة، والمرزبة، والعتلة، وبعض الأدوات الحديدية لكسر الصخور، وبعض الأدوات المستعملة في الطبخ مثل الملاعق الكبيرة، ومنها المجرفة، ومحمصة البن (المحماس)، والكانون الذي يوضع عليه قدر الطبخ، والصاج الذي يقلى فيه السمك.

٣ ـ الصناعات الجلدية:

هناك عدد من الصناعات الجلدية التي تعتمد على جلود الحيوانات تستخدم في حياتهم العامة والخاصة بوصفها وسيلة من أفضل الوسائل للاعتماد على النفس، ومن أهم تلك الصناعات صناعة الجاعد الذي يصنع من جلود الضأن والماعز، ويستخدم الجاعد للجلوس عليه خصوصاً في فصل الشتاء فهو يضفي الحرارة على الجسم لكونه من الصوف، وصناعة القِرَب التي تصنع من الجلد وتحمل فيها المياه من العيون والآبار إلى المنازل، والعكاك (جمع عكة؛ وهي القربة الصغيرة)، وتستخدم لحفظ العسل والسمن لأطول فترة ممكنة.

٤ ـ صناعة الخوص:

ويصنع أهالي ينبع النخل وغيرهم الحُصُر و(القفف) و(المدبات) والسلال التي تستخدم لتخزين التمور مدة طويلة من خوص النخل، كما كانوا يصنعون من الخوص المراوح اليدوية والمكانس[1].

ومن الخوص أيضاً تصنع (الشنشورة) التي تقوم عليها عدة صناعات، والشنشورة هي الخوص الذي يجفف ثم يقشر (يجزأ إلى أجزاء) ثم يشبك بعضه في بعض حتى يتكون منه شريط طويل، ويختلف عرض هذا الشريط (السير) من شنشورة إلى أخرى حسب نوع الاستخدام. والشنشورة هذه تدخل بدورها في عدد من الصناعات مثل صناعة (المكاتل) و(القفف) و(المناسف) و(النفيات) و(المهاف) و(التقي) و(المباحر؛ جمع مبحر



الصناعات الخوصية في العلا

(١) عبدالكريم الخطيب، *ينبع*، سلسلة هذه بلادنا، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٣ هـ)، ٨٥، ٨٦.



الصائغ

وهو زنبيل صغير من الخوص) و(الخصف) و(المجاليد) و(الفرع) و(المعالف) و(الدوارات)... إلخ.

وفي العلا تتفنن النساء في صنع الشنشورة، إذ يصبغن الخوص بألوان جميلة زاهية، ثم يمزجن الخوص الملون بالخوص العادي، فتبدو الشنشورة موشاة بزخارف فنية رائعة. وصنع الشنشورة وخياطتها للأغراض المختلفة عمل نسائي محض[١].

٥ ـ صناعة المنسوجات:

يتم جز شعر الضأن والماعز وهي حية للحصول على كمية من الصوف، تقوم النسوة بغزله ثم نسجه على أعواد في الأرض بعد صبغه بالألوان المختلفة، ويصنعن منه الفُرُش الصوفية الجميلة، كما يصنعون منه بيوت الشعر التي يستخدمها الرعاة أثناء تنقلهم بين المراعي بحثاً عن الماء والكلأ، وهي أشبه بالخيام، وهي في العادة قسمان: قسم للرجال وآخر للنساء.

٦ ـ صناعة الحلي (الذهب والفضة):

وكانت الحلي تصنع من الذهب والفضة صناعة يدوية من قِبَل الصاغة المنتشرين في أسواق ينبع النخل وينبع البحر، إذ كانوا يصنعون من الذهب والفضة الحلي المتداولة بين النساء والتي منها القديم والحديث مثل الحجول والخلخال والحقو والأساور والبناجر والخشفة والقروط والسلاسل وغيرها[٢].

٧ ـ المهنة الزراعية:

ويتم توزيع فترة اليوم والليلة إلى وجبات (واحدتها وجبة، وقد يجمعها الأهالي أحياناً على أوجاب) تبدأ من طلعة الشمس، ثم ربع الضحى، ثم النص (النصف) وهذه الوجبات لما قبل الزوال، ثم بعد ذلك ربع العصر، ثم الصفيراء، ثم الغيبة أي غيبة الشمس، وتكون هذه الوجبات الست جميعها في فترة النهار، أما وجبات الليل فهي ربع الليل، نصف الليل، السدة، وبعدها طلعة الشمس مرة أخرى. ويتم توقيت هذه الوجبات خلال النهار عن طريق قياس الظل بالأقدام، وهذا القياس دقيق نوعاً ما، ويكون التحكم في الوقت ليلاً عن طريق النجوم، وتلعب الخبرة دورها في هذا المجال، وكل وجبة من الوجبات المذكورة آنفاً تكون إما في ثمانية (أي ثمانية أيام) أو في خمسة عشر أي أسبوعين، أو اثنين وعشرين، أو تسعة وعشرين، ومعنى هذا أن الدور في السقي يعود إلى المزارع في اليوم نفسه إما بعد أسبوع أو أسبوعين، وهذا الغالب. وفي بعض الخيوف بعد ثلاثة أسابيع، وتصل في النادر إلى أربعة، وهذه الوجبة ـ حسب موعدها ـ مُلك يكون التصرف فيه بالكامل حقاً من حقوق صاحب الماء.

(١) أحمد عبدالله عبدالكريم، *هذه العلا بين الماضي والمحاضر*. (العلا: الجمعية التعاونية بالعلا، ١٤١٣ هـ)، ٨٢، ٨٣.

(٢) الخطيب، عبدالكريم. ينبع، مرجع سابق، ٨٦، ٨٧.

ويقوم بعض مُلاك المياه ـ أحياناً ـ بالسماح لبعض من لا تكفي وجباتهم بالسقي لفترة قد تطول أو تقصر حسب الحاجة وحسب ما يراه مالك الوجبة، بل إن بعض المُلاك يبيع الوجبة لشخص آخر وتتم المكاتبة بذلك فتكون العين في الساعة المحددة في اليوم المحدد ملكاً للمشتري لا يحق لأحد منازعته فيها[1]. وقد كان القائمون على توزيع المياه ومراقبة الحصص (الوجبات) الخاصة بالمزارعين يتقاضون أجورهم من المُلاك ويتمتعون بتقدير الجميع وثقتهم.

تجدر الإشارة إلى أن طبيعة المنطقة ونوعية مصادر المياه ـ كما سبق ـ أفرزت نظاماً خاصاً في كيفية الاستفادة من تلك المياه، ووفرت مجال عمل امتهنه بعض الأهالي، حيث إن المجموعة الواحدة من مزارع النخيل تسمى (خيفاً)، والخيف يمتد أحياناً إلى عدة كيلومترات، ويسقى نخيل الخيف الواحد من عين واحدة أو أكثر حتى يضمن كل مالك وصول الماء إليه في الوقت المحدد.

ثالثاً ـ مظاهر الثبات والتغير:

يكاد يصدق القول بأن التغير في هذا المجال كان شاملاً؛ فلم يبقَ من تلك المهن والحرف التقليدية في منطقة المدينة المنورة إلا ما ندر، سواء في الحضر أم في القرى والأرياف والبادية، وما بقي من هذه الحرف تخلى عنه المواطنون للعمالة الوافدة من خارج البلاد، وقد حلت الشركات والمؤسسات ـ وما ينتظمها من قوانين وأساليب عمل تشرف عليها الدولة بمؤسساتها المتعددة ـ محل الطوائف الحرفية التقليدية ذات التنظيم البسيط والإجراءات التلقائية، ولم يبقَ من طوائف تلك الحرف إلا ما ندر، وهي لا تمارس اليوم الأدوار نفسها التي كانت تمارسها في السابق، وتشرف عليها البلدية، ويستعان بها ـ وبخاصة شيخ الطائفة ـ عندما ينشب خلاف بين اثنين يتعلق بطبيعة المهنة التي ينتمي إليها ذلك الشيخ أو لتقييم بعض السلع أو الخدمات؛ نظراً إلى ما يتمتع به شيخ الطائفة من خبرة في مجال مهنته أو حرفته.

ومن مؤشرات التغير في هذا الجانب ما يتعلق بالصغار: ذكوراً وإناثاً، فلم يعد الأهل يستعينون بهم في أعمالهم أو يكلفونهم بالإسهام في أمور الحياة المنزلية؛ لانتظام الجميع في الدراسة، ولتغير المهن التي يعمل بها الأب والأم، فقد غلبت الوظائف الرسمية في الدوائر الحكومية والشركات على المهن الحرة التي يكون فيها الصانع هو صاحب المصنع وهو الذي يقوم بجميع المراحل المطلوبة لإنتاج السلعة. أما ما يتعلق بالتجارة فقد ازدهرت وتطورت، ولكن أصبح كثير من التجار يستعينون بالعمالة الوافدة أيضاً في البيع والنقل والتخزين وكل ما يتطلبه العمل التجاري.

أما ما يتعلق بالمرأة فإن دورها قد تعرض هو أيضاً للتغيير، سواء في المدن أو القرى أو الهجر التي تحول إليها سكان البادية (الرُّحَّل في الماضي)؛ فقد انحسرت مشاركتها كثيراً في الأعمال الزراعية، ولم تعد ترعى الأغنام إلا ما ندر، وتعلّمت النساء وحصل كثيرات منهن على مؤهلات علمية كانت عوناً لهن في الانخراط في الأعمال المتوافرة المتمثلة في التعليم والوظائف الكتابية ونحوها في محيط النساء بما يتوافق مع تعاليم الشريعة الإسلامية. كما

(١) صيفي عيسى الشلالي، *محافظة خيبر*، (خيبر: جمعية البر الخيرية في محافظة خيبر، ١٤٢٣ هـ)، ٤٥، ٤٦.

أن العاملات من النساء وغير العاملات ـ على حدٍّ سواء ـ قد استغنين عن القيام بكثير من المهام التي كانت تؤديها المرأة في منزلها، وساعدت الوفرة الاقتصادية على استقدام الخادمات في المنازل، وقد بالغ بعض الناس في الاعتماد عليهن في كل شؤون المنزل من طبخ وتنظيف وعناية بشؤون الأولاد... وغير ذلك.

الفصل الرابع

المأكولات الشعبية

أولاً المأكولات والمشروبات الشعبية

ثانياً طعام المناسبات

ثالثاً عادات تقديم الطعام والضيافة

رابعاً مظاهر الثبات والتغير

بما أن المدينة المنورة هي عاصمة الإسلام الأولى ومقصد الوافدين من أقطار الإسلام كافة، فقد أكل أهلها وطبخوا جميع ما طُبخ وأُكل في العالم الإسلامي على مر العصور، مع وجود أنواع من الأكلات اختصوا بها، سواء تلك الأكلات الداخلة في أطباق الوجبات اليومية، أو ما يعد للمناسبات الخاصة من أطباق مثل (التعتيمة) على سبيل المثال، ومع ذلك فإن الأكلات أو الأطباق التي عرفها أهل المدينة المنورة وتعلموها من غيرهم من المسلمين منها ما استقر واعتاده الناس حتى أصبح من عناصر الثقافة الغذائية المدنية، ومن ذلك: الفول والطعمية والتميس و(المنتو)... وغيرها، وفيما يأتي عرض لأهم الأكلات الشعبية التي وُجدت في المدينة المنورة، وأساليب إعدادها وتحضيرها، والأواني التي قد تختص بها بعض الأكلات:

أولاً ـ المأكولات والمشروبات الشعبية:

لقد احتوى المطبخ المدني جميع ما يحتويه المطبخ في العالم الإسلامي ـ كما سبق ذكره ـ فقد نجد المطبخ التركي والهندي والمغربي والمصري والشامي والإفريقي والجاوي والبخاري والكابلي وحتى الصيني، إضافة إلى ما ابتكره أهل المدينة المنورة أنفسهم من الأطباق التي تُعَدُّ مدنية الأصل والمنشأ. ومن أهم المأكولات الشعبية وأشهرها ـ بغض النظر عن التقسيم السابق ـ ما يأتي:

أ ـ المأكولات الرئيسة:

وتتكون من اللحم والخضار والقمح أو الأرز ونحوها، وتُعَدُّ من الأطباق المهمة في الوجبات اليومية وفي المناسبات، ومنها على سبيل المثال:

١ ـ المعرّق:

وهو لحم يطبخ في قدر من النحاس بعد أن يقطع إلى أوصال صغيرة بقدر طرف الإبهام، ويمزج بالتوابل: الكمون والفلفل الأسود والقرفة والهيل وكذا الباذنجان الأحمر الناشف المطحون، ويكون مرقه خفيفاً.

٢ ـ المختوم:

وهو قريب من المعرّق إلا أنه يدخل في عناصره بعض الخضار مثل: الباميا أو الملوخية وغيرهما، ويضيف إليه بعضهم اللبن الحامض، ويكون مرقه سميكاً بخلاف المعرّق. ويطبخ أهل المدينة أنواع الخضار كافة مثل الفاصولياء والباذنجان والكوسة وغيرها بطرق مختلفة أيضاً.

٣ ـ الكبدة:

وهي من الأكلات الشعبية التي يكثر طالبوها ـ وبخاصة الشباب والعزاب ـ في الفترة المسائية، وكذلك في الضحى؛ لأن لذتها تكمن في تناولها في وقتها أي بعد عملها مباشرة وهي ساخنة، ونخصُّ هنا



أكلة الكبدة



أكلة الأرز

كبدة الجَمَل؛ إذ تقطع الكبدة قطعاً مستطيلة صغيرة، ويكون الصاج المصنوع من الحديد أو النحاس مقعر الشكل كبير الحجم محضراً على الجمر أو موقد نار، ومهيأً للقلي، وتكون قد وضعت قطع من الشحم على طرف الصاج فيذوب قليل منها وينزل إلى قعر الصاج، وعند الطلب توضع الكبدة في الصاج حسب الكمية المطلوبة وتقلب عدة مرات وفي مختلف الاتجاهات حتى تنضج.

٤ ـ المقادم والكرشة:

المقادم هي أرجل الأغنام، إذ يحرق الشعر الذي عليها بتعريضها للنار بطريقة معينة ويتم تنظيفها، ثم تطبخ على النار داخل قدر محكم الإغلاق، مضافاً إليها بعض البهارات. أما الكرشة فتنظف وتقطع قطعاً صغيرة ثم تطبخ داخل قدر محكم الإغلاق مضافاً إليها بعض البهارات، وهي لا تحتاج إلى مدة طويلة بعكس المقادم.

وتعد هاتان الأكلتان من الأكلات الشعبية التي تؤكل في وجبتي الضحى والصباح، ولمثل هذه الأكلات أمكنة مخصصة يقصدها من يريدها بعد صلاة الفجر مباشرة، ويمكن أن تؤكل في المحل المخصص لاستقبال الزبائن أو تؤخذ في إناء إلى المنزل، كما يمكن تناولها على شكل فتة (ثريد) أو حساء [1].

٥ ـ الأرز:

ولهم في طبخه طرق متعددة بناءً على تنوع الخبرات التي وفدت إلى البلاد من البلاد الآسيوية على وجه الخصوص، ومن هذه الطرق:

- **الأرز البخاري**: وهو الأرز الذي يطبخ باللحم، والبليلة، والجزر، والصلصة، والطماطم، والبهارات.
- **الأرز البرياني**: وهو من الأطعمة المنتشرة في المدينة المنورة، ويطبخ باللحم، والبصل، واللبن، والبهارات الخاصة به مثل الكرى والزعفران والفلفل ويطلق عليه اختصاراً اسم الزربيان.

وهناك الأرز الكابلي والعدني والكبسة، وكلها متقاربة في طريقة تحضيرها مع اختلافات بسيطة.

٦ ـ الكسكس:

هو دقيق السميد الذي يُحضَّر من الدقيق على شكل حبيبات صغيرة مثل حبيبات السمسم، وهو نوعان: نوع مالح بالخضار واللحم، ونوع حلو بالسكر، ويطبخ الكسكس في البخار، ويبدو أنه أُخذ من المغاربة الذين لا يطبخونه إلا مالحاً، وهو طعام أساسي عندهم مثل الرز عند أهل الجزيرة العربية.

٧ ـ الجريش:

وهو من حب القمح المجروش، يطبخ بدل الأرز ويضاف إليه اللبن (المخيض)، ويُسَمّى في بعض المناطق ـ مثل العلا ـ الجريشة، ويتم

(١) الخياري، السيد ياسين. صور من الحياة الاجتماعية. ط٢، مرجع سابق، ٣٣٢، ٣٣٣.


أكلة الجريش

إعداده عند أهلها من القمح أو من الذرة، إذ يسلق حب القمح أو الذرة ثم يجفف، ثم يجرش أي يدق لتتكسر الحبوب ولا تطحن طحناً، وبعد ذلك تؤخذ الكمية المطلوبة وتسلق مع اللحم أو من دونه.

٨ ـ الدشيشة:

وتصنع من حب الذرة البيضاء قبل يباسه أي عندما يكون طرياً، إذ تسلق الذرة البيضاء بالماء المغلي على النار ثم تجفف، وبعد ذلك تدق بالمخباطة لاستخراج الحب الذي يجرش ثم يطبخ كما تطبخ الجريشة.

٩ ـ المصلخة:

وهي من حب الشعير الأخضر الذي يحمس على النار ثم يهرس فينسلخ منه القشر، ثم يجرش ويطبخ مع اللحم، وهي مثل الجريشة تماماً غير أنها من الشعير المسلوخ قشره.

١٠ ـ الكرابة:

تصنع من الطحين، وعندما يكون القدر على النار وفيه لحم أو سمن أو دهن يضاف إليه الدقيق قليلاً قليلاً، إذ يذر في القدر ويحرك حتى لا يتلازب بعضه على بعض. وتعد (الكرابة) طعام الفقراء[١].

١١ ـ الخواضة:

وهي شائعة عند أهل البادية، وبخاصة في مهد الذهب وما جاورها، ومعروف عنها أن من يأكلها يصبح أكثر قوة ونشاطاً. وتتكون (الخواضة) من السمن البلدي المخلوط بدقيق الدخن، وتؤكل مع التمر، وعادة ما يغمس الرجل أصابعه مع التمر في الصحن ثم يلحسها، وهكذا في كل مرة[٢].

١٢ ـ الدقة:

تصنع بخلط الكزبرة الجافة والكمون والملح الأسود وملح الليمون، حيث تخلط جميعها، وتؤكل وقت الضحى مع ما يسمى (التلبية) التي تتكون من الشاي والشريك والجبن.

١٣ ـ الشعيرية:

وهي فتائل من عجين البُر المجفف المحموس على النار، تكسر وتضاف إلى الهريسة أثناء طبخها، وفي وسط المدينة المنورة تعد من الحلويات إذ يضاف إليها السكر، أما في العلا وغيرها فهي أشبه بالمكرونة، إذ تطبخ مالحة مع حساء الهريسة. ويتم إعداد فتائل الشعيرية وصنعها بطرق فنية من دقيق القمح الخالص الذي يعجن بالماء


أكلة الشعيرية

(١) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ١٧٩، ١٨٠.

(٢) علي أحمد أبوعودة، وعبدالعزيز سليمان الحازمي، *مهد الذهب: دراسة إقليمية*، (المدينة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٥ هـ)، ٢٧٦.

كعجينة السنبوسك، ثم يجلس عدد من النساء في صفين متقابلين ومتساويين بعد غسل أيديهن وتنظيفها وتفرش بينهن خصفة نظيفة، ثم تأخذ كل واحدة منهن قطعة من العجين وتغمسها في سمن الغنم وتفتلها كالخيط ثم تلقيها لتمتد على الخصفة.. وهكذا، حتى إذا امتلأت الخصفة بفتائل العجين انتقلت النسوة إلى خصفة أخرى.. حتى يتحقق لديهم إتمام صناعة الكمية المطلوبة، ثم تجفف تحت الشمس أو الهواء، ثم تحمس على النار في المقلى المصنوع محلياً من الطين أو في جوف طاجن مقعر، ثم تعبأ في مكتل أو مكاتل وتحفظ لحين الطبخ [1].

وقد عرف كثير من قرى المدينة المنورة وباديتها الأطباق الشعبية الرئيسة المشهورة في وسط الجزيرة العربية مثل نجد والقصيم، وذلك مثل المرقوق والقرصان والمطازيز وغيرها.

ب ـ الفطائر والمعجنات وما شابهها:

وهي أيضاً كثيرة ومتنوعة، وقد تطبخ الواحدة منها بأكثر من طريقة حسب البيئة التي توجد فيها وحسب الأذواق المختلفة للآكلين والخبرات المتنوعة للطهاة ومنها:

١ ـ المطبق:

هو رقائق من العجين تفرد ثم يوضع عليها اللحم المخلوط بالكراث وبعض البهارات والبيض المخفوق، ثم تلف هذه العجينة بشكل مربع، وتدخل الفرن أو توضع على الصاج. وأحياناً تكون الخلطة ـ بدلاً من اللحم ـ مكونة من الموز والجبن والسكر، ويسمى عندئذ (المطبق الحلو).



أكلة المطبق

٢ ـ السمبوسك:

هو لحم مفروم ومعه بعض البهارات الخفيفة، ملفوف في عجينة مثلثة الشكل، ولعل إطلاق كلمة (سمبوسك) عليها يعود لمشابهة هذه العجينة طرف السنبوك، وهي تصنع كذلك في مدن الحجاز كلها بلا تفريق، وهي تصنع باللحم والجبن المالح، وأحياناً بالخضار، وتقلى في الزيت أو توضع في الفرن.



أكلة السمبوسك

٣ ـ البُفْ:

هي عجينة خفيفة جداً محشوة باللحم وقطع من البيض المسلوق وبعض التوابل، ويصنعونها كبيرة مربعة الشكل أو مستطيلة، كما يصنعون منها صينية كاملة يدخلونها في الفرن ثم يقطعونها قطعاً صغيرة. ولا تزال المدينة المنورة تنفرد بهذا النوع من المعجنات، وبإتقانه حتى الآن [2].

(١) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ١٤٨، ١٤٩.

(٢) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ١٩٣.



أكلة البف

٤ ـ المنتو:

هو قطع صغيرة من العجين تفرد دائرياً ويوضع بداخلها اللحمة المفرومة والبصل، ثم يطبخ هذا الخليط في قدر البخار، حيث يصف بداخل مصفاة توضع هي الأخرى في قدر مخصوص يكون في أسفله الماء بحيث يتصاعد البخار داخل القدر المغطى فينضج المنتو دون أن يغمر في الماء أو تمسّه النار.



أكلة منتو



أكلة يغمش

٥ ـ اليغمش:

وهو قريب من (المنتو) في مكوناته ولكنه يختلف عنه في طريقة إعداده؛ فعجينة (اليغمش) تكون سميكة وتحشى باللحم المفروم والبصل، فيما يكون شكلها مربعاً أو مستطيلاً، وتخبز في الفرن.

٦ ـ الششني:

وهو نوع من المربيات يصنع من القرع والسكر بطريقة فنية خاصة، ويُحتفظ به في علب من الزجاج أو (التنك)، وهو صنف أساسي في سفرة التعتيمة التي هي عشاء ليلة العرس، ويؤكل في غير هذه المناسبة أيضاً.

٧ ـ المعمول:

من أطعمة أهل المدينة المنورة التي عرفوا بها وأخذها عنهم الآخرون، وهو عجينة تصنع من دقيق الحب أو الفينة والسمن وبعض النكهات والمكسرات المخصوصة، ثم تحشى بالتمر منزوع النوى وتخبز في الفرن. ويكثر تناوله في المناسبات ولاسيما الأعياد.



أكلة المعمول

٨ ـ المقلية:

وتُسمى في مصر الطعمية، وهي من الأكلات الشعبية المعروفة في كثير من البلاد العربية، وفي المدينة المنورة تعد من الأكلات الشعبية المحببة إلى الناس في المساء، ولها مختصون في صنعها، يشتريها الناس حسب الحاجة ويندر أن تصنع في المنزل. وتصنع المقلية من الفول المطحون الذي يعجن ويقطع ويقلى في الزيت، وقد تُصنَع من الخبز الجاف بعد دقه وعجنه ثانيةً ثم يقلى في الزيت.

٩ ـ العريكة:

تتكون من الحب أو الدخن والدبس أو العسل، وتعرك في القدر على النار حتى تنضج، وهي من الوجبات المحببة للإفطار في أيام الشتاء، ومثلها ما يسمى (الحيسة) و(المحيوسة) وتصنعان من التمر والدقيق والسمن، فإذا اقتصرت على التمر والسمن سُمّيت (حيسة)، وإذا أضيف إليها الدقيق سُمّيت (محيوسة) ويتم صهرها في القدر مثل العريكة.

١٠ ـ الفول:

من مكونات مائدة الإفطار الأساسية، ويدخل ـ أحياناً ـ في تكوين العشاء، ويستورد الفول من مصر والسودان، وله مختصون في عمله يقومون بتنظيفه وتخميره في الماء، ثم سلقه فترة طويلة في أوانٍ خاصة تسمى الواحدة منها جرة، وهي توضع على نار هادئة، وقد عُرف الفول وانتشر في بقية مناطق المملكة عدة عقود من الزمن، وتنوعت طرق إعداده، فأصبح يقدم بالصلصة والطماطم مثلاً ويسمى فول قلابة، وفول تاوة، بالإضافة إلى فول الجرة المعروف.



أكلة الفول

ج ـ الخبز وأنواعه:

عرف أهل المدينة المنورة ـ حاضرتهم وباديتهم وأريافهم ـ أنواعاً كثيرة من الخبز، تتقارب وتختلف في طريقة صنعها وأسمائها، منها ما ابتكروه بأنفسهم ومنها ما أخذوه عن غيرهم، وقد خبزوا القمح والشعير والذرة وغيرها، وهذه بعض أنواع الخبز في المنطقة بوجه عام:

١ ـ الخبز البيتي:

وهو ما تقوم ربة البيت بعجنه وتحضيره حتى يخمر، ثم يرسل إلى الفرن، وهو من أحسن أنواع القمح الصافي، ويحدث هذا في المدينة المنورة نفسها وبعض المدن الكبرى، أما سكان القرى فلا يرسلون إلى الفران شيئاً من المنزل ليخبزه.

٢ ـ التميس:

وهذا النوع انتقل إلى المدينة المنورة مع المهاجرين البخاريين، وهو عجين من الدقيق الأبيض سميك القوام، يفرد ثم يُثقَّب بأداة خاصة، وينضج في التنور. وقد ظهرت أنواع كثيرة من هذا الخبز منها: تميس أبوالسمن، التميس البخاري، والتميس الأفغاني والشباتي، وأصبح اليوم يخبز بالجبن والزعتر وغيرها.



التميس

٣ ـ الشريك:

وهو أنواع منها: شريك التعتيمة؛ ويتكون من الدقيق الأبيض ودقيق الحب، ويقدم مع الجبن والحلاوة في التعتيمة أي العشاء، وشريك أبوالسمسم؛ وهو نوع من الخبز يشبه الكعك عند المصريين، يصنع من الدقيق الأبيض، ويخمر بخميرة الحمص، ويزين وجهه بالسمسم.



خبز الشريك

٤ ـ الشوابير:

يلجأ بعض الفرانين عندما يبقى عندهم شيء من العجين إلى تشريحه إلى قطع متساوية وإدخاله الفرن حتى ينضج ويجف، ويباع على شكل شابورة فيما بعد. ويكثر الطلب على هذا النوع من المأكولات في أيام الحج إذ يأخذه الحجاج في أمتعتهم زاداً للطريق.

٥ ـ خبز طَشَّة:

وهو رقيق نوعاً ما وذو حجم صغير يبلغ قطره ١٩سم تقريباً، ويخبز على طاجن أسفله مقعر وأعلاه مقبب، وفيما تكون النار مشتعلة تحته بقوة توضع فوقه ثلاثة أرغفة في الوقت نفسه.

٦ ـ خبز أبومِي:

بكسرة تحت الميم، وهي كلمة (الماء) في لهجة أهل العلا المحلية، وهو مثل (الطشة) إلا أنه ليس في مرونة خبز الطشة وليونته، فهذا الأخير يخبز من عجينة رخوة، أما عجينة (خبز أبومي) متماسكة جداً مثل عجينة السنبوسك، ويخبز هذا النوع من الخبز على اليد أولاً ثم يوضع على الصاج[١].

وهناك أنواع أخرى كثيرة عرفت في المنطقة ـ وخصوصاً بعض قراها مثل العلا وينبع وغيرها ـ يصعب الحديث عنها بالتفصيل وهذه أسماء لبعض تلك الأنواع على سبيل المثال: خبز المجرفة، خبز صفلاحة، خبز مسلوب، خبز المقبقب، خبز المخبازة... وغيرها كثير.

د ـ الحلويات:

عرف الناس في المدينة المنورة وما حولها أنواعاً كثيرة من الحلوى، وتفننوا في إعدادها وتقديمها، وأكثروا من ذلك في المناسبات السارة مثل الأعياد وحفلات الزواج وحفلات ختم القرآن للصغار.. وغيرها. وقد عُرفت الحلوى في الحجاز عموماً، وفي المدينة المنورة خصوصاً أكثر من انتشارها في المناطق الأخرى. ويمكن القول: إن منطقة المدينة المنورة ـ خصوصاً حاضرتها ـ

(١) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ١٧٧، ١٧٨.



الحلاوة الطحينية



أكلة اللدو

قد عرفت جميع أصناف الحلوى الشامية والمصرية والتركية والمغربية وحتى الهندية والجاوية، وهنا بعض مما اشتهر من أصناف الحلوى على سبيل المثال:

١ ـ الحلاوة الطحينية:

وتصنع من طحينة السمسم بعد إضافة السكر والدقيق إليها، وأحسن من يتقنها المكيّون، وأجود أنواعها ما كان خفيفاً أبيض اللون فإذا أخذت قطعة منه ظهرت إثر القطع خيوط دقيقة رقيقة رقة الشعر، وقد وردت بعد ذلك إلى البلاد الطحينية الشامية، وهي الحلوى نفسها مضافاً إليها بعض الفستق، وتمتاز بصناعة جيدة ولون أكثر صفاءً وكان البقالون يبيعونها، ويسمى من يتخصص في صنعها وبيعها (الحلواني).

٢ ـ الزلابيا:

هي نوع من العجائن المقلية، ويُظهر دقة الصناعة فيها أنه حينما تفرد العجينة مستديرة الشكل تكون قرصاً كبيراً، ربما بضعف حجم قرص الخبز العادي، ثم تلقى في إناء كبير مليء بالزيت، وما هي إلا لحظات حتى تخرج قرصاً كبيراً خفيفاً، حتى إنه ليتكسر إذا لمسته الأيدي، لهذا فإنهم يلمسونه من أطرافه. وتؤكل هذه الزلابية في الصباح مع ذائب السكر الذي يسمونه الشيرة، وكانت الزلابية تستعمل رسمياً في طعام الفطور والأفراح، وبخاصةٍ مناسبات الزواج[1].

٣ ـ الحلاوة اللدو:

تصنع من دقيق الحمص الأصفر مع زعفران وشيرة وهيل وفستق، وتكون على شكل كريات متوسطة الحجم، وقد عرفها أهل المدينة المنورة عن طريق الوافدين من بلاد الهند.

٤ ـ اللقيمات:

وتعرف في بلاد الشام باسم (العوّامة) لأنها تعوم في الزيت، وتصنع من دقيق القمح المعجون الذي يقطع قطعاً دائرية صغيرة تلقى



أكلة اللقيمات

(١) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ١٩٣.

في الزيت المغلي حتى تنضج، ثم يُصب عليها السكر المذاب أو العسل، وتقدم مع أكلات شهر رمضان المبارك غالباً[١].

٥ ـ الدبيازة:

هي نوع من الحلوى الخاصة بالأعياد، وهي مجموعة من المكسرات تتألف من القعقع والزبيب واللوز والمشمش المجفف، وهذه الأنواع جميعها ترد إلى الأسواق في شهر رمضان من سورية ولبنان، وكانت تصنع من هذه التشكيلة حلوى تطبخ على النار وتقدم ضمن طعام العيد، ولا يزال بعض كبار السيدات في المدينة المنورة وجدة ومكة المكرمة يصنعنه ليذوقه الأولاد والأحفاد في المناسبات السارة.



أكلة الدبيازة

٦ ـ المشبك:

هو أقراص من الحلوى، تتكون من دائرة كبيرة مثل حجم قرص الخبز المتوسط أو الصغير، ثم تلصق بها أصابع من هذه الحلوى بشكل طولي وعرضي فتبدو متشابكة، وهذه الحلوى تشبه الأصابع في استطالتها لأنها مجوفة من الداخل. والمشبك ذهبي اللون كثير الحلاوة.



أكلة المشبك

٧ ـ المهلبية:

وتصنع من دقيق الأرز، وتعالج بالحليب والسكر، ويضاف إليها ـ أحياناً ـ بعض اللوز الحجازي، وتصب في أطباق كبيرة فيتمُّ تناولها بالملاعق. والمهلبية صنف معروف هذه الأيام في المناسبات وفي الأيام العادية[٢].

٨ ـ الهريسة:

حلوى تصنع من الدقيق يضاف إليها الحليب، وهي تبدو حمراء اللون ثم تقطع إلى قوالب صغيرة متماسكة، وقد أُدخل في صناعتها بعض اللوز أو الفستق المطحون، وقد يضاف إليها شيء من اللحم المدقوق والسمن، ومنشأ صناعتها هو الهند.



أكلة المهلبية

(١) أبوعودة، علي، وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٢٧٦.

(٢) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ١٩٥ ـ ١٩٧.


السوبيا

٩ ـ الأقر:

وهو نوع من الحلوى الجاوية، يكثر بيعها للإندونيسيين عند قدومهم إلى المدينة المنورة، وقد أكلها أهلها وصنعوها بعد ذلك ودخلت في ثقافتهم الغذائية، وهي مكونة من مادة النشاء، تطبخ بطريقة خاصة ويضاف إليها بعض الألوان والنكهات، ثم تُصب في صوانٍ كبيرة، ومن ثم تقطع وتباع بالقطعة التي توضع بدورها في صحن صغير يصب عليها فيه شراب بلون الورد، وتؤكل بالملاعق[١].

هـ ـ المشروبات الساخنة والباردة:

ومن أهمها وأشهرها ما يأتي:

١ ـ السوبيا:

وهي منقوع الشعير بعد تخميره، إذ يضاف إليه بعض حبات الهيل، وكثيراً ما يظهر في رمضان ولا سيما إذا كان رمضان في أشهر الصيف، وفي بعض الأحيان تصنع السوبيا من الخبز الجاف الذي ينقع في الماء مدة معينة ثم يضاف إليه السكر والهيل ونحوه.

٢ ـ قمر الدين:

وهو ـ في الغالب ـ خاص بشهر رمضان المبارك، ويتكون من ثمر المشمش بعد إخراج بذوره وتنشيفه، ثم يفرد ويسطح حتى يصبح متماسكاً. أما طريقة تحضيره فإنه يُفَتُّ ثم يُغلى على النار ويقلب حتى يصبح سائلاً، ويضاف إليه السكر وماء الورد، ثم يُبرد.

وهناك بعض المشروبات الباردة الأخرى مثل منقوع التمر الهندي ومنقوع الزبيب وغيرهما، كما وجد في القرى والبادية ما يسمى (المريس) أو (المريسة)، وهو التمر الذي ينقع في الماء البارد ويدعك باليدين ثم يُصفى، وقد يضاف إليه الأقط المسحوق أو غيره[٢].

٣ ـ الشاي:

للشاي في المدينة المنورة طريقة معينة في التحضير والمزج؛ فهو يشرب خفيفاً وممزوجاً بالأعشاب العطرية والأزهار مثل: النعناع المغربي وهو النعناع المعروف في بلاد البحر الأبيض المتوسط العربية، والنعناع المديني وهو نوع من النعناع يعرف في بعض البلاد بـ(الحَبق)، يضاف إلى الشاي الأحمر فقط، ويكثر استعماله في فصل الشتاء لما له من رائحة نفاذة، وقد عُرف هذا النعناع في المدينة باسم (النعناع الحساوي)؛ إذ إن أحد البساتين في ذي الحليفة يعرف بـ(الحساء) اشتهر بزراعة هذا النعناع.


الشاي

٤ ـ الورد والفل:

وفي المدينة المنورة يضاف الفل والورد بأنواعه إلى الشاي الأحمر فيميزه عن الشاي في أي بلد آخر، ومن الأعشاب التي تميز الشاي فيها أيضاً الدوش، وله رائحة مميزة، وهو يغري بشرب الشاي، وهو ـ على ما يبدو ـ

(١) الخياري، السيد ياسين. صور من الحياة الاجتماعية. ط٢، مرجع سابق، ٢٨٥.

(٢) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ١٩٥، ١٩٦.

من الأعشاب الطبية، وكذلك النوامي وهو ورق النيم الذي نجده عند بائع النعناع ملفوفاً في ليف النخل، وإذا أضيف الورد إلى الشاي أعطى نكهة طيبة.

٥ ـ الكجراتي (الكركديه):

يُغلى ويقدم ساخناً وبارداً بإضافة السكر إليه، وهو يُغلى طازجاً، أو مجففاً حين لا يوجد الطازج منه، وله لون أحمر قانٍ ويميل إلى الحموضة في الطعم.

٦ ـ الشاي الأخضر:

يستعمله المغاربة بشكل عام والموريتانيون على وجه الخصوص، وقد انتشر ذلك المشروب ـ المسهل لعملية الهضم ـ ولاسيما في المناسبات التي تقدم فيها الأكلات الدسمة، ويضاف إليه النعناع المغربي، وأصبح اليوم من المشروبات المعتادة في المدينة المنورة بشكل عام، إذ أصبح الناس يبالغون في تقديم أنواع من المشروبات يختار منها الضيف ما يناسبه.

وللشاي عدته الخاصة؛ فالإبريق الذي يُغلى فيه غير الإبريق الذي يُقدم فيه، فذلك من التوتوا، وهذا من الصيني الخالص أو من أي نوع من المعادن الأخرى، ويوجد ما هو مخصص للضيوف، وما يقدم في المناسبات، وما هو لأهل المنزل، ويقدم بفناجين من الزجاج.

والسماور كان مظهراً من مظاهر عمل الشاي، وقد اختفى إلا من بعض البيوتات، ويستخدم في المناسبات الصغيرة والكبيرة، وهو مظهر اجتماعي متعدد الأشكال والألوان، وقد أصبح الآن (ديكوراً) يزين المجالس أو خزائن التحف.



الأباريق الصينية

٧ ـ القهوة:

وتصنع بطرق متعددة، ولها تقاليدها وعاداتها، وهي تقدم للضيوف عادة، ومن أنواعها المعروفة لدى أهل المدينة المنورة:

أ) القهوة العربية:

بعد حمس البن ودقه يغلى ويصفى في دلة التقديم مع الهيل، وقد كانت تشرب من دونه، وفي بعض الأحيان يضاف إليها الزنجبيل، كما هو الحال عند أهل اليمن، وكذلك القرنفل أو القرفة، وتقدم ـ عادةً ـ في فناجين، إلا أن الصبّات تختلف ما بين بعض القطرات تصبُّ في قعر الفنجان وبين ملئه وتقديمه في صينية أو بشكل مفرد من يد من يصب القهوة إلى يد شاربها، وقد شاع استخدامها في الوقت الحاضر وأصبحت هي قهوة الضيوف والمناسبات الرسمية.

ب) القهوة التركية:

يحمص البن إلى ما يقارب الحرق، وحينئذٍ يتمُّ طحنه، ويغلى حتى تظهر منه فقاقيع، ويضاف إليه السكر، ثم يصب في

أكواب معينة معروفة. وهذا النوع من القهوة يقدم في بيوتات المدينة المنورة العريقة[1]، ويشربها الناس اليوم بشكل أقل مما كان عليه الحال في الماضي.

ثانياً ـ طعام المناسبات:

اعتاد الناس في المدينة المنورة ـ مثل غيرهم ـ على تخصيص بعض الأكلات لمناسبات معينة مثل أيام الأعياد، وأيام شهر رمضان المبارك، والمناسبات العائلية الخاصة مثل الزواج، أو قدوم الحاج والمسافر، أو ختم أحد الأبناء أو البنات للقرآن الكريم... وغيرها، ولكن من أشهر ما اختص به أهل المدينة المنورة ما سُمّي بطعام (التعتيمة)، وفيما يأتي إشارة إلى بعض الأطعمة التي يكثر تناولها في مناسبات معينة مع التفصيل قليلاً في شرح التعتيمة:

أ ـ مأكولات شهر رمضان المبارك:

يحرص الناس على التنويع في وجبة الإفطار في شهر رمضان المبارك، ويخصونها بكثير من المأكولات والمشروبات دون غيرها، ومن ذلك أنواع الحلويات التي سبق شرحها،



أكلة السلات

ومنها: الزلابية واللقيمات والمشبك والهريسة والدبيازة وحلو اللدو وغيرها، إضافة إلى أنواع الشوربات والسمبوسك والمعجنات الأخرى.. وغيرها. كما يخصون وجبات هذا الشهر ـ إفطاراً أو سحوراً ـ بمشروبات خاصة مثل قمر الدين والسوبيا ومنقوع الزبيب.. وغير ذلك من المشروبات الباردة، خصوصاً إذا صادف رمضان وقت الصيف.

ب ـ طعام الأعياد:

يُكثر الناس في الأعياد من أنواع خاصة من الطعام ولا سيما في عيد الفطر، وأشهرها المعمول الذي يصنع ـ كما سبق ذكره ـ من دقيق البر والسمن البلدي ويحشى بالتمر، وكذا جميع أنواع الكعك والحلويات الشعبية التي تقدم للمعايدين (المهنئين بالعيد)، وكذا أنواع الحلوى التي تقدم للأطفال، وفي بعض القرى تذبح الذبائح، ويطبخ الرز أو الجريش ويُدعى إليه المقربون والجيران في أيام العيد الثلاثة، إذ يتنقلون خلالها بين البيوت ففي كل يوم يكون الغداء في أحدها.

وفي عيد الأضحى اعتاد الناس في المدينة المنورة تناول وجبة تسمى (السلات) وهي غداء يوم العيد، وتتكون من قطع من لحم الأضحية تطبخ بطريقة خاصة وتقدم مع الرز، بينما يكون الإفطار على قطع من لحم الأضحية أيضاً، ولكنها تكون مشوية وليست مطبوخة.

ج ـ التعتيمة:

وهي وجبة العشاء المقدمة للمدعوات في وقت العتمة[2] أي في منتصف الليل أو بعده بقليل. والتعتيمة مشهورة عند أهل المدينة المنورة، وهي وجبتهم المفضلة في العرس،

(١) أحمد سعيد بن سليم، *المدينة المنورة في القرن الرابع الهجري*، (القاهرة: دار المنار، ١٤١٤ هـ)، ٧٨ ـ ٨٠.

(٢) الناس في المدينة يتناولون التعتيمة في غير المناسبات وفي أوقات أخرى غير المساء كما في وجبة الإفطار، وقد اشتق اسمها من العتمة؛ لأن تناولها شاع لأول مرة في مناسبات الأعراس التي تقام في المساء.

أو في المناسبات الأخرى التي تكون عادة في المساء، وتحظى التعتيمة لدى المدنيين باهتمام كبير من حيث الإعداد والتجهيز واختيار المواد؛ وذلك لسهولة تحضيرها، وتوخي السرعة فيه، وقلة تكلفتها، والاستفادة مما بقي منها. والتعتيمة متعددة الأنواع وتلبي جميع الأذواق، وهي خفيفة الهضم، لذيذة الطعم، وتتكون من:

١ ـ الشريك أبوالسمن:

ويوصى الفران (الخباز) بصنعه، ويكون العدد اللازم منه حسب حجم العرس أو المناسبة فهو ذو خصوصية لا تتوافر في أمثاله من الشريك، وهو على شكل متوازي الأضلاع، طرفاه بيضاويا الشكل، ويصنع من دقيق الفينو الممزوج بالحليب البقري والبيض البلدي والسمن والملح والماء، حتى تتكون منه عجينة مرنة ودسمة، تقطع على شكل قطع الشريك، وترص القطع في طاولات لتخميرها فترة وجيزة، ثم تطلى بشيء من العصير على الوجه وتلمع قشرته، فيخرجه الفران من الفرن وقد غدا لونه داكناً، وطعمه لذيذاً، ومأكله هشاً، ومحتوياته مفيدة.

٢ ـ الششني:

ويتم إعداده وصنعه في البيت أو بوساطة الطباخ، ويحضر من (الدباء الصفراء) وتسمى عند أهل المدينة المنورة (الدبة الرومي) وهي نوع من القرع الأصفر، مدور الشكل، له أحجام مختلفة، ويفضل الكبير منه لسهولة تقطيعه ووفرة شوابيره، يوضع في صحون صغيرة ويؤكل بالخبز.

٣ ـ الهريسة:

هي حلوى تصنع في البيت أو في محلات الحلوانيين، وتعد من الدقيق واللوز مضافاً إليها السمن البلدي، ويوضع عليها حبات اللوز البجلي، وتقطع على شكل البقلاوة، ثم توضع في صحون بأشكال هندسية، وقد أصبح المختصون من الحلوانيين يتفننون في إضافة موادها ومقاديرها حسب رغبة صاحب المناسبة.

٤ ـ الحلاوة الطحينية:

هي معروفة وشائعة، وتقدم في هذه المناسبة بنوعيها: السادة، أو الحلاوة بالفستق، وتوضع في صحون بعد تقطيعها إلى مربعات صغيرة.

٥ ـ الجبن:

للجبن البلدي في المدينة المنورة طعم خاص، ومذاق فريد، وهو يأتي من البادية حول المدينة المنورة، إذ يصنعه أهل البادية من الحليب الصافي على شكل أقراص نصف دائرية، ويأتي مملحاً، وأما غير المملح فيقطع ويوضع في إناء فيه ملح حتى يكون له طعم مقبول، ويقطع على شكل مربعات صغيرة ثم يقدم في صحون صغيرة.

٦ ـ الزيتون:

ويختار من الزيتون الأسود أو الأشقر ذي الحبة المستطيلة، ويوضع في زيت الزيتون لكي يعطيه طعماً لذيذاً ولمعاناً وبريقاً، ويوضع عند التناول في صحون وعليه قليل من الزيت[1].

(١) الأنصاري، ناجي. التعتيمة، مرجع سابق، ١٤١ ـ ١٤٤.

٧ ـ الدقة:

هي خلطة من بهارات متنوعة، وقد سبقت الإشارة إليها.

هذه هي الأصناف الرئيسة للتعتيمة، على أنه قد تضاف إليها أنواع من الحلوى، مثل الحلاوة اللبنية، والحلاوة المهجمية، والحلاوة اللدو، وهي أنواع من الحلوى تصنع محلياً.

وتوضع مفارش الطعام على شكل مدّات طويلة، وعادة تكون هذه المفارش من القماش الصليطي أو من قماش البفتة؛ وذلك للاستفادة منها في مناسبات متعددة بعد تنظيفها وغسلها عقب كل مناسبة، وتوضع عليها صحون الهريسة والششني والجبن والحلاوة والزيتون، وترص بنظام من بداية المفارش حتى نهايتها، إذ يوضع صحن من كل نوع على اليمين والشمال يغاير الصحن الآخر، ويتخلل الصحون الشريك أبوالسمن، وإذا كانت هناك فاكهة فإنها توضع في صحون كبيرة في الوسط.

وعادة ما يتم استئجار هذه الصحون المطلوبة من محلات متخصصة بهذا الغرض، وأحياناً تتم استعارتها من الجيران والأهل والأصدقاء، شأنها شأن سائر الأشياء الأخرى. وأحياناً تستعار من أهل الوقف الذين يوجد لديهم كثير من احتياجات المناسبات، وتعاد إليهم بعد انقضائها، فيما يتولى الجيران إعداد مفارش الطعام وتجهيزها منذ البداية وحتى النهاية، وهناك بعض الناس الذين لديهم خبرة وذوق في تقطيع مواد التعتيمة، إذ يقدمونها بشكل متناسق جميل، وهم يحضرون في جميع المناسبات، لا يبتغون من وراء ذلك أجراً سوى المعونة (الفزعة) والمشاركة وصنع الجميل.

ومن مزايا التعتيمة قيام أهل العروسين بتوزيع ما تبقى منها على الأهل والأقرباء والجيران والأصدقاء، إذ توضع في صحون، كل نوع على حدة مع عدد من قطع الشريك، وكل من خرج أخذ نصيبه أو ترسل إليهم بعد ذلك، بينما يحتفظ أهل العروسين بجزء منها لأنفسهم وللعروسين، كما يقدمونها لكل من جاء إليهم مباركاً ومهنئاً. وخلاصة القول: إن التعتيمة يستفاد من جميع عناصرها دون أن يهدر منها شيء ودون أن يوضع في صناديق المخلفات[١].

د ـ المسقط:

ومن المناسبات التي تختص بطعام معين ما يصنعه بعض أهل القرى من الهريسة المطبوخة باللحم الذي تتخلله أرغفة من خبز يسمى المسلوب، ويرش هذا الخليط بالسمن، وتسمى هذه الوجبة (المسقط) وهي بمثابة إفطار يقدم في الصباح للمساهمين في عملية حصاد الزرع[٢].

وهناك ظاهرة أخرى تستحق الذكر وهي أنه كان ينتشر في العلا ـ وبصفة خاصة في أزقة البساتين وطرقاتها أثناء موسم التمور في فصل الصيف ـ ما يشبه اليوم مطاعم الوجبات السريعة، وكانت تسمى (القدايرة) وهي لحم ومرق، إذ تطبخ الذبيحة من الضأن أو الماعز في قدر كبير على جانب الطريق بعد تقطيعها إلى أجزاء تسمى: الفطحة، الرأس، الكرشة، الخنيصر، الضلعة، الرقبة، الظهر، المخلع، الكتف، اليد، الكراعين، ملفوفة بالمصارين، القلب مع الكبدة. ويباع كل جزء مع كمية من المرق، وتستمر عملية البيع هذه بدءاً من وقت الضحى إلى ما بعد الظهر، وتستعمل التمور وسيلة للمقايضة[٣].

(١) الأنصاري، ناجي. التعتيمة، مرجع سابق، ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ١٧٩.

(٣) المرجع السابق، ١٧٦.

ثالثاً ـ عادات تقديم الطعام والضيافة:

فيما يتعلق بعادات تناول الطعام وتقديمه للآكلين من أهل البيت أو الضيوف لا بد من التفريق بين أهل الحضر وأهل القرى والبادية؛ لأن البيئة المدنية الحضرية تختلف في كثير من جوانب حياتها عن البيئة الريفية والبادية، كما يوجد اختلاف بين أهل الريف وبين أهل البادية في هذا الشأن، وإن كان ذلك الاختلاف يأتي بشكل أقل من اختلافهم عن الحاضرة لأسباب تتعلق باختلاف جوانب الحياة بين أهالي البيئات المختلفة، بالقيم نفسها، كما تتعلق بالوفرة الاقتصادية أو قلة ذات اليد، وغير ذلك من الأسباب، وفيما يأتي عرض مختصر لبعض العادات المتعلقة بالطعام والضيافة:

أ ـ عادات أهل الحضر:

يبدو أن الناس في المدينة المنورة نفسها كانوا أكثر عناية بالوجبات التي يتناولونها في اليوم والليلة، من حيث تنظيم مواعيدها وتنويع محتوياتها والتفنن في طرق إعداد الأطباق الشهية وتقديمها لأفراد الأسرة، فهم يتناولون ثلاث وجبات رئيسة خلال ساعات اليوم هي:

- وجبة الإفطار وتتكون ـ غالباً ـ من الفول والبيض والعسل وأحياناً الجبن والزيتون وغيرها، وفي فصل الشتاء تكون من الوجبات الدسمة التي توفر الطاقة الحرارية مثل العريكة أو الحيسة والمحيوسة وكلها من التمر والسمن والبر.
- وجبة الغداء وتقدم وقت الظهيرة وهي من اللحم والخضار والأرز أو الجريش وأحياناً السمك، وكلها تعد بطرق فنية وتحمل أسماءً مختلفة مثل: المعرق والمختوم والمحشي والكسكس وغيرها.
- وجبة العشاء والتي لا بد منها للجميع، ويغلب أن تشترى بعض مكوناتها جاهزة ومنها: المطبق والطعمية ونحوها، مع الحلاوة الطحينية والزيتون والعسل أو بعض المربيات، بالإضافة إلى الخبز التميس أو الشريك ونحوه، ويتم تناول هذه الوجبة بعد صلاة العشاء.

ويتم ترتيب مفرش الطعام بطريقة جيدة، ولكل طعام آنيته الخاصة، ومن المتعارف عليه أن يكون تناول الطعام في مكان وشرب الشاي أو القهوة في مكان آخر داخل البيت، كما أن استعمال الملاعق لدى كثير من الناس أمر معتاد، ولا أحد يجرؤ على أن يمد يده إلى الطعام قبل حضور الجميع وبخاصة الأب الذي هو رئيس العائلة.

أما فيما يتعلق بالضيافة فلها أصولها وعاداتها وتقاليدها المعروفة، وهي في الحضر أقل منها في الريف والبادية، فقد يمر العام والعامان على أهل البيت دون أن تقام في بيتهم مناسبة يدعى إليها الطاعمون، بخلاف أهل القرى والبادية، ولذلك فإن أغلب عادات الضيافة في الحضر تتعلق بمناسبات معينة مثل الزواج أو الاحتفالات العائلية الخاصة بالمناسبات المختلفة، وبناءً على ذلك فإن العناية بالطعام تكون في هذه المناسبات المختلفة كبيرة جداً، ويشارك في إعداد الطعام طباخون وخبازون وحلوانيون من خارج الأسرة، وكل هذا غير موجود في البادية والريف، أما عن الضيافات الطارئة فإن الناس لم يكونوا يبالغون في الإكرام كما يفعل أهل البادية بأن تذبح الذبيحة والذبيحتان للرجل الواحد مثلاً،

بل كان يقدم له ما يقدم لأهل البيت مع بعض الإضافات والبشاشة والترحاب. ويمكن تفسير قلة الضيافة في الحاضرة بتوافر المطاعم ويسر الحصول على المأكل والمبيت بشيء من النقود من خلال توافر أنواع المطاعم والمقاهي التي تقدم أنواع الأطعمة والفُرُش لمن يريد في الليل والنهار.

ب ـ عادات أهل القرى والبادية:

يتسم البرنامج الغذائي اليومي للعائلة لدى أهل القرى والبادية بالبساطة الشديدة، كما هي الحال بالنسبة إلى بيئات القرية والبادية عموماً، ولكن تبدو الأمور أكثر تعقيداً فيما يتعلق بنواحي الضيافة والكرم واستقبال القادمين وطريقة تقديم الطعام لهم ونوعيته وحتى أسلوب تناوله.

ففيما يتعلق بالوجبات اليومية فهي وجبتان فقط: الإفطار والعشاء، وأهمهما وجبة العشاء التي تكون قبل صلاة المغرب أو بعدها، وليس هناك التنوع الشديد في أصناف الأطعمة كما في المدينة المنورة نفسها، فوجبة الإفطار في الصباح تضم: الخبز البلدي والتمر والسمن، أو ما يتيسر منها، أو ما يركب منها من أكلات بأسماء مختلفة حسب القرى والبلدات. أما وجبة الغداء فيقتصر فيها على ما يتيسر من التمر والأقط ونحوهما، وأحياناً يركز على شيء من السمن، دون عناية كبيرة في التحضير لهذه الوجبة أو الاجتماع عليها من قِبل جميع أفراد العائلة، كما أن الوجبات المطبوخة ـ وتكون غالباً للعشاء ـ تتكون من صنف واحد من الطعام أو صنفين على الأكثر، فلا تكاد تجد في البادية والقرى السفرة المدنية المشتملة على أصناف الأطعمة والشوربات والحلويات وما إليها مما ذكر سابقاً، وما يصحب ذلك من الأواني والأكواب والملاعق ونحوها، وقد يرجع هذا لسببين هما:

- قلة الموارد مقارنة بأهل المدن.
- البساطة المرتبطة ببيئة القرية والبادية، وتتمثل في كثير من أمور الحياة، ومنها النظام الغذائي اليومي المرتبط بالأنشطة الاقتصادية والمهنية داخل الإطار الاجتماعي والبيئة الثقافية العامة لتلك المجتمعات.

أما فيما يتعلق بالضيافة واستقبال القادمين فإن تعلقه بالقيم السائدة في البيئة العربية والإسلامية بوجه عام قد أدى إلى بروز العناية به في بيئات القرية والبادية بشكل أكبر، إذ إنها لا تزال أشد محافظة على كثير من تلك القيم من البيئات الحضرية بوجه عام؛ ذلك أن البيئة الريفية والبادية لم تجتحها عوامل التغير الثقافي والاجتماعي بالسرعة نفسها التي حصلت في المدن بوجه عام، فعلى سبيل المثال: قد يجوع ابن البادية أسبوعاً كاملاً، ثم يقدم لضيفه في ليلة واحدة ما كان يكفي عائلته طيلة ذلك الأسبوع أو أكثر، ومن هنا فقد برزت العناية بالضيوف والمبالغة في إكرامهم لدى الناس في قرى المدينة المنورة وباديتها ـ كما هي الحال لدى أهل القرى والبادية في بقية مناطق المملكة العربية السعودية ـ وقد نشأ عن هذا عادات وتقاليد كثيرة اختلفت في تفصيلاتها وجزئياتها من قرية إلى أخرى.

وعادة يصرّ المضيف على الضيف بأن يتناول طعام العشاء أو الغداء ويُعبِّر عن ذلك بقوله لضيفه: (متى تشرب القهوة عندنا؟)، ثم يدور حوار بينهما حول هذا الموضوع وينتهي بإصرار المضيف على أن يستوفي

الضيف (ماجوبه) أي ما يقتضي القيام بواجبه، ويقصد بذلك الذبيحة التي هي بعير أو كبش أو كبشان أو أكثر أو أقل من ذلك حسب مكانة الضيف. ويحضر الذبيحة وجهاء القوم، وعندما يضعها أمامهم يقول المضيف: (حياكم الله على المقسوم الذي هو أقل من قدركم)، ويرد الضيف بقوله: (ما جئتم بقصور، وما بعد هذا معذار). وتقدم الذبيحة للضيف على حالتين:

- **الحالة الأولى:** يقدم مؤخرها فقط (الفخذان وجزء من الظهر) ويسمى (المفطح) والرأس كاملاً والكبد والقلب وتسمى (العلاقة)، و(العصبان) وهي الشحم الموجود في بطن الذبيحة، وفي هذه الحالة يتقدم الضيف أو من ينيبه فيرفع قدراً من الذبيحة ويكون عادة إحدى الرجلين والحنك وجزءاً من الكبد والقلب وبعض الشحم، والهدف من رفع هذا القدر من الذبيحة الذي يسمى لحمة (المقري) هو احتمال أن يأتي ضيف جديد فيضطر المضيف (المعزب) إلى ذبح ذبيحة جديدة، ولكن عندما تقدم هذه اللحمة (لحمة المقري) فإنها تكفي عن ذبيحة أخرى، فيحلف الضيف الجديد بقوله: (ما يكتب لي غير ما حصل). أما المقدم من الذبيحة فهو مقدم الشاة (اليدان مع جزء من الظهر والرقبة)، ويكون عادة لأهل البيت والجيران.
- **الحالة الأخرى:** وهي أن تقدم ذبيحة كاملة تسمى (محشمة) إذا كان الضيف غريباً أو له قدر كبير في قومه، ففي هذه الحالة يرفع الضيف نصف الذبيحة مع الحنك وجزء من الكبد والقلب وبعض الشحم.

وعند الانتهاء من تناول الطعام بالكامل - دون أن يقوم أحد من الحاضرين - يقول: الضيف: (يا راعي المد عسى الله عوينك)، ويقوم الجميع[1].

ومن العادات المشهورة في كثير من القرى أن تبدأ الضيافة بالقهوة، والشاي بعدها، ولا يصح الاعتذار عن شرب القهوة بأي حال؛ لأن ذلك يحمل مضموناً ثقافياً قد يعبر عن أن هذا الضيف له طلب يريد تحقيقه وإلا فإنه لن يقبل شرب قهوتهم، ولهذا فلا بُدّ من شرب فنجان واحد على الأقل، وقد جرت العادة أن يصب للضيف نصف فنجان، ويكرر الصب كلما شربه حتى يهز الضيف الفنجان أو يضع يده فوقه معلناً اكتفاءه من القهوة أو الشاي، وقد يقول كلمة (بس؛ أي يكفي)، وقد جرت العادة في مهد الذهب وما جاورها أن يلزم الضيف بشرب فنجانين آخرين بعد الاكتفاء، إذ يناوله الذي يصب القهوة الفنجان الأول قائلاً: (يلزم) ويناوله الثاني قائلاً: (وحيد).

وقد جرت العادة في الأكل أن تقدم قصعة واحدة (صحناً) أو أكثر حسب عدد الحضور، ويجلس على المائدة الجميع دون تمييز أو تفاوت في مراكزهم الاجتماعية، ولا يستعملون أي أداة من أدوات المائدة مثل الملاعق أو الشوكات، وإنما يتناول كل واحد الأكل بيده اليمنى فقط، ومن العيب مخالفة هذه القواعد، فإذا عجز أحدهم عن قَطْع اللحم بيده استعان بزميله المجاور، ومن الطريف أن ترى اثنين على المائدة يشد كلٌّ منهما بطرف قطعة كبيرة من اللحم حتى تنقسم إلى قسمين فيتصرف كل منهما بقسم منها.

وفي العادة لا تأكل النساء مع الرجال، بل يأكلن بمعزل منهم، وغالباً ما يكون ذلك

(١) السناني، معتاد. العيص، مرجع سابق، ٨٠، ٨١.

بعد أن يأكل الرجال، وفي الغالب يدار على الحاضرين البخور (العود) من قبيل الزيادة في الإكرام، فيأخذ الضيف من رائحته حتى يعبق في ملابسه جميعها وخصوصاً (الفترة) ـ وقد تنطق (الغطرة) في بعض قرى المدينة المنورة ـ والمعطف، ويطاف على الحاضرين بالبخور واحداً واحداً أكثر من مرة، فإذا تمت هذه العملية فلا يستحب القعود عملاً بالمثل الدارج: (إذا أطلق العود فلا قعود) أو القول: (بعد العود ما في قعود) [1].

رابعاً ـ مظاهر الثبات والتغير:

لم تسلم عادات الطعام والضيافة في المدينة المنورة من عوامل التغير والتبدل في كثير من الأنماط والأساليب الخاصة بإعداد الطعام وتناوله وتقديمه للغير من أهل البيت أو الضيوف القادمين إليه، وقد لحق هذا التغير جميع البيئات الحضرية والريفية والبادية على حدٍّ سواء.

وبناءً عليه فقد تمثل التغير في أسلوب إعداد الأطباق، بأن دخلت أنواع وأطباق لم يكن يعرفها الناس في كثير من القرى والهجر، مثل المكرونة وأنواع (المحشي) من الخضار المختلفة وغيره، وأنواع السلطات المتعددة، والحلويات التي انتشرت بسرعة هائلة خصوصاً في ولائم النساء، كما أن المطاعم الأجنبية ـ وبخاصة الغربية منها ـ لم تكن معروفة حتى في قلب المدينة المنورة نفسها، بينما نراها اليوم تحيط بالمسجد النبوي الشريف من كل جانب وتقدم (البرجر) والسندوتشات الأمريكية والبيتزا الإيطالية وغيرها.

وما يعد مؤشراً على التغير في هذا المجال أن النساء أخذن يقمن ولائم فاخرة تخصهن، وهو ما لم يكن مقبولاً في ثقافة الأمس وبخاصة في القرى، وقد يكون ذلك راجعاً إلى عوامل متعددة من أهمها وجود دخل مستقل لبعض النساء غير دخل الزوج، ما جعل المرأة أكثر حرية في هذا المجال، وبدأت الأخريات يقلدن هؤلاء العاملات اللاتي ينفقن من دخولهن الخاصة، فأصبح هذا التقليد عادة اجتماعية لازمة للجميع ومؤشراً آخر على التغير في عادات الطعام والضيافة، كما أن أكثر الولائم اليوم تطبخ خارج المنزل حتى لدى أهل القرى الذين كانوا يعدون ذلك عيباً فيما سبق.

ولقد استغنت المرأة عموماً عن كثير من الأدوار التي كانت تقوم بها في مجال طحن الحبوب وخبز الأرغفة وتجهيز الطعام وحتى تنظيف الأواني، فقد أصبح الدقيق يُشترى جاهزاً، والخبز كذلك، بل أصبح الطعام كله يحضر من المطاعم جاهزاً لدى بعض العائلات، ولاسيما لدى العاملات من النساء، وأصبحت ظاهرة استقدام الخادمات من خارج المملكة شيئاً طبيعياً ومظهراً اجتماعياً للعائلات في المدينة والقرية وحتى الهجرة، وتختلف الأسر في الأدوار التي توكلها إلى الخادمة إذ يقتصر دورها في بعض البيوت على التنظيف، فيما يكلفها بعض الأُسَر بالطبخ.

وأخيراً، فإن الفارق بين ثقافة الحضر وثقافة البادية والأرياف ـ في مجال العادات الغذائية ـ قد تقلص جداً للأسباب السابق ذكرها، ومن ذلك أن عدد الوجبات اليومية ومواعيدها قد أصبحت واحدة ـ تقريباً ـ في كل هذه البيئات؛ وذلك لتقارب الظروف وتشابه المهن التي يقوم بها الناس حالياً، أما

(١) أبوعودة، علي، وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٢٧٣ ـ ٢٧٥.

ما يُعَدُّ حدّاً ثابتاً في مجال الطعام والضيافة في المنطقة عموماً فهو ما يتعلق بالقيم والآداب الإسلامية من إكرام للضيف، والأكل باليد اليمنى، والبدء بالتسمية بـ(بسم الله)، واحترام الكبير ومن له مكانة اجتماعية بألا يبدأ أحد الأكل قبله... وما إلى ذلك.

الفصل الخامس

العلاج الشعبي

أولاً بعض أنماط العلاج الشعبي

ثانياً المعتقدات الشعبية في العين والسحر والجن والتداوي بالقرآن الكريم

ثالثاً مظاهر الثبات والتغير



عملية الحجامة

لا يخلو مجتمع - مهما كانت درجة تحضره - من بعض الممارسات الطبية والعلاجية التي لا تقوم - بالضرورة - على أصول علمية وتجارب مخبرية بقدر ما تقوم على الخبرات الموروثة والتجربة الشخصية للمعالج ومن أخذ عنه. وفي المجتمع العربي عموماً برز كثيرون ممن امتهنوا التطبيب والمعالجة لأمراض عضوية ونفسية متعددة. وفي منطقة المدينة المنورة - كما في غيرها من مناطق المملكة العربية السعودية - ازدهر الطب الشعبي أو ما يسمى (الطب العربي)، وتمَّ الاعتماد عليه في معالجة كثير من الأمراض لفترات طويلة، وحتى مع وجود المستشفيات والأطباء في النصف الثاني من القرن الماضي، إذ إن ثقة الناس كانت أشد بالعطار والطبيب الشعبي من ثقتهم بالطبيب والصيدلاني.

وقد تنوعت أساليب التطبيب والمعالجة الشعبية واختلفت من معالج إلى آخر، فكلٌّ يدّعي أنه الأعلم والأقدر على التشخيص ووصف الدواء الناجع، أو حتى التدخل الجراحي عند بعضهم إذا لزم الأمر، ومن هؤلاء مَن اقتصر على مجال معين مثل التجبير أو الحجامة أو معالجة الأمراض النفسية، وما يعتقد أنه من مس الجان أو السحر والحسد، ومنهم من جعل عيادته مستشفى متكاملاً، فهو يرقي ويجبر ويصف الأدوية، ولا يرد أحداً قصده للاستشفاء والمعالجة.

وفيما يأتي عرض لبعض الممارسات الشعبية التي استخدمت في علاج الأمراض والوقاية منها في المنطقة حسب الاختصاص:

أولاً - بعض أنماط العلاج الشعبي:

يتولى معالجة المريض - في الغالب - أهله وأفراد أسرته في المراحل الأولى من المرض، وذلك فيما يتعلق بالأمراض المعروفة، وإذا لم يشفَ فإن الأمر يتطلب عندئذ الاستعانة بأحد هؤلاء الثلاثة:

- الطبيب العربي.
- العطار.
- المزين (الحلاق).

وإن كانت المريضة امرأة حبلى أو مرضعاً فإن هناك (الداية)، حيث الخبرة والاختصاص في أمور النساء والولادة. ويوجد - في الغالب - تعاون بين هؤلاء جميعاً رغم المنافسة على اجتذاب أكبر عدد من المرضى لكلٍّ منهم، إذ لا يستغني الطبيب العربي - في الغالب - أو الداية أو حتى المزين عن شراء بعض الأغراض من العطار، كما لا يستغني العطار عن استشارة الطبيب العربي في بعض ما يبيعه للناس وما يوفره لهم من أعشاب أو دهونات أو غيرها.. وهكذا.

وتختلف طبيعة المعالجة باختلاف الأمراض والإصابات: كسوراً كانت أو وهناً أو



أداة الكي

آلاماً في الرأس أو أوجاعاً في البطن أو رمداً في العين أو غير ذلك، وفيما يأتي عرض موجز لبعض الممارسات العلاجية الشائعة لدى الناس في المنطقة:

أ ـ التجبير:

في حالة حدوث فك أو كسر أو شعر في أحد العظام أو المفاصل فإن هناك طرقاً متعددة للتعامل مع كل من هذه الحالات، فعلى سبيل المثال: يقوم الطبيب الشعبي بإعادة تركيب المفصل إلى وضعه الطبيعي، كما يقوم في حالات الكسور بتنظيف مكان الكسر ومن ثم إعادة العظم إلى حالته الطبيعية، ويضع عليه خلطة من البيض وطحين الشعير وأحياناً شيئاً من الصابون والزيت، ثم يقوم بالتجبير بـ(الطيبان) وهو لف الموضع المكسور بقطعة من الكرتون والأعواد تكون مناسبة لحجم العضو المكسور، ومن ثم لفها بخيط متين من (الدبارة) وهي خيوط معروفة، وشدها بـ(مكر) الخيط الفارغة وحبسها بطريقة معينة معروفة لديهم وتترك عدداً من الأيام، ثم يعود لزيارة المريض مرة أخرى للاطمئنان عليه وحل الرباط قليلاً.. وهكذا حتى يتم جبر الموضع المكسور[1]. ويُنصح المكسور بنوع من الحمية بتجنب بعض الأطعمة التي تتعارض مع التجبير مثل: التمر ونحوه.

ب ـ العلاج بالكي:

الكي من الطرق القديمة في المعالجة لدى كثير من الشعوب، وهو جائز في الشريعة الإسلامية وإن لم يكن مستحباً، ويستعمل الكي في مواضع متعددة من الجسم منها: فوق الرأس، وفقرات العنق والظهر، والأطراف، ومواضع من البطن، وتحت الأذن... وغيرها.

وطريقة العلاج أن يكشف الطبيب الذي يتولَّى العلاج صدر المصاب وظهره ويفحصهما، ويتحسس مواضع الألم، ويؤشر عليها بالفحم بعد أن يسأل المريض عنها، فإذا تأكد من وجود المرض وحدد مواضعه أحضر إناءً فيه جمر متوهج، ووضع فيه الأداة الحديدية التي يحملها معه، وهي قطعة من الحديد الرفيع، فإذا توهجت هذه القطعة بفعل بقائها في النار سارع الرجل فكوى بها المريض في مواضع الألم التي حددها، ويتم هذا الكي دون تخدير، وبعض المرضى يحتاج إلى سبع كيات، وبعضهم يحتاج إلى أكثر أو أقل حسب الحالة التي يراها المعالج الذي يتولى هذه العملية[2].

ج ـ الدفن:

ويقصد به دفن الشخص حياً دون رأسه، أو يقصر الدفن على الجزء أو العضو المريض من الجسم سواء أكان ذراعاً أم ساقاً.... إلخ. وتتم هذه العملية في منطقة تمتاز تربتها بميزات خاصة، ولها شهرة في علاج أنواع معينة من الأمراض، وهي تتم أحياناً تحت إشراف متخصص وإن كان من الممكن أن تتم دون إشراف، وتتطلب العملية المذكورة تجرد العضو المصاب من الثياب ليتم دفنه في الرمل الساخن بفعل حرارة الشمس وبقاؤه

(١) الخياري، السيد ياسين. صور من الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٢٤٥.

(٢) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ١٣٤.

لساعات، وتكرر العملية من عشرين إلى ثلاثين مرة خلال فترة العلاج، ويتطلب ذلك الأمر الإمساك عن تعاطي اللحوم والاقتصار على الخبز والعسل.

د ـ الحمصة:

وهي من أساليب العلاج التي تتم ـ غالباً ـ على يد شخص متخصص، وتقوم على اعتقاد أساسي مؤداه أن (الحمصة) التي توضع في فتحة خاصة في الجسم ـ وغالباً ما تكون في موضع الألم ـ إنما تمتص المرض من جسم المريض، ويقوم بهذه العملية المطبب الشعبي، إذ يفتح فتحة في الجسم بمقدار ما يضع الحمصة، ويضع عليها ورقة من الورق المقوى، ويربطها بمنديل أو شاش، ويتركها حتى تمتص من الجسم بعض الفضلات، وكلما عطبت الحمصة استبدلها بأخرى، ويعتقد بأن هذه العملية تشفي من الصداع ومن أمراض أخرى كثيرة [١].

هـ ـ كاسات الهواء:

ويقصد بها تحويل الاحتقان الدموي من الرئتين وغيرهما إلى جدار الصدر أو الأجزاء الخارجية من الجسم، وهي غالباً ما تكون في الظهر للتخلص من آلامه، وذلك بإشعال وريقات صغيرة داخل الكاسات الزجاجية لتفريغها من الهواء، ومن ثم تلصق فوهتها على ظهر المصاب فتجذبه بقوة، كما تستخدم بكثرة في حالات الالتهاب الرئوي والنزلات الشعبية والصدرية. ويستلزم الأمر توافر ٦ كاسات على الأقل حتى يتيسر إنهاء العملية في أقصر وقت ممكن ومن دون تعريض المريض للإرهاق، وتسمى مثل هذه الطريقة في نجد (الخبن) أو (الخبنة). وعلى الرغم من أن هذا العلاج قديم جداً، إلا أنه لا يزال يستخدم إلى الآن[٢].

و ـ معالجة المزين (الحلاق):

يوجد بعض التدخلات العلاجية التي لا يستطيعها سوى المزين الذي كان يقوم بدور مهم في حياة الناس، ما يجعله في درجة تكاد تصل إلى درجة مساعد طبيب، فالمزين هو الذي يقوم بعلاج الجروح المستعصية التي لا ينفع فيها العلاج المنزلي، وله بعض المراهم التي يحتفظ بأسمائها سراً لديه، وهو الذي يستطيع عصر الجروح وتنظيفها ووضع المراهم التي لديه عليها، وكذلك بعض المواد مثل صبغة اليود وغيرها، كما أن المزين هو الذي يتولى ختان الأولاد[٣]. ويقوم بعض المزينين بمهمة الحجَّام الذي يفصد ويستخرج الدماء الفاسدة بطرقه الخاصة التي تختلف في بعض جزئياتها من حجام إلى آخر.

ز ـ الداية ومداواتها للنساء والأطفال:

كانت القابلة ـ أو الداية كما كانوا يسمونها ـ هي التي تتولَّى عملية الولادة، بل كانت تتولى كذلك معالجة الأمراض النسائية، فهي طبيبة أمراض النساء والولادة بالتعبير الحديث، وكانت الولادات تتم في البيوت، وقد كان يوجد كثير من الدايات اللاتي تختصُّ كل واحدة منهن ببعض العائلات، فإذا ظهرت آثار الحمل استدعيت الداية الخاصة بالعائلة لرؤية السيدة الحامل، ثم تأخذ في التردد إليها إلى أن يحين وقت الولادة، وكان يشارك الداية في عملها السيدات الكبيرات من نساء العائلة ممن

(١) سمر محمد عبدالله ركن، *الطب الشعبي في المجتمع السعودي*، (الرياض: العبيكان، ١٤١٨ هـ)، ٥٢.
(٢) المرجع السابق، ٥٠.
(٣) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ١٣٧.

سبقت لهن تجارب كثيرة، فإذا كانت الولادة ميسرة تم كل شيء بصورة طبيعية، أما إذا بدأت الأمور تتعسر فحينذاك تتصرف الداية حسب علمها وتجاربها السابقة. وما يذكر في هذا المجال أنه إذا كان الجنين منحرفاً فإن المرأة توضع عندئذٍ فوق سجادة كبيرة، ويتولى النساء حمل هذه السجادة وتحريكها ذات اليمين وذات الشمال ليعتدل الجنين وينزل بصورة طبيعية. وكانوا يضعون المرأة النفساء على كرسي كبير له فتحة من أسفله، ويضعون تحت الكرسي إناءً فيه نار متأججة، ويضعون فيه مواد للبخور ويسمونه (المعمر)، ثم يغطون الكرسي من جميع الجهات بحيث يتصاعد هذا البخور إلى جسم المرأة، ويتم هذا قبل إتمام النفساء اليوم السابع من الولادة[١].

ويرتبط عمل الداية ـ في المقام الأول ـ بمحل العطار الذي تتعامل معه للحصول على مواد وأعشاب بالنسب التي تحددها، فقد أصبح العطار نتيجة خبرته في التعامل مع وصفاتها يتقن تركيبها كما هو مطلوب، ويزيد عليها في بعض الحالات التي قد تتطلب من العطار إبداء تجربته فيها، لكن العطار عموماً لا يستطيع مقارعة خبرة الداية أو مجاراتها في وصفات النساء والأطفال الرضع، فهي مولدة نساء الحي والأقرب إليهن والأدرى بتفصيلات أمورهن وأحوالهن الصحية[٢].

ح ـ العلاج بالحمية:

وقد عُرف عبر التاريخ لدى جميع الشعوب مع اختلافات كثيرة في بعض نصائح الحمية، وكل مريض ـ حسب علته ـ ينصح بالابتعاد عن أنواع معينة من الطعام والشراب لفترات قد تطول وقد تقصر، ويتم إسداء النصائح الخاصة بالحمية من الأهل وكبار السن المجربين في العائلة وغيرهم من الأقارب أو الجيران، كلٌّ يدلي بدلوه ويعطي نصائحه، ولكن الكلمة الفصل ـ في الغالب ـ عند الطبيب الشعبي أو العطار أو الداية الذين لا يجرؤ المريض على مخالفتهم، وإذا فعل فإنه يؤنب ويلام من قِبل الأهل والوالدين على وجه الخصوص، وقد يقومون بحرمانه قسراً مما يمنعه منه الطبيب رغبة في شفائه وخوفاً عليه من مضاعفات محتملة كما أخبر الطبيب.

ط ـ العلاج بالأعشاب والوصفات:

لقد كانت لدى الناس ـ بصفة عامة ـ معرفة تامة باستخدام بعض الأعشاب لبعض الحالات العامة، ويحتفظون بها في منازلهم بصفتها علاجاً دون الرجوع إلى العطار، مثل اليانسون وشوربة السنمكي أو السنا والكراوية والنانخا وسكر النبات والشيح والحبة السوداء، وتستخدم بالسفوف أو الغلي والتفوير. وكان من المعتاد استخدام شوربة السنمكي في كل بيت بصفتها مادة مسهلة، ويصرُّون على تناولها مرة في كل شهر إذ يعدُّونها مطهرة للأمعاء، وذلك بعد تحليتها بالسكر للأطفال في أكواب كبيرة [٣].

ومع هذه الخبرات كانوا لا يستغنون عن خبرة العطار في كثير من الحالات، وبخاصة تلك التي لا يستطيعون معالجتها دون استشارة هؤلاء العطارين، إذ لم يكن بالمدينة المنورة طبيب بالمعنى المعروف الآن، وإن وجد فإن الإقبال عليه كان نادراً؛ لأن الأهالي تعودوا الذهاب إلى العطار لأخذ علاج أي شكوى تمرّ بهم، وكان العطارون ـ الكبار منهم وأصحاب

(١) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ١٣٨.

(٢) عبدالعزيز عمر أبوزيد، *حكايات العطارين في جدة القديمة: دراسة تاريخية وصور اجتماعية للمعتقدات الشعبية*، (جدة: ١٤١٦ هـ)، ٥٧.

(٣) المرجع السابق، ٩٦.



العطار

الخبرة - يتناوبون على فتح دكاكينهم ليلاً دون أمر حكومي ولا مرتب يتقاضونه، وإنما تطوعاً وإسهاماً منهم في تخفيف الآلام عن الناس، وقد كان لهم في السابق دور كبير - وبخاصة كبار السن منهم - في معالجة كثير من الأمراض؛ فقد كان يقصدهم الناس ويعرضون عليهم شكوى مريضهم، فيقوم العطار بتجميع بعض العقاقير ويطلب منهم غليها أو طحنها أو دقها، واستعمالها بالقدر الذي يوضحه لهم، وكان يحصل المراد بفضل الله. ومن أشهر العطارين - على سبيل المثال -: الشيخ محمد خشيم، والشيخ أمين خشيم، والشيخ مصطفى خشيم، والشيخ أسعد سمان، والشيخ محمد مظهر، والشيخ عواد رفة، والشيخ محمد سعيد سمان، والشيخ عبدالرحمن رفة، والشيخ حمزة مقلية ثم ابنه عبدالملك، والشيخ حمزة سنبل... وغيرهم [1].

وينبغي التنبه هنا إلى أن ما سيرد ذكره من وصفات العطارين إنما يعتمد على المعتقدات الشعبية ولم يختبر علمياً، وينبغي عدم



سكر النبات



نبات الشيح

(١) الخياري، السيد ياسين. صور من الحياة الاجتماعية. ط٢، مرجع سابق، ٢٠٢.



حب الحلبة

استعمال شيء منها إلا باستشارة متخصص في العقاقير الطبية.

أمثلة لبعض وصفات العطارين:

- **ارتفاع درجة الحرارة**: وكان العطار يعالجها بالخرنوب والزبيب والكزبرة الجافة والورد والعناب وزهرة لسان الثور وزهرة الختمي وزهرة النوفل، بأن تغلى ويشرب منها.
- **التهاب الأذن**: ويوصف له زيت اللوز المرّ، أو تحرق بصلة ويقطر قليل من مائها في أذن المصاب، أو تقطف ثمرة شجرة القطن ـ وهي في بداية نموها وظهورها ـ وتعصر ويقطر ماؤها بالأذن.
- **التهاب الأنف وحساسيته**: ويعالجان بزيت اللوز الحلو، وإذا صاحبهما انسداد فيستعمل لهما الكندس الذي يدق ويستنشق منه المريض.
- **التهاب الغدد**: يوصف عنب الثعلب والكزبرة والفلفل الأسود ورماد الفحم (القرض) بأن يدق ويخلط مع زيت السمسم، ويشكل باللبخة طبقة على رقبة المصاب.
- **النزلة الشعبية**: يقدم لها العطار زهرة البنفسج وزهرة الختمي وزهرة النوفل وعرق السوس وورق الجوافة والعناب، بأن تدق وتغلى ويشرب منها المريض. أما (الزكام) فيكافحه العطار بزهرة الخطمي وزهرة النوفل وزهرة البابونج وعرق السوس، وقليل من سكر النبات والزنجبيل، إذ يغليها المريض ويشرب منها. وأما السعال فكان يُعالج بزهرة لسان الثور وزهرة البنفسج والشيح.
- **التهاب المفاصل**: يتم علاجه بعود القسط مع التربل وسكر النبات.
- **حصر البول**: يوصف له الشمر واللبان الشحري والبقدونس الأخضر، يغليها المشتكي ويشرب منها.
- **التهابات العين**: يتم علاجها بسرعة إلى غسلها بماء البرد، أو تكحل بماء البصلة بعد غرس مرود الكحل في قلبها، وبعدها يتم تكحيل العين بالكحل الطبيعي، وإذا ظهرت حبة أو كيس دهني داخل العين فإن العطار يزيله بوساطة حب الرشاد أو (التفة)[1].
- **حساسية الصدر أو (خشخشة الصدر)**: ولها اللبان الشحري والشمر والشيح وعود القسط والحبة السوداء، تغلى ويشرب منها.
- ويعالج العطار قديماً قلة النوم والتوتر والقلق بغلي الخشخاش وشرب قليل منه بعد تصفيته.
- **حالات سوء الهضم**: ينصح لها العطار بغلي ورق الحرمل، مع الإكثار من أكل الخيار والخس، وكذلك ينصح بالنوم على الجانب الأيمن.
- **التهاب الكلى**: يوصف له بذر الخلة والبقدونس والشمر، بأن تدق وتغلى ويشرب منها المريض.

(١) أبوزيد، عبدالعزيز. حكاية العطارين، مرجع سابق، ٩٨ ـ ١٠٠.

- **آلام الأسنان**: يوصف لها زهرة القرض الصرافة والقرنفل، بأن تغلى ثم يتمضمض بها المريض.
- **آلام الظهر**: يوصف لها الحلبة التي يصب عليها ماء فاتر ويشرب منها، أو ينصح بـ(لك الظهور) مع المغاط والسحلب والموصلي والكثيرة، بأن تدق تماماً وتغلى ويشرب منها المصاب.
- عند ظهور دمامل في الجسم يأتي العطار بـ(الترمندي) فيغلى وتدهن به المنطقة المصابة.
- وفي حالة وجود ديدان في المعدة يصف العطار لطردها الحلتيتة مع لعبة المرة والنبات الشيناوي[١].
- لإزالة الغازات ينصح العطار بـ(شيع البقر) البارد والحار، أو بتفوير خشب الروند مع خشب الصين وعرق الانطراب وعرق الاجبار[٢].
- **أما الصداع (أو الشقيقة)**: فينصح العطار لعلاجه بالزنجبيل بعد خلطه بالخل حتى تشكل من لبخته حلقة على الرأس من الأذن اليمنى إلى الأذن اليسرى، أو يدق ورق السدر ويخلط مع الحناء وتدهن به هامة الرأس. وتستعمل أيضاً المستكة في حالات الصداع بعد تسخينها وتلصق بوساطة قطعة مستديرة على جانبي الرأس، أو تسخن المستكة مع السمن البلدي ويقطر على الأنف عدداً من المرات[٣].

ثانياً ـ المعتقدات الشعبية في العين والسحر والجن والتداوي بالقرآن الكريم:

هناك تداخل شديد في كل ما يتعلق بالعين والسحر والجن، وما يصاحبها من الأمراض النفسية والعقلية والعضوية، سواء من حيث الاعتقاد بوجودها أو ضررها أو معالجتها والتصدي لها، مجتمعة أو متفرقة، ويختلط في كل هذا بأمور شرعية عليها دليل من الكتاب والسنة وأمور أخرى توارثها الناس عن آبائهم وأجدادهم، أو تعلموها ممن خالطهم وخالطوه من أبناء الشعوب الأخرى.

والناس في منطقة المدينة المنورة وما جاورها لا يتفقون على نمط واحد من الأنماط الثقافية التي من خلالها يمكن تفسير الإصابة بشيء من هذه الأمراض والأعراض، ولذا فهم لا يتفقون على أسلوب واحد في معالجتها أو الوقاية منها، فهناك اختلاف بين ما يسود في المناطق الحضرية وما يسود في المناطق الريفية ومناطق أهل البادية من معتقدات تتعلق بهذه الأمور، وتؤثر في هذا درجة الوعي ومستوى التدين وقوة الإيمان بالله تعالى، وكذلك الخبرات الشخصية والتربية الأسرية وغيرها.

وعلى الرغم من التداخل بين مصطلحات العين والسحر والجن ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ إلا أنه لابد من التقسيم عند الحديث عما يتعلق باعتقاد الناس حولها وفي طرق معالجتها والوقاية منها فيما يأتي:

أ ـ العين (الحسد):

العين هي أن يصاب الإنسان بمرض أو خلل في جسده أو عقله أو ما يملكه، ويعزى هذا إلى شخص ما عرف عنه النظل أو النحت والحسد. وقد ورد ذكر الحسد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾[٤]، ووردت أحاديث عن النبي ﷺ في العين والحسد، والتعوذ منها ومعالجتها،

(١) المرجع السابق، ١٠١ ـ ١٠٣.
(٢) المرجع السابق، ١٠٣.
(٣) المرجع السابق، ٩٩.
(٤) الفلق، آية: ٥.

ولكن الناس قد خلطوا في معتقداتهم حول العين والحسد وفي طرق معالجتها والوقاية منها بين ما هو صحيح ثابت وبين خرافات المشعوذين، فكانت محاولات اتقاء العين ومعالجة المصاب بالعين تتأرجح بين الرقى الشرعية والممارسات المباحة، وبين المعتقدات الشركية والممارسات البدعية كما سيأتي.

لقد اعتاد الناس في معالجة من يعتقد أنه أصيب بالعين أو الحسد عادات مختلفة، ومن هذه العادات أنه إذا عرف الشخص الحاسد يطلب منه أن يقرأ على المريض، أو ينفث عليه (ينفخ عليه)، ولأنه ليس من اللياقة اتهام أي شخص بأنه الناظل فإن الناس يلجؤون إلى الحيلة، بحيث يدعون المشتبه به لشرب الشاي أو القهوة، ثم يقدمون له رطباً أو تمراً فيأكل منه، وبعد مغادرته يأخذون نوى الرطب أو التمر الذي أكله ويغمسونها في قليل من الماء ثم يسقونه المريض، وإذا تعذر ذلك لعدم قبول الحاسد زيارة منزل المريض فإن أقارب المريض يحاولون الحصول على قطعة أو خيط من ملابس الحاسد أو شعره، فيقومون بوضعها في قليل من الماء، ثم يسقى الماء للمريض، وقد يأخذون من أثر الحاسد في الأرض عندما يسير حافياً... وهكذا.

وإذا تعذرت معرفة هوية الناظل أو تحديدها فإن أحدهم يذهب إلى المساجد التي في القرية أو المدينة، ويقف على باب كل مسجد ومعه إناء فارغ أو يحتوي على كمية قليلة من الماء، ويطلب من الخارجين من المسجد النفث في الإناء مع قول (ما شاء الله تبارك الله) أو بعض الدعاء، ثم يؤخذ هذا الإناء ويصب فيه ماء، ويسقى جزء منه للمريض، والجزء الآخر يصب فوق وجهه ورأسه، أو يدهن به[1].

وإذا لم يشفَ المريض بعد هذا فإن أمامه خيارين: إما اللجوء إلى قارئ يقرأ عليه القرآن، وإما الذهاب إلى المشعوذين أياً كانت الأسماء التي يتسمَّون بها، وهم يدَّعون أنهم يعالجون كل شيء، ومن ذلك الحسد الذي يصيب الإنسان في نفسه أو ماله أو بيته أو غير ذلك. فعلى سبيل المثال إذا أصيب أحد بخسائر كبيرة في تجارته أو قلَّ الإقبال على سلعه ما أصاب تجارته بالكساد والركود وشعر بأن نقوده قد نفدت منها البركة فإنه يذهب إلى المشعوذ ليعالج الحسد الذي أصاب تجارته بالكساد وأمواله بالنفاد، ويبعد خيوط الحسد التي تشابكت فأصابت تجارته الرائجة المنتشرة بالركود والانحسار والتقلص، فيكتب له وصفته التي يتم جمع أشتاتها في محل العطار بالنسب المطلوبة والمحددة؛ وذلك لمعرفة العطار المسبقة بما يطلبه المشعوذ من وصفات تتعلق بجوانب يعلمها العطار جيداً، وتكون للعطار علاقة وثيقة بوصفات المشعوذ، وفي كثير من الأحيان يرسل المشعوذُ المريض إلى عطار معين بتنسيق مسبق بين الجانبين[2].

وفي بعض القرى ـ مثل العلا ـ إذا شعر المريض أو أهله أن مرضه بسبب العين (الحسد) ولا يعرف العائن فالعلاج أن يتبخر المريض ببخور يتكون من أنواع تعرف بما يأتي: شبة، فاصوخة، نقض الليل، نقض النهار، وهي حبيبات حمراء وسوداء، وبعدما يتبخر يفرغ ما في المجمرة في ماء ثم يكب في الطريق ليتخطاه المارة، وبذلك تفسد عينه كما يقال أي يبطل أثر الحسد، وكان الناس يقولون: كل عين تصيب إلا عين تذكر الله[3] بمعنى أن من

(١) الصويان، سعد عبدالله، الثقافة التقليدية، مرجع سابق، جـ١١، ١٩٥، ١٩٦.

(٢) أبوزيد، عبدالعزيز. حكاية العطارين، مرجع سابق، ٨٦.

(٣) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ١٩٦.

يذكر الله عندما يرى ما يعجبه فإنه لا يصيب أحداً بسوء أو شر.

وللوقاية من العين والحسد فهناك أيضاً التعوذ المشروع بالآيات والأدعية المأثورة، وهناك ممارسات مختلفة منها المباح ومنها المحرم ومنها ما يصل إلى حد الشرك.

ب ـ السحر:

يعتقد كثير من سكان المنطقة أن السحر سبب في كثير من الأمراض النفسية والعضوية وأحياناً بعض المصائب والكوارث مثل الحريق وغيره، وأن له علاقة بالعين كما له علاقة قوية بالجن. وقد ورد ذكر السحر في القرآن الكريم، وعرفه العرب والمسلمون وغيرهم من الشعوب عبر التاريخ، ولا يزال الناس في المنطقة يتحدثون عن السحر ويحذرون منه ومن آثاره، ويوجد هناك من تخصص في الرقى ومعالجة المسحورين بطرق شرعية أو غيرها.

ويكون السحر على أشكال متعددة، منها العُقَد التي تخفى أو تدفن في الأرض أو تلقى في البحر، ومنها ما يوضع مع الأكل فيؤكل أو مع الشراب فيشرب، ومنها ما يوضع مع الطيب والبخور فيستنشق. ويرى بعض سكان المنطقة أن أثر السحر لا يظهر على المسحور مباشرة بل قد يستغرق شهراً أو شهرين ثم تبدأ المعاناة. وللناس في تفسير الإصابة بالسحر مذاهب مختلفة فيختلط المس بالجن ـ حسب بعض الروايات ـ بالسحر، وقد يقول بعضهم: إن الجن قد يتلبس المريض بسبب سحر عُمل له من قِبل أحد السحرة، وقد يتكلم المريض بصوت يعتقد أنه لجني عند القراءة عليه ويقول إنه لا يستطيع الخروج منه حتى ينفك السحر، وقد يزعم بعض المشعوذين مباشرة أن المريض تلبَّس به جني أو جنية بسبب سحر فلان أو فلانة من الناس.

والعلاج الشرعي لمثل هذه الحالات فهو بالرُّقَى المشروعة من القرآن الكريم للمصاب، والقبض على من يمارس السحر ـ إن أمكنت معرفته ـ وإجباره على إحضار عُقَده وأعماله السحرية، ويتم فكها مع النفث عليها بالقرآن الكريم فيشفى المصاب بإذن الله تعالى.

ج ـ مس الجن:

من المعتقدات الشائعة أن بعض الناس يصابون بمس من الجن، وهو أن يدخل الجن في جسد الإنسان ويستقر فيه، وتوجد طقوس وعادات ما زالت متبعة تصاحب عملية العلاج لما يعتقد أنه من مس الجن، ويتم اللجوء إلى بعض المشايخ من المعروفين بقراءة القرآن الكريم، وربما يذهب بعضهم إلى المشعوذين والسحرة ممن يدَّعون علاج المرض وإخراج الجن.

ومن الممارسات المتبعة في علاج المصابين بمس من الجن قراءة آيات أو سور معينة من القرآن الكريم على المريض، مع ذكر بعض الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ طلباً لزوال المس بإذن الله تعالى.

د ـ التداوي بالقرآن الكريم:

سبقت الإشارة إلى أنه من الأمور المشروعة أن تُقرأ على المريض ـ أياً كان مرضه ـ آيات من كتاب الله مع بعض الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ وهي نافعة ـ بإذن الله تعالى ـ مع تعاطي الأسباب الأخرى المباحة التي تم تجريبها من الأدوية والممارسات العلاجية المتنوعة.

وطريقة العلاج بالقرآن الكريم تكون بأن يستقبل القارئ المريض ويبدأ بالقراءة والنفث (النفخ) عليه مع إتمام كل آية، وكذا بعد ذكر أي دعاء وارد أو استعاذة. وهناك طريقة أخرى هي القراءة والنفث في الماء، ويفضل الناس أن يكون ماء زمزم الذي ورد فيه عن النبي ﷺ أنه شفاء، ويمكن القراءة في غيره، ويحتفظ به المريض عنده ليشرب منه ويمسح وجهه وما أصابه.

كما يكتب بعض المشايخ بعض الآيات المعروفة بأنها تذهب أثر الحسد على جدار فنجان كبير أو صحن صغير، وتكون الكتابة بريشة تغمس في ماء الزعفران أو في الحبر العادي، ويؤخذ ذلك الفنجان أو الصحن، ثم يغسل بالماء ويسقى به المريض، ويرش جزء منه على رأسه ووجهه، وربما يغتسل بجزء منه، وتعرف هذه العملية بالمحو أو العزيمة، وقد تكتب الآيات في أوراق ثم تذاب في الماء فيشرب منه المريض المحسود، أو تحرق الأوراق فيتبخر بها[1].

ثالثاً ـ مظاهر الثبات والتغير:

أدى انتشار التعليم في مناطق المملكة كافة ـ ومنها منطقة المدينة المنورة ـ إلى رفع درجة الوعي لدى أفراد المجتمع فيما يتعلق بالطب وطرق التداوي، سواء بمعرفة الأسس العلمية التي ينبغي أن يتم بها تشخيص الأمراض، أو معرفة الأسس الشرعية المتعلقة بما يجوز وما يحرم من الاعتقادات وطرق الاستشفاء، كل هذا صاحب النهضة التنموية التي شملت الخدمات الصحية المقدمة كثيراً ما للمواطنين أينما كانوا[*].

وقد كان هذا كله على حساب الطب التقليدي الذي مورس بوصفه تجارة تبدأ من العطار والمشعوذ وحتى الداية، وما تقوم به من استطبابات أو ما تسديه من نصائح، ومع هذا كله فلا يزال لهؤلاء بقية من الرواد أو العملاء، وإن كان أغلب من يتردد على العطارين في الوقت الحاضر هم من النساء اللاتي يطلبن أنواعاً من الأعشاب والدهونات المتعلقة بالعناية بالشعر أو البشرة، أو ما يقال إنه يساعد في إنقاص الوزن أو زيادته، كما أن بعض المصابين بالوهم والوسواس الذين تثبت الفحوصات الطبية سلامتهم مما يشكون منه قد يلجؤون إلى العطار أو المشعوذ الذي لا يرد أحداً من دون معالجة ـ في غالب أمره ـ أياً كانت شكواه.

وقد أصبح كثير من المعتقدات القديمة في الطب لدى المتعلمين والمثقفين ضرباً من القصص التراثية التي تروى عن الآباء والأجداد، ولم تعد تسيطر على تفكير الناس وتصرفاتهم لدى هذه الفئات تلك القصص والروايات المزعجة التي تحذر من فعل أشياء معينة في أوقات معينة... وما إلى ذلك مما ليس عليه دليل شرعي أو عقلي.

أما أهل البادية وبعض أهل القرى فالواقع أنهم على الرغم من وجود مؤسسات الخدمات الصحية واستفادتهم منها، إلا أنه يلاحظ أنهم أكثر المترددين على الأطباء الشعبيين والقراء سواء في مناطق وجودهم أو حتى داخل المدن التي لجأ إليها كثير من المشعوذين للتخفي عمن يعرفهم وادعاء ما لا يعرفون من أمور العلاج أو حتى الرقيا بالقرآن، ومع هذا تقوم الجهات المختصة بملاحقة أمثال هؤلاء وإيقافهم عن تضليل الناس.

(١) الصويان، سعد عبدالله، الثقافة التقليدية، مرجع سابق، جـ١١، ١٩٧.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب السادس، (الخدمات والمرافق التنموية)؛ الفصل الثاني.

الفصل السادس

الأمثال الشعبية

أولاً بعض الأمثال الشائعة

ثانياً مظاهر الثبات والتغير

تعبر الأمثال الشعبية عن الحكمة المتوارثة لدى المجتمعات البشرية، وتحمل مضامين ثقافية يمكن من خلالها التعرف على كثير من أنماط الحياة الاجتماعية لدى أي مجتمع في حقبة زمنية معينة، إذ إنها في الغالب تشير إلى نمط الحياة السائد، وتحمل رموزاً ثقافية من الإطار العام نفسه الذي يسيّر حياة الشعوب المختلفة وتفكيرها، كما أنها تعطي دلالات معينة على نوع البيئة الجغرافية التي عاش فيها هؤلاء القوم أو أولئك، فعلى سبيل المثال: لا تحمل الأمثال الشعبية التي قيلت في وسط الصحراء كلمات أو معاني تشير إلى السمك أو السفينة أو اللؤلؤ، بينما تزخر الأمثال الشعبية لدى سكان السواحل بمثل هذه العبارات والألفاظ.

وبالنظر إلى منطقة المدينة المنورة واشتمالها على بيئات حضرية وقروية وبدوية، ولوجود بعض بلدانها في الصحراء وبعضها على ساحل البحر الأحمر، بالنظر إلى هذا التنوع فإن من يلقي نظرة على الأمثال الشعبية التي يتناقلها الناس في تلك المنطقة سيجد أنها تحمل هذا التنوع، وتزخر بمعانٍ إنسانية وأدبية وأخلاقية عظيمة مستمدة من روح التصور الإسلامي أولاً، ومن تلاقح خبرات وتجارب المسلمين الوافدين من بيئات مختلفة أيضاً، وهم في الغالب يكثرون في حاضرة المدينة المنورة حيث المسجد النبوي الشريف، ويقيمون هناك لفترات متفاوتة، بل إن بعضهم فضل البقاء بها طلباً للعلم الشرعي وتبركاً بمهاجر النبي ﷺ، لأن الخبرات الإنسانية والرموز الثقافية لا تحدها حدود سياسية أو إدارية فإن تناقل الأمثال بين المدن والقرى والبادية أمر طبيعي، بل حتى بين أبناء الشعوب المختلفة الذين تتاح لهم فرصة الالتقاء بغيرهم؛ فلذا لا نستطيع أن نقول إن هذا المثل تابع لتلك المنطقة أو تلك القرية دون سواها، بل إن الناس قد يتلفظون بأمثال وحكم عرفوها من مناطق بعيدة جداً ثم يكثر ترددها بينهم فيظن السامع أنها من نتاج حكمتهم وتجربتهم الخاصة. وفي هذا الفصل عرض لأكثر الأمثال الشعبية شيوعاً واستخداماً بين الناس مع توضيح بعض المناسبات التي يقال فيها المثل.

أولاً ـ بعض الأمثال الشعبية:

يصعب حصر جميع ما يردده الناس من الأمثال في تلك المنطقة الشاسعة متنوعة البيئات كما سبق، فقد وجدت أمثال بلهجة أهل البادية القريبة إلى لهجة أهل البادية في وسط الجزيرة العربية، وأمثال باللهجة المحلية، وأمثال بلهجة أهل بادية شمال الجزيرة والشام، منها ما هو على شكل نصائح مباشرة، ومنها ما هو على شكل حكمة نادرة، ومنها ما يحمل التوبيخ واللوم لمن وقع في خطيئة، ومنها ما يشيد بمن فعل معروفاً، وهذه أمثلة على ذلك:

❖ **يقولوا ألف خواف ..**
ولا يقولوا الله يرحمه:

يضرب هذا المثل عندما يطلب من أحد المغامرة في أمر خطير فيفضل أن يوصف بالجبن على أن يغامر ويلقى حتفه.

❖ **إيش رصك على المرّ؟..**
قال: اللي أمرّ منه:
ويقال لمن يلوم الإنسان على سلوك طريق قد يكون فيه مشقة عليه، ولكن الفاعل قد اضطر إلى ذلك بسبب أمور أكثر سوءاً أو أشد صعوبة، فيقول ذلك تبريراً لسلوكه.

❖ **البيض الفاسد .. يتدحرج على بعضه:**
وفيه تعبير عن أن الإنسان السيئ يبحث عن أصحاب السوء، ويماثله قولهم: (إن الطيور على أشباهها تقع).

❖ **جلد ما هو جلدك .. جرُّه على الشوك:**
يضرب في إنسان لا يحسن التعامل مع أموال وممتلكات الآخرين، وقد يستعمله بعضهم في تبرير سلوكهم السيئ إذا كان الضرر لا يعود عليهم بل على غيرهم من جراء هذا السلوك.

❖ **تموت الحية .. وسمّها في رأسها:**
المعنى أن الشرير يبقى شريراً حتى لو ضعف، إذ إن الحية تبدو ميتة ـ في بعض الأحيان ـ ولكنها يمكن أن تلدغ من يقترب منها.

❖ **رافق مصلي تصلي ..**
ورافق مولي تولي:
يضرب في أثر الصاحب والجليس في سلوك من يخالطه وأخلاقه، وله أصل في سنة النبي ﷺ التي ورد فيها الحث على الجليس الصالح والنهي عن جليس السوء في أحاديث متفرقة.

❖ **العود على ما انحنى عليه:**
وفيه حث على التربية والتعليم في الصغر، وأن المرء إذا كبر وقد اكتسب طباعاً حسنة أو سيئة فإنها تثبت ويصعب التحول عنها، كما قال الشاعر:
إن الغصونَ إذا عدَّلتها اعتدلت
ولا تلينُ إذا صارت من الخشبِ

❖ **قدر الخشرة ما يفور:**
المقصود بـ(الخشرة): المشاركة، وتدلُّ هنا على كثرة المشاركين في عملية الطبخ، ويضرب المثل في العمل الذي لا ينجح فيه أصحابه لأنهم شركاء متشاكسون، كلٌّ منهم له رأي، وليس بينهم تنسيق أو ليس لهم قائد، بل كلٌّ يعمل ما يشاء على الرغم من أن هدفهم واحد.

❖ **لسانه يقم .. ويكنس:**
ويضرب في الشخص الذي لا يتورع عن الكلام بأي كلمة ويخوض في كل مجال، فمجموع كلامه مثل القمامة التي تجمع من أنحاء البيت تحتوي على كل شيء تصادفه المكنسة.

❖ **ما يستوي زارع ومنجم:**
بمعنى أن المزارع قام بالحرث والبذر، أما نجاح الزرع وإنتاجه فهذا بقدرة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وليس على المزارع أن يعرف ماذاسيكون. ويضرب هذا المثل حين يبذل المرء جهده في أمرٍ ثم يسأل عن نتيجته.

❖ **ظلَّم عليها .. تنوِّر عليك:**
يضرب هذا المثل في الترشيد في الإنفاق وحسن الادخار، بمعنى أنك إذا حبست الدراهم في الصندوق فسوف تساعدك في يوم ما في التفريج عن كرباتك وإغنائك عن الناس.

❖ **تأكل كدِّي .. وتشتم جدِّي:**
يضرب لمن لا يقدّر المعروف ويسيء لباذله، وقد يقال للمرأة التي لا ترعى حرمة زوجها وتكثر عليه المطالب ولا تشكر له صنيعه، بل تلوم وتذم، وهذا مثل قول عبدالله بن الزبير رضي الله عنه : (أكلتم تمري وعصيتم أمري).

❖ **بعت جاري .. وما بعت داري:**
يضرب هذا المثل عندما يتحول الإنسان من بيته إلى غيره بسبب سوء معاملة جاره له، ولم يكن تحوُّله بسبب عيب في البيت نفسه.

❖ **راس ما تقدر تدوسه .. بوسه:**
يضرب في مصانعة القوي ومداراته حفاظاً على النفس.

❖ **اللي ما يرضى بالحمى .. تجيه الداهية:**
يضرب في الشخص الذي يتسخط من أمر يسير ثم تصيبه مصيبة أكبر، وفيه زجر للمتسخّط عن عدم الرضا بقدر الله مخافة المعاقبة بأكبر مما أصيب به الإنسان.

❖ **إيش تسوي المقينة .. في الوجه الغلس:**
المقصود بالمقينة المرأة التي تتولى تزيين العروس ليلة عرسها. ويعني أن الوجه القبيح لا يفيد فيه التزيين، ويقال هذا المثل في مناسبات مختلفة مثل من يحاول ترميم منزل متهالك أو تزيين سيارة قديمة جداً ببعض الألوان أو الزخارف... ونحو ذلك، ومثله قولهم: (وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر).

❖ **المترجي .. عصاتو من عشر:**
العشر شجر معروف، أغصانه خفيفة ورقيقة، بداخلها ما يشبه القطن، وإذا يبست هذه الأغصان، فإنها تتكسر بسهولة شديدة. ومعنى المثل أن المترجي (المُرتجى) يجب أن يكون لطيفاً مع من يرجوه.

❖ **اللي ما يريدك .. يكثر عذاريبك:**
يضرب في الذي لا يحب شخصاً أو شيئاً فإنه يكثر من ذكر عيوبه ومساوئه، والعكس صحيح بأن المحب يستر العيوب كما قال الشاعر:

وعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ
كما أنَّ عينَ السخطِ تبدي المساويا

❖ **إن لك عند الكلب عازة .. قول له يا سيدي:**
يضرب في الحض على ملاينة وملاطفة من تكون لك عنده حاجة، وعدم إيذاء مشاعره.

❖ **اعصب يدك ..**
وكلٌ من يصف لك دواء:
يعني أنك بمجرد أن تشتكي يبادر كل من سمعك بوصفة يدّعي أنها هي الأجدى والأنجح في علاجك، ويقال هذا المثل للتروي وعدم قبول كل طب وعلاج يسمع به المريض؛ لأن الناس لا يتورعون في هذا، ولا يبالي كثير منهم بما ينتج من مضاعفات قد تحصل بسبب ما ينقله من وصفات يمكن ألا تكون نافعة بل تضر.. ويتسع مدلول هذا المثل ليشمل عدم قبول النصح من جميع الناس لأنهم يختلفون في فهمهم ونظرتهم للأمور، فلابد من توافر عنصر الثقة والخبرة في الناصح.

❖ **اللي ما يسمع من الكبير ..**
يهوي في البير:
يضرب في أهمية أخذ النصيحة من أهل الخبرة والأكبر سناً، إذ إنهم قد جربوا وعاصروا أموراً لا تعرفها الأجيال اللاحقة، وإن الإعراض عن نصائحهم عواقبه وخيمة.

❖ **قريبك .. حريبك:**
يضرب هذا المثل في حالة حدوث شجار بين الأقارب.

❖ **يرحمك يا مرحومة.. ياللي شربتك تزنزن.. وفرشتك محمومة:**
يضرب في المرأة الكسول التي تهمل واجباتها المنزلية، والشربة هي القلة الفخارية التي يوضع فيها الماء، وتزنزن أي تصدر أصواتاً عندما يوضع فيها الماء؛ لأنها جافة جداً.

❖ **يا راعي الشوم ..**
وين ما تروح وراك عبدالقيوم:[1]
عبدالقيوم هنا كناية عن الفقر. ويقال المثل عندما تتكرر خسارة أحدهم أو فشله في أمور دنياه.

❖ **ما كل مدردم بدنجان:**
يضرب فيمن يخلط في تعامله مع الأشياء ولا يحسن القياس، ومثله يقال في بادية نجد: (ما كل بيضا شحمة).

❖ **فلان ما تبتل في فمه فولة:**
يضرب فيمن لا يستطيع السكوت عن شيء، وفي هذا تحذير من أن يعطى مثل هذا الشخص السر أو يطلع على أمور يود صاحبها كتمانها.

❖ **فمه في الديس ويبكي:**
الديس هنا الثدي. ويقال هذا المثل لمن يشتكي أو يتسخط وهو في نعمة وعافية، وعادة يقول هذا من لم يحصل على ما حصل عليه المشتكي، فهو يرى أن هذا الشخص لم يقدّر نعمة الله عليه التي هو محروم منها.

❖ **عَصاية المعلم .. من الجنة:**[2]
وهذا فيه استحسان لاتباع المعلم أسلوب الشدة والحزم مع تلاميذه ولو أدى ذلك إلى ضربهم، وفيه تنبيه إلى عدم الاعتراض على هذا من التلميذ أو أهله.

(١) فؤاد علي رضا، *الأمثال الشعبية في أم القرى وما حولها*،(مكة المكرمة، ١٤١٥ هـ)، ٩٩.

(٢) المرجع السابق، ٦٦.

❖ **رِجل في عويرض ..**
ورِجل في المنصلخة:
رِجل: أي قدم الإنسان، وعويرض: حرة، وتعد أعلى قمة جبل في العلا، والمنصلخة: جبل تحت عويرض. ويقال هذا المثل عندما يكون الشخص متصعباً في أمرٍ ما ولا يقبل بأيٍّ حل من الحلول.

❖ **مثل نفس ربيع ليلة يشرك:**
ربيع اسم لأحد الجزارين، ويشرك: أي يذبح شاة ويبدأ بتوزيع أجزائها للبيع، فحينئذٍ تكبر نفسه، فيضرب هذا المثل عند رؤية شخص في نفسه كبرياء[1].

❖ **إليا هبت العواء وزرعك ما نبت ..**
كثحه بالصبخاء ثم اسقيه:
يضرب هذا المثل في الزراعة، والعواء رياح الخمسينية، والصبخاء هي الطين المالح (العقار)، ويلاحظ أيضاً أن في هذا المثل سخرية، ويعني أنه إذا دخلت الخمسينية (وهي الخمسون يوماً التي تلي المربعانية، والمربعانية هي الأربعون يوماً الأولى من فصل الشتاء) وأنت لم تبذر الحب في الأرض فضع الطين المالح على هذا الحب واسقه بالماء، ما يزيد الطين بلة، يعني أن هذا الزرع لن يصلح أبداً.

❖ **لا طلعت العديلة اطلع معها لو باللحاف..**
ولا دخلت الشنة ادخل معها لو بالمهاف:
يضرب في أنه إذا حصد الزرع فنم في البرد في العراء أو تحت السماء ولا تخشَ من الضرر، وإذا جدَّ التمر فنم في داخل الغرف ولا تتعرض للبرد لأنه مضر، (العديلة) هي حزمة من سنابل القمح أو الشعير متصلة بالسيقان تُحزم إذا حصد الزرع، و(الشنة) هي القربة المحشوة بالتمر، ومعروف أن الزرع يحصد في فصل الربيع أي نهايات فصل الشتاء، والتمر يُجد في الخريف بدايات فصل الشتاء.

❖ **بستان ما يواليه صاحبه ..**
يموت لو الربيع حذاه:
يضرب في أن البستان الذي لا يأتي إليه صاحبه ويراقبه باستمرار فإن مزروعاته تتعرض للهلاك ولو كان الماء يجري بالقرب منه.

❖ **قلبي على ولدي ..**
وقلب ولدي على الجبل:
يضرب هذا المثل للولد عندما يرى والداه منه قسوة وجفاء، أو يظنّان فيه ذلك.

❖ **رزوان البلد .. ولا قمح الجلب:**
الرزوان نبات يشبه زرعة القمح، يخرج في الزرع وله سنبلة إلا أنها لا تشبه سنبلة القمح. ويعني هذا يضرب المثل أن الشيء الذي يوجد في بلد الإنسان وقريباً منه أو هو من إنتاجه أفضل من الشيء المجلوب من الخارج مهما قلَّ شأن البلدي وعظم شأن المجلوب من الخارج (وهذا اعتزاز بالإنتاج المحلي).

❖ **النخلة تقول لغارسها:**
ابعد أختي عني وخذ طلعها مني:
يضرب هذا القول: إنه عند غرس النخل يجب جعل مسافات مناسبة بين كل نخلة وأخرى، فهذا يجعل النخلة تثمر ثمراً جيداً.

(١) عبدالكريم، أحمد عبدالله. هذه العلا، مرجع سابق، ٨٥.

❖ **لا تقرطيني يا نحلة .. ولا أريد منك عسل :**[1]

ويضرب هذا المثل في الشخص الذي يعرف المنافع التي تحصل له من أمرٍ ما مع بعض المشكلات، فيفضل ترك المنافع مقابل إبعاد نفسه عن المشاركة في معالجة هذا الأمر والدخول في مشكلاته.

❖ **إذا ذكرت الذئب .. فأعد له العصا:**

ويضرب هذا المثل للاستعداد لكل أمر مقدماً، فلو أن مسافراً نسي أن يتزود للرحلة الطويلة لَقَتَله العطش والجوع، ولو أنه ذكر طريقه فتزود له لنجا من الشر، ولو أن المرء ذكر في شبابه وقوته يوماً يشيخ فيه ويعجز فادخر لهذا اليوم لكان قد حسب حساب الظروف في ونجا من قسوة الحاجة. ومثل أولئك الذين يستعدون كمثل الراعي الحذر الذي يعرف أن الذئب قد يهاجمه فيعد العصا، حتى إذا جاء دفعه فتنجو غنمه، فإذا لم يذكر وقت الخطر ولم يستعد لدفعه ونسي العصا عجز عن رد الذئب إذا هجم عليه، فنال الذئب من غنمه ما شاء [2]. ويضرب أيضاً عند حضور شخصٍ ما عند ذِكره.

❖ **خلّى الدرعى .. ترعى:**

الدرعى هي صفة للشاة التي لها لون معروف. ويحث المثل على ترك الأمور تسير دون تدخل أو توجيه في سيرها، ويضرب هذا المثل للإهمال وعدم المبالاة وترك الأمور تسير في أي اتجاه سواء أكان نافعاً أم ضاراً، وسواء أكانت نتائجه بناءة أم هدامة.

❖ **رزق ناس .. من ناس:**

يضرب في كسب الناس بعضهم من بعض وأن الحياة مركبة على أن يكسب هذا من هذا وذاك من ذاك.. وهكذا.

❖ **رضا الناس .. غاية لا تدرك:**

يضرب في الإنسان الذي لا يمكن أن يرضي الناس جميعاً، فمثلاً القاضي الذي يحكم بشرع الله المنزل من السماء تجد أحد الخصمين غير راضٍ عنه، فضلاً عن الذي يحكم بالرأي أو بأيٍ نوع من الأحكام الأخرى.

❖ **رُفع القلم .. عن ثلاث:**

وهو جزء من حديث شريف، ويضرب لمن لا يؤاخذ على تصرفاته؛ لأنه في حالة تشبه الجنون.

❖ **رمية من غير رام:**

هو يُضرب لمن يصيب هدفه صدفة، أي رمية مصيبة من رامٍ غير بصير.

❖ **خالف .. تعرف:**

بعض الناس مغرمون بالمخالفة، وهؤلاء في العادة لا يخالفون إلا ليشتهروا، والإنسان قد يشتهر بالحق والصواب وقد يشتهر بالشذوذ والتعنت والخلاف.

❖ **خذ الحفنة ..من اللحية العفنة:**[3]

الحفنة: ملء الكف، واللحية: المقصود بها الشخص، والعفنة تعني الخبيثة، أي خذ من الرديء ما يجود به حتى لو كان قليلاً، فإن القليل من البخيل كثير.

(١) عبدالكريم، أحمد عبدالله. هذه العلا، مرجع سابق، ٨٦، ٨٧.

(٢) أبوعودة، علي، وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٢٦٥، ٢٦٦.

(٣) المرجع السابق، ٢٦١.

❖ **زوجوهن .. وعينوا عليهن:**
أي ساعدوا على زواج البنات بدفع بعض النفقات وإعداد بعض التجهيزات، وعدم التعقيد في الإجـراءات أو التطلع إلى الكسب المادي من وراء زواجهن، صيانة للمرأة وصيانة لسمعة أهلها من القيل والقال. وقد يقال من باب السخرية عندما يقدم لأحد الناس معروفاً فيطلب أيضاً المساعدة على التصرف فيما أعطي بحمله أو تنظيفه أو نحو ذلك.

❖ **سائل الله ما يخيب:**
يضرب في الذي يسأل الله ويلجأ إليه في الشدائد لن يرجع مفلساً، وإنما سينال ما طلب عاجلاً أو آجلاً، وكذلك يضرب للحث على وضع الثقة والرجاء في الله تعالى وحده، لا في أحد من عباده إلا على سبيل اتخاذ الأسباب.

❖ **السباحة أمان من الغرق:**
يضرب في بعض الأمور التي هي أمان من الأخطار المفاجئة التي لا يدري المرء متى تحلُّ به.

❖ **سبحان من يغير .. ولا يتغير:**
أي سبحان من يقلب الشاب شيخاً والغني فقيراً أو العكس، بينما هو لا يتغير، سبحانه وتعالى، ويقال هذا المثل عندما ترى شخصاً بلغ ما لم تظن أنه يبلغه من أمور.

❖ **سهود .. ومهود:**
يضرب هذا المثل كناية عن توافر أسباب الأمن والأمان والرفاهية. سهود: أي نوم، ومهود: فراش وثير، والمعنى: ليس هناك إلا فراش وثير ونوم عميق،

❖ **ربنا يعطي جنات:**
ويضرب هذا مثلاً لمن أعطي خيراً كثيراً، وأن هذا ليس غريباً فالمعطي هو الله، وعند الله خزائن السماوات والأرض وجنات تجري من تحتها الأنهار.

❖ **خلَّك في عشَّك .. لا أحد ينشَّك:**
ويضرب هذا المثل لتبيين طريق السلامة وهو ملازمة الإنسان بيته وعدم الخروج إلا لما هو ضروري، وهو يقابل المثل الشامي الذي يقول: (من طلع من داره قل مقداره)[1]. والمعنى الأشمل لهذا المثل هو التزام الإنسان وطنه، أي الزم دارك فذلك أسلم لك من الطرد والإهانة أو التعرض للأخطار.

❖ **خادم القوم .. سيّدهم:**
هذا المثل يضرب لمن يتواضع ويبذل من نفسه طوعاً كل ما يستطيعه من جهد في سبيل قومه ورفاقه. ويضرب أيضاً في أن سيد القوم هو المرشح الأول لخدمتهم من باب التواضع لهم، يعني أن الذي يخدم رفاقه عن طيب خاطر يكون محبوباً من المجتمع، والمحبوب من الجميع هو سيّد قومه.

❖ **الخافي عليك أعظم:**
يضرب مثلاً لمن استعظم أمراً بينما هو لم يرَ منه إلا أصغره، أو أنه لم يرَ منه توابع ومضاعفات هي أشد وقعاً وأنكى

(١) أبوعودة، علي، وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٢٦٤.

تأثيراً، فكأن المثل يقول لهذا المتعجب من هول ما رأى: إن هناك أموراً لم ترَها، ولو رأيتها وأضفتها إلى ما ترى لزاد عجبك، ولرأيت شيئاً قد لا يخطر على بالك.

❖ **الزعلان .. يشرب من البحر:**
وهو يقابل المثل القائل: الزعلان يطق برأسه الجدار، ويضرب هذان المثلان للأمور التي تفرض عليك فرضاً، ولا يؤخذ لك رأي فيها، فإما أن تقبلها وتتأقلم معها، وإما أن تشرب من ماء البحر ليزيدك غيظاً، أو تضرب برأسك الجدار لينكسر وتتناثر أفكار المعارضة منه، والمقصود أنك إنما تؤذي بذلك كله نفسك فقط.

❖ **خذ .. وخلّ:**
يعني خذ شيئاً واترك شيئاً آخر، وهذا المثل يضرب للذي يعطيك من العلوم والأخبار ما هو صحيح وغير صحيح، وما يستحق العناية وما لا يستحقها، فيجب عليك أن تحكِّم عقلك في كل ما تسمع منه، وتأخذ ما كان معقولاً وتترك ما عدا ذلك.

❖ **الراحة .. نصف القوة:**
ومعناه أن الذي لا يكد ولا يشقي نفسه بالعمل الشاق يحصِّل من قوة البدن وصحته أكثر من الذي يفعل ذلك، ويضرب هذا المثل في الاعتدال في طلب المعيشة وعدم إرهاق النفس بما يشقيها ويصرفها عن أمور الدنيا والآخرة.

❖ **الراضي .. كالفاعل:**
أي أن الذي يرضى عن الأفعال الإجرامية ـ مثلاً ـ ولا يساعد على إزالتها، بل يسكت عنها ويرضى باستمرارها، يكون شريكاً للمجرمين في آثامهم، وشريكاً لهم في العقوبة سواء عقوبة الدنيا أو عقوبة الآخرة. ويضرب هذا المثل لمؤاخذة من يقر أعمال الجور والعدوان.

❖ **رُبَّ ضارة .. نافعة:**
أي ربما تصرف بعض الأشخاص تصرفاً يريد به الإضرار بك، ولكن بقدر الله ينقلب ذلك الضرر إلى نفع، وتلك المساوئ إلى محاسن. ويضرب هذا المثل للأمور التي تكون بدايتها سيئة، بينما تكون نهايتها طيبة إذ إن الأمر الذي يكون ضارّاً من جهة قد يكون نافعاً من جهة أخرى، فعلى المرء أن يتقبل كثيراً من النتائج الخاسرة بصدر رحب، وعليه أن يستفيد من تجاربه ومن تجارب الآخرين.

❖ **الرجال مخابر .. ما هم مناظر:**
أي أن الرجال يُعرفون بالتجربة، لا بالمظهر الضخم ولا بقوة العضلات ولا بحسن المنظر، فكم من رجل تراه فيعجبك، ثم تجربه فلا تجد فيه من الرجولة إلا صورتها، وكم من رجل تراه فلا يعجبك ولكنك إذا جرّبته وجدت فيه معاني الرجولة والشهامة والشجاعة.

❖ **الرجال صناديق .. أقفالها حديد:**
يعني أن الرجال كالصناديق المقفلة لا تستطيع أن تعرف ما بداخلها، فلا يستطيع

أن يعرف ما بداخلها إلا صاحبها. ويضرب هذا المثل في حفظ الأسرار.

❖ **رجعت حليمة .. إلى عادتها القديمة:**
حليمة هذه امرأة سيئة عند زوجها، وكان يشكو إلى أهلها سوء خصالها، وكانت كلما شكاها إلى أهلها تتعهد بأن تترك هذه الأخلاق، إلا أن ما يشكو منه الزوج يعود بعد فترة قصيرة، فأطلق هذا الزوج على زوجته هذا المثل الذي يدل على غلبة الطبع على التطبع.

❖ **رجل بلا ربع .. على الغبن صبار:**
أي أن الرجل الذي ليس له أعوان ولا أنصار ولا أقارب يساعدونه على دفع الظلم، عليه أن يعد نفسه لتحمل أنواع المظالم والعدوان وأن يكون صبوراً على ما يلاقيه، ويُضرب في ضرورة وجود أعوان وأنصار للرجل وضرورة حفاظه عليهم وإلا عانى ما عانى.

❖ **خير الدلايل .. جرة الفرسان:**
الجرة هي أثر الماشي فوق الأرض، والمعنى أن أعظم دليل على مرور الأعداء من هنا آثار خيلهم، ويضرب هذا المثل للدليل الواضح الذي لا يمكن أن يماري فيه إنسان.

❖ **خير .. يا طير:**
ويعني: هل أتيت بخير أيها الطير الوافد؟ وهذا المثل يضرب لمن يأتيك على غير انتظار، فتستريب من مجيئه، وتسأله عما إذا كان الذي أتى به خيراً، فليس من العادة أن يأتي في مثل هذه الأوقات أو الظروف.

❖ **خير الأمور الوسط:**
يضرب هذا المثل في الاعتدال وعدم التشدد في الأمور أو التساهل فيها بشكل مفرط.

❖ **الخيرة فيما اختاره الله:**
ويضرب في ثقة الإنسان المطلقة باختيار الله ـ تعالى ـ وجهل الإنسان بعواقب الأمور، وأن الله يختار للعبد أفضل مما يختار هو لنفسه، وفيه حث على الرضا بالقضاء والقدر.

❖ **راس تقطعه ما يجيك فزاع:**
ويعني هذا المثل أن الذي يسيء إلى الناس سوف يخسر نجدتهم له عندما يحتاج إليهم، فلا تتصور أن تقتل أحداً ثم تستنجد به وقت الشدائد لينقذك.

❖ **رُبَّ صدفة خير من ميعاد:**
أي أن الصدف التي يقدرها الله ـ تعالى ـ قد تلعب في حياة الإنسان دوراً نافعاً ومفيداً أكثر من بعض الأمور التي يُجهد نفسه وراءها ثم لا يحصل على شيء منها[1].

❖ **من غاب عن شاته أكلها الذيب:**
وفيه حث على مباشرة الإنسان أموره بنفسه وعدم إهماله أو اتكاله على غيره، والمعنى أن الشاة قد تُسرق ويقال: أكلها الذئب، إذ إنك لم تكن حاضراً فلا تستطيع معرفة الحقيقة، وشبيه بهذا المثل ما يقال في نجد: (اللي ما يحضر عنزه تجيب تيس).

(١) أبوعودة، علي، وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٢٦٤.

❖ **النار ما تعقب غير رماد:**
وهذا المثل يقال - عادة - عندما يكون الولد لا يماثل أباه فيما اشتهر به من شجاعة أو كرم أو دين أو أخلاق، فيشبه الوالد بالنار والابن بالرماد الذي تخلفه تلك النار.

❖ **لا حلق جارك .. بلّ راسك:**[1]
يعني أنه إذا أصابت جارك أو قريبك مصيبة فإنها توشك أن تحلَّ بك، فكن على حذر، وفيه التحذير من إهمال معونة الجار أو القريب على مصيبته لأنها قد تعمُّ. وفيه تنبيه أيضاً على عدم الشماتة بالآخرين، فإنه ليس هناك أحد معصوم من غوائل الدهر.

❖ **من جعل نفسه نعجة .. أكلته الدياب:**
أي من كان في ضعف النعاج صار عرضة لأن يظلمه الأقوياء، ومثله قول الشاعر:

ومن لم يذدْ عن حوضِهِ بسلاحِهِ
يُهَدَّمْ ومن لا يظلمِ الناسَ يُظلمِ

❖ **من ظهر غيظه .. قلّ كيده:**[2]
ويضرب فيمن اشتدَّ به الغضب الذي يخرجه عن طوره ما يؤدي إلى ضعف حيلته وتدبيره.

❖ **اللقمة الكبيرة تغصص:**
ويحمل هذا المثل الزجر عن الطمع الذي قد يعقبه الفشل وخسارة الكل، فمن يأكل بتؤدة يستطيع أن يأكل حتى يشبع، ومن يُكبر اللقمة قد يغص بها فيضطر إلى النهوض وترك المائدة كلها بسبب جشعه.

❖ **لو تركض ركض الوحوش .. غير رزقك ما تحوش:**
وفيه الحث على التوكل على الله مع فعل السبب، لأن الأرزاق لا تأتي بقوة الشخص نفسه ولا بقدرته بل بتقدير الله - سبحانه وتعالى -، ومثله قول الشاعر:

ولو كانت الأرزاقُ تأتي بقوةٍ
لما أكلَ العصفورُ شيئاً معَ النسرِ

❖ **ما تطيح السقيفة .. غير على راس الضعيفة:**[3]
وهو يعني أن المسكين الذي لا سند له يحمَّل دائماً أوزار ما يحدث، وتكون الملامة عليه دون غيره، حتى لو كان بريئاً من الخطأ أو كان غيره مشاركاً له فيه.

❖ **ماء من تحت تبن:**
ويقال كناية عن الشخص الذي ظاهره الأدب وحسن المعشر وباطنه السوء والمكيدة، إذ إن التبن يطفو ويتشابك على سطح الماء فلا يراه الرائي حتى يقع فيه.

❖ **الناس زي السمك .. القوي يأكل الضعيف:**
ويقال هذا المثل عندما يتسلط الكبير على الصغير أو القوي على الضعيف، ثم يكون هذا الضعيف متسلطاً على من هو أضعف منه.

❖ **اشترِ لنفسك وللسوق:**
ومعنى هذا المثل أنه يجب تبصُّر الإنسان بالمستقبل وحسابه للأيام، فلو أن رجلاً أراد أن يشتري دابة فاختار القوية أو اختار

(١) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ٢١٧.
(٢) علي رضا، فؤاد. الأمثال الشعبية، مرجع سابق، ٩١.
(٣) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ٢١٤.

سيارة جيدة لكان قد اشترى لنفسه وللسوق؛ إذ يستطيع الانتفاع بها ما شاء، حتى إذا احتاج إلى بيعها وجد لها سوقاً ومشترين، ولو أنه اختار الضعيفة أو المسنة لعجز عن أن يجد لها مشترين إذا رغب في بيعها، وفي نجد يقولون: (اشترِ طيب تسمى رابح).

❖ **أعط القوس باريها:**

ومعناه: إذا كانت القوس من صناعة الماهر الخبير كانت جيدة، تعين صاحبها على الرمي وتمكنه من إصابة الهدف، أما إذا كانت من صناعة غير الحاذق فإنها لا تؤدي الغرض منها، فلا تجيد الضربة ولا تحسن الإصابة، لذا إذا استعان المرء بغير الخبير فأفسد الأمر أو استعان بالخبير فأجاد قيل: أعطِ القوس باريها[1].

ثانياً - مظاهر الثبات والتغير:

بناءً على أن الأمثال هي ثروة فكرية تراكمت عبر السنين أو القرون فلا يعلم بالضرورة متى قيل كل مثل من الأمثال، فإن تغيرها يتمثل في الإضافة إليها من خبرات الأجيال اللاحقة ومن التجارب التي يمرُّون بها، كما يضاف إليها ما يتعلمه أفراد المجتمع وما يسمعونه من أبناء المجتمعات التي يتصلون بها، سواء بالذهاب إليهم في أمكنة وجودهم أو باستقبالهم حيث يقيم الناس.

وقد حدثت في الأزمنة الأخيرة طرق جديدة في اتصال الثقافات والشعوب لا تتطلب الاتصال المباشر والمعايشة، فقد وجدت الهواتف والإذاعات والقنوات التلفازية المحلية والأجنبية، وكلها تحمل نماذج من الثقافات التي يطلع عليها أبناء المجتمع ويتعلمون منها كثيراً من القيم والمفهومات.

وفيما يتعلق بالأمثال الشعبية فقد حدث تغير من جهتين: الأولى: انتقال الأمثال الشعبية داخلياً؛ أي داخل المنطقة من المدن إلى الأرياف والبادية وبالعكس، وكذلك بين المدن والأقاليم المختلفة، والثانية: انتقال الأمثال الشعبية من خارج البلاد إلى داخلها عبر وسائل الاتصال المشار إليها سابقاً، وعلى سبيل المثال نذكر هنا الأمثال الشعبية المصرية التي كثر ترديدها بين الناس في المجتمع السعودي عموماً وفي المجتمع الحجازي ومنطقة المدينة المنورة خصوصاً لأسباب عديدة منها ما ذكر سابقاً، ومنها ما يتعلق بطبيعة الثقافة وخفة اللهجة المصرية، وقدرة المصريين على التعبير عن كل شيء بما يناسبه، وأخيراً كثرة المسلسلات المصرية التي عرضها ويعرضها التلفاز السعودي، والتي يتردد فيها كثير من الأمثال الشعبية المصرية وقد لاقت قبولاً لدى كثير من الناس في مجتمعنا.

(١) أبوعودة،علي، وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٢٦٧.

الفصل السابع

الرقصات والأهازيج الشعبية

أولاً بعض الرقصات والأهازيج الشعبية

ثانياً مظاهر الثبات والتغير

ويقصد بها هنا تلك الألعاب الشعبية الجماعية - غالباً - التي يصاحبها إنشاد القصائد الشعرية وترديدها في موضوعات متعددة وبطرق مختلفة في الأداء حسب المناسبات الاجتماعية المختلفة مثل الأعياد وحفلات الأعراس وما يتم في بعض المواسم أو عند ممارسة نشاط معين مثل ما يفعله الحادي للركب أو من يسوق السواني أو غير ذلك، وهي جزء من التراث الشعبي للمجتمع، وتعبر عن ثقافته، وتحمل معانيها كثيراً من المضمونات الاجتماعية والثقافية التي يستطيع محللها من خلالها التعرف على كثير من ظروف ذلك المجتمع وسماته خلال الفترة التاريخية التي مورست فيها تلك الألعاب، وقيلت فيها تلك القصائد والأناشيد.

وبما أن المدينة المنورة هي إحدى مدن الحجاز أو المنطقة الغربية من المملكة، فإن هناك تشابهاً كبيراً بين ما وجد فيها وما انتشر في مدن الحجاز وبلدانه بشكل عام من تلك الفنون والألعاب، إلا أن منطقة المدينة المنورة الواسعة - بما تشمله من قرى وبلدات تتصل إلى حد كبير بالمناطق الشمالية من المملكة بما فيها من ثقافات حضرية وبدوية - تحمل أنماطاً أخرى من الثقافة الشعبية وما تتضمنه من آداب وفنون، فقد اختلطت في هذه المنطقة فنون وألعاب وأهازيج ورقصات ذات أصول حجازية مثل المزمار والزير وما يتفرع عنهما مما سيأتي ذكره، مع ألعاب تعد - إلى حدٍّ كبير - نجدية الأصل مثل السامري وغيره، وكذا أهازيج شمال الجزيرة العربية مثل الدحة والمراد والخبيتي ونحوها. وعلى أي حال فهذه بعض نماذج من تلك الأهازيج مختصرة على سبيل المثال لا الحصر، مع التعليق على ما طرأ عليها من تغير خلال السنوات الأخيرة:

أولاً - بعض الرقصات والأهازيج الشعبية:

وهي متنوعة حسب المناسبات، وبعضها يكون باللغة العربية الفصحى وهو قليل، وبعضها الآخر بالعامية حسب المكان أو القرية التي يقال فيها، كما أن بعضها يخلو من آلات الطرب كافة، ويعتمد على حسن صوت المنشد وجودة أدائه، بينما بعضها الآخر تصاحبه آلات مختلفة - على قلتها - مثل الزير والمزمار والطبل وغيرها، ومن ذلك ما يأتي:

أ - إنشاد الخطيب والمجيب:

ويكون ذلك عند عقد القران إذ يُحضر أهل العريس معهم الخطيب وهو منشدهم، ويهيئ أهل العروس المجيب وهو منشدهم. وقد عُرف هذا النوع من الفن لدى المدنيين ولم يكن منتشراً عند أهل البادية والقرى، وقد كانت له أصوله وقواعده، ويبدأ الاحتفال بتلاوة عطرة من كتاب الله الكريم يرتلها أحد الحافظين الموجودين بصوته العذب بخشوع، ثم يأتي دور (الخطيب) وهو الرجل الذي جاء مع أهل العريس، ولديه قدرات وإمكانات صوتية خاصة يؤثر بها في النفوس، ويهزها هزاً بصوته الشجي وعذوبة حنجرته وبلاغة أسلوبه وطول وقوفه، ويقوم بإلقاء قصيدة (الخطوبة) المتضمنة إعلان الخطوبة، مادحاً وممجداً فيها أهل العروسين، وذاكراً الرغبة الأكيدة في إتمام المصاهرة وإعلانها للجميع لتكون على مرأى ومسمع من القريب والبعيد.

ومن الأمثلة على هذا النوع من الاحتفالات قصيدة رائعة من روائع أديب المدينة المنورة وشاعرها الشيخ (أحمد عابد) نظمها بمناسبة حفل التسليم وتغنى بها أحد المنشدين، وفيها يقول:

إنا قصدنا لناديكم بمن حضرا
نـرومُ أمـراً بـه ربُّ السمـا أمـرا
ونثني بالثنا عنكم ونُنشدكم
شعـراً كـروض بكم قـد أطلعَ الثمـرا
قِران من كملت أخلاقه "....."
قد ناسب النيِّرَيْن: الشمسَ والقمرا
فبالرفا والبنينَ العقدُ بينهما
وبالهنا والمنى ما شاعَ وانتشرا
لنبّريه الهنا في ظلِّ خيرٍ فتىً
أعني "....." الذي بالفضل قد شُهرا
وسُنّة الهاشمي في دارِ هجرتِه
نعم يقلُّ لديها شكرُ من شَكرا
أزكى الصلاةِ على المختارِ سيدنا
والآلِ والصحبِ ما بدرُ التمامِ سرى
موصولةً بسلامٍ، نفحُهُ عَطِرٌ
ما صاحَ شادٍ على زهرِ المنى سحَرا

ثم يأتي دور (المجيب) وهو الرجل الذي جاء مع أهل العروس، وله صوت نديٌّ رخيم يؤثر في النفوس، إذ يقوم بالرد على الخطيب بقصيدة جميلة مرحِّباً بهذه المصاهرة وهذا القدوم المبارك.

ومن الأمثلة على ذلك قصيدة رائعة من روائع أديب المدينة المنورة وشاعرها الشيخ (عمر بري) نظمها بمناسبة الرد على الخطيب وتغنى بها أحد المنشدين، وهي:

أهلاً وسهلاً بمن نرجو بهم أبداً
نيلَ الصَّفا والوفا والرعيَ للذممِ
شرفتمونا وجوهَ الخير إنكم
كواكبٌ قد أنارت حالك الظُّلَمِ
فحُسنُ ليلتنا يزهو بكم عجباً
فكلُّنا في سرور غير متَّهمِ
لكم صنوفُ الرضا منا ويتبعهُ
شكرٌ يسيرُ مسيرَ الشمس في الأممِ
وهذه سنّةُ المختارِ يتبعها
بكل فرعٍ كريمِ الأصلِ والشيمِ
فنسألُ اللهَ في هذا القرانِ لنا
وللعروسينِ سعداً وافرَ الكرمِ
ثم الصلاةُ على المختارِ سيِّدنا
والآلِ والصحبِ في بدءٍ ومختتمِ[1]

ب ـ إنشاد الحادي:

كان الحجيج يسيرون في قوافل تسمى الركب، وكان الحادي من أهم الضرورات في الركب فهو المنشد والمادح، ويكون صوته جميلاً ويقوم باختياره الشيخ أو أمير الركب، وذلك قبل القيام بالرحلة بمدة كافية، وتجهز له الراحلة والزاد وكل ما يحتاجه، ويكون في مقدمة صفوف الإبل. وللحادي تأثير كبير في الركب ليس في حجاج الركب فحسب، بل إن الإبل ـ كما يقولون ـ إذا طلع الحادي بنشيده في الليل ترخي آذانها وتستوحي الصوت، ثم (تُدَرْهِمُ) مسرعة مع الحادي، وإذا تكاسل الحادي في ألحانه أو سكت تكاسلت الإبل في سيرها.

والحداء هو لون من الرجز أو الخبب، وقد يكون من الشعر الخفيف، عرفه العرب منذ القدم، ويتغنى به لحث الإبل على مواصلة السير أو لقطع ملل السفر، وقد استخدم في قوافل الحجيج، وتغنى به الجمّالة والحجاج للتغلب على تعب السفر ومشقة المسير، ومن الحداء:

(١) الأنصاري، ناجي. التعتيمة، مرجع سابق، ٦٥، ٦٦.

صبح أربع تمسي شعيب الحضارة
مع مثلهن يمسي بوادي الربيع
مـع مثلهـن كـل تهنـى بـداره
وادي النعيم اللي غدوقه مهابيع

وقد تتناول وصف البحر والمركب وواجبات المناسك في الحج مثل:

وإن جبت حبيبي ياوبور
وإن جبـت حبيبـي
لاكنسـك وأرشـــدك
وبالشمـع اقيـدك
مروق بخوخه يا بحر
يا بحر مسروق بخوخه
لا يمســك عكـــار
ولا ريـــح بدوخـــه
تحت ظـل القلـــوع
أبـو شـــال وخـوخـه
في رابغ نوى الإحرام
ولـــبس إحرامـــه
يانهار الهنا يوم خلوة
يفـــك إحرامـــه

ومنها أيضاً:

يـا فـرح قلبـي ساعـة النفـرة
وفرحت عيونا ونزلنا بفرحة
وفتنا بين العلمين كان الفجر لايح
يوم دخلنا منى ونصبنا الخيم وذبحنا ذبايح
وافتكرنا العيال وبقي الدمع سايح

وهـكـذا يعبِّر الحـداء عـن كيفية أداء المناسك ورحلة الحجيج داخل المنطقة المقدسة، والحنين إلى الأهل في غربة السفر وطول الدرب بعبارات تريح نفوس المسافرين وتقطع ملل الطريق وتحث الإبل والركب على المسير، ومنها أيضاً:

عسى عسى في كل عام
نقف على باب السلام
ونشاهـد البـدر التمام
نبينـا خيـر الأنـام[1]

ج- الزير:

هـو نصف برميل أو (زيـر مـن الفخار) تغطى فوهته بجلد جمل مدبوغ ومعتنى به في شده وتربيطه، ثم يترك هذا الجلد حتى يجف، فإذا ضرب عليه بعد جفافه بعصا أو ما شابهها أعطى صوتاً مدوّياً يُسمع من بعيد، وفي فن (الزير) هذا يتصدر ضارب الزير المجلس أو مكان ممارسة اللعب ويبدأ في الضرب عليه حسب اللون الذي يرغبه اللاعبون؛ لأن لكل لون من ألوان اللعب على الزير ضرباً خاصاً ووقعاً معيناً، فهناك من ألعاب الزير عدة أنواع من أهمها لعبتان:

١ - لعبة زيد:

وهذا النوع من الفن الشعبي هو السائد في المدينة المنورة وما حولها من الأودية والقرى مثل وادي الفرع ووادي الصفراء، ولهذا اللون عشاقه والعارفون به، إذ لا يستطيع غير العارف به وبحركات لعبه الوقوف فيه ولا مجاراة ممارسة هذا اللون الشعبي الجميل.

ويجـري اللـعب بيـن صـفيـن؛ إذ يقف اللاعبون في صفين متقابلين ولكل صف (ربان) - كما يسمونه - وهو العارف بترانيم هذه اللعبة وأصولها، وكانت تستخدم فيها السيوف والبنادق التي تطلق في الهواء جماعاتٍ ووحداناً. وهذا اللون من (الفلكلور) الشعبي هو لون لعبة الحرب وبخاصة لدى قبائل حرب التي تسكن المدينة المنورة وما

(١) الخياري، السيد ياسين. صور من الحياة الاجتماعية. مرجع سابق، ٢٢٥، ٢٢٦.

حولها مثل وادي الصفراء ووادي الفرع ورابغ وما جاورها، فقد اعتادوا قديماً على ضرب (الزير) ليسمعه القاصي والداني عندما تحدق المصاعب ويداهم الخطر، وصار (فلكلوراً) شعبياً محبباً في المناسبات الجميلة[١].

ولـ(زيد) تفريعات وقوانين معينة وبحور شعرية خاصة مقننة، ولو صادف أن (رُباناً) أخطأها في حالة (الشيلة) ـ وهي رفع الصوت بالإيقاع الجديد ـ فإن الربان الآخر في الصف المقابل يعدُّها فرصة ليدخل عليه بشيلة أخرى تتفق ومجريات اللعبة، وهذا يعني التشنيع به لعدم معرفته قصص اللعب.

ومن شيلات (زيد):

ربي عطاني بحر من ورد

مراكب الهند تاهت فيه

ومنها:

سرى الليل وارخى الغطى كل نايم

ســـرى الليـــل

ومنها:

مسكين يا اللي نحا عن بلاده

مسكيـــــــن

ومنها:

لقيت القميري على الما بحجله

وأخذت القميري وخليت حجله[٢]

٢ ـ الرديح:

لعبة شعبية تشبه العرضة، قوامها الدفوف والزير، يرتدي اللاعبون فيها أثواباً واسعة تسمى محلياً (الأثواب الحياسي)، ويرقصون فيها على الطبول الرتيبة في حركات تشبه حركات رقصات الباليه، ويتنازل فيها الشعراء بشعر الكسرات، وهي من وزن الدُّوبَيت، ويظل فيها الشعراء في سجال يستمر أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل، وتُحيا هذه اللعبة في أيام الصيف بقرى ينبع النخل، وفي أيام الأفراح في ينبع الميناء[٣]. كما تمارس في كثير من بلدان المنطقة. وتعد لعبة الرديح أقل تعقيداً من لعبة زيد، ولذا يستطيع كثير من الشباب المشاركة فيها دون تقنين خاص أو نظام معقد، وللرديح أنواع وألوان كثيرة، والواقع أن ألعاب الزير مثل زيد والرديح لا تزال تمارس بأشكالها وألوانها وتفريعاتها في مناسبات متعددة.

د ـ الكسرة (الكسرات):

الكسرة فن شعبي يمتاز بكثير من الذوق الفني وجودة المعاني وقصر العبارة وإيجازها، مع البناء الجيد والدقة في التعبير واختيار أسلوب الإثارة المناسبة، وتعبّر الكسرة عن مكنونات نفس قائلها ونفثات قلبه التي تجيء نتيجة معاناة خاصة أو موقف أثَّر فيه؛ ولذلك فغناء (الكسرة) وجداني عاطفي في أكثر مضموناته.

والكسرة لا بد أن تمتاز بالجودة والإبداع؛ لأنها ـ غالباً ـ لا تزيد على بيتين من الشعر الشعبي، وهذان البيتان لا بد أن يعطيا المعنى المراد والصورة المطلوبة في جرس معين وتركيز خاص، وإلا لما غدت الكسرة صحيحة عند نقادها، والكسرة يقولها شاعرها نتيجة معاناة أو موقف خاص أو شرح حالة معينة، فيتناقلها عشاق هذا الفن حتى تصبح لديهم كالمثل السائر، وكلما عُرف موقف الكسرة أو الباعث على إبداعها تركزت في الأذهان وسارت بها الركبان من قرية إلى أخرى ومن

(١) محمد صالح البليشي، *المدينة المنورة*، سلسلة هذه بلادنا، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، د.ت)، ١٤١، ١٤٢.

(٢) محمد صالح البليشي، *بدر*، سلسلة هذه بلادنا، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٣ هـ)، ٢٢٢.

(٣) الخطيب، عبدالكريم. ينبع، مرجع سابق، ٧٣.

شاعر إلى آخر ومن معجب محبٍّ لهذا الفن إلى آخر.

وتغنى الكسرة بشكل إفرادي وبصوت جميل يجسد معانيها ويظهر إبداعاتها، وقد تفنن في نغم صوتها بعضهم حتى صار مشهوراً بها شهرة شعرائها أنفسهم. ومن أبيات الكسرات:

يا الله يا نجم يا قزاح
تشرف على حبيبي قل له
قل له حبيبك بصبره باح
والليل ما يرقده كلّه

ومنها:

يا سهيف الخد يا لمجمول
يا اللي منازلك في فؤادي
لا تمنعه ريقك المعسول
عني وترميه في الوادي

ومنها:

أبو صفه كامل الأوصاف
اللي آذا الناس باوصافه
حزين قلب الذي ما شاف
جريح قلب الذي شافه

ومنها:

بيني وبينك عهود وحد
يوم المودة قسمناها
واللي على الساس ما ينهد
يا غاية الروح وامناها

ومنها:

يا سيد زاد الحلا لونك
ويش السواد الذي في العين
يوم اسمع الناس يطرونك
سالت دموعي على الخدين

ومنها:

يا رب تسقي بدر والخيف
والواسطة وام ذياني
خيف الحزامي محل الكيف
وينزله كل ديقاني

ومنها:

والله بدر يوم يطرا لي
والشام كله يوم اطريه
دمعي على الخد هلالي
كم فرق حي تركته فيه

ومنها:

يا بدر يا زين كيف أرغب
حبٌّ بدالك بحبٌّ جا
وانا الذي كل ما أشرب
أشبح خيالك في حوّاف الما[1]

ومنها:

حب الوطن شي رباني
ياحر يا مو مثل الأحرار
مهما تضرب في الأكواني
ما تشوف مثله ولا تختار
وينبع لها حب وجداني
بالحيل زايد عن الأقطار
حتى الذي راح لبنان
وأمسى في أوروبا عنه مادار
مناخها طب لقمان
لاجو بارد ولا هو حار

ومنها:

غاب القمر واحتجب في وقت
حنا لضو القمر أحوج
ليه يا قمر عني غبت
ما ابصر طريقي في ليل أدلج[2]

هـ ـ المبادع (المراد):

والمبادع أو المراد ـ بكسر اللام وتسكين الميم وفتح الراء كما ينطقها العامة ـ من

(١) البليشي، محمد صالح. بدر، مرجع سابق، ٢٢٣ ـ ٢٢٥.

(٢) الخطيب، عبدالكريم. ينبع، مرجع سابق، ٧٣، ٧٤.



المبادع (المراد)



رقصة الخبيتي

الألعاب الشعبية التي تسود في أكثر أنحاء المملكة ـ ومنها المدينة المنورة ـ وبخاصة بين أبناء البادية، وفي هذا اللون الفني يقف الرجال في صفين متقابلين، وليس هناك زير ولا غيره بل شعراء يتوسطون كل صف، ويبدأ (المراد) بينهم فيقول أحدهم بيتين من الشعر الشعبي يحملان المعنى أو المعاني التي يريدها فيقولها ـ جماعياً ـ الصف الذي معه وبعده الصف المقابل، لكل منهما بيتان، فيبرز الشاعر من الصف المقابل ليرد عليه ببيتين من الشعر يقابلان أو يناقضان المعنى الذي أتى به الأول... وهكذا دواليك، وربما تضمن الصف الواحد أكثر من شاعر، وربما صار التحدي بين الشعراء على أشده حتى وقت متأخر من الليل.

وحول الصفين المتقابلين يجلس من لا رغبة لهم في المشاركة، ومنهم المتذوقون للشعر أو نقاده، ومنهم المتحيز لشاعر معين والمعجب به، وبعضهم تبلغ درجة إعجابه إلى حدٍّ حفظه كل ما يقال في تلك الأمسية. ولا يزال هذا اللون سائداً بين أبناء البادية في المنطقة[1].

و ـ الخبيتي:

وهو لون شعبي منسوب إلى (الخبت) ويؤدى في المنطقة وفي القرى الممتدة من بدر إلى جدة، ويغنى الخبيتي بشكل إفرادي وجماعي، وتغنيه النساء في أفراحهن، كما يغنيه الرجال كذلك في صفين متقابلين على إيقاعات الطبول (الطِّيران) جمع طار في لهجة المنطقة، وهو غناء وجداني يمتاز بالكلمات المؤثرة والإيقاعات المعبرة، ومن كلماته وألحانه:

سقى الله سقى الله من سقاني وأنا ظميان
وعلق لي البدرة على الدرب واسقاني

ومنها:

لا له يا الخيزرانه في الهوى مَيّلوكي
لا له وإن ميلوكي مالت الروح معاك
لا له وزمام سيدي طاح في جمة البير
لا له وجنيه أبو خيال للي يجيبه

(١) البليشي، محمد صالح. المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٤٢، ١٤٣.

ومنها:

يا بو سليمان العسيري

يا بو سليمان العسيري

خليت رجلي ما تسيري

وتسير وتعود عالية

والخبيتي سهل الإيقاع، ويمكن لمن يعرف اللحن الخاص به أن يطوع له كثيراً من ألوان الشعر الشعبي الذي يمتاز بقصر الأبيات وجودة المعاني، كما هو الحال في بعض (شيلات) زيد وبعض أنواع الكسرات وغيرها[1].

ز ـ السامري:

ويلاحظ أن قصائد السامري المعروفة في أنحاء المدينة المنورة ـ ومنها العلا ـ معظمها أو كلها هي القصائد المعروفة نفسها والمتداولة في أنحاء نجد وشمال المملكة من الجوف شمالاً إلى وادي الدواسر جنوباً، وهذا ليس بمستغرب؛ فتشابه التقاليد والعادات والموروثات الشعبية الأخرى وانتشارها بين حواضر وقرى وسط الجزيرة العربية وشمالها بصفة خاصة أمر معروف، وعادة يصحب السامري الضرب بالطِّيران التي يضرب بها في الخبيتي وغيره، وهذه بعض النماذج لما يقال من القصائد في السامري:

يا سلام ويا سلام الله

يا حمام جر الألحان

من يعين ومن يخاف الله

صابني مياح الأردان

صابني من بد خلق الله

صابني مير الله انجاني

كلمتين في سبيل الله

توزن الدنيا بما فيها

والشريعة يا عدو الله

كلمة التوحيد نقضيها

***

كريم يا برقٍ سرى عقب الأمحال

عساه يسقي دار داعج عيونه

يسقى غريسٍ طلعها يطرب البال

وفيها القميري صاقعٍ يذكرونه

فيها نطحني صويحبي طيب الفال

ينسف على سهل المفاريع قرونه

ينسف حليبٍ كن وصفه إلى مال

عرقٍ هفا بين الرطايب غصونه

قلت افتش المغشى عساه يسمح البال

قال اندحر يا الزين ما لك مهونه

***

سلام يادار الغضي سلام

وألف هلا والفين ترحيبه

هذا مكان سهيف الأقدام

هذا مكانه يوم علمي به

***

البارحة يا عبيد عييت اناما

قلب الخطا ذكر علي الهواجيس

يالايمي جعلك ببحر الظلاما

والا ربيط في يدين المحابيس

غديت مثل اللي طواه الهياما

طي حالي مثل طي القراطيس

***

يا الله ألا يا ولي الأمر

يا مسندي وانت اللطيف

إنك تعاوني على الصبر

وزريع قلبي لا يهيف

ونَّيت ونَّه زلزلت مصر

وقصور مكة والشريف

(١) البليشي، محمد صالح. بدر، مرجع سابق، ٢٢٣.



رقصة المزمار (*)

عيَّت ذلولي تقطع الجسر
وصويحبي يمّ القطيف
لي صاحب خواتمه عشر
يرجس كما مهرة الشريف

***

يا الله اليوم يا رواف
يا ابا الأفراح عاونّي

خوفوني وأنا ما أخاف
واحسب الضلع يزبّني

الحذايا غدن رهاف
والحفا يرعب الجنّي

يحسّبني عمى ما شاف
يتقي بالنخل عنّي

***

حمام يا اللي في البساتين
يلعب طرب والهمّ ما جاه
هو معجبك طلع الرمامين
أو معجبك علال حناه[1]

ح ـ أنواع أخرى من الفنون الشعبية:

هناك أنواع أخرى كثيرة ـ خلاف ما ذُكر ـ بعضها اندثر وبعضها لا يمارس في مناطق واسعة بل هو معروف لدى أهل بلدة أو قرية دون سواها، ومن أمثلتها:

١ ـ المزمار:

وفي هذه اللعبة توقد نار في الوسط يحيط بها اللاعبون وكلٌّ منهم بيده عصا تسمى (الشون) أو (الشومية)، فيتجمعون حول تلك النار على شكل حلقة أو حلقات بعضهم خلف بعض، ويضرب الطبل ويصدح صوت المزمار، فينزل من يريد الرقص إلى الحلبة على نغمات الطبل والمزمار حول النار وهو يلعب بعصاه، وينزل في المقابل آخر أو آخرون ويبدأ التحدي الكبير بين أشخاص أو بين فريقين، وربما أدى الأمر في النهاية إلى ضرب بالعصي، وربما تسيل دماء بين المتبارزين. وقد اختفت هذه اللعبة في الوقت الحاضر بعد أن كان لها مغرمون مشجعون ومعارضون، وكانت تسود

(١) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ١٦٧ ـ ١٦٩.

(*) المصدر: الهيئة العليا للسياحة.

مدن الحجاز بأكملها، ولا تعرفها القبائل المحيطة بالمدينة المنورة[١].

٢ ـ لعبة العجل:

العجل لعبة بحرية قوامها الدفوف والصاجات، يرددون فيها الغناء والموال البحري، ويحيي بحارة السفن الشراعية هذه اللعبة حينما يدخلون بسفنهم ميناء ينبع عائدين من السفر، وتُحيا هذه اللعبة في الأفراح والمناسبات في مدينة ينبع.

٣ ـ لعبة الحمّام:

هي لعبة أو عرضة حربية تخص ينبع النخل، قوامها الزير والدفوف، يجتمع فيها العارضون في صفين متقابلين وصف آخر على الجانب يضم حَمَلَة الدفوف، وفي هذه العرضة تعلو الأهازيج على إيقاعات الدفوف، ويردد الشعراء فيها شعر الفروسية، ويرقص العارضون رقصات جميلة وهم يحملون البنادق والسيوف، وتقام هذه اللعبة في أمسيات أيام العيد، وكما يقولون سميت هذه اللعبة بالحمّام لأنها تغسل النفوس من العناء والتعب[٢].

٤ ـ البيثانة:

وتقال عند بداية حفل الزواج لإعلان الفرح والبهجة، ومن كلماتها: (يا ساعة الرحمن، يا ساعة الهدى، عسانا في أبرك الساعات) يقولها أحد الأشخاص، وعند الانتهاء تبدأ استقامة الصفوف للعب، ولها كلمات أخرى أيضاً مثل:

يا ربعنا النوماسي هذا

ما ياتي إلا بالغصايب

من لا يحوشه في شبابه

ما حصله والراس شايب

٥ ـ الرفيعة:

ووقتها بعد صلاة العصر وقبل صلاة المغرب، ويسمى اللعب فيها (الرجيعي). ومن الكلمات التي تقال في هذا اللون من الألعاب الشعبية:

وين انت يا باغي علينا

دونك زباد الروم شمَّه

كم من صبي من عدانا

جانا ولا عَوّد على أمَّه

٦ ـ القاف:

وينشدون به وهم سائرون على الجمال في أسفارهم الشاقة، ومنه:

الليلة أنا والجمال وعنانا

تلعب بنا الأيام واحنا من مدابيح

نصبح وما ندري وين مانا

ونمسي وربي عالمٍ في المصابيح

ومنها قول الشاعر:

ظليت أباري عقيد الزمل لا من القمر غاب

ولاما تحنت عظامي مثل عرجون الودية

وصابر على أمري وربي عالمٍ العبد والشأن

الله يا وقتنا ما فيك من طولٍ المسارية

٧ ـ المزهوم:

وهو نوع من الأهازيج الحماسية، ومنها قولهم:

حنا ما نوينا يوم الطايلات

ويجلى الضيم عنا شغل المثمنات

والمثمنات: يقصد بها البنادق غالية الثمن[٣].

وكل من البيثانة والرفيعة والقاف والمزهوم: فنون اشتهرت في منطقة العيص قديماً، ولا تمارس في الوقت الحاضر إلا

(١) البليشي، محمد صالح. المدينة، مرجع سابق، ١٤٢.

(٢) الخطيب، عبدالكريم. ينبع، مرجع سابق، ٧١ ـ ٧٣.

(٣) السناني، معتاد. العيص، مرجع سابق، ٨٧، ٨٨.

نادراً، وتؤدى في المناسبات الرسمية من باب التذكير بالتراث، وكذلك في المهرجانات التي تنظمها الجهات الرسمية.

ط ـ ألعاب النساء وأهازيجهن:

لم تكن مشاركة النساء دائمة في كثير مما سبق ذكره من الفنون والرقصات والأهازيج الشعبية عدا ما يخص حفلات الأعراس بمراحلها المختلفة من الخطبة إلى الدخلة، وما يتعلق بانتقال العروس إلى بيت الزوجية، وما يصاحب ذلك من ضرب للدفوف، وترديد الأهازيج المادحة والداعية بالبركة، والتي سوف يرد شرحها عند الحديث عن حفلات الزواج.

وهذه بعض الكلمات التي تصاحب ضرب الدف عند النساء:

نطحني غزالٍ يا سليمان
نقض جرحي الباري عليَّه
ينقض جعوده حرد الامتان
يشادي شماريخ الودية
هلا يا هلا شدوا ومدوا
وخلوا منازلهم خلية
هلا يا سهيِّف يا رهيفً
هلا يا عويد الخيزرانة
حبيبي لابس له ثوب وسروال
يجرّ الهوى جرّ السواني

***

والدودحية تغطي وارقدي
وانا ابن عمك مانا اجنبي
والدودحية يا موز القزاز
أنت في صنعا وصوتك في الحجاز
والدودحية نفست عالدرج
تقول الداية على الله الفرج
يقول أبوها لعله لاخرج
ويقول أخوها لعله لا درج[1]

ثانياً ـ مظاهر الثبات والتغير:

وتمثَّلَ التغيير الذي طرأ على هذا النمط من أنماط الحياة الاجتماعية والثقافية في أمرين: أولهما اضمحلال كثير من أنواع تلك الرقصات والأهازيج واندثارها، وجهل أبناء الجيل الحاضر بكثير مما كان يمارسه أجدادهم أو حتى آباؤهم، وهذا أمر عم كثيراً من أنماط الثقافة التقليدية بوجه عام؛ بسبب التغير الاجتماعي والاقتصادي والأخذ بأساليب الحياة الحديثة في كثير من أمور الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

أما الأمر الآخر فهو الانتقال من مكان النشأة إلى أمكنة أخرى داخل المنطقة أو حتى خارجها، فقد أدى تحضر القرى والبادية إلى التعرف على بعض أنواع الفنون التي كانت تمارس في المدن وإلى انتشارها بينهم، كما أنه في المقابل أدت الهجرة الداخلية في بعض الأحيان إلى انتقال المهاجرين إلى المدن بأنواع من الفلكلور الشعبي الذي كانوا يمارسونه في البادية والقرى، فأصبحت تُرى في المدينة المنورة لدى بعض المهاجرين من البادية ممارسات في حفلاتهم الخاصة لم تكن معروفة فيها قبل ذلك، وإن كان الاتجاه العام للتغيير يشير إلى اضمحلال كثير مما اعتاده الناس في هذا المجال وزواله، وانحساره إلا في المهرجانات الرسمية التي تقام في مناسبات معينة وتنفق عليها الأموال، ويخصص لها لاعبون مدربون بطريقة مقصودة وليست تلقائية كما هو الحال في السابق.

(١) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ١٧٠.

الفصل الثامن

الألعاب الشعبية

أولاً الألعاب البدنية

ثانياً الألعاب الذهنية

ثالثاً ألعاب الفتيات

رابعاً مظاهر الثبات والتغير

تعبر الألعاب الشعبية المنتشرة في مجتمع ما عن نوع الثقافة السائدة فيه، كما تعبر عن ظروف ذلك المجتمع وتاريخه، وتعد الألعاب الشعبية التي مارسها أبناء منطقة المدينة المنورة جزءاً مهماً من تراث تلك المنطقة الذي يلاحظ عليه التنوع بوجه عام، مع الاصطباغ بصبغة الثقافة العربية الإسلامية لغرب الجزيرة العربية. وبالنظر إلى جملة الألعاب التي انتشرت في أرجاء المنطقة نجد أنها تشتمل على كثير من الألعاب التي يمارسها أبناء وسط الجزيرة العربية وغربها وشمالها، إضافة إلى ألعاب عرفها الناس في بعض مناطق العالم العربي - وأحياناً شبه القارة الهندية - مع إدخال تعديلات طفيفة على قوانين بعض الألعاب أو إحداث اختلاف بسيط في تسمياتها.

وفي الواقع إن الغالب من تلك الألعاب - التي تشير إليها المصادر - هي ألعاب يمارسها الذكور وخصوصاً الشباب، بينما هناك ألعاب أخرى يشترك في ممارستها الذكور والإناث، وبخاصة الصغار، كما أن بعض تلك الألعاب يمكن أن يمارسها الكبار، ولا سيما تلك التي لا تحتاج إلى جهد بدني شاق، وفي هذا الفصل عرض لنماذج من الألعاب الشعبية التي اشتهرت بين أهل المدينة المنورة:

أولاً - الألعاب البدنية:

وهي كثيرة جداً، وتمارس في الحاضرة والقرى والبادية، وإن كان أهل البادية أقل ميلاً إلى اللعب من غيرهم، وقد تمارس اللعبة في أكثر من مكان وبأكثر من اسم، وقد يكون تغيير الاسم ناتجاً عن تغيير في بعض قوانين اللعبة، كما قد يكون نابعاً من اللهجة السائدة في هذه البلدة أو تلك، ومن أمثلة تلك الألعاب:

أ - لعبة البربر:

وقد عرفت هذه اللعبة منذ القدم، وما زالت تمارس بين الصِّبْية إلى اليوم ولكن بشكل أقل مما مضى، وتختلف تسميات هذه اللعبة من منطقة إلى أخرى في المملكة، وتؤدى في النهار، ويقوم بممارستها الصِّبْية من عمر السابعة حتى الخامسة عشرة، إذ يقومون بعمل مستطيل طوله خمسة - أو ستة - أمتار وعرضه متر، ثم يقسم هذا المستطيل إلى خمسة - أو ستة - مربعات متساوية يخططها الصبية بأرجلهم، ثم يختارون البربر: وهو قطعة مربعة من الخشب أو الفخار بمقاس ٤×٥ سم على وجه التقريب، ثم يُجرون القرعة، فالبادئ أولاً يرمي البربر في المربع الأول وعليه أن يمرره إلى المربع الثاني، ثم إلى الذي يليه وهو على رِجل واحدة بينما الرِّجل الأخرى مرفوعة، وإذا خرج البربر من المربع الأول إلى الثالث مباشرة يعد المتسابق فاشلاً وتنتقل اللعبة إلى زميل آخر، أما إذا أكمل المتسابق جميع المربعات فتحسب له نقطة، ويكون لديه الحق في الاستمرار ليزيد رصيده، وزملاؤه يراقبونه في كل مرة بفارغ الصبر كي يخطئ ليأتي دورهم في اللعب... وهكذا، وتسمى هذه اللعبة في بعض المناطق (العتبة)[1].

ب - طاق طاق طاقية:

يتم إجراء قرعة لتحديد اللاعب البادئ باللعب، فيمسك بيده طاقية أو منديلاً أو أي شيء آخر بينما يجلس باقي اللاعبين على شكل دائرة مغلقة وأبصارهم موجهة إلى مركز الدائرة، ويبدأ اللعب بأن يجري اللاعب البادئ حول الدائرة وهو ينشد قائلاً: (طاق.. طاق.. طاقية) ويردد بقية

(١) أبوعودة، علي وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٢٨٠.



لعبة طاق طاق طاقية

اللاعبين في الدائرة قائلين: (فين رايح يا جرس؟) وفي بعض المناطق يرددون: (طاق.. طاق.. طاقية) ويرد عليه زملاؤه: (رن رن يا جرس، محمد راكب على الفرس) ويُكرَّر هذا الشدو، وأثناء الدوران حول الدائرة يُسقط المنديل ـ أو الطاقية ـ وراء ظهر أي لاعب من الجالسين دون أن يشعره بذلك، ويستمر في الجري دورة كاملة ليأخذ الطاقية ويضرب بها ذلك الذي وُضعت خلفه ولم يشعر بها، أما إذا شعر بها الجالس قبل ذلك فإنه يأخذها ويجري ليضرب بها من وضعها حتى يكتمل الدوران ويجلس المطارَد منهما في المكان الخالي في الدائرة، وإذا لمس اللاعبُ الذي سقطت الطاقية خلفه اللاعبَ المطارَد قبل أن يجلس في مكانه الخالي يعيد المحاولة مرة أخرى، وإذا لم يستطع ملامسته وجلس مكانه فإنه يجري حول زملائه في الدائرة وتتكرر هذه العملية عدداً من المرات[1].

ج ـ عظيم ضاح :

وهي من الألعاب الشعبية القديمة جداً، وكانت منتشرة في بعض القرى خصوصاً في منطقة المهد، وتقام هذه اللعبة في الليل إذ يؤخذ عظم يحمله أحد الصِّبْية، ثم يرميه بقوة في أي جهة بخفة وسرعة، ثم ينتشر بقية اللاعبين للبحث عن العظم، وهم يرددون: (عظيم ضاح وين غدا وين راح؟) فالذي يجده من أحد الفريقين يقول: معي، والسابق يطلع ثم ينطلق في اتجاه الميدان في مساحة دائرية الشكل تحدد مسبقاً، وتكون في وسطها علامة، وبينما يحاول الفريق الآخر إمساكه يحاول فريقه الدفاع عنه والتمويه عليهم ليحولوا دون إمساكه من قِبل الفريق الآخر، فإن أمسكوا به فشلت اللعبة وتعاد حينئذٍ ولا يحسب له شيء، ويأخذ العظمَ الفريقُ الخصم، وإن وصل ولم يمسكوا به يصبح فائزاً وتحسب له نقطة، أو يبقَ العظم مع الفريق نفسه مرة أخرى[2].

د ـ كورة التزقير :

وهذه اللعبة تعتمد على كرة صغيرة مصنوعة من الخرق البالية ومخروزة بخيط من الصوف، ولها قوانين معقدة جداً، وقد تشبه ـ إلى حدٍّ ما ـ لعبة الكريكت المعروفة الآن إلا أنها تختلف عنها في بعض تفصيلاتها، وقد انتشرت هذه اللعبة في محافظة العلا وفي غيرها.

وصفة اللعبة أن هناك فريقين من اللاعبين تجرى قرعة بينهما لاختيار من يضرب الكرة من أحد الفريقين أولاً ومن يزقرها (ويعني التزقير رفع الكرة رمياً باليد في الهواء إلى أعلى أمام الضارب بحيث لا تتجاوز في ارتفاعها رأسه)، والفريق الذي يضرب الكرة

(١) محمد كامل عفيفي، *الألعاب الشعبية في المملكة العربية السعودية بوحي من الجنادرية*، (الرياض: المهرجان الوطني للتراث والثقافة، ١٤١٢ هـ)، ٦٠.

(٢) أبوعودة، علي، وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٢٨١.

يجتمع أفراده في أول الملعب لضربها، أما الفريق المزقر فيقف أحد أفراده للتزقير، وينتشر البقية في طول الملعب وعرضه حتى نهايته التي تبعد عن مكان التزقير مئة متر تقريباً وتسمى (الماد). وتزقر الكرة للضارب ثلاث مرات، فإن أصابها وإلا وقف في مكان خلف الضارب يسمى (المنص) فيقول له المزقر (ليق في المنص) ويأتي للضرب شخص آخر.. وهكذا، ويحاول الواقفون في المنص (اللائقون) الخروج منه في غفلة من المزقر، والانطلاق جرياً إلى نهاية الملعب (الماد)، فإذا رأى أحد اللائقين في المنص في نفسه قدرة على الخروج خرج بأسرع ما يمكن ركضاً ليصل إلى الماد... وهكذا [١].

هـ ـ لعبة سرت:

تتكون هذه اللعبة من فريقين يحمل أفرادهما العصي المعقوفة، وكل فريق يدحرج الكرة بالعصا حتى يوصلها إلى هدف معين، والفريق الفائز هو الذي يوصل الكرة قبل الآخر إلى ذلك الهدف، وكثيراً ما يكون الهدف جدران إحدى الدور، وتتكون الكرة ـ عادة ـ من مادة الخيوط السوداء، وقد انتشرت هذه اللعبة في ينبع وما حولها[٢].

و ـ الضاع:

وهي لعبة شعبية واسعة الانتشار، يلعبها اثنان أو أكثر، ويُختار الفريق الذي يبدأ اللعب عن طريق القرعة، ثم يأخذ (الضاع) وهو خرزة أو حصاة صغيرة ويخفيها في قبضة اليد، ثم يمد يديه الاثنتين إذا كانت اللعبة من شخصين، أو يمد جميع أفراد الفريق أيديهم إذا كانوا مجموعة، ويتقدم أحد أفراد



لعبة الضاع (*)

الفريق الخصم ليحاول معرفة القبضة التي بها ضاع، فإن عرفها ينتقل اللعب إلى فريقه ليقوم بما قام به الفريق الأول، وإن لم يعرفها يُعد فاشلاً، ويقوم كل فرد من الفريق بضربه بعصا أعدت لذلك أو بقطعة من القماش مجدولة بقوة، وقد يكون الضرب مؤلماً، ولكن الأطفال يحتملونه لإشباع هواياتهم، ثم تعاد المحاولة... وهكذا[٣].

ز ـ الزبيرات:

الزبيرات: جمع زُبير، وهو كومة صغيرة من الرمل، وقد عرفت في محافظة المهد وفي العلا وغيرهما، ويؤدي هذه اللعبة الشعبية ـ عادةً ـ الأطفال، إذ يقسمون أنفسهم إلى فريقين، ويسمى كل فريق باسم رئيس الفريق، ثم يجلس الفريق الأول في مكانه، وينتشر الفريق الثاني مختفياً ويقوم بعمل زبر من التراب في أمكنة مختلفة، ويحرص أفراده على إخفاء آثارهم حتى لا يكتشفها الفريق الخصم، ثم يعودون إلى الفريق الأول

(١) عبدالكريم، أحمد. هذه العلا، مرجع سابق، ٧٨.

(٢) الخطيب، عبدالكريم. ينبع، مرجع سابق، ٧١.

(٣) أبوعودة، علي، وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٢٨٤.

(*) المصدر: كتاب الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية، الألعاب، مج ١٢.

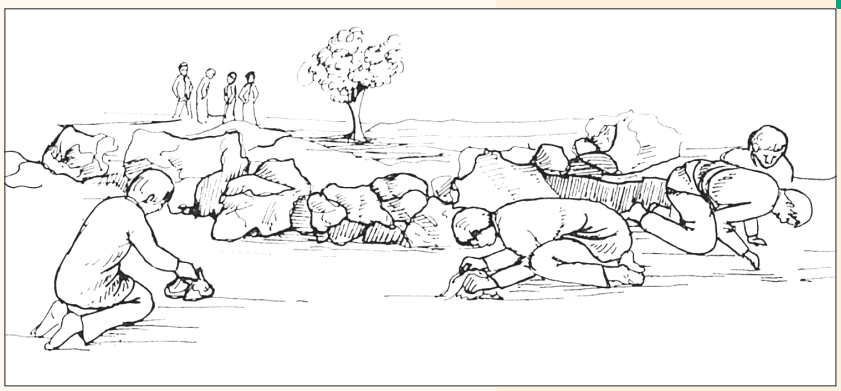

لعبة الزبيرات (*)



لعبة شق القنا (*)

ويجلسون ليتولى أفراد الفريق الأول البحث عن الزبر وتهديمها، ثم يرجعون إلى مكان الفريق الثاني حيث ينتظرهم أفراد هذا الفريق، ويتولى الفريقان سوياً عدَّ المتبقي من الزبر التي لم يهدمها الفريق الخصم، وتعد الزبر المتبقية نقاطاً في صالح الفريق الأول.. وهكذا[1]، وتعرف هذه اللعبة في العلا وبعض القرى باسم (واحد، اثنين وقلقلة).

ح ـ شق القنا:

لعبة (شق القنا) من الألعاب الشعبية المحببة إلى الصبيان، وعادة ما تمارس هذه اللعبة في الليل إذ يجتمع الصبيان في مكان واسع فسيح يصلح للكرِّ والفرِّ، ويؤديها فريقان متساويان في العدد، وكلما كان العدد أكبر كانت أكثر إثارة وجمالاً.

في هذه اللعبة يقف كل فريق في مواجهة الآخر، وتفصل بينهما مسافة تبلغ نحو خمسة ـ أو ستة ـ أمتار، ويُختار الفريق الذي يبدأ اللعب عن طريق القرعة، ويكون الميدان ـ هونقطة النهاية ـ مقابلاً للفريق الذي يلعب ـ وليكن مثلاً (أ) ـ وخلف الفريق (ب)، ثم يقول أحد أفراد الفريق (أ): شق القناة، ويرد عليه أفراد الفريق الثاني (ب): منهو يرأسه؟، فيقول الفريق (أ): برأس فلان (ويذكرون اسمه وقد اختاروه مسبقاً)، وعادة يمتاز بالسرعة والمراوغة، ثم يتحرك أفراد الفريق (أ) جميعهم للتمويه والتغطية، ثم يحاول الشخص المختار الوصول إلى الميدان الذي يبعد ـ عادة ـ نحو ٥٠ م تقريباً، بينما يحاول أفراد الفريق (ب) الإمساك به، وإذا وصل ولم يمسكوا به يُعد فائزاً وتبقى اللعبة لدى فريقه، أما إذا أمسكوا به فحينئذٍ تفشل اللعبة وينتقل اللعب إلى الفريق الآخر... وهكذا[2].

ط ـ الكَبَت:

وهي لعبة شعبية منتشرة في مدن الحجاز بشكل عام، بينما تنتشر بشكل أكبر في منطقة المدينة المنورة، خصوصاً في الحاضرة. وفي هذه اللعبة ينقسم اللاعبون إلى فريقين، ويوضع خط فاصل في نصف مساحة الملعب، ويتقدم أحد الفريقين فيجتاز هذا الخط الفاصل إلى داخل المساحة المخصصة للفريق الآخر، محاولاً لمس أحد لاعبي الفريق الثاني، بينما يتحاشى أفراد هذا الفريق تمكينه من لمس أحدهم، وتبدأ المناورة، فإذا

(١) أبوعودة، علي، وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٢٨٠.

(٢) المرجع السابق، ٢٨٢.

(*) المصدر: كتاب الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية، الألعاب، مج ١٢.

استطاع لمس أحدهم في يده عاد مسرعاً إلى فريقه وهو يقول: (كَبَتْ)، فهي لعبة تعتمد على سرعة الحركة، وليس فيها غير المناورة وعدم تمكين المهاجم من لمس أي فرد من أفراد الفريق الآخر[١].

ي ـ القبة (البور):

يؤدي هذه اللعبة لاعبان أو مجموعة من اللاعبين، وتحتاج إلى عصا غليظة قوية طولها نحو متر إلى متر ونصف، وعصا قصيرة طولها من ٢٠ ـ ٢٥ سم، وتُحفر حفرة صغيرة في الأرض تُوضع فوقها العصا القصيرة، ويقف اللاعب أمامها ثم يضع العصا الطويلة تحتها، ويرفع بها العصا القصيرة في الهواء، ويضربها ضربة قوية تدفعها مسافة بعيدة على سطح الأرض، وإذا استقرت يضربها ثلاث ضربات محاولاً رفعها في الهواء ثم دفعها مرة أخرى، وبعد المحاولات الثلاث تقاس المسافة بين العصا القصيرة والقبة (بداية اللعبة)، ثم يأتي اللاعب الثاني... وهكذا، والفائز هو الذي يحصل على مسافة أطول[٢].

ك ـ حق الصبح:

هي لعبة من الألعاب الشعبية في محافظة المهد، تؤدى في الليل على ضوء القمر أو وقت العصر، وهي تتكون من مجموعة من اللاعبين يتقدمهم أحدهم وهو يحمل في يده غترة مفتولة تسمى (العكرة) يضعها أمامه ويخفيها بجسمه ويحركها للأمام، ثم يردد قائلاً: (حق الصبح جاكم)، وترد المجموعة خلفه: (تخسى ما جانا)، ثم يرميها خلفه ويقول: (هذا هو جاكم)، وتتلقفها المجموعة ويحاول كلٌّ من اللاعبين أن يمسكها، فالذي تقع في

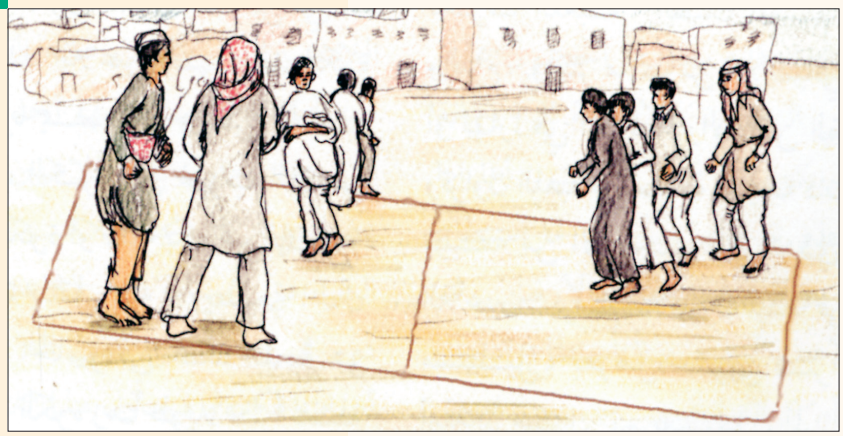

لعبة الكبت (*)



القبة (البور) (*)

يده يقوم بضرب اللاعبين الذين يلحق بهم، أما الباقون فيفرون كلٌّ منهم يحاول النجاة بنفسه من الضرب حتى يصلوا إلى الميدان، ثم تتكرر اللعبة ويتقدمهم من أمسك (العكرة) في المرة السابقة... وهكذا.



حق الصبح (*)

ل ـ الغميما (الغميمة):

وتبدأ هذه اللعبة بأن تُحدد دائرة أو مربع يُخطط ليتم فيه اللعب، ومن متطلباتها منديل صغير لتغطية عين اللاعب الذي حددته القرعة إذ يتم إجراء قرعة لتحديد اللاعب الذي سيضع المنديل على عينيه ليغمم نفسه، ثم

(١) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٢٢١.

(٢) أبوعودة، علي، وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٢٨٢ ـ ٢٨٤.

(*) المصدر: كتاب الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية، الألعاب، مج ١٢.

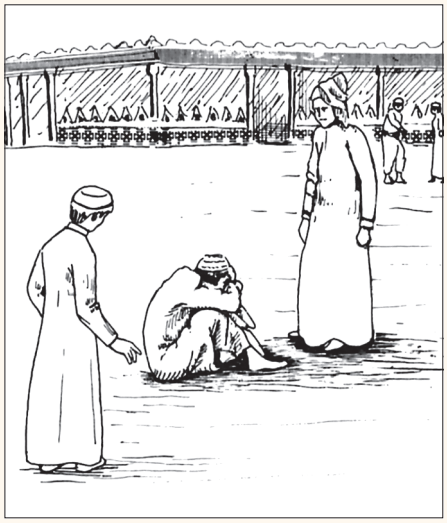

لعبة الغميما (*)

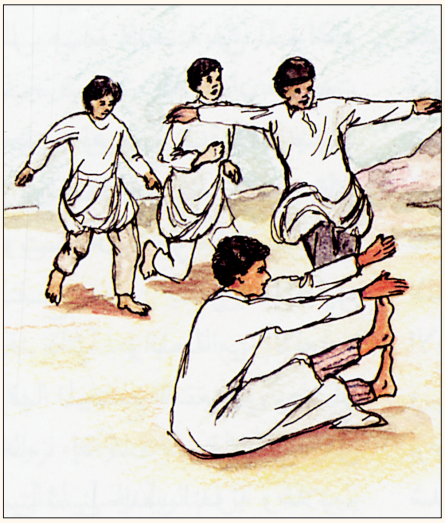

لعبة طب طب (*)

ينتشر اللاعبون داخل الدائرة، ويقوم اللاعب المغمم بالبحث عنهم من أجل الإمساك بأي لاعب منهم، وعندما يستطيع الإمساك بأيٍّ من اللاعبين فإنه يفك الرباط عن عينيه ويضعه على اللاعب الممسوك، وهكذا تستمر اللعبة، واللاعب الذي يخرج من الملعب المرسوم يعد مهزوماً ويحل محل اللاعب المغمم، وهذه اللعبة يشترك في لعبها الفتيات والفتيان كلٌّ على حدة، وبخاصة الصغار تحت سن الثانية عشرة[١].

م ـ الكيرم:

وهي لعبة وردت من الهند اسمها (كيرَم) وهي مائدة تُرص الأحجار في وسطها ويوضع في دائرتها حجر أحمر، بينما تتألف الأحجار الأخرى من لونين: أسود وأبيض، وهذه الأحجار هي أخشاب صغيرة كالأقراص، ويجلس أمامها لاعبان: أحدهما يعنى بإدخال الأحجار السوداء، والآخر يعنى بإدخال الأحجار البيضاء في ثقوب موجودة في أطراف المائدة الأربعة، والحجر الأحمر يحسب في التعداد بخمسة أحجار[٢]. ويلعبها الصغار والكبار كما يلعبها الذكور والإناث كلٌّ في مجالسه الخاصة، وقد عُرفت في مكة المكرمة والمدينة المنورة وبقية مدن الحجاز، ثم انتشرت في مناطق كثيرة من المملكة في أواخر القرن الماضي، إلا أنها بدأت تختفي أو يقل من يمارسها اليوم.

ن ـ طب طب:

وتسمى في بعض المناطق (الشقلة) وهي لا تحتاج إلى أدوات معينة، وفيها يتم اختيار لاعب فيجلس على الأرض وتكون رجلاه على استقامة واحدة على أن يكون الكعب ملامساً الأرض وأصابع القدم متجهة إلى أعلى، ويقوم باقي اللاعبين بالقفز من فوق قدمه، ثم تزداد الصعوبة بوضع قدم على الأخرى، ثم يضع إحدى يديه مفرودة الأصابع فوقهما، ثم اليد الأخرى، واللاعب الذي لا يستطيع القفز في إحدى مراحل أداء اللعبة يخرج من الملعب[٣].

(١) عفيفي، محمد. الألعاب الشعبية، مرجع سابق، ٩٥.

(٢) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٢٢٤.

(٣) عفيفي، محمد. الألعاب الشعبية، مرجع سابق، ٧١.

(*) المصدر: كتاب الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية، الألعاب، مج ١٢.

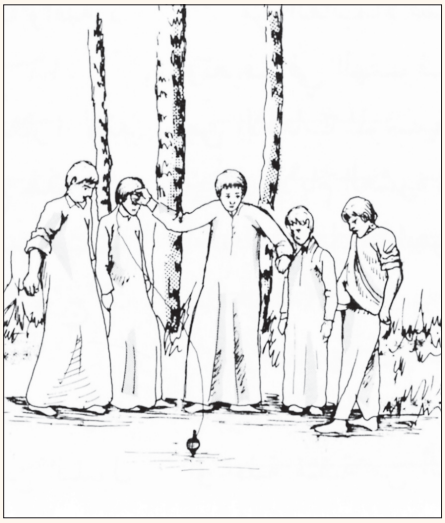

لعبة المرصاع (المدوان) (*)

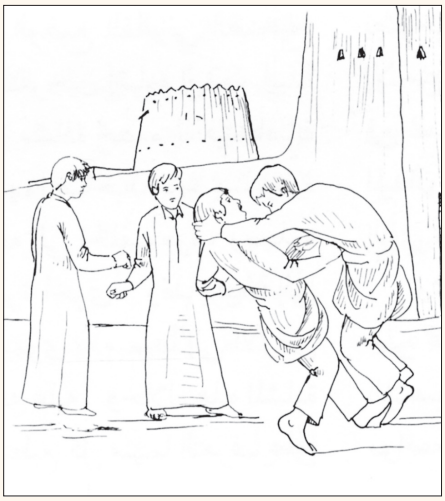

لعبة المطارح(*)

س ـ المرصاع (المدوان):

لأداء هذه اللعبة كثيراً ما تستخرج البذرة الجافة من بطن نبات الدوم، ثم تشذب ويوضع في قلبها مسمار له رأس بارز، ويلف عليه خيط ويسمى عندئذٍ (المرصاع)، ويلقى على الأرض وهو دائر بأنوطة ملفوفة عليه فيُحدث صوتاً جميلاً، وهي لعبة يمارسها الصغار من الجنسين[1].

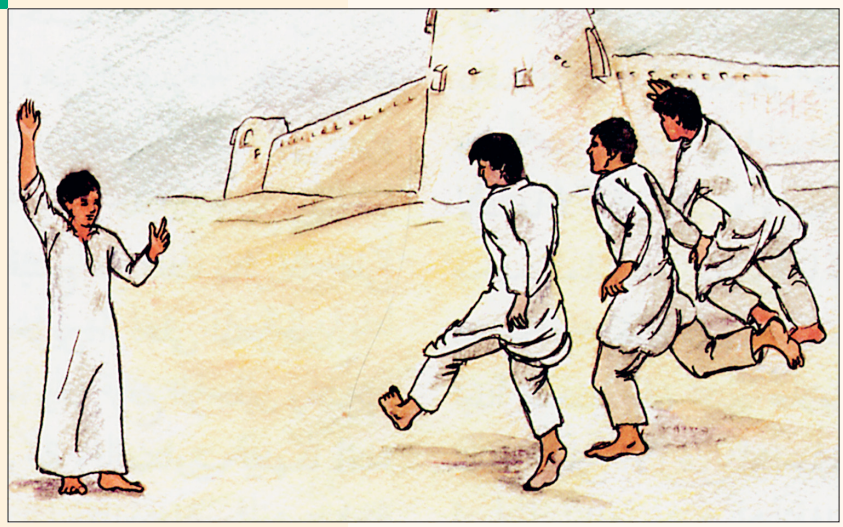

لعبة المسابق (*)

ع ـ المطارح:

يقوم بهذه اللعبة الصبيان والشباب على حدٍّ سواء، ويؤديها كذلك بعض كبار السن. ولهذه اللعبة شروط خاصّة من حيث الاستعداد والمكان، وهي تكون بين لاعبين فقط، إذ يقف المتطارحان في مجموعة من المتفرجين والمشجعين، ويكون بينهم حكام يقررون بداية اللعبة والفائز وفق طرحات كل منهما، وقد تعاد اللعبة مرة أخرى حسب التحديات والمراهنات. ولهذه اللعبة فوائد جمة في تقوية الأجسام وإشغال وقت الفراغ بما هو نافع[2]، إلا أنها كانت تؤدي في بعض الأحيان إلى نشوء بعض العداوات بين المتطارحين.

ف ـ المسابق:

وهو السباق بأنواعه المختلفة، ويقام عادةً في البرَحات والساحات العامة، إذ يجتمع الصبيان في البرحة (وهي مكان اللعب لأهل الحي)، ثم يحددون البداية والنهاية لكل سباق، ويكون اللعب بين لاعبين أو أكثر إذ

(١) الخطيب، عبدالكريم. ينبع، مرجع سابق، ٧١.

(٢) أبوعودة، علي. وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٢٨٤ ـ ٢٨٦.

(*) المصدر :كتاب الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية، الألعاب، مج ١٢ .

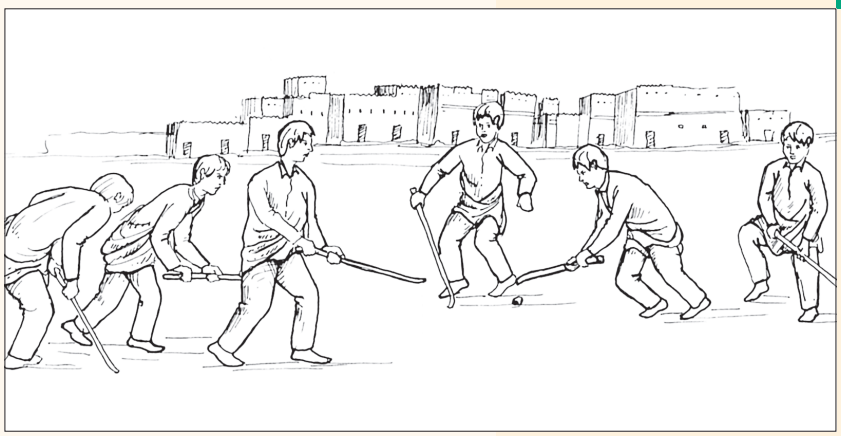

لعبة القال(*)

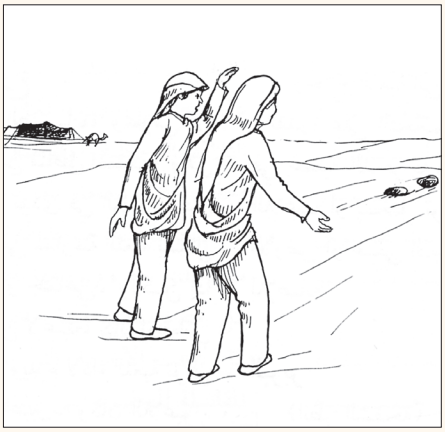

لعبة البرجوة(*)

يقفون صفاً واحداً على خط البداية، ويقوم أحد المتفرجين بإعطاء إشارة البدء لينطلق المتسابقون في اتجاه خط النهاية، والذي يصل أولاً هو الفائز... وهكذا[1]. وكانت الفتيات - أيضاً - يتسابقن فيما بينهن خصوصاً بعد المغرب في ليالي الصيف.

ص - القال:

وهي أشبه ما تكون بلعبة (الكريكت) المعروفة في الوقت الحاضر، إذ ينقسم اللاعبون إلى فريقين، فيحملون العصي الغليظة ويضعون أحجاراً صغيرة في الأرض، ويُحاول كل فريق أن يجعلها تتوغل في أرض الفريق الآخر عند علامات محددة، وهي لعبة فيها بعض الخطورة؛ لأن هذه الأحجار قد تصيب بعض اللاعبين إذا كانوا قريبين من محل وقوعها، وهي تُقذف بقوة شديدة بوساطة هذه العصي الغليظة. ومع أن هذه اللعبة تشبه لعبة (الكريكت)، إلا أن الأحجار الصغيرة فيها تستعمل بدلاً من الكرات الصغيرة، والعلامات بدلاً من الحفر التي تسقط فيها الكرات[2].

ق - لعبة البرجوة:

والبرجوة قطعة حجر يكورها اللاعب تكويراً محكماً، وتكون في حجم ليمونة البنزهير أو أكبر قليلاً، وفي الوقت الحاضر أصبحت هذه اللعبة تستورد من الخارج، وهي على شكل حبات ملونة مصنوعة من الزجاج الملون، ولم يعد أطفال هذا الجيل يعملونها من الحجر، وفيها يبدأ اللاعب - أو اللاعبون - في حفر ثلاث حفر صغيرة في الأرض، بين كل حفرة وأخرى مسافة متعارف عليها، ثم يبدأ اللاعب بمحاولة إسقاط البرجوة في الحفرة نَبلاً من بين أصابعه، فإذا تم إدخال البرجوة في الحفر مرتين ذهاباً وإياباً عُدَّ ذلك اللاعب فائزاً، ويقول الأولاد عنه: (شرق)، ويليه الآخر بمثل لعبه، فإن أخطأ الحفرة نَبَلَ البرجوة بعيداً عنها، وهكذا يُتداول اللعب بين اللاعبين، والذي يأتي دوره ويكون على مقربة من الحفرة معرضاً إياها للنبل بالبرجوة ويبدأ اللاعب معه - أو اللاعبون - بتصويب نَبل البرجوة إلى يده المنصوبة ويسمونه (الرقم) يكون هو من خسر اللعبة ونال الضرب على يده جزاء تقصيره في إدخال البرجوة في الحفر.

(١) أبوعودة، علي. وعبدالعزيز الحازمي. مهد الذهب، مرجع سابق، ٨٦.

(٢) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٢٢١.

(*) المصدر: كتاب الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية، الألعاب، مج ١٢.

ر ـ لعبة الكبوش:

من الألعاب المتداولة بين الصغار. والكبوش: هي العظام التي تأتي بين مفاصل أرجل الأغنام يجمعها الصبي ثم يختار الأكبر منها ويسمونه (البرسي)، إذ يأتي اللاعب وزميله فيخطُّون دائرة على الأرض ويرهن كل واحد منهم عدداً من الكبوش بقدر الآخر، وبعد ذلك يمسك أحدهم (البرسيين) ثم يسقطهما إلى الأرض بعد رفع يده بهما، فمن وقف برسيه على وجه متعارف عليه من وجهَي البرسي بدأ هو اللعب، ويقف الاثنان على مسافة متفق عليها ثم يصوب الذي فاز بالأوّلية بالبرسي على صف الكبوش المرصوصة داخل الدائرة، فإن أخرجت الضربة شيئاً منها عن الدائرة عُدَّ كسباً له، وأعيد رص الباقي وأخذ من قريب يضرب في الكبوش إلى أن يستأهلها كسباً، وإن أخطأ ولم يستطع إخراج شيء من الدائرة سقط حقه في اللعب وبدأ الآخر فيه... وهكذا إلى أن يأتي أحدهم على كسب ما للآخر من كبوش وينتهي اللعب.



المطاطة (النبيطة)

ش ـ صيد الطيور:

وهو هواية أو لعبة أكثر منه حرفة، انتشرت بين أبناء القرى، ويستخدم له أنواع معينة من الأدوات البدائية يصنعونها بأنفسهم ومنها (المطاطة) المسماة في المنطقة الوسطى (النبيطة) والفخ والشرك والمحبالة والقفعة والطباقة ونحو ذلك، ومن الطيور المستهدفة بهذه الأدوات: القميري والحجل والسمان وأم غميم والورور وخبيل وأم غريرة وغيرها [1].

ثانياً ـ الألعاب الذهنية:

وهي أسلوب آخر من أساليب الترويح وقضاء وقت الفراغ، ولا تحتاج هذه الألعاب إلى جهد عضلي أو بدني بقدر ما تعتمد على الفطنة والذكاء وسرعة البديهة، وهي أنواع متعددة منها ـ مثلاً ـ ما يحتاج إلى بعض الرموز والوسائل التي يتم تحريكها باليد مثل الضومنة وألعاب التخطيط على الأرض والشطرنج، ومنها ما يحتاج إلى التفكير والنطق بالإجابة الصحيحة فقط مثل الألغاز أو الأحاجي على اختلاف تسمياتها. ومن الألعاب التي عرفها أهل المدينة المنورة ومن حولهم وتدخل ضمن هذا النوع ما يأتي:

أ ـ الضومنة:

وهي (الطاولة) كما يسمونها الآن، وهذه اللعبة مأخوذة من الكلمة الأجنبية (دومينو)، وقد كانت منتشرة في المقاهي والبيوت، وتعتمد اللعبة على الزهر كما هو معروف، وهي لعبة سهلة ينفق الناس فيها أوقاتهم، ويتحمسون للنصر فيها [2]، ويبدو أن الناس في المدينة المنورة قد عرفوها من المصريين.

(١) نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ٢٠٠ ـ ٢٠٢.

(٢) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ٢٢٣.

ب ـ لعبة الورق:

وهي معروفة حتى الآن، ويندرج تحتها أنواع كثيرة أشهرها: (البلوت) و(الكنكان) وأنواع أخرى مثل (الجوكر) و(الباصرة)، وتعتمد على الذكاء وحسن التصرف ليس على الحظ وحده كما في بعض الألعاب الأخرى، وقد شاع استخدام لعبة (البلوت) خصوصاً في أكثر مناطق المملكة.

ج ـ الدامة:

هي لعبة تشبه الشطرنج، لها أحجار تُحرَّك على رقعة خشبية، ويتنافس فيها لاعبان بتحريك هذه الأحجار، والفائز منهما هو الذي يتمكن من إيصال أحد الأحجار إلى نهاية الرقعة الخشبية[1]، ويسمى الحجر الواحد (دامة)، وقد عرفت هذه اللعبة في ينبع بهذا الاسم، وفي مناطق أخرى بأسماء مختلفة مع بعض التعديلات في قوانينها.

د ـ السيجة:

كثيراً ما يمارسها بعض المزارعين وأهل القرية أثناء فراغهم، إذ يجتمعون تحت ظلال شجرة كبيرة أو على تل من الرمل، حيث يحفرون في الأرض بأيديهم مربعاً يشبه رقعة الشطرنج، وينثرون في حُفَر ذلك المربع حجارة بيضاء وسوداء يحركونها حتى تكون على استقامة واحدة، كما يلعبون على المربع نفسه لعبة مشابهة اسمها (النقيزة)[2]. ومثل هذه الألعاب كثير في مناطق مختلفة من المملكة وبأسماء مختلفة أيضاً مثل (أم التسع) و(أم خمس) و(الطخة)، وقد يستعاض عن الحجارة بنوى التمر وبعر البعير وأعواد صغيرة ونحو ذلك، مع اختلاف أدوات كل من اللاعبين عن الآخر.

هـ ـ الألغاز (الأحاجي):

وهي ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ألعاب ذهنية لا تحتاج إلى أدوات، بل تمثل اختباراً لسرعة البديهة وقوة الفطنة والقدرة على تحليل المقولة التي يسمعها المرء من السائل أو الذي يطرح اللغز على الجميع ليرى من يعرف حلّه أولاً، وهي معروفة في الثقافة العربية ـ بشكل عام ـ منذ القدم، ومن أمثلتها في منطقة المدينة المنورة ما يأتي:

- أحمر كله، قام يرطن له، باسك باسك، خلاك تبكي. (الفلفل الأحمر).
- أسود من برا، أبيض من جوا. (القدر).
- أسود من الليل مهو ليل، يأكل الشعير مهو بعير، يخرب الدار مهو فار. (النمل).
- بنيتي حبت حبت، على الجدير دبت، قلت لبنيتي: لا تطيحي، قالت: ما عليك مني. (القمر).
- بنت لي أمي بيت، ما أحسن بنيانه، تعد نجوم السما ولا تعد بيبانه. (المنخل).
- تاجر في دكانه، ياكل من قصبانه. (الفانوس).
- ثوب أمي الصافي، مليان صرابر. (السماء والنجوم).
- ثوبي تفاتين، عرضه ثلاثين، حاكم الباشا مع السلاطين. (رمضان).
- خيل صفوف، وخيل وقوف، وخيل تنادي بالمعروف. (النجر والدلة والفناجين).
- دقيت باب سيدي، نشب المسمار في إيدي، جو عبيد سيدي ما طلعوه من ايدي. (الحنَّاء).
- سروال عمر مليان ابر. (الشعيرية).
- شي مهو شي، يفرح له الطير الوحشي. (الماء).

(١) الخطيب، عبدالكريم. ينبع، مرجع سابق، ٧١.

(٢) المرجع السابق، ٧٦.

- شي ما يأكل إلا إذا أدخلت أصابعك في عيونه، وإن أكل أكله يروح نشير. (المقص).
- شي يبرم يبرم، ولا كريشته مليانة. (المغزل).
- شي يعق يعق، ولا بريطماته خضر. (المحش).
- شي يروف يروف، ويشرب شرب الخروف. (الرز).
- طاستي من ياس، لا صنعها صانع ولا دقها نحاس. (البيضة).
- عروس فوق تخوت، نوب تحيا ونوب تموت، ونوب تونس بالحياة. (شجرة العنب).
- كوز في كوز، في كل ديرة مركوز. (القمر).
- مر واحد على جماعة وقال: سلام عليكم يا ميَّه، قالوا: ما حنا ميَّهَ غير تجيب كثرنا ونصف كثرنا وربع كثرنا وأنت غلاق المية. (العدد ٣٦).
- من بغداد جابوني، وفي الشنط حطوني، ومن حسني ودلالي على الحرير مشوني. (المقص).
- مهفهفة الأذيال حلو مذاقها تؤكل بعد العصر في رمضان. (قصب السُّكَّر).
- وهذه الألغاز منتشرة في الحاضرة والبادية والأرياف بين الذكور والإناث صغاراً وكباراً[1].

ثالثاً ـ ألعاب الفتيات:

نظراً إلى طبيعة البنات الأنثوية ونظرة المجتمع إليهن، فإن الألعاب التي يمارسنها كانت تتصف باللطف والهدوء مقارنة بألعاب الصبيان التي تميل إلى القوة والعنف في كثير من الأحيان، مع أن البنات ـ وبخاصةٍ الصغيرات ـ قد يشاركن الصبيان في بعض الألعاب، أو يقلدن ما يلعبه الصبيان، ولكن الصفة العامة لألعاب البنات في المجتمع السعودي عامة ـ ومنه المجتمع المدني ـ يغلب عليها الليونة، وتكثر فيها الأناشيد والقصص، وتكاد تخلو من الضرب أو العنف بوجه عام، ومن أهم ما تمارسه البنات أثناء فراغهن ما يأتي:

- الغناء والضرب بالدف أو أي طاسة أو قِدر، تدق عليه إحداهن والأخريات يرقصن.
- ألعاب الغميمة، الزقطة، المخفية، الطورة، وبعض الألعاب الأخرى التي يمارسها الصبيان أيضاً.
- السباق بينهن أو القفز على الحبل.. وما إلى ذلك.
- الجلوس والاستماع إلى القصص والأحجيات.
- اللعب بالدمى (اللعابي) أو (اللعب) التي يصنعنها أو تصنع لهن من القماش وتحشى بالقطن، وتكون بمقاسات مختلفة على هيئة نساء ورجال وأولاد وبنات.
- اللعب بالمصاقيل أو (الصقلة) وهي عدد من الحصى الصغيرة أو الخرز أو نوى التمر، تقذفها الواحدة منهن وتحاول التقاطها بطرق فنية معينة، ولها قوانين خاصة تظهر من خلالها مهارة اللاعبة ومدى اتقانها.
- التمثيل: وهو نوع شائع من الألعاب وبخاصة بين البنات، إذ يحاكين الكبار في أعمالهم وعلاقاتهم، فمثلاً ترتدي إحداهن عباءة وتقرع الباب، وهي تحكي دور أم الجيران التي جاءت زائرة، وتستقبلها الأخرى، ممثلة دور صاحبة المنزل فترحب بها

(١) للاستزادة: نصيف، عبدالله آدم. العلا: دراسة، مرجع سابق، ٢٠٣ وما بعدها.

ويبدأ الحوار، وأحياناً يصطحبن بعض الأطفال على هيئة أولاد لهن... وهكذا.

رابعاً ـ مظاهر الثبات والتغير:

أتى التغير الاقتصادي والاجتماعي العام في المجتمع السعودي ـ عموماً ـ على تلك الألعاب التقليدية التي كانت هي الأسلوب الوحيد للترويح وقضاء وقت الفراغ، فلم يتبقَّ منها اليوم إلا الأسماء وعدد قليل جداً يمارسه الصغار فقط أثناء اجتماعهم في الولائم أو المناسبات العامة، مثل الغميمة ونحوها، كما أن الكبار ـ أو بعضهم ـ لا يزالون يتمسكون بلعبة (البلوت) ـ السابق ذكرها ـ التي هي في الأصل وافدة إلى المجتمع خلال النصف الثاني من القرن الهجري الماضي، أما بقية الألعاب التي ورد ذكرها ـ والتي كان يجتمع لها الشباب من أهل الحي أو حتى أهل القرية بعد صلاة المغرب أو قبلها، وتمارس في جو من الألفة والتلقائية ـ فقد حل محلها أشياء كثيرة ارتبطت بدخول الكهرباء وإضاءة المنازل والشوارع وتوافر الأجهزة ووسائل الإعلام المختلفة، ثم الألعاب الإلكترونية التي تستهوي كثيراً من الشباب في مختلف المراحل العمرية، إضافة إلى الحاسب الآلي والشبكة العالمية (الإنترنت) التي أطلت على الناس خلال السنوات الأخيرة، وأصبح كثير من الشباب من الجنسين يقضون معها معظم أوقات فراغهم.

كل هذا في إطار تغير نمط الحياة وطبيعة العلاقات مع الجيران التي أصبحت أكثر رسمية وحساسية من ذي قبل، كما أن الارتباط بمواعيد محددة في الدراسة والعمل أثر أيضاً في البرنامج اليومي للناس صغاراً وكباراً، وتحضرت القرى وازدحمت المدن، ما أفقد الناس تلك الليالي المقمرة والساحات الخالية والعلاقات الحميمة بالجيران، تلك العلاقات التي كانت تزين ألعابهم وتقرب بين نفوسهم، ولم يكن الشك والريبة هما الأساس في معرفة الآخرين كما هي الحال في المجتمعات المتحضرة.

الفصل التاسع

الاحتفال بالمناسبات الاجتماعية

أولاً الزواج

ثانياً الاحتفال بالمولود

ثالثاً الختان

رابعاً العزاء

خامساً الاحتفاء بالمناسبات الدينية

سادساً مظاهر الثبات والتغير

تزخر الحياة الاجتماعية لدى الناس في منطقة المدينة المنورة بعدد من المناسبات ذات الطابع الاجتماعي والديني، ويتبين من خلالها التكاتف والترابط الاجتماعي المنبثق من روح الإسلام الحنيف، إذ يفرح المسلم لفرح أخيه ويحزن لحزنه، وتشارك الأسر في مواسم الأفراح وتبتهج بالمناسبات السعيدة، كما يشاركون المصاب منهم مصيبته ويواسونه ويخففون من آلامه. وعلى الرغم من أن الطابع العام لثقافة أهل المدينة المنورة هو الطابع العربي الإسلامي الذي لسكان الجزيرة العربية، إلا أن هناك بعض الخصوصية للثقافة المدنية في الأمور التفصيلية لبعض المناسبات الاجتماعية والدينية، ومن الأمور الطبيعية أن تنشأ بين أهل كل منطقة وبلدة بعض العادات التي يعبرون بها عن حزن أو فرح، وقد لا تكون تلك العادات معروفة لدى غيرهم من أهل البلدات البعيدة عنهم أو حتى المجاورة لهم، ومن المناسبات الاجتماعية التي يحتفل بها أهل المدينة المنورة:

أولاً ـ الزواج:

الزواج سنّة اجتماعية لا يخلو منها مجتمع بشري، وإن اختلفت أنماطه وتعددت أشكاله ومراسم الاحتفال به والقوانين والتشريعات المنظمة له، وفي منطقة المدينة المنورة تمرّ عملية الزواج بعدد من المراحل تتخللها احتفالات قصيرة وطويلة متعددة، تبدأ بالبحث عن العروس وتنتهي بانتقالها إلى بيت زوجها وعمل الولائم الخاصة بذلك، على النحو الآتي:

أ ـ البحث عن العروس:

إن مجتمع المدينة المنورة مجتمع محافظ على عاداته وتقاليده متمسك بتعاليم دينه الحنيف، ولذلك فقضية البحث عن زوجة فيه إما أن تتم بوساطة المعرفة المباشرة، إذ تكون هناك قرابة أو معرفة بين أهل الزوج وأهل الزوجة، أو بوساطة بعض النساء كبيرات السن اللاتي لهن معرفة بالبيوت وما فيها، فإذا تم تعيين البيت تذهب نساء من أهل الفتى إلى أهل الفتاة بأي حجة كانت، فيلاحظن الفتاة بطريقة غير مباشرة، ويتابعنها في جميع أمورها وتصرفاتها ويعرفن سنها... وما إلى ذلك، ثم يعرضن الأمر على أم الفتاة بسرية كاملة ويعلمنها برغبة من أرسلهن، فتقوم الأم بنقل هذه الرغبة إلى زوجها، ويتم التشاور في الأمر ودراسته من مختلف الوجوه من قِبل والد الفتاة وأمها، وربما أشركوا الفتاة في تداول الموضوع، فإذا حصلت موافقة مبدئية تقوم والدة الفتاة أو الوساطة بينهما بنقل تلك الموافقة إلى أهل الفتى، ويقوم والد الفتى بصحبة كبار السن من أقاربه بالتوجه إلى منزل والد الفتاة ليخطبوا ابنته، فيرحب بهم ويكرمهم، وفي هذا المقام إما أن تكون الموافقة مباشرة من والد العروس في المجلس، وإما أن يضرب لهم موعداً آخر[1].

ب ـ رؤية المخطوبة:

لم يكن من عادة أهل المدينة المنورة أن يرى الشاب خطيبته إطلاقاً، حتى إن الملْكة ـ أي كتب الكتاب ـ لا تكون إلا في ليلة الدخلة، وقد كانت تحصل بعض المشكلات بسبب هذا مثل نسيان كتب الكتاب في غمرة انشغال الأهل ليلة الزفاف.. وغير ذلك،

(١) البليشي، محمد صالح. المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٣٣.

فاستعاض الناس عن ذلك بكتب الكتاب قبل الدخلة بيومين أو ثلاثة. وقد تغير الوضع في السنوات الأخيرة فأصبحت رؤية الفتاة قبل الملْكة شيئاً معتاداً ومتعارفاً عليه، فإذا رغب الشاب في رؤية الفتاة فإنه يطلب ذلك من أهلها، ويحدد موعداً يذهب فيه الشاب مع والدته أو أحد أقربائه إلى منزلها في الموعد المحدد، ويكون والدها موجوداً، فيستقبل الشاب ويجلسان معاً، وتدخل الفتاة بلبس محتشم وتقدم لهما مشروب الضيافة، فيراها الفتى وهي بدورها تراه، فإن راقت له يطلب دخولها مرة ثانية لكي يلبسها أي شيء من الحلي، وإن راق لها توافق على الدخول ثانية، وبذلك تتمُّ الخطوة الأولى وإلا امتنعت، وإن لم ترق هي له فإنه يكمل جلسته ويستأذن ويخرج فيُعرف بذلك أنها لم ترق له ويعد الأمر منتهياً بذلك. يتم هذا الأمر ـ في الغالب ـ عند كثير من الأسر سراً دون إعلام أي أحد من الأقرباء أو غيرهم كيلا يؤثر ذلك في سمعة أحد العروسين إذا لم يناسب أحدهما الآخر[1].

ج ـ قراءة الفاتحة:

بعد أن تتحقق الرغبة عند الفتى وتحصل الموافقة النهائية من أهل الفتاة ويجتمع أهل الفتى وأهل الفتاة في دار أهل الفتاة، ويتم ما يسمى (قراءة الفاتحة)، وهذا يعني لديهم حصول الموافقة النهائية والعزم على الزواج، ويحضَّر ليلتها عشاء لكل من حضر من الجهتين، وهذه العادة لا تتبع لدى القبائل الساكنة في المدينة وما حولها، ويستعيض بعضهم عن قراءة الفاتحة بما يسمى (الخطبة) وهي وليمة يقيمها الفتى في منزل والد الفتاة[2].

د ـ (التسليم أو الشبكة أو الملكة) وعقد القران:

بعد إتمام قراءة الفاتحة يتم الاتفاق على موعد عقد القران وموعد الشبكة (أو الملكة)، وفي الأغلب يكون في المسجد النبوي بعد صلاة العصر أو بعد صلاة المغرب، ويحضر العريس وبعض إخوانه مع والده، كما يحضر والد الفتاة أو ولي أمرها مع بعض الأقرباء، ويجتمع الجميع مع المأذون الشرعي ويتم عقد القران، ثم ينصرف الجميع بعد التهنئة والدعاء بالبركة. وفي مساء اليوم نفسه أو اليوم التالي لعقد القران أو بعد بضعة أيام يتم اجتماع أهل العريس في دارهم باتفاق مسبق بين الأسرتين للاحتفال بما يسمونه الشبكة أو الملكة أو التسليم، ويعد هذا اليوم من الأيام التي تحمل طابعاً خاصاً وبهجة يشع سرورها بأحاسيس ومشاعر مفرحة على العروسين؛ لما فيها من مظاهر الفرح والسرور عند جميع الأهل والأحباب، ويبدأ الاستعداد لهذا الاحتفال بدعوة الأهل والأقرباء والجيران والأصدقاء الخُلَّص، وإحضار جميع ما يلزم لهذه المناسبة الغالية، إذ يحضر الجميع بعد صلاة المغرب مباشرة إلى بيت العريس وهم يرتدون أحسن ما لديهم من ثياب ومشالح مقصبة، وينطلق الموكب من بيت العريس مشياً على الأقدام، ويسير بعناية وانتظام، يتوسط العريسُ والدَه وأعمامه وأخواله وكبار السن من المدعوين، ويحف به الأقرباء والأصدقاء وأبناء الحارة، ويتخلل الموكبَ حاملو الأتاريك التي تنير لهم الطريق، وهم يضعونها فوق رؤوسهم على صوانٍ خشبية بأشكال هندسية صُنعت لهذا الغرض، وقد صبغت باللون الأخضر، وفي كل صينية أتريكان أو ثلاثة أو أربعة أتاريك، وفي

(١) الخياري، السيد ياسين. صور من الحياة الاجتماعية. ط٢، مرجع سابق، ١٩٤.

(٢) البليشي، محمد صالح. المدينة المنورة، مرجع سابق، ١٣٤.



عقد القران في منطقة المدينة المنورة

وسط الموكب وعلى جانبيه يسير الحمالون الذين يحملون الصواني المعدنية أو الخشبية المملوءة بقراطيس (التخشيشة) التي تحتوي على الحلوى واللوزية والحلقوم والفل والورد واللمام والريحان وشيء من النعناع، ويتم توزيع هذه الأشياء على جميع الحضور في (التسليم) بصفته هدية رمزية احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة.

ولصواني التخشيشة أغطية مربعة الشكل تحمل رسومات هندسية أو أزهار وعروق نباتية ذات ألوان مختلفة، وبعضها على هيئة مربعات طرزت أطرافها بخيوط حريرية مزركشة ذات ألوان زاهية، وأحيطت أطرافها بخيوط الذهب والفضة والترتر، ما يعطيها بريقاً متوهجاً وسط الموكب، وعادة ما تكون هذه الصواني الخاصة بالأتاريك والتخشيشة وكذلك الأغطية مستعارة من الأصدقاء أو مستأجرة في أغلب الأحيان. وفي مقدمة الموكب يسير حامل المصحف الشريف الموضوع في بيت من القماش الفاخر المكلل بالورد والفل والرياحين، وعن يمينه حامل صندوق المهر (الصداق)، وعادة ما يكون هذا الصندوق مصنوعاً من خشب السنديان الثقيل، أو من خشب التيك النادر، أو من الأبنوس المطعم بالفصوص النادرة الثمينة، وأحياناً يكون مصنوعاً من المعدن اللمّاع المرصع بالأحجار الكريمة، وهو ذو لون ذهبي أو فضي، يحوز منظره على إعجاب الناظرين، ويعد صندوق المهر من الأشياء الثمينة لدى العروسين وأهلهما لما يحمله من ذكريات جميلة.

كما يسير عن شماله حامل (البقشة) وهي صرة تحتوي الملابس التي تقدم هدية للعروس، وتحتوي على ملاءة ومسفع وثياب مزركشة وملابس أخرى، توضع جميعها في صرة من الحرير المطرز بعقود نباتية وأشكال جمالية منسوجة من خيوط القصب والفضة والذهب، وقد كللت بالورد والفل والريحان، وتسير بمحاذاة الموكب على اليمين (النصاصة) وهي السيدة التي تقوم بتلبيس العروس وعمل الشرعة اللازمة لها.

كما تسير (المدادة) على اليسار بمحاذاة الموكب، والمدادة هي السيدة التي يسند إليها إبلاغ الدعوات للنساء البعيدات عن الحي، فهي بمثابة المراسلة إليهن، وهن يُستأجَرن لمثل هذه المناسبات، وهكذا تسير النصاصة والمدادة في محاذاة الموكب في احتشام بالغ، وهما تحملان المباخر الفضية والذهبية التي تفوح منها رائحة العود والبخور المغمور بالمسك والعنبر، فينتشر شذى المجامر بأريجها وعبيرها وتعم الروائح العطرية بدخانها المتصاعد أرجاء الموكب، فيضفي هذا الدخان عليه بهجة وحبوراً، ويطلقن غطاريفهن (زغاريدهن) من وقت إلى آخر، ما يدل على أن الموكب موكب فرح وسرور، وكلما اقترب الموكب من بيت العروس زدن في الزغاريد حتى تختلط أصواتهن بزغاريد النساء من أهل العروس وهي تنطلق من خلف الشبابيك والرواشين.

وعندما يلتقي موكب أهل العريس بالمستقبلين من أهل العروس يجري استقبالهم بالحفاوة والترحاب (يا أهلاً ويا سهلاً، حياكم الله وبياكم، تفضلوا.... تفضلوا.. على الرحب والسعة)، فيتقدم والد العريس ومن بصحبته للدخول إلى بيت العروس، ويسيرون جنباً إلى جنب إلى المكان المخصص لاستقبالهم وعادة ما تكون (القاعة) بصفتها أكبر الأمكنة في البيت، وقد فرشت بالسجاد الفاخر وزينت بالمراتب والمساند والدفافيع. ويأخذ العريس وأهله مكانهم في صدر القاعة، وقد بدا العريس من بينهم مميزاً بثيابه البيضاء، وعباءته البيضاء المغشاة بالقصب الحر، وعقاله المقصب يزين هامته ويتوج رأسه وقد وُضع بإحكام على غترة بيضاء مطرزة بالحرير الأبيض، وقد نثرت على تربيعتها منظومة أشكال الفل والياسمين، تلتقي مع عروق نباتية تظهر مهارة صانعها.

ويقوم أهل العروس بإجراءات الضيافة التي تليق بهذه المناسبة السعيدة، ويتم توزيع القهوة العربية في دلالها الصفراء التي يأخذ بريقها بالأبصار، وقد أُتقن صنعها وزيد فيها حب الهال، وتقدم القهوة في فناجين فاخرة لجميع المدعوين، وزيادة في الإكرام تسمع لهذه الفناجين أصوات جميلة يتعمَّدها (الفزِّيعة) وهم الذين يصبُّون القهوة؛ ليضفوا على المناسبة جوًّا مرحاً. وفي وسط هذه الحفاوة والإكرام توضع أمام العريس وأهله (بقشة الحوائج) وصندوق المهر على منضدة خشبية صغيرة، بينما تسلم لأهل العروس صواني التخشيشة ومستلزماتها فيبقونها خارج القاعة تحت عناية الفزِّيعة واهتمامهم، وتصعد النصاصة والمدادة عند أهل العروس للزغردة من آن إلى آخر[1]، وفي بعض الأحيان يتم إحضار خطيب ومجيب، على أن يكون الخطيب من ناحية أهل العريس والمجيب من ناحية أهل العروس، وبحضور الجميع يقوم الخطيب بإلقاء قصيدة بصوت غنائي يمدح فيها أهل العروس وكذلك بيت العريس وأهله، ويذكر فيها طلب المصاهرة علناً لتكون شهادة من الجميع على هذا القران، فيرد عليه المجيب من طرف أهل العروس بقصيدة مماثلة وبصوت غنائي يرحب فيه بالجميع ويمدح كلتا العائلتين، وهي تعبير عن قبول المصاهرة. وبهذا يكون الإيجاب والقبول معلناً، وبعد تناول المرطبات أو العشاء ينصرفون بعد الدعاء للجميع بالبركة[2].

(١) الأنصاري، ناجي. التعتيمة، مرجع سابق، ٥٩ ـ ٦١.

(٢) الخياري، السيد ياسين. صور من الحياة الاجتماعية.مرجع سابق، ١٩٥.

هـ ـ يوم الحناء (قبلة الحناء):

هذا اليوم هو الذي يسبق ليلة الزفاف ويقام عادة على نفقة أهل العروس، وفيه تأتي النصاصة المخصصة لعمل الحناء وتقوم بوضعها على يدي العروس ونقش أرجلها بها، ووضع الحلوى لتزيين بشرتها، وتنظيف كل ما يلزم تنظيفه من وجهها وجسمها، وتقوم الحناء مقام (الماكياج) في الوقت الحاضر. ويعمل والد العروس في هذا اليوم وليمة كبيرة لها قدر وقيمة يدعو إليها الأقارب والأحباب، ويكون فيها شيء من الغناء والرقص للنساء في مجالسهن الخاصة.

و ـ الموجب (الرفد أو النقوط):

وهو ما يقدمه الأهل والجيران والأصحاب من هدايا ومساعدات نقدية أو عينية للعريس وللعروس بمناسبة الزواج، والموجب عادة من العادات الجميلة التي تربط المجتمع بعضه ببعض، ويسمى كذلك الرفد أو النقوط، وهو من العادات التي يمتاز بها الزواج. ويتم إرسال الرفد إلى أهل العريس أو للعريس نفسه وذلك قبل موعد الدخلة والزفاف بيوم أو اثنين أو ثلاثة أيام، وعادة ما يكون الرفد مقدماً إلى أهل العريس لأنهم أصحاب الدعوة، ويتمثل في تقديم الخرفان، أو الأرز، أو السكر، أو البن والهال، أو الشاي، أو الدقيق، أو السمن، أو النقود.

ويقوم أهل العريس باستقبال الرفد وتخصيص مكان في البيت أو عند بيت الجيران لوضعه فيه، كما يخصص مكان في (الحوش) أو في (الخن) ليضعوا فيه الخراف، وعادة ما يعهد إلى أحد الأبناء أو الأقرباء أو الأصدقاء باستقبال الرفد، والتوقيع على الورقة المرسلة معه من أحد التجار أو الفلتية، وهي توضح نوع الإرسالية واسم المرسِل والمرسَل إليه والمناسبة[1].

وقد تلاشت واختفت تلك الإرسالية التي تتكون من الخرفان وأكياس الأرز والسكر والدقيق وصفيح السمن، إلا عند بعض الناس، فقد استبدل الناس النقود بالرفد؛ لأنها أكثر إيجابية ومرونة، إذ يستطيع العريس أو والده الاستفادة منها وتلبية الاحتياجات بسرعة.

وإذا كان الرفد يُدفع ويُسلم إلى والد العريس أو للعريس نفسه، فإن هناك رفداً آخر، أو هدية أخرى تقدم لوالدة العريس أو والدة العروس أو للعروس نفسها، وتسمى عند النساء (نقوطاً) أو (نقطة)، وهي هدية تقدم من الأهل والأصدقاء والأقارب والإخوان والأخوات، وفي أغلب الأحيان تكون من الذهب أو البلاتين أو اللؤلؤ أو الملابس... وغيرها، وعادة ما تقدم في ليلة المناسبة، وذلك من باب الوفاء والاعتزاز، وهنا يتساوى الحرص على ردِّها عند النساء مع ما هو الحال عليه عند الرجال، إذ تحرص النساء على رد تلك الهدية في المناسبات المماثلة، أو في أقرب فرصة تسنح لهن، ويُعد ردها أمراً واجباً، وقد يبالغ بعضهن في ردها إذ يقمن بشراء أشياء أغلى كثيراً من الشيء الذي قدم إليهن، وقد جرت العادة بأنهن لا يقدمن شيئاً أقل مما قدم إليهن إذ يعددن ذلك نقصاً في حق الأخريات[2].

ز ـ خروج الفراش:

وهو خروج فراش العروس أو جهازها من بيت أبيها إلى بيت زوجها، فقد جرت العادة أن يدفع العريس المهر لوالد العروس على أن يتولى والدها تأثيث بيت الزوجية وفرشه،

(١) الأنصاري، ناجي. التعتيمة، مرجع سابق، ١٠٥.

(٢) المرجع السابق، ١٠٧.



حفل الزواج في منطقة المدينة المنورة

ويكون خروج الفراش هذا قبل يوم الدخلة بأسبوع تقريباً، إذ يذهب والد العروس إلى شيخ الحمالين ويتفق معه لنقل الفراش من مستودعه وإيصاله إلى دار العريس، فيحضر الحمالون لنقله على الطريقة المتبعة عند أهل المدينة المنورة، وهي أن كل حامل يحمل قطعة من العفش، ويمشون بها على شكل صف منتظم في شوارع المدينة المنورة ليتم إيصالها إلى دار العريس، يتقدمهم شيخهم وقد ارتدى أجمل ما عنده من الملابس بعد أن وضع العمامة وتكحل وتوشح بعباءة فضفاضة، وقد وضع المصحف الشريف فوق رأسه وراح يتهادى في خطاه واستند إلى عكاز أمسك به بيمينه، ومن خلفه صاحبا المرايا الكبيرة التركية، وعن يساره ويمينه النصاصات حاملات مباخر العود وهن يطلقن الزغاريد، ومن خلف صاحبَي المرايا صف طويل من الحمالين منتظمين في سيرهم الجميل وهم يرتدون أجمل الملابس، هذا يحمل مرتبة، والآخر يحمل مسنداً، والثالث وسادة، والرابع دفاعة، والخامس مفرشة، وقد وُزع الفراش على عدد من الحمالين بالترتيب كلٌّ يحمل جزءاً منه، وينتهي حبل الطابور الممتد بصاحب الصندوق وطشت الغسيل والحنفية، مستعرضين ما يحملون أمام الأهالي الذين غص بهم جانبا الشارع الذي مرَّ عرضهم عبره، وقد يتساءلون بينهم: (لمن هذا الفراش؟) فيقال: (لفلان على فلانة)[1].

ح ـ الدخلة (حفل الزواج):

بعد الانتهاء من عقد القران وحفلة التسليم يتم الاتفاق بين الطرفين على موعد إقامة حفل الزواج (الدخلة) الذي يقام بين بيوت الحي (الحارة) إذ يتم استعارة بعض بيوت الجيران، وجميعهم يرحبون بذلك ويقدمون بيوتهم وأنفسهم لكي يعيش أهل الحي في أجواء الفرح والسرور، ويقومون بتقديم المساعدة والخدمة لأهل العرس، ويظهر بذلك التكاتف والتعاون والمساعدة في جميع مستلزمات الزواج من فرش وإضاءة وأدوات قهوة وشاي وغرف مفروشة مجهزة، وكل ذلك يقدم لأهل العريس من الجيران، وما على العريس أو أهله إلا الاتفاق مع الطباخ وتهيئة المكان المناسب له بين البيوت أو في الأحواش الملحقة ببعض البيوت، ويقوم أحد الرجال بتحضير جميع مستلزمات الطباخ، كما يتولى بعض الرجال أيضاً القيام بتحضير موائد النساء في مكان كبير إن وجد، وإن لم يوجد توزع موائد الطعام على عدد من الغرف، ويتم تحضير جميع احتياجات (التعتيمة) على الصحون الصيني أو الزجاجية ـ إن وجدت ـ ويتم نقلها على طاولات أو مناضد من مكان تحضيرها إلى مكان تقديمها، كما كانت

(١) الخزرجي، عبدالله. المدينة المنورة، مرجع سابق، ٢٠.

توجد صوانٍ نحاسية دائرية قطرها نحو متر ونصف المتر توضع في الغرفة المعدة للطعام، ويوضع تحتها صناديق الرطب الخشبية، وتكون الصينية مرتفعة عن الأرض، وتغطى بقطعة من القماش الأبيض النظيف بعد أن توضع عليها جميع الصحون التي أُعدَّت فيها أنواع الأطعمة، ومع مرور الأيام ألغيت الصواني واستبدلت بمفارش الطعام العادية على الأرض؛ لأن الصواني كانت تسبب مشقة وعناء وبخاصة خلال صعود السلالم الضيقة، إضافة إلى ثقلها[١].

والتعتيمة هي وجبة العشاء التي تقدم في العتمة أي في آخر الليل، بينما هناك وليمة الغداء التي تقدم في اليوم التالي وتذبح فيها الخراف ويطبخ الرز بكميات كبيرة، وتتكون التعتيمة من الهريسة والششني والجبنة والحلاوة الطحينية والزيتون والمخللات والشريك وما إلى ذلك، وقد سبق وصفها في طعام المناسبات.

وقد عرف عند أهل المدينة المنورة ما يسمى (الزفة) التي يقوم بها بعض المتخصصات، وذلك باستقبال العروس عند وصولها إلى مكان العرس وهي بكامل لبسها وزينتها، وذلك بضرب الدفوف والغناء من مدخل البيت إلى مكان الحفل المعد لجلوسها أمام جميع المدعوات. وكانت أناشيد الزفة ذات طابع خاص يأخذ بالقلوب، فجلُّ كلماتها شكر لله وصلوات على رسوله الكريم ﷺ، وقد تتكرر الزفة عند تغيير لباس العروس وعند نقلها إلى غرفة العريس، كما أن العريس يُزف عند كثير من الناس أيضاً.

أما الشرعة فهي لباس خاص له أنواع وأشكال متعددة، تقوم بإعداده نساء متخصصات فيه وفي أنواعه، وتعد ثياب الشرعة هذه قبل الحفل بأيام، وهي غالية التكاليف، وكان أغلب هذه الثياب يؤخذ استئجاراً أو إعارة من إدارة الحرم النبوي الشريف التي كانت لديها أوقاف في هذا المجال[٢].

ط ـ الصباحية (الصبحة):

الصبحة هو ذلك اليوم البهيج الذي تصبح فيه العروس في بيت عريسها، أي اليوم التالي لليلة الدخلة والزفاف. وقد جرت العادة أن ترافق الأم العروس، وتقوم بمساعدتها في شؤونها الخاصة، فتجد العروس في ذلك الاستئناس والطمأنينة، كما تساعد الأم العروس في شرعتها يوم الصبحة بارتداء الثوب الإفرنجي أو الزبون، وتصفيف شعرها وتلبية احتياجاتها.

ويأتي أهل العريس وأهل العروس صباح ذلك اليوم، وتجتمع النسوة في بيت العريس من أجل تقوية أواصر المحبة والائتلاف والتعارف بين الأسرتين، وتجلس العروس وسط ذلك الاحتفاء العائلي الكبير محاطة بعبارات الحفاوة والرعاية والاهتمام، ويتم إخلاء المكان من أهل العروس لفترة قصيرة عندما يأتي والد العريس لتقديم الصبحة للعروس، فيأتي وقد مشى العريس بجانبه واستُقبل من والدة العريس وجميع الأخوات والعمات، ويقدم هديته للعروس ويسلم ويبارك ثم يغادر المكان، ثم تأتي بقية الخالات والمهنئات لأم العريس ويسلمن ويباركن للعروس، ويقدمن هداياهن، ثم يأتي والد العروس ويقدم لها هديته، كما تقدم الهدايا لها أخواتها وعماتها وكل من له علاقة أسرية بها من رحم وقربى،

(١) الخياري، السيد ياسين. صور من الحياة الاجتماعية. مرجع سابق، ١٩٦، ١٩٧.

(٢) المرجع السابق، ٢٠٠، ٢٠١.

وكذلك تفعل الجارات والصديقات[1]، وتوضع جميع الهدايا المقدمة من العريس وأهله في تبسي (صحن) مذهب أو مفضض بعد أن تُعرف كل هدية بأنها مقدمة من فلان أو فلانة، كما توضع هدايا أهل العروس في تبسي مغاير مذهب أو مفضض، وكذلك كل هدية معروفة.

وفي يوم الصبحة أيضاً تقوم والدة العروس بتقديم هدية لوالدة العريس، وهي (بقشة) بيضاء مزركشة بداخلها هدية لها وللعريس ووالده وإخوته، وهي بدلة كاملة لكل منهم تحتوي على ثوب وغترة ومنديل وملابس داخلية، وتمتاز بدلة العريس بوجود عباءة زيادة في إكرامه[2]. ويتناول الجميع طعام الإفطار الذي أعد ـ على وجه الخصوص ـ لهذه المناسبة، ويكون الغداء أيضاً في بيت العريس، إلا أن وليمة الغداء يدعى لها عدد أكبر ممن يحضرون الإفطار، إذ تشمل أهل العريس والعروس وأقاربهما وأصدقاءهما جميعاً، وقد جرت العادة على أن يبقى العريس في بيته أسبوعاً يخرج بعده للمرة الأولى للصلاة في المسجد النبوي الشريف.

ي ـ الزواج في القرى والبادية:

أما في القرى والبادية المجاورة للمدينة المنورة فقد كان هناك اختلاف في بعض ما ذُكر من مظاهر الاحتفال بالزواج داخلها، ويبدو ذلك الاختلاف في طرق الاحتفال وعدد أيامه والأسماء التي يطلقونها على كل يوم منها.. وما إلى ذلك، وسنورد أمثلة على كلٍّ منها.

ينبع: يبدأ الاحتفال في ظهيرة يوم الدخلة، إذ يحضر المدعوون وليمة الغداء في منزل العريس، والغداء خراف مذبوحة وأرز مطبوخ وبعض الحلوى، وفي المساء يقام سرادق أمام بيت العريس كان يضاء بالأتاريك، أما اليوم فيضاء بالكهرباء، ويتصدر العريس هذا السرادق ومن حوله أقرباؤه وأصدقاؤه ومحبوه، مرتدياً ثوباً جديداً، ولابساً العقال المقصب والعباءة البيضاء. ويُفتتح الحفل بتلاوة آي من الذكر الحكيم، ثم يتناوب الخطباء والشعراء التهنئة والترحيب بالضيوف. وقبل أذان العشاء بربع ساعة تقريباً يتحرك العريس من السرادق إلى مسجد المدينة الكبير ومعه مجموعة من الرجال وهم يهزجون ويصفقون في لعبة شعبية تسمى (البشانة)، وقبل باب الجامع الكبير تتوقف البشانة ويدلف العريس وأسرته إلى الجامع الكبير فيؤدون صلاة العشاء، وعقب الصلاة يتابع العريس البشانة وترافقه إلى مدخل بيت العروس، وفي بيت العروس ترتفع الزغاريد والأهازيج، ويزف العريس حتى يصل إلى الأريكة التي تجلس عليها العروس وهي محجبة، وعندئذٍ يضع يده على رأسها ويقرأ شيئاً من القرآن في همس، وبعد ذلك ترافق العروس عريسها إلى الدار الجديدة، وفي صباح اليوم التالي يستقبل العريس في دار أسرته المهنئين[3]، وقد عرفت البشانة في منطقة العيص وما جاورها.

بدر: الاحتفال يسبق العرس بيومين أو ثلاثة وذلك في ما يسمونه (يوم الفازة)، والفازة مظلة كبيرة في فناء واسع بحوش منزل والد الفتاة أو بجواره، يقوم أفراد القبيلة ببنائها من الأخشاب وتظليلها ببيوت الشعر أو الأشرعة، وتقام الفازة قبل حفل الزواج بيومين أو ثلاثة ـ كما سبق ـ وتؤمن فيها جميع متطلبات الفرش والقهوة والشاي، إذ يأتي الرجال إليها في النهار وفي الليل يكون الدور

(١) الأنصاري، ناجي. التعتيمة، مرجع سابق، ١٤٩.

(٢) المرجع السابق، ١٥٠.

(٣) الخطيب، عبدالكريم. ينبع، مرجع سابق، ٦٨، ٦٩.

للنساء، وتقام فيها ألعابهم الشعبية استعداداً ليوم إقامة حفل الزواج[1] الذي يتخلله الدق على الزير وإطلاق الأعيرة النارية والرقص بالسلاح الأبيض... وغير ذلك.

العلا: تستمر مراسم الاحتفال بالزواج لأكثر من أسبوع، تتخللها أيام وليالٍ تقضى في العمل والإعداد، ويصاحب ذلك كثير من المراسم والطقوس التي يتقيد بها الجميع، ويتضح من خلالها التعاون والتكاتف مع من عزم على الزواج وأراد الاحتفال بعرسه.

ومن الأسماء التي يطلقونها على تلك الأيام (يوم اللواق) وهو تزيين بيت العريس وتليسه بالطين، و(يوم الجدي) وهو يوم قياس غرف البيت ودهاليزه المراد فرشها بالحصير، و(يوم خياط الخصف) وفيه يبدأ ضرب الدف ويكثر المشاركون، و(يوم القصّة والحناء) وهو يوم تجتمع فيه النساء ويضرب بالدف وتحنى العروس، ويقوم الرجال بتبييض واجهة البيت بالجصّ، ثم (يوم الهدوة) وهو يوم زفة العروس، ويتلو ذلك ما يسمى (الحشار) وهو بقاء العريس ثمانية أيام لا يخرج من بيته إلا للصلاة فقط، وبعد ذلك يأتي (يوم الطلوع) وهو طلوع - أي خروج - العريس من الحشار، وتذبح الذبائح ويدعى الأهل والجيران والأصدقاء لوليمة إفطار كبيرة بهذه المناسبة، وآخر أيام الاحتفالات عند أهل العلا هو (يوم الفتوح) وهو خاص بالعروس، يزورها فيه من يحبها من النساء القريبات والصديقات، ويضرب بالدف وتكرم الحاضرات [2].

ثانياً - الاحتفال بالمولود:

جرت العادة عند أهل المدينة المنورة أن تتولى الداية العناية بالمرأة الحامل، كما أنها هي التي تباشر عملية التوليد مع بعض المقربات مثل: الأم أو الخالة أو أم الزوج، كما أنها أيضاً هي التي تتولى العناية بالمولود وأمه، خصوصاً في الأيام الأولى، وعند انتهاء عملية الولادة يفرح الجميع وينتشر الخبر بين الأهل والجيران وتبدأ المباركة والتهنئة لوالد المولود وأمه، وقد يقوم الوالد بذبح ذبيحة في اليوم الأول ويتصدق بلحمها على الفقراء شكراً لله - تعالى - على ما أعطاه وعلى سلامة زوجته، وفي الغالب تكون الفرحة أكبر عندما يكون المولود ذكراً. ويتم الاحتفال الرسمي بالمولود على مرحلتين هما:

أ - الأسبوع (الرحماني):

وهو يوم تسمية المولود وذبح العقيقة. فبعد مضي سبعة أيام على المولود يقوم والده باتخاذ بعض الخطوات التمهيدية لعمل حفلة (اليوم السابع) وتسمية المولود.

ففي صباح ذلك اليوم يُحلق شعر رأس المولود، ويتم وزنه بما يعادله من الذهب ويتم توزيع ذلك صدقة لوجه الله - تعالى، ويقوم البيت بإجراء الاستعدادات اللازمة لـ(السابع) ويتم ذبح شاتين (وهو ما يعرف شرعاً بالعقيقة) ودعوة المدعوين والمدعوات لتناول طعام الغداء بمناسبة سابع المولود أو (الرحماني)، وتقتصر الدعوة على الأهل والأقارب والجيران والأصدقاء الخلّص، وتحضر الداية مع بداية اليوم على رأس المدعوات لكي تقوم بتهيئة المولود وإلباسه الملابس المزركشة المصنوعة من الحرير والتل والقصب بنوعيه الفضي والذهبي، التي عُملت له خصوصاً للاحتفال به في هذه المناسبة السعيدة، ويكون بذلك قد اكتملت شرعته وتهيئته على أحسن وجه، وحان

(١) البليشي، محمد صالح. بدر، مرجع سابق، ٢١٦.

(٢) للاستزادة: نصيف،عبدالله. العلا: دراسة، مرجع سابق، ١٥٣ وما بعدها.

وقت حضور المدعوين والمدعوات من بعد صلاة الظهر مباشرة. ويتم استقبال الرجال في (قاعة البيت) الواسعة واستقبال النساء في الدور العلوي من البيت، وعند ذلك ترسل (الجدة) أحد الأطفال لكي ينادي والد المولود، فتسلمه إياه، ويقوم بتسليمه إلى جده فيتسلمه جده ويؤذن في أذنه اليمنى، ويقيم الصلاة في أذنه اليسرى، ويسميه الاسم الذي اتُّفق عليه من قِبل جميع العائلة ويقول: (سميتك كما سماك الله فلاناً)، وعند ذلك يبدأ الحاضرون يباركون ويهنئون ويحمدون الله ـ تعالى ـ ويشكرونه على تمام فضله وإنعامه، ثم يسلمه جده لمن كان جالساً على يمينه، وكل واحد يسلمه للآخر، حتى يتم عرضه على جميع الحاضرين فيتلقونه واحداً واحداً وهم يقولون (بسم الله الرحمن الرحيم، ما شاء الله لا قوة إلا بالله، اللهم احفظه يا رب العالمين)، وهناك من يضع على المولود هدية تسمى (لصقاً)، فبعض المدعوين يضعون ريالاً فضياً، أو جنيهاً ذهبياً، وبعضهم يضع عليه قطعاً مختلفة من المعادن الثمينة، كلٌّ حسب قدراته وإمكاناته، ثم يسلم المولود إلى والده الذي يقوم برده إلى أمه.

ويوضع للرجال طعام الغداء، ويتناولون بعده الشاي ثم ينصرفون، وأثناء ذلك تقوم جدة المولود ووالدته بعرضه على النساء، فيحتفين به كثيراً، وتقوم كل مدعوَّة بوضع هديتها عليه تعبيراً عن فرحتها الغامرة، ووفاءً بحق والدته، ثم يتناولن طعام الغداء، ويشربن الشاي في بهجة وحبور، وبعد صلاة العصر تتسلم الداية المولود، وتقوم بتجديد ملابسه و(تشريعه) من جديد على الهيئة السابقة، استعداداً للرحماني.

ويكون البيت خالياً تماماً من جميع الرجال، حتى من الأقارب والأصدقاء عدا الأطفال الصغار، فتقوم الداية بحمل المولود ووضعه بين يديها بكل عطف ورحمة، ويلتف الأطفال من حولها وبأيديهم الشموع الكبيرة والصغيرة وهي مضاءة، كما تتجمع الأسرة والمدعوَّات في جوٍّ من الفرح والسعادة، وتبدأ الداية تمشي الهوينى مخترقة جميع غرف البيت وفسحاته صعوداً وهبوطاً وهي تنشد الأناشيد والأهازيج المشهورة بالرحماني ومنها:

يا رب يا رحماني

خلي لنا الغلام

يا رب يا باريه

خلي لنا أبويه

والأطفال الصغار والمدعوَّات والأهل والأحباب يرددون وراءها هذه المقاطع في نغم بديع متناسق ومنسجم، وقبيل المغرب تقوم والدة المولود وجدته بتوزيع قراطيس الحلوى والورود على الأطفال ونثر الملبسات عليهم، وعند ذلك ينتهي الاحتفال بالمولود والرحماني ويتم توديع المدعوات والداية، وينشد الأطفال في مرح وبهجة عند مغادرتهم: (يا داية إلهي يخليك.. يا داية ويبارك فيك)[1].

ب ـ الأربعون:

بعد مضي أربعين يوماً على ولادة الأم وليدها تقيم العائلة وليمة صغيرة تقتصر على الأهل من النساء فقط، إذ يتناولن طعام الغداء وتجتمع العائلة في بيت المولود احتفاء بالأربعين، وقبيل صلاة العصر يقمن بتهيئة المولود وإلباسه ثياباً بيضاء، ويُلف في (كافولة) من القماش الأبيض، ويوضع عليه قليل من أريج الورد والفل والمسك، وتحمله

(١) الأنصاري، ناجي. التعتيمة، مرجع سابق، ١٧١ ـ ١٧٤.

والدته بصحبة جدته لأمه وجدته لأبيه، وتسير به صوب المسجد النبوي الشريف للصلاة فيه والسلام على المصطفى ﷺ، وعند وصولهن إلى المسجد النبوي الشريف يصلين ركعتي السنة، ويؤدين صلاة العصر مع الجماعة، وبعد صلاة العصر يقمن بتسليم المولود إلى (أحد الأغوات) المقيمين بالمسجد النبوي، فيدخله الحجرة النبوية الشريفة، ويسلم على رسول الله ﷺ وعلى صاحبيه، نيابة عن المولود، ثم يخرج الآغا المولود من الحجرة ويستقبل القبلة، ويدعو لنفسه وللمولود ولأهله بالصحة والعافية وطول العمر بالعمل الصالح، وبعدها يسلم الآغا المولود إلى أهله، وهو بذلك لا يطلب أجراً ولا يبتغي مالاً، ولكن إذا أعطي شيئاً هدية فإنه يقبله بنفس زكية، وبعد ذلك تعود الأسرة إلى بيتها وهي في غاية الحشمة والوقار [1].

وليس كل ما ذُكر متبعاً في القرى المجاورة للمدينة المنورة، بل هناك اختلافات بسيطة وتفاوت بين أهل كل بلدة وأخرى في مدى العناية بهذه المناسبة.

ثالثاً ـ الختان:

يعد ختان الذكور من السنن الإسلامية، ويمثل فرحة ومناسبة اجتماعية سعيدة للتعبير عن الاعتزاز بأفراد الأسرة، وبخاصة الذكور، ولم يكن الختان في المدينة المنورة وما جاورها يتم في الأشهر الأولى، بل كانوا يؤخرونه إلى ثلاث سنوات أو أكثر من عمر الصبي، وقد يصل الحال ببعضهم ـ كما في العلا ـ إلى تأخير الختان إلى سن العاشرة، إلا أن الناس كانوا في محافظة بدر يختنون الطفل في الأسابيع الأولى من عمره، وعلى أي حال فإن الجميع يحتفلون بهذه المناسبة وتُدق لها الطبول ويجتمع لها الرجال والنساء ـ كلٌّ على حدة ـ لتناول طعام الوليمة التي يقيمها أهل المختون، كما جرت العادة أن تقدم الهدايا للصبي مِن كل مَن حضر، كلٌّ حسب قدرته ووفق درجة قرابته لأهل الصبي، وكان الذي يتولى عملية الختان في الغالب هو المزين (الحلاق) أو بعض من تخصص في الطب العربي وتجبير الكسور.

وكان أهل المدينة المنورة يُلبسون الصبي ملابس خاصة وغالباً ما تكون ثوباً أصفر، ويزينونه بالعمامة والعقال المقصب ليلة الختان منذ العصر، ويدور به حصان قد تم تجميله وتهيئته ليركب عليه الصبي ويتجول به في شوارع المدينة المنورة والصبيان يجرون خلفه وهو في حالة من الفرح والسرور التي سوف يعقبها شيء من الألم صباح اليوم التالي.

يحضر المزين أو القائم بالختان في الصباح إلى المنزل، ويكون والد الطفل وأعمامه قد استعدوا لاستقباله ـ وغالباً ما يتم الختان لعدة أولاد في العائلة وفي الوقت نفسه ـ فإذا نزل الطفل أخذه المزين وأمسك به اثنان من الرجال، فإذا تمت العملية وارتفع صراخ الطفل من الألم بادرت والدته ونساء العائلة إلى استقباله من أول السلالم، وقد أحضروا له الهدايا والحلوى والألعاب ليتلهى بها عما حلّ به في ذلك اليوم، ويفد الأهل والأصدقاء وهم يحملون إليه الهدايا ويتحفونه بالنقود، بينما يتولى الرجال إكرام المزين ومساعده، فيتناولون معه طعام الإفطار الذي يكون قد أُعد لهذه المناسبة، ثم يحضر المزين كل صباح للكشف على الجرح[2]، إلى أن يمنَّ الله على المختون بالشفاء والعافية.

(١) المرجع السابق، ١٧٧.

(٢) مغربي، محمد علي. ملامح الحياة الاجتماعية، مرجع سابق، ١٣٧.

رابعاً ـ العزاء:

المجتمع المدني مجتمع إسلامي مترابط، يظهر فيه التكافل والتعاون والمودة في أيام الأحـزان ـ كما تظهر فيه البهجة والسرور والتعاون في أيام الأفراح ـ فلا يشعر الفرد أو الأسرة التي تحل بها مصيبة أنهم لوحدهم، بل يرون الجميع معهم يشاركونهم ويواسونهم في مصابهم، ويقدمون لهم ما يمكن تقديمه من مساعدة مادية أو معنوية، كلٌّ حسب قدرته وخبرته ودرجة قرابته لهم، ففي حالة وفاة أي شخص ـ رجلاً كان أو امرأة ـ يقوم ذووه بإخبار أقاربه أو من يمتون إليه بصلة فيحضرون جميعهم ليشاركوا في إجراءات الغسل والصلاة والدفن والعزاء.

ويحرص أهل المدينة المنورة على أن يصلُّوا على ميتهم في المسجد النبوي الشريف، كما يحرصون على أن يصلَّى عليه في أقرب فرض لوفاته إذا أمكن، ثم يدفن بالبقيع، وبعد الدفن يقف أقارب المتوفى عند باب البقيع صفاً واحداً يكثر أفراده ويقلون بحسب كثرة أقارب المتوفى والذين يمتون إليه بصلة أو قلتهم. وفي وقوفهم تكون بداية الصف ـ غالباً ـ لأقـرب الناس للمتوفى مثل الأبناء والإخـوان وما إلى ذلك، وبعد اصطفافهم يبدأ من حضر الدفن ومن رغب في أن يعزي آل الميت بالعزاء، إذ يأتي المعزون بانتظام بعضهم خلف بعض، ويضع المعزي يده على صدر الشخص المراد تعزيته قائلاً له: (عظَّم الله أجركم وأحسن عزاءكم)، فيرد عليه: (آجركم الله وجزاكم خيراً).

وهكذا يقبل آل الميت العزاء عند البقيع، وبعد ذلك يذهبون إلى بيت المتوفى، وهناك يتقبلون العزاء فمن لم يستطع حضور العزاء في البقيع، ويُعمل للجميع فطور أو غـداء أو عشاء حسب الوقت، وفي أول ليلة تعقب الوفاة يكون العزاء لجميع الناس، فتوضع الكراسي عند باب دار المتوفى في الشارع الذي يضيئونه غالباً للمناسبة، ويجلس على تلك الكراسي آل الميت الذين يتقبلون العزاء في صف بانتظام، وكلما أتى معزٍّ وقفوا جميعاً فيضع المعزي يده اليمنى على صدر كل واحد منهم قائلاً له ـ كما سبق ـ: (عظم الله أجركم) فيرد عليه كل واحد منهم: (آجركم الله وجزاكم خيراً). وكانوا سابقاً يأتون بمقرئ للقرآن، وتوضع المصاحف وأجزاء القرآن على منضدة في الوسط، وكلما أتى شخص قرأ ما تيسر ثم انصرف وهكذا. أما الآن فإنهم يكتفون بإحضار مسجل لتلاوة القرآن، ويستمر استقبال التعزية من المغرب إلى العشاء ثم تنتهي إلى الليلة القادمة، وهكذا تنتهي الأيام الثلاثة التي تنتهي بانتهائها مراسم العزاء، وكانوا في السابق يقيمون بعد سبعة أيام من الوفاة يوماً يسمى (السابع) كما أنهم يقيمون بعد الأربعين يوماً يسمى (الأربعين)، إلا أنهم ـ حالياً ـ تركوا كل هذا واكتفوا بالأيام الثلاثة لاستقبال العزاء.

أما القبائل التي تسكن المدينة المنورة وما حولها فإنهم لا يقفون غالباً عند البقيع بعد الدفن بل يذهبون إلى بيت المتوفى، وهناك يتقبلون التعازي ثلاثة أيام متتالية ليلاً ونهاراً، وفي البيت تجد آل الميت وجميع الذين يمتون إليه بصلة، وهم لا يصطفون، بل يجلسون في مجلس كبير ويقفون لمن يأتي فيسلم عليهم ويقبِّل كل واحد منهم على طرفي وجهه واضعاً يده في يده قائلاً: (عظم الله أجركم) فيرد كل فرد فيهم: (آجركم الله وجزاكم خيراً). وغالباً يُعمل عشاء ليلة الوفاة يدعى إليه جميع معارف آل الميت وجيرانهم وأصدقائهم[1].

(١) البليشي، محمد صالح. المدينة، مرجع سابق، ١٤٤، ١٤٥.

خامساً ـ الاحتفاء بالمناسبات الدينية:

يقصد بها هنا تلك الأيام أو الأشهر التي خصّها الشرع بأعمال معينة، وشرع فيها أقوالاً وأعمالاً خاصة ما جعلها محل عناية المسلمين، ينتظرون قدومها ويستعدون لها ويفرحون بها، ويقومون بما يوفقهم الله إليه فيها من الأعمال الصالحة مثل الحج ورمضان والعيدين، وإن كان الناس في المجتمع الإسلامي قد اعتادوا عادات مختلفة في تعبيرهم عن هذا كله حسب الزمان والمكان، ونظراً إلى مكانة المدينة المنورة وقداستها في نفوس المسلمين، فقد كانت محط أنظار المسلمين القادمين للحج والعمرة من أنحاء العالم الإسلامي، ولذا يتغير طابع الحياة فيها خلال تلك المواسم، وتنشط فيها الحركة والبيع والشراء وتأجير المساكن للحجاج والزائرين، وكذا إرشادهم إلى ما يرغبون زيارته من الأمكنة، كما أن أهل المدينة المنورة أنفسهم يتوجهون إلى الحج والعمرة في أوقاتهما ويحتفون بالأعياد بطريقتهم التقليدية كما يأتي:

أ ـ شهر رمضان المبارك:

يمثل شهر رمضان المبارك مناسبة دينية وموسم عبادة بالنسبة إلى المسلمين كافة، وترتبط بقدوم هذا الشهر مظاهر الفرح والابتهاج لدى الناس في المدينة المنورة، صغاراً وكباراً، رجالاً ونساءً، وتتمثل تلك المظاهر في أنواع الأطعمة التي تقدَّم في وجبتي الإفطار والسحور، كما تتمثل في تغيير البرنامج اليومي للأسرة من حيث مواعيد النوم والاستيقاظ ومواعيد الزيارات واستقبال الضيوف، ما له علاقة بالصيام والفطر وأداء الصلوات المفروضة، ونافلة التراويح، والقيام في العشر الأواخر. ويفضل كثير ممن يقدم إلى المدينة المنورة وبعض أهلها تناول الإفطار في المسجد النبوي الشريف وفي الساحات المحيطة به حرصاً على إدراك صلاة المغرب فيه.

وكان من العادات المعروفة والتقاليد المألوفة وجود (المسحراتي) وهو الرجل الذي يتولى إيقاظ الناس آخر الليل وقت السحر، لتناول وجبة السحور ومن ثم حضور صلاة الفجر جماعة في المساجد، وكان في كل حي من الأحياء رجل نذر نفسه للقيام بهذه المهمة، يحمل معه طبلاً يدق عليه ويقف عند كل باب ينادي باسم صاحبه: (يافلان وحِّد الله) أو (يا أبا فلان وحِّد الله)، ولا ينصرف في الغالب حتى يسمع من صاحب البيت ما يدل على أنه قد استيقظ. وفي العلا يسمون المسحراتي(المدبدبي) وكان يقوم بالدور نفسه الذي يقوم به المسحراتي، ولكن كان الناس يرونه في مناسبة أخرى هي وقت حصاد الحب وكذا وقت جداد التمر، يخرج (يدبدب) أو يضرب بعصاه على طبلته في الشوارع، ليس لإيقاظ الناس بل لتذكيرهم بنفسه وبما قدمه في ليالي رمضان لكي يعطوه من التمر أو الحب جزاء ما قدم.

كما كانت موائد الإفطار تزدان بأنواع من المأكولات والحلويات والأشربة التي قد لا يراها كثيرون إلا في رمضان ـ كما سبق ذكره ـ مثل الشعرية والزلابيا واللقيمات والسوبيا وقمر الدين وما إلى ذلك.

وتختص المدينة المنورة بقدوم أعداد من الحجاج الذين يفدون قبل الحج بأشهر، ويفضل كثير منهم صيام رمضان فيها، وبخاصة حجاج جنوب شرق آسيا الذين

يسميهم المدنيون (الجاوة)، ولذا تنشط حركة البيع والشراء في أيام رمضان ولياليه، ويشتد نشاطها عند نهاية الشهر عندما يقترب العيد ويبدأ الباعة بعرض الحلويات والهدايا في المحلات والطرقات والساحات المجاورة للمسجد النبوي الشريف، كما ينتشر الذين يبيعون الأرز والحبوب لمن يريد إخراج زكاة الفطر.

كما ينشط الناس في العشر الأواخر في العبادة، ويحيون الليل بالصلاة والتلاوة كلٌّ حسب قدرته ووفق درجة علمه وتقواه، وفي الأيام الثلاثة الأخيرة تبدأ مظاهر استعداد الأسر للعيد بتنظيف البيوت وتجهيز المعمول والحلويات التي تصنع في البيوت وكل ما يلزم للاحتفال بالعيد.

ب ـ الحج:

وهي مناسبة ذات طابع خاص لكل من عزم على أداء الفريضة، كما أن أيام الحج يعقبها تدفق الحجاج بعد أداء مناسكه في مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ليختموا رحلة الحج بزيارة المسجد النبوي الشريف والسلام على رسول الله ﷺ ، ما يعني لأهل المدينة المنورة كثيراً وينعكس على حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية أيضاً.

أما حجاج المدينة المنورة أنفسهم فقد كانوا يسيرون على شكل ركب له قائد يسمى شيخ الركب، كما أن لهذا الركب علماً أخضر كتبت عليه كلمة التوحيد، ينصب في مكان التجمع عند مسجد الغمامة قبل السفر بيومين أو ثلاثة، كما أن للركب حادياً وهو المنشد الذي يحدو الإبل على الإسراع في السير بإنشاده، وعادة يغادر الركب في نهاية شهر ذي القعدة وقد استعد الناس لهذا السفر الميمون منذ شهر تقريباً بالزاد والملابس الخاصة وتهيئة الرواحل، كما أن شيخ الركب يكون قد هيأ نفسه ومعاونيه من (الفتوَّات) الأشداء الأقوياء للتحميل والتنزيل، كما اختار عدداً من الرماة (البواردية) للدفاع عن الركب وصد هجمات قطاع الطريق، فإذا وصل ركب حجاج المدينة المنورة إلى مكة المكرمة فإنهم يتخذون مواقع معروفة لهم فيها وفي منى، وقد كان هناك مكان كبير يسمى (حوش المداينة) ينزلون فيه، فإذا أتموا النسك قرر الشيخ موعد الرحيل والعودة فيسيرون، حتى إذا وصلوا إلى (سطح الغاير) يبعث شيخ الركب (نجاب الطواقي) وهو الرجل الذي يأخذ طاقية من كل (سرارة) في الركب، والسرارة ـ كما سبق ـ هو الصغير الذي يؤدي الحج قبل البلوغ، فيذهب نجاب الطواقي مسرعاً يتقدم الركب ليبشر أقرباءهم بأنهم بخير وسيصلون ـ بإذن الله ـ قريباً، ويعطي أهل كل بيت طاقية قريبهم شهادة على صدقه، فإذا وصل الركب إلى (بئر الماشي) بعث الشيخ برجل آخر يدعى (نجاب المكاتيب) الذي يحمل رسائل الحجاج إلى ذويهم، تخبرهم بسلامتهم وتبشر بقدومهم.

فإذا حان الموعد المنتظر ذبح الأهل الذبائح وأضاؤوا (الأتاريك)، وعند القدوم تعم الفرحة ويُكرَم الحجاج، كما تكون هناك احتفالات خاصة بالحجاج الصغار (السرارات) بأن يلبسوا العباءات المقصبة والعقل المذهبة أو العمامات ويمسك الواحد منهم بعصا ويركب الحصان تصاحبه فرقة موسيقية تسمى (الطاسة)؛ وهذه العادة اختفت ولا وجود لها حالياً.

وكان الحجاج القادمون يعمدون إلى البدء بالصلاة في المسجد النبوي والتشرف بالسلام على المصطفى ﷺ ، ثم يذهب كلٌّ إلى أهله إلا السرارات، فإنهم يستمرون في التجول في الشوارع بصحبة الطاسة، والصبية يجرُّون خلفهم، وتنثر عليهم الحلوى، ويفرح بهم الجميع حتى وقت الظهيرة إذ يعودون إلى منازلهم لتناول الغداء، وقد يستمر الاحتفال بهم إلى غروب الشمس[١].

ج ـ العيدان:

يهتم أهل المدينة المنورة بالاحتفال بالعيد ويبالغون في الاستعداد له، خصوصاً عيد الفطر، إذ تشترى الملابس منذ شهر شعبان، وتجهز البيوت وتنشط حركة البيع في آخر الشهر الكريم، وقبل حلول العيد بأيام يتركز بائعو الحلويات في مباسط معينة (أمكنة للبيع) ويضعون فيها أنواع الحلويات والعطور بكميات كبيرة جداً، وينادون عليها فيُقبل الناس على شرائها استعداداً للعيد[٢].

ومن الأمور التي يهتم بها رب الأسرة أداء صلاتي الفجر والعيد بالمسجد النبوي، إذ ينزل مع أولاده وهم بملابس العيد الجديدة إلى المسجد، وبعد انقضاء الصلاة والاستماع إلى الخطبة يعودون للاحتفال بالعيد. وقد كانت هناك عادة بعد صلاة العيد هي أن يخرج أغلب الناس لحضور (السلملك) أي الاحتفال العسكري بحضور الضباط والقادة، وتدق الموسيقى العسكرية في الساحة الفسيحة التي تقع أمام مقر الإمارة، ويقف الجميع لاستقبال الأمير وكبار الشخصيات بعد خروجهم من المسجد قاصدين مقر الإمارة، ومن ثم يستقبل الأمير رجال المدينة المنورة من جميع الطبقات، ويتقبل منهم التهنئة بالعيد ويشرب الجميع القهوة العربية، ثم يغادرون إلى دورهم لتناول طعام الإفطار مع أسرهم وتبادل التهنئة بالعيد، ويكون جميع أفراد الأسرة على أتم الاستعداد لاستقبال المهنئين من الجيران والأقارب والمعارف، وحيث يكون صاحب كل دار مستعداً لاستقبال جميع الضيوف لتناول القهوة والمرطبات، وعند خروجهم يأخذون الحلوى التي تكون معدّة في أوانٍ متنوعة الأشكال وسط صالون الاستقبال، كما يبقى في الدار الوالد ـ إذا كان كبيراً في السن ـ لاستقبال كل من يأتي ويبقى معه أحد أولاده أو أولاد أولاده وذلك للقيام باستقبال الضيوف، أما الباقون فيقومون بالتجوال على الجيران والأقرباء والمعارف للمعايدة، ويستمر ذلك حتى أذان الظهر إذ يقصد الجميع المسجد النبوي لصلاة الظهر فيه، ثم يعودون إلى منازلهم لتناول طعام الغداء وأخذ قسط من الراحة حتى أذان العصر إذ يخرج الجميع للتنزه في ضواحي المدينة المنورة أو أخذ الأطفال إلى الملاعب المعدة بشكل خاص للاحتفال بالعيد، وينتقلون من جهة إلى جهة حتى المغرب ويعود الجميع لأداء الصلاة، ومن ثم يتم تناول العشاء والاستعداد للنوم، وتسمى هذه الليلة (ليلة الخمدة) فالجميع ينامون مبكرين إلا قليل منهم، وعند الفجر يقوم الجميع لأداء صلاة الفجر وتناول طعام الإفطار ثم الخروج للمعايدة مثل اليوم الماضي وزيارة عائلات وأصدقاء آخرين[٣].

وتحتل هدية العيد موقع الصدارة من بين ما يترقبه الأطفال، وكل من يمت إليهم بصلة مثل الوالد والأخوال، فيحرصون على إعطاء الأطفال هدية العيد، وهي تختلف باختلاف الرغبات؛ فالنقود والحلويات والدراجات

(١) للاستزادة: الخياري، السيد ياسين. صور من الحياة الاجتماعية. مرجع سابق، ٢٢١ وما بعدها.

(٢) البليشي، محمد صالح. المدينة، مرجع سابق، ١٣٠.

(٣) الخياري، ياسين. صور من الحياة الاجتماعية. مرجع سابق، ٢٠٣، ٢٠٤.

الهوائية (البسكليت) والعقود بالنسبة إلى البنات والملابس واللعب الصغيرة كلها تجد رواجاً في أيام العيد وقبله؛ لإقبال الناس عليها لتقديمها هدايا لأطفالهم. ومن اللعب الجميلة التي تنتشر في أحياء المدينة المنورة للأطفال لعب (المدارية)، وهي لعب يتجمع فيها الأطفال جملة ووحداناً، وتتألف هذه الألعاب من كراسي مرتبطة بسلاسل أو قضبان حديدية متصلة بمركز لها، منها ما يدور إلى الأعلى ومنها ما يدور أفقياً، وهي أنواع شتى وأحجام كثيرة حسب سن الطفل، ويؤجرها أصحابها للأطفال لدقائق معدودات لشدة الإقبال عليها. وبعضهم يحضر حماراً ويزركشه بعربة وينادي على الأطفال ليركبوا معه ويدور بهم في شوارع الحي والأحياء المجاورة، وقد بدأت هذه المظاهر في الاختفاء لوجود الآلات الحديثة من سيارات ودراجات نارية، مع أنها تعطي منظراً جميلاً وهي بعيدة عن الخطورة.

وامتداداً لهذا يتجمع الأطفال من بعض العائلات في سيارات (وَنيت) بأعداد كبيرة جداً في عصر كل يوم ويذهبون إلى ضواحي المدينة المنورة مثل (العاقول) و(آبار علي)، فتراهم غادين ورائحين يرددون بعض الأناشيد الخاصة بهم المشجعة لزملائهم على الانضمام إليها. وقد كان في أطراف المدينة المنورة ولدى بعض القبائل فيها عادة في أيام عيد الفطر الثلاثة وهي ذبائح العيد، إذ يحرص كل صاحب بيت على أن يحضرها ويذبحها في أحد الأيام الثلاثة ويتم طبخها، وفي ظهر كل يوم أو في مسائه يجتمع أهل الحي في بيت أحدهم على ما ذبح في ذلك اليوم بموجب تنظيم خاص، نساءً ورجالاً، احتفالاً بأيام العيد وإظهاراً للفرح به [1].

أما في عيد الأضحى المبارك الذي يقع في أيام الحج فتخلو المدينة المنورة من الحجاج الوافدين والزوار إذ يكونون جميعاً في مكة المكرمة في تلك الأيام، وتشرع الأضحية في أيام هذا العيد، فإن هذا العيد له وضع خاص بالنسبة إلى أهالي المدينة المنورة، ويسمونه (عيد اللحم)، إذ يتم شراء الذبائح قبل العيد بأيام، وفي صباح العيد وبعد أداء (صلاة العيد) بالمسجد النبوي الشريف يحضر الجزار إلى الدار ويقوم بذبح الخرفان وأخذ أجرته ثم ينتقل إلى منزل آخر، ويقوم أهل كل دار بتقطيع جزء من الذبيحة وشيِّها على النار وذلك لتناول وجبة الإفطار، ويُخرج منها جزء للصدقة وجزء يتهادى به الجيران، ويكون الغداء وجبة تسمى (السلات) وهو قطع من اللحم تطبخ بطريقة خاصة وبجوارها الأرز، ولا يخرج الناس للمعايدة مثلما يحدث في عيد الفطر، إذ إن الجميع منهمكون في ذبائحهم وتوزيع صدقاتهم وهداياهم، ما عدا الأقرباء وبعض الأصدقاء فهم الذين يتعايدون. وفي العصر يخرج الجميع للنزهة أو إلى الملاعب من أجل الأطفال، وكان كثير من العائلات يتجمعون ويخرجون إلى البساتين ليقضوا فترة العيد وسط أجوائها الرائعة ويستقبلون من يقصدهم لقضاء بعض الوقت معهم في رحابها.. وهكذا حتى انتهاء أيام العيد[2]. وكان أهل القرى يزيدون على ما ذُكر في أيام الأعياد بممارسة كثير من الألعاب والرقصات الشعبية مثل (الزير) و(المزمار) و(السامري).. وغيرها، وقد سبق ذكر هذا مفصلاً في الفصل الخاص بالأهازيج والرقصات الشعبية.

(١) البليشي، محمد صالح. المدينة، مرجع سابق، ١٣١، ١٣٢.

(٢) الخياري، السيد ياسين. صور من الحياة الاجتماعية. مرجع سابق، ٢٠٥.

سادساً ـ مظاهر الثبات والتغير:

الواقع أن كثيراً مما ذُكر قد تعرض للتغير، وبعضه قد تعرض للزوال فلم يبق منه شيء بفعل التغير العام في نمط الحياة، إذ إن التحضر والهجرة إلى المدن وتمدن الأرياف الذي صاحب التطور الاقتصادي الهائل في جميع مناطق المملكة، وما صاحبه من تطور وسائل النقل والاتصال والإعلام، أدى إلى التقارب الشديد بين ما يفعله أهل القرى وما يفعله أهل المدن في كثير من المناسبات. وهناك أمر آخر مهم جداً؛ هو أن انتشار العقيدة الصحيحة والوعي الديني الذي صاحب قيام المملكة العربية السعودية قد أدى إلى اختفاء بعض البدع والأمور السلبية، خصوصاً ما يمارس في أيام العزاء أو حتى عند الذهاب للحج والعودة منه، وقد أصبح الناس يحرصون على موافقة السنة في الأمور الشرعية أكثر من اتباع العادات.

وقد أدت الوفرة الاقتصادية وطبيعة تخطيط المدن الحديثة إلى تباعد المساكن واستقلال الأسر بعضها عن بعض، ما جعل كثيراً من مظاهر التعاون والتكاتف في الأفراح تختفي، ويستعيض الناس عنها بالاتفاق مع أصحاب الفنادق والمطاعم وقصور الأفراح على تولي جميع ترتيبات الفرح مقابل مبالغ باهظة يدفعونها، ومن أمثلة التغير في مناسبات الأعراس أن ولي المرأة كان يقبض المهر ويتولى تجهيز بيت العريس، ويخرج هذا الجهاز محمولاً في عرض بديع يسمى (خروج الفراش) كما سبق ذكره، أما الآن فإن ما يتسلمه ولي العروس من مهر قد يُنفق على أمور ثانوية من باب التفاخر والمباهاة، ويتحمل العريس ـ مع ما دفع من مهر ـ كل ما يلزم لتأثيث بيته وفرشه، مما كان له أثر في حرمان غير القادرين على تكاليف الزواج منه أو دفعهم إلى تأخيره، رغم أهميته وحاجتهم إليه، وإن كان ثمَّ تغيير للأفضل حدث في هذا الجانب، فذلك فيما يخص أخذ الأهل برأي ابنتهم في الزواج، الذي كان لا يعتد به كثيراً في الماضي، اعتقاداً من الأهل أنهم أعرف بمصلحة ابنتهم، بينما أصبحت موافقة الفتاة الآن شرطاً مبدئياً يتوقف عليه قبول الأسرة دخول الخاطب إلى بيتهم أو البحث عن فتاة أخرى يحصل على موافقتها في حال رفض الأولى. وأما الأعياد فقد استمر كثير من مظاهر الاحتفال بها من الناحية الشكلية، ولكن تقلصت الروابط الاجتماعية، واختفت التلقائية والبساطة في العلاقات، ويصعب اليوم أن يزور الإنسان من لا يعرفه مسبقاً، كما أنه لابد من تحديد موعد لتلك الزيارة ولو كانت للمعايدة، ما أفقد العيد خاصيته إذ كان في الماضي موسم تأليف القلوب وتعارف الجيران ولمِّ الشمل.

الفصل العاشر

أساليب التعليم التقليدية

أولاً نمط التعليم السائد

ثانياً الأدوات المستخدمة في التعليم

ثالثاً المعلمون والمشايخ

رابعاً العادات المرتبطة بختم القرآن الكريم أو جزء منه

خامساً مظاهر الثبات والتغير

يمثل التعليم ظاهرة اجتماعية قديمة وُجدت في كل المجتمعات، وبوساطته يتم نقل ثقافة الآباء إلى الأبناء، وهو يعبر عن حاجة المجتمع إلى تهيئة الأجيال القادمة للإسهام في بنائه والحفاظ على كيانه، والتصدي لما يعترضه من مشكلات وعقبات في سبيل تحقيق أهدافه.

وهو أيضاً عملية تتم وفق أطر ثقافية، وفي ظروف اجتماعية وحضارية معينة، فيمكن التعرّف على ثقافة المجتمع وظروفه من خلال إلقاء نظرة على نظامه التعليمي، سواء من حيث المحتوى أو الأساليب التي تقدَّم بها مواد ذلك المحتوى، وهي نابعة من ثقافة المجتمع أيضاً، ومعبرة عن حاجاته، ولا تتجاوز ظروفه وإمكاناته المادية والبشرية والفنية؛ ولذلك كله فإن التعليم ـ في كل حقبة زمنية من تاريخ المجتمع وفي أي منطقة من العالم ـ هو جزء من السياقين الاجتماعي والثقافي السائدين في تلك الحقبة في تلك المنطقة المحددة؛ فهو محكوم بالحدود الجغرافية والزمانية والثقافية لهذا المجتمع أو ذاك.

ونظراً لما عاشته منطقة المدينة المنورة خلال القرن الماضي من ظروف اجتماعية واقتصادية وثقافية ـ مثل غيرها من مدن الحجاز ـ ميَّزتها عن مناطق أخرى في المملكة العربية السعودية، فقد كان التعليم هناك مميزاً عن تلك المناطق، فقد ازدهر التعليم في صفوف الرجال والنساء إلى حدٍّ ما، وعُرف التعليم الرسمي المنظم في المدارس(*)، إضافة إلى التعليم التقليدي في الكتَّاب، ووجد من يتولى تعليم الفتيات القراءة والكتابة.

وسوف يتم التركيز هنا على أسلوب التعليم التقليدي من حيث محتواه، وطريقة تقديم المادة العلمية، وأساليب الثواب والعقاب.. ونحو ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولاً ـ نمط التعليم السائد:

ساد في المنطقة أنماط مختلفة من التعليم خلال تاريخها. والذي يهمنا هنا هو تلك الفترة التي صاحبت قيام المملكة العربية السعودية، والتي شهدت ـ إضافة إلى التعليم في المسجد النبوي ـ اختلاط نمطين من أنماط التعليم هما: النمط التقليدي (الكتَّاب) الذي عُرف في جميع البلدان الإسلامية تقريباً، والبدايات الأولى للتعليم المنظم (المدرسة) التي تعدُّ أيضاً مدرسة تقليدية من حيث طريقة التعليم بها، وإن اختلفت عن (الكتَّاب) في كثير من أمورها التنظيمية.

أ ـ الكتَّاب:

هو حجرة للدراسة في أحد المباني، وقد يُلحق بها مرحاض، وأحياناً صالة صغيرة تحتوي على زير يوضع فيه الماء ليشرب منه التلاميذ، وحوض صغير يوضع فيه ماء لغسل الألواح التي يكتبون عليها، وفي هذا الكتَّاب يتولى الشيخ تدريس التلاميذ القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة، وتفرش حجرة الدراسة هذه بالخصف (الحصير) ويجلس التلاميذ عليه صفوفاً منتظمة، صغاراً وكباراً. وقد يصل عدد التلاميذ في بعض الكتاتيب إلى أربعين تلميذاً في الحجرة التي لا تزيد مساحتها ـ غالباً ـ على ٢٤م٢، وأحياناً يكونون على شكل مجموعات صغيرة وفقاً لمستوى حفظهم كتاب الله أو مدى تقدمهم في القراءة والكتابة أو تفوقهم في التحصيل والأناشيد.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب السادس، (الخدمات والمرافق التنموية)؛ الفصل الأول.



الكتاتيب

ولم تكن توجد في هذه الكتاتيب سجلات لقيد التلاميذ أو أي سجلات أخرى، كما لا يوجد أي جهاز إداري أو فني يساعد الشيخ في أداء مهمته، بل كانت ذاكرة الشيخ هي السجل الوحيد؛ إذ إنها تستوعب كل هذه المهام المنوطة به، فهو صاحب قدرة عجيبة على حفظ أسماء تلاميذه جميعهم، ومعرفة أولياء أمورهم، كما أنه يعرف عناوين مساكنهم، ويحفظ أيام الغياب والحضور لكل تلميذ، ويعرف المتفوقين والمتأخرين دراسياً، ومَن سلَّم إليه الأسبوعية (الخمسية) ومن لم يسلم (وهي أجرة الشيخ المتعارف عليها)، وكان يتابعهم متابعة جادة ويتفقدهم بذكاء وحيوية.

وللكتَّاب عريف يختاره الشيخ من التلاميذ الكبار المتقدمين في حفظ القرآن الكريم، وتنحصر مهمته في مساعدة الشيخ في ترتيب التلاميذ، والكتابة على ألواحهم، وضبط الهدوء والنظام في الكتَّاب، وقد يتغير هذا العريف من آن إلى آخر، وذلك عندما يتخرج من الكتَّاب بعد حفظه القرآن الكريم كاملاً، وكان يوجد في بعض الكتاتيب عريف دائم ملمٌّ بالقراءة والكتابة والحساب وحافظ لكتاب الله الكريم، ينوب عن الشيخ في جميع الحالات ولا سيما إذا خرج لقضاء شؤونه الخاصة. كما كان يوجد في بعض الكتاتيب أكثر من شيخ، وهم على قدر كبير من العلم والمعرفة والتربية، وبعضهم يكون دوامه صباحاً وبعضهم عصراً، وكان الكتَّاب يقوم بتعليم التلاميذ القرآن الكريم وتجويده، والهجاء على الطريقة البغدادية، والقراءة والكتابة، والإملاء والخط، ومبادئ الحساب، كل تلميذ حسب قدرته ودرجة استيعابه، وكانت طريقة التعلم تتم بأن يبدأ الشيخ بالتعريف بالحروف الهجائية، وكتابتها على الألواح، ثم كتابة الأبجدية، فإذا ما اطمأن الشيخ إلى إجادتها كتب البسملة وسوراً قصيرة من القرآن الكريم حتى يجيدها التلميذ خلال أسبوع، ثم يختبر



الكتاتيب في المساجد

التلميذ في نهاية الأسبوع في كل ما تلقاه وكتبه وحفظه، وكان الشيخ يرفع تقريراً لولي أمر التلميذ عند مراجعته الكتّاب في نهاية كل أسبوع ليقف على مستوى ابنه الدراسي[1].

وقد كانت هناك كتاتيب خاصة بالفتيات يتولى تعليمهن بعض النساء اللاتي منّ الله عليهن بقسط من العلم في حفظ القرآن الكريم ومعرفة القراءة والكتابة. وكانت كتاتيب المدينة المنورة على ثلاثة أقسام:

١ ـ الكتاتيب داخل المسجد النبوي:

وهي أربعة كتاتيب على النحو الآتي:

- الكتّاب الواقع على يمين الداخل إلى المسجد النبوي من باب المجيدي. كان للشيخ الطرودي، وكان معه العريف الشيخ محمد أمين بن سالم، وبعد وفاة الشيخ الطرودي تسلم الكتّاب الشيخ محمد بن سالم، ويعمل معه الشيخ عبدالحميد هيكل.
- الكتّاب الثاني المجاور له للشيخ بشير، وبعد وفاته تسلمه الشيخ عبيد السناري، وبعد وفاته تسلمه الشيخ حسن تاج الدين، وبعد وفاته تسلمه الشيخ طه السناري ومعه الشيخ حامد الصعيدي.
- الكتّاب الثالث الواقع على يسار الداخل إلى المسجد النبوي من الباب المجيدي. كان للشيخ إبراهيم فقيه وكان معه ولده مصطفى فقيه، وبعد وفاته تسلمه الشيخ مصطفى فقيه ومعه الشيخ عبدالفتاح أبوخضير.
- الكتّاب الرابع المجاور له كان للشيخ الظهار وكان معه الشيخ خليل، وبعد وفاته اتخذته إدارة الحرم مستودعاً للسجاد.

٢ ـ الكتاتيب خارج المسجد النبوي:

وقد كانت ثمانية كتاتيب وهي كما يأتي:

- كتّاب الشيخ حامد مرشد في زقاق الطوال.
- كتّاب الشيخ حامد شيخ في المرادية بالعنبرية.
- كتّاب الشيخ محمد بشير في مسجد بهرام آغا في العنبرية.
- كتّاب الشيخ حسين عويضة في حوش التاجوري.
- كتّاب الشيخ خليل أبوتيج في مسجد الغمامة.
- كتّاب الشيخ أحمد عبدالرحمن السناري في القبة بالمناخة.
- كتّاب الشيخ صالح بن محمد اليماني في القشاشي.
- كتّاب الشيخ عبدالله بن أحمد الفلاتي في رباط عزت باشا العابد بباب المجيدي.

(١) الأنصاري، ناجي. التعتيمة، مرجع سابق، ٣٥ ـ ٣٧.

٣ ـ كتاتيب البنات، وهذه الكتاتيب هي:

- كتَّاب الشيخة زينب مغربلية في حوش درج.
- كتَّاب الشيخة التركية معمرة في باب بصري.
- كتَّاب الشيخة فاطمة هانم بنت يوسف في الساحة.
- كتَّاب الشيخة سلمة بنت مبارك في حوش الراعي.
- كتَّاب الشيخة زهرة سنارية حرم حسن تاج الدين في زقاق البدور.
- كتَّاب الشيخة عائشة بنانية في الساحة، حوش التكارنة.
- كتَّاب الشيخة فاطمة بنت الشيخ خليل التكرونية في حارة الأغوات.
- كتَّاب الشيخة خديجة النظيفة في حوش التاجوري.
- كتَّاب الشيخة سلمة بنت محمد عابد في الجديدة.
- كتَّاب الشيخة فاطمة بنت أحمد التكرونية في باب المجيدي رباط عزت باشا.
- كتَّاب زوجة الشيخ الشامي في زقاق العاصي في الفقشاشي.
- كتَّاب الشيخة عابدة في باب المجيدي بجوار بيت الشاعر.
- كتَّاب الشيخة فخرية هاشم بالشونة[١].

كما أن هناك كتاتيب أخرى في العلا وخيبر والمهد وبدر وغيرها من البلدات التابعة لمنطقة المدينة المنورة، وكانت تتّبع الأسلوب نفسه تقريباً، من تعليم التلاميذ القراءة والكتابة والقرآن الكريم والفقه ومبادئ الحساب، وقد كانت هذه الكتاتيب تسمى أحياناً (المدارس الأهلية) تمييزاً لها عن المدارس النظامية العثمانية التي وجدت بصفة نادرة في بعض الأمكنة.

ب ـ المدرسة:[*]

عرفت المدرسة النظامية في المدينة المنورة ومكة المكرمة وبقية مدن الحجاز قبل أن تعرف في مناطق أخرى من الجزيرة العربية، ولكن لظروف سياسية وتاريخية معينة كانت ثقة الناس بتلك المدارس قليلة؛ ولذلك لم يكن الإقبال عليها شديداً، فكان الناس يتخوفون من حركة التتريك التي نشطت في آخر حكم العثمانيين، إذ شملت تدريس كثير من المواد ـ حتى النحو والصرف ـ، ولهذا السبب لم يفرط الناس في الكتَّاب بصفته نمطاً محلياً للتعليم، على الرغم من أن هناك عدداً من المدارس الابتدائية والثانوية النظامية في المدينة المنورة وما جاورها.

وكان الناس لا يرسلون أولادهم إلى تلك المدارس إلا بعد إتمام الدراسة في الكتَّاب، وأخذ قسط كبير من القرآن الكريم أو ختمه كاملاً، والإلمام بمبادئ القراءة والكتابة وبعض العلوم الشرعية ـ مثل الفقه ـ وما يتعلق بها. وكانت الدراسة في تلك المدارس تنقسم إلى:

- المرحلة التحضيرية ومدتها ثلاث سنوات.
- المرحلة الابتدائية ومدتها أربع سنوات.

ويدرس الطلاب في هاتين المرحلتين مواد مختلفة منها: القرآن الكريم، والتجويد، والتوحيد، والفقه، والتهذيب، والمحادثة، والإنشاء، والمطالعة، والإملاء، والمحفوظات، والقواعد، والتطبيقات، والخط العربي، والتاريخ، وتقويم البلدان، والصحة،

(١) السيد ياسين أحمد الخياري، *صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة*. ط١،(جدة: دار العلم، ١٤١٣ هـ)، ١٠٥، ١٠٦.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب السادس، (الخدمات والمرافق التنموية)؛ الفصل الأول.

والحساب، والهندسة، ومسك الدفاتر، واللغة الإنجليزية، ثم أُدخلت اللغة التركية، وأصبحت لغة التعليم في كثير من المدارس إلى أن انتهى حكم العثمانيين. وخلال الحكم الهاشمي تراجع التعليم في الحجاز، على الرغم من أنه تم إنشاء عدد من المدارس ومنها أربع مدارس في المدينة المنورة، وخلال تلك الفترة نشط الأهالي في إنشاء مدارس أهلية يقوم عليها بعض أهل العلم من أبناء المدينة المنورة، إلى أن يسر الله ـ تعالى ـ قيام الدولة السعودية فشملت برعايتها التعليم، وحُوِّل كثير من تلك المدارس الأهلية إلى مدارس حكومية تابعة لوزارة المعارف آنذاك (التربية والتعليم حالياً) التي تولت الإشراف والإنفاق عليها وعلى معلّميها، وتوفير ما تحتاج إليه من متطلبات، وأصبح نظام التعليم موحداً في مناطق المملكة العربية السعودية جميعها. أما عن أوقات الدراسة في تلك المدارس التقليدية، فقد كانت ـ في الغالب ـ على فترتين: صباحية حتى صلاة الظهر، ومسائية: تبدأ من صلاة العصر وتستمر ساعتين.

وكان بعض التلاميذ يفدون إلى المدينة المنورة من المدن والقرى المجاورة لإكمال دراستهم في مدارسها، فقد كانت بعض المدارس خارج المدينة المنورة لا تمنح الشهادة الابتدائية، وبعض هؤلاء التلاميذ قد حصل على الابتدائية ويرغب مواصلة التعليم الثانوي؛ فقد وفرت لهم الدولة السعودية سكناً يسمى (القسم الداخلي) وهو ملحق ببعض المدارس، وتقدم فيه الوجبات كاملة وبعض الملابس، إضافة إلى مكافأة نقدية لكل طالب مغترب[1].

ج ـ التعليم في المسجد النبوي الشريف:[*]

هو نمط خاص من التعليم الإسلامي، يشمل الصغير والكبير، ويشارك فيه قراء ومعلمون وعلماء كبار، ويدرّس فيه القرآن وعلومه، والتفسير، والنحو، والبلاغة، والفرائض، والأدب، والمنطق، والفلسفة، ولا تكاد تنقطع فيه حلقات الدرس طوال ساعات النهار وأجزاء من الليل، إضافة إلى تعدد الحلقات في الوقت الواحد.

ويقوم الطالب باختيار العلم الذي يأنس في نفسه الاستعداد لدراسته، وحلقة الشيخ الذي يحس أن بإمكانه الاستفادة منه، وتطيب له الدراسة على يديه، كما أن لديه الخيار في عدد المواد التي يدرسها، وكلما أتقن الطالب علماً على يد شيخ منحه إجازة تشهد بإتقانه، وقد تكون الإجازة مقصورة على كتاب من أمهات الكتب، كما قد تكون مصحوبة بسند الشيخ، وهو بهذه الصورة يطبق نظاماً تعليمياً من أرقى الأنظمة التعليمية المعاصرة، ويزيد عليها في عدة أمور: منها أن المدرس لا يكتفي فيه بحيازته على وثيقة دراسة فقط، بل لابد أن يجتاز مقابلة علمية يجريها له كبار علماء المسجد النبوي، ويزيد عليها أيضاً أن الهيمنة الإدارية تكاد تكون مفقودة على الطالب والمدرس، وأنه لم يكن يُدفع للمدرسين ـ في الغالب ـ أي راتب أو مكافأة، بل كان الاحتساب وحب العلم وأهله الدافع الأول لهؤلاء المعلمين وطلابهم[2].

هذا بالنسبة إلى الكبار من طلبة العلم، أما الصغار فقد أسهم المسجد النبوي أيضاً باحتضان عدد من الكتاتيب ـ المذكورة سابقاً ـ التي تولت تعليم الصغار القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة ليكونوا بعد ذلك

(١) نصيف، عبدالله آدم. العلا والحجر: سلسلة هذه بلادنا، مرجع سباق،٦٥، ٦٦.

(٢) الخياري، السيد ياسين. صور من الحياة الاجتماعية. مرجع سابق، ١٨٠، ١٨١.

(*) لمزيد من التفاصيل، انظر: الباب السادس، (الخدمات والمرافق التنموية)؛ الفصل السادس.

قادرين على الالتحاق بحلقات العلم المشار إليها، أو الذهاب إلى المدارس النظامية خارج المسجد النبوي لمواصلة تعليمهم.

ثانياً ـ الأدوات المستخدمة في التعليم:

نظراً إلى تنوع أنماط التعليم في المدينة المنورة في الحقبة الزمنية نفسها فقد تنوعت الأدوات التي يستخدمها الطلبة في كل مجال أو نمط من أنماط التعليم المتاحة، وإن كانت جميعها تميل إلى البساطة وقلة التكاليف.

فأما في الكتَّاب فقد كان لكل تلميذ لوح خاص مصنوع من الخشب، يكتب الشيخ عليه واجب التلميذ من القرآن الكريم، وحروف الهجاء، والحساب.. وغير ذلك مما يقرؤه التلميذ على الشيخ في اليوم التالي، وعندما يتقن الواجب يأذن الشيخ له بمسحه استعداداً للواجب الجديد، وتختلف أحجام الألواح ما بين كبير ومتوسط وصغير الحجم، وذلك بحسب قدرة التلميذ على حمله، ولكل لوح رقبة في وسطه الأعلى يتدلى منها حبل يوضع في عنق التلميذ بعد أن يُربط بإحكام، وذلك من باب الحرص عليه من الضياع أو النسيان.



الألواح المستخدمة عند الكتاتيب



المحبرة

وفي وسط صالة الكتَّاب حوض من الحجر المنحوت، وقد مُلئ بالماء، ويستعمله التلاميذ في غسل ألواحهم وتنظيفها مما فيها من كتابة مستعينين على ذلك بـ(المدر أو المضر) وهو طينة من التربة الصافية صُنعت على شكل قوالب صغيرة، ومهمتها تبييض الألواح وتنظيفها، وعادة ما تكون القوالب بيضاوية الشكل أو مربعة أو مستطيلة.

ويتصدر شيخ الكتَّاب حجرة الدراسة، إذ يجلس على كرسي عريض مصنوع من الخشب تكسوه مرتبة من القطن يزينها غطاء من القماش المطرز، ويضع الشيخ أمامه منضدة خشبية من فوقها غطاء من القماش، وعليها مجموعة من الأدوات الكتابية وألواح التلاميذ، وأقلام البوص، وأقلام الريشة، وأقلام الخط مختلفة الأشكال والأحجام، ومجموعة من المحابر ذات اللون الأسود.

كما يضع الشيخ على يمينه منضدة أخرى، ومن فوقها علب مختلفة الأحجام مملوءة بالحلوى واللوز والتمر، إذ يشتري التلاميذ ما يناسبهم من ذلك، وعلى يسار الشيخ مجموعة من عصي الخيزران والفلقة (أو الفلكة كما كانت تسمى آنذاك) وتوضع مُسندة على الجدار [1].

(١) الأنصاري، ناجي. التعتيمة، مرجع سابق، ٣٥، ٣٦.

وأما المدارس النظامية فقد كانت لديهم الكتب المدرسية والدفاتر إضافة إلى الأقلام المتنوعة، وقد كان صغار التلاميذ يحملون علباً من التنك لحفظ كتبهم وأدواتهم فيها، أما الكبار من الطلاب فقد كانوا يحملون المحافظ وهي ـ في الغالب ـ صناعة محلية من الجلد ذي اللون الأحمر[1].

ثالثاً ـ المعلمون والمشايخ:

كان المعلمون في المدينة المنورة يمثلون فئات وطوائف مختلفة حسب المكان الذي يتولى كل منهم التعليم فيه، ويبدو ذلك في عدة أمور من أهمها الأجور التي يتقاضاها كلٌّ منهم، فقد غلب على معلمي المسجد النبوي الشريف وقرائه الاحتساب وعدم طلب أي أجرة من التلاميذ مقابل ما يقدمونه لهم من العلم والمعرفة، وكذلك الأمر في مساجد أخرى داخل المدينة المنورة وخارجها، إلا



الفلكة

ما قد يُعطى لهم من ريع الأوقاف في بعض الفترات الماضية، إلى أن خصصت الحكومة السعودية في أول عهدها لمعلمي الكتَّاب في المسجد النبوي مبلغ جنيهين من الذهب شهرياً، أما العلماء الكبار فلم يكونوا يتقاضون أي مبالغ مالية أو إعانات مقابل نشر العلم.

إلا أن مشايخ الكتَّاب خارج المسجد النبوي كانوا يتقاضون من تلاميذهم ما يسمى (الخمسية) وهي خمسة قروش تسلم للشيخ في نهاية الأسبوع الذي ينتهي يوم الخميس، مع بعض الهدايا في كل مناسبة ومنها مناسبة حفظ القرآن الكريم أو أجزاء منه. أما معلمو المدارس النظامية، فقد كانوا ـ ولا يزالون ـ يتقاضون رواتبهم من الحكومة التي تعينهم وتشرف عليهم، وكانت الرواتب تصرف في نهاية كل شهر.

أما بالنسبة إلى أساليب التعليم فقد كانت تميل إلى التلقين وتعتمد الحفظ في مستويات التعليم كافة وبخاصة المستويات الأولى، وكان الشيخ ـ أو العريف ـ يقرأ بصوت مرتفع ويردد وراءه بقية التلاميذ، وأما بالنسبة إلى معرفة حروف الهجاء فقد كانت هناك أهازيج معينة يحفظها التلاميذ تعينهم على التعرف على شكل كل حرف مثل:

ألف لا شيء له.... باء نقطة من تحت
تاء نقطتين من فوق... ثاء ثلاثة من فوق

وكان أسلوب القسوة والعقوبة بالضرب أمراً وارداً ومتوقعاً من المعلم ويقره الوالد والأسرة، إذ يقول أحدهم للشيخ: (لك اللحم ولنا العظم) على مسمع من الولد نفسه لكي يرتدع عن مخالفة شيخه في أي أمر، وقد كان الضرب بالعصا من

(١) علي رضا، فؤاد. الأمثال الشعبية، مرجع سابق، ١٠٦.

الخيزران والفلكة - وهي تعليق رجلي الولد في حبل بين خشبتين فيما يكون ملقى على ظهره ورجلاه إلى أعلى ليضرب عليهما - من الأساليب الواردة في التأديب، وإن كان هذا الأسلوب لا يُلجأ إليه إلا عند تمرد التلميذ وتكرار المخالفة، وإلا فالعصا والضرب ضربة واحدة أو اثنتين هو الأمر السائد، وفي المقابل كان التشجيع للمتفوقين يتم بإقامة الحفلات وتوزيع الحلويات والهدايا في كل مرحلة يقطع فيها التلميذ شوطاً من التعليم كما سيأتي في الفقرة الآتية.

رابعاً - العادات المرتبطة بختم القرآن الكريم أو جزء منه:

وكان من وسائل تشجيع التلاميذ على التحصيل ما يقام لهم من حفلات وما يوزع عليهم من هدايا كلما قطع أحدهم شوطاً في التحصيل العلمي، ويُخص كتاب الله بمزيد من العناية، إذ اشتهرت ثلاثة أنواع من الاحتفالات للتلميذ الذي يتعلم القرآن الكريم وهي على النحو الآتي:

أ - الصرفة:

وتعطى للتلميذ الذي حفظ من سورة الناس إلى سورة الضحى، إذ يحضر ولي أمره إلى الكتَّاب ومعه (قُفة) مملوءة بالورد والفل والنعناع، وبفاكهة الصيف بالمدينة من سربان أو زهو أو رطب أو رمان أو تين أو غير ذلك، وإن كان الوقت شتاء فإنهم يملؤون (القفة) بالتمر والحلوى واللوز وغيرها، ويقوم الشيخ بتوزيع هذه الأشياء على التلاميذ، ويصرفهم ذلك اليوم احتفالاً بهذه المناسبة.

ب - الصرافة:

يتلقاها التلميذ الذي حفظ جزء عم أو جزء تبارك أو ربع يس، إذ يقوم بعض الموسرين من أولياء التلاميذ بدعوة الشيخ وجميع التلاميذ إلى بيوتهم، ويقدمون لهم طعام الغداء في بيت المحتفى به، كما يوزعون على التلاميذ الحلوى وشراب الليمون والبرتقال، وتقدم للشيخ هدية بهذه المناسبة السعيدة، فيقوم الشيخ بدوره بـ(صرافة) أي صرف التلاميذ إلى بيوتهم.

ج - الختم:

ويتم ذلك للتلميذ الذي حفظ كتاب الله الكريم كله، إذ يقيم ولي أمره احتفالاً كبيراً يدعى إليه الشيخ وجميع التلاميذ، والأهل والأقرباء والأصدقاء والجيران.

يأتي التلميذ المحتفى به إلى الكتَّاب وهو في أبهى زينة وأجمل حُلَّة، وقد ارتدى ثوباً أبيض وعمامة بيضاء وعقالاً مقصباً وعباءة مزركشة، وجميع التلاميذ يرتدون أحسن أثوابهم في ذلك اليوم البهيج، ويقوم الشيخ بصف التلاميذ صفوفاً منتظمة، ثم يتقدمهم وبجانبه التلميذ الحافظ وهو يحمل بيديه مصحفاً مغلفاً بقماش من الحرير المكلل بالورد والفل واللمام والنعناع، ويسير الموكب من الكتَّاب إلى بيت الحافظ وهم ينشدون الأناشيد الجميلة بأصواتهم الرقيقة في إبداع ومهارة وإتقان.

وكثيراً ما يشد هذا المنظر الرائع انتباه المارة وأصحاب العربات، فيقفون إجلالاً واحتراماً لهذا الموكب، ولسان حالهم يلهج بالدعاء لهذا التلميذ الحافظ بأن يحفظه الله ويرعاه وينفع به، وعند وصولهم إلى بيته يجري استقبالهم بكل حفاوة وترحاب، ويقدم لهم

شراب الليمون والبرتقال أو التوت والرمان، أو السحلب بالزنجبيل واللوز، ويلقي الشيخ كلمة بهذه المناسبة، كما يقوم ولي أمر الحافظ بإلقاء كلمة أيضاً، ويقوم الحافظ بتلاوة آي من الذكر الحكيم، ثم يتناول الجميع طعام الغداء، ومن ثم يتم توزيع الحلوى والهدايا للتلاميذ، كما تقدم للشيخ هدية تليق بهذه المناسبة السعيدة، وينصرف الجميع بعد ذلك[1].

خامساً ـ مظاهر الثبات التغير:

في حين بقيت حلقات العلم في المسجد النبوي الشريف على ما هي عليه، إلا أن نمط التعليم في الكتّاب قد توارى ولم يعد له اليوم أي أثر، وظل تعليم القرآن الكريم يحظى بعناية أبناء المدينة المنورة سواء على المستوى الرسمي أو المستوى الأهلي، فمع تغير أنظمة المدارس الحكومية العثمانية والهاشمية بعد قيام المملكة العربية السعودية زادت ثقة المدنيين بالمدارس النظامية وكثر الإقبال عليها، وتزايدت أعداد المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وافتتحت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وجامعة طيبة، وكذلك أنشئت مدارس خاصة سميت (مدارس تحفيظ القرآن الكريم في المراحل الثلاث)، كل هذا علاوة على حلقات تحفيظ القرآن الكريم للصغار والكبار في المساجد، ومنها المسجد النبوي الشريف، فضلاً عن أنشطة التحفيظ الملحقة ببعض الجمعيات الخيرية أو الجمعيات القائمة على التحفيظ.

ولكن يبدو أن حفلات الصرفة والصرافة والختم قد أتت عليها رياح التغيير الاجتماعي الذي طال كثيراً من أنماط الحياة الاجتماعية والثقافية في المدينة المنورة وفي غيرها، فلم يعد الجيل الجديد يعرف تلك الحفلات ولو حتى بالاسم، إلا أن أولياء الأمور يشجعون أبناءهم أحياناً بإعطائهم بعض المكافآت عند اتمام حفظ القرآن الكريم أو أجزاء منه، وكذلك يفعلون عند نجاحهم من أحد الصفوف المدرسية إلى الصف الذي يليه.

(١) الأنصاري، ناجي. التعتيمة، مرجع سابق، ٣٨، ٣٩.

المصادر والمراجع

الخصائص الجغرافية

الكتب:

- ابن خميس، عبدالله بن محمد. *معجم أودية الجزيرة*، (الرياض: ١٩٩٤م).
- استشاري تضامن مكتب فريد مصطفى، ومكتب عبدالله بخاري. *مشروع دراسة المخطط الإقليمي لمنطقة المدينة المنورة: المخطط الهيكلي للمحافظات*، (المدينة المنورة: أمانة المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ).
- آغا، شاهر جمال. *جغرافية الوطن العربي*، (دمشق: مطبعة ابن حيان، ١٩٨٧م).
- إمبابي، نبيل سيد، ومحمود محمد عاشور. *الكثبان الرملية في شبه جزيرة قطر*، (الدوحة: جامعة قطر، ١٩٨٣م).
- البليهشي، محمد صالح. *بدر: سلسلة هذه بلادنا*، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٩٩٣م).
- الجمعية الجغرافية السعودية. *الموسوعة الجغرافية للأماكن في المملكة العربية السعودية*، قرص مرن، (١٤١٩هـ).
- الحارثي، ساعد العرابي. *تطور نظام المناطق في المملكة العربية السعودية: الكتاب التوثيقي لندوة تطور الحكم والإدارة خلال عشرين عاماً من تولي خادم الحرمين الشريفين مقاليد الحكم*، (الرياض: معهد الإدارة العامة، ٢٠٠١م).
- حافظ، علي. *فصول من تاريخ المدينة المنورة*، (جدة: دار المدينة للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ).
- الحموي، ياقوت بن عبدالله. *معجم البلدان*، (بيروت: دار صادر، ١٩٧٩م).
- الخريف، رشود بن محمد. *السكان: المفاهيم والأساليب والتطبيقات*، (الرياض: ١٤٢٣هـ).
- الخطراوي، محمد العيد. *المدينة المنورة في صدر الإسلام: الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، دراسات حول المدينة المنورة*، (المدينة المنورة: مكتبة دار التراث، ١٤٠٤هـ).
- الخطيب، عبدالباسط. *سبع سنابل خضر*، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، ١٩٨٠م).
- الخطيب، عبدالكريم محمود. *ينبع: سلسلة هذه بلادنا*، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٩٩٣م).
- خوجلي، مصطفى محمد، ومرعي البيشي. «المناخ»، في: *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: محمد أحمد الرويثي، ومصطفى خوجلي، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
- درادكة، خليفة. *هيدرولوجية المياه الجوفية*، (عمان: دار البشير، ١٩٨٨م).
- الرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة. *بيانات مناخية للفترة من ١٩٨٥-٢٠٠٢م*، (الرياض).
- رجب، عمر الفاروق السيد. *المدينة المنورة: اقتصاديات المكان - السكان - المورفولوجية*، (جدة: دار الشروق، ١٩٧٩م).
- الرويثي، محمد أحمد، ومصطفى محمد خوجلي. «الموارد المائية في المدينة المنورة»، في: *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: محمد أحمد الرويثي، ومصطفى محمد خوجلي، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
- سقا، عبدالحفيظ محمد سعيد. *الجغرافية الطبيعية للمملكة العربية السعودية*، (جدة: ١٤١٩هـ).
- السلاوي، محمود. *المياه الجوفية بين النظرية والتطبيق*، (مصراتة: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٦م).
- السمهودي، نور الدين علي بن أحمد. *وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى*، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٤هـ).
- سوسة، أحمد. *العرب واليهود في التاريخ: حقائق تاريخية ظهرت في المكتشفات الأثرية*. ط٤، (دمشق: العربي للإعلان والنشر والطباعة والترجمة، ١٣٩٥هـ).
- الشريف، عبدالرحمن صادق. «البيئة الحيوية في منطقة المدينة»، في: *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: محمد أحمد الرويثي، ومصطفى محمد خوجلي، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
- الشريف، عبدالرحمن صادق. «الجيمورفولوجيا في منطقة المدينة المنورة»، في كتاب: *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: محمد أحمد الرويثي، ومصطفى محمد خوجلي. ط١، (المدينة المنورة: نادي المدينة الأدبي، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
- الشريف، عبدالرحمن صادق. «تضاريس المدينة المنورة»، في: *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: محمد أحمد الرويثي، ومصطفى محمد خوجلي، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
- الشلش، علي حسين. *جغرافية التربة*، (البصرة: جامعة البصرة، ١٩٨٥م).
- الشنطي، أحمد محمود. *جيولوجية الدرع العربي*، (جدة: جامعة الملك عبدالعزيز، ١٩٩٣م).

- الصويان، سعد العبدالله. *الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية*، (الرياض: دار الدائرة السعودية، ١٤٢٠ هـ)
- الطاهر، عبدالله أحمد سعد. *الجغرافيا الحيوية*، (الرياض: ١٤٢٤هـ).
- عبدالعزيز، محمود حسان. *أساسيات الهيدرولوجيا*، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٩٨٢م).
- عثمان، مصطفى نوري. *الماء ومسيرة التنمية في المملكة العربية السعودية*، (جدة: تهامة، ١٩٨٣م).
- الفوزان، فوزان بن عبدالرحمن. «الزراعة في المدينة المنورة»، في: *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: محمد أحمد الرويثي، ومصطفى محمد خوجلي، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
- الفيروز أبادي، مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب. *المغانم المطابة في معالم طابة*، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٦٩م).
- اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا. *المعجم الديموغرافي متعدد اللغات*، (بغداد: اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، د.ت).
- مدني، أمين. *التاريخ العربي وبدايته: الكتاب العربي السعودي*. ط٢، (جدة: تهامة، ١٤٠١هـ).
- *المدينة المنورة: البيئة والإنسان*، تحرير: مصطفى محمد خوجلي، ومرعي البيشي. ط١، (المدينة المنورة: النادي الأدبي الثقافي، ١٤١٨هـ/١٤١٩هـ).
- المطري، محمد بن أحمد. *التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة*، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٣٧٢هـ).
- المطيري، خالد، وفتحي شبلي. *عبير الحقب من مهد الذهب*، (مكة: مطابع البركاتي، ١٤١٩هـ).
- المقدسي، شمس الدين. *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، (بيروت: مكتبة خياط، ١٣٢٥هـ).
- مكي، محمد شوقي بن إبراهيم. *أثر تطور أنظمة تقسيم الأرض على النمو العمراني في المدينة المنورة*، بحث مقدم للملتقى الثالث للجغرافيين العرب ١٤٢٤/٨/٢٦.٢٣هـ، (الرياض: الجمعية الجغرافية السعودية، ١٤٢٤هـ).
- مكي، محمد شوقي بن إبراهيم. *سكان المدينة المنورة*، (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٥هـ).
- نصيف، عبدالله آدم. *العلا والحجر: سلسلة هذه بلادنا*، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٩٩٨م).
- نصيف، عبدالله بن آدم صالح. *العلا: دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي: سلسلة هذه بلادنا*، الرئاسة العامة لرعاية الشباب، (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، ١٤١٦هـ).
- والطون، كنيث. *الأراضي الجافة*، ترجمة: علي عبدالوهاب شاهين، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٨م).
- وزارة الاقتصاد والتخطيط، مصلحة الإحصاءات العامة. *النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والمساكن ١٤٢٥هـ*، (الرياض: وزارة التخطيط، ٢٠٠٤م).
- وزارة التخطيط، مصلحة الإحصاءات العامة. *البيانات التفصيلية للتعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٤١٣هـ*، (الرياض: وزارة التخطيط، ١٤١٨هـ).
- وزارة التعليم العالي. *أطلس المملكة العربية السعودية*، (الرياض: وزارة التعليم العالي، ١٤١٩هـ).
- وزارة الزراعة والمياه. *أطلس المياه في المملكة العربية السعودية*، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، ١٩٨٤م).
- وزارة الزراعة والمياه. *الخريطة العامة للتربة*، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، ١٤٠٦هـ).
- وزارة الزراعة والمياه. *تحدٍّ وإنجاز عبر مئة عام للزراعة والمياه في المملكة العربية السعودية*، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، ١٤١٩هـ).
- وزارة الزراعة والمياه، إدارة الدراسات الاقتصادية والإحصاء. *السلاسل الزمنية للإحصاءات الزراعية في المملكة العربية السعودية*، (الرياض: وزارة الزراعة والمياه، ١٤٢٣هـ).
- وزارة الزراعة والمياه، شعبة الإحصاء والاقتصاد الزراعي. *نتائج الحصر الزراعي الشامل*، (الرياض: وزارة الزراعة، ١٤١٨هـ).
- وزارة الزراعة والمياه، شعبة الإحصاء والاقتصاد الزراعي. *نتائج الحصر الزراعي: المنطقة الغربية والمدينة المنورة*، (الرياض: وزارة الزراعة، ١٣٨٢هـ).
- وزارة المياه والكهرباء. *معلومات الأمطار الشهرية في المملكة العربية السعودية للفترة من ١٩٨٥ ـ ٢٠٠٠م*، (الرياض: وزارة المياه والكهرباء، د. ت).
- الوليعي، عبدالله ناصر. *جيولوجية وجيومورفولوجية المملكة العربية السعودية*. ط١، (الرياض: ١٩٩٦م).

- يوسف، أحمد فوزي. *البيدولوجي نشأة ومورفولوجي وتقسيم الأراضي*، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠٨هـ).

الرسائل العلمية:

- الحاج، عائشة أحمد. «السمات العامة لمراكز الاستيطان الريفي في إمارة منطقة المدينة المنورة»، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية للبنات، (جدة: ١٩٩٣م).

الدوريات والصحف والتقارير:

- البارودي، محمد سعيد. «الأنماط الجيمورفولوجية للسباخ الساحلية»، *الجمعية الجغرافية الكويتية*، (الكويت: ٢٠٠٣م).
- البارودي، محمد سعيد. «تغيرات مستوى سطح البحر خلال البلايستوسين وآثارها الجيمورفولوجية على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر»، *سلسلة الجمعية الجغرافية الكويتية*، (الكويت: ٢٠٠٠م).
- البارودي، محمد سعيد. «مورفولوجية الشعاب المرجانية البلايستوسينية والحديثة على طول الساحل الشرقي للبحر الأحمر»، *سلسلة الجمعية الجغرافية الكويتية*، (الكويت: ١٩٩٧م).
- الجراش، محمد عبدالله. «الأشعة الشمسية القصيرة على سطح الأرض في المملكة العربية السعودية»، *مجلة الجمعية الجغرافية السعودية*، جامعة الملك سعود، (الرياض: ١٩٩٥م).
- الضويلع، خالد بن حمد، وعبدالله بن محمدالرحيلي. «إعادة استخدام مياه الصرف الصحي المعالجة»، *ندوة المياه تحدٌّ إستراتيجي يواجه الإنسانية جمعاء*، (الرياض: مركز الملك عبدالعزيز التاريخي، ١٤٢٣هـ).
- العبدالعالي، عبدالرحمن إبراهيم. «معالجة مياه الصرف الصحي»، *العلوم والتقنية*، مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية، (الرياض: ١٩٩٠م).
- مرزا، معراج نواب. «السمات البنيوية والمورفولوجية للحرات في غرب المملكة العربية السعودية»، بحث غير منشور.
- مرزا، معراج نواب. «مورفولوجية الرمال في غرب المملكة العربية السعودية»، بحث غير منشور.

المواقع الإلكترونية:

- إمارة منطقة المدينة المنورة. موقع إمارة المدينة المنورة على الإنترنت: www.imaratalmadina.gov.sa
- موقع العلا على الإنترنت: www.al-ola.com

المراجع الأجنبية:

- Abdulrazzak, M.J., et al., «Estimation of natural groundwater recharge under Saudi Arabian arid climatic conditions».. In: Simmers, I. (ed.), Estimation of natural groundwater recharge, 1988
- Agnew, Cilive and Anderson, Ewan. Water resources in the arid realm, London: Routledge. 1992.
- Akili, W. and Torrance, J, K., «The Development and Geotechnical Problems of Sabkha, with preliminary experiments on the static penetration resistance of cemented sands,» Q. J. Eng. Geo.
- Al-Ahmadi, M.E., and Z. Sen. «The Depletion of the Groundwater Resources in Wadi As-Safra, Saudi Arabia», Journal of King Abdulaziz University: Earth Sci., 2: 1989.
- Al-Taher, Abdulla Ahmed. “Drought and Human Adjustment in Saudi Arabia”. Geo Journal, 33. 4: 1994.
- Anton, D., «Aspect of Geomorphological Evolution Palesols and Dunes in Saudi Arabia», in: A.R.Jado and J.G. Zotl, Quaternary Periods in Saudi Arabia, New York: Springer Verlag. 1984.
- Bazuhair, A., et. al., Groundwater Recharge Estimation in some Wadi Aquifers of the Western Saudi Arabia, King Abdullaziz City for Science and Technology, Project AT-17-63, Final Report. 2002.
- Bird, E. C., Coasts, MIT, U. S. A. 1970.
- Brown, G. F., et al., Geologic Map of the Northeastern Hijaz Quadrangle, Kingdom of Saudi Arabia USGS, Misc. Geol. Investing Map 1 – 205A, 1: 500.000, Washington. 1963.
- Brown, G. F., Schmidt, D. L. and Huffman, C, Jr «Geology of the Arabian Peninsula, Shield area of Western Saudi Arabia», U. S. G. S. Professional paper, 560 – A. . 1989.

- Brown, G.F., et. al., Geology of the Arabian Peninsula: Shield Area of Western Saudi Arabia, Geological Survey. Washington: U.S. 1989.
- Camp, V. E. and Roobol, M. J., “Geologic map of the Cenozoic Lava Filed of Harrat Rahat, Kingdom of Saudi Arabia.” Ministry of Petroleum and Mineral Resources, Jeddah. 1991.
- Clark, M. D., “Geologic map of the Al Hamrah’ Quadrangle,” Sheet 23 C, Jeddah, Saudi Arabia. 1981.
- Davis, S.N., and J.M. DeWeiest. Hydrogeology. New York: John Wiley & Sons. 1966.
- Foth , H.D. Fundamental of Soil. 9 th ed.New York: Macmillan Publishing Company. 1984.
- Girdler, R. W. and Styles, P., «Two stages Red Sea floor spreading.» Nature, 247. 1974.
- Guilcher, A. “Les rivages Corollines del,est de sud la presqu,ile de Sinai.” Ann geog, no. 488. 1979.
- Hotazl, H., et al., “Quaternary from Umm Lajj to Yanbo al Bahr in Jado”, A. R. Zotl J. G. (ed) Quaternary period in Saudi Arabia, Vol. 2. New York: Springer Verlag. 1984.
- Hotzl, H., and Zotl, J.G., “Climatic Changes during the Quaternary Period” in: S.S. Al-Sayari and J.G. Zotl, eds., Quaternary Period in Saudi Arabia. New York: Springer Verlag. 1978.
- Johnson, P. R., Preliminary lithofacies map of the Saudi Arabian Shield, an interpretation of the lithofacies and lithostratigraphy of the late Proterozoic layered rocks of Saudi Arabia. Scale 1: 1, 000.000 in two sheets, Kingdom of Saudi Arabia, D. M. M. R., Rec., RF-TR-03-2. 1983.
- Mergner, H, Uber den Hydroidenenbe uchs einiger korall – enriffe des rotten, Meeres Zeit. Morph., Ockol. Tiere (melanges Ankel). 60, 1967.
- Ministry of Agriculture and water. Analysis of some Saudi Arabia soil and associated crops. Saudi Arabia ministry of agriculture and water, 1977.
- Nesteroff, W., “Les recift Coralliens Du bance Farsan Nord”, Ann. Inst, Occeanogr. 30. 1955.
- Parsons Basil Consultant, Agricultural and Water Resources: the Great Nafud Sedimentary Basin, Kingdom of Saudi Arabia. Riyadh: Ministry of Agriculture and Water, 1968.
- Pellaton, C., Geologic Map of Yanbu> Al Bahr Quadrangle, GM- 48 Sheet 24 C Kingdom of Saudi Arabia (With Explanatory notes) Saudi Arabia Directorate General of Mineral Resources, Jeddah. 1979.
- Powers, R. W., Ramirez, L. F., Redmond, C. D. and Elberg, E. L. Jr. Geology of the Arabian peninsula – Sedimentary geology of Saudi Arabia, USGS professional paper 560- D. 1966.
- Price, M., Introducing Groundwater. London: George Allen & Unwin. 1985.
- Radain, A. A, Ali, s. and Abdel–Monem. “Geocnonology and Geochemical of the Wadi Turabah Felsic Plutonic Ring Complex.” Vol. 1: Journal of King Abdul Aziz Univ, 1988.
- Ramsay. C. R., Geology of the Rabigh Quadrangle, Sheet 22D, Kingdom of Saudi Arabia: Saudi Arabian Deputy Ministry for Mineral Resources. Jeddah. 1986.
- Roobol, M. J., and Camp, V. E., Geologic Map of the cenozoic lava Fields of Harrates Khaybar, Ithnayn, and kura Kingdom of Saudi Arabia, Ministry of petroleum and Mineral Resources, Jeddah, 1991.
- Wood, W. W., and Ward E. Sanford. “Chemical and Isotopic Methods for Quantifying Ground-Water Recharge in a Regional, Semiarid Environment”, Ground Water, Vol. 33: 1995.

التطور التاريخي

الكتب:

- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم الشيباني. *الكامل في التاريخ*، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م).
- ابن الأثير، علي بن محمد. *الكامل في التاريخ*، (بيروت: دار صادر، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م).
- ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي. *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*. ط١، (حيدر آباد، الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧هـ).
- ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي. *زاد المسير في علم التفسير*، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ).
- ابن الحسين، عبدالله. *مذكراتي*، (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م).
- ابن النجار، محمد بن محمود. *الدرر الثمينة في تاريخ المدينة*، تحقيق: محمود زينهم عزب. ط١، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٦هـ).
- ابن إياس، محمد بن أحمد. *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، تحقيق: محمد مصطفى. ط٢، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١م).
- ابن بشر، عثمان بن عبدالله. *عنوان المجد في تاريخ نجد*، تحقيق: عبدالرحمن آل الشيخ، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٢هـ).
- ابن حبيب، محمد. *كتاب المحبر*، رواية: أبو سعد الحسن بن الحسين السكري، تحرير: إيلزه ليختن شتاين، (بيروت: د. ت).
- ابن حنبل، أحمد. *المسند*، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ).
- ابن حنبل، أحمد. *فضائل الصحابة*، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس. ط١، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (تاريخ ابن خلدون)*، (بيروت: دار البيان، ١٩٧٩م).
- ابن خلكان، أحمد بن محمد. *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د.ت).
- ابن خياط، خليفة. *تاريخ خليفة بن خياط*، تحقيق: أكرم ضياء العمري. ط٢، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).
- ابن رسته، علي بن أحمد بن عمر. *الأعلاق النفيسة*، (ليدن: برايل، ١٩٨٢م).
- ابن سعد، محمد بن سعد. *الطبقات الكبرى*، (بيروت: دار صادر، د. ت).
- ابن سلم، أحمد سعيد. *المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري*، (القاهرة: دار المنار، ١٤١٤هـ).
- ابن صراي، حمد. *تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم*، (رأس الخيمة: مركز الخليج للكتب، ١٩٩٧م).
- ابن عبدالشكور، عبدالله بن محمد. *تاريخ مخطوط لأمراء مكة المكرمة الذين حكموها منذ منتصف القرن الثاني عشر إلى نهاية العقد الثاني من القرن الثالث عشر الهجري*، (لم يضع له مؤلفه عنواناً)، نسخة مصورة عن نسخة مكتبة الشيخ إبراهيم عقيل في تعز قام بتصويرها معهد المخطوطات بجامعة الدولة العربية تحت رقم (٣٠٤).
- ابن عيسى، إبراهيم بن صالح. *تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان من ٧٠٠ إلى ١٣٤٠هـ*، (الرياض: دار اليمامة، ١٣٨٦هـ).
- ابن غنام، حسين. *تاريخ نجد المسمى روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام*، تحرير: ناصر الدين الأسد، ومقابلة عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ، (الرياض: الصفحات الذهبية، ١٤٠٣هـ).
- ابن فهد، النجم عمر بن فهد. *إتحاف الورى بأخبار أم القرى*، تحقيق: فهيم محمد شلتوت. ط١، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث، ١٤٠٤هـ).
- ابن فهد، عبدالعزيز بن عمر. *غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام*، تحقيق: فهيم شلتوت. ط١، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم. *كتاب المعارف*، تحقيق: ثروت عكاشة. ط٦، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م).

- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. *البداية والنهاية*، تحقيق: أحمد أبو ملحم، وآخرون، (القاهرة: دار أم القرى، د. ت).
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. *البداية والنهاية*، تحقيق: عبدالله التركي. ط١، (القاهرة: مركز هجر للدراسات العربية، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
- ابن هذلول، سعود. *تاريخ ملوك آل سعود*. ط٢، (الرياض: ١٤٠٢هـ).
- ابن هشام، عبدالملك. *السيرة النبوية*، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، (القاهرة: د.ت).
- ابن هشام، عبدالملك. *سيرة النبي ﷺ*، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، (القاهرة: دار إحياء التراث العربي، د. ت).
- أبو الحسن، حسين بن علي. *قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا*، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
- أبو الحسن، حسين بن علي. *نقوش لحيانية من منطقة العلا: دراسة تحليلية مقارنة*، (الرياض: وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- أبو مساق، محمد المدني. *المسائل التي بناها الإمام مالك على عمل أهل المدينة توثيقاً ودراسة*. ط١، (دبي: دار البحوث والدراسات، ١٤٢١هـ).
- الأتابكي، يوسف بن تغري بردي. *المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي*، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي. ط١، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م).
- الأتابكي، يوسف بن تغري بردي. *النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة*، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، (د. ت).
- أسكوبي، خالد محمد. *دراسة تحليلية مقارنة لنقوش من منطقة (رم) جنوب غرب تيماء*، (الرياض: وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٠هـ).
- الأصفهاني، علي بن الحسين. *الأغاني*، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، (بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٩م).
- آل الشيخ، نورة. *الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام*، (جدة: دار تهامة، ١٤٠٣هـ).
- آل عبدالقادر، محمد بن عبدالله. *تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد*، (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمئوية المملكة، ١٤١٩هـ).
- أمحزون، محمد. *المدينة المنورة في رحلة العياشي: دراسة وتحقيق*. ط١، (الكويت: دار الأرقم، ١٤٠٨هـ).
- الأندلسي، علي بن أحمد بن حزم. *جمهرة أنساب العرب*، تحقيق: محمد عبدالسلام هارون. ط٤، (القاهرة: دار المعارف، د. ت).
- الأنصاري، عبدالرحمن. *تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب*. تحقيق: محمد العروسي المطوي، (تونس: المكتبة العتيقة، ١٩٧٠م).
- الأنصاري، عبدالرحمن. *قرية الفاو: صورة للحضارة العربية قبل الإسلام*، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٩٨٢م).
- الأنصاري، عبدالقدوس. *طريق الهجرة*، (جدة: مطابع الروضة، ١٣٩٨هـ).
- الأنصاري، ناجي محمد عبدالقادر. *عمارة وتوسعة المسجد النبوي عبر التاريخ*. ط١، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٦هـ).
- الأنصاري، ناجي محمد. *عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف عبر التاريخ*، (المدينة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٦هـ).
- البخاري، محمد بن إسماعيل. *الجامع الصحيح*، (تركيا: المكتبة الإسلامية، د. ت).
- بدر، عبدالباسط. *التاريخ الشامل للمدينة المنورة*، (المدينة المنورة: ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- البرادعي، أحمد بن محمد صالح. *المدينة المنورة عبر التاريخ*، (١٣٩١هـ).
- البسام، عبدالله بن عبدالرحمن. *علماء نجد خلال ثمانية قرون*، (الرياض: دار العاصمة، ١٤١٩هـ).
- البسام، عبدالله بن محمد. *تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق*، نسخة نقلها عن أصلها الخطي نور الدين شريبة في عام ١٣٧٥هـ.
- البستي، محمد بن حبان. *السيرة النبوية وأخبار الخلفاء من كتاب الثقافة*، (الكويت: مؤسسة الكتب، ١٤٠٧هـ).

- البكر، منذر عبدالكريم. *دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (البصرة: ١٩٩٣م).
- البلادي، عاتق بن غيث. *قلب الحجاز*. ط١، (مكة: دار مكة، ١٤٠٥هـ).
- البلادي، عاتق بن غيث. *معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية*. ط١، (مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر. *فتوح البلدان*، تحقيق: صلاح الدين المنجد، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د. ت).
- البلاذري، أحمد بن يحيى. *أنساب الأشراف*، تحقيق: محمد حميد الله، (القاهرة: ١٩٥٩م).
- بوركهارت، جون لويس. *رحلات في شبه جزيرة العرب*، ترجمة: عبدالعزيز الهلابي، وعبدالرحمن الشيخ، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ).
- بيضون، إبراهيم. *الحجاز والدولة الإسلامية*.ط١، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).
- البيهقي، أحمد بن حميد. *السنن الكبرى*، (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٣هـ).
- البيهقي، أحمد بن حميد. *دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة*، تحقيق: عبدالمعطي قلعجي، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٥هـ).
- جاد المولى، محمد، وعلي محمد البجادي، ومحمد إبراهيم. *أيام العرب في الجاهلية*، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٦١م).
- جارشلي، إسماعيل حقي. *أشراف مكة وأمراؤها في العهد العثماني*، ترجمة: خليل مراد. ط١، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٤هـ).
- الجاسر، حمد. *بلاد ينبع*، (الرياض: دار اليمامة، د. ت).
- الجاسر، حمد. *رسائل في تاريخ المدينة*. ط١، (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٢هـ).
- الجاسر، حمد. *في شمال غرب الجزيرة: نصوص، مشاهدات، انطباعات*، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).
- الجبرتي، عبدالرحمن. *عجائب الآثار في التراجم والأخبار*، (بيروت: دار النفائس، ودار الجيل، د. ت).
- الجزيري، عبدالقادر بن محمد الأنصاري. *الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة*، تحقيق: محمد حسن محمد. ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
- جلبي، أوليا. *الرحلة الحجازية*، ترجمة وتقديم: الصفصافي أحمد المرسي، (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م).
- الجميل، محمد بن فارس. *النبي ويهود المدينة*، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).
- حافظ، علي. *فصول في تاريخ المدينة*. ط ٢، (جدة: شركة المدينة للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- حافظ، علي. *فصول من تاريخ المدينة المنورة*، (جدة: شركة المدينة للطباعة والنشر، د. ت).
- حرب، جميل محمود. *الحجاز واليمن في العصر الأيوبي*. ط١، (جدة: تهامة للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- الحربي، فائز بن موسى. *ابن مضيان الظاهري وعلاقته بالحملات المصرية في عهد الدولة السعودية الأولى*، (الرياض: دار البدراني، ١٤١٤هـ).
- الحسيني، أحمد بن محمد صالح. *المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي*. ط١، (بيروت: دار الكتاب، ١٣٩١هـ/١٩٧٢م).
- الحسيني، جعفر بن حسين آل هاشم. *الأخبار الغريبة في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة*، مخطوطة توجد صورة منها في مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة برقم (٨٧٣١).
- الحصري، ساطع. *البلاد العربية والدولة العثمانية*، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٥م).
- الحصين، عبدالعزيز بن عبدالرحمن. *العناية بالمسجد النبوي الشريف وأثرها في خدمة الإسلام والمسلمين*، (الرياض: بحوث مؤتمر مئوية المملكة، ٧ ـ ١١ شوال ١٤١٩هـ).
- الحموي، ياقوت بن عبدالله. *معجم البلدان*، (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م).
- الحموي، ياقوت. *معجم البلدان*، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت).
- الخطيب، محمد عجاج. *السنة قبل التدوين*، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٠هـ).

- خليل، عماد الدين. *دراسة في السيرة*، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ).
- خماش، نجدة. *الإدارة في العصر الأموي*. ط١، (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).
- الخياري، أحمد ياسين. *تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً*، تعليق: عبيدالله محمد أمين كردي. ط١، (المدينة المنورة: النادي الأدبي بالمدينة، ١٤١٠هـ).
- الخياري، أحمد ياسين. *تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً*، (الرياض: مئوية المملكة، ١٤١٩هـ).
- دحلان، أحمد زيني. *خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام*. ط١، (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٥هـ).
- الدقن، السيد محمد. *سكة حديد الحجاز الحميدية: دراسة وثائقية*، (القاهرة: مطبعة الجبلاوي، ١٩٨٥م).
- الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. *نقوش الحجر النبطية*، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
- الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. *نقوش جبل أم جذايذ النبطية: دراسة تحليلية*، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٢هـ).
- الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. *آثار منطقة المدينة المنورة*، (الرياض: وزارة التربية والتعليم، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣هـ).
- رزق الله، مهدي. *السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية*، (الرياض: مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، ١٤١٢هـ).
- رضوان، نبيل عبدالحي. *الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ١٢٨٦ ـ ١٣٢٦هـ/١٨٦٩ ـ ١٩٠٨م*، (جدة: تهامة، ١٤٠٣هـ).
- رفعت باشا، إبراهيم. *مرآة الحرمين*، (بيروت: دار المعرفة، د. ت).
- الريحاني، أمين. *الأعمال العربية الكاملة: تاريخ نجد الحديث*، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م).
- الزركلي، خير الدين. *الأعلام*. ط٦، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م).
- الزركلي، خير الدين. *شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز*، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٥م).
- زيدان، محمد حسين. *ذكريات العهود الثلاثة*. ط١، (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤٠٨هـ).
- الزيلعي، أحمد بن عمر. *مكة وعلاقاتها الخارجية ٣٠١ ـ ٤٨٧هـ*. ط١، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).
- زيود، محمد أحمد. *أثر انتقال الخلافة على الحجاز: كتاب الجزيرة العربية في العصر الأموي*، (الرياض: جامعة الملك سعود، النشر العلمي والمطابع، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- السامرائي، خليل إبراهيم، وثامر حامد محمد. *المظاهر الحضارية للمدينة المنورة في عصر النبوة*. ط١، (الموصل: مكتبة بسام، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).
- السباعي، أحمد. *تاريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران*، (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- السخاوي، شمس الدين. *التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة*، (القاهرة: دار نشر الثقافة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
- السعيد، سعيد بن فايز. *العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر في ضوء النقوش العربية القديمة*، (الرياض: مكتبة الملك فهد، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- السعيد، سعيد بن فايز. *نقوش لحيانية غير منشورة من المتحف الوطني ـ المملكة العربية السعودية*، (الرياض: جامعة الملك سعود، إصدارات مركز البحوث بكلية اللغات والترجمة، ١٤٢٠هـ).
- السعيد، نوري. *مذكرات نوري السعيد عن الحركات العسكرية للجيش العربي*، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٧م).
- السليمان، علي بن حسين. *العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك*، (القاهرة: الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).
- السمهودي، علي بن عبدالله أحمد. *وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى*، (القاهرة: ١٣٢٦هـ).
- السمهودي، علي بن عبدالله بن أحمد. *خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى*، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

- السمهودي، نور الدين علي بن عبدالله بن أحمد. *وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى*، تحقيق: قاسم السامرائي، (مكة: دار الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٢هـ).
- السنجاري، علي بن تاج الدين. *منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم*، دراسة وتحقيق: ماجدة زكريا. ط١، (مكة: جامعة أم القرى، ١٤١٩هـ).
- السيف، عبدالله بن محمد. *الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي*. ط٣، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
- السيوطي، جلال الدين. *تاريخ الخلفاء*. ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- شاكر، محمود. *التاريخ الإسلامي: العهد الأموي*. ط١، (بيروت، دمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).
- شراب، محمد محمد حسن. *المدينة المنورة في العصر الأموي*. ط١، (المدينة المنورة: مكتبة دار التراث)، (دمشق: مؤسسة علوم القرآن، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).
- شراب، محمد محمد حسن. *المعالم الأثيرة في السنة والسيرة*، (دمشق: دار القلم، ١٤١١هـ).
- الشريف، أحمد إبراهيم. *الحجاز قبل ظهور الإسلام: دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث: الجزيرة العربية في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين*، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١٠هـ /١٩٨٩م).
- الشريف، أحمد إبراهيم. *دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني من الهجرة*. ط١، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٨م).
- الشريف، أحمد إبراهيم. *مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول*، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦٨م).
- شهيد، عرفان. *روما والعرب: مقدمة لدراسة بيزنطة والعرب*، ترجمة: محمد فهمي عبدالباقي محمود، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، د. ت).
- الصالحي، محمد بن يوسف. *سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد*، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٠٧هـ).
- الطبري، محمد بن جرير. *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط٤، (القاهرة: دار المعارف بمصر، د. ت).
- الطبري، محمد بن علي بن فضل. *تاريخ مكة: إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن*، تحقيق: محسن محمد سليم. ط١، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، ١٩٩٦م).
- عاشور، سعيد عبدالفتاح. *مصر والشام زمن الأيوبيين والمماليك*، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٢م).
- عباس، إحسان. *تاريخ دولة الأنباط: بحوث في تاريخ بلاد الشام*، (عمان: ١٩٧٨م).
- عباس، حامد. *قصة التوسعة الكبرى*، (جدة: مجموعة بن لادن السعودية، ١٤١٦هـ).
- عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. *الدولة السعودية الأولى ١١٥٨ ـ ١٢٣٣هـ/١٧٤٥ ـ ١٨١٨م*، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، ١٤٠٧هـ).
- عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن. *محمد علي وشبه الجزيرة العربية*، (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٦م).
- عبدالغني، عارف أحمد. *تاريخ أمراء المدينة المنورة ١هـ ـ ١٤١٧هـ*، (دمشق: دار كنان، ١٩٩٦م).
- عبدالغني، عارف أحمد. *تاريخ أمراء المدينة المنورة ١هـ ـ ١٤١٧هـ*، (دمشق: دار كنانة للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت).
- عبدالغني، محمد إلياس. *المساجد الأثرية في المدينة النبوية*، (المدينة المنورة: مطابع الرشيد، ١٤١٨هـ).
- العثيمين، عبدالله الصالح. *تاريخ المملكة العربية السعودية*، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٦هـ).
- العرينان، أحمد بن محمد. *إباحة المدينة وحريق الكعبة في عهد يزيد بن معاوية بين المصادر القديمة والحديثة*. ط١، (الكويت: مكتبة ابن تيمية، ١٤٠٨هـ).
- العسقلاني، أحمد بن حجر. *الإصابة في تمييز الصحابة*، (القاهرة: مطبعة الكليات الأزهرية، ١٣٢٨هـ).
- العسقلاني، أحمد بن حجر. *فتح الباري في شرح صحيح البخاري*، (بيروت: دار الفكر، د. ت).
- العصامي، عبدالملك بن حسين. *سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي*، (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٠هـ).
- العلي، إبراهيم. *صحيح السيرة النبوية*، (عمان: دار النفائس، ١٤١٦هـ).
- علي، جواد. *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م).

- العمري، أكرم ضياء. *السيرة النبوية الصحيحة*، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٢هـ).
- العمري، أكرم. *الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة*، (الرياض: دار إشبيليا، ١٤١٧هـ).
- العمري، أكرم. *المجتمع الديني في عهد النبوة*، (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٤٠٣هـ).
- عوض، عبدالعزيز. *الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ ـ ١٩١٤م*، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م).
- العوفي، محمد سالم بن شديد. *تطور كتابة المصحف الشريف وطباعته وعناية المملكة العربية السعودية بطبعه ونشره وترجمة معانيه*، (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢١هـ).
- العياشي، إبراهيم بن علي. *المدينة بين الماضي والحاضر*، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٣٩٢هـ).
- الغبان، محمد بن عبدالله. *فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه*، (الرياض: دار العبيكان، ١٤١٩هـ).
- غوانمة، هنادي يوسف. *المملكة الهاشمية الحجازية*، (عمان: دار الفكر، ١٩٨٩م).
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد. *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، تحقيق: فؤاد سيد، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م).
- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد. *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت).
- الفاسي، هتون أجواد. *الحياة الاجتماعية في شمال غرب الجزيرة العربية في الفترة ما بين القرن السادس قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي*، (الرياض: ١٤١٤هـ).
- القضاة، أمين. *الخلفاء الراشدون: أعمال وأحداث*.ط١، (الأردن: دار المنارة، ١٤١٠هـ).
- القلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي. *صبح الأعشى في صناعة الإنشا*، (القاهرة: المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- كحالة، عمر رضا. *معجم قبائل العرب القديمة والحديثة*. ط٣، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).
- كردي، عبيدالله محمد أمين. *الكعبة المعظمة والحرمان الشريفان عمارة وتاريخاً*، (جدة: مجموعة بن لادن السعودية، ١٤١٩هـ).
- اللميلم، عبدالعزيز. *العلاقات بين العلويين والعباسيين من سنة ٩٨ ـ ٢٣٢هـ*. ط٥، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٣م).
- مؤنس، حسين. *المساجد*، (الكويت: عالم المعرفة، ١٤٠١هـ).
- المانع، محمد. *توحيد المملكة العربية السعودية*، ترجمة: عبدالله العثيمين، (الدمام: مطابع المطوع، ١٤٠٢هـ).
- المحامي، محمد فريد بيك. *تاريخ الدولة العلية العثمانية*، تحقيق: إحسان حقي، (بيروت: دار النفائس، ١٤٠٣هـ).
- محفوظ، جمال الدين. *غزوات النبي ﷺ*، (القاهرة: دار الاعتصام، د. ت).
- المحيسن، زيدون. *هندسة المياه والري عند الأنباط العرب*، (البتراء: مشروع بيت الأنباط للتأليف والنشر، ٢٠٠٢م).
- المديرس، عبدالرحمن بن مديرس. *المدينة المنورة في العصر المملوكي*. ط١، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
- المرادي، محمد. *سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر*، (بيروت: دار البشائر، ودار ابن حزم، ١٤٠٨هـ).
- المراغي، الحسين بن عمر. *تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة*، تحقيق: محمد عبدالجواد الأصمعي. ط٢، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).
- المسعودي، علي بن الحسين. *مروج الذهب ومعادن الجواهر*، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. ط٤، (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م).
- المقدسي، شهاب الدين عبدالرحمن بن إبراهيم. *الروضتين في أخبار الدولتين*، (بيروت: دار الجيل، د. ت).
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. *اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء*، تحقيق: الشيال وزميله، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٧٣م).
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. *الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك*، تحقيق: جمال الدين الشيال. ط١، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. *الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك*، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥م).

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي. *السلوك لمعرفة دول الملوك*، تحقيق: محمد مصطفى زيادة. ط٢، (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م).
- مكي، محمد شوقي. *سكان المدينة المنورة*، (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٥هـ).
- مهران، محمد بيومي. *دراسات في تاريخ العرب القديم*. ط٢، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٠هـ).
- مورتيل، ريتشارد. *الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي*، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود، ١٤٠٥هـ).
- نصيف، عبدالله بن آدم. *العلا: دراسة في التاريخ الحضاري والاجتماعي*، (الرياض: ١٤١٦هـ /١٩٩٥م).
- النيسابوري، مسلم بن حجاج. *الجامع الصحيح*، (إستانبول: المكتبة الإسلامية، د. ت).
- هارون، عبدالسلام. *تهذيب سيرة ابن هشام*، (بيروت: المجمع العلمي العربي الإسلامي، د. ت).
- هريدي، محمد عبداللطيف. *شؤون الحرمين الشريفين في العهد العثماني في ضوء الوثائق التركية العثمانية*. ط١، (القاهرة: دار الزهراء، ١٩٨٩م).
- الهيثمي، نور الدين علي. *مجمع الزوائد ومنبع الفوائد*، (القاهرة: دار الريان، ١٤٠٧هـ).
- الواقدي، محمد بن عمر. *المغازي*، تحقيق: مارسدن جونس، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٤هـ).
- وزارة التعليم العالي. *دليل التعليم العالي: المنطقة الوسطى، الإصدار الأول ١٤٢٥ ـ ١٤٢٦هـ*، (الرياض: ١٤٢٥هـ).
- وكالة الأنباء السعودية. *بيانات جلسات مجلس الوزراء في المملكة العربية السعودية ١٤١١ ـ ١٤١٢هـ*، (الرياض: ١٤١٢هـ).
- وكالة الأنباء السعودية. *خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود: عشرون عاماً من الإنجاز*، (الرياض: وكالة الأنباء السعودية، د. ت).
- الوكيل، محمد السيد. *المسجد النبوي عبر التاريخ*، (جدة: دار المجتمع، ١٤٠٩هـ).
- وهبة، حافظ. *جزيرة العرب في القرن العشرين*. ط٣، (دون بيانات).
- ياسين، يوسف. *الرحلات الملكية: رحلات جلالة الملك عبدالعزيز إلى مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة والرياض منشورة في جريدة أم القرى ١٣٤٣هـ ـ ١٣٤٦هـ*، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز ١٤١٩هـ).
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب. *تاريخ اليعقوبي*، (بيروت: دار صادر، د. ت).

الرسائل العلمية:

- المهوس، مريم فريح. «موقف الحامية العثمانية في المدينة المنورة من ثورة الشريف حسين ١٣٣٤ ـ ١٣٣٧هـ/١٩١٦ ـ ١٩١٩م»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم التاريخ، (الرياض: ١٤٢٢هـ).
- الهذال، حصة بنت تركي محروت. «تدخل روما السياسي والعسكري في شبه الجزيرة العربية خلال الفترة من بداية القرن الأول قبل الميلاد حتى أواخر القرن الثالث الميلادي»، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب للبنات بالرياض، قسم التاريخ، (الرياض: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

الدوريات والصحف والتقارير:

- الأمين، يوسف مختار. «العصور الحجرية في المملكة العربية السعودية: دراسة تقويمية»، *أدوماتو*، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، (الجوف: ١٤٢٤هـ).
- الأنصاري، إسماعيل. «نشيد الفرح بمقدم النبي ﷺ»، *مجلة البحوث الإسلامية*، رئاسة الإفتاء والبحوث العلمية، (الرياض: ١٣٩٥هـ).
- البرزنجي، زين العابدين بن محمد. «كشف الحجب والستور عما وقع لأهل المدينة مع أمير مكة سرور»، *مجلة العرب*، (١٤٠٦هـ).
- البكري، محمد أنور. «مساجد الفتح بالمدينة أو المساجد السبعة»، *مجلة مركز أبحاث الحج بالمدينة المنورة*، (المدينة المنورة: ١٤٢٤هـ).
- الجاسر، حمد. «ليس الحجر مدائن صالح»، *العرب*، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، (الرياض: ١٩٧٨م).
- الحميد، عبداللطيف بن محمد. «من رجال الملك عبدالعزيز: إبراهيم بن عبدالرحمن النشمي ١٣١٣ ـ ١٣٩٨هـ حياته وأعماله»، *مجلة الدرعية*، (الرياض: محرم ١٤١٩هـ).

- السعيد، سعيد بن فايز. «دراسة تحليلية لنقوش لحيانية جديدة»، *مجلة جامعة الملك سعود، الآداب*، (الرياض: ١٤٢٠هـ).
- السعيد، سعيد بن فايز. «زوجات المعينيين الأجنبيات في ضوء نقوش جديدة»، *أدوماتو*، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، (الجوف: ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
- عليان، محمد عبدالفتاح. «تقويم النظام الذي وضعه عمر بن الخطاب لتوزيع العطاء»، *مجلة كلية العلوم الاجتماعية*، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، (الرياض: ١٣٨٩هـ).
- نصيف، عبدالله بن آدم. «نقوش لحيانية مؤرخة من العلا: المملكة العربية السعودية»، *مجلة جامعة الملك سعود، الآداب*، (الرياض: ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

المراجع الأجنبية:

- Albright, W. F. ،Dedan، in: Geschichte und Altes Testament، Albrecht Alt zum Siebzigsten Geburtstag، Tübingen. 1–12. 1953.
- Al-Said, S. «Die Verben rtkl und sa'rab und ihre Bedeutung in den minäischen Inschriften»، Arabia Felix، Festschrift W. W. Müller، Wiesbaden, 1994.
- AL-Theeb, S. Aramaic and Nabataean In scriptions from North-West Saudi Arabie، Riyadh. 1993.
- Beaulieu, P. The Reign of Nabonidus King of Babylon 556 – 539 B. C. ، Yale Near Eastern Researches، 10، London. 1989.
- Bowersock, G. W. «A Report on Arabia Provincia» in: JRS 61. 1971.
- Bron, F. Inventaire des inscriptions sudarabiques, Tome 3. Ma'ñn، Paris – Rome، 1998.
- Burckhardt, John Lewis. Notes on the Bedouins and the Wahabys. London: Henry Colburn and Richard Bentley. 1830.
- Caskel, W. ، Lihyan، und Lihyanisch (Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein – Westfalen، Geisteswissenschaften، Heft 4)، Köln 1954، 55.
- Corpus Inscriptions Semiticarum, Pars II, Inscriptions Aramaicas Continens I, 1889.
- Diodourus of Sicily، Diodourus Historia، The Library of History، Translated by C. H. Oldfather، Load Classical Library، New York، 1933.
- Gadd, C. J. «The Harran Inscriptions of Nabonidus», Anatolian Studies 8, H2 A/B, Col. I: 1958.
- Garbini, G. (Ed.). Iscrizioni sudarabiche، vol. I. Iscrizioni minee (Pubblicazioni del Seminario di Semitistica، Ricerche 10)، Napoli. 1974.
- Gluec, N. The Story of the Nabataean Deities and Dolphine، London. 1965.
- Göritz, E. , "Die Nabatäer، ihre Rolle in der Geschichte der antiken Völker»، in: Petra Königin der Weihrauchstrasse، (ed) M. Lindner، 11 – 24.
- Healey, J. The Nabataean Tomb Inscriptions of Mda'in Salih، Journal of Semitic Studies Supplement 1، Oxford. 1993.
- Jausse, A. – Savignac، R. ، Mission archéologique en Arabie، Vols. I – II، Publications de la Sociéte Française des Fouilles Archéologiques، Paris 1909 – 1914.
- Kammerer, A. Pétra et La Nabatène، Paris. 1929.
- Kitchen, K. Documentation for Ancient Arabia، Part I، Chronological framework and historical sources، Liverpool. 1994.
- Knauf, E. ، "Nabataean Origins"، in: Arabians Studies in Honour of Mahmoud Ghul.
- Martin, B. G. Muslim Brotherhoods in 19th Century Africa. Cambridge: Cambridge University press. 1976.
- Meshorer, Y. Nabataean Coins، Jerusalem. 1975.
- Milik, J., " Origines des Nabateens"، in: Studies in the History and Archaeology of Jordan، (ed): A. Hadidi.

- Mordmann، J. H. Beiträge zur minäischen Epigraphik، Weimar. 1897.
- Plini, G. Natural History, trans. H. Rackham, Vol. 10, Loeb Classical Library, London Cambridge. 1966.
- Répertoire d'Épigraphie Sémitique publi, par la Commission du Corpus In – scriptionum Semiticarum، Tome V. VI. VII. VIII. Paris 1929. 1935. 1950. 1968، 2902.
- Scagliarini, F. La chronologie dedanite et lihyanite: mise au point. In: H. Lozachmeur (ed), Presence arabe dans le Croissant fertile avant l'Hegire، Actes de la table ronde intenationale، Paris. 1996.
- Smith, S. Babylonian Historical Texts Relating to the Capture and Downfall of Babylon. . Hildesheim. 1975
- Troeller, Gary. The Birth of Saudi Arabia، Britain and the Rise of the House of Saud. London: Frank Cass. 1976.
- Voll, John Obert. "Hadith Scholars and Tariqahs: AnUlama Group in the 18th Century Haramayn and their Impact in the Islamic Words" The Journal of Asian and African Studies، XV: 1980.
- Voll, John Obert. Islam: Continuity and Change in the Modern World. Boulder، Colorado: West View. 1982.
- Voll، John Obert. "Muhammad Hayya Al – Sindi and Muhammad Ibn Abd Al – Wahhab: An Analysis of An Intellectual Group in eighteenth – Century Madina" Bulleten of the School of the Oriental and African Studies، 38: 1975.
- Winnett, F. – Reed، W. Ancient Records from North Arabia (Near and Middle East Series 6)، Toronto. 1937.
- Winnett, F. A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions، Toronto، University of Toronto. 1937.

الآثار والمواقع التاريخية

الكتب:

- ابن بطوطة، محمد بن عبدالله اللواتي. *رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*. ط١، (بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩١م).
- ابن حنبل، أحمد. *مسند أحمد، باب: مسند عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما*.
- ابن رسته، أحمد بن عمر. *الأعلاق النفيسة*، تحقيق: م. ج. دي غويه، (ليدن: مطبعة برايل، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).
- ابن سعد، محمد. *الطبقات الكبرى*، تصحيح: إدوارد سحو، (ليدن: مطبعة برايل، ١٣٢٥هـ/١٩١٩م).
- ابن صراي، حمد محمد. «الإبل في بلاد الشرق الأدنى وشبه الجزيرة العربية»، *بحوث تاريخية*، الإصدار الثالث. ط١، (الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، ١٤٢٠هـ).
- ابن موسى، علي. *وصف المدينة المنورة*، نشر: حمد الجاسر في: *رسائل في تاريخ المدينة*، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).
- أبو الحسن، حسين بن علي. *قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا*. ط١، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).
- أبو الحسن، حسين بن علي. *نقوش لحيانية من منطقة العلا: دراسة تحليلية مقارنة*. ط١، (الرياض: وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- إدريس، عبدالله. *مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ*، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤١٢هـ).
- الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، وآخرون. *مواقع أثرية وصور من حضارة العرب في المملكة العربية السعودية*. ط١، (الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).
- الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، وحسين بن علي أبو الحسن. *العلا ومدائن صالح: حضارة مدينتين*. ط١، (الرياض: دار القوافل، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢م).
- الأنصاري، عبدالقدوس. *آثار المدينة المنورة*. ط٣، (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).
- الأنصاري، عبدالقدوس. *بين التاريخ والآثار*. ط٢، (بيروت: ١٩٧١م).
- باشا، إبراهيم رفعت. *مرآة الحرمين*، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م).
- الباشا، حسن. *مدخل إلى الآثار الإسلامية*، (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٠م).
- بدوي، إسكندر. *تاريخ العمارة المصرية القديمة*، ترجمة: هيئة الآثار المصرية، مشروع المئة كتاب، رقم١٥، (القاهرة: ١٩٨٨م).
- البصري، عمر بن شبه النميري. *تاريخ المدينة المنورة*، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، (د.ت).
- بكر، سيد عبدالمجيد. *الملامح الجغرافية لدروب الحجيج*. ط١، (جدة: تهامة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).
- البليهشي، محمد صالح. *المدينة المنورة: سلسلة هذه بلادنا (٧)*. ط ١، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، د. ت).
- الجاسر، حمد. *في شمال غرب الجزيرة: نصوص، مشاهدات، انطباعات*. ط١، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).
- الجبوري، سهيلة ياسين. *أصول الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي*، (بغداد: مطبعة الأديب البغدادية، ١٩٧٧م).
- الجهني، سلامة رشدان. *متحف قمة المدينة: مجموعة نادرة من الصور التراثية القديمة*، (المدينة المنورة: ١٤٢٤هـ).
- الحارثي، ناصر بن علي. *أعمال الخشب المعمارية في الحجاز*، (الرياض: المهرجان الوطني للتراث والثقافة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).
- الحداد، محمد حمزة. *عمارة المسجد النبوي الشريف: دراسة جديدة في ضوء مشاهدات ابن عبد ربه الأندلسي*، بحوث تاريخية، الإصدار الأول، (الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، جامعة الملك سعود، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- الحربي، إبراهيم. *المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة العربية*، تحقيق: حمد الجاسر، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م).

- الحمد، غانم قدوري. *موازنة بين رسم المصحف والنقوش العربية القديمة*، (بيروت: مؤسسة المطبوعات العربية، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).
- الخطيب، عبدالكريم محمود. *ينبع: سلسلة هذه بلادنا (٣٩)*. ط١، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).
- الخلاف، حسان علي. *الإدارة المحلية الإسلامية: المحتسب*، (بيروت: ١٩٨٠م).
- الخياري، أحمد ياسين. *تاريخ معالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً*. ط٤، (جدة: دار القلم للطباعة والنشر، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م).
- دار الدائرة. *الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية: الآثار*. ط١، (الرياض: دار الدائرة للنشر والتوثيق، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).
- دحلان، أحمد زيني. *الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية*، (القاهرة: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م).
- الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. *نقوش الحجر النبطية*. ط١، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٩هـ).
- الذييب، سليمان بن عبدالرحمن. *نقوش جبل أم جذايذ النبطية: دراسة تحليلية*. ط١، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٢هـ).
- الراشد، سعد بن عبدالعزيز. *الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين: دراسات في تاريخ الجزيرة العربية*، الكتاب الثالث، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م).
- الراشد، سعد بن عبدالعزيز. *دراسات في الآثار الإسلامية المبكرة بالمدينة المنورة*. ط١، (الرياض: مؤسسة الحزيمي، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
- الراشد، سعد بن عبدالعزيز. *درب زبيدة طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة: دراسة تاريخية وحضارية وأثرية*. ط١، (الرياض: دار الوطن للنشر والإعلام، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- الراشد، سعد بن عبدالعزيز. *كتابات إسلامية غير منشورة من رواوة بالمدينة المنورة. ط١*، (الرياض: دار الوطن للنشر والإعلام، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- الراشد، سعد بن عبدالعزيز، وآخرون. *آثار منطقة المدينة المنورة*. ط١، (الرياض: وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
- رياض، هنري. *آثار الإسكندرية في العصر البطلمي*، (الإسكندرية: ١٩٨٨م).
- الريحاوي، عبدالقادر. *العمارة في الحضارة الإسلامية*. ط١، (جدة: جامعة الملك عبدالعزيز، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).
- السامرائي، خليل إبراهيم، وثائر محمد. *المظاهر الحضرية للمدينة المنورة في عصر النبوة (١ ـ ١١هـ)*. ط١، (بغداد: ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).
- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث. *سنن أبي داود، باب: في إتيان المدينة*.
- السخاوي، الإمام شمس الدين. *التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة*، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- السعيد، سعيد بن فايز. *العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية ومصر*، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
- السعيد، سعيد بن فايز، وآخرون. *آثار منطقة حائل: سلسلة آثار المملكة العربية السعودية*، (الرياض: وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
- السعيد، سعيد بن فايز، وعبدالله بن محمد المنيف. *حضارة الكتابة*. ط١، (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢٣هـ).
- السلمي، عرام بن الأصبغ. *أسماء جبال تهامة وسكانها*، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، (القاهرة: ١٣٧٣هـ).
- السمهودي، جمال الدين أبو المحاسن. *وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى*، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧١م).
- السناني، معتاد بن عبيد. *العيص: سلسلة هذه بلادنا (٢٦)*. ط٢، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).
- شافعي، فريد. *العمارة العربية الإسلامية: ماضيها وحاضرها ومستقبلها*، (الرياض: جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

- الشريف، أحمد إبراهيم. *دولة الرسول في المدينة*، (الكويت: دار البيان، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).
- الصفدي، هشام، وآخرون. *الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربي*. ط١، (الرياض: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
- الطايش، علي. *الفنون الزخرفية الإسلامية المبكرة في العصرين الأموي والعباسي*. ط٢، (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٣م).
- الطبري، محمد بن جرير. *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط٤، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م ـ ١٩٧١م).
- العباسي، أحمد بن عبدالحميد. *عمدة الأخبار في مدينة المختار*، تصحيح: الشيخ محمد الطيب الأنصاري، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، د. ت).
- عبدالغني، محمد إلياس. *المساجد الأثرية في المدينة المنورة*. ط٢، (المدينة المنورة: ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- عجلوني، أحمد. *حضارة الأنباط من خلال نقوشهم*. ط١، (البتراء: منشورات بيت الأنباط، ٢٠٠٣م).
- العريقي، منير عبدالجليل. *الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم: من ١٥٠٠ ق.م حتى ٦٠٠م*، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢م).
- علام، نعمت إسماعيل. *فنون الشرق الأوسط والعالم القديم*. ط١، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٩م).
- علي، أحمد رجب محمد. *المسجد النبوي بالمدينة المنورة ورسومه في الفن الإسلامي*. ط١، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
- العمري، آمال، وعلي الطايش. *العمارة في مصر الإسلامية في العصرين: الفاطمي والأيوبي*، (القاهرة: مكتبة الصفا والمروة، ١٩٩٦م).
- غبان، علي بن إبراهيم. *الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة*، الكتاب الثاني، مدخل عام. ط١، (الرياض: مطابع سفير، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
- غبان، علي بن إبراهيم. *درب البكرة طريق التجارة العربية القديمة بين الحجر والبتراء: بحوث ودراسات ندوة الآثار في المملكة العربية السعودية: حمايتها والمحافظة عليها*، (الرياض: وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
- غبان، علي بن إبراهيم. *نقشان من شبه جزيرة سيناء يؤرخان لعمارة السلطان قانصوه الغوري لطريق الحج المصري والأماكن المقدسة بالحجاز*، (الرياض: جامعة الملك سعود، مركز البحوث بكلية الآداب، ١٤١١هـ/١٩٩١م).
- الفعر، محمد بن فهد. *تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري*، (جدة: تهامة للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).
- فكري، أحمد. *مساجد القاهرة ومدارسها: المدخل*، (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦١م).
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. *القاموس المحيط*. ط٢، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
- قادوس، عزت زكي حامد. *آثار العالم العربي في العصرين: اليوناني والروماني، القسم الآسيوي*. ط١، (الإسكندرية: ١٩٩٩م).
- المحيس، زيدون. *هندسة المياه والري عند الأنباط العرب*. ط ١، (البتراء: منشورات بيت الأنباط، ٢٠٠٢م).
- مصطفى، صالح لمعي. *المدينة المنورة: تطورها العمراني وتراثها المعماري*، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١م).
- المقدسي، محمد بن أحمد. *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، (ليدن: برايل، ١٩٠٦م).
- نصيف، عبدالله بن آدم صالح. *العلا: دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي*. ط١، (الرياض: مطابع الخالد للأوفست، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).
- النعمان، خالد بن محمد إبراهيم. *تاريخ أسواق المدينة في الجاهلية والإسلام: دراسات حول المدينة*. ط١، (المدينة المنورة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).
- *نفائس بيت القرآن*. معرض مؤقت مقام في دار الآثار الإسلامية بالكويت، (الكويت: مطابع اليقظة، رمضان ١٤٠٧هـ/مايو ١٩٧٨م).
- نويصر، حسني محمد. *الآثار الإسلامية*، (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، ١٩٩٦م).
- النيسابوري، محمد بن عبدالله الحاكم. *المستدرك على الصحيحين، باب: ذكر مناقب الحارث بن هشام المخزومي*.
- وزارة الأوقاف. *أسبوع العناية بالمساجد بين إنجازات الحاضر وتطلعات المستقبل*، (المدينة المنورة: ١٤١٣هـ).

- وزارة الشؤون البلدية والقروية. *التراث العمراني في المملكة العربية السعودية*، (الرياض: وكالة الوزارة لتخطيط المدن، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- وزارة المعارف. *دليل المتاحف بالمملكة العربية السعودية*، (الرياض: وكالة الآثار والمتاحف، ١٤١٢هـ/٢٠٠٠م).
- وزارة المعارف. *مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية*. ط٢، (الرياض: إدارة الآثار والمتاحف، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).
- الوكيل، محمد السيد. *المسجد النبوي عبر التاريخ*. ط١، (جدة: ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م).
- يحيى، سوسن سليمان. *آثارنا الإسلامية: العمارة في صدر الإسلام والعصر العباسي الأول*، (القاهرة: دار نهضة الشرق، ٢٠٠٠م).
- يحيى، لطفي عبدالوهاب. *اليونان: مقدمة في التاريخ الحضاري*، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٩م).

الرسائل العلمية:

- السليم، فهد بن سليمان بن حمد. «الزخارف المعمارية النبطية: التصنيف والمعاني»، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم الآثار والمتاحف، (الرياض: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
- الشمري، حصة. «تخطيط المدينة المنورة في العهد النبوي والخلافة الراشدة»، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم الآثار والمتاحف، (الرياض: ١٤٢٤/١٤٢٥هـ).

الدوريات والصحف والتقارير:

- إبراهيم، محمد عبدالرحمن، وآخرون. «تقرير حفرية المابيات: الموسم الثاني ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).
- إبراهيم، محمد عبدالرحمن، وآخرون. «تقرير مبدئي عن نتائج الاستكشافات الأثرية في موقع المابيات الإسلامي: الموسم الأول ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٠٥هـ/١٩٨٦م).
- أبو الحسن، حسين بن علي. «تقرير مبدئي عن المسح الأثري لموقع أم درج بمحافظة العلا «، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).
- انجراهام، مايكل، وآخرون. «التقرير المبدئي عن مسح المنطقة الشمالية الغربية»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).
- البراهيم، محمد، وضيف الله الطلحي. «تقرير مبدئي عن حفرية الحجر: الموسم الأول ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م).
- البراهيم، محمد، وضيف الله الطلحي. «تقرير مبدئي عن حفرية الحجر: الموسم الثاني ١٤٠٨هـ»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م).
- بودن، جارث. «موقع خيف الزهرة وطبيعة السيادة الدادانية بواحة العلا «، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
- بيساك، ج. ك. «أساليب نحت الصخور في مدائن صالح: المشكلات والأساليب: النتائج الأولية»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- الدايل، خالد، وآخرون. «التقرير المبدئي لمسح درب زبيدة: المرحلة الثالثة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
- الراشد، سعد بن عبدالعزيز. «الربذة: تاريخ وحضارة، الأثر والحضارة»، *المنهل*، دار المنهل للصحافة والطباعة والنشر المحدودة، (جدة: شوال ١٤٠٧هـ/مايو ١٩٨٧م).
- الراشد، سعد بن عبدالعزيز. «برك المياه على طريق الحج من العراق إلى مكة ونظائرها في الأقطار الأخرى»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
- الراشد، سعد بن عبدالعزيز. «نقوش إسلامية مؤرخة من الصويدرة»، *الدارة*، دارة الملك عبدالعزيز، (الرياض: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).
- الزهراني، عوض، وآخرون. «تقرير مبدئي عن مسح منطقة المدينة المنورة: الموسم ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

- الزيلعي، أحمد بن عمر. «نقش تأسيسي من حارة الأغوات بالمدينة المنورة مؤرخ في سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦ ـ ١٣٠٧م»، *دراسات في الآثار*، الكتاب الأول، تحرير: عبدالرحمن بن محمد الطيب الأنصاري، وآخرون، (الرياض: جامعة الملك سعود، قسم الآثار والمتاحف، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
- السعيد، سعيد بن فايز. «حملة الملك البابلي نبونيد على شمال غرب الجزيرة العربية»، *بحوث تاريخية*، (الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
- السعيد، سعيد بن فايز. «دراسة تحليلية لنقوش لحيانية جديدة»، *مجلة جامعة الملك سعود*، (الرياض: ٢٠٠١م).
- السعيد، سعيد بن فايز. «نقوش لحيانية غير منشورة من المتحف الوطني»، *نشرة بحثية (١٤)*. ط١ (الرياض: جامعة الملك سعود، كلية اللغات والترجمة، مركز البحوث، ٢٠٠٠م).
- الشويش، سعود بن فهد. «تقرير عن آثار وادي النقمي بالمدينة المنورة ١٤١٧هـ»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- الطلحي، ضيف الله. «تقرير مبدئي عن نتائج حفرية الحجر: الموسم الرابع ١٤١١هـ/١٩٩٠م»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م).
- علي، جمال الدين صالح سراج. «تقرير عن نتائج حفرية الخريبة الجنوبية بالحجر: الموسم الثالث ١٤١٠هـ»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).
- العلي، صالح أحمد. «منازل الطريق بين المدينة ومكة»، *الدارة*، دارة الملك عبدالعزيز، (الرياض: ١٩٧٧/١٩٧٨م).
- الغزي، عبدالعزيز بن سعود. «سِمات مشتركة بين فخار وسط الجزيرة العربية وشمالها الغربي»، *العصور*، دار المريخ للنشر، (لندن: ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- كباوي، عبدالرحمن، وآخرون. «حصر وتسجيل الرسوم والنقوش الصخرية: الموسم الرابع ١٤٠٨هـ»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م).
- كسناوي، أحمد، وآخرون. «تقرير مبدئي عن مسح مناطق التعدين القديمة شمال غرب الحجاز ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).
- مؤنس، حسين. «المساجد»، *عالم المعرفة*، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآثار، (الكويت: صفر ـ ربيع الأول ١٤٠١هـ/يناير ١٩٨١م).
- مدني، السيد عبيد. «آطام المدينة المنورة»، *مجلة كلية الآداب*، جامعة الرياض، (الرياض: ١٣٩٣هـ/١٩٧٣/١٩٧٤م).
- المريخي، مشلح بن كميخ. «رؤية جديدة لتفسير ظاهرة الكتابات المعكوسة في الخط العربي»، *الدارة*، دارة الملك عبدالعزيز، (الرياض: ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).
- هيلي، جون. «ملاحظات حول نقوش مدائن صالح»، *أطلال*، وكالة الآثار والمتاحف، (الرياض: وزارة المعارف، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

المراجع الأجنبية:

- Al-Ansary, A. «A Critical and Comparative Study of Lihyanite Personal Names». Ph.D. Thesis, Leeds: University of Leeds, 1966.
- Al-Mazroo, Hamid, I. and Abdallah A. Nasif, « New Lihyanite Sculptures from Al-Ula , Saudi Arabia «. Ages, vol.7, part 2, 1992.
- Altheim, F. - Stiehl, R., Die Araber in der Alten Welt, Band 1, Berlin: 1964.
- Caskel, W. Lihyan und Lihyanisch. Kölnö, Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen,Geis teswissenschaften, Heft 4, 1954.
- Doughty, Charles. Docoments épigraphiqus recueillis dans le Nord de l'Aabie , Paris: 1884.
- Garbini, G.. Iscrizioni sudarabiche, vol. I. Iscrizioni minee. Napoli: Pubblicazioni del Seminario di Semitistica, Ricerche 10, 1974.
- Healey, J. The Nabataean Tomb Inscriptions of Mda'in Salih, Oxford, Journal of Semitic Studies, Supplement 1. 1993.

- Huber, Ch. Voyage Arabie Centrale (1878-1882). Paris: 1885.
- Jaussen, A.- Savignac, R. Mission archéologique en Arabie, Vols. I-II. Paris, Publications de la Société Française des Fouilles Archéologiques, 1909-1914.
- Maragten, M. “Typen altsuedarabischer altaere”. Wiesbaden, FS. W.W. Mueller, 1994.
- Nasif, A. A. Al-‘Ula: An Historical and Archaeological Survey with Special Reference to its Irrigation System, Riydh: King Saud University, 1988.
- Parr, P.J, G.L, Harding and J.E.Dayton.“Preliminary Survey in N. W. Arabia, 1968”. Bulletin of the Institute of Archaeology of the University of London, 10, 1971- 1972.
- Parr, P.J. „ Aspects of the Archaeology of North-West Arabia in the First Millennium BC”. In: T. Fahd (ed.). Leiden: L´Arabie preislamique et son Environement Historique et Culturel., 1987.
- Pritchard, J. B. (Edt). The Ancient Near East, An Anthology of Texts and Pictures. Princeton: Princeton University press, 1958.
- Schmitt-Korte Karl, «Die Nabatäer in Spiegel der Münzen, in: Betra Königin der Weihrauchstrasse», ed. Manfred Linder und John Zeitler, Nürnberg, Naturhistorische Geselschaft Nürnberg E.V. Abteilung für Archäologie die Auslandes 1990.
- Sima, A. Die Lihyanischen Inschriften von al-‘Udayb (Saudi Arabien), Epigraphische Forschungen auf der arabischen Halbinsel 1, Berlin, Deutsches Archaeologisches Institut. 1999.
- Smith , W. S. The Art and Architecture of Ancient Egypt , 2ed., London, 1965.
- Winnett, F. and W. Reed, Ancient Records from North Arabia Near and Middle East Series 6, Toronto, University of Toronto Press, 1970.
- Zangenberg Jürgen, “Nabatäische Bestattungssitten”, in: Betra Königin der Weihrauchstrasse, ed. Manfred Linder und John Zeitler, Nürnberg: Naturhistorische Geselschaft Nürnberg E.V. Abteilung für Archäologie die Auslandes, 1990.

الأنماط الاجتماعية والعادات والتقاليد

الكتب:

- ابن سليم، أحمد سعيد. *المدينة المنورة في القرن الرابع الهجري*، (القاهرة: دار المنار، ١٤١٤هـ).
- أبو زيد، عبدالعزيز عمر. *حكايات العطارين في جدة القديمة: دراسة تاريخية وصور اجتماعية للمعتقدات الشعبية*، (جدة: ١٤١٦هـ).
- أبو عودة، علي أحمد، وعبد العزيز سليمان الحازمي. *مهد الذهب: دراسة إقليمية*، (المدينة: نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٥هـ).
- الأنصاري، ناجي محمد حسن. *التعتيمة: من مظاهر الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة*، (المدينة المنورة: نادي المدينة الأدبي، ١٤٢٢هـ).
- البليشي، محمد صالح. *المدينة المنورة: سلسلة هذه بلادنا*، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، د.ت).
- البليشي، محمد صالح. *بدر: سلسلة هذه بلادنا*، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٣هـ).
- *الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية*، تحرير: سعد عبدالله الصويان، (الرياض: دار الدائرة للنشر، ١٤٢٠هـ).
- الحصين، محمد، وعبد الحكيم هارون. *صور من التراث العمراني*، (١٤٢٣هـ).
- الخزرجي، عبدالله فرج الزامل. *المدينة المنورة: عاداتها وتقاليدها منذ عام ٩٢٥ حتى عام ١٤٠٩هـ*، (جدة: تهامة للنشر، ١٤١١هـ).
- الخطيب، عبدالكريم. *ينبع: سلسلة هذه بلادنا*، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٣ هـ).
- الخياري، السيد ياسين أحمد. *صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة*. ط٢، (جدة: دار العلم، ١٤١٥هـ).
- الخياري، السيد ياسين أحمد. *صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة*. ط١، (جدة: دار العلم، ١٤١٣هـ).
- رضا، فؤاد علي. *الأمثال الشعبية في أم القرى وما حولها*، (مكة المكرمة: ١٤١٥هـ).
- ركن، سمر محمد عبدالله. *الطب الشعبي في المجتمع السعودي*، (الرياض: العبيكان، ١٤١٨هـ).
- السناني، معتاد عبيد. *العيص: سلسلة هذه بلادنا*، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٧هـ).
- الشلالي، صيفي عيسى. *محافظة خيبر*، (خيبر: جمعية البر الخيرية في محافظة خيبر، ١٤٢٣هـ).
- عبدالكريم، أحمد عبدالله. *هذه العلا بين الماضي والحاضر*، (العلا: الجمعية التعاونية متعددة الأغراض، ١٤١٣هـ).
- عفيفي، محمد كامل. *الألعاب الشعبية في المملكة العربية السعودية بوحي من الجنادرية*، (الرياض: المهرجان الوطني للتراث والثقافة، ١٤١٢هـ).
- مغربي، محمد علي. *ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز*، (جدة: دار العلم، ١٤٠٥هـ).
- نصر، ثريا سيد. *تاريخ أزياء الشعوب*، (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٨م).
- نصيف، عبدالله آدم. *العلا والحجر: سلسلة هذه بلادنا*، (الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤١٨هـ).
- نصيف، عبدالله آدم. *العلا: دراسة في التراث الحضاري والاجتماعي*، (الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤١٦هـ).
- الوشمي، أحمد مساعد. *حلي المرأة في الشعر الشعبي*، (الرياض: المهرجان الوطني للتراث والثقافة، د.ت).

التصميم والإنتاج الفني



www.attariq.com

الطباعة



www.timesprinters.com